

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام — الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — المهاجرين — الاستاذ عمر افندي الطيبي

في شرقي الاردن — عمان — الاستاذ يعقوب عودات

في القدس الشريف ويافا وحيفا — الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد اصحاب مكتبة فلسطين العلمية

في حمص — سوريا — الخوري عيسى اسعد

في الناصرة وفلسطين — القس فريد عوده

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية

في صيدا — نقولا افندي جريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه — السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين — Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا — Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة		عن سنتين
١٠٠	في القطر المصري والسودان	١٨٠
١٢٠	في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»	٢٠٠
١٤٠	العراق «ببريد السيارة»	٢٣٠
١٤٠	اي ٧ دولارات لاميركا الشمالية	٢٤٠
١٢٠	اي ٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الارجنتين	٢٠٠

ملاحظة { [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



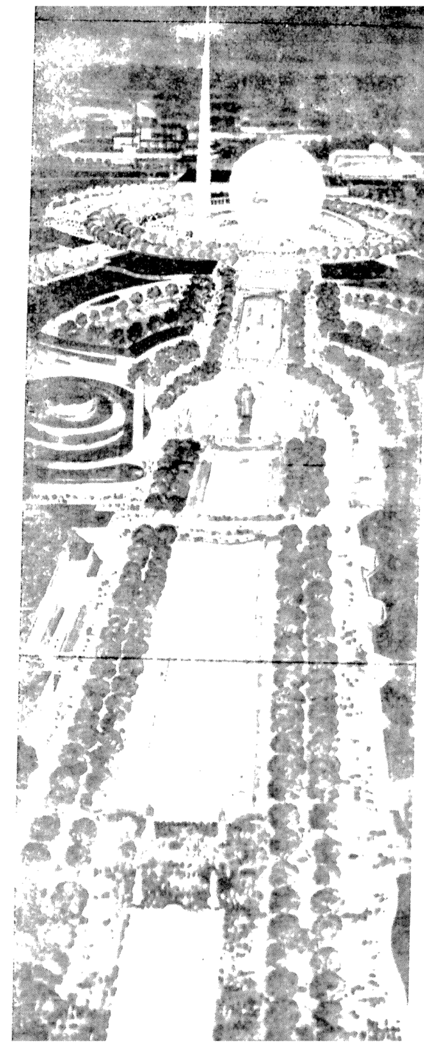
رحلات منظمة فخمة وسريعة
الاسكندرية جنوا مارسيليا وبالعكس
على البواخر العظيمة
النيل و كوثر
مارسيليا
جنوا
الاسكندرية
مواعيد الابحار لشه
يونيو من الاسكندر
النيل — ١ ، ١٥ ، ٩
كوثر — ٨ ، ٢٢
شركة مصر للملاحة البحرية
احدى مؤسسا
بنك مصر
اطلبوا الاستعلامات وتذاكر السفر من شركة مصر للسياحة ٤٨ شارع ابراهيم باشا بالقاهرة تليفون ١٩٦٠

هذه المصانع المصرية العظيمة!



شركة مصر للغزل والنسج

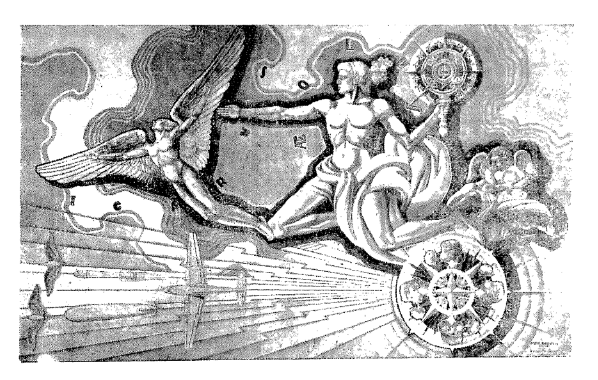
احدى مؤسسات بنك مصر



صورة تمثل « الممشى العمومي » الممتدّ من دار السلام الى « الكرة » و « التريلون » في معرض نيويورك وقد حفّت بهِ على الجانبين المتنزهات والمباني وقام في منتصفهِ تمثال جورج وشنطن (راجع مقال عجائب معرض نيويورك [illegible] ١٠٧ [illegible])

العلم يكافح المرض

صورة على جدار مبنى « الطب والصحة » بمعرض نيويورك



قوة المواصلات — رمز الماضي وأمل المستقبل

صورة على جدار مبني « الفلزات » بمعرض نيويورك

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الخامس والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٣٩ — ١١ ربيع ثاني سنة ١٣٥٨

الطبيب يستشير الطبيعي

من أهم بواعث الارتقاء العلمي ، اتصال علمٍ بعلمٍ ، فعلم النفس اتصل بعلم وظائف الاعضاء ففهم الاساس العصبيّ للفكر والانفعال . وبعلم الغدد فأدركنا من خفايا الشخصية ما كنا نجهل . والطبيعة اتصلت بالكيمياء فخرج علم الكيمياء الطبيعية الذي يتناول بناء المادة الدقيق ، وتوزيع الذرات والجزيئات في السوائل وشحناتها الكهربائية . والفلك اتصل بالطبيعة والرياضة العالية ، فطلع علينا العلماء بالبحوث الدقيقة في الضوء ، وصلة المادة بالطاقة ، ومصدر الحرارة في النجوم ، وشكل الكون ومبدئهِ ومنتهاه . والطبيعة اتصلت بعلم الاحياء فاذا نحن في علم الكيمياءِ الحيوية امام اساس لفهم المادة الحية في مظاهرها الاساسية

اما الطبيب فكثيراً ما اعتمد على الكيميائي في تركيب العقاقير وكشف الجديد منها ، وعلى الطبيعي في الحصول على الادوات اللازمة للتشخيص والاشعة الشافية . وفي الميدانين ، تكشف الآن مواد جديدة (اذكر السلفانيلاميد) وتصنع أجهزة جديدة (اذكر المصورة الكهربائية لخفقان القلب) تسير بعلوم الطب الى عهد نرجو ان يغدو فيهِ الطبيب قادراً على فهم كل مرضٍ في مبدئهِ ومعالجتهِ قبل ان يستفحل أذاه . ومدى التقدم نحو هذا الهدف البعيد مرهون بالتعاون الفعّال بين رجال الطب وأقطاب العلوم المتصلة بهِ

كان من أثر استنباط المجهر وكشف الاشعة السينية ، ان امتدَّ بصر الباحث الطبي الى داخل الانساج البشرية وخلاياها . ولكننا على عتبة عهدٍ ، يصبح فيهِ الطبيب ومعاونوه قادرين

على الاعتماد على أجهزة أدق وأغرب من المجهر وأنبوب الاشعة . فثمة الآن أجهزة كهربائية تمكنهم من الاصغاء الى نبض الحياة في الخلايا، وقياس تيارات الكهرباء في القلب والدماغ والعصب، مع ان فهمنا لهذه التيارات لا يزال في مهدهِ . ثم ان الباحثين يعنون الآن باتقان الاساليب لتوليد تيارات من الكهربات ، تكون أفعل من اشعاع الراديوم ، وأنابيب الأشعة السينية في علاج النواحي الخبيثة في باطن الجسم

ان بعض ما يؤديه علم الطبيعة للطب ، من قبيل ما يؤديهِ المستنبط الصناع في معمل من المعامل. اي انهُ محصور في عمل خاص ٍ لا يعرف الطبيب كيف ينهض بهِ فيعهد بهِ الى الباحث الطبيعي . كذلك الباحث الصناعي ، يتجه بطبيعتهِ الى حلّ مسألة خاصة تعترض سبيل الصناع. فاذا توصل الى حل المشكل قضى لبانتهُ من البحث وانتقل منهُ الى آخر. اما الباحث العلمي ، فغايته توسيع نطاق المعرفة بكشف غوامض الطبيعة والحياة . وهذا الكشف يعود عاجلاً أم آجلاً على الصناعات بخير عميم . كذلك في العلاقة بين الطبيعة والطب ، فالاشعة السينية لم تكشف خاصة لاستعمالها في التشخيص والعلاج . ولا الراديوم . ولكن مضى على الاثنين أكثر من أربعين سنة في خدمة الصحة ومكافحة العلل .

وليس من المبالغة ان نقول — استناداً الى فصل للاستاذ هريسون في مجلة الاتلنتيك الشهرية وعنهُ نلخص — ان في علم الطبيعة الآن مكتشفات ، لا تزال في مهدها ، ولكنها قد تعود على علوم الطب بفائدة أعظم من الفائدة التي جنتها من كشف الاشعة السينية والراديوم

عشرات الألوف من الناس يموتون بالسرطان كل سنة . ولكن الأمل معقود على منع هذه الوفيات — او جلها على الأقل . ففي سنة ١٩٣٤ عولج ثلاثة أرباع المصابين بالسرطان في مستشفيات انكلترا ، بالاشعاع المنطلق من أنابيب الاشعة السينية او من الراديوم ، ولو كان في الوسع توجيه الاشعاع بحيث تتأثر بهِ الخلايا السرطانية دون الخلايا السليمة لكان العلاج أنجع . ولكن توصيل الاشعاع الى خلايا السرطان الباطني ، يقتضي اختراقهُ لخلايا الانساج السليمة ، فيفتك بعدد غير يسير منها. ولذلك فالحاجة شديدة الى أشعة أشد نفوذاً واختراقاً للانساج من الاشعة المتاحة للاطباء الآن

حتى لو كان الراديوم وافياً بالحاجة من هذا القبيل ، لما كفى كل الراديوم في العالم لعلاج جميع المصابين . فالمتاح منهُ للعلاج الآن أكثر من رطلين قليلاً — ثمنهما الآن نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات . ولو جمع هذا القدر من الراديوم في مكان واحد ، لما كفى اشعاعهُ لعلاج بعض الأورام السرطانية الدفينة في اعماق الانساج الباطنية في رجلٍ واحد

ولذلك يغتبط كل محب للانسانية متى علم ان هناك الآن أنابيب ضخمة لتوليد أشعة سينية أشد نفوذاً من خلال الانساج ، من أشعة الراديوم

ولاطلاق أشعة سينية من هذا القبيل على نوام سرطانية دفينة ، نحتاج الى أنابيب تستطيع ان تتحمل ضغطاً كهربائيًّا أعلى جدًّا من الضغط الذي تتحمله الانابيب المستعملة في تصوير الاسنان والعظام والقرح ، لأن قوة الاشعة السينية وقدرتها على النفوذ تزدادان بازدياد الضغط الكهربائي الذي يولدها . والنواحي السرطانية التي على سطح الجسم ، او قليلة الغور فيه ، تمكن معالجتها بأشعة سينية مولدة بضغط كهربائي يتفاوت من ١٠٠ الف الى ٢٠٠ الف ڤولط . أما الاشعة الرئيسية المنطلقة من الراديوم ، فتعدل في قوة نفوذها ، اشعة سينية متولدة ضغط كهربائي قدره نحو مليوني ڤولط . ولا يخفى ان علماء الطبيعة المعنيين بتهشيم الذرَّة يستعدُّون لصنع انابيب تتحمل ضغط خمسة ملايين الى عشرة ملايين ڤولط — بعد أن فازوا بصنع انابيب تتحمل ضغط ثلاثة ملايين ڤولط — فعلماء الطب يرقبون بعين ساهرة اعمال زملائهم الطبيعيين

وفي بعض المستشفيات الاميركية الآن انابيب تتحمل ضغط مليون ڤولط في توليد الاشعة السينية فيها ، وكلٌّ منها يولد قدراً من الاشعة يعدل القدر المنطلق من رطلين من الراديوم ، ولكن الفرق بين نفقات العلاج بالانبوب المولد للأشعة السينية ، ونفقات العلاج بالراديوم — على اساس مقدار واحد من الاشعة في الحالين — كالفرق بين ستة قروش وعشرين جنيهاً ، وبعض هذه الأنابيب يبلغ في علوه نحو اثنتي عشرة قدماً

وفي الوسع ان يستعمل الانبوب الذي صنع لتهشيم الذرَّة ، القادر على تحمّل ضغط ثلاثة ملايين ڤولط ، لتوليد اشعة تستعمل في علاج النواحي السرطانية . فهذا الانبوب الضخم لا يولّد قدراً كبيراً من الاشعة فحسب ، بل يولّد ايضاً اشعة اشدّ نفوذاً من اشعة الراديوم ، فتوصيلها الى النواحي الدفينة في باطن الانسجة مستطاع ، فتقصر مدة العلاج . اما نفقة انشائه واستعماله فلا تذكر بالقياس الى نفقة قدر من الراديوم لا يولّد ما يولّده هذا الانبوب المصنوع بيدي الطبيعي ولهُ اولاً . وقد يحسُّ القارئ بشيء من الخطر عند ما تذكر الملايين من الڤولطات امامهُ لأنهُ يعلم ان التيار الكهربائي العالي الضغط يحدث صدمة عنيفة في الجسم ، ولكن العلماء صنعوا من الاساليب والوسائل ما يمنع حدوث الصدمة عند استعمال التيار المنطلق من هذه الانابيب الضخمة ، وجميع الاجهزة الخاصة بها توضع في حجرة على حدة ، ولا يتصل منها بالمريض الا جهاز عادي ، حالة ان المريض مستلقٍ على فراش وثير في حجرة حسنة الزينة .

ويعتقد بعض الاطباء انهُ اذا استطاع علماء الطبيعة ان يولّدوا تيارات من الكهيربات تنطلق بسرعة وافية ، فقد تكون افعل من الاشعة السينية او مقذوفات الراديوم في علاج السرطان . وذلك بانهُ اذا زادت سرعة الكهيرب ، قلّ اضرارهُ بخلايا الانسجة التي يخترقها . لأنهُ يكون حينئذٍ في منزلة رصاصة منطلقة بسرعة عظيمة فتخترق لوحاً صانعة فيهِ ثقباً صغيراً غير مشعَّب المحيط . حالة ان الرصاصة البطيئة تخترق اللوح محدثة فيهِ ثقباً تحيط بهِ كسور وشعوث

ومن هنا يقولون ان استعمال الكهيربات السريعة الانطلاق، لعلاج النواحي السرطانية الدفينة يكون أقل اضراراً بالانساج التي تخترقها الكهيربات الى النواحي الدفينة من انواع الاشعاع الاخرى . الاَّ ان توليد هذه التيارات يقتضي ضغوطاً كهربائية عالية، وهذا مرهون الآن بتقدم علماء الطبيعة المعنيين بتهشيم الذرَّة وبقدرتهم على صنع أنابيب تتحمل ضغط عشرة ملايين ڤولط . وعندئذٍ يتاح للاطباء وللمهندسين ان يتناولوا ما تمَّ على يدي علماء الذرَّة وتحويله الى أسلوب من اساليب العلاج الناجع

الراديوم أشهر العناصر المشعة . ولكن ذرَّتهُ واحدة فقط من أربعين نوعاً من الذرَّات تتصف بعدم استقرار بنائها وتحفزها للانفجار واطلاق الاشعة. وقد استعمل الراديوم في معالجة بعض النواحي الخبيثة . ولكن فعلهُ العجيب أصبح مقروناً بمعانٍ سحرية في عالم العلاج، فكثرت في السوق أدوية وأغذية توصف بأنها تحتوي على الراديوم وهي شديدة الخطر اذا كانت تحتوي على قليل جدًّا من أملاحهِ ، ومعظمها خال منهُ فلا فائدة منهُ

ذلك بأن الراديوم اذا استقرَّ في العظام كان سمًّا زعافاً . وبعض الذين شربوا ماء فيهِ « راديوم » لم يلبثوا طويلاً حتى شعروا أولاً بتحسن في صحتهم لأن الراديوم يحرك المراكز التي تولد كريات الدم، ثم بعد قليل عندما استقرَّت ذرَّات الراديوم في العظام وأخذت تطلق قذائفها على خلايا الانساج المختلفة ، بدأ فعل التسمم المنتهي الى الموت — لولا مداركة العلم لبعضهم

وتفسير ذلك أن الراديوم من الناحية الكيميائية شبيه بالكلسيوم الذي تصنع منهُ العظام . فاذا دار الراديوم في الدم رسبهُ الدم حيث يرسّب الكلسيوم لانهُ لا يفرّق بينهما . فاذا استقرَّت ذرَّات الراديوم في العظام، بدأت تطلق قذائفها حتى تنخر العظام وتنحلّ. ولا ينقضي ضرر الراديوم من هذا القبيل بانفجار ذراتهِ وانطلاق اشعاعها ، لأنها تتحول بعد ذلك الى ذرَّة رادون وهذه تنفجر في وقتها فتطلق قذائفها وتتحول الى ذرَّة مشعة أخرى الى ان تخبو نارها بتحولها الى رصاص . ولا فائدة في القول ان ذرَّات الراديوم لا تلبث ان تتحوَّل بالطريقة المتقدمة ، الى ذرَّات غير مشعة . فاذا صبر الجسم على ذلك فنجاتهُ محتملة . ذلك انهُ بعد انقضاء ١٦٩٠ سنة لا يكون الاَّ نصف ذرَّات الراديوم قد تحول الى رصاص . فالنجاة لا تكون الاَّ باخراج الذرَّات من الجسم . والاَّ فالموت محتوم وما أشنعهُ موتاً

ولذلك ابتدع العلم الحديث طريقة لجرف ذرات الراديوم من العظام . وذلك بأن يعالج المصاب على نحو يجعل عظامهُ تفقد كلسيومها . فتفقد جانباً من الراديوم معهُ، ثم اذا مالت عظامه الى اللين بفقد الكلسيوم، يعطى كلسيوماً نقيًّا لبناء عظامهِ بناء جديداً. فاذا عاد الى حالتهِ السوية، أعيد العمل مرة وأخرى الى ان تخرج ذرات الراديوم من الجسم . وغنيٌّ عن البيان ان المصاب يجب ان يلتزم الفراش في أثناء العلاج

الاّ ان هذا الاسلوب من العلاج يحتاج الى معاونة وثيقة بين الطبيب والطبيعي . ونصيب الطبيعي فيهِ ، ان يأتي بأجهزتهِ الدقيقة التي تمكنهُ من مقياس مقدار ما في الجسم من الراديوم ، في كل مرحلة من مراحل العلاج ، ما خرج منهُ وما بقي فيهِ ، وكيف خرج ما خرج ، وأين بقي ما بقي ، وقد استنبط الطبيعي لذلك أجهزة شديدة الاحساس دقيقة القياس ، تمكنهُ من معرفة ما يريد معرفتهُ والجهاز على بعد ذراع من المريض !

وأصل هذه الأجهزة انها صنعت لدراسة الذرَّة، ثم ظهرت فائدتها الطبية . وليس يخفى ما يخالج المصاب من الاغتباط عند ما يجيئهُ الطبيعي بعد علاج طال ، وينبئهُ بأن الراديوم الذي كان على وشك ان ينخر عظامهُ او يحلها ويفتك بأنساجه ، قد زال من جسمهِ!

كان الرأي السائد الى عهد قريب ان الطبيعة فرغت من افراغ مادتها في ذرات عناصرها الاثنين والتسعين ، في زمن متغلغل في جوف التاريخ الجولوجي،ولكن علماء الطبيعة استحدثوا في السنوات الاخيرة من الوسائل ما يمكنهم من صنع ذرات جديدة من الذرات القديمة كتحول البريليوم الى كربون بالتقاط احد جسيمات الفا المسددة اليهِ واطلاق نوترون . وتحويل النتروجين الى اكسجين بالتقاط النتروجين احد جسيمات الفا وطرح بروتون واحد . وغيرها . ولسنا نملُّ تكرار القول بأن المقدار المتحول من عنصر ما الى آخر يسير جدًّا ، بل هو على الغالب اقل من ان يكشف بالكواشف الكيميائية . ولولا ابتداع طرق عجيبة في دقتها لاحصاء الذرات القليلة المتحولة لتعذر على الباحثين ان يتبينوا نجاحهم في عملهم

وهذا التحول من ذرَّة عنصر الى ذرَّة عنصر آخر تحويل دائم . ولكن الباحثين توصلوا في بضع السنوات الاخيرة الى احداث ضرب آخر من التحويل نصفهُ « بالتحويل غير الدائم» لأن الذرَّة التي تنشأ من ذرَّات اخرى باطلاق احدى القذائف عليها — من بروتونات أو نوترونات أو دوتونات أو غيرها — ليست مستقرة التركيب ، وقد تبقى الذرة الجديدة على ما هي ساعة أو يوماً أو بضعة ايام أو شهراً من الزمان ، وفي هذه الحالة لا يستطيع الباحث ان يميزها عن الذرات الطبيعية التي تشبهها في التركيب ، ولكن اذا جاء اجلها انفجرت وانطلقت منها قذائف هي من قبيل الاشعاع المنطلق من العناصر المشعة بالطبيعة كالراديوم وأشباههِ.ولذلك وصفت هذه العناصر بالعناصر المشعة اشعاعاً صناعيًّا . أي ان علماء الطبيعة في هذا العصر استطاعوا ان يولدوا عناصر مشعة من عناصر ساكنة مستقرة غير مشعة كالنحاس والكربون فهي أشبه ما يكون بمقعد مشلول حقنتهُ بعقار عجيب فقفز من سريره وأصر على الاشتراك في حلبة السباق . كذلك صنعوا الصوديوم المشع باطلاق الدوتونات على الصوديوم المألوف . ومدى حياة الصوديوم المشع خمس عشرة ساعة . ويمتاز على الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ أشعة غما

حالة ان الراديوم يقذف كذلك جسيمات الفا وبيتا ، واذن فاستعمال الصوديوم المشع في الطب قد يكون اسهل من استعمال الراديوم

ومن العناصر التي حولت مشعة بالاجهزة الحديثة عنصر اليود ، وقد جربت تجارب في جامعة هارفرد افضت الى امكان الاستغناء عن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية في الغدة الدرقية ، باستعمال اليود المشع . ذلك بأنهُ اذا حقن اليود المشع في الدم سار بطبيعته الى مستودعه الطبيعي في الجسم وهو الغدة الدرقية . وقد اكتشفت هذه الحقيقة باجراء التجارب على الارانب اولاً . فاذا بلغ اليود المشع الغدة الدرقية جعل يطلق اشعاعه منها الى حين — لأن ذراته لا تبقى طويلاً وهي مشعة — فيفعل فيها فعل ابر مغروزة فيها محتوية على الراديوم

والمقدار اللازم من اليود المشع لعلاج من هذا القبيل ، يمكن توليدهُ في احد الاجهزة الحديثة المستعملة لتوليد العناصر المشعة من العناصر غير المشعة ، ونفقة توليدهِ لا تتعدَّى بضعة قروش . فهو ينافس الراديوم من حيث الفعل والنفقة معاً ، واذا ما انطلق الاشعاع من ذرَّة اليود المشع تحوَّلت الى ذرَّة كسينون وهو عنصر غازي غير فعَّال لا يضرُّ ما زال في الجسم ثم يُفرز

وعلاوة على هذا يمكن استعمال ذرَّات العناصر المشعة اشعاعاً صناعيًّا للتجسس على الذرات التي تشبهها . فذرَّات اليود المشع لا تختلف عن ذرَّات اليود ، الاَّ في ان قلبها يتأجج ولا يلبث ان ينفجر فيحدث اشعاعاً . ولذلك اذا مزج قليل من ذرَّات اليود المشع بذرَّات اليود المألوف وتناول المرء هذا المزيج في دواء ، استطاع الطبيب والباحث ان يضعاهُ تحت المراقبة ، وان يستدلاَّ بأجهزتهما الدقيقة على سير ذرَّات اليود في مسالك جسمهِ بانفجارات الذرات التي حوَّلت مشعة بالصناعة ، وهذا العمل يشبه عمل المدفعي في الطائرة . فهو يطلق قذائفهُ غير دارٍ مسارها لسرعتها من ناحية ولسرعة الطائرة من ناحية أخرى . ولذلك يجعل كل قذيفة عاشرة من قذائف مدفعهِ قذيفة تترك اثراً من الدخان في مسارها فيستدل بالدخان على مسار قذائفهِ ، والذرَّات المشعة من اليود — في المثل المضروب آنفاً — تشبهُ هذه القذيفة العاشرة . فهي تدلُّ على مسارها بالاشعة المنطلقة منها عند انفجارها

وكذلك يصيب الباحث الطبي عصفورين بحجر واحد ، في هذه الذرَّات المشعة اشعاعاً صناعيًّا ، فهو يستعملها للعلاج ، ويتبيَّن بها نواحي من التركيب العضوي والتمثيل الفسيولوجي في الجسم

ويذكر كاتب هذه السطور انهُ القى محاضرة في مستهل سنة ١٩٣٨ وصف فيها النشاط الاشعاعي الصناعي ، من ناحيتهِ الطبيعية والطبية ، وكانت العناصر الساكنة غير المشعَّة التي حوّلت مشعة بالصناعة ، تعدُّ على اصابع اليدين . وامامهُ الآن وهو يكتب هذه السطور قول لباحث عالم مؤداهُ ان العلماء استحدثوا نحو مائتي مادة مشعة بالصناعة من نحو ٤٠٠ مادة ساسية في الطبيعية هي العناصر الاثنان والتسعون ونظائرها ، ولا ريب في انهُ متى تمَّ للعلماء

تحويل بقية ضروب المادة الاساسية الى مواد مشعة باطلاق الكهيربات او البروتونات ، او النوترونات او الدوتونات او غيرها من القذائف عليها ، فسيكون في متناول الاطباء كشف طويل يختارون منهُ عشرات المواد المختلفة ، التي غدت مشعة بالصناعة لاستعمالها في الطب بدلاً من الراديوم النادر الثمين . واذا انتقلنا من دراسة طبيعة الذرَّة وطرق تهشيمها وتحويلها وما أسدتهُ من خدمة الى الطبيب الى دراسة الضوء والكهربائية وجدنا فيهما ميداناً حافلاً بالعجائب

فليس ثمة ريب في ان استنباط المجهر خدم العلوم الطبية خدمة عظيمة ولا سيما في دراسة الاحياء الدقيقة ، وتركيب الانساج . وكلُّ تقدم في اتقان المجاهر يستقبل في عالم الطب بآيات الحمد والثناء . وهذا الاتقان مرتبط بعلم الطبيعة أوثق ارتباط ، لأنهُ ينصرف الى طبيعة الضوء المستعمل، أكثر منهُ الى طريقة صنع العدسات . فموجة من الضوء الاصفر تبلغ $\frac{1}{50,000}$ من البوصة طولاً ، ومع ذلك فهي عاجزة عن ان تبين عن جسم أصغر منها حجماً ، على نحو ما تعجز البنان عن ان تحلَّ محل الابرة الدقيقة في استخراج الغناء من قرص الجراموفون . وإذن فاتقان المجاهر يقتضي استعمال تلك الموجات الضوئية البالغة حدًّا متناهياً من القصر . وهذه الموجات هي موجات الأشعة التي فوق البنفسجي . ولكنها موجات لا ترى بالعين ولا تخترق عدسات الزجاج العادي . أما تعذر الرؤية بها فلا يحول دون استعمالها ، لأن ما لا تراه العين البشرية تراهُ عين المصورة الضوئية وتسجله على اللوح الحساس . ولذلك كان لا بد من استنباط زجاج خاص ، تخترقهُ هذه الاشعة ، فاستنبط وصنعت منهُ عدسات المجاهر واستعملت فيها الاشعة التي فوق البنفسجي فغدا في مكنة الباحثين ، تكبير اقطار الاجسام المتناهية في الدقة ستة آلاف مرة . فاذا شئنا ان نستعمل أمواجاً أقصر من أمواج هذه الاشعة ، وجب ان يوضع الجهاز في فراغ ، او في حجرة يحيط بهِ غاز الهليوم او غاز الايدروجين ، لأن هذه الأشعة لا تخترق الماء ولا الهواء . وعلاوة على استعمال الضوء للرؤية ، يصلح كذلك للعلاج . وبعض الأطباء ينحو نحو القدماء في اعتبار الشمس أعظم وسائل العلاج . ولكن علماء الطبيعة أشرفوا على صنع مصابيح ترسل ضوءاً يحتوي على جميع الاشعة التي يحتوي عليها ضياء الشمس ، وعلاوة عليها أشعة أخرى ليست في ضياء الشمس منها ما يتصف بتأثير قاتل للمكروبات او شافٍ ، ومنها ما لم يمتحن بعد من ناحية فعله البيولوجي . والتوسع في دراسة «المطياف» الذي لا يستغني عنهُ الفلكي الطبيعي مكَّن لرجال الطب من فصل الاشعة المختلفة التي تنضمُّ جميعاً في ضياء الشمس ودراسة تأثيرها الطبي شعاعاً شعاعاً

فمن الواضح انهُ اذا كان ضياء الشمس يتصف بفعل شافٍ او منشط ، فقد يكون هذا الفعل خاصًّا بأحد أنواع الأشعة التي تدخل في تركيب ضياء الشمس ، كالاشعة الزرقاء او الحمراء . فبفصل هذه الاشعة بعضها عن بعض ودراسة تأثيرها الفسيولوجي غدا في وسع الطبيب ان

يقصر استعمال كلٍّ منها على ما اختصتهُ الطبيعة من تأثير . ولنضرب مثلاً على ذلك بالاشعة التي تحت الاحمر . وهي أشعة طويلة الامواج اذا قيست بالاشعة التي يتألف منها الطيف المرئي . هذه الأشعة تخترق البشرة وتمتصها الطبقة التي تحت البشرة ، فتسكن العضلات المنهوكة والاعصاب المتعبة . ثم ان استعمالها يزيد من جريان الدم في المنطقة المعرضة لها وهذا له تأثير طيب في الحالات العصبية والروماتزمية . ثم ان دراسة الضوء وتأثيره الحيوي مكنت للعلماء من توليد فيتامين D في الاطعمة بدلاً من الاعتماد على تولده في الطبيعة واستخراجهِ من كبد سمك القد

والميدان الذي يحتاج الى دراسة عميقة من ناحية تأثير الضوء في الصحة ، هو ميدان الاشعة المختلفة في طيف الشمس ، من مرئي وغير مرئي ، وتأثير كل منها على حدة وبوجه خاص في الجسم . واذا تولى الطبيب او الباحث الطبي هذا البحث ، فانهُ ولا ريب يحتاج ألى الاعتماد على الطبيعي في ابتداع الاجهزة لتوليد الضوء وتحليله وقياس قوته وتأثيره

ولا نطيل الوقوف عند موضوع الكهربائية .وقد خصصنا له في السنة الماضية مقالين بعنوان «العقل بين الكهربائية والكيمياء» .ولذلك نوجز الرأي الحديث ايجازاً وهو يقوم على ان التيارات الكهربائية السارية في جسم الانسان كثيرة ، ولكن معظمها ضعيف يصعب قياسهُ . وليس في الجسم نقط كاقطاب البطاريات ، يسهل للباحث التماس التيار الكهربائي عندها . والاختلاف في اطوار الصحة متصل ولا ريب — بحسب هذا الرأي — بالاختلاف في حالة هذه التيارات ، ولكن اساليب التشخيص الكهربائي لا تزال في المهد . فاعياء المرء او حالته الصحية العامة ، مرتبطان على وجه خفي بالفرق بين مقاومة جسمه لسريان تيار متحول ، ومقاومته لسريان تيار مباشر . ما السر في هذه العلاقة ؟ وكيف نستطيع التوسل بها الى استحداث اساليب جديدة للتشخيص والعلاج ؟ اما مكانة الكهربائية في العلاج فليست بحاجة الى بيان وتفصيل . فالمبضع الكهربائي أحرز نجاحاً باهراً في الجراحة . ذلك بأن تياراً كهربائيًّا متحولاً يسري من المبضع الى الانساج واذ يكون المبضع آخذاً في القطع ، يكون التيار عاملاً على تعقيم الجرح وكيه فيقل النزف ويقرب الاندمال . وللمبضع الكهربائي عجائب اخرى يضيق النطاق عن الاشارة اليها . وسنعهد الى طبيب بارع بكتابة فصل وافٍ عنها . ثم هناك استعمال الأمواج الكهربائية في اختراق الجسم لاحداث حمّى عالية مفتعلة فيهِ ، يقاوم بها جرثومة معيَّنة كجرثومة الزهري (واجع اساطين العلم الحديث : صفحة ٢٠٢ — ٢١١ طبعة اولى و ٢٢٧ — ٢٣٧ طبعة ثانية) فيستغنى بها عن حمّى الملاريا . ولو كان الغرض من هذا المقال حصر جميع الخدمات التي اسدتها علوم الطبيعة من نظرية وتطبيقية الى علوم الطب لتحوَّل المقال الى كتاب ولضاق الكتاب عن استيعابها جميعاً . وما تقدم ليس الاَّ على سبيل التمثيل



مشروع

لتنظيم السكان في مصر

للدكتور وندل كليلاند
مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة

وضع برنامج للمستقبل

سنعالج الآن المسألة الرئيسية في هذا البحث

هل من المتيسر وضع برنامج منظم تتخذه اساساً للاصلاحات التي نرجو تحقيقها في المستقبل على الرغم من سرعة نمو عدد السكان وسوء الحالة الصحية العامة وانتشار الفاقة فضلاً عن الاخطار التي تحيط بمصر من الخارج؟ اعتقد انهُ اصبح من الواضح لكل انسان ان السياسة التي اتبعت في الماضي كان مكتوباً لها الحبوط سواء أكانت ترمي الى الحرية التامة للفرد وترك الحبل على الغارب للشعب يعالج مسائله كما شاء او غير ذلك من الوسائل المعتدلة أم لم تكن

اذا اردنا اصلاح الامور لا بد من إنشاء توازن وتعاون بين جميع المشروعات الاصلاحية حتى يكون التقدم متساوياً من جميع النواحي بحركة شبيهة بارتفاع الطيارة المجهزة « بالدوّامة » التي ترتفع عن سطح الارض الى الفضاء بحركة عموديّة ودفعة واحدة . هناك عدة اقتراحات أعرضها فيما يلي واعتقد انها تحقق ما نصبو اليه من وضع برنامج علمي لتنظم مستقبل البلاد

وقبل شرح البرنامج يحسن بي أن اوضح الغاية التي ارمي اليها

فما هو ادنى مستوى للمعيشة نرجو تحقيقهُ للاسرة المصرية؟ وهنا يجدر بنا ان نحصر انتباهنا في حالة مصر كما هي وألاّ نحاول تقليد ما نجده عند غيرنا من الامم تقليداً اعمى ، فلكل بلد عادات خاصّة ومطالب قد لا يشعر بها غيره من البلدان . وليس من المتيسر ان تتساوى جميع الشعوب في مستوى معيشة أهلها وتقدمهم في الحضارة ، ومن الخطإ ان نعتقد انهُ بعد قرن من الزمن ستصل جميع الامم الى مستوى واحد من المدنية والرقي

إن المشروع الذي فكرت فيه يرمي الى انشاء أسر مكونة من والدين يتفاوت عدد

اطفالها بين الثلاثة والخمسة ويتمتعون جميعاً بصحة جيدة ويحيون حياة محترمة في منازل تتوافر فيها النظافة وبساطة الاثاث وينال كل منهم نصيبه من العلم وتتوافر في المجتمع الذي يحيط بهم جميع الوسائل الصحية من ماء مقطر وانوار كهربائية واغذية صحية مقوية وملابس تجمع بين البساطة والمحافظة على الصحة . ويتوافر فيه كذلك العمل المفيد لكل فرد بحيث يمكن ان تنال كل أسرة ما لا يقل عن مائة جنيه سنويًّا فضلاً عن تخفيض أثمان الأراضي وأجور المباني وزيادة التعاون بين طوائف المزارعين والصناع

هذا ولا ننسى ضرورة انشاء العدد الكافي من المعاهد العلمية والاندية الرياضية والثقافية لملء أوقات الفراغ من ابناء الشعب بالنشاط النافع . ثم توفير طرق مواصلات جيدة في جميع جهات القطر وانشاء ادارة صالحة للاهتمام بالامور الصحية والزراعية ونشر العدل في ربوع القطر وغير ذلك . هذا وسنكتفي في برنامجنا بتحقيق الاصلاحات المتفرقة مع أن هناك وجوهاً اخرى عديدة من انظمة الاصلاح . مثال ذلك وضع معاشات للعجزة والعاطلين وسن قوانين للتأمين ضد الحوادث وغير ذلك من مظاهر التقدم كانشاء الحدائق الاهلية والملاعب الرياضية والمتاحف العلمية وغير ذلك

ولنبحث الآن في الأحوال اللازمة لتحقيق المشروعات التي تستطيع الحكومة ان تأخذها على عاتقها وتمهد السبيل لغيرها من الهيئات الأهلية . ولنتخذ أساساً لحسابنا عدداً من السكان لا يتجاوز ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة او مليونين ونصف مليون من الأسر . وقد يتساءل القارىء ولما لا تتخذ عدد سكان مصر كما هو الآن . وجوابي ان السكان في مصر يزيد عددهم ٥ ملايين عن العدد الذي كان يجب ان يكون عليه . ويبلغ عدد الأسر المصرية في الوقت الحاضر نحو ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ عائلة . فاذا كانت الاعمال الزراعية تتيح عملاً لنحو ١٫٤٠٠٫٠٠٠ أسرة (أي بمعدل أربعة فدادين لكل أسرة) والاشغال التجارية فيها متسع لإطالة مليون أسرة بقي لدينا ٩٠٠٫٠٠٠ أسرة بدون عمل كافٍ . وعلى ذلك يمكننا تقدير العدد الزائد من السكان بنحو ٤ ملايين نسمة ولا نكون مغالين في ذلك . ولننظر الآن في ميزانية النفقات العامة التي يجب على الحكومة انفاقها . ولنعالج أولاً مستلزمات الصحة العامة

إذا أخذنا ما تنفقهُ مدينة نيويورك في هذا السبيل أساساً لتقديرنا بلغ مجموع الأموال اللازمة للميزانية الصحية نحو ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيهاً في العام أي بمعدل ٦٧ قرشاً عن الفرد من السكان . مع العلم بأن هذا المبلغ ليس بالشيء الكثير اذا قابلناه بما تنفقهُ كثير من المدن الأخرى . وكذلك الحالة الصحية في نيويورك أفضل كثيراً مما هي في مصر

أما من ناحية التعليم فاننا نجد ان الاطفال الذين في سن التعليم — أي ما بين الخامسة

والرابعة عشر — يبلغ عددهم ٣٫١٠٠٫٠٠٠ . فاذا خصصنا مبلغ ١٠ جنيهات لتعليم كل طفل فان مجموع ميزانية التعليم لا يقل عن ٣١ مليون جنيه

وفضلاً عن ذلك فيلزم مالا يقل عن ٧١ مليون جنيه بحسب تقدير محمود شاكر أحمد بك وكيل وزارة الصحة لرفع مستوى القطر من الناحية الاجتماعية كانشاء قرى جديدة تتوافر فيها الشروط الصحية والمياه الصالحة للشرب والمجاري العمومية وغير ذلك من المشروعات الصحية . فاذا وزعنا هذا المبلغ على ٣٥ عاماً بلغ ما يلزمنا سنويًا نحو مليونين من الجنيهات

واذا أردنا تحسين حالة المواصلات بانشاء طرق جيدة تطلب ذلك من ميزانية الدولة ما لا يقل عن مليون جنيه

ويلاحظ ان المشروعات المتقدمة لا تشمل الاّ الاعمال الاجتماعية العامة التي لا بدَّ من القيام بها لتحقيق غايتنا . ومع ان هناك أموراً عديدة تقتضي الاهتمام غير اننا نترك ذلك للافراد والجماعات بعد ان نرفع المستوى الفكري والاجتماعي بينهم. ومما تقدم يتضح لنا ان مجموع المبالغ اللازمة سنويًا لا تقل عن ٤١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيهاً . فضلاً عن الميزانية السنوية الحالية التي تخصصها الحكومة للمصروفات اي ما يبلغ نحو ٣٣ مليون جنيه اي ان ميزانية المصروفات السنوية ستبلغ نحو ٥٧ مليون جنيه ، اذا أضفنا اليها ما سيصرف على ميزانية الدفاع الوطني أي ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ وجدنا ان ميزانية الدولة للمصروفات ستتجاوز مبلغ ٨١ مليون جنيه . فاذا علمنا ان هذا المبلغ يعادل خمسي مجموع الايراد الأهلي ، اتضح لنا انهُ مبلغ باهظ جدًا يثقل كاهل بلد فقير كمصر إذ ان نسبة المصروفات عن كل فرد من السكان لا يقل عن ٦ جنيهات و نصف سنويًا . وقد يمكن تخفيف الضغط على الميزانية العامة بالالتجاء الى عقد القروض للحصول على المبلغ اللازم لمشروعات الاشغال العامة والالتجاء الى الاحتياطي غير ان ذلك لا يساعد على نقص ميزانية المصروفات اكثر من ٣ ملايين او ٤ ملايين من الجنيهات

ولمقابلة حالتنا بحالة غيرنا من الامم نذكر حالة دولة السويد . فنقول ان ميزانية المصروفات فيها في عام ١٩٣٧ — ٣٨ بلغت نحو ٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ولا يزيد عدد السكان هناك عن ٦٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة اي النسبة السنوية للمصروفات بلغت ٩ جنيهات لكل فرد . وهذا المبلغ يمثل ثمن الايراد الاهلي . غير ان تلك الميزانية شملت مصروفات عديدة لم نوردها في البرنامج الذي وضعناه للقطر المصري

ولا شك ان اكبر معضلة نواجهنا في هذا السبيل هو كيفية التوصل الى رفع الايراد الاهلي بحيث يمكنه تحمل مثل هذه المصاريف وفي نفس الوقت انقاص عدد السكان الى ١٢ مليون نسمة فقط والاحتفاظ بهذا العدد ثم العمل على حفظ التوازن بين عدد السكان والموارد العامة

هناك ثلاثة حلول عامة تخطر ببالي علاجاً لهذه المعضلة . وهي :
(اولاً) ابتكار الوسائل التي تكفل رفع الثروة الاهلية والمحافظة عليها
(ثانياً) ايجاد منفذ للعدد الزائد من السكان عن طريق الهجرة
(ثالثاً) نقص عدد السكان

﴿ تحسين الثروة الاهلية وصيانتها ﴾ سنتناول هذه النقطة بايجاز اذ أنها تنال اهتمام جهات كثيرة فالجماعات الاهلية تبذل جهدها لكشف طرق جديدة للربح . والحكومة من ناحيتها تبدي اهتماماً جديًّا بهذا الموضوع . فوزير التجارة الحالي يفكر في تعيين لجنة يعهد اليها بدراسة طرق تحسين التجارة والصناعة . ولا شك ان الرغبة في الربح والمطالب السياسية سيكون لها اثر فعال في تحقيق النجاح

غير اني اريد اوجه الانظار الى ضرورة صيانة الثروة الزراعية بالمحافظة على الاراضي الزراعية وزيادتها . فقد سبق ان قلنا ان أكثر من ٩٠ ٪ من الثروة الاهلية في مصر عمادها الاراضي الزراعية . ولا شك ان استعمال جزء من تلك الاراضي لغير اغراض الزراعة كانشاء المساكن والمتنزهات والمدافن والحدائق العامة وغير ذلك من مظاهر الترف سينتج عنهُ نقص الاراضي المخصصة للزراعة . اما الاراضي التي تستعمل لحفر القنوات وانشاء الطرق والخطوط الحديدية وغير ذلك من المشروعات العامة فلا تعتبر من الاراضي التي تخسرها الزراعة اذ ان تلك المشروعات لا بدَّ منها لنجاح الزراعة . ولكي نوفر الأراضي لأغراض زراعية قد نضطر في المستقبل الى انشاء المساكن وغير ذلك من أسباب الترف في الاراضي الصحراوية . وقد برهن الاقبال على بلدتي مصر الجديدة والمعادي على صلاح الصحراء للسكن. وهناك مالا يقل عن ٥٠٠ر٠٠٠ فدان من الاراضي الزراعية الخصبة تستعمل لأغراض تجارية وإنشاء المساكن في الوقت الحاضر . وإن اتساع بعض المدن الكبرى كاسيوط والجيزة وطنطا اثناء العشرين السنة الماضية على حساب الأراضي الزراعية لمايدعو الى التفكير في مصير الزراعة المصرية في المستقبل . ويبين لنا ضرورة صيانة الأراضي الزراعية من الاستغلال لأغراض أخرى إذ أن كل فدان يؤخذ من الزراعة يؤدي الى حرمان بعض الفلاحين عيشهم

﴿ المهاجرة الى الخارج ﴾ ماهي البيئة التي تصلح لإيواء المهاجرين من مصر ؟ هناك منطقتان قد نجد فيهاما يحقق غرضنا . وهما السودان والعراق . اما الحبشة فبعيدة المنال في الوقت الحاضر لاعتبارات سياسية

وتبلغ مساحة السودان المصري الانكليزي نحو مليون ميل مربع (٢ ر ٥٩٠ ر ٠٠٠ كيلومتر مربع) وهذه المساحة تعادل ضعفي مساحة القطر المصري باكمله ونصف ضعفها ، بما في ذلك

الاراضي الصحراوية. وقد قدر عدد سكان السودان في عام ١٩٣٨ بنحو ستة ملايين نسمة. حقاً ان كثيراً من الاراضي السودانية لا تصلح للزراعة في الوقت الحاضر. وهناك مساحات واسعة من المستنقعات والاراضي الرملية غير ان هناك اعتقاداً بامكان تحويل ملايين من الافدنة الى اراضٍ صالحة للزراعة. وفي ارض الجزيرة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الابيض — وهي صغيرة بالقياس الى مساحة السودان — مالا يقل عن ثلاثة ملايين من الافدنة الصالحة للزراعة. وهذا العدد يعادل نصف مساحة الاراضي الصالحة في مصر. وجنوب هذه المنطقة تجد اراضي السد ومستنقعات بحر الغزال عند اعالي النيل الابيض وهي مما يمكن تحويله الى اراضٍ خصبة وتبلغ مساحة تلك الاراضي نحو ٦٢٫٥٠٠ كيلومتر مربع او ما يعادل ضعفي مساحة الاراضي الزراعية في مصر. وهذه المنطقة « نظراً لموقعها الجغرافي ومناخها وغزارة امطارها تعتبر من الاراضي الثمينة التي لا يمكن تركها كما هي الى الابد دون الانتفاع بها. وهناك ما يبعث على الاعتقاد انها ستتحول في المستقبل الى مراعٍ خصبة او مزارع غنية او غابات ثمينة » (١)

فاذا اضفنا الى ذلك نحو ٥٤١٫٠٠٠ كيلو متر مربع من الاراضي المرتفعة الواقعة في حوض بحر الغزال بلغ مجموع الاراضي الصالحة نحو ٦٠٣٫٥٠٠ كيلو متر مربع اي ما يزيد عن مساحة الاراضي الزراعية في مصر نحو ١٧ ضعفاً

وهناك تفكير قائم منذ عدة اعوام يرمي الى نزح المستنقعات وتجفيفها لكي يمكن الانتفاع بما يزيد عن ١٢٫٠٠٠ متر مكعب من الماء الذي يتبخر سنوياً دون الانتفاع به، وقد يتحقق هذا المشروع عند انشاء خزان جديد على النيل عند بحيرة البرت. فاذا امكن لمصر الانتفاع بهذه الاراضي باصلاحها واعدادها للزراعة وجد المصريون منفذاً لسد حاجتهم الى الهجرة

اما مملكة العراق وان تكن أبعد عن مصر من السودان غير انها أكثر مشابهة في مناخها وحاصلاتها ونظمها الاجتماعية لمصر وتبلغ مساحة العراق نحو ١٤٣٫٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها نحو ٢٫٨٢٤٫٠٠٠ نسمة أي بمعدل ٩٠ شخصاً لكل ميل مربع من الاراضي الزراعية ولذا فان هناك حاجة شديدة الى الايادي العاملة في العراق. وبالنظر الى السهول العظيمة الواقعة في شمال العراق والقرى العديدة المنتشرة في كل ناحية والخرائب المدفونة تحت الرمال يمكننا ان نستنتج أن هذه البلاد كانت آهلة بعدد عظيم من السكان في وقت ما. ولا شك انه يمكن اسكان بضعة ملايين اخرى زيادة على السكان الحاليين ونظراً لوحدة اللغة وتشابه العادات والطرق الزراعية بين المصريين واهل العراق لا بد ان تنتفع العراق من هجرة المصريين اليها

فاذا أمكن حل الناحية السياسية للمسألة أمكن تخصيص الاعانات المالية لمن يطلب المهاجرة الى

(١) انظر كتاب « ضبط مجرى النيل » لماكدونالد

العراق والسودان . ولاشك ان كثيرين من الفلاحين ذوي الشجاعة والطموح سيقبلون على الهجرة مع ما في ذلك من مجازفة اذا استقطعتهم الحكومة اراضي جيدة وقدمت لهم المساعدة اللازمة لبدء حياة جديدة هناك

ولا شك ان تنفيذ مثل هذا المشروع سيعود بالنفع على كلا البلدين اذ ان الاراضي التي نقترح تقسيمها بين المهاجرين ليست سوى اراض قاحلة لا يفكر احد من الاهلين في الانتفاع بها الآن. بل ان الاراضي المهملة في السودان يمكنها ايواء عدد من السكان يوازي مجموع سكان القطر المصري في الوقت الحاضر مع بقاء نسبة الازدحام في الميل المربع اقل مما هي عليه الآن عشرة اضعاف . هذا وقد اتجهت بعض الانظار الى بلاد البرازيل في اميركا الجنوبية حيث تقع في الجزء الجنوبي الشرقي منها اراض قليلة السكان وهي لا تختلف كثيراً عن مصر في مناخها وحاصلاتها الزراعية . واللغة العربية معروفة هناك نظراً لوجود عدد كبير من المهاجرين السوريين. غير ان هذه المسألة في حاجة الى دراسة دقيقة قبل البت فيها

﴿ ٣ — تحديد النسل ﴾ قبل ان نعالج هذا الموضوع يحسن بنا ان نبحث الاتجاهات الاجتماعية وعادات الجمهور بشأن الأطفال. وقد تيسر لي ان اجمع بعض البيانات من جهات مختلفة عن سبب تعلق الناس في مصر بالاطفال ورغبتهم في الاكثار من الذرية . وفيما يلي خلاصة ما وصلت اليه

١ — الاطفال هبة من الخالق وتحقيق لمشيئته تعالى . ومن يحاول مقاومة مشيئة المولى يستحق العقاب . وكثير من الناس يفسر موت اطفالهم بأنها عقاب لهم فحسب

٢ — يفتخر رب كل أسرة بكثرة الاولاد ويطمع كل رجل ان يصبح شيخاً لقبيلة عند بلوغه سن الشيخوخة . وفي الوجه القبلي حيث تكثر المنازعات تعتز كل أسرة بعدد افرادها وتجد في كثرة عددهم ضماناً لسلامتهم

٣ — يساعد الاولاد آباءهم في كثير من الاعمال فيحرسون ماشيته ويقومون بالعمل في الحقل . بينما نفقات تربيتهم لا تكلف آباءهم الا قليلاً

٤ — كلما زاد عدد ابناء الانسان زاد اطمئنانه للمستقبل وضمن لنفسه الحياة الهنيئة في شيخوخته لتعاون ابنائه على اعالته . ولعل هذا الاعتقاد مما يجعل من الامور الصعبة اقناع المصريين بفائدة المهاجرة . فالشيوخ سيمنعون الشبان من ترك بلدهم . ولذلك فيحسن العمل على هجرة كل أسرة باكملها

٥ — ويعتبر الكثيرون الاطفال أحسن مباهج الحياة ولذلك فهم يريدون انجاب الاطفال في شبابهم حتى يتسع امامهم المجال للتمتع بهم

ولكل من الجنسين رأيهُ في الأطفال. اما الاسباب التي تحفز المرأة على انجاب الاطفال فهي:—

١ — تريد كل امرأة ان تباهي جارتها بفتوتها وخصب طبيعتها ولا سيما الاكثار من عدد الاولاد الذكور

٢ — لتوثق الروابط التي تربطها بزوجها . والاطفال خير رباط بين الزوجين . والمرأة المصرية التي لا يفتأ شبح الطلاق ماثلاً امام عينيها تشعر بالطمأنينة كلما زاد عدد الاطفال الذين تنجبهم . وقد دلت الاحصاءات عام ١٩٣٥ ان نسبة حالة الطلاق بين الازواج الذين مضى على زواجهم خمسة اعوام كان كما يأتي ٧ ر٤٩ ٪ من المطلقات لم تخلف اطفالاً . و ٢ ر٣٠ ٪ منهن انجبن طفلاً واحداً و ٦ ر١٤ ٪ طفلين و ٦ ر ٤ ثلاثة و ٩ ر ٠ ٪ اكثر من ثلاثة اطفال. اي ان حالات الطلاق كانت نسبتها لعدد الاطفال ٥ : ٣ : ٥ ر١ : ٥ ر . فالمرأة التي تنجب ابناء تشعر انها في امان من الطلاق والحاجة . والمولود الذي يأتي بعد سنة من الزواج يكون فخراً للوالدين امام المجتمع ودليلاً على حب الرجل لزوجته

٣ — تحاول المرأة ان تجعل زوجها يتعلق بها بجاذبيتها الجنسية فتبذل كل جهودها لكي تتقن فنون الدلال . وهي تشعر بانها اذا اضعفت من حيوية زوجها الجنسية فانها تكون في امان من ان تسلبها اياهُ امرأة اخرى. ولما كانت وسائل التسلية واللهو تكاد تكون معدومة في القرى فان براعة المرأة من الناحية الجنسية له شأنهُ

٤ — ومن ناحية اخرى يخشى بعض النساء ان يتأثر جمالها بكثرة الولادة ولذلك كثيراً ما يلجأنَ الى الاجهاض

اما وجهة نظر الرجل فتلخص فيما يأتي

١ — يحب الرجل الأولاد اكثر من البنات وهو يطلب من زوجته ان تستمر في انجاب الاطفال حتى يتوفر العدد الكافي من الاولاد

٢ — يعتبر الرجل المقدرة الجنسية من اسباب الفخار . وهو كذلك يخشى ان لم يظهر بمظهر القوة ان تتهمه زوجته بمباشرة غيرها من النساء . ولعل هذا هو السبب في التجاء عدد كبير من الفلاحين الى تعاطي العقاقير التي يظن انها تقوى فيه الحيوية الجنسية . ومما تقدم يمكننا ان نتبين الحقائق الآتية

(اولاً) يعتبر الاطفال ولا سيما الذكور منهم ذوي فائدة اقتصادية عند الفلاح الذي يعيش حياة اقرب الى الفطرة من ساكن المدينة فاذا اردنا تخفيض النسل وجب علينا ان نعوض على الفلاح ما قد يفقده من الناحية الاقتصادية

(ثانياً) ان الخوف من الطلاق عند النساء يبعثهنَّ على الاهتمام بالامور الجنسية اهتماماً

عظيماً فتزيد قابليتهن للحمل تبعاً لذلك . ولذلك يجب معالجة مساوىء الطلاق . فقد دلت الاحصائيات ان عدد حالات الطلاق بلغت ٢٥ ٪ من عدد حالات الزواج

(ثالثاً) ان السواد الاعظم من الجمهور يعيش في جهل تام لفنون الحياة . وقلما يعرف كيف يستغل أوقات فراغه ويتمتع بحياة عائلية هنيئة . ولا شك في انهُ اذا رفع مستوى المرأة أمكنها ان تكتشف لنفسها مباهج الحياة وكفت عن الحياة البهيمية واصبحت لا تعتبر نفسها مجرد اداة لمتاع الرجل واشباع شهواته

لقد تبينا مما تقدم ان الذرية الكثيرة لها قيمة اجتماعية عظيمة . فاذا أردنا تحديد النسل كان لزاماً علينا ان نحاول تغيير آراء الجمهور وعاداته . وهناك وسيلتان لذلك

الاولى — مباشرة — بسن قوانين تغير بها العادات المتأصلة بسرعة. والثانية — غير مباشرة — وذلك بترغيب الجمهور وتشجيعه على تحديد النسل بشتى الطرق . وأرى ان الوسيلة الاولى هي أقرب الى النجاح من الثانية . ويجب أن نبدأ جهودنا بتوجيه آراء الجمهور وبيان الغرض من انجاب الاطفال وفائدتهم للمجتمع . فبينما نجد للطفل قيمة مادية للوالدين في الجماعات الزراعية نرى أهل المدن ينظرون الى الاطفال كأنهم عالة على الوالدين حتى تخرجهم من المدارس اي حوالى سن الرابعة عشرة . واهل الطبقات الراقية لا ينجبون من الاطفال الا العدد الذي في قدرتهم تربيتهم تربية حسنة . والمشكلة التي يلزم حلها الآن هي كيفية اقناع الفلاحين بأن الاكثار من الاطفال ليس من الامور المستحسنة دائماً . وهناك عدة وسائل نذكر بعضها فيما يلي :

﴿ رفع المستوى الاجتماعي ﴾ وأول خطوة في سبيل تحقيق غرضنا هو ان نعمل على رفع مستوى الحياة الاجتماعية بشتى الوسائل فيؤدي ذلك الى الاقلال من الخصب الجنسي فقد لوحظ منذ اقدم العصور انهُ كلما ارتقى الانسان في سلم التقدم الاجتماعي وتوافرت له اسباب الراحة والرفاهة قلت قابليته للتناسل . وهذه الحقيقة تنطبق على عصرنا الحالي ايضاً كما تدل الاحصاءات الدقيقة . ففي انجلترا والسويد وفرنسا وألمانيا وأميركا نجد التناسل في تدهور تام

ومما يدعو الى الاستغراب ان الاسباب البيولوجية لقلة التناسل المقترنة بالرقي الاجتماعي لم تتضح بعد . فمن الملاحظ ان التناسل ضعيف بين القبائل المتوحشة والطبقات المتعلمة في الامم الراقية وقد يكون من اسباب ضعف التناسل بين المتوحشين ما يحيونه من حياة خشنة جافة وكفاح مستمر . وما يعانونه من العادات والخرافات التى تؤثر في خصب الافراد الجنسي

اما الطبقات المستنيرة في الامم المتمدينة فقد يعود ضعف التناسل بينها الى اسباب نفسية ومؤثرات اجتماعية كالمثل العليا ومطالب المدنية وغير ذلك مما يضعف الشهوة الجنسية بين الافراد بينما نجد ان اللذة الجنسية هي اهم وسيلة للترفيه عن العواطف بين طبقات الفلاحين . وفضلاً عن

ذلك فانهُ من المشاهد ان الوالدين من الطبقات الراقية يجدون في تربية اطفالهم لذة عظيمة تصرفهم عن الرغبة في الاكثار من التناسل . بينما ابناء الفقراء تكثر الامراض بينهم ويكونون معرضين للفناء اكثر من غيرهم ولذلك نرى الوالدين يريدون الاكثار من الاولاد حتى لا تنقرض ذريتهم بسهولة . ولنوضح هذه النظرية بالارقام الحسابية نقول انه اذا عاش طفل حتى سن البلوغ — أي العشرين — فانه يتيح لوالديه سعادة اكثر من اربعة أطفال يعيش كل منهم خمسة اعوام فقط مع ان مجموع سني حياتهم تعادل عشرين عاماً . هذا بينما لا تعاني الام في الحالة الاولى سوى مرة واحدة آلام الولادة

وعلى ضوء الحقائق المتقدمة نجد انهُ يلزم تغذية المشاعر السامية في الفلاحين ورفع مستوى معيشتهم وتنظيم أوقات فراغهم وتهيئة وسائل اللهو والتسلية بينهم . وقد روت احدى المجلات الانكليزية ان العلماء الايطاليين اكتشفوا أن للضوء تأثيراً في الخصب الجنسي . فالنور القوي يضعف من ميل الناس الى التناسل ولا شك ان انارة الريف بالضوء الكهربائي سيكون له تأثير في تحديد التناسل بين الفلاحين . ولا سيما اذا وجدوا ما يملأُون بهِ اوقات فراغهم من الملاهي ودور السينما والاندية الرياضية وغير ذلك من وسائل التسلية الصحية . ولا يجب ان ننسى تأثير تعليم المرأة في هذا المجال وقد قال لي احد الرجال البارزين في مصر منذ عهد قريب « علموا الفتيات المصريات فتكفل لكم تحديد النسل »

﴿ تحديد التناسل ﴾ والخطوة الثانية لتحقيق برنامجنا هو انشاء مستشفيات لارشاد الجمهور الى وسائل منع الحمل حتى يتسنى للانسان ان ينظم حياته بحيث يأتي بالاطفال حين يشاء وليس كيفما شاء القدر . وكذلك يمكن لتلك المستشفيات علاج النسوة العاقرات . وقد جاء في تقرير وضعتهُ الدكتورة ماري ستوبس الانكليزية ان ٣٫٣٪ من النساء اللاتي عالجتهنَّ كنَّ يطابنَ علاجاً لعقرهنَّ . وبعض النساء يلتجئن الى اجراء عملية ابدال المبيض او التلقيح الصناعي طلباً للحمل

واذا كان هناك من يعارض في السماح باستعمال وسائل منع الحمل فاننا نوجه نظره الى ما نراه في أوربا وأميركا من اعتراف الناس بمسألة منع الحمل بعد ان عارضوها ٧٥ عاماً . وقد اعترفت بعض محاكم الولايات المتحدة بجواز منع الحمل . وكثير من الهيئات الدينية والعلمية عدلت عن محاربة ممارسة هذه العادة. وقد دلت الاحصاءات على ان عدد مستشفيات منع الحمل في الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ بلغت ٢٠٠ مستشفى

﴿ سن القوانين ﴾ الخطوة الثالثة في برنامجنا هي سن القوانين تدريجيًّا لمنع توالد غير الصالحين من الاشخاص ورفع سن الزواج وغير ذلك من الأمور الاجتماعية . فان الأشخاص غير الصالحين هم عالة على المجتمع . وقد صرَّح أحد علماء الاسلام ان تعقيم ذوي العاهات

والأمراض الوراثية لا يتنافى مع التعاليم الاسلامية . وهناك مشروعات اجتماعية يساعد تنفيذها على تحديد التناسل . منها : —

١ — تنفيذ قوانين التعليم الالزامي حتى لا يسمح للوالدين باستخدام أولادهم في أعمالهم خمسة أعوام او اكثر. ويجب ألاَّ نعلم مجاناً سوى أول ثلاثة من الاطفال. ثم تفرض ضريبة صغيرة على من يأتي بعد ذلك من الاطفال حتى يكون ذلك بمنزلة انذار الوالدين لكي لا يتمادوا في التوالد

٢ — كذلك يمكن انشاء مراكز مجانية لرعاية الطفل على شرط ان تدفع كل أسرة يزيد عدد اطفالها على الثلاثة مبلغاً زهيداً

٣ — تعديل قانون القرعة العسكرية بحيث يعفى الابن البكر من الجندية . ويؤخذ الابن الثاني فترة قصيرة ولكن يقضي من يأتي بعد ذلك المدة كاملة . وحبذا الحالة لو منح الوالدين شيء من المكافأة كمنح النياشين إذا كان الولد المجنَّد سليماً من الأمراض

اما من ناحية رفع سن الزواج فيجب اولاً ان نبحث عن الفترة التي تكون فيها المرأة خصبة . تمتد هذه الفترة في مصر من سن الثانية عشرة الى سن الخمسين اي ما يقرب من ٣٨ عاماً . وقد اتضح أن المرأة تكون أشد خصوبة في شبابها أي ما بين سن العشرين والخامسة والعشرين . هذا ومن الملاحظ ان الغريزة الجنسية تكون على اشدها في السنين الاولى . وعلى ذلك اذا تزوجت المرأة في سن صغيرة فان عدد احتمالات الحمل يكون اكبر . وكلما تقدمت في السن نقص ذلك . ومما يستحق الذكر في هذا المقام ما قالهُ احد المحاضرين في قاعة يورت بالجامعة الاميركية من ان سن الواحدة والعشرين يجب ان تكون ادنى سن للزواج. ولو تحقق ذلك لنقصت نسبة المواليد عشرة في الالف على الاقل . واحد عيوب تأجيل الزواج التي يجب تلافيها هو زيادة انتشار البغاء . ولعله يمكن مقاومة ذلك بجعل الشهادة الصحية من شروط السماح بالزواج . وكثير من الحكومات تطالب العريس والعروس بشهادة تبرهن على خلوهما من الامراض المعدية . ولعل اتباع مثل هذه النظم يؤثر في سوق الزواج تأثيراً حسناً جداً

﴿ كيف تنفذ البرنامج ﴾ كيف يمكننا تنفيذ البرنامج المتقدم ؟ ذكرت قبل الآن ان جميع المسائل يجب ان تعالج في آن واحد بقدر الامكان . فمن اي نقطة نبدأ عملنا . وأول ما نرمي اليه هو انقاص عدد السكان من ١٦ مليوناً الى ١٢ مليوناً . مع المحافظة على هذا العدد في الجيل القادم حتى نحقق ما نرمي اليه من رفع مستوى المعيشة . وكان مما ذكرتهُ فيما تقدم انهُ يمكن انقاص عدد السكان حالاً بواسطة المهاجرة . وعلى هذا يمكننا تحريك الآلة السياسية في هذا الاتجاه . وإن هذا العمل وحده يتطلب جهداً كبيراً من رجال السياسة

وبعد ذلك نوجه اهتمامنا الى الوسائل غير المباشرة لتخفيض السكان . أي مشروعات التعليم والصحة وتوفير وسائل التسلية وغير ذلك مما يخلق في النفوس الطموح نحو حياة راقية. ويساعد

على نشر عادة تحديد النسل ، وقد يستغرق تحقيق هذا البرنامج نحو ٣٠ عاماً

هنا قد نتساءل هل تقبل الجماهير ان تعمل لتحديد النسل . لا شك ان هناك شعوراً قويًّا ضد ذلك وهو قائم في الغالب على اعتبارات دينية . وقد لا يبدو هذا عجيباً اذا علمنا ان في الولايات المتحدة نفسها نحو ١٥ ولاية لا تعترف بشرعية تحديد النسل . والطوائف الكاثوليكية أعلنت عداءها لتحديد النسل

ولكن لا يوجد في مصر طوائف دينية اخرى تعارض هذه العادة . وفضلاً عن ذلك فقد اصدر المفتي الاكبر منذ عامين فتوى يصرح فيها بممارسة الاجهاض قبل انقضاء الشهر الرابع من الحمل

وقد نالت هذه الفتوى موافقة تامة من فضيلة شيخ الأزهر وغيره من علماء الدين . وكان صوت المعارضين ضعيفاً لا يستند الى المراجع الدينية واصول الشريعة . وما زال عدد كبير من رجال الدين والاطباء من المسلمين يقاومون ممارسة تحديد النسل . ومع ذلك فقد ظهرت في العام الماضي جماعة تدعى « جماعة العائلة السعيدة » السواد الاعظم من اعضائها من رجال الطبقة الراقية المسلمين . وغرضها انشاء عيادة لتعليم اصول منع الحمل . ومع أن موقف افراد الجمهور غير معروف تماماً غير اننا نعلم ان هناك كثيراً من الوسائل البلدية لمنع الحمل تمارس سرًّا وان الاجهاض كذلك تلجأ اليه بعض النسوة مع ما في ذلك من الخطر . وليس من المعقول ان تزداد الحالة سوءاً بمجرد نقل حق الارشاد من ايدي الدجالين الى ايدي الاطباء والعمال الاجتماعيين . غير أن هناك اعتراضات أخرى على تحديد النسل . وهي :

١ — ان منع الحمل قد يؤدي بالجنس الى الانتحار والفناء في نهاية الامر . وان الفساد قد ينتشر بين الشبان غير المتزوجين . وجواباً على ذلك أشير الى ما يشاهد في هولندا وفرنسا . ففي هولاندا مع انتشار وسائل منع الحمل نجد نسبة المواليد فيها بلغت في عام (١٩٣٤) ٢٠٫٢ في الالف بينما هذه النسبة كانت في فرنسا ١٥٫٢ ومع ان القوانين المدنية والتعاليم الدينية في فرنسا تحرم منع الحمل غير أن السواد الاعظم من الناس يمارسون ذلك سرًّا مما أدى الى تدهور عدد المواليد تدهوراً عظيماً . والفرق بين هولندا وفرنسا ان الهولانديين يمارسون منع الحمل على اسس علمية وتحت ارشاد الاطباء بينما التجاء الناس في فرنسا الى ممارسة منع الحمل في الخفاء وبوسائل غير علمية فيتعرض افراد المجتمع لاخطار صحية ونفسية واجتماعية . وقد ثبتت الآن الفائدة من فهم المبادىء الجنسية بعد ان كان الناس فيما مضى يعارضون في تعليمها في المدارس

٢ — ان منع الحمل يتعارض مع تحسين النسل . وان الطبقات الراقية لا يمكن الاعتماد عليها للمحافظة على عدد السكان من التدهور . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك . فان افراد الطبقات الراقية ينقص عددهم حقًّا لممارستهم طرق تحديد النسل بالرغم من تحريم القانون

ومنافية لتعاليم الدين. ولكن يجب ألاَّ نتذرع بهذه الحجة لكي نحرم الطبقات الفقيرة من ارشادات منع الحمل ونترك لهم الحبل على الغارب يثقلون كاهل البلاد بالافراد الغير صالحين للمجتمع

٣ — إن نقص عدد السكان يؤدي الى نتائج اقتصادية سيئة ويضعف الأسواق التجارية . إذ ان هناك زعماً بأن ازدياد عدد السكان يؤدي الى رواج التجارة . وقد يكون هذا القول صادقاً عند بعض الامم لكنهُ لا ينطبق على حالة مصر حيث مصادر الثروة لا تدع مجالاً لتوسع الاسواق لازدحام السكان ازدحاماً لا يتفق مع موارد البلاد المحدودة . ومن المبادىء الاقتصادية البديهية ان البلد الذي لا تكفي مواردهُ سوى حاجة الافراد الضرورية جدًّا فان منتجات الصناعات الحديثة لا تجد لها مجالاً للانتشار في ذلك البلد

وفي الختام نرجو ان نوجّه الانظار الى ان البرنامج الذي أوضحناه في هذا المقال يرمي الى بيان النقط الرئيسية لمشروع تنظيم السكان . وهو في حاجة الى دراسة عميقة وبحث دقيق قبل الاقدام على تنفيذه . ويحسن بنا قبل القيام بتطبيقه نهائيًّا على القطر المصري ان نجرب تأثيره في دائرة صغيرة من المجتمع لا تزيد عدد سكانها على ١٠٫٠٠٠ نسمة ولا تزيد مساحتها على خمس قرى حتى نتحاشى الوقوع في خطأ فاحش ويتسنى لنا ادخال التعديلات اللازمة على البرنامج بسرعة وسهولة . ويمكن ان نطبق دقائق كل طور من اطوار المشروع على تلك الدائرة الصغيرة من المجتمع حتى لا يفضي أي خطإٍ من الأخطاء التي لا بد من وقوعها الى عواقب وخيمة ويمكن تلخيص المشروع كما يأتي :

١ — يمكن تخفيف ضغط السكان بتشجيع الناس على المهاجرة . وبهذه الطريقة يمكن انقاص عدد السكان نحو ٤ ملايين نسمة . وقد لا تقبل البلدان التي تفتح ابوابها للمهاجرين اكثر من هذا العدد ٢ — يجب العمل على تنمية الموارد الاهلية ٣ — يجب العمل على رفع مستوى المعيشة وتحسين الصحة العامة ٤ — يجب تشجيع مستوصفات منع الحمل والعمل على نشرها ٥ — يجب منع الاشخاص غير الأكفاء من التوالد حتى لا يُثقل كاهل المجتمع بضرورة اعالتهم ٦ — يجب رفع سن الزواج

باتباع الوسائل المتقدمة نرجو ان يتيسر تخفيض نسبة عدد المواليد الى نصف العدد الحالي فتصبح تلك النسبة ٢٢ في الالف من مجموع عدد السكان . وكذلك بتحسين الحالة الصحية يمكن تخفيض نسبة الوفيات ٣٠ ٪ من النسبة الحالية فتصبح نسبة الوفيات ٢١ في الالف من مجموع السكان فتصل البلاد الى حالة من الثبات والاستقرار من حيث عدد سكانها . هذا واذا تعرض الشعب الى خطر الانقراض من جراء تدهور عدد المواليد تدهوراً سريعاً فانهُ في وسعنا ان نستبدل الخطط التي اتبعناها بعكسها . وهكذا يمكننا رفع عدد السكان او تخفيضها بحسب مشيئتنا

الصورة الاولى

الصورة الثانية

جبال الجليد

ومخاطرها وكيف تتقى

البحر بين الجزائر البريطانية والطرف الشمالي الشرقي من اميركا يكاد يكون السكة السلطانية للسفن التجارية تجري فيهِ ذهاباً واياباً اكثر مما تجري في بحر آخر من بحار المسكونة مع انهُ اشدها خطراً تثور فيهِ الزوابع ويغطيهِ الضباب وتخطر فيهِ جبال الجليد. لكن التجارة والمكسب شحذا غرار العزائم وهما سنان المخاطر فبنى المهندسون سفناً كالمدن في سعتها والحديد في متانتها واستنبط العلماء آلات تنبئ بالخطر قبل الدنو منهُ

الضباب والزوابع مما الفناهُ واما جبال الجليد فلم يرَها من قراء المقتطف الاَّ من اتفق لهُ ذلك وهو مسافر بين اوربا واميركا الشمالية ولذلك فالكلام عنها لا يخلو من فائدة ولا سيما بعد ما حفلت برقيات الصحف بأنبائها على ذكر رحلة الملك جورج السادس والملكة اليزابيت الى كندا

يتذكر قراء المقتطف ان في اواسط ابريل من سنة ١٩١٢ كانت سفينة كبيرة اسمها التيتانك ذاهبة من اوربا إلى اميركا فصدمها جبل من جبال الجليد وأغرقها وأغرق من ركابها وبحارتها اكثر من ١٥٠٠ نفس وكان بينهم الكاتب النحرير وليم ستد منشئ مجلة المجلات الانكليزية المعروف لدى قراء المقتطف بنصرتهِ للحق على البطل وتأييدهِ العدل في وجه الظلم وبانهُ استاذ اللورد ملنر الذي وضع المالية المصرية على أساس متين

الى الشرق من الطرف الشمالي من اميركا الشمالية بلاد جبلية واسعة اسمها غرينلندا يغطيها الثلج على مدار السنة ويعلو عليها خمسة آلاف قدم فهذا الغطاء من الثلج يتلبد بعضهُ فوق بعض ويصير جليداً دائم الزحف في الاودية التي بين الجبال الى ان يصل الى البحر فيغور طرفهُ ولكنهُ اخف من الماء ولاسيما من ماء البحر فيحاول الماء رفعهُ الى ان تزيد قوة هذا الرفع على قوة تماسك الجليد بعضه ببعض فينقصف بصوت كالرعد القاصف ويموج بهِ ماء البحر الى بعد شاسع ويكون منهُ جسم كبير من الجليد تسعة اعشارهِ غائصة في الماء والعشر الآخر عائم فوقهُ كالجبل الشامخ ويشرع يسير الهوينا من أول مارس الى اول يوليو غير هيَّاب ولا وجل كانهُ في نزهة

ولسان حاله يقول من الماءِ والى الماءِ . والغالب انهُ يذوب رويداً رويداً ولاسيما اذا لقيهُ مجرى الماءِ الحار المسمى مجرى الخليج لوروده من خليج المكسيك قرب خط الاستواءِ . واما اذا كان كبيراً جدًّا فقد يسير ١٨٠٠ ميل ويمرُّ في الطرق التي تجري فيها السفن بين اوربا واميركا

لما حدث ما حدث للسفينة تيتانك قام الناس في اوربا واميركا طالبين ان يراقَب البحر دواماً حيث تكون جبال الجليد وتنبَّهُ السفن لها فلا تتعرض للخطر . فعيَّنت وزارة البحرية الاميركية طرادين يراقبان البحر الى ان لا يبقى فيهِ جبل من جبال الجليد في طريق السفن والتأم المؤتمر الدولي الذي يهتم بالمحافظة على الناس بحراً في مدينة لندن في الخريف التالي وحضرهُ مندوبون من جميع الدول البحرية السويد والمانيا وايطاليا وبريطانيا وبلجيكا والدنمارك وفرنسا وكندا والنرويج وهولندا والولايات المتحدة وقرَّر وجوب مراقبة البحر واناط ذلك بالولايات المتحدة فأرسلت سفينتين تراقبانهِ حيث تكون جبال الجليد في طريق السفن في الاشهر التي يحتمل ان تكون فيها هذه الجبال هناك وتعهدت كل دولة بأن تدفع نصيبها من النفقات على نسبة سفنها التجارية التي تمر بين اوربا واميركا . ومن ثمَّ لم تفقد سفينة منها بجبال الجليد

قال الكومندور زُسْلر Zeusler رسام هذه المراقبة انهُ عُيِّن لها سفينتان اسم احداها «تمبا» واسم الثانية «مودُك» وعينتُ أنا رساماً بحريًّا (أوشوينوغراف) وعلى الرسام البحري أن يعرف موقع السفينة التي هو فيها في كل دقيقة من الزمان نهاراً وليلاً وان يراقب جبال الجليد ويعرف حركات جميع السفن الماخرة في البحر الى بعد ٤٠٠ ميل عنهُ من كل جهة بواسطة الراديو وان يرسل اخبار جبال الجليد التي يراها من السفينة التي هو فيها الى كل السفن ويعين موقعها تماماً واتجاهها في حركتها . ولا تنحصر مراقبتهُ في جبال الجليد بل يجب ان يراقب ايضاً ما في البحر من حطام السفن وان يخبر كل سفينة بمواقع غيرها ويراقب مجاري الرياح ويخبر السفن بها وان يجرب التجارب التي ينتظر منها فائدة . ومن التجارب التي جرَّبها تجربتان يراد بهما ازالة جبال الجليد من طريق السفن أو منع الاصطدام بها

وفيما يلي ملخص ما كتبهُ بضمير المتكلم قال : —

سرنا بالتمبا في ٢١ مارس من مرفإِ بوستن ووجهتنا غراند بنكس (الشفُر العظيمة حيث تمر جبال الجليد) . وطول التمبا ٢٤٠ قدماً وعرضها ٣٩ قدماً وكذلك اختها مودُك فهما صغيرتان جدًّا اذا قوبلتا بجبل من جبال الجليد طولهُ ٧٠٠ قدم وعرضهُ ٢٥٠ قدماً وارتفاعهُ فوق الماءِ ٢٠٠ قدم والتمبا من اصغر السفن التي سارت في الاوقيانوس الشمالي وراء البنكس لكنها من امتن السفن على مقاومة الزوابع والتيارات التى يمتاز بها ذلك البحر وهي تجري بالكهربائية وقلما تنود وفيها ٨٤ من البحارة ومدفعان كبيران ومدفعان صغيران وآلات للراديو نستطيع

ان تتكلم بها مع سفن جميع الامم على اختلاف اساليبها . واليك بعض المسائل التي كانت تصل الينا من السفن السائرة في عرض الاوقيانوس

— اين ابعد جبل جليد جنوباً

— إلى الشمال الشرقي منا شيء من جبال الجليد

— اتوجد جبال جليد تحت الدرجة ٤٧ من العرض الشمالي

— نحن في ضباب كثيف عند الدرجة ٤٧ والدقيقة ١٠ من العرض (الشمالي) والطول ٤٩ درجة و ٣٥ دقيقة فما هي افضل جهة نتجه فيها لكي لا نلاقي جبال الجليد

— ما هي آخر الاخبار عن الطقس والجليد

وكان عليَّ ان انهض عند الفجر قبلما تغيب النجوم حتى اتحقق موقعنا منها . وعند الساعة السادسة يجب ان نذيع بالراديو ما نعلمهُ من مواقع جبال الجليد والضباب والطقس حتى يصل الى جميع السفن الماخرة في ذلك الوقت فنقول مثلاً « ان سفينتنا على مقربة من جبلين من جبال الجليد في عرض ٣٠َ ٤٢ْ وطول ٣٠َ ٤٨ْ وهما يسيران نصف ميل بحري في الساعة باتجاه ١٨٠ درجة والبحر رهو والضباب كثير » . ثم نبين مواقع جبال اخرى من جبال الجليد . فتعلم السفن مما نذيعهُ من الاخبار ما تجدهُ في طريقها

وفي الساعة السابعة نتناول طعام الصباح . وفي الثامنة نتناول الاخبار بالراديو من اماكن المراقبة المختلفة ومن السفن الماخرة في البحر فالاولى تخبرنا بما تراهُ وتعلمهُ والثانية تخبرنا ايضاً بمواقعها واتجاهها وسرعتها وبما تراهُ من احوال الطقس وحرارة الماء وما يبلغها من اخبار جبال الجليد فنعيّن نحن مواقعها على الخرائط ونحسب ما يحتمل ان تلاقيهُ في طريقها من المخاطر ونخبرها بهِ . ومعرفة حرارة الماء ضرورية جدًّا لانهُ اذا جاءتنا اخبارها من اماكن كثيرة استطعنا ان نعيّن مواقع جبال الجليد بالضبط

وهناك حد يلتقي فيهِ مجريان من ماء الاوقيانوس الواحد حار وهو مجرى الخليج الآتي من خليج المكسيك والآخر بارد وهو آتٍ من الشمال من جهات لبرادور . ولون الماء الى الشمال من هذا الحد اخضر زيتوني والى الجنوب منهُ ازرق نيلي واللون الاول ناتج عن نوعٍ من الحيوانات الميكروسكوبية التي في الماء . وقد يكون مقدم سفينتنا في الجانب الاخضر وحرارة الماء هناك ٤٠ درجة فارنهيت ومؤخرها في الجانب الازرق وحرارة الماء هناك ٦٠ درجة فارنهيت وعلى نصف ميل منا شمالاً جبل من الجليد وهو الذي برَّد ماء البحر .

رأينا في الظهيرة جبلاً من الجليد لم نكن قد رأيناهُ قبلاً فدنونا منهُ وصورناهُ من ناحيتين وقسناهُ هندسيًّا لنعرف طولهُ وعرضهُ وعلوهُ فوق الماء وقسنا درجة الحرارة عند سطح الماء

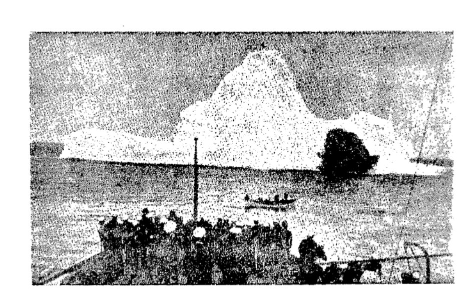
وعلى خمسة اعماق مختلفة وأخذنا جانباً من الماء لمعرفة مقدار ملوحتهِ ونحن نستدل من هذه المعلومات على الجهة التي يسير هذا الجبل اليها وسرعة سيره ثم نذيع ذلك بالراديو لتعرفهُ كل السفن الماخرة في الأوقيانوس . وكنا في حاجة الى جانب من الثلج لتبريد طعامنا فأمر القبطان ان يذهب بعض الرجال بقارب الى هذا الجبل ويأتونا بقليل من ثلجهِ فذهبوا ولما دنوا منهُ سمعوا أزيزاً كأزيز ماء يغلي سببهُ ان قطعاً صغيرة من الثلج كانت تنفصل منهُ وتذوب في الماء فيسمع لذوبانها هذا الأزيز دلالة على ان الجبل مكون من ثلج ملتحم بعضهُ ببعض ولو سمي جليداً

وفي المساء أوقفنا الآلات ونحن على مشهد من هذا الجبل وأرسلنا أخبارنا بالراديو الى السفن الكبيرة التي فيها آلات راديو حديثة ثم الى السفن التي فيها آلات راديو قديمة وأخبرناها كلها باحوال الطقس فيما يجاورنا وأوصلنا هذه الاخبار براً الى مدينة وشنطون. وأخبار الطقس مهمة تستفيد منها أميركا وأوربا لاننا نحن الوحيدون الذين يخبرون عن تقلباتها في أواسط الأوقيانوس اذا استثنينا سفينة الطقس الفرنسية جاك كارتييه ومقامها في الغالب على ٣٨° درجة من العرض الشمالي و٥٧° درجة من الطول الغربي

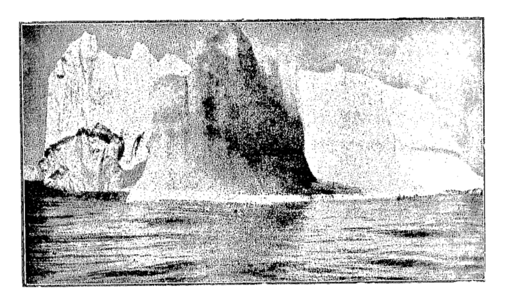
لقد سافر ألوف من الاميركيين الى أوربا في الربيع الماضي وقلَّ من عرف منهم مقدار التدابير التي اتخذت لسلامتهم ولو بحثوا لوجدوا في غرف الراديو في السفن التي سافروا فيها انباء متوالية ترد اليها من سفينتينا التَّمبا والمودك تخبرها عن مواقع الضباب وجبال الجليد. ولوجدوا أيضاً ان أخبار السفن التي هم كانوا فيها تصل الينا فنعلم منها هل هي سائرة في سبيل سليم او في سبيل معرَّض للخطر فنرشدها الى ما يضمن لها السلامة

رأينا سفينة فرنسية من سفن الصيد وقد رفعت على ساريتها الحرفين RZ ومعناها « في أي موقف نحن » . لان السفينة كانت قد سارت في زوبعة وضباب حجب الشمس عنها فتعذرت عليها معرفة الموقف الذي هي فيهِ فدنونا منها وأريناها ورقة كبيرة عليها درجات الطول والعرض فأنزلت الحرفين RZ ورفعت بدلاً منها الحروف الثلاثة XOR أي « مع الشكر »

وفي اليوم التالي لقينا اثنتي عشرة سفينة شراعية فرنسية مجتمعة معاً تتقلب في بحر هائج شديد الامواج فأنزلنا قارباً ودنونا منها فطار نوتيتها فرحاً لما رأونا وعرفوا سفينتنا وكلفونا ارسال اخبارهم بالراديو الى عيالهم في بريتاني . وطلب أصحاب سفينة منها ان نقايضهم سمكاً بتبغ وشكولاتا ولحم فلبينا طلبهم. وكان في سفينة أخرى مدفع مكسور من مدافع الضباب تهتدي قواربها باطلاقه اذا خيف ضلالها فأتى بهِ الى سفينتنا ثلاثة من رجالها فاصلحناه لهم وأطعمناهم معنا طعاماً حرموهُ منذ ثلاثة اشهر لحماً وبيضاً وبطاطساً وكرنباً فعادوا شاكرين حامدين ووعدوا ان يصلوا لاجلنا . وكان في سفينة أخرى من هذه السفن رجل كسرت ذراعهُ ورجال



الصورة الثالثة



الصورة الرابعة

١ — صورة جانب من جبل جليد كبير انقلب رأساً على عقب والباخرة التي الى جنبه طولها ٥٧٥ قدماً

٢ — الجبل نفسهُ وقد رُسمت صورته وهو قريب الى آلة التصوير فبدت السفينة صغيرة

٣ — صورة جبل آخر من جبال الجليد ومؤخر السفينة «مودك» وبحارتها يرقبون فعل الديناميت في جانب الجبل

٤ — صورة الجبل الاكبر الموصوف في آخر المقالة والجانب الذي اسودَّ لما نُسف اولاً

سمّوا وهم ينظفون السمك من جروح في أيديهم فأعطيناهم الادوية اللازمة

وفي ١٣ ابريل بلغنا بقعة فيها ١٤ جبلاً من جبال الجليد وهي من نوعين صلب وجاف أما الصلب فيظهر كقطعة كبيرة من الرخام الابيض والغالب ان تكون جوانبهُ الظاهرة ملساء من فعل الماء وقد يميل على أحد جوانبهِ ثم يميل على جانب آخر ولكنهُ قلما ينقلب رأساً على عقب وأما الجاف فيظهر كقلعة ذات أبراج عالية والغالب ان يكون فيهِ برجان عاليان محددا الرأسين بينهما منخفض كواد بين أكمتين.وهو يسير سيراً وئيداً كسفينة كبيرة ولا يميل كالأول لكنهُ أشد خطراً من الاول

وكثيراً ما ينتأ من جبال الجليد ألسنة متينة تحت وجه الماء اذا صادفت سفينة طعنتها فأردتها ومن ذلك اللسان الذي طعن التيتانك فخرقها واغرقها . واليوم التالي وهو ١٤ ابريل يوافق اليوم الذي غرقت فيهِ التيتانك فاجتمعنا على ظهر مودُك تذكاراً لتلك النازلة وخفقنا العلم الاميركي وأقمنا الصلاة وشاركتنا كل السفن الماخرة في الاتلنتيك بإسكات الراديو دقائق

ثم جربنا نسف جبال الجليد بالديناميت فأنزلنا قارباً فيهِ ثمانية رجال ورئيس فدنوا اولاً من جبل صغير ناخر من فعل الامواج ارتفاعهُ فوق الماء ١٠ أقدام وطولهُ ٥٠ قدماً ووضعوا تحت جانب منهُ ٢١٠ ارطال من المادة المفرقعة TNT أوصلوها بسلك كهربائي وأبعدوا عنهُ البعد الكافي ثم نسفوهُ فتمزق جانب منهُ وقدَّرنا اننا قصَّرنا عمرهُ يومين

ثم جربنا بجبل كبير من الجليد الصقيل طولهُ ٣٠٠ قدم وعرضهُ ١٥٠ قدماً وجانب منهُ لسان كبير يغطيهِ عشر أقدام من الماءِ فوضعنا الديناميت تحت هذا اللسان ونسفناه فارتجف الجبل كلهُ وتطاير من اعلاه رشاش من قطع الجليد وعلا من جانبه عمود من الماء والدخان الاسود مائة قدم ثم هبط واستقر على وجه الماءِ وكأن الجبل لم يشعر بما فعلنا

ثم امررنا حبلاً فوق هذا اللسان وربطنا الديناميت بأحد طرفيه وأنزلناه ٧٥ قدماً في الماء وربطنا في الجانب الآخر من الحبل كيساً فيهِ قطع من الحديد لموازنة الديناميت . ونسفنا الديناميت فاهتزَّ الجبل كلهُ اكثر مما اهتز في النوبة الاولى ولكن لم يتلف منهُ شيء مع ان هذا المقدار من الديناميت كافٍ لنسف اقوى البوارج

وفي ٢٦ مايو رأينا جبلاً كبيراً من جبال الجليد عند الطرف الشمالي من البنكس وكان سائراً جنوباً سيراً وئيداً فيقطع ٢١ ميلاً كل يوم فتبعناه الى ان صرنا نرى رأسه في الافق وكنا لا نزال على عشرين ميلاً منهُ لانهُ كان يعلو ٢٦٧ قدماً فوق الماء . وكان البحر رهواً والجو صافياً فلما دنونا منهُ رأيناه متربعاً في الماء بكل مجده كجبل شامخ ثم تبينا انهُ من النوع الجاف طولهُ ٥١٢ قدماً وعرضهُ كذلك وقد أشار أحد النوتية ان نجره الى نيويورك فيكفيها ثلجاً

شهرين ونصف شهر من اشهر الصيف لانهُ يزن نحو مليون طن ونصف مليون وهوذا بعض ما كتبناه عنهُ في يوميتنا

٣ يونيو — الجبل متجه الى طرف البنكس. ولذلك نرجو أن يصيب ارضاً فيرسو عليها ويقل تعبنا

٤ يونيو — الضباب كثيف أخفى الجبل

٥و٦ يونيو — الحالة على ما كانت عليهِ ونقدر ان الجبل سار خمسة اميال جنوباً . وحينئذٍ اذعنا بالراديو أن جبل الجليد الى الشمال فيجب الحذر منهُ

٧ يونيو — كنا على سبعة اميال من الجبل واذا منظرهُ على حالهِ ولم نكد ندنو منهُ حتى هبط على جانب من اعلاهُ بغتة بصوت يبعث الاموات من قبورهم وكان قد ابعد ٦٠ ميلاً الى جهة الجنوب الغربي فتأكدنا ان اجلهُ قد دنا

٨ يونيو — صارت حرارة الماء على ٤٢ درجة فارنهيت فجعلت تذيب الجبل كما يظهر من ميله

٩ يونيو — عزمنا ان نساعد الماء فحاولنا نسف الجبل بالديناميت من أعلى ومن أسفل فلم يؤثر الديناميت فيهِ تأثيراً محسوساً فعزمنا ان نحفر حفرة فيهِ قرب سطح الماء ونلغمها بأربع دكات من الديناميت ففعلنا فحفرت الدكات الثلاث الاولى حفرة عمقها ١٥ قدماً وسعتها ٢٠ قدماً وضعنا فيها الدكة الرابعة وسددناها بالجليد وأطلقناها فسوَّدت بقعة من ظاهره عرضها ١٠٠ قدم وطولها بحسب علو الجبل كما ترى في الشكل الرابع فصار هذا الاسوداد علامة يرى بها الجبل عن بعد

١٠ يونيو — وقع المطر وانتشر سجف رقيق من الضباب فوق الجبل

١٢ يونيو — وقع جانب كبير من أعلى الجبل نحو ٢٠٠٠٠ طن ولعلَّ ذلك نتج من نسفنا لهُ فصار علوهُ الآن ١٨٠ قدماً وطولهُ ٤٥٠ قدماً

١٤—١٦ يونيو — اتجه الجبل الى جهة الشمال الشرقي ذاهباً نحو الماء البارد ولو عبر الخط البارد الى الحار لاختفى في ثمانية ايام لكنه لم يتقدم نحو الخط الذي تسير فيهِ السفن وهو قريب جداً من المكان الذي نحن فيهِ. وقضينا الليل نلقي النور الكشاف عليهِ لكي تراه السفن ولا تدنو منهُ

١٩ يونيو — صار الجبل في معرض الخطر فان ريحاً جنوبية شديدة عصفت عليه وجعلت الامواج تلطمه بشدة فيرتفع زبدها في الجو اكثر من ١٠٠ قدم ونحن نسمع صوتها على ثلاثة ارباع الميل . ٢٠ يونيو — كان فعل العاصفة بالجبل اشد من فعل الديناميت فنزعت طرفيهِ ورأسهُ فصار طوله ٢٥٠ قدماً وعلوهُ ٩٠ قدماً . ٢٤ يونيو — فتح القبر فاهُ فتردَّمت جوانب الجبل وزال مجدهُ وصارت حرارة الماء ٥٢ درجة لاننا دخلنا في مجرى الخليج . ٣٠ يونيو — لم يبقَ ظاهراً من ذلك الجبل الشاهق الاَّ قطعتان صغيرتان

١ يوليو — الساعة السادسة اخذ مجرى الخليج يثأر للتيتانك فابتلع آخر اثر من الجبل .



بالاشعاع

للدكتور على مصطفى مشرفه بك
عميد كلية العلوم بالجامعة المصرية

قبل أن اتكلم عن علاقة المادة بالأشعاع سأوجز لحضراتكم شيئاً عن كل منهما على انفراد . فالمادة كانت ولا تزال موضع درس العلماء وكانت دراسات المادة حتى اواخر القرن الماضي تنقسم الى قسمين رئيسين : الدراسات الطبيعية التي كانت ترمي إلى تعرف احوال المادة المختلفة الجامدة والسائلة والغازية وتأثرها بالمؤثرات الطبيعية المختلفة كالحرارة والقوى الميكانيكية وخصائصها الطبيعية كالمرونة والتوتر السطحي . والدراسات الكيميائية التي كانت تبحث في التفاعلات الكيميائية بين المواد المختلفة وتكوين المركبات من العناصر وتحليلها الى هذه العناصر وكيف أن هذه العناصر يمكن ان تتحد بطرق مختلفة لتكوين مركبات مختلفة بعضها غير عضوي وبعضها عضوي. وقد أدت كل من الدراسات الطبيعية والدراسات الكيميائية للمادة الى النتيجة الهامة الآتية وهي ان المواد على اختلاف انواعها وصورها مؤلفة من عدد محدود من العناصر (هذا العدد هو الى حد علمنا الآن نحو ٩٢ عنصراً) كما أدت الى ان العناصر المختلفة مؤلفة من ذرات مختلفة وبذلك تكون المواد جميعاً مؤلفة من نحو ٩٢ نوعاً مختلفاً من الذرات

وفي اواخر القرن الماضى بدأت طائفة من المباحث الجديدة قوامها البحث عن تركيب الذرة ذاتها فوجد أن هناك جسيمات أصغر من الذرة وداخلة في تركيبها. ووسائل هذا البحث من الناحية التجريبية كانت في أول الأمر تكاد تكون محصورة في دراسة ما يحدث عندما نمر تياراً كهربائياً في غاز قليل الضغط . وقد رأيتم المظهر الخارجي لمرور الكهرباء في الغازات . فالاعلانات المختلفة في شتى انحاء المدينة التي ترونها تتوهج بألوان مختلفة والتي تسمى في العرف التجاري «انابيب النيون » هذه العلامات المنيرة التي صارت شائعة الآن كانت في اواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي لا تكاد ترى إلا في معامل الطبيعة بالجامعات وقد كانت ولا

(١) محاضرة القيت في المؤتمر السنوي العاشر للمجمع المصري للثقافة العلمية

تزال وسيلة من أهم وسائل الكشف عن تركيب الذرة ، وقد وجد أنهُ أيًا كان الغاز الذي تحتويه هذه الأنابيب فان القطب السالب الكهربائي المثبت داخل الأنبوبة تنبعث عنهُ جسيمات صغيرة تتحرك بسرعات تقدر بعشرات الالوف من الكيلومترات في الثانية الواحدة وأن كل جسم من هذه الجسيمات يتحمل شحنة كهربائية سالبة ذات قدر معلوم كما أن الجسيمات كلها متساوية الوزن

ويساوي وزن كل منها نحو $\frac{1}{1800}$ من وزن أخف ذرَّة نعرفها وهي ذرة الايدروجين وسميت هذه الجسيمات بالالكترونات . ويرجع الفضل في الكشف عن الالكترونات الى J. J. Thomson بانكلترا و R. A. Millikan باميركا وغيرهما . وحوالي نفس الوقت في أواخر القرن الماضي اكتشفت ظاهرة النشاط الاشعاعي الذاتي في عنصر اليورانيوم وعنصر الراديوم وبعض العناصر الأخرى ووجد ان هذه العناصر لها خاصية قوامها ان ذراتها تتكسر او تتجزأ فتنبعث منها جسيمات صغيرة بعضها الكترونات والبعض نوع آخر من الجسيمات يبلغ وزن كل منها نحو أربعة أمثال وزن ذرة الايدروجين وتحمل كل منها شحنة موجبة تعادل من حيث المقدار ضعف شحنة الالكترون. هذه الجسيمات التي سميت جسيمات ألفا وجد أنها عبارة عن ذرة من ذرَّات غاز الهليوم مجردة من الالكترونين اللذين تحملهما . وعثر أيضاً على جسيمات أخرى سميت بروتونات وهي عبارة عن ذرات إيدروجين مجردة من الكتروناتها. وفي المحاضرة التي تشرفت بالقائها أمام هذا المجمع الموقر سنة ١٩٣٦ جعلت موضوع حديثي الجسيمات التي أكتشفت منذ سنة ١٩٣١ وهي

اليوزيترون أو الالكترون الموجب
النيوترون أو البروتون المتعادل
الديبلون أو البروتون الثقيل

ومنذ سنة ١٩٣٦ حدث تقدم كبير في استخدام النوترونات لاحداث ما يسمى بالنشاط الاشعاعي الاصطناعي او المكتسب فقد وجد ان العناصر التي ليس لها نشاط اشعاعي ذاتي يمكن تحويلها الى عناصر ذات نشاط اشعاعي مكتسب بتعريضها للنيوترونات المتحركة . ولا بأس بالاشارة هنا الى ما حدث منذ أوائل العام الحالي من التوصل الى قسمة او فلق ذرَّة اليورانيوم بتعريضها لنيوترونات بطيئة فقد تمكن (Hahn & Strassmann) في برلين من الحصول على عنصر الباريوم ووزنه الذري ١٣٧ من عنصر اليورانيوم الذي وزنه الذي ٢٣٨ وحدث مثل ذلك لعنصر الثوريوم (٢٣٢)

وخلاصة ما تقدم ان المادة مؤلفة من جسيمات وأن أمامنا اليوم قائمة من هذه الجسيمات بعضها مشحون كهربائيًا وبعضها عديم الشحنة وانا في طريقنا إلى الحصول على الجسيمات الخفيفة

من الجسيمات الثقيلة وغاية ما يمكن ان نطمع فيه في هذا الدور من تطور العلم أن نرجع الجسيمات جميعاً إلى نوع واحد رئيسي أو نوعين من الجواهر الابتدائية . هذا عن المادة

أما الاشعاع فكان فلاسفة الأغريق مختلفين في هل كانت رؤية الأشياء تنشأ عن خروج شعاع من العين تصل الى المرئي أو وصول شعاع من المرئي الى العين وكان الرأي الغالب (قال به اقليدس وغيره) أن الرؤية تحدث بخروج شعاع من العين الى الجسم المرئي. ويرجع الفضل في وضع علم الضوء إلى العرب كما يثبت من الاطلاع على مؤلفات ابن الهيثم . وقد قال ابن الهيثم في أول رسالته في الضوء ما يأتي : « الكلام في ماهية الضوء من العلوم الطبيعية والكلام في كيفية اشراق الضوء محتاج الى العلوم التعليمية من أجل الخطوط التي تمتد عليها الأضواء. وكذلك الكلام في ماهية الشعاع هو من العلوم الطبيعية والكلام في شكله وهيئته هو من العلوم التعليمية ، وكذلك الأجسام المشفة التي تنفذ الأضواء فيها الكلام في ماهية شفيفها هو من العلوم الطبيعية والكلام في كيفية امتداد الضوء فيها هو من العلوم التعليمية ، فالكلام في الضوء وفي الشعاع وفي الشفيف يجب أن يكون مركباً من العلوم الطبيعية والعلوم التعليمية » . وقد دل ابن الهيثم بذلك على ادراكه الفرق بين ما نسميه اليوم علم البصريات الطبيعية وعلم البصريات الهندسية ، وقد عُرف عن البصريات الهندسية الشيء الكثير في العصر العربي وفي العصور الحديثة الأولى أما البصريات الطبيعية فلم تتقدم تقدماً محسوساً حتى اواخر القرن السابع عشر . ويقترن هذا التقدم باسماء Roemer الذي قاس سرعة الضوء سنة ١٦٧٥ فوجدها ما يقرب من ٣٠٠ر٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة وحققها بعد ذلك Fizeau سنة ١٨٤٩ و Foucault سنة ١٨٦٢ و هويجنز Huygens الذي اسس النظرية الموجية للضوء عام ١٦٧٨ و Young و Fresnel و Arago وغيرهم. والنظرية الموجية للضوء هي بلا شك نظرية هامة أمكن بواسطتها تفسير معظم الخواص الطبيعية للضوء . وهذه النظرية تفرض ان الضوء حركة اهتزازية تنتقل من الجسم المضيء الى ما حوله وقد امكن تفسير قوانين الانعكاس والانكسار بناءً على هذه النظرية كما أمكن على وجه الخصوص تفسير ظواهر التدخل والحيود. وسأعرض على حضراتكم بعض صور تمثل ظاهرة التدخل في الامواج. فهذه صورة تدخل الامواج على سطح زئبق. ومنها ترون وجود مناطق هدوء ومناطق اضطراب متعاقبة وقد وجد انه عند ما يمر الضوء في ثقب صغير فاننا نحصل على مناطق مضيئة فمناطق مظلمة فمضيئة وهكذا مما يعزز النظرية الموجية وبواسطة النظرية الموجية كان في الوسع أن تفسر الاختلاف في الالوان على أنهُ اختلاف في الطول الموجي كما انه عممت فكرة الضوء بحيث شملت جميع الاشعة ، المرئية منها وغير المرئية. فأشعة اللاسلكي التي تبلغ طول الموجة فيها مئات الامتار والاشعة الحرارية والاشعة المرئية والاشعة التي بعد البنفسجية والتي تقل طول الموجة

فيها عن $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ من السنتمتر . وكذلك الاشعة السينية وأشعة جاما والأشعة الكونية جميع هذه تؤلف سلسلة تكاد تكون متصلة الحلقات من الأشعة يطلق عليها جميعاً اسم الأشعة او الاشعاع . وخلاصة القول إذن ان الاشعاع هو تموجات تنتقل بسرعة ٣٠٠ر٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة وتختلف في أطول أمواجها

واذا كانت المادة عبارة عن جسيمات والأشعة عبارة عن تموجات فانهُ ربما ظهر لأول وهلة ان العلاقة بينهما تكاد تكون منعدمة . ولكن هناك أوجهاً للشبه بين المادة والاشعاع ألخصها لحضراتكم فيما يلي :

(أولاً) ان الاشعة المختلفة اذا وقعت على سطح ينشأ عن وقوعها ضغط كما يحدث في حالة المادة . فالشعاع من الضوء الساقط على ورقة يضغط على سطح الورقة كما لو كان الشعاع مصنوعاً من المادة . وقد عرفت هذه الظاهرة منذ القرن الثامن عشر . وسميت بظاهرة ضغط الضوء او ضغط الاشعاع . وهذا الضغط صغير جدًّا في الاحوال العادية اذ لا يزيد ضغط أشعة الشمس على ميل مربع من سطح الارض عن وزن ثلاثة أرطال . أما اذا ازدادت شدة الاشعة وقصرت موجتها فقد يزداد الضغط الى اضعاف هذا المقدار

(ثانياً) ان الاشعة لها خاصة الجسيمات او الجبيبات كما لو كانت الاشعة مؤلفة من ذرات ضوئية . وقد سميت هذه الذرات الضوئية بالفوتونات . وتظهر هذه الخاصية الذرية بصفة واضحة في بعض الظواهر مثل ظاهرة الكهربائية الضوئية التي تستخدم في بعض الاجهزة الكهربائية الحديثة كجهاز السينما الناطق . وتتلخص هذه الظاهرة في ان وقوع ضوء على بعض المواد كعنصر السيلنيوم مثلاً ينشأ عنهُ تيارات كهربائية . وقد عرفت هذه الظاهرة منذ اوائل القرن الحالي وجاءت دراستها مؤيدة لمذهب الذرية الضوئية

(ثالثاً) ان المادة لها خواص موجية تشبه الخواص الموجية للضوء ولم تكن هذه الخاصية الموجية للمادة معروفة حتى سنة ١٩٢٧ اي منذ نحو ١٢ سنة فقط . ويرجع الفضل في الكشف التجريبي عنها الى طمسون وريد Thomson & Reid بانكلترا ودافيسون وجرمر باميركا Davisson & Germer وترون صورة لنتائج تجارب تومسون نشرت في اعمال الجمعية الملكية بلندن سنة ١٩٢٨ . كما ترون صورة يقارن فيها بين حيود المادة وحيود الاشعاع

***

ويتضح من اوجه الشبه التي ذكرتها ان كلاًّ من المادة والاشعاع يمكن اعتباره مؤلفاً من جسيمات كما ان كلا منهما يمكن اعتباره مؤلفاً من امواج والفرق الرئيسي بين المادة والاشعاع

هو السرعة. والفوتونات التي تتألف منها الاشعة تكون دائماً متحركة بسرعة $\frac{١}{٣٠٠٠٠٠}$ كيلو متر في الثانية الواحدة في حين ان الالكترونات والبروتونات وما اليها من جسيمات المادة هي إما ساكنة وإما متحركة بسرعات تكون عادة صغيرة بالنسبة الى سرعة الفوتونات

***

وقد تقدمت اخيراً ببعض آراء يقصد منها التوفيق بين وجهتي النظر الى كل من المادة والاشعاع . ولما كانت هذه الآراء قد علق عليها تعليقات مختلفة من بعض العلماء فلا بأس هنا بالاشارة اليها

من المعلوم أن القوانين الكهربائية المغنطيسية تصاغ عادة في الصيغة التي تنسب الى مكسويل وفي هذه القوانين نستعمل عادة لغتين مختلفتين احداهما للتعبير عن المادة والاخرى للتعبير عن الاشعاع. فهل من الممكن استخدام قانون اكثر أساسية من قانون مكسويل أي ان نوحد بين اللغتين بحيث تنطبق العبارة الواحدة على كل من المادة والاشعاع ؟ هذا هو السؤال الذي وضعتهُ لنفسي وحاولت الاجابة عنهُ

وقد وجدت انهُ للاجابة على هذا السؤال يكون من المفيد ان نحول المعادلات بحيث تعبر عن وجهة نظر شخص متحرك بسرعة الضوء لكي يمكن مقابلة وجهة نظر هذا الشخص بوجهة نظرنا العادية . واني اخشى ان هذا التحويل الذي هو تحويل عادي جداً من الوجهة الرياضية قد استرعى انتباهاً اكثر مما يجب. فمثلاً قارن السر اولفر لودج في احد مؤلفاته بيني وبين سويفت Dean Swift واضع كتاب رحلات جلفر المشهور. ولكنني لا اعتقد ان هناك مسوغاً كبيراً لهذه المقارنة. فان كبلر عند ما جول حركات الكواكب السيارة الى ما تظهر عليهِ إذا نظر اليها من وجهة نظر شخص على الشمس ، لم يكن يتطلب منا ان ننتقل الى الشمس نصطلي بسعيرها لكي ننظر الى العالم . وكذلك اذا امكن تحويل معادلات مكسويل أو غيرها من القوانين بنسبتها الى محاور متحركة بسرعة الضوء فليس معنى هذا ان علينا ان نكون ملائكة مصنوعين من النور لكي يمكن لنا فهمها. كذلك قرأت للاستاذ هولدين J. B. Haldane مؤلفاً اشار فيهِ الى آرائي هذه في علاقة المادة بالاشعاع على أنها تنطوي على مبدأ فلسفي جديد. ولكنني أفضل ان ينظر اليها النظرة التي نظرها اليها السر جيمس جينز (James Jeans) أي على أنها محاولة للتوحيد بين لغتين مختلفتين وقانونين مختلفين أحدها يصلح للمادة والآخر للاشعاع وان نجعل منها لغة واحدة وقانوناً واحداً يصلح لكل من المادة والاشعاع

[المقتطف] ذهب نيوتن الى ان النور ذرات. وذهب هوجنس الى انهُ امواج فراجت سوق الجدال بين العلماء. فاقترح احدهم ان يؤتى بصندوق اسود من داخلهِ ويزنهُ اولاً ثم يوجه اليهِ شعاعة من الضوء ثم يزنهُ بعد ذلك. فاذا زاد وزنهُ بعد ذلك ثبت ان الضوء ذرات واذا بقي وزنهُ على ماكان عليهِ ثبت ان الضوء امواج. فجربت التجربة وبقي وزن الصندوق على حالهِ لان ادق المقاييس والموازين المستعملة الآن لا تستطيع ان تزن الضوء ولو كان ذرات لها وزن. فرجح المذهب التموجي حينئذٍ وبقي سائداً الى اوائل هذا القرن حين اخذت المباحث تثبت شيئاً فشيئاً ان الضوء ذرات وامواج او لدى التحقيق ذرات من الطاقة تسير سيراً موجيًّا وهو مذهب « الفوتون »

وما حدث للضوء حدث للكهرب الآن. فان العلماء أخذوا ينظرون اليهِ نظرهم الى كتلة من الامواج كما يؤخذ من تجارب دافسن وطمسن على اختلاف وسائلها وعدم اتصالها قبل اجتماع غلاسجو في سبتمبر ١٩٢٨ في المؤتمر السنوي لمجمع تقدم العلوم البريطاني، وكما يستفاد من مباحث ده برولي الرياضية الدقيقة التي ايدتها التجارب في المعامل العلمية

اخذ الدكتور دافسن الاميركي بلورة من النكل وسدَّد الى وجهها تياراً من الكهارب فانحرفت بعض الكهارب عنها ولدى التدقيق وُجد ان هذا الانحراف يحصل في جهات معينة دون غيرها. وبعد البحث الرياضيّ الدقيق وجد انهُ لو كانت الكهارب امواجاً مسدَّدة الى وجهِ هذه البلورة لانحرفت عنها الى الجهة التي انحرفت اليها الكهارب دون غيرها ثم حسبت قوة هذه الامواج

وأخذ الاستاذ جورج طمسن اغشية شفافة من المعادن آناً ومن السلولويد آناً آخر وأمرَّ فيها تياراً من الكهارب. ولما كانت اكثر المواد بلورية فكأن الاستاذ طمسن أمرَّ تيار كهاربهِ في غشاء مكون من بلورات عديدة دقيقة بدلاً من ان يوجهها كالاستاذ دافسن الى وجهِ بلورة واحدة. وعلى ١٢ بوصة وراء الغشاء وضع لوحاً فتوغرافيًّا كانت تصيبهُ الكهارب بعد اختراقها الغشاء وتفرقها ببلوراتهِ وتترك فيهِ اثراً فتوغرافيًّا. ولما اخذ هذا اللوح الفتوغرافي وغسلهُ وثبتهُ وجد ان أثر هذه الكهارب ظاهر في حلقة او في نقطة منتظمة في شكل حلقي. وهذا الانتظام يشبهُ أثر اشعة اكس بعد اختراقها لطبقة رقيقة من بلورات الالومنيوم اي ان الكهارب فعلت كاشعة اكس. فالمسألة العظيمة التي تحيّر ألباب العلماء هي هذه: هل الضوء امواج او ذرات. هل الكهارب امواج او ذرات. فالضوء الذي نشأنا على حسبانهِ امواجاً لهُ احياناً صفات الامواج. والكهارب التي اتصفت بصفات الدقائق المادية ثبتت لها صفات واسندت اليها افعال تجعلها والامواج سواء. ورأي الدكتور مشرَّفة يوحّد بينهما



فصل ثان من نشأتي الادبية

الشعر والثقافة

لعبد الرحمن شكري

قد أوضحت في المقال الاول مصادر الثقافة التي تأثرتها في الجزء الاول من ديواني من عربية وأوربية والاحوال التي جعلتني أتأثرها وأوضحت اثر احتذائي بشار بن برد والحسن ابن هاني ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف وابا تمام وابن المعتز والشريف الرضي والمعري وغيرهم ولم اذكر المتنبي في المقالة ولو ان اثره كان كبيراً من الناحية الفكرية لا من ناحية الاسلوب لأن الذين يُفَضَّلون في اثناء احتذاء الاساليب والصنعة البيانية هم الذين ذكرتهم قبل وذكرت شواهد هذا الاحتذاء والتأثر ومهما تكن عيوب الاحتذاء فانهُ افادني ومنعني عند اطلاعي على الشعر الاوربي من الاندفاع وراء الاوهام والمغالاة والتجارب العقيمة ولا سيما ان هذا الاطلاع وهـذا الاحتذاء للشعر العباسي العالي في كتاب الوسيلة الادبية وغيره من الكتب كانا في سن مبكرة جداً وابتدأا من السنة الاولى الابتدائية وكانت وقتئذٍ تعادل في السنّ والمعارف السنة الثالثة الآن وربما كان من الفائدة اني تأثرت بشعر التميق والصنعة العباسية قبل ان أتأثر بشعر العاطفة العذري الذي هو أقدم منهُ زمناً ولو ان الصنعة العباسية في بعضها عبث في العاطفة ولم أتأثر بشعر الشعراء العذريين من شعراء العرب الاَّ بعد عودتي من انكلترة في الجزء الثالث وما بعده . ولعل اطلاعي على نسيب كتاب (الذخيرة الذهبية) في الشعر الانكليزي ونسيب بيرون وشلي قلل من مغالاتي في عبث نسيب الصنعة العباسية واكسبني شيئاً من العاطفة الفنية وكنت في ذلك الوقت لا استطيع أن أنقد بيرون ولا أن أفهم عيوبه ولا ان اعرف ان النفوس التي يصفها متقاربة محدودة الصفات عقيمة في بعض اعمالها وأحاسيسها وانما راقني منهُ ما رأيته من قوة شعره واندفاعه اندفاع السيل الأَتيّ وثورته على الاكاذيب. وقد علمني بيرون نشدان الحرية وان كنت لا أنتصر لها على طريقة السياسي وانما على طريقة الفنان كما في قصيدة (الحرية) و (العصر الذهبي) وغيرها وقد كنت احب شلي ايضاً

ولم اكن استطيع ان انقده في ذلك الوقت وان افهم ان خياله في بعض الاحايين يحلق في السحاب بعيداً عن حقائق الحياة ولا ان تعصبهُ ضد الاديان مما أخلَّ باتزانهِ الفني وانما كان يعجبني منهُ طموحه الى المُثُل العليا وحبهُ الحرية وكرههُ النفاق وكانت تعجبني بعض تشبيهاته الرائعة السائغة في كل لغة ونسيبه الرقيق الذي لم يثقله بالخيال المتكاثف كما كان يفعل أحياناً وقد بقي معي من الثقافة الشعرية الاوربية اثر بيرون وشلي حتى بعد عرفاني حدود ونقائص شعرهما . ولعل اعظم مورد لثقافتي الاوربية كان سفري في البعثة العلمية الى انكلترة سنة ١٩٠٩ وهذا المورد كثير الجداول والعيون فمنهُ الثقافة التي ادى اليها اختلاف مظاهر الطبيعة في انكلترة عنها في مصر والثقافة التي دعت اليها دراستي جويتي الحكيم الالماني ودراستي المعجبين بهِ امثال كارليل وامرسون والثقافة التي كنت ادرسها في جامعة شفيلد في التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي وعلم السياسة والنظريات السياسية ونُظُم الحكم والثقافة التي سهَّلها وجودي في انكلترة وهي ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا في ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثي العهد مثل سوينبورن وروزيتي واوسكار وايلد وغيرهم وامثالهم ممن ترجم بعض شعرهم الى الانكليزية امثال بودلير والثقافة التي مكنني منها علمي بطبعات مختلفة في انكلترة لمصادر الثقافة المختلفة وسهولة الحصول على كتب منها اما بالشراء واما بالأستعارة من المكتبات مثل طبعة بوهن وكان بها جميع مؤلفات جويتي مترجمة الى الانكليزية ومؤلفات هيني الشاعر الالماني الناسب الساخر وغيره من ادباء الالمان وفلاسفتهم امثال شوبنهور وكان بها اكثر كتب الأدب والفلسفة الاغريقية القديمة مترجمة ومثل طبعة فريمان وهي معروفة افادت كثيراً من المطلعين وبها مصادر متعددة للثقافة الانكليزية وثقافات اللغات الأُخرى منقولة الى الانكليزية ولا سيما اكابر شعراء الاغريق القدماء ومنها طبعة كانتربوري وكانت بها مجموعة صالحة من شعر شعراء الانكليز والامم المختلفة مترجمة ايضاً وطبعة سكوت وكانت ايضاً من أكثر الطبقات تنوعاً وطبعة روتلدج على اختلاف اقسامها وطبعة لين التي بها جميع مؤلفات اناتول فرانس مترجمة الى الانكليزية وطبعات اخرى عديدة لا داعي لحصرها وهذه الطبعات قلما كنا نعثر بمؤلفات كثيرة منها في ذلك العهد في مصر واذا عثرنا فلم نعثر بالكثرة التي وجدناها في انكلترا وبالأثمان الرخيصة التي كانت سائدة في ذلك الوقت وهذه الثقافات كلها لم تُنسني الأدب العربي والثقافة العربية لأني اخذت كتبي معي وكنت ادمن قراءتها : (١) فأما الثقافة الاولى وهي ثقافة تعدد مناظر الطبيعة وتنوعها في انكلترا فقد كان لها أثر عظيم في نفسي حتى في اثناء سفري الى مستقر اقامتي وأنا انظر من نافذة القطار ولا ازال اذكر ملاحظتي لاختلاف تلك المناظر التي رأيتها من نافذة القطار عن المناظر التي كنت أراها من نافذة القطار في مصر . ففي مصر نرى الارض سهلاً كأنما

صنعها مهندس بالمسطرة على ورقة وعلى مستوى واحد وفي انكلترا ترى القطعة الصغيرة من الارض تتفاوت في الارتفاع والمظهر تفاوتاً عجيباً وقد بقي اثر تعدد مناظر الطبيعة في نفسي حتى بعد عودتي من انكلترا وفي انكلترا رأيت الوديان الصغيرة التي تحوطها الجبال ورأيت التلال والجبال مكسوة بالاشجار ومغطاة بالجليد او بدقيق الثلج شتاء ورأيت بقايا الغابات الكبيرة القديمة ولهذه البقايا اثر في النفس لا يقل عن اثر الغابات الكبيرة القديمة ورأيت المياه المنحدرة من تلال وكان اثرها في النفس لا يقل عن اثر المساقط المائية العالية الكبيرة لدى من كان صاحب خيال واحساس ورأيت دقيق الثلج يكسو الشوارع والبيوت ويجعل النهار المشمس كالليل المقمر فزاد معنى قول ابي تمام وضوحاً في نفسي وان كان ابو تمام يشير الى الزهر لا الى دقيق الثلج وهو قوله

تريا نهاراً مشمساً قد زانهُ نَوْرُ الرُّبى فكأنما هو مقمر

وقد زادتني مشاهدة تلك المناظر المتعددة قدرة على الوصف حتى على وصف المناظر غير الانكليزية سواء في ذلك الشعر الذي كتبته في انكلترا او بعد عودتي فنظمت قصيدة في وصف الغابة ومظاهرها وأصواتها المختلفة وأثرها في النفس واقتداء بناة الكنائس الكبيرة (الكاتيدرائية) في القرون الوسطى بمناظرها في فن بناء الاعمدة والسقف على نمط البناء القوطي المعروف وقارنت بين حياة الناس فيها قديماً وبين حياتهم في المدن الكبيرة الحديثة وبقاء أثر شريعة الغابة في النفوس ومنها:

لبثَ الناس فيك دهراً فناجا هُمْ سرار الفنون بالايحاء
حين شادوا للدين بيعة ايمـانٍ تبدَّتْ كالغابة اللفَّاءِ
وارتضيتِ الامانَ منْ بعدذعرٍ لم يزل في (المدينة) الشمَّاء[1]
غابةٌ شادها ابن آدم نزلاً دوحُها من قصورها الزهراء
وتخوفٍ من الفجاءة فيها كتخوفٍ في الغابة القمَّاء
واحتيال ليقنص الرزق والصيد سواء في مكرة كسواء
وأفاعٍ في دورها وقرود ووحوش من ناسها بالعراء
فكأن الاقوام لم يخرجوا منـكِ ولا زال عهدُكِ المتنائي
سُنَّةٌ قد سننتِها في نفوسٍ إن دعتها كانت جواب النداء

ووصفت المسقط المائي في قصيدة (الشلال) ومنها:

يا اخا الصمت في الجلالة والرو ع وصنو النكباء والهوجاء

(١) ارتضيت الامان اي انها كانت آمنة معدة للنزهة واللهو

أحسب الخلدَ مثل مائك ينها ر ونفسي في مائه كالهباء
ليت ان الحياة مثلك تعدو لا تراخى مثل الجياد البطاء
ان للعيش كدرة تَـذَرُ النّفس ركوداً كآسن في نهاء (١)
فأعنّي على الأواسِن من نفسي بفيض ينهار مثل البناء
ولعل الحياة كالماء تجري بين هذا الثرى وبين السماء
لك في النفس نشوة مثلما استشرف راء من شاهقات العلاء

وقد وصفت منظر دقيق الثلج الذي اذكرني قول ابي تمام في قصيدة الشتاء في انكلترة ومنها

نشر الضَّريبُ على البسيطة حلة بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وَضَح النهار كأنما يسري الفتى في ليلة قمراء
فكأنَّ نور البدر ما حَلّى الثرى برواء تلك الحلة البيضاء
واذا استراح لِمُقمِرٍ من لونه راء ترى الاحلام عينُ الرائي

الخ الخ ومنها في وصف المواقد في البيوت

واذا المواقد في البيوت تضاحكتْ من شدة الايقاد والإذكاء
خِلتَ الربيعَ سعى اليك بحفله والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكي الوجوه لهيبُها فكأنما جمران يشتعلان في الظلماء

وراعتني الاعاصير شتاء فقلت قصيدة الريح ومنها :

يا ريح هيجتِ قلباً شجوه واري كما تهيجين عود الغاب بالنار
يا ريح أي زئيرٍ فيك يُفزِعُني كما يروع زئير الفاتك الضاري
يا ريح اي أنينٍ حنَّ سامعه فهل بُليتِ بفقد الصحب والجار
يا ريح مالكِ بين الخلق موحشة مثل الغريب غريب الأهل والدار
أم أنت ثكلى أصاب الموت واحدها تَظَلُّ تبغي يد الاقدار بالثار

وهكذا تستمر القصيدة في وصف مظاهر الرياح من خير وشر وآثارها المختلفة في النفوس الى ان قلت :

يا ليت أنَّ جناحاً منك يُسعِدُني كيما اطير الى أفنان أشجار
فأنشد الشعر كالغرّيد في فنن وتحملين أغاريدي وأشعاري
يا ليت نفسيَ ريح لفح لافحها يُطَهِّرُ الكونَ من شرٍّ واشرار

(١) النهاء بكسر النون الغدران

الخ. فهل هذا التجديد قد اضرّ بالاسلوب وقطع صلتنا بما تأثرناه في الجزء الاول من الصناعة كما اثبتنا في المقالة السابقة ؟ وحملني ركوب البحر في تلك السفرة على قول قصائد في وصف البحر ومظاهره المختلفة وما يثير في النفس من خواطر وأحاسيس فمنها

ألا ليتني لجّ كلجّك زاخر أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر
فكم عبث النفس اللجوج وحاولت كبعض سطاك الآبيات النوافر (١)
وأخفت من الدرّ النفوس ومن حلى كما اختبأت فيك اللهى والذخائر
كأنّ بها أفقاً كأفقك نائياً ومن دونه كل المدى يتقاصر
أتطرب من لحن الخرير كأنهُ خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته فجاشت لديك الراقصات الزواخر
والا فما للموج في البحر راقصاً دعاهُ عذارى البحر شادٍ وشاعر

ومنها:— فيننا يريق الضوء فوقك ماءهُ وتجري عليك الريح وهي خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم يُرَجِّعهُ لحن من الماء مائر
ويُسمِعُك الملاّح من شجو قلبه احاديث قد تاقت لهنّ الحرائر
اذ الجوّ جهم والرياح كتائب وإذ أنت مقبوح السريرة غادر

وهي قصائد كثيرة المعاني والنواحي وقد راقني ايضاً في تلك السفرة تنوع الفصول واختلافها ومباهج مظاهرها فنظمت قصيدة سميتها اولاً الصيف ثم سميتها الفصول لانها تصف الفصول كلها وهي طويلة وفيها اوصاف متنوعة للارض والسماء والازهار وأحاسيس الانسان في الفصول المختلفة ومنها في وصف الربيع :

اهواكِ يا روح الربيع فهيئي جسماً كجسم الغيدِ في لألائهِ (٢)
ثم ارقصي بين الخمائل في الضُّحى رقصَ المدلّ بحسنه وبهائه
فلعل في قبلات ثغرك برء ما أعيا الانام بحكمهِ وقضائهِ
أردُ الخلود بضمةٍ وبقبلة تروي ظماء الحسن من لمنيائهِ

وراقتني الازهار وكانت في البلدة التي كانت مستقر دراستي حديقة خاصة بها ولكن احسنها حدائق كيو التي قال فيها الفريد نويس انشودته العذبة السهلة وقد قلت قصائد في وصف الازهار منها في وصف الزهرة عابدة الشمس

(١) سطاك جمع سطوة كربوة وربى وأمثالها وهي كثيرة الورود في شعر الشعراء بالرغم من انكار بعض الافاضل لها (٢) هذا الوصف فيه التفات الى وصف ابي تمام والبحتري للربيع

تديرين نحو الشمس وجهاً كأنما ترين بوجه الشمس ما كتب الدهر
وصفراء من نسل المجوس كأنها تعالج امراً لا يعالجهُ الزهر
تَهُمُّ الى وجه السماء كأنما لها في صميم الارض من جذرها أسرُ
كما يشرئبُّ النسرُ هيض جناحهُ مقيمٌ على الغبراء ألحاظهُ طير

وقد راقتني ابتسامات الوجوه في الحياة الاجتماعية التي كان يزينها الحسان من النساء في تلك الارض القاصية كما راقتني ابتسامات الزهور فقلت القصيدة التي منها

وميض ابتسامات يُضيء جوانحي ويجلو ظلام الهم واليأس من صدري
اذا ابتسمتْ ضاء بعيني ابتسامها كما ضاء وجه البدر في صفحة البحر
يكاد يُضيء الغيبَ في مستقره وميضُ ابتسامٍ فعله صادق السحر
وأسمعُ في نفسي أغاريد جمة يهيج صداها في الجوانح والصدر
كأنَّ بها من صادح الطير شادياً يغرّدُ في روض مِنَ الحب والشعر
وإني لكالبذْرِ الدفينِ ولحظها غذاءٌ كلحظ الشمس للزهر والبذر الخ .

ولا يتسع المجال لذكر جميع قصائد الوصف التي حركت المناظر المختلفة الجديدة أحاسيسها في نفسي وهذه المناظر مع ذلك لها قيمة عالية لا محلية وقد اكتسبت شيئاً من الشغف بالوصف والقدرة عليه . فوصفت كثيراً من المناظر والآثار المصرية كما في قصيدة أبي الهول ومنها : —

كأنما في طيّ ألحاظهِ ذكرى لعهد الزمن الأولِ
كأنهُ في صمتهِ حارس يحرس باب القَدَرِ المقفَلِ
يا عجباً أبصرتَ ما قد مضى ونظراتٌ منكَ لم تَقتُلِ
أبصرتَ أكلَ الدهر أبناءهُ ألم تُرَعْ من ذلك المأكل

الخ الخ وهذه القصيدة نشرت في المجلات وفي الديوان السادس قبل نشر قصيدة شوقي بك . ومن الوصف أيضاً قصيدة هرم خوفو ومنها

فوقك أرواح عصور خلتْ كَديمَةٍ سوداء لم تُحسَم (١)
هدَّتْ يدُ الدهر مَشيدَ البُنى وهُوَ اذا امَّك كالاجذم
يا علَمَ الدنيا الذي قد غدا عجيبة الغائر والمُتْهِمِ

(١) هذا فيه التفات الى قول نابليون لجنوده قبل معركة امبابة (ارواح العصور الماضية تطل عليكم من قمم الاهرام)

حملت بك الارض كمن قد علا برأسه الكبر فلم يهضم
رفعت رأساً منك ما طاله رأس البناء الشامخ الاقوم
كأنما كل البنى سجداً من هيبة للملك الاعظم
كم دولة قد ضاع سلطانها ودولة الاهرام لم تهرم

الى ان قلت : —

والنفس تبغي ان ترى كنهها مجسماً في ضنها الاعظم

ومن قصائد الوصف قصيدة الصحراء وقد اتيحت لي فرص لرؤيتها في الفيوم وقنا وبها وصف مشاهدها المختلفة ومنها في وصف الصحو بعد السموم

وكم حار ركب من فجاءة صحوة كما راع مرأى الحسن والعري سالب
إذ الجو كالبلور اخلص لونه وصب عليه من سنا الشمس ساكب
كذلك غب الغيث ريعان بهجة كأن طلاءً قطره وهو صائب
تفجر ينبوع من النور غامر كما غمر الارض المياه السوارب
ضياء ترى المألوف من كل منظر به فاذا المألوف منه الغرائب
وما فرحة الولهان عاد حبيبه بأصدق منه فرحة وهو آيب

وقصيدة (ليلة حوراء) ومنها

رق الظلام بليلة حوراء كالطرف الكحيل
سحر العيون كسحرها بين الشواهد والشكول

وآخرها : يا ليل بل يا سحر بل يا حلم ليتك لا تزول

وقصيدة الجبل ومنها :

توحدت كالرهبان يارب راهب رأى عصمة الاطواد طهر السرائر
تطل على السهل الفسيح كأنما تفكر في عيش القرى والعمائر
وانت بناء الله لم يبن مثله قدير ولم تعبث به يد جائر
ومعتصم في معقل منك مانع كما اعتصم الملاح بين الجزائر
وأبناؤك الغر الذين تعلموا بعز الحمى ان لا يدينوا لقاهر
فيا ملكاً برد الجليد كساؤه ومن فوقه تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلا بعد جيل كأنما تمر بك الاجيال مر العساكر الخ

وقصيدة (على بحر مويس شتاء) وقصيدة (نحو الفجر) ومنها : —

كأن النجوم الغانيات ترهبت تبيت طوال الليل تعبد في دير

اقلب طرفي بينها متفهماً تفهم معنى اللفظ في صفحة السفر
كأن الدجى دير به البدر راهب جميل المحيا حوله هالة الحبر
أيحلم هذا الدوح في سحر ضوئه فقد خلته من هدأة النوم في أسر
ولما تقضي الليل وانجاب جنحه رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر

الخ الخ . وهي قصيدة غنية بالاوصاف وقصيدة (عيون الندى) ومنها :

عيون الندى كوني على الزهر انه يطل على العشاق منك ويشرف
فليس عيون الغيد أشعلها الصبي بأحسن في لألائها حين تعطف

الخ وقصيدة (سحر الربيع) ومنها :

أتعرف أنفاس النسيم المعطر وبهجة ازهار الربيع المبكر

وابتداء القصيدة بالتساؤل والاستفهام الوجداني معروف وله أثر في الشعر العربي كقول الشاعر (أتعرف رسم الدار من ام معبد) وهذا مثل قول جويتي في مطلع أنشودته العذبة في وصف محاسن ايطاليا (اتعرف الارض التي تنبت شجر الليمون) ومن أثر اكتساب القدرة على الوصف ايضاً قصيدة (يوم مطير) وقصيدة (الليل) وقصيدة (ابتسامات) وقصيدة (فجر الشباب) و (يقظة في الفجر) ولا داعي لاحصاء كل القصائد التي من هذا النوع فهي كثيرة

فالمصدر الاول للثقافة كان الحياة الجديدة ومشاهدها الاجتماعية والطبيعية والفنية فكم كنا نظل صامتين في الحدائق العامة بعد عزف الموسيقى ونحس ما وصفته في قصيدة (السكون بعد النغم) التي نشرت في المقتطف

(٢) اما المصدر الثاني للثقافة فكان دراستي جويتي وقد نقلت مؤلفاته الى الانجليزية في طبعة بوهن واستدرجني الى دراسته اولاً مدح كارليل وامرسون له وثانياً وجود مؤلفاته في الطبعة التي اشترينا منها كتباً تاريخية للدراسة في الجامعة وقد اعجبني من جويتي شغفه بالثقافة اكثر من اعجابي بمؤلفاته نفسها وان كان بعضها جليلاً ومن الكلمات المأثورة عنه (ادرس نفسك) وقد قالها قبله كثيرون فقالها اسكندر بوب في شعره ولكن جويتي نظّم هذه الدراسة وكان من مبادئه أن يحاول المرء ان يستفيد فائدة ثقافية من كل شيء وامر ومن كل انسان يقابله ومن كل مذهب فكري او مذهب في الاحساس حتى ما لا يلائم طبعه وهذا هو في الحقيقة مغزى قصته (ولهلم ما يستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحي الثقافة في شعري ذلك الاختلاف الذي غرّ بعض الافاضل او مكّن بعضهم من نقد قصائد في وصف بعض جوانب النفس كالبغض في قصيدة (الحب والبغض التي احتذيت فيها (جميل بن معمر)

[لها تتمة]

تحديد النسل

في الميزان

للدكتور شريف عسيران

لنستعرض الآن آراء المفكرين والباحثين في هذا الموضوع الحيوي لنميز غثه من سمينه توصلاً الى نتيجة عملية. يدّعي انصار تحديد النسل ان كثرة النسل سبب نزاع الامم واثارة الحروب وطلب التوسع ونشوء البطالة وهبوط مستوى المعيشة ونشر الأمراض بسبب الفقر وان قلته عامل في نشر لواء السلام وبعث الطمأنينة في النفوس والتمتع بالعيش الرغيد والتخفيف عن كاهل الأم وجعلها أشدّ عناية باولادها وانهُ يمنع ظهور بعض الامراض الوراثية وغير ذلك. ويدّعي خصومه انهُ يؤول الى انقراض الامم وتدهور الاخلاق وان قلة النسل لا كثرتهُ منشأ البطالة وسبب النزاع وان التحديد يحرم الامة كثيراً من العباقرة والنوابغ الى غير ذلك

وسنأخذ بآراء الذين لا ينطقون عن الهوى بل عن روية وبحث: ان كار صوندرز الشهير يتفق مع غيره بتناقص نفوس البشر ويختلف معهم بالطرق المؤدية لتلافي هذا الخطر. ومن رأيه ان كثافة السكان الملائمة لا تتفق ومقدار الكثافة التي يتطلبها حملة لواء اصلاح النسل الذين راعوا نوع السكان دون عددهم وان النظر الى الوجهة السلبية دون الايجابية حمل الناس على الاستخفاف بحركة اصلاح النسل وعدها من النظريات الفلسفية بينا الناحية الايجابية اضمن لبلوغ الضالة المنشودة وهو لا يعني بذلك نشوء الانسان الاسمى بل زيادة عدد الاشخاص الذين ليسوا دون المعدل السوي اذ ثبت عنده من الاحصاآت الحديثة في السويد والمانيا وهولاندا أن الطبقات السفلى اخذت تحذو حذو العليا بتحديد النسل ومصيرها مصير الاخيرة من هذه الوجهة. فاذا استمرت الحالة على ماهي عليه الآن ازداد الطين بلة واصبح التناقص عامًّا فبدلاً من ان يكون النقص ثلاثين بالمائة يصير خمسين او اكثر فيجب ان يزداد عدد الاسر القليلة الخصب وينقص عدد الكثيرة وهو لا يرى ان فروق الذكاء التي بين الطبقات المهذبة وغير المهذبة تدعو الى الاهتمام لانها متقاربة ونجد فروقاً اكبر منها بين الطبقة الواحدة نفسها فلا يمكننا ان

ندعي ان الطبقات العليا اكثر ذكاء من الطبقات السفلى . والسبب في كثرة تناسل الطبقة الاخيرة ليس جهلها طرق تحديد النسل بل الصعوبات التي تكابدها تحملها على النفور منهُ . فهو يميل الى التوفيق بين زيادة النسل وتحديده . ويعتقد ان التحديد يغني من بهم امراض وراثية عن التعقيم الطبي اذ يلجأون الى طرق منع الحمل عوضاً عن التعقيم فيجب ان لا يكره الناس على التكثير او التحديد بل يترك الخيار للناس يتصرفون بحسب اقتناعهم لان الناس لا يضعون نصب اعينهم في زواجهم وتناسلهم حجم اسرتهم ولا تخطر ببال احدهم هذه الفكرة حين يقدم على الزواج فالاوفق ان نترك الناس احراراً في هذه الناحية (١)

اما كازونسكي فيذهب غير هذا المذهب ولا يعتقد ان كثرة السكان هي منشأ الحروب والبطالة والفقر بل يعتقد ان قلة السكان هي التي تولد الازمات الاقتصادية والبطالة والفقر وما ينشأ عنها من العواقب فكلما قل الناس قلت الحركات الصناعية اذ لا يوجد العدد الكافي لاستهلاك منتجات الصناعة ومتى قلت الحركات الصناعية قلت موارد البلاد فيؤدي ذلك الى البطالة والمزاحمة . والحقيقة ان البطالة ليست وليدة ازدحام السكان بل سببها سوء توزيع الثروة بسبب الحركة الصناعية التي خلقت الرأسماليين وحصرت الثروة في أفراد معينين فالبطالة منتشرة في اميركا اكثر منها في انكلترا مع ان كثافة السكان في الاولى ٥٠ شخصاً للميل المربع وفي الثانية ٧٠٠ وموارد اميركا الطبيعية اكثر من موارد انكلترا كثيراً. ومن رأي كازونسكي ان كثرة العدد تولد حركة اقتصادية تزيد موارد الامة وتؤول الى رفاهها ويضرب مثلاً بالمانيا التي وجدت خلال سنة ١٩١٥ زيادة بوفياتها وقلة بولاداتها سببهما الحرب العامة فلم تعد الولادات تربي على الوفيات فمن الضروري ان تتناقص ازمة المساكن لأن عدد الولادات كان يزيد سابقاً عن الوفيات بثمانمائة الف سنويًّا . ويصيب كلَّ اربعة اشخاص بحسب هذا المعدل بيت واحد فيجب ان يبنى كل سنة مقدار مائتي الف بيت لاستيعاب المواليد الجدد . ولكن فاتهم ان ليس الصغار هم الذين يولدون ازمة البيوت بل الكبار هم الذين يخلقون هذه الازمة . وتصديقاً لذلك ازددات ازمة المساكن في المانيا ايام الحرب وكانت حاجتها اليها شديدة فنقص المواليد سنة ١٩١٥—١٩ يؤثر بالمانيا حوالي سنة ١٩٤٠ حينما يكبر الصغار ويزاحمون الكبار فليس الصغار هم الذين يخلقون المزاحمة في ميدان الاعمال . ويمكن ان يكون تحديد النسل نافعاً للفرد مضراً للمجتمع فان حالة زيد من الناس اذا كان صاحب ملك وعقار تكون احسن لو كان لهُ ولد واحد ولغيره عدة اولاد ولكن اذا كان لغيره ولد واحد يخف الطلب على ابنه وتسوء حالته . ان الفلاحين هم اكثر الطبقات الرازحة تحت عبء العوز المالي ولكن ضربة فلاحي اميركا ان حاصلاتهم

(١) The Eugenic Review, April 1935 P. 11-20

الزراعية تزيد عن حاجات الـ١٢٨ مليون من سكان الولايات المتحدة ولا يجدون سوقاً لتصريف اطعمتهم لكثرة البلاد التي تصدر نفس الحاصلات فلو كانت نفوس اميركا ١٤٥ مليوناً عوضاً عن ١٢٨ لنفدت هذه الحاصلات وعاش الفلاح بالرفاه (١)

اما الدكتورة ايندتشارلس فلا ترى ما يراه غيرها من ان وسائط منع الحمل هي العامل الاكبر في تناقص نفوس الامم بل ترى لها تأثيراً محدوداً لان الطب لم يتوصل حتى الآن الى طريقة سهلة مضمونة. وهي تتفق مع كار صوندرز في ان الطبقة غير المثقفة لا تستعملها نظراً الى المتاعب التي تحف بها اضف الى ذلك غلاءها وافساحها المجال لتلاعب الشركات التجارية واستعمالها اساليب الخداع لابتزاز اموال الناس وهي لا ترى ان نقص النفوس ابتدأ حين شيوع طرق تحديد النسل وتنسب هذا النقص الى الانقلابات الاجتماعية التي غيرت نفسية الناس وجعلتهم لا يحفلون بالاولاد ولا سيما الانقلابات الصناعية التي خلقت فئة ارتفع مستواها الاجتماعي بما احرزته من ثراء فكان هذا الارتفاع عاملاً في توليد روح تقليل النسل وقد خلعت هذه الفئة اخلاقها على غيرها ممن هم اقل نجاحاً وسرت هذه الروح في طبقات الامة وقد ايدت حجتها بما توصل اليه الدكتور وجنر مانسلو Dr. Wagner Manslu من دراسة الشرافة Nobility بألمانيا والتوصل اليها عن طريق الثراء فصارت الشرافة محصورة تقريباً في العقم من الجنسين الرجال عن طريق الثراء والنساء عن طريق الزواج (١)

ان ارتفاع مستوى الناس الاقتصادي بطعامهم ولباسهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية صرفهم عن الاهتمام بالاولاد فصار الاعزب اهنأ عيشاً من المتزوج الذي يرسف بقيود الاولاد وما يتطلبونه من تكاليف الحياة وبعد ان كانوا عوناً لآبائهم صاروا عبأً ثقيلاً ينوؤون به اضف الى ذلك حرية المرأة الاقتصادية وانعتاقها من عبودية الرجل وافساح المجال لها في ميادين العمل فزاحمت الرجل في المعامل والشركات والبيوت التجارية وسائر الاعمال الاقتصادية فخفت فيها روح الامومة ورأت في الخروج من البيت راحة وطمأنينة ولا يعني ذلك ان رغبة تحديد النسل كانت من المرأة فقط بل هناك طائفة من النساء لا يزلن يملن الى الامومة ويجدن فيها لذة وسلوى وليس للرجال هذه العاطفة فكثير منهم اقل رغبة في الاولاد وهم عامل مؤثر في تقليل النسل والرجال هم الذين يلجأون غالباً الى منع الحمل . فتناقص النفوس متولد من النزعة التقليدية والنظام الاقتصادي الذي صرف الناس عن حياة الاسرة بأنواع الملاهي من سياحات وألعاب ونزه وسينمات ورقص وغير ذلك من الحركات الاجتماعية

(١) Population Movements, p. 72-75

(٢) The Twilight of Parenthood, p. 180

وقد تلافت روسيا السوفيتية اخطار قلة النسل بنظام اقتصادي لا يتنافى مع كثرة النسل فأفسحت المجال للمرأة لكي تدخل مختلف الاعمال واخذت الدولة على عاتقها تربية الاولاد وجعلت للحامل عطلة تتقاضى في خلالها مرتّبها الكامل ولها حق المعالجة المجانية مع طفلها ومخصصات غذائية اضافية وأسست في المصانع الكبيرة دوراً للحضانة تستطيع المرأة ان تضع ولدها في اثناء النهار وفي الليل اذا رغبت في الذهاب الى دور السنما او الموسيقى. ولها مقعد مجاني في الترام حينما تكون حاملاً وجعلت مدة الشغل ٧ ساعات يوميًّا فيمكنها ان تتمتع برؤية ولدها وتصرف وقتاً غير قليل معهُ وهي تعترف بالاولاد غير الشرعيين دون الاهتمام بمعرفة آبائهم فلا حاجة تدعو المرأة الى منع الحمل. ومستوصفات الاسقاط لا تقبل تسقيط الحمل إلاّ لاسباب قوية فلا بد للحامل ان تلد ولادة طبيعية. وقد عممت فكرة الزواج الباكر لتتمكن المرأة من ان تحصر جهودها في عملها وهي بين سن ٣٠ — ٤٠

يقول انصار تكثير النسل ان تحديده مظهر من مظاهر حب الذات وابتعاد عن الروح الانسانية التي تحتم على المرء المساهمة في الحياة فاهتمام الانسان بنفسه فقط انانية ممقوتة وفرار من الواجبات الاجتماعية ونقض لناموس الحياة الذي يتطلب استمرار الحياة فاذا اعتنق كل فرد هذا المبدأ فمعناه انقراض النوع البشري والانسان يتميز عن الحيوان بشعوره بالواجبات المعنوية فاذا اقتصر على مجرد اللذة فلا فرق بينهُ وبين الحيوانات. ان الطبقة المثقفة التي تتمتع بواردات اكثر من واردات الطبقة التي دونها هي ارفهُ حالاً من الطبقات الفقيرة وتستطيع ان تعول اولاداً اكثر منها فليست حالتها الاقتصادية هي التي تدفعها الى تحديد نسلها بل تلذذها بالحياة هو الدافع الحقيقي ولو خير الانسان بين طفل وسيارة لفضل السيارة على الطفل. فالطبقة المتعلمة أوسع يداً وأعلم بتربية الاولاد واكفأ لايجاد المحيط الملائم لهم وسلوكها مسلك تحديد النسل دليل على فقدان روح التضحية والتخلص من المسؤولية وغيرها من صفات الرجولة الصحيحة

ليست كثرة النسل كما يدعي اخصامها سبباً لاثارة الحروب ولا نتبسط بدحض هذه الناحية بل نحيل القارىء الكريم على المقتطف الاغر تحت عنوان «التوسع بالفتح»(١) ففي هذه المقالة الخبر اليقين. ان اكثر الامم المتمدنة أخذت اليوم تسن القوانين الصارمة لتكثير عددها وقد وضعت ايطاليا قانوناً شديداً ضد الدعاية لتحديد النسل والاسقاط المتعمَّد وخفضت الضرائب عن كاهل المتزوجين وزادتها على العزاب وفضلت المتزوجين في ميادين الاعمال ومنحتهم امتيازات خاصة باعطائهم مساكن رخيصة وتوفير الوسائل المريحة لحماية الامهات ويهدي السنيور موسوليني صورته الى كل ام ذات ستة اولاد ورغماً عن هذه السياسة اخفقت في تكثير سكانها لان

(١) المقتطف ١ مارس سنة ١٩٣٧ صفحة ٢٦٥

هذه الحركة الجديدة بدأت سنة ١٩٢٦ فبلغت ولادات ايطاليا السنوية ١٫٠٩٥٫٠٠٠ وتدنت الى المليون منذ سنة ١٩٣١ وقد حذت المانيا حذو ايطاليا وزادت عليها بتشجيع الزواج ومنح قروض لمن يرغبون فيه وسهلت لهم طرق الاستخدام ولم تلجأ الى القوانين الاجبارية بل عمدت الى التشويق والترغيب والدعاية ولا يعلم مدى نجاحها لحد الآن. وتنكر الدكتورة ايند تشارلس تأثير المنح الضئيلة في تخفيف وطأة ازمة المتزوجين نظراً لارتفاع مستواهم الاجتماعي وما يتطلبهُ من النفقات الباهظة. وقد سنت الحكومة العراقية قانوناً بمنح قروض لمن يرغبون في الزواج وهمت بتخفيض ضريبة الدخل بنسبة عدد الاولاد ثم انطوى ذلك المشروع وقد روت الانباء الاخيرة ان الحكومة التركية ستوزع اكثر من عشرة آلاف مدالية فضية وعدة جوائز مالية على الامهات اللاتي لهنَّ ستة اطفال او اكثر

﴿ الامة العربية وتحديد النسل ﴾ يحار المرء اذا اراد الجزم في موازنة آراء كبار العلماء وقد جلنا في نواحي الموضوع وبسطنا فكرة عامة عنه فأي مبدأ نختار وأي الطرق افضل لنا

مما لا ريب فيه ان اكثر الامم أخذت تتخوف من نقص سكانها بعد ان ايدته الارقام وصرنا نسمع نداءها في صحفها وكتبها ومجالسها النيابية وأنديتها العلمية فما هو موقف الامة العربية ازاء هذه الحركات. نحن لا نزال امة فتية في اوائل نهضتنا وليس لدينا احصاءات مضبوطة كاملة لمعرفة مصيرنا فلا بد ان نلجأ الى المقايسات. مما لا شك فيه ان احوال اوربا وأميركا الصحية ارقى مما هي عندنا ونظمهم الاجتماعية انضج من نظمنا ووفياتهم اقل من وفياتنا ويتمتعون بقسط من الوقاية أوفر من قسطنا ومستواهم التهذيبي أعلى من مستوانا ونظمهم الاقتصادية خير من نظمنا ومع ذلك نراهم يتخوفون من تناقص نفوسهم ونحن في أبان نهضتنا تحيط بنا الأمم المفترسة ونحتاج الى العدد الكبير من أبنائنا وسواعد الاقوياء من بني وطننا ولدينا مساحات شاسعة من الاراضي القاحلة التي تحتاج الى الأيدي العاملة والعقول المفكرة ولا يزال الأجنبي حتى الآن يستثمرها وليس عندنا ماعند الغرب من مشكلة كثافة السكان لا بل خيراتنا الطبيعية ومواردنا الخام وعدم وجود من يستثمرها وقلة المدافعين عنها هي علة استعمارنا وطمع الأجنبي فينا

ان الطبقة المثقفة من ابنائنا هي التي تتمتع بالمرتبات العالية والعيشة الراضية وهي التي تعرض عن الزواج وتلجأ الى وسائط تحديد النسل وتفتح المجال لكثرة نسل الطبقة الفقيرة التي تجهل هذه المستنبطات فتمطر الامة وابلاً من نسلها يعيش في مستوى اجتماعي منحط وينشر انواع المرض ويولد نسلاً عليلاً يحط من جودة الامة ويضعف قوتها بينا نحن في أمسّ الحاجة الى الفئة الصالحة من أبناء هذه الأمة الكريمة التي بهرت العالم بعلمها وثقافتها وقوتها في عنق المتنورين من أبناء يعرب هذه الأمانة العظيمة أمانة تاريخنا العظيم ومجدنا القديم

تأسيس مدينة
سرّ من رأى

بقلم الكبتن كرزول
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية ببرلين

يشتغل جناب الكبتن كرزول استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول في اعداد مؤلف ضخم عن تاريخ العمارة الاسلامية منذ فجر الاسلام وقد صدر المجلد الاول في سنة ١٩٣٤ وسيصدر هذا العام الجزء الثاني مشتملا على جميع الآثار التي شيدها المسلمون في البلدان الاسلامية حتى نهاية عصر الاخشيديين وهذا احد فصول البحث الرائع الذي قام به

—١—

روى اليعقوبي في كتابه البلدان (ص ٣٨) تاريخ تأسيس مدينة سرّ من رأى ووصفها بما نصه :

« سرّ من رأى هي المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم المعتصم (ابن هارون الرشيد) . وهو ابتدأها وانشأها . والواثق وهو هارون بن المعتصم ، والمتوكل جعفر بن المعتصم والمنتصر محمد بن المتوكل والمستعين احمد بن محمد بن المعتصم والمعتز ابو عبد الله بن المتوكل والمهتدي محمد بن الواثق والمعتمد احمد بن المتوكل

قال احمد بن ابي يعقوب كانت سرّ من رأى في متقدّم الايام صحراء من أرض الطّيرهان لا عمارة بها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال . فلما قدم المعتصم بغداد منصرفه من طرسوس في السنة التي بويع لهُ بالخلافة وهي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) نزل دار المأمون ثم بنى داراً في الجانب الشرقي من بغداد وانتقل اليها فأقام بها في سنة ٢١٨ وسنة ٢١٩ وسنة ٢٢٠ وسنة ٢٢١ هـ . وكان معهُ خلق من الاتراك وهم يومئذ عجم

أعلمني جعفر الخشكي قال : كان المعتصم يوجهُ بي في ايام المأمون الى سمرقند الى نوح بن أسد في شراء الاتراك فكنت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة . فاجتمع له في ايام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام (منهم طولون الذي اسس ابنهُ احمد الدولة الطولونية بمصر) . فلما افضت اليه الخلافة ألحّ في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس . كان ممن اشترى

ببغداد جماعة منهم اشناس وكان مملوكاً لنعيم بن خازم ابي هرون بن نعيم . وايتاخ كان مملوكاً لسلام بن الابرش . ووصيف كان زرّاداً مملوكاً لآل النعمان . وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرآستين الفضل بن سهل . وكان اولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لايعدون على من فعل ذلك فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد

فخرج الى الشمّاسيّة وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج اليه فيقيم الايام والشهور فعزم ان يبني بالشماسية خارج بغداد (شمال شرقي بغداد) مدينة فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكرِه ايضاً قربها من بغداد

فمضى الى البردان (شمال شرقي بغداد بنحو ميلين) بمشورة الفضل بن مروان وهو يومئذٍ وزير. وذلك في سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) واقام بالبردان اياماً واحضر المهندسين . ثم لم يرضَ الموضع فصار الى موضع يقال لهُ باحَمْشا من الجانب الشرقي من دجلة . فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده

فبعد الى القرية المعروفة بالمطيرة فاقام بها ثم مرَّ الى القاطول فقال هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول

فابتدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني لهُ وسكن بعض الناس ايضاً. ثم قال ارض القاطول غير طائلة وانما هي حصى (احجار ؟) والبناء بها صعب جدًّا وليس لارضها لُمَيْعة (سعة ؟)

ثم ركب متصيداً فمرَّ في مسيره حتى صار الى موضع سرَّ من رأى وهي صحراء من ارض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الاَّ دير للنصارى فوقف بالدير وكلم من فيهِ من الرهبان وقال ماسم هذا الموضع . فقال لهُ بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سرَّ من رأى وانهُ كان مدينة سام بن نوح وانهُ سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور لهُ اصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلها ولده . فقال أنا والله ابنيها وأنزلها وينزلها ولدي

ثم عرض (عزم) المعتصم على ان ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وابن ابي دواد وعمر بن فرح (فرج) واحمد بن خالد المعروف بابي الوزير وقال لهم اشتروا من اصحاب هذا الدير هذه الارض وادفعوا اليهم ثمنها اربعة آلاف دينار (الفي جنيه انكليزي) ففعلوا ذلك ثم احضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور وصيَّر الى كل رجل من اصحابه بناء قصر

فصيَّر الى خاقان عرطوج ابي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني والى عمر بن فرح (فرج) بناء القصر المعروف بالعمري والى ابي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري

ثم خطَّ القطائع للقواد وللكتاب وللناس . وخط المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد الجامع ووسعت صفوف الاسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حدَّتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد

وكتب في اشخاص الفعلة والبنائين واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات. وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام . وفي حمل الرخام وفرش الرخام (وارسال صناعه) . فأقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام

وأفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لايختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم الاَّ الفراغنة . وأقطع اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضمَّ اليه عدة من قواد الاتراك والرجال وأمره ان يبني المساجد والاسواق

وأقطع خاقان عرطوج واصحابه مما يلي الجوسق الخاقاني . وأمر بضم اصحابه ومنعهم من الاختلاط بالناس . وأقطع وصيفاً واصحابه مما يلي الحير ممتدًّا . وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة من الاسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره

ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهنَّ ومنعهم ان يتزوجوا ويصاهروا الى احد من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض وأجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قايمة وأثبت اسماءهنَّ في الدواوين . فلم يكن يقدر احد منهم يطلق امرأتهُ ولا يفارقها

ولما أقطع اشناس التركي في آخر البناء مغرباً واقطع اصحابه معه وسمى الموضع الكرخ وأمره ان لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم ولا يطلق معاشرة المولدين

فأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدُّور وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمامات وجعل في كل موضع سويقة فيها عدة حوانيت للفاميين والقصابين ومن أشبههم ممن لا بد لهم منه ولا غنى عنه

وأقطع الافشين حيدر بن كاوس الأسرُوشني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمى الموضع المطيرة . فأقطع اصحابهُ الاسروشنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره . وأمرهُ ان يبني فيها هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيها لا بد منه ومساجد وحمامات واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الأسواق . وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشبه (جبة) بابك

وبين المطيرة موضع قطيعة افشين. وليس في ذلك يومئذٍ شيء من العمارات ثم احدقت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى. وامتد بناء الناس من كل ناحية واتصل البناء بالمطيرة وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان واصحابهم من الجند والشاكرية. وعن يمين الشوارع ويسارها الدروب فيها منازل الناس كافة وكان الشارع المعروف بالسُّريجة (السرية) وهو الشارع الاعظم ممتدّاً من المطيرة الى الوادي المعروف في هذا الوقت بوادي اسحق ابن ابراهيم لان اسحق بن ابراهيم انتقل من قطيعة في ايام المتوكل فبنى على رأس الوادي واتسع في البناء

ثم قطيعة اسحق بن يحيى بن معاذ ثم تتصل قطائع الناس يمنة ويسرة في هذا الشارع الأعظم وفي دروب من جانبي الشارع الاعظم تنفذ الى شارع يعرف بأبي احمد وهو ابو احمد بن الرشيد من احد الجانبين وتنفذ الى دجلة وما قرب منها من الجانب الآخر. وتمر القطائع الى ديوان الخراج الاعظم وهو في هذا الشارع الكبير. وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم بن بامنيجور ؟ وقطيعة عُجَيْف بن عَنْبَسة وقطيعة الحسن بن علي المأموني. وقطيعة هرون بن نعيم وقطيعة حرام (حزام ؟) بن غالب

وظهر قطيعة حرام (حزام) الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصة والعامة يتولاها حرام ويعقوب اخوه ثم مواضع الرَّطَّابين وسوق الرقيق في مربعه فيها طرق متشعبة فيها الحُجَر والغُرَف والحوانيت للرقيق ثم مجلس الشرط والحبس الكبير ومنازل الناس والاسواق في هذا الشارع يمنةً ويسرةً مثل سائر البياعات والصناعات ويتصل ذاك الى خشبة (حبة) بابك ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل اهل مهنة لا يختلطون بغيرهم

ثم الجامع القديم الذي لم يزل يجمع فيه الى أيام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير. المسجد الجامع والاسواق من احد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل واسواق اصحاب البياعات الدنية مثل اصحاب الفُقّاع والهراريس والشَّرّات (الشربات ؟) وقطيعة راشد المغربي وقطيعة مبارك المغربي وسويقة مبارك وجبل جعفر الخيّاط. وفيه كانت قطيعة جعفر ثم قطيعة أبي الوزير ثم قطيعة العباس بن علي بن المهدي. ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهدي ويمتد الشارع وفيه قطائع العامة الى دار هرون بن المعتصم وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحيى بن اكثم في ايام المتوكل لما ولاّه قضاء القضاة ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين والخميس

(وعلى ذلك فالاطلال المعروفة الآن ببيت الخليفة هي بقايا قصر المعتصم والايوان الكبير هو باب العامة)

ثم الخزائن خزائن الخاصة وخزائن العامة ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم والي الخزائن ثم قطيعة قرقاس الخادم وهو خراساني ثم قطيعة ثابت الخادم ثم قطيعة أبي الجفعاء وسائر الخدم الكبار . والشارع الثاني يعرف بأبي أحمد وهو أبو أحمد بن الرشيد أول هذا الشارع من المشرق ودار بختيشوع المتطبب (الطبيب — وهو احد افراد اسرة سريانية اشتهرت بتعاطي الطب. وقد كان هؤلاء الناس حلقة الاتصال بين العلوم القديمة — اليونانية وغيرها — والحضارة الاسلامية) التي بناها في أيام المتوكل ثم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن اهل قُم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ الى شارع السّريجة الاعظم. وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ الى شارع ابي احمد ديوان الخراج الاعظم وقطيعة عمر وقطيعة للكتاب وسائر الناس وقطيعة ابي احمد بن الرشيد في وسط الشارع وفي آخره مما يلي الوادي الغربي الذي يقال له وادي ابراهيم بن رياح قطيعة ابن ابي دؤاد وقطيعة الفضل بن مروان وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيات وقطيعة ابراهيم ابن رياح في الشارع الاعظم

ثم تتصل الاقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب الى يمنته ويسرته الى قطيعة بُغَا الصغير ثم قطيعة بغا الكبير ثم قطيعة سيما الدمشقي ثم قطيعة برمش ثم قطيعة وصيف القديمة ثم قطيعة ايتاخ ويتصل ذلك الى باب البستان وقصور الخليفة

والشارع الثالث شارع الحير الاول الذي صارت فيه دار احمد بن الخصيب في ايام المتوكل فأصل هذا الشارع من المشرق ومن الوادي المتصل بوادي اسحق بن ابراهيم وفيه قطائع الجند والشاكرية وأخلاط الناس ويمتد الى وادي ابراهيم بن رياح

والشارع الرابع ويعرف بشارع بَرْغامُس (برغامش) التركي فيه قطائع الاتراك والفراغنة فدروب الاتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة والاتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة بأزائهم بالدروب التي في ظهر القبلة لا يخالطهم احد من الناس . وآخر منازل الاتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق . وأول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الافشين التي صارت لوصيف وأصحاب وصيف ثم يمتد الشارع الى الوادي الذي يتصل بوادي ابراهيم بن رياح

والشارع الخامس يعرف بصالح العباسي وهو شارع الاسكر (العسكر؟) . فيه قطائع الاتراك والفراغنة. والاتراك ايضاً في دروب منفردة . والفراغنة في دروب منفردة ممتد من المطيرة الى دار صالح العباسي التي على رأس الوادي. ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة

ثم شارع خلف شارع الاسكر يقال له شارع الحُوَيْر (الحير؟) الجديد فيه أخلاط من الناس من قواد الفراغنة والاسروشنية والاشتيخنية ؟ وغيرهم من سائر كور خراسان . وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمع الى اقطاعات لقوم هدم (اي الخليفة) الحائط (أي كل ماقرب

من الحائط من اقطاعات الناس كان يضم الى الحير) وبنى خلفه حائطاً غيره . وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير الوحش والايايل والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة

والشارع الذي على دجلة يسمى شارع الخليج وهناك الفرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والاُبلّة والاهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وبَعْرَبايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك . وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم او اكثرهم والموضع المعروف بالاولاج (بالازلاخ ؟) الذي بالرَّجالة المغاربة في أول ما اختطت سرَّ من رأى . واتسع الناس في البناء بسرَّ من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنوا المنازل الواسعة . الاَّ ان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الرَّوايا على البغال وعلى الابل لان آبارهم بعيدة الرشاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء . ولكن دجلة قريبة والرَّوايا كثيرة . وبلغت غلات ومستغلات سرَّ من رأى واسواقها عشرة آلاف الف درهم في السنة . وقرُب محمل ما تؤتى بهِ من الميرة من الموصل وبعربايا وسائر ديار ربيعة في السفن في دجلة فصلحت اسعارها . ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة ، وهو جانب سرَّ من رأى عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة فانشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة وحفر الانهار من دجلة وصيَّر الى كل قايد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد . وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرَّ من رأى وصلح النخل وثبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان . وزرع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة ألوف سنين . فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والإيتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية بن حماد والمسروري والعربات الجدية (المحدثة) وهي خمس قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والأجنة والبساتين وخراج الزرع اربعمائة الف دينار في السنة

وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الاعمال او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض .

وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة . فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع واقطعوا فيها . وجعل هناك اسواقاً لاهل المهن بالمدينة

وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصيَّر في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين فحسنت

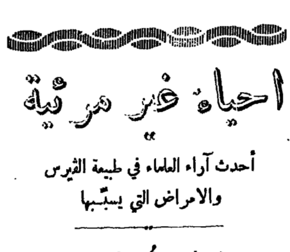
العمارات ورغب وجوه الناس في ان يكون لهم بها ادنى أرض وتنافسوا في ذلك وبلغ الجريب من الارض مالاً كثيراً ومات المعتصم بالله سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) . وولى الخلافة هارون الواثق بن المعتصم » اهـ اليعقوبي

ولم يقتصر المعتصم على جلب العمال وأهل المهن والصناعات وأشخاصهم الى سرَّ من رأى بل أمر بحمل المواد اللازمة للبناء أيضاً

ويقول الأب انبا سويرس بن المقفع (أسقف مدينة الأشمونين) بكتابه سير البطاركة القديسين ص ٢٨٢و٢٨٦ في سيرة الأب أنبا يوساب (يوسف) البطرك . بعد ان روى كثيراً من أخبار مصر وحوادثها في عهد المأمون والمعتصم (ما نصه):—

« وكان الحرب قد أقام أربعة عشر سنة بينهم الى ان ملك ابراهيم أخو المأمون وجعل حفظة على طريق الحبشة والنوبة . . . ص ٢٨٢

« وفي ذلك الزمان أنفذ الملك ابراهيم الى مصر ان يؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام . وكان الواصل في هذا الطلب انسان مخالف مبغض من النسطورية اسمهُ العازر . فلما وصل الى مصر اجتمع اليهِ أهل مذهبه النجس الذي هم الهراطقة الخلقدونيين المقيمين بالاسكندرية ولم يزالوا يسعوا بالبيع ليلاً ونهاراً وحسنوا له ان يهدم بيع مدينة الاسكندرية وكانوا يدلوه على المواضع الذي فيها العمد والبلاط فيأخذهم غصباً بيده . فلما أخرجوه الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط من كثرة حسدهم لها وقالوا له ليس يشبهها شيئاً من البيع وان كلما توجهت لطلبه تجده فيها فقام ذلك النسطوري مسرعاً بمشورة السعاة ودخل الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط فلما نظر اليها والى زينتها وحسن ما فيها من العمود الرخام الملون تعجب وبهت وقال هذا الذي يحتاج اليهِ الملك هذا ها هنا ولم أعلم بهِ فلما سمع أبونا أنبا يوساب البطرك ان ذلك الانسان السوء لم يمنع يده لما في قلبه من السوء والبغضة (ولما لقبوه المخالفين) فقال له هو ذا كل البيع الذي بحكمي بين يديك فافعل فيها ما أمرك بهِ الملك وهذه البيعة فقط أحب منك ألاَّ تعترضها . ومهما التمستهُ مني سلمتهُ اليك . فلم يقبل المخالف قوله ولا سؤاله بل يجاوبه مواجهة بما لا يجب ثم بدا وأخرج من البيعة الرخام الملون والبلاط المعدوم الذي هو قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن . فلما وصل الرخام الى مدينة الاسكندرية لينفذوه الى مدينة الملك لحزن الاب حزناً عظيماً على البيعة . وقال أنا أعلم أنك تقدر أيها الشهيد القديس ان تأخذ حقك من هذا المخالف الذي لم يوقر بيتك الذي هو عزاء لجميع المؤمنين ولم يفتر الليل والنهار من هذا الحزن الذي حلَّ بهذه البيعة المقدسة وكان مهتمًّا بعمارتها الخ » [يتبع]



أحياء غير مرئية

أحدث آراء العلماء في طبيعة الڤيرس والامراض التي يسبّبها

لرضوان محمد رضوان

تبين من مقالنا السابق ، أن هناك أحياء متناهية في الصغر ، متضائلة في الحجم ، تملأ الأرض والهواء والماء ولا ترى بالعين المجردة ، كشف عنها العالم بمجهره ، ودرس خواصها فعلم ما لها من مكانة ممتازة في الحياة ، وماتسديه من خدمات جليلة الشأن ، عظيمة الأثر في حياة الانسان والحيوان والنبات

وقد يتطرق إلى ذهن الانسان ، أن هذه الأحياء هي نهاية ما وصل اليه العلم ، والواقع أن العلماء قد كشفوا في المدة الأخيرة عن عالمٍ جديد من عوالم الأحياء ، فريد في بابه ، خفي في ذاته . ذلك انهُ قد استعصت رؤيته على العلماء قاطبة ، فلقد بلغ من دقة الصغر حداً عجزت معهُ جميع الآلات المكبرة عن اظهاره . ونحن نورد في الكلمات التالية أحدث ما وصل اليه العلم في معرفة خواص هذه الأحياء وطبيعتها

وجد من المشاهدات العديدة ، ان النباتات تصاب بأمراض خطرة معدية لا يعرف لها سببٌ ، فهي ليست من الأمراض الفسيولوجية — أي الأمراض التي تسببها عوامل مختلفة من البيئة وتزول بزوال هذه المؤثرات — اذ انها تختلف عنها في قدرتها على عدوى النباتات السليمة. وهي كذلك ليست من الأمراض البكتيرية التي تسببها البكتريا ، ولا من الأمراض الفطرية التي تنسبب عن الفطر ، فهي تختلف عنهما في كون المسبب للمرض، لم تمكن مشاهدته إلى الآن. ولكي يدرك القارىء مدى صغر هذه الكائنات ، نذكر أن لدى العلماء الآن مجهراً قويًّا جداً يعرف باسم الترا ميكرسكوب Ultramicroscope يبين لغاية $\frac{1}{1000000}$ (جزء من مليون) من الملليمتر . وهذا حجم دقيق جداً لا يمكن تصوره ، فاذا كانت هذه الاحياء تستعصى أيضاً على هذا الميكر سكوب ، فلا شك أن حجمها محير للفكر ، مذهل للعقل . ولهذا لم تتمكن المرشحات الدقيقة جداً ، والتي تمنع مرور اصغر انواع البكتريا ، من حجز هذه الكائنات

ولما كانت تلك الاحياء تسبب عدوى الأحياء السليمة ، اتفق العلماء على تسميتها

بالفيرس Virus . فالفيرس اذاً هو عبارة عن كائنات خفية ، لم نرها للآن ، وانما نشاهد عملها في الطبيعة ، وتأثيرها في الكائنات الحية

وضعت نظريات عدة لتفسير طبيعة الفيرس ، فبعض العلماء يرى ان المسبب لهذه الأمراض، هو نوع من الانزيمات[1] ، او على الأقل كائنات شبيهة بها . والاعتراض على هذه النظرية أن الانزيمات لا تتكاثر ، بينما الفيرس يتكاثر

ويرى علماء آخرون ، ان الفيرس عبارة عن بكتريا فوق الميكرسكوبية ، ولكن مما يجعل هذا الرأي مشكوكاً فيه ، قدرة الفيرس على المرور من المرشحات التي تحجز البكتريا مهما دقت في الحجم ، وكذلك تعذُّر نموه في البيئات الصناعية التي تنمو فيها البكتريا

وفي سنة ١٩٢٩ أعلن العالم بويكوت Boycott ان الفيرس كائن يقع في سلم النشوء بين الأنزيمات والبكتريا ، أي بين المادة الميتة والمادة الحية ، لأنهُ ليس هناك حد فاصل بينهما ، إذ قد تندمج الواحدة منهما في الأخرى بطريقة غير محسوسة . وهو يقترح ترتيب سلسلة في نشوء تدريجي، تصل ما بين الانزيمات (وهي المادة الميتة) والبكتريا (وهي المادة الحية) . ويمكن فهم هذه النظرية بتتبع خطوات السلسلة الآتية : —

(١) كائنات لا أثر فيها للحياة وهي الانزيمات Enzymes
(٢) كائنات في طريقها الى الحياة وهي الليزوزيم[2] Lysozyme
(٣) كائنات في المرحلة الاولى من الحياة وهي البكتريوفاج[3] Bacteriophage
(٤) كائنات في المرحلة الثانية من الحياة وهي الفيرس Virus
(٥) كائنات تدب فيها الحياة الكاملة وهي البكتريا Bacteria

وأحدث رأي في ماهية الفيرس ، هو ما اعلنهُ العالم الاميركي ستانلي Stanley سنة ١٩٣٦ وقد كان يجري أبحاثه وتجاربه على مرض تبقّع الدخان او فسيفساؤهُ ، فأمكنه عزل الفيرس ، وأثبت أنهُ جزيء من البروتين المتبلور ذو وزن جزيئي مرتفع جدًّا . وقد وجد ستانلي ان هذا الجزيء قوي جدًّا ، لدرجة انهُ لو أذيب منهُ جزء بسيط في مقدار كبير من الماء ، لظل محتفظاً بحيويته وقد بلغت قوته في الاصابة حوالي ٥٠٠ مرة قوة عصير النبات المصاب . فعند ما يصاب نبات ما بهذا البروتين ، تتحول عمليات النبات الفسيولوجية ، فبدلاً من ان يكوّن النبات بروتينه العادي ،

(١) الانزيم عبارة عن المواد التي تكونها الخلايا الحية ، وتكون لها القدرة على احداث تغييرات كيميائية بدون ان تصير نفسها جزءا من المحصول النهائي وتسمى أحيانا عوامل مساعدة عضوية
(٢) الليزوزيم عبارة عن خمر تفرزه خلايا الجسم وله تأثير قاتل في الميكروبات ، وهو يتكاثر ويوجد بكثرة في الدموع
(٣) البكتريوفاج عبارة عن ناتج مساعد يفرز خمراً يؤثر في البكتريا ويذيبها

يكوّن مقادير كبيرة من بروتين القيرس تبعاً للتحويل الذي سببتهُ الاصابة

نرى مما تقدم أن طبيعة القيرس بالتحديد غير متفق عليها ، والرأي السائد في الدوائر العلمية انهُ كائن حي ، يؤيد ذلك قدرته على التكاثر في خلايا العائل ، كذا تسببه في عدوى النباتات السليمة وتأثره بالمؤثرات الطبيعية والكيميائية

﴿ امراض القيرس ﴾ : تتعرض كثير من العائلات النباتية للاصابة بأمراض القيرس ، مثل العائلة الوردية والقرعية والخيمية والنجيلية والبقلية والشقيقية والخبازية والمركبة ، وهو يصيب نباتات مهمة اقتصاديًا كالقمح والدخان والشليك وقصب السكر والخوخ والموز والذرة والبرسيم . وتظهر النباتات المصابة بأعراض خاصة تميزها عن الأمراض الاخرى ، وأهم هذه الأعراض ما يلي :—

١—الموزيك (الفسيفساء) Mosaic وهو من أهم الاعراض التي تظهر على النباتات المصابة بالقيرس فتظهر الأوراق مبقعة ببقع صفر أو خضر باهتة ، متبادلة مع اجزاء خضر غامقة ، وسبب هذا اللون الاصفر يرجع الى انحلال حبيبات الكلوروفيل نتيجة الاصابة . وقد يؤثر هذا المرض في الأزهار فيسبب تبقعها وتشوهها فتسقط ، وأما الثمار فتضمر في الحجم وتنقص حيوية البذور

٢ — الاصفرار Chlorosis وينشأ عن نقص وانحلال الكلوروفيل ، وبذا تصفرّ الانسجة الخضر ، واذا اشتدت الاصابة تفقد الانسجة لونها بالكلية فتصير بيضاً

٣ — التخطط Streak : فتظهر الاجزاء الباهتة على شكل خطوط قصيرة او طويلة على امتداد الورقة . وتظهر هذه الحالة بوضوح في موزيك قصب السكر

٤ — التورد Rosette : وفيه تتجمع اجزاء النبات المصابة كالسوق او الاوراق في مجموعة مزدحمة ازدحاماً غير طبيعي ، وقد يصحب الازدحام نمو شاذ وظهور تبقع او تخطط ، مثل تورد القمة في الموز والقمح

٥ — التشوه Distortion : وفيه يضعف النبات ويقل حجمه ويظهر بشكل غير طبيعي ، اذ تقل ثخانته كثيراً او تلتوي الاوراق وتتجعد

يؤثر القيرس في تركيب الانساج المصابة فيعرقل نمو الخلايا الباهتة ، وبذا تصبح الانساج الباهتة اقل سمكاً من الخلايا الخضر ، ويؤثر القيرس ايضاً في الكلوروبلاستيدات فتقل في الحجم والعدد ، واذا اشتدت الاصابة انحلّت هذه الحبيبات وفقدت لونها . وأما في الاجزاء الخضر ، فنجد للقيرس تأثيراً منبهاً ، فتصبح اكبر حجماً من المعتاد ويكثر بها عدد الكلوروبلاستيدات وبذا يصبح لون الكلوروفيل غامقاً . وأما الانابيب الغربالية والخلايا المرافقة لها التي في اللحاء فتموت ، وقد يصحب ذلك اصفرار اللون في الانسجة الميتة ، وكثيراً ما توجد في الخلايا المصابة أجسام كروية تشبه النواة لم يدرك كنهها للآن ، ولذا اطلق عليها اسم X ، ويرجح أن

هذه الاجسام يكوّنها النبات كرد فعل او كنتيجة الاصابة

وينتقل الڤيرس في انساج العائل اما بالانتشار من خلية الى اخرى ، ففي مرض موزيك الدخان ، امكن نقل العدوى الى نبات سليم بتمرير فرشة ملوثة من شعر الجمل تمريراً بسيطاً جداً على سطح الورقة بحيث تلامس الشعور الرهيفة . وإما ينتقل الڤيرس في الحزم الوعائية وعلى الاخص في اللحاء ، كما انهُ يحتمل ان الڤيرس ينتقل ميكانيكيًا مع حركة البروتوبلازم ، وقد وجد ان المرض يسير بسرعة ٣٠ سنتمتراً في ٣ ساعات في مرض تخطط الذرة ، وينتقل في مرض تجعد القمة في البنجر بسرعة ١٧٫٥ سم في ½ ساعة . وهذا الانتقال اسرع من ان يكون سببه الانتشار من خلية لأخرى ، وأبطأ من ان يكون سببه الانتقال في الحزم الوعائية مع مجرى الماء ، فمن المحتمل اذاً ان يكون للڤيرس حركة مستقلة لا تتوقف على المساعدة التي يقدمها العائل من حيث حركة الماء والغذاء . وقد ثبت ان الڤيرس لا يستطيع الانتقال في الاوعية الخشبية ، واذا ما ادخل صناعيًا في وعاء خشبي ، فانه لا يستطيع ان يخرج منهُ ، ما لم يمزق ذلك الوعاء

وأهم وسيلة لانتقال امراض الڤيرس وانتشارها من نبات الى آخر ، هي الحشرات ، وتعرف باسم الحشرات الناقلة vectors ، ومن اهمها الحشرات التابعة لفصيلة همبترا Hemiptera وهي التي تحتوي على اجزاء فم ثاقب ماص ، وتعتبر حشرة المنّ Aphis أهمها جميعاً . وهناك درجات متفاوتة في تخصص الحشرات في نقلها لامراض الڤيرس المختلفة ، فقد يمكن لنوع منها أن ينقل عدة أمراض مثل حشرة المنّ المسماة ميزس پرسيكا Myzus persicae اذ تنقل حوالي ١٤ نوعاً مختلفاً من الڤيرس . بينما يختص المنّ المسمى پنتالوميا نجرونرفوزا Pentalomia Negronervosa بنقل مرض واحد فقط هو مرض تورد القمة في الموز

فاذا ما تغذت احدى الحشرات الناقلة على نسيج نبات مصاب ، غرزت أنيابها في الخلايا فتثقبها فيختلط لعابها بعصير النبات ، ثم تمتص هذه العصارة وبذا ينتقل الڤيرس الى جسم الحشرة وينتشر فيه حتى يصل الى الغدد اللعابية فيمكث هناك ، وبذلك يصبح اللعاب ملوثاً . فحين تعود الحشرة للتغذي على نبات سليم ، وتخلط لعابها الملوث بعصارة النبات ، تنتقل العدوى اليه وهكذا . وفي حالات عديدة وجد أن الڤيرس يحتاج الى مدة كمون في جسم الحشرة ، حتى تصبح الحشرة بعدها قادرة على نقل العدوى الى النباتات السليمة ، فمثلاً حشرة سيكادبولا سكسنوتاتا Cecadula Sexnotata التي تنقل مرض الاصفرار لنبات الآستر ، تمر عليها فترة تتفاوت من ٧ — ١٤ يوماً من وقت تغذيتها على النبات المصاب ، الى ان تصبح قادرة على احداث عدوى اخرى . ويحتمل ان تكون هذه هي الفترة التي يحتاج اليها الڤيرس حتى يستطيع ان ينتقل في جسم الحشرة ويصل الى الغدد اللعابية . ويمكن للحشرة الناقلة اذا ما تلوثت مرة ، ان تحتفظ بقدرتها على نقل العدوى مدة طويلة

بدون أن تتغذى على نبات مصاب آخر ، بل انهُ في كثير من الاحيان ، تحتفظ الحشرة بهذه القدرة مدى حياتها . الا أن هذه الصفة المكتسبة لا تورث ، أي أن نسل الحشرات المصابة يفقد قدرة آبائه على نقل العدوى ، الا اذا تغذى بدوره على نبات مصاب وأصبح ملوثاً

وهناك نباتات لها علاقة بنقل أمراض الفيرس تسمى بالنباتات الحاملة Carriers وهي النباتات التي تصاب بالفيرس فيتكاثر فيها دون أن تظهر عليها علامات المرض ، أي ان ظاهرها سليم وباطنها ملوث ، فاذا ما أتت حشرة ناقلة وتغذت على نبات من هذه النباتات ، اصبحت الحشرة ملوثة فتكون بذلك وسيلة لنقل العدوى . ووجود هذه النباتات الملوثة مما يزيد في تعقيد دراسة الفيرس ، اذ أنهُ لم يعرف كيف لم تظهر اعراضهُ على هذه النباتات المصابة اسوة ببقية النباتات ، وهذا مما يزيد في صعوبة مقاومته

واتماماً للفائدة المرجوة من هذا المقال ، رأيت أن أذكر فيما يلي أهم الامراض التي تتسبب عن جراثيم الفيرس وتصيب النبات والحيوان مع ذكر طرق الوقاية منها

﴿ مرض تورد القمح : Rosette of Wheat ﴾ هذا المرض منتشر في مصر انتشاراً كبيراً، وقد يشتد خطره في بعض الاحيان فيقضي على المحصول كله وتختلف نسبة الاصابة بهِ من ٥ — ١٠ ٪ ، ويسبب هذا المرض ضعف النباتات وضمور الحبوب ، وقد لا تكون الحبوب قط ، اذا ما اشتدت الاصابة . وتتلخص أعراض هذا المرض في كون النباتات يقف نموها الطبيعي ويزداد التفرع الذي ينشأ عنه مظهر التورد ، وكذلك ظهور البقع على السوق والأوراق . والذي يرجح ان هذا المرض مسبب عن فيرس ، وجود الأجسام الكروية X في الخلايا وتشابه الأعراض بأعراض مجموعة الموزيك، والقرائن التي تدل على انهُ مرض معدٍ ، اذ أن هذا المرض غالب الظهور في الحقل بعد محصول مصاب، كما ان تعقيم التربة بالحرارة أو الفورمالين يمنع ظهوره

وخير وسيلة لمقاومة هذا المرض ، هو اتباع دورة زراعية ملائمة ، وعدم زراعة القمح في حقل سبقت اصابته بهذا المرض الا بعد تعقيمهِ ، وزراعة انواع منيعة من القمح

﴿ تخطط قصب السكر : Streak of Sugar cane ﴾ يسبب هذا المرض نقصاً محسوساً في محصول قصب السكر ، واكثر انتشاره في كوم امبو بمصر ، وهو يتميز بوجود أشرطة محدودة ضيقة ، صفر او بيض على طول عروق الورقة ، ويتفاوت طول هذه الخطوط من ملليمترين الى ٨ سنتيمترات . وكلما تقدمت الورقة في العمر كلما ازدادت الأعراض وضوحاً بتركيز اللون في الأجزاء الخضر القائمة . وقد وجد أن الحشرة الناقلة لهذا المرض هي نوع من البق المسمى Balclutha Mebila ، وتصبح الحشرة ملوثة بعد امتصاصها لعصارة النبات المصاب مدة ١٥ دقيقة ، ثم تمضي الجراثيم فترة كمون في جسم الحشرة ، حتى تصبح بذلك قادرة على نقل العدوى.

ولمقاومة هذا المرض ، يجب عدم زراعة عقل ملوثة من نباتات مصابة ، وايجاد اصناف لديها مناعة كافية ضد هذا المرض

﴿ تورد القمة في الموز Bunchy top of Banana ﴾ أول ما لوحظ هذا المرض في استراليا سنة ١٨٩٠ ، ثم ظهر بعد ذلك في جزيرة سيلان سنة ١٩١٣ ، وظهر في مصر وانتشر بها وخصوصاً في منطقة الاسكندرية. تبتدىء الأعراض المميزة لهذا المرض ، بظهور خطوط خضر غامقة على طول عروق الورقة مبتدئة بالسطح السفلي للعروق الوسطى وقاعدة الورقة أو على عنقها ، وعند ما تظهر الأوراق تزدحم تبعاً لاصابتها ، وتعطى بذلك مظهر تورد القمة في النبات ويظهر هذا بعد عدة اسابيع من الاصابة . ويسبب هذا المرض قصراً في النبات فيضعف ويقل محصوله وتصبح الاوراق هشة سهلة الكسر . واذا اصيب النبات وهو حديث ، فان نموه يقف وبذلك يصبح عديم القيمة. وينقل هذا المرض المنّ المسمى Pentalomia negronervosa ،وتظهر الأعراض بعد نحو شهر من وقت تغذية الحشرة الملوثة على عصارة النبات ، ويمكن لهذه الحشرة ان تحتفظ بقدرتها على نقل العدوى مدة لا تقل عن ٨٤ ساعة من وقت ابعادها عن موطن المرض ، ولمقاومة هذا المرض يجب منع استيراد نباتات موز من الجهات الملوثة ، وازالة نباتات الموز المبعثرة في الحدائق الصغيرة ، واقتلاع النباتات المصابة بمجرد ظهورها واعدامها في الحال. ويبتدىء المرض في الظهور في مارس ويستمر الى اكتوبر متمشّياً مع موسم ظهور حشرات المن ، فيجب التبكير في ملاحظة المرض وتفتيش مزارع الموز بانتظام ، ويستحسن قبل اقتلاع النباتات المصابة ، أن ترش بمحلول مطهر كالكيروسين أو البترول ، ويصب جزء منهُ في قمة الساق الكاذب وذلك لقتل المن حتى لا ينتشر عند اقتلاع الشجيرات ، ويفضل حرق النباتات المصابة في اماكنها بدلاً من نقلها وذلك زيادة في الاحتياط . وقد اصدرت الحكومة قراراً اعتبرت فيه مصر موبوءة بمرض تورد القمة، وحذرت نقل نباتات الموز او اجزائها من الدلتا الى الوجه القبلي

يتبين مما سبق ان النباتات التي تصاب بالڤيرس لا يمكن علاجها ، وانما هناك فرصة لمقاومة المرض قبل استفحاله ، ونذكر فيما يلي أهم طرق المقاومة بصفة عامة :

(١) ازالة النباتات التي تظهر عليها اعراض الاصابة اولا بأول وتحرق . ومن المناسب ان يزال جزء من النباتات المحيطة بالنباتات المصابة، خوفاً من ان تكون من النباتات الحاملة، أو ان اعراض المرض لم تظهر عليها لعدم انتهاء مدة الكمون . ومن البديهي ان هذه الطريقة لا تتبع الاّ اذا كان عدد النباتات المصابة قليلاً

(٢) اتباع طريقة التكاثر بالبذور ، اذ انهُ في كثير من الحالات لا يمرّ الڤيرس الى البذور.

أي ان النباتات المصابة تكون بذوراً سليمة فاذا مازرعت ، انتجت نباتات سليمة ، ويلاحظ هنا ان تنظف البذور من اعناق الأزهاراو أي جزء من اجزاء النبات تكون العدوى عالقة بها، وذلك لضمان عدم نقل العدوى الى النبات الجديد . وفي النباتات التي تتكاثرخضريًا ولم تنفع فيها طرق المقاومة المختلفة ، يمكننا أن نبدأ زراعتها من البذور حتى ينتج نسلها سليماً يتكاثر بعد ذلك خضريًا

(٣) انتقاء تقاوٍ سليمة ، كانتخاب عقل قصب السكر ، أو درنات بطاطس ، أو ازرار للتطعيم من نباتات سليمة من الڤيرس

(٤) تعقيم التربة : علمنا ان الڤيرس ينتقل بواسطة الحشرات الناقلة ، فاذا عمدنا الى قتلها بالحرارة أو بمطهر كيميائي ، تخلصنا بذلك من عدو خطر . وهذه الطريقة مفيدة جدًّا خصوصاً في نباتات التجارب ذات الشأن الخاص ، والتي تربّى في الصوب الزجاجية

(٥) تعقيم مطاوي التقليم وغيرها من الأدوات المستعملة في العمليات الزراعية ، وكذلك تطهير أيدي العمال القائمين بهذه العمليات ، ويكفي محلول الليزول في هذا الغرض

(٦) ابادة الحشرات باحدى الطرق المعروفة كالتبخير والرش باحد المبيدات الفطرية ، وتعد هذه الطريقة من أنجح الطرق الفعالة في مقاومة امراض الڤيرس

(٧) الاعتناء بالعمليات الزراعية والنظافة ، فتزال الحشائش التي قد تؤوي الڤيرس الى الموسم التالي . وكذلك تزال النباتات التي ثبت أنها واسطة في نقل العدوى

(٨) استعمال دورة زراعية مناسبة ، ويجب الاعتناء بالحصاد الكامل ، فلا تترك بقايا نباتات في الحقل وخصوصاً النباتات المصابة حتى لا تكون مصدراً للعدوى في العام المقبل

ننتقل بعدهذا الى ذكر بعض الامراض المعدية التي يسببها الڤيرس وتصيب الحيوانات وقد تنتقل منها للانسان مع موجز لطرق الوقاية منها

﴿ الطاعون البقري Cattle Plague ﴾ مرض معدٍ وبائي خاص بالفصيلة البقرية يتميز بالتهاب حاد في القناة الهضمية ، ومدة حضانة المرض ٣ — ٤ أيام وسيره نحو ١٥ يوماً ، وعاقبته وخيمة اذ ينفق اكثر ما يصاب به ، إلاّ ان التي تنجو منه تكتسب مناعة لمدة طويلة . وتتلخص الأعراض الظاهرة في كون الماشية المصابة تعتريها حمى تستمر من ٥ — ٨ أيام ، ويسيل اللعاب باستمرار نتيجة التهابات تقرحية بالفم فتتغطى اللثة بقروح صغيرة تعلوها خلايا البشرة مكونة لشكل النخالة . ويسيل من الأنف مخاط يتبعهُ غور العينين الى الداخل وتساقط الدموع ، ويرتجف الحيوان ، ويضيق تنفسه ، ويصحب الزفير عادة أنين موجع . واذا شرّحت جثة الحيوان المصاب في هذا الوقت شوهدت المميزات المرضية الآتية : —

(١) احتقان المعدة الرابعة احتقاناً شديداً يجعلها بلون الطربوش الأحمر
(٢) احتقان الغشاء المخاطي المبطن للمستقيم وتورمه
(٣) التهاب الامعاء الدقيقة فتظهر فيها خطوط حمراء
(٤) تضخم الكبد ، وتمدد المرارة ، وامتلاؤها بصفراء لونها اخضر قاتم مائل الى السواد

والعلاج الدوائي لهذا المرض لا يفيد ، ويشمل العلاج الوقائي عزل الماشية المصابة عزلاً تامًّا، ويجب ان تحرق الماشية النافقة وتدفن عميقاً، ثم تطعم المواشي السليمة، والتطعيم إما ان يكون :

(ا) بالمصل وحده ، وهذا يمنع العدوى من الماشية زمناً قصيراً — نحو ثلاثة أسابيع ويكفي ١٠٠سم٣ للمواشي الكبيرة ، ٥٠سم٣ للمتوسطة ، ٢٥سم٣ للصغيرة

(ب) بالمصل والدم (الدم الموبوء) وهذا يكسب الماشية مناعة لمدة طويلة قد تزيد على الثلاث سنوات

﴿ الجدري (Variola (Pox ﴾ مرض معدٍ حاد ، يتميز بظهور بثرات موضعية يتطور شكلها في أدوار مختلفة ، تنتهي بتكوُّن قشور، تترك بمجرد سقوطها أثراً ظاهراً . وأهم امراض الجدري النوع الذي يصيب الضأن ويحدث طفحاً جلديًّا يبدأ بحبوب صغيرة Papules تتحول الى نفاطات Vesicles ثم الى بثرات Pustules وأخيراً الى قشور Crusts

يدخل الڤيرس الجهاز التنفسي ويمر من الحويصلات الهوائية الى الدم ، ومنهُ ينتهي الى الجلد حيث يسبب الاعراض المحلية . ويحدث العدوى في قطيع الغنم بالاتصال المباشر او غير المباشر. وأشد الأدوار خطورة هو وقت تكوين القشور الموضعية ، حيث يحتفظ بها الصوف عدة أسابيع ،فتظل مصدراً مستديماً للعدوى ، ولا تتجاوز مدة الحضانة أسبوعاً . وتبتدىء الأعراض بارتفاع درجة الحرارة ، والتهاب العين بالرمد الصديدي، وزيادة حساسية الحيوان خصوصاً في منطقة القطن حيث يتألم بمجرد وضع اليد . وبعد يوم او يومين تظهر بقع صغيرة حمراء اللون بالأجزاء العارية من الجلد حول العينين، وداخل الفخذين، وعلى جانبي الصدر والبطن، وأسفل الذيل ويمتد الالتهاب والطفح فيشمل الأغشية المخاطية ويسبب نتائج خطيرة في الحلق والفم ، واذا أصاب الامعاء سبب اسهالاً شديداً ، واذا أصاب الشعب ، سبب النزلة الشعبية والالتهاب الرئوي . وبعد ٣—٥ أيام تتحول البقع الجلدية الى نفاطات صغيرة مقعرة يملؤها سائل رقيق ، ثم يتغير شكل هـذا السائل في اليوم السابع ويصير صديديًّا معتّماً أغبر ، ويعرف هذا الدور بالدور البثري

بعد ثلاثة أيام تقريباً تجف أغلب الارتشاحات الصديدية التي تملأ البثرات وتكون قشوراً ، وهذه تسقط في مدة لا تزيد على خمسة ايام تاركةً حفراً صغيرة . وبمجرد تكوين القشور ،

تنخفض درجة الحرارة ، ويحدث عن هذا المرض مضاعفات كثيرة،اذ يلتهب الجلد في كثير من اجزائه خصوصاً حول الشفتين والمنخرين ، وتتقرح القرنية ، وقد يترتب على ذلك ان يفقد الحيوان بصره ، واذا اشتدت الحالة يحدث تسمم صديدي تام ينفق بعده الحيوان . وللوقاية منهُ تتبع الارشادات الآتية :

١ — تنظيم الغذاء واعطاء أغذية سهلة الهضم كالأعشاب والبرسيم،واضافة قليل من الملح الانكليزي على مياه الشرب

٢ —الحيوانات المصابة اصابة شديدة يجب ذبحها ، واعدام الرأس والجلد والانتفاع باللحم ان كان صالحاً للأكل

٣ — تطهير العينين والاجزاء المصابة بمحلول مطهر

٤ — اتخاذ جميع الاحتياطات لمنع نقل العدوى إلى المناطق السليمة ، واجراء التطعيم الضروري مع حقن المخالط باللقاح الواقي

وهناك نوع من الجدري يصيب الماشية ، وتنتقل اليها العدوى — في غالب الاحيان — بواسطة الحلابين او غيرهم اذا اتفق تطعيمهم بلقاح الجدري حديثاً ، فينتقل القيرس منهم الى الضرع اثناء عملية الحليب . وللوقاية من هذا المرض ، تنصح بغسل الضرع والحلمات بعد كل حليب بمحلول تحت فوسفات الصوديوم ١٪ او محلول ملح الطعام ٩ : ١٠٠٠

﴿ مرض الكلب Rabies ﴾ : مرض معدٍ يؤثر في المراكز العصبية فيحدث هيجاناً خاصاً في الجسم ، وتشنجات في العضلات ، وهو يصيب جميع الحيوانات وكذا الانسان بوجه عام ، وذات المخلب كالكلب والهر بصفة خاصة . وتختلف مدة حضانة المرض من أسبوعين الى شهرين،وقد تمتد الى ثلاثة شهور او اكثر،ومدة سيره اسبوع،على انهُ يكون وخيم العاقبة فلا ينجو منهُ مصاب ، الاَّ اذا عولج بعد العقر مباشرة

تحدث العدوى الطبيعية بالعقر ، اذ يدخل القيرس المحمل به اللعاب في جسم الحيوان السليم خلال الجرح الحادث ، وقد لوحظ ان اللعاب يكون محملاً بجراثيم القيرس مدة ثلاثة ايام قبل ظهور بوادر الاعراض ، وتتوقف خطورة الاصابة على قوة القيرس،ومقدار اللعاب ، وعلى غور الجرح الحادث، وعدد الاوعية الدموية واللمفاوية،والاعصاب التي شملها العقر،وطبيعي ان يكون عقر الحيوانات آكلة اللحوم أشد خطورة من غيرها ، وذلك بالنسبة لشكل الاسنان الاولى . كما أن الخطورة تتوقف ايضاً على مركز الاصابة ، فكلما قربت من المركز العصبي العام ازدادت خطورتها ، كما انها تختلف ان كانت الاصابة فوق جزء عارٍ او مغطى بالصوف اوالشعر او الملابس،اذ أن هذه كلها تمتص جزءاً عظيماً من اللعاب،فتلطف من حدة الاصابة الى حدٍّ كبير

واعراض هذا المرض تكاد تتشابه في جميع الحيوانات ، وتتأثر الحيوانات الصغيرة السن اكثر من الحيوانات المسنة ، وفي جميع هذه الحالات يتأثر الجهاز العصبي وتنتهي الحالة بالموت السريع

وللمرض نوعان: نوع ساكن ونوع تهيجي ، والواقع انهُ لا يوجد حد فاصل بينهما ، اذ قد ينقلب احدهما الى الآخر اثناء سير المرض . وللنوع التهيجي ثلاثة ادوار :

(١) دور الكآبة Melancholic (٢) دور الجنون Mania (٣) دور الشلل Paralysis

ويلاحظ في الدور الاول ان عادات الكلب تتغير ، فهو يطلب العزلة والانفراد ، بل انه، وهو الوفي الامين ، ينكر معرفته لصاحبه ، ويتحاشى مقابلته او الالتقاء به فيختبىء في الاماكن المظلمة . ومن ثمَّ ينتقل هذا الدور الى دور الجنون ، فيشتد هياجه اشتداداً عظيماً ويعض كل من يقابله دون اي تمييز بين العدو والصديق ، وفي فقدانه لوعيه يبتلع قطع الحجارة والورق وكل ما يصادفهُ من أدوات المنزل ، كالسجاد والخشب والمسامير وغيرها. ومن غريب ما لوحظ من طبائع هذا المرض ، ان الحيوان المصاب بهِ يخاف خوفاً شديداً جدًّا من الماء ولم تعرف الحكمة في هذا الخوف ، ولذا أطلق عليهِ Hydrophobia ، ينتقل الحيوان بعد ذلك الى دور الشلل ، فتنشل العضلات الفكية، ويستمر امتداد الشلل الى بقية أجزاء الجسم، ثم يقضي الحيوان نحبه في اليوم السادس او السابع

وأما في النوع الساكن ، فينتقل الحيوان المصاب من دور الكآبة الى دور الشلل مرة واحدة . ويلاحظ ان طبائع الحيوان الخاصة تؤثر في مظاهر المرض ، فالحصان يرفس والثور ينطح وهكذا . ولما كان كل منا معرض لمشاهدة احدى حالات هذا المرض ، لهذا نلفت النظر الى هذه الاحتياطات الواجب مراعاتها :—

١ — يجب ضبط الحيوان العاقر واخطار رجال الادارة حتى تتسلمهُ

٢ — يرسل الشخص المصاب الى مستشفى الكلب حالاً ليأخذ الحقن الوقائيـة اللازمة لمدة ٢١ يوماً

٣ — يوضع الحيوان العاقر تحت المراقبة لمدة ١٥ يوماً ، فان كان مصاباً بالمرض نفق خلالها، واما اذا مات الحيوان قبل ضبطه فلا بد من اعطاء حقن وقائية للمصاب

تبين لنا مما تقدم تلك الاهمية الاقتصادية العظمى التي للڤيرس، فهو يصيب النبات والحيوان بأمراض معدية وفي منتهى الخطورة ، ولهذا كانت دراسة خواص تلك الاحياء، ومحاولة الكشف عما خفي من امرها ، خدمة جليلة للانسانية قاطبة . والڤيرس لا يقتصر في هجومه على النبات والحيوان فحسب، بل ان كثيراً من الامراض الشديدة الوطأة على الانسان تسببها تلك الكائنات ، مثل الانفلونزا والدنج والحصوة والصفراء ، وهذه نترك التكلم عنها للاطباء ☙ رضوان محمد رضوان



التقدير الفني

بين النظرتين العلمية والفنية

لعلي أدهم

عند ما نحاول أن نتعرّف مظاهر هذا الكون الغاص بالمجاهل والغوامض والحافل بالاسرار والاعاجيب نسلك طريقين ، طريق الفن وطريق العلم ، فكلّ حقائق الحياة وما تحتويه من عواطف واهواء وخواطر وآراء وموجودات وكوائن مضطرب واسع يتسابق فيه العلم والفن ويتباريان في الوقوف على دقائقه والكشف عن اسراره . والنظرة العلمية للكون تتناول الاشياء من الناحية التحليلية فتحصي صفاتها وخواصها ، وتلحق النظير بنظيره ، وتنظم الأشباه في عقد واحد ، وترد مختلف الاشياء إلى طبقات وأنواع وطوائف وأجناس ، وينتهي بها فرط التحديد والتقسيم الى ربط الأشياء جميعها برباط واحد وهو علاقة السبب بالمسبب . أما النظرة الفنية فهي نقيض النظرة العلمية لانها تقبل على الاشياء في ذاتها وتلمح خصائصها الفذة ومزاياها الفريدة ، ولا تعبأ بالخارجيات والروابط والعلاقات ، وإنما تتأمل فيها ما يملأ الحواس ويفعم الشعور ، فالكون في نظرها كلية عامة مكونة من كليات صغيرة كاملة في ذاتها قائمة بنفسها حرة في نظامها

والنظرة العلمية بتحليلها للمظاهر تنزع الجمال من الاشياء وتذهب بالروح والرونق وتشرف بك على الكون بحراً تتضارب فيه امواج التغيرات والاحداث المتتابعة وتتصارع فيه العناصر وتتعانق ، وتلتقي وتفترق ، وتتركب وتتحلل ، وتستمر هكذا على الدوام في فيض متتابع ، اما النظرة الفنية فتشرف بك على الكون كاسياً بالبهاء رائع المظهر تسمع خلاله انغام الآباد وتلمح صور الخلود . والنظرة الفنية والنظرة الدينية منشقتان من نبع واحد ، وكما أن النظرة الدينية تستشف من وراء مظاهر الكون علة العلل وقدس الاقداس ، فكذلك النظرة الفنية ترى الكون قصيدة رائعة الفاظها مظاهر الاشياء ومعناها الجليل مستتر خلال تلك المظاهر الخلابة ، ومن ثمّ امتزاج الاساطير الدينية بالقصص والاشعار في أديان الامم القديمة وآدابها ، والنظرة الفنية ترى في كل مظهر من المظاهر تحفة من معروضات الفن تثير الخيال وتهز النفس وتفتح اغلاق القلب ، وفي عصور القوة تغلب النظرة الفنية على النظرة العلمية ، اما في العصور التي تضمحل فيها القوى وتذوى الغرائز فتتصدر النظرة العلمية ، على ان النظرتين لا تزمتان وكل منهما مكملة للاخرى

والتقدير الفني الصادق لمنشآت الفن ونفائس الادب يقتضي وجود عاملين هامين وهما الاستقراء التاريخي ثم الخيال اليقظ المتدرب والذوق السليم المهذب ، ولا بد من تآخي هذين العاملين ، فقد يقترن الاستقراء التاريخي الواسع بالخيال الكسيح الواني والقلب المغلق الفاتر والذوق الفاسد السقيم فيحول ذلك دون تذوق الفن وتقديره ، والمؤرخ الذي لم يرزق حظاً وافراً من الذوق وقوة الخيال ليس في وسعه ان يرتفع الى سماء الفن وعالم التقدير الفني ولو وقف على تلال عالية من المعلومات والاسانيد والوثائق التاريخية ، ولا يمكن ان يتغلغل الى ارواح الفنانين ونفوس الرجال العمليين او ان يسلك طريقه الى لباب الحوادث الكبيرة المعقدة لان استشفاف كنهها والخلوص الى سرها في حاجة الى الرؤية الموفقة والزكانة الملهمة ، فهو يظل خارج حجرات نفائس الفن ومقاصير الارواح وان كان عمله قد يفيد بعض الفائدة اذ يمهد الطريق ويرفع المعالم لمن يجيء بعده من الموهوبين

وكذلك الناقد القوي الخيال السليم الذوق اذا اكتفى بالتعويل على ذوقه الخاص ولم يجل جولته في نواحي الماضي ولم يهبط الى اعماقه تعذر عليه أن يفهم الاشياء على حقيقتها ولم يغن عنهُ ذوقه ولا خياله. وقصاراه ان يقدم لك افكاراً لامعة عن اشياء لفقها خياله المرح ووشاها الوهم والظن وعمله قليل الجداء وسعيه باطل عقيم فلا هو يعد من جامعي الآثار وممهدي الطريق ولا هو يحسب من رجال الأدب والفن

على ان اجتماع الاستقراء التاريخي والذوق الفني ليس كافياً لينشأ منهُ مؤرخ آداب وناقد فني من الطبقة الاولى ، اذ لا بد من توفر ميزة اخرى خطيرة الشأن وهي المقدرة على التعبير وقوة الوصف والتمثيل ، فاذا استكمل المؤرخ هذه الشرائط واستوفى ناقد الفن كل تلك الحدود فهنا تظهر المؤلفات الخالدة في الادب والنقد والتاريخ تلك المؤلفات التي تبدأ عصوراً فكرية وتزخر تيارات الافكار وتجلو العصور الغابرة أبهر جلوة وتعرضها أجمل عرض وأصدقه وتبعث الماضي الدفين من قبره حيًّا ملموساً وتشارف منها ارواح المؤلفين والفنانين ونفوس العظماء البارزين في جلالها وتألقها، بل تكاد تدميها اذا طعنتها كما قال الناقد الاميركي لول عن صور كارلايل التاريخية

وأصدق الطرق لفهم عبقرية من طراز عبقرية شكسبير وتقديرها تقديراً فنيًّا هي ان نضع انفسنا مكانه ونرتفع بخيالنا الى مستواه ، وفي حياتنا الدارجة الرخيصة تفصلنا عن شكسبير وامثاله مسافات شاسعة وابعاد لا تقاس بالامتار ، ولكن في اوقات التأمل الفني الخالص القائم على صحة الاستقراء التاريخي لحياة شكسبير وعصره وعلى سلامة الذوق وحيوية الخيال تتصل روحنا بروحه وتسري نفسنا مع نفسه ، وفي هذا الاتصال الفني بارواح العظماء تعظم الروح وتتسع آفاقها وتترامى حدودها في عوالم الارواح وتحلق في سماوات الخلود ، ولا عبرة بتفاوت العبقرية بين شكسبير وناقده الفني وقارئه البصير فان الفرق بين العبقري الكبير وسائر الناس فرق نسبي وليس بالفرق

الجوهري ، وقد يكون شكسبير عبقرية كبيرة وناقده عبقرية صغيرة ولكنهما من معدن واحد ولو كان هناك فرق جوهري بين العباقرة وسائر الناس لانقطعت العلاقة بينهم وبين الناس ولعاش كل عبقري ملفوفاً في دخان من الغموض فلا يدنو منهُ انسان ولا يدنو هو من انسان

والتقدير الفني الصادق لمسائل الاخلاق والتاريخ والاحوال الاقتصادية والسياسية يجري على هذه الطريقة ويفيء الى تلك السنة ، ففي التاريخ لا نستطيع ان نقدر حادثة من الحوادث دون ان نقف على نصوص وتفاصيل كافية لتصورها على حقيقتها ، ولا يمكن الحكم على عمل من الاعمال الاخلاقية الاَّ اذا وضعنا انفسنا مكان صانعه وأحطنا علماً بكل الظروف التي اكتنفته والمؤثرات التي أثرت فيه والاَّ ظل الموقف غامضاً وكانت احكامنا مظنة الخطأ وسوء التقدير ، والتفسير التاريخي للاشياء يفتح الطريق للتقدير الفني وهذا هو سر السرور العظيم الذي يستخف جماعة المفكرين عند عثور علماء العاديات على اثر من آثار الماضي لانهُ يكمل النقص ويسد الفجوات في تصورنا للماضي ويدنينا من التقدير الفني الصحيح للحضارات الغابرة والامم السالفة

وللاستاذ وندلباند الفيلسوف الالماني رأي ساقهُ في عرض كلامه عن «المادة» في كتابه النفيس «مقدمة الفلسفة» يقارب ما اذهب اليه في تقرير ما للتقدير الفني من شأن قال «الفردية لا توصف وانما يشعر بها ، وهذا يصدق عن الشخصيات الكبيرة مثل نابليون وشكسبير وجيتي وبسمرك وهو يصدق ايضاً على الشخصيات البارزة في الادب مثل هملت وفاوست ، واننا نستطيع ان نعبر باللفظ عن كل عمل من اعمال العظماء وان نفي كل صفة من صفاتهم حقها من الوصف ، ولكن العنصر السائد المسيطر على الاعمال والصفات يجب ان يحس بهِ ويجرب ، ومن ثمَّ لا يلمح هؤلاء الذين يعبرون بالمقارنات والمشابهات الطبائع الخاصة لشخصية من الشخصيات والافراد وصفاتهم الفردية من الاشياء التي لا تدرك بالعقل. ومن اللازم ان يحس القارئ بظلال الفردية من ناحية الفن وتوصيف حياة الافراد في كل طور من اطوارها حتى تظهر صورهم لعين القارئ وحدة حية كما تراءت في الحياة ، ويمكننا بالتحديد التاريخي ان نفهم ونفسر العناصر المختلفة في طبائع الافراد لان كل ما يتعلق بمظهرهم التاريخي خاضع للعقل ، ولكن في نهاية الامر نرى ان مادة فرديتهم متوقفة على تلك «الوحدة» التي لا يعبر عنها والتي لا يمكن ان تصير موضوعاً للفكر والبحث لانها شيء يلمح بالبداهة ويدرك بالبصيرة الواعية»

وكل شيء ازاء التقدير الفني يحمل مقياسه ومثله الأعلى في مطاويه ، فليس هناك مقياس عام توزن به الاشياء وانما لكل شيء مقياسه الخاص الذي لا يصلح لسواه ، فلكل حضارة من الحضارات وعصر من العصور وأثر من الآثار وعظيم من العظماء ميزان خاص متصل بأحواله ومستوى عصره ، واننا نتورط في الخطأ ونغمط الناس فضلهم اذا تمسكنا بمقياس واحد ونظرنا الى كل شيء من زاوية بذاتها ، فالحضارة اليونانية لا تقاس بمقياس الحضارة الرومانية

ولا توزن حضارة بابل وحضارة الصين بنفس الميزان، ولقد وقع في هذا الخطإ المؤرخ الكبير بكل (Buckle) هو واضرابه ممن يرون ان تقدم الانسانية رهن بتقدم العقل وتغلب قوانين العقل على قوانين الطبيعة، فكانوا يرون في العصور الوسطى عهد ظلمة وركود وجهل مطبق وسخافات ذائعة وخرافات شائعة، والعصور الوسطى تبدو كذلك لمن حاول وزنها بميزان العقل المدرك والتقدم الفكري، ولكن للعصور الوسطى مقياساً آخر لانها لم تكن عصر عقل واستنارة وانما كانت من تلك العصور التي يخمد فيها العقل لتثور العاطفة، كانت عصور عواطف عميقة ومشاعر جميلة رقيقة تجلت فيها الروح الدينية وبسطت سلطانها على النفوس وألهمت الفنانين القدرة على تشييد الكنائس البديعة وصنع التماثيل المتقنة والصور الخالدة، وسادت فيه اقاصيص الفروسية واعمال القديسين الاطهار التي يتجلى خلالها صفاء الروح ويتنسم منها اريج التقوى، ولقد اخذ العقل قسطه في الحضارات السالفة، اما في العصور الوسطى فنال القلب نصيبه، فهي اذا قيست بمقياسها الصادق مقياس العاطفة عصر زاهر مشرق، وقد علل الفيلسوف الألماني هارتمان ازدهار الحركة الادبية الكبيرة في المانيا في اوائل القرن التاسع عشر بما عمقتهُ حياة العصور الوسطى من نفوس الالمان وما أفسحتهُ لهم من مجالات الخيال والتصور

ويصدق هذا كذلك عن العظماء، فالعظيم في الحياة العملية مثل نابليون والاسكندر وهانيبال لا يقاس هو والقديسون ورجال الفكر والفن والانبياء بمقياس واحد فمن الخطإ ان نلتمس في حياة نابليون دلائل رقة العاطفة وعذوبة الروح ونقاوة الفضيلة الى غير ذلك من شمائل الانبياء والفنانين لأن سر عظمته قائم على ضخامة الانانية وفرط الدنيوية، وقد روى أحد المؤرخين عن القديس الشهير سنت فرانسيس انهُ أراد ان يثبت للناس حبه للفقر وايثاره مظاهر العوز والحاجة فمشى في الطريق وسط جمع حافل من الناس مجرَّداً من ثيابهِ ليعطيها لأبيه. وظهر مرة على المنبر وقد جرد نصفه من الثياب ومشى في الطريق والاطفال تعدو وراءه صائحة المجنون! المجنون! وهو من النبل وسمو الروح بحيث حاز اعجاب دانتي وأوحى الى الكثيرين من رجال الفنون — ولا يزال يوحي — طوائف من اسمى الافكار وأعلى المشاعر، ولو اننا قسناه بمقياس صغار الاطفال او بمقياس من المقاييس العلمية الجديدة لالحقناه بالمجانين وشواذ الخلق، والحقيقة أن كل مظهر من المظاهر الفنية او الدينية أو العملية يجب أن يقاس بمقياسه الخاص والاَّ كنا كالذي يحاول ان يميز الالوان بسمعه ويختبر الأنغام ببصره ويزن الدر والذهب بميزان الاحجار والصخور، وليست هناك مقاييس مطلقة ولا موازين عامة، وليست الحياة قوالب متشابهة ولا نسخاً متكررة، والعالم بما فيه من خير وشر وفوضى ونظام وحدة كلية لكل شيء فيها مكانه المناسب وأقرب طريق لادراك ذلك ان ترى الحياة في ضوء الشعور والوجدان وتلمح الوجود بنواظر الشاعر والفنان

مياه الشرب

انواعها وأساليب تنقيتها

للدكتور حسن كمال

﴿ مقدمة تاريخية ﴾ اهتم الاقدمون بماء الشرب وساهم في ذلك أجدادنا بقدر كبير يشرف الوطن ويعلي من قدره شأنهم في ذلك شأن كلّ امة حية ترنو الى العلياء لا تطمئن الى السكون ولا تألف الكسل

فمنذ أقدم العصور التاريخية نجد قدماء المصريين قد شادوا مقاييس النيل في جهاته المتعددة وسجلوا ارتفاعاته السنوية كما هو وارد على حجر (بالرموز) الذي يرجع تاريخه الى ما قبل عهد الفراعنة . وهم اول من انشأ الجسور لحبس المياه وابتكر لتوزيعها نظام الترع وأقام لخزنها الخزانات كما هو واضح في مديرية الفيوم ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ قبل الميلاد) . والى اجدادنا ايضاً يرجع الفضل في استخراج المياه الجوفية للشرب والفلاحة فحفروا الآبار الكثيرة بوادي النيل والصحراء لهذين الغرضين . ثم ابتدعوا طريقة تخزين المياه في الصهاريج . ولما تقدموا وارتقوا خصصوا لمنازلهم دورات مياه صحية وضعوا بها الاواني الخزفية لنقاوة الماء

وما الشادوف والساقية الاَّ بقايا تلك المدنية العظيمة . فلما جاء العصر الاسلامي بدأنا نرى القوم يشيدون مجاري لمياه الشرب مرتفعة على عقود معمارية تعرف عند عامتنا باسم القناطر وعند الفرنجة باسم (aqueduct) كالتي شادها السلطان محمود الناصر عام ١٣١١ ميلادية (وقد كانت سابقاً منسوبة الى صلاح الدين الايوبي) ورممها السلطان الغوري وهي التي تبدأ من باب قاية باي وتنتهي في فم الخليج ويبلغ ارتفاعها حوالي الخمسين متراً

***

﴿ انواع المياه ﴾ الى هنا نكتفي بتاريخ مياه الشرب . والآن نتلمس جهات الموضوع المتعددة فنقول أن مياه الشرب تؤخذ عادة من الانهار أو البحيرات وتسمى حينئذٍ المياه السطحية (Surface Water) او الآبار ويقال لها المياه الجوفية (Ground Water) أو الأمطار المخزونة

في الصهاريج . وبديهي أن كل هذه المياه ترجع في الأصل الى مياه الأمطار لكننا قسمناها هنا هذا التقسيم لأنهُ أقرب تقسيم الى الوجهة الصحية من غيره

***

﴿ اما المياه السطحية ﴾ مثل مياه الانهار والبحيرات فهي مياه تتساقط على مناطق مرتفعة أو جبلية كمياه بحيرات فيكتوريا نيانزا وتانا . ومياه الأمطار قبل وصولها الى هذه البحيرات تجرف معها كل ما يعترضها حتى تصل البحيرة . فاذا كانت الاراضي المجاورة غير صحية تحوي القاذورات او كانت تحيط بها مدن غير صحية انتقلت هذه الاضرار الى مياه تلك البحيرة والانهار الخارجة منها . والثابت انهُ كلما بعدت هذه المياه عن المساكن البشرية كلما زادت نقاوتها وكانت صالحة للشرب خالية من الامراض

وتشييد المنازل وانشاء المدن على ضفاف الأنهر لهُ خطره لأنهُ اذا لم تتخذ الاجراءات الصحية فإن قاذورات تلك المساكن تصل الى النهر وتلوّث ماءه . والمقصود بالقاذورات هنا المواد البرازية والقمامات . فاذا كانت المواد البرازية تقذف رأساً في النهر كان التلوث مستمرًّا. اما اذا كانت المنازل مستوفية شروط الصحة وكانت القاذورات يسمح لها بالبقاء في الشوارع فان التلوث حينذاك يكون رهن الامطار أو بعبارة أخرى يكون متقطعاً . والغالب في وادي النيل أن هاتين الوسيلتين حاصلتان

والقاء القاذورات في الانهر يسمم المياه بالجراثيم المختلفة كالكولرا والزحار والتيفود. اما القاء متخلفات المصانع وعلى الاخص الكيميائية في الانهر فيفسد طعم الماء ويكسبه رائحة كريهة ويحدث تسمماً كيميائيًّا والى جانب هذين الوسيلتين تضاف وسيلة ثالثة لتلويث الانهر وهي القاء القاذورات من البواخر والسفن النهرية

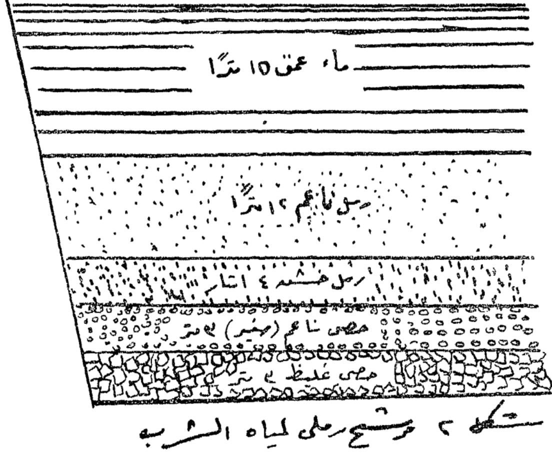
***

﴿ المياه الجوفية ﴾ اذا هطل المطر انحدر الماء في الاودية حتى يصل الى النهر وهذا يجري حتى يصب في بحر أو بحيرة . لكن هناك مقدار كبير من مياه الامطار يخترق طبقات الارض العليا الى ان يصل الى طبقة صلبة تعوق سيره . وحينئذٍ تبقى هذه المياه محفوظة في طبقة الارض العليا . وكلما كانت مياه الامطار غزيرة كلما قربت المياه الجوفية المذكورة من سطح الارض . كذلك اذا كانت الطبقة الصماء قريبة كانت المياه الجوفية قريبة أيضاً من سطح الارض . والعكس بالعكس .

وللوصول الى هذه المياه الجوفية طريقتان الاولى حفر الآبار والثانية ارسال أنابيب الطلمبات . وفي الحالة الأخيرة يختلف طول الانابيب باختلاف بعد المياه عن سطح الارض

أ
ب
طلمبة رقم ٢
طلمبة رقم ١
مياه جوفية سطحية
طبقة صماء
مياه جوفية عميقة
طبقة صماء
صخر

شكل ١ المياه الجوفية (السطحية والعميقة)



شكل ٢ مرشح رملي لمياه الشرب

وقد علمتنا التجارب انهُ اذا ارسلت انابيب الطلمبات في جوف الارض الى مسافة بعيدة فانها تخترق الطبقة الصماء الحابسة للمياه السطحية فتصل الى مياه جوفية عميقة . وأظهر لنا الفحص الطبي أن اغلب المياه الجوفية العميقة تختلف كثيراً عن المياه السطحية . واذا نظرنا الى الشكل رقم ١ وجدناه يمثل قطاع أرضٍ فيه (ا ب) سطح الأرض وفيه منطقتان مخططتان بخطوط مائلة تمثلان طبقتين صمَّاوين مانعتين لتسرب المياه الى اسفل . وعلى ذلك فالمطر الهاطل على السطح بين (ا و ب) يتسرب في التربة السطحية حتى يصل الى الطبقة الصماء العليا . والطلمبة رقم ١ تستخرج هذه المياه المعروفة بالمياه السطحية . اما الطلمبة رقم ٢ فتخترق الطبقة الصماء العليا وتصل الى طبقة سفلى مياها آتية من الامطار الهاطلة ايضاً ولكن من مسافات بعيدة تقع فيما وراء (ا) مثلاً . ولما كانت عناصر تربة الأرض فوق الطبقة الصماء العليا تختلف غالباً عن عناصر التربة اسفل هذه الطبقة كانت الاملاح في مياه الطلمبة رقم ٢ مختلفة عنها في مياه الطلمبة رقم ١

واذا كانت الاراضي التي تهطل عليها الامطار المغذية للطبقة الجوفية السفلى (اي الواقعة فيما وراء (ا) مثلاً) عالية علوًّا كافياً نبعت مياه الطلمبة رقم ٢ بشكل عين ارتوازية

بهذه الطريقة امكننا تقسيم المياه الجوفية قسمين مياه جوفية سطحية ومياه جوفية عميقة

***

ودلتنا المباحث ان المياه الجوفية تتنقى بمرورها في طبقات الارض وان المياه الملوثة اذا اخترقت طبقة رملية أو طينية قلّت اضرارها واصبحت صالحة للشرب . وكلما كانت المياه الجوفية السطحية قريبة من سطح الارض كلما قلّت نقاوتها وكلما بعدت كلما زادت نقاوتها . وعلمتنا التجارب ان معظم المياه الجوفية السطحية غير صالحة للشرب وان اغلب المياه الجوفية العميقة نقية وصالحة للشرب . والسبب في ذلك ان المياه الاخيرة تخترق في سيرها طبقة رمال وطين سميكة تقاس غالباً بمسافات بعيدة

ويستعمل اهل الريف المصري البعيد عن النيل المياه الجوفية السطحية لشربهم . وذلك اما بطريق الآبار واما بطريق الطلمبات . واغلب هذه المياه ملوث غير صالحٍ للشرب لاسباب عديدة منها قربهُ للمراحيض أو المصارف . ومنها تسرب القاذورات من اقدام الاهالي حول الطلمبة الى جوف الارض . لذلك حتم بعضهم رفع مستوى الارض حول الطلمبات من هذا النوع كي يمنع تسرب القاذورات إلى جوف الارض

ومياه العيون مياه جوفية تختلف سلامتها وصلاحيتها للشرب بكونها سطحية أو عميقة . وليس سهلاً دائماً معرفة أصل مياه العيون وكثيراً ما اتضح لنا أن بعض العيون هي في الحقيقة مياه تصافٍ لمجرور مجاور

وتحتاج مياه العيون الى نفس الاحتياطات التي تتطلبها مياه الطلمبات السطحية كوجوب تمرير المياه المذكورة داخل أنابيب تنتهي بحنفيات خاصة تمنع الاتصال المباشر بها

***

﴿ طرق نقاوة مياه الشرب ﴾ أسهل هذه الطرق هو الغلي. لكنهُ صعب الاتباع في المدن. لذلك عمد القوم الى طرق عملية. واسهل هذه الطرق هي طريقة التخفيف (dilution) والتخزين Storage والترسيب Sedimentation وذلك في خزانات كبيرة. واتضح أن هذه الطريقة تقتل معظم الجراثيم بسبب قلة التغذية أو تأثير اشعة الشمس أو اغتيال الجراثيم بحيوانات مائية متباينة لكن هذه الطريقة لا تكفي لنقاوة المياه الشديدة التلويث حتى تجعلها صالحة للشرب

وأهم وسائل نقاوة مياه الشرب هو المرشح الرملي الذي ابتكره عام ١٨٢٩ ميلادية المهندس الصحي الانكليزي Simpson وهو موضح في الشكل رقم ٢ وفيهِ تشاهد أن المياه تتسرب من أعلاهُ إلى أسفلهِ مخترقة أولاً طبقة الرمل الناعم ثم الرمل الخشن ثم الحصى الناعم ثم الحصى الغليظ. وفي أثناء مرور المياه بطبقة الرمل الناعم تتكوَّن طبقة قذارة فوق الرمل المذكور تعرف صحيًّا باسم (غطاء القذارة) Schmutz decke وهي ذات فائدة عظمى لأنها تمنع مرور الجراثيم منها. ولما كان تكوين هذه الطبقة يتطلب بضعة أسابيع فان هذه المرشحات لا تأتي بالفائدة المرجوة الاَّ بعد تكوين الطبقة المذكورة. لكن بعد مدة طويلة يصبح (غطاء القذارة) سميكاً لدرجة يمنع مرور المياه بسهولة. لذلك يتحتم ازالة هذه الطبقة من آن لآخر كلما تطلب ذلك صالح العمل

وأصلح القوم بعد ذلك هذه الطريقة فأضافوا الى المياه قبل ترشيحها بعض الشب (Alum) قصد ترسيب ما تحويه المياه من مواد هلامية. وهذا الراسب يقع على سطح مياه الرمل الناعم ويقوم مقام غطاء القذارة الآنف الذكر

ولما كان تكوين الطبقة الهلامية المذكورة سريعاً كان في الوسع الحصول على مياه صالحة للشرب منذ أول استعمال المرشح. وتزال الطبقة الهلامية المذكورة بعكس مجرى المياه في المرشح من أسفلهِ الى اعلاه فتقذف بذلك الطبقة الهلامية السميكة الى الخارج. ثم تعاد العملية كما بدأت من جديد

ودلتنا الاحصائيات على ان كل بلد يستعمل مياه الشرب المرشحة تقل فيها الامراض التي تفشى بهذه المياه مثل الحمى التيفودية. وهناك طريقة أخرى لاصلاح الماء للشرب وذلك باضافة غاز الكلورين اليه — وهي طريقة سهلة أكيدة المفعول كثيرة الاستعمال وكثيراً ما يجمع بين هذه الطريقة وبين المرشح الرملي. وأول من ابتكر تعقيم المياه بالكلورين هو جونسون Johnson عام ١٩٠٨. والمستعمل الآن هو غاز الكلورين المضغوط الى درجة السائل والمحفوظ

داخل اسطوانات كالتي يحفظ فيها سائل غاز حامض الكاربونيك . ويعقم ماء الشرب بالكلورين بمزجه بنسبة ٠٫١ ٪ جزء من الكلورين الى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جزء من الماء . وهذه الطريقة لاتقتل كل الجراثيم إلاّ انها تهلك السواد الأعظم منها وعلى الاخص ميكروب التيفودية وباشيلس القولون

بعد ذلك ابتكر (داكن) (Dakin) طريقة سريعة لتعقيم مياه الشرب باضافة مادة الكلورامين (Chloramins) اليها

وهناك طريقة اخرى لتعقيم مياه الشرب بواسطة تسليط الأشعة تحت البنفسجية على الماء . ويشترط في ذلك ان تكون المياه رائقة غير حاوية للمواد الطينية

ويجدر بنا في هذا المقام ان ننبّه القارىء الى المرشحات المنزلية وهي مرشحات يقصد بها الاستعمال الوقتي . والمرشحات المفيدة جدًّا باهظة الثمن . أما الرخيصة فضررها أكثر من فائدتها . وأحسن المرشحات المنزلية هي المعروفة باسم Pasteur و Berkefeld وهي اسطوانة معدنية خارجية داخلها اسطوانة خزفية تعرف « بالشمعة » . يدخل الماء اولاً بين الاسطوانتين وتحت تأثير الضغط يخترق الماء مسام « الشمعة » ويخرج منها معقماً صالحاً للشرب ومنعاً لنمو الجراثيم في مسام الشمعة يجب تنظيفها بين حين وآخر ثم تعقيمها داخل الفرن قبل اعادة تركيبها

***

﴿ مراقبة أجهزة مياه الشرب ﴾ يجب مراقبة هذه الاجهزة صحيًّا وتحليليًّا ولا يمكن الاستغناء عن احدى الطريقتين . والفحص التحليلي كيميائي وبكتريولوجي . والتحليل الكيميائي يتناول قياس المواد الازوتية وبعض الاملاح مثل الفوصفات والسلفات والكلوريدات . اما الفحص البكتريولوجي فيتناول مقدار الميكروبات في السنتيمتر المكعب وعمل الخبرات لباشيلس القولون . وهذا الاخير دليل التلوث بالمواد البرازية المجاورة . ويعتبر بعضهم الماء الذي يحوي ١/٣ من السنتمتر المكعب منهُ باشيلس القولون ملوثاً وغير صالح للشرب بدون ترشيح أو تعقيم

وقد قصرنا بحثنا على ماء الشرب ولم تتعرض لمياه أحواض الاستحمام التي ثبت أيضاً خطرها وامكان تفشي الامراض بواسطتها مثل الحمّى التيفودية وبعض امراض العيون والانف والحلق ولذلك وضعت لهذه الاحواض قوانين صارمة في البلاد التي تستعملها كثيراً

لذلك نجد معظمها يشترط على كل شخص ان يغتسل بحمام الرذاذ (الدوش) قبل الدخول في حوض الاستحمام . كما نلاحظ انهم يمنعون البصق في مياه الاحواض . ويعقم بعضهم هذه المياه بالكلورين والبعض يغيرها باستمرار

احمد عبود باشا

لنقولا بشكري

ثمرة واحدة من نخيل مصر ، أو عنبة واحدة من كرومها ، أو حبة واحدة من برها ، أو ريحانة واحدة من رياحينها ، دليل كل الدليل على ان التربة خصيبة ، خيرة ، تؤتي على حسن التعهد ما تنطوي عليها طبيعتها من ثمر وزهر

وهذا رجل من رجالات مصر الأفذاذ قد شق طريقه الى الذروة ، وضرب المثل الصادق على ذكاء المصري، واستعداده الفطري لجلائل الأمور ، ونهض مثالاً فريداً نادراً على النبوغ القوي الأخاذ بسعة اطلاعه ، وغزير مادته ، ونعني به حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا . وعبود باشا مثال الشخصية الوقور المحترمة السريّة البادية على اكملها في المظهر والكياسة والتزام المنطق في البحث ، وأدب الجدل والحوار ، ولطف المدخل على النفوس . بجانب ثقافة ممتازة ، واطلاع واسع وخبرة تلازمهُ في كل الظروف ، وهو الى هذا كله رقيق الحاشية ، حر السجايا ، سامي المكانة عند رجال المال بارز في الندوات والمحافل العالية

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الأول ، ناهز الخمسين من عمره ، اسمر اللون معتدل القامة ، متواضع السمت ، كثير الحركة ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه الباسم الهدوء العجيب والرقة والحزم معاً يحدثك في صوت هادىء ، وبعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته ، لأنهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، وهو يعيش مع اسرته عيشة غربية المظهر، ولكنها شرقية بكل ما فيها من محافظة على التقاليد

ولد عبود باشا في القاهرة سنة ١٨٨٩ وتلقى علومهُ الابتدائية والثانوية في مدارسها . وقد كان حقًا ان تتهادى طفولته في أفانين من التربية الصحيحة فحرص على ان يشبع رغبة نفسه في دراسة العلوم الهندسية فسافر الى انجلترا وانتظم في سلك طلبة جامعة جلاسجو الشهيرة وأحرز شهادتها متفوقاً ثم لم يمض بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى تفتحت حياته للناس جميعاً فآثر الأعمال الحرة حيث اضفى عليه النبوغ حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه . وقد صرف اهتمامه واستخدم مواهبه في الفنون الهندسية فأحرز في الزمن القصير سمعة طيبة ارتفع بها اسمه . وطارت شهرته ، وكان طبيعيًا ان تستعين الحكومة العثمانية في ذلك العهد بكفاية هذا المهندس الشاب



حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا

فاختارتهُ وزارة النافعة للقيام باعمال هندسية غاية في الدقة فقام بهذه المهمة احسن قيام وقد كوفىء على نشاطهِ وما أبداه من مهارة بالنيشان العثماني الرابع وهو من النياشين العثمانية الرفيعة .ثم انعم عليهِ برتبة البكوية الممتازة . على ان نشاطهُ لم يقف عند هذا الحد فسافر الى العراق واشترك في أعمال الري الكبرى مع السير وليم ولكوكس الخبير العالمي حتى اذا أعلنت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ اشترك في انشاء سكة حديد بغداد. كذلك كان له السهم الأوفر في انشاء شبكة المواصلات بالسكة الحديدية في فلسطين وسوريا واختاره اللورد اللنبي بعد ذلك لانشاء طائفة من الجسور والدروب العسكرية في فلسطين وبذلك أصبح من اكبر مقاولي الجيش الانكليزي

وقد اتسعت أعمال عبود باشا وتشعبت بعد ذلك فانشأ عدة شركات صناعية في مصر وانكلترا وهذه الشركات تتولى انشاء السفن والسكك والجسور وهو الى هذا أكبر مساهم في شركة الأمنيبوس العمومية بمصر وفي غيرها من الشركات الصناعية والهندسية هذا الى العمل الكبير الذي نعده أجلّ عنصر في أعمال عبود باشا وهو تمصير شركة البواخر الخديوية بعد ان امتلك معظم أسهمها إذ كانت هذه الشركة في بداية أمرها شركة مصرية صميمة ولكنها انتقلت بعد ذلك الى أيدي الانكليز فما لبث عبود باشا ان اشتراها وأدخل عليها تحسينات جمة وسعى أخيراً في استصدار مرسوم ملكي بتسميتها « شركة خطوط البريد الفرعونية » وهذه الشركة من أقوى شركات الملاحة بما تملكه من الارصفة والاحواض الجافة في الاسكندرية والسويس وتعتبر الورش التابعة لها كمدرسة لتعليم الشبان المصريين فن انشاء السفن . وقد كان طبيعيًّا ان تستوقف اعمال عبود باشا انظار ولاة الامور في مصر فأنعم عليهِ حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول برتبة الباشوية في سنة ١٩٣٠ تقديراً لمكانتهِ السامية بين رجال الاعمال وعلى الرغم من أنهُ قد ناهز الخمسين من عمره لم يفارقهُ نشاط الشباب بل ان الانسان لا يستطيع ان يستخلص من أعمالهِ غير دلائل القوة والحزم والميل الى الانشاء . فان المهمة التي أداها حتى الآن في مضمار الحياة العملية تدل على المواهب العظيمة التي اوتيها في سبيل تحقيق طائفة من المشروعات الحيوية . واذا أردنا أن نتكلم عن هذه المهمة فلابدّ لنا أن ندرك بادىء ذي بدء المصاعب التي تعترض في بعض الأحايين اولئك الرجال الذين يعملون للنهضة التجارية والصناعية وهو كما نعلم سبيل شاق يحتاج دائماً الى ذكاء وتدبير وقوة على المغالبة .وقد تمثلت هذه المزايا كلها في شخصيته وفي هذه الدائرة سيظل اسم عبود باشا قدوة للنشء الذي يتحتم عليه ان يسير في الحركة الاقتصادية الى الأمام.فاننا بمقدار ما نخبر الصعاب التي تكون عادة في الطريق المحفوفة بالمنافسة والعراك ونعني بها طريق التجارة والاقتصاد نستطيع أن ندرك القوة العظيمة التي اختصَّ بها رجل عصامي استطاع في وقت وجيز ان يحقق عدة من المشروعات لخير هذه البلاد ونهضتها ويضع في الوقت نفسه قواعد الاشتراك في العمل للمستقبل،

ويبني بيده تلك القنطرة العظيمة التي ستمر عليها الذريات المصرية الى الشاطىء الجديد

ونرى ان مجرد التفكير في ان مصر بلد زراعي قبل كل شيء ، وان استعداداته التجارية لاتزال محدودة وان الاجانب مازالوا يحيطون حياة الاقتصاد والمال بسياج من المنافسة العميقة توحي الينا بمقدرة عبود باشا وذكائه وخبرته وما أوتي من قوة على مغالبة العوائق ، وان يكون لهُ الشأن الذي تقتضيه الحالة لأحياء الاقتصاد الأهلي وأن ينحو على المثل الاوربية في انشاء المشروعات التي تستحث النشاط العملي وتبعث في الوقت نفسه امجاداً مندثرة . وبالاختصار استطاع ان يرسم طريقاً للعمل في تشييد مستقبل جليل يكون قدوة للجيل الجديد . ونحن اذا واجهنا مشروعات عبود باشا وطريقة اقتباسه للاساليب المستحدثة في الاعمال المالية الكبرى نطلع على علم واسع ودراية وخبرة. وجلي ان طبيعة العمل للترقي والعمران لا تخلو من جفاف وانها تحتاج الى مرانة طويلة ومناضلة ومقدرة حقيقية على التحقيق ، وان توفر ذلك من الحظوظ التي لا بد ان تتفق للرجل الطموح الذي يعمل للغايات النبيلة . وفي الحقيقة ان نجاح عبود باشا في هذه المهمة الحيوية وتائج علاقاته الواسعة بالاوربيين ولا سيما الانكليز قد عادت على البلاد بخير كثير وستظل جهوده في هذا السبيل جديرة بالتأمل وقدوة للجيل الحاضر ، وسفراً يحتوي على كثير من مبادىء العمران

وبعد ، فهذه الصفحة المجيدة من التاريخ الحديث لمصر تنسب كلها الى مجهودات زعماء الحركة الاقتصادية التي يعد من اتمها عبود باشا . ولا شك في ان مظاهر التقدم الاقتصادي التي تحيا بها هذه البلاد اليوم مدينة في الكثير الى صاحب ذلك الاسم والى الشركات التي اسسها وما لها من صلة بحياة مصر المستقبلة من الناحية المادية . فان انشاء هذه الشركات وحده يمثل نظاماً من احدث نظم الحياة المادية في الغرب المتمدين وكأن سعادته أراد ان يخلي مصر من عبء عظيم ، فاستطاع ان ينهض بتحقيق مهمة عظيمة لكي لا يعاب على الجيل الحاضر نقص النظام الاجتماعي

وصفوة القول ان من يلاحظ ماخلفهُ العصر القديم من آثار الخمول وعدم الاطمئنان للمستقبل في طبقات الشعب المصري يدرك مقدار الجرأة التي ابداها سعادته ، وكيف غامر في سلوك هذا السبيل وظهر ولم يبال بأقوال الذين كانوا يحسدون فيه الرجل المالي العظيم الخبرة والمهندس الواسع الاطلاع

وهنالك ناحية أخرى ليست مجهولة في حياة عبود باشا وهي تلك الناحية المتعلقة بوطنيته فقد أقام الدليل على حبه لمصر بما كان يبديه من الاهتمام بشؤونها بما كان ينشر من المقالات في أمهات الصحف الانكليزية ليرد فرية او يظهر حقيقة من حقائق الحالة في مصر . كذلك لا ننسى اقدامه على التبرع لمشروع الدفاع الوطني بمبلغ عشرة آلاف جنيه تلبية لنداء الوطن

ونحن نستطيع ان نستخلص من كل هذه المجهودات وطنية حارة واخلاصاً عملياً منتجاً لمصر . ومافتىء عبود باشا حافظاً لهذه الميزة عاملاً في سكون وهو يعلم انهُ يعمل لأسمى غاية . ونرى ان هذه الشخصية التي اقتحمت الحياة المادية بجرأة ولم تبال بالمصاعب ستظل دائماً موضوع اعجابنا واعترافنا بالجميل

****

الحكمة المشرقية

العقل من وجهة النظر الاسلامية الصوفية

فذلكة في العقل وشرفه وحقيقة اقسامه

لاحمد غلوش

****

١ — بيان شرف العقل

العقل منبع العلم ومطلعه واساسه والعلم يجري منهُ مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين وشرف العلم عظيم جداً بحيث لا يستراب فيه فالبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى ان اعظم البهائم بدناً وأشدها ضراوة وأقواها سطوة اذا رأى صورة الانسان احتشمهُ وهابهُ لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من ادراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الشيخ في قومهِ كالنبي في امته وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله. ولذلك ترى أجلاف الاتراك والاكراد وأجلاف العرب وغيرهم ممن تقرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ولذلك نراهم يتوجهون اليهم ليحكموهم فيما ينشأ بينهم من خلاف في الرأي وينزلون عند حكمهم فيهِ

فشرف العقل مدرك بالضرورة وكفاه شرفاً ان العلم المستفاد منه قد اسماه الله روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحاً من امرنا وقال سبحانه او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا لهُ نوراً يمشي بهِ في الناس . وحيث ذكر النور والظلمة اراد بهما العلم والجهل كقوله تعالى يخرجهم من الظلمات الى النور

وقال صلى الله عليه وسلم يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما امرتم بهِ ونهيتم عنه واعلموا انهُ ينجدكم عند ربكم

وقال عليه الصلاة والسلام اول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال لهُ أدبر فأدبر ثم قال الله عزَّ وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك بك آخذ وبك اعطي وبك أثيب وبك أعاقب

وعن انس رضي الله عنه قال اثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل فقال نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال صلى الله عليه وسلم ان الاحمق يصيب بجهله اكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع الناس غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم. وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله . وقال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم ايمانه واطاع ربهُ وعصى عدوه ابليس

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته اما سمعتم قول الفجار في النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير

وعن عمر رضي الله عنه انه قال لتميم الداري ما السُؤدَد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ايها الناس ان لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلاً

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فلا علم لكم به فقالوا وكيف ذلك يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أنهم قاتلوا على قدر ما قسم لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فاذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم

وعن البراء بن عازب انهُ صلى الله عليه وسلم قال جدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجدَّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عزّ وجلّ أوفرهم عقلاً

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله بمَ يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل قلت وفي الآخرة قال بالعقل قلت أليس انما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة وهل عملوا الاَّ بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لكل شيء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعي العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرىء عقب ينسب اليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون اليهِ ويذكرون بهِ العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل

وقال صلى الله عليهِ وسلم ان أحب المؤمنين الى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عزَّ وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل بهِ أيام حياته فأفلح وأنجح

وقال صلى الله عليهِ وسلم أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم بهِ ونهى عنهُ نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً

٢ — حقيقة العقل وأقسامه

اختلف الناس في حد العقل وحقيقته حتى كشف العلماء المقربون الى الله عن ذلك وأخصهم الملهمون الذين أضاء الله بصائرهم بنور القرب والطاعة فأوضحوا ان العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى

فالأول — الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي اراده بعض العارفين الحكماء وعبر عنه بقوله انهُ غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنهُ نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الاشياء على ما هي عليهِ في ظاهر الامر

الثاني — من اقسام العقل هي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد وان الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهذا الوصف هو ما قال به أهل المنطق وعلماء الكلام وهو صحيح في ذاته اذ هو التسليم الواجب بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ولا مشاحة في ان هذا الوصف من البداهة بحيث لا يحتاج الى بيان

الثالث — هي علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال فان من حنكتهُ التجارب وهذبتهُ المذاهب يقال انهُ عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال له غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً

الرابع — ان تنتهي قوة تلك الموهبة الفطرية الى قوة سامية تسمو بصاحبها الى إدراك

عواقب الأمور وقمع الشهوات الداعية الى اللذة العاجلة وقهرها وضبطها في نطاق محدود لا تتعداه بحال فاذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث ان اقدامه واحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه ايضاً من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان . وان كان بعض الحيوانات البهيمية يصدر منهُ ما يدل على نوع ما من هذا التبصر الاّ ان ذلك في الواقع يكون عنده صادراً عن غريزة حيوانية لا عن عقل حقيقي (مسألة القرد وانتباهه)

فالقسم الاول هو الاس والأساس والمنبع

والثاني هو الفرع الأقرب اليه

والثالث فرع الاول والثاني ، إذ بقوة قبول العلوم الضرورية وبقوة هذه العلوم تستفاد علوم التجارب

والرابع هو الثمرة الاخيرة وهي الغاية القصوى لكل انسان عاقل

فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب.ولذلك قال علي كرم الله وجهه

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والاول هو المراد بقوله صلى اللهعليهِ وسلم ما خلق الله عز وجل خلقاً اكرم عليه من العقل

والاخير هو المراد بقول رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه أزدد عقلاً تزدد من ربك قرباً فقال بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك فقال اجتنب محارم الله تعالى وأدّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً واعمل بالصالحات تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل في أجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز

وروي عن سعيد بن المسيب ان عمر وابي ابن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال صلىالله عليهِ وسلم العاقل قالوا فمن أعبد الناس قال العاقل قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل قالوا أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال صلى الله عليهِ وسلم وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ان العاقل هو المتقي وان كان في الدنيا خسيساً ذليلاً اي في أعين عوام الخلق

وقال صلى الله عليهِ وسلم في حديث آخر انما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته

وعندي كما اختاره بعض المحققين من العارفين ان اصل التسمية اي تسمية العقل بهذا الاسم

في اصل اللغة انما هو لتلك الفطرة المغروزة في جبلة الانسان العاقل وهي التي يسترشد بها الى ما هو ضار وما هو نافع وما هو جائز وما هو مستحيل وكذا في الاستعمال والاصطلاح ولكن هذه التسمية اطلقت على العلوم من حيث انها ثمرة العقل كما يعرف الشيء بثمرته ، فيقال العلم هو الخشية والعالم هو من يخشى الله تعالى فان الخشية ثمرة العلم

والخلاصة ان هذه الاقسام الاربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ثم ان العلوم التي تكتسب بالعقل الفطري في الانسان ليست في الواقع بشيء وارد عليه من خارج بل كأنها مستكنة فيه فظهرت كما يظهر الماء في الارض بحفر البئر وكما تظهر النار في الزناد بالقدح وكما يستخرج الزيت من الزيتون والدهن من اللوز بواسطة العصر والمعالجة وهكذا

ومن ذلك ما وردمن ان كل مولود يولد على دين الفطرة الى آخر الحديث المشهور. ومعنى ذلك ان الايمان بالله عز وجل مركوز في جبلة الانسان بالفطرة العقلية وهو يقر بها اقراراً اذا لم يوجد بينهُ وبين هذا الاقرار حائل يمنع ظهوره . فهذه الجبلة او الفطرة هي العقل بعينه وما يصدر عن العقل من الآثار يسمى كذلك عقلاً او علماً او فهماً او ادراكاً الى غير هذه المسميات العديدة

واما من غاب عنه عقله فلا يصدر عنه الاّ الحمق والجهل والغباء ومثله مثل الاعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالاواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الاواني لا ترفع من الطريق وترد الى مواضعها فيقال له انها في مواضعها وانما الخلل في بصرك

٢ — في تفاوت النفوس في العقل

اختلف الناس في تفاوت العقل في الاقسام التي ذكرناها ما عدا القسم الثاني وهو الذي قلنا انهُ عبارة عن العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فان كل انسان ما خلا المجنون يقر معنا بأن الواحد اقل من الاثنين وان الاربعة اكثر من الثلاثة وانه من المستحيل ان يكون الجسم الواحد في مكانين في آنواحد أو ان يكون الشيء الواحد قديماً وحديثاً وكذا سائر النظائر وكل ذلك يدركه الانسان العادي ادراكاً محققاً من غير شك

واما الاقسام الثلاثة الاخرى فالتفاوت يتطرق اليها حتماً ولنتكلم عن القسم الرابع منها وهو المتعلق باستيلاء القوة الانسانية على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس في ذلك بل لا يخفى تفاوت احوال الشخص الواحد في هذا الشأن ويرجع التفاوت في تلك القوة تارةً الى تفاوت الشهوة اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون البعض الآخر ولكن ذلك غير مقصور عليه فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا فاذا كبر وتم عقله قدر عليه وشارب الخمر قد تشتد به

الرغبة في تناولها حتى تأتيه الامراض بسببها من بين يديه وفي اخص اعضاء جسمه فيحذره الاطباء من تناولها فيمتنع عنها لا بقوته بل بقوة ما احدثهُ تحذير الاطباء له من الخوف على حياته وشهوة الرياء وحب الرياسة تزداد في المرء قوة بالكبر لا ضعفاً

وقد تكون نسبة التفاوت في العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب عادة على الاحتماء عن بعض الاطعمة المضرة وقد لا يقدر من لا يساويه في العقل على ذلك اذا لم يكن طبيباً وان كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن اذا كان علم الطبيب اتم كان خوفه اشد فيكون الخوف جنداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها

وكذلك يكون العالم اقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي واعني بالعالم العالم الحقيقي الذي قال الله في حقه انما يخشى الله من عباده العلماء

واما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فانهم يتفاوتون بكثرة الاصابة وسرعة الادراك ويكون سببه اما تفاوتاً في الفطرة العقلية واما تفاوتاً في الممارسة فاما الاول وهو الاصل اعني الفطرة فالتفاوت فيه لاسبيل الى جحده فانهُ مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبيحة اي في أول النهار ومبادىء اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموًّا خفي التدريج الى ان يتكامل قرب الاربعين سنة. ومثاله نور الصبح فانهُ في أوائله يكون طفيفاً ثم يتدرج الى الزيادة الى أن يكمل بطلوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عزَّ وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الايجاد حتى ان غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعةً وبغتةً بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذلك جميع القوى ولولا هذا التفاوت في الغريزة لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا الى بليد لا يفهم بالتفهم الاَّ بعد تعب طويل من المعلم والى ذكي يفهم بادنى رمز واشارة والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الامور بدون التعليم كما قال تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسهُ نار نورٌ على نور وذلك مثل الانبياء عليهم السلام اذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عنهُ بالألهام الرباني وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزى به. وهذا النمط من التعريف بالألهام الرباني يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا بالنفث في الروع ويتبع الانبياء عليهم السلام في تلقي الالهامات الربانية والعلوم اللدنية اولياء الله الذين تمسكوا بهديهم وساروا على سننهم وعضوا على سنتهم بالنواجذ وهم من قال الله في حقهم قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني أي أنهم أيضاً

يدعون الى الله على بصيرة من الأمر . وأما الوحي فهو شيء آخر بالمرة يختلف عن الالهام ونور البصيرة ومعرفة العالم حالات الوحي لا يستدعي منصب الوحي اذ لا يبعد ان يعرف الطبيب حالات الصحة ودرجاتها ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وحالاتها وان كان ذلك الطبيب خالياً من الصحة او كان العالم الفاسق خالياً من العدالة فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فما كل من عرف النبوة والولاية نبيًّا او وليًّا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه تقيًّا

***

وانقسام الناس الى من يتنبه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الاّ بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعهُ التعليم ايضاً ولا التنبيه كانقسام الارض الى ما يجتمع فيهِ الماء فيقوى ويتفجر بنفسهِ عيوناً والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج منهُ الماء الى القنوات والى ما لا ينفع فيهِ الحفر وهو اليابس من الارض وذلك لاختلاف جواهر الارض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في مزية العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل اي من جهة ما ثبت من الشرع ما روي ان عبد الله بن سلام رضي الله عنهُ سأل النبي صلى الله عليهِ وسلم في حديث طويل جاء في آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ من قدره قال هيهات لا يحاط بعلمه الخلق هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال الله عز وجل فاني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطي حبة ومنهم من أعطي حبتين ومنهم من أعطي الثلاث والاربع ومنهم من أعطي فرقاً ومنهم من أعطي وسقاً ومنهم من أعطي أكثر من ذلك

***

هذه فذلكة في العقل وشرفه واقسامه ومنزلته من وجهة النظر الصوفية ومنها يتبين كيف أن هؤلاء القوم فاقوا غيرهم من عامة الناس وخاصتهم في البحث عن دقائق العقل ورفعوا شأوه وأعلوا شأنه واحلوه المحل الارفع فهم وان كانوا أشد الناس تمسكاً واعتصاماً بالمبادىء الدينية فانهم لم يغفلوا ولم ينكروا ما للعقول من مراتب الشرف والعظمة

وما حملنا على اثبات هذه العجالة الاّ ما وجدناه في نفوس بعض فلاسفة العصر وفريق كبير من المتفلسفة من الزعم بان الصوفية لا يحفلون في كثير ولا قليل بالابحاث العقلية ولا يلقون اليها بالهم وهو زعم يخالف الواقع ويغاير الحقيقة كما قدمنا

احمد غلوش
دكتور فخري في الفلسفة والآداب
وخادم المجمع الصوفي الخلوتي بالاسكندرية

المبحث السادس

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الاول من حياة مطران

﴿توطئة﴾ ينتسب خليل مطران الى أسرة عربية مسيحية عريقة الأصل تعرف ببطن «أولاد نسيم» ترتقي بنسبها الى شعبة «غسان» . (١) ولم تكن اقامة بطن «أولاد نسيم» ثابتة فقد كانت تتنقل تماماً كأصولها — من قبائل الغساسنة — في الاقليم الذي حول دمشق وتدمر وحمص. وكانت بعض أفخاذ بطن « أولاد نسيم » تصل في جولانها بأرض الشام شمالاً حتى حمص بسوريا، وجنوباً حتى صفد بفلسطين ، ولا نزال من بطن « أولاد نسيم » أفخاذ الى اليوم في أرض حوران بجبل الدروز وبوادي البقاع بلبنان الكبير

وقد استطاع بطن « أولاد نسيم » ان يحتفظوا بالأصل المسيحي في عقيدتهم ، رغم الصعوبات التي كانوا يلاقونها ككل اقلية في عصور الظلمات . وكان ان سيم من أفراد البطن علىقومه مطران، عرف بيته بآل المطران.وحدث أنسار منهم رهط شرقاً حتىانتهى الىالعراق ومضى جانب من هؤلاء من العراق حتى انتهوا الى ما بين النهرين . غير ان هذا الرهط افتقد بابتعاده عن موطنه قوة العصبية القبلية التي كانت تربطهُ بالنصرانيّة فمال للاسلام واعتنقه . وكان من هؤلاءِ الذين أسلموا شاعر زمانه ابو محمد المطراني الذي عاش في بخارى في القرن

(١) الغساسنة شعبة من العرب أسسوا دولة في الجاهلية في الشام متأثرين بالمدنية اليونانية ، والاخبار المروية عنهم في كتب العرب قلَّ أن تمد الباحث بما يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً ، الا أنها بالاضافة الى ما تجدهمن نتف مبعثرة في كتب المؤلفين البيزنطيين ، يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عامة عنهم . ويعتبر مقال المستشرق تيودر نولدكه Th· Nöldeke المعنون Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's خير ما كتبَ عنهم وتجده في Abhand. d. Kon Preuss· Akad. d. Wessenschaften, Berlin 1887

الخامس للهجرة . [١] على ان هذا الرهط الذي ذهب شرقاً واعتنق الإسلام ذاب مع الزمن في مجموع المسلمين حتى غاب خبره في التاريخ . اما العشائر التي بقيت في مواطنها الأولى — بلاد الغساسنة — جوالي حمص وتدمر ودمشق ، وما صاقب تلك المدائن من الأصقاع ، فقد احتفظت بعصبيتها وحافظت على الأصل المسيحي في عقيدتها ، وان افتقدت مع الزمن اسمها الجديد ورجعت تتخذ لنفسها اسم « أولاد نسيم » [٢]

وحدث في القرن السادس عشر ان انتقل من حمص الى الجنوب بعض الافخاذ من بطن « اولاد نسيم » واستقرّت جموعها ببعلبك ووادي البقاع . وكان ان سيم من هؤلاء مطران على بعلبك عام ١٦٢٨ باسم المطران «ايفانوس». وحيث أن المطرانية في ذلك الوقت لم تكن لها دار بيعة يجلس فيها المطران ليتصرف في شؤن رعاياه الروحية ، فقد كان المطران — عادة — يتخذ من بيته داراً للمطرانية . من هنا عرف ابناء المطران ايفانوس — الذي سيم مطراناً وهو أرمل وذو أولاد — باسم المطران وعرف بيتهم ببيت المطران [٣] وهكذا جدد التاريخ في بطن « اولاد نسيم » بيت المطران ، للمرة الثانية ، ومن هذا البيت الجديد خرج خليل مطران الى الحياة

نشأ من اولاد المطران ايفانوس أسر تكاثرت أفرادها مع الزمن ، بقي بعضها مستقرًّا في بعلبك ووادي البقاع وما جاورها من البطاح والبعض الآخر غادرها ، فسار رهط منهم شمالاً حتى انتهى الى حمص واستقرّ بها ، ونزلت جماعة من هذا الرهط زحلة وبقيت فيها . ومضى رهط منهم جنوباً الى فلسطين وعاش فيها . ومن هذا الرهط قام جبران المطران المعروف بكحيل في القرن السابع عشر ورحل الى مصر ونزل دمياط وأسس فيها بيت كحيل المعروف [٤]

ويظهر ان هجرة بعض أفراد آل مطران كانت نتيجة لتكاثرهم من جهة ، ولما نزل بهم من التضييق من امراء بني الحرفوش الذين كان لهم السلطان على بعلبك ووادي البقاع [٥] . غير ان صراع الامراء الحرافشة فيما بينهم طيلة خمسة قرون من زمان أضعفهم ، وكان خروجهم المتوالي على ولاة الدولة العثمانية سبباً في ان تجرد الدولة العثمانية عليهم قوة في اواسط القرن التاسع عشر تعقبتهم وقضت عليهم نهائيًّا [٦] . غير ان القضاء على الاسرة الحرفوشية لم يقض على الروح الإقطاعية فقد تجمع أهالي مدينة بعلبك وسكان وادي البقاع جماعات حول أسر ذات نفوذ ومكانة [٧] وكان في طليعة هذه الاسر اسرة آل مطران [٨]

---

(١) الثعالبي في يتيمة الدهر — طبع دمشق — ج ٤ ص ٤٥ — ٥٢ (٢) عيسى اسكندر المعلوف في الاخبار المروية في الاسر الشرقية (٣) ميخائيل موسى آلوف البعلبكي في تاريخ بعلبك ، بيروت ١٩٢٦ ص ١١٨ (٤) خليل مطران في كلام له عن المأثورات في آل مطران (٥) تاريخ بعلبك ، ص ٨٦ — ١٠٦ (٦) المرجع ذاته ، ص ١٠٦ — ١١١ (٧) المرجع ذاته ، ص ١١١ سطر ٧ — ١١ وص ١١٢ (٨) المرجع ذاته ، ص ١١٢ الفقرة ٣

— ١ —

نزل أجداد بيت المطران « بَعْلَبَكّ » في تاريخ قديم فاختلط تاريخهم بتاريخ بعلبك و« بَعْلَبَكُّ » والعامة تلفظها « بَعَلْبَكْ » مدينة من اشهر مدائن لبنان ، تقع شمالاً في وادي البقاع على سفح الجبل الشرقي من سلاسل جبال لبنان في خط عرض ١٠' ٣٤° شمالاً وطول ١١' ٣٦° شرقاً علوّها عن سطح البحر ١١٥٠ متراً تقع على مسافة ٣١ ميلاً من دمشق على خط مستقيم الى الشمال الغربي ، ومن طرابلس ٣٢ ميلا ومن تدمر ١٠٩ أميال . والمدينة متسلطة بموقعها على سهل بعلبك . وهو قسم من سهل وادي البقاع الفسيح الذي يمتد اكثر من خمسين ميلاً . وتقع المدينة على رأس المنحدر من الوادي الذي يعتبر أعلى سهول الشام ، ومنهُ تنحدر الاراضي شمالاً وجنوباً الى الاقاصي من بلاد الشام . فتنحدر مع انحدار الارض الانهار التي تنبع من المرتفعات التي تصاقب المدينة ، والتي تروي مياهها جل أرض الشام ، والتي تنتهي شمالاً او جنوباً الى بحر الروم (١)

وجو المدينة صحي جاف لقربه من الصحراء من جهة ، ولوقوعه في سهل وسط سلسلتي جبال لبنان ، الشرقية شرق المدينة ، والغربية غربها

والمدينة تعتبر من أقدم مدائن الدنيا القديمة وورد اسمها بصيغة « بعل بقعوتو » في السريانية بمعنى بعل البقاع (٢) . ويظهر ان العرب عربوها الى بعلبك ولا شك ان هذا التعريب حدث في عهد سحيق من الجاهلية ، فقد كان للعرب القدماء صلات وثيقة بسوريا . ومما يؤيد هذا الظن ان ذكرها ورد في العصر الجاهلي في بعض كلام الشعراء الجاهليين فوردت في قصيدة لأمرئ القيس إذ يقول :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

وقد ذكرها عمر بن كلثوم كذلك في بيت ضمن معلقته حيث يقول :

وكاسٍ قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاصرينا

ولقد تقلبت الدنيا على المدينة بين رفع وخفض ، فبينما كانت تعتبر من مدائن الدنيا الزاهرة على عهد الفينيقيين ، وصل بها الحال في عهد حكم الأمراء بني الحرفوش من التدهور ، ان أصبحت بلدة صغيرة منزوية بين مدائن الشام ، حتى انهُ لم يكن بها عند احتلال المصريين لها في عام ١٨٣١ غير سبعة وعشرين بيتاً من المسيحيين ، وقليل من البيوتات الإسلامية ما بين سنية وشيعية (٣)

(١) تاريخ بعلبك ، ص ٧ و ٢١ — ٢٤ (٢) المرجع ذاته ، ص ٤٦ و Ency. d. Isl. مادة بعلبك
(٣) تاريخ بعلبك ، ص ١٠٧

على ان المسيحيين من أهل المدينة كانوا منذ أقدم العصور ينزلون في حيّ خاص بهم كان يعرف بحيّ النصارى ، وكان هذا الحيّ يقع جنوب المدينة لجهة الغرب ، وفيها « الحارة التحتا والحارة الفوقا والحارة البرانية » وهذه الأخيرة كانت خارج السور العربي للمدينة . ومعظم مباني البلدة كانت بدائية كمباني الدساكر في غير فخامة ، وكان أصلحها للسكن وأفخمها بناء وأحسنها موقعاً المباني القائمة بحي النصارى [1] . وكان آل مطران في طليعة وجوه مسيحيي المدينة ، وبيتهم كان خير بيوتات الحي المسيحي . وكان موقع البيت على مقربة من باب المدينة المعروف بباب الشام ، وكان على مقربة منها حدائق وبساتين وضياع يمتلكها بيت المطران ، كانت تمتدّ في الوادي الى أبعد من حدود الطرف

في هذا البيت ولد خليل مطران في أوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، من أب من الأسرة المطرانية ومن أم يتصل نسبها بآل الصباغ. اما والد المطران فهو عبده مطران من مبرزي رجالات بعلبك ومن أصحاب الضياع والدساكر في وادي البقاع ومن المشتغلين بالتجارة. وكانت اراضيه ومتاجره تدر عليه ربحاً وفيراً . تزوج بوالدة الخليل في حيفا من مدائن سوريا الجنوبية . ثم استقرَّ بها في بلدته بعلبك وعاش معها ، وأنجبت هي منهُ ابناء بنين وبنات ، وكان منهم الخليل

كانت والدة الخليل من آل الصباغ ، أحدى الأسر العربية النصرانية النازلة سوريا الجنوبية في أرض فلسطين جهة حيفا وما صاقبها من الأراضي وكان والدها من أعيان حيفا . اما والدها لأبيها فكان من أبرز مساعدي الجزار أيام ولايتهِ على عكا . غير ان سوء التفاهم وقع بين الجزار وبينهُ ، فتعرض لخاطر باقامته بفلسطين . فاضطر ان ينزح الى لبنان وان يعيش فيها ردحاً من الزمن ، حتى بادت دولة الجزار ، ودالت أيامه . وقد نشأ أولاده في لبنان . ثم تفرقوا في أرض الشام ، وكان منهم واحد استقرَّ بحيفا واحتل فيها مكانة ، زفت أحدى بناته الى عبده مطران ، احد فروع الأسرة المطرانية

وكان عبده مطران رجلاً بسيطاً في غير تكلف مبسوط اليد . نشأ متأثراً بجوّ أسرته ، فأخذ عنها تقاليدها وأخلاقها وبثها في محيط أسرتهِ ، وبثها عن طريق هذا المحيط في ابنائه . اما والدة الخليل فكانت سيدة كاملة ذات شهامة . ربت أولادها تربية مثالية ، وكان يساعدها على هذا ، جو الأسرة بما بينها وبين بعلها من الوفاق والالتئام ، الذي كان يسبغ على العائلة جوًّا هادئاً ، ويجعلها تنصرف عن صغار الأمور الى بذل كل الجهد في تقويم ابنائها . من بنين وبنات بتربية صحيحة . وكان جو الأسرة يدفع الاولاد الى النشاط والحركة في غير صخب

(١) تاريخ بعلبك ، ص ١١ — ١٢ وعلى وجه خاص الفقرة الاولى من ص ١٢

ولا ضجيج ، والأم ساهرة من وراء ذلك كله تصلح من البيئة ، او قل تهيء الأسباب فيها الى الحدّ الذي يمكّن لها أغراضها في تقويم ابنائها وتربيتهم . وهذه التربية التي أخذت بها ابناءها جعلتهم يعتمدون على أنفسهم وعلى تعاملهم مع محيطهم معاملة تعتمد على الذات ، وهكذا عملت على ان تمهد لشخصياتهم السبيل للوضوح والاستبانة متقوّمة بذاتيتها . وكان لهذا أثره الفعّال في التكوين الخلقي لأبنائها (١) ، وتكييف نفسياتهم وتقويم ذاتياتهم على نمط خاص

—٢—

ولد خليل مطران بمدينة بعلبك في شهر يوليو عام ١٨٧٢ (٢) وعاش الخليل أيام طفولته الاولى مفصحاً بحركاته وأعماله عن مزاج عصبي أصيل وطبيعة ذات حيوية زائدة ومشاعر متقدة واحساسات زاخرة . وكان مظهر هذا المزاج وهذه الطبيعة من الطفل نشاط متصل عجيب وحركة متصلة الحلقات . ومع كل هذا النشاط والحركة اللذين كان يبدو بهما الطفل لم يكن محيطه الاجتماعي العائلي ليتداخل في نشاطه تداخلاً مباشراً . ولهذا كانت حركات الطفل حرة ، يقوم بها عن دافع نفسي داخلي ، وان كان لوالدته بعض الأثر في الحصول على الدافع او تكييفه بصورة خاصة عن طريق غير مباشر ، يتصل بتهيئتها البيئة العائلية على وجه يسمح لاثارة الدافع عند الطفل على الوجه الذي كانت ترغب فيه . ولما كانت حالة الطفل — خصوصاً في هذه الايام المبكرة من الطفولة — تحبب اليه انواع النشاط ، ليصرف بعض الجهد الذي يتكافأ وحيويته الزائدة ، فقد كان خليل مطران في تلك الايام كثير الحركة والفعل ، وكانت كثرة حركاته سبباً في ان تكثر معها عثراته . وكان المحيط الذي يتعامل معه يسمح له ان يتفهّم هذه العثرات ، ويقوم من كل عثرة معاوداً الكرة من جديد للحصول على النتيجة التي يرغب فيها والتي تدفعه اليها بواعثه النفسية الاولية . وهكذا كان ترك الخليل في طفولته حرًّا في مواجهة محيطه البدائي يتعامل معه بحرية تامة ، سبباً في ان يخلص مع الزمن بخلة مؤصلة رسخت في نفسه ، وقامت مقام الطبيعة الأصيلة ، هذه الخلة هي : خلة المعاودة والمراجعة

ويمكنك أن تفهم طبيعة خليل مطران كلها على حقيقتها وتدرك شخصيته في تقبّضها الداخلي اذا لاحظت ان الطبع الاصيل من نفسه هو طبيعة الانفعال بقوة والاستجابة للأشياء بشدة وان طبيعة الانفعال الهادىء الذي يطالعك بها الخليل ، والاستجابة ببطء للمؤثرات انما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم المعاودة والمراجعة . ومن هذين الشطرين المتقابلين والمتداخلين في

(١) خليل مطران — معلومات شخصية مستقاة بحديث مستفيض معه مساء يوم ٦ مايو ١٩٣٩ م بالاسكندرية . وكل ما استقيناه من خليل مطران نفسه سنشير اليه في الهوامش بعبارة — عن خليل مطران —

(٢) أبو شادي في اصداء الحياة ، يقول ان مطران ولد سنة ١٨٧١ — انظر ص ١١ — وقد جاراه كل المصادر الافرنجية في هذا التاريخ . غيران خليل مطران صحح هذا التاريخ بانه من مواليد صيف عام ١٨٧٢

شخص الخليل ، تكونت ذاتيته على نمط خاص : شدة في الحساسية وزخور في المشاعر وترسل مع النزوات ، ثم محاسبة دقيقة للنفس وبواعثها ونزواتها ، مهدت السبيل للخليل ان يخلص ببناء ذاتيته على النمط الذي يبدو عليه (١)

فاذا لاحظنا ان المحيط العائلي للخليل ، كان آخذاً بنظام من التربية امتزج فيه طرف من نظام التربية التركية التي تقوم على التضييق والتقييد مع طرف من نظام التربية العربية البدوية التي تقوم على الانطلاق والتحرر ،كان لنا من هذا كله ، ما يمكننا من ان نتمثل في اذهاننا صورة — تقريبية — للجو الذي نشأ فيه الخليل وترعرع فتأثر فتكيفت تبعاً لهذا التأثر نفسيته وتقومت تبعاً لها شخصيته

كان نظام التربية الذي أخذ به الخليل يختلط فيه نصف من التضييق والتقييد ، بنصف من الانطلاق والتحرر . وكان جانب التقييد في التداخل في أمر البيئة العائلية وتكييفها على النمط الذي يجعل الأطفال يتعاملون معها على الوجه الذي يرغب فيه الأبوان عادة . اما جانب الحرية فقد كان في اطلاق الأمور للأطفال يتعاملون مع بيئتهم في حرية تامة . وكان مظهر هذا التعامل الحر مع البيئة أن يتداخل الخليل مع اخوته واقرانه من الاطفال يلعبون في حرية ، لا تقيدها رغائب الأبوين . وان كانت عين الأم تسهر عليهم ولا تغيبهم عنها ، وقد خلص الخليل من هذه السنين بطبيعته الاجتماعية التي تميل الى خلق جملة صلات اجتماعية — une somme de rapports sociaux — مع الناس ، وهذه أظهر صفة في نفس الخليل في الحياة الاجتماعية التي عاشها كرجل اجتماعي يعيش في المحيط الشرقي الفردي المتصف بصفة الانعزال وهكذا يمكننا ان نفهم في شيء من الحدس الصادق أيام الطفولة التي عاشها الخليل على وجهها الصحيح

أخذ الخليل ينمو ويترعرع ويقطع سني الطفولة. وما بلغ من العمر حداً يسمح له بالخروج مع أفراد أسرته حتى هوي ركوب الخيل وقام في نفسه ميل الى ان يجاري آله في السباق على متونها في المضمار . غير ان ركوب الخيل لم يكن من السهولة في مكان . وقد كان دونه للفتى عقبات ، ولكن عزم الغلام وما كان اظهره من الرغبة الملحة والارادة الصادقة والعزم القوي جعلت الغلام يتغلب على كل الصعاب . واذا به يجري مع الكبار في المضمار يسابقهم ويسابقونه ولكن قرب عهد الغلام بالطفولة واحلامها وبعض الشيء من طيش الصبا ، كانا يدفعانه وهو راكب جواده الى القيام بحركات صعاب وبمغامرات في الجري والسباق . ولم تكن تسلم تابع حركاته ومغامراته كل مرة فكان كثيراً ما يتردى عن جواده ويسقط من على ظهره . وكان والداه ينصحانه

(١) يقول مطران : في المراودة وحدها تاريخ تكوين شخصيتي ، فقد كان هنالك عاملان يعملان في نفسي: شدة الحساسية ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص

ولكنه لم يكن لينتصح ويستمع الى صوت العقل في كلام ابويه ، فقد نشأ يتصرف طبق هوى نفسه ويتحرك وفق رغباته وما يصور له عقله . ولم يجد والده وقد رأى من غلامه ما يتعرض له من الاخطار الا ان يفكر في الاستفادة من شدة حيوية الغلام ونشاطه في تعليمه وتثقيفه . فقد كان المحيط العام في ذلك الحين يدفع الآباء الى تعليم اولادهم وتثقيف ابنائهم . فقد انتشرت المدارس في ارجاء الشام وغمرت البلادَ موجة تدفع الناس الى تمكين أبنائهم من الانتهال من ورد العلم . وحدث ان خرج الغلام يركض بجواده ويسابق اعمامه وأقرانه . واذا بزمام الجواد يفلت من يده فيسقط ، فتتكسر بعض ضلوع صدره . ويرى والده ان الوقت قد ازف لتعليمه فما يتماثل للشفاء حتى يرسل بهِ الى زحلة ليتعلم فيها اصول الكتابة والقراءة

***

انتقل الغلام الى زحلة وهنالك في مدرسة اولية اخذ يتعلم مبادىء الكتابة وأصول الحساب . وظل الغلام فترة من الزمن يتلقى علومه الاولية في زحلة في قابلية على الدرس حتى اوفى على التمام فأرسله والده الى بيروت وألحقه بالقسم الداخلي من الكلية البطريركية ، وظل الغلام بالمدرسة ردحاً من الزمن حتى بلغ السابعة عشرة . ثم تخرج من الكلية وقد فاز بمحصول ثقافي في العلم والادب واللغة يوازن ما يفوز بهِ الآخرون في اضعاف السنين التي درسها . وقد وجد الفتى في التعلم ما يرضي رغائبه وفي القراءة ما يشبع نوازع نفسه . فتهالك على التعلم وأدمن القراءة بنهم عجيب ، لا يترك كتاباً يقع تحت يده الا ويلتهمه التهاماً . وقد كان يساعده في ذلك تفتح نفسيته للمعرفة واقباله بنشاط عجيب على الدرس والتحصيل

وتخرج الفتى من الكلية بعد ان تثقف ثقافة عربية خالصة من جهة واتصل بالثقافة الاوربية اتصالاً تامًّا من جهة اخرى . وكان من مقومات تثقفه ثقافة عربيّة ان مدرسه في الصف كان الشيخ ابراهيم اليازجي امام اللغة في عصره . وعنه أخذ اللغة العربية والثقافة العربية الخالصة . على ان الشيخ ابراهيم اليازجي ان ازجى بهِ الى ميدان الادب العربي البحت ، فقد كان اتصال الفتى بالآداب الفرنسيّة بالكلية سبباً في ان تتفتح نفسهُ عن آفاق جديدة من الحياة والشعور ، لم يجد ما يكافئها في الأدب العربي الخالص ومن هنا اعتقد الفتى وهو ابن ثقافتين ، ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والأشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلجاتهِ ومشاعره واتجاهاته في قالب عربي رصين . وحاول مطران ان يطرق الأدب ، خصوصاً في ساحة الشعر على هذا الاعتبار ، فنظم عدة قصائد ، وهو في الصف النهائي من الكلية ، نجد نموذجاً منها في أول ديوانهِ موسومة بالتاريخ

« ١٨٠٦ — ١٨٧٠ » اشارة الى معركة يينا ودخول الألمان باريس (١) وقد لاقى مطران لا نتهاجه هذا النهج الكثير من الاعتراضات خصوصاً في محيطه المدرسي من أساتذته ، وعلى وجه خاص من الشيخ ابراهيم اليازجي ، الذي قال له : « كيف يجوز ان يرد في شعرك العربي لفظ نابليون ؟ » وبمثل هذه العقلية المحافظة كان مطران يلاقي الاعتراضات الأولى في حياته بخصوص النهج الجديد الذي حاول ان يأخذ نفسهُ بهِ في نظم الشعر

كان العهد الذي أخذ فيهِ خليل مطران بنظم الشعر من النهج الجديد، خاضعاً لموحيات العصر القديم : فقد كان سريان الشعر — شعر الفحول المطبوعين من شعراء العربية الخلص في العصر الأموي والعباسي، والمشهود لهم بالسبق في الشاعرية — بين أيدي المتأدبين على أثر قيام الطباعة في الشرق الادنى والاهتمام بطبع دواوين شعر الفحول سبباً في احياء الشعر العربي وديباجته الجزلة . وكان يساعد على ذلك احياء اللغة العربية الخالصة من شوائب العجمة . وكان كل هذا يمهد السبيل لتدور الشاعرية على الاغراض القديمة التي دار عليها الشعر العربي القديم . غير ان مطران الذي تفتحت نفسيتهِ على آفاق جديدة من الحياة والشعور في الآداب الاوربية ، ولمس قوة حركة التجديد في الأدب التركي بجهود شناسي وضيا باشا ونامق كمال وعبد الحق حامد ، أدرك ان الحياة التي تدور في عصره غير الحياة التي كانت تدور في العصور السالفة ، وان الاغراض التي يقول فيها الشعر ، شعراء العرب الاقدمون لا تلزم شعراء عصره وهو في هذا يقول:

« اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتما ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا. ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم » (٢)

وعلى هذا الاساس جعل الشاعرية شيئاً يدور حول روح العصر. وجعل البيان الشعري شيئاً مرناً وليس بالشيء الجامد الذي له رسم خاص، يدور مع العصر ويتطور مع تطور الزمان ، وان كان يتقوم في كل هذا بالمبادىء الاولى الثابتة

غير ان نشأة مطران متصلاً بالثقافة العربية الخالصة من جهة وتلمذته على امام اللغة الفصحى الشيخ ابراهيم اليازجي من جهة اخرى ، مكن قدمه في اللغة العربية وجعله راسخ العلم فيها وما كان في مستطاع مطران ان يخرج على اوضاع اللغة العربية من حيث سرت في نفسه أوضاعها فخالطتها لهذا اضطر مطران ان يقول الشعر في الاغراض الجديدة ولكن مصبوبة في القوالب

(١) ديوان الخليل ص ٩ — ١١ والقصيدة منظومة عام ١٨٨٨ و Brockelmann في Gesch. d. Arab. Literatur ملحق الجزء الثاني Leiferung فقرة ١٥ ص ٨٦ — ٩٦

(٢) المجلة المصرية ، م ١ ج ٣ ص ٨٥ والبحث الثالث فقرة ٣ من هذه الدراسة

العربية الخالصة . ولكن حركة الجديد التي أخذ بها مطران لم تكن لتستساغ عند المثقفين من جمهور العربية . وقد تكونت اذواقهم على غرار عربي محض ، فاضطر مطران ان ينظم الشعر في الاغراض القديمة ، ولكن تشعر في روحها شيئاً من الحياة الجديدة التي تفتحت في جنباتها شاعرية مطران . ذلك ليثبت للناس انهُ ما يقول الجديد عن عجز عن القديم ، ولكن نزولاً على روح العصر

— ٣ —

نظم خليل مطران في الفترة التي انقضت بين عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٠ بعض القصائد على النسق القديم الذي كان شعراء العرب ينظمون الشعر على غراره . وكان حديث العهد في التخرج من الكلية غير انهُ اكتسب شهرة واسعة في بيروت، وكانت حاضرة الادب والعلم والفن في كل القطر السوري ولبنان ، ومن اعظم حواضر الثقافة في الشرق في ذلك العصر . ولم يكن ينازع مطران الشهرة من أقرانه غير الامير شكيب ارسلان الذي كان حديث التخرج من كلية الحكمة والياس صالح الذي تخرج من الكلية الاميركية

وكان نشاط مطران العظيم قد اخذ يظهر في ميدان الحياة الاجتماعية ببيروت ، واشتهر مطران بالشعر الثوري، الذي كان يقوله ضد الاستبداد الحميدي فاتهم بأنهُ يعمل للثورة وأوقف، ولكن الحكومة العثمانية لم تعثر على مستندات كتابية وقرائن قوية تدينه بها فأطلقت سراحه ولكن أخذت تضايقهُ . في ذلك الوقت أصيب مطران بداء « ذات الجنب » وأشرف على الهلاك، وكان يعوده في ذلك الحين الدكتور ڤان ديك الشهير ونجا مطران بأعجوبة من الهلاك، وما استرد قواه حتى رأى أهله ان يغادر سوريا الى الخارج تخلصاً من مضايقات الحكومة فعزم على السفر الى باريس

وفي صيف عام ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس . ووصل اليها وأقام فيها ردحاً من الزمن ، بعد ان عرج في طريقه اليها على الاسكندرية لبضعة أيام (١)

وانتهى مطران من سفره الى باريس ، وأقام فيها ردحاً من الزمن ، متصلاً برجال الحركة الوطنية التركية في باريس ، من أعضاء حزب « جون تورك — تركيا الفتاة — » ، وقد لاقى مطران في باريس زعيمهم أحمد رضا بك الذي انتخب فيما بعد رئيساً لمجلس المبعوثان التركي ، وكانت لمطران جلسات مع رجال — جماعة تركيا الفتاة — في مقهى السلام Café de La Paix

(١) صحيفة المصري ، ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٦ ص ٣ ع ١

وكان نشاط مطران في باريس سبباً في ان يثير شكوك رجال السفارة التركية الذين دسوا له عند الحكومة الفرنسية ، وهكذا شعر مطران للمرة الثانية بالتضييق من جهة السلطات التركية

في ذلك الوقت فكر مطران في ان يهاجر الى شيلي بأميركا الجنوبية ، وكانت حكومة شيلي قد جعلت امتيازات مغرية للمهاجرين . فكانت تقطع لهم الاراضي الواسعة وتعفيهم من الضرائب والمكوس لأعوام وتساعدهم على استغلال الأرض . واكبَّ مطران لهذه الغاية على تعلم اللغة الاسبانية والأمل يحدوه ان يتمكن من المهاجرة الى شيلي ، ولكن حدث ما صدفهُ عن هذه الوجهة ، وجعله يولي وجهته نحو مصر فيرحل اليها في صيف عام ١٨٩٢ ، فتربطهُ الظروف لمصر فيستقر بها (١)

كانت حياة مطران في باريس نشاطاً متصلاً ، في سبيل الدرس والتزود من آداب الافرنج من جهة والجهاد في سبيل الدستور وتحرير العناصر التي في الدولة العثمانية من جهة أخرى . ولقد اتصلت الأسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر « الفرد دي موسيه » ، فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب ، ومشاعره في فورة اتقادها بزخور الاحساسات وعمق المشاعر التي يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير موسيه مما يظهر بعد في القصائد الاولى من ديوانه

وكان مطران قد خلص من أيام دراسته والسنين التي أعقبتها في سوريا بثقافة أدبية يشوبها القليل من الثقافة العلمية . فقد كان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلكية وشؤون علم الفزياء والكيمياء والحياة والحيوان ، وكانت هذه الثقافة العلمية يخالطها اطلاع على الفنون كتواريخ الأمم وفلسفات الشعوب ، ومن هذه الثقافة الخليطة التي يغلب عليها الاتجاه الأدبي كان مطران يتخذ اللبنات الأولى لتفكيره

وكانت طبيعة المعاودة والمراجعة في الفتى ترجيه الى درس آداب مختلف المدارس الأدبية الافرنجية عن طريق اللغة الفرنسية ، وهو مهما يصدف عن بعض الالوان من الآداب وبعض المدارس الأدبية بدافع نفسي ، فانهُ كان يكره نفسه على الدرس والتعمق في البحث ، وبهذا وحده خلص مطران بثقافة أدبية كاملة تنطوي على كل المذاهب الأدبية التي عرفها تاريخ الآداب الى عهده

وكانت معرفة مطران بالتركية والانكليزية ، سبباً في ان يحاول الاطلاع على آداب الاتراك والانكليز في لغاتهم الاصلية فقرأ لأعلام المدرسة الجديدة في تركيا ما كتبوه من الشعر وما اخرجوه من المسرحيات والآثار الأدبية . وتأثر بمطالعاته ، وعلى وجه خاص بآثار نامق كمال وناجي واكرم وحامد من أعلام الأدب التركي ، كما انهُ اطلع على آداب الانكليز اطلاعاً سريعاً في تلك الأيام

(١) هذا الكلام تصحيح في العموم لما رواه لنا توفيق حبيب . والاصل في هذا التصحيح كلام مطران نفسه

وان عاداليها في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عمره يمعن في مطالعتها ويحاول ان ينقل بعض روائعها الى العربية. ومهما تكن حقيقة هذا الطور من حياة مطران، فلا شك في أنه طور استعداد وتهيؤ واستجماع للاسباب. ولم يظهر من مطران من مظاهر النشاط الأدبي غير بضع قصائد من الطريقة القديمة في النظم، قال جلّها في أغراض ثورية ومناسبات عارضة، ولم يسجل منها غير قصيدته «١٨٠٦ — ١٨٠٧» المثبتة في صدر ديوانه (١)

تبدو شاعرية مطران في الطور الأول وان كانت متقومة بطرائق القدامى في نظم الشعر واضحة الخطوط ظاهرة المعالم. وأول شيء يطالعك من شعره مطاوعة الانفعال الشديد للاستجابة الهادئة التي تجعل للذهن مجالاً للتدخل لتصفية ألوان الاحساس وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كمالها وسكينتها وبين الاسلوب من حيث الوضوح والجزالة. وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تعطيه الوقت للعناية بالتفاصيل والجزئيات، ومن هنا كان شعره يخرج معبراً عن فكرة مطردة تصاحبها مشاعر متسقة واحساسات مسترسلة تصاحب الفكرة. وانت يمكنك ان تلمس هذا الاصل في شعر مطران منذ الطور الاول من حياته، تلمسهُ بوضوح في قصيدته عن «يينا وفتح باريس» ولكن الغرض الاتباعي طغى على معظم مواقف القصيدة فحاول ان يخفت من صوت مشاعره، ولكن الخلجات التي تطالعك من القصيدة لا تجعلك تشك في صحة المقررات التي نعرضها، خصوصاً اذا نظرت الى قوله في هذه القصيدة:

لبروسيا في أرض «يانا» عسكر ... مجر (٢) شديد البأس وافي الزاد
وخيامه في الافق مائلة على ... ترتيب سلسلة من الاطواد
نفرت طلائع خيله منذ الضحى ... تترقب الاعداء بالمرصاد
فأتوا كما يجري الأتي (٣) مشعبا ... في غير مجرى مائه المعتاد
وكأن نابليون في اشرافه ... علم على علم الزعامة باد
المجد رهن اشارة بيمينه ... والنصر بين يديه كالمنقاد
والفخر في راياته متمثل ... وطلائع العقبان في ترداد
فتهيأ الالمان لاستقباله ... كالحائط المرصوص من أجساد
وعلا هتاف مازجته غمائم ... من سل أسلحة وركض جياد
ورنين آلات تكاد تظنها ... متجاوبات العزف بالايعاد
حتى اذا كل العتاد تقاذفوا ... بالنار ذات السبرق والارعاد
شهب ضخام آتيات والردى ... بمسيرهن ومثلهن غواد
تلقي الرجال على الثرى قتلى كما ... يلقي السنابل منجل الحصاد
لله درهم وقد حمي الوغى ... فتهاجموا كتهاجم الآساد
تدعو الجراحة أختها بصدورهم ... والسيف يتلو السيف في الاجياد
واذا التقى بطلان لم يتجندلا ... الا معاً من شدة الاحقاد
واذا جواد خر فارسه دنا ... بصهيله ذا حاجة بجواد

(١) يوجد بعض الشعر لمطران في الصحف والمجلات العربية التي صدرت في الفترة بين عام ١٨٨٧ — ١٨٩١ وهي تمثل الطور الاول من شعر مطران، غير ان هذا الشعر أنكره مطران فلم يسجله في ديوانه
(٢) جرار (٣) السيل

والموت في الجيشين غير مجامل يجتاح بالازواج والافراد
يطوي الصفوف ويترك الدم اثره فكأنه فلك يبحر عباد
ما زال يفتك والنفوس زواهق وكأنّ تلك هنيهة الميعاد
حتى تولى الذعر جيش بروسيا فتفرقوا بين القفار بداد
فسمي الفرنسيون في آثارهم بعزائم لا ينثلمن حداد (١)
واستفتحوا برلين وهي منيعة وقضوا بها الايام كالاعياد

فهذا الوصف لا يكذب قارئه ما نراه فيه من تصفية ألوان الإحساس وضبط المشاعر والعناية الكلية بتفاصيل الواقعة، والعرض لها ولصورها الحسية في شكل يجلوها بمشهد منك واضحة من الاسلوب الإتباعي الذي كان شعراء العرب يقولون الشعر استناداً اليه

خاتمة

نلخص القول في الطور الأول من حياة مطران، وهو طور النشوء والبناء للطور الثاني واستجماع الأسباب للظهور فيه، بأنهُ كان بما يحتويه من الظروف والاحوال من المهيئات لمطران لحمل شعلة الإبداعية في الشعر العربي الحديث في الطور الثاني من حياته. وقد خلص مطران من هذا الطور بمقوّمات شخصيته التي تكاملت في الطور الثاني، وكان أهم الأسباب التي تقومت بها شخصيته من هذا الطور طبيعة المعاودة التي خلص بها عن طريق التعامل الحرّ مع محيطه وبيئته، وخلة الحيطة التي تقومت بطبيعة المعاودة التي تأصلت في نفسه. وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تدفعهُ للعناية بتفاصيل الامور وجزئياتها، من حيث تجعلهُ يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد. فينتزع منها مجموع أشكالها وينزل منها الى مقوماتها من الجزئيات والتفاصيل

وهذه العناية بجزئيات الاشياء وتفاصيلها كانت تسبغ على نظره، الوجهة الموضوعية. والنظر الموضوعي كان يجعل مشاعره تلبس صورها من عالم الموضوع. ولكونها تحمل في طياتها التفاصيل والجزئيات كانت تتمثل للذهن شبحاً بتهاويلها وصورها وتصاويرها ومن هنا يتقوّم الاصل الموضوعي في شعر الخليل

وتعامل الخليل الحر مع بيئته جعلهُ يخلص بروح ضمامية تأنس للجماعة وتتعامل معها وتشارك الجماعة مشاعرها من آلام ومسرات ومن أحزان وأفراح، غير ان تعامل الخليل مع أفراد الجماعة في حيطة، نتيجة ما خلص به من طبيعة التريث التي خرج بها من المعاودة والمراجعة

وهكذا يمكننا ان نفهم طبيعة الخليل والاسباب التي تقومت بها والصور التي لبستها في الطور الاول من حياته

(١) عزائم ماضية كحدود السيف غير أنها لا تفل

استطلاعات المقتطف في مصر الصناعية

مصانع مصر

للغزل والنسج

جولة في مصانع المحلة الكبرى

الى الاستقلال الصناعي

« يستهلك مصنع شركة مصر للغزل والنسج ١٥٠٠ قنطار من القطن في اليوم يصنع منها ٣٠٠ الف متر من القماش و ٥٠ طناً من الغزل أي ما يوازي ٢٥ في المائة من كل ما يستهلكهُ القطر المصري من المنسوجات». بهذا القول استهل الاستاذ عبد الحميد حمدي وكيل شركة مصر للغزل والنسج في المحلة الكبرى حديثه ثم قال : — «ويشتغل في انتاج هذه المقادير الكبيرة ١٨ الف عامل و ٥٠٠ موظف. ثم ان المصنع يحتل ١٢٥ فداناً من ارض مدينة المحلة الكبرى، هذه البقعة التي امتاز اهلها باقبالهم على صناعة الغزل والنسيج من امد طويل »

وانتاج المصنع يضرب عصفورين بحجر واحد . فهو يستهلك من غلتنا القومية الاولى التي يعتمد عليها الفلاح، نصف مليون قنطار من القطن في العام الواحد فيمهد لاستقلال السوق المصرية عن الاسواق الاجنبية باستعمال اقطاننا في الصناعة المحلية فتصبح بعيدة الى حدٍّ ما عن التأثر بالمضاربات الدولية. وثانياً يضع المصنع الحجر الاساسي لاستقلالنا الصناعي فيعيد الينا مجدنا الغابر وثقتنا بأنفسنا فنغدو أمة صناعية لها في عمل ابنائها خير وقاية من تقلب الزمان في الحرب والسلم

ويحتوي المصنع على اربعة عشرة عنبراً صفت فيها آلاف المغازل والانوال. وخطوة واحدة داخل احد هذه العنابر سواء في الليل او في النهار تبين ما في تلك البقعة من حياة النشاط، اذ يطغى صوت الآلات على كل صوت ولا تجد فيها الاَّ دلائل الحركة والعمل . فعيون العمال مفتوحة تحصي حركة كل خيط ، وأيديهم دائمة العمل تصلح كل خلل طارىء . أضف الى هذا تغير النفسية المصرية المعروفة بقناعتها، وتحولها الى الحماسة في العمل والانتاج والكسب . فمن اللحظة الاولى التي تطأ فيها قدمك ارض المحلة الكبرى تشعر بارتفاع مستوى المعيشة فيها عنهُ في سواها من مدائن مصر. فأجر اقل عامل هناك كما اخبرني احد المسؤولين لا يقل عن ثمانية قروش في اليوم الواحد

النشوء والارتقاء

ولا يقتصر انتاج المصنع على الاقمشة القطنية . فهناك مصنع الصوف يصنع الاقمشة الصوفية ومصنع المنسوجات الكتانية . وهناك مصانع «الناموسيات» و « الفانلات » و «الجوارب» التي تظهر في السوق متعددة النقوش والالوان ومنها الرخيص ومنها الغالي الثمن وكلٌّ يخضع لما بذل فيه من جهد ومادخل في صنعه من خامات. فصناعة الغزل والنسج من الصناعات المتشعبة كثيرة التعقيد

ولغزل القطن ونسجه ستة عنابر ثلاثة منها للغزل ومثلها للنسج انشئت في فترات مختلفة ارتقت مع الزمن وفقاً لسنّة النشوء والارتقاء. فقد صدر المرسوم الملكي بانشاء شركة مصر للغزل والنسج في ٢٦ اغسطس سنة ١٩٢٧ برأس مال قدره ٣٠٠ الف جنيه وفي فترة فقدفيها المصريون كثيراً من الامل في انشاء الصناعات في مصر . فأسس في اول الامر العنبر رقم واحد للغزل والعنبر رقم واحد للنسج . وافتتحا في عصر المغفور له الملك فؤاد الاول . ثم اتسعت دائرة العمل فأسس عنبران آخران. ثم اتسع ثالثة فافتتح جلالة الملك فاروق عنبرين جديدين اطلق عليهما الرقم الثالث وزاد رأس مال الشركة في خلال ذلك الى ان بلغ ٨٠٠ الف جنيه مصري

تبدأ المصانع عمليتها بالقطن الخام بعد حلجه واستخراج بذور القطن من اليافه . فلمصانع الشركة مخازن واسعة . قسمت تقسيماً فنيًّا حتى لاتختلط الاقطان بعضها ببعض. فهنا السكلاريدس وهنا الزاجورة والاشموني ، وهناك جيزة نمرة ٧، الى آخر هذه الانواع التي تنتجها ارض مصر. ولا يجوز خلط هذه الانواع كيفما اتفق لأنَّ كلاًّ منها ينتج خيطاً يختلف في المتانة والسعر عن سواه . فاذا طلبت المصانع قطناً قدمت لها الانواع التي تتفق ونوع القماش المطلوب. وهنا تبدأ عملية خلط القطن بأقدار خاصة يعرفها الفنيون في غزل القطن ونسجه وعلى هذه الخلطة تتوقف متانة القماش وسعره

آلة تسلم آلة

وتتولى عملية الخلط آلات تبدأ من الطابق الثالث فتنقل الاقطان من مخازنها على عربات صغيرة تسع كل منها بالة واحدة ثم ترفع الى عنابر الآلات بروافع خاصة فاذا استقرت في عنابر الخلط نزعت عنها احزمتها ووضعت الاقطان في الآلات حيث تخلط وتنبذ منها بعض موادها الغريبة كالتراب وبقايا البذور ثم تمضي في سيرها من آلة الى اخرى حتى تهبط الى الدور الثاني في انابيب مصنوعة من الزنك حيث تبدأ عملية التنظيف النهائية

توضع الاقطان على حصائر الآلات فتنقلها الى جوفها حيث تجتاز اربع مراحل للتنظيف وفي كل مرحلة تتولى الآلات ضرب القطن كما يفعل المنجدون ولكن بطريقة آلية ادق وانظف ثم تخرج طبقات القطن من نهاية الآلة ملفوفة لفائف كبيرة طول اللفة متر تقريباً ويتخلف القطن

الذي لا تيلة له داخل الآلة ويستعمل في غير اغراض الغزل كالقطن الطبي

وتنقل اللفائف النظيفة الى آلات التمشيط حيث يعاد ضرب القطن وتنظيم فتله وتختلف امشاط هذه الآلات باختلاف طول تيلة القطن فطول تيلة السكلاريدس ٢٣ ملليمتراً بينما طول تيلة الاشموني ١٧ ملليمتراً ولذلك يجب تغيير هذه الامشاط وتركيب غيرها على الآلة حتى تحتفظ الخامات بقوتها وطول تيلتها . ويراعى عند خروج القطن من هذه الآلة ان تكون طبقاته رقيقة تكاد تكون شفافة ذات سمك واحد فيلف على اسطوانات عريضة. فاذا اعترضت الآلة طبقة سميكة سارت حصيرتها ببطء واذا اعترضتها طبقة رفيعة سارت بسرعة فتتساوى الطبقات جميعاً في ثخانتها ثم تحول هذه الطبقات في عملية « السكرد » الى خيوط غير مغزولة من القطن

١٤٤ خيطاً

والغزل ثلاث مراحل اولاها البرم الابتدائي فالمتوسط فالنهائي ويصل عدد « الفتل » في الخيط الواحد الى ١٤٤ فتلة تختلف متانتها باختلاف الحاجة اليها وبعضها يستعمل في صناعة « الشلل » التي تصدر الى السوق وبعضها لصنع بكر الخياطة الذي تستعمله السيدات في البيوت . ونوع ثالث يستخدم في الانوال اليدوية خارج المصنع . الى غير ذلك من الصناعات المختلفة . ولما كانت عملية الغزل تحتاج الى درجة عالية من الرطوبة فقد جهزت العنابر بآلات تجعل درجة الرطوبة ٧٥ في المائة

وآخر عمليات الغزل هي عملية « البوش » وفيها تلف الخيوط على «مطاور» وهي اسطوانات كبيرة تسع ١٨٢٤ خيطاً طول كل منها ٥٠٠٠ متر توضع في آلات تدفع الخيوط في مواد كيميائية ونشاء وجلسرين وصابون فتكسبها قوة على تحمل شد آلات النسج وصعود الخيوط وهبوطها في الانوال وتخصص هذه الخيوط لسَدَى القماش وهو ما مُدَّ من الخيوط طولاً

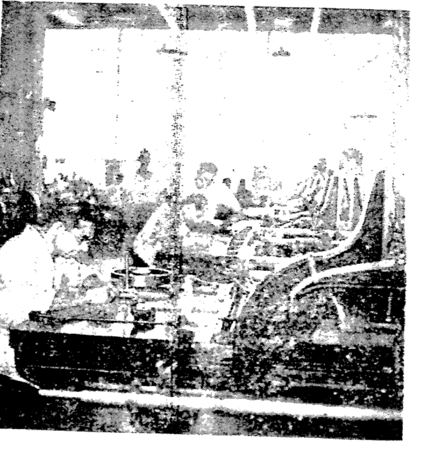
ويستغرق تركيب الخيوط في الانوال وقتاً طويلاً اذ يجب ضمها في ابر « الدرق » وهو عبارة عن اطار من الخشب في وسطه اسلاك تمر من بين كل سلكين اربعة خيوط . ويحتاج كل نول الى درقتين او ثلاث او اربع وفقاً لنوع النسيج ويقدر عدد خيوط البوصة الواحدة بستين خيطاً في الطول ومثلها في العرض ويستغرق تركيب الخيوط في اربع درقات ثلاث ساعات من وقت العامل

تبييض القماش

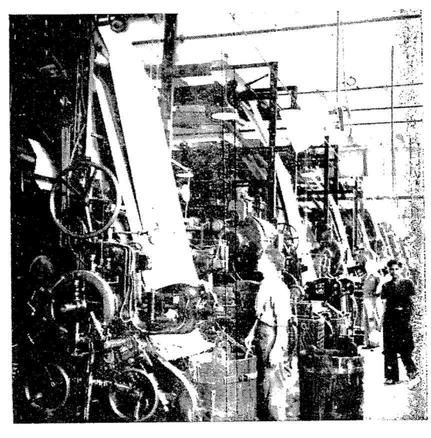
يخرج النسيج بعد هذه المرحلة أسمر اللون لا تساخه في أثناء العمل ولذلك يجب ان يمر في مرحلة التبييض (القصر) . وفيها توصل مقاطع القماش أولاً بعضها ببعض ثم يمرُّ شريطها العريض في عدة أدوار فاذا انتهى من واحد انتقل الى الآخر وأول هذه الادوار حرق « الوبرة »



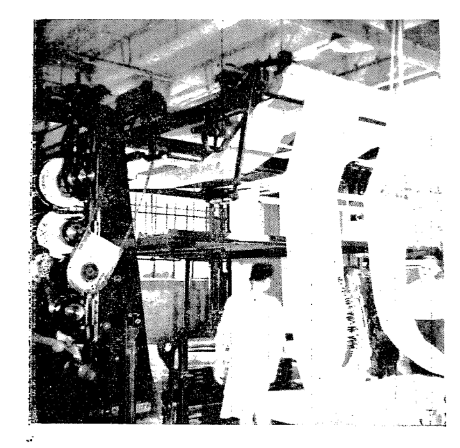
عنبر التدوير وتُرى فيه الفتيات وهنَّ يراقبنَ نقل الغزل
من بكر صغير الى بكر اكبر



عنبر حفر الرسوم على الاسطوانات
استعداداً لطبعها على القماش



عنبر طبع القماش ويرى العمال وهم
يلاحظون سير الآلات



بعد ان يصبغ القماش يمر في آلات التجفيف والفرد والكي ويرى هنا
بعد ان مر بجميع هذه المراحل وهو يوضع على عربات استعداداً لنقله

التي تتخلف في النسيج من الناحيتين إذ يدخل الآلة من ناحية فتحرق وبرها وتقلبهُ الآلة لبمر على نار ثانية تحرق وبر الناحية الأخرى . فاذا انتهى حرق الوبر مضى النسيج في سيره فيمر في أحواض كبيرة مملوءة بالماء الجاري لتبريده ثم يدخل أحواض الغسل لازالة ما يعلق بهِ من النشا والاحماض ويتغير الماء المغلي ثلاث مرات يبقى القماش في الماء في كل منها فترة تتفاوت بين ١٠ ساعات و١٢ ساعة. وسألت العامل عن الطريقة التي يعرف بها ان القماش تخلص من موادهِ الغريبة فقال « بالرائحة وبلون الماء » ففي المرة الأولى يصبح لون الماء أحمر وفي المرة الثانية يصبح أصفر وفي المرة الثالثة يصبح أبيض

وينتقل الى التبييض بالمواد الكيميائية كالحوامض والصودا في عملية واحدة إذ يخرج شريط النسيج من آلة فيدخل في الأخرى ويحفظ في هذه المواد ثماني ساعات يصير لونه بعدها ناصع البياض ولكن الاحماض والمواد الكيميائية تؤثر فيهِ ولذلك يجب تنقيتهُ منها بغسلهِ بالماء العادي ثم يجفف بمروره في آلة بها ثماني عشرة اسطوانة ساخنة ثم يفرد وينشّى ويكوى بآلات خاصة استعداداً لصبغه ونقشه تبعاً لطلب السوق

مائتا رسم في الاسبوع

وعملية الصباغة والنقش من العمليات الفنية الدقيقة التي تحتاج الى خبرة طويلة وذوق حسن يدرك ما يرغب فيهِ الجمهور . فأول ما يجب عملهُ هو رسم شكل صغير على الورق بالالوان الطبيعية ثم عرض هذه الالوان والنقوش على تجار الجملة ليختاروا الرسم المناسب وما يوافقهم من نقوش ولذلك أعدت الشركة قلماً خاصًّا بالرسم موظفوه من خريجي مدارس الفنون الجميلة يستلهمون وحيهم من الطبيعة والحياة بما فيها من أشكال طبيعية وصناعية . وينتج هذا القلم مائتي رسم في الاسبوع يعرضها على المكتب التجاري لاختيار الصالح منها

وعندما يستقر الرأي على نقش معين ينقل الى «ورشة» الحفر حيث ينقل رسم كل لون على لوحة من الزنك ويحفر فيها ثم ينقل الى اسطوانة نحاسية لها قلم عندما يمر على لوحة الزنك تسجل الوحدات على اسطوانة النحاس . وتحتاج هذه الطريقة الى عملية حسابية دقيقة فيجب ان ترسم جميع الوحدات بابعاد ثابتة حتى لا يؤدي خطأٌ يسير فيها قدرهُ بضعة ملليمترات الى ارتباك العمل واعادته من جديد لان معنى هذا ان النقش لن يكون منتظماً وربما تداخلت النقوش بعضها في بعض

وتطبع النقوش ثم تثبت بواسطة البخار تارةً وبالمواد الكيميائية أخرى ثم يغسل القماش بالماء والصابون ويجفف ويشد ويكوى للمرة الاخيرة استعداداً للتجهيز النهائي . وتتشابه آلة

طبع القماش بآلة طباعة الالوان الحديثة من حيث تعدد الاسطوانات والالوان ولكنها تختلف عنها في ارتفاعها الذي يسمح للقماش بأن يجف

وتنقل الاقمشة الى الطابق الأعلى بروافع كبيرة سعة الواحد منها ١٠٠٠ متر مكعب وهناك تعد للتجهيز النهائي إذ تمر بآلات ترتبها بنظام خاص يسمح للعامل بأن يلاحظ ما فيها من عيوب تجارية يعينها بوضع علامة صغيرة على القماش حتى اذا رآها العامل الذي يقصّهُ « أثواباً » فصل الاجزاء غير الصالحة ثم تحزم الاثواب وتلف بالورق استعداداً لارسالها الى التجار

القطن الطبي

اما القطن الذي يتخلف من العمليات التمهيدية للغزل ويسمى « بالعادم » فينقسم قسمين اجودهما « الكربتون » وهو الذي يصنع منهُ القطن الطبي وهو قطن « قصير التيلة » لا يصلح في اعمال الغزل والنسج ولذلك يستغل في صنع القطن الطبي . يخرج هذا النوع من آلات التنظيف وهو يحمل مقادير كبيرة من التراب والبذور والبقايا النباتية فيمرّ في آلات متعددة تختلف في دقة التنظيف باختلاف نظافة القطن فكلما كان القطن نظيفاً انتقل الى آلة أدق حتى يخرج بعد عدة مراحل وهو خال من كثير من مواده الغريبة

ولا تكاد تصدق عينيك عندما ترى التغيير التام الذي طرأ على نظافة القطن فبعد ان كان أسود مما لصق بهِ من تراب وقشور تشاهده فاذا هو نظيف أبيض ولكن الاقطان الطبية تحتاج الى تطهير خاص وشكل خاص ترتاح اليه عينا المريض او الجريح . ولذلك فان يد العامل تتناوله بالغسل بالمواد الكيميائية والصابون مراراً حتى يزهو لونه ويصبح ناصع البياض

وأخيراً يغمر في حوامض تزيل ما قد يكون عالقاً بهِ من مواد غير مرغوب فيها سواء من الناحية التجارية او الطبية وتحفظ لهُ في الوقت نفسه لونهُ ونقاوته ثم ينقل الى آلة مجوفة تدور بسرعة ليجفف ويعصر بفعل الدوران ويخرج من الجزء الثاني للآلة وهو جاف فيوضع في آلة « تفتيح » تفصل أليافهُ بعضها عن بعض وتلفه على شكل « بكر » كبير استعداداً لعمله ملفات كالملفات التي نراها في الصيدليات . وينتج هذا المصنع ١٢٠٠ كيلو جرام يومياً . وقد دلت التقارير التي قدمت من الهيئات الطبية سواء أمصرية كانت أم أجنبية ان منتجاته خير من غيرها لما امتازت بهِ من جودة القطن واتقان تحضيره لا سيما انهُ معد بالمجهزات الصحية اللازمة

ملابس الشتاء والصيف

ومصنع الغزل والنسج في المحلة الكبرى قوامهُ عدة مصانع تدخلها عرياناً فتخرج منها مكسوّاً وسواء في الصيف أو في الشتاء . فالى جوار مصانع غزل القطن ونسجه مصنع غزل الصوف ونسجه

ويختلف صنع الاقمشة من الصوف عن نسج القطن فيما يحتاج اليه من عمليات كثيرة وآلات دقيقة تقتضي خبرة وعناية

واذا كان القطن يحتاج الى عملية خلط فنية فان غسل الصوف يحتاج الى مواد كيميائية متعددة لكي تزيل ما علق به من مواد دهنية . فان الصوف مادة حيوانية بينما القطن مادة نباتية . ومما يؤسف له ان بلادنا على الرغم من انها قطر زراعي تكثر فيه الاغنام فان محصول الصوف فيها لا يمكن الاعتماد عليه في الصناعة لسقوط صنفه ولذلك فإن الاصواف المستعملة في هذا المصنع تستورد جميعها من الخارج . وأهم نقد يوجه الى صوف اغنامنا قصر تيلته وقذارتهُ وهما صفتان تقفان حجر عثرة في سبيل استخدامه في المنسوجات المتقنة

وقد تمكن المصنع من انتاج اصواف « البدل » مما يوفر علينا كثيراً من الاعتماد على المصانع الخارجية . وينتظر ان تغمر هذه المنسوجات الاسواق المصرية عند ما تتقن هذه الصناعة التي تحتاج الى الخبرة والعناية. فعلى الرغم من ان المصنع حديث العهد بالوجود فانهُ يستطيع ان يمدنا بالاقمشة التي نستطيع ان نفخر بمصريتها وبأن مردَّها الى الأيدي المصرية ورؤوس الاموال المصرية

وكما يقدم لنا المصنعُ البياضات والاصواف فانه يقدم لنا ايضاً « الفانلات » و« الجوارب » و«الناموسيات» وانواع «الدنتلا». فلكل من هذه المنتجات عنبرها الخاص . وفي مصنع الجوارب والفانلات تشتغل الفتيات والفتيان بصبر وجلد. ولاحظت كثرة الفتيات فسألت عن السر في ذلك فقيل لي ان الفتاة أشدُّ صبراً على العمل بطبيعتها وآلات نسج «الجوارب» و «الفانلات» تحتاج الى كثير من السياسة والرعاية مما لا يتوافر في الرجال فقد يسبب استعجالهم للحوادث خسارة لا داعي لها كالاستغناء عن بعض الابر التي تعيبهم في اثناء العمل

وينتج مصنع الجوارب ٣٠٠ «دسته» في اليوم الواحد من مختلف الالوان والنقوش ويشتغل فيه ١٥٠ عاملاً وعاملة . وينتج مصنع الفانلات ٢٠٠ «دسته» في اليوم ويشتغل فيه ١٥٠ عاملاً وعاملة ايضاً وهو ينتج عدة انواع من الملبوسات الجاهزة « كالجرسات » وقمصان الالعاب الرياضية وغيرها . وينتظر ان يزاد انتاج هذا المصنع في القريب العاجل بتوسيع عنبره وضم عدة آلات جديدة اليه حتى يستطيع ان يسد طلبات السوق وحاجته

الصناعة تغزو الاخلاق

اول ما يستوقف نظر الزائر لهذه المدينة روح الصناعة وقد غيرت من نفسية الناس فما تراه من روح الرضى والتواكل في حقول مصر سواء أفي الصعيد كانت ام في الوجه البحري، تراهُ طموحاً

في المحلة الكبرى. فهناك لا يرضى أصغر عامل بأقل من ثمانية قروش في اليوم بينما زميله على بعد ساعة واحدة من المحلة يرضى بثلاثة قروش في اليوم. فهذه الروح النامية هي وليدة الصناعة التي غزت هذه البلدة فرفعت مستوى المعيشة فيها وجعلت الناس يبحثون عن المسكن الحسن والطعام المغذي النظيف. فطعام الحقل عاد هناك وهو لا يكفيهم، ولا السكنى مع البقر والاغنام ترضيهم

وقد تنبهت الشركة الى ما سيصيب هذه البلدة من تطور مفاجيء فاستعدت لذلك وشيدت المنازل لموظفيها فأقامت منازل خاصة بالموظفين غير المتزوجين واخرى للموظفين المتزوجين وفي الأولى يخصص لكل موظف غرفة مؤثثة صنع اثاثها في ورش المصنع ولا يحتاج فيها الموظف الا الى ملابسه الخاصة، وبعض هذه الغرف مؤجر وبعضها الآخر بالمجان فهناك موظفون تشتد الحاجة اليهم على غير ميعاد ولذلك تطالبهم الشركة بالسكنى في منازلها ليكونوا مستعدين للطوارىء وتتكون هذه العمارات من شقق عدد غرف كل منها اربع وهي مجهزة بالكهرباء والادوات الصحية

طابق في المستشفى

وتهتم الشركة بصحة عمالها ومستقبلهم ولاسيما الحوادث والاخطار التي تحتمها الصناعة ولذلك أمنت على عمالها حتى اذا أصيب احدهم في حادث نال التعويض اللازم كما انها تصرف لهم في حالتي المرض او الاصابة نصف اجورهم. أضف الى ذلك ما اتخذته من استعداد يسهل للعامل العلاج في مستشفيات المدينة ولذلك شيدت دوراً ثالثاً على نفقتها في المستشفى الاميري وهو يسع ١٥٠ سريراً

وقد أعدت المصانع من الداخل بما يضمن منع كثرة تطاير الغبار فثبتت في السقف مراوح وأنابيب للتهوية وامتصاص الغبار وتقوم هذه الانابيب بعمليات أخرى لتأمين سلامة العمال والمصانع فهي مجهزة بأدوات لاطفاء اي حريق. فاذا اشتدت الحرارة داخل عنبر ما فتحت تلك الانابيب بطريقة آلية وأسقطت الماء على النار فأخمدتها

وارادت الشركة ان تنمي الروح الرياضية بين افرادها فأنشأت لذلك نادياً فسيحاً فيه بناء للعب التنس كما انشئت الفرق الرياضية التي تتبارى للحصول على كأس طلعت باشا. اضف الى ذلك انها استغلت احواض ترشيح الماء فزودتها بالادوات التي جعلتها صالحة لان تكون احواضاً للسباحة يجد فيها الموظفون مايشاءون من متعة ورياضة

ولم يقتصر الاهتمام على الروح الرياضية والاجتماعية فالى جوارها نشأت الروح العلمية والتعاونية اذ اسست جمعية علمية تدعو الى المحاضرات المفيدة التي تتصل بصناعتي الغزل وصدرت مجلة خاصة بذلك تطبع على نفقة الشركة. اما الجمعية التعاونية فهي عبارة عن حانوت يجد فيه الموظفون والصناع ما يحتاجون اليه من ملبوسات او مأكولات بأرخص الاسعار بحيث توفر على العامل دراهمه وتعطيه اجود البضائع

حديقة المقتطف



لالياس ابو شبكة

الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

رضا توفيق وعبد الحق حامد

طالع الأدباء بشوق الفصول التي نشرها الدكتور اسماعيل أدهم في «المقتطف» عن الاستاذ خليل مطران ، شاعر العربية الابداعي ، كما سماه ، وكان الدكتور ادهم قد عقد في مجلة « الحديث » الحلبية فصلاً عن الشاعر التركي حامد الذي توفي لسنتين خلت ، عرض فيه — استناداً الى ما كتبهُ الدكتور رضا توفيق في كتابٍ لهُ عن حامد — للعوامل الأدبية التي تأثر بها الشاعر التركي وفي جملتها كورنيل وشكسبير وفيكتور هيغو . وكثيراً ما كان الدكتور رضا توفيق يحدثني عن صديقه حامد ولا يكتمني انهُ تبنّى طائفة لا تحصى من أفكار الشعراء الفرنج على أنهُ طبعها بطابع من نفسه شأن جوتي في « الديوان الشرقي » وكورنيل نفسه في « السيد » . وفيما نحن نتحدث عن مقال الدكتور أدهم في حامد قصَّ عليَّ الدكتور رضا توفيق قصة اكتشافهِ مصدراً غرف منهُ شاعر « المقبرة » حصةً كبيرة من أفكاره . وبما أن صديقي نزيل لبنان اليوم لم يذكر هذه القصة في كتابهِ الضخم الذي نقد فيهِ شعر حامد فقد رأيت أن أسردها بايجاز تفكهة للقراء

كان الدكتور رضا توفيق وحامد صديقين حميمين وكان كلٌّ منهما يحترم الآخر ويجلّه وكثيراً ما كانا يصرفان الليالي بين الخمرة والأدب . وفي احدى الليالي قام الشاعران بجولة على ضفة البوسفور ، وبعد أن نالا من الخمرة حتى اكتفيا دعا حامد صديقه رضا توفيق الى تمضية الليل في بيتهِ . وكأن الخمرة أيقظت في نفس الشاعر الفيلسوف رضا شوقاً ملحًّا الى تصفّح ما يطبع الليل على صحائف البوسفور فاستلقى على سريره وأطلق عينيه في الابعاد . وهو على ما بهِ شعر بجسم تحت الوسادة فرفعها فرأى كتاب « الله » لفيكتور هيغو . وكان حامد قد أحلّ صديقه رضا في مخدعه . فأخذ هذا الأخير يتصفح الكتاب فاستوقفت انتباهه علامات موضوعة بجانب مقاطع من الشعر عرف الدكتور رضا أن صديقه تبنّى معانيها في شعره .

ومنذ ذلك الحين راح يتعقبهُ فتبين لهُ أن حامد انتحل هيغو ولامرتين وكورنيل وشكسبير وغيرهم

الانتحال والسرقة الادبية

لا أجد بدّاً ، في هذا الصدد من ذكر الغارة الهوجاء التي شنها اخيراً بعض الادباء اللبنانيين على بعض ادباء لبنان ومصر متهماً هؤلاء الاخيرين بالسرقة والانتحال . فقد حلا لبعض النقاد ان يحدث حركة أدبية غير مألوفة فراح ينبش بطون الكتب والدواوين لعله يظفر بسرقة ادبية يوقع بها الواقعة . ويظهر ان هذه الشهوة الادبية تفاقم امرها حتى اصبحت مرضاً في بعض النفوس وحتى خيل الى البعض ان ما ينتجه الشعراء والكتّاب والمشهور منهم بوجه خاص « يجب » ان يكون منحولاً أو مسروقاً او مستوحى من الغير على الاقل . ويكفي ان يكون المنقود قد جاء بكلمة او كلمتين ورد مثلهما في عبارة فرنجية ليعد سارقاً . . . فقول الشاعر اللبناني مثلاً :

ووجهك الشاحب الجذاب ترهبني ألوانه يتشهى فوقها اللهبُ
ما زلت تقتصين الليل في جهدٍ حتى تجمد في اجفانك التعب

مسروق من قول الشاعر الفرنسي :

Et semblable à la mort, seulement quelques pleurs
Montraient encore sa vie en montrant ses douleurs.

فان يكن بين هذين القولين شبه — وليس بينهما أي شبه — فماذا تراه يكون بين قول لامرتين في بحيرته : « ذات مساء ، اتذكرين ؟ كنا نعوم بسكون . ولم يكن يسمع في الابعاد ، على الماء وتحت السماء إلاَّ دويُّ الجذافين الضاربين بايقاع امواجك الموسيقية » وقول روسو في « الويز الجديدة » قبل سنوات : « كنا صامتين صمتاً عميقاً ، وكان دويّ المجاذيف ذات الايقاع المتوازن يهيج في قلبي الشوق الى الاحلام » او قول شاتو بريان في اتالا : « كانت اتالا تنشد فلا يقاطع شكاياتها الاَّ دوي زورقنا على الماء ؟ »

او بين قول أبي نواس :

تضحكين لاهية والمحب ينتحب

وقول ابن زيدون :

تضحك في الحب وأبكي انا الله فيما بيننا حاكم

او بين قول ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم ماء وظلٌّ وانهارٌ وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت،هذي كنت أختار

وقول شوقي :

خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت الى فيحاء وارفة فيها الندى وبها ظلٌّ وريحان

او بين قول ابن زيدون :

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذاك من عار
أكلٌ شهيٌّ أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنهُ للفار

وقول ذلك الشاعر الفرنسي في قصيدته « الى امرأة » :

S'il reste encore du vin les laquais le boiront.

وقد نقل الاستاذ بشارة الخوري هذه القصيدة الى العربية ومنها :

وليمةٌ كانت لنا عندما أفرغت كأسي لا كما تزعمينْ
ففضلة الكأس التي عفتها تركتها للخدم الساقطينْ

إنهُ لمن الخرق الفاضح بل من الظلم أن نعمد باسم « تطهير الادب » الى انكارنا على كاتب أو شاعر صفحة من حياته وننسبها الى من لا عهد له بها . ويؤسفني أن أقول إن مرض تسريق الادباء ما شاع في بلد كما شاع في لبنان وان هذا المرض لمن نواقص الحركة الأدبية في هذا البلد . واكبر الظن ان السبب في هذه الحملة العاثرة يرجع الى ماض كان بعض الادباء والشعراء يغيرون فيه على تركات الغير من ادباء الفرنجة فيغرفون منها ما يلزمهم أو ما يرون فيه غذاء لأدبهم ، ولم يكن الاتصال بأدب الفرنجة كما هو اليوم فكانت السرقة تخفى على الكثيرين ، وكثيراً ما كان الشاعر أو الكاتب ينقل قصيدة برمتها أو مقالاً برمته وينسبهُ الى قلمه . وكأن نقاد الشباب من القافلة التي لم تدرك الادب قبل الحرب الكبرى راحوا يميطون اللثام عن تريكة الفرنجة في آثار الأدباء اللبنانيين الذين أدركوا العهدين فأورث اسراف بعضهم أحقاداً في نفوس اولئك الاخيرين انتقلت

الى مشايعيهم بشكلٍ خادرٍ ، وسرعان ما تحوّل ردُّ الفعل في أقلام هؤلاء المغالين الى انتقام مملوك يهون لأهله البهتان ويسهل التضليل

ابن زيدون

أصدرت مطابع دمشق أخيراً درساً في الشاعر الاندلسي ﴿ابن زيدون﴾ للاديب السوري الاستاذ ﴿نهاد رفعة عناية﴾ ، حاول فيهِ الكاتب أن يثبت أن شعراء الاندلس وكتابها كانوا عرباً في تفكيرهم واحساسهم، على انهم مع ما اقتبسوا من الآداب اللاتينية عن القوط الاسبان ظلوا يأتمون بالشرق ويقلدون أدباءه في شعرهم ونثرهم . وبعد ان أورد الكاتب الادلة الكافية على ميزة ابن زيدون الغزلية وأحله المحل الاول بين شعراء الاندلس انتقل الى ميزته الوصفية فلم يجد فيها تلك القيمة التي لغزلهِ وخلص الى ان الشاعر كان يتكلف الوصف — مع ان ادباء الاندلس كانوا يلقبون ابن زيدون بـ « بحتري المغرب » . وقد فاضل الكاتب بين البحتري وابن زيدون وخلص الى ان وجه الشبه بين الشاعرين هو قوة الطبع والسلاسة والجزالة ورقة الغزل ، على ان البحتري ان كان أطبع على الشعر من ابن زيدون فهو لا يبلغ شأوه في الثقافة ولا يدانيه في شدة العاطفة

ثورة العاطفة

وأصدر الشاعر السوري ﴿الاستاذ حامد حسن﴾ مجموعة شعرية عنوانها ﴿ثورة العاطفة﴾ وأول ما يواجهك فيها احساس عنيف في تعبير يختلف جرسه باختلاف حالة الشاعر ، فاذا كان الشاعر صادقاً ماشى الجرس الحس وجاراه :

... كلما ناجيتُ طهري والتقى نفثت في مضجعي حلماً عريّا
تنعم العين به حتى غدا رغبة صارخة في مقلتيّا
ترعف الاثم ، فلو في خاطري مرّت التقوى لارداها بغيّا

واذا لم يكن صادقاً سفل الجرس مع الحس واضطرب حتى الوزن :

نصعد نفسينا أضحيتين بمذبح طهر الهوى والجمال

علي أني لم أقع في هذه المجموعة على قصيدة لا تتخللها أبيات رائعة صارخة في صدقها ، بليغة في أدائها

تعالي لنسبح في عالم ، بشتى رغائبه يزخر

بغدرانه يستحم الضياء وفوق خمائله ينشر
مراقيه من دونهن الجحيم تثور ، وفي دربه عبقر
ومهوى سحيق على جانبيه تعاصى على الوهم لا يعبر

ويقف الشاعر في مجمل قصائده موقف الخاطىء الراغب في التخلص من جحيمه ، فهو يحلم بالفردوس الهانىء وقدمه في النار

والاثم مطهرة النفوس ولا أرى ما الفرق بين الحان والمحراب
...والخمر إن خبثت على شفة امرىء طعماً فأيُّ الذنب للاكواب ؟

وقد تكون أجمل قصائد هذه المجموعة قصيدة «امرىء القيس والعذارى» ولا شك في أن الشاعر وجد في موضوع هذه الاسطورة غذاء لخياله الأحمر وألواناً لعاطفته الصاخبة . ولا أعلم على من تتلمذ هذا الشاعر الشاب إذ يبدو لي أن في شعره أثراً من شعر الغير ولكنهُ مطبوع بطابع خاص لا يحق لأحد أن يقاضيه اياه

ديوان «الامواج»

وأصدرت مطابع بيروت طبعة جديدة من ديوان « الامواج » للشاعر أحمد الصافي النجفي ، والصافي — نزيل بيروت منذ أشهر — من أصدق شعراء الجيل ، وقد يكون هو والشاعر الجواهري أشعر من في العراق وسأتكلم في الرسالة المقبلة عن النهضة القائمة في الاقطار العربية الشقيقة . ولا أعتقد أن في الشعراء من ينطبق شعره على حياته كالصافي ، فهذا الشاعر المستقيم كالاسطوانة ، المحتفظ بالعباءة والكوفية والعقال والنعل ، لا يعطيك إلاَّ شعراً مستقيماً كجسده وخلقه ، ساذجاً كنفسه وعباءته ، لا أثر عليه للزخرف والطلاء ، فهو يرسله كما يجيش في نفسه الشاعرة على ما تقتضيه السليقة والطبع فيأتي صافياً نقيًّا لا تكلف في أدائه . وربما كانت أظهر نواحي الشاعر في ديوانه « الامواج » هي ناحية الألم العميق ، والالم كان وما يزال غذاء الشعراء ، وهو على ابتذاله في نفوسهم ما يزال جديداً لأنهُ غلاف النفوس الحساسة او هو شطر منها ، والألم اله الشعراء على الارض اذا لم يجدوه في ذاتياتهم عمدوا الى البحث عنهُ في كل ما يحيط ، وقد يهتدون اليه على وجه فلاح :

في الليل يتك مثل دهري مظلم ما فيه لا شمعٌ ولا مصباحُ
بغضون وجهك للمشقة اسطر وعلى جبينك للشقا ألواح

سرٌ بؤسك فاضحٌ لذوي الغنى   لو ان سرك في البلاد يباح

وهذا البيت الاخير لا ينطبق على الفلاح فحسب بل على من ظلمته بلاهة الاقدار أو سيطرة الاغنياء ومحتكري عرق الجباه ، ولقد شاء الشاعر بيته هذا ان لا يذل الباحثين من ابناء الألم فلم يدع الفلاح يبوح ببؤسه لئلاَّ يعرضه لشماتة الاغنياء وهزئهم

قلت ان الصافي صادق في شعره فالشاعرية الصادقة ظاهرة في ديوانه ، في ألمهِ ويأسه ، وحماستهِ الساذجة ، ومجونهِ اللطيف وسخريتهِ البريئة ، ودعابتهِ الحلوة وهي ظاهرة في جميع قصائده ، وقد استثنى بعضاً منها كقصيدة « اليتيم » مثلاً ، فهذه القصيدة لم يوفق بها الشاعر لا في المعنى ولا المبنى وقد تكون « اليتيم » في عداد القصائد القليلة التي لم ينبض فيها قلب الشاعر ، في حين ان الموضوع ادنى الى نفسهِ من سواه ، فهو من أبرز موضوعات الالم وربما كان السبب في ذلك ان صاحب « الامواج » كتب قصيدة « اليتيم » عقب قراءته قصيدة «اليتيم في العيد» او « أم اليتيم للرصافي » ولو انه شهد بأم عينه يتيماً بائساً فرقّ له او توجع — كما هي عادته في كل ما ينظم — لما اعياه الشعور عن ان ينظم في اليتيم قصيدة رائعة

وكنت اربأ بالشاعر ان يدرج مثل هذه القصيدة الى جنب قصائد جميلة تموج بالرقة والموسيقى كقصيدة « الليل والنجوم » التي لا تخلو من السحر قال :

كأنَّ ساقط النجوم أرقمٌ   قد ساب في بحر الظلام وانطلقْ

او سطر نورٍ خطَّ في لوح الدجى   أو هو ميزاب من الضوء انهرقْ

او هو عفريت سما الى السما   ليدخل الخلد فخرَّ واحترقْ

أو رمح نورٍ طعن الظلام أو   نهر من النهار في الليل اندفقْ

ولقد تظنه يعمد في هذه الابيات الى الزخرفة والطلي ، على انك اذا انعمت الفكر فيها لا تجد اثراً للزخرف والتلوين بل تجد معادن لونتها الطبيعة من تلقائها

وكانت مطابع دمشق قد اصدرت مجموعة شعرية للرصافي عنوانها «أشعة ملونة» بلغ فيها الشاعر حد الابداع . ولا نزاع في ان الابداع الشعري لا يأتي الاَّ عن طريق الصدق ، ويكفي شاعراً كالصافي ان يغمس قلمه بدمه ليكون مبدعاً ، فقطرة الدم اصبحت نادرة في الشعر بحيث انك اذا نشقتها في بيت لمست فيه شيئاً جديداً ...

بيروت   الياس ابو شبكة

باب الاخبار العلمية

عجائب معرض نيويورك

لعوض جندي

وعدت قراءنا في الجزء السابق من المقتطف ، بوصف محتويات معرض نيويورك العالمي ، وهأنذا موفٍ بوعدي ، بحسب ما تتسع لقلمي صفحات هذا الجزء ، مبقياً هذا البحث المستفيض ان شاء الله للاجزاء التالية . وقد رأيت ان افتتح الوصف بمقال نشرته مجلة الميكانيكا العامة في جزئها المؤرخ أغسطس ١٩٣٨ تمهيداً لسرد تلك العجائب :

ستضم نيويورك ، كبرى مدائن أميركا ، بين جنباتها في السنة القادمة ، اكبر المعارض العالمية . ولا غرو فقد بلغت نفقات تشييده ١٥٠ مليوناً من الريالات ، أي ثلاثة أمثال ما أنفق على انشاء معرض شيكاغو المشهور ، ذلك الذي أطلق عليه اسم « معرض قرن التقدم » . هذا الى ان مساحة المعرض النيويوركي العتيد ، تكاد تعادل ثلاثة أمثالها في معرض شيكاغو السابق الذي كانت مساحته ٤٢٤ فداناً على حين ان مساحة المعرض الحالي ١٢١٦ فداناً . وقد بلغ عدد الذين زاروا المعرض الاول ٣٨٫٦٥٠٫٠٠٠ في فصلين من فصول السنة ، بينما يقدر الخبيرون ، مشاهدي المعرض الحالي بخمسين مليوناً من الانفس في خلال ستة أشهر من افتتاحه

وبيت القصيد في المعرض العتيد ، تمثيل طريقة انشاء « عالم الغد » وعند فتحه في ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ (وقد افتتح في ذلك التاريخ تماماً كما قلنا في صدر باب الاخبار العلمية في مقتطف مايو سنة ١٩٣٩) سيكون قد انقضى مائة وخمسون سنة كاملة على ذكرى تنصيب جورج واشنطون في مدينة واشنطون ، رئيساً أول لجمهورية الولايات المتحدة الاميركية . وسيكشف لنا هذا المعرض عن مصنوعات البشر الأخاذة ، فتبدو للناظرين ، كأنها زنبقة مزهرة قائمة في حمأة . ولا عجب لان الموقع الذي اختير لاقامته في جزيرة لونج آيلند وهو المسمى بمتنزه فلشنغ ميدوبارك Flushing Meadow Park كان قبلاً مستودعاً للقمامة المنبوذة من المدينة ، فشيدت أركان هذا المعرض العظيم ، على أنقاض ذلك المستودع الذميم . فأصبحت دليلاً على ما تستطيعه الآلات والوسائل والمعارف العصرية من خلق عالم جديد في المستقبل ، يبزّ بميزاته عالمنا الحاضر . وسيكون مدار حديث زواره وأبرز مشاهده الهندسية الكبرى ، كرة بيضاء ارتفاعها ٢٠٠ قدم . تلوح للرائي كأنها معلقة على عنقود من مطافر المياه « الفسقيات » مستندة الى اسطوانة مثلثة ارتفاعها ٧٠٠ قدم . وتسمى تلك الكرة الضخمة البيضاء پريسفير Perisphere وتؤلف

من ١٨ طابقاً مرتفعة عن سطح الارض . وستكون أوسع رحاباً من رباع (بلوكات) مساكن المدن . والبريسفير أعلى مباني المعرض العالمي ، من دون برجها . وتحتوي على أعجب محتويات المعرض اي مشهد العالم المقبل

وستتقاطر أفواج من الخلق لا حصر لها لمشاهدة تلك الكرة ، أثناء الليل وأطراف النهار، وذلك بسلم يتحرك داخل جدران من الزجاج وهو أطول سلم في العالم

وعلى ارتفاع خمس طبقات من ذلك السلم، ينتقل الزائرون الى ما يسمى « البساط السحري » وهو رصيف مستدير متحرك يقلُّ الركاب الى « عالم الغد » حيث يجوسون خلاله . واتساع الرصيف ١٤ قدماً ومحيطه ٤٥٠ قدماً . ويحمل ١٢٠٠ راكب فيدور بهم دوراناً وئيداً حول الكرة ، حيث تنظر الجموع الحاشدة ، من علٍ ، الى مشهد شامل بين المدن والبلدان والمصانع والضياع والحقول الممتدة الى مدى البصر ، من النواحي جميعها ، مختلطة بالسحب والأنوار المختلفة المتألقة في كبد تلك القبَّة العظمى . وهناك يشاهد الزائرون عناصر المجتمع البشري ، قاطبة ، متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، بغية النفع العام ، ويرون البواخر والقطرات وعربات نقل البضائع ، قادمة الحواضرَ والمصانعَ ، من الضياع والحقول ، مقلة الموادَّ الأولية ، وعائدة الى الريف مشحونة بشتى المصنوعات . ويسمعون صوتاً صناعيًّا يشرح خطورة تلك الحركة من جميع نواحيها ، مؤكداً الحقيقة الثابتة وهي ان كل امرىء في هذا العصر ، يتوقف بقاؤه على مجهودات أفراد كثيرين ، مبيناً وسائل تسهيل معضلات الحياة بالتعاون بين أفراد المجتمع البشري

وعند باب الخروج يعبر المشاهدون، قنطرة تصل القبة بالبرج ، ثم ينزلون من سلَّم ممتد في باطن الاسطوانة أو يهبطون ٩٠٠ قدم في سلَّم حلزوني أو منحدر ملتف حول حوض مطفرة المياه تحت الكرة . ورأس ذلك السلم الحلزوني الذي يعلو عن الأرض خمسين قدماً، أشمخ قنة في المعرض يُسمح للزائرين بالتوقل فيها ، حيث يتاح لهم الاشراف على المعرض بأجمعه . ومظهر الاضاءة الكهربائية الرائعة يجعل تلك القبة من المشاهد الليلية الرائعة، اذ تسلط عليها بطاريات قوية للنور فتلونها الواناً مختلفة ، فيخيل للرائي أنها تتألق أو كأنها فقاعة شفافة متقلبة اللون ، تدور دوراناً بطيئاً محمولة على عناقيد من مطافر المياه

وفي الحقيقة أن القبة المشار اليها ، مصوغة من دعامة فولاذية ذات مفاصل . ولها غطاء خارجي خفيف . ويربي ثقلها على تسعة ملايين من الارطال محمولة على ثمانية أعمدة متينة ، ولكن الزائرين لا يستطيعون رؤيتها (الاعمدة) لاستتارها في الزجاج . ثم ان احاطتها بالمياه التي تجذبها اليها المضخات ، يجعلها تظهر بمظهر فقاعة مرفوعة بتدفق الماء وتسمى تلك الاسطوانة الجوفاء تريلون Trylon ويبلغ ارتفاعها قدر نصف ارتفاع تمثال واشنطون ولها قاعدة مثلثة،

طول كل ضلع منها ٦٣ قدماً ، وهي تقوم مقام معلم لمشاهد المعرض ، يسترشد به زائروه اذ ترى على أميال . وهي دعامة فولاذية ذات غطاء خفيف . ومع انها لم تصنع لتكون مرصداً ففيها فراغ لتركيب المصاعد التي يصعد بها المشاهدون الى رأسها

ولا تنار التريلون ليلاً ولكن الضوء ينعكس عليها . وستكون بمنزلة مصدر للاذاعات اللاسلكية في المعرض وينبعث منها (صوت المعرض) الذي يقوم بنشر الاعلانات الخاصة بمشاهده وذلك بأسلوب جديد يمتد الى مسافة بعيدة بجهاز صوتي يعم ارجاء المعرض بأسرها

ويؤلف الماء واللهب واللون والصوت متحدة بعضها ببعض ، بنسب لا يكاد يصدقها العقل ، مشهدين ليليين يفوقان بحجمهما وفخامتهما فقط بكل ما يتصوره العقل البشري من وسائل التسلية لا غير . فيمثل اول ذينك المشهدين مطافر فاخرة للمياه وألسنة نيران هائلة ، متفقة مع الالوان والموسيقى والصوت ويمثل المشهد الآخر شلالات نياجرا ، من صنع البشر ، مقرونة بشكل بركان فيزوف

وقد اشترك في اختراع ذينك المنظرين الساحرين ، مهندسو علم السوائل وكيميائيو شركات الغاز ، وصناع الاسهم النارية وخبراء الاضاءة والموسيقيون ومهندسو مشاهد المعرض ومهندسو المعمار والمتخصصون في الالوان والمصورون وبلغت نفقات اجهزتها ٧٠٠٫٠٠٠ ريال . وبلغ من اتساع نطاقها ان قامت شركتان من شركات الغاز ، بتوريد الغاز اللازم لها من مستودعاتهما

وأحكمت السيطرة على ذينك المشهدين بحيث يتسنى الجمع بين الماء واللهب واللون والصوت . فتطلق من لوحة مركزية . كما يقوم المرء بعزف بعض النغمات الشجية على الارغن وعند ما يلمس امرؤ مفتاحاً من مفاتيحها ، تنطلق المياه حالاً من الف مطفرة من مطافر المياه فيزيد ارتفاعها على ١٥٠ قدماً . وذلك من ينابيع خفية ، وتندلع ألسنة النيران الى مثل ذلك العلو لكي تشتبك مع المياه المتدفقة فينشب بين ذينك العنصرين قتال عنيف

***

وفي خلال معمعة ذلك المشهد ، يمكن اقفال الاصمة جميعها سريعاً فيخيل للمشاهد ان خمسين طناً من الماء أضحت معلقة في الهواء . وكذلك يستطاع التحكم بمثل تلك السهولة في اللون الظاهري للماء ، وفي اللون الحقيقي للنار . وحينئذٍ تصدح أنغام كقصف الرعد من صميم ذلك المشهد الاضطرابي ويتولد احد المشاهد من بحيرة ضئيلة الغور مساحتها ٨٠٠ قدم قائمة في ارض المعرض الاصلية . وينشأ مشهد آخر من بحيرة غيرها في منطقة ملاهي المعرض

ويحتاج مشهد البحيرة الضحلة الى الف صنبور «بزبوز» والى كثير من مشعلات بنصن Bunsen الغازية التي يبلغ اتساع فوهتها ٢٤ عقدة ولتأليف تلك الاعمدة المائية ، تحشد

الصنابير ، حتى تكفي لرفع المياه ، الى ارتفاع ١٥٠ قدماً . وتؤلف دائرة من مطافر المياه لتولد حزمة ذات لون حنطي ذهبي ارتفاعها ٩٠ قدماً تحتاج الى قوة نزح مثل التي يبذلها ٦٢ رجلاً من مطفئي الحرائق

ولاجل عرض مشهد البحيرة الضحلة ، تكون الدوائر الكثيرة وأنواع الصنابير والمشعلات الغازية، ومستودعات الاسهم النارية وسائر الاجهزة مركبة على رصيف من كتل الخشب موضوع تحت سطح البحيرة . ويقوم رجلان أو ثلاثة رجال بادارة ذلك المشهد من حجرة السيطرة القائمة على رأس مبنى قريب منها. ولما يقتضيه تضخيم الانغام الموسيقية تضخيماً يجعلها تعلو على خرير المياه ، من المصاعب ، لابدَّ لاعداد ذلك المشهد ، من استخدام عشرات الموسيقات الخاصة

أما منطقة الملاهي، فتمثل جحيماً من المياه والنيران والالوان المختلفة . وتدار من سفن النقل « الصنادل » حيث تقام صنادل لقذف المياه واطلاق النار وتخصص اخرى لحمل الانوار الكشافة ومصابيح بخار الزئبق ، ومصابيح بخار الصوديوم الفياضة التي تسلط من سفوح المشاهد المبنية الى قممها، بينما تقوم صنادل اخرى باطلاق الاسهم النارية. وتقذف في الماء صنادل غيرها، تماثيل سود تمثل قوارب البندقية المعروفة بالجندولا . وهناك مناطيد مقيدة تسدد اليها الانوار الكشافة لكي تظهر عظمة ذلك المشهد ولكي توجد لدى المشاهدين مقياساً يقيسون به روعته. وأنفس مشاهد المعرض الفنّية واتقنها (الممشى العمومي) الرئيسي Central Mall الشبيه بالمتنزه الذي بلغ ما أنفق على اقامته ٦٠ مليوناً من الريالات . وطوله ميل كامل وهو شبيه بسمط ينتظم الجواهر الفريدة وهو يحد مناطق المعروضات المهمة . ويحف بذلك الممشى اكثر من عشرين مبنى من اكبر ما شيد في المعرض وكلها مزدانة بالتماثيل المنحوتة التي تمثل الابطال . ويحدق بها البحيرات الضحلة ، وتعلوها الشلالات الصناعية ومئات من مطافر المياه وتجملها ايضاً بوابات ذات ابراج ويحدها صف من الاشجار يربى عدده على الف شجرة فيزيدها رواء على رواء

ويزين احد اقسام المعرض اكبر تمثال صنعه البشر منذ نحت الفراعنة تمثال رمسيس الثاني من الصخر ، وهو تمثال عظيم لواشنطون ارتفاعه ٦٥ قدماً ، يمثله يوم تنصيبه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة. وهناك ايضاً أنصاب اخرى ضخمة ورسوم غليظة فاخرة وبارزة على الحيطان تجمل تلك المنطقة كما تجملها ساعة شمسية ارتفاعها خمسون قدماً تدل على الوقت حقيقة . ولا يرى السائر على مدى أغلب ذلك الممشى العمومي ، مصابيح كهربائية من النوع المألوف للاضاءة ، ولا مصدراً من مصادر النور المعروفة ليلاً ، بل مصابيح بخار الزئبق المستترة في الارض حيث تلقي نوراً لطيفاً على الاشجار واوراق النباتات فتجعل اكنافها السفلية ، تتألق تألقاً يأخذ بمجامع الابصار ،

وتغمر المنطقة بأسرها بشعاع مضيء يبدو لناظره كانهُ يبرز من الاشجار ومنابت الشجيرات والازهار

ولكل منطقة من مناطق المعرض ،دليل يدل على مشاهدها ، وهو ملخص نظريٌّ يبين المعروضات فيها . ففي المبنى الخاص بوسائل النقل والانتقال ، يحتوي المشهد الرئيسي على نموذج معقد لادارة ميناء لاطلاق الاسهم النارية في كبد الكواكب السيارة كما يتصورها العلماء في المستقبل ، حيث يرى الزائرون سفن المستقبل وطائراته وقطاراته قادمة بركابها المزمعين السفر الى كوكب المريخ . وحينئذ تدوي المحركات الكهربائية ، وتتلألأ مصابيح الاشارات، وتصفر الصفارات ، فيتنفس الركاب الصعداء ، اذ يحين ميعاد الارتحال فيلتقط (ونش) السفينة السهمية المعدة للرحلة ويدخلها بلطف في ثغرة المدفع السهمي فيضاء نور خاطف ساطع ويحدث انفجار خافت الصوت،ومن ثمة يلمح المشاهدون السهم الناري يشق عنان السماء

ومن اكبر مباني المعرض التي لا نظير لها ، مبنى على اسلوب عصري ، على شكل حرف السين الانكليزي « S » يبلغ طوله زهاء ربع ميل محتوٍ على اتقن معروضات السكك الحديدية ، التي لم يتم حشدها تحت سقف واحد في غير ذلك المكان في أي زمان ومنها اكبر مثال عملي للسكة الحديدية وقاطراتها وقطار ضخم ومشهد لوسائل النقل والانتقال ويشاهد الزائرون هناك ايضاً في دائرة الطب ، تمثالاً عظيماً بلغت نفقات صناعته ، مليوناً من الريالات ، وهو يمثل الانسان باطناً وظاهراً حيث يبصرون الدماء تجري في شرايين وأوردة انسان صناعي شفاف ضخم ثم يسمعون خفقان قلبه خفقاناً منتظماً وذلك حالما يدخلون ذلك المبنى . وينظرون ايضاً نماذج للعين والفم والجمجمة البشرية ، بلغ من ضخامتها ، ان تستطيع فئة من الزائرين ، الدخول فيها لكي يبصروا بأنفسهم طريقة دوران الدواليب التي تحركها . وفي كثير من الاحوال يدل رسم المبنى على كنه المعروضات التي يحويها . فشركة الغاز مثلاً ممثلة بشكل مشعلة ضخمة . والمعروضات البحرية ممثلة بمبنى ذي مدخل يشبه رصيف الميناء المواجه للمياه، وعلى جانبيه ، مقدمان شامخان لباخرتين من بواخر المحيط . وجعل مبنى الطيران على شكل طائرة ضخمة خارجة تتهادى من مستودعها . وعرض الراديو المصور في مبنى RCA المتصل مباشرة بجهاز NBC اللاقط القائم على قمة مبنى امبير ستيت ومن ابرز المعروضات (مدينة الغد) وقد انفق على تشييدها مليون ونصف مليون من الريالات حيث مثلت مصائر المجتمع الانساني من الارتقاء في رسم بناء البيوت وهندستها وما تحتاج اليه من جميع مواد البناء الحديثة ووسائل استعمالها وما يصلح لتلك البيوت من الزخارف والاجهزة والمعدات التي تتوافر بها وسائل الراحة جميعها لساكنيها فيعيشون نعيمي البال

وان شاء الله سنصف تلك المعروضات بأجمعها في الاجزاء القادمة

عوض جندي

فلق ذرة اليورانيوم

نشرنا في مقتطف ابريل الماضي فصلاً موجزاً عن فلق ذرَّة اليورانيوم باطلاق النوترونات عليها فتنطلق بانفلاقها مقادير كبيرة من الطاقة — مهما تكن طاقة النوترونات صغيرة نسبيًّا — وقد بلغ مقدار الطاقة المنطلقة من اليورانيوم على النحو المتقدم من رتبة مائة مليون ڤولط

والفضل في ذلك يعود اولاً الى العالمين الالمانيين هان وستراسمان Hahn&Strassmann من علماء معهد القيصر ولهلم للكيمياء

ومما كشفهُ الدكتور هان ان انفلاق ذرَّة اليورانيوم على النحو المتقدم لا يسفر من انطلاق طاقة كبيرة فقط بل وجدت عناصر اخرى في كسر الذرة المنفلقة عرف منها حتى الآن ستة عناصر هي الباريوم واللنثانوم والسترونتيوم والاتريوم والكسينون والكيزيوم

ذلك بأن ذرة اليورانيوم تنفلق فلقتين تكادان تكونان متساويتين وتكون احداها ذرة عنصر او نظيره والأُخرى ذرة عنصر آخر او نظيره . ولما كانت ذرة اليورانيوم لا تتقيد بقواعد معيَّنة — او مفهومة حتى الآن — من حيث نتيجة انفلاقها فلذلك ترى ان هذا الانفلاق يسفر حيناً عن وجود عنصرين معينين من هذه العناصر الستة التي كشفت حتى الآن . وحيناً آخر عن عنصرين آخرين . ولكن مجموع وزن الفلقتين يجب ان يكون ٢٣٩ منها ٢٣٨ الوزن الذري لذرَّة الاورانيوم والواحد وزن النوترون الذي سدّد الى الذرَّة فأصابها فانفلقت على اثر اصابتهِ اياها

فاذا انفلقت ذرَّة اليورانيوم فلقتين متساويتين كان الوزن الذري للعنصر — الذي تمثل كل فلقة منهما ذرَّتهُ — ١١٩ واقرب وزن ذري الى هذا الرقم هو وزن القصدير الذرّي البالغ ٧ ر ١١٨ . ولكن البحث لم يسفر حتى الآن عن وجود القصدير في نتاج انفلاق اليورانيوم. وقد كان اول عنصر ثبت وجودهُ في نتاج انفلاق ذرَّة اليورانيوم عنصر الباريوم ووزنهُ الذرّي ٩ ر ١٣٧ فالفلقة الثانية يجب ان تكون فلقة عنصرٍ وزنهُ الذري اقرب ما يكون الى المائة ولكن ظهر ان متمم الباريوم كان ذرَّة كربتون مع ان وزنه الذري ٩ر٨٢

ولا يعلم حتى الآن كيف يمكن ان تظهر ذرَّات عناصر خفيفة كالسترونتيوم والاتريوم في نتاج انفلاق اليورانيوم فالاول وزنه الذري ٨٧ والثاني ٩ر٨٨ . وقد اقترح أحدهم ان يفسر ذلك بانفلاق ذرَّة اليورانيوم ثلاثة اقسام قسمين منها ذرتا سترونتيوم مجموع وزنهما ١٧٤ والثالثة ذرة زنك ووزنها الذري ٦٥ فيكون المجموع ٢٣٩ وقد ثبت وجود السترونتيوم ولكن الزنك لم يكشف بعد

« السلفابيرادين » يمنع وفيات النومونيا
اذا عولج بهِ المصابون في اليوم الاول

اذاع الدكتور لونغ احد اساتذة المدرسة الطبية بجامعة جونز هبكنز الاميركية ان في الوسع منع معظم وفيات النومونيا اذا عولجت الاصابات بالعلاج الصحيح في اليوم الاول. والغالب انهُ من المتعذر منع جميع الوفيات لان المصابين بالنومونيا قلما يذهبون الى الطبيب في اليوم الاول من اصابتهم بل قد لا يستدعونهُ الاَّ اذا اشتد المرض عليهم

والعلاج الذي يقترحهُ الدكتور لونغ هو «السلفابيرادين» وهو شقيق «السلفانيلاميد» الذي وصفناه في صدر مقتطف مايو الماضي. وباستعماله هبطت الوفيات بالنومونيا في مستشفيات جونز هبكنز اكثر من ستين في المائة. ولم يتوفَّ بها من اول يوليو الماضي عندما بدأ استعمال هذا العقار الاَّ ثمانية مصابين. ومن هؤلاء الثمانية اعطي اربعة المصل الخاص بالنومونيا وحده. ومصاب واحد اعطي المصل والسلفابيرادين. والثلاثة الباقون اعطوا السلفابيرادين وحده. وكان عدد المصابين بالنومونيا الذين عولجوا في خلال هذه الفترة في المستشفى ١٠٧ مصابين

ويرى الدكتور لونغ ان استعمال المصل ليس لازماً اذا امكن اعطاء المصاب السلفابيرادين في اليوم الاول من اصابتهِ. وفي هذا توفير كبير لان استعمال المصل الخاص يقتضي نفقة كبيرة. ثم ان المصل الخاص بنوع معين من النومونيا ليس في المتناول دائماً حالة ان السلفابيرادين فعَّال في جميع انواعها على السواء

وقد تمكن الدكتور لونغ والدكتور مارشال من زيادة فعل السلفابيرادين باضافة الصوديوم اليهِ. وهذا مكنهما من حقن العقَّار في شريان المريض لأن بعض المصابين يعجزون عن ازدرادهِ. ثم ان الحقن يجعل الفعل اسرع من الشرب. فلا تمضي خمس دقائق على الحقن حتى يبدأ فعل العقار

ويلوح ان هذا العقار ينقذ المصابين بالنومونيا من طريق ابطائهِ لتكاثر جراثيمها وهذا يتيح للمصاب ان يستجمع قوى الدفاع عن الجسم لتقوم بمهمتها. وبعد ان يدخل العقَّار الجسم تهبط الحرارة ولكن المصاب يظل في حكم المصاب بالنومونيا حتى تتمكن قوى الدفاع عن الجسم من التغلب على الجراثيم

« السلفابيرادين » والسل

تقدم معنا تأثير «السلفابيرادين» في علاج المصابين بالنومونيا. وبعد ما ثبت ذلك عني طبيبان من أطباء معهد مايو الاميركي وهما الدكتور فلدمان والدكتور هنشو ببحث تأثير

هذا العقّار العجيب في السل . فأخذا جماعة من الخنازير الهندية ، وهي شديدة التعرض للاصابة بالسل البشري وحصّناها ضد جراثيم السل بهذا العقار ، فحقناها بجرعات كبيرة منهُ بضعة أيام قبل حقنها بجراثيم سل فاتكة ومضيا في حقنها بالعقّار مرتين كل يوم في خلال مدة التجربة

***

كانت الحيوانات التي عولجت بالسلفا بيرادين اثني عشر خنزيراً هنديًّا . وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على حقنها بجراثيم السل ثبت ان ستة منها لم تصب بأعراض السل لا في الكبد ولا في الطحال ولا في الرئتين . وظهرت اعراض سلٍّ لاريب فيها في هذه الاعضاء في أحد الخنازير اما البقية فقد ظهرت الاعراض في الطحال فقط . وقد ظهرت أعراض السل في جميع هذه الاعضاء في اثني عشر خنزيراً آخر حقنت بنفس حقنة الجماعة الاولى اي بجراثيم سل بشري فاتكة ولكنها لم تحصن بالسلفا بيرادين

ولا يعني هذا البحث ان الطبيبين يقطعان بفائدة السلفا بيرادين في شفاءِ السل او منعهِ وانما يقولان ان بحثهما يبعث على العناية بنتائجهِ وانهما ماضيان على كل حال فيهِ

اميرت « المطاردات » البريطانية

« المطاردة » وصف طراز من الطائرات الحربية يستعمل لمقاتلة قاذفات القنابل . وأحدث ما صنع من هذه الطائرات طائرات بريطانية تدعى « سبتفير » اي « قاذفة اللهب » وهي طائرة تبلغ سرعتها على ارتفاع ١٨٥٠٠ قدم ٣٦٢ ميلاً في الساعة وتستطيع الارتفاع الى علو ١١ الف قدم بحملها الكامل في اربع دقائق وثمانية اعشار الدقيقة وسلاحها ثمانية مدافع رشاشة تستطيع ان تطلق معاً ٩٤٠٠ طلقة في الدقيقة

رئيس الاكاديمية الاميركية

انتخب الدكتور فرانك جويت رئيساً للأكادمية الاميركية . والدكتور جويت رئيس قسم المباحث العلمية في شركة التلفون والتلغراف الاميركية . ويذكر القرّاء انهُ كان احد الذين جاؤا مصر لحضور مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية في شتاء سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ واتيح لرئيس تحرير هذه المجلة الاجتماع بهِ اجتماعاً طويلاً فاز فيهِ بحديث خاص عن تقدم فنون المخاطبات السلكية واللاسلكية في اميركا

وقد نشر هذا الحديث في باب الاخبار العلمية بمقتطف مارس ١٩٣٨ ص ٣٤١ — ٣٤٤



مباحث عربية

تأليف الدكتور بشر فارس — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — ١٥٠ ص من القطع الكبير

ثمنه ١٥ قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

نقد بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

في عنقي لصديقي الشاعر الأديب البحاثة الدكتور بشر فارس ، دين آن أن أؤديه او أقضي،على الأقل،بعض الحق فيه . فقد كان أخرج في مقدمة الصيف من العام الماضي مسرحيته الرمزية «مفرق الطريق» فقرأتها وأعجبت بها ، وأشرت اليها بكلمة وجيزة،وسبقني لساني ، فقلت له اني موفيها حقها ان شاء الله بفصل أقصره عليها ، وشاء الله ألاَّ يشاء ، وصرفني عن الوفاء ان الحَر شديد،والعمل كثير ، وان الاعياء تحلل بي ، وان بي فوق هذا كسلاً طبيعيًّا . فأنا أرجيء الى الغد — ومتى لا يكون غد ؟ — كل ما يسعني ارجاؤه ، على خلاف ما علموني في المدرسة . وما أعرفني قلت إني فاعل شيئاً ، إلاَّ حالت الحوائل دون الانجاز ، وما فعلت قط الاَّ ما ظل العزم عليه مضمراً لا يتدهور به في الشدق لسان . ولا أدري كيف هذا ، ولكني أرى من حق اخواني عليَّ ان أعرفهم بقيمة ما ابذل من وعد ، ومبلغ الامل في الانجاز

والآن أخرج الصديق كتاباً جديداً سماه « مباحث عربية » . وقد أصبح من عاداته ان يلقي بالكتاب الى الناس ويرحل الى الغرب ! فكل كتاب ينشره يكون ايذاناً بسفر ، فليتنا مثله ، نكتب ونطبع ثم نذهب نركب البحر ، ونجوب البر ، ونطوف في الآفاق،فنستجم وندرس ونحصل ، ونفكر — اذن لوسعنا ان ننتج كما ينتج ، وان نطرف القراء ، في كل ربيع ، بمثل هذه العصارة المركزة ! ولكن شأنه غير شأننا — نحن للثرثرة ، وهو للعصر والتقطير . وأحسب اني لو تسنى لي ان أكون مثله لضاق صدري لطول ما ألفت السح والهطلان

ونهج الدكتور فيما يكتب هو النهج العلمي ، أو كما يقول « الاعتماد على المشاهدة دون الفرض ، والتحقيق دون التخيل ، والموضوعية دون الذاتية ، واقامة الدليل دون القناعة بالمقبولات والمسلمات ، ثم الذهاب من المركب الى البسيط ، ومن الخاص الى العام ، مع تسليط النقد النافذ — من جانبيه الخارجي والباطني — على الواقعات من حيث انها أشياء طبيعية مبذولة للحس ، لا أمثال عالية ، ولا معان منتزعة من المحسوسات مجردة في الذهن أموراً كلية

عامة ، ومع نبذ التشيع للآراء من مرتجلة وقبلية ، فلا إيثار هوى ولا تعصب لاجد على أحد ، ومع رد تلك الواقعات الى مصادرها ، من طريق الوصف المباشر او الاستشهاد بالنصوص الصريحة ، حتى لا يرسل الكلام فيضيع حظه من التثبت ، ومع التحري في البحث سعياً في الدنو من الحقيقة ، بفضل المنطق ذي العرض البين والسلك المتصل والاستدلال القويم ، والنظر الصادق على غير استكراه ولا تحكم ولا مكابرة ، ومع اثبات ما اتى بهِ العلماء العاملون من قبل بالاسناد اليهم أو الاعتراف بجهدهم خروجاً من ظنة التلصص والسطو »

وخليق بمن يقرأ هذا الوصف لمنهج الدكتور في البحث دون الكتاب ان يظن بهِ الاسراف والغلو في تصوير طريقتهِ في تناول الموضوعات ، ولكني اشهد انهُ هكذا يكتب . ولو كانت هذه مزيته المفردة في الكتابة والبحث ، لاستعذت بالله وأشحت بوجهي عما يكتب فمالي صبر على هذا . واني لعلى نقيضه في منحاه ، هو يتناول الحبات فيفحصها ، ويرتبها ، وينظم المتشابهات في سلك متصل ، وأنا لا أبالي شيئاً من هذا ولا اكترث لهُ . وانما انظر ، فالذي يروقني اقف عنده ، واستطرد منهُ الى ما يؤدي اليهِ ، ولو عفواً ، فاذا بي قد شطحت جداً . وهو يعرف ماذا يريد أن يكتب ، وأنا اغمس القلم في المداد ، وأرفع سنهُ على الرقعة ، والله المسئول أن يلهمني كلاماً أخطهُ

ومن حسن حظي ان اسلوب الدكتور هو اسلوب العالم الاديب ، فكل كلمة في موضوعها ، وكل جملة تؤدي المراد بلا زيادة او نقص ، وعبارتهُ مفصلة على قدود معانيه تفصيلاً ليس ادق منهُ ولا أحكم ، مع الوضوح واشراق الديباجة ، ولطف التخير ، وحسن التصرف ، ومع اجتراء العالم الواثق على الاستحداث حين يقصر الموجود عن حاجة التعبير

وهذا اسلوب يُضجر مَن همهم من القراءة ان يتسلوا ويتلهوا ساعة ، لانهُ يحوجهم — بشدة احكامهِ — الى كد الذهن . ولكن هؤلاء لا قيمة لهم ، ولا عبرة بهم ، ولا نفع للادب او العلم منهم ، فما كان الادب للهو وتزجية الفراغ ، وان كان يلهي ويسلي ويسر ويطرب ، ويقطع بهِ حتى العمر كله . وما لهؤلاء الفارغين يكتب الدكتور بشر ، انما يكتب لطلاب المعرفة من ادباء وعلماء ومن حقه ان نعترف لهُ انهُ يؤدي — بهذه المباحث التي ينشرها — عمل مجمعٍ كامل ، كان الله في عونهِ

***

وقد تناول الدكتور بشر في كتابه هذا مباحث شتى ، بدأها بفصل عن مسلمين عثر عليهم في فنلنده أتى فيهِ على أصولهم ، ونظام جماعتهم ، وأسلوب حياتهم ، ومنزلتهم في الجماعة الفنلندية ، ثم انتقل من هذا الى بحث آخر في « مكارم الاخلاق » غاص فيه على اصل هذا التعبير ،

ومن العسير ان يكابر المرء بخلاف فيما ساقه فانه يحشد من الشواهد والادلة ما يروع ويفحم . ولكني اخالفه في شيء واحد استطرد اليه عرضاً اثناء البحث، وذلك حيث يقول« ان الاستشهاد في اللغة بلفظ الحديث موضع نظر». وليس في هذا جديد في الحقيقة فقد قال به غير واحد من المتقدمين ، ولكني اخالفهم وأرى ان هذا القول منهم تنطع وسخافة ، لان الحديث اما ان يكون مرويًّا بلفظه كما نطق به الرسول ، فلا محل للتردد في الاستشهاد به ، واما ان يكون مرويًّا بمعناه لا بلفظه ، فهؤلاء الرواة من الصدر الاول اهل لان يستشهد في اللغة بألفاظهم . على اني ارى الوقوف عند طبقة معينة لا يجوز الاستشهاد في اللغة بما بعدها ، تحجراً وتنطعاً ، وتحكماً ، ولسنا ملزمين في هذا العصر ان ننزل على هذا الحكم الذي لا يسوغه شيء ، فان اللغة ميراث لابنائها في كل جيل ، واخليق بها ان تجمد وتفقد المرونة واللدونة والصلاح ، والوفاء بحاجات التعبير — كما حدث فعلاً — اذا سلمنا بهذا التعسف . وليس في الدنيا لغة اخرى يقول ابناؤها بعدم جواز الاستشهاد بكلام المتأخرين من ابنائها ، فان اللغات كائن حي كالانسان سواء بسواء ، فاذا الزمته حالة معينة وقضيت عليه ألاّ يعدوها ، اصابه الفساد . وليس هذا اعتراضاً على الصديق بل على المتقدمين الذين قالوا بذلك

***

وفي الكتاب فصول أخرى : في المروءة وتطور معناها ، وفي« التفرد والتماسك عند العرب ، وفي« البناء الاجتماعي عند«عرب الجاهلية »، وفي « تاريخ لفظة الشرف»، وفي بعض الاصطلاحات الموسيقية والفلسفة الخ الخ

ومطلب غير هين أن يحاول المرء تلخيص هذه المباحث لتعذر ذلك اولاً ، ولأن كل تلخيص يفسدها ويذهب بقيمتها وبجمال البحث وطريقته ، ولكني أؤكد للقراء انها مباحث لا تخيف ولا تنفر، وانهم خلقاء أن يصيبوا منها احلى من متعة القصص والروايات ، وانهم سيجدون في غضون الكلام الفاظاً وعبارات كثيرة استحدثها الدكتور لأمثالها في لغات الغرب مما ليس عندنا له لفظ او عبارة ، وهذا وحده ربح جزيل

***

ومزية اخرى للكتاب ان الدكتور لسعة اطلاعه على كنوز الادب العربي والفلسفة العربية حرص على احياء الالفاظ الفلسفية واستعمالها في معانيها ، فأضاف الى اللغة ثروة اخرى بهذا الاحياء ، واغنى اهل الكسل عن مشقة المراجعة وتعب البحث

اقولها مخلصاً — اني اهنىء صديقي العالم الاديب ابرهيم عبد القادر المازني

فؤاد الاول

الفه بالانكليزية سردار اقبال علي شاه — نقله الى العربية محمد عبد الحميد — طبع بمطبعة التاليف والترجمة والنشر صفحاته ٢٥٢ قطع المقتطف ثمنه ٢٠ قرشاً

كان ساكن الجنان الملك فؤاد الاول رجلاً ملء العين والقلب ، عرك الدهر قبل ارتقائهِ أريكة الملك جنديًّا وأميراً ، وخبر الناس عالماً ورحالة ومصلحاً اجتماعيًّا ، فأعدتهُ التجارب للحكم ، وعلمتهُ غير الزمان سياسة الخلق فسيرتهُ تجمع بين سيرة رجلٍ فذٍّ ، وفصل من تاريخ أمة عريقة وقد هبت نحو الاستقلال والنور

منذ ولادتهِ بالجيزة في سنة ١٨٦٨ ومصر تتقلب بين حوادث التاريخ ، نزل والدهُ من العرش فذهب معهُ الى أوربا حيث تلقى العلوم العامة والعسكرية ، وعاد الى مصر عندما تولى الاريكة الخديوية ابن شقيقهِ الخديو عباس الثاني ، فكان الى جانب الخديوي ثلاث سنوات متوالية استقال في نهايتها وانصرف الى خدمة بلاده بخدمة المنشآت والهيئات العلمية والعمرانية فيها.ومن بواعث المجد المقترن باسمهِ انهُ أدرك وهو لا يزال في ميعة الشباب مدى التبعة العظيمة الواقعة على امير يحبُّ ان يخدم بلادهُ ، وعظم المشقة التي يعانيها في سبيل هذه الخدمة واتساع نطاق العمل المجدي ، ومع ذلك انصرف اليهِ بما عرف فيهِ من همّة عالية ونظر ثاقب وقد أثرت عنهُ كلمة تلخص فيها هذه الناحية من حياتهِ اذ قال « ليس شيئاً ان تكون اميراً وانما كل شيء ان تكون نافعاً » . وحسبنا الاشارة في هذا الصدد الى الهيئات العلمية والعمرانية التي تنسب اليهِ الآن « كجامعة فؤاد الاول » و«مجمع فؤاد الاول» « ومعهد فؤاد الاول ... الخ للدلالة على الأثر العظيم الذي خلفهُ في هذه البلاد . ولما عرض عليهِ العرش المصري — وليس في هذا الكتاب بسط وافٍ لسبب نزول البرنس كمال الدين حسين عن قبولهِ — كانت احوال السياسة مضطربة ، وعروش الملوك غير راسخة ، ومستقبل مصر تحيط بهِ غلالة من الغموض ، وكان اعتلاء العرش تبعة لا متعة ، ولكن الامير فؤاد اقدم ثقة منهُ بأنهُ وهو على الاريكة يستطيع ان يسدي الى بلاده خدمات لا يستطيعها في ساحة العلم والعمران وحدها . فكان لهُ في منصبه السامي من خبرته السابقة وتجاريبه وحكمتهِ ما جعله العامل الفعّال في حفظ التوازن في فترة الانتقال من الثورة الى الاستقرار والتعمير ، ومن السلطنة الى المملكة الدستورية

تفاصيل هذه الحياة الحافلة بجلائل الاعمال التي طبعت مصر المستقلة بطابعها الحديث تجدها مفصلة في أبواب هذا الكتاب النفيس . ففصلاه الاولان في منزلة تمهيد لأنهما يوجزان حالة مصر عند نزول الخديو اسماعيل عن الأريكة وما تلا ذلك من الأحداث الى ان عاد الامير فؤاد الى مصر بدعوة من ابن اخيه الخديو عباس . وحياة فؤاد الاول اميراً وسلطاناً وملكاً مرتبطة بالمراحل التي قطعتها مصر في نصف القرن الماضي ، فسيرتهُ فصل كذلك من تاريخها الحديث .

تفسير ما بعد الطبيعة

لابن رشد بتحقيق الاب بويج — المطبعة الكاثوليكية بيروت — ٥٠٣ ص . القطع الكبير
Bibliotheca Arabica Scholasticorum. Tome V, 2. Beyrouth 1938

قد سبق لي ان نوّهت بجهد الاب بويج Bouyges اليسوعي يوم تكلمت على السفرين اللذين نشرهما من قبل : الاول « تهافت التهافت » ، والثاني « تلخيص كتاب المقولات » . وهذا سفر ثالث مما ألفه الفلاسفة من العرب ومما عوّل عليه المتكلمون من الفرنجة في العصور الوسطى او نقلوه الى اللاتينية

وهذا السفر موقوف على تفسير ابن رشد للمقالات الأربع الأول مما بعد الطبيعة لارسطوطاليس . والمقالات على الترتيب : المرسومة بالألف الصغرى ، ثم الألف الكبرى ، ثم حرف الباء ، ثم حرف الجيم . وسيلي هذا السفر سفران آخران فيهما باقي تفسير ابن رشد للمقالات التالية، مع المسارد والجداول والفهارس

واما نشر هذا السفر فعلى أسلوب ما سبقهُ من منشورات الأب بويج في الفلسفة الاسلامية: معارضة المخطوطات العربية بعضها ببعض ، واستشارة النصوص العبرية واللاتينية واليونانية طلباً للفصل في مشتبهات النص العربي . ثم ان الاب بويج فصل كلام ارسطو من تفسير ابن رشد في كل فقرة ، ثم رد هذا الى ذاك باستعمال علامات ورموز معينة في الهوامش ، حتى يهتدي القارىء من غير عناء الى تجاوب النصين : نص أرسطو ثم نص ابن رشد . واما الحواشي فيصيب فيها المتعقّب الروايات المختلفة للنص العربي في المخطوطات العربية وما يتصل بها احياناً في غير العربية

وهنا أصرح بأني لا أوافق الأب بويج على عدوله عن الترقيم (ظ ص ٥ من التصدير) ، وذلك لأن فصل الجمل بعضها من بعض بعلامات الوقوف يسهل القراءة ويقرب العبارة من الفهم . ثم إن الهمزات والمدات ساقطة لغير سبب واضح (ظ مثلاً ص ٤١٨)

هذا وإتماماً للفائدة عقد الناشر في آخر الكتاب جدولاً لمعارضة نص أرسطو في كتاب ابن رشد بنصه في كتابه « ما بعد الطبيعة » المنشور باللغة اليونانية على دفتين (Bekker, Didot) ، مع التنبيه على المواضع المفقودة في النص اليوناني ، المثبتة في النص العربي .

ذلك عمل جليل ومفيد يستحق التقدير والثناء (١) بشر فارس

(١) في ص ٤٢٣ ، س ٩ كلمة : « السوفسطانيين » ، والنون هنا غريبة

مسارد الشواهد

جزآن — ١٢٨ ص . القطع الكبير

Schawahid Indices — von Fischer und Braeunlich
Otto Harrassowitz, Leipzig 1938

هذا عمل له ماله من الفضل ، اذ يثبت قوافي شواهد اللغة العربية وشعرائها على ترتيب حروف المعجم . وازاء القافية والشاعر المظانّ التي فيها الشاهد

وقد وصلنا الجزآن الأولان ، وهما للقوافي من حرف الالف الى أول حرف الشين

والغرض من هذه المسارد أن يهتدي الباحث الى شاهد من الشواهد في مظنته أو في مظانه المختلفة ، وأن يظفر بما يجري حوله من الاخبار والاحاديث ثم الفوائد اللغوية ثم المصادر الخاصة بالشعر الجاهلي

أما المظان فكلها من التآليف المعتمدة ، نذكر منها : النوادر في اللغة لأبي زيد الانصاري ، والاغاني للاصفهاني ، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ، وخزانة الادب للبغدادي ، وأشعار الهذليين ، والاشتقاق لابن دريد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وجمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي ، ومعجم ما استعجم للبكري ، ودرة الغواص للحريري ، والخصائص لابن جني ، وكتاب سيبويه ، وفقه اللغة للثعالبي ، وشرح القاموس للزبيدي ، ومجمع الامثال للميداني ، وغيرها كثير وعددها فوق الستين

هذا وحسبك ان تعلم ان من قام بتدوين تلك المسارد هو المستشرق العلامة الأستاذ فيشر بمعاونة تلميذ له يدعى الاستاذ برويئلش . والمستشرق فيشر من اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في مصر ، وهو صاحب المباحث المستفيضة النفيسة في فقه اللغة العربية ، ومما يعرفهُ القارىء أنهُ يعنى الآن بإخراج معجم تاريخي للغة العربية حتى القرن الثالث للهجرة ، وهذا المعجم زبدة اشتغال المستشرق فيشر بأوضاع لغتنا زهاء خمسين سنة

وخاتمة القول أن « مسارد الشواهد » من المراجع الاولى لأخذ العربية ، ولا بد منها لمن يريد الاحاطة بشوارد اللغة ونوادرها ومقاييسها وأوضاعها ب .

الموسيقى العربية

٦١٨ ص . القطع المتوسط

La Musique Arabe, III. par Baron R. d'Erlanger. Edit. Geuthner. Paris 1938

هذا الجزء الثالث من « مجموعة الموسيقى العربية » التي تنشر في باريس ، وقد نبّه المقتطف قراءه اليها عند صدور الجزء الاول والثاني . وهذه المجموعة تنقل الى اللغة الفرنسية نفائس المؤلفات

العربية في فن الموسيقى ، تحت اشراف البارون ديرلانجيه (وقد توفي اخيراً ، ويواصل أصدقاؤه النشر). وبعد كتاب الموسيقى الكبير للفارابي، هذا كتاب الادوار ثم الرسالة الشرفية لصفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الأرموي المتوفى سنة ٦٩٣ للهجرة محبوساً بدين لم يوفه من بعدما ظفر عند المعتصم وعند آل الجويني بحظوة عظيمة

وتآليف صفي الدين في المكانة الاولى، وقد عدها اللاحقون أصلاً من أصول علم الموسيقى نظراً وعملاً، فعولوا عليها وشرحوها واقتبسوا منها ما شاؤا . وأما الفرنجة فحسب شرف الدين أن العالم الانجليزي Sir H. Porrey قال في سلمه الموسيقي : « انهُ أتم تقسيم فطن اليهِ أحد » . وهذا يصحح ما ذهب اليه بعض الفرنجة من ان الرسالة الشرفية وكتاب الأدوار انما هما كالتلخيص لكتاب الموسيقى للفارابي . فالوجه ان في كلام شرف الدين في الابعاد والمسافات بعض التعقب لهفوات سابقيه ، وان في كلامه على «الجموع» (أي ملاحقة النغمات بعضها لبعض) تفاصيل وزيادات لم يذكرها العرب السابقون ولا اهل الصناعة من اليونان. هذا فضلاً عن حديثه الطويل الفريد عن « المقامات » وأسمائها وخواصها

هذا ولكتاب الادوار تلخيصات عدة ، منها تلخيص عنوانه : شرح مولانا مباركشاه بر أدوار، المنسوب الى محمد السيد الشريف الجرجاني . وهذا التلخيص غاية في النفاسة لما فيهِ من الفوائد والاضافات الطريفة، ولا سيما لما فيهِ من بحث في فيسيولوجية الصوت مما لم يسبقه اليهِ أحد ، فضلاً عن أن الملخص صاحب رأي نافذ ونقاد ومعقب . وهذا التلخيص منشور مع نص كتاب الادوار في القسم الثاني من هذا الجزء الثالث . وأما القسم الاول فموقوف على الرسالة الشرفية مستقلة بنفسها. والترجمة كالتي سبقها من هذه المجموعة النفيسة دقة وعناية ب.

التنقيب عن الجزيرة من قديم الزمان حتى اليوم

٣٥٦ ص. القطع المتوسط

L'exploration de l'Arabie. par Kiernan --Edit· Payot Paris 1938

الف هذا الكتاب باللغة الانكليزية الاستاذ كيرنان ، ونقله الى الفرنسية الاستاذ شارل موريه . وفائدة الكتاب انه يعرض بالتفصيل لشق قلب الصحراء العربية بفضل الرحالين والعلماء والمنقبين على تعاقب الزمان . والغرض منه اظهار الجزيرة على ما تصورها هؤلاء الناس من جهة العمران والجغرافية والاقتصاد ومايتصل بها جميعاً

ومن المنقبين المذكورين في هذا الكتاب التجار وقواد الجيوش الرومانية قديماً (وعلى أقوالهم اعتمد سترابون ، وبطلميوس بعده). ثم ابن بطوطة والايطالي دي فارتيما de Varthema في العصور الوسطى . ثم القائد البرتقالي الشهير الفونسو دالبوكرك d'Albuquerque في عصر النهضة.

ثم رجال الشركة الانكليزية للهند الشرقية في القرن السابع عشر . ثم الداغاركي نيبور Niebuhr في منتصف القرن الثامن عشر . ثم الايطالي فيناتي Finati والاسباني لبليش الشهير بعلي بك العباسي في اوائل القرن التاسع عشر. ثم بُرکهاردت Burckhardt السويسري، صاحب الكتاب العلمي الحقيق بالاعجاب : « بيان عن البدو » . ومنذ ذلك العهد بدأت الرحلات العلمية المختلفة ، فكان التنقيب عن قلب الجزيرة ،عن مكة والمدينة ، عن عمان وحضرموت ثم عن الربع الخالي . ومما يذكر من اسماء النقابين هنا بعد بركهاردت : برتن Sir Richard Burton صاحب « الحج الى مكة والمدينة » باللغة الانكليزية ، وڤون ڤريدي Adolf von Wrede و Walin و Sadlier و Palgrave و Pelly و Doughty ولورنس و Philby

وهنا عجبنا لاهمال أمين الريحاني صاحب «ملوك العرب» وله ثلاثة كتب منشورة باللغة الانكليزية

ب .

عهد النبي (العربي)

١١٢ ص . القطع الكبير

Le Serment du Prophète, par J. Aubert. Edit. Geuthner. Paris 1938

يقوم هذا الكتاب على صلة المسلمين بالنصارى في العهود المختلفة للحضارة الاسلامية ، والصلة مبنية على عهد منسوب الى النبي ومكتوب بخط علي بن ابي طالب ، والصك فيما يقول المؤلف ثلاث نسخ فقط ، إحداها بين أيدي رهبان سيناء.وقد استند هؤلاء الرهبان الى ذلك العهد لسنتين خلتا لطلب المحافظة على الحقوق التي يتمتعون بها من زمن بعيد جداً (انظر صحيفة الاهرام،١٢ ديسمبر١٩٣٧)

وهذا العهد يبدو كأنهُ تصريح من جانب الرسول وثلاثين من صحابته ، يتعهدون فيهِ بأن يحموا النصارى في العالم كله وأن يراعوهم عند دفع الجزية وأن يحترموا قسيسيهم وبيعهم . وعلى هذا — كما جاء في الكتاب — ليس بين المسلمين والنصارى بغض ولم يكن المسلمون ليؤذوا النصارى.الاَّ ان الترك خرجوا على ذلك الميثاق لأسباب معلومة

هذا ، ونشرت مؤلفة الكتاب العهد باللغة العربية مصوَّراً ونقلتهُ الى الفرنسية

ب .

نشأة الصحافة اليومية المصرية وتحولها

لكمال الدين جلال — ١٧٩ ص . القطع المتوسط

Entstehung und Entwicklung der Tagespresse in Aegypten
von Kamal Eldin Galal—Berlin 1939

بهذه الرسالة نال الاستاذ كمال الدين جلال الصحافي المصري المعروف شهادة الدكتوراه من جامعة برلين . والرسالة طريفة ومفيدة ، واسلوبها علمي :

بحث المؤلف عن كيفية تكون الصحافة اليومية في مصر ، فذكر ، اول ما ذكر ، ما اتت بهِ الحملة الفرنسية من طبع صحيفتين تثبت فيها اعمال الحملة ، ثم انتقل الى عهد محمد علي باشا فتكلم على « الوقائع المصرية » وفحص عن رقيها ، ثم وقف عند عهد الخديوي اسماعيل وذكر صحف ذلك العهد ، منها : السلطنة لاسكندر شلهوب ، وحديقة الاخبار لخليل الخوري ، والجوائب لاحمد فارس الشدياق ، ووادي النيل لعبد الله ابي السعود، ونزهة الافكار لابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال ، وكوكب الشرق لسليم حموي ، والوطن لميخائيل عبد السيد . ومن الصحافيين لذلك العهد : محمد علي باشا البقلي وابراهيم الدسوقي وحسين المرصفي وسليم النقاش وحمزة فتح الله ورفاعة الطهطاوي ، وأجلهم شأناً : جمال الدين الافغاني

ثم استطرد المؤلف الى عهد توفيق والثورة العرابية ومنها الى عهد الاحتلال الانكليزي ومنهُ الى عهد الاستقلال

ويمتاز الكتاب بأنهُ ينظر في البواعث والاسباب ويبين النتائج والمسببات ، بالتحليل والتعليل والتفسير ، من الجهات الثلاث : الاقتصادية والسياسية والثقافية . وهو بذلك يدخل في فن من فنون علم الاجتماع العملي المنصرف إلى الفحص عن الذهنية من طريق الصحف أو الفحص عن تحول الصحافة من باب الانقلابات الاجتماعية

وهذا الكتاب متمم لسارد الصحافة العربية ومصادرها ومسائلها التي عني بنشرها الفيكونت فيليب دي طرازي . اذ هنا العرض وبذل المراجع ، وهناك النظر والتحليل والتعليل

ومما فات المؤلف انهُ لم يصنع لهذا الكتاب النفيس مسارد index يُدوَّن فيها أسماء الرجال من ساسة وصحافيين ، وأسماء الصحف وما اليها . والمسارد لاغنى عنها بل لا بد منها لمثل هذا الكتاب

ب .

كتاب الاغاني

الجزء العاشر — طبعة دار الكتب . القاهرة

من مفاخر الثقافة المصرية والطباعة العربية على وجه الاطلاق ما تخرجهُ دار الكتب المصرية الحين بعد الحين من نفائس الأدب العربي القديم ، وعلى رأس هذه النفائس كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، وهو الكتاب العمدة الجامع الظريف . وقد ظهر اليوم الجزء العاشر من هذا الكتاب ، وفيه أخبار دريد بن الصمة ، وابراهيم بن العباس ، ومروان بن ابي حفصة ، وابراهيم بن المهدي ، وابي النجم ، وعلية بنت المهدي ، وابي عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن محمد ، وعلي بن الجهم ، وابي دلامة ، وعبد الله بن المعتز ، وزهير ، والمرار

ويلي الأخبار تلك الفهارس (أو المسارد على قول الدكتور بشر فارس) للشعراء ورجال

السند والمغنين والأعلام والأمم والقبائل والأماكن والقوافي وأيام العرب حتى الأمثال

وعسى ان تواصل دار الكتب المصرية ، بفضل مديرها العالم الدكتور منصور فهمي بك ، جهدها في إعلاء شأن الثقافة العربية بنشر النصوص النفيسة على هذا الوجه الأتم

الرغيف — ليوسف عواد

منشورات دار المكشوف — بيروت — ٣١٥ ص من القطع المتوسط

من حسنات مجلة المكشوف البيروتية أن صاحبها الأستاذ فؤاد حبيش وأصدقاءه فطنوا إلى ضرورة التعاون على نشر الكتب والمؤلفات العربية للكتاب اللبنانيين على وجه التخصيص، وهذه رواية طويلة مما يلحق بمنشورات المكشوف . والرواية حوادثها من العهد الذي فيه دخل الترك لبنان ايام الحرب الكبرى فصالوا وفرطوا حتى غلبتهم العرب على أمرهم

هذه رواية مرسلة على الطريقة الواقعية مبنىً وأسلوباً وسرداً . ومزيتها أن حوادثها محسة وأن اشخاصها على جانب عظيم من القوة ، بحيث تؤخذ بما تقرأ . وحسب الرواية هذه المزية . وأملنا ان تواصل دار المكشوف جهدها فتخرج لنا التآليف وتبرز المؤلفين

وهل يخفى القمر — لرئيف خوري

منشورات دار المكشوف — ١٥١ ص من القطع المتوسط

هذا كتاب آخر أخرجتهُ دار المكشوف . وهو يسوق حياة عمر بن ابي ربيعة الشاعر الغزل الظريف ، في أسلوب متلطف رقيق . وطريقة السياق تتصل بالفن الابتداعي (الرومانسي)، وربما لصقت بهِ لصقاً . والمؤلف يطلب ، من طريق هذا السياق ، بواعث النشاط ويتطلع الى الأمثال العالية . والحق أن كتابه يأخذ بيدك الى عالم مطمئن النواحي فيهِ الشعر والرقة وفيهِ الشعور بالحب والمرح . غير أن اسلوب الكتاب يتجاذبهُ الإنشاء القصصي والنقدي ، فالسلك بهذا غير متصل

حياة الرافعي — لمحمد سعيد العريان

مطبعة مجلة الرسالة ، القاهرة — ٣٠٣ ص . من القطع الكبير . ثمنه ١٥ قرشاً صاغاً

ان المقتطف لتفرح بهذا الكتاب لسببين : الاول ذاتي ، والثاني موضوعي ، كما يقول كتبة هذا العصر . والسبب الأول ان الرافعي كان من أصدقاء هذه المجلة ومن المعاونين على اخراجها والملتفين حولها . والسبب الثاني ان الكتاب جليل من جهتين : اما الجهة الاولى فنشأة فن الكتابة في الادباء المبرزين باللغة العربية ، وهو فن يعرفه الفرنجة من زمن وجهلناه زماناً . واما

الجهة الثانية فهذه الطريقة القائمة على العرض والتحقيق ولمّ الاشتات واستثارة الدفائن في أسلوب عربي فصيح. ومما ندونهُ هنا أن هذا الكتاب لم يظفر بالنقد اللائق بهِ اذ اهملتهُ الصحف والمجلات المصرية الا قليلاً، وذلك لأن الرافعي كان صاحب خصومات. وهكذا ترى أن الأدب عندنا لايزال طوع حركات شخصيةٍ. غير ان مجلة « الرسالة » نشرت بعض هذا الكتاب في السنة الماضية وذهبت في النشر على نجمهِ بعضهم لما نشرت. ويؤخذ على هذا الكتاب ان صاحبه ترك فصوله على حالها ، فلم يراجعها وهو يخرجها كتاباً . اما الكتاب اتساق لا تساوق ب.

مشروع تنظيم السكان في مصر

نشرنا في الجزء الماضي من المقتطف وهذا الجزء البحث الوافي الذي وضعهُ الدكتور كليلاند مدير قسم الخدمة بالجامعة الاميركية ويسرُّنا ان نقول ان ناقلهُ الى العربية هو الاديب ابراهيم افراميدس سكرتير الدكتور كليلاند الخاص

مصر بين الاحتلال والثورة

هذا الكتاب الذي اصدره الاستاذ صلاح الدين ذهني يدل اكبر دلالة على ان ادباء الجيل الجديد لهم اتجاه خاص يعيّن نزعتهم وثقافتهم . فمن المظاهر القوية في ادبهم تجنب الاساليب الادبية القديمة التي كان يتسم بها أدباء « الصنعة » والالفاظ . والادب القديم كان ينمو في ظل المديح والهجاء او هو ادب لا يتعدى شؤون بعض الخاصة او اصحاب السلطة . اما الادب الحديث فقد خلع ذلك الرداء المصطنع وبدأ يعنى بالكثير من مظاهر الحياة يصور كل ناحية منها، بل ان هذا الأدب الجديد لا يخلو من الروح المعنوي الذي يتوّج جهود الشعراء والفنانين. وهذا الروح هو تصوير الاحساسات الدفينة التي تختلج بها قلوبهم ومشاعرهم . ورسالة الاديب في هذا الجيل قد لا تنقص شأناً عن رسالة العالم. والحاجة ليست الى ادباء يطلقون لانفسهم العنان في تصوير اخيلتهم ومؤثراتهم الذاتية بدلاً من تصوير الحقيقة الواقعة . وكما يعنى العلماء بحقائق الطبيعة فالمفروض ان يعنى الأدباء بحقائق المجتمع . هذه النظرة الجديدة الى الادب قد تلتمسها عند الادباء الذين قرأوا الأدب الغربي وتثقفوا ثقافة غربية والأساس عندهم ان المعنى له الميزة الأولى في الانتاج الأدبي وهذا المعنى يتصل بالشرح والتحليل والتقرير والدراسة القائمة على البحث العلمي . بدأ الاستاذ صلاح الدين ذهني بوضع خلاصة تحليلية عن الفترة التاريخية بين احتلال الانجليز لمصر وبين عهدها الجديد في الاستقلال . فكتب دراسة على حد قوله تتوسط بين التاريخ والادب . تناول فيها بالبحث عناصر الحياة الاجتماعية للشعب المصري على اختلاف طبقاته . ولقد اظهر في دراسته مدى ما يصل اليه المفكر اذا نزعت به ثقافته نزعة صحيحة. ولقد

اتخذ كتابين من الكتب العربية التي عمد فيها المؤلفون الى وصف طبقات الهيئة الاجتماعية. الكتاب الأول «حديث عيسى بن هشام» الذي وضعه المويلحي على النمط النقدي الخيالي. والكتاب الثاني «عودة الروح» الذي وضعهُ الاستاذ توفيق الحكيم. وهو ايضاً في النقد الاجتماعي. وكتاب «عودة الروح» فيهِ هذا التشويق والأغراء مما تلمسهُ في كتابة القصصي الفنان الذي يدفع عنك طابع السآمة والملل وينتهي بك الى شيء من الاعجاب غير قليل. وهذه الكتابة تحتاج دون شك الى جهد كبير فليس النقد الاجتماعي لشعب من الشعوب في القالب القصصي بالشيء البسيط السهل الذي يمكن تناوله بالبحث التقريري على ضوء الملابسات التاريخية والحوادث فقط بل هو يحتاج الى لغة شفافة رقيقة لتكون له لباساً مناسباً

يتميز بحث الاستاذ صلاح ذهني بالتحليل الاجتماعي—ان صحَّ هذا التعبير—وهذا التحليل يحتاج الى شيء كبير من المرونة في الوضع والشرح والمقارنات. والمقارنات في بحثه قوية يقيمها على المنطق والعقل. واما الشرح فلم يبسطهُ الكاتب كما كنا نرجو او كما كان ينبغي أن يكون. وأما وضع الصورة النقدية لعمل الكاتبين مؤلفي «حديث عيسى بن هشام وعودة الروح» فهو اصح دليل على خلود هذين الأثرين: ومما يجدر ذكره ان المؤلف ينظر الى مستقبل الحياة الاجتماعية في مصر نظرة ملؤها الثقة والأمل. واما الموضوعات التي عرض لها بالنقد فمنها: طبقات المجتمع. الحكومة والشعب. المرأة والمدنية الغربية. الاتجاهات الأدبية الجديدة. النفس المصرية. الفلاحون. الطلبة الموظفون وتيقظ القومية المصرية

انني أرى ان كتاب «مصر بين الاحتلال والاستقلال» سوف يذكر طالما عرف الأدب كتاب «حديث عيسى بن هشام» وكتاب «عودة الروح»

حليم متري

كتاب الموسيقى الشرقية والغناء العربي

تأليف قسطندي رزق — صفحاته ١٨٣ من قطع المقتطف — طبع بالمطبعة العصرية بالفجالة بمصر

أخرج الاديب قسطندي رزق الجزء الثاني من كتابه الموسيقى الشرقية والغناء العربي قدم لهُ ببحث مطول عن الموسيقى عند قدماء المصريين ثم منشئها وماهيتها مع بحوث مختلفة في تاريخ رجال هذا الفن ومن كانت لهم اليد الطولى في رفع شأنه وعلى رأسهم المغفور له الخديو اسماعيل باشا الذي احيى هذا الفن في مصر

وفي الكتاب مقالات عن الفنان المشهور عبده الحمولي كتبها شاعر الاقطار العربية خليل بك مطران حلل فيها فن عبده الحمولي وعبقريته ومحمد عثمان كما تكلم عن الغناء والحركة الوطنية وفيه مباحث اخرى بأقلام الرجال المبرزين في هذا الفن

توفيق الحكيم

دراسة بقلم الدكتور اسماعيل أحمد أدهم — صفحاتها ١١١ نشرتها مجلة الحديث بحلب

هذه دراسة تناول بها المؤلف حياة الفنان القاص توفيق الحكيم وهي دراسة مستوعبة للفن القصصي والمسرحي في الادب العربي الحديث ويرى المؤلف ان القصة والاقصوصة لم تنشأ في أدبنا الحديث من أصل عربي قديم كالمقامات والقصص الحماسية كما يظن البعض وانما نشأ فنها تحت تأثير الآداب الاوربية الحديثة وكذلك فن المسرحيات. ثم انتقل المؤلف بعد ان أورد عرضاً موجزاً لحركة النهضة الفكرية في الشرق العربي في مستهل القرن التاسع عشر الى استعراض وافٍ للمحاولات الاولى التي بدأت في كتابة القصة كمحاولات عثمان جلال ونجيب الحداد وسليم وعبدالله وسعيد البستاني ثم جميل نخله المدور وجرجي زيدان. ويرى المؤلف في قصص الاخير نزعة المؤرخ غالبة على مقومات الفن القصصي. كما تناول قصة فتاة الفيوم للدكتور يعقوب صروف واعتبرها بدء القصص الاجتماعي التهذيبي في الادب الحديث. كما تكلم عن محاولات شميّل وعن جهود فرح أنطون التي بدأت معها بذور الرومانسية في القصص والمسرحيات العربية ومضى المؤلف يتابع التطور الزمني لهذا الفن مستعرضاً في ذلك جميع الجهود والمحاولات التي بذلها رجال هذا الفن في جميع ميادين الادب العربي الحديث حتى عهدنا الحاضر. ولقد كان من الخير وقد عدَّد المؤلف جميع الآثار التي ظهرت وتناول في كثير من الاحيان البعض منها ان لا يغفل مسرحية ابراهيم المصري « نحو النور » ولا مسرحية الدكتور بشر فارس الرمزية « مفرق الطريق ». وقد انتقل المؤلف بعد ذلك الى الكلام عن توفيق الحكيم فتناول حياته تناولاً أوفى على الغاية مستخلصاً ذلك من روايته « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » انتهى منهُ الى الخلوص بأن الحياة التي يحياها الاستاذ الحكيم حياة تردد فانهُ حائر وسيظل حائراً لأن حيرته تنزل من صميم نفسه نتيجة لعدم التوازن في مشاعره وعواطفهِ، وهذه الحيرة هي التي تسبغ على فنه الطابع الشخصي

ثم تناول في الفصلين أو الكتابين الثالث والرابع من هذه الدراسة — وهما من امتع فصولها بل من أبدع الآثار النقدية بالعربية — فن الحكيم في مسرحياتهِ وقصصهِ بطريقة مستحدثة حاول فيها اقامة الأدلة على حقيقة تاريخ كل مسرحية وان جاءت متأخرة عن سابقتها مهتدياً الى ذلك بتطور الاسلوبي للكاتب

وفي الحق ان هذه الدراسة لمن أمتع الأسس التي وضعت في الادب العربي الحديث، وهي غُنم فاز بهِ هذا الادب بجانب دراسته الممتعة في خليل مطران التي ينشرها لهُ «المقتطف» وغيره

حسن كامل الصيرفي

الجزء الاول

من المجلد الخامس والتسعين

January—May 1939 ينايرالى مايو سنة ١٩٣٩



المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

انشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الرابع والتسعون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by: FUAD SARRUF

VOL. 94

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الرابع والتسعين

تدل النجمة امام الموضوع على انهُ موضوع فصل مصوَّر

ظهر في أول مايو

«مباحث عربية»

للدكتور بشر فارس

كتاب يجرى على الاسلوب الحديث في التأليف العلمي : المراجع وافية، والحواشي مستفيضة. وفيه جدول للاصطلاحات العلمية المستعملة وآخر للمخطوطات المذكورة وثالث للألفاظ الأفرنجية. وفي الكتاب ابتكار الرموز وعلامات خاصة بالتأليف العلمي

بعض مباحث الكتاب : مسلمون في فلندة — مكارم الاخلاق الاسلامية — تاريخ لفظة الشرف — اصطلاحات في الفلسفة والموسيقى — التفرد والتماسك عند العرب

(مطبعة المعارف ومكتبتها)

مؤلفات الامير شكيب ارسلان

يسألنا القراء عن مؤلفات عطوفة العلامة الامير شكيب أرسلان أين تباع ، وها نحن نسردها فيما يلي ونذكر أثمانها : —

م		م	
٨٠	حاضر العالم الاسلامي بمجلدين ضخمين	١٥	آخر بني سراج في تاريخ الاندلس
٣٠	الحلل السندسية في تاريخ واخبار الاندلس	٨	الامام الاوزاعي
١٥	السيد رشيد رضا او أخاء اربعين سنة	١٢	اناطول فرانس في مباذله
١٠	أحمد شوقي بك او اخاء اربعين سنة	٢٥	تاريخ غزوات العرب وفتوحاتهم في اوربا
١٠	ديوان الامير شكيب ارسلان	١٥	تعليقات وحواشي الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون

وهذه الاسعار غير أجرة البريد . وتطلب مؤلفات الامير الجليل من المكاتب الكبيرة في القطر المصري

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام — الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — المهاجرين — الاستاذ عمر افندي الطيبي

في شرقي الاردن — عمان — الاستاذ يعقوب عودات

في القدس الشريف ويافا وحيفا — الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد اصحاب مكتبة فلسطين العلمية

في حمص — سوريا — الخوري عيسى اسعد

في الناصرة وفلسطين — القس فريد عوده

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية

في صيدا — نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه — السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y. U. S. A.

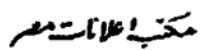
قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

	عن سنة	عن سنتين
في القطر المصري والسودان	١٠٠	١٨٠
في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»	١٢٠	٢٠٠
العراق «بريد السيارة»	١٤٠	٢٣٠
اي ٧ دولارات لاميركا الشمالية	١٤٠	٢٤٠
اي ٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الارجنتين	١٢٠	٢٠٠

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



رحلات منظمة فخمة وسريعة
الاسكندرية جنوا مارسيليا وبالعكس
على البواخر العظيمة
النيل و كوثر
مرسيليا
جنوا
الاسكندرية
مواعيد الابحار لش
يوليو من الاسكندر
كوثر — ٦ ، ٢٠
النيل — ١٣ ، ٢٧
شركة مصر للملاحة البحرية
احدى مؤسسات بنك مصر



طازة...

إن الأسماك لا تؤكل إلا إذا كانت طازجة ؛
وشركة مصر لمصايد الأسماك لا تقدم لزبائنها
غير الأسماك الطازجة — اطلبوا دائماً أجود
أنواع الأسماك من شركة مصر لمصايد الأسماك
فهي مستعدة لتوصيل الطلبات رأساً
إلى منازلكم بأسعار معتدلة

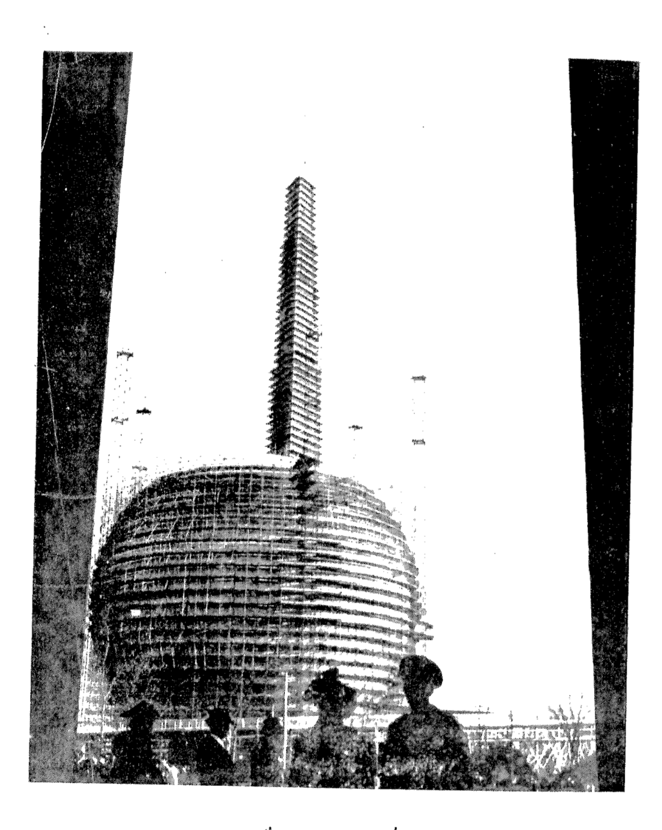
كلوا السمك
فهو أفيد الأطعمة

شركة مصر لمصايد الأسماك

إحدى مؤسسات بنك مصر

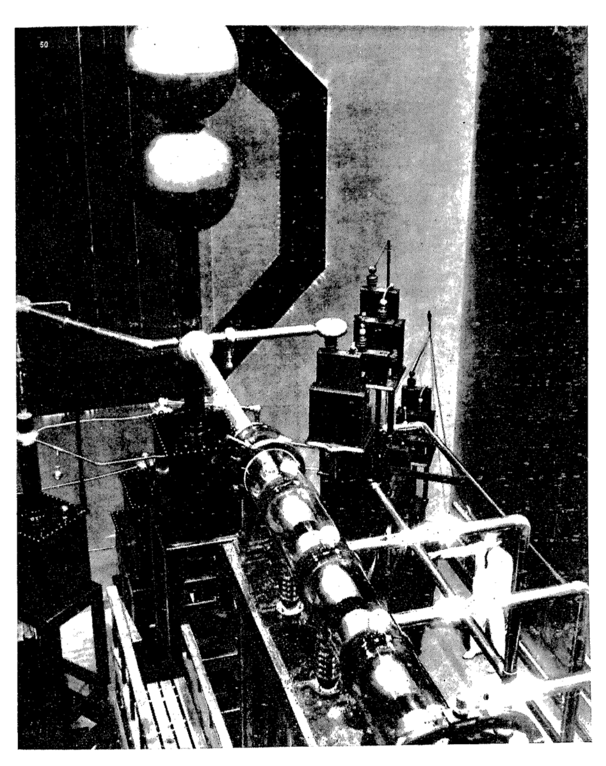


تصفيق الدم — اي اضافة دم سليم الى دم مريض — اصبح امراً مألوفاً في الطب . ولما كان الدم فئات لا يختلط بعضها ببعض بغير ان يحدث ضرر جسيم ، يجب فحص دم الباذل دمهُ ودم المريض لمعرفة فئتهما وهل يختلطان بغير ضرر . وفي هذه الصور ثلاثة مشاهد لما يعرف « ببنوك الدم » حيث يؤخذ الدم من جريح مثلاً ويمتحن ويحفظ في زجاجات ثم يستعمل حين الحاجة اليهِ بغير اللجوء الى باذل



في معرض نيويورك

صورة هيكل « الكرة » و « التريلون » قبل انجاز تشييدهما ، وقد وصفا بانهما حلم مفرغ في الصلب على نحو ما وصف « تاج محل » بأنهُ « حلم عاشق افرغ في الرخام »



في مقالة « الطبيب يستشير الطبيعي » — صدر مقتطف يونيو الماضي — اشارة الى الاجهزة
المولدة للاشعة السينية القوية التي يصح استعمالها في علاج السرطان محل اشعاعات
الراديوم وهذه الصورة تمثل احد هذه الاجهزة الضخمة

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٩ — ١٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨

« زحف الهليوم »

ظاهرة غريبة في الهليوم السائل

في صيف سنة ١٩٠٨ اذاع العالم الهولندي الاستاذ اونس Onnes انهُ فاز باسالة غاز الهليوم فكان لاذاعته شأن كبير في دوائر العلم العالمية ، وتعدتها العناية بالموضوع الى دوائر الصحف الكبيرة فنشرت جريدة التيمس بلندن مقالاً فيه ملءُ بضعة اعمدة

ولا تُفهم هذه العناية بعمل علمي محض من هذا القبيل، الاَّ اذا تذكرنا ان الباحث الانكليزي المشهور فراداي تمكن في الجانب الاول من القرن التاسع عشر ، من تحويل عنصر الكلور وهو غاز عادة ، الى سائل . وكان رأي فراداي الذي هداه الى هذا ، ان الغاز والبخار يتشابهان في كثير من خواصهما متى كانت درجة حرارة البخار أعلى كثيراً من درجة تكثفهِ وتحولهِ سائلاً . واذن فمن المعقول ان تنظر الى غاز — كالهواء او كالكلور — على انهُ بخار مرتفع الحرارة بالقياس الى حرارة تكثفه ولو كانت حرارته الفعلية لا تزيد على حرارة الحجرة التي يكون فيها . ثم ان البخار يُسال بالضغط ، أفلا يتحول الغاز سائلاً بالضغط كذلك ؟ فجرى فراداي على هذه الخطة فأسال الغازات المعروفة حينئذٍ الاَّ غازات الاكسجين والايدروجين والنتروجين وبضعة غازات اخرى

وعجز فراداي عن إسالة هذه الغازات كان لهُ شأن علمي . ذلك ان عجزه وعجز من تبعهُ عن إسالتها حملهم على وصفها بأنها «غازات دائمة» . وانقضى نصف قرن قبل ان أُسيل الاوكسجين

وعَنَا بعده النتروجين والايدروجين لاساليب العلماء . وسبب عجز فراداي عن إسالة هذه الغازات ، أنه كان يجهل ان الضغط وحده لا يكفي لاسالة الغازات ، بل يجب ان يقرن الضغط بخفض درجة الحرارة

وما أهلَّ القرن العشرون حتى كانت جميع الغازات قد أُسيلت ـ اذا استثنينا الهليوم. وعندما اخفقت جميع مساعي العلماء لاسالتهِ قيل إنها متعذرة . فأطلق عليه اسم (الغاز النبيل) تمييزاً له . فلما جاء نبأ إسالتهِ على يدي البحاثة اونس الهولندي سنة ١٩٠٨ كان الاهتمام بذلك النبأ عظيماً

الاكسجين يسيل عند الدرجة ١٨٠ مئوية تحت الصفر إذا كان الضغطُ ضغطَ الهواء العادي. ودرجة إسالة الايدروجين ٢٥٣ درجة مئوية تحت الصفر. والهليوم ٢٦٩ درجة مئوية تحت الصفر . ولكنَّ الطبيعة على ما يلوح تضع حدًّا لا يستطيع العلماء ان يتعدوهُ في درجة البرد الشديد وهذا الحدُّ يعرف بدرجة الصفر المطلق وهي ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر. فهناك ادلة وافية عند العلماء على انهُ من المتعذر ان تهبط حرارة جسم تحت درجة الصفر المطلق (اي ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر) . ومما يستوقف النظر قرب درجة اسالة الهليوم (٢٦٩ تحت الصفر) من درجة الصفر المطلق . بل ان البحث الحديث اقترب بدرجة البرد الى الصفر المطلق حتى صارت على جزء من الف جزء من الدرجة منهُ

والهليوم السائل مادة مألوفة في معامل البحث العلمي مع ان المختبرات المجهزة لصنع مقادير وافية منهُ قليلة لا تزيد على خمسة او ستة . والشأن العلمي العظيم الذي يعلقهُ العلماء بالهليوم السائل ناشئ عن تمكنهم من الهبوط بهِ الى درجة قريبة جدًّا من الصفر المطلق ، لأن المادة عند ما تبلغ هذه الدرجة من البرد تبدو عليها مظاهر تحوّل كبير في خواصها

عند ما يتحدَّث العلماء عن درجات البرد الشديد يعتمد على مقياس للحرارة والبرد غير المقياس المئوي اختصاراً وتسهيلاً . ويسندون هذا المقياس الى العلاَّمة كلفن الانكليزي ويكتفون بحرف K بعد الرقم للدلالة عليهِ . اساس هذا المقياس ان الصفر المطلق هو نقطة البدء . فالدرجة الاولى (1K او ١ ـ ك) هي درجة البرد التي فوق الصفر المطلق وهي تعدل بالمقياس المئوي ٢٧٢ تحت درجة الصفر اي درجة الجمد . فاذا اردنا ان نحوّل القول بان غاز الهليوم يسيل عند الدرجة ٢٦٩ مئوية تحت الصفر، الى مقياس كلفن، قلنا ان غاز الهليوم يسيل عند الدرجة ٤ك . واذا كانت درجة غليان الماء ١٠٠ بالمقياس المئوي فانها ٣٧٣ بمقياس كلفن لأن هذه الدرجة هي مائة درجة فوق الصفر و٢٧٣ درجة بين الصفر والصفر المطلق

على اساس هذا المقياس كل شيء ما عدا الهليوم يتجمد اذا هبطت درجة بردهِ دون الدرجة ١٤ك . الايدروجين يسيل عند الدرجة ١٤ك ويغلي عند الدرجة ٢٠ ك . والهواء السائل يتجمد عند الدرجة ٥٥ ك ويغلي عند الدرجة ٩١ ك

هذه المواد على شدّة بردها تعدُّ دافئة بالقياس الى الهليوم السائل . فهو يغلي غلياناً اذا كان الضغط عاديًّا والحرارة ٢ ر ٤ ك . فاذا أُسرع الغليان بازالة البخار المتجمع فوق سطح السائل هبطت حرارة السائل رويداً رويداً. فاذا بلغت الدرجة ١٩ ر ٢ ك رأيت السائل وقد توقف فجأة عن الغليان . أو في الحقيقة انهُ يستمرُّ في غليانهِ ولكن لايبدو عليهِ انهُ يغلي أي ان السائل نفسه يسكنُ . وهذه المشاهدة تؤيد مشاهدات اخرى مؤداها أن الدرجة ١٩ ر ٢ ك هي مرحلة انقلاب في طبيعة الهليوم من صنفٍ يدعى (هليوم ١) الى صنف آخر يدعى (هليوم ٢)

والهليوم السائل ذو خواص غريبة . فوعاء من الماء يزن رطلين لا يزن من الهليوم السائل الا خمس اواق أي ٣/٢٠ من وزن الماء . ثم ان الهليوم ٢ اشدُّ ايصالاً للحرارة من الهليوم ١ بل هو اشدُّ ايصالاً للحرارة من الفضة عشرة آلاف ضعف. وظن الباحث الروسي كاپتزا ان سبب ذلك شدّة سيولة (fluidity) الهليوم ٢ فأراد ان يمتحن الرأي وان يعيّن مدى هذه السيولة

لم تكن الاساليب المستعملة لقياس السيولة مما يصلح لقياس سيولة سائل درجة برده ٢ ك أي ٢٧١ تحت الصفر . فاستنبط لذلك طريقة خاصة . أخذ الأنبوب (ا) ولصق بطرفهِ الاسفل لوح زجاج (ب) وثقب في اللوح ثقباً مقابلاً لطرف الانبوب ، ووضع تحت اللوح (ب) لوح زجاج آخر (ت) وصنع جهازاً يمكنهُ من تغيير المسافة بين اللوح (ب) واللوح (ت) وفقاً لرغبتهِ . وكان السطحان المتواجهان في اللوحين (ب) و(ت) مستويين تماماً يوصف استواؤهما بأنهُ استواء ضوئي اي أن الضوء ينعكس من جميع اجزاء السطح انعكاساً واحداً. ثم جعل المسافة بين اللوحين ١/٢٥ من البوصة، وبعد ذلك اسقط الجهاز كلّهُ في حوض فيهِ هليوم ٢ فما لبث مستوى الهليوم السائل في الحوض حتى عادل مستواهُ داخل الانبوب

هنا بدأت التجربة . رفع الجهاز فجأة رفعاً سريعاً بحيث كان مستوى السائل داخل الانبوب اعلى منهُ في الحوض هنيهةً . وكان من المنتظر طبعاً أن يهبط المستوى داخل الانبوب بخروج السائل من الثقب حتى يستوي السطحان داخل الانبوب وخارجهُ

ولكن هذا الهبوط كان أسرع مما كان متوقعاً. وفي تجربة أخرى ألصق اللوحان (ب) و(ت) إلصاقاً دقيقاً بعد رفع الانبوب . وهذا الالصاق من شأنهِ ان يحول دون تسرب السائل من الانبوب الى الحوض . لانهُ يسدُّ ثقب الانبوب الذي في اللوح (ب) وعليهِ فمن المتوقع ان يبقى مستوى السائل داخل الانبوب أعلى منهُ خارجه

ولكن الذي وقع فعلاً كان ضد ما هو متوقع . ذلك ان مستوى السائل في الانبوب هبط فما انقضت ثوانٍ حتى تساوى السطحان في داخل الانبوب وخارجهُ . إذن نحن أمام سائل غريب يستطيع ان يتسرب بسرعة من خلال شقٍّ لا يزيد على جزء من الف جزء من كثافة

ورقة رقيقة . ليس في تاريخ علم الطبيعة سائل متصف بمثل هذه السيولة . وبعدما عمل الحساب وجد ان الهليوم ٢ أشد سيولة وانسياباً من غاز الايدروجين. أمر لا يكاد يصدَّق . فما هي الحقيقة ؟

كانت الخطوة التالية هي الخطوة الطبيعية لمن يتنبهُ لها . ذلك انهُ اذا كان الهليوم ٢ يتسرب من خلال شقٍّ ضيق جدًّا فهل يستطيع ان يتسرب من خلال المادة حيث لا يوجد شقٌّ ما ؟

هنا حوض فيهِ هليوم ٢ . سطحهُ مستوٍ شفاف . خذ كوباً ارتفاعهُ اربع بوصات وغطسهُ في السائل ، بحيث يكون قعرهُ الى تحت ، مسافة بوصةٍ واحدة ، أي ان حافتهُ العليا تبقى ثلاث بوصات فوق سطح السائل الهليومي . والمفروض في زجاج الكوب انهُ خالٍ من الشقوق والشعَب . فماذا يحدث ؟ يأخذ السائل يتجمع في قعر الكوب حتى يصبح مستواهُ داخله معادلاً لمستواه في الخارج . كيف دخل السائل الى الكوب ؟ هل نفذ من خلال بلورات الزجاج ؟ لقد اثبتت التجارب ان هذا السائل الهليومي الغريب « زحف » Creep على جدار الكوب من الخارج متسلقاً الى الحافة ثم زحف نزولاً حيث تجمع حتى بلغ مستوى السائل داخل الكوب مثلهُ خارجهُ . أي إننا أمام سائل يسيل ضدَّ اتجاه الجاذبية من تلقاء نفسهِ ، وهذا ما لم يسمع بهِ من قبل

ثم اجريت تجارب اخرى في معاهد اخرى ولا سيما في مختبر جامعة تورنتو الكندية فظهر ان سيولة الهليوم ، ليست في المنزلة التي عينها كابتزا — عندما قال انها اقل من غاز الايدروجين عشرة الآف ضعف — ولكنها مثل غاز الايدروجين . ومع ذلك فانها حملت علماء الطبيعة على مواجهة مشكلة دقيقة ما زالوا يتخبطون في ظلامها . ومن الآراء المقترحة لتفسير ذلك حسبان الهليوم ٢ متوسطاً بين الغاز والسائل . ولا يخفى ان الجزيئات في الغاز مستقلة احدها عن الآخر بوجه عام . ولا يحد من حركتها الا حرارتها وجدار الوعاء الذي يكون فيهِ ، كجدار الاسطوانة التي يوضع فيها الاكسجين مثلاً وتستعمل في اغاثة بعض المرضى . ولكن افتح صمام الاسطوانة يندفع الغاز الى الخارج . وأما الجزيئات في سائل ما فتحافظ على الابعاد بينها بوجه عام ، فكأنها مربوطة بعضها ببعض بأواصر لا تتمدد . فانك اذا فتحت زجاجة تحتوي على دواء سائل فالسائل لا يندفع الى الحجرة كما يندفع الاكسجين من الاسطوانة . اما الهليوم ٢ فهو سائل ، واذن فجزيئاته يجب ان تكون مرتبطة بعضها ببعضٍ بأواصر لا تتمدد . ولكنهُ في الوقت نفسه بلغ درجة من السيولة ان جزيئاتهِ تتصرف كأنها جزيئات غاز

هذه هي المسألة التي يواجهها علماء الطبيعة في حالة الهليوم ٢ . ما طبيعة الاواصر التي تربط بين جزيئاتهِ ؟ المفروض طبعاً انها قوة كهربائية . فهل علماء الطبيعة النظرية سالكون الطريق القويم الى فهم هذه المسألة ؟ اذا كانوا حقاً عليهِ وتمكنوا بعد البحث والامتحان من فهم هذه القوى الكهربائية وطريقة تصرفها ، كشفوا كشفاً خطير الشأن في اسرار القوة الجزيئية

اصلاح التقويم

ومزايا «التقويم العالمي» المقترح

للدكتور ستيوارت ضد (١)

استاذ علم الاجتماع بجامعة بيروت الاميركية



من المحتمل ان يطلب الى المجالس النيابية في البلدان العربية ان تقرّر هل تنوي ابرام الاتفاق الدولي الخاص بتقويم عالمي ، وهو اتفاق يحلُّ تقويماً دائماً عاميًّا محل التقاويم المتنوّعة المعتمدة الآن لقياس الزمان

ومما لاريب فيهِ ان هذا التغير المقترح في عاداتنا وطرق تفكيرنا المألوفة سيلاقي مقاومة مهما يكن الاصلاح الذي ينطوي عليهِ معقولاً. وما علينا الاّ ان تتذكر المقاييس المختلفة من بوصة وقدم وذراع ودونم وفدان وأوقية وأقة ومد وغيرها من المقاييس والموازين والمكاييل التي ما فتئت مستعملة في شتى البلدان، على الرغم من ان النظام العشري المتفوق عليها أتيح للناس منذ قرن ونصف قرن من الزمان. اننا نبتسم ابتسامة فيها مزيج من السخرية والتسامح عند ما تفكر في اعداد ونقود القبائل الافريقية القائمة على أساس الرقم ٧ . فاذا قيل لنا ان سبع موزات تعدل بطيخة وسبع بطيخات تعدل فرخاً وسبعة افراخ تساوي خنزيراً وسبعة خنازير تعادل ثوراً وسبعة ثيران تعادل زوجة وسبع زوجات تعدل جنديًّا ، ضحكنا لأنَّا نجد في هذا النظام من العد والحساب تعقيداً وحيرة ، وتزداد حيرتنا اذا سألنا سائل أو معلم أن نحسب لهُ حاصل ضرب ثلاثة جنود وثورين وخنزير بثلاث زوجات وموزة ! والواقع ان كثيراً من وحدات الطول والوزن والحجم التي نستعملها أقل انتظاماً وبساطة من هذا النظام السبعيّ المعقد.

ان المجتمع البشري نسي المقاومة الشديدة التي قوبل بها النظام العشري عند بدءِ استعمالهِ في اوربا من نحو الف سنة عند ما حملهُ العرب الى الغرب . ومن هنا نجد ان الارقام التي ندعوها بالعربية « الارقام الهندية » تعرف في اوربا « بالارقام العربية » . كان اختراع الصفر في حسبان اهل الغرب عملاً من اعمال الشيطان اذ كيف يعقل ان يدوّن رجلٌ عاقل مالك لقواهُ الذهنية

(١) المقتطف: ترجمة محاضرة بالانكليزية للدكتور ستيوارت ضد القيت في حفل من الفضلاء والعلماء في بيروت

اشارة لشيء غير موجود؟ وفرضت في مرسيليا عقوبات شديدة على كل تاجر يكشف متلبساً بجريمة استعمال الارقام العشرية بدلاً من عمل حساب ربحهِ وخسارتهِ « بالحروف الرومانية الواضحة ». وكل من يحاول ان يضرب الآن XLVIII (اي ٤٨ بالحروف الرومانية) في MMCCCIX (أي ٢٣٠٩) يعلم مبلغ ماكان يتنازع اولئك التجار المساكين من رغبة في استعمال الارقام الجديدة المسهلة للحساب، واطاعة الاوامر الرجعية الصادرة من السلطات!

ولعلَّنا نظن ان تاقي هذا العصر اقبل لطرق التفكير الجديدة من اسلافنا قبل الف سنة. فهل نحن كذلك حقًّا؟ ولتبيان ترددنا في الاقبال على الطرق والاساليب الجديدة نكتفي بان نشير الى النظام الاثني عشري في العدد فهو يفوق النظام العشري. ولنفرض ان ارقامنا اثنا عشر رقماً

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ △ □ ١٠

١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ١△ ١□ ٢٠

فالمثلث △ يعني ١٠ والمربع □ يعني ١١ والرقم ١٠ في الترقيم الجديد يعني ١٢ واذن فالرقم ١١ الجديد هو ١٣ القديم و١٢ الجديد هو ١٤ القديم و٢٠ الجديد هو ٢٤ القديم. (ولو وضعت رموز جديدة للارقام في هذا الترقيم لكان ذلك اسهل على الاستعمال لانهُ لا يقع اختلاط في الذهن بين الترقيم الجديد ومعنى الارقام القديمة). بهذا الترقيم الاثني عشري يمكن التعبير عن الكسور كالثلث والربع والسدس برقم واحد. فالثلث في تعبيرنا العشري هو ٣٣٣٣٣٣، فيصبح ٤، (اي ٤ من ١٢) والثلثان ٦٦٦٦٦٦، يعبَّر عنهما بـ ٨ر (اي ٨ من ١٢) والربع ٢٥ ر يصبح ٣ر (اي ٣ من ١٢) وبذلك يتسهَّل ويتيسَّر كثير من الجداول والاعمال الحسابية (١)

ولكن اذا اقترح علينا استعمال هذا النظام الاثني عشري، قلنا على الفور انهُ معقَّد وصعب ويشوش علينا الذهن والفكر، والواقع انهُ ابسط من النظام العشري، ولكنهُ يبدو صعباً لأننا نشأنا على استعمال نظام آخر للعد والحساب فألفناهُ. ولو ان الاسرة الفرنسية التي امتاز ابناؤها بست اباهم في كل قدم وست اصابع في كل كف، ظهرت في زمن قديم في تطور الجنس البشري وغدت الاباهم الست والاصابع الست الصفة الغالبة على الناس، لكان استعمال النظام الاثني عشري في العد غالباً على النظام العشري، لان استعمال النظام العشري يرجع على الاكثر الى عادة العد على اصابع اليدين. ولا تزال الكلمة الانكليزية الدالة على الرقم الواحد وهي digit تعني « اصبعاً » كذلك

(١) ومما هو جدير بالذكر ان البابليين القدماء والصينيين وغيرهم كانوا يتخذون الرقم ٦٠ اساساً وهو يجمع بين النظامين العشري والاثني عشري الى حد ما، ولكنه كثير التعقيد، فكان الطالب مضطراً ان يتعلم جدول الضرب من ١ × ٢ الى ٦٠ في ٦٠ بدلا من تعلمه الى مرتبة ١٢ × ١٢ فقط. ومع ذلك فنظام الستين لا يزال مستمراً في دقائقنا وثوانينا

ولا ريب في ان النظام العشري راسخ الاصل في اجتماعنا الحالي، وعلى المصلح ان يحكم قبل الاقدام على اصلاحه، هل النظام المقترح يفوق النظام القائم كثيراً بحيث يجوز ان تتكبد الجماعة في سبيله التعب والاختلاط اللذين ينشآن عن التغيير؟ ومن المحتمل ان مدى تفوق النظام الاثني عشري على النظام العشري لا يسوّغ الجهد والمال اللذين لا بدَّ من بذلهما لاعادة طبع كل ما يحتوي أرقاماً وتعليم الناس قراءة الارقام الجديدة وفهمها

هذا المبدأ، مبدأ الموازنة بين الفائدة المرجوة من اصلاح ما، والبذل المعنوي والمادي اللازم للفوز بتحقيق هذا الاصلاح، يتجلى خاصة في دراسة «اصلاح التقويم» لأن كلَّ نظام مقترح من نظم التوقيت لا بدَّ ان يلقى صعاباً سببها ان وحدات التوقيت هي الفترات بين الحوادث الفلكية التي تعين اليوم والشهر والسنة، وهذه الوحدات ليس بعضها اضعاف بعض. ولذلك من المتعذر ان نستعمل نظاماً عشريًّا أساساً للتقويم. فلنلق نظرة على وحدات التوقيت واحدة واحدة

وحدة التوقيت الأساسية هي اليوم الكامل — نهار وليل — الناشىء عن دورة كاملة للارض حول محورها. هذه الفترة قسمت تحكماً الى اربع وعشرين ساعة كل منها ستون دقيقة وكل دقيقة ستون ثانية (لاحظ اثر النظام الاثني عشري هنا). وفي الوسع ان تقسم النهار الى عشر ساعات وكل ساعة الى عشرة اقسام أخرى (فيكون عشر الساعة معادلاً لـ ١٤٫٤ الدقيقة من دقائقنا) وكل عشر ساعة الى عشر دقائق (فتكون كل دقيقة جديدة معادلة لـ ١٫٤٤ من دقائقنا الآن، ثم تقسم كل دقيقة (من الدقائق الجديدة) الى عشرة اقسام كلٌّ منها عشر ثوانٍ (وتكون كل ثانية بحسب النظام الجديد معادلة لخمسة اسداس ثانيتنا الآن)

عندئذٍ تكون الثانية جزءاً من مائة الف جزء من اليوم ($\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$) اي أن اليوم الكامل من الظهر الى الظهر يحتوي على الف دقيقة في كلٍّ منها مائة ثانية

وفي الوسع ان نشتق حينئذٍ وحدات صغيرة للتوقيت منها وحدة تكون جزءاً من الف جزء من الدقيقة (اي جزء من مليون جزء من اليوم) فتستعمل في توقيت العدائين والجياد في حلبات السباق وكذلك في قياس سرعة التصوير بالمصوّرة الضوئية. هذه الوحدة تعادل فترةً من الزمن اقلَّ قليلاً من عشر الثانية التي تدوَّن في ساعات السباق الآن

ولكن النظام المتبع الآن في تقسيم اليوم وافٍ بالغرض وليس ثمة ما يدعو الى تعديله او تبديله

ولكن أضعاف اليوم سبب ضيق وانزعاج. فنحن امام فترتين فلكيتين، لا موافقة بينهما ولا موافقة بين احداهما من ناحية وبين اليوم من ناحية أخرى. الاولى هي الشهر القمري يحدّده دوران القمر دورة كاملة حول الارض وهي تستغرق ٢٩،٥ اليوم تقريباً. والثانية

السنة الشمسية يحدّدها دوران الارض دورة كاملة حول الشمس وهي تستغرق ٣٦٥٫٢٤٢٢ اليوم . ولا يخفى ان « سنة » كل سيار من السيارات الاخرى تختلف من عطارد الذي يدور حول الشمس في نحو ٨٨ يوماً من ايامنا الى نبتون الذي يدور حول الشمس في نحو ١٦٤ سنة من سنينا

أخذ الناس اولاً بالشهر القمري لأن زيادتهُ واكتمالهُ ونقصانهُ مما تسهل مشاهدتهُ ولما بدا من أثره في المدّ والجزر والحيض والزراعة . ولكن مجموع ايام اثني عشر شهراً قريباً تنقص ١١ ½ اليوم عن السنة الشمسية ، واذن فالتقويم القمري يتراجع عن التقويم الشمسي . وشهر رمضان الكريم يدور على مرّ السنين متنقلاً بين الشهور الشمسية من الصيف الى الربيع الى الشتاء الى الخريف ثم يعود في الصيف وذلك في خلال فترة طولها ٣٢ سنة ونصف سنة . اما الشهور الشمسية فتقع في نفس المكان كلّ سنة ، فدسمبر ويناير في فصل الشتاء وابريل ومايو في الربيع وهكذا ودورة البرد والحرّ ، والزرع والحصاد ، جعلت السنة الشمسية أهم وحدة من وحدات التوقيت التي تزيد على اليوم . ولكن لكي تنتظم وحدة الايام في السنة الشمسية يجب ان تجعل السنة ٣٦٥ يوماً وان يضاف يوم الى السنة كل سنة رابعة (وهي التي تعرف بالسنة الكبيس) وان يدخل عليها تصحيحات أخرى سنشير اليها عند البحث في التقويم الجريجوري «والتقويم العالمي» المقترح

وكأن مشقة تنظيم اليوم والشهر والسنة في التقويم لا تكفي ، فيجب ان يعمل حساب كذلك للاسبوع . ويلوح ان سبعة أيام الاسبوع أقرت أولاً في مصر القديمة عند ما كانت السيارات المعروفة حينئذٍ سبعة سيارات . ثم أخذت بهِ اليهودية والمسيحية والاسلام وغدا أساساً لتقسيم أيام العمل في السنة فستة ايام للعمل واليوم السابع للراحة . وقد جرّبت روسيا تجربة جعل الاسبوع ستة أيام ومما حملها على ذلك باعث ديني وهو قصدها ان تتدخل في عبادة يوم الاحد وايام الاعياد الدينية لان السوفييت يعتقدون أنها خرافات ويجب ان تلغى. والتقويم متصل عادة أوثق الصلة بالشعائر الدينية والمعتقدات ، ولذلك كان تغيير التقويم غير مرة في الماضي لاحداث تبديل في المؤثرات الدينية. واسماء الايام تدل على علاقات دينية فيوم الاحد بالانكليزية صندي Sunday كان يوم « اله الشمس » والاثنين مندي Monday يوم إله القمر وهكذا

وقد جرّبوا كذلك ان يحذفوا من سجل الايام يوم الراحة الاسبوعية. ففي اثناء الحرب الكبرى مثلاً جربوا هذا النظام رغبة في زيادة الانتاج في مصانع الذخيرة . ولكن العمل سبعة ايام متوالية افضى الى اعياء كان من شأنهِ ان انقص الانتاج الاسبوعي . ذلك بأن الناس ينتجون في بضع ساعات من العمل تتخللها فترات من الراحة اكبر مما ينتجون في عدد اكبر من الساعات بغير ان

تتخللها الراحة . وهذا يعني ان الاسبوع ، وهو فترة زمنية غير مبنية على حوادث فلكية، اصبح راسخ الاصل في حضارتنا الحديثة . واذن يجب ان نبحث عن اسلوب يمكننا من ان تنظم الاسبوع في سلك التقويم مع الشهور والسنين ، على الرغم من انهُ لا يقسم ايام الشهر القمري (هي ٥ ر ٢٩) ولا ايام السنة الشمسية (٢٤٢٢ ر ٣٦٥) قسمة صحيحة

***

ابتدعت تقاويم كثيرة لحلّ هذه المشكلات . فالتقويم الجريجوري المتبع على الغالب في العالم الآن، يرتد في اصله الى التقويم المصري الذي صنع من نحو ستة آلاف سنة. وقد نقحهُ يوليوس قيصر في سنة ٤٦ ق . م . وعرف التقويم بالنسبة اليهِ اي « اليولياني » . وبهِ قسمت السنة الشمسية الى اثني عشر شهراً قوام كل منها ٣٠ يوماً او ٣١ يوماً الا شهر فبراير فكان عدد ايامه ٢٩ يوماً في كل سنة عادية و٣٠ يوماً في كل سنة كبيس . وتلاهُ اغسطس فأثار حسده ان شهر يوليو سمّي كذلك نسبة الى يوليوس قيصر وان ايامه تزيد يوماً واحداً عن ايام شهر اغسطس المسمَّى نسبة اليهِ ، فأمر باضافة يوم الى شهر اغسطس ، فأخذ من شهر فبراير المسكين. وكذلك غدت شهورنا تتفاوت اياماً بين ٢٨ و٢٩ (لفبراير) و٣٠ و ٣١ لسائر الاشهر

والواقع ان السنة اليوليانية المؤلفة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم اطول من السنة الشمسية الصحيحة باحدى عشرة دقيقة وثماني واربعين ثانية. ومجموع هذه الفروق يبلغ يوماً كاملاً في ١٢٨ سنة. فلما نظر البابا جريجوريوس الثالث عشر في الموضوع في سنة ١٥٨٢ ق.م . تبين ان التقويم اليولياني سبق السنة الشمسية بعشرة ايام فصحح التقويم اليولياني بجعل ٥ اكتوبر يوم ١٥ اكتوبر من تلك السنة. ومن هنا منشأ التقويم الجريجوري المعتمد الآن. وقد اغضب عمل البابا هذا بعض الناس لزعمهم ان حياتهم قصرت عشرة ايام نتيجة لفعله . وحدث شغب في لندن وجعل الناس يصيحون مطالبين برد الايام العشرة المسروقة من حياتهم

ولم يكتف البابا بتصحيح الفرق المجتمع بين التقويم اليولياني والسنة الشمسية الصحيحة كما تقاس بين الاعتدالين ، بل وضع قاعدة تحول دون تجمع هذا الخطأ مرة اخرى فقضى بأن يحذف يوم السنة الكبيس في السنة الاولى من كل قرن على ان يضاف في كل قرن رابع

فسنة ١٩٠٠ سنة كبيس بحكم القاعدة المعروفة وهي قسمتها على ٤ ولكن شهر فبراير في تلك السنة كان ٢٨ يوماً فقط تنفيذاً للقاعدة التي وضعها البابا جريجوريوس ولكن في السنة ٢٠٠٠ يكون فبراير ٢٩ يوماً لان السنة ٢٠٠٠ تقسم على ٤٠٠ اي ان كل قرن رابع تكون سنتهُ الاولى سنة كبيس

هذا الاصلاح جعل سنة التقويم على ٢٦ ثانية فقط من طول السنة الشمسية الحقيقي ، وهذه الثواني تتجمع فلا تبلغ مدى يوم واحد الاَّ في ٤٠٠٠سنةويمكن اصلاح هذا الخطإ بحذف يوم سنة الكبيس في السنة ٤٠٠٠ ب.م. والسنة ٨٠٠٠ ب . م . والسنة ١٢٠٠٠ ب . م . الخ وبذلك يكون تقويمنا صحيحاً الى مدى مليون سنة—وماذا يهمنا الآن بعد ذلك . فالقاعدة اذاً في اصلاح الخطاء المتجمع ، من الفرق بين طول السنة الشمسية وسنة التقويم هي إضافة يوم كل اربع سنوات ، ثم حذفهُ مرة كل ١٠٠ سنةثم اضافتهُ ثانيةمرة كل ٤٠٠ سنة ثم حذفهُ مرة كل ٤٠٠٠ سنة

ولا تزال كنيسة الروم الارثوذكس تأخذ بالتقويم اليولياني ، وقد بلغ مبلغ الخطاءِ فيهِ الآن ١٣ يوماً وهذايفسر الفرق بين يوم الاحتفال بعيد الميلاد في الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية

والتمثيل على خصائص هذا الشذوذ في التقويم يروى عن طفل ولد في يوم ٢٩ فبراير سنة ١٨٩٦ (وكانت بحكم الطبع سنة كبيس) ولذلك كان من المتعذر عليهِ او على اهله الاحتفال بعيد ميلادهِ الاَّ مرة كل اربع سنوات . ولكن سنة ١٩٠٠ لم تكن سنة كبيس وفقاً لقاعدة البابا جريجوريوس فاضطرَّ ان ينتظر ثماني سنوات اي الى سنة ١٩٠٤ للاحتفال الاول بعيد ميلاده فلما قرب ذلك اليوم ، كان مع اهلهِ المسافرين عبر المحيط الهادىء ، وفي اجتياز هذا المحيط من الشرق الى الغرب يحذف يوم كامل عند تخطي خط معين . ولسوء حظ الفتى اجتازت السفينة ذلك الخط في يوم كان يجب ان يكون ٢٩ فبراير فحذف من حياتهِ . فانتظر حتى سنة ١٩٠٨ عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة لكي يحتفل اول احتفال بعيد ميلاده . ولكن في تلك السنة ، وذلك الشهر كان اهلهُ يجتازون روسيا وروسيا ماتزال تأخذ بالتقويم اليولياني ، والمانيا جارتها بالتقويم الجريجوري ، والفرق بين التقويمين ١٣ يوماً فسبق يوم ميلاده في روسيا وتأخر عنهُ وهو في المانيا ، وكذلك انتظر حتى بلغ السادسة عشرة قبل ان احتفل اول احتفال بعيد ميلاده

***

وعيد الفصح المسيحي مثل آخر على عدم الاستقرار في حوادث التقويم . فقد وضعت لهُ قواعد رياضية معقدة لكي يقع دائماً في يوم احد (في الدورة الاسبوعية) بعد اول بدر (في الدورة القمرية) بعد الاعتدال الربيعي في ٢١ مارس (الدورة الشمسية) ولما كانت هذه الدورات الزمنية غير متوافقة فميعاد عيد الفصح يختلف باختلاف السنين من ٢٢ مارس الى ٢٥ ابريل

وقد تمكن التقويم الجريجوري ، بالقاعدة التي تقدم ذكرها ، من الموافقة بين الايام والسنين الشمسية ، ولكنه لم يوافق بين الاشهر والاسابيع . فالشهور تختلف طولاً في السنة الواحدة . وأيام العمل في شهر ما يختلف عددها في سنة ما ، عن ايام العمل في نفس الشهر في

سنة اخرى لأن الشهر في سنة ما قد يحتوي على خمسة آحاد ولا يحتوي في اخرى تالية الاَّ على اربعة

وكذلك يتعذر على الهيئات الحكومية والتجارية ان توازن موازنة دقيقة بين الشهور لأنها تختلف طولاً. وارتقاء العلم والحضارة يقتضي منا امعاناً في الدقة في قياس الفترات الزمنية شأنها في قياس غير الفترات الزمنية من الظاهرات. ثم ان التقويم يختلف كل سنة من حيث وقوع الايام. فأيام الشهر لا تقع في نفس ايام الاسبوع في سنوات متعاقبة. وأيام الاعياد التي تعين بتاريخ الشهر لا تقع في نفس اليوم من الاسبوع في سنتين متعاقبتين. ولذلك نحتاج الى تقويم جديد لكل سنة. وإعداد المعدات للمستقبل يقتضي مراجعة التقويم الخاص بالسنة التي انت فيها، لمعرفة اي يوم من ايام الاسبوع يوافق تاريخاً معيناً من تواريخ شهر معيَّن. وكثير من الناس يودُّ ان يعرف هل يوم عيدٍ معيَّن يقع قبل عطلة آخر الاسبوع مباشرة او هو واقع في منتصف الاسبوع

فالحاجة اذاً ماسة الى تقويم متزن منتظم دائم لا يتغيَّر من سنة الى اخرى

***

وقد اقترحت مقترحات متعددة لتحقيق هذا الغرض منها جعل شهور السنة عشرة شهور احدها ٣٦ يوماً فيليه آخر ايامهُ ٣٧ يوماً فثالث ايامه ٣٦ يوماً وهكذا. ولكن هذا التقسيم لا يتفق والدورة الاسبوعية اي دورة سبعة ايام في الاسبوع واذا جعل الاسبوع عشرة ايام، واسابيع الشهر ثلاثة، وشهور السنة اثني عشر، كان لنا تقسيم منتظم ولكنهُ يترك خمسة ايام لا ندري ما نفعل بها في السنين العادية. واقترح كذلك ان تكون السنة ١٣ شهراً كلٌّ منها ٢٨ يوماً فيكون قوام الشهر اربعة اسابيع كلٌّ منها سبعة ايام. ولهذا الرأي انصار لأنهُ ينظم الاسبوع في التقويم على وجهٍ مقبول. أي إن ايام الاسبوع تكون دائماً هي هي من حيث موقعها في ايام الشهر. وهذا الاقتراح ينظم ٣٦٤ يوماً في التقويم (لان ١٣ × ٢٨ = ٣٦٤) فيبقى لدينا يوم واحد من ايام السنة العادية وهي ٣٦٥

ولكن الثلاثة عشر شهراً لا تسهل قسمتها الى نصفين، وأربعة أرباع

وجميع هذه المقترحات تقتضي بذلاً ذهنيًّا كبيراً من الناس ومشقةً لانها تخالف العادات المرعية وأساليب التفكير الراسخة

الاَّ ان التقويم الذي يحقق لنا الانتظام الدائم مقترناً بأقل قدر من الخروج على العادات القائمة هو «التقويم العالمي» المقترح الآن

هذا التقويم يحتفظ باثني عشر شهراً في السنة مقسمة اربعة ارباع كل ربع منها ثلاثة أشهر والشهر الاول في كل ربع تكون ايامهُ ٣١ يوماً والشهران الباقيان تكون ايام كلٍّ منهما ٣٠ يوماً

واذن فأيام كل ربع تكون ٩١ يوماً ، او ١٣ أسبوعاً تماماً . فاذا أخذ بهذا التقويم في سنة يقع فيها أول ينايرٍ في يوم أحدٍ كان كل شهر من الشهور الاربعة التي أيامها ٣١ يوماً منطوياً على خمسة آحاد ، وكل من الاشهر الباقية على اربعة آحاد

وهذا يعني ان كلَّ شهر من الشهور الاثني عشر يحوي ٢٦ يوم عمل تماماً، وبذلك تصبح الموازنة بين الاعمال والحسابات في اشهر متقابلة من سنوات مختلفة امراً سهلاً ، ولكن مجموع أيام الشهور ٣٦٤ يوماً ولذلك اقترح ان يكون اليوم الباقي عيداً يدعى « يوم السنة » ويقع بين يوم السبت ٣٠ دسمبر ويوم الاحد أول ينايرٍ ، وهو ليس يوماً من ايام الاسبوع فلا يدعى باسم معيَّن ولذلك يشار اليه بانهُ يوم ٣١ دسمبر. ثم عندنا يوم إضافي آخر كل سنة رابعة —وهو يوم السنة الكبيس — يضاف على نسق يوم السنة بين سبت ٣٠ يونيو واحد اول يوليو ويجعل عطلة ويعرف « باليوم الكبيس »

***

بهذا الاختراع البديع ، اختراع زجِّ « يوم السنة » بين ٣٠ دسمبر وأول ينايرٍ يصبح التقويم دائماً . فاذا اخذنا بهذا التقويم كان من اثره وقوع تاريخ كل يوم من ايام الشهر في أيام معيَّنة من الاسبوع دون غيرها سنة بعد أخرى الى ماشاء الله . اي اذا كان يوم الأحد هو أول يونيو فسيقع أول يونيو من كل سنة في يوم الاحد

هذا التقويم ينظم ايام الشهور بين ٣١ و٣٠ يوماً وهو اقرب تقريبٍ الى ايام الشهر القمري وهي ٢٩ يوماً ونصف ثم انهُ متفق مع عادة الجري على التقسيم الاسبوعي وجعل الاسبوع سبعة ايام ، وجعل ربع السنة ١٣ اسبوعاً وعدد اسابيع السنة ٥٢ اسبوعاً

وهذا التقويم اقل التقاويم المقترحة هدماً للعرف والتقاليد التي جرينا عليها .فالتغيير في عدد ايام الشهور يسير ، فهو يجعل شهر فبراير ٣٠ يوماً بانتظام ، ويجعل ايام الاشهر ٣٠ أو ٣١ يوماً وفقاً لقاعدة سهلة ويمتنع عن دعوة (يوم السنة) ٣١ دسمبر لعدم دخولهِ في التقويم ، وعن دعوة (اليوم الكبيس) ٣١ يونيو من كل سنة رابعة باي اسم من اسماء ايام الاسبوع

التقسيم بحسب التقويم العالمي

الربع الاول	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الثاني	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الثالث	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الرابع	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
			٣٦٤	يوماً	٥٢ اسبوعاً

ويضاف يوم السنة بعد ٣٠ دسمبر فتصبح ايام السنة ٣٦٥
ويضاف اليوم الكبيس بعد ٣٠ يونيو كل سنة رابعة فتكون ايامها ٣٦٦

***

وتاريخ الحركة في سبيل اصلاح التقويم يرتد الى تعيين لجنة في سنة ١٩٢٣ من قبل عصبة الامم لدراسة الموضوع . وفي سنة ١٩٣١ ارسلت اربع واربعون دولة وفوداً رسمية لحضور مؤتمر اصلاح التقويم . واقترحت شيلي مشروع اتفاق للاخذ بالتقويم العالمي بمقتضى معاهدة دولية ابتداء من سنة ١٩٣٩ وقد أبرم مجلس العصبة هذا الاتفاق في يناير ١٩٣٧ . ولكن الدول لم تسر في ابرامها له بسرعة وافية فكان من المتعذر البدء في تنفيذه هذه السنة . ولذلك لا بدّ من الانتظار الى سنة ١٩٤٦ عندما يقع اول يناير في يوم أحدٍ . والغرض الذي يتجه اليه القائمون بهذه الحركة هو السعي الى حمل الدول على اقراره والبدء في تنفيذه سنة ١٩٤٦

ومما يدلّ على العناية بهذا التقويم واتساع نطاق الموافقة عليه ان ٢٤ امة عينت لجاناً برلمانية لدراسة اصلاح التقويم ، والتقويم العالمي مفضل على الغالب عندها . ثم ان أقطاب انكلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان وغيرها أعربوا مباشرة او مداورة عن موافقة حكوماتهم على التقويم العالمي . وقد وافق عليه كذلك مكتب العمل بجنيف والغرف التجارية في الولايات المتحدة وبريطانيا وكذلك الغرفة التجارية الدولية

اما الهيئات العلمية فقد اصدرت قرارات بالموافقة عليه وفي مقدمتها مجمع تقدم العلوم الاميركي واكادمية العلوم والفنون الاميركية . وهناك هيئات دينية كثيرة وافقت عليه كذلك منها الكنيسة الشرقية (الروم الارثوذكس) والانجليكانية ومجلس اتحاد الكنائس وهو يمثل البروتستانت والكاثوليك واليهود في الولايات المتحدة الاميركية . ومن المحتمل ان توافق عليه الكنيسة الكاثوليكية ايضاً لانها تدرسهُ دراسة مشبعة بالعطف ومن المعروف عنها انها شديدة الرغبة في اصلاح التقويم واقرار تاريخ عيد الفصح

***

ورغبةً في تنوير الرأي الدولي العام في موضوع التقويم وفوائد اصلاحهِ وتنظيمهِ على أساس دائم تصدر مجلة ربعية تدعى مجلة اصلاح التقويم[1] واعدادها حافلة بمباحث دقيقة تتضمن كل ما يتعلق بالاساليب التي ابتدعها الانسان لقياس الزمان

(١) 630 Fifth Avenue New York City

النظريات الفنية

مسائل الفن

والجمال في العصر الحديث (١)

للفيلسوف الفرنسي « غيو Guau »

مقدمة

يريد العلم — في عهدنا هذا — ان يهيمن على المنازل العقلية ولقد كانت الانسانية حتى الآن تعتمد في حياتها على ثلاثة أشياء: الدين والاخلاق والفن . أما العلم فقد عدَّل مسائل الدين وهو يحول الآن قواعد الاخلاق . ولا يمكن ان يبقى مقيداً أمام الفن الذي هو آخر معقل « للستتيالسم » والعاطفة . ان الفنانين العظماء — في كل زمن — كانوا يؤمنون بجدة الفن وعمقه . بل يرون انهُ أكثر حقيقة من الحقيقة نفسها . فكانوا يجهدون النفس ، ويجرعون الصاب في سبيله . وقد يصبح احترام الفن — على هذا الشكل — عند أكثر الفنانين تصوفاً. نوعاً من العبادة . فان (بيتهوفن) مثلاً وهو يسمع إحدى أناشيده يخيل اليه أنهُ يسمع الاله نفسه يكلمه . والآن نحن بعيدون عن هذا النوع من الافكار اذا ناقشناها بقواعد العلم للفن

فأول قاعدة علمية فلسفية تقود الفن — كما تقود الجمال — الى لعبة بسيطة في أنفسنا . ولكن هذه القدرة لا تزعم أنها تقدر على تهديمه وانما تتركه يحتل جزءاً كبيراً في حياة الانسان لانهُ تمرين — ولوكان باطلاً — تقوم بهِ أجزاؤنا الرئيسية . ولكن ماهي حدود هذا المذهب؟ هذه مسأله يجدر النظر فيها

إن أصل الفن — في نظرنا — هو في الحياة ذاتها . فله من الجد ما للحياة ، وغايتنا من فصولنا هذه ان نبرز هذه الناحية الجدية من الفن وخاصة الشعر في أصله وعمقه ، وفي تطوره الآتي ، وفي أسلوبه

ان مالا يصل الى الحياة نفسها يظل غريباً عن الجمال ، لان غاية الفن الأسمى هي ان تجعل القلب الانساني يخفق،الفن يجب ان يمتزج بوجود الانسانية،بأخلاقها ومادتها .وما عسى ان يبقى

---

(١) نقلها خليل هنداوي وهي الحلقة الاولى من سلسلة طريفة

لنا من اعتقاداتنا الدينية وأخلاقنا ؟ قد لا يبقى الاَّ جزء يسير . واذا سألنا ما عسى يبقى من فنونا من الموسيقى والتصوير ، وخاصة من هـذا الفن الذي يحتوي على فنون مختلفة وهو الشعر . قد يكون الجواب . . . انهُ سيبقى منهُ كل ما هو خير وأكثر عمقاً من غيره . . .

« اصل الفن والشعر »

لقيتُ في احد أيامي ولداً يلعب في حجرة،وقد لمعت شعاعة من ضوء الشمس من خلال نافذة مغلقة . يعدو الولد نحو هذه الشعاعة اللامعة التي تنفذ في الهواء،مجرباً ان يقبض عليها بيديه اما الشعاعة البيضاء فقد كانت تفر ولكنها كانت في عينيه ؟ وارى البشرية قد قامت — في اجيال — بمثل هذه . فبعد ان كان الجمال والخير معتبرين في الزمن القديم كحقائق من وراء الطبيعة دخلا في انفسنا ، وما هما — في نظر علمائنا المحدثين — الاَّ نتاج بنات عقولنا . فالجمال مثلاً يعود الى نوع من السرور يرتبط ككل سرور،بالحياة . فاحذف انت الكائنات الحية من الوجود تحذف منهُ الجمال . كما انك اذا حذفت العين حذفت النور والالوان ... وكل شعر الطبيعة يقوم في رؤوس البشر

و « كانت » كان يعود بفكرة الجمال الى فكرة النفع والمفاضلة ويرى — فيه — لعبة تقوم بها مخيلاتنا . وكذلك شيللر لا يرى فيه الاَّ لعبة . فالفنان بدلاً من ان يتعلق بالحقائق المادية يلتفت اليها . والفن الاسمى هو حيث تبلغ اللعبة مداها ، وتلعب بكل اعماق وجودنا ، وهذا هو الشعر ! قال شيللر : ان آلهة الاولمبوس الذين انعتقوا من كل حاجة ، وجهلوا العمل والواجب قد اشتغلوا بابتداع اشخاص من الناس ليتاح لهم ان يعبثوا بالاهواء البشرية . وهكذا نحن نمثل — في الدراما — فضائل وعيوباً واحوالاً ليست بأحوالنا

وقد لقي مذهب — كانت وشيللر — مؤيدين بين العلماء المحدثين . واخيراً جاءت مدرسة شوبنهاور معتبرة الفن كلعبة سامية ، همها ان تعزينا بعض لحظات عن بؤسنا وشقائنا . وان تهيء لنا منفذاً بواسطة الاخلاق

« غبطة الجمال وغبطة اللعب »

المعركة التي نشأت — للحياة — ببساطة تستحيل لعبة . وما ألاعيب الاطفال الاَّ رواية وساوس الانسانية ! المعركة هي اساس من اعمق أسس اللعب . وكل لعبة عند المتوحشين تعمل على ان تتخذ شكل معركة ، وما رقصهم وغناؤهم الاَّ مظاهر تمثل طبيعة المعركة . ولله در ابن كلثوم حيث يقول

كأن سيوفنا منا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لاعبينا !

غبطة الالحان والالوان والطيوب انما تنشأ عادة من لعبة يسيرة مرّنت عليها حاسة من الحواس. فحين نسمع في البرية ناقوس الغداء لا يكون هذا الدق لنا الاَّ نداء . وباصغائنا اليه لا نطلبه ولا يكون هو غايتنا . وانما نصغي الى الطعام الذي يدعونا اليه . وعلى عكس ذلك اذا سمعنا قرع ناقوس فلمندي أحسسنا شيئاً يجبرنا على الانصات لهُ لأنهُ لا يخاطبنا ولا يدعونا الى شيء ولا ينفعنا بشيء وهو خلال ذلك يبدو لنا انهُ جميل

يقول كانت «ان عاطفة الجمال هي اكثر تجرداً وبعداً عن الغرض من عاطفتي الخير والعدل» ويتحد سبنسر وداروين واقطاب المدرسة التطورية على جعل « الحاجة والمنفعة » اساساً أوليًّا للعواطف القائمة على الاخلاق . على ان العاطفة الفنية — على عكس ذلك — تغدو بانقيادها الى اللهو اكثر صفاء وتجرداً من كل فكرة متسلطة . وللجمال السلطة على الخير لانهُ متجرد من المنفعة . ويقول شيللر بهذا الصدد « انك لا تسمع صوت الرغبة في أغنية العصفور »

هذا ملخص مذهب هذه المدرسة في الجمال !

وانا نتمم هذا المذهب فنقول: اذا لم ينفع الفن الحياة بأية وسيلة كانت فهو يساعدها بوجه عام. فالفن هو رياضة بدنية للقوة العصبية ، رياضة بدنية للروح والعقل . وللفن دور كبير في الحياة الانسانية . وهنالك ادلة ساطعة وبراهين توحي الينا ان الفن سيمثل دوراً كبيراً في حياة الانسان وهو دور يسمو يوماً بعد يوم . وبامكاننا القول ان الفن — الذي هو وليد المخيلة والترف — سيغدو يوماً شيئاً ضروريًّا للجميع ، او نوعاً من الخبز اليومي

اما وان كل فن هو لعبة وليست كل لعبة فنا ، فكيف نميز بينهما ؟ يقول (كران اللين) ان اللعبة تكون تمريناً خالياً من الغرض كالسباق والصيد . اما الفن ففيه ادراك للشيء ذاته كالتأمل في لوحة مرسومة او قطعة موسيقية . على ان هذا التعريف لا يفي بالغرض ، اذ ينتج ان حركة ما لطيفة لا تبدو خفتها الاَّ لأعين الناظرين وهي لا تخلق اية غبطة فنية لمن يقوم بها . والحركات الايقاعية والرقص تفقد بنفسها كل قيمة فنية . وبالاِيجاز ان تميز الاحساس - الصافي المحض — في العمل يكاد يكون محالاً . اذ كل قوة احساس تقتضي لعبة عضلات لا لعبة اعصاب فحسب . فالعين تلمح المدى بقوة عقلية . والاذن كذلك. ومن المحال ان نقسم وجودنا الى مقاطعات... وان نفرض أن الشيء الفني — فينا — هو المنفعل . على ان الأمر بعكس ذلك في الآثار الفنية اذ ان من غبطة الفن ان تمتزج فيها غبطة النظر والعمل . فالشاعر والموسيقي والدهان يحسون غبطة متفوقة في الابداع والتخيل وانتاج ما يتأملون فيه ، وللناظر من ذلك نصيب . وتلاوة رواية ما معناها انك تعيش — بمقياس خاص — في جوها .فاذا تلونا اشعارها بصوت عالٍ استولى علينا لحنها وحركاتها واشخاصها وليس الممثلون في المسارح هم يمثلون وحدهم

ولكنَّ الناظرين يمثلون معهم ايضاً ادوارهم في الباطن . فاذا تزوج بطل الرواية وحظي بغادته احسستُ ان من في بهو التمثيل يشاركون البطل في سعادته

ان الجمال يتجلى — قبل كل شيء — في عدم نفعيته . وفي نوع من المخادعة تأخذ بها انفسنا. ان الحفار يتسلى بإزميله ورخامه كالشبل يتسلى بكرة خشبية في اعماق قفصه . والاثر يبقى جميلاً بمقدار جماله، لا يتعلق بأية حاجة، ولا يحمل الينا رغبة ولا رهبة . والشيء الحقيقي الحي ينطوي بنفسه على جمال نفسه

هل غبطة الجمال

تضاد عاطفة المنفعة والحاجة والرغبة ؟

ان مجموعة اجزاء كل جسد بذهابها الى هدف ، تؤلف نظاماً كاملاً موزوناً وقديماً قرنوا الجمال الى النظام

في الاشياء الظاهرة يظهر ان الوحدة درجة اولى للجمال. ان رغبة ما او ان حبًّا ما يخلق في كل وجودنا اغراء طويلاً ممتدًّا جميلاً لا يلبث ان يغدو فنيًّا بشرط ألاَّ تغدو الرغبة حادة

الجمال السامي بحسب نظرية كانت — هو جمال المرأة . على ان الصفات التي نراها اكثر بروزاً في المرأة هي أكثر الصفات تعلقاً بالرغبة والشهوة . فامرأة جميلة — عند رجل عامي — هي امرأة موثقة الخلق عبلة البدن ، شديدة ، ذات الوان ناعمة وشكل رقيق. هذه المرأة هي خير ما يروي الغريزة الجنسية

وهذا الوضع يتحول في الطبقات العليا ، حيث تغدو المرأة الجميلة في اعيننا هي المرأة التي تلائم انفاس وجودنا الفردي، والعواطف والميول التي تشترك فينا في عصرنا . يقولون قديماً انهُ أحب ، أي صار عنده عاطفة مبهمة لمن يكمل معه طبيعيًّا او ادبيًّا . فالحب اذاً هو في صميم الميول الفنية . أليس الاعجاب نفسه حبًّا يبدأ وينتهي بالحب ؟ اتقول ان حب امرأة هو الانتهاء من رؤيتها جميلة ؟ ولهذا تجد الفن — عندنا — تطوراً في الحب . اي انهُ حاجة من حاجاتنا الضرورية . وتأمل العاطفة الفنية للجمال — مستقلة — عن الغريزة الجنسية وحركتها ، يبدو لنا شيئاً سطحيًّا يشبه تأمل العاطفة الخلقية من خلال الغرائز التأثرية حيث ترى — فيه — المدرسة الانكليزية اول اصل من اصول الاخلاق

ألا شكراً لله ! فالوردة التي ينشقها كثيرون لا تفقد أريجها . وظل حديقة باستطاعته ان يؤوي كثيراً من الاصدقاء . وساقية واحدة بامكانها ان تنقع غُلة عُطاش . وهواء نقي يستطيع ان يملأ صدوراً ، وأغنية في بهو واسع تهيج آذاناً كثيرة . ووجه جميل او قطعة حسنة تجلو عيوناً كثيرة دون ان تفقد شيئاً من رونقها

إن ما هو جميل هو مرغوب فيه ايضاً في الوقت ذاته . فالشعر في الاشياء — بحسب كلمة الفرد دي موسيه — يتألف من الخشية والرقة ، من الاضطراب والرغبة . فأي تأثير فني يوقظ فينا جملة أماني ورغاب وحاجات مهما تكن مبهمة

اذا تأثرنا بنشيد حربي رأيتنا نضطر ان نكون قاعدين اوسائرين او راكضين، ومفتشين عن عدو لقتاله . وبعض جمل موسيقية فيها رقة الحب قد تولد القبلة على شفاهنا . ومن ذا يتلو أبيات « موسيه »

« لنرحل !

إننا وحدنا ،

والعالم لنا :

هذه أيقوسيا الخضراء !

وايطاليا الشقراء

ومواطن اليونان . حيث يطيب الشهد ! »

من ذا يتلوها ولا يحس شوقاً الى هذه الاقطار الشعرية المجهولة يدفعه الى ارتياد هذه الآفاق الجديدة ؟

وهنالك غبطة في الرغبة نفسها . بل ان تأثير الرغبة يبقى في النفس أجمل من تلك الغبطة . ومن هنا منشأ الغبطات الكبرى في الشاعر الذي يتأمل ان يحيا في المرة الواحدة حياة كل الناس . وهو بهذا التأمل يحياها الى نقطة يقينية . على ان هذه الرغبة التي تنخدع كثيراً قد تولد ألماً . لأنها تظهر له بجد وهو يريد تحقيقها . واليأس الذي يسوق الفنان الى التشاؤم هو أنهُ يتمنى بدون اتزان ولا يقدر على اشباع أمانيه الاَّ بصورة ضعيفة

هل تتعارض غبطة الجمال

مع عاطفة الحقيقة وعملها ؟

الفن هو عمل لا هوى ، ومن هذه الناحية هو رغبة لا غبطة فقط . وحاجة حقيقية لا لعبة ولهو

ما شعرت يوماً بسمو السماء الاَّ بعد ان شققت طوداً عالياً حتى لأشعر بأنني دخلت السماء وانني انتصرت عليها في كل خطوة وجهد أبذله . ورغبة (اللانهاية) خُيّل اليَّ أنها بُعثت فيَّ بدون انتهاء ، بل تيقظت في نفسي تيقظاً شديداً

ان تمثال (زهرة ميلو) يبقى سر روعته في رخامه وجموده . ولو ان عينيه الفارغتين امتلأتا

نوراً داخلاً ولو انه مشى الينا لا تهى أمر هذه الروعة والاعجاب

ان تلفيق الوهم — دع عنك — انهُ يبعد ان يكون شرطاً من شروط الحسن في الفن — هو تحديد له . الحياة او الحقيقة هي قاعدة الفن

هنالك بعض تشويهات تكون ضرورية للأثر الفني وتكون شرطاً من شروط حياته . وهذه تشبه تلك التجاعيد التي تلوح على وجوه المسافرين في الاقطار الشاسعة بغمرهم الحر او القر ، وفي ابطال الروايات يجب ان أرى فيهم شيئاً من العيوب والتشويه حتى يمكنني ان أؤمن بوجودهم ، لأن الضروري في الشخص المختلق هو ألاّ يظهر جميلاً او قبيحاً فحسب ، بل يبدو انهُ موجود ! التهذيب هو الفن السامي الذي يؤثر في الكائنات الحية ، وليس له الاّ غاية واحدة هي انتاج الامثلة الكاملة ، وجعل الجميل اغنى جمالاً ، وسعادة . هذه غاية الفن ، وعمق كل فن يتجلى في الجنوح الى الابداع ، واذا الفنان استطاع ان يكون مبدعاً حقيقيّاً فهو يريد ويجنح الى تحقيق الجمال والسعادة

اذا كان امامنا اثران فنيان متساويان في ابداعهما فنحن بحكم العادة أميلُ الى الأجمل ، ونجد الاجمل اغزرهما خيالاً وشاعرية

ان تقليد القبيح يغدو في الحقيقة تقليداً للجمال والنظام العالمي . التقليد يجنح الى ان يصبح ابداعاً وخلقاً . والوهم او الاختلاق ينطفىء في الحياة . وفي النهاية نجد الحياة غاية الفن ، والفنان لا يختلق الاّ ليجعلنا نؤمن بأنه لا يختلق

شروط الجمال في الحركة

رأينا ان كل ما فيه جد ونفع وحقيقة وحياة يستطيع ببعض شروط ان يكون جميلاً . الجميل يمكن ان يتحقق آناً في الحركات ، وآناً في الحواس ، وآناً في العواطف . واول شرط في الحركات هو القوة ، فنحن نحس سروراً فنيّاً اذ نشعر بقوتنا او حين نمرن قوتنا او نرى غيرنا يمرن قوته . والصفة الثانية للجمال هي الرقة والايقاع والنظام اي ارتباط الحركة بوسطها وغايتها

ان الجمال السامي للحركات هو استعارة ، وهذا الجمال يهبط من الأعلى ، وفي جو الارادة والعواطف يجب علينا ان نحلق لنجد الى ذلك حلاً . النظر الى الطبيعة ، والتخيل انها جميلة هو تمثلها أنها حية ، والتخيل انها ممكنة هو تمثلها انها شكل انساني . وبالامكان ترديد كلمة (تيرانس) « انني لا اهوى الاّ ما هو انساني »

القوة اول جمال ، تنقاد الى حالة صغيرة من الشعور او ترتبط نفسها بالعواطف من اي نوع كالثقة بالنفس والجرأة . وهل الارادة الاّ القوة ؟

خذ تمثال « موسى » الذي يمثل قامة مديدة وعضلات متصلبة . وما تمثال شمشون والبطل هرقل الاَّ مثال القوة والبطش والجمال. فالقوة التي كان يؤلهها الأقدمون كانت تعتبر الفضيلة الأولى ومصدر فضائل كثيرة.. بل انها تحتل شيئاً فوق الطبيعة الانسانية ولهذا كانت تحترم . وكانت ذات قيمة فعالة . والنظام والايقاع يجعلان الحركة أكثر جلاء . أما العطف فهو يفرض حالة افترار في العضلات ، ولا يمثل الحيوان ذلك الاَّ في ساعة الراحة .اذا رأيت كلباً يلعب ويعبث فاعمل ضجة ما ترَ حاله تبدلت، وعنقه تمددت وكل ما فيه من عضلات قد تحرك . ولبس حالة غير حالته في هدوئه . وأخيراً ليس معنى العطف ـ دائماً ـ الاَّ الاستسلام ، ولا يتم هذا الاستسلام الاَّ في ساعة حب . ونقول مع (شيلنغ) ان العطف هو قبل كل شيء عاطفة حب . ومعنى العطف الحب

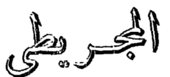
***

وهنالك عاطفة ثانية ... لنتخيل ما يولده فينا مرأى العصفور ناشراً جناحيه وهو كنقطة في الهواء ، ولنحس أية عاطفة تعرونا ونحن على جواد يعدو خبباً ، او في زورق يخوض العباب اللجي او في زوبعة رقص ومرح . كل هذه الحركات تولد ما لا أعرفهُ من عاطفة اللانهاية ومن رغبة لاحد لها ، ومن حياة تائهة ، ولا أدري ما هي حاجة الذهاب بدون إياب ؟ وحاجة الضياع في هذا الكل ؟ وهذه الافكار المبهمة تدخل كمادة جوهرية في الحالة التي تسبب لنا هذه الحركات ، وتمثال (آدم) « لميشيل آنجلو » الذي يتيقظ للحياة يمد يده ـــ بدون نظام ـــ الى الاشياء ، ناظراً ما حوله . وهذه الحركة وحدها تترجم بشكل منظور عن كل اللانهاية في العالم الذي وقعت انظاره عليه لأول مرة

***

واذا كان الجمال السامي في الحركات هو الجمال الذي يترجم الحياة الوافرة الغنى ، فبالامكان القول : ان الجمال هو مزج القوة بالعطف وجعلهما شيئاً يعبر جميعه عن الارادة الاكثر شدة والاكثر عذوبة ورقة . هذه الارادة ليست العبث بالاشياء السطحية ، ولكنها في معاناة الاشياء الجدية والكائنات الاخرى ومعاناة نفسها . تضع قوتها كلها في خدمة حنانها

النفس تسمو الى اعلى ما تعجب به . ومن هذه الناحية تجد الفن يلمس الحقيقة ، بل هو الحقيقة وحدها ، وفي عاطفة الاعجاب يشترك الحقيقي والوهمي ، والكون وظهوره . أريد ان استحيل الى من اتأمل فيه ، وأن اكون مثله في بعض النواحي وهنا يتحقق مذهب افلاطون بقوله : ان الجمال هو ان نغدو أحسن وأعلى



المجريطي

فلسفته ومكتشفاته (١)

لمعالي محمد رضا الشبيبي
وزير معارف العراق سابقاً ورئيس نادي القلم العراقي

لم أكن اعرف عن ابي محمد احمد عمر بن رضاع المجريطي — امام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات المتوفى سنة ٣٩٥هـ — أكثر من تسميته في الكتب العلمية أو ترجمته ترجمة موجزة في اسفار التاريخ الى ان كانت سنة ١٣٣٢هـ اوسنة ١٩١٤م اذ ظفرت خلال التنقيب عن المخطوطات العربية القديمة بنسخة من كتاب « غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقديم » من بين مؤلفات المجريطي فتوفرت على دراسة الكتاب دراسة اتضح لي منها مرمى تفكير المجريطي وفلسفته وخلاصة بعض دروسه ومستنبطاته بحيث اصبح في الوسع اماطة اللثام المسدل على آرائه وافكاره في معظم كتب التاريخ

ذاع اسم المجريطي بما كتب لبعض مؤلفاته في العلوم الرياضية والفلكية من الانتشار وخصوصاً كتابيه « غاية الحكيم » و « رتبة الحكيم » وهما اشهر كتبه التي أوردها المؤلفون الذين عالجوا تاريخ نمو الحركة العلمية والفلسفية عند العرب او كتبوا في موضوعات العلوم وفي مقدمتهم ابن خلدون وشمس الدين السخاوي والقلقشندي وطاشكبري زاده ومنلا چلبي وغيرهم. وقد عول ابن خلدون على كتابي المجريطي السابقين في الفصول التالية من مقدمته.

١ — الكيمياء ، ٢ — السيمياء ، ٣ — الحكمة او العلوم العقلية وأقسامها ٤ — الفلاحة

اضف الى ما تقدم ان المجريطي هو صاحب « رسائل اخوان الصفاء » الاندلسية التي الفها على نمط « رسائل اخوان الصفاء » البصرية او العراقية فبذر بذرة التفكير الواسع في اذهان الاندلسيين على عهده فلم تلبث الفلسفة حتى ازدهرت في العصور التي تلت عصر المجريطي في الاندلس فظهر فيها ابن رشد وابن الصائغ وابن الطفيل وبني زهر وغيرهم من اعيان الحكماء والمفكرين وان لم نعثر على نسخة من رسائله الاخوانية المذكورة ولكن لاريب عندنا انه

(١) عن مجموعة نادي القلم العراقي (راجع باب مكتبة المقتطف)

استهدف في تأليفها اثارة الاذهان وتدريبها على البحث العلمي شأنهُ في كثير من فصول كتابهِ « غاية الحكيم »

نقح الجريطي كتابه المذكور خلال خمس أوست سنوات وجمعه من ٢٢٤ مؤلفاً سمي أكثرها فيه . وتدلنا دراسة الكتاب على ان الجريطي (فضلاً عن كونه اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية عارفاً بجميع فروعها) من جملة الاساتذة في التربية وفي علم السياسة والاجماع على الاجمال على ما يظهر لنا من لهجتهِ ومن بعض ابحاثه في الكتاب . وهو يرى والنص المنقول له « ان الانسان اذا انفرد بعلم الحكمة النظرية والفلسفة سمي حكيماً وان جمع بين الحكمتين النظرية والعاملية ونفذ فيهما كان نبيًّا » قال « ولا يكون هذا الاَّ في افراد الناس وهذا الانسان أي النبي في أكمل مراتب الانسانية وفي أعلى درجات السعادة وهي التي من جهتها او من أجلها يطلب كل خير واليها ينتهي كل خير لأننا انما نطلب الفضائل لنكون سعداء ولا نتوصل الى ذلك الاَّ باصلاح الاخلاق واصلاح المنزل واصلاح الأمة وجمعها على كلمة واحدة تقودهم الى السعادة والسعادة هي الخير المطلوب لذاتهِ »

وكذلك يستنتج من مواضيع أخرى من كتابه انهُ فيلسوف يميل الى الدراسة الواسعة ولكنهُ يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة ولا يكاد يذعن الاَّ لاحكام العدد والارقام في تفكيره . وما أكثر الشواهد التي عثرنا عليها في كتابهِ على ذلك . ومنها ما حكاه عن ثابت بن قرة المؤلف المشهور انهُ اجتمع بانسان كان باقعةً في الحساب . فقال ذلك الانسان لثابت « إن الله قادر على كل شيء » فقال له ثابت « أيقدر الله ان يجعل جملة المضروب خمسة في خمسة أقل من ٢٥ او أكثر من ذلك ؟ » فسكت الباقعة في الحساب ولم يحر جواباً . وقد نقلنا هذه الحكاية للتدليل على منحى تفكير الجريطي من حيث انهُ رياضي لا يقبل الجدل في الارقام . أما من حيث انهُ فيلسوف فانهُ لم يصرح لنا برأيهِ في هذا الشأن إذ من مقررات الفلسفة ان الجزم حتى في مثل هذه المسائل الرياضية البحتة عبث او غرور اذا كان يتضمن دعوى الاحاطة بحقائق الكون وأسراره الأزلية الغامضة

***

هذا وقد صير الجريطي نفسهُ تلميذاً لجابر بن حيان على بعد ما بينهما من المدة متخذاً منهُ قدوة يقتدي بها ، شديد التعظيم له ولآرائهِ ومستنبطاته في الرياضيات والطبيعيات . كثير الاقتباس من كتبهِ وقد اقتنى جملة صالحة منها خصوصاً في العلوم التعليمية والطبيعية وفي علم الحيل أوردها باسمائها وأكثرها غير معروف ولا مذكور بين الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان . أما رأيه في

الرازي « فانهُ استاذ جدير بأن تؤخذ المعارف عنهُ لكثرة بحثه ونظره في العلوم القديمة » وهي عبارتهُ بعينها . وهكذا رأيه في الكندي فقد رأيناه كثير الثناء عليه وعلى تبحره في العلوم وقد استطرف الجريطي له رسالة غريبة في موضوعها اذ سمى رسالته هذه « كمية بقاء دولة العرب » وليس بكثير على الكندي فيلسوف العرب أن يفكر في هذا الموضوع . وقال ايضاً عن الكندي « ذكرتهُ في كتابي تاريخ فلاسفة العرب » . ومن ذلك يعلم ان الجريطي عالج هذا الموضوع الشيق — اعني تاريخ فلاسفة العرب خاصة — والف فيه كتاباً الاّ اننا لم نعثر عليه بل لم نقف على ذكره الاّ في هذا الكتاب وقد احالنا الجريطي عليه —أي على تاريخ فلاسفة العرب — غير مرة فهو إذن من كتبه الممتعة . ومن الاعلام الذين اعتمد عليهم الجريطي ابو بكر بن وحشية وقد أكثر من النقل عن كتبه المترجمة عن النبطية في علم المواليد وفي الفلاحة وفي الهندسة المائية وذلك على طريقة القدامى من سكان الرافدين كما انهُ أثنى على كتابه في الفلاحة . ومنهم عطارد البابلي وهو رياضي قديم أكثر من النقل عنهُ وعن مؤلفاته خصوصاً كتابه « سر الاسرار »

وللجريطي في كتابه «غاية الحكيم» أسلوب خاص في تلقيب بعض المؤلفين اوالفلاسفة بألقاب يخلعها عليهم من تلقاء نفسه وأكثرها مطابق لمقتضى الحال كقوله « افلاطون » « المبرز » او « المقدم » وكقوله « رئيس الصناعة الاحكامية بطليموس » ويقصد بهذه الصناعة صناعة الميقات والتقويم وهي الصناعة التي برز بها بطليموس وألف بها مؤلفاته المشهورة في الاسكندرية وكقوله « سيد يونان على الحقيقة وأولاهم بالفضل أرسطو » الى غير ذلك

***

ويستفيد من هذا الكتاب (اعني كتاب « غاية الحكيم » للجريطي) من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة في اقدم عصورها وتاريخ مستنبطات الامم الشرقية العريقة في القدم من انباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم ومكتشفاتها وجهودها في تقدم العمران.وقد أدرج فيه ايضاً كثيراً من اساطيرها وخرافاتها الوثنية فيما يتعلق بحقائق الاجرام الفلكية وقواها ودعوتها نحو ذلك مما هو دخيل في عقائد المسلمين او مقتبس من عقائد الامم الوثنية القديمة المذكورة

وللجريطي في كتابه هذا أبحاث مقتضبة في الفلك والرياضيات وفي الكيمياء وفي تاريخ السحر وعلم الحيل وفي التاريخ الطبيعي وتأثير المنشإ والبيئة في الكائنات وقد عقد عدة فصول للبحث في مملكة المواليد الثلاثة خصوصاً ما يوجد منها ببلاد الاندلس . ويستنتج من بحثه فيها ان لهُ مكتشفات عديدة في هذا . ولا استبعد أنا والحالة هذه ان يكون لبعض آرائه وابحاثه اثر

في عمران الاندلس خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية وان سكت مؤرخونا عن ذلك كله على عادتهم المألوفة

ومع كل ما تقدم فان المؤلف يعتقد بالسيمياء او السحر وهما موضوع كتابه « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » كما ان موضوع كتابه الآخر المسمى « رتبة الحكيم » هو الكيمياء وهما (اي الكيمياء والسيمياء) النتيجتان المتحصلتان من جميع جهودنا العلمية حسبما يراه الجريطي كما انهما مفتاح الأسرار الطبيعية والرياضية ومن لم يصل اليها فليس بحكيم وان احكم نتيجة واحدة منهما فهو نصف حكيم على حد تعبيره لأن الكيمياء بحسب تعريفه هي معرفة الجواهر والأرواح (القوى) الارضية واستخراج لطائفها للانتفاع بها كما ان السيمياء هي معرفة القوى او الارواح العلوية لاستخدامها والانتفاع بها . ويقول في موضع آخر من الكتاب اعلم ان هذه النتيجة اي السيمياء هي المعبر عنها بالسحر وحقيقة السحر على الاطلاق كلها سحر العقول فانقادت اليه النفوس من جميع الأقوال والاعمال وهو علمي غامض الادراك ومنهُ عملي . وبالجملة السحر هو ما خفي على عقول الاكثر (الجمهور) سببهُ وصعُب استنباطه . وأحسن انواع السحر العلمي الكلام بشهادة الحديث المأثور ان من الكلام لسحراً ومن ذلك قول المؤيد افلاطون في كتاب الفصول « كما يرجع لك الصديق عدوًّا بالكلام اليسير كذلك ينقلب لك العدو صديقاً بالكلام الحسن اليسير . والسحر العملي هو الوقوف على المواليد الثلاثة وما أنبتت فيها من قوى . ومن أنواع السحر العملي السحر الحيلي » الى ان قال « لا يبلغ أحد الوقوف على تأثير العالم الأعلى (أي القوى العلوية) في العالم الأسفل الاَّ بعد احكامه لجميع العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة أيضاً . » ثم شرح سبب ذلك قائلاً في الأخير « فباضطرار لا يعلم هذه الصناعة على الحقيقة الاَّ من علم أوائلها وبالواجب ان لا يعلمها الاَّ فيلسوف »

***

فمن ذلك ومن مواضع أخرى من كتاب الجريطي نعلم اجمالاً ان مدلول كلمة « السحر » في ذهن الجريطي غير مدلولها الخرافي المألوف بل هو مدلولها في الاذهان الوقادة والافكار النيرة التي حاولت او هي تحاول دائماً تسخير قوى الطبيعة واخضاعها لاستخدامها في رفاه الانسان ورفع مستواه في سلم الحضارة والعلوم والعمران ومن هذا القبيل ساحر الكهربائية (اديسون) وساحر البخار (وط) وغيرهما من سحرة الاثير والضوء والحرارة وسائر القوى الطبيعية المبثوثة في هذا الكون . فالجريطي حسبما نراه في كتابه هذا مفكر او ساحر من هذا الطراز او يكاد يكون من هذا الطراز

ولبيرون شعر في النقاد يقول فيه :

اطلب الورد في كانون ، والتمس الثلج في حزيران
وأمل من الريح ان تستقر ، ومن التبن ان يتحول قمحاً
صدق الامرأة اوالزخرف ، أو اي شيء زائف
قبل ان تثق بناقد

وقال بعض النقاد في امثال هؤلاء الادباء :

ان مثلهم مثل طائر صغير ساقه القدر فدخل غرفة من مدخنها ، حتى اذا بلغ وسطها رآها مغلقة عليه ، ورأى نفسه سجيناً ، وحاول ان يهتدي الى الطريق الذي اتى منه ، فلم يفلح ، فأخذ يضرب النوافذ الزجاجية بجناحيه لجهله النافذة التي اتى منها

ولحسن حظ النقد انه لايحيا عالة على الشعراء واصحاب الكتب، ولا يستمد منهم الحياة بل انه يستمد بقاءه من جماهير الناس الذين يتذوقون الادب ولكنهم لم يؤتوا عبقرية الشعراء ولا نبوغ النقاد

ويجب ألاّ ينكر اثر النقد في توجيه بعض المؤلفين والشعراء الى السبل القويمة ، وتنبيههم الى مواطن الضعف في أقوالهم ، ليتجنبوها فيما يصدر عنهم بعد ذاك ، فكم من كاتب استفاد من آخر بعرضه أمامه ما كتب،ولاسيما اذا كان كلاهما خبيراً في الموضوع الذي يبحث فيه ، حتى زعم بعضهم ان كثيرين من الروائيين المشهورين لم يحرزوا مكانتهم الكبرى الاّ بعد ان دفعتهم نظرات النقاد الى سلوك السبل القويمة ، ولهذا كان « هوراس » على حق حين قال : ان النقاد حجر المسن فهي وان لم تقطع فانها تشحذ الحديد

وفائدة النقد بين الجمهور ، انهُ اعلان سيار بينهم ، ينقل الاخبار عن الكتب والاشعار ، فيشوّق الناس لمطالعتها ، ويمهد السبل الى الناس لفهمها وتذوقها ، ويرفع مستوى الثقافة الأدبية الفنية الى حد يصبح معهُ من الممكن ان تظهر عباقرة الفن ويظهر معهم من يقدرهم قدرهم ، او كما قال أناطول فرانس : انّ الناقد يستطيع ، وهو يطوف رياض روائع الفن ، ان يسهل على الناس ارتيادها ، فيهيء لهذا مجلساً ، ولذاك متكأ ، بحيث يمكنهم ان يستمتعوا بجمالها الأخاذ . ويمكن للنقد سواء أمن النوع الهدام كان ام من النوع الذي يكون رائده المنطق والعدل ، ان يكون لذاته أدباً يقرأ ، وفنّاً يستجلى جماله . وبعد فقد آن لنا ان نحد النقد

***

جاء في المعاجم : « نقد الشيء ينقده نقداً اذا نقره بأصبعه كما تنقر الجوزة ، ونقد الطائر الحب ينقده اذا كان يلقطه واحداً واحداً ، ونقد الرجل الشيء بنظره ونقد اليه اختلس النظر نحوه . وفي حديث أبي الدرداء : « ان نقدت الناس نقدوك ، وان تركتهم تركوك ، اي

ان عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله » . « ونقد الدراهم اذا ميز جيدها من رديئها »

ولعلَّ هذا التحديد الاخير هو اقرب ما يكون الى ما فهمهُ العرب القدماء من النقد الادبي. حكى ابن رشيق ان رجلاً قال لخلف الاحمر : ما ابالي اذا سمعت شعراً استحسنه ، ما قلت انت واصحابك فيهِ ، فقال له : إذا اخذت درهماً تستحسنهُ ، وقال لك الصيرفي انهُ رديء هل ينفعك استحسانك اياه ؟ . وقال الجمحي :

« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفهُ الأذن ، ومنها ما تثقفهُ اليد ، ومنها ما يثقفهُ اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت ، لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراوة ولا دنس ولا صفة ، ويعرفهُ الناقد عند المعاينة .... ومنهُ البصر بانواع المتاع وضروبه وصنوفه ، ما تشابه لونه ومسه وذرعه واختلاف بلده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذي خرج منهُ ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمئة دينار ، وبمئتي دينار ، وتكون أخرى بالف دينار ، والفي دينار ، ولكن لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة »

« ويقال مثل ذلك في المغنين ، يعرف ذلك أهل العلم بهِ ، عند المعاينة والاستماع ، بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليهِ ، وان كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم بهِ وكذلك الشعر يعرفهُ اهل العلم بهِ » وقال ابن رشيق : « سمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف والملاحة في الوجه ، وهذا راجع الى قول الجمحي بل هو بعينهِ وإنما فيهِ فضل الاختصار »

ومن الممتع أن تعلموا أن الخطَّاب في بعض مدننا يبعثون امهاتهم وأخواتهم أو غيرهنَّ من قريباتهم لينقدن لهم العروس ، فينظرون الى محاسنها ومساوئها ، ويزاولنَ اختبارها ويصدرنَ عليها احكامهنَّ

واذا كانت المعاجم العربية القديمة لم تعرض لتحديد النقد الادبي ، فإنَّ كتب الادب قد التفت اليهِ كما لاحظتم ، وقد سموا بعض ائمته في العصور القديمة ، قالوا : « وقد كان ابو عمرو ابن العلاء واصحابهِ لا يجرون مع خلف الاحمر في هذهِ الصناعة في النقد ، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقهِ بها واجادتهِ لها »

أما التحديد الحديث للنقد الادبي فنستطيع أن نجمله بقولنا :

انهُ فن تحاول فيهِ — وانت خال من الغرض والهوى — أن تحكم على الاشياء الفنية

الادبية بعد فهم خصائصها ومزاياها ، ثم تعرض للناس هذا الحكم في قالب فنيّ ادبي . فهو ينطوي قبل كل شيء كما تلاحظون على فهم الأثر الادبي وادراك الجمال ، أو القبح الذي فيهِ ثم ينتقل الناقد الى اصدار الحكم ، وقد تجرد من ميوله ونزعاتهِ الخاصة، ثم يصوغ هذا الحكم في عبارة فنية يعرضها على الناس

ولعل أوجز تحديد في نظري للنقد الادبي هو تطبيق علم الجمال على الادب ، ومن الخير أن نلاحظ ايضاً انهُ متى عرضنا هذا النقد الادبي في قالب فني اصبح النقد الادبي نفسه ادباً وأصبح الناقد بدوره اديباً واذن فكل ناقد ادبي اديب ، ولا يعكس ! فليس كل اديب ناقداً

أما الرأي الشائع عند بعض الناس من ان النقد هو اظهار المساوىء فقط وانهُ لا يعرض للمحاسن فهو رأي مغلوط اذ ليس هناك شيء يخرج عن نطاق النقد أو فوق النقد مهما يبلغ من الكمال والروعة ، ولكن هناك اشياء ادنى من النقد ، اذا كانت سخيفة وكان في نقدها مضيعة لوقت الناقد والقراء

***

ومن البدهي أن النقد لا يمكن أن يكون قد عرف قبل الانتاج الادبي ، ذلك انهُ لا يمكن للناقد أن ينقد في الهواء بل لا بد من اثر ادبي بين يديهِ ولا نستطيع ان نتصور ان النقاد بدأوا عملهم في الخيال كأن نزعم انهم تصوروا وجود قطع ادبية ثم حاولوا نقدها اذ ان مجرد تصور اثر ادبي دليل على أن الانتاج قد سبق هذا التصور ولا يمكن للخيال مهما يحلّق ان يصل الى مالم يختبره الانسان أو يسمع بهِ واذن فالنقد قد عرف بعد الانتاج . وهناك خطوة تفصل بينهما وهي التذوق والاستيعاب والتلذذ بما تقرأ أو تسمع ، وهي الخطوة التي انتقل فيها الادب من طور الانتاج الى طور الاستمتاع بهِ ، وقد بدأ النقد الادبي كما تلاحظون منذ حاول الناس ان يفضلوا اثراً ادبيًّا على آخر ، وليس من شك في ان تفضيل الناس اول الامر لم يزد على انهُ تعبير عن شيء احسوه ولم يستطيعوا ان يتلمسوا أسبابه ، وهو التفضيل المبهم ، ويظهر لي مع الأسف ان كثيراً من نقادنا لا يزالون في هذا الطور . وحسبي ان أوجه انظاركم الى اكثر مقدمات الدواوين الشعرية في هذا العصر ، فترون فيها ان الشاعر الذي كلفوا ان يكتبوا عنهُ هو شاعر عصره وفريد دهره ، طاوعتهُ البلاغة وانقادت اليهِ القوافي ، وهو فوق ذلك اشعر الشعراء بلا منازع . فاذا تركت مقدمة ديوان الى مقدمة ديوان آخر رأيت الكلام نفسه لناقد آخر في شاعر آخر ، او للناقد نفسه في شاعر آخر ، ويذكرني هذا بقصة تروى عن مروان ابن ابي حفصة قالوا انشد يوماً امام جماعة شعراً لزهير ، ثم قال : زهير والله اشعر الناس ، ثم

أنشد للاعشى فقال : الاعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعراً لامرىء القيس فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم قال : والناس والله أشعر الناس . وأظنهُ يعني انهم اشعر الناس حين ينشد شعرهم

وكذلك يعني اصحابنا في هذه المقدمات ، اما اذا اردت ان تعرف آراءهم في الشعر فقد كلفت نفسك شططاً . فالشعر عند صاحب مقدمة ديوان حافظ مثلاً ، ظرف الحكمة ومسرح الخيال ومغنى الفصاحة وخدر البلاغة ووعاء الحقيقة . قال الدكتور طه حسين « ان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فانت موفق سعيد ، اما انا فلا ارى فيه الا ثرثرة وتكراراً ، كلام مرصوف ولفظ مصفوف لامزية له إلا انهُ منتقى مختار »

وارتقى النقد من طور التفصيل المبهم واصبح اختياراً يستطيع معهُ الناقد ان يصطنع الاسباب والمبررات ، ويستند الى عوامل منطقية وتاريخية يرى لها الاثر الاكبر في تفكيره واحكامه : اي اصبح للنقد في هذا الطور أساس يرتكز عليه ، قوامه بالاكثر النقل والعقل

اما النقل فذلك حين كثر الانتاج الادبي وتعددت فروعه واصطلح الادباء على تقسيمهِ وتبويبهِ وتنظيمهِ فصار الناقد بحكم هذه النظم والتقسيمات الموضوعة مرغماً في اغلب الاحيان ان يلتفت في نقده اليها ، ويتدرج منها الى النظر في الاثر الذي بين يديهِ ، فيتساءل مثلاً اي شبه بين هذه القصيدة والشعر الغنائي ، او اي شبه بين هذه القصة وقصص الادب القديم ؟ وهو بحكم هذا مضطر أن يكون قد ألمَّ بأنواع الادب المختلفة ونظمها وخصائصها فنًّا فنًّا، ويحاول ان ينتقل منها الى الاثر الذي بين يديه وهو ما نسميه النقد المبني على كيان الادب وهو في رأيي على علو شأنهِ نقد لم يُبْنَ على نظرية فلسفية صحيحة ويكفي ان يكون مصدره النقل حتى ينهار اكثر بنائهِ . ولنذكر ان هذه النظم لم توضع قبل الادب ، بل استمدت منهُ ، اي ان النقاد القدماء درسوا الانتاج الادبي القديم ، ورأوا خصائصهُ المشتركة ومزاياه المستقلة ، فبوَّبوها ونظموها واستمدوا منها النظريات وجعلوها قاعدة يبنى عليها النقد فيما بعده فاذا كانت الدراما التي مثلت في العصور القديمه مثلاً لم تزد او تنقص عن خمسة فصول فيجب على الدراما الحديثة ان تتقيد بهذا الشرط . واذا كانت الملاحم مثلاً قد حوت خصائص خاصة واقتضت ابياتاً كثيرة من الشعر فيجب على كل ملحمة حديثة ان تحوي مثل هذه الخصائص ، وما يقرب من عدد تلك الابيات ، ولا اظنني بحاجة الى التدليل على فساد هذه النظرية في هذا النوع من النقد . ويكفي أن أذكر لكم أن ارسطو كاد يحتم على الرواية التمثيلية ان تتم حوادثها في أربع وعشرين ساعة في يوم واحد — وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون

أما النوع الثاني من النقد فقد اصطلحوا على تسميته بالنقد الاساسي . وهنا ينقلب الامر فلا يلتفت الناقد الى الادب بوجه عام ، ولا تهمه النظم التي استمدت منه ، بل جل غايته درس المزايا

التي يراها في الأثر الادبي الذي ينقده من حيث الموضوع واللغة والاخراج والأثر الذي يحدثه في النفس وغير ذاك

فالنقد هنا عبارة عن محاولة يحاول بها الناقد ان يستفهم من الأثر الادبي نفسه عن امور، ثم يسعى هو نفسه ان يجيب عنها مستمداً افكاره مما بين يديه محكماً عقله فيما يصدر عنه من جواب، اي ان غرض النقد هنا هو فهم كل شيء وقدره قدره ، وهو يستند كما لاحظنا الى العقل لا الى النقل والى الذوق الخاص في فهم الجمال وتذوقه لا الى المصطلحات والنظم . ولكن أيكفل الذوق الخاص وحده الوصول الى الحكم الصائب عن الأثر الادبي ؟ سنرى ذلك بعد حين

***

وتستطيعون اذا شئتم ان تقسموا النقد الى مناح اخرى مختلفة فتذكرون المنحى التاريخي مثلاً وتزعمون بحق اننا لا نستطيع فهم أدب عصر ما دون درس كثير من العوامل الخارجية في ذوق ذلك العصر واتناجه ، فنحن لا نفهم الادب الجاهلي مثلاً دون ان نعرف الخصومات بين قبائلهم ، او الادب الاموي دون ان نكون قد ألممنا بهذه الفتوحات العربية وما استتبعته من عناصر جديدة دخلت في حياة الشعراء ، او الادب العباسي دون ان نلاحظ قبل ذلك تطور العلم وخضوع العرب للثقافة العلمية الفارسية واليونانية

كذلك قولوا في آداب الامم الاخرى ، فليس هناك من ينكر أثر انتصار الانكليز على اسطول اسبانيا « ارمادا المنيع » في الادب الانكليزي في عصر اليصابات ، وليس هناك من ينكر أثر دك الباستيل في كتاب فرنسا الرومنطيقيين

وتتعمقون في درس هذا المنحى فتصلون الى فروع له قد تستقل بعضها عنه استقلالاً تاماً، وتشاهدون منحى بيئياً ترون فيه من المحتم ان تدرسوا بيئة الشاعر او الاديب وحياته الخاصة التي عاشها مع اهله وذويه ، وتشاهدون منحى سيكولوجياً ترون فيه من اللازم ان تتعرفوا الى اخلاق الشاعر وصفاته وهيئته قبل ان تستطيعوا فهم شعره ، وربما يعرض امامكم من يلوّح بالمنحى النظمي الذي ألمعنا اليه والذي يفرض عليكم ان تدرسوا نظم الادب التي وضعها القدماء وسنّها الاجيال قبل ان تلتفتوا الى الأثر الادبي الذي بين ايديكم

وتستطيعون ان تذكروا المنحى المثالي اذا جاز لي هذا التعبير فتزعمون اننا لا نستطيع تقدير الادب ما لم يكن ينزع الى مثل أعلى وغاية عظمى ، وتستعرضون الادب في اكثر اطواره فترونه يتأثر بالمثل العليا التي وضعها الدين وسنها علم الاخلاق وتلاحظون ان الفضائل والحكمة كادت تستأثر فيه

وهنا يعرض امامنا اصحاب المنحى التأثري ، فنسمع غويته يقول اذا قرأتَ أثراً ادبيًّا واستسلمت لتأثيره فيك فحينئذٍ فقط تستطيع ان تستسيغ ما فيه وتصل الى حكم عادل عنه ويقول لك غيره من اتباع هذا المذهب: بين يدي أثر ادبي حاول فيه صاحبه ان ينقل اليَّ اختباراً خاصًّا مستعيناً بألفاظ خاصة وأسلوب خاص ، ففي قراءَتهِ متعة لي ولذة فنية . وفي هذه المتعة او اللذة وحدها استطيع ان احكم عليه ، وكل مابوسعي هو ان اصف هذه اللذة واثر هذا الانتاج الادبي فيَّ وباستطاعة غيري ان يستمد منهُ لذة تختلف عن تلك التي اشعر بها وباستطاعتهِ ان يصفها كما يشاء . وفي وسع كل منا اذن ان ينتج انتاجاً فنيًّا جديداً يصف فيه اختباراً جديداً يشغل محل الانتاج الذي قرأه . هذا هو فن النقد وتلك هي حدوده التي لا يتعداها. فاذا اعترض معترضٍ وقال : وما يعنيني من الأثر الذي احدثته فيك هذه القطعة وما شأني وما فعلت بك مثلاً « قفا نبك » ؟ فانا إنما اريد ان افهم القصيدة وانت تبعدني عنها وتقربني اليك . قال : نعم ! ولكن اي نقد لا يبعدك عنها او اي منحى مما تعرف لا يدنيك الى غيرها ؟ ألست مضطرًّا في المناحي الأخرى ان تدرس —اذا استعرضت «قفا نبك» هذه — العصر الجاهلي؟ ألست مضطرًّا ان تدرس حياة امرىء القيس ؟ بلى وانت مضطر بعد الى التعرف الى اخلاقهِ، وهكذا فانت تدرس متى عاش ، واين عاش ، وكيف عاش ، وكيف كان الناس الذين عاش معهم ، ونهج ايهم نهج، وما هي صفاته واخلاقه ، وكل هذه تبعدك عن القصيدة ، وكذلك قل في المنحى النظمي المبني على الآثار الفنية الأخرى التي لم تسألني عن اثرها الفني في نفسي ولا عن اللذة التي استفيدها منها

النقاد الآخرون يصورون لي التاريخ والسياسة وحياة الرجل وأخلاقه ويشرحون لي نظم الادب القديم ، اما انا فرغبتي هي ان اغمض عيني لأحلم الحلم الذي حلمهُ صاحبي وألتذ بهِ ، فاذا رأيتني اشرح لك هذه اللذة فذلك لانني لسوء حظي قد استيقظت من حلمي وترانيا بتسم ان هذه اللذة التي شعرت بها كانت حلماً لا حقيقة

وقد يبدو لأول وهلة ان موقف اصحاب هذا المنحى التأثري منيع ، ولكن هناك فيما أرى ثغوراً في حصنهم هذا الذي امتنعوا فيهِ نستطيع ان نهاجمهم منها ، وهنا اعود الى مسألة الذوق الخاص الذي تركتهُ منذ حين

وأريد قبل كل شيء ان اقرر هنا مبدأين رئيسيين يغنينا تفهمهما عن متاعب كثيرة في النقد ومن الغريب انهما متناقضان في الظاهر متفقان في الواقع ، فأما اولهما فهو ان الناس جميعاً متشابهون مهما اختلفت ازمنتهم او تناءت بهم امكنتهم ، واما الثاني فهو ان الناس جميعاً مختلفون مهما اشتدت وجوه الشبه بينهم . فتستطيعون ان تقولوا ان العواطف البشرية واحدة في كل زمان

ومكان ، وانما تختلف باختلاف المؤثرات فيها . وهذا الاتفاق وهذا الأختلاف هما سبب وجود نوعين من الذوق

فانتم تعلمون مثلاً ان الاقطار العربية تشترك بأذواقها في كثير من الامور فتكاد جميعها مثلاً تعجب بالشعر وتطرب له وتقدس المروءة والكرم وحرمة الجار ، وانتم تعلمون ايضاً ان هذه الاقطار نفسها تختلف كثيراً فيما بينها بالنظر الى امور اخرى ، ففي اشتراكهم نرى ذوقاً عامًّا وفي اختلافهم نرى اذواقاً خاصَّة . وقد تضيق هذه الاذواق الخاصة فتنحصر في المدن .فتقول مثلاً ان ذوق الشاميين غير ذوق اهل بيروت . وقد تضيق اكثر . فتقول مثلاً ان ذوق طلبة جامعة بيروت الاميركية غير ذوق غيرهم من طلبة بيروت . وقد كان الناس الى حين يميزون طلبة هذه الجامعة من سيرهم في شوارع المدينة عراة الرؤوس . وقد يضيق هذا الذوق نفسهُ فينحصر في الافراد . وهنا يتجلى في اقوى مظاهره . ولكن ايكفي هذا الذوق الخاص للحكم على الادب؟ والجواب . لا ! لانهُ لا يزال جزءًا من الذوق العام يختلف احياناً عن سائر اجزائه . وهذا الاختلاف او الاتفاق يجب ان لا يكون العامل الاوحد في الحكم على قيمة الأثر الفني ، ثم ان كلا الذوقين الخاص والعام لا يمكن ان يحلاً محل العلم ولا هو محلهما بل لا بد من وجودهما كليهما في النقد الحقيقي ، أريد ان اقول ان الذوق الخاص على أهميته لا يمكن ان يكفي لتقرير الاحكام على الاثر الفني حتى ان اتفق في الجوهر مع الذوق العام ، وأنا لا اعني هنا ذوق عامة الناس بل اعني ذوق عامة الادباء . لان احكام عامة الناس يجب ان لا تتخذ مقاييس لنقد الادباء

واذن فان للنقد فيما ارى لونين مختلفين .او كما وصفهما بعض ادباء الغرب. جنسين. لا يستطيع النقد ان يعيش ويستمر دون وجودهما معاً كما ان البشرية لا تستطيع البقاء طويلاً دون ان يكون فيها جنسان متباينان يتمم الواحد الآخر

فقد يقوم على نظم وأسس تعارف عليها العلماء وقد تأثر بها الذوق العام . ونقد قوامه اللذة التي تحس بها وانت مغمور بروعة الفن الذي تستجليه مقرونةً الى عوامل اخرى متعددة كوَّنت فيك ما نسميه بالذوق الخاص . فالذوق العام هو الذي يعطي النقد الادبي حظاً من الموضوعية . والذوق الخاص هو الذي يعطيه حظاً من الذاتية :

ونستطيع بعد ان نقسم النقد الى نوعين : علمٍ وفن . او الأولى ان نقول ان النقد ينتحل صفتين صفة العلم وصفة الفن . فالنقد وهو تعبير عن النفس وبحث عن الحقيقة والجمال لتذوقهما ينتحل صفة الفن . والنقد وهو فحص لتعبير الغير وطرقه ومحاولة معرفة اصوله ومصادره ينتحل صفة العلم

[للبحث بقية]

الغ بك

بين الحكم والعلم

لقدري حافظ طوقان

نشأ أُلُغ بك في القرن الخامس عشر للميلاد في بيت امارة وسلطان فقد كان والده يحكم بلاداً كثيرة ومقاطعات واسعة واتخذ هراة مركزاً له وعاصمة لملكه

ولد في سلطانية عام (٧٩٦ هـ — ١٣٩٣ م) وظهرت عليه علامات النجابة والذكاء مما حدا بوالده أن ينصبهُ اميراً على تركستان وبلاد ما وراء النهر ولما يبلغ عشرين عاماً . وقد جعل أُلُغ بك سمرقند مركزاً لأمارته وبقيت كذلك زهاء ٣٩ سنة استطاع فيها أن يقوم بأعمال جليلة ويسدي خدمات جلى للعلوم والفنون على الرغم من اضطراب الحالة ومحاولة بعض الأمراء ازعاجه بالتعدي على حدود بلاده . ولولا والده الذي احاطهُ بعنايته وعمل على دفع كل اعتداء عليه لما استطاع أن يصمد للصعاب التي كانت تنتابهُ بين آونة واخرى

وفي منتصف القرن الخامس عشر للميلاد (حوالي ٨٥٠ هـ — ١٤٤٧ م) توفى والده وانتقل الحكم اليه وجلس على عرش هراة . ومن هنا بدأت النكبات بالأنصباب عليه من كل جانب فقام بعض امراء الولايات يطلبون الانفصال كما قام آخرون يكيدون له ليؤول العرش الى ابنه عبد اللطيف . ومن الغريب ان امّه كانت تسند هؤلاء وتعضدهم فظن (أُلُغ بك) أنها تعين علاء الدولة وهو مطالب آخر بالعرش فسجنها وكان ذلك بعد وفاة والده شاهرخ بأيام قلائل ، « .. وذهب بها سجينة الى سمنان ثم غادر المدينة الى هراة ففتحها ونادى بنفسه حاكماً عليها .. » (١) ثم حدث بعد ذلك أن قام بعض الامراء فاستولى احدهم على شيراز واستولى آخر على كابل وغزنة وثالث على جرجان ومازندران وأحاطت به الصعاب وتخللها حروب دامية ومعارك حامية انتهت بالقضاء عليه. فلقد ثار ولده عبد اللطيف واستولى على بلخ وهزم اباه

(١) دائرة المعارف الاسلامية (المترجمة) مج ٢ ص ٥١٥

وأخاه عبد العزيز عند شاهرخيه وقد سلم اباه (ألُغ بك) الى عبد فارسي يدعى عباساً فقتله بعد محاكمة صورية وكان ذلك عام (٨٥٣ هـ — ١٤٤٩ م) بعد ان حكم عامين وثمانية أشهر .
ويُرجع العلماء سبب ما وقع بين ألغ بك وولده عبد اللطيف الى اعتقاد الاول بالتنجيم فلقد دلته أحكام النجوم على ان الثاني (أي ولده) سيثور عليه ويقتله ، ولذلك كان يرى المصلحة في ابقائه بعيداً عنهُ مما أدى الى تأصل حقد وشحناء بين الاثنين . ويرى بعض الباحثين ان الابعاد لم يكن العامل الوحيد لما حدث بينهما فهناك عوامل أخرى لا تقل شأناً عن (الابعاد) فلقد وضع (ألُغ بك) اسم ابنه عبد العزيز بدل اسم عبد اللطيف في وصفه لوقعة (ترباب) « ويقال ايضاً ان الأب رفض ان يعيد لابنه ما كان يحفظه في هراة من مال وسلاح . . . » (١)

***

أما في ميادين العلوم والفنون فقد كان ألغ بك اكثر توفيقاً،ولا شك انهُ لولا ما انتاب حكمه من محن ومصائب ولولا انشغاله في دفعها والوقاية منها — وقد استغرقت كثيراً من جهده ووقته — لولا هذه لتقدمت بعض فروع المعرفة اكثر من التقدم الذي أصابها في عهده ولكان النتاج العلمي أغزر وثمار المواهب أينع

كان صاحبنا أديباً لهُ مشاركة في العلم والفن « وقد حقق احلام تيمور بأن جعل سمرقند مركز الحضارة الاسلامية . . . » جمع فيها كثيراً من فحول الادباء وكبار الرياضيين وأعلام الهيئة أمثال جمشيد وقاضي زاده رومي والشاعر عصمت البخاري وميرم چلبي وطاهر الابيوردي ورستم الخورياني ومعين الدين القاشاني وغيرهم

أنشأ بسمرقند مدرسة عالية بها حمام مزخرف بالفسيفساء البديعة وعهد بادارتها الى قاضي زاده رومي . وبنى مرصداً زوّده بكل الآلات والادوات المعروفة في زمانه وقد زين احدى دوائره بنقوش تمثل الاجرام السماوية المتعددة جاءت غاية في الاتقان والابداع فأمهُ الناس من مختلف الجهات للتفرج عليه وكان في نظرهم إحدى عجائب الدنيا . امتاز هذا المرصد بآلاته الدقيقة ويقول صالح زكي : « . . . وامتاز المرصد بآلاته الكبيرة وهي من الدقة على جانب عظيم وفيها ربع الدائرة التي استعملت لتعيين قطب ارتفاع النقطة الموجود عليها المرصد . . »

(١) دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٧

ويقول (L. Bouvat) : « . . واستطاع المترجم (اي أُلُغ بك) في اثناء عمله معهم (اي مع كبار الفلكيين) استنباط آلات جديدة قوية تعينهم في بحوثهم المشتركة . . . »

***

وقد بُدئت الارصاد عام ٨٢٧ هـ وفُرغ منها عام ٨٣٩ هـ وعُهد لغياث الدين جمشيد وقاضي زاده رومي باجراء الارصاد بقصد تصحيح بعض الارصاد التي قام بها فلكيو اليونان اذ رأى أن حساب التوقيعات للحوادث على ما قرره بطلميوس لا يتفق والارصاد التي قام بها هو وكان من ذلك زيجه السلطاني الجديد الذي يقول بشأنه صاحب كشف الظنون : « . . . زيج ألغ بك محمد بن شاهرخ اعتذر فيهِ من تكفل مصالح الامم فتوزع باله وقل اشتغاله ومع هذا حصر الهمة على احراز قصبات طريق الكمال واستجماع مآثر الفضل والافضال وقصر السعي الى جانب تحصيل الحقائق العلمية والدقائق الحكمية والنظر في الأجرام السماوية فصار لهُ التوفيق الالهي رفيقاً فانتقشت على فكره غوامض العلوم فاختار رصد الكواكب فساعده على ذلك صلاح الدين المشتهر بقاضي زاده الرومي وغياث الدين جمشيد ، فاتفق وفاة جمشيد حين الشروع فيهِ وتوفى قاضي زاده ايضاً قبل تمامهِ فكمل ذلك باهتمام ولد غياث الدين المولى علي بن محمد القوشجي الذي حصَّل في حداثة سنه غالب العلوم فما حقق رصده من الكواكب المنيرة اثبتهُ ألغ بك في كتابهِ ... » [1] وبذلك استطاع ألغ بك أن يكمل زيجه المشهور (زيج كوركاني) او (زيج جديد سلطاني) الذي بقي معمولاً بهِ ومعترفاً بقيمته بين المنجمين في الشرق والغرب بضعة قرون [2] وعلي القوشجي المذكور ذهب الى بلاد الصين باذن ألغ بك وضبط قياس درجة من خط نصف النهار ومقدار مساحة الارض [3] . ويحتوي الزيج السلطاني على اربع مقالات :

الاولى : في حساب التوقيعات على اختلافها والتواريخ الزمنية وهي على مقدمة وخمسة ابواب . وقد أبان في المقدمة الباعث الى وضع الزيج كما اشاد بفضل الدين عاونوه

الثانية : في معرفة الاوقات والمطالع في كل وقت وهي اثنان وعشرون باباً .

الثالثة : في معرفة سير الكواكب ومواضعها وهي ثلاثة عشر باباً

الرابعة : في مواقع النجوم الثابتة

---

(١) كاتب — كشف الظنون ج ص ١٣ — ١٤

(٢) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ٢٨٩ وكتاب تراث الاسلام ص ٣٩٤

(٣) سيديو — خلاصة تاريخ العرب — ص ٢٣٢

ويعترف صاحب كشف الظنون وصالح زكي ان هذا الزيج هو من أحسن الازياج وأدقها . وقد شرحه ميرم چلبي وعلي القوشجي واختصره الشيخ محمد بن ابي الفتح الصوفي المصري [١] وطبع لأول مرة في لندن [٢] سنة ١٦٥٠ م ونقل فيما بعد الى اللغات الاوربية ، ونشرت جداوله في الافرنسية سنة ١٨٤٧ م [٣] كما نشر (كنوبل) ثبت النجوم بعد ان راجع جميع المخطوطات في مكتبات بريطانيا وأضاف حاشية عربية وفارسية وكان ذلك عام ١٩١٧ م [٤] . ويقول سيديو عن اعمال ألغ بك الفلكية : « . . . فكانت تتمة ضرورية للاعمال الفلكية المأثورة عن العرب . . » واشتغل صاحب الترجمة ايضاً بالمثلثات وجداوله في الجيوب والظلال ساعدت على تقدم هذا العلم [٥] واعتنى بفروع علوم الرياضيات الاخرى ولا سيما الهندسة وله فيها جولات وكثيراً ما شغل نفسه في حل اعمالها العويصة ومسائلها المعقدة . ولم يقتصر اهتمام ألغ بك على الفلك والرصد والرياضيات بل تبين لنا من سيرته انه كان فقيهاً أكبَّ على دراسة القرآن الكريم وحفظهُ وجودهُ على القراءات السبع . وفوق ذلك شغف بالشعر وقرَّب الشعراء واتخذ احدهم شاعراً لنفسه ، وعني بالتاريخ ووضع في تاريخ ابناء جنكيزخان الاربعة كتاباً عنوانه (اوغلوسي اربع جنكيزي) ويقول L. Bouvat : « . . . ويظهر انه ضاع ولو بقي لأصبح جليل القيمة في تاريخ ابناء جنكيز خان . . . » [٦]

***

وقبل الختام لا بدَّ لنا من الاشارة الى ان ألغ بك كان عمرانيًّا ذا ذوق فني وقد دفعه هذا الذوق الى العناية بالبناء فشيد (الخانقاه) التي فيها أعلى قبة في العالم والمسجد المقطع وزخرف داخله بالخشب المقطع الملوَّن على النمط الصيني ومسجد شاه زنده « والقصر ذا الاربعين عموداً بأبراج اربعة شاهقة والمزين بصف من عمد المرمر . . . » وأبنية أخرى كقاعة العرش او (الكرمشخانة) و (جيني خانه) ملأ حوائطه بالصور والنقوش الصينية [٧]

(١) كاتب جلبي — كشف الظنون ج٢ ص ١٤
(٢) تراث الاسلام ص ٣٩٧
(٣) سمث تاريخ الرياضيات — ج ١ ص٢٨٩
(٤) دائرة المعارف الاسلامية — ع٢ص ٥١٥
(٥) سمث تاريخ الرياضيات — ع ٢ص ٦٠٩
(٦) دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٣
(٧) راجع دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٣ — ٥١٤

****

فصل ثان من نشأتي الادبية —٢

الشعر والثقافة

لعبد الرحمن شكري

****

وقد ظهر أثر ثقافة جويتي ومذهبه في قصائد عديدة مثل قصيدة (التجدد في حياة الأمم) ومنها في مذهب التجدد بالثقافة : —

حياة الناس إما ماء نهر فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير قذاه ويأجن الماء الطهور

ومثل قصيدة (الايمان والقضاء) ومنها :

سكنات الايمان برء من الحز نِ ومأوى لهارب من قضاءِ
يلجُ النفس بالثبات وبالعز م ويطوى جوانب الضراءِ

ومثل قصيدة (الحياة والعبادة) ومنها :

أكذب الدين ما ينيمُ قوى النفس كما يخرسُ الرياحَ الركودُ
انما الدينُ ان يجدَّ مجدٌّ أعمل السعيَ او يجيدَ مجيدُ

وقصيدة (القلق والنقلة) ومنها :

إنَّ عتباً على القضاء سفاهٌ غاب عنهُ مطالع النعماء

وقصيدة (الحياة والعمل) ومنها :

والعيش سر أنت باحثه فعسى تجوب مجاهل السُّبُلِ
والنُجحُ ليس بخير مكتسبٍ كم نجحة شر من الفشلِ

وقصيدة (الباحث) الطويلة وهي تقديس لبحث الثقافة والعمل في الحياة وهي من أثر جويتي من الناحية الثقافية ومن إثر شلي من ناحية الطموح الى المثل العليا ومنها : —

أنشد الحق بالتَّقلُّبِ في العيشِ وأبغي سريرة الأشياء

والانسان الخيالي الموصوف في القصيدة بانهُ قد خلَّدهُ البحث فيه التفات ايضاً الى فكرة اليهودي التائه المحروم من الموت عقاباً. ومن القصائد التي دعت اليها الثقافة ايضاً قصيدة (الامل)

الطويلة و (المجاهد الجريح) و (الانسان والكون) و (الانسان والزمن) التي مطلعها : —

حيوانٌ مُهَذَّبُ ام الَه مُعَذَّبُ

وقصيدة (قوة الفكر) وقد نشرت الاخيرة في المقطم ولعل قصيدة (الأمل) من أحسن ما كتبتُ من الشعر

(٣) والمصدر الثالث لثقافتي الجديدة كان المصدر الجامعي وكنا ندرس التاريخ والجغرافية والاقتصاد والنظريات السياسية ونُظُم الحكم وقد درست فيما درست تاريخ الأغريق والرومان وآدابهم وحياتهم وتاريخ فنونهم في طبعة بوهن وغيرها وكان لهذه الدراسة اثر فيما قلت شعراً ونثراً . فمن قصائد هذه الثقافة قصيدة (الجمال والعبادة) وفيها وصف عبادة الاغريق القدماء للجمال في مظاهره المختلفة مما ادى الى تخليف آثار جميلة من المعابد والتماثيل ومن هذه القصيدة

كم أُمَّةٍ احكمت بالحسن دولتها فَخَلَّفَتْهُ وأودى مجدُها الفاني

تلك التماثيل ام هذي المعابد ام تلك الفنون عليها خير عنوان

يارُبَّ مَرْأى لنامنها ورُبَّ مُنىً فيها وحسنٍ قديم العهد (يوناني)

لم يحبس المرء عن آماله فَرَقٌ منها ولم يَثْنِهِ عن عزمهِ ثاني

لم يُزْرِ بالحق حبُّ الحسن بينهمُ فالحقُّ والحسنُ إن فكرت سيَّان(١)

ومن مظاهر هذه الثقافة قصيدة (ام إسبرطية) قتلت ابنها لجبنهِ عن الدفاع عن إسبرطة وطنه وقصيدة (الحسن والآمال النبيلة) وفيها تمنى النفس تصوير مُثلِها العليا في شكل تماثيل كتماثيل الاغريق القدماء . وقصيدة (ايكاروس) العبد الروماني في وصف اثر معاملة الرومان للعبيد في النفوس وقد كان لدراسة الفنون الاغريقية وعبادتهم(٢) للجمال اثر في النفس جعلني اعد الجمال ثقافة وان افهم قول الاديب ولعله رتشارد ستيل : (إنَّ رؤيتها كانت ثقافة سخيَّة) . ومن اثر دراسة خرافات الاغريق قصيدة (ليتني كنتُ إلهاً) والذي يقرأ القصيدة يرى فيها اثر لوسيان الساخر الاغريقي (طبعة بوهن) كما يرى فيها اثر هيني الساخر الالماني ولكن الذي يقصر معناها على اثر الخرافات الاغريقية ولوسيان وهيني يخطىء خطأً كبيراً فان مغزاها الحقيقي بالرغم من اطراءِ الفنون هو مغزى قصيدة (قصر الفن) للشاعر الانكليزي تنيسون والمغزى هو ان قصر أحاسيس النفس على لذات الفنون ، قد يجلب الضرر والفساد كما يُقرأ في الجزء الاخير من القصيدة . ومن أثر دراسة تاريخ الفنون الاغريقية أيضاً قصيدة (الحياة والفنون) ومنها :

منْ عَلَّمَ المرء في بدايته صُنْعَ مفيد الآلات والقُضُب

(١) هذا البيت في الشطر الثاني منه معنى قول للشاعر كيتس الانكليزي

(٢) لم يكن المثقفون من الاغريق يعبدون التماثيل والمراد بعبادتهم للجمال شدة الاعجاب بالفنون

من علّمَ المرء ان يقيم على ال أرض بيوتاً مرفوعة الطنب
من علّمَ المرء ان ينال من الـــمزمار والصنج لذة الطرب
يحكي بها ضربه مغازلة الـــعاشق ليناً وسورة الغضب
يحكي بها الجد إذ يجد بهِ الـــدهر وطوراً كرقصة اللعب
من علّمَ المرء ان يخط على الـــقرطاس لوناً من أعجب العجب
يحكي بهِ الضوء والدياجير وال أجسام من ناضر ومن شحب
كأنما يقبس الضياء من الـــشمس ويأتي بظلمة السحب

الخ الخ — ومن أثر دراسة الخرافات الاغريقية ايضاً قصيدة (نرجس) وهي انشودة في موضوع يُشْبِهُ قصة نرسيس المعروفة في خرافات الاغريق بعد تحوير في المعنى ومنها :—

نرجسُ أنت الحسن يا نرجسُ تشتاقك الابصار والأنفس
تحنو على الغدران مستأنساً يا زهرة في روضها تُغرس
تبصر وجه الحسن في مائها بحسنه كل امرىءٍ يأنس
حتى اذا البدر بدا ضوءه يزينه في ثوبه الحندس
أفقت في جسم كجسم الدُّمى يُلتذُّ منهُ الشم والملمس
كالدر من أصدافه خارجاً والدر في اصدافه يخرس
نرجس أنت الحسن يا نرجس يقبس منك الطرف ما يقبس الخ الخ

(٤) و (٥) والمصدران الرابع والخامس من مصادر ثقافتي الجديدة كانا في دراسة آداب اللغات الاوربية الحديثة انكليزية او منقولة الى اللغة الانكليزية . فمنها دراسة الادباء الساخرين أمثال هيني وفولتير وسويفت واناتول فرانس واخيراً سمرست موام . ومنها دراسة الادباء الذين اشتهروا بتحليل النفس اما في قصص طويلة أو قصيرة مثل دكنز وثاكري وتولستوي وتورجنيف ودستويفسكي وميرجكوفسكي ومثل بالزاك وفلوبيرت وموباسان وبروست وكونراد وغيرهم . واصحاب النظرات في كلمات موجزة مثل لارشفوكولد ولا برويير . وانا مدين لهؤلاء ولكثيرين غيرهم ولا استطيع احصاء كل أثر لهم لأن اكثر تأثري بهم كان عن غير قصد ولكني اذكر على سبيل الامثلة ان قصيدة (الحق والحسن) التي نشرت في المقتطف كانت تعبيراً عن الصراع العنيف الذي قاساه تولستوي بين نشدان الجمال الفني والحقيقة الروحية والذي دعاه الى رفض كثير من مظاهر الفنون والآداب في كتاب (الفن) الذي الفهُ . وقصيدة (حواء الخالدة) التي نشرت في المقتطف ايضاً بعثني الى نظمها إعجابي بوصف جوزيف كونراد لسحر امرأة في قصته (السهم الذهبي) وفيها يتخيل انها جمعت في شخصها سحر النساء

جميعاً قديماً وحديثاً. وقصيدة (عجز التجارب) التي نشرت في الرسالة مؤسسة على فكرة عرضت لبروست ولغيره من القصصيين وهي ان الخبرة والعرفان اللذين يكتسبان بالتجارب قلما يتغلبان على طباع الانسان. وقلما ترى قصيدة ليس فيها اثر لاكثر من مفكر. فقصيدة (قيد الماضي) التي نشرت في المقتطف ايضاً بها بواعث من ادباء عديدين فالمطلع وهو

اخذنا عن الماضي قليلاً من النهى واكثر ما نلنا الهواجس في النفس

مؤسس على مبدأ من مبادىء فلسفة الفيلسوف برجسون الفرنسي والبيت الثاني والثالث والرابع تلخيص لصفات النفوس التي وصفها الكاتب فردريك بروكوش (١) في قصة السبعة الذين هربوا والبيت

بناء المعالي كان بالشر قائماً وما طربوا إلا الى نَغم النُحْس

دعت اليه دواع عديدة فمنها ماكان من قراءة قول محمد بن هاني الاندلسي

ولم يتجَمَّعْ لامرء كان قبله بناء المعالي واجتناب المآثم

ومنها ماكان من أثر قراءة قصة (الدير) لاناتول فرانس وفيها يصف انساناً ذهب الى الدير وتجنب حتى قول الخير وعمل الخير لأنهُ وجد انهما كثيراً ما يبعثان الناس الى عمل الشر. ومن فكاهات اناتول فرانس انهُ قال لذلك الانسان ساخراً (لكن ألا تخشى ان يتخذ الناس انقطاعك عن الاقوال والاعمال (حتى ماكان منها خيراً) عقيدة يقتتلون بسببها فيرتكبون الشر الذي حاولت ان لا يرتكبه أحد بسبب فعلك أو قولك). ومن دواعي نظم البيت ايضاً وصف الدكتور هافيلوك ايلس في كتاب (رقصة الحياة) لما يخالط معالي الحضارات وجدها من شرور ودعا اليه ايضاً وصف جورج مور في كتابه (اعترافات شاب) كيف ان جلائل الاعمال الفنية قد مكَّن من صنعها ارتكاب الشرور في الحضارات المختلفة. والبيت الاخير مثلاً وهو

يقولون ان الحق في النفس قوة وأقوى من الحق الجهالة في النفس

قد بعث على نظمه قول شيلر الشاعر الالماني ويعني آلهة خرافات الاغريق : (عبثاً تحاول الآلهة ان تقضي على قوة الجهل والغباء)

قد كان من أثر دراسة ادباء السخر أو التحليل نظم قصائد في السخر والتحليل منها (سعار الغرور) و (حلم بالبعث) (٢) و (خساسة التعاسة) و (سجن الفضيلة) و (قرد النهى) و (جد أم لعب) و (اختفاء الحق) و (وصف الطبـاع) و (مظاهر الصداقة والعداوة)

---

(١) في القصص الروسية ايضاً نفوس تشبه هذه النفوس. والظاهر ان بروكوش متأثر بدراسته الادب الروسي أو مزاجه مثل مزاج الكتاب الروس

(٢) أوضحنا ان القصد من قصيدة (حلم بالبعث) نسبة ماكانوا عليه في الحياة من التكالب والتزاحم والتقاتل اليهم فهي سخر بعيوب الانسانية

و (النجاح) و (آلة الضمير) و (درع الحياة) و (صديق البلاء) و (مرآة الضمائر) و (صلح الدهر) و (اقوام بادوا) و (عبيد الحياة) الخ الخ .

وقد بقي معي أثر بيرون وشلي فقصيدة (الزوج الغادرة) هي (ميلو درامة أو درامة) على نمط قصص بيرون و (لسان الغيب) و (الشاعر وصورة الـكمال) من أثر شلي. وقد غالى بعض الـكتاب في أثر من سموهم الشعراء الطبيعيين وكانوا يرفضون الطبيعة ويريدون تجميلها بالفنون فهي تسمية غير صحيحة. وأعني أثر سوينبورن وبودلير وروزيتي وأوسكار وايلد وأمثالهم. وقد كان يكون غريباً بعد ماشرحت من اسباب تنوع جوانب الثقافة في شعري أن لا يكون لهؤلاء أثر ولـكن قصيدة (بين الحب والبغض) لم تكن من أثر سوينبورن بل هي دراسة سيكولوجية دعا اليها قول جميل ابن معمر (رمى الله في عيني بثينة بالقذى). وقصيدة (سلوان الجنون) هي أيضاً دراسة سيكولوجية دعت اليها ابيات في كتاب (مصارع العشاق) تبدأ بكلمة (عسى) كما في قصيدتي وقصيدة (الازاهير السود) ليست من أثر دراسة (ازاهير الشر) لبودلير ولـكنها انشودة قيلت على لسان التعساء وما بها من التشبيهات والاستعارات لها اشباه ونظائر في الشعر العربي. وقصيدة (الازاهير السود) قد عدها ناقد من الطريقة الرمزية وهي ليست كذلك واذا كان بها أثر لبودلير فليس من العقل أن يحتكر بودلير وصف الشقاء . ولا انكر أن في بعض شعر بودلير قوة عظيمة وخيالاً قوياً ولـكنهُ محدود الثقافة متشابه النتاج ولا يصف الا جانباً واحداً من جوانب الحياة والنفوس وقد منعني من أن اتوغل في هذه المذاهب أو ان اقصر قولي عليها اولاً تأثري بمبدأ الثقافة العامة في قول جوبتي وقدوته وثانياً اطلاعي على نقد ماكس نور داو لهذه المذاهب ومن أجل ذلك قلما اعرض في قصيدة جانباً من الاحاسيس أو المشاهد الا واعرض ما هو ضده طلباً للاتزان الفكري ففي قصيدة (النساء في الحياة والموت) ابيات في وصف مقابح الموت ربما كانت شبيهة بمذهب سوينبورن أو بودلير ولـكن بها عكس ذلك في مثل هذه الأبيات : —

بعد أنْ كُنَّ للعيون جلاءً فاتنات بأعين وخدود
ماثلات وجه الحياة ضياءً عابثات بمسعدات الجدود
هز منها الهوى ثمار صباها هزَّة الريح زهرة الاملود

وأما قصيدة (صوت الموتى) فهي وصف لأثر قطعة موسيقية في هذا المعنى . وفي قصيدة (الملك الثائر) بعد اقوال الملك في ثورته أوْرِدُ ما يجعل النفس تطمئن الى الحياة طلباً للاتزان الفني كما ذكرت وكما في قصيدة (سر الحياة) و (بين الحب والبغض)

(٦) والمصدر السادس وهو الاول الذي بدأت به المقال السابق والأخير الذي اختم

بهِ هذا المقال هو ثقافة الادب العربي والشعر العربي . ومن اطلع على مقالاتي في نقد شعراء العرب والشعر العربي يعرف اني لم اقصّر في اجتباء هذه الثقافة التي بدأتها وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية ولن انتهي منها في الحياة. وقد ذكرت شواهد عديدة من شعري تدل على أن اطلاعي على الادب الاوروبي لم يصرفني عن الاسلوب والشعر العربي. وفي كل عام اكتب مجموعة جديدة من الشعر العربي. وقد كنت جمعت من شعر العذريين وغيرهم بعد عودتي من انكلترا مجموعة سميتها ذخيرة الذهب في المنتخب من شعر العرب وكانت تغلب عليها النزعة العذرية وهي سبب ظهور تلك النزعة في الجزء الثالث من شعري . ولم استطع ان احصي في هذا المقال كل من تأثرتهم من الشعراء والكتاب والقصصيين والمفكرين والفلاسفة والنقاد من عرب وأفرنج واذا كنت قد عبرت عن جانب التشاؤم فقد عبّرتُ عن جانب التفاؤل في قصائد عديدة . وكان بعض التشاؤم استحثاثاً للهمم كما في قصيدة (شهداء الانسانية) التي اتخيل فيها شهداء الانسانية على باب الحياة يتساءلون هل ضحوا بحياتهم وسعادتهم عبثاً ام تحققت احلامهم وزالت الشقاوة والشر والظلم . وفي قصيدة (الموت) جعلت الموت نفسه مظهراً من مظاهر الامل وباعثاً لهُ وفي قصيدة الامل الطويلة وصفت آثاره في النفس والحياة ومظاهره المختلفة وجعلت حتى إخلافه سعادة وهي التي مطلعها : —

(ألا عِدْ وأخلفْ أنت بالوعد مانح)

ولا يوضح الفرق بين مذهبي في الثقافة الشعرية ومذهب بودلير شيء اكثر من مقابلة قطعة له قصيرة عنوانها الثائر (في كتاب أغاني أوربا) طبعة كانتربوري بقصيدة لي طويلة عنوانها (الملك الثائر) فقطعة بودلير فكرة واحدة — وكثيراً ما يكون بودلير من أصحاب الفكرة الواحدة الملحة المتغلبة على النفس — وهي ان انساناً أبى ان يحب التعساء والتعاسة فجاء ملك وامسك برقبتهِ من الخلف وأراد ان يرغمه بالقوة على ان يحب التعاسة والتعساء فضرب الرجل الارض بقدمهِ وقال لا أفعل ذلك ما دمت حيًّا . فاذا وجد قارىء اكثر من هذا المعنى في قطعة بودلير فليذكره . اما قصيدتي (الملك الثائر) فهي قصة ملك أخذتهُ الشفقة على الانسانية فأبى عيشة النعيم الأبدي والسعادة الخالدة وكمال الملائكة وهبط الى الارض كي يرد الناس عن شرهم وليجلب لهم السعادة وليزيل عنهم النحس فاضطهدوه وصلبوه وهتف هاتف من السماء بحكمة الله في استخراج الخير والرحمة والفضائل كلها من الشر الذي يقع في الحياة وهذا الختام في القصيدة مظهر من مظاهر الاتزان الفني الذي أشرت اليهِ وقلت أني التمستهُ بالثقافة في الشعر وربما كان من تمام الدلالة على تلك الثقافة ان أخصص مقالاً لما عالجته من صنوف النسيب والتشبيب ومصادر الثقافة فيهما



التعقيم

بين انصاره ومعارضيه

للدكتور شريف عسيران

﴿ تعريفه ﴾ العُقم لغةً هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد[1] ورجل عقيم وعَقام وامرأة عقيم لا يولد لهما ولد. والتعقيم تعمد اجراء العقم بوسائط صناعية. وكان الملوك والخلفاء يعقمون الرجال الذين يستخدمونهم في حرمهم بسلّ خُصاهم[2] فيزول منهم الميل الجنسي. ويقال لمثل هؤلاء خصيان جمع خصي وهو الذي سلت خصيتاه وكان الخصي مذلة. وقد عير المتنبي كافوراً بقوله

من علم الاسود المخصي مكرمة   آباؤه البيض ام اجداده الصيد

﴿ تاريخهُ ﴾ التعقيم طريقة ابتدعتها الأمم الراقية في عصرنا الحاضر لمنع نسل المصابين بعاهات وراثية كالمجانين والحمقى والبله وأضرابهم ممن يكونون عالة على امتهم ويحطون من جودتها

اول من مارس عملية التعقيم بصورة غير شرعية (قانونية) الدكتور هري شارب Dr. Harry Sharp وهو طبيب اميركي من جفرسنفيل بولاية انديانا فقد شرع باجراء هذه العملية سنة ١٨٩٩ وكان القانون الاميركي لا يجيزها وكان يجريها برضاء الشخص فحصل على نتائج مرضية. وقد سنت هذه الولاية قانوناً سنة ١٩٠٧ حلّل اجراء عملية التعقيم ثم تممت في غيرها من الولايات المتحدة. وسنت ٢٧ ولاية منها قانوناً يجيز إجراء هذه العملية وحذت حذوها مقاطعتا البرتا وكولومبيا البريطانية بكندا والدانمارك وألمانيا ومقاطعة فود بسويسرا وولاية فيرا كروز بالمكسيك ومدينة دانتزك الحرة[3] ويقدر عدد العمليات التي اجريت لتاريخ سنة ١٩٣٣ بنحو ١٦٠٠٠ عملية[4]

إن لفكرة التعقيم أنصاراً ومعارضين شأن كل فكرة جديدة وسنلخص آراء الفريقين بغاية الاختصار منعاً للتطويل الممل:

﴿ حجج المناصرين ﴾ يقول المناصرون ان معدل الفهم آخذ بالانحطاط عند الأمم المتمدنة فالواجب يقضي برفع مستوى الامم العقلي بتقليل نسل الفئة المنحطة والقضاء عليها تدريجيًّا.

(١) تاج العروس (٢) يقال هو اغفل من خاصي الخنثين وهو مثل اصله ان جماعة من المخنثين كانوا في المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك الاموي فأراد ان ينفيهم منها فكتب الى عامله فيها ابي بكر عمر بن حزم احص من عندك من المخنثين فاتنق ان نقطة من السطر الاعلى وقعت فوق الحاء فصارت خاء فخصاهم (البستان)

(٣) Scientific American, July. 1934 p. 18 (٤) Applied Eugenics, p. 150

ويقدرون نسبة ناقصي العقول في انكلترا ممن لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم بواحد في الالف [1] ويقدر هذا الصنف بالولايات المتحدة بخمسة وعشرين مليوناً . وقد بلغ عدد ضعاف العقول والمصروعين سنة ١٩٢٩ في معاهد الولايات المتحدة ٦٤٢٥٣ نفساً والمترددين الى السجون سنة ١٩٣٠ مقدار ١١٦٣٠ شخصاً . وظهر من احصاء سنة ١٩٣٠ انهُ يوجد حوالي ٦٣٤٨٩ أعمى و ٥٧٠٨٤ أخرس . ويوجد ما يقرب من العشرة ملايين عاطل . ومن أقوال الرئيس فرانكلن روزفلت ان ما يقرب من نصف هذا العدد غير أهل للحياة الصناعية [2]

وتتلخص عقيدة الولايات المتحدة في الجملة الخالدة التي نطق بها القاضي هومز O.W. Holmes حيث قدمت امرأة ضعيفة العقل عريضة للمحكمة تطلب فيها تعقيمها وقد ولدت هذه الامرأة ولداً ضعيف العقل وكانت امها ايضاً ضعيفة العقل ولما رفعت العريضة الى محكمة الولايات المتحدة العليا قال القاضي الذي اصدر الحكم « يكفي ثلاثة اجيال من البله » [3]

﴿ المانيا ﴾ سنت المانيا قانون التعقيم في ٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٣٤ ولا تختلف مسوغاتها لهُ عن مسوغات غيرها من الامم فانها تنفق في مدارسها على كل تلميذ صحيح العقل ٧٥ ماركاً بينا تنفق على الضعيف العقل اضعاف هذا المبلغ في السنة ويكلف المجنون الواحد الحكومة ودافع الضريبة ٦ — ٨ ماركات يومياً . ان الكتبة في المانيا لا يحصلون قدر ما تنفقه الامة على البله والمجانين والمجرمين وأضرابهم . وليس للطبقات المتفوقة في المانيا الآن اكثر من ولد أو ولدين ومن النادر جداً ان تجد عدة اولاد للاسر ذات الوراثة الصالحة [4]

(٢) الحجة الثانية التي يستند اليها المناصرون اقتناع كثير من الامم المتمدنة بصدق هذه النظرية واجماعهم على سن القوانين الاجبارية لتنفيذها

(٣) سهولة اجراء العملية وخلوها من الخطر على حياة المرء وأمياله الجنسية والنفسية

(٤) الاستيثاق من ان الشخص الذي تجري عليه عملية التعقيم مصاب بأمراض وراثية تضر النسل بعد فحصه من قبل جماعة اخصائيين وبعد موافقة الشخص نفسه على اجراء العملية

(٥) اعتقادهم ان التعقيم يشجع المصابين على الزواج بعد تعقيمهم ولا ينفرهم منهُ إذ لو لم يعقموا و كان لهم أولاد لعجزوا عن القيام بأودهم لان تحصيلهم دون الاصحاء عقلاً وهذا يثني عن الزواج وإخلاف النسل

﴿ المعارضون ﴾ ذكرنا اهم حجج المناصرين ونلخص الآن حجج المعارضين

(١) ليس من حق الحكومة سن قانون كهذا يرمز الى الاستبداد ويجعل الفرد للحكومة لا الحكومة للفرد فضلاً عن انهُ عمل مخالف للشريعة والآداب

(١) Eugenic Sterilization 2nd. Edition (٢) Scientific American vol. 150, p. 292
(٣) Applied Eugenics p 156 (٤) Scientific American, September 1934, p126.

(٢) انكارهم ان الطبقات العالية ارقى عقلاً من الطبقات المنحطة او خيراً منها بنفعها للمجتمع وان نسل الذكي يكون ذكيًّا والأبله أبله والمجنون مجنوناً وأن نسل الطبقات السفلى يزداد اكثر من ازدياد نسل العليا وليس من الضروري ان يكون نسل هذه الطبقة ضعيفاً او ابله

(٣) ادعاؤهم ان العالم يحتاج الى الطبقة السفلى لتقوم بالاعمال التي لا تتطلب ذكاء . وان العلماء متفقون على الصفات التي تنتقل بالوراثة وان المحيط عامل كالوراثة في نقل الصفات العاطلة وان الذين يعقمون لا يعيشون سعداء

(٤) حجتهم ان التعقيم لا يحرر الامة من المجانين وضعاف العقول والمصابين بمختلف العاهات الوراثية لان الصحيح يحمل صفات معيبة قد ينقلها الى نسله وهذه الصفات تكون كامنة اومستورة

(٥) قولهم ان التعقيم يشجع على الزنا ونشر الامراض الزهرية وفساد الاخلاق ومن المعارضين الذين يشار اليهم بالبنان الاستاذ الشهير J. B. S. Haldane ولا بد من ذكر بعض آرائه لانهُ من ألمع الاقطاب في علوم الاحياء . ان هالدين لا يعتقد ان التعقيم يفيد من وجهة اصلاح النسل وتتلخص آراؤهُ في ما يلي: (١) ان التعقيم يمنع ولادة الاسوياء وغير الاسوياء على حد سواء (٢) الامراض التي يعقم الناس لاجلها غير خطيرة ولا مقعدة للانسان عن العمل وانما هي مزعجة ويضرب مثلاً للعمى ملتن وللصمم بتهوفن . فان عمى الاول وصمم الثاني لم يحولا دون بروز عبقريتهما (٣) يقضي التعقيم على اكثر الامراض الوراثية ولكنهُ لا يقضي عليها كلها (٤) يموت عدد كبير من المصابين بامراض وراثية خطرة قبل ظهور علامات المرض فيهم وقبل سن البلوغ فلا داعي لتعقيمهم (٥) اذا اردنا القضاء على الامراض الوراثية فلا ينبغي ان نقتصر على تعقيم الاباء بل علينا أن نعقم الابناء أيضاً (٦) ان تعقيم المصابين بنزف الدم الوراثي (هيموفيليا) يعرض حياتهم للخطر (٧) هبك أنا قضينا على الامراض الوراثية بالتعقيم فالتحولات الفجائية Mutations تولد مثلها (٨) من المعلوم في علم الوراثة ان الصفات الجيدة تغطي العاطلة (٩) ان كثيراً من العيوب الوراثية تكون بصورة كامنة (Recessive) فلا تظهر وتنتشر بالرغم عنا (١٠) أن المصابين بالضعف العقلي يستطيعون عملَ عملٍ ، فلا مسوغ لتعقيمهم (١١) لا يوجد في كل انكلترا اكثر من ستة اطباء وامرأة واحدة يعتمد عليهم في معرفة الامراض الوراثية الخطرة على النسل والتي توجب التعقيم[(١)]

واذا قابلنا حجج المؤيدين بحجج المعارضين رأينا تطرفاً في الفريق الثاني وميلاً الى العاطفة والمنطق الكلامي فأي عقل أو شرع يبيح انتشار المجانين والبله والمصروعين وأضرابهم. فما لا شك فيه أن كل امة ترغب في أن يكون نسلها صحيحاً قويًّا سالماً من العيوب وأن تتخلص من العاهات

(١) راجع : Heredity and Politics, J. B. S. Haldane 1938 p. 15,17
ايضاً: Scientific Progress, 936, p. 145

الوراثية . فأنصار التعقيم لا يقولون باجرائه جزافاً بل في العاهات التي يثبت انها وراثية فهم لا يقولون ان كل أنواع الجنون والصرع والبله وراثية بل يعترفون ان منها ما هو وراثي ومنها ما هو غير وراثي ويحصرون التعقيم في النوع الاخير بعد التثبت الدقيق بواسطة ثقات الاخصائيين المشهود لهم بالكفاءة العلمية ونزاهة الوجدان . نعم لا يزال العلم يجهل الكثير من حقائق الوراثة ولكنهُ أماط اللثام عن كثير منها واتفق العلماء على ان بعض نواميس الوراثة التي تسري على الحيوان تسري على الانسان أيضاً . واذا كان يحق للحكومة ان تسجن السارق وتعدم القاتل وتتصرف بمصلحة الفرد لما فيهِ خير المجموع، يحق لها ان تسعى لتقليل عدد المجانين والبله وضعاف العقول والمصروعين والمدمنين ومنع انتشار أمثالهم . ان انصار هذا المذهب لا يدعون ان التعقيم كفيل بازالة كل العاهات الوراثية بل يعترفون انهُ يقلل عددها فقط ويؤول تدريجيًّا الى تحسين النسل فهو خطوة صغيرة الى الامام . وقد اتخذت الامم التي سنت قوانين كهذه كافة الاحتياطات لتأمين مصلحة الفرد وهي تبث الدعايات الصالحة في هذا السبيل حتى ان كثيرين من المصابين صاروا يطلبون من تلقاء أنفسهم اجراء هذه العملية عليهم . ولم يثبت ان اجراءها يدفعهم الى اتيان الفاحشة بل ثبت عكس ذلك فان الفواحش اللاتي أجريت لهنَّ هذه العملية تحسنت أخلاقهنَّ وارتدعنَ عن اتيان المنكر لان دخولهنَّ المؤسسات المعدة لهذه العمليات أسبغ عليهنَّ شيئاً من التربية والاخلاق . أما الخطر الذي يتوقعه المغالون من ضياع بعض النوابغ من جراء التعقيم فقد أجاب عليهِ بوبنو بالعبارة الآتية . لا تحرم الامة شكسبير او ارسطاطاليس من التعقيم الحديث لغاية اصلاح النسل بل بالعكس فان تقليل البله وضعاف العقول يفتح مجالاً أكبر لظهور المتفوقين ذكاء (١)

﴿ الوجهة الدينية ﴾ اما المانع الديني فقد اجابت عنه الحكومة الالمانية في بيانها المسوّغ لسن قانون التعقيم وقد جاء فيه ان غلمان المرتلين(Choir Boys) في كنيسة سستين Sistine Chapel كانوا يخصون في القرن التاسع عشر للاحتفاظ بنعومة اصواتهم (٢)

﴿ الامراض الموجبة للتعقيم ﴾ هي الجنون الوراثي، البله الوراثي، ضعف العقل، الصرع ، العمى ، الصمم، وغيرها من الامراض والعيوب الوراثية وقد بحثنا موضوعها بحثاً وافياً في مقالاتنا السابقة (٣) . ويشمل بعضهم الاجرام والادمان أي ادمان الكحول والمخدرات ولم يثبت حتى الآن ان الاجرام والادمان وراثيان ويعتقد عدد من الثقات أن المحيط عامل قوي فيها وأن المرء يرث في حالات كهذه مزاجاً خاصًّا يجعله ضعيف الارادة فتتغلب عليهِ العوامل المحيطية وعلى كل ليس المجرمون والمدمنون قدوة حسنة ولا هم آباء صالحون

(١) Applied Eugenics, p. 157 (٢) Secintific American vol 151, p. 127

(٣) راجع المقتطف مارس ١٩٣٨ ص : ٣٣١٣ العلل الوراثية الجسمية والعقلية

﴿ عملية التعقيم ﴾ تجري عملية التعقيم للذكر أو الانثى وهناك ثلاثة اسباب لاجرائها على الانثى (١) طبية (٢) اجتماعية (٣) لاصلاح النسل. والاخير هو بيت القصيد وطرق التعقيم متعددة (١) كيميائية (٢) اشعاعية (بواسطة الاشعة السينية) (٣) جراحية. وسنلم الماماً بكل من الطرق زيادة للفائدة وتمياً للبحث

﴿ الطريقة الاحيائية الكيميائية ﴾ (Biochemical) تتوقف على اساس استعمال الامصال التي تحقن في الجسم وتكون مادة مضادة لها فيحقنون سائل الذكر المنوي تحت جلد او في وريد أنثى فيتولد في جسمها مواد مضادة للحمل او يحقنون الذكر بخلاصة المبيض فيصير الذكر عقيماً او الانثى بخلاصة خصية الذكر فتعقم . ورغماً عن إيمان بعض ثقات الاطباء بصحة هذه النظرية فلا قيمة عملية لها ولم تخرج من قيد النظريات والاختبارات

﴿ الاشعة ﴾ من المعروف ان أشعة اكس تؤثر في أعضاء التناسل وتسبب العقم لمن يشتغلون بها ولهذا يضعون حاجزاً كثيفاً يحول دون اختراقها أجسامهم فتعريض المبيضين والخصيتين لدرجة خاصة من أشعة رنتجن يسبب العقم ولهـذه الطريقة محاذير لامجال لذكرها هنا وهي كالطريقة الاولى لا تزال نظرية ومحفوفة بالاخطار

﴿ الجراحة ﴾ هي بيت القصيد والمعول عليها في اجراء التعقيم وتجري على الذكر والانثى واجراؤها على الاخيرة أما موقتاً او دائماً فالطريقة الوقتية تعمل بدفن قناتي فالوب في صفان البطن (البريطون) سنة او سنتين او اكثر بحسب المدة المطلوبة فلا تستطيع البويضات بلوغ الرحم وبعد مضي المدة تعمل عملية ثانية وتعاد القناتان الى حالتهما الطبيعية وتجري عملية التعقيم الدائم بطريقتين (١) سل المبيضين اللذين يقابلان الخصيتين في الذكر وهي عملية بربرية تسلب المرأة حاستها الجنسية وتفقدها شطراً كبيراً من حيويتها وتؤثر تأثيراً سيئاً في نفسيتها وعقليتها (٢) استئصال قناتي فالوب اللتين تدخل منهما البويضات وهي لا تسلب المرأة شيئاً من خصائصها النفسية(١)

﴿ الذكر ﴾ ان عملية التعقيم في الذكر اسهل من الانثى وتجري تحت البنج الموضعي ولا تستغرق اكثر من نصف ساعة بيد المدرب وطريقتها ربط القناة المنوية في الجانبين وقطعها فينسد طريق النطف المنوية ولا تستطيع الوصول الى الرحم وهي لا تفقد الرجل شيئاً من خصائصه النفسية والجنسية والمعول اليوم على هذه الطريقة نظراً لسهولتها وقصر الوقت الذي تستغرقه وخلوها من الخطر. اما استئصال المبيضين في الانثى فيتطلب فتح البطن وتعريض المرأة للخطر ولهذا يفضلون اجراء التعقيم على الرجل . هذه لمحة صغيرة عن التعقيم ذكرناها من وجهة اصلاح النسل ولم نشأ التطويل فيها لان المقتطف الاغر بسط جانباً منها في اعداده السابقة

(١) راجع Fertility & Sterility in Marriage, Van de Velde 1931, p. 366

****

تأسيس سامرا

— ٢ —

بقلم الكبتن كرزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول

وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية ببرلين

****

الجوسق الخاقاني او قصر المعتصم

قام بكشف أطلال هذا القصر العظيم العالم الأثري فيولية Viollet سنة ١٩٠٧ غير أن اعماله لم تكن سوى تمهيد للاستكشافات العظيمة التي قامت بها البعثة الأثرية الألمانية فيما بعد باشراف العالمين الكبيرين زره Sarre وهرتسفلد Herzfeld . ومع مضي اكثر من عشرين عاماً على هذه الاعمال فإن البعثة لم تنشر سوى تقرير موجز عن نتائج استكشافاتها بقصر الجوسق الخاقاني

وقد تفضل الدكتور هرتسفلد رئيس هذه البعثة بأعارتي التخطيط العام الذي عملته البعثة عن هذا القصر وقد استعنت به وبغيره من الرسوم والصور الشمسية التي لزخارف المنشورة بكتاب Wandschmuck في دراسة هذا القصر وانني أرجو بعد هذه الدراسة واعتماداً على مشاهداتي الخاصة لباب العامة أحد ابواب هذا القصر منذ عامين أن اوفق في رسم صورة واضحة للقارىء عن هذا البناء الهائل . وإن كنت اعتقد أن نشر نتائج ابحاث هذه البعثة واعمالها باقلام أصحابها قد يكون اكثر فائدة وأعظم شأناً . وأنا لنرجو ألا يطول انتظارنا نشر هذه الابحاث

يقول هرتسفلد في تقريره : « استمرت اعمال الكشف بهذا القصر سبعة أشهر كان يشتغل في اثنائها عدد يتفاوت بين ٢٥٠ و ٣٠٠ عامل يومياً واستخدمت سكة حديدية محلية خاصة لنقل الأتربة وتزيد مساحة القصر التي يطيف بها السور عن (١٧٥) هكتاراً تشغل منها التي تشرف على نهر دجلة بحمائلها وممراتها وقاعاتها وحماماتها ٧١ هكتاراً

وبناءً على ذلك فلو أريد استكشاف القصر جميعه وملحقاته لاستغرق ذلك عشرين عاماً ، ومهما يكن من شيء فان كشف هذه الامكنة لم يكن امراً شاقاً كما يتبادر الى الذهن

لأول وهلة . لانه كان من الممكن تتبع التخطيط العام للقصر وترتيب قاعاته وحجراته المختلفة حتى بدون القيام باعمال الحفر . ولذلك فقد رؤي حصر هذه الاعمال في الاجزاء الرئيسية اي الواقعة على المحور الرئيسي للقصر

وقد كشف حوالي ١٤ الف متر مربع من الارض وأزيل ٣٢ الف متر مكعب من الردم منها ١١ الف متر مربع او ٢٨ الف متر مكعب من الردم من الحفائر التي اجريت في وسط القصر

وقد بدئت اعمال الحفر والتنقيب بعدة اختبارات وابحاث تمهيدية في المحور الرئيسي والمحور العرضي للرحبة الكبرى لتأخر وصول السكة الحديدية المحلية التي طلبت لاستخدامها في نقل الردم وبعد وصولها امتدت اعمال الحفر الى البناء الرئيسي نفسه

وكانت تفاصيل تخطيط هذا البناء تتضح لنا رويداً رويداً الاَّ انها لم تعرف تماماً إلاَّ حينما ظهر اثناء الحفر وكشف تخطيط القصر ورفع الاتربة ان هذه المجموعة الهائلة من المباني لم يكن لها سوى مدخل واحد في وسط جانبها الغربي ما تزال بقاياه موجودة الى اليوم تعرف بباب العامة

وكان نهر دجلة يجري بجوار الجانبين الغربي والجنوبي الغربي للحديقة السفلى وكان الشارع الأعظم يمتد من الجنوب حتى ينتهي الى جدران القصر وهناك يتصل بشاطىء دجلة من جهة الجنوب مكوناً معهُ زاوية حادة حيث يقع باب النزَّالة وهناك طريق طوله ستمائة متر يخترق الحديقة حتى الحوض الاعظم وسعته ١٢٧ متراً مربعاً حيث يبدأ سلم عرضه ٦٠ متراً وطولهُ مثل ذلك يرقى منه الى شرفة ارتفاعها ١٧ متراً امام باب العامة

﴿باب العامة﴾ يكاد يكون باب العامة افضل الاجزاء الباقية القائمة من هذا البناء الهائل الذي عدت عليه الايام وهو يتكون من واجهة ذات ثلاث قناطر ارتفاعها ١٢ متراً وتشرف على نهر دجلة ويقع خلفها ثلاث حجرات ذات سقوف نصف اسطوانية معقودة والحجرة الوسطى هي الايوان (أو الليوان) الكبير وعرضها ٨٦ر٧ متر وطولها ٥٠ ر ١٧ متر وارتفاعها ١٠ ر ١١ متر وهي مفتوحة بكامل عرضها ومطلة على نهر دجلة يحف بها كتفان من البناء عرض كل منهما ٥٨ ر ١ متر يحملان قنطرة الواجهة ذات العقد المدبب او هي شبيهة في بنائها بقناطر مسجد ابي دلف وباب بغداد من ابواب مدينة الرقة

خلف هذا الايوان الكبير باب سعتهُ ٤ أمتار وارتفاعهُ ١٠ ر ٧ متر تعلوه قنطرة مدببة شبيهة بقنطرة الواجهة الكبرى تعلوها نافذة ذات قنطرة مدببة أيضاً

والايوانان الجانبيان طولهما ١١ ر ٤ متر . والجزء الواقع خلف قنطرة الواجهة مغطى بسقف على شكل نصف قبة مرتكزة على اربعة صفف او محاريب وبين كل صفتين شباك مستطيل . وهذان الايوانان الجانبيان هما في الحقيقة بمنزلة مدخلين عظيمين لحجرتين خلفيتين

سقفاهما معقودان نصف اسطوانيين وسعة كل منهما أربعة أمتار وبكل منهما باب سعتهُ ٧٥ ر ١ متر وارتفاعهُ ٥٥ ر ٥ متر

ومع ان ارتفاع هذين الايوانين يقل بمقدار متر ونصف متر عن الايوان الاوسط الاَّ ان الغرفتين الخلفيتين تكادان تفصلان الى ارتفاع هذا الايوان (٨٠ر١٠ متر الى ١٠ر١١ متر)

وهاتان الغرفتان لا تتصلان بالايوان الكبير ولا بأي جزء آخر من أجزاء القصر مدخلهما من الواجهة فقط ولذلك يرى هرتسفلد انهما كانتا مخصصتين للحرس والاتباع أيام الحفلات والاستقبالات العامة والاجتماعات التي كانت تعقد في الايوان الكبير . وتبلغ ثخانة الجدران التي تحمل القبو الاوسط حوالي ٧٥ ر ١ متر . اما الجدران الخارجية للايوانين الجانبيين والجدار الخلفي فثخانتها ٣٠ ر١ متر فقط .والى يسار الايوان الغربي حائط بها نافذتان احداهما طويلة ضيقة.وتعلوها اخرى اكثر منها عرضاً وكلاهما مستطيلة الشكل . وتدل ثقوب الحائط من الخلف على انهُ كان هناك طابقان يبعضهما سقف من الخشب

وقد تهدمت الحافة الشرقية للواجهة ولم يبق منها الاَّ جزء صغير يكسو بعضه الجص وهذا الجزء المكسو لا يصل الى الارض مما يدل على انهُ كانت هنا نافذة أخرى مستطيلة ولكنها أقل طولاً من النافذة الكائنة بالطرف الآخر المقابل

ولا بد انهُ كان هناك طابق آخر ويستدل على ذلك من وجود جزء من حائط ارتفاعه خمسة امتار يرتفع عموديًّا على الجانب الشمالي من الايوان الشمالي

﴿ الزخارف ﴾ تقتصر زخارف الواجهة على صفتين غير عميقتين حدبتي العقد كانتا تحفان بالمدخل الرئيسي . أما في الداخل فكان محلى بزخارف جصية شاهد بعضها العالم ڤيوليه Viollet في موضعها . كما عثر هو وهرتسفلد Herzfeld فيما بعد على البعض الآخر في الردم

وكان بطن عقد الايوان الكبير بالواجهة محلى بزخارف جصية مقسمة الى ثلاثة أقسام . أحدها أكثر عرضاً في الوسط تحصره حافتان أقل منهُ عرضاً سعة كل منهما ٥ر٣٢سم وبهما زخارف من أزواج من اغصان الكرم الصاعدة التي تكون صفًّا مزدوجاً من الدوائر الصغيرة بكل منها ورقة من أوراق الكرم ، تفصل كل ثنية من ثنياتها ثقوب تشبه العيون تحيط بها حزوز دائرية محفورة متحدة المركز يتميز بها الطراز المعروف بطراز سامرا الثالث . والجزء الأوسط سعته ٩٥سم وكان محلى بزخارف مكونة من وردات ذات ثمانية جوانب بين كل منها والتي تليها عقدة وفي كل ثنية من ثنياتها ورقه كرم طويلة الساق . ولا يمكننا مع الاسف ان نعرف الآن كيف كانت مراكز هذه الوردات والسطوح التي تفصلها بعضها عن بعض محلاة لان الاجزاء التي عثر عليها ليست كافية لإيضاح ذلك

أما داخل الايوان الكبير فنجد في قمة الحائط مما يلي عقد القبو مباشرة عصابة من الزخارف البارزة الجميلة مكونة من حليتين متعاقبتين احداهما صغيرة والاخرى كبيرة تشبه احداهما زهرة اللوتس ذات الثلاثة الاوراق . والورقتان الخارجيتان تكوّنان حلزونين . أما الورقة الوسطى فرفيعة وتصل حافتها العليا الى الطرف العلوي للعصابة وهي تشبه في مجموعها زهرة الزنبق . اما الثانية فتشبه الاولى ولكنها اقل منها حجماً وليس بها الزخارف الحلزونية التي بالاولى . ويرى هرتسفلد ان هذه العصابة تشبه تمام الشبه عصابة اخرى من الزخارف الجصية بكنيسة (بازيليكا) القديس سرجيوس بالرصافة

ويقول هرتسفلد Herzfeld : والجزء الاوسط من الباب الكبير هو المدخل الرئيسي للقصر وتقع خلفه ست قاعات يرجح أنها كانت قاعات انتظار وكان كبار الضيوف والزوار ذوو المكانة يدخلون من الرواق الشمالي (أي الفتحة الشمالية) للباب الكبير ثم يمرون في ممشى طويل الى هذه القاعات أما الجزء الخاص بالحريم بالقصر فيدخل اليهِ من الفتحة الجنوبية للباب الكبير التي تصل بهِ رواقان طويلان

وتكوّن هذه المماشي والقاعات والاروقة ما يسمى بالمدخل أو باب القصر يتلو ذلك رحبة مربعة بها نافورة يحيط بها من كل جانب ثلاث حجرات يجلس فيها الزوار وفقاً لمقاماتهم ودرجاتهم والى الشمال نجد حجرات الخليفة وهي تقع حول ثلاث رحبات ويقع الحريم في الجنوب وقد اضيف اليهِ بناء آخر كثير الحجرات . ويطل الحمام الكبير على الرحبة مباشرة واذا سار الانسان قدماً فانه يمر في قاعة امامية الى رحبة مضلعة جدرانها الشمالية والجنوبية خالية من الزخرفة . اما في الشرق فترى واجهة قاعة العرش بأبوابها الثلاثة وتوصل الدهاليز والممرات السفلية — ويوجد منها كثير بالقصر — بين حجرات الخليفة وقسم الحريم

﴿ قاعة العرش ﴾ تتكوّن قاعة العرش من قاعة وسطى مربعة يحيط بها اربع قاعات على شكل حرف T وقد وجد بهذه القاعة طرازان من الزخارف الرخامية شبيهان بالطراز السابق الاشارة اليهِ ويرجح انها كانت مغطاة بقبة . وقد كانت امثال هذه القاعات على شكل حرف T من الخصائص المميزة لقاعات الاستقبال في جميع المنازل الخاصة . ولكنها تختلف عن جميع الامثلة المعروفة في ان الاجزاء التي تكون الصليب قد بنيت على مثال البازيليكا ذات الثلاثة الاروقة ولكنها هنا مكررة اربع مرات في الحجرات الاربع المكونة لاضلاع الصليب . والسبب في ذلك هو الحاجة الى ضوء كافٍ لاضاءة القاعات جميعها والقاعة الوسطى ايضاً

وقد وجد هرتسفلد قطعاً من الزخارف الجصية في هذه الحجرات وحاول ان يجمعها وان يكوّن منها اشكالاً او موضوعات زخرفية تامة باعادتها الى حالتها الاولى من التركيب والتكوين

وقد عثر بقاعة العرش هذه على عتب خشبي لاحد الابواب يشبه شبهاً تاماً بعض الاعتاب الخشبية بأبواب مسجد ابن طولون بالقاهرة. وتوجد بين اذرع الصليب قاعات صغرى محلاة بوزرات من الواح ومربعات الرخام ، وكذلك مسجد صغير لصلاة الخليفة ذو محراب جميل

﴿ الحريم ﴾ اذا رسمنا محوراً من الشمال الى الجنوب ماراً بمركز القاعة الوسطى وقاطعاً القاعتين الشمالية والجنوبية اللتين على شكل حرف T فأنهُ يقسم هذه الكتلة من البناء الى قسمين متماثلين تقريباً . وقد كشف منهُ القسم الجنوبي فقط وهو يشمل الحريم

وتقع امام القاعة الجنوبية ذات الشكل حرف T قاعة كبيرة العرض تمتد على طول رحبة الحريم . وفي الجانبين الغربي والشرقي لرحبة الحريم تقع حجرات كثيرة أعيد بناؤها عدة مرات معدة للحياة المنزلية داخل القصر ومجهزة بالمياه الجارية التي تأتي اليها في مواسير كبيرة من الرصاص أو من الخزف المطلي بمادة زجاجية أو من الفخار العادي . كما ان بها حجرات للاستحمام والغسيل والمراحيض. وتقع في مواجهة قاعة العرش في الجانب الجنوبي للرحبة حجرة مربعة تمتد على طول الرحبة وهناك رواق مربع طول ضلعه ٢١ متر يطيف بحجرة مربعة ذات اربعة ابواب واسعة وبها حوض تحف به اعمدة الرخام في اركانه الاربعة

وقد كانت هذه الحجرة محلاة برسوم وصور آدمية واذا رسمنا محوراً يقطعها من الشرق الى الغرب فاننا نجد الى غربها قاعة على شكل البازيليكا ذات ثلاثة اروقة في كل رواق منها اربعة اعمدة من الرخام. وتقع امام القاعة الشرقية ، ذات الشكل حرف T من المجموعة المسماة بقاعة العرش قاعة كبيرة أخرى عرضها ٣٨ متراً وطولها ٤٠ ر ١٠ امتار بها خمسة ابواب تطل على رحبة كبيرة مكشوفة طولها ٣٥٠ متراً وعرضها ١٨٠ متراً تقسمها قناة الى قسمين احدها الغربي وهو مرصوف ومحلى بنافورتين والشرقي وهو غير مرصوف وبه بعض قنوات ومجاري مياه صغيرة

﴿ السرداب الصغير ﴾ واذا سار الانسان من هذه الرحبة الكبيرة الى الشرق فانه يصل الى سرداب صغير يقع على المحور الرئيسي للقصر . ومدخله عبارة عن حجرة مربعة قد نقش على جدرانها طراز من الزخارف الجصية الملونة قوامها قافلة من الجمال ذات السنامين ويقع سلم مدخل السرداب في الجانب الغربي من البناء العلوي والسرداب نفسه عبارة عن فجوة منقورة في الصخر كل ضلع من اضلاعها ٢١ متراً وعمقها ٨ أمتار وفي كل جدار من جدرها ثلاث مغارات تصلها ببعض مماش أو اروقة وكانت في ارضيتها فسقية أو حوض للماء . وكان يحيط بالسرداب صفوف متوازية من الغرف يظن انها كانت اسطبلات

﴿ ملعب الصوالجة ﴾ وفي وسط الرحبة الشرقية بناء يشرف على ملعب كبير بسور طوله ٥٣٠ متراً وعرضه ٦٥ متراً وهو لا يقع على استقامة محور القصر بل ينحرف عنهُ فيميل بانحناء

بسيط . ويرجح ان هذا كان ملعب الصوالجة وكانت الاسطبلات معدة لخيل اللعب . وكان النظارة يشرفون على اللعب من هذا البناء . والى هنا نصل الى الطرف الشرقي للقصر ويتلوه سور حديقة الحيوان او الحير . وتقع في مواجهة البناء الذي يشرف منهُ النظارة على اللعب على امتداد المحور الرئيسي للقصر سقيفة عظيمة مرتفعة تشرف على ملعب الصوالجة وحلبة السباق في حديقة الحيوان او الحير التي تمتد الى اكثر من خمسة كيلو مترات

ويبلغ طول محور القصر الممتد من نهر دجلة مخترقاً السلم الكبير وباب العامة وقاعة العرش والرحبة الكبرى والسرداب الصغير الى حديقة الحير وشقيقتها رحبة السباق ١٤٠٠ متر

﴿ السرداب الكبير ﴾ ويقع في الركن الشمالي الشرقي للقصر بناء مربع طول ضلعه ١٨٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على الجدار الشمالي للرحبة الكبرى وبهِ كهف عميق مربع طول ضلعه ٨٠ متراً منقور في الصخر تمتد على محاوره أذرع على شكل صليب يبلغ طولها ١١٥ متراً وفي أرض هذا الكهف فجوة ثانية مستديرة قطرها ٧٠ متراً . ومن المرجح ان هذه الفجوة كانت فسقية او حوضاً . إذ أنها تتصل بقناة سفلية وفي الجزء العلوي توجد حجرات كثيرة صغيرة على غير نظام حول الجانب الداخلي للجدران وبعضها مسقف بأقبية متقاطعة وقد كشف بهذه الحجرات بعض المخازن وعثر بها على بعض قطع من الخزف الصيني وألواح ومربعات القيشاني المموهة بالبريق المعدني ذي اللون الذهبي . ونجد الى الشرق مجموعات متنوعة من المباني على امتداد الحائط الشمالي والوسطى منها أكثر ارتفاعاً من بقيتها

﴿ الزخارف ﴾ وقد كانت عظمة زخارف هذا القصر مما يلتئم ويتناسب مع أبهته وفخامته مما لم يعثر على مثيله للآن . فقد كانت وزرات الجدران محلاة بزخارف جصية بعضها من عصر المعتصم نفسه مؤسس سامرا وباني القصر . وبعضها جدد بعد المتوكل مباشرةً وبعضها من الايام الاخيرة لسامرا وقد أمكن ان نلم بكثير من المعلومات التي كانت تنقصنا في دراسة زخارف المنازل الخاصة التي كشفت في سامرا بالاستعانة بهذه الزخارف . حتى اصبح في استطاعتنا الآن ان نلحظ بوضوح التقدم المطرد في تطور طراز سامرا مدى خمسين عاماً . وان نميز الفروق بين كل من الطرز الثلاثة التي تبين أنها تختلف بعضها عن بعض اختلافاً أساسيًّا مما لم يفطن اليهِ كثيراً عقب بعثة الكشف الاولى . ففي حجرات العرش استبدلت الوزرات الجصية بوزرات مشابهة من الرخام المنقوش وفي الحجرات الواقعة بين اذرع الصليب نجد الوزرات مغطاة بكسوة من الواح ومربعات الرخام كما ان الاجزاء العلوية من جدران قسم الحريم كانت محلاة بزخارف آدمية ملونة كشف الكثير من بقاياها كما كشف في بعض الحجرات عن زخارف من الزجاج واللؤلؤ لا نظير لها في أي مكان آخر . وجميع القطع الخشبية من ابواب وكتل وسقوف مصنوعة

من خشب الساج المنقوش الملون او المذهب وقد زادته مسامير البرنز المذهبة رونقاً وبهاءً .

وقد عثر على قليل من القطع الأثرية في كتلة البناء المكونة للمدخل بقاعاته وممراته وكذلك بقاعة العرش . وذلك امر طبيعي وكان اكثر ما عثر عليه بقسم الحريم وحجرات الحياة المنزلية الداخلية والى جانب القطع الكثيرة المعمارية والفخارية والرخامية فقد عثر على الكثير من الاواني الفخارية المغلقة الطويلة الاسطوانية الشكل . وقد كسيت بطبقة من الجص ونقش على احد جانبيها صور لرجال او سيدات في ملابس مختلفة وكل صورة منها داخل أطار خاص ويرجح أنها كانت صور لرجال ونساء حقيقيين لا خياليين اضف الى ذلك رسوم وصور آدمية او زخرفية على قطع من الفخار او القاشاني او الرخام ورؤس حيوانية من الرخام وألواح من الزجاج الكثير الالوان . وقطع من الاثاث المنزلي وغير ذلك من القطع المطعمة بالابنوس والعاج الخ.

كما عثر على بعض الكتابات التاريخية على كتل خشبية وعلى كثير من توقيعات الصناع من الروم والسريان والعرب بخطوطهم ولغاتهم المختلفة على الرخام والخشب والصور والفخار . وعلى قطعة من القماش بها طراز الخليفة المعتضد وأجزاء من خطابات مسطورة على ورق وبعض اوراق البردي الرسمية وغير ذلك

﴿ الخزانة او بيت المال ﴾ يقع الى شمال السرداب الكبير مساحة كبيرة مستطيلة يطيف بها صفوف كثيرة من الجدران القوية التي جلبت مادة بنائها في عصور موغلة في القدم . ويستنتج من مجرى الحوادث التي حدثت بالقصر ان بيت المال كان موضعه في هذا المكان من القصر . والركن الشمالي الشرقي ليس واضح المعالم وقد كانت تمتد منه الى عدة كيلو مترات مجموعات من المنشئات المتعلقة بحديقة الحيوان او الحير والمتصلة بالقصر . ويمتد الجزء الجنوبي على غير نظام اذ تخترقه ثلاث اودية عميقة وهناك صنف طويل من الرحبات والحجر الصغيرة على الجانبين يظن أنها كانت بمثابة مخازن ، ويستنتج من وصف الثورات التي حدثت بالقصر ان دار الصناعة كانت بهذا الجزء ايضاً وقد امكن معرفة مقر صاحب دار الصناعة . والى الشرق نجد رحبات مفردة وابنية لا يعلم الغرض منها وبينها بناء قائم على أعلى نقطة منها يرجح انه كان مسجداً

﴿ الثكنات ﴾ في الركن الشمالي الغربي من المساحة التي وصفناها تقع الثكنات ويرجح أنها كانت ثكنات الخيالة. اما ثكنات المشاة فتفصلها عنها قطعة من الارض خالية من البناء وكان بهذه الثكنات ٦٠٠ غرفة ينزل بها ٣٠٠٠ من الجنود . وكان بالرحبة الكبرى ثلاثة مساجد لم تكن محاريبها على سمت القبلة تماماً . وتشرف هذه الثكنات على الحديقة وشاطىء دجلة لبنائها على مرتفع من الارض كما أنها تقع الى جانب الشارع الاعظم الذي كان يصلها بالقصر وقد كان الطريق الوحيد الذي كان يصل جنوب المدينة بشمالها

الاصول المعمارية

الواجهة ذات الثلاث القناطر

كانت القصور الشرقية القديمة كقصر خرساياذ (القرن السابع قبل الميلاد) تحتوي على قاعات طويلة مسقوفة بعقود نصف اسطوانية وبها ابواب جانبية

أما القصور التي بنيت في عهود تالية كقصور الساسانيين مثلاً (٢٢٨ ـ ٦٢٨ م) كقصر طيشفون وفيروز اباد وسروستان وقصر شيرين فكانت بعض قاعاتها تغطيها قباب ايضاً

وقد كانت الاقبية النصف الاسطوانية كثيرة الشيوع اذ ان القبو الأوسط الكبير منها كان يمكن ان ترتكز عليه اقبية أخرى اقل منهُ ارتفاعاً واتساعاً من الجانبين وهذه الاقبية اما أن تكون متصلة بهِ على زاوية قائمة او موازية لهُ . وقصرا طيشفون وفيروز اباد من الطراز الأول والقاعات الجانبية ابوابها معقودة وفتحات ابوابها ليست بالواجهة بل في جوانب الايوان الكبير

ويرى هرتسفلد ان الواجهة ذات الثلاث القناطر مستمدة على الارجح من اقواس النصر الرومانية ومن البوابات ذات القناطر الثلاث للشوارع ذات الاعمدة التي كانت قد انتشرت في جميع الشرق الادنى في ذلك الوقت . وكانت ملائمة غاية الملاءمة لتخطيط القصر الفارسي والعراقي لانها كانت منافذ عظيمة معقودة تصل الواجهة بالحجرتين الصغيرتين الجانبيتين وكان ذلك تجديداً في هندسة القصور المذكورة . ولذلك كان القبوان الجانبيان موازيين دائماً لقبو الإيوان الاوسط . ويشاهد ذلك في قصر الحضر (القرن ١ — ٢ ق . م) حيث تظهر هذه الظاهرة لأول مرة . ولكننا نجدها ثانية بعد ثلاثة قرون في قصر سروستان وفي النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي في قصر الاخيضر . وهي الظاهرة السائدة في قصر الخليفة بسامرا

ويقول اليعقوبي :—

« وولي الخلافة هارون الواثق بن المعتصم فبنى الواثق القصر المعروف بالهاروني على دجلة وجعل فيهِ مجالس في دكة شرقية ودكة غربية وانتقل اليه وزادت الاقطاعات وقرَّب قوماً وباعد ديار قوم على الخط الا على الابعاد فأقطع وصيفاً دار افشين التي بالمطيرة وانتقل وصيف عن داره القديمة الى دار افشين ولم يزل يسكنها وكان أصحابه ورجاله حوله وزاد في الاسواق وعظمت الفرض التي تردها السفن من بغداد وواسط والبصرة والموصل ، وجدد الناس البناء وأحكموه وأتقنوه لما علموا أنها قد صارت مدينة عامرة وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر

ثم توفى الواثق في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٢٣٢هـ—٨٤٧م) وولى جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم . وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع

يقال لهُ بلكوار . (فامد) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ وزاد في شوارع الحير الشارع الجديد وبنى المسجد الجامع في اول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل بهِ شيء من القطائع والاسواق . وأتقنهُ ووسعه وأحكم بناءه وجعل فيهِ فوارة ماء لا ينقطع ماؤها وجعل الطرق اليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رياح في كل صف حوانيت فيها اصناف التجارات والصناعات والبياعات عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلاً يضيق عليهِ الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله . ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب . وسلك فيها قطائع جماعة من عامة الناس. فاتسعت على الناس المنازل والدور واتسع اهل الاسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والاسواق في صفوف المسجد الجامع . وأقطع نجاح بن سلمة الكاتب في آخر الصفوف مما يلي قبلة المسجد وأقطع أحمد بن اسرائيل الكاتب أيضاً بالقرب من ذاك واقطع محمد بن موسى المنجم واخوته وجماعة من الكتاب والقواد والهاشميين وغيرهم

وعزم المتوكل ان يبني مدينة ينتقل اليها وتنسب اليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين ان يختاروا موضعاً فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماجوزة وقيل له ان المعتصم قد كان على ان يبني ها هنا مدينة ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم . فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيهِ في سنة خمس واربعين ومائتين (٢٤٥ هـ) ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة فقدر النفقة على النهر الف الف وخمسمائة الف دينار فطاب نفساً بذلك ورضي بهِ وابتدأ الحفر وأنفقت الاموال الجليلة على ذلك النهر واختط موضع قصوره ومنازله وأقطع ولاة عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده والناس كافة ومد الشارع الأعظم من دار اشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ الى قصوره وجعل دون قصوره ثلاثة ابواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه وأقطع الناس يمنة الشارع الاعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الاعظم مائتي ذراع وقدر أن يحفر في جنبي الشارع نهران يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره وبنيت القصور وشيدت الدور وارتفع البناء وكان يدور بنفسه فمن رآه قد جدَّ في البناء اجازه واعطاه فجد الناس وسمى المتوكل هذه المدينة الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسر من رأى مادّاً الى الموضع الذي كان ينزله ابنهُ ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ . وارتفع البنيان في مقدار سنة وجعلت الاسواق في موضع معتزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً

وبنى المسجد الجامع وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة أول يوم من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين (٢٤٧هـ) فلما جلس أجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم وأعطى جميع القواد والكتاب ومن تولى عملاً من الاعمال وتكامل له السرور وقال الآن علمت أني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها . ونقلت الدواوين : ديوان الخراج ، وديوان الضياع ، وديوان الزمام ، وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين الاّ ان النهر لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه الاّ جري ضعيف لم يكن له اتصال ولا استقامة على انهُ قد انفق عليه شبيهاً بألف الف دينار ولكن كان حفره صعباً جدًّا انما كانوا يحفرون (حصا) وانهاراً . لا تعمل فيها المعاول . وأقام المتوكل نازلاً في قصوره بالجعفرية تسعة اشهر وثلاثة أيام وقتل لثلاث خلونَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين في قصره الجعفري أعظم القصور

وولي محمد المنتصر ابن المتوكل فانتقل الى سرَّ من رأى وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن الماحوزة وان يهدموا المنازل ويحملوا النقض الى سرَّ من رأى فانتقل الناس وحملوا نقض المنازل الى سرَّ من رأى وخربت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة وصار الموضع موحشاً لا انيس به ولا ساكن فيه والديار بلاقع كأنها لم تعمر ولم تسكن . ومات المنتصر بسرَّ من رأى في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ٢٤٨ هـ . وولي المستعين احمد ابن محمد بن المعتصم فأقام بسرَّ من رأى سنتين وثمانية اشهر حتى اضطربت اموره فانحدر الى بغداد في المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين (٢٥١هـ) فأقام بها يحارب اصحاب المعتز سنة كاملة والمعتز بسرَّ من رأى معه الاتراك وسائر الموالي ثم خلع المستعين وولي المعتز فأقام بها حتى قتل ثلاث سنين وسبعة اشهر بعد خلع المستعين وبويع محمد المهتدي بن الواثق في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٢٥٥هـ) فأقام حولاً كاملاً ينزل الجوسق حتى قتل رحمهُ الله وولي احمد المعتمد بن المتوكل فأقام بسرَّ من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل الى الجانب الشرقي بسرَّ من رأى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق فنزله فأقام به حتى اضطربت الامور فانتقل الى بغداد ثم الى المدائن . و ... »

ويقول اليعقوبي ايضاً « ولسرَّ من رأى منذ بنيت وسكنت الى الوقت الذي كتبنا فيه كتابنا هذا (كتاب البلدان) خمس وخمسون سنة ملك بها ثمانية خلفاء مات وقتل فيها خمسة . المعتصم ، والواثق ، والمنتصر ، والمعتز ، والمهتدي ، وقتل في حريمها وفيما هو متصل بها وقريب منها اثنان المتوكل ، والمستعين ، واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ويصدق ذلك ان قبل مساجدها كلها مروية فيها زوراء ليس فيها قبلة مستوية . الاّ انها لم تخرب ولم يذهب اسمها وقد ذكرنا بغداد وسرَّ من رأى وبدأنا بهما لانهما مدينتا الملك والخلافة » اهـ

[يتبع]

طاقة من الشعر المعاصر

— ١ —

وحي الصحراء — لخالد الجرنوسي

ويحي وويحُ أخي من الصحراءِ ... باتت تجدد لي قديمَ الداء
شفت اصائلها ورق نسيمها ... وتوالت الأرواح في إغرائي
وصحا فؤاد كنت أحسب انهُ ... سينُ أهلَ الكهف في الاغفاء
طافت بهِ أشباح حُلم قد مضى ... فمضت بهِ في جنة خضراء
كلٌّ يذكرني بما أُنسيتهُ ... بالغادة البيضاء ، بالصهباء
بملاعب البيض الحسان ولهوها ... بمطالع الأقمار ، بالرقباء
دنيا دخلناها غراماً حافلاً ... وتركتها نضراء من حوائي
ذهبت بأسباب الجمال وأعقبت ... شعراً ينوح مناحَ الورقاء
ما كدت أذهب في جديد ودادها ... حتى ذكرت مودة القدماء
هيهات أنساهم وتلك طيوفهم ... ملأت نواحي القلب بالاضواء
قد تذهب الأحياء الاَّ ذكرهم ... فمجدد الاصباح والامساء
أنا لا أعيش لساعتي لكنني ... استلهم الساعات وحي بقائي
كم ساعة في عمري الماضي دنت ... تُروى غليل القلب بالأنداء
ولربَّ يوم بالمودة سرّني ... ذُكّرته فنسيت يوم شقاء
يا ملعبَ الآرام أين منازلٌ ... ليَ فيك لم تظفر بها اعدائي
يأوي اليها اللاعبون يلفُّهم ... ليلُ الهوى بستائر الظلماء
وأنا الذي خلّدت فيك قصائدي ... عارٍ من الأحباب والخلصاء
ولربَّ أرضٍ لا تضيق بشاعرٍ ... كانت أبرَّ من الحبيب النائي

— ٢ —

الطول الماضي لعبد السلام رستم

لعينيَ من وحي الشعور مصوّرُ يريها من الأشياء ما ليس تبصر !!
يريها من الاشياء في لمحاتها تصاوير أحلام تجيء وتعبر
تشابه أفواف السحاب ، فمنظر يلاحقهُ من جانب الفكر منظر
ظلال يوشيها الخيال بوشيهِ فتبدو حياة في الحياة وتبهر
حييت بها في سالف العمر حقبة وعادت بمكنون السرائر تخبر !

***

سوالف أيام الشباب وصبوتي وما كان ، وردٌ للفؤاد ومصدر
تولّت بما فيها من الخير والجنى وظل لها في النفس رسمٌ مسطّر
فليس أمامي غير دنيا ، نعيمها مضى في طوايا الأمس والأمس مدبر
أقلّب في أغوارها ونجادها وأنقب في وديانها وأحفّر
فلا مطلعٌ الأ ولي فيهِ لفتة ولا موضعٌ الأ ولي فيهِ عنصر(١)
تبين فيهِ ، رنقه المتكدّر !! كربه الصدى ، أو روقه المتطهر !!
فأخاص منهُ صفوه ، وأعيده رقيق الحواشي كالشفافة يظهر(٢)
كأني بهِ — والعمر يقطع خطوه — على الدهر لا يبلى ولا يتغيّر
لياليهِ بالعيش البهيج ، وبدره كما كان ألا ّق المحاسن يخطر
وما زال في مغناه يشرق زاخراً ويقبل وضاح الجبين ينوّر
وما زال في غدواتنا وروحاتنا مكان الهوى والحب لا يتحدر !!
فماذا على السالي الذي قد عشقته فضاء ، يشيع الحسن فيه ويعطر ؟
وماذا على السالي الذي كان حبه ربيعاً بأزهار الملاحة يسفر ؟

(١) العنصر — الروح ومعروف عند علماء الطبيعة بانه جزء من المادة (٢) الشفافة — بقية النهار

لو ارتدَّ بالماضي وضم شتاته فعشنا على تلك الذخائر نذكر !!
فلو كان يدري كيف رقى بذكره فؤاد يقيس العمر من حيث يشعر
لجاء بشيراً باللقاء ، وصوته غريد لهُ في القلب صنجٌ ومزهر
فليست حياة المرء في طول عمره ولكنه بالقلب يحيا ويعمر !!

***

سوالف أيامي ، وما أنت في البلى فانك في عيني صحائف تنشر
وأنك أطلال الشباب وعهده وأحياؤه عندي وان غبن حضَّر
بل انت في الماضي ، وفي ضوء حاضري الى الموت ، نجواي التي ليس تقبر !

—٣—

صوت الشيطان !! لعبد الحميد الديب

كل شيء أشهد الله عليا فرَّت الدنيا جميعاً من يديا
لا تقل لي كيف تحيا سادراً أنا ميْت بين قومي لست حيا
سر هذا البؤس أني شاعر قد أفاد الدهر مني عبقريا
عند ما كنت بحالي قاصفاً كنت أصغي للمصلي يتهيا
رنة التكبير في سمعي تحت رنة الكأس وأودت بالحيا
والمصلون لدى تسبيحهم صيروا الندمان في عيني نسيا
مظهر التسبيح والتقوى بهم قد سقاني الكأس إيماناً سريا
يا صبوحي يا غبوقي ضلة لكما مني بكوراً او عشيا
وهبطت الروض والليل سجى قد أجنَّ الطير والورد النديا
كل ما في الروض حتى تربه سبح الديان تسبيحاً خفيا
وهنا أدركت أني لم أعش وأنا المسلم الاَّ جاهليا

قد تخذت الشعر توحيدي ولم ألطهر فجـنى الشعر عليا
بينما أسرف في وصف الطلى والهوى لم ادخر لله شيا
أنا أو أبليس للدنيا عمى هو خافٍ وأنا أبدو جليا
قلت ربي ! وأنا جاثٍ لهُ فحباني لطفه قلباً رضيا
تبت من ذنبي ومن ترجع بهِ نفسهُ لله يبعثهُ نقيا
توبة من بعد أن فزت بها كل شيء صار في عيني هنيّا
فتراني في السموات العلى أصحب الشمس وتعنو لي الثريا
ولدى سدرتها في موكب ما حوى إلاَّ ملاكاً أو نبيّا
وعلى الأرض شهاباً لامعاً من بياض القلب أو نور المحيا
فتحت أبواب أرزاقي بها فسقاني خيرها شهداً وريّا
ونأت عني همومي بعد ما اصبح القلب من الدنيا خليّا
وسل الليل فما أغفو بهِ غير أرماق وما تجدي عليا
هذه آية عشقي كلما جنَّ ليلي ظلت سهران مليا
لا يواتيني الكرى حتى أرى طيف حبي فأحيي واحيَّى
فاذا حـدثني ألفيتني غائب المهجـة لله نجيّا

***

أين شيطاني وأينت ريحه كان يهفو في الدجى روحاً عتيّا
أكله أو شربه من هجرتي في ظلام الشك أفاقاً شقيا
فقضى يوم الهدى اذ لم يجد أي شرع ينتهي منهُ اليـا
جنة المحراب تشوي جسمه وأنا لم أغش بيتاً او نديا
مات شيطاني وهاكم جنده هيموا بالدمع اشباحاً بكيا

ملكا العقاقير

السلفانيلاميد والسلفابيريدين

وصف فعلهما العجيب

المكتشفات العظيمة في حلبة العلاج الكيميائي نادرة . فعلى الرغم مما بذل من جهد عظيم ومال طائل في سبيل الكشف عن مواد او عقاقير جديدة تؤثر تأثيراً شافياً حاسماً في بعض الامراض ، لا يسع علماء الطب الاَّ الاكتفاء بالاشارة الى بضعة عقاقير نوعية فقط من قبيل الكينا

ولذلك يجب ان يعتبر التقدم الحديث في كشف مواد كيميائية تصلح للعلاج مستهلَّ عصر جديد في طريقة العلاج الكيميائي . فقد أسفر البحث في خلال الاربع السنوات الاخيرة عن كشف عقارين جديدين يلوح ان قيمتهما في الطب عظيمة حقًّا

أحد هذين العقارين هو المعروف بالسلفانيلاميد Sulphanilamide (راجع مقتطف مايو ١٩٣٩ صفحة ٥١٧) المستعمل الآن في علاج اصابات كثيرة يسببها نوع من البكتيريا يعرف باسم الستربتوكوك من صنف بيتا الفاتك بكريات الدم الحمر (hemolytic) . ومن الاصابات التي يسببها هذا النوع من البكتيريا ، الحمرة ، حمى النفاس ، تسمُّم الدم ، التهاب الحلق ، الالتهاب السحائي . ثم ان استعمال السلفانيلاميد قد قلب معالجة السيلان رأساً على عقب وهو يفيد في جميع انواع النومونيا (التهاب الرئة) وان كان بعض الثقات يشك في فائدته في بعضها

وأما العقار الآخر فهو السلفابيريدين Sulphapyridine وهو مشتق من السلفانيلاميد وينافسهُ بل ويفوقهُ في تأثيره ويتميَّز عليهِ في انهُ ناجع في حالات الاصابة بالبكتيريا المعروفة باسم ستافيلوكوك . وهي البكتيريا التي تحدث الصديد الاصفر . ولا يعلم حتى الآن مكانة السلفابيريدين في علاج النومونيا على وجهٍ من الدقة العلمية ، على الرغم مما تنشرهُ الصحف . فالاطباء الانكليز اميل الى التفاؤل من غيرهم ، ولكن يجب ألاَّ ننسى ان هذين العقارين حديثا العهد وأن التجارب بهما لم تستوف بعد ، ولا بدَّ اذن من المضي في الاعتماد على طريق المصل عند معالجة النومونيا ، الى ان ينجلي كل غامض وينقطع كل شك

وسواءٌ انجحت معالجة النومونيا بهما النجاح الباهر المتوقع أم لم تنجح ، فان السلفانيلاميد والسلفابيريدين عقاران نوعيان نادران . واكتشاف الثاني بسرعة بعد البدء في استعمال الاول

يدلُّ على اننا امام جزيء كيميائي ، يتصف بخواص فسيولوجية عجيبة . واذا كان السلفابيريدين — وهو مشتق من السلفانيلاميد — افعل من الاصل الذي اشتقَّ منهُ ، فلا يبعدان تكون هناك مشتقات اخرى لها فائدة كبيرة في العلاج ،ضدَّ انواع اخرى من البكتيريا المرضية —اعدى عداة الانسان وأخبثها — التي لم يوجدلها شاكم او رادع حتى الآن

الاسم الكيميائي للسلفانيلاميد هو (بارا — امينو— بنزين — سلفوناميد) فاختصر رأفة بالكتاب والصيدليين وعامة الناس . كشف جزيئهُ اولاً سنة ١٩٠٨ على يد بعض كيميائيي صناعة الاصباغ بالمانيا . وانقضت خمس سنوات اقترح في خلالها استعمال هذه المادةفي العلاج الكيميائي . وفعلاً كشف ان طائفة من المواد المشابهة لها ، ذات فعل مقاوم للبكتيريا ولكنهُ فعل محدود التأثير . وفي سنة ١٩٣٥ تمكن علماء المانبارشاد الدكتوردوماك Domagk من ان يثبتوا ان البرونتوزيل فعال في مقاومة الالتهاب الستربتوكوكي في الفئران . وفي خلال مدة وجيزة انتشر استعمال البرونتوزيل في عيادات مختلف البلدان . ثم اظهر البحث ان الجزيء الفعَّال في جزيء البرونتوزيل هو (البارا —امينو — بنزين— سلفوناميد) اي السلفانيلاميد. ولكن يلوح ان البرونتوزيل ومشتق جديد منهُ يدعى نيوبرونتوزيل لهما فوائد معينة لا يغني عنها استعمال السلفانيلاميد ولا السلفابيريدين

البكتيريا ثلاثة اشكال بوجه عام . العصوية والحلزونية والكروية . وهي جميعاً مجهرية اي لا ترى الاَّ بالمجهر . وتعرف الكروية بكاسع يضاف الى آخر الاسم « كوكس Coccus »

ومن البكتيريا الكروية ما ينمو كتلاً متصلة بعضها ببعض فتتألف حبال حبيبية منها . هذه البكتيريا تعرف باسم « ستربتوكوكس » وبحذف السين الاخيرة نقول ستربتوكوك وننسب اليه

والبكتيريا الستربتوكوكية اعدى عداة الانسان ، فهي في كل مكان ، وشبح خطرها ابداً ماثل امامنا . عنها تنشأ اصابات وأمراض اكثر مما ينشأ عن اي نوع آخر من البكتيريا . وأشد البكتيريا الستربتوكوكية خطراً هي التي تفتك بكريات الدم الحمر (hemolytic). والبكتيريا الستربتوكوكية التي تفعل هذا الفعل ضروبٌ شتى ، من اخبثها الضرب الموسوم بحرف « بيتا » اليوناني الذي يحدث تسمُّم الدم والتهاب اللوزتين الحاد والتهاب الحلق التسممي او الوبائي ، والحمرة ، والحمى القرمزية وغيرها . والبرونتوزيل هو العقَّار الاول في التاريخ الذي كان فعَّالاً في مكافحة هذه البكتيريا . واذا استثنينا الحمى القرمزية فالعلم الطبي لم يكشف قبله طريقة ما لعلاج هذه الحالات

ومن المبالغة في القول ان البرونتوزيل او السلفانيلاميد يكفي لعلاج السيلان علاجاً ناجعاً في ثلاثة ايام . والسيلان حالة يسببها احد البكتيريا « الكوكية » التي تنمو ازواجاً ولذلك تعرف باسم « ديبلوكوك » . والعقار الجديد فعَّال في مكافحة هذا النوع من الجراثيم ، وانما العلاج

يحتاج الى اسابيع ، وعدد غير يسير من المصابين لا يفيد من العلاج شيئاً . ولكن هذه العقاقير لا مثيل لها في ما يعرف من العقاقير في فعلها الشديد ضدَّ هذا النوع من البكتيريا .

وكان من الطبيعي ان يكون اكتشاف البرونتوزيل والسلفانيلاميد وما لهما من فعل عجيب في مكافحة طائفة من انواع البكتيريا المرضية ، باعثاً على اكباب العلماء على البحث والاستقصاء وقد صنعت فعلاً مئات من مشتقات السلفانيلاميد وامتحنت في اصابات شتَّى في الحيوانات والانسان ، وفي السنة الماضية نشر الطبيب الباحث الانكليزي وتبي Whitby رسالة وصف فيها تجاربهُ التي امتحن فيها جزيئات اربع وستين مادة مختلفة . فكانت مادة السلفابيريدين Sulphapyridine اقربها الى النجاح بعد امتحانها بالفئران . وتأثيرها بوجه عام يشبه تأثير السلفانيلاميد ويفوقهُ من ناحية التأثير في « الستربتوكوك » ويتميز السلفابيريدين بتأثيره « بالستافيلوكوك » وهو نوع البكتيريا الذي يحدث الصديد في البثور والدمامل

وقد اتسعت الآن ابحاث وتبي الاولى . واذا ثبت ان السلفابيريدين لهُ تأثير ضارٌّ يجب اجتنابهُ او الاحتياط لهُ احتياطاً شديداً على الاقل ، فالراجح انهُ سيستعمل ضدَّ الستافيلوكوك وقد يحلُّ محلَّ السلفانيلاميد في علاج السيلان . ولا يخفى ان السلفانيلاميد والسلفابيريدين والمركبات التي تمت اليهما بصلة القرابة الكيميائية مواد سامة ، لان كل عقار فعَّال هو بطبيعتهِ مادة يكمن فيها الفعل السام ، لشدة تأثيرها في الخلايا الحية تأثيراً قد يكون هو الفاصل بين موتها وحياتها . ولذلك حظرت الحكومة بيع العقاقير الجديدة الاَّ بأمر طبيب. والسلفابيريدين نفسهُ لم يوزع على الصيدليات بعد . فمن المتعذر الحصول عليهِ ولو وصفهُ الطبيب. واستعماله الآن قاصر على كبار الخبراء والمجربين فقط لانهُ عقار لم يتخطَّ دور التجربة بعد . وقد أثبت الاختبار ان المصاب الذي يعالج نفسهُ بالسلفانيلاميد بغير وصف الطبيب او اشرافهِ قد يقتل نفسهُ . فمن مظاهر تأثيرهِ في الجسم ، الدوار (ولذلك يجب ان ينبه متناولهُ الى الامتناع عن سوق السيارة) وضعف اليقظة الذهنية وارهاف الاحساس بالضوء ، وفقر دمٍ مفاجيء حاد وحموضة حادة في الدم acidosis وفقد كريات الدم البيض ، والصداع والغثيان ، والجنون المؤقت

ولكن اذا كان استعمال السلفانيلاميد وفقاً لارشاد طبيب خبير وباشرافه ، فوفاة المصاب لا تحدث والشفاء التام مؤكد من الاعراض التي قد تظهر نتيجة لتناول العقار . والسلفانيلاميد قد انقذ حتى الآن الوف الناس كل سنة منذ اكتشافه . وما يقال فيهِ يمكن ان يقال في السلفابيريدين بوجه عام . وكلاهما يحضَّر الآن بلورات ومسحوقاً في اقراص وسائلاً للشرب . والأخذ بالفم مفضَّل ولكن الحقن ضروري في بعض الحالات حيث تؤثر المادة في نظام هضم المصاب فتقلقهُ . ويؤخذ مع العقار عادة بيكربونات الصودا منعاً لخطر الحموضة الحادة . وعلى كل حال لا بد من اشراف الطبيب اشرافاً دقيقاً

وقد اذاع الدكتور لونغ احد اساتذة المدرسة الطبية بجامعة جونز هبكنز الاميركية ان في الوسع منع معظم وفيات النومونيا اذا عولجت الاصابات بالعلاج الصحيح في اليوم الاول . والغالب انهُ من المتعذر منع جميع الوفيات لان المصابين بالنومونيا قلما يذهبون الى الطبيب في اليوم الاول من اصابتهم بل قد لا يستدعونهُ الاَّ اذا اشتد المرض عليهم

والعلاج الذي يقترحهُ الدكتور لونغ هو « السلفابيريدين » . فباستعماله هبطت الوفيات بالنومونيا في مستشفيات جونز هبكنز اكثر من ستين في المائة . ولم يتوفَّ بها من اول يوليو ١٩٣٨ عندما بدأ استعمال هذا العقار الاَّ ثمانية مصابين . ومن هؤلاء الثمانية اعطي اربعة المصل الخاص بالنومونيا وحده . ومصاب واحد اعطي المصل والسلفابيريدين والثلاثة الباقون اعطوا السلفابيريدين وحده . وكان عدد المصابين بالنومونيا الذين عولجوا في خلال هذه الفترة في المستشفى ١٠٧ مصابين

ويرى الدكتور لونغ ان استعمال المصل ليس لازماً اذا امكن اعطاء المصاب السلفابيريدين في اليوم الاول من اصابتهِ . وفي هذا توفير كبير لان استعمال المصل الخاص يقتضي نفقة كبيرة . ثم ان المصل الخاص بضرب معين من النومونيا ليس في المتناول دائماً حالة ان السلفابيريدين فعَّال في جميع انواعها على السواء . وزيد فعل السلفابيريدين باضافة الصوديوم اليهِ . وغدا في الوسع حقن العقَّار في شريان المريض لأن بعض المصابين يعجزون عن ازدرادهِ . ثم ان الحقن يجعل الفعل اسرع من الشرب فلا تمضي خمس دقائق على الحقن حتى يظهر أثره

ويلوح ان هذا العقار ينقذ المصابين بالنومونيا من طريق ابطائهِ لتكاثر جراثيمها وهذا يتيح للمصاب ان يستجمع قوى الدفاع عن الجسم لتقوم بمهمتها . وبعد ان يدخل العقَّار الجسم تهبط الحرارة ولكن المصاب يظل في حكم المصاب بالنومونيا حتى تتمكن قوى الدفاع عن الجسم من التغلب على الجراثيم

وقد عني طبيبان من اطباء معهد مايو الاميركي وهما الدكتور فلدمان والدكتور هنشو ببحث تأثير هذا العقَّار العجيب في السل . فأخذا جماعة من الخنازير الهندية ، وهي شديدة التعرض للاصابة بالسل البشري وحصَّناها ضد جراثيم السل بهذا العقار ، فحقناها بجرعات كبيرة منهُ بضعة ايام قبل حقنها بجراثيم سل فائعة ومضيا في حقنها بالعقَّار مرتين كلَّ يوم في خلال مدة التجربة

كانت الحيوانات التي عولجت بالسلفابيريدين اثني عشر خنزيراً هنديًّا . وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على حقنها بجراثيم السل ثبت ان ستة منها لم تصب بأعراض السل لا في الكبد ولا في الطحال ولا في الرئتين . وظهرت اعراض سلٍّ لا ريب فيها في هذه الاعضاء في أحد الخنازير . اما البقية فقد ظهرت الاعراض فيها في الطحال فقط . وقد ظهرت أعراض السل في جميع هذه الاعضاء في اثني عشر خنزيراً آخر حقنت بنفس حقنة الجماعة الاولى اي بجراثيم سل بشري فائعة ولكنها لم تحصن بالسلفابيريدين . ولا يعني هذا البحث انهما يقطعان بفائدة السلفابيريدين في شفاء السل او منعهِ وانما يقولان ان بحثهما يبعث على العناية بنتائجهِ وانهما ماضيان على كل حال فيهِ

المبحث السابع

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الرومي للدراسات الاسلامية

الطور الثاني من حياة مطران

﴿توطئة﴾ كانت مصر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ — ١٩١٤) ملتقى آمال شباب العرب وملجأ أحرار العثمانيين . ذلك أن مصر كانت قد نالت في ظل الاحتلال الإنكليزي شيئاً من الحرية ظهرت آثاره فيما كان يتمتع بهِ المصريون في ذلك العهد من الحرية الشخصيَّة التي لم يكن يتمتع بها المواطنون العرب والترك خارج مصر في ظل الدولة العثمانية . وقد هاجر الى مصر من سوريا ولبنان جمهور كبير في تلك الفترة من الزمن تخلصاً من الجو الخانق الذي تعيش فيه شعوب الدولة العثمانية ، وهو الجوّ الذي كان يخيم في سمائه شبح الاستبداد الحميدي . ذلك لأن هؤلاء المهاجرين لم يكن في استطاعتهم العمل في محيط بلادهم بحرية وفق رغائبهم وأمانيهم ، لأن التضييق كان ينال منهم من كل جهة . وقد أظهر هؤلاء الذين نزحوا الى مصر نشاطاً شمل مع الزمن جميع مناحي الحياة المصرية . غير انهُ كان واضحاً في ساحات الحياة الأدبية والاجتماعية والتجارية المصرية . والواقع ان المصريين اليوم مدينون بجانب كبير من نهضتهم الحالية لنشاط هؤلاء النازحين الى مصر من سوريا ولبنان ، الذين اكتسبوا مع الزمن حقوق المواطن المصري ، وإن احتفظوا داخل المجتمع المصري بكيانهم

وكان يتجاذب هؤلاء اللاجئين الى مصر اتجاهان : الاتجاه الأول يتمثل في شعور الولاء نحو الخلافة والارتباط بفكرة الجامعة العثمانية ، مقترنين بالرغبة في الاصلاح . وكان هذا الشعور اكثر ما يظهر في جمهور المسلمين باعتبار مركز الخلافة في العثمانيين . ومن هنا كانوا مرتبطين

بفكرة الجامعة العثمانية [١] . أما الاتجاه الثاني فكان يتمثل في شعور الانعزال عن الجامعة العثمانية مقروناً بالنقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها والرغبة في إنشاء الوطن العربي وكان هذا الشعور يتركز في الغالب في جمهور المسيحيين من النازحين من سوريا ولبنان [٢]

وهكذا كانت مصر ملتقى الاتجاهين ومسرح العاملين في الحقلين : حقل الجامعة العثمانية وحقل الوحدة العربية . على أننا يمكننا أن نقول إن المجرى العثماني كان غالباً في مصر حتى إعلان الدستور في انحاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . وذلك يظهر واضح السمات في الآثار الأدبية لذلك الجيل

كان خليل مطران من أولئك الذين اضطروا الى مغادرة بلادهم تحت تأثير تضييق السلطات الحكومية. عاش في فرنسا مدة من الزمن حيث اصطدم بوجوه من التضييق جديدة كان مبعثها سفير تركيا الذي هالهُ نشاط مطران في حقل الإصلاح للجامعة العثمانية . [٣] وهنا يقف مطران في باريس — عاصمة فرنسا — في المفرق بين الشرق والغرب : أيذهب غرباً حتى شيلي أم يعود شرقاً وينزل مصر ؟ وكان الفتى يعرف أن في ذهابهِ غرباً ابتعاداً عن الوطن ونأياً عن ميدان العمل في حقل الاصلاح الوطني . ولما كان هذا عزيزاً عليهِ ، فقد وقف متردداً يتجاذبهُ دافعان قويان : أحدهما يدفعهُ الى ترجيح فكرة الهجرة الى « شيلي » حيث المغريات والتسهيلات التي كانت تلوّح بها حكومة شيلي لشباب العالم القديم حتى تجذبهم إليها ، اما الدافع الثاني فقد كان يدفعهُ الى ترجيح فكرة سفره الى « مصر » ويردّه عن الهجرة إلى « شيلي » . وقد انتهى هذا التردد بمطران الى فكرة ثابتة هي ان ينزح الى وادي النيل . ولم تكن مصر بالبلد الغريب عنهُ ، فقد كان فيها من عشيرته وقومه جالية كبيرة يمكنهُ ان يأخذ مكاناً لنفسهِ بينها ويستعين بالظاهرين من أفرادها للوصول إلى الاغراض التي كانت تراود أحلامه كأماني حياته

— ١ —

تحت تأثير هذه الفكرات خرج خليل مطران من باريس ووجهته مصر، فوصل الاسكندرية صيف عام ١٨٩٢ . وقد تصادف ان كان وصوله لمصر مقترناً بوصول نبإٍ وفاة سليم بك تقلا مؤسس جريدة « الاهرام » وهو يصطاف مستشفياً ببيت مري بلبنان . ولما علم بشارة تقلا باشا بوفاة أخيهِ التمس لنفسهِ مساعداً لهُ في إصدار « الاهرام » . فوجد في شخص مطران بغيته فاتخذه نائباً عنهُ في القاهرة ومحرراً بدار « الاهرام »

---

(١) أنيس الخوري المقدسي في مبحث له عن النزعة العثمانية من دراسة « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » المقتطف: م ٩٢ ج٢ ص ١٤٢—١٤٣ (٢) الباحث نفسه في المقتطف : م ٩٢ ج٣ ص ٢٩٣

(٣) المبحث السادس من هذه السلسلة فقرة ٣

يقول خليل مطران عن بدء اشتغاله بالصحافة في دار « الاهرام »

« كان سليم بك تقلا من أساتذة المدرسة البطريركية التي تلقيت فيها دروسي ببيروت. وكان له علي أياد ومنن . فهو الذي ساعدني حين مررت بالاسكندرية عام ١٨٩٠ في طريقي الى أوربا وعرفني بسمو خديوي مصر وكنت أحفظ له الكثير من الود والاخلاص في نفسي وأعلق على معرفته الشيء الكثير من الآمال . لهذا كان خبر وفاة الرجل صدمة عنيفة لي . وبلغني ان النية متجهة لاقامة حفلة جناز على روح الفقيد بالاسكندرية. وقبل اقامة حفلة الجناز بيوم واحد شعرت بدواعي الشاعرية تتحرك في نفسي فمسكت القلم وكتبت في سرعة بضعة أبيات في رثاء الرجل . فلما كان الحفل — وكان يجمع أعيان مصر وكبار رجالاتها — تقدمت الى الحاضرين وألقيت كلمة تأبين للفقيد عددت فيها مآثره وذكرت فيها ما أعرفه عنه ، وتدرجت من ذلك الى القاء مرثاتي ويظهر ان كلمتي كان لها وقع عظيم عند الحاضرين . كما أنها كانت سبباً لتعرفي ببشارة تقلا باشا الذي أظهر ترحيباً كبيراً بي وسرعان ما شملني برعايته وأولاني عملا في تحرير « الاهرام » قمت بأعماله على الوجه الاكمل . فكان منه ان قدر في نشاطي واخلاصي في العمل فندبني للقاهرة نائباً عنه فيها . ذلك لان « الاهرام » كانت تصدر في ذلك الحين بالاسكندرية » (١)

إلاَّ أن مطران — فيما وصل اليه علمنا — لم يغادر الاسكندرية الى القاهرة الاَّ عام ١٨٩٣ ، بعد أن رافق الخديوي عباس حلمي الثاني في سفرته الأولى الى تركيا . وقد ساعدت مطران نزعته الاجتماعية على ان يتعرّف بالناس فأصبح في قليل من الزمن صاحب مكانة اجتماعية في المحيط المصري (٢) . وقد أهّلتهُ هذه المكانة الاجتماعية للقيام بأعماله على احسن وجه في تحرير « الاهرام »

وربما كان الرجل قد لاقى في بدء اشتغاله بالصحافة بعض الصعوبات . لانهُ لم يكن يألف صناعة التحرير الصحافي . ولكن ليس هنالك من شك في أنهُ تغلب على هذه الصعوبات بما له من عزم ومقدرة على التطبع ومرونة على التكيُّف وبهذه المؤهلات — بجانب نزعته الاجتماعية — برز مطران محرراً ممتازاً في عالم الصحافة العربية

وقد اشتغل مطران نيفاً وسبع سنوات في دار « الاهرام » حتى انتقالها عام ١٨٩٩ الى القاهرة. وقد حدث ان رغب بشارة باشا تقلا في أن يجعله رئيساً للتحرير ، غير انهُ أبى ذلك حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل

وكان مطران اثناء تحريره بالاهرام يكتب كل اسبوع مقالاً في السياسة او الاجتماع او الاقتصاد او الأدب . وكانت لمقالاته هذه صداها الكبير في المجتمع المصري ، وذلك لانها كانت تكتب بطريقة جديدة فقد كان يغلب عليها التدقيق والتحقيق وتتخللها نزعات تأملية واتجاهات علمية . وكتابات الرجل السياسية كانت تكشف عن اتجاهاته الانسانية ونزعاته الاصلاحية (٣) ويظهر ان مطران تأثر بالنزعة الغالبة في مصر من التشيع لفكرة الجامعة العثمانية (٤)

(١) عن خليل مطران وأنظر من هذه الدراسة البحث الخامس : فقرة ٢ حديث الصحافي العجوز

(٢) مجلة سركيس : م ٢ ج ١١ ص ٣٢٢ (٣) صحيفة الاهرام عدد يوم ٢٨ يونيو ١٨٩٣ مقال لمطران عن « حلم سياسي » (٤) أنيس الخوري المقدسي ، المقتطف : م ٩٢ ج ٢ ص ١٤٦

وذلك واضح من المقالات التي كان يكتبها معلقاً بها على حوادث الدولة العثمانية وسير الشؤون والاحوال فيها . وتتجلى هذه النزعة العثمانية في كتابات مطران . وهي اكثر ما تتضح وتستبين في شعره ، واذن فلا غرابة في ان نسمعه يقول من قصيدته (فتاة الجبل الاسود) التي نظمها[1] قبيل استقلال الجبل :

طغت امة الجبل الأسود على حكم فاتحها الأيّدِ

ومنها : وما الترك الا فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد

وهذه الحماسة العثمانية تبدو قوية في كتابات مطران وشعره الى زمن متأخر ، تراها في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر . غير ان الحرب العظمى والحوادث التي حملتها في طياتها من استبداد الاتحاديين بالعرب قضت على وشائج الصلة العالقة بين نفسه وبين العثمانيين

على ان مطران نجده بعد ذلك يقف — في كتاباته في الاهرام — من الحوادث الداخلية موقف الحيدة خشية ان يميل به الرأي الى وجهة تتفق ورأي إحدى الشيع فيتهم بمناصرتها . لهذا كان التحوط أبرز سمات المقالات التي كان يكتبها مطران — في تلك الفترة — في الشؤون المصرية الداخليّة . ويظهر أن هذه الحيطة كانت تتقوم من نفسهِ — بجانب الأصل الطبيعي منهُ — بشعور الانعزال كدخيل في المحيط المصري . الاّ أن مطران بعد تلك الفترة دخل السياسة المصرية ومال مع الحزب الوطني وناصر مصطفى كامل في جهاده القومي بقلمه

على أن حياة مطران التي ارتبطت بالصحافة طيلة هذه الفترة لم تقض على بقية مناحي نشاطه فقد أظهر في تلك الفترة نشاطاً ادبيّاً نمَّ على شاعرية عظيمة كامنة في نفسه تفتحت براعمها في ذلك الحين . فقد نظم عدة قصائد نشر بعضها في مجلة « أنيس الجليس »[2] وهي صحيفة ادبية كانت تصدرها السيدة الكسندرا دي افرينوه ويزينوسكا بالإسكندرية . وانت تجد بعض هذه القصائد منشوراً في صدر « ديوان الخليل » . واولى القصائد التي نشرها مطران في مجلة « انيس الجليس » ، القصة المنظومة « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » (مجلة انيس الجليس م ١ ج ٦ ص ١٨٤ — ١٨٩ . وقد نشرها مطران بعد سنوات في المجلة المصرية : م ١ ج ١٩ ص ٨٨٦ — ٨٩٠ بعد ان اجرى فيها شيئاً من التهذيب والتشذيب . وقد اثبت الخليل في الديوان ص ٦٤ — ٧٤ الصيغة المشذَّبة من القصيدة ، تلك التي نشرت في المجلة المصرية)

---

(١) ديوان الخليل ص ١٥٤ — ١٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٢٧٩ — ٢٩٣ (٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٨

وتتالت بعد ذلك على صفحات مجلة « أنيس الجليس » قصائد له تجدها في السنوات الثلاث الاولى من المجلة (١٨٩٨ — ١٩٠١) وهي :

[« قصة بين القلب والعين » (أنيس الجليس م ١ ج ٧ ص ٢١٥ و ٢١٦ والقسم الاخير منها — وهو النقض والابرام — نشر في عدد تال : ج ٨ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ وقد أثبتها الخليل في الديوان ص ٢٨ — ٣٠ بعد ان أجرى فيها قسطاً كبيراً من التعديل) و «النجمتان» (أنيس الجليس: م ١ ج ٨ ص ٢٥٠ — ٢٥١ وتجدها في الديوان منقحة ص ٢٨ — ٣٠) و «الوردتان» (أنيس الجليس: م ١ ج ٨ ص ٢٥١ — ٢٥٣ وأنظرها في الديوان منقحة ص ٣٥ — ٣٧) وفاجعة في هزل (أنيس الجليس: م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ والديوان ص ١٦ — ١٧ وهي في الديوان منقحة) و «النرجسة» (أنيس الجليس: م ٢ ج ٨ ص ٣٠١ — ٣٠٢ والديوان ص ٤٤ منقحة) و « العصفور » (أنيس الجليس م ٢ ج ١٠ ص ٣٨٧ — ٣٨٩ والمجلة المصرية م ٢ ج ٧ ص ٢٩٣ — ٢٩٥ وهي منقحة ومنها اثبت في الديوان ص ٧٩ — ٨٢) و « أشعة رنتجن » (أنيس الجليس م ٢ ج ١١ ص ٤١٢ — ٤١٣ والمجلة المصرية م ٢ ج ١٦ ص ٦٨٢ — ٦٨٣ والديوان ص ١٦٨ — ١٦٩ وهي منقحة في كلتا المصدرين الاخيرين) و « يوسف افندي » (أنيس الجليس : م ٣ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٤ والديوان ص ٣١ — ٣٣ منقحة) و « ان من البيان لسحرا » (أنيس الجليس: م ٣ ج ٥ ص ١٨٤ — ١٨٧ والمجلة المصرية م ٢ ج ٥ ص ١٨٥ — ١٨٨ والديوان ٣٧ — ٤١ : منقحة) و « المرآة الناظرة » (أنيس الجليس : م ٣ ج ٧ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ والديوان ص ١٣ — ١٤)]

ومن الخطأ في مراجعة هذه القصائد الرجوع الى صيغها النهائية التي أفرغت فيها في «ديوان الخليل»، اذ يجب مراجعتها في صيغها الاولى التي نشرت بمجلة « انيس الجليس » وذلك لأن الصيغ النهائية قد اخذتها القصائد بعد تشذيب جرى في فترة من الزمن تلت فترة نظمها ونشرها اولاً . وأنت إذ تراجعها في صيغها الاولى تتبين ان شاعرية الخليل كانت في ذلك العهد في طور التفتح . ومما لاشك فيه ان الخليل وجد من طبيعته الشاعرية ومن العوامل التي اكتنفته — وأهمها حبه — ما ازجى به الى عالم الشعر . ومما لا ريبة فيه أن حب الخليل جعل نفسيته تتفتح وأوتار قلبه تهتز امام مشاهد الحياة ومجاليها . وهذا يظهر من مقارنة شعره الذي نظمه في الفترة التي جاءت قبل عام ١٨٩٧ والتي سبقت تاريخ حبه بالشعر الذي قاله ايام حبه (١٨٩٧ — ١٩٠٣) او في الفترة التي جاءت بعد ذلك . بيان هذا ان حب الرجل جعله متفتح النفس يحس بأدق النبرات ويشعر بأرق الخلجات ، مما جعل له — بحكم طبيعته المعاودة من نفسه — مقدرة على تصوير خلجات النفس ولوامعها وبدراتها الشيء الذي لم يظهر الخليل من قبل حبه براعة فيه

ويظهر من مراجعة شعر مطران في هذه الفترة انه كان متأثراً — الى حد كبير — بالمذهب الرومانسي . على ان تأثره بالرومانسية لم يمنع تأثره بالاخيلة الكلاسيكية والنماذج التي تذهب تحاكي الاشياء محاكاة تامة والتصورات النموذجية التي ظهر بها البرناسيون في اواخر القرن التاسع عشر بأوربا . ففي قصيدته «العصفور» و « اشعة رنتجن » تجد اخيلة رومانسية ، بينا تجد في قصيدته «المرآة الناظرة» اخيلة برناسية اقرب ما تكون الى أخيلة الشاعر الفرنسي سولي برودوم . ومن ذلك يظهر أن ثقافة مطران الأدبية متعددة المناحي . ذلك لأن شاعريته

كانت تستعين بمحصوله الأدبي لتدور حول الاغراض الشعرية التي تتفتح أمامها نفسه ، لتنسحب على الموضوعات التي تهز وشائج الصلة بالحياة في نفسه. وذلك ليستنزل منها أخيلتها وتصوراتها وقد عُرف مطران في أواخر اشتغاله بالتحرير في « الأهرام » بمواهبه الشعرية ، وسرعان ما احتل مكاناً بجانب شوقي وحافظ في عالم الشعر الحديث

***

كانت حياة مطران تدور في هذه الفترة بين مهام التحرير في دار « الاهرام » التي كانت تسترق كل وقته . وقد أدى ذلك الى أنهُ لم يكن يستطيع أن ينظم الشعر أو يعالج الأدب إلاّ مسارقة من اوقات عمله. ويظهر أن مطران اختار هذا بحكم مشاغله الكثيرة فأصبح من مستلزماته. وقد كان ينظم الشعر عادة وهو جالس في زاوية منعزلة من مشرب أو ناد — وأحياناً في مكتبه — دون أن تشغله الجلبة عما هو فيه . وذلك لأنهُ اصبح في مكنته بحكم العادة ان يحصر ذهنه وأن يسترسل في موضوع نثره او شعره وان يستغرق فيه طالما لا يتوجه اليهِ احد بحديث او كلام يقطع عليه سلسلة افكاره. ولما كان مطران ينظم الشعر بعد ان يكون قد هيأ في ذهنه الغرض بإعداد فكره مُقدَّماً في موضوع القصيدة مجملاً ، واحياناً في جزئياتها وتفاصيلها فقد كان من اليسير عليه — كلما سنحت لهُ فرصة يخلو فيها الى نفسه — أن يعاود عمله وأن يسلسل نظمهُ حتى ينتظم معهُ القصيد. ولم يكن هذا التقطع ليشتت من وحدة موضوع قصيده لأن الموضوع كان يدور في رأسهِ من قبل ، وكان ذهنه مهيأ له (١)

على أن نظم الخليل لشعره في فترات متقطعة يسترقها من أوقات العمل أو من سهراتهِ ، كان يجعله في كثير من الاحيان لا ينتهي من قصائده التي يبدأها (٢) ومن هنا كانت جناية أعمال الرجل على شاعريته . لذلك لم يبرز مطران في هذه الفترة غير بضع قصائد تجدها في الربع الأول من ديوانهِ . الاّ انهُ انطلق بعد تحرره من قيود العمل في دار « الاهرام » عام ١٨٩٩ في عالم الشعر ، فنظم في فترة لا تزيد عن الفترة الأولى ثلاثة أرباع ديوانهِ الذي صدر عام ١٩٠٨. ولئن كان لهذا دلالة فعلى أن العمل من جهة وشاعريته التي كانت في بدء تفتحها من جهة أخرى ، كانا يقفان في سبيل الرجل فلم ينظم كثيراً

—٢—

إن الفترة التي تقع بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٣ من حياة مطران — والتي يدخل نصفها الأول في الفترة الاولى من الطور الثاني من حياتهِ — تلك التي عرضنا لها — بينما يدخل

(١) صحيفة الدستور ، عدد ٩ نوفبر ١٩٣٨ حديث مع مطران

(٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٧—١٠٠ قصة تاريخ الجنين الشهيد

النصف الثاني منها في الفترة الثانية منهُ — تعتبر ردحاً من الزمن عظيم الأثر، فهي تسجل الناحية الشعورية من حياته، وهي تظهر واضحة السمات في « حكاية عاشقين » التي صب فيها مطران تاريخ حبه، والتي افرد لها مكاناً خاصًّا من ديوانه حتى يمكن تفهم حوادثها من الاشارات الشعرية ويسهل استقراء وقائعها غير مبعثرة بين متفرقات كثيرة لا صلة لها بها (١)

وتجري هذه القصة (الديوان ص ١٥٩ — ١٩٥) بين مطران وعشيقته مجرى القصص الخيالي، وهي لا يتخللها شعور دانٍ او نزعة دنية، فقد احتفظ مطران فيها بحبه طاهراً فاصبحت بذلك قصة حبه داخلة في نطاق قصص الحب الافلاطوني (٢)

كانت حبيبة مطران فتاة . . . ذات حسن وجمال (٣) . ويظهر من مطالعة شعر الخليل فيها انها كانت فتاة غنية الاحساس ثرية الشعور تفيض بهما على صاحبها وتغمره فاذا بأوتار نفسه تهتز واذا بصحنة وجدانه تتكشف لها وشائج الصلة بين حياة الحب التي يحياها وحياة الطبيعة التي تبدو له في مجاليها ومشاهدها (٤)

تعرّف اليها مطران ربيع عام ١٨٩٧ في احد متنزهات القاهرة . يقول : « ان أول المعرفة كان اجتماعاً في حديقة فأتت نحلة لسعتها في وجنتها فتألمت واشتكت » (٥) فتقدم منها مطران يسري عنها . ويظهر ان حب مطران لها انبعث شرارته الاولى في نفسه منذ هذه المقابلة، فكانت هي لشاعريته منبع الوحي حيناً والاصل الذي يغذي شعوره حيناً آخر . فقد كانت حياة مطران من قبل قاحلة لا تدور حول ما يرد على نفسه حياتها مليئة بالشعور والاحساس . فلما رآها وجد فيها الفتاة التي كانت تراود أحلامه . وظلّ مطران مخلصاً لها وفيًّا لذكراها يقدسها في خياله ويحمل صورتها بين جوانحه، يتذكرها فيتحرك في صدره الشوق القديم لها فيجري دمعه . ويذكرها فيذكر معها ايام الشباب فتجري بذكرياتها حياته . ولا زال حبه القديم حتى اليوم يملأ عليه رحاب نفسه وقلبه (٦)

عرفها مطران فأولاها كل شعوره وأحاطها بكل ضروب العناية ووضع قلبه وحياته بين يديها . غير ان قليلاً من احساسه الذي تقوّم بالحيطة كان يجعله يكتم هواه بين الضلوع ولا يظهره حرصاً عليها وعلى سمعتها من الناس . وفي ذلك يقول مطران :

كتمتُ هواكِ دهراً لا لخوف وما أنا من يروّعهُ الحمام
ولكني حرصت عليكِ منهم ولو أودى بمهجتي الغرام

(١) الديوان ص ١٥٩ . تنبيه الناظم لحكاية عاشقين (٢) عن مطران — وانظر حكاية عاشقين (٣) عن مطران — وانظر قوله فيها من قصيدته « ليلة سعد » الديوان ص ١٦٤ — ١٦٥ (٤) الديوان ص ١٦٧ الشطر الثاني من قصيدته « اعتذار » ص ١٧٠ الابيات من ٤ — ٧ (٥) الديوان ص ١٦٠ المشهد الاول من حكاية « عاشقين » (٦) الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٦ حديث مع خليل مطران

هذه النفس الصافية التي غمرها الحبّ فرأت فيه معنى الحياة [١] ماكان في مستطاعها أن تنسى في حبها ما يمكن أن يجره هذا الحب من آلام للحبيبة . لهذا كانت عناية مطران بحبيبته وبذله ما في طاقته حتى لا يسبب لها الماً ، فكانت مقابلاتهُ لها مسارقة في جنح الظلام او في الضواحي. وفي غير أوقات اللقاء — التي لم تكن متوافرة للعاشقين — كانت في القلب جمرة يخفيانها في الضلوع عن الناس ، ويجدان في هذا كل الشقاء ، ولكن لا يقويان على مغالبته بالاكثار من اللقاء حتى لا يفتضح حبهما ، وفي هذا نجد الشاعر يقول:

ظللت عليهِ أخفيه وأشقى الى أن بات وهو بنا سقام

غير أن حبهما لم يلبث كثيراً حتى عرف لبعض اصدقائهما. فعمل بعضهم على الوقيعة بين العاشقين، فوشوا بهِ عندها فوجدت على محبها [٢]. وكان ان ألمَّ بها داء فذهبت تستشفي في الشام ، وحدث ذلك دون أن يراها الحبيب ، فاذا بهِ ولَهٌ يرسل من اعماق قلبه زفرة الثمة يودعها في قصيدته « تذكار ». وتنقضي فترة من الزمن يحس فيها الشاعر بتباريح الهوى ، فيصب مشاعره في قصيدة «عتاب» التي كتبها في صيغة مناجاة شاعر لطائره . غير ان مطران وهو في غمرة آلامه يصل اليهِ نبأ اصابتها بداء عضال فينتفض الشاعر فيهِ ويتألم لها ويرسل أحاسيسه في قصيدته « روعة نبأ ». على ان مايظهر عليهِ من الجزع الشديد والالم يدفع بعض أصدقائهِ الى أن يشيعوا خبر شفائها مبشرين مطران بذلك حتى يسكنوا من المهِ فيفرح الشاعر لا بلالها من الداء ويرسل فرحه في قصيدته « تكذيب النبأ » .على انهُ بعد مدة ينتهي اليهِ خبر وفاتها فيصدم ويبكيها في قصائد متتاليات تستغرق الفصل الثاني من « حكاية عاشقين »

ومراجعة الشعر الذي نظمه الخليل في صاحبته وسجل فيهِ قصة حبه وعشقه من ناحية دلالته الوجدانية شيء ادخل في بحث نتناول فيهِ شعره الوجداني بدرس . لهذا نتركهُ لموضعهِ من دراستنا هذه . على انهُ بعد ذلك تبقى قصة حبّ مطران كما صاغها في «حكاية عاشقين » غير مستكملة الخطوط من بحثنا اذا وقفنا عند هذا الحدّ ولم تنزل بها من جهة الى مقوماتها من نفس الخليل مما يساعد على استقراء حياته ، واذا لم نصل بها الى الآثار التي تركها في نفسه من جهة أخرى.والواقع ان حبّ مطران كان عظيم الأثر في حياته. فهو يقول : « الحب ثلاثة ارباع ديوان شعري »[٣] ومعنى ذلك ان الحبّ ثلاثة ارباع حياته. لان ديوانه لم يخرج عن كونهِ مظهر حياته الشعورية

وأول شيء نلاحظهُ هو ان شخصية الخليل تبدو من خلال قصة عشقه ، متحوطة الأسباب

(١) الديوان ص ١٦٦ ــ الابيات الاخيرة من قصيدة « آدم وحواء » (٢) الديوان ص ١٧١ــ١٧٣ قصيدة « تذكار »
(٣) جريدة الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٨

لا تنساق مع فورة العواطف والمشاعر وان ارسلتها في قوة . وذلك راجع الى طبيعة المعاودة من نفس الخليل ، التي تفسح لعقله مجالاً للتدخل في احساساته ومشاعره وتصفيتها وضبط النسب بينها وبين العقل . وهذا التحوط يبدو واضحاً في تسجيله قصة حبه في «حكاية عاشقين» في صورة كلها صدق وكلها حق. وقد وفق هو الى ذلك دون ان يهتك سرًا او يرفع حجاباً. «تعددت في قصة حبه الاسماء التي تشير الى معشوقته وهي واحدة» (١)

على ان طبيعة المعاودة من نفس مطران ، من حيث تجعله يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد فينتزع منه مجموع اشكاله وينزل به الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ، تبدو واضحة في شعره — الذي سجل فيه حبه — بما فيها من افراط من تقصٍ للمعاني وتتبع للجزئيات ، وهذا يعتبر من جهة مظهراً من مظاهر تداخل عقل الرجل مع شعوره ، ومن جهة اخرى سبباً من أسباب فتور شعر الوجدان عنده . على انهُ بعد ذلك يرسل مشاعره في مواقف قوية — كما يتضح في بعض مقاطع من قصائده — فيجيء شعره قويًّا ممتلئاً بالشعور الملتهب وبالاحساس الشديد ، وذلك من حيث لم يتعارض عقله في شبكة انفعالاته . وهذا اوضح ما يكون في المرثاة التي نظمها حين نعيت اليه محبوبته (٢) ولئن كان كل هذا يسوق الى نتيجة فالى ان حبّ الخليل عميق الأصل في الشعور رغم مظهره الفاتر

على ان مطران الذي حرمهُ الموت حبيبة قلبه وصدمه في حبه ، لم تتغير نظرته الى الحياة ، لان ما في الرجل من ضبط النفس والمرونة جعله يتقبل الصدمة في ألم شديد وحزن دفين الاّ ان الفكر صفّاه من حيث تداخل عقله في انفعالاته فمنعهُ عن الاسترسال مع آلامه واحزانه. وان كان هذا يدل على شيء فعلى صدق نظرتنا في طبيعة انفعاله . على ان صاحبته بما كانت قد تركته في نفسه من ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل عام فيتحرك في صدره الشجن فينظم فيها مرثاة جديدة ، وهكذا ظل مطران يرثيها كل عام مدة عشرين سنة . وهذا جعله يتفنن في الرثاء ويتمكن منه حتى اصبح صاحب مقدرة على تصوير فضائل الفقيد وحكى خصائصه وتضمين شخصيته في مرثاته في صورة دقيقة لم يعرف تاريخ الادب العربي من قبل مثيلاً لها ، حتى اصبح عن حق كما اشتهر «شاعر المراثي» (٣)

على ان اثر حبه لم يقف عند هذا الحد ، فقد جعل في مكنته تصوير ارق خلجات النفس وأدق نبراتها وأشف لامعاتها وبدراتها . وذلك من حيث جعله حبه متفتح النفس دقيق الشعور يحس بأدق النبرات ويشعر بأرق الخلجات من حيث دارت حياته فترة حبه في عالم الشعور

---

(١) المرجع السابق ذكره انظر تنبيه الناظم لحكاية عاشقين — الديوان ص ١٥٩ (٢) الديوان — مثال في مرآة — ص ١٨٢ — ١٨٥ وخاصة النصف الثاني من المقطع الاول (٣) مجلة «عطارد باريس» Mercure de Paris

— ٣ —

في صيف عام ١٨٩٩ خرج مطران من مصر متوجهاً الى سوريا ليستشفي من جهة ويجدد اتصاله ببلدته ويحيي ذكرياته من جهة اخرى[١] وعاد مطران الى مصر بعد ان مكث هنالك نحو أربعة اشهر من الزمان . ويظهر أن مطران غادر مصر مصطافاً ومستشفياً الى سوريا بعد ان انطلق من العمل في تحرير « الاهرام »[٢]

وقد كانت سفرته هذه حدًّا فاصلاً بين عهدين من الطور الثاني من حياته: عهد الاشتغال بالصحافة في دار «الاهرام» وعهد الاستقلال في العمل في الصحافة . ومن المهم ان نقول ان هذه السفرة التي قام بها الخليل سجلها في ثلاث قصائد : الاولى في « براح مصر » والثانية في « لقاء الشام » واما الثالثة ففي « قلعة بعلبك وتذكارات الصبى » . وأنت تجد هذه القصائد في الديوان : ص ٧٤—٧٩ وقد نشرت كلها في الاصل في السنة الاولى من (المجلة المصرية) . والقصيدة الثالثة منها من اروع شعر مطران ومن أبلغ الشعر العربي الحديث

على أن مطران لم يكد يعود من سفرته من ربوع الشام الى مصر حتى شرع في الاستعداد لاصدار مجلة ادبية نصف شهرية . وفي يونيو عام ١٩٠٠ صدر العدد الأول منها حاملة اسم « المجلة المصرية » . وظلت تصدر عامين من الزمن صدر فيهما نحو خمسين جزءا . وكانت مجلة تعنى بالشعر والأدب وفنون التاريخ والزراعة . وكان يعاون الخليل في اصدارها أخوه جورج مطران . وكان مختصًّا بتحرير المقالات التجارية وترجمة القصص لها . وقد نشط مطران ونشر فيها فصولاً في التاريخ من كتاب سفر « مرآة الأيام » الذي اصدره فيما بعد « عام ١٩٠٦ » كما نشر فيها بحوثاً أدبية وقصائد . وانت تجد في مجلداتها التي صدرت كل ما نشره الخليل الى ذلك الحين : معاداً نشره بعد ان أجرى فيه التهذيب والتشذيب . وفيها كذلك قصائد له لم يسبق نشرها نذكر منها :

[قصيدة « السور الكبير » (المجلة المصرية : م ١ ج ١ ص ١١—١٢ وتجدها في الديوان ص ٤١ — ٤٣) و « قلعة بعلبك : تذكار صبي » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢ ص ٤٥—٤٨ والديوان ص ٧٦—٧٩) و « الحمامتان » (المجلة المصرية : م ١ ج ٣ ص ٨٩— ٩٠ والديوان ص ٥١—٥٣) و « ١٨٠٦—١٨٧٠ » (المجلة المصرية : م ١ ج ٤ ص ١٢٩—١٣٣ والديوان ص ٩—١١) و « بدري وبدري السماء » (المجلة المصرية : م ١ ج ٥ ص ١٦٧—١٦٨ والديوان ص ١٤—١٥) و « مقتل بزر جمهر » (المجلة المصرية : م ١ ج ٦ ص ٢٠٦—٢٠٨ والديوان ص ٩٩ — ١٠٢) و « وفاء » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩—٥٠٣ والديوان ص ٨٤—٨٨ منشورة فيها بعد تنقيح كبير) و « الوردة والزنبقة » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٧ ص ٧٠٤—٧٠٧ والديوان ص ١١٣—١١٥) و « وداع وسلام — براح مصر ولقاء الشام »

---

(١) الديوان — ٧٤ — ٧٩ أنظر تواريخ القصائد وما تحملها من مدلولات هذه المقطوعات

(٢) المبحث الخامس من هذه السلسلة ، فقرة ٢ حديث الصحافي العجوز

(المجلة المصرية : م ١ ج ١٨ ص ٧٤٤ـ٧٤٥ والديوان ص ٧٤ـ٧٦) و « الاهرام » (المجلة المصرية: م ١ ج ٢١ ص ٨٦٠ـ٨٦١ والديوان ص ٨٣) و « دمعة » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢٢ ص ٨٥٣ـ ٨٥٤ والديوان ص ١٩٣ـ١٩٤) و « رثاء بشارة تقلا باشا » (المجلة المصرية : م ١ ج ٣ ص ١٠١ـ ١٠٣ والديوان ص ١١٧ـ١١٩ والابيات الاخيرة من المرثاة لم تثبت في الديوان . هذا فضلا عن أن الخليل نظم ٦ أبيات من الشعر تلاها في صلاة التاسع في الرضوانية على روح الفقيد وتجدها في المجلة المصرية في الجزء المذكور ص ٩٥ ولم يثبتها الشاعر في ديوانه) و « مشاكاة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٤ ص ١٥٩ـ١٦٠ والديوان ص ١٩ـ٢٠) و « يوميات أدبية » (المجلة المصرية :م ٢ ج ٤ ص ١٣٧ـ ١٤٤ والديوان ص ٩٧ ـ ٩٨) و « حنا الصغير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥٢٣ والديوان ص ١٠٧ـ١٠٨) و « تهنئة بزفاف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥١٠ والديوان ص ١٠٨ ـ ١٠٩) و « تبرئة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٣ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ والديوان ص ١٩٧ ـ ١٩٨) و «آدم وحواء» (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٥ ص ٦٣٥ـ٦٣٦ والديوان ١٦٥ـ١٦٦)و« الزهرة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٧ ص٧٧١ـ٧٧٣ والديوان ص ١٠٢ـ١٠٤) و« فنجان قهوة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٠ ص ٨٤١ـ٨٤٦ والديوان ص ١٢٣ـ١٢٨) و « جواب كتاب هزلي» (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢١ ص ٨٨٠ والديوان ص ٦٠ـ٦١) و « الطفلة البوئرية » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٢ ص ٩١٩ـ٩٢١ والديوان ١٣٧ـ ١٣٩) و « تهنئة زفف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٥٣ـ ٩١٠ والديوان ص ١٤٢ـ١٤٣) و « تذكار » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٦٥ـ ٩٦٧ والديوان ١٧١ـــ١٧٣) و « العالم الصغير مرآة العالم الكبير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨ـ٩٩٩ والديوان ١٢٩ـ١٣٠]

وهذه القصائد نظمت خلال فترة تمتد بين نظمها ونشرها وخمسة عشر عاماً . اما القصائد التي نشرها مطران في «المجلة المصرية» وسبق نشرها من قبل فقد سبقت الاشارة اليها عندما تكلمنا عن القصائد التي نشرها مطران في مجلة «أنيس الجليس»

وقد نشر مطران ما نشره في «المجلة المصرية» مدفوعاً بداعي ان يكون له شيء من النظم بجانب ما كان ينشره لاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وسامي البارودي والبستاني من اعلام الشعر العربي الحديث. وكان ينشر من شعره مقطوعات صغيرة . وبدأ بما كان قد سبق له نشره من قبل بعد ان أجرى يد التنقيح فيه حتى يستوفي كماله لفظاً ومعنى . ومن هنا كان من الصعوبة في مكان معرفة الصيغ الأولى لمنظومات الخليل، لأن يد التنقيح كانت تتناول شعره القديم قبل نشره . على أننا في اثناء تنقيبنا في بطون متون مجلات ذلك العهد انتهينا الى أشياء ذات قيمة من حيث وقفنا على بعض قصائد مطران منشورة في حين نظمها وذلك قبل أن يتعهدها بالتنقيح ويصبها في القالب الذي افرغت فيه عند نشرها في المجلة المصرية . وسيجيء بيان ذلك مفصّلاً في موضعه من دراستنا

ويستوقف النظر من كتابات مطران لذلك العهد في « المجلة المصرية » مسرحيته الهزلية « العلاج بالشنق » وهي مسرحية في فصل واحد (المجلة المصرية م ١ ج ٢٢ ص ٨٣٥ـــ٨٥٠) وبضع مقالات أدبية تمتاز بمطالعاتها التقريرية . نذكر منها كلمته عن مارتيني الشاعر الإيطالي مع ترجمة نثرية لقصيدته في المساء والمدينة (المجلة المصرية: م٢ ج٦ ص٢٥٠ـ٢٥٢) وبحثه عن فيكتور

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٠

هوغو (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٧) ودراسته لأدوار الشعر الصيني (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤) وكلمه عن الموسيقى العربية (المجلة المصرية : م ١ ج ٤).وفي هذه الكلمة يأخذ مطران على الموسيقى العربية تشابهها . كما انك تجد له في نفس هذه المجلة بحثاً في مفهوم الأخلاق ومعنى السعادة (المجلة المصرية : م ١ ج ٢١ ص ٨٥٥ — ٨٥٨) وكلة عن المرأة الجديدة (المجلة المصرية : م ١ ج ١٨) وذلك بعيد صدور كتاب قاسم بك امين . وخير كتابات مطران الأدبية بحثه في « الكتاب امس والكتاب اليوم » ودراسته عن « الشعر العربي » (المجلة المصرية : م ١ج٢)وهوفي بحثه الاخير ولاسيا في ص ٤٢—٤٤ منه قد نظر الى مطالعات المستشرق الألماني(تيودور نولدكه)عن طبيعة الشعر العربي القديم ، التي كان قدضمَّنها بحثاً لهُ عن المعلقات نشره في « دائرة المعارف البريطانية »

وكتابات مطران في تلك الفترة تدل على أنهُ صاحب محصول ادبي كبير وثقافة أدبية شاملة . فقد كان الرجل يستفيد من كل صفحة يطالعها وسطر يقرؤه

على ان « المجلة المصرية » لم تقو على الصدور فاحتجبت وأصدر مطران بدلاً عنها صحيفة « الجوائب المصرية » اليومية وذلك عام ١٩٠٢ . وحياة هذه الصحيفة تنقسم الى دورين . الأول حين كان يصدرها مطران ويديرها بنفسه . والثاني حين عهد بها الى عطا بك حسني فالتزم إصدارها . على انهُ في الدور الاول ساعد خليل مطران في إصدار الجوائب شقيقه جورج مطران ، وكان يحرر معهُ فيها الشيخ يوسف الخازن والشيخ علي الغاياتي . غير أن طبيعة مطران التي لم تعتد التصرف مقيدة بنظام ، جعلت شؤون الصحيفة تختل في يده فلم يقو على اصدارها بنفسه وادارتها ، فعهد بادارتها الى نفر من اصدقائه وتنقلت ادارة الصحيفة بين أيديهم حتى انتهت الى يد عطا بك حسني الذي أخذ على نفسه مسألة اصدارها وإدارتها (١) وما وجد مطران في شخص صديقه عطا بك حسني الرجل الذي يمكن أن يدير صحيفته حتى انطلق حرًّا من قيود العمل في الصحافة واشتغل بأعمال البورصة وشؤون التجارة والاقتصاد . على أن اشتغاله بالشؤون التجارية لم يمنعهُ من أن يساهم بين الحين والحين في امداد الصحف العربية بمصر بكتاباته ، وكان في طليعة هذه الصحف — ما عدا الجوائب — صحيفتا « الوطن » و « اللواء » (٢)

***

من الاهمية بمكان ان ننظر في حياة مطران الاجتماعية وصلاته بالناس لأن ناحية كبيرة

---

(١) فيلبدي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج ٤ مادة ٢٠٠ من قوائم الصحافة المصرية — الهامش وكذا لنا المبحث الخامس فقرة ٢

(٢) الصحافي العجوز في المبحث الخامس لنا فقرة ٢ وعبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٤٤

من حياة مطران دارت متلونة بصلاته الاجتماعية بالناس في المحيط الذي كان يكتنفه . فقد كان الرجل « صاحب شعور اجتماعي يتلوّن بصلاته بالناس » (١) وكان يسترسل مع هذا الشعور فينظم في اغراض اجتماعية الكثير من الشعر . وهذا ما يظهر من مطالعة ديوانه الذي يتألف جانب كبير منهُ من قصائد دارت حول اغراض اجتماعية واضحة تلونت بها مشاعره واحساساته فشارك الجماعة شعورها واندمج في جوّها وحمّل نظيمه آلامها أو افراحها . ومن هنا جاء جانب كبير من شعر مطران من الأدب الاجتماعي وهذا جعله موضع اتهام عند البعض في أن أدبه : أدب الحفلات والحياة الاجتماعية ومناسباتها (٢) على أننا لا نرى في ذلك ما يدعو الى اتهام الرجل في شاعريته او في ذوقه الشعري فالرجل — كما قلنا — لا يقول الشعر الاّ عن وجدان صادق ، ومراثيه ومدائحه لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بهما البعض الى محاكاة العاطفة ، وانما تقوم عنده على فيض الشعور ، وشعور الرجل — كما قلنا — يتلون بصلاته الاجتماعية بالناس . ومن يطالع ديوان الخليل يرى مصداق كلامنا في الشواهد الكثيرة التي يشملها ديوانه . فقد خلق الرجل وفيه اللطف سجية والميل لمعاشرة الناس . واذا بهذا اللطف يتداخل مع ميله للمؤانسة وحبه للمعاشرة فيكون محوراً تدور حوله بعض اغراض شاعريته . وليس من شأننا هنا ونحن نطوي جانباً من سيرة الرجل في فترة من الزمن ان نتوسع وندل على الشواهد التي اتخذناها واقعات انتهينا منها الى هذا النظر . فان لهذا البحث الاستقرائي مكانه من بحثنا حين نعرض لدراسة شخصية الخليل في البحث التاسع من دراستنا

على ان حياة مطران التي ذهبت تدور حول صلاته الاجتماعية مع الناس ، تأثرت بما يحمله المجتمع المصري في ذلك الحين من فكرة التشيع للجامعة العثمانية . ولكن هذا التشيع — الذي اشرنا اليه من قبل — كان مقروناً عند مطران بالرغبة في صلاح الدولة واصلاح امور رعاياها ورجوع الطمأنينة الى قلوب الناس . ولا شك ان رغبة مطران الاصلاحية تولدت في نفسه من اصطدامه بالمفاسد التي كانت تنخر في جسم الدولة العلية . ولاشك ان مطران الذي كان هدف تضييق قلم المراقبة التركية في بيروت عقب تخرجه من الكلية البطريركية — مما ألجأه بداءة ذي بدء الى مغادرة بلاده الى الخارج الى حيث لا يصل اليه تضييق السلطات التركية — لمس جانباً من جوانب خنق الحريات في نطاق الدولة العثمانية . ولا شك ان ما لاقاه في باريس من دسائس وصلت وراءه من تركيا فجعلته ينزح الى مصر ، وضعه في مركز يحس فيه بمقدار تسرب الفساد

(١) الرسالة — السنة السابعة . عدد ٣١٠ ص ١١٧٦ — ١١٧٧ وعدد ٣١١ ص ١٢٢٤ — ١٢٢٦
(٢) الرسالة . م ٧ ج ٣٠٢ ص ٧٩٣ ووركس زايد العزيزي في المجلة الجديدة م ٦ ج ٥ ص ٣٥ — ٥٣

الى جسم الدولة، ذلك الفساد الذي جعلها تهتز فرقاً من اي فكرة اصلاحية . وقد ثار مطران على هذه الحالة ،غير ان شيئاً من الحيطة في نفسه جعله لا يسترسل ومشاعره فيرسلها بقوة وعنف واضحة في ثورتها على فساد الدولة . وانما كان يداور ويبوح بمكنونات صدره وخلجات نفسه من خلف حجاب من الرمز والايماء . فانت تلمس في قصيدته « شبح اثينا » (الديوان ص ٢٦٤ — ٢٦٦) كيف يجنح مطران الى التاريخ ويتخذ من بعض وقائعه مادة يحتجب وراءها ويرسل مكنونات نفسه . وانت تلمس في كل بيت من ابيات هذه القصيدة روح مطران المتألمة لذل قومه الثائرة على جمودهم الساخطة على استكانتهم . فيقول :

ياعبرة الدهر جاوزت المدى فينا حتى لنأنف أن ننعاه ماضينا

وتراه يندفع بعد ذلك مع شعوره حتى يرسل في نفسك شعوره فيعديك وينقل اليك ثورة نفسه . وتراه يطلب المزيد من الكوارث وأحداث الزمان لعلّها تكون منبهة لشعبه الخامل:

فزد مصائبنا حتى تنبهنا تكن حياة لنا من حيث تردينا

ويمكنك ان تلمس في هذا التضمين لمشاعره أغراضهُ الاصلاحية وثوراته النفسية . وذلك من وراء الحجب التي أرسل مشاعره واحساساته من خلفها فلفّها في مشاهد من التاريخ . تجدها في قصيدته عن مقتل « بزرجمهر » (الديوان ٩٩ — ١٠٢) وهو فيها يحمل حملات عنيفة على عبد الحميد طاغية تركيا . وهكذا يمكن الانتهاء الى دراسة مشاعر الرجل الوطنية في هذا الطور دراسة منتظمة دقيقة (١)

على أننا يجب ألاّ ننسى مشاعر مطران ازاء القضية الوطنية المصرية التي تجدها مضمنة في قصيدة له عن « ذكرى حافظ ابراهيم » (القاها عام ١٩٣٣ بمناسبة مرور عام على وفاة حافظ ابراهيم) حين عرض لوصف النهضة القومية المصرية التي كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن روح مصر . ومطران يرى ان النهضة الحديثة من غرس مصطفى كامل وأنهُ تعهدها بجهاده الى ان مات وانها اينعت في بستان جهاده (٢) . وهذا ما يبدو لك من مرثاته لمصطفى كامل. على انهُ يمكن ان يقال بعدذلك ان شعور مطران ساير الشعور المصري ، من حيث اندمج في المحيط المصري مع الزمن وحمل الكثيرمن خصائصه وبدرات روحه. وهذا هو تفسير شعوره الوطني . ويمكن أن يزاد على ذلك فيقال ان اشتراك مصر وسوريا في ملابسات وأوضاع سياسية واجتماعية واحدة وجهاد كل منهما في سبيل الحرية ، كانا يجعلان مطران حين يتوجه لمصر ، يتوجه بمشاعره في الواقع الى مسقط رأسه، ومن هنا كان يلبس مشاعره نحو مصر صدق اللبوس

(١) روكس زايد العزيزي في المجلة الجديدة : م ٦ ج ٥ ص ٣٨ — ٤٠ في «مطران والوطنية »
(٢) عبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٣٩٠ — ٣٩٣

خاتمة

في عام ١٨٩٨ شرع مطران — اعتماداً على قصة رويت له وقائعها — ينظم قصيدة في الاغراض القصصية لم ينته منها الا بعد سنوات . هذه القصيدة هي قصة « الجنين الشهيد » التي نشرت عام ١٩٠٥ في (مجلة الهلال)(١) ، وهي التي خلقت لمطران شهرته الأدبية بين شعراء عصره . يقول سليم سركيس في تاريخ نظمها استناداً الى حديث له مع مطران :

« نظمها مطران وهو يتمشى في الجزيرة ومنها الى الهرم وفي يده ورقة يدون فيها خواطره حتى اذا جاء الهرم كان قد كتبها شعراً على ما ظهرت فيه من الوزن والقافية ولكن بلا تشطير وفيها محلات ناقصة ومحلات للتنقيح فاستراح قليلا في مينا هاوس . وهنا خطر له ان القافية لا تسع المعاني ولا تؤدي الفكرة التي يريدها واستصعب ان ينظمها من جديد فعاد من الهرم وهو يخمسها توسيعاً لمجال الفكر فما تمت ليلة حتى فرغ منها . ولكن كانت رمية اولى وأراد الاسراع في انجازها في الاسماعيلية وأوقات فراغه كثيرة فانتهى منها مستكملة في أسبوع وأرسلها الى صديقه الشيخ نجيب الحداد وسأله مراجعتها وتنقيح الضعيف فيها . واذا رأى نشرها في مجلة « أنيس الجليس » فلما قرأوها في الاسكندرية هالهم أمرها واستعظموا التصريح في حقائقها وتراءت لهم فيها كلمات حسبوها غير مناسبة لمجلة نسائية فجاءه كتاب من نجيب الحداد يقول له فيه :

[مع أني رافقتك في تحرير الاهرام زمناً طويلا دهشت لما قرأت قصيدتك . أولا لانني اكتشفت أنك شاعر . وثانياً لان هذا المذهب في اعتقادي هو مذهب الشاعر في المستقبل . وقد استصوبت المديرة — يعني صاحبة مجلة أنيس الجليس — ان لا تنشرها لان في بعض ألفاظها ما يظن فيه تجاوز الاصطلاحات المعروفة فأرجو ان تنشرها في مجلة او جريدة أخرى منتشرة جداً لتطلع فجراً جديداً على الشعر العربي]

واجتمع مطران في مشرب بجماعة من الاصدقاء فقرأها عليهم فألح قوم بنشرها فقال : ماهذا أوانها . واستأذنه آخر ان يقرأها على حدة واذ ذاك نسخها وبعد ايام تناقلت الالسن بعض أبياتها . وألح عليه الادباء ان يذيعها فلما رأى منهم هذه العناية قصد ان يجعلها كاملة فطواها على ان يزيدها تحسيناً ، ولكن عرضت له شواغل منعته عن الشعر طويلا . ولبثت مطوية محروستين من زمان حتى أنشأ — المجلة المصرية — وأراد نشر شيء من طريقته في النظم بجانب ما نشره اصدقاؤه فيها . فأخذ ينشر مقطوعات صغيرة ، وبدأ بتنقيح قصيدته حتى استوفى كمالها معنى ولفظاً . وجاء صيف عام ١٩٠٢ فسافر الى الاسكندرية وأقعده المرض فلما انتقل من بيته فقد القصيدة مع قصيدة أخرى اكبر منها اسمها « تركي مهيد » وهي قصيدة رجل بدوي لولا انه من رجالات العرب لجاز ان يكون نابليون او تيمورلنك . كتب منها سبعمائة بيت وكانت همزية مسبعة فراجع ذاكرته استبقاء للقصيدتين فلم ينل من الثانية الا بيتين . وأما الجنين الشهيد فحضره منها أبيات كثيرة . وحدث أن تعطلت المجلة وشغلته الجوائب اليومية وقل نظمه حتى ندر وبينما هو يفتش في أوراقه عند نقل الجوائب عثر على نسخة من القصيدة غير منقحة من الاصل فلما أراد أصدقاؤه ان ينشرها قدمها على علاتها كما يرى من كتابة أبياتها . » (٢)

---

(١) الهلال . السنة ١٣ ج ٨ (مايو ١٩٠٥) ص ٤٦٨ — ٤٨١

(٢) مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٠

وما انتشرت القصيدة حتى ثارت من حولها الاقلام وكتب عنها صاحب مجلة سركيس : (انها الياذة الشعر الحاضر ومعلقة النهضة الشعرية العصرية) (١) . وارتأى اعلام الأدب في عصره « انها فتح جديد في عالم الشعر العربي » . وكانت هذه القصيدة سبباً في اشتهار اسم الخليل . في ذلك الوقت كان الخليل في غمرة من مشاغله لا يجد من وقته فسحة للنظم ، فندر شعره ، وما كان ينظمه من الشعر ، كان يكتبهُ مسارقة من اوقات عمله يخلو الى نفسهِ قليلاً ويقيد بعض الابيات مسارقة من العمل ثم يعود الى اشغاله وهكذا حتى ينظم القصيدة في أيام . ولم يكن مطران يعنى بنشر شيء من شعره في المجلات لذلك العهد . فاجتمع عنده من هذا القليل الذي نظمهُ طائفة عمدت مجلة « سركيس » الى نشرها عند بدء صدورها . وأنت تجد في مجلداتها الشيء الكثير من شعر مطران نذكر منها

[« فالوذج البرتقال » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ٢٣١) و « شغف وظمأ » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ١٦٣) و « جمال النفس » (مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٢٠٢ والديوان ص ٣٧) و « نفحة الزهر » (مجلة سركيس : م ١ ج ٥ ص ٢٥١ — ٢٥٤ والديوان ١٤٥ — ١٤٨) و « نصيحة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٥ ص ٤٨٠ والديوان ص ٣٦) والعقاب (مجلة سركيس : م ١ ج ١٦ ص ٤٨٩ — ٤٩٣ والديوان ٩٢ — ٩٧) و « الزنبقة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٧ ص ٥١٧ — ٥١٨ والديوان ١٣ — ٣١) و « رسالة مفاكهة » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٦٣٦ — ٦٣٨ والديوان ١٤٤ — ١٤٦) و « عرس قانا » (مجلة سركيس : م ٢ ج ١٢ ص ٣٦٩ — ٣٧١ والديوان ٢٦٩ — ٢٧٠) و « عتاب » (مجلة سركيس : م ٢ ج ٢٢ ص ٧٠٠ — ٧٠٣ والديوان ١٧٥ — ١٧٩ وهذه القصيدة القيت في دار التمثيل العربي مساء ١٨ مارس ١٩٠٦]

وقد نشرت جميع هذه القصائد في الديوان . على اننا نجد مطران بعد ذلك يضرب عن نشر شيء من شعره مدة من الزمن ويستجمع نشاطه ويخرج للناس سفر (مرآة الايام) عام ١٩٠٦ في مجلدين كبيرين عن التاريخ العام . وقد كان مطران قد نشر بعض فصولهِ مبعثرة من قبل في « المجلة المصرية » ايام كانت تصدر

وفي عام ١٩٠٨ جمع مطران كل ما نظمهُ من الشعر الى ذلك الحين وقدمهُ للناس في مجموعة تحمل اسم « ديوان الخليل » . ويستوقف النظر من الديوان ترتيب قصائده الزمني ، غير أن التواريخ التي حمّلها الخليل أواخر قصائده على انها تفيد زمن النظم ليست دقيقة في عمومها ، فبينا نجد انهُ نشر قصيدته القصصية « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » في مجلة « انيس الجليس » عام ١٨٩٨ (م ١ ج ٦ — ٣٠ يونيو) نجده يعطي القصيدة تاريخاً متأخراً يجعلها من آثار شهر يوليو سنة ١٨٩٩ (الديوان ص ٧٤) . وهذه مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن ان نسوقها

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧

للدلالة على أن الترتيب الزمني لشعر الخليل في الديوان تقريبي . لهذا يستحسن أن يرجع في ترتيب شعره الى جانب النقد الخارجي الذي يتناول سند القصيدة الزمني — أي تاريخها الخاص — الى النقد الداخلي الذي يتناول القصيدة من جهة المادة والأسلوب والذي يضعها في مكانها بين آثار الخليل

على انهُ يمكن ان يقال بصدد صدور ديوان الخليل في ذلك الحين انهُ احدث أثراً لم يحدثهُ صدور ديوان من قبل . وما كان مذهب الخليل ليذيع فيتأثره أدباء الشباب لو لم يجمع الخليل شعره في مجموعة ، لأنها وهي في ديوان أدل على اغراضه ومناحي مذهبه منها وهي متفرقة في بطون المجلات والصحف.. وقد لاقى الديوان حظهُ من الذيوع . وقد كتب في حينه انطون الجميل فصلاً طويلاً عنهُ في الهلال (م ١٦ ج ٩ ص ٥٣١ — ٥٣٩) كما نشر احمد زكي ابوشادي فصلاً آخر تجده منشوراً في كتابهِ (اصداء الحياة ص ٦ — ٢٥)

وقد عمد مطران الى الهدوء بعد نشر ديوانه ، فلم ينظم الاَّ قليلاً . على ان شعره الذي نظمه بعد ان اصدر ديوانه نجد نماذج منه في « مجلة الزهور » « التي اصدرها انطون بك الجميل عام ١٩١١ . واهم النماذج التي نشرها فيها قصيدتان : الاولى « الزهرات الثلاث » (الزهور م ١ ج ٢ ص ٥٦ — ٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٣٤٧ — ٣٤٨) والثانية « اقرار وعتاب » (الزهور م ٢ ج ٨ ص ٤٣٥ — ٤٣٩) وهذه القصيدة قالها في تكريم قريبته نجلا صباغ . كما نجد له قصيدة في « وداع محمد عبد الهادي بك الجندي » (الشعراء الثلاثة ص ٢٨٤ — ٢٨٦) القاها في حفل وداع له في المحلة الكبرى عام ١٩٠٩ . وله قصيدة رثاء في الشيخ علي يوسف (الشعراء الثلاثة ص ٢٧٤ — ٢٧٧ القاها في حفل الاربعين ٥ ديسمبر ١٩١٣) . كما له قصائد متفرقات نجدها في كتاب الشعراء الثلاثة اهمها مرثاته لجورجي زيدان (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٢ — ٣٠٣ وفي « سبيل الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٨ — ٣١١) « ووداع لبعثات الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣١٤) وهاتان القصيدتان نظمهما في ابان الحرب الطرابلسية بين تركيا وايطاليا . كما أنك تجد له قصيدة رقيقة عنوانها « الأسد الباكي » (الشعراء الثلاثة ٣١٥ — ٣١٦) وقد نظمها وهو في مصر الجديدة (محمد تيمور في حياتنا التمثيلية ص ١٠٦)

وباشتغال مطران بالشعر هذا العهد الطويل سلك فيه مسلكاً جديداً — وسلوكه ان لم يستمرئهُ اولاً ذوق الشعراء فقد اعترف بهِ مع الزمن كما يقول محمد تيمور — فأصبح من فحول شعراء المعاني الذين يرتفعون بوحيهم الى سماء الخيال[1] . وقد عرف ذلك الزمن هذه الحقيقة فظهر في كتابات أدبائه وأعلامه تقدير الرجل ومزاياه

(١) محمد تيمور — حياتنا التمثيلية : فصل عن كلمة خليل مطران ص ١٠٥

استطلاعات المقتطف في مصر الاقتصادية

مصايد الاسماك

ثلاثة ايام مع رجال شركة مصر

كيف يصيدون السمك

على بعد اثنتي عشرة ساعة من ميناء السويس وفي وسط امواج البحر الاحمر الصاخبة وقف القارب (التمساح) وهو احد قوارب شركة مصر لمصايد الاسماك ، يعدُّ شباكه ليلقيها في الماء ليقدم لسكان القطر المصري أكلة من السمك . وكان رجال القارب العشرة منهمكين في ترتيب الشباك (الغزل) على نظام خاص يضمن عدم ارتباكها اذا اصطدمت بالامواج

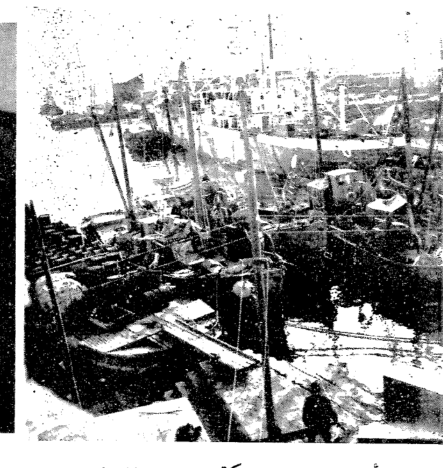
و (الغزل) في لغة صيادي السمك كيس طوله ثلاثون متراً مفتوح من الجانبين . وضيق الفتحة من جهة فلا يزيد قطرها على متر واحد بينما الفتحة الاخرى واسعة فيصل قطرها الى ثلاثة امتار . والفتحة الاخيرة تشد الى القارب بحبلين طول الواحد منها ٥٥٠ متراً منها ٢٥٠ متراً من الالياف النباتية و٣٠٠ متر من حبال حديدية . فاذا اراد الصيادون ان يلقوا شباكهم سدوا الطرف الضيق بربطه بالحبال حتى لا ينفذ منهُ السمك الى البحر بعد دخوله الكيس والفتحة الواسعة يحيط بها الحبال القوية التي تتحمل مقاومة الاجسام الصلبة مما قد يصادفها في البحر كقطع الحديد (الهلب) التي تخلفها السفن الماخرة . وبين حبال النسيج النباتي وحبال النسيج المعدني توضع لوحة من الخشب طولها متر وعرضها متران وأحد طرفيها محدب ومكسو بالحديد حتى تحتفظ اللوحة بوضعها الطولي في الماء . فان الحديد اكثف من الخشب ولذلك يرسو الجزء الثقيل في القاع بينما يرتفع الجزء الآخر والغرض من جعلها محدبة ان لا تغرز في القاع وتعطل سير « الغزل » والقارب . ويوضع في كل عملية صيد لوحتان متماثلتان من الخشب الغرض منهما فتح الغزل والهبوط به بعامل الثقل الى قاع البحر لان عملية الصيد التي تتبعها شركة مصايد الاسماك هي « كنس » قاع البحر . ويشد الغزل الى القارب بحبلين يتصل كل منهما باحد جانبي القارب حيث ثبتت روافع عملها جذب «الغزل» بما يضمّهُ من صيد

تسعة اميال لكل جرفة

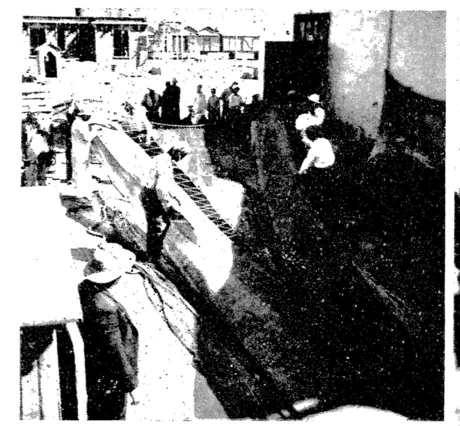
تبدأ عملية الصيد من وقت القاء الشباك في الماء وتركيزها في قاع البحر وتستمر مدة ساعتين أو



احد مراكب الصيد تنزل من على « القزاقة » بعد أن تم
اصلاحها والكشف على جسمها



أسطول الصيد التابع لشركة مصر لمصايد الاسماك
يستعد لرحلته الجديدة



الصيادون يعدون شباكهم على رصيف الشركة
تمهيداً لرحلة طويلة

ثلاث ساعات يسير القارب في اثنائها وهو « يكنس » البحر من كل ما يصادفه في طريقه. فاذا دخلت الاسماك في الفتحة الواسعة عجزت عن الخروج لأن سرعة سير « الغزل » اكثر من سرعتها وهي بذلك كلما طال عليها الوقت كلما توغلت داخل الكيس الى ان تستقر في طرفه الاخير المربوط فلا تفذ منه

ويقطع « الغزل » في الجرفة الواحدة تسعة اميال ثم يجذب بعدها الى القارب بواسطة الروافع التي تعلقه على صارٍ مرتفع فيسهل على الصيادين في هذه الحالة ان يحصلوا على صيدهم اذ يفكون الفتحة الضيقة فيفرغ « الغزل » محتوياته على سطح القارب وعندئذ يشرع الصيادون في فرز انواع السمك بعضها من بعض ثم يوضع في صناديق خشبية ويغطى بالثلج الى ان يعود القارب الى مقره فيسلم صيده الى مكتب الشركة وهو يتولى تصديره الى اسواقه في القاهرة وغيرها من المدن

وتستمر رحلة الصيد ثلاثة ايام يلقي فيها الصيادون تسع « جرفات » بمعدل ثلاث كل يوم هذا اذا لم تعترض سبيلهم احدى العقبات فكثيراً ما تتعلق الشباك باحدى المراسي (هلب) التي خلفتها السفن من قبل وبعض هذه المراسي قديم العهد يرجع الى مائة سنة ولذلك فانها تصبح محكمة الالتصاق بالارض اذ تتجمع عليه القواقع والبقايا الحيوانية والنباتية فيحتاج انتزاعها من مكانها الى مشقة ووقت اذ لا سبيل الى تخليص الشباك منها الا بنزعها من مكانها

وقد شاهدت على احد القوارب عدداً كبيراً منها ويقول احد البحارة انهم اخرجوا من البحر اكثر من مائتي مرساة وكان أول عهدهم بها في سنة ١٩١٩ عند ما كانت سفن صيدهم شراعية وجذب الحبال بالايدي لا بالروافع فاستغرق اقتلاعها نصف يوم واقتضى عمل ٢٥ رجلاً

طرق الصيد

وصيد السمك كما يقول علي افندي وكيل شركة مصر لمصايد الاسماك ثلاثة انواع تبعاً لنوع السمك وطبيعة البحر. فهناك اسماك تعيش طافية على سطح الماء وهذه يحتاج الى ما يعرف بالصيد « بغزل البوص » وفيه يكون الغزل عائماً قرب سطح الماء فيجمع الاسماك. وهناك الاسماك الكبيرة وتعيش في الجهات الصخرية ويصيدونها بواسطة حبال طويلة تعلق بها الصنانير. وهناك اسماك تعيش في الجهات الرملية او الطينية وهذه يمكن الحصول عليها بالطريقة التي تتبعها شركة مصر لمصايد الاسماك

ويختلف مقدار الصيد باختلاف المواسم وتبعاً لعدد مراكب الصيد والفترة التي يترك فيها البحر « ليستريح » كما يقول الصيادون او ليتكاثر سمكه ويتوالد بلغة العلم. ولكنه يقل بوجه عام في الصيف عنه في الشتاء ويختلف مقادير الصيد بين طنين وخمسة اطنان في الرحلة الواحدة واكثر محصول البحر الاحمر من سمك الحارث المعروف عند العامة « بالفاتورة » وهو اكثر ربحاً من الناحية التجارية لاسيما عند بائعي السمك « المقلي » لأن بقاياه قليلة فلا يخسر التاجر كثيراً في توزيعه

الثروة القومية يجب ان تصان

في خليج السويس ٣٠ مركباً تقريباً منها ثمانية مراكب تملكها شركة مصر وأكثر المراكب الباقية يملكها ايطاليون درسوا طبيعة البحر وعرفوا جميع خباياه . ويقول بعض الصيادين ان الخليج لا يتحمل اكثر من ١٢ مركباً . ولهذا أصبح الصيد فيه عديم الربح في المدة الأخيرة فنفقة الرحلة الواحدة تبلغ خمسة جنيهات ونصف ثمن زيوت لتسيير الآلات علاوة على أجور العمال الذين هبط مستوى معيشتهم في المدة الأخيرة هبوطاً كبيراً لان حكومتنا لاتحدد عدد رخص الصيد فلا تتاح الفرصة لتكاثر السمك ولا لربح الصياد .

أضف الى ذلك تسرب الثروة القومية الى البلاد الاجنبية التي لا تسمح لصيادينا بالذهاب الى مناطق صيدهم . ولهذا السبب ستنقل شركة مصر أعمالها هذا الصيف الى منطقة بور سعيد حتى يتيسر لها وجود الاسماك بكثرة في الشتاء القادم في خليج السويس. ويجدر بالحكومة ان تضع لهذه الصناعة سياسة ثابتة تسمح لها بالنمو والانتعاش لا سيما أنها تتقاضى رسوماً كبيرة عن قوارب الصيد تبلغ ٧٥ جنيهاً في العام الواحد . ويتفاوت ربح البحار في اليوم الواحد بين ١٠ قروش وعشرين قرشاً تبعاً لمقدار السمك الذي يصيده فان الشركة تسير على سياسة دفع أجور العمال وفقاً للمقادير التي يصيدونها . وتحتم عليهم ان يؤمنوا على أنفسهم ضد الاصابات او فقد الحياة . وتدفع الشركة هذه الاموال ثم تخصمها من أرباحهم كل شهر وبذلك توفر لهم الأمن على عائلاتهم وتقيهم شر الحاجة في أثناء المرض

مصانع فرعية

ولما كان الثلج من العوامل المهمة في صناعة صيد السمك سواء عند صيده او عند تصديره الى مختلف جهات القطر فقد انشأت الشركة مصنعاً لصنعه ينتج ثمانية اطنان في اليوم يستهلك معظمهُ في حفظ السمك ويباع بعضه لاصحاب المراكب التي تتعامل مع الشركة . وللشركة عدة « ورش » فرعية تتولى صنع الآلات التي تستهلك في قواربها سواء كانت من المعادن او الاخشاب كما أنها خصصت بقعة لتنظيف القوارب يسميها البحارة « القزّاقة » وفيها تسحب القوارب التي ثقلها ٧٠ طنًّا الى الشاطىء حيث تعمل فيها الترميمات اللازمة سنويًّا « والقزاقة » عبارة عن بناء من الخشب طرفه منغمر في الماء والطرف الآخر مرتفع فوق سطح الارض ولهُ قطع كبيرة من الخشب المكسو بالحديد توضع في الماء الى ان يعلوها القارب فتسحب الى البناء الخشبي وهناك تبدو جميع اجزاء القارب للعين فيشاهد ما فيها من عيوب . ويفحص كل قارب مرة في السنة

وترسل الاسماك من مقرّ الشركة في بور توفيق الى عملائها في القاهرة على سيارات خاصة تصل مصر في ساعتين وبذلك يصل السمك الى أيدي المستهلكين وهو طازج

سير الزمان

المثلث التونسي

بين فرنسا وايطاليا والعالم الاسلامي

النازيون في اسكنديناوة

الامم السكنديناوية تقدس :

السلم والتقدم والحرية والدمقراطية



المثلث التونسي

بين فرنسا وايطاليا والعالم الاسلامي

تونس ما فتئت مطمح انظار الفاتحين

ليست الضجة القائمة حول تونس بالامر الجديد ، وليس الخلاف بين ايطاليا وفرنسا حول هذا المركز «الستراتيجي» في افريقيا ، بالاول من نوعه . ولم تكن الضجة التي احدثتها زيارة المسيو دلاديه رئيس الوزارة الفرنسية لتونس غير صدى لذلك العراك الذي يعود تاريخه الى ازمان بعيدة . ولقد كانت تونس وما تزال ، مطمح انظار المستعمرين ، لما تتمتع بهِ من مزايا طبيعية وستراتيجية ، فهي بلاد غنية ذات جمال طبيعي جذاب ، وتتحكم في كثير من طرق المواصلات البرية والبحرية . ويدرك التونسيون ما لبلادهم من مكانة كما يدركون نتيجة التطاحن عليها . ألا تقع على مقربة من عاصمة بلادهم (تونس) اطلال المدينة الاثرية (قرطجنة) التي كان يطلق عليها في قديم الازمان لقب (ملكة البحار) والتي تركتها الحروب قاعاً صفصفاً ؟

وما كانت ذكريات الحروب الغابرة لتؤثر كثيراً في نفسية التونسيين ، فهم كغيرهم من سكان المدن الواقعة على شواطىء البحر المتوسط يتحدثون دائماً عن الحروب المقبلة . وانك لتسمع الاحاديث المختلفة في السياسة ، في منتدياتهم ومجالسهم الخاصة ومقاهيهم ، وهي تسليتهم التي لا يجدون عنها محيصاً

(تونس لنا) هذه هي الصرخة التي صدرت من اعماق ايطاليا ، فأجاب عليها الفرنسيون فوراً بقولهم (تونس كانت وستظل فرنسية)

اما سكان البلاد ، فيقولون ان تونس غير فرنسية وغير ايطالية ، وانما هي قطر البرابرة (١) هكذا كانت قبل ان يدخل اليها الفينيقيون ويسكنوا شواطئها ، وقبل ان يؤسسوا على شواطئها عدداً من المستعمرات والمدن السامية امثال قرطجنة ، واوتيكا ، ولبدة الصغرى ، وهكذا كانت اثناء نشوب الخلافات والحروب حول امتلاكها بين الرومانيين ، والفاندال ، والعرب ، والاسبانيين والاتراك ، والايطاليين ، والفرنسيين . ومع ذلك فان هناك اختلافاً بين سحن السكان الذين يقطنون القرى التونسية . فبينما يقع نظرك على اشخاص قصار القامة سود العيون ، اذا بنظرك يقع في مكان آخر على اشخاص شقر شعر الرأس واللحية ، طوال القامة . فالتونسيون والحالة

---

(١) البرابرة Barbari اسم يطلق على سكان شمال افريقية الاصليين وكان الرومان يطلقونه على من لا يتكلم لغتهم

هذه ، قد اختلطوا بالشعوب الفاتحة وتزاوجوا فيما بينهم

ونصف سكان تونس من البدو الرحل الذين قبلوا الاستعمار الاجنبي على مضض . وهم يتربصون ساعة الفرج لتحقيق احلامهم وهي الاندماج في مملكة الاسلام الكبرى التي تضم افريقيا الى الشرق . ويقوم يبث هذه الفكرة في النفوس زعماؤهم الذين يؤمنون بفكرة الجامعة الاسلامية ايماناً راسخاً . ويعتقد الايطاليون ان تونس في حاجة ماسة اليهم. فمن سواحل صقلية المناوحة لتونس يشاهد الايطاليون السواحل التونسية التي تسيطر على الطرق التجارية . اما الفرنسيون فيرون ان حمايتهم على تونس قد مضى عليها زمن طويل ، وان تونس فرنسية اكثر من الجزائر ومراكش اللتين يعتبرهما الفرنسيون قطعتين من فرنسا . فتونس هي مفتاح الصحراء وبدونها تفقد كل قيمة للممتلكات الافرنسية في افريقيا . ووجهة النظر الايطالية في استعمار تونس انها تقطع المواصلات بين فرنسا وبريطانيا وبين الشرق لانها تكمل مع بانتيلاريا وصقلية وحذاء ايطاليا حاجزاً يقطع البحر المتوسط في وسطه

وتونس ليست بعيدة المسافة عن فرنسا . وهذه المسافة يمكن قطعها في ثلاثين ساعة براً وبحراً من باريس وعشر ساعات بالطيارة عن طريق مرسيليا . وخط السفريسير يومياً بانتظام بين باريس وتونس . اما المسافة بين روما وتونس فلا تزيد عن اربع ساعات بالطائرة وهناك خدمة جوية كل يوم من روما وبالرمو ، عدا البواخر التي تبحر من نابولي وتجتاز المسافة الى تونس في ليلة واحدة فقط

والمسافر الى تونس بحراً على متن سفينة صغيرة من تراباني بصقلية ، او على باخرة من مرسيليا او الجزائر او الاسكندرية ، او عن طريق الجو ، تمر من امامه مناظر تؤثر في نفسيته ساعة يبدأ يقترب من الشواطىء التونسية . وقبل ان يصل اليها يمر من امام سواحل الجزائر الجرداء حتى اذا ما اقترب منها وقع ناظره على شاطىء اخضر ووراءه اودية وجبال مكسوة بالخضرة وعلى حراج من اشجار البلوط والصنوبر ، فكأن تونس قطعة من اوربا في مناظرها ومواقعها الطبيعية . وفي الاودية تنساب الانهار ، حيث تحول الصحاري الجرداء الى اراض خصبة ترعى فيها المواشي والجياد

هذه الجبال الشامخة الممتدة وراء السهول ، غنية بما في بطونها من معادن كالحديد ، والرصاص والزنك ، والنحاس . وتستخرج من الجبال في مقادير وفيرة . اما السهول فترتفع في كثير من المواقع بمقدار الفي قدم عن سطح البحر ، وفي السهول الواقعة في الجهة الشرقية تزرع الحبوب وفي كثير من هذه السهول ولاسيما على حدود الجزائر مقادير كبيرة من الفوصفات . وتمتد السهول حتى تلتقي بجبال الاطلس القاحلة التي تكون من الجهة الجنوبية الحد الطبيعي بين تونس والجزائر

ويتمتع شمالي تونس بمناخ معتدل، ولا تتجاوز الحرارة فيها درجة ٩٠ ، بالرغم من ان تونس « العاصمة » وما يجاورها من الشاطىء تتعرض للعواصف التي تهب في كثير من الاحيان من الصحراء ، حاملة معها الحر اللاهب والغبار الخانق والسحب القاتمة

وتميل الشواطىء في تونس نحو الانبساط . وفي الجهة الجنوبية تمتد سلسلة متصلة من التلال مكسوة بكرمات العنب واشجار البرتقال . وبعدها توجد تلال تبلغ مساحاتها الوف الفدادين مكسوة باشجار الزيتون . ويقوم على الشاطىء التونسي عدد من المدن — كسوسة، وصفاقس، وقابس. وفي داخل تونس فيما يلي : سوسة تقوم مدينة القيروان العظيمة . وفي صحراء تونس توجد واحات تختلف في مساحاتها وجمالها ، مغمورة بالخضرة الفاتنة ، والازهار النضيرة وتفيض بالمياه النميرة ، ومن هذه الواحات تصدر مقادير من البلح الذي تمتاز به . وقابس مثال من الواحات التونسية الواقعة على الشاطىء

وغربي خليج قابس تمتد مساحات من الاراضي في غاية الغرابة . وهي عبارة عن منخفضات من الاراضي تستحيل الى برك في فصلي الخريف والشتاء ، يتعذر على الانسان ان يجتازها . ثم تستحيل هذه البرك الى مستنقعات ، ما تلبث اشعة الشمس أن تجففها واذا بالانسان يرى نفسه أمام منبطحات شاسعة من الارض ، تسير عليها الدواب والعربات بسهولة . وفي وسط هذه المساحات عيون ماء معدنية يقصد اليها المرضى الذين يبغون الشفاء من الامراض الجلدية المختلفة التي يصابون بها . وقديماً جذبت هذه العيون المعدنية اليها الملايين من الرومانيين للاستشفاء بمياهها . وفي شمال الايالة التونسية تقع مدينة بيزرته التي تعد من احصن القواعد الساحلية على البحر المتوسط . فهي حصن طبيعي ذو مكانة ستراتيجية عظيمة، وقد اعدتها فرنسا لتكون قاعدة بحرية من الطراز الاول ، وهي الآن تأتي في الدرجة الثانية بعد ميناءي برست وطولون

وخط الشاطىء تحرسه كثبان من الرمال ، وقد شقت في وسطها قناة تصل البحر ببحيرة بيزرته المالحة . وهذه البحيرة قد اعدتها الطبيعة لتكون حصناً حصيناً وقاعدة بحرية ، يبلغ عمقها في بعض الجهات نحو خمسين قدماً . وفي الداخل على مستوى الشاطىء ، سلسلة من الجبال المنيعة يبلغ ارتفاع بعضها ثلاثة آلاف قدم ، وتؤلف حصناً طبيعيًّا يقي البلاد كل غارة ، وقد زادت فرنسا في تحصينها ، ولا تنفك الاعمال العسكرية قائمة فيها بقصد تعزيزها

وتقيم البحرية الفرنسية لهذه القاعدة شأناً عظيماً . وتستفيد منها كثيراً وذلك انها اقامت فيها عدداً من مصانعها الرئيسية للقوات البحرية ، في مكان يدعى سيدي عبد الله ويبعد عن البحر عشرة اميال . وبيزرته حوض ممتاز للملاحة ولكن استعماله محظور للملاحة التجارية وفيه الآن مرساة للسفن ، واحواض جافة ، وقاعدة للغواصات ، وقاعدة ثانية للطائرات . وهذه المحطة

البحرية اصبحت منذ اتفاق نيون ، ذات شأن خاص لحماية خطوط الملاحة الانكليزية والفرنسية من غرب البحر المتوسط الى شرقهِ. وتونس العاصمة تشبه كثيراً من المدن الواقعة على ضفات البحر المتوسط ، بما تحتوي عليهِ من احياء وطنية ذات شوارع ضيقة ومبانٍ ذات طراز عربي. وهذه الاحياء منفصلة عن الاحياء الاوربية التي تشبه طولوز او مدن الوسط في فرنسا. والهندسة التونسية ذات طابع خاص وتفترق عن الهندسة البنائية في الدار البيضاء او الجزائر

واذا ما جاس السائح خلال الشوارع في تونس فان عينيه تقعان على خليط من الناس ، فكأنهُ في الجزائر ، أو بيروت ، أو الاسكندرية ، او طنجة . على أن السائح اذا طال مقامهُ بتونس فأنهُ يلحظ كثرة من الايطاليين الذين منهم تتألف اكثرية العمال والموظفين وذوي الاعمال الحرة من الاوربيين . ولهم مزارع واسعة تفوق في مساحاتها المزارع التي يملكها الفرنسيون ، واكثرها مزروع عنباً

والباي هو حاكم تونس الاسمي . وقد وسعت فرنسا في المدة الاخيرة الاختصاصات التي اعطتها للمجالس المحلية . ولكن المقيم الفرنسي هو في الحقيقة الكل في الكل . ومعنى هذا انَّ فرنسا تحكم تونس كما تحكم اي مستعمرة اخرى من مستعمراتها مع قليل من الفارق

وهناك قوات عسكرية فرنسية في تونس وبيزرته وعدد من المراكز العسكرية الاخرى ، ومع هذا توجد حاميات كثيرة فيها جنود وطنيون فقط . وقد رأت فرنسا مؤخراً ، رغبة منها في تعزيز الدفاع العسكري وتقوية خطوط الدفاع ، ان تجعل مركز القوات العسكرية في مراكش تحت قيادة الجنرال نوجيس ، على انه في مستطاع هذه القوات ان تتحرك الى اى جهة في تونس او مراكش اوالجزائر . وعلى اثر الحركات العسكرية الاخيرة فى ليبيا الايطالية اضطرت فرنسا الى تعزيز الحاميات التونسية ، لتكون على استعداد لصد اي هجوم ايطالي يقع عليها . وهناك خط دفاع على الحدود التونسية الطرابلسية يشبه كثيراً خط ماجينو القائم بين فرنسا وألمانيا

وجرى احصاء عام لسكان ايالة تونس عام ١٩٣٦ فبلغ عددهم مليونين ونصف مليون، مقسمين كما يلي : ٢٫٣٣٥٫٦٢٢ مسلمون و١٠٨٫٠٦٨ فرنسيون و٩٤ ر ٢٨٢ ايطاليون و٧٨٫٤٨٥ يهود.

وباقي السكان خليط من اليونان والمالطيين والزنوج ، وغيرهم ، وهم من ذوي التأثير والنفوذ . وثلثا المسلمين في تونس من البربر والثلث الباقي من العرب والبدو الذين يسكنون الصحراء . ومن بينهم عدد تجنسوا بالجنسية الفرنسية، كما ان اكثر من عشرين الفاً تجنسوا بالجنسية الايطالية . وهناك كثيرون من سكان تونس من آباء فرنسيين وامهات وطنيات. وكثيرون من الايطاليين الآن يطلبون التجنس بالجنسية التونسية . وقد بلغ معدل الايطاليين الذين يتقدمون لطلب الجنسية التونسية منذ شهر سبتمبر الماضي نحو الالف في كل شهر

وللمهاجرين الايطاليين في تونس حقوق وامتيازات، ضمنتها لهم اتفاقات معقودة مع فرنسا . ولهم صحفهم ومدارسهم ومستشفياتهم ، واكثرهم يأتون من صقلية ، ويمارسون الزراعة والتجارة كما ان بعضهم هاجروا من بيمونت ولومبارديا وهؤلاء يمارسون الهندسة والبناء . وثمانون في المائة من ايطاليي تونس يعتنقون المبادىء الفاشستية . وزعيمهم هو السنيور سانتا ماريا محرر جريدة « الأنيوني » اليومية التي تصدر باللغة الايطالية في تونس . وقد اعد لفاشست تونس برنامجاً يشبه برنامج السوديت ، وهم يحرصون اشد الحرص على تطبيق نظمه والسير عليها

والنزاع بين فرنسا وايطاليا بشأن تونس ليس حديث العهد كما قلنا ، وقد بدأ قبل احتلال فرنسا لتونس . ففي عام ١٨٦٩ حينما اخذ ظل (البايات) تونس يتقلص ونفوذهم يضمحل، وحينما رزحت تونس تحت اعباء مالية ثقيلة ، رأت دول اوربا ذات المصالح ان تعهد الى مجلس مؤلف من فرنسيين وايطاليين وانكليز للاشراف على شؤون تونس المالية . ومنذ ذلك الحين وايطاليا تتربص الفرص لتستقل بفرض حمايتها على تونس . ولكن حدث في عام ١٨٨١ ان وقعت حوادث على الحدود بين الجزائر وتونس ، ورأت فرنسا الفرصة سانحة لدخول جيشها الى تونس، لاسيما بعد ان شعرت بان بريطانيا لا تمانع في هذا الاحتلال وبسمرك يشجعه. واحتجت ايطاليا على التصرف الفرنسي ولم تعترف ايطاليا بهذا الاحتلال الا في عام ١٨٩٦ ، اي بعد مضي خمسة عشر عاماً على الحادث

منذ ذلك الحين والنزاع قائم على قدم وساق ، ولاسيما ان الايطاليين يزداد عددهم في تونس سنة بعد اخرى . وقد سوي الخلاف عام ١٩٣٥ حينما زار المسيو لافال روما ، فقد عقد اتفاق بين السنيور موسوليني والمسيو لافال سويت بمقتضاه المشكلة الايطالية في تونس ، ومن نصوصه ان يظل الايطاليون يتمتعون بامتيازاتهم الحالية حتى عام ١٩٦٥ ، تلك الامتيازات التي تخولهم حق الاشراف على مدارسهم وادخال ما يريدون من تعاليم فاشستية فيها ، والقيام بالدعاية ، الخ

ولكن ايطاليا الغت هذا الاتفاق في دسمبر الماضي بحجة انه لم يبرم

أما المشكلة السياسية في تونس فذات ثلاث شعب

فهناك فرنسا التي فرضت حمايتها عليها والتي تديرها الآن تحت ستار الحكم الوطني

وهناك ايطاليا التي تتطلع الى افريقيا والى غيرها من البلدان ، للهجرة اليها . ولاستغلال مواردها الصناعية . وهي تخص تونس بمطامعها باعتبار أنها مرتبطة بها ارتباطاً تاريخيًّا منذ قديم الازمان ، وباعتبار ان تونس مطلب لازم لها لحماية مركزها الستراتيجي في البحر المتوسط

واخيراً ، هناك الوطنيون التونسيون الذين يمقتون اي نوع من أنواع الاستعمار ، والذين يحلم شبانهم بالجامعة الاسلامية المتحدة ، وباحياء تراث الاسلام وامجاده المندثرة ، ويرون ألا حياة لهم الا بالتخلص من الطاغوت الاوربي وضمان الاستقلال [عن مجلة نيويورك تيمس]

النازيون في اسكنديناوة

الامم الاسكندناوية تقدس :

السلم والتقدم والحرية والديمقراطية

إن حجر الزاوية في العقيدة النازية انما هو الاعتقاد الغامض في سيادة الجنس النوردي

أجل ، يرى النازيون أن كل ما في هذا الجنس جميل .. وقوي .. ونبيل .. وتقي .. ويتصورون الآري على الصورة التالية :—

رجل جميل التكوين حسن الشكل ، ذو انف مستقيمة ، وذقن مربعة وعينين زرقاوين تدلان على صلابة وعنف كما تدلان على أن صاحبهما كثير الاحلام ، وشعر اشقر وقبضة يد مصفحة تقوم مقام الدرع ! ..

ويعتقدون ايضاً أن كل نوردي « سيد كريم » و « بطل عظيم » في آن

ولست في حاجة الى ان اعرض لبحث هذا الموضوع الذي تضاربت فيه الآراء وتباينت تبايناً تامًّا .. لستُ في حاجة الى أن أقول أن هذا الجسم الجميل تجده بين شعوب كثيرة وان الوفاً عديدة تتمتع بهذه الاجسام المتناسبة الأجزاء الحسنة التقاطيع ..

ولكن يكفي ان نذكر ان المتصلفين من النازيين كثيراً ما اشاروا في مواقف مختلفة الى ان اسكنديناوة إنما هي الوطن الحقيقي للجنس النوردي الممتاز المجيد

وقد وصف البروفسور كارل هادشوفر السويد بانها وطن أجداد الالمان

والقى البروفسور النازي جوستاف نيكل محاضرة في برلين جاء فيها : —

« ينبغي أن لا تبدو اسكنديناوة — في نظرنا نحن الالمان — بلاداً غريبة عنا كما تبدو الممالك اللاتينية والسلافية المجاورة لنا فالالماني في اسكنديناوه لا يضطر لأن يشعر بأنهُ في بلاد خارجة عن حدود وطنه بل انهُ على النقيض يشعر انهُ لا يزال في المانيا ذاتها »

وقد صرح الدكتور الفريد روزنبرج والدكتور جوبلز وغيرهما من زعماء الحركة الفكرية في الريخ في مواقف عدة وعلى الاخص في رسائلهم بآراء مشابهة لهذا الرأي

ولهذا فانهُ من المناسب ان نتساءل ما هو اثر كل هذا في نفوس الاسكنديناويين وكيف يقابلون هذه العقيدة التي ترفعهم الى هذه المكانة السامية بين الاجناس البشرية

ليس من شك في ان أول اثر لها انما هو الشعور بالسرور والارتياح

والشعوب كالافراد على السواء تريد من يتملقها ويحب من يداهنها ويعدها مثالاً للكمال بين الامم المعاصرة . فالاسكنديناويون كغيرهم من هذه الناحية ولا يمكن ان نستثنيهم

ولكن هذه العقيدة تترك في نفوس الاسكنديناويين تأثيراً آخر لا يستسيغه العقل الالماني فهم عند ما يرون النازيين ، يصرفون كل جهودهم لتأييد الجنس النوردي فانهم قد يقولون ستهكمين : « كيف يمكن ان يطفو التفاح ؟ » ذلك لانهُ اذا كان الدعاة في الريخ مصممين على اعتبار الدنمارك والسويد والنرويج ، ضمن الجزء المفضل من الانسانية — والمفروض طبعاً ان تكون المانيا هي ممثلة هذا الجنس احسن تمثيل وزعيمتهُ — فان الاسكنديناويين مصممون هم ايضاً على ابعاد النازيين عن عالمهم النوردي فهم في نظرهم من اهل « الجنوب » وان الحدود الثقافية الفاصلة بين الجنوب والشمال — اي اسكنديناوة — تمرُّ في شلزويج حيث تتصل الدنمارك بالمانيا

وفي الواقع انهُ من بواعث الاستغراب ان يتصور المرء ان حلم النازيين العالمي يمكن ان يتفق مع تصور النورديين الاصليين وفهمهم الحياة . فالاسكنديناويون « فرديون » قلباً وقالباً منذ الف عام وهم ديمقراطيون بفطرتهم

ويكفي ان نذكر لاقامة البيِّنة على ذلك ان أحد المؤرخين الفرنسيين ذكر عام ١٠٠٠ ان جماعة من القرصان الاسكنديناويين رست على شواطىء فرنسا فجاء شريف تلك المقاطعة يسأل هؤلاء « من هو ملككم ؟ »

فاجابوا : « ليس لنا ملك فجميعنا متساوون وليس فينا احد افضل من الآخر ! »

اننا لا ننكر ان سلالة هؤلاء القرصان المتكبرين قد رضخوا للحكم الملكي منذ قرون عديدة بل انهم من اكثر الشعوب تمسكاً بالملكية الاَّ ان الروح القديمة لا تزال حية فالاسكنديناويون لا يزالون يعتقدون انهم متساوون وانهم اذا كانوا يحكمون اليوم من قبل ملوك فما ذلك الاَّ لأنهم قد تعلموا قبل فوات الوقت ان لا يكونوا مستبدين

ومن هنا نجد الاختلافات الجوهرية بين النازيين والامم النوردية الاصلية التي تؤمن بأوسع حدود الفردية وتعتنق الديمقراطية في أوضح اشكالها وأتم معانيها . فأين ذلك من الحكم النازي الديكتاتوري ! ان هذه الحقيقة وحدها كافية لأن تدل على ان الاسكنديناوي يعتبر المانيا محكومة اليوم وخاضعة لمبادىء الاستبداد الموروثة عن الامبراطوريات الشرقية القديمة وليس للمبادىء النوردية

وفضلاً عن هذا فالشعوب الاسكنديناوية كما يعرف كل انسان مسالمة ، تكره الحرب ، بل ليس هناك شيء يكرهونه من اعماق قلوبهم كالروح العسكرية او النزعة الحربية

ولكن الاسكنديناويين يعشقون الحرية ويقدسون استقلالهم وهم على أتم ما يكون من الاستعداد لردّ من يعتدي على استقلالهم مستميتين وعلى الاخص سكان السويد والنرويج

فالسلم ، والحرية ، والتقدم ، والديمقراطية ، هذه الكلمات الاربع التي أصبحت مهملة

في الريخ ولا قيمة لها هي كل شيء وأهم وأبرز مظاهر الحياة الاسكنديناوية

والقى عميد جامعة كوبنهاجن خطاباً جاء فيه :

«أريد ان اعلن بصورة قاطعة انهُ لا يوجد في النظام النازي ما يتفق مطلقاً مع العقلية النوردية»

وقابل الالف والاربعماية طالب الذين استمعوا هذه العبارة بالتصفيق الحاد

ثم قال وسط الحماسة الفياضة : « من الحقائق الثابتة التي قد يستخف بها اهل الجنوب ويسخرون ان الاسكنديناويين الاصليين لم يشعروا في اي وقت من الاوقات بانهم مستعبدون أو دون سواهم ارادة وعزيمة بل على النقيض كانوا يعدون انفسهم على الدوام رجالاً احراراً

«هذه هي الروح النوردية الصحيحة وان روسيا والمانيا لتقاومان الآن المثل العليا النوردية مقاومة مطلقة ذلك لان كلاً منهما قد خفضت من قيمة الانسان وجعلته لا يزيد عن ترس واحد من اتراس دولاب في آلة الحكومة بعد ان قضوا على كل نوع من انواع الحرية الشخصية »

وهذا ما يردده بين حين وآخر زعماء الحركتين الفكرية والسياسية في اسكنديناوة ويوافقون عليهِ موافقة اجماعية فهم لا يقبلون نظاماً « نورديًّا » تكون فيهِ المانيا صاحبة الامر والنهي

ولكن النازي لم ينثن ولا يزال يمد يده ليخطب ود الاسكنديناوي بجرأته وشجاعته ويقول :

«من الاسرار المفضوحة اننا نحن الالمان نغمر الشمال بعاطفة قوية لم يحس بها بعد ولم تقابل بعاطفة الحب المتبادل، انهم لا يزالون ينفرون منا ولكننا امة قوية تستطيع ان تنتظر الى ان تلبي هذه الامم الشمالية وتبادلنا الحب بالحب وسيأتي هذا اليوم لا محالة . اننا مقتنعون بذلك الاقتناع كله » !

بمعنى آخر ان النازيين يعرفون الآن حق المعرفة ان النورديين يحجمون احجاماً شديداً عن قبول زعامتهم ومع هذا فالنازيون لاسباب سياسية واقتصادية أكثر منها عاطفية رومانتيكية يبذلون قصارى جهدهم لكي يحملوا الأمم الشمالية على الاذعان لمشيئتهم والانقياد لهم وقبول هذه الزعامة والسيادة وهم يتوسلون الى ذلك بعدة وسائل منها الاغراء والاستمالة ومنها المداجاة والمراودة ومنها التخويف والارهاب ووسائل الشدة والعنف في النهاية

إن النازي يلجأ الى الشدة بعد ان يخفق في خطب ود الاسكنديناوي كما يلجأ اليها عند ما يخفق في خطب ود ابناء الشعوب الأخرى التي يريد استمالتها والتزعم عليها

ويعتمد النازيون على الجنود الوطنيين . . . على الاحزاب الاسكنديناوية النازية الكثيرة

وفي الواقع ان الاسكنديناويين قد تأثروا في كل وقت بالحركات السياسية والاجتماعية والدينية الكبرى التي نشأت في المانيا

ولكن تأثر الاسكنديناويين بهذه الحركة الهتلرية لم يكن عظيماً كتأثرهم بالحركات الأخرى ذلك

لان البذور الهتلرية قد نبتت في أرض قاحلة فلم تثمر في اسكنديناوة

وفي الواقع ان العوامل التي ساعدت على نجاح النازية في المانيا لا وجود لها في اسكنديناوة فما الذي ينعش اذن الهتلرية في اسكنديناوة ويغذيها ؟

أجل ، لا يشعر الاسكنديناويون بأنهم قد خسروا في الحرب او ظلموا ولا يشعرون ان السواد الاكبر منهم في حالة مالية سيئة

ولا توجد في اسكنديناوة طبقة متوسطة متضجرة متبرمة

وعنصر اليهود الذي اثر في الحياة الالمانية وكان له شأن خاص في تغذية الهتلرية في المانيا يسير في بلدان الشمال. وفوق هذا فان اسكنديناوة ليست مهددة كالمانيا بانتشار البلشفية فيها

اجل ، ان الحالة الاقتصادية والمالية في الممالك النوردية سليمة حسنة فان الازمة لم تصبها الا فترة قصيرة وبرفق اذا قيست بالبلدان الاخرى وهي بعد ان استفاقت من هذه الازمة القصيرة بدأت تعيش في عصر جديد كله رخاء ويسر

وعلى هذا فالاحزاب النازية التي تأسست في اسكنديناوة كانت احزاباً عارضة وتعتمد اعتماداً يكاد يكون تاماً على المساعدات المالية التي تأتيها من المانيا

كما انه لا توجد مشكلة يهود في اسكنديناوة وغيرها من الممالك النوردية اذ ان نسبة اليهود بها لا تزيد عن واحد في الالف

نعم ، قد اخفقت الاحزاب النازية الثلاثة التي تأسست في السويد كما اخفقت الاحزاب النازية الاربعة التي تألفت في النرويج. اما الدانيمارك التي رحبت في بادىء الامر بالحركة الهتلرية قد عادت فنفضت يدها منها بعد ان وجدت ان النازيين يريدون اقتطاع بعض اجزاء من الدنيمارك واعتبارها من « الاملاك » الألمانية

وفي الواقع ان الاحزاب النازية التي تألفت في الممالك الاسكنديناوية قد اثبتت عجزها وعدم مقدرتها على اجتذاب الاهلين اليها فظلت ضعيفة

وكان كل هم النازيين في هذه الممالك القيام باعمال ارهابية فظيعة منها الاساءة الى الافراد اليهود متى انفردوا بهم وخطف الشيوعيين وتعذيبهم وتشويه التماثيل التي في الميادين العامة بتصوير الرموز النازية عليها ومقاومة المظاهرات التي تقام ضد النازية ومقاومة المحاضرين الذين يخطبون او يحاضرون ضد الهتلرية

ولكن هذه الاحزاب بالرغم من كل تهديداتها قد خابت في كل حركة انتخابية كما انهُ لم ينجح اي ممثل لها في اي برلمان اسكنديناوي « نشرت المقالة التي ننقل عنها في مجلة الشؤون الخارجية في عدد يوليو ١٩٣٧»

ولكن الهيئات النازية اهم بكثير من الاحزاب في اسكنديناوة واخطر شأناً
ففي كوبنهاجن حوالي ٤٠٠٠ الماني وفي استوكهلم حوالي ٢٥٠٠
وتوجد جمعية نازية محلية في كل مركز مهم في اسكنديناوة

لكن الالمان النازيين في الدنمارك هم الذين سببوا الاتعاب للحكومة الدنماركية اكثر من سواهم من ذلك ان رئيس الجمعية النازية في كوبنهاجن قام بتحريات وابحاث غريبة فوزع خطاباً دورياً على اعضاء جمعيته استفهم فيه عن عدد السيارات التي يملكونها والموتوسيكلات واللوريات وما الى ذلك من وسائل النقل والسفر

ومن بين الاسئلة الأخرى — « وعددها ٢٧ سؤالاً » — هل تملك آلة كاتبة ؟ هل تعرف الاختزال

قد تكون هذه الاسئلة في مظهرها الخارجي بريئة ولكن « التيب رِيتر » اي المكتاب قد يكون في لغة النازيين « بندقية » وقد يكون الاختزال «ضرب النار» واستعمال المسدسات والبنادق

كما انهُ سألهم هل يعرفون شيئاً عن المنارات الدنماركية وعن مواقعها واقرب الطرق للوصول اليها

هذا وقد وصل عدد كبير من « مراسلي » الصحف الالمانية الى الدنمارك بعد انتشار الحركة الهتلرية في المانيا واكثر هؤلاء لم يكتبوا قبل ذهابهم للدنمارك سطراً واحداً لأية جريدة ومع هذا فقد وقع الاختيار عليهم لنزعتهم النازية فبينما نجد في كوبنهاجن مراسلين او ثلاثة مراسلين فرنسيين او انجليز نجد عشرات الالمان مع ان الصحف النازية الالمانية لا تحتاج الى جزء من هذا العدد الكبير من الصحافيين في بلد صغير كالدنمارك وهذا هو السر الذي لم تفهمه بعد الحكومة الدنماركية. ولكن يلوح ان مساعي الدعاة النازيين في البلدان الشمالية لم تثمر فانخفضت نسبة الصادرات الالمانية من الافلام السينمائية الى النرويج الى النصف ونقص بيع الكتب الالمانية في الدنمارك والسويد بنسبة ٢٠ في المائة كما انهُ قلَّ الاقبال على تعلم اللغة الالمانية وحلت الانكليزية مكانها في المدارس والاذاعة وعلى الأخص في النرويج ولهذه الحقيقة خطورتها العظمى وفي الواقع ان الممالك الاسكندناوية تقاوم الدعاية النازية مقاومة كبيرة عن طريق تشجيع كل مظهر من مظاهر الديمقراطية والحرية الشخصية

وقد اصبح للعمال أعظم الشأن في حكم هذه الممالك الاسكنديناوية وهذا يعتبر ردُّها على المانيا النازية

ولكن هذا لا يعني ان اوربا الشمالية قد اصبحت معرضة لانتشار البلشفية ذلك لأن السواد الاكبر من الاسكنديناويين لم يصوّتوا في أي وقت من الاوقات لأحد من البلاشفة

ومع هذا فانهم لا يفترون في تأييدهم لمثلهم العليا ويتمسكون بعقائدهم القائمة على الصروح القوية الاربعة التالية : — السلم . . . — التقدم . . . — الحرية . . . — الديمقراطية . . .

حديقة المقتطف

الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

فنا الموسيقى والتصوير

لالياس ابو شبكة

الحركة الفنية

في سوريا ولبنان

تقوم بجانب الحركة الأدبية في هذه البلاد حركة فنيّة مباركة قوامها الموسيقى والتصوير . وسأعرض في هذا الفصل للجانب المختص بالأدب من الموسيقى الحديثة وقديماً رافقت الموسيقى الأدب وآخته : وستبقى ترافقهُ وتؤاخيه ما بقيت من عناصره

لا تزال النهضة الموسيقية في لبنان على الخصوص في مستهلها ، وكلّ بداية تبحث عن متكإٍ لها وكثيراً ما يضطرها الاتكاء الى التقليد ، والتقليد لا يشتدّ خطرهُ إلاّ اذا ماشى المقلّد وامتزج فيهِ واستُعبد لهُ . واذا قلت التقليد لا أقول الاقتباس ، فمصر اقتبست عن الترك في الماضي ولم تقلدهم ، بل عرفت أن تطبع الالحان المقتبسة بالطابع الشرقي المصري ، ولم تكن الموسيقى التركية والموسيقى المصرية متباينتين متنافرتين كالشرقية والغربية مثلا

على أن لبنان يستهل عهده بالتقليد الخطر لا بالاقتباس . ولو انهُ يقتبس عن الموسيقى الغربية ما يوائم المزاج الشرقي لهان الأمر ، ولكنهُ يقلّد الغربيين تقليداً خاصًّا ويحاول احلال الموسيقى الغربية الصرف محلّ الموسيقى الشرقية . فقد لحن الموسيقار اللبناني الشهير الاستاذ وديع صبرا مسرحية « الملكين » للاب الفاضل الخوري مارون غصن تلحيناً فرنجيًّا وعرضت هذه المغنّاة في بيروت على أنها أول مغنّاة « اوپرا » شرقية في الشرق الأدنى

وهذا القول ترافقهُ غلطتان : الاولى أن مغنّاة « الملكين » ليست شرقية بل غربية فرنجية متسلقة على الكلام العربي ، والأنكى أنك تسلخ ساعتين ونصف ساعة على سماعها من غير أن تقرع أذنيك قفلةٌ شرقية . والثانية أن هذه المغنّاة ليست فاتحة عهد في الموسيقى الشرقية بالشرق الأدنى . فقد نظم الخوري مارون غصن

هذه المسرحية في العام ١٩٢٧ ولحنها الأستاذ صبرا في العام ١٩٢٨ . ولم تعرض رسميًّا في بيروت إلاّ في أواخر مايو الفائت . في حين أن المسرحيات الغنائية يرجع عهدها في الشرق الى ستين سنة ، فأول من لحن مسرحية شرقية هو الموسيقار الأرمني التركي جوخه جيان الذي وضع مغناة « لبلبي جي حورحور أغا » الهزلية وأول من لحن مسرحية في مصر هو الموسيقار كامل الخلعي . فقد لحن هذا الموسيقار عدة مسرحيات لجمعية « المعارف » التي كان يديرها نسيم المندراوي ، من كبار اساتذة التمثيل في مصر . ولم يكن في مصر ، في ذلك الحين (١٩٠٣) إلاّ فرقة واحدة لامعة هي فرقة اسكندر فرح ، متعهد فقيد الطرب الاشهر الشيخ سلامة حجازي ، وفي جملة المسرحيات التي لحنها كامل الخلعي رواية « الملك اخناتون » وعدد من المسرحيات الفرعونية المصرية لأن جمعية « المعارف » كانت تعمل على نشر الثقافة المصرية القديمة ، وثاني من لحن المسرحيات في مصر هو بطرس الشلفون ، رئيس جمعية « الآداب » المصرية . فقد لحن مسرحية «اسما» و « هرون الرشيد » و « النبي ايوب » و « الملك متريدات » و « ابو حسن المغفل» وثالث من لحن المسرحيات هو اسكندر الشلفون ، الموسيقار النابغة الذي قتل في حادث انهيار مقهى « كوكب الشرق » في بيروت . فقد لحن لجمعية الاتحاد المصرية عدة غنائيات « أوبرا » منها « النعيس » و « حرب العرب مع شارل مارتيل » و « الهوى العذري » و « الدوق دانجو » و « السبايا » . وغيرها وللشيخ سيد درويش عدة غنائيات يراوح عددها بين خمس عشرة وعشرين

***

ويقول الاستاذ صبرا ان مغنّاة « الملكين » هي أول « اوبرا » عربية ملحنة بحسب اصول فن الموسيقى الراقي ومع احترامي وتقديري العظيم لعبقرية الاستاذ وديع صبرا في الفن الموسيقي الذي لايجاريه فيه كثيرون حتى في اوربا نفسها لا اجد بدًّا من القول بأن مغناته «العربية» لم تصادف اي استحسان لانها ليست « عربية » . وقد تكون اول مغناة وضعت ولحنت في لبنان ولكنها ليست لبنانية ولا شأن بها البتة للموسيقى التي نريدها على اساس الاوضاع الشرقية

فن التصوير في لبنان

الشعر والتصوير والموسيقى ، ثلاثة فنون من مكملات الحياة كل منها ثالوث يجمع — مع استقلاله — بين الاقاليم الثلاثة ، ففي الشعر تصوير وموسيقى ، وفي الموسيقى شعر وتصوير ، وفي التصوير موسيقى وشعر . على ان التصوير اقل حظاً في المجموع من الفنين الآخرين وإن يكن الشعر أوفر حظاً من التصوير فهو أقل حظاً من الموسيقي ، وهذا المجموع لا يُقبل من الموسيقى إلاَّ على اقنوم واحد من أقانيمها الثلاثة : النغم

ويرجع ذلك الى مدى الثقافة في الناس ، فالموسيقى تقع في كل نفس على مادَّة حساسة تلائمها ، وفي النفوس البشرية — على اختلاف طبيعتها — أوتار تتأثر بمقدار ما يتهيأ لها من الحس فهي لا تحتاج الى تربية او ثقافة ، الى معرفة أو علم . أما اذا تثقفت هذه النفوس فيتوزع طربها وشجوها على مختلف حواس الانسان ويقويان بقوة الثقافة ، فالموسيقي أو العارف بالموسيقى أشد تأثراً بالنغم من الدهماء فهؤلاء الاخيرون يحسون بهذا النغم ، أما العارفون بالموسيقي فيحسون ويرون ويدركون . ففي كل انسان عناصر حساسة تركد منذ نشأتها ولا تستيقظ إلاَّ على محك المعرفة والذكاء — بينما التصوير يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهناك ألحان ملوَّنة تحرّك في النفس ما تحركهُ فيها الالحان الموسيقية ، على أن هذه الالحان الملونة تحتاج الى تثقيف العين والشعور لتُدرَك وتُحَس ، وهذه الثقافة في العين والشعور نادرة في الناس لأنها نبت الاجتهاد والذكاء والصبر الطويل

كما أن الطبيعة تلوّن الزهرة بشعورها وذكائها ، هكذا المصور فهو يلونها بشعوره وذكائه فبعد ان يدرس تماوج الالوان في هذه الزهرة تمتزج هذه الالوان بحواسه المدركة المستيقظة وتنسل من أصابعه الى الريشة الفنانة ، واذا النور يغمر كل شيء وينفذ من كل مكان وتدب الحياة في الزهرة . فصورة الفنانة «هدى» مثلاً لا تريك «هدى» كما تريك إياها صورتها الشمسية ، فقد وضع الاستاذ قيصر الجميل على قماشته أحسن ما في نفسه ، فهذه الكآبة الطافية على سماء الفنانة تبحر من عينيها وفمها وانحناء عنقها أحسها المصور في نفسه قبل ان سالت من

أصابعه على الريشة فعلى القماشة ، فكأني به تناول هذه الكآبة من نموذجه ، تناولها بعينيه وشعوره وذكائه ، فنقعها في حواسه ثم عجنها في لوحة أصابعه ، فلم يعطك الخيال بل أعطاك الروح والحياة ، أعطاك الجوهر . والمصور الصادق كالشاعر الصادق يسمع عظمة الطبيعة في قرارة نفسه ويدرك سحر النور والالوان

وصورة الشاعر « شارل القرم » لا تريك إياه كما تراه في صورته الشمسية فشارل القرم على قماشة قيصر الجميل هو الشاعر الحيّ كما عرفتهُ عينك وأحبتهُ نفسك . ففي عينيهِ العاكفتين على كتابه ، وعلى وجهه المغمور بابتسامة خفيفة يتقاسمها الذكاء والسذاجة كأن نفسه مرتاحة الى ما يقرأ ، كأنهُ اهتدى الى ما يبحث عنهُ في مطاوي الكتب او في مغالق الآثار ، في هاتين العينين وعلى هذا الوجه سلامة القلب التي لا تحزر الشرّ حتى في شدقي الذئب ولا الخبث حتى في عيني الثعلب ، والاستسلام البريء ، هذا الاستسلام المألوف في الشعراء

ولا أعتقد ان بين قماشات قيصر الجميل ما يبرز لك فكرة نبيلة سامية عن الرجل المفكر الحازم كصورة هذا «الكاهن اللبناني» الصامد بكل ما في النفس البشرية من الشعور بالكرامة . ولا أعتقد ان الفردية اللبنانية أثبتت نفسها بمظهر فخور كما اثبتت نفسها في هذا الوجه المتسلط ، في هذا الوجه الحامل كل معاني الحزم الشخصي والجرأة الصلبة في كثير من التساهل الانساني ، في هذا الوجه الهادىء الصارم ، هذا الوجه الكاشف عن « فورة الحياة الداخلية المقموعة المشرف على أسرار الضمائر كأن هذه الاسرار تخضع لحدة النظر وتصلب الفم

ومن مشهوري المصورين في لبنان الاساتذة الموراني والأنسي وفروخ. وهذا الاخير هو في الحقيقة مؤرخ الحياة الريفية ومصور للاجواء الروحية،فقد أعرب عن قدسية الطبيعة في لوحاتٍ رائعة تتناقض عليها الاضواء الحارّة والأخيلة الكثيفة فالقرى اللبنانية وأديارها وبيوتها وجنائنها وخرائبها ماثلة حية في أصابعه الرومانطيقية الراعشة

وخلاصة القول ان فن التصوير في لبنان وصل الى مستوى جليل — وليس هذا الفن بمستحدث عندنا فقد نبغنا فيهِ منذ قرون ، وفي كنائسنا واديارنا آثار جليلة منهُ

الياس ابو شبكة

باب المراسلة والمناظرة

مفردات النبات

ملاحظات علمية ولغوية للامير مصطفى الشهابي

حضرة رئيس تحرير المقتطف

لم التق في رحلاتي الى مصر بالسيد محمود مصطفى الدمياطي الذي ينشر منذ سنة ١٩٣٥ مقالات في المقتطف عنوانها « مفردات النبات بين اللغة والاستعمال » . وقد اتضح لي من تصفح هذه المقالات ومن امعان النظر في بعضها ان السيد المومأ اليه استاذ محقق يراجع الأمهات ويصيب كثيراً ويخطىء قليلاً . وها كم بعض ملاحظات يفيد الاستاذ الأخذ بها ولاسيما اذا كان يود طبع هذه المفردات النباتية في معجم :

١ — قال في جزء اكتوبر ١٩٣٦ : « يقال للكزبرة التقدة بالكسر والفتح مع كسر القاف والجلجلان » . قلت قاف التقدة ساكنة . اما الجلجلان فهو ثمر الكزبرة

٢ — قال في جزء يونيو ١٩٣٦ : « الأرز واحدته أرَزة شجر معروف من الصنوبر يقال له (الشربين) ايضاً » . قلت لا لزوم لفتح راء الأرزة . والأرز من الفصيلة الصنوبرية وليس من الصنوبر . وهو غير الشربين . ويخلط بعض اصحاب المعجمات القديمة بين الأرز والصنوبر أو يعرفون هذا بذاك فيجب على علماء اليوم ان يبتعدوا عن مثل ذلك . وأهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تُنبته الطبيعة في جبال الشام هي :

السرو Cupressus وهو انواع

الشربين	" sempervirens
الدِفران	Juniperus drupacea
العَرْعَر	" oxycedrus
اللِزّاب	" excelsa
أرز لبنان . ا بْهُل . أرز الرب	Cedrus libani
الشُوح . تَنُّوب قيليقية	Abies cilicica
الصنوبر المثمر	Pinus pinea
« الحلبي	" halepensis

٣ — جاء في جزء اكتوبر ١٩٣٥ الخروب بضم الخاء والصحيح بخاء مفتوحة

٤ — لم يذكر في جزء يوليو ١٩٣٥ ان الكباد (ككتان وهي لفظة وردت في التاج)

تطلق في الشام على شجرة الأترج . والشاميون لا يستعملون الاَّ لفظة الكباد . وهذه الشجرة مبذولة في الساحل وفي حدائق البيوت بدمشق

٥ — أورد في جزء يوليو ١٩٣٥ تسعة أنواع من الكمء دون ان يسميها بأسماء عربية فقال مثلاً : « توبر البوم » و « توبر إيستيوم » و « توبر ميلا نوسبوروم » الخ . وكان من المفيد ان يضع لها أسماء عربية على الطريقة التي كنت حاضرت فيها في مصر والشام ولخصتها في جزء فبراير ١٩٣٤ من المقتطف فليراجع . ولما كانت معظم الالفاظ العلمية الدالة على أنواع النباتات لها معان قابلة للترجمة فلا لزوم لتعريب تلك الالفاظ بل هي تترجم بمدلولاتها فيقال فيما نحن بصدده الكمأة البيضاء والكمأة الصيفية والكمأة السوداء الغبيرات وهكذا

٦ — اتبع الاستاذ القاعدة المارة الذكر في بحثه عن شجر القيقب (الاسفندان) في جزء يونيو ١٩٣٧ فقال الاسفندان الابيض والاسفندان الجبلي والاسفندان الجيزي والاسفندان العادي لكن هذه الالفاظ هي ترجمة ما يقابلها بالفرنسية او بالانكليزية لا ترجمة أسمائها العلمية. ومن الاصلح كما هو معروف ترجمة الحروف العلمية الدالة على الانواع النباتية لأنها مشتركة بين الأمم ، وعدم استعمال غيرها الاَّ في حالات استثنائية . وعلى هذا تصبح اسماء هذه الاشجار هكذا : القيقب القطني الثمر والقيقب الدلبي والقيقب الدلبي الكاذب والقيقب الحقلي او السهلي. (أنظر أسماءها العلمية).وفي آخر بحث القيقب عرف أحد الانواع بجملة طويلة وهي « الاسفندان الشبيه بالدردار في الاوراق » ولو قال القيقب الدرداري الورق لاختصر كثيراً

٧—جعل لفظة المنجو العامية (جزء ابريل١٩٣٦) اسماً أصليًّا لشجرة الأنبج. ومن المعروف ان النبات انما يسمى باللفظ العربي او المعرب قديماً ثم تذكر اللفظة العامية ويشار الى كونها عامية

٨ — رأيت الاستاذ يستعمل أحياناً في تحلية اجزاء النبات (كالورق والزهر والثمر) غير الالفاظ التي أقرها العلاَّمة الدكتور أمين باشا المعلوف في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق على حين ان هذه المصطلحات هي أصلح ما وضع في هذا الباب فليراجعها كل مؤلف في النبات

٩ — أطلق لفظة البلسان على البلم المكي (جزء مارس ١٩٣٦) . ومن المفيد معرفة ان الشاميين يطلقون لفظة البلسان على الشجرة المساة Sambucus وبالفرنسية Sureau .وهي تكثر في بعض الحدائق وتنبتها الطبيعة في لبنان

١٠ — جاء في الجزء السابق « الفُتنة » بضم الفاء وهي نوع من السنط معروف . والأصلح ان تلفظ بفاء مكسورة

١١ — قدم لفظة القرنبيط على لفظة القنبيط (جزء يناير ١٩٣٧) والثانية أفصح

١٢— ذكر في جزء ابريل ١٩٣٩ البيقة (او البيقية) ووضع بجانبها بين هلالين الكرسنة المزروعة . قلت البيقة نبات والكرسنة نبات آخر والجلبان نبات ثالث . وكلها تزرع في الشام فلتراجع في الصفحات ٣٥٢ — ٣٥٦ من كتابي الزراعة العملية الحديثة (طبعة ثانية) . وها كم مقابلها : —

بيقة Vicia sativa كرسنة Vicia ervilia جلبان Lathyrus sativus

مباحث عربية

كلمة للاب انستاس ماري الكرملي

الى حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

الكتّاب ثلاث طبقات : طبقة تبدع في التفكير ، وتحسن في التعبير ، وطبقة تجيد التفكير ، وتسيء في التعبير

وطبقة تحكم التعبير ، وليس هناك تفكير

فابناء الطبقة الأولى يعدون على الأصابع ، حتى في ديار النيل على كثرة أدبائها . والمنتسبون الى الطبقة الثانية كثيرو العديد ، وتراهم في كل منزل

وأما أرباب الطبقة الثالثة ، فانهم لا يحصون لكثرتهم

والآن ، اذا أردت أن تعرف من هم الذين في رعيل الطبقة الاولى ، فخذ بيدك (مباحث عربية) لتفهم كلامي ومدى مرماه ، فانك تصيب فيه من الآراء المستحدثة ما لا تجد مثيلاً له في مئات من التآليف التي تطبع في هذه الآونة ، وكلها تصانيف قد طويت على غرار واحد ، حتى انك لتتبرم من مطالعة اي كتاب ، من أي ضرب كان

ثم أعد النظر ، مصوّباً اياه او مصعّده ، وأنعمهُ في تلك المفردات ، تُلفها كلها دُرراً مودعةً في اصداف مختلفة الاشكال والاقدار ، ولا جرم انك تقول بعد أن تقف عليها : « هكذا يجب ان تكون الكتابة ، لا جمع كلم الى كلم ، ولا صفّ أفكار بجانب أفكار ، وليس هناك رابط ، ولا ثمّ صلة ، يربط بعضها الى بعض »

على انا وجدناهُ استعمل (المنضدة) ص ٢٧ وقد شاعت على يراع كتبة هذا العهد ، ناقلاً اياها عن (اقرب الموارد) للشرتوني ، أو عن كاتب عثر عليها في المعجم المذكور ، فهي لفظة لم ترد في كلام فصيح ، ولا ترد على أسلة مؤلف بليغ ثقة يعتمد عليه . وصوابها (النَّضَد) ، كما ذكرها ارباب الدواوين اللغوية ، وهي من باب تسمية الشيء باسم المصدر . وما هذه الاّ شامة في جبين الحسناء !

الاب انستاس ماري الكرملي

باب الأخبار العلمية

الطريق الصحراوي العظيم

بين بغداد وساحل البحر المتوسط

نشرت مجلة « بريطانيا العظمى والشرق الادنى » مقالة تحتوي على حقائق طريفة عن الطريق العظيم الذي يُمَدُّ من بغداد الى ساحل البحر المتوسط

في هذه المقالة — وهي لمكاتب خاص — ان الحكومة البريطانية مشغولة الآن بمد اعظم طريق وضع المهندسون البريطانيون تصميمه وقاموا بانشائه في بلاد صحراوية ومتى تم كان مرحلة حاسمة في تاريخ النقل الميكانيكي ونصراً جديداً للنقل بالسيارة على سكة الحديد لأن مشروع هذا الطريق كان قد أقر قبل الفراغ من درس مشروع سكة الحديد

هذا المشروع تقوم بتنفيذه وزارة الحربية البريطانية نائبة عن وزارة المستعمرات البريطانية وتعاونها في ذلك حكومات فلسطين وشرق الأردن والعراق

وينتظر ان يكون طول الطريق ٦٠٠ ميل وسيدهن سطحهُ كلهُ بالاسفلت فيغدو بذلك أطول مضمار سباق في العالم

وقد بنيت جسور (كباري) فوق مجاري الماء في الصحراء والمهندسون يعملون كل ما يجب لجعل الطريق ميسوراً في كل حالة من احوال الجو المتقلبة

ومن هذا الطريق جزء يمتد ستة وخمسين ميلاً في ارض شرق الاردن

والمشروع الآن يقتضي عمل ١٥٠٠ رجل وشغل آلات خاصة بتمهيد الطرق ورصفها ولو اريد تنفيذ المشروع قبل الحرب وقبل ان تستنبط هذه الآلات لاستغرق العمل نشاط الوف من الرجال

وقد كان الميجر برجز مديراً للعمل منذ شرع فيه في يونيو ١٩٣٨ ولكن خلفهُ اخيراً الميجر همند أحد الضباط المهندسين الملكيين

***

وتقدر نفقات هذا الطريق بستمائة الف جنيه توفّى بهبة من الحكومة البريطانية

وهذا الطريق يصل بغداد بحيفا ومنهُ تمتد فروع تصله بالقاهرة والقدس ودمشق الشام وعمان وليس ثمة ريب في ان الطريق الاصلي وفروعه ستكون شبكة من اهم شباك المواصلات في العالم تسير عليها مركبات البضائع من بلدان الشرق الادنى الى البحر المتوسط

شبكة الطرق في الشرق الادنى

عود الى سياسة الامبراطورية الرومانية

روى مكاتب المقطم من بيروت ان النية متجهة في المنطقة السورية المشمولة بالانتداب الفرنسي الى مد طرق كبيرة تتصل بالبلدان المجاورة لكي تسهل هذه الطرق الاعمال العسكرية وتساعد على استيفاء وسائل الدفاع اذا نشبت حرب

ومن الغريب ان يكون الخوف من الحرب وسيلة من وسائل الاصلاح وهذا عين ما حدث في مصر فإن هذا القطر من افقر الاقطار الى الطرق الحديثة حتى انهُ لا يضارع الاقطار الشرقية المجاورة لهُ من الشمال والغرب فلما سرى الخوف من وقوع حرب وقضت الحكمة بالاستعداد لها عمدت مصر الى مد طرق عسكرية واخذت تصلح الطرق العامة ولم تكتف بالطرق الداخلية بل عمدت الى اصلاح الطريق الصحراوي الذي يصلها بفلسطين

ومتى فرغوا من هذا الاصلاح صار في طاقة المرء ان يسافر من الاسكندرية اوسواها من مدن القطر الى اقصى بلدان أوربا بالسيارة بالطريق الممتد من السويس او الاسماعيلية الى حدود فلسطين مخترقاً فلسطين الى لبنان فسورية والاناضول ومنهُ الى بلدان البلقان في الطرف الجنوبي الشرقي من قارة اوربا

فالشعوب تعود الآن الى مثل سياسة الامبراطورية الرومانية وقد كان في مقدمة القواعد الاساسية فيها ان يُعنى بمد الطرق العسكرية العظيمة من روما الى اقصى الحدود في الشرق والغرب وتستعمل هذه الطرق في أيام السلام في النقل والانتقال ولا يزال جانب من هذه الطرق الرومانية قائماً في البلدان الشرقية ورومانيا وسواها وفيها دلالة على عظم الاتقان الذي كان يلازم صنع هذه الطرق ومدها والاهتمام بصونها

***

وفوائد هذه الطرق في عهد السلام أعظم منها في الحرب لانها تقرب ما بين الاقطار وتهون على الشعوب مهمة الاتصال . وهذا في مقدمة ما يحتاج الشرق اليهِ علاوة على ما يستطاع من تسهيل التبادل وقد اخذت العيون تفتح لرؤية مزايا هذا التبادل في عصر اشتد فيهِ التنافس التجاري واقيمت فيهِ الحواجز الجمركية في معظم البلدان

ومتى استقر السلام الأوربي ولم يبق في حدود مصر الغربية ما يخشى منهُ على سلامة البلاد لا يبعد ان يمد طريق صحراوي متقن آخر من مرسى مطروح الى الحدود الغربية يتصل بالطريق الايطالي العظيم وهو متصل بالطرق البديعة التي أنشئت في تونس والجزائر والمغرب الاقصى والتي شهد لها جميع الذين سافروا بها

نكبات الغواصات

غرقت الغواصة سكوالوس الاميركية وغرقت بعدها الغواصة ثيتس الانكليزية وثم وردت الانباء بغرق غواصة فرنسية في الشرق الاقصى وقيل ان عدد الذين غرقوا بها ٧٧ وقيل انهُ لا يرجى نجاة احد منهم لان الغواصة غرقت في ماء عميق

وعرت بريطانيا العظمى هزة من الحزن لغرق الغواصة ثيتس لم يسبق ان عراها مثلها قبلاً الا عند احتراق البلون الكبير ر١٠١ في فرنسا

ومما زاد حزن الانكليز عجزهم عن انقاذ الغواصة او من كان فيها في حين ان الاميركيين استطاعوا بعض ذلك وعلل هذا الفرق بالفروق التي في الحالتين فقد غرقت الغواصة ثيتس في خليج لفربول وهو مشهور بشدة تياراته وعواصفه وارتفاع المد فيه فحالت هذه الامور دون النجاح في اعمال الانقاذ غير ان الناقدين قالوا إذا كان الأمر كذلك فلماذا وقع الاختيار على موضع كهذا لامتحان الغواصة ولم يختر للامتحان مكان ليس فيه مثل هذه الصعوبات

ومما زاد في نكبة الغواصة الانكليزية ان عدد الذين كانوا فيها بلغ نحو ضعفي العدد المقرر لها من الضباط والجند وكان في طاقة الغواصة ان تقلهم بسهولة ولكن كثرتهم هذه افضت الى استهلاك الهواء الذي في الغواصة

***

وقد جرى الانكليز على عاداتهم من التوسل بهذه الحوادث المحزنة الى كشف النقاب عن عللها لاجتنابها وهي مهمة شاقة لأن معظم الذين كان في استطاعتهم وصف الحادث واسبابهُ دفنوا في ضريحهم المائي في قعر البحر وانما قيل ان العلة الكبرى في غرق الغواصة ان ماء البحر تطرق الى نصفها الأمامي بفتح باب من أبواب أنابيب الطربيد ولكن الذي يتعين تحقيقه هو هل كان فتح الباب لخلل في صنع الغواصة او لخطإ بشر. وفي الحالتين كيف يمكن اتقاء تكرار هذا الخطإ

غير أن جزع الأمة وأخطار « المهنة » لن تحول دون المضي في صنع الغواصات وسواها من معدات الهلاك والدمار ولكن الذي يستغربه الباحث مع هذا كله ان تجزع أمة برمتها لحادث من حوادث القضاء والقدر ثم تعمد هذه الامة ومثيلاتها الى اعداد معدات حرب قد يكون طعامها ملايين من الرجال والنساء والاطفال علاوة على الاموال وثمار قرائح العالم في جميع هذه القرون الماضية

صناديق من الرصاص لحفظ الراديوم

يحفرون في لندن أربع آبار في اربعة من أكبر مستشفياتها ويبطنونها بالصلب ليخزنوا فيها الراديوم الذي في المستشفيات لانه اذا اصابته قنبلة ونثرته استهدفت للخطر ألوف من الخلائق وهذه المستشفيات هي سنت برثوليو ومونت فرنون ومدلسكس ورويال كنسر

وسيحفرون مثل هذه الآبار في مستشفيات بريطانيا الاخرى وطلبت لجنة الراديوم الوطنية الى الاطباء ورجال الشركات التجارية الذين عندهم راديوم ان يعضوا سجلات بما عندهم حتى اذا شهرت الحرب ارسلوا ماعندهم من الراديوم الى اقرب بئر ليحفظ فيها فلا يبقى عندهم منه الا مايحتاجون اليه للعلاج

وفي بريطانيا كلها نحو ١٢٠ غراماً من الراديوم قيمتها ٨٤٠ الف جنيه . وقد قال مدير معمل الطبيعة في معهد الراديوم في ليفربول لمندوب احدى الصحف ان في معهده ١٦ر١ غرام قيمتها ١٢الف جنيه فاذا اصابتها قنبلة ونثرتها فقد يقتل هذا الرديوم ١٦٠ الف نسمة فان جزءاً من مائة من الملغرام قد يقتل الذي يتنفسه

ويحفظ الراديوم الآن في صناديق لها جدران من الرصاص سمكها ٦ بوصات وهذه الصناديق موضوعة في غرفة جدرانها من الرصاص كذلك

توحيد المصطلحات الطبية في العربية

وافق مجلس الوزراء على مذكرة لوزارة الخارجية قالت فيها ان الجمعية الطبية المصرية طرحت موضوع (توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية) على مؤتمرها الاخير الذي عقدته في اوائل سنة ١٩٣٨ في بغداد فأصدر قراراً اقترح فيه مقترحاً فصلت الجمعية الطبية قواعده بما يلي :

ان تتصل الحكومة المصرية بحكومات الاقطار العربية في الشرق الادنى للاتفاق على ما يأتي بصفة رسمية

اولاً — ان تؤلف كل منها في بلادها لجنة من الاطباء واللغويين للنظر في موضوع توحيد المصطلحات العربية للعلوم الطبية اي اختيار افضل تلك المصطلحات للاستعمال ويراعى في اختيار هذه اللجان ان تمثل فيها الجمعيات الطبية المختلفة

ثانياً — ان تنتدب كل من تلك الحكومات من اعضاء اللجان المشار اليها عضوين للاشتراك في لجنة دائمة تجتمع بالقاهرة شهراً في كل سنة على نفقة تلك الحكومات لبحث المصطلحات العربية المقترحة بواسطة اللجان المشار اليها او الواردة في المعاجم الطبية العربية والبحوث اللغوية الطبية في مختلف البلاد واختيار أصلحها للاستعمال

ثالثاً — ان تكون قرارات اللجنة الدائمة المشار اليها معترفاً بها للاتباع في جميع المعاهد التعليمية والطبية في الدول المشتركة بحيث تتوحد المصطلحات الطبية العربية في جميع معاهدها وبالتالي في جميع مؤلفاتها ومجلاتها وعلى ألسن أطبائها

رابعاً — ان يكون انعقاد اللجنة الدائمة في كلية الطب او مجمع فؤاد الاول اللغوي بالقاهرة وتتولى الجمعية الطبية المصرية الاشراف على سكرتيرية اللجنة وتتحمل وزارة المعارف المصرية النفقات الخاصة بالسكرتيرية والمراسلات والمطبوعات التي تصدرها اللجنة

النور الكهربائي البارد
في معرض نيويورك الدولي
لعوض جندي

جاء في مقالنا على النور البارد الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ ما يأتي (نقلاً عن السفر العلمي النفيس الذي أصدره الاستاذ فرناس الاميركي)

« ومن البديهي أننا اذا أزمعنا تحسين قوة نورنا الكهربائي تحسيناً بيناً ، وجب علينا التذرع بذريعة عدا تبيض النور بالحرارة لأن اديصون حينما صنع مصباحهُ الكهربائي الأول في سنة ١٨٧٩ ، أحدث اختراعه هذا ، انقلاباً كبيراً فجائيًّا . ولكن ذلك ليس سبباً لنعتقد بأنهُ لا يوجد خير من مصباح اديصون الناجح . واذا نحن اقتدينا بالحشرات أو بسمك أعماق البحار، كان لا بدَّ لنا من استعمال طريقة الضوء المصحوب ببعض التفاعلات الكيميائية Chemiluminescence ولما كانت اليراعة ، زعيمة ذلك الضوء ، فهي الأمينة على سرّهِ ، ولا تقبل البوح بهِ ، وإن كان بعضهُ قد ذاع . ومتى حُلَّت معضلة الضياء المصحوب بالتفاعل الكيميائي فانها لا تصبح مصدراً صالحاً للانارة لأجل البيوت الا اذا وجد امرؤٌ ذو عبقرية قليلة يمكنهُ تحسين ذلك المشروع »

ويبدو لنا الآن أن المهندسين الكهربائيين، والكيميائيين الاميركيين الحذاق ، قد وفقوا لحل هذه المعضلة على الاسلوب الآتي : —

قالت مجلة العلم العام الاميركية في جزئها المؤرخ يونيو سنة ١٩٣٦ إنهُ اخترعت مصابيح كهربائية للزينة سميت بالمصابيح المتألقة . وهي ذات قوة ضوئية تفوق قوة المشاكي[1] الكهربائية الملونة بالالوان المختلفة من خمسين مرة الى مائتي مرة . وقوام نورها، الاشعة التي فوق البنفسجية والمعروف أن تلك الاشعة ، تضيع عادةً بلا جدوى لانها خفية . ولكنها تستحيل ضوءًا جليًّا ملوناً بألوان مختلفة ، وذلك بمسحوق كيميائي يُغَشى به باطن الانبوب الزجاجي لمصباح بخار الزئبق

وقالت مجلة خلاصة العلوم الانكليزية المؤرخة في يوليه ١٩٣٨ بعنوان (مصابيح تولد نوراً كنور الشمس) ما يأتي : — اعلنت حديثاً شركتان أميركيتان وهما وستنجهوس الكهربائية الصناعية ، والكهربائية العامة ، في وقت واحد انهما قد اخترعتا نوعاً جديداً من المصابيح الكهربائية يستعمل فيه الضوء الذي فوق البنفسجي ، مشفوعاً بمواد كيميائية متألقة تُغَشى بها بواطن زجاجات المصابيح المشار اليها وذلك لتولد ضياء دريًّا او ملوَّناً ذا قوة تعادلها في المصابيح الكهربائية الحالية ذات الفتائل ٢٠٠ مرة

وتختلف هذه المصابيح اختلافاً كليًّا في

(١) المشكاة — كل مايوضع فيه او عليه المصباح والجمع مشاك . وعندي ان هذا اللفظ خير ما تترجم به كلمة bulb الانكليزية .

قاعدة تركيبها، عنها في انواع المصابيح المنتشرة الآن . اذ تحول الضياء الذي فوق البنفسجي غير المنظور، الي ضياء دري أو ملون ، وذلك بالتألق . وقوة مشاكيها تفوقها في المصابيح الدرية الحالية بمراحل . ومن هذه المصابيح المتألقة ، طراز يولد ٦٠ شمعة من النور ، من كل وط في الزجاجات التي حجمها ٣٠ وُطْ . على حين ان الزجاجات المعادلة لها في المعيار المصطلح عليه، تولد ٣/١ شمعة من كل وُطْ . وثمة نموذج آخر منها يولد ضياء ، يكاد يضارع نور الشمس سناء وهو اقصى ما بلغته وسائل الاضاءة الصناعية اتقاناً . وتنطوي المساحيق الكيميائية المغشاة بها جدران الزجاجات (المشاكي) على سر تلك الوسيلة الضوئية الجديدة . ومتى يطلق تيار كهربائي في بخار الزئبق المضغوط ، ضغطاً خفيفاً، يولد اشعاعاً خفيفاً فوق البنفسجي ، ذا قوة عظيمة . وايان يصوب الاشعاع الذي فوق البنفسجي، نحو المساحيق الكيميائية ، يستحل نوراً ظاهراً ويتوقف لونه على نوع المواد الكيميائية الخاصة التي تستعمل ويكون ذلك التحول ايضاً ، شديداً جداً ، ويجتنب معه خسائر الحرارة الشديدة التي تولد من طراز المصباح الكهربائي الدري الحالي

وهذه تختلف عن بعض انواع مصابيح الزئبق إذ تصل الى ذروة سنائها في بضع ثوانٍ . وقد كان اختراع هذه المصابيح المتألقة، مصدراً لأعمال جديدة، مفيدة من كل الوجوه ، في الانوار التي تحتاج اليها الزينات . وقد استعملت الاشعة التي فوق البنفسجية ، لكشف اسرار الجرائم، وذلك بالتألق الذي تحدثه في المواد التي تسلط عليها (راجع مقالتنا في هذا الموضوع في مقتطف يناير سنة ١٩٣٢)

ثم قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية في جزئها المؤرخ ابريل سنة ١٩٣٩ النبأ الآتي:—

انتجت المعامل الكيميائية الاميركية ، انابيب سحرية للاضاءة الكهربائية بالنور البارد، تسامي قوس قزح في الوانه وتنافس البراعة في قوتها المضيئة . وذلك لتزيين المشاهد الليلية، زينة رائعة جديدة تأخذ بمجامع القلوب

قضى مهندسو المباحث في الشركة الكهربائية الاميركية العامة ، سنين يخترعون ويجربون التجارب المختلفة ، حتى تيسر لهم ابراز ذلك الضرب من المصابيح وتقديمه للاستعمال ، مطلقين عليه اسم المصابيح المتلألئة . وهي تمثل قصارى القواعد الجديدة للاضاءة الكهربائية . فأتيح لهم بهذه الوسيلة خفض نفقات الاعلانات المضيئة ذات الالوان المختلفة خفضاً يسهل معه تعميمها في كل مكان كما هي مستعملة حالاً في المسارح

ويرى الآن زائرو معرض كاليفورنيا الدولي باكورة هذا الضياء الحديث ، حيث يشاهدون الانوار الفياضة ، التي تنبعث من سطح الارض « كالتي تضاء بها تماثيل المرحوم سعد باشا زغلول وغيره من عظماء تاريخ مصر في القاهرة وغيرها » الي مباني المعرض المغشاة بمادة تشبه الطلق ، فتسطع المباني كل ليلة بانوار زرقاء تنبعث من المصابيح الفياضة النور التي

تسدد اليها ، مؤلفة من ٢٣٠٠ مصباح من ذلك الطراز . وفي وسع خبراء الاضاءة ، ضم تلك الانابيب ذات الالوان المتلألئة ، بعضها الى بعض، ومثلهم في ذلك مثل المصور الذي يمزج الصبغات بعضها ببعض ، ليصور الصورة المبتغاة، فيولدون منها الواناً شتى . فتم لهم ، على هذا النمط ،فتح ميدان جديد للاعلانات الكهربائية ، متدرجين فيها من اصغر الاحجام الى اضخمها. وتستعمل تلك المصابيح ، في الزينات المختلفة الالوان ، فتبدو لناظريها كأنها قوس قزح ، ويمكن الانتفاع بها انتفاعاً مدهشاً ، في البيوت والمخازن ودوائر الاعمال والفنادق والمسارح وعربات السكك الحديدية

وسرُّ هذا المصباح الكهربائي الجديد المتلألىء ، في انبوبه الزجاجي « وطوله العادي ١٨ عقدة وقد يبلغ ياردة كاملة » ثم في باطنهِ المغشَّى بالمواد الكيميائية المسحوقة ، وهي ذات لون أبيض يقق كالثلج . وحينما يُسلَّط عليها التيار الكهربائي ، تتلألأ مثل الصبغات المضيئة التي تصبغ بها أثاثات المسارح ، وذلك بتأثير انطلاق الاشعة التي فوق البنفسجية المتولدة في الانبوب ، من بخار الزئبق . ولهذا المشروع نفع عظيم في الاضاءة ، بحيث أن المصباح المتألق ، يفوق نظيره في الاضاءة من المصابيح الكهربائية المشابهة لهُ في اللون، بقدر يتراوح بين ٥٠ مرة و ٢٠٠ مرة . مع انهُ لا يستنفد من الطاقة الكهربائية على شكل حرارة الاَّ قدراً طفيفاً لا يذكر بجانب ما تستهلكه مشاكي المصابيح المألوفة او اعلانات غاز النيون.

وتم الى الآن صنع خمسة ألوان من تلك الانابيب وهي الاخضر والأزرق والقرنفلي والذهبي والاحمر . وتبدو للرائي الانابيب جميعها عديمة اللون حتى تنار ، عدا النوعين الاخيرين منها وهما اللذان يستعمل فيهما الزجاج الملون . وتتوقف ألوان اضوائها على المواد الكيميائية التي تستعمل لطلي بواطن انابيبها . ومنها الانابيب البيضاء والأنابيب التي تشبه ريح النهار . والأولى منهما تسامي النوع السخن من انواع الضياءِ الصناعي . ويتولد النوع المماثل لريح النهار ،من خلط مساحيق كيميائية مختلفة، خلطاً متقناً . وقد تبين انهُ اقرب الاصناف الصناعية شبهاً بضياءِ النهار الطبيعي . ولذلك انتشر انتشاراً واسعاً في الاعلانات الملونة عن المنسوجات ، وذلك بصنع الرسوم المزخرفة ولاظهار محاسن منتجات المصانع . وانما تحتاج المصابيح المتلألئة عند تركيبها ، الى تجاويف كهربائية ، ذات اشكال صالحة لها . والى مفاتيح كهربائية محكمة ، ذات ملفات دائمة للسيطرة على التيار وذلك لانها في غنى عن جهاز خاص أو اسلاك لانارتها . ويستهلك المصباح المتلألىء طاقة كهربائية تتفاوت من ١٥ وط الى ٣٠ وط . ويضاء إما بالتيار المنزلي وإما بالتيار الشديد الذي يسري في الاسلاك التجارية الممتدة من مصانع توليد القوة الكهربائية . واذا أحسن استعمال هذه المصابيح أضاءت زمناً أطول مما تقتضيه المصابيح

المنزلية المألوفة . وقد ساهم الكيميائيون مع خبراء الهندسة الكهربائية في اتقان صنعها وذلك منذ تجربة اصنافها الابتدائية في أوائل سنة ١٩٣٦ حتى بلغت شأوها الحالي . وكانت أنواع التبر النادرة الوجود ، المصدر الفريد لتركيب المواد الكيميائية المضيئة او الفصفور اللازم لها . وكان بعضها يفلح والبعض الآخر يخفق من غير ان يفقه الخبراء علة اخفاقه . فدلّ تحقيقهم أخيراً على ان كثيراً من المعادن المتلألئة ومنها سلفيد الزنك وطنجستات الكلسيوم وسليكات الزنك والكادميوم ، تتألق اذا خلطت بها مقادير طفيفة جداً من المعادن غير النقية ، وبالتوسل بهذا الاكتشاف مقروناً بالمصاهر (الافران) الكهربائية التي توجه حرارة شديدة جداً الى تلك العناصر المؤلفة للخليط المعدني ، يتاح لمهرة الكيميائيين تركيب فصفور صناعي يفوق افضل انواع الفصفور الطبيعي للاستعمال في تلك المصابيح الجديدة

المنسوجات الزجاجية

في معرض نيويورك العالمي

قد اصبحت البوتقة التي تصهر فيها المواد الصالحة لصناعة القناني ، التي يجلب لك فيها الحليب صباحاً ، مصدراً ايضاً لصنع ملابسك . وذلك ان عجينة الزجاج ، أتيح تحويلها الى غزل ، أمتن اضعافاً من مواد النسيج المعادلة له حجماً ، يمكن استعماله كغزل القطن أو الصوف

***

وتقوم بصنع هذا الضرب من الزجاج ، شركة أونز بولاية الينوى بالولايات المتحدة الاميركية وقد عرضته في معرض نيويورك العالمي ، والعناصر التي يؤلف منها ذلك الغزل الزجاجي هي عينها المواد المركبة منها زجاجة اللبن غير ان المقدار الذي يقصد استحالته غزلاً عند انتشاله من البوادق ، يشرع نافخو الزجاج في نفخه وتحويله الى خيوط أدق من الشعر البشري ، عشرين مرة ، فتغزل تلك الخيوط ، ثم تنسج . وتمارس عملية تلوينه حينما تكون عناصره في البوادق ، اذ تمزج العجينة بالصبغات الزرقاء والقرنفلية وغيرها من الالوان . وخيوط الزجاج من اخف المواد ، اذ تفوق في خفتها ، زغب ريش بط المحيط المتجمد الشمالي ، وخواصها العازلة ، عظيمة جداً . وهذا مما يجعلها نافعة جداً لعزل الاسلاك الكهربائية ، على اختلاف انواعها . كما انها تنفع في حيطان وسُقف المباني الداخلية كعازلة للنيران وتستعمل في صنع قبعات النساء والحياكة الشيلان والطنافس . وتفقات صنعها معتدلة اذ تستطيع المغازل والمناسج العصرية غزلها ونسجها دون ادخال اي تعديل في الاجهزة ومن غير حاجة الى اصباغ . وقد وصف المنسوجات الزجاجية وصفاً شافياً رئيس تحرير المقتطف في جزء مايو سنة ١٩٣٩

مكتبة المقتطف

فرعون الصغير

تأليف محمود تيمور — ١٣١ ص ، القطع المتوسط — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٣٩ — ثمنه ٨ قروش صاغ مطبوع طبعاً انيقاً على ورق ممتاز

بهذه المجموعة من الأقاصيص تأخذ طريقة الاستاذ محمود تيمور ، على مايبدو للناقد ، في جهة جديدة . وذلك ان تيمور كان منصرفاً الى الطريقة الواقعية ، تشهد بذلك قصصه السابقة أمثال « ابو علي عامل ارتيست » و « الاطلال » و «الشيخ عفا الله» . والواقعية عند تيمور تتصل بأسلوب (جي دي موباسان) الفرنسي من حيث بناء القصة وسرد حوادثها ووزن تفاعلها. وقد طغت الواقعية على أدبنا بعد الحرب الكبرى ، بل عند السأم من ابتداعية (رومانسية) المنفلوطي وأضرابه ممن بكى كثيراً واستبكى . هذا الى جانب إهمال تيمور لصقل العبارة ولتغليبه العامية على الفصحى أحياناً ، ومرد هذا الى ما صنعهُ محمد حسين هيكل في « زينب » وما رضي به ادباء المهجر في اميركا

في « فرعون الصغير » تخف وطأة الواقعية بحيث لا تملك على بعض القصص مداخلها ومخارجها . ففي القصة الاولى يشغل الخيال المكان الاول حتى انهُ يرد القصة الى لون معروف هو اللون التخيلي romanesqne ، وفي قصة « المخ العجالي» يسطو اللون الباطني المستمد من علم النفس الفرويدي freudisme على المجرى الواقعي للحوادث والاحوال . ثم ان الأداء في هذه المجموعة يأخذ في أساليب الترسل الرفيع والتعبير المتخير ، وأما العامية فلا تكاد تصيب لها أثراً وما ورودها غاية بل هو وسيلة لتلوين مشهد وتلطيف إحساس . ولتلمس طلب الانشاء الرصين في التصدير الذي عمله المؤلف ، وعنوانه : «المصادر التي الهمتني الكتابة » وهو جم الفائدة من حيث انهُ يبسط كيف اقبل المؤلف على التأليف القصصي وبأي أنواع التأليف تأثر وعلى أي أسلوب جرى فيه . بقي أن للناقد ان يسأل نفسهُ كيف تغيَّرت طريقة محمود تيمور بعض التغير ولِمَه ؟ والجواب غير ميسور اليوم، لأن مثل هذا يرجع الى تاريخ الأدب بالنظر في تحول نفسيات المنشئين وتجاوب النزعات بين الادباء ، وحسبنا هنا تدوين ذلك .وان اذن لي ان أرى في ذلك رأياً قلت إني جد فرح بإفلات طريقة تيمور من قيود الواقعية الجامدة ، لان الفن النابض لا يلفه محيط منظور ولا تحصره حوادث معينة ، وفي توطئة « مفرق الطريق » تفصيل ذلك

وبعد فان هذه المجموعة الحقيقة بالعناية الشديدة لتدل على أن فن الاستاذ تيمور قد استوفى عناصره من جهة السرد ولم الفكرة والخروج من الحوادث بالعبرة التي تحرك النفس الشاعرة

بشر فارس

تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء

عند قدماء المصريين

تأليف الاستاذ عبد العزيز عبد الرحمن صيدلي اول بمستشفى الدمرداش باشا

في ٢٨٦ صفحة . طبع بمطبعة الاعتماد بالقاهرة

الطب والصيدلة والكيمياء في طليعة العلوم التي ساهم فيها المصريون القدماء بقسط كبير . وقد كشف تلك الناحية العلمية الاستاذ عبد العزيز عبد الرحمن في كتابه النفيس فتكلم عن بدء مهنة الطب منذ نشأة الانسان وتدرج في تتبع أساليب تقدم العلاج في العصور الاولى وفي عصورها المتوالية . واستخلص مجموعة الأدوية وطرق استعمالها وكيفية تحضيرها ، والتقاليد التي كان يؤديها كهنة الطب والصيدلة في صناعتها وتعاطيها . وبالاختصار فقد أظهر المؤلف ما كان للطب والصيدلة عند قدماء المصريين من أثر في علوم اوربا حتى القرن الثاني عشر

ففي الفصل الاول الذي لخص فيه المؤلف تاريخ مصر الفرعوني ذكر أهم الكتب الطبية القديمة والتي كان أقدمها الرسالة الطبية التي ألفها الملك « تتا » ثاني ملوك الأسرة الأولى وهي الرسالة التي جددت كتابتها في عهد « رمسيس » الثاني ، وعنوانها مكتوب في الصفحة الخامسة عشرة من كتاب الموتى

وتناول الحديث عن معاهد العلاج التي عرفها وادي النيل قبل أن تعرفها أقدم الدول ، والمكاتب الطبية التي دلت الحفريات العلمية عليها. ثم تدرج منها الى الحديث عن عقائد المصريين واتصالها بمظاهر حياتهم ومنها العلاج والتحنيط وورق البردي ، واحتب آله الطب عند قدماء المصريين الذي عاش أثناء الأسرة الثالثة حوالي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد وكان وزيراً لزوسر

ومن اهم فصول الكتاب القراطيس الطبية الذي عني المؤلف ببحثها ودراستها وخرج منها بان قدماء المصريين كانوا يرتبون طرق العلاج بحسب الاعضاء. وكانت القراطيس عبارة عن وصفات طبية جمعها الاطباء في القرى والمدن وتناقلوها من جيل الى جيل . وكان يكتب اسم المريض بالمداد الاحمر والوصفات بالمداد الاسود وامامها مقاديرها بالمداد الاحمر . وتكلم على المادة الطبية والنباتات الطبية القديمة وأتى على شيء من تاريخها ، وعلى علاقة الدين بالنباتات عند قدماء المصريين. وذكر ان الحقن هي اختراع مصري قديم كذلك

ثم انه تكلم على البخور والعطور والمجمّلات وأتى ببعض شذرات من التوراة وعلى ماء هاتور العظيمة ووصفها التي وجدت منقوشة على اثنى عشر عموداً في معمل معبد « ادفو » كما تكلم على مراهم التجميل والكحل والحناء والاحمر

وانتهى هذا البحث بترجمة حياة المؤلفين القدماء الذين اعتمد عليهم المؤرخون في الدراسات الاثرية لفنون الطب والذين بقي اثرهم قروناً في اوربا ، وكانوا همزة الوصل بينها في العصور الوسطى والقديمة الاثرية وبين العصور التي تلتها حتى القرن الثاني عشر تقريباً

ثم تكلم على الصناعات المصرية القديمة باعتبارها اساساً لعلم الكيمياء الحديثة واتى برسوم بعض الاجهزة التي كان يستعملها قدماء المصريين ، وتحدث في افاضة عن المعادن في مصر وتاريخ استغلالها ، وفي الاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وتكلم على انواعها وألوانها وعلى الفخار والصيني والزجاج المختلف الالوان ومواد البناء والالوان التي لا تزال تحتفظ ببريقها وما عرف عن تركيبها ، كما تكلم على المشروبات الروحية

***

ومن طريف ما كتبهُ في باب النباتات الطبية عن اللوتس الابيض الذي ظهر على الآثار منذ الأسر الأولى ، وقد عثر على زهور كاملة وحافظة لحالها تماماً في المقابر كزهورها التي انتظمت في اكليل غطيت بهِ مومياء رمسيس الثاني وعثر عليها في مقابر كاهون (الاسرة الثانية عشرة)

وهذا النبات منصوص عنهُ في القراطيس ويستعمل في الطب كمبرد ، وكانت النساء يحملنَ دائماً ازهاره في زيارتهنَّ ، وكنَّ يزينَّ بهِ عصابات رؤوسهنَّ

وهو لذلك كثيراً ما نراه في الآثار لا سيما في عهد الرومان حين كانت المرأة تلبس عصابة من الذهب وتلف حولها سيقان زهور وكانوا يأكلون من النبات بصيلاتهِ سواء مشوية او مسلوقة ، كما كانوا يأكلون البذور وكانوا يصنعون منهُ الحلوى كما ذكر هيرودوتوس وكما كتب في القراطيس المصرية

والاسم المصري للوتس الابيض « سوشين » لا يزال يتردد حتى اليوم بالاسم العبري شوشان والعربي سوسن كلاهما مشتق من الكلمة المصرية ولكن هذه الاسماء كلها لا تدل على شيء واحد في الحقيقة فانها ماعدا المصري تعني الزنبق او السوسن

واسماء الاعلام سوزان الفرنسية ، وسوشان العبرية ، وسوشن المصرية (الاسرة الثانية عشرة) كلها قريبة ومشتقة من الاسم المصري القديم ويوجد نفس الاسم في اللغة اللاتينية واليونانية والاسم المصري الحالي بشنين يمت بصلة كبيرة الى اصل المصري القديم

وينتهي الكتاب بفصل عن الموازين والاوزان وكيف كان يعنى قدماء المصريين بدقة الموازين وبتوفر شروط الحساسية بها واتى برسم جميع اشكال الموازين كما ظهرت في النقوش ، كما اتى برسم الموازين الموجودة بالمتحف المصري وتكلم عن محاسبة الارواح ووزن الروح

ومما يهم الاشارة اليهِ أن هذا الكتاب علاوة على كونهِ ضرورياً للطبيب والصيدلي والكيمائي فانهُ معين ونافع لمن يريد دراسة تاريخ مصر القديمة من ناحية العلوم ونشوئها ولمن يريد معرفة المصريين وصناعاتهم وما كان عليهِ قدماء المصريين من مدنية ورقي

وبعد فالكتاب بحث علمي قيم سد فراغاً ملموساً ، ولعل المؤلف يوفق الى إخراج اجزاء تالية فيستكمل الحلقة حتى يصل الى تاريخ هذه المهن في العصور الاخيرة

ولقد وفق المؤلف في بحثهِ وفي تنسيقه للكتاب وفي اخراجه في لغة عربية سليمة قلما تتوافر لرجل الفن. واننا لنهنئهُ بمجهوده الكبير ونرجو ان يجد التشجيع الذي يستحقهُ...

عيوب الحكم في مصر

تاليف حسن الجداوي المحامي — صفحاته ١٥٠ قطع صغير

المقدمة بقلم الدكتور حافظ عفيفي باشا

ليس نظام الحكم في امةٍ ما من الاشياء التي تستطيع ان تبلغ مرتبة الكمال ولكن هناك بون شاسع بين الكمال المطلق في نظم الحكم وبين اتصافها بعيوب في الوسع اصلاحها. والاستاذ الجداوي من النواب المصريين الذين يرون العيوب ويبغون الاصلاح. وعفيفي باشا ومؤلف الكتاب على حق في قولهما ان تبين العيوب توطئة للمطالبة باصلاحها. وفي هذا الكتاب معالجة طيبة وان تكن موجزة لبعض هذه العيوب في مصر

العيب الاول الذي يستغرق الجانب الاول من فصول الكتاب هو ما يتعلق بتطبيق النظام النيابي من ناحية الناخبين ومن ناحية الزعماء والاحزاب. « فأول عيب من عيوب الحكم في مصر هو الصعوبة التي يجدها الناخب المصري في الاختيار. صعوبة تبدأ بهِ وبثقافتهِ وبتربيتهِ السياسية وتمتدُّ الى المرشحين أنفسهم وما يبنون عليهِ طلبهم الثقة بهم » صفحة ٢٦

وعلاج هذا العيب في رأيهِ « يأتي مع الزمن. انتشار العلم وانتشار التربية وتقوية ملكة الحكم على الاشياء ، وتفهيم الناخب ان يرتكز في حكمهِ على الحائهِ الشخصية وألاَّ يثق الاَّ بعد الاختبار والاعتبار بعظات الماضي وهذه صفات لا تتكوَّن في شعب الاَّ في مدرسة الحياة السياسية ... الطويلة التي تمتدُّ من جيل الى جيل ...»

اما الاحزاب فتتفقة في الاغراض الاساسية — الحياة البرلمانية على أساس الدستور القائم. وان المعاهدة مع الانكليز — باستثناء حزب واحد — هي خير اساس تبني عليهِ مصر صرح استقلالها. وليس لحزب من الاحزاب سياسه خاصة بشأن الفلاح او العامل او التاجر او الموظف

او المرأة ولا بشأن أية نظرة اجتماعية،ولا لها مبادىء اقتصادية يختلف فيها حزب عن حزب — وهذا يجعل مهمة الناخب صعبة والمشتغل بالحياة النيابية مرهقاً فلا يكاد يدري على اي أساس ينتمي لهذا الحزب او ذاك الا الميل الخاص للزعيم او الصداقة للاقطاب .وفي هذا يرى المؤلف تفسيراً لخروج أعضاء من حزب والانتماء الى آخر بغير ان يجدوا غضاضة في ذلك . فالتبديل شخصي لا يقوم على مخالفة المبادىء ما زالت المبادىء في جميع الاحزاب متشابهة

وليس هذا كلُّ ما يقوله المؤلف في عيوب الحياة النيابية وانما هو بعض ما يتخذه تكأة لبحث تأثير هذه العيوب في الحياة النيابية وعواقبها

وبعد ذلك يتناول المؤلف عيوب الحكم من ناحية الادارة كالاستثناء في التعيين ،وسرطان السيارات الحكومية وما رهق به ميزانية الدولة ، والتلفونات المنزلية الموزعة على بيوت كبار الموظفين ، وداء المركزية المغالية

(وفي هذا الصدد روى رواية يصح ان تكون نمطاً . ملخصهُ ان مهندساً مقيماً في احد سدود مصر رأى بيع سيارتين استهلكتا في العمل ووجد مشترياً باربعين جنيهاً وهو سعر ملائم فكتب يطلب الاذن فقيل له ان مصلحة النقل الميكانيكي تتولى ذلك فلتشحن السيارتان الى مصر فشحنتا فكلف شحنهما اربعين جنيهاً ثم بيعت بعشرة جنيهات !)

وليس الغرض من هذه المراجعة تلخيص الكتاب ، وانما التمثيل على جرأة النائب الجداوي وخلوص نيته في مواجهة مسائل تسمع حديثها في كل مجلس وأحياناً تقرأ عنها في الصحف ، ولكنه جمعها بين دفتي كتاب فكانت حكماً شديداً على الادارة المصرية . والغريب في امر علاجها ،أنها لا تحتاج الى اكثر من وزارة جريئة حازمة في معالجة معظمها العلاج الحاسم

واذا كانت العيوب السياسية لا يمكن ان تعالج الا بالتربية والاختبار خلال زمن ، فان العيوب الادارية — او معظمها — لا تحتاج في معالجتها الا الى وضع الخطة الصحيحة والحزم في تطبيقها

***

ومهما يكن من امر فان هذا الكتاب الصغير ، حافلٌ بدلائل الاهتمام بمسائل البلاد الداخلية الحيوية وهو امر يدعو الى الغبطة — كما يقول عفيفي باشا — اذ يجب ان يستقر في الاذهان ان اساس الاصلاح في كل بلد هو مطالبة الرأي العام والحاحه في وجوب الاصلاح

والكتّاب السياسيون هم قادة الرأي العام ومرشدوه . . . . وهذا كتاب احدهم وهو جدير بالعناية

اوائل الشهور العربية

تأليف أحمد محمد شاكر — مطبعة مصطفى الحلبي — ٣٠ ص — القطع الصغير — القاهرة ١٩٣٩

للشيخ احمد محمد شاكر دراية واسعة بالفقه الاسلامي على العموم وقدم ثابتة في علم الحديث على الخصوص، يشهد له بذلك ما يؤلفه الحين بعد الحين. ومن الامثلة كتابه: «نظام الطلاق في الأسلام» (مصر ١٩٣٦)، و «مقدمة سنن الترمذي» (مصر ١٩٣٧). وهذه المقدمة من خير ما كتب في فن الحديث لهذا العهد من جهة وصف المصادر وسياق الأدلة وإقامة المسارد واثبات المراجع، إلى ما ذهب اليه المؤلف من العنف بمن يقلد المستشرقين ويلف لفهم غير مجتهدين

وهذا الكتيب الذي بين يدينا يبحث في طريقة اثبات الشهور العربية: أبالحساب ام بالرؤية؟ ثم ينظر في اعتماد مطلع واحد لتعيين الصوم والفطر وعيد الاضحى. واسلوب المؤلف في البحث والنظر الاخذ بالكتاب والسنة ونبذ التقليد والعصبية وايثار التجديد الصادق على منهاج «السلف الصالح». وقد خرج المؤلف من وراء ذلك الاسلوب بان الشهور العربية تثبت بالحساب فلا يرجع الى الرؤية إلاّ حين يستعصى على الناس العلم بالحساب «كما اذا كان ناس في بادية او قرية، لا تصل اليهم الاخبار الصحيحة الثابتة عن اهل الحساب» (ص ١٤)، وذلك لأن الرؤية كان يؤخذ بها ايام كانت الأمّة «أمّية لا تكتب ولا تحسب». واما اعتماد مطلع واحد لتعيين الصوم والفطر وعيد الأضحى فالذي يراه المؤلف ويرجحه «انه يجب الرجوع الى نقطة واحدة معينة في ذلك، اشير اليها في اصلي الشريعة: الكتاب والسنة، وهي مكة.» وذلك استناداً الى الحديثين المرفوعين: (فطركم يوم تفطرون)، (الصوم يوم تصومون) وقد جاءا خطاباً لأهل الحج في مكان الحج (ص ٢٧)

بشر فارس

مقدمة في الاجتماع

لعبد الفتاح ابرهيم — مطبعة الاهالي، بغداد ١٩٣٩ — ٢٢٣ ص — القطع المتوسط

علم الاجتماع فن حديث بالنسبة الى الفنون الاخرى للفلسفة. وطريقته لا تزال موضع بحث ومراجعة، وتتجه في طور الاستواء والتمكن. إلاّ ان كتباً كثيرة ألفت فيه او على منهاجه. وليس في العربية إلاّ رسائل معدودة، نذكر على وجه التخصيص: علم الاجتماع، لمصطفى فهمي (مصر ١٩٣٨). والكتاب يتناول موضوعات علم الاجتماع النظري فيبحث في روابط المجتمع ومقوماته وتطورة ويحلل النظريتين المثالية والمادية. ومعتمد المؤلف على بعض الاصول الافرنجية ولاسيما الانكليزية منها. ويؤخذ عليه هنا أنهُ كان ينبغي له ان يرجع فيما رجع الى تأليف المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع، وعلى رأس هذه المدرسة دوركايم Durkheim

ب.

مجموعة نادي القلم العراقي

أتحفنا نادي القلم العراقي بالثمرة الاولى من ثمار نشاطهِ فاذا نحن امام مجموعة ممتازة من الفصول في العلم والتاريخ والتربية والسياسة والأدب . وقد نقلنا في هذا الجزء من المقتطف احد فصلين لمعالي رئيسهِ الاستاذ محمد رضا الشبيبي وهو الفصل الذي وضعهُ في « المجريطي » إمام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات. وقد كتب هذا الفصل النفيس على اثر ظفر الاستاذ الشبيبي بنسخة من كتاب المجريطي الذي عنوانهُ « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » وتوفره على دراستهِ واستخراج آراء صاحبه من ثنايا صفحاتهِ

ولمعاليهِ كذلك فصل في قصة فتح بغداد . ويليها فصول لاعضاءِ النادي وهم في طليعة أهل العلم والفضل فتجد هنا بحوثاً في التحليل النفسي ومذهب ديوي في التربية والفلسفة للدكتور محمد فاضل جمالي . ثم بحثان سياسيان اقتصاديان في اقتصاد الوفرة واقتصاد العسر . (ولعلَّ العسر مفضلة على الندرة في هذا المعنى) وفي الدولة بين الواقعيين والمثليين . ثم بحث وافٍ في مشروع التعليم الاجباري في العراق للاستاذ متى عقراوي . ومما نريد ان نشير اليهِ فصل للاستاذ عبد المسيح وزير في صناعة المترجم ، ففيه لباب خبرة مترجم مجيد خبر الترجمة مدخلاً ومخرجاً في علوم شتَّى وحبذا الحال لو توسع في هذا الفصل وجعلهُ رسالة أباح فيها ثمار خبرتهِ للطلبة والصحافيين في البلدان العربية اللسان . وبعد فان الثمرة الأولى من ثمار نادي القلم العراقي تبشّر بخيرٍ عميم للعراق وللبلدان العربية . ومما يقال في الجانب المقابل لهذا اننا لم نظفر من نادي القلم المصري بشيء من هذا القبيل، مع انهُ انشيء من سنوات ويضم فريقاً كبيراً من ادباء مصر وكتابها . ولعل السبب كثرة العناصر غير العربية اللسان فيهِ واكبر همهم الى الادب والاحتفال بالزائرين من كتاب الغرب

الازليان (قصة حلم)

لسليم خياطة — مطابع خياطة طرابلس ١٩٣٩ — ١٦٦ ص . القطع الصغير

كتاب ظريف غريب معاً ، ينعته صاحبه بأنه قصة حلم لانه يدري ان فيه ما يخرج عن نطاق المنطق المتصل . وحسبنا الاشارة الى ان هذا الكتاب يلحق بفن الفكاهة ، وليست الفلسفة فيه الاَّ بقدر. ولكن فكاهته من فكاهة هذا العصر وان بدا فيها أثر « الساق على الساق » للشدياق، وذلك بسبب الالفاظ الحوشية والغريبة (بل المرتجلة) التي ينثرها المؤلف في عباراته . واذا نظرنا الى الادب الافرنجي رددنا بعض ما في هذا الكتاب من الفقر والصور والسياق الى الطريقة التي يعبر عنها بما فوق الواقع ، لما نراه من الشطح في التفكير والاغراب في الأداء

وللكتاب تعليقات لغوية وأدبية جاءت في آخره . وفي رأينا أن التعليقات اللغوية كان يحسن بالمؤلف أن يعدل عنها بالعدول عن استعمال الفاظ مهجورة مماتة في قصته الطريفة ب.

في كتّاب القرية

لمحمد عبد الجواد — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٣٩ — ١٢٥ ص — القطع الكبير

الأستاذ محمد عبد الجواد ممن يشتغل بالتأليف من زمن . فلهُ دروس في التهذيب والتربية ونظرات في نقد اللغة سبق للمقتطف أن تناولها بالنقد . واما هذا الكتاب فيدخل في فن تدوين الذكريات . والذكرى التي يدونها المؤلف أول اتصاله بتلقي العلم في كتّاب القرية .وهي ذكرى حلوة ، ذكرى الطفولة والحداثة .

والذي يعنينا من هذا الكتاب عرضه الظريف للحياة الريفية في مصر ووصفه للتردد على الكتّاب وأخذ مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن . ولذلك يعدُّ هذا الكتاب بعد حين وثيقة تاريخية مصرية ، اما اليوم فقراءتهُ محببة إلى من تشوقه الكتابة السهلة المنجذبة الى التسلية والفكاهة جميعاً . وفي الكتاب صور وألواح تثبت ما يتعلق بالكتّاب وأهل القرية . والكتاب مطبوع طبعاً لطيفاً .وليأذن لنا المؤلف في خاتمة الكلام أن نأخذ عليه اللفظة الفرنسية Filles التي في الصفحة الثانية ، ولعله يستبدل مكانها Jeunes Filles في الطبعة الثانية

ب .

مختارات عالمية من الشعر الغرامي

تأليف ابراهيم المصري . ١١١ ص ، القطع المتوسط . مطبعة دار الهلال ، القاهرة ١٩٣٨

الأستاذ ابراهيم المصري منشىء مترسل ، اقبل على كتابة الموضوعات الاجتماعية ، ولهُ بعد هذا بصر نافذ في النقد ومقدرة على معالجة القصة والمسرحية

وقد رأى أن يخرج للناس « طائفة من اروع الغزل في العالم كله ، مع مراعاتهِ في جمعها لصدق تعبيرها عن نفسية الشاعر وعن روح الأمة التي ينتسب اليها » على حد قولهِ في الكلمة التي صدر بها الكتاب ، والمختارات تنبسط على عدة آداب من اوربية وأسيوية : ففيها الشعر الفرنسي والألماني والمجري والانكليزي والايطالي الى جانب العربي والفارسي والياباني والهندستاني . واعتماد ابراهيم المصري في نقل الشعر على الترجمات الفرنسية المختلفة

والمعلوم أن نقل الشعر من لغة الى لغة مشكلة ومعضلة لأن الشعر — يقوم اكثر ما يقوم — على براعة الأداء وتوليد الاستعارات والتشبيهات . ومثل هذا متصل بروح اللغة المستعملة اتصالاً وثيقاً حتى اذا عمدت الى النقل أغربت أو اعتسفت القول، أو جنيت على الأصل . وقد راجعنا طائفة من المختارات وقابلناها بأصولها ، فوجدناها على جانب عظيم من الأمانة مع مجاراة الذوق العربي والمحافظة على قواعد بلاغة العربية بقدر ما يتيسر ذلك للناقل الأمين مع الافتنان

ب .

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الخامس والتسعين

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي الطيبي

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد اصحاب مكتبة فلسطين العلمية

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في الناصرة وفلسطين القس فريد عوده

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي جريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

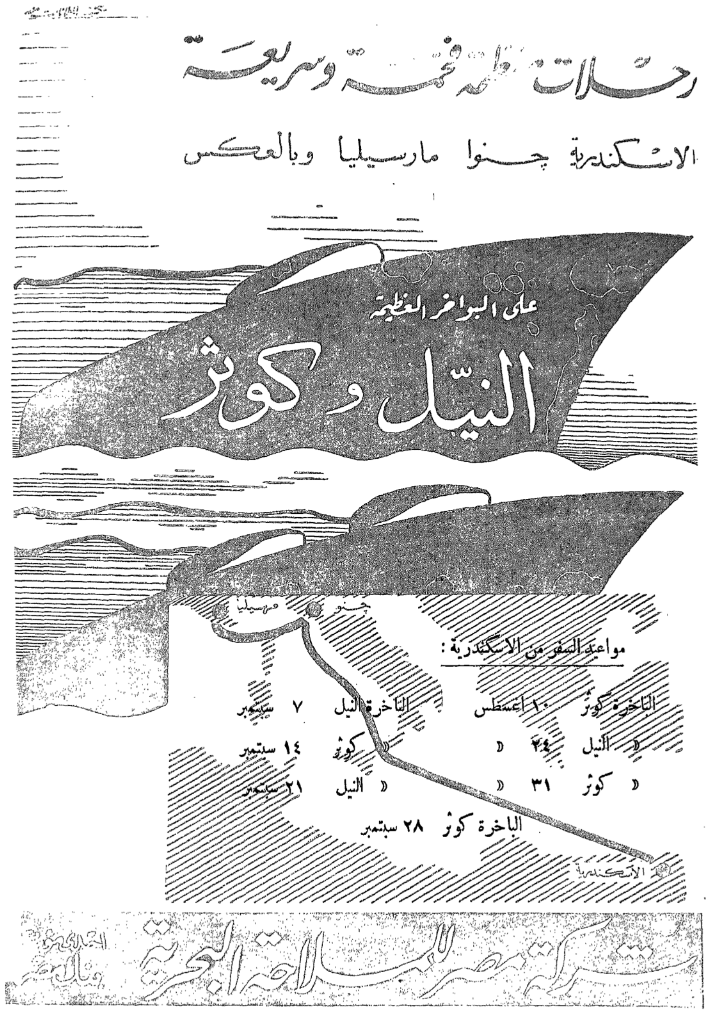
في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Magnib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y.—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

عن سنة		عن سنتين
مليم		
١٠٠	في القطر المصري والسودان	١٨٠
١٢٠	في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»	٢٠٠
١٤٠	العراق «بريد السيارة»	٢٣٠
١٤٠	اي ٧ دولارات لاميركا الشمالية	٢٤٠
١٢٠	اي ٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين	٢٠٠

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]


مكتب اعلانات مصر
ارتدي ياسيدتي حرير مصر الطبيعي
تبدي عظيمة رائعة
ان أصناف الحرير التي تنتجها
مصانع شركة مصر لنسج الحرير
قد تفوقت على جميع أنواع الحرير
الأخرى فضلا عن اعتدال الأسعار
اطلبوا حرير مصر الطبيعية من
شركة بيع المصنوعات المصرية
ومن كافة المحلات الأخرى
شركة مصر لنسج الحرير


رحلات منتظمة فخمة وسريعة
الاسكندرية جنوا مارسيليا وبالعكس
على البواخر العظيمة
النيل وكوثر
مرسيليا
جنوا
مواعيد السفر من الاسكندرية :
الباخرة كوثر ١٠ اغسطس الباخرة النيل ٧ سبتمبر
« النيل ٢٤ « « كوثر ١٤ سبتمبر
« كوثر ٣١ « « النيل ٢١ سبتمبر
الباخرة كوثر ٢٨ سبتمبر
الاسكندرية
شركة مصر للملاحة البحرية
بنك مصر



رسم يمثل اقتراب السيارات الثلاثة ، المريخ والمشتري وزحل من الارض
(راجع الصفحة الاولى من باب الاخبار العلمية في هذا الجزء)

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٣٩ — ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٨



قد تكون الاجابة عن اسهل الاسئلة في بعض الاحيان من اشق الامور . فعلماء الفلك والطبيعة الفلكية في العصر الحديث يعرفون حقائق كثيرة عن طبائع النجوم : أبعادها وأفلاكها ومقدارها واشراقها ، ويعرفون في غير نجم واحدٍ اقطارها الصحيحة . ولكنهم قضوا زمناً قبل ان تمكنوا من الاجابة ، ولو بعض إجابةٍ عن السؤال التالي : ما سبب اشراقها ؟

والاجابة عن هذا السؤال تبدو سهلة عند ما تقول ان سبب اشراق النجوم هو حرارتها . والواقع ان النجوم اجسام مرتفعة الحرارة حتى في طبقاتها الخارجية . ذلك أنهُ إذا لم تكن حرارة الطبقات الخارجية في النجوم أعلى من اشد حرارة تستطيع توليدها في فرنٍ صناعي كان من المتعذر عليها ان تشرق اشراقاً نستطيع تبينه على هذه المسافات الشاسعة التي تفصلها عنا . والعلماء يستطيعون قياس حرارة النجوم كما يقيسون حرارة فرنٍ صناعي من حيث المبدإ أي بقوة الضوء المنبعث ولونهِ . وعلى ذلك وجدوا ان نجماً احمر (وهو نجم بارد بالقياس الى النجوم الاخرى) تتفاوت حرارة سطحهِ من الفي درجة مئوية الى ثلاثة آلاف درجة مئوية . اما حرارة سطح الشمس فتبلغ ٥٧٠٠ درجة مئوية ثم تزداد الحرارة في النجوم البيض الى ١٠ آلاف درجة مئوية وتفوقها الى عشرين الف درجة مئوية في نجوم منطقة الجبار وقد تبلغ ٥٠ الف درجة مئوية في احمى النجوم

وفي استطاعتهم كذلك ان يحسبوا حساباً لما يجب ان يكون عليهِ اشراق نجم ما اذا عرفوا حجمهُ وحرارتهُ وبعده. ولكن ذلك لا يجديهم كثيراً في الاجابة عن السؤال المتقدم: ما سبب اشراقه او اشراق النجوم جميعاً

وقد يحاول بعضهم ان يقول ان سطح النجوم حارٌ لأن باطنها اشد حرارة من السطح فيردُّ عليهم السائل: ولكن كيف تستطيعون النفوذ الى باطن النجوم لتعرفوا انهُ شديد الحرارة؟ والرد على هذا السؤال ان داخل النجوم يجب ان يكون شديد الحرارة، اذا كانت مادة النجوم من نوع المواد التي نتناولها في معامل علم الطبيعة. ان النواميس الطبيعية تقتضي ذلك. واما الادلة على ان مادة النجوم من نوع هذه المواد فتوافرة

تعرف كتلة الشمس من مقدار جذبها للسيارات ثم تحسب كثافتها فاذا هي على المعدل ٤ر١ كثافة الماءِ. ثم إن جذبها لطبقاتها الخارجية، يحدث ضغطاً عظيماً على باطنها. واذا فرضنا أن كثافة الارض موزعة توزيعاً متساوياً في جميع جهاتها فالضغط على مركزها يبلغ ٩٨ مليون طن على البوصة المربعة. ومن المسائل العادية في علم الطبيعة استخراج حرارة كتلة غازية، اذا ضغطت حتى بلغت كثافتها كثافة الارض بضغط من رتبة الضغط على مركز كرة الارض، وإنما يشترط في ذلك ان تكون قواعد تصرُّف الغازات في معمل البحث منطبقة عليها عند تعرُّضها لمثل هذا الضغط العظيم. واذا كان الغاز ذرات ايدروجين فالحرارة تبلغ ٥ر١١ مليون درجة مئوية

ولكن من المرجح الذي في حكم اليقين أن الضغط ليس موزَّعاً بالتساوي وانهُ في الباطن أعظم كثيراً منهُ على السطح ومتفاوت تدرجاً بين المركز والسطح. ولمعرفة درجات الضغط وتفاوتها بين المركز والسطح يجب ان يصنع مثالٌ لتبين ذلك. ولكن زيادة الضغط في المركز يعني تجمع معظم الكتلة فيهِ وحواليهِ، وهذا يزيد جذب الكتلة المركزية للطبقات الخارجية فيزيد الضغط في المركز. ولكن الحسابات المستخرجة من أمثلة مختلفة صنعها العلماءِ لدراسة هذه الظاهرة تدل على أن الزيادة في الضغط والحرارة متكافئتان على العموم. ففي المثال الذي صنعهُ ادنغتون جعل الكثافة المركزية ٥٤ ضعف المعدل فزاد الضغط ٩٢ ضعفاً أي بنسبة ١ الى ٢ تقريباً فكانت زيادة الحرارة — الناشئة عن زيادة الضغط — ٧٠ر١. ثم هناك عالم آخر يدعى ساندراسيخار صنع مثالاً جعل فيهِ الكثافة المركزية ٨٨ ضعف المعدَّل فزاد الضغط ١٧١ ضعفاً أي بنسبة واحد الى ٢ تقريباً وزادت الحرارة ٩٥ ر ١

واذا اخذنا بهذين المثالين ظهر لنا أن حرارة مركز الشمس تبلغ ٠٠٠ر٦٠٠ ر١٩ درجة مئوية للمثال الاول و ٠٠٠ر٤٠٠ ر٢٢ درجة للثاني فارضين أن غاز الشمس هو ذرات الايدروجين وهناك ما يحمل العلماء على الظن ان هذين المثالين يمثلان بناء النجوم الداخلي بوجهٍ عام

ولكن الحرارة يجب ان تتناسب مع الوزن الذري للمادة . فاذا كانت مادة الكتلة من الحديد وجب ان تكون الحرارة ٥٦ ضعف الحرارة المقدرة لكتلة من غاز الايدروجين، اي تبلغ الف مليون درجة . واذن فبحثنا عن طريقة لتعيين حرارة باطن الشمس يتوقف على المادة التي نظن ان كتلة الشمس مؤلفة منها اكثر مما يتوقف على نموذج ضغطها الداخلي

هذا الرأي كان قبل خمس عشرة سنة يبث القلق في اذهان العلماء فلا يجرؤون على المضيّ فيه الى نهايته المنطقية . لأن الرأي كان ان الذرات تحشك معاً بفعل الضغط حتى يغدو من المستحيل ان يكون للضغط مهما يعظم، تأثير في زيادة حشكها وتصغير حجم مجموعها . ولو كانت الذرات اجساماً دقيقة صلبة الكيان لكان لهذا الرأي وجهٌ من الصحة . ولكن عند ما تقدم العلماء في دراسة الذرات تبيَّنوا ان كهربائها تنفصل عنها بفعل الحرارة العالية فلا يبقى من الذرَّات الاّ النوى وهي صغيرة الحجم بحيث يمكن حشك كمية عظيمة منها في مدًى يسير . اي ان المادة مهما تكن تتصرف في باطن النجم كأنها غاز

ولا يخفى ان درجة حرارة الغاز التي تمكنهُ من تحمُّل ضغط عالٍ معيَّن، تتوقف على عدد الجسيمات المتحركة التي فيهِ — لأنهُ من المفروض ان لكل منها شيئاً من طاقة الحركة . فاذا كانت الذرات جميعاً ذرات عنصر الحديد — ووزنها الذري ٥٦ ضعف وزن ذرة الايدروجين — فالحرارة يجب ان تكون ٥٦ ضعف حرارة كتلة من الايدروجين. وهذا يخيّب ظننا بالحسابات المستخرجة من مثالي ادنغتون وشاندراسيخار . ولكن لذرة الحديد ٢٦ كهيرباً خارج النواة فاذا انفصلت جميعاً عن النواة بفعل الحرارة كان عندنا ٢٧ جسيماً (اي ٢٦ كهيرباً والنواة) تتوزع فيما بينها طاقة الذرة . اي ان الحرارة تكون اضعف بعد انفصال الكهيربات عن النواة بنسبة ٥٦ الى ٢٧ اي ٢٠٨ر٢ ومن عجيب الاتفاق — او من عجيب النظام الكوني — انهُ مهما تكن المادة التي تتكون منها الكتلة فالنتيجة واحدة تقريباً . وزن الصوديوم الذري ٢٣ ولكن لذرتهِ ١١ كهيرباً فالنتيجة نسبة ٢٣ الى ١٢ (١١ كهيرباً والنواة) أي ١٩٢ر١ والاكسجين وزنهُ الذري ١٦ ولهُ ثمانية كهيربات فالنتيجة نسبة ١٦ الى ٩ (ثمانية كهيربات ونواة) اي ٧٨ر١

وإذن فتقدير درجة الحرارة في باطن الشمس لا يتوقف كثيراً على تركيبها الكيميائي، ماعدا حالتين . أما الحالة الاولى فعندما تكون الشمس — فرضاً — مؤلفة من غاز الهليوم وعندئذٍ تكون النسبة ١٣٣ر١ وهي أقل كثيراً من النسبة الناشئة من مثالي ادنغتن وشاندراسيخار ومن النسب التي تنطبق على سائر العناصر وهي قريبة كما تقدم من نسبتي أدنغتن وصاحبه. وذلك لان ذرة الهليوم وزنها ٤ ولها كهيربان خارجيان فالنسبة تكون ٤ الى ٣ اي ١٣٣ر١ . وأما الحالة

الثانية فعندما تكون الشمس مؤلفة من غاز الايدروجين لان النسبة المستخرجة على النمط المتقدم تكون ٥ر٠ لأن ذرة الايدروجين قوامها نواة (بروتون) وكهرب ووزنها واحد فالنسبة ١ الى ٢ اي ٥ر٠

فاذا أخذنا بمثال أدنغتن وفرضنا ان الشمس إيدروجين فقط ، استخرجنا حرارتها المركزية مما نعرفهُ من كتلتها وحجمها فاذا هي نحو ١٠ ملايين درجة مئوية . واذا كانت هليوماً كانت حرارتها المركزية ٢٦ مليون درجة مئوية واذا كانت مؤلفة من ذرات العناصر الأخرى عدا هذين العنصرين كانت حرارتها المركزية ٤٠ مليون درجة . واذا أخذنا بمثال شاندراسيخار وجب اضافة ١٥ في المائة الى جميع هذه الارقام

واذا قابلنا بين نجم وآخر ، مصنوعين على نفس المثال ، ومن نفس المادة ، ظهر لنا ان حرارتهما المركزية او حرارتهما في اية نقطتين متقابلتين تختلف باختلاف الكتلة مقسومة على نصف القطر . فكتلة الشعرى مثلاً ٤ر٢ (بالقياس الى كتلة الشمس) ونصف القطر ٨ر١ (بالقياس الى نصف قطر الشمس) واذن فحرارتها المركزية يجب ان تزيد على حرارة الشمس المركزية ٣٠ في المائة . وأكبر النجوم المعروفة نجم يعرف باسم (٢٩ الكلب الاكبر) وهو نجم مزدوج اي نجمان يكسف احدهما الآخر . ان كتلة كبيرهما تفوق كتلة الشمس ٤٦ ضعفاً ونصف قطره يفوق نصف قطرها ٢٠ ضعفاً . واذن فحرارتهُ المركزية يجب ان تكون اكثر قليلاً من ضعف حرارة الشمس المركزية . وفي الناحية المقابلة هناك النجم المعروف باسم الذراع المبسوطة وهو مزدوج كذلك كتلة أحدهما ٦٣ في المائة من كتلة الشمس وقطره ٥٧ في المائة من قطرها ، فحرارتهُ ٩٥ في المائة من حرارتها . وكتلة الآخر — وهما متساويان تقريباً — ٦٦ في المائة من كتلتها وقطره ٦٠ في المائة من قطرها فحرارته نحو ٩٥ في المائة من حرارتها

ونجم الذراع المبسوطة يمثل طائفة من النجوم حرارتها المركزية قريبة جدًّا من حرارة الشمس المركزية . ولكن نجم العيوق ولهُ كتلة تبلغ ٤ر٢ كتلة الشمس وقطره ١٦ ضعف قطرها ، فحرارته الداخلية — اذا تساوت العناصر الاخرى في القضية — يجب ان تكون ربع حرارة الشمس . أما النجم الجبار الاحمر المعروف باسم زيتا اوريجا (ممسك الاعنة) او نجم العنز فكتلتهُ ١٥ ضعف كتلة الشمس وقطره ٢٠٠ ضعف قطرها فحرارته المركزية ٧ في المائة من حرارتها

ولكي يكون البحث من حرارة باطن النجوم ، اقرب الى الصواب ، يتعيَّن على الفلكي الطبيعي أن يتوسَّل بما يمكنهُ من معرفة مقدار الايدروجين والهليوم في باطن النجوم ، لأنَّ حرارة باطن النجوم تزيد أو تنقص بالقياس الى قلة مقدارها أو زيادته

وهذه مسألة تبدو معقدة صعبة ولكن العلم لا يعدم وسيلة الى معالجتها ، والفلكي في بحثه هذا

اشبهُ ما يكون بالشرطي السرّي ، عليه ان يستخرج النتائج بأعمال الفكر واستعمال قواعد المنطق الدقيق، من بضع حقائق ومشاهدات تجمعت لديه . ومن هذه الحقائق ، أن الحرارة التي تنساب من باطن النجم الى سطحه ، تعادل بوجهٍ عام الحرارة التي تنطلق من سطحه في الفضاء

وبدراسة الغازات وطبائعها في المعمل ، والذرات وجسيماتها وما لها من شأن في نقل الحرارة، تبيَّن ادنغتون اولاً ان معدل انسياب الحرارة من باطن النجم الى سطحه يتوقف في الاكثر على كتلة النجم — فمعدل انسياب الحرارة يزداد بازدياد مقدار الكتلة — وقلما يتوقف على قطر النجم او بنائه الداخلي من حيث توزيع الكثافة فيه . ويعتبر استخراج هذه الصلة بين الاشراق والكتلة من أهم القواعد في نظرية بناء النجوم الحديثة

ولكن النظرية نفسها تقتضي ان اشراق النجم يتأثر كثيراً بالمواد التي يتألف منها باطن النجم فاذا كان الباطن كلهُ من عناصر ثقيلة (اي من عناصر عدا الايدروجين والهليوم) كانت حرارة الباطن عالية جدًّا وكان معدَّل ما ينساب منها الى سطح النجم كبيراً وعلى ذلك فيكون اشراق النجم عظيماً . فاذا كان هناك ايدروجين كانت حرارة الباطن أقل ، ومن ثمة تقلُّ الحرارة بزيادة مقدار الايدروجين ، وكذلك يقل اشراق النجم بازدياد مقدار الايدروجين في بنائه الداخلي

فاذا بنى الفلكي الطبيعي حساباته على هاتين القاعدتين وعلى ما يعرفهُ من طبائع الغازات وطبقها على مثال نجم كالمثال الذي صنعهُ أدنغتون للشمس، استطاع ان يعرف مقدار الايدروجين الذي في باطنها . فاذا جعلت الشمس على هذا المثال بغير إيدروجين اطلاقاً كان اشراقها اعظم كثيراً من الحقيقة ، واذا جعل مقدار الايدروجين فيها كبيراً كان اشراقها أقل من الحقيقة . ونتيجة البحث على هذا الاساس في ما يتعلق بالشمس ان ٣٦ في المائة من باطنها وزناً ، إيدروجين، والباقي عناصر ثقيلة وعلى ذلك تكون حرارة باطنها ٢٠ مليون درجة مئوية

***

ولا عبرة على ما يقول ادنغتون بما تكون العناصر التي يتألف منها أل ٦٤ في المائة الباقية من كتلة الشمس . فقد اختلف هو والباحث ستومغرن stomgren في تقديرهما لمزيج العناصر الاخرى ولكنهما وصلا الى نفس النتيجة تقريباً في ما يخصُّ مقدار الايدروجين. والنجوم متقاربة على العموم في ما يخص نسبة الايدروجين في بنائها. فالنسبة في النجم المشرق المعروف بالشعرى تبلغ ٣٦ في المائة وفي العيوق ٢٩ في المائة اذا لم يكن هناك هليوم . ولكن هناك بضعة نجوم تشذُّ عن هذه القاعدة ، منها « زيتا هرقل » فاشراقها يفوق اشراق الشمس اربعة اضعاف مع انها تماثلها في كتلتها وحرارة سطحها . ولذلك فنسبة الايدروجين المقدرة لها ١١ في المائة ، لانهُ اذا قلَّ الايدروجين — كما تقدم — زادت الحرارة

هذه بعض الحقائق التي اسفر عنها البحث الحديث في دراسة النجوم . ولكنها لا تفسّر بوجهٍ من الوجوه سرَّ استمرار اشراق النجوم

كان الظن في اواخر القرن التاسع عشر ان العلم اماط اللثام عن هذا السرّ . فالعلاَّمة هلمهلتز وكلفن من قبله ، بيَّنا انهُ اذا تقلصت الشمس — او اي نجم آخر — تقلصاً بطيئاً ، تحوَّلت طاقتها الجاذبة رويداً رويداً الى حرارة ، فيستنفد نصف هذه الحرارة او اكثر قليلاً لرفع حرارة الباطن ويكون الباقي معدًّا للاطلاق في الفضاء في شكل اشعاع ضوء وحرارة. وفرض ان الشمس تلائم بين مقدار تقلصها اللازم لتوليد الحرارة الكافية لحاجتها في الداخل والاشعاع الخارجي . فتبقى على ذلك مشعةً مدى طويلاً . وعند ما طبقت هذه النظرية على الشمس فسَّرت اشعاعها بالمعدل الحالي مدى ١٥ مليون سنة قبل ان تبلغ حجمها الحالي . وخمسة عشر مليوناً من السنين كانت في اواخر القرن الماضي زمناً طويلاً جدًّا . ولكن الاستناد الى الادلة المستخرجة من وجود العناصر المشعة ومركباتها في الصخور، بيَّن ان الزمن الجيولوجي يستغرق ١٥٠٠ مليون سنة على الأقل، وهو زمن كانت الشمس في خلاله ترسل اشعتها وحرارتها في الفضاء فتأخذ الارض نصيبها منهُ . فكيف استطاعت الشمس خلال هذا الزمن الطويل أن تبقى مشعةً ، ومن أي مصدر كانت — وما زالت — تستمد هذه الطاقة العظيمة التي تسكبها في الفضاءِ ؟

اقترحت آراءٌ مختلفة لتفسير هذا اللغز ؟ ولكنها عند الامتحان وجدت ناقصة . فقيل اولاً ان مادة الشمس تحتوي على عناصر مشعة . ولكن قام الاعتراض على هذا القول من ناحية ان العناصر المشعة تمضي في اشعاعها على وتيرة واحدة ومعدل واحد غير متأثرة بحرارة او ضغط او غيرها . والنجوم تختلف اشعاعاً واشراقاً ، فالقول بان مصدر طاقة الاشعاع هو المواد المشعة التي في النجوم ، يقتضي منا القول بان مقادير هذه المواد وزعت قصداً في النجوم توزيعاً مختلفاً جعل النجوم متفاوتة في الاشراق والاشعاع. والاَّ فاذا كان التوزيع بغير قصد ، فقد يصيب نجم معين قدراً من الاشعاع يزيد على حاجته فيضطر ان يعكس آية هلمهلتز وكلفن، فيتمدد بدل ان يتقلص — لان مقدار الاشعاع لا يتغير — والذي يصيب اقل من حاجته يتقلص ، وقد يمضي الاول في تمدده حتى يصبح سديماً والثاني في تقلصه حتى يغور ، فلا يبقى في الفضاءِ الاَّ النجوم المتوازنة التي اتفق لها ان كان نصيبها من المواد المشعة على قدر حاجتها اليها . وهذا نظام يصعب الأخذ بهِ

***

عند ذلك تطلع علماءُ الفلك الطبيعي الى علم الطبيعة الحديث لعلهم يجدون في نظرياتهِ الجديدة ما يسعفهم على حل المشكلة

وما لبثوا حتى وجدوا معوانهم الاول في نظرية النسبية العامة . فبحسب هذه النظرية الكتلة

والطاقة يتحولان ، احدها الى الآخر . وكان الرأي السابق المشهور المأخوذ به ان المادة تتحول الى مادة ولكنها لاتتلاشى . وان الطاقة تتحول الى طاقة ولكنها لاتتلاشى. فجاء اينشتين وقال ان المادة تتحول الى طاقة والطاقة تتحول الى مادة

فاذا أُخذ بهذه النظرية، فكتلة الجسم تزداد — من الناحية النظرية — برفع حرارته اي باضافة طاقة اليه . والسبب الذي يحول دون قياس زيادة الكتلة بزيادة الحرارة ان الزيادة يسيرة جداً في الاحوال العادية . خذ طناً من الحديد المصهور واتركهُ حتى يبرد الى درجة الحرارة العادية فانهُ يطلق في خلال ذلك ١٥٠ كيلو وط ساعة من الطاقة ولكن كتلتهُ لا تنقص — بفقد هذه الطاقة — الاَّ جزءاً من ١٦٠ جزءاً من المليغرام

ولكن عندما تطبق هذه القاعدة على الاجرام السموية نجد ان الشمس تطلق في الثانية ٣ر٧٨ × ١٠^٣٣ من وحدات الطاقة المعروفة باسم « ارج erg » وهذا المقدار من الطاقة يعدل ٢٠٠٠٠٠ر٤ طن أي ان الشمس تطلق من ذات نفسها اكثر من أربعة ملايين طن في شكل اشعاع في الثانية، او ١٣٠٠ مليون مليون طن في السنة. وهذا أمرٌ يبدو لأول وهلة — اذا صحَّ — باعثاً على القلق . لانهُ اذا مضت الشمس على هذا فما يكون مدى عمرها ؟ والردُّ ١٥ الف مليون سنة

وإذن يقتضي منا بحثنا عن مصدر طاقة النجوم ، ان نبحث عن الاسلوب الذي يتحوَّل بمقتضاهُ بعض كتلة ذراتها الى طاقة

أدركت هذه الحقيقة من عشر سنوات او اكثر قليلاً ، فذهب العلماء — قبل ان تتوافر لديهم الحقائق الناشئة عن التجريب — مذهبين . احدهما يقول ان الذرات تتلاشى ، لتحول كتلتها الى طاقة وهذه الطاقة تشعُّ الى الخارج . والثاني ان ذرات عنصر ما تتحول الى ذرات عنصر آخر ، وان كتلة الذرَّات تنقص في خلال فعل التحوُّل ، أي ان قدراً من الكتلة يتحول طاقة تشع. ولكنهم أهملوا المذهب الاول الآن إذ لم يقم دليل تجريبي عليه

أما المذهب الثاني ، فقد ارتقى من مقام فرض في علم الطبيعة الى مقام حقيقة مجرَّبة . وما على قارىء المقتطف الاَّ الرجوع الى ما كتبناه في خلال السنوات الاخيرة عن تحويل العناصر، واطلاق بعض طاقتها في أثناء التحول ، لتحقق صدق هذا القول (١) .وهذه التجارب التي يواليها العلماء في شتى المعامل الطبيعية بمختلف البلدان تقيم الدليل على ان تحول المادة الى طاقة حقيقة اثبتتها التجارب

والرأي الحديث ان مصدر حرارة الشمس هو في المقام الاول فعل تولد الهليوم من الايدر وجين

(١) راجع محاضرتنا « الاشعاع قديماً وحديثاً » مقتطف فبراير ١٩٣٨ وفي آخر المقال وصف للجهاز الرحوي الذي استنبطه لورنس الاميركي وكيف يستعمل الآن لصنع عناصر مشعه من عناصر غير مشعة الخ

في قلب الشمس. ثم تولد العناصر الاخرى بفعل الضغط والحرارة العظيمين. ولكن تحول الايدروجين الى هليوم هو الاصل. ذلك بأن كتلة اربع ذرات من الايدروجين تبلغ ٤٫٠٣٢٥٢ فهي تفوق كتلة ذرة من الهليوم بمقدار ٠٫٠٢٨٦٦ اي انهُ عندما تندمج اربع ذرات من الايدروجين لتوليد ذرة من الهليوم يتحول مقدار ٠٫٠٢٨٦٦ من الكتلة الى طاقة. وهذا المقدار هو جزء من ١٤١ جزءا من كتلة ذرة الهليوم. وهو مقدار يبدو صغيراً. ولكن اذا كانت الشمس ايدروجيناً اصلاً وتحول الايدروجين الى هليوم، فالطاقة المتولدة من هذا التحول كافية لابقاء الشمس مشعة اشعاعها الحالي ١٠٦ بلايين من السنين وهذا مصدر وافٍ لطاقة اشعاع النجوم

اما التحولات الاخرى — اي تحول العناصر بعضها الى بعض — فتسفر عن تولد قدر اقل من الطاقة. فاذا تحولت اربع ذرات من الهليوم الى اكسجين (اذا كان ذلك مستطاعاً) كان مقدار المادة او الكتلة المتحول طاقة جزءا من ١٠٤٠ جزءا، حالة انهُ في تحول الايدروجين الى هليوم جزء من ١٤١ جزءا

وقد افرغ الدكتور بيث Hans Albrecht Bethe استاذ الطبيعة في جامعة كورنيل هذه الحقائق في قالب نظرية رياضية طبيعية يعدها الدكتور رسل رئيس قسم الفلك في جامعة برنستن وأحد أعلام البحث الفلكي الطبيعي[1] «اهم تقدم في علم الفلك الطبيعي في السنوات الخمس عشرة الاخيرة». والدكتور بيث لم يكتف بدراسة تحول الايدروجين الى هليوم بل تتبع تولد العناصر الاخرى ومقدار ما يتولد من الطاقة في اثناء تولدها

بنقص مقدار الايدروجين يزداد النجم تألقاً ويزداد حجمهُ قليلاً ثم بعد زمن طويل (يقدره بيث باثني عشر بليوناً من السنين للشمس) ينفد الايدروجين فيبدأ النجم في التقلص فيصبح كثيفاً ويقل اشراقهُ. والنجوم الصغيرة الحجم الكثيفة المادة الضعيفة الاشراق معروفة لعلماء الفلك الحديث وهم يطلقون عليها اسم «الاقزام البيض» وهي تتصف عادة بصغر الحجم وارتفاع حرارة السطح وقلة الضياء واول نجم كشف من هذا القبيل هو النجم المعروف باسم رفيق الشعرى. فكثافة مادته تزيد مائتي الف ضعف على كثافة الماء. وهناك نجم آخر من هذا القبيل تزيد كثافة مادته على كثافة الماء سبعة ملايين ضعف ولا تزال الاقزام البيض تشعُّ اشعاعاً ضعيفاً وبه نراها ولولاه لما رؤيت فهي في المراحل الاخيرة من حياتها الاشعاعية قبل ان تتحول أجساماً مظلمة. والشمس على ما يظهر فيها ٣٦ في المائة ايدروجين فهي — بحسب هذه النظرية — سائرة في هذا السبيل

(١) راجع السينتفك اميركان أعداد مايو ويونيو ويوليو ١٩٣٩



الدثار الكهربائي

المحيط بجو الارض

يجعل المواصلات اللاسلكية مستطاعة
وبعض شذوذها مفهوماً

لما فاز ماركوني في سنة ١٩٠١ بارسال الاشارة اللاسلكية الاولى من اوربا الى اميركا، قام بعمل عُدَّ عجيبة في ذلك العصر، لانهُ كان مناقضاً لما يعرف من نواميس الطبيعة. ذلك بأن الرأي العلمي في مستهلّ هذا القرن كان مجمعاً على ان الامواج اللاسلكية تنطلق من المحطة التي تذيعها، فلا تجاري في سيرها تحدُّب الارض، لانها تسير في خطوط مستقيمة كامواج الضوء فتخترق الهواء وتغور في الفضاء. ومن مفاخر ماركوني العلمية ان تثبيط العلماء لهمته من هذه الناحية لم يثنِ عزمهُ فجرَّب تجربتهُ الحاسمة في ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ فتحقق حدسهُ وخاب رأي العلماء، ولكن تجربتهُ دلَّت على ان هناك في طبقات الجوّ العالية حالة كهربائية من شأنها أن تعكس الامواج اللاسلكية فتردها الى الارض. واستخرج هيفيسيد وكنلي واقرانهما اوصاف هذه الحالة استخراجاً نظريًّا، ولكن الدليل التجريبي على وجود طبقة او طبقات في اعالي الجوّ تفعل فعلَ المرآة بالامواج اللاسلكية، لم يقم إلاَّ في سنة ١٩٢٥ وقد اقامهُ حينئذٍ بريْت Breit وتوف Tuve بمعهد كارنيجي بواشنطن والاستاذ ابلتُنْ Appleton في بلاد الانكليز وذلك بفوزهم بعكس امواج لاسلكية عكساً مباشراً من طبقات الجوّ العليا

وقد تقدم البحث في المنطقة المكهربة من جوّ الارض تقدماً عظيماً منذ اجرى هؤلاء الباحثون الثلاثة تجاربهم المتقدمة الذكر. ويطلق على هذه المنطقة اسم «ايونوسفير» Ionosphue أي «الغلاف الكروي المؤيَن». ونحن نعلم الآن ان الشمس هي العامل الفعَّال في إحداث هذه المنطقة بتأيين Ionization دقائق الهواء وجزيئاته. وليست هذه المنطقة طبقة مؤينة واحدة بل طبقات متعددة منها طبقة E وهي اوطأها اي اقربها الى سطح الارض، وهي تعكس الامواج اللاسلكية الطويلة اوالمتوسطة وارتفاعها ستون ميلاً. ثم هناك طبقة F_1 وارتفاعها ١٢٠ ميلاً وهي تعكس امواجاً لاسلكية اقصر من الامواج الاولى. وطبقة F_2 وارتفاعها ١٨٠ ميلاً وهي تعكس امواجاً اقصر من طائفتي الامواج المتقدم ذكرها

ان قدرة هذه الطبقات على عكس الامواج اللاسلكية رهنٌ بعدد الدقائق المكهربة التي في الجو، وهي إما كهيربات ، وإما جزيئات تحوّلت مكهربةً بانفصال اجزاء منها فتعرف بالأيونات Ions أو الشوارد . فاذا كان عدد الكهيربات في البوصة المكعبة من الطبقة مليوناً استطاعت تلك الطبقة أن تعكس موجةً لاسلكية طولها ١٣٠ متراً اذا أصابت الموجةُ الطبقةَ إصابة عمودية . أما الامواج التي اقصر من ذلك فتخترق الطبقة فتعكسها طبقة اخرى فوقها أو تنطلق في الفضاء

ولكن قلّما تصيب الامواج اللاسلكية الطبقات المكهربة اصابة عمودية في اثناء تبادل الاشارات بين المحطات اللاسلكية . والغالب ان تصيبها منحرفة وفي هذه الحالة تستطيع الطبقة أن تعكس موجةً طولها ثلاثة أضعاف طول الموجة التي تعكس اذا أصابتها عموديًّا أي ان الطبقة التي تعكس موجة طولها ١٣٠ متراً اذا أصابتها عموديًّا، تستطيع أن تعكس موجة طولها ٣٩٠ متراً اذا اصابتها منحرفةً . وهذا يوافق ما يعرف عن انعكاس امواج الضوء عن سطوح المرايا

ولما كان كتلة الأيونات أكبر من كتلة الكهيربات ، فتحريكها اعسر من تحريك الكهيربات ولذلك يجب ان يكون عدد الايونات في بوصة مكعبة من الهواء ٣٠ الف ايون لكي تكون لها خواص بوصة مكعبة تحتوي على مليون كهيرب

هذه الحقائق لا تنطبق الاَّ على طبقات «الايونوسفير» العليا حيث لا يكثر اصطدام الكهيربات او الايونات بجزيئات غير مكهربة من غازات الهواء . أما في طبقات الايونوسفير السفلى حيث تكثر جزيئات غازات الهواء فالاصطدام بين الكهيربات والجزيئات يفقدها بعض طاقتها فتعجز عن ردّ الامواج الى سطح الأرض. والغالب أن عدد الكهيربات في هذه الطبقات السفلى من الأيونوسفير قليل فتأثيرها في المواصلات اللاسلكية التجارية البعيدة المدى يسير جدًّا . ولذلك تخترق امواج هذه الاشارات اللاسلكية الطبقات السفلى من الايونوسفير ولا تعكس الاَّ بواسطة الطبقات العليا. ثم أن الطبقات السفلى تمتصُّ في النهار الامواج المعيَّنة للأذاعة وهذا يفسّر تعذر السماع لأذاعة صادرة من محطة بعيدة في اثناء النهار

***

ماذا يكهرب أعالي الجوّ؟ قلنا ان الشمس هي العامل الاقوى في كهربتها ، والمقام الاول بين أشعة الشمس المختلفة في تأيين طبقات الهواء العالية هو للاشعة التي فوق البنفسجي . بل ان بعض الباحثين يعتقد أنها المصدر الوحيد لهذا التأيين . وقد وضع سكليت Skellet جدولاً لمصادر التأيين في طبقات الجو العليا فاذا المكان الاول فيه للاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس وتليه من بعد الشهب والأشعة فوق البنفسجي والأشعة الكونية والاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء البدر . فاذا أخذنا بهذا الجدول ظهر لنا أن طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي

وفعلها في تأيين طبقات الهواء العليا يفوقان عشرة اضعاف طاقة المصادر الاخرى مجتمعة وفعلها. وليس ذلك لان الاشعة التي فوق البنفسجي أقوى فعلاً وأنفذ من الاشعة الكونية مثلاً ولكن لان ما تلتقطهُ الارض منها اكثر كثيراً مما تلتقطهُ من الاشعة الكونية

***

وقد كشف الباحث الاميركي ديلنجر Dellinger من عهد قريب كشفاً يميط اللثام عن بعض أحوال الغلاف المؤيَّن. ذلك ان أمواج الراديو القصيرة تتلاشى فجأة أحياناً، في النصف المضاء من سطح الكرة الارضية. وقد يستمر هذا التلاشي من بضع دقائق الى اكثر من ساعة. وفي هذه الحالة يتعذر الاتصال اللاسلكي على السفن في البحر او الطائرات في الهواءِ او محطات الهواة اذا كان هذا الاتصال بعيد المدى. وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا القبيل. ولوحظ ان هذا التلاشي في الناحية المضاءة من سطح الارض مقترن بأعاصير في الشمس تؤثر في مغنطيسيتها والتيارات الكهربائية التي تسري في قشرتها

وقد درست هذه الظاهرات دراسة دقيقة باشراف معهد كرنيجي وبواسطة مرصديه في هوانكايو في بيرو، وواترلو في غرب استراليا وبواسطة هيئات اخرى. وكانت الطريقة المتبعة في هذه الدراسة اطلاق أمواج لاسلكية قصيرة صوب الغلاف الايوني عشر مرات في الثانية ثم تدوَّن أوقات ارتدادها الى الارض بعد أن تعكسها احدى طبقات الغلاف المؤيَّن. ثم يعمل حساب ارتفاع الطبقة التي ردَّتها بالاستناد الى الوقت الذي استغرقتهُ حتى عودتها. وهي طريقة تستند الى المبدإ المعتمد عند ما تريد ان تقيس بُعد صخر باطلاق صوتٍ صوبهُ ثم قياس المدة المنقضية بين اطلاق الصوت وسمع الصدى. وفي المستطاع ايضاً تقدير عدد الكهيربات في الطبقة العاكسة استناداً الى انهُ كلما قصرت الأمواج زاد عدد الكهيربات في البوصة المكعبة الذي يلزم لعكسها

وعلى ذلك ظهر انهُ عندما تقع ظاهرة التلاشي، يتعذَّر الفوز بعكس الامواج اللاسلكية من طبقات E، F١، F٢، فكأنك واقف أمام مرآة ترى فيها شبحك لانها تعكس أمواج الضوء، ثم لا ترى شيئاً لان المرآة غدت وهي لا تعكس الامواج. فاما أنها انكسرت وهوت شظاياها وإما قام بينها وبينك حجاب صفيق. والتفسير الاول في ما يتعلق بانعكاس الامواج اللاسلكية غير معقول. لذلك فرض ان هناك حجاباً يقوم بين سطح الارض وبين هذه الطبقات المكهربة العاكسة فيحول دون عكس الأمواج اللاسلكية، بل بالحري يحول دون وصول الأمواج اللاسلكية اليها. وهذا الحجاب قوامهُ كهيربات أو ايونات، قائمة على مرتفع يسير اقرب الينا من طبقة E ويجب ان ينظر الى هذه الطبقة نظرنا الى ملاءة تغطي الجانب المضاء من الكرة الارضية ولا تعلو عن سطحها اكثر من ٤٠ الى ٦٠ ميلاً

وقد تقدم معنا ان الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس هي اقوى عامل في احداث الطبقات المكهربة في اعالي الجو فظهور هذه الملاءة التي تحدث تلاشي الامواج اللاسلكية ، على مرتفعات يسيرة فوق سطح الارض ، يقتضي ان تكون الاشعة التي فوق البنفسجي اقوى في هذه الحالة منها في الحالات العادية وهذا يرتد بها الى الاعاصير التي تنتاب سطح الشمس فتقذف الغازات وأهمها الايدروجين في الفضاء المحيط بها . واذا اضيف الى ذلك فعل الكلف[1] ايضاً تيسرت قوة فعالة منطلقة من الشمس قادرة على زيادة فعل التأين في طبقات الهواء القريبة من سطح الارض فتنشأ الملاءة التي تغطيه احياناً فوق نصف المضاء فتحدث ظاهرة التلاشي

ومن غريب ما يقال في هذه الطبقات المؤينة أنها ليست طبقات مستوية محدودبة تحيط بغلاف الارض الغازي كأنها قشرة كرة ، ولكنها لتأثرها بالضوء والحرارة وغيرهما من العوامل دائمة التحرك فتشق فيها الاودية وتبسط السهول وترفع الجبال ، وهذا يفسّر بعض ما يصيب الأذاعات اللاسلكية من شذوذ في بعض الاحيان

ومن الطبيعي ان يخطر للباحث وللقارىء معاً ان يسألا هل وراء او فوق الطبقة F_2 طبقات مؤينة أخرى تردُّ الامواج اللاسلكية القصيرة التي تنفذ من خلال الطبقة F_2 ؟ والردُّ على ذلك ان مهندساً لاسلكيًّا نروجيًّا يدعى هالز Hals لاحظ سنة ١٩٢٧ انهُ سمع اشارة لاسلكية واحدة ثلاث مرات . فبعدما سمع الاشارة الاصلية لبث سُبع ثانية فسمعها ثانيةً كأنها واردة من جهة مقابلة ثم بعد انقضاءِ ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة . أما الصدى الاول (المسموع بعد سبع ثانية) فيمكن تعليلهُ بأنهُ سمع بعد ما دارت الاشارة اللاسلكية حول الارض دورة تامة وهذه الدورة تستغرق سبع ثانية . ولكن من أين جاء الصدى الثالث . ان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قطع ٥٤٨ الف ميل . ثم قيل أن آخرين سمعوا صدى لاشارة لاسلكية معيَّنة بعد انقضاءِ خمس ثوانٍ وان آخرين سمعوا صدًى لاسلكيًّا بعد خمس عشرة ثانية . وأن فريقاً من علماء الفلك الفرنسيين سمعوا مثل هذا الصدى بعد انقضاءِ ثلاثين ثانية على سماع الاشارة الاصلية . وهذا يقتضي أن يكون هناك طبقات معينة تردُّ هذه الامواج اللاسلكية على ابعاد شاسعة فوق سطح الارض . ولذلك اتجه العلماء الى تفسيرها بطبائع الغلاف المؤيَّن المتقلبة فقال فان درپول الهولندي وابلتن الانكليزي أن افضل تعليل لهذه الاصداءِ هو فرض انحصار بعض الامواج اللاسلكية بين طبقتين متغيرتين من الايونوسفير فتتذبذب بينهما بضع ثوانٍ ثم يحدث انفراج أو ثغرة في إحدى الطبقتين فتعود الامواج الى الارض . وهو تعليل لا بأس بهِ ولكنهُ لا يزال موضع بحث وتجريب

(١) راجع مقال « الكلف والاشعة الكونية » مقتطف اغسطس ١٩٣٨

فلسفة سياسي

او سياسة فيلسوف

لعلي أدهم

العصر الحاضر من العصور التي اشتدت فيها العناية بدراسة السياسة والوقوف على مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتعارضة ، وقد كان هذا الاهتمام المتزايد نتيجة مرتقبة لذلك القلق العميق والاضطراب الداخلي المستولي على الروح الانسانية في هذا العصر ، وهناك الآن تجارب جديدة في الحكم واساليب مستحدثة تتحدّى النظم القديمة التي ظلت زمناً فوق منازع الشك ، وقد رأيت من المناسب أن نقف في تلك الفترة على آراء زعيم خطير وسياسي منجذ مثل توماس ماساريك أول رؤساء الجمهورية التشيكوسلوفاكية التي عصفت بها الحوادث الاخيرة ، ويزيد في قيمة آرائهِ انها لم تستمد جميعها من حفير الكتب ولم يكون اكثرها في أبهاء المطالعة وحجرات الدراسة ، وانما نمت وتكونت في ضوء الحوادث الجسيمة ، وهي ثمرة تجربة طويلة وخبرة عريضة ، وسيتبين القارىء من معاريض احاديثه انهُ لا ينتسب الى مدرسة مكيافلي المعروفة ، ولا يرى ذلك التفريق بين السياسة والاخلاق الفاضلة الذي يبلو العالم اليوم المر من ثمراتهِ ، ويذهب بعض المفكرين السياسيين الى ان السياسة فرع من علم النفس لأننا اذا عرفنا الكثير من الحقائق عن الطبيعة الانسانية امكننا ان نستنبط النظم الملائمة لها ولكن ماساريك يرى ان الدراسة التاريخية لها المكانة الاولى لأن التاريخ عندهُ هو سجل الحقائق وهو زاخر بالحقائق النفسية لمن يعرف كيف يقرؤه ، واذا جهلنا التاريخ فاننا لا نستطيع ان نتبين الأثر العملي للدوافع والمحركات النفسية والتبس علينا تقدير نتائجها ، والنظرية السياسية التي تكتفي بالبحث عن الطبيعة الانسانية وتتخذها اساساً لاختيار القوانين والنظم تمنى في أغلب الحالات بالفشل والاخفاق وعلم السياسة انما هو ضرب من فلسفة التاريخ ، وكبار فلاسفة العالم السياسيين كانوا يستمدون فلسفتهم السياسية من التاريخ مثل هوبز ولوك وروسو وكارل ماركس . فالسياسة عند ماساريك يلزم ان تدرس في ضوء التاريخ وان تقوم على اساس تنظيم نتائج تجارب الحكم عند الحكومات والدول المختلفة ، وقد بسط جانباً من هذه الفلسفة في المحاورة الآتية وقد اخترتها من احاديثه مع صديقهِ الكاتب الكبير كارل كابك ، وقد استطاع كابك — قبيل وفاته بقليل — ان يقدم

للعالم بهذه المحادثات خلاصة وافية لآراء زعيم بلاده في السياسة والاجتماع والفلسفة وان يرسم لنا خلالها صورة دقيقة الملامح، قوية الأثر لذلك الزعيم النابه والمفكر الممتاز : —

كابك — هل تعتقد ان شريعة الحب تصلح في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء؟

ماساريك — نعم هي بلا ريب صالحة للحياة على اختلاف ألوانها وللاعمال والافعال جميعها، وكل سياسي أمين راجح التفكير يعمل على تقوية الانسانية في داخل بلاده وفي خارجها ويجاهد لبلوغها مرتبة الكمال ، والسياسة كسائر الاعمال التي تصدر عن الانسان يلزم ان تكون خاضعة لنواميس الاخلاق ، واني اعرف ان هناك فريقاً من السياسيين يخالون انفسهم عمليين وجد حصفاء فلا يحفلون بهذا المطلب ولا يتوخون تلك الغاية ولكن التجربة — ولست اتحدث في هذا المقام عن تجربتي الشخصية وحدها — ترينا ان السياسيين الامناء ذوي الافكار الثاقبة هم الأبلغ تأثيراً والاقدر على النهوض بالاعباء ومواجهة الحوادث وهم يؤدون لوطنهم وحكومتهم اعمالا يشكل عن القيام بامثالها الساسة الذي يسمون انفسهم بالعمليين البارعين ومرور الزمن كفيل باظهار غباثهم وقصر نظرهم

كابك — ولكن الساسة المثاليين قد يخطئهم التوفيق

ماساريك — في بعض الاوقات يصيبون وفي اوقات اخرى يخطئون، واذا كنت اتحدث عن الاخلاق في السياسة فاني واضع نصب عيني في اول الامر الاساليب السياسية والمناورات الحزبية والاعمال الادارية على وجه الاجمال، وممارسة السياسة نفسها يجب ان تكون عملاً اخلاقيًّا والبرنامج السياسي يجب ان يكون متمشياً مع قواعد الاخلاق . وفي مستطاع كل انسان ان يضع برنامجاً سياسيًّا محترماً سامي المبادىء ولكن معرفة الاعمال الادارية شيء والعمل على مزاولتها في رفق واعتدال شيء آخر ، ومعرفة مصلحة الدولة ومنفعة الوطن في اوقات الازمات المتحرجة والمواقف الفاصلة تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولذا تتحدث الناس في مناسبة ذلك عن مسائل السياسة العليا ويفرقون بين رجل الدولة والسياسي الحزبي ، والسياسة في هذا المعنى قائمة على ان يحسن السياسي ادراك الظرف المناسب الذي يخدم فيه امته خلال فيض التاريخ وتوالي الحوادث ومما يعين السياسي على ادراك ذلك وقوفه على تاريخ بلاده ومعرفته لحاضرها وعنايته بمستقبلها ولقد عالجت تلك الحياة وتمرست بصروفها وانا رجل سياسة كما قدمت لك وقد همتني المسائل السياسية منذ كنت غض الشباب، وانت تعلم اني في سنة ١٨٩١ كنت نائباً ثم تنازلت عن النيابة. وكان الدافع الحقيقي لذلك شعوري بعدم نضجي السياسي ، وذلك لانني عندما وقفت على سياسة فينا وعلاقتها باوربا وجدت أنني رغم ماحصلت من علم غير متأهب تمام الأهبة، فبدأت من جديد دراستي السياسية في دقة وتمحيص وحاولت ان أجلو لنفسي مشكلة العصر ، وكان تاريخ أمتي في نظري جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العالم ، ولم يقتصر عملي خلال تلك الفترة على تأليف الكتب

كابك — كنت تعتقد في ذلك الوقت ان السياسة يجب ان تقوم على أسس علمية فهل لا تزال مستمسكاً بهذا الرأي بعد تجربتك الطويلة ؟

ماساريك — نعم ان السياسة علم ويجب ان تكون كذلك على الدوام . حقيقة ان جامعاتنا ليس بها أساتذة لتلقين السياسة ، والسياسة عندنا تدرس من حيث هي فرع من علم الاجتماع وناحية من نواحي القانون وجانب من جوانب الفلسفة ، وقد خصصت لها في بعض الامم الاخرى مناصب وكثرت فيها المؤلفات واتسعت بحوثها ، وأمامنا مرحلة لا بد لنا من اجتيازها قبل أن نعمل على انشاء منصب استاذ لدراسة السياسة في جامعاتنا

كابك — وهل ترى ان البون شاسع بين السياسة العلمية والسياسة العملية البرلمانية ؟

ماساريك — نعم وكيف لا يكون كذلك ؟ ولكن يوجد كذلك خلاف بين آراء الجماهير التي تؤم الكنائس وآراء المستنيرين من رجال الدين ، وليس الفرق بين الرجل العادي والمحامي الذي درس القانون بأقل من ذلك ، ولكني اذا كنت أقول بالسياسة النظرية العلمية فاني لا أنسى الفرق بين العملي والنظري ، ومما يسترعي النظر في تقدمنا السياسي ان بعض رؤساء الحكومة وقادة الاحزاب وأعضاء البرلمان لم يتلقوا تعليماً جامعياً ولكنهم برغم ذلك قد تزعموا الاحزاب وألقيت اليهم مقاليد الأمور وإني اعتقد ان السياسة العليا تستلزم اعداداً نظرياً ولكني أصرح مع ذلك ان حزمة من الاجازات العلمية لا تغني عن المواهب الطبيعية ، ولا تنس كذلك الناحية الاخلاقية لان الاطلاع والعلم واجتياز الامتحانات والحصول على الاجازات والالقاب والدرجات ليس دليلاً على الشرف والشجاعة والاعتدال

كابك — اسمح لي بسؤال لا أريد بهِ شخصك ، عندما تتكلم عن السياسة من حيث هي علم ما هي علاقة السياسة بالفلسفة ؟

ماساريك — تريد ان يكون سؤالك غير شخصي ولكنك في هذا السؤال شخصي الى أقصى حدّ لأنك تريد ان تقول أني قد انتقلت من منصب أستاذ في الجامعة الى مسند رآسة الجمهورية وسأحاول في الاجابة عن سؤالك ان أتجرد من شخصيتي . ولعلك تذكر أفلاطون وارسطو وسنت اغسطين وتوما الاكويني وأمثالهم ، ولقد كان الفلاسفة على الدوام معنيين بالمسائل الفلسفية ، والنظريات السياسية هي صورة من صور التفكير الفلسفي وقد كان ذلك نتيجة لتلك العلاقة الأكيدة بين الاخلاق والسياسات ، ولقد كانت الاخلاق على الدوام جزءاً من الفلسفة وفي العصور الحديثة استقل عن الفلسفة علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وهما علمان سياسيان ، وكل علم يعتمد في ناحية من نواحيهِ على الفلسفة ويستند من ناحية اخرى الى الحياة العملية

وللفلسفة علاقة مباشرة بالاخلاق لأنها تحاول ان تكوّن صورة عامّة للحياة والدنيا ، والحكومة في العصر الحاضر تستغرق جميع فروع الادارة الاجتماعية فهي من ناحية عملية

تجاهد وراء ما تقصد اليه الفلسفة. وعلى هذا الاساس يجب ان تفهم ما رمى اليه افلاطون الذي اراد ان يكون الحكام فلاسفة ، والسياسي الحديث يلزم ان يكون قوي الناقدة غزير العلم صادق الحكمة . والسياسي الذي يتصدى للقيادة يلزم ان يكون خبيراً بالرجال طبًّا باسرار الزعامة وما معنى الزعامة اذا اعجزه النفاذ الى قلوب الناس والولوج الى سرائرهم ؟ ولا تنس ان الفلاسفة او العلماء قد يتورطون في الاخطاء . واكرر ان الكتب او الاجازات ليست كافية لأن الرجل السياسي في حاجة الى التجربة والبراعة وحدها ليست مجدية

كابك — اراك تؤكد العلاقة بين التاريخ والسياسة

ماساريك — نعم وانت تعرف اهتمامي بمادَّة التاريخ ، ولقد كنت على الدوام معنيًّا بالدروس التي تفيدها سياستنا من التاريخ ، ولست ادعي اني مؤرخ ولكن عقيدتي الغائية كانت تستحثني لتبين معنى الدنيا وفحوى اعمالنا وكم اجهدت فكري في ذلك ، وانا التمس المعرفة من المؤرخين ولكني في الوقت نفسه اراقب سير الحوادث في بلادي وفي غيرها وفي مدى يجاوز نصف قرن يستطيع الانسان ان يرى كثيراً وان تتسع امامهُ منادح التفكير وتتكاثر موضوعاتهُ، وقد طالما رددت ان سياستنا يجب ان تقوم على اساس عالمي وان يكون اتجاهنا دوليًّا

كابك — وهل ترى ان السياسة الخارجية اجلُّ شأناً من السياسة الداخلية

ماساريك — في بعض الاوقات ترجح كفة السياسة الداخلية ولكن في المدى المتطاول ستلتقي السياسات الداخلية في الامم والسياسات الخارجية، وسياستنا تفرض علينا ان نكون يقظين لما يحدث حولنا وتحتم علينا مراقبة الاتجاهات والتيارات. وانا اتصور السياسات العالمية تصوراً عمليًّا فهي يلزم ان تقوم على دراسة الدنيا وتاريخها وهي تقتضي ان نكون واقفين على ما يحدث حولنا وما يتصل بشؤوننا، ولا يهولنك ذلك فاني لا أوصي بالابتداء من عهد آدم ولا اقول بالانغماس في تاريخ الدنيا بأسره اذ يكفيني تاريخ اوربا وذلك الجزء من آسيا وافريقية الذي ارتبط تاريخه بتاريخها

كابك — الحدود التي ذكرتها هي على وجه التقريب حدود الجنس الابيض

ماساريك — نعم على وجه التقريب ولنترك آسيا الأسيوية، وآسيا الأوربية أو اوربا الاسيوية. إن جميع الامم القائمة على شواطىء البحر المتوسط قد امتزجت ثقافتها وكثرت العلاقات بينها وفي هذا الجزء من الكرة الارضية بدأ التوفيق بين مختلف المذاهب واللغات والسكان

ومن المظاهر الباهرة انهُ في ذلك الجزء نهضت الحضارات من أقدم الازمنة وجاء تباعاً البابليون والاشوريون والايرانيون والدول المصرية ، وقد انقسم الاغريق شيعاً واحزاباً ولكن الاثينيين حاولوا ان يوحدوا الأمة الهيلينية بعد ان نجحوا في رد غارة الفرس ، وبظهور الاسكندر جاءت الى عالم الوجود امبراطورية ضخمة تضم اليونان ومصر وجميع الاجزاء التي كانت معروفة في آسيا لذلك العهد ، وبعد عهد الاسكندر انهارت دولته وتصدعت أركانها ولكنها لم

تتحطم ثقافياً، وقد غزت الثقافة اليونانية روما وأوغلت في الغرب ، وقامت بعد الاسكندر دولة الرومان وقد شملت اليونان ومصر وشمال افريقية واستولت في الشرق على الولايات التي ضمها الاسكندر الى امبراطوريته وانتزعت في الغرب إيبريا وبلاد السلت والالمان، ثم انشطرت الدولة الرومانية شطرين وقد بقي القسم الشرقي في بيزانطة بعد انهيار القسم الغربي، ثم قامت في الغرب دول عظيمة منها دولة الفرانك والدولة الرومانية المقدسة ودولة أسبانيا والنمسا

كابك — ودولة الاسلام ومحاولة السويديين اخضاع شمال اوربا

ماساريك — نعم وفي العصور الحديثة نهض نابليون وظهرت قوة الانكليز والولايات المتحدة والروسيا وتمت الوحدة الايطالية واصبحت ايطاليا تحاول بسط سيادتها على البحر المتوسط

وهذا الدافع الى طلب القوة السياسية ظاهر كذلك في تاريخ الولايات الصغيرة فدولتنا البوهيمية القديمة كانت الى حد ما قوة عالمية ومن الجائز ان يقال مثل ذلك عن بولندة وبلاد الصرب والبلغار ، ففي كل زمان وبكل مكان نلتقي بهذا الدافع الذي يسوق الأمم الى التوسع خارج نطاقها والى أن تضم دولاً اخرى . ولقد كان للعوامل الجغرافية اثر كبير في نشوء الدول العظيمة مثل الجبال والانهار الكبيرة كالنيل والدانوب والراين وعلى الاخص البحر ، وفي تاريخ الغرب كان للبحر المتوسط شأن سياسي بارز ونفس اسمه يدل على ما كان له من أثر في ربط الامم القائمة على شواطئه وبخاصة الاغريق والرومان والفينيقيين. ولم تتقدم الملاحة في المحيط الاطلسي الا في العصور الحديثة وهو الصلة بين اميركا واوربا وقد عَلَت منزلة المحيط الباسيفيكي وهو اليوم الصلة بين اميركا والشرق الاقصى وبذلك اصبحت الصين واليابان والهند مرتبطة باميركا واوربا

ولقد نشأت تلك الدول العظيمة مدفوعة بدافع الرغبة في التملك وحب الغزو ولكن التفاهم المتبادل بين الامم الغالبة والامم المغلوبة كان لازماً، ومن ثمَّ نشأت الروابط الثقافية وبذلك بلغت الروح مالم يبلغهُ حد السيف، ولقد كان اليونان من اكبر دعاة الثقافة وناشري لوائها وفي عهد الاسكندر وبعده صارت اللغة اليونانية لغة عالمية في أوربا وآسيا وافريقية ، واذا تأملنا الحركة التاريخية وجدنا ان الأمم لا تستطيع ان تعيش في عزلة، والجنس البشري منذ أقدم الأزمنة يتجه تدريجيًّا في سبيل الوحدة وتاريخ الفتوحات والثقافات والدول الخوالي يرينا ذلك في صورة واضحة ، لقد كانت الحرب الكبرى هي المرحلة الأخيرة في سبيل هذا التقدم

والمسألة الآن هي هل يتم تنظيم قوى الحكومات والأمم بالغزو والاخضاع او بالسلام والتحالف والاتفاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية ؟ لقد وضعت عصبة الأمم بعد الحرب الكبرى برنامج التنظيم السلمي للدنيا وقامت حركات كبيرة وعقدت اجتماعات جمة لتقريب العلاقات بين الامم ويجوز لنا ان نقول أننا نقف الآن على ابواب التنظيم العالمي الصادق . ولقد أطلت عليك الحديث ولكن نظرة الى الماضي تزودنا بالكثير مما ينفع في الحاضر والمستقبل

يعقوب صروف

و « الاشياء الباقية » في الحياة

الذكرى الثانية عشرة لوفاته (1)

لست ادري كيف اوجّه شكر الى محطة الاذاعة الفلسطينية ، لعنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق الفكرية والاجتماعية . فالكلام عاجز عن اداء هذه المهمة على اوفى وجه ،وذلك لأن عمل المحطة في الواقع عمل كبير الشأن عظيم الأثر بإذن الله

فنحن مجتاز فترة من حياة الشعوب ، انقلبت فيها الاوضاع ، وطفا على وجه الغمر كل عابر من الصفات والقيم الانسانية ، فحجب كل راسخ مقيم من السجايا والمناقب . وهذا ولا ريب متأثر بهذه الحضارة الآلية التي تبغي السرعة للسرعة ، او هي تبغي السرعة لتحقيق غرض آخر في الحياة هو تخفيف عبء العمل وتوسيع نطاق الفراغ في سبيل الثقافة والرياضة ، ولكنهُ ، غرض على نبله ، لم تألفه الناس ، ولا تعودتهُ الاخلاق الاجتماعية والنظم الصناعية ، فبُهرنا بالوسيلة، وأهملنا الغرض. وليس ثمة ريب ، في ان عناية الناس الآن ، بالدائم الاصيل من النوازع العالية والاخلاق النبيلة والقيم الاساسية في حياة الافراد والاجتماع ، اقل من عنايتهم بكل ما يبهر الطرف ويخطف البصر ويؤتي ثمراً عاجلاً . ولا تكون العودة الى النهج القويم، في اصلاح الحياة والسموّ بها ، نهج العناية بما ينفع الناس،نهج التأمل في حقائق الحياة لاستخراج اصولها الصحيحة العميقة،الا بالعودة الى عظماء الرجال ، ودراسة حياتهم ، واستكشاف فضائلهم ومناقبهم واذاعتها . فليس من العبث ، ان تمر السنون وتكر القرون ،وأسماؤهم كالمشاكي تتألق في صفحات تاريخ الفكر والاجتماع ، تضيء الطريق الوعر للسالكين. «أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

والواقع ان الحياة عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم ، واقدام الرواد وفناء اشخاصهم الفانية في سبيل الخير العام . هم ينقونها من الادران . ويخففون من وقع

---

(1) حديث لرئيس تحرير المقتطف اذيع من محطة الاذاعة الفلسطينية في مساء ٧ يوليو ١٩٣٩ على ذكر انقضاء اثنتي عشرة سنة على وفاة الدكتور يعقوب صروف

عبئها على الكواهل . بل ان الحياة لا تعذب ، وقد لا تحتمل الاَّ في صحبتهم او في كنفهم .
ومن محاسن الحضارة الحديثة ، انها تتيح لك صحبة الانبياء والفلاسفة والشعراء والعلماء والرواد ، في تراجمهم ومؤلفاتهم ، وفي ما يكتب ويذاع عنهم ، ومن هنا كان فضل محطة الاذاعة الفلسطينية في عنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق . ومن هنا كان شكرها شكراً وافياً من الامور التي يعجز عنها الكلام

وقد اتاحت لي الحياة ان اصحب واعيش في كنف احد هؤلاء الرجال ، وما فتئت روحهُ تطالعني كلَّ يوم من صورتهِ النضرة وسبعين مجلداً من المقتطف — صدرت في عهده — مصطفة أمامي . وقد تردَّدت كثيراً قبل تلبية طلب المحطة في اذاعة حديث عنهُ لما بين الاسمين من صلة القربى ، ولكن الرجل مضى الى لقاء ربهِ من اثنتي عشرة سنة ، نضر الوجه طاهر الذيل جزيل النفع ، فهو في غنى عمَّا نقولهُ فيهِ ، ولكننا لسنا في غنىً عمَّا في حياتهِ الحافلة من العِبَر . فانا عند ما اروي في الدقائق التالية نواحي من حياتهِ ، اجرّد نفسي من صلة الاسم والقرابة — على فخري بهما — واقف موقف واحد من ابناءِ الامم العربية اللسان تجاه هذا الرجل الذي كان ركناً اصيلاً من اركان النهضة الفكرية والاجتماعية فيها

من مزايا الدكتور يعقوب صرُّوف ، أنهُ كان رجلاً جمع بين الذهن المتوقد والخلق النبيل ، أي العلم والفضيلة ، فكانت حياتهُ حافلة بالنفع

ولو نشأ صاحب هذا الذهن في بيئة تأصلت فيها تقاليد العلم ووطئت مسالكهُ ، لكان على الغالب من العلماء المبدعين الذين تنسب اليهم النظريات والمذاهب العلمية والفلسفية . ولكنهُ نشأ في بيئةٍ كانت قد انقطعت صلتها بسير العلوم منذ القرن الثالث عشر على العموم ، وغلبت عليها أساليب من البحث تمتُّ الى الأدب واللغة والفقه بصلة قوية . نشأ متزوداً من اصول العلم الحديث بقدر وافرٍ هيأهُ لأن يكون من رؤوس روَّاد عصر جديد . ونحن اذا طوينا الف سنة تقريباً فرجعنا الى مستهل نهضة العلوم في العصر العباسي ، رأينا ان نهضة النقل والترجمة كانت التوطئة التي لا بدَّ منها ، لتلقيح الفكر العربي الخصب ، بلقاح العلوم والفنون المنقولة عن اليونان والهند . واذا اتخذنا من جمهور المترجمين والنقلة في ذلك العهد ، من يمثّلهم في شخص حنين بن اسحق ، فإننا لا نقع على ندٍّ لهُ الاَّ بعد الف سنةٍ تقريباً في شخص يعقوب صرُّوف

تلقى العلوم في الكلية السورية الانجيلية ببيروت — وهي المعروفة الآن بجامعة بيروت الاميركية — وكأن الطبيعة ارادت ان تهيئهُ خاصة لعمله العظيم ، عمل تلقيح الذهن العربي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بلقاح العلوم الغربية الآخذة في التفتح والازدهار في ديار الغرب ، فأتاحت له ان يدرّس مدى أربع عشرة سنة في جامعة بيروت الاميركية ، العلوم

الرياضية فالعلوم الطبيعية والكيميائية ، فآداب اللغة العربية وقواعدها . فاستكملت بذلك عدته ، من اطلاع واسع وفهم دقيق لأصول العلوم الطبيعية الحديثة وطرائق العلم التجريبي ، وقلم بليغ في سهولة وامتناع ، يرتد الى أبلغ الاساليب العربية في صدر الاسلام

فلما حدثت نفسه ونفس زميله وشقيقه الروحي الدكتور فارس نمر باشا — مد الله عمره — باصدار مجلة المقتطف ، كان الصديقان قد اقتسما فيما بينهما أهم طائفة من العلوم الحديثة فاشتركا في العمل إحدى وخمسين سنة متواصلة ، ولا آصرة بينهما من قرابة او نسب ، وانما كانت آصرة التآخي الروحي والاخلاص للعلم وللخير العام ، أوثق وأمتن . وأنت تمضي في مطالعة سبعين مجلداً ضخماً من المقتطف منذ صدوره الى حين وفاة الدكتور صروف في ١٩٢٧ فلا تعرف من منهما منشىء المقالات فيها ، حتى لقد غدت كلمة « أحدنا » تؤثر عنهما للدلالة على اتحادهما في هذا العمل الفكري العظيم ، مع ان الدكتور صروف عكف على انشاء المقتطف خاصًّا اياه بعنايته دون أخيه ، حالة ان الدكتور نمر اضطر ان يقف معظم وقته على المقطم ، ولا يزال عندما تسمح له أعماله بدقائق من الفراغ ، يتحسر على ان مقتضيات العمل ، حكمت عليه بأن ينصرف عن العمل العلمي الذي نشأ وترعرع فيه ، وملك عليه أسباب حبه

إن الخطة العلمية التي وضعها منشئا المقتطف وجريا عليها وجرى عليها من أؤتمن عليها ، مدى ثلاثة وستين عاماً ، جعلته الصلة الفكرية الموثقة بين الشرق الحديث والغرب الحديث . فنشر من المقتطف حتى وفاة الدكتور صروف فى مثل هذا اليوم من اثنتي عشرة سنة اكثر من سبعين مجلداً في ما لا يقل عن خمسين الى ستين الف صفحة ضمت فصولاً مطولة وموجزة ونبذاً في شتى فروع المعرفة الانسانية . في ساحتها التقت أقلام الكتّاب والمفكرين بافهام القراء . وهذا الالتقاء ولد احتكاكاً والاحتكاك بعث في العقول والنفوس نوراً وناراً

فمجلة المقتطف كانت باشراف الدكتور صروف وبما دونه فيها من حقائق العلوم ومتخيّر الآراء والمذاهب العلمية والفلسفية والاجتماعية ، وما راجعه ووافق على نشره فيها من أقلام الكتاب ، تأخذ باليمين لتعطي باليسار ، تأخذ من العالم والمستنبط والفيلسوف لتعطي الزارع والتاجر والصانع والمدرس والطالب وربة البيت . فكانت بذلك صلة بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق العملي . كانت مرتبة متوسطة بين مباحث العلماء الفنية الدقيقة ، ومدارك الجمهور الذي يطلب الحقائق واضحة جلية ، تقبلها العقول وتسيغها الافهام . والعلم لا يرتقي ولا ينال قسطه من الذيوع والتأييد ، ولا تجنى الفوائد التي يجب ان تجنى منه الا اذا اتصلت نتائج المباحث العلمية بمقتضيات العمران وتغلغلت في كل مصدر من مصادر حياة الفرد والمجتمع . لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين ككشفها وتحقيقها ، وهذا البسط والنشر جانب من المهمة العظيمة التي أخذها منشئا

المقتطف على عاتقهما عندما عزما في ذلك اليوم التاريخي في بيروت ان ينشئا «مجلة علمية صناعية». ولا يسعني الاَّ الظن بأنهُ اذا جاء المؤرخ في المستقبل، يحاول ان يكتب تاريخ النهضة الشرقية الحديثة على قاعدتين من الانصاف والتحقيق، فانهُ لا يستطيع ان يغفل ذكر المقتطف وذكر الدكتور صروف الذي اقترن بهِ حتى أصبحا متلازمين. ذلك بأن النهضة في أمةٍ ما تبدأ اولاً في صدور النخبة من ابنائها وعقولهم. واكثر هذه النخبة من أبناء الشرق العربي من اواخر القرن الماضي الى اواخر الربع الاول من هذا القرن، يشهدون بأن المقتطف كان« معلمهم » ومن هنا أطلقوا عليهِ « المعلم الثاني » باعتبار ارسطوطاليس « المعلم الاول »

هذا العمل العظيم الذي لايتسع الوقت الاَّ لوصفهِ بايجاز، ماكان في الاستطاعة لولا تلك الفضائل الاساسية في خلق الرجل الذي وقف حياتهُ عليهِ، حبٌّ راسخٌ للعلم وللخير العام، ومثابرة لا تسترخي، وتحقيق وتدقيق لايحرفهما التسرع في المعالجة. وهذه مناقب تتصل بخلق الرجل بعد ان لحنا ناحية من ذهنهِ

والعظمة في الرجال ينظر اليها من ناحيتين، من ناحية النفع الذي تصيبهُ الامة التي ينتمون اليها وسائر الامم من بعد. ومن ناحية السمو والنبل في حياتهم الخاصة وعلاقتهم بالناس

أما الناحية الاولى في حياة الدكتور صروف، فتمثلة في ما أصابهُ « المقتطف» والدكتور صروف نفسه، من مكانة عند كبار الامم العربية من ملوكها وأمرائها الى وزرائها وعلمائها وكتابها، وعند فريق غيريسير من علماءِ الغرب، وما أسداه من خدمة الى تحرير العقول وتثقيفها ببسط العلوم الحديثة والحثّ على الأخذ بهاوبطرائقها. وحسبي ان أشير هنا الى عبارة وردت في خطبة توفيق رفعت باشا رئيس لجنة عيد المقتطف الذهبي الذي شمل برعاية المغفور لهُ الملك فؤاد الاول قال:

«وأنهُ وان أتيح لبيروت ان كانت مهد طفولة المقتطف ومبزغ قرن شمسهِ، فان لمصر ان تفخر بأنها مهد إيناعهِ بايفاعهِ، ومرقاة اكتماله باكتهاله، وما تعميرهُ في الشرق الى الخمسين، الاَّ ناجمة يؤبه لها ونادرة يلتفت اليها. وان مصر وهي المتعطشة الى استعادة مجدها العلمي الذاهب لاتزال جيدة التربة طيبة المنبت كريمة الجوهر. فكلما حيَّاها صيِّب او جادها غيث اعشوشبت وتألق جوهرها. فأصحاب المقتطف قد شمَّروا عن ساعد الجدّ وجمعوا الى غزارة المادة مضاءَ العزيمة في إخصاب هذه التربة الجيدة.. .ان مصر الشاكرة دائماً من يعاونونها في شؤونها تاصرت على معاضدة المقتطف بنشره في دور العلم ومعاهد التعليم ... عمَّره الله للعلم الى مئين السنين ونضَّر الله وجه ذويه »

ولا يتسع المقام لاقتباس عبارات موجزة من أقوال سائر الخطباءِ والشعراءِ في عيد المقتطف او في حفلة تأبين الدكتور صروف. ولعلَّ قول المغفور لهُ حافظ ابراهيم

إني قرأتك في الكهولة والصبا ... وملأت من ثمر العقول وطابي

وقول شوقي : مشينا بنوري علمها وبيانها ... فلم نسر الا في شعاع شهاب

وعشنا بها جيلين قمت عليهما ... معلم نشء او إمام شباب

يعبّران عما في نفوس الوف من ابناء مصر وسوريا وفلسطين والعراق حيال المقتطف

واما الناحية الاخرى من حياة الدكتور صروف فهي الناحية الذاتية وقد كان في مناقبه العقلية والخلقية على ما وصفهُ الامير شكيب ارسلان : « مما لا أجده الا في النادر الأندر من البشر . ولاشك انهُ اذا كان أعلى أفقٍ من الناس متصلاً بأقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا طيب الذكر في الفوج الاول من الآدميين الفارطين الى ذلك الأفق العالي »

فقد اقتنى الدكتور صروف اطياناً كان يراها كلها في المقام الثاني بعد المقتطف وما كان ينفق عليها من العناية والوقت عشر معشار ما ينفق منهما على هذه المجلة التي كان يحبها كولده ولا يهنأ لهُ عيش الا اذا تم عمله فيها على الوجه الاكمل وأتيح لهُ المحافظة على رسالتها العلمية الرفيعة

وكان مثلاً حيًّا للتسامح المسيحي وله في ذلك نوادر يصح ان تجري مجرى الامثال منها ان خصماً صحفيًّا مشهوراً في اشتداد حملته على المقطم جاء — وقد نفد الورق من مخزنه — يطلب ملفات ورق لطبع جريدته من مدير المقطم. فلما سئل الدكتور صروف في ذلك لم يزد على قوله « ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقه .... »

وكان مستقيماً كالرمح لا يحيد عن الصدق في القول والعمل قيد شعره. جاءه يوماً رجل عزيز عندهُ وطلب منهُ وساطة عند وزير على ان لا يعلم الوزير ان هذا الرجل في القاهرة . فقال الدكتور صروف «لا استطيع ان اقول غير الصدق . سافر من القاهرة وأنا ابلغك ما يتمّ»

وكان وديع النفس لا يأنف من مقابلة اصغر الطلبة ومحادثتهم وارشادهم وتقبل آرائهم اذا كان فيها صواب، وعندي عشرات من الامثلة على احداث اتوه متهيبين فخرجوا من مكتبه وكأنهم خارجون من حضرة والد حنون . وقد حدثني أحد الكتاب المشهورين بأنهُ رأى، وهو شابٌّ، مأخذاً على بعض ما نشر في المقتطف فذهب الى مقابلة الدكتور صروف وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى فأحسن وفادتهُ وقبل نقدهُ ونشرهُ فكان ذلك الحافز الاول الذي دفع صاحبنا الى المضي في الكتابة . وكان ابيَّ النفس لا يرضى عن الإباء والكرامة بديلاً. جاءهُ مدير اعماله يوماً وقال لهُ اذا حدثت فلان في القضية الفلانية فقد نوفر مبلغاً لا يستهان بهِ . فقال اخشى ان لا اصيب عندهُ ما يرضيني . كام الخسارة المقدَّرة .... لتكن من حساب مما خسرنا او كسبنا

وكان وطنيًّا صادق العقيدة منزهاً عن الاهواء ، اشترك في شبابهِ في الجمعية الثورية الاولى في لبنان ، على ما حدثني بذلك الدكتور نمر ، وكان من اشدّ اعضائها حماسة ، وشارك

مصر في نهضتها فكان لا يقول إلاَّ ما يراهُ صدقاً وخيراً ، فكان صديقاً مقرباً من جميع أقطاب فرقها السياسية بلا استثناء

وكان يؤمن بالحياة الأخرى ايماناً فلسفيا وكثيراً ما كانت الفلسفة مشكاة وسبيلاً الى كشف الحقائق . ولذلك كان الدكتور صروف يحاول ويتمنى ان يتاح لهُ اثبات الحياة الأخرى عن طريق العلم

هذا بعض ما أتيح ذكره في هذا الحديث . ويقيني انهُ عاش خمساً وسبعين سنة لم يأت اثماً وهو يعلم انهُ أثم ، ولم يضرَّ أحداً وهو يعلم انهُ يضرُّ ، بذل حياتهُ كلها للخير الخاص والخير العام . وان عناية محطة الاذاعة الفلسطينية باحياء ذكراهُ وذكرى غيره من العاملين لدليل على ان العلم والفضيلة اذا اجتمعا في رجلٍ ، فالزمان لا ينسج على اسمهِ او عبير حياتهِ خيوط النسيان . وفي هذا عبرة لنا ، نحن أبناء هذا العصر الذي يكاد يكون مصروعاً بجنون السرعة والثمر المعجّل . ان طريق الخلاص انما هو في العود الى الفضائل الاساسية التي أثبت اختبار البشر خلال الوف السنين انها « الاشياء الباقية »

كلمات للدكتور صروف

فضائل الحرب والسلم

الفضائل التي يدعي أهل الحرب ان الحرب توجدها او تمكنها في النفوس كالشجاعة الوحشية والجرأة والاقدام وتحمل المتاعب والمصاعب والصبر على المكاره وعدم المبالاة بالخسارة مهما كبرت وعظمت ـ كل هذه وغيرها ليست أعظم من الفضائل التي يوجدها السلم . فالشجاعة الادبية لا تقل منزلة عن الشجاعة الوحشية والاقدام على الاعمال الكبيرة ، اوقع في النفس من الاقدام على خوض ميادين القتال لأن الانسان يكون مدفوعاً في الاول بعامل التعقل والتبصر وفي الثاني بسورة النزق والطيش . وليس احد يقول ان الجنون خير من العقل . وروَّاد الحضارة الذين يجتابون البلدان المظلمة لنشر لواءِ الحضارة ويعانون المشاق والاهوال في سبيل ذلك خير من الجنود الذين ينفقون اعمارهم في خوض ساحات الحرب وميادين القتال . والعالِم الذي يحاول حل سر من اسرار الطبيعة او اكتشاف دواء لداء قتال قاضياً ليلهُ ونهارهُ في البحث والتنقيب والتجربة والاختبار صابراً على فشل امانيهِ مرة وخيبة مساعيهِ اخرى لأرفع مقاماً وأعلى منزلة في عيون الناس من اي قائد كان . فذانك الاسكندر وارسطو ، ونابليون وباستور ووجه التفاضل بينهم لا يخفى على احد



المثل العليا

في الشعر

لعبد الرحمن شكري

كان من خصائص نهضة الاحياء التي حدثت في اوربا بعد العصور الوسطى البحث والتقصي والطموح الى العرفان واختبار الحياة في حالاتها المختلفة وكشف خفاياها وقد ظهر اثر ذلك في الشعر وفي آداب عصر الاحياء على وجه التعميم وقد ازدهر هذا العصر في عهد الملكة اليصابات في انكلترا وظهر اكبر شاعر عُرِفَ ببحث النفوس ووصف احاسيسها وخواطرها على طريقة شعر القصص التمثيلية وأعني به شكسبير ويصح ان يسمى هذا العصر العصر الرومانتيكي الاول فقد قضى على التزام محاكاة المذهب الكلاسيكي (١) القديم في القيود التافهة وكانت تلك المحاكاة قد قضت على روح المذهب الكلاسيكي الحقيقي بمغالاتها في اتباع ظواهر الامور دون حقيقتها وكان في بعض حرية آداب الرينيسانس (عصر الاحياء) شطط في اصول الفن فلما جاء عصر النقد الفني وخمدت جذوة عصر الاحياء عادت النفوس الى محاكاة طريقة الاقدمين الكلاسيكية في عهد راسين وكورني وأشباههما وذاعت هذه الطريقة في القرن الثامن عشر وهو عصر النقد والمنطق والاناقة الشكلية بين رواد الفنون الاّ ان نهضة القرن التاسع عشر في اوربا أوجدت حرية وروحاً هما شبيهان بالحرية والروح اللتين كانتا في الآداب في عصر الرينيسانس عصر الاحياء والتجديد الاول فذاع المذهب الرومانتيكي في آداب اللغات وتشعب شعباً كثيرة. وكان من خصائصه ايضاً البحث والتقصي واختبار الحياة وكشف خباياها والطموح الى العرفان وهذه هي المُثُل العليا في ذلك المذهب الروماسيكي. وقد كان فاوست بطل قصة جوبتي في العصر الرومانتيكي الثاني هو بطل قصة فاوست تأليف مارلو الشاعر الانكليزي المعاصر لشكسبير. ولم يأت هذا الاتفاق عفواً ، بل كان اتفاقاً بين العصرين في المُثُل العليا وأعني بها الرغبة في كشف خبايا الحياة واختبار اسرارها والطموح الى العرفان ومصادر القوة فيها وكلا الشاعرين يعترف بما في هذه المثل العليا من خطر قد يؤدي الى شر كما ظهر في حياة فاوست بطل القصة ولكن

---

(١) كان بجانب احتذاء ومحاكاة المذهب الكلاسيكي في اواخر القرون الوسطى مذهب شعراء الرومانس والتروبادور وهذا كان في الحقيقة مبشراً مبكراً جاء يبشر بنهضة الاحياء

هذا لا يمنع من عد هذه المثل العليا ايضاً منبع الخير ووسائل الرقي في الحياة. وقد كان الطموح الى العرفان والقوة وكشف خبايا الحياة ومعالجة اسرارها المثل الاعلى ايضاً في كل حضارة قديمة او حديثة ولولا ذلك ما قامت الحضارة في عهد قوتها وعهد ازدهارها في حياة البابليين او المصريين او الاغريق او الرومان او الفرس او العرب . وظني ان اتفاق روح أدب جويتي وبيرون في هذه الامور كان سبباً من الاسباب التي قربت بين الشاعرين وادت الى العطف والتراسل على اختلاف طريقتيهما وثقافتيهما في امور اخرى فان أدب جويتي يعبر عن هذا الطموح الى القوة والعرفان في فاوست كما يعبر عنها في ولهلم مايستر بمعالجة الحياة ومزاولتها والتثقف بما في هذه المزاولة من ثقافة وبيرون ايضاً يعبر عن تلك الروح الثائرة الطامحة الى القوة والعرفان والى كشف خبايا الحياة بمزاولتها والتقلب في وجوهها وليست رحلات تشايلد هارولد ودون جوان واختبارهما للحياة في اجوال مختلفة وإباؤهما الاستقرار على حالة واحدة الا مظهر تلك الروح التي انبثت في اوربا جميعها في القرن التاسع عشر ولعل هذا هو السبب في ولوع غير الانكليز من الاوربيين بشعر بيرون اكثر من ولوعهم بشعر غيره من الشعراء الانكليز وهذه الروح شائعـــة في شعره كله فهي في قصة كين ومانفرد وورنر ومازِبَّا وغيرها . وقد عبَّر شلي ايضاً عن هذه الروح التي كانت أساس صداقتهما ، عبر عنها ، في قصة (بروميث الطليق) و (ألاستور) وغيرهما وقد استشهد العلامة وايتهد في كتابه (العلم في العالم الحديث) بقطعة من شعر شلي للدلالة على انهُ كان مولعاً بتقصي حقائق العرفان بالرغم من اسلوبه الخيالي. وهذه المثل العليا كانت شائعة ايضاً في شعر تنيسون وبرونتج وفي قصص إبسن السكندناوي او قل هي أساس الآداب الاوربية الحديثة بالرغم من اختلاف مظاهر مذاهبها حتى ان الرمزية في اول امرها قبل ان تُطْلَبَ الرموز لذاتها وللذة التأمل فيها كانت تستخدم لتوضيح هذه المثل العليا فإبسن في قصة (براند) يرمز الى نشدان المثل العليا والطموح اليها بتسلق براند للجبل وحثهِ القوم على التسلق. وشلي في قصيدة (الاستور) يرمز بركوب الاستور البحر وانطلاقه فيهِ إلى الرغبة في كشف خبايا الحياة والكون وكشف المجهول من اسرارها وقبلهما كان جويتي ايضاً يستخدم الرمزية على الطريقة المسماة (الليجوري)

وقد تأثرت عند دراسة هؤلاء الادباء والشعراء بهذه الروح واعني روح الطموح الى العرفان وكشف خبايا الحياة والتمست معيناً على ذلك في كل ناحية من نواحي الآداب التمستهُ في وصف شكسبير وبرونتج للنفوس، وفي وصف النفوس والحياة في قصص كبار القصصيين، وفي كلمات المفكرين في كلمات قصيرة، كما التمستهُ في الخيال الرومانتيكي الطليق الذي يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الرومانتيكية. وهذا هو السبب في ان جانباً من قولي يمثل الخيال وجانباً آخر يمثل التحليل

النفسي ومظاهر النفوس في الحياة لا على طريقة اميل زولا والمذهب الطبيعي فليس في اميل زولا تحليل للنفوس ولا خبرة بحكمتها وفلسفتها بل على طريقة شكسبير وبروتنج في الشعراء ودكنز وثاكري وبلزاك واناتول فرانس وفلوبير وموباسان وتلستوي وترجنيف وغيرهم . وقد ظهر الجانب الاول اي جانب الخيال الرومانتيكي الذي يصف الطموح النفساني في قصائد عديدة منها،قصائد الباحث،والابد في ساعة،والكونين،وابناء الشمال،وشهداء الانسانية،والعصر الذهبي والمثل الاعلى ، والى المجهول،ومصارع النجباء، والبطل المنتظر، وثورة النفس،وجهاد المصلحين ، وصيحةالمصلح وسنة العيش وغيرها فمن قضيدة الابد في ساعة : —

آهِ من لي بساعة أتَقَصَّى كلِّ معنى فيها وكل بيان
ساعة أجرع الحياة رحيقاً ثم أظمَى لسؤر ما في الدنان
ساعة اجتنى الوجود وما كا ن وما قد يكون في الاكوان

ومنها : —

انا فيها كالعيش والموت والدهـــر وحكمي وحكمها سيان
أنا فيها أقوى من العيش والمو ت وأقوى من محكم الايمان
احمل النفس في يدي مثلما يد لف في الحرب فارس بسنان

ومن قصيدة بين الثريا والثرى :—

كأنّا قد قطعنا الدهر نهباً من الآباد للازل القديم
وحوّلنا العوالم كأس لب حسوناها ولم تك من كروم
ولم نعبأ بما تخفي الليالي ولم نخش المنية في الهجوم
وأسلفنا الزمان نعيم عيش ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا في ائتلاف الشمل نحكي نظام الشهب والدر النظيم

وقصيدة شهداء الانسانية وموضوعها ان شهداء الحياة والعلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك هل تحقق الخير الذي بذلوا حياتهم من اجله فتدركه الحيرة ايكذب كي يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، ام يصدق فيفجعهم في آمالهم ام يغريهم بالصبر الطويل كصبر الاحياء،ام يغريهم بالعودة ان استطاعوا الى كفاح الحياة.ومنها : —

فيا عيش الورى ماذا تراه يقول لهم اذا الفى مقالا

ومنها : — يقولهم اذا اسْطَعتُمْ فعودوا دفاعاً للنوائب او صيالا
وكم من نعمة لولا شقاء قديماً لم تكن إلاَّ وبالا
فكم خبر الاوائل من شقاء فنلنا من شقائهمُ نوالا

ومن قصيدة النشوء والارتقاء : —

بعقل يبلغ الشمس واقصى الكون عرفانا
وجدتَ لكل ما كان من الاكوان ميزانا
كأنك خالق الخلقين اكواناً وازمانا
وسخّرت الرياح مطية والبرق فرسانا
وقد أعليتَ عمراناً وقد قدّستَ اديانا

الى :—

وفقتَ الطير والحيوان آثاماً وأشجانا
وزنت الذرة الصغرى وما اعددت ميزانا
لعيشك كي يكون العيش إسعاداً وإحسانا

وقصيدة العصر الذهبي وقد اولع الناس من قديم الزمن بالتفكير في عصر الانسانية السعيد عصر الخير العميم الشامل فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكي انقضاءه وبعضهم ينشده في المقبل من العصور. وكثيراً ما استخدم اهل الحرص شعاره لنيل اطماعهم واقتياد الناس بذلك الشعار. وكثيراً ما علق الناس بكماله حتى اذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة وهو مثل عالٍ لا تحلو الحياة الاّ به ومنها : —

عصر السلام تحية وسلامُ خلعتْ عليك رجاءها الاقوام
من كل عصر في نسيجك لُحمَةٌ ألاجل صنعك تدلف الاعوام

ومنها :

تتغير المُثُلُ التي شاقتهمُ تتبدّل الآمال والاحلام
حَسْبُ الورى من حسن عهدك قدوة علياء ما إنْ شانَها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وانما تتباين الارواح والافهام

ومنها : —

واذا العبيدُ تحكموا في فتنة ساروا على نهج الظلوم وضاموا
أترى العبيد ببابلٍ وبطيبة اغرتهمُ بكمالك الآلام
لو انهم ملكوا لعافوا مسلكاً يدني اليك وطاشت الاحلام

وقصيدة قوة الفكر في تقديسها وقد قيلت على لسان حالها . ومنها : —

ألوي برب الفكر عن ذويه وأذهلُ العازم عن اخيه
طوراً وطوراً راحة وسلما اجبر عظماً وأهيض عظما

ومنها : —

وربَّ غرٍّ كان عبد عمره زوَّدته من خيره وشره
كان صغيراً فغدا عظيما كان يرى عيش النهى أليما
رفعته عن لذة وألمِ فصار ناراً أُضرِمَت في علمِ
مُشتهَراً بين الانام مُعلَما مُبغَضاً طوراً وطوراً مُكرَما

ومنها : —

كم حقبة قد اختمرتُ فيها وكان طعمي قبلها كريها
اقوى على الايام والدهور كما صفت عتيقة الخمور
والناس قد غرهمُ خمودي وهم على غرتهم وقودي

وقصيدة (الشباب) توضح ان مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المُثُل العليا وبان يحاول ان يقهر طاغوت الامور وجبروتها وأنْ : —

يستنقذ الازمان من عبث الورى ويُطهّر الاحشاء من اضغان
ويذلَّ طاغوتَ الامور فيحتذي شرْعُ الحياة شريعةَ الرحمن

وقصيدة (نحو الفجر) وقد جُعل الفجرُ في آخرها رمزاً لآمال الانسانية : —

وامّلتُ للدنيا صباحاً مؤجَّلاً سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزهُ ومثاله ووعد به يحدو الى الزمن النضر
نُسَرُّ بنعماهُ وان لم تكنْ لنا وننشدهُ فيما يكون من الدهر

وقصيدة (الباحث) او الباحث الازلي تعبر عن هذه الروح روح الطموح الى العرفان وكشف خبايا الحياة والشيخ الخالد فيها رمز الى روح الانسانية التي تختبر الحياة دهراً بعد دهر وحالاً بعد حال ومنها : —

همتُ يوماً من قريتي انشد الحـــق لعـــلي اراه في الدهماء
كلما لاح شامخ قلت ان الـــحق يغدو من خلفه بازائي
ورعيتُ الظلماء علّي أراه خارجاً من سرائر الظلماءِ
وجزعت الصحراء ارجو لقاءه منهُ يُرجى في وحشة الصحراء
ولكم غُصتُ في العباب عليه انما الدر منهُ في الاحشاء
وأثرتُ الاصداء أبغي جواباً لسؤالي في منطق الاصداء
وسألت الرياح عنهُ فصمّتْ عن دعائي فلا تجيب دعائي
وسألتُ السماء تبرز وجهاً منهُ يَبهَى في الأفق جم الضياءِ

وأعارتني الطيور جناحاً ارتجي منه لقية في الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لكنْ رجائي كما عهدتُ رجائي
قد يجيء الصباح منهُ بوجه طالما كان مضمراً في الخفاء
او تبين الاحلام منهُ ضياءً في سماء الآمال مثل ذُكاء

الى : —

أنشد الحق بالتقلب في العيش وأبغي سريرة الاشياء

وقصيدة (المثل الاعلى) تصف ذلك الطموح بخيره وشره فانهُ قد يكون سراباً خداعاً وقد يكون ماء

طوراً كما رقص السراب وتارة يُشفَى به من غلة وأوام

وقد تسوق الرغبة في تحقيقه الى الآثام : —

ولطالما خاض الفتى من أجله كيما يكون زواخر الآثام
أقسى القساة من استبدَّ بهِ الحجا فَسَبَهَا عن العبرات والآلام

وفي بعض الأحايين يمنع الولوع بخياله من معرفة الحياة واختبارها ومعالجتها فيصير قذى في العين واختلالاً في العزم وسقماً في الرأي والنفس : —

ولقد يعود قذى يصيب بهِ العمى فينال من عزم ومن إقدام
كالنار يهلك حرها وضياؤها يُعشِي وفيها من هُدَى وقِوام

فان نبذ مثل الكمال العليا يؤدي أيضاً الى الشر : —

والمرء إن نبذ الكمال وهديهُ شقَّ العصا وأحلَّ كل حرام
ورأى الأنام فريسةً مذخورةً لموفقٍ في شرّهِ عزّام

وخيال المثل الاعلى من العقل والعقل حقيقة الحقائق : —

ما في الوجود حقيقة غير النُّهى فاطمح بنفسك للذرى والهام
أتنال اوهام الحقائق قانعاً وتعاف خير حقائق الأحلام
والعيش انْ لم تَبْغِهِ لعظيمة فالعيش حُلْمُ طوارق الاعوام

ولا تعظم النفس الاَّ بالمُثل العليا : —

والنفس إمَّا شئت كانت عَالماً يسع الدنى في طولهِ المترامي

ولا يستطيع المرء ان يرفض المُثل العليا لانهُ يعرف حدود رقي الانسانية في المستقبل: —

لو كنتَ تعرف قدرَ مقبل عامها او جهلها لكشفتَ كل قتام

والمرء يُضمِرُ للبعيد مهابةً فاذا دنا أَلْفَاهُ حظٌّ طغام

وهي قصيدة طويلة يُنْظَرُ فيها الى نشدان المُثُلِ العليا نظرات مختلفة متعددة كهذه النظرات وامثالها . وقصيدة (الى المجهول) تصف طموح النفس الى كشف خبايا الحياة ومغاليق الأمور فهي ايضاً تمثل الروح الحديثة في الادب ومنها : —

قد ثار ثائرُ نفس عزَّ مطلبها وطار طائر لب في مراقيهِ
كالنسر لا حاجب للشمس يردعهُ ولا الصواعق والارواح تثنيهِ
وانتَ كالليل والافهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيهِ
ليلٌ مهيب كموج البحر حندسه تكاد تسمع منهُ صوت طاميهِ

وقصيدة (ثورة النفس) تعبر أيضاً عن هذه الروح . ومنها : —

ويا حسن ما تُملي الخيالات انها حُليٌّ على جيدٍ من الدهر أجربُ
تُريدين أنَّ الجسم يغدو كأنما يضيء بهِ منك الضياء المحجَّبُ

ومن قصيدة (الشاعر وصورة الكمال) : —

صورة حسن صاغها لبهُ وحدَّها في الحسن حدَّ الكمالْ
يمد نحو النجم كفًّا له ويحسب النجم قريب المنالْ

ومن قصيدة (جهاد المصلحين) : —

خليليَّ هذا الكون من أوليائهِ أأصلحهُ في العاملين طبيبُ
وكم من نفوس ساميات أذلَّها فعادت بادناس الحياة تطيبُ
ترى دنس الاشياء رؤية آلفٍ يرى ان احلام النفوس لغوبُ
يرى ان خير الكون ما هو كائنٌ ووحيَ النفوس الساميات مريبُ
ويحسب ان الشر ضربة لازب وان أساليب الحياة ضروبُ
ويصبح في مجرى الحوادث ريشة تجوب بهِ الايام حيث تجوبُ
ويطفىء نور النفس حتى كأنما دواعي النفوس الساميات عيوبُ

وقصيدة (الكونان) في وصف الطموح الى حياة ارقى من الحياة وعيش ارقى من العيش : —

خارجاً منهُ مثلما تُخرِجُ الليلةُ الضُّحَى

فروح البحث والتقصي والطموح الى كشف مغاليق الحياة والخليقة والى المثل العليا للحياة هي الروح الغالبة على المذهب الرومانتيكي وهي الروح التي تأثرتها وتأثرت بها وهي شائعة بمقادير مختلفة في اكثر ما نظمت

بحث في فصلين

اللجلجة في الكلام

واستخدام اليد اليسرى
دراسة من التجارب الشخصية

للآنسة زينب الحكيم

اللجلجة او التلجلج في اللغة معناه التردد في الكلام — يقال : الحق أبلج والباطل لجلج أي يتردد من غير أن ينفذ . وهذا هو المعنى الذي نقصده فيما سنذهب اليه من شرح وإيضاح في هذا المقال . وقد يشمل هذا المعنى ايضاً ، العقدة والعقلة وهي التواء اللسان عند إرادة الكلام ، وكذلك الحبسة وهي تعذر الكلام عند إرادته . قال تعالى . « رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي »

اما (اللثغة) في اللسان وهي أن تصير الراء غيناً أو لاماً ، والسين تاء مثل : — فلخة أو فغخة عوض فرخة أو أشكت بدل أسكت (والتمتمة ، والفأفأة) وهما التردد في التاء والفاء

هذا وامثاله مما سنوضح الفرق بينهُ وبين اللجلجة ، إذ هناك فروق جوهرية بين هذه النقائص الكلامية والعوامل المؤدية إلى كل منها. ولقد دعاني إلى دراسة هذا الموضوع المهم ، ما شاهدتهُ بنفسي في نظارتي لروضة الاطفال من خطر يتهدد أطفالنا وهم لا حول لهم ولا قوة

وقد صادفتني حالات كثيرة دقيقة ، أمكنني إصلاح بعضها ، واستعصى اصلاح البعض الآخر من أشق الحالات التي صادفتها ، طفل يستخدم يده اليسرى في الكتابة

انتظم هذا الطفل (محمد) بالروضة ، وهو في الرابعة والنصف من عمره ، وقد كان طفلاً صحيح الجسم والعقل مبدئيًا ، سليم النطق واضح الكلام. وضع الطفل في فرقة خاصة لسبعة عشر طفلا كلهم من سن واحدة ، قبلوا في المدرسة بالاستثناء لصغر السن ، وسمي فصلهم (السنة الأولى جيم) — وقد هيأت هذه الفرقة فرصة ذهبية لعمل التجارب التي أردتها ، فكنت ألاحظ كل طفل فيها ملاحظة دقيقة دون علم منهُ ، وكنت ألاحظ الفصول الاخرى بالدقة نفسها التي أوليها للفرقة المخصوصة ، لكي أرى الفروق التي يحدثها التعليم على أساس برنامج متحد ، في أطفال من أسنان متفاوتة

فدخلت مرة فرقة « السنة الاولى الف » وعمر أطفالها خمس سنوات وبضعة أشهر، وكان عددهم ثلاثين طفلاً ، وكان الدرس هجاء عربيًّا وكتابة أحرف الكلمات التي يتعلمها الاطفال فلما جاء دور الكتابة قالت المعلمة : —

والآن يا أطفال ليمسك كل منكم طباشيرته ويكتب على لوحه الاحرف المكتوبة على السبورة. انظروا إليَّ ، هكذا يكون امساك الطباشيرة ، وأمسكت أصبع الطباشير بيدها اليمنى مواجهة الأطفال فما كان من الأطفال جميعاً إلاَّ أن مسكوا طباشيرهم باليد اليسرى المواجهة تماماً ليد المعلمة اليمنى وهنا لم تدرك المعلمة عكس موقفها بالنسبة للأطفال ، كما لم تلاحظ أية يد يستعملون ...وللقارىء أن يتصور حدوث هذا في كثير من المدارس ، لولا يقظة بعض الناظرات أو بعض أهالي الأطفال وشكواهم مما يشاهدون في أطفالهم ، وهلعهم من استخدامهم اليد اليسرى . وهنا يصح أن اسأل . هل الأعسر أحط في شيء من الأيمن ؟ الجواب سلباً ، كما دلَّت التجارب المتقنة — التي قام بها الدكتور « لي أدورد » في احدى جامعات اميركا ،والدكتور « هفنر» الأستاذ في جامعة كولمبيا في نيويورك ، إذ اختار الأخير ثمانية وستين زوجاً من الاولاد يتحد كل زوج منهم في السن والسلوك والنشاط والمزايا الخاصة والجنس ، ولا فرق بينهما مطلقاً سوى أن احدهما أعسر والآخر أيمن . امتحن كل زوج على حدة ، وراقب يديه مراقبة دقيقة فلم يتبين بينهما اختلافاً ، حتى ان المؤثرات الخارجية كان لها تأثير واحد في ميول الفريقين . نشاطهم متشابه وانفعالاتهم متساوية. وإنما بدا لهُ أن الأعسر كان أكثر مرونة في بعض الأحيان وألين في موافقة نفسه للبيئة التي يوجد فيها من الذي يستخدم يده اليمنى . من هذه النتائج لانرى داعياً لهلع الوالدين اذا ما كان أحد أولادهم أعسر انما الذي يجب أن يتخوّفوا منهُ هو ما يحدث من نتائج سيئة بعد محاولة تغيير طفل من استخدام يسراه بيمناه إذا كانت هذه طبيعتهُ . وإذاً فليعلم الآباء والأمهات أن المعارضة القاسية لرغبة الطفل الفكرية في استخدام يسراه لا تفيده، بل تضره إذ تفقده الموازنة وتسبب لهُ اضطراباً قويًّا في جهازه العصبي وتجعله قلقاً . وسنشرح أسباب ذلك بالتفصيل مستقبلاً

دخلت الفرقة المخصوصة لأرى نفس التجربة مع أطفالها ، ولا أبالغ اذا قلت أن الخطأ نفسه وقعت فيه معلمة أخرى ، إلاَّ أن بعض الأطفال لم يستخدموا ايديهم اليسرى ، بل استعمل بعضهم اليد اليمنى ، والبعض الآخر استخدم اليد اليسرى . بحثت عن سبب هذا ، فوجدت انهُ ناشىء عن ضعف انتباههم بالنسبة لاطفال السنة الأولى الف ، وذلك يرجع الى الفرق الذي بين أطفال الفرقتين في العمر . (وليعلم الآباء والمربون ، أن أقل اختلاف في العمر بين الأطفال يحدث فروقاً لا يستهان بها بينهم)

أمكن اصلاح حال معظم الأطفال ، لأن استخدام أيديهم اليسرى كان حادثاً طارئاً ، أما الأفراد القلائل الذين كانت حالاتهم شاذة فتحسنت حال بعضهم بعد علاجات اختلفت مددها وأما الذي استعصى أمر علاجه ، فكان الطفل (محمداً) — فلم يكن تغيير استخدام يده اليسرى ممكناً ، وقد ضجَّ والداهُ بالشكوى من حالتهِ ، فتفاهمتُ معهما في أمره ، واجتهدت ان أقنعهما بترك الطفل يستخدم يده اليسرى لان ذلك استعداد فطري فيهِ ، فلم يقتنعا . فسألتهما هل في أسرة الطفل أفراد يستعملون أيديهم اليسرى ، فأخبراني بأن له جدًّا على قيد الحياة يستخدم يسراه في الكتابة ، وفي أداء معظم أعماله . وله أيضاً بعض الأقارب يستخدمون اليد اليسرى ، فوجهت نظرهما الى ان هذه وراثة قوية في الطفل ، وأنهُ يجب تركه واستعداده فغضبا ، وقالا : نرجو عدم السماح له بالكتابة بيسراه في المدرسة ، وسنشجعه في المنزل بكل وسيلة على استعمال يمناه — قلت حسناً سنفعل ما تريدان ، ورأيت ان نسير بالتجربة الى أقصى حدٍّ ، و نبهت المعلمات اللائي يدرسنَهُ الى ان يشجعنهُ على استعمال يمناه دائماً في الكتابة والرسم وأعمال الاطفال والاكل وغير ذلك ففعلنَ

ولكني لاحظت بعد أسابيع قليلة ان الطفل اخذ وزنه ينقص تدريجاً نقصاً يستوقف النظر ثم ابتدأ يرتبك في كلامه ، فطلبت من المعلمات عدم التشديد عليهِ في استخدام يمناه اكتفاء بما يلاقيهِ من ضغط في المنزل ، فسرَّ الطفل وأحبَّ المدرسة وكره المنزل وشكامنهُ كما شكا والداه من بطئه وعدم التفاته ، فأخبرتهما بأن كل هذا نتيجة تغيير استخدام يسراه بيمناه ، ورجوتهما ان يتساهلا معه فلم يقبلا . فقلت اولم تلاحظا ضعفه العقلي والجسمي ؟ ! قالا . ان ضعفه لم ينتج من استخدام يمناه بدل يسراه قلت وكلامه ، قالا : انما نشأ من خوفه لاننا نرهبه كثيراً في المنزل . قلت سيتحول هذا الارتباك في النطق الى لجلجة كلامية يكون من العسير علاجها . قالا وما لليد اليسرى والكلام ؟

اجتهدت ان أوضح لهما العلاقة بين تغيير استخدام اليد اليسرى باليمنى وبالعكس بقدر ما يقبل عقلاهما ، فكانا اقرب الى الشك منهما الى اليقين . وحضر اليَّ الأب في الأسبوع التالي وأخبرني بأنهُ ذهب الى طبيب ماهر واستشاره في أمر ابنه ، وأكد له ان ليس من سبب طبي يمنع استخدام ابنه يده اليمنى . قلت ياسيدي طبيب الامراض الجسمية غير طبيب الامراض التعليمية ، وإني أشير عليك باستشارة عالم مختص بدراسة الاطفال . فقال من استشير ؟ الأمر ليس ذا بال ، فليستعمل الطفل يمناه مهما يكن من الأمر ، فان أمه لا يحزنها شيء اكثر من ذلك . قلت فليكن ما تريدون ، ولكني لن أسأل عن النتيجة ، فلم يمانع . وشدد الجميع على الطفل . . . فساءت حاله . وظهرت عليهِ الاعراض الآتية —

١ — نسي ما كان قد تعلم كتابته بيده اليسرى بسرعة وسهولة ، وصار ما يكتبه بيمناه

عبارة عن سلسلة خطوط معوجة مشتبك بعضها ببعض . ولم يستطع رسمها باعتدال على الخط المسطر أمامهُ ، بل زاغ بها الى أسفل

٢ — ظهر التلجلج في كلامهِ بشكل محزن حتى خشي ان يفقد النطق بتاتاً

٣ — أصيب بضعف هائل في الذاكرة

٤ — صار يبكي لأقل سبب

٥ — نحف جسمه ، وذبلت نضارة وجهه

٦ — كره المدرسة والمنزل والاطفال ، وكره اللعب نفسهُ

وصفوة القول انهُ صار طفلا بائساً لم ير لهُ صدراً حنوناً يلجأ اليهِ غيري ، لاني كنت أحادثهُ محادثات ودية خاصة ،كان يفضي اليَّ فيها بما يناله من ضغط في المنزل ، وشدة من المعلمات في المدرسة بسبب هذه اليد اليسرى

قلت له مرة ، واذا تركتك تستخدم يدك اليسرى ماذا تفعل ؟ قال . أحضر لك الخاتم الذهبي الذي وعدوني به اذا انا كتبت بيدي اليمنى ، قلت وهل تكره الخاتم الذي لا بد أن يكون جميلاً ؟ قال . اني اكرهه لأنه يضطرني الى استخدام يدي اليمنى التي تتعبني ، ولكنهم يقولون لي في البيت أنهُ غالي الثمن ، ويدل على أن لابسه ولد شاطر فاذا (لبستيه تبقي شاطرة) فلكي أكون شاطرة أعدت الكرة في رجاء والد الطفل ليفكر من جديد في تركه (محمداً) يستخدم يسراه . ويظهر انهُ كان لرجائي بعض القبول هذه المرة ، لما لاحظتهُ على الطفل (ولده) من تغير مخيف فتركه يفعل ما يريد وله الخيار في استخدام أي اليدين شاء

غير ان الفرصة كانت قد ضاعت ، ووصل محمد الى حالة تردد وارتباك في تقديم كلتا اليدين وتأخيرها ، وتحيَّر تحيُّراً شديداً الاَّ انهُ كان لا يزال أكثر ميلاً لاستعمال يسراه

وكانت نتيجة هذا كله بقاء الطفل في فرقته للاعادة — ولم يعارض والداه في ذلك على أمل اعطائه فرصة كافية من جديد لاستعمال يده اليمنى . وأعدنا الذي مضى من التشديد تارة والمحايلة أخرى في استخدام يمناه وإهمال يسراه

سار الطفل بمستوى أقل من المتوسط في جميع العلوم التي تلقاها ، وكان ضعيفاً جدًّا في الكتابة والقراءة والتفكير والانتباه — الاَّ أنهُ تناسى كثيراً استخدام اليد اليسرى عند مااقترب من آخر العام الثاني لهُ بالمدرسة ، فاستحق الخاتم الذهبي الذي وعد بهِ ، ونقل الى السنة الثانية بالروضة مع شيء من التساهل تقديراً لحالتهِ . على أني مع هذا لا أتوسم أن هذا التلميذ سيبز زملاءه في المستوى العلمي مهما يحاول . ولعلهُ الآن بالتعليم الثانوي . فاذا رأى هذا المقال وفهم انهُ خاص بهِ ، فرجاؤنا ألاَّ يضن علينا بتقرير عن حالتهِ . وسنوضح في المقال القادم اسباب اللجلجة وعلاجها

طائرات المستقبل

اتجاه جديد في صناعتها

يجعل صنع ٣٦ الف طائرة في مصنع واحد في السنة أمراً ميسوراً

ان الانتاج الواسع النطاق هو الآية العصرية في صناعة السيارات الحديثة . فقد دخل كاتب هذه السطور معامل فورد في هيلند پارك بمدينة ديترويت الاميركية من سنوات ، وتجوّل فيها فرأى كيف وزّعت الاعمال على العمّال المتقنين ، ثم كيف نظمت هذه الاعمال بواسطة « السير المتحرّك » وهو سير معدنيّ يسير بسرعة معيّنة ناقلاً جزءاً من اجزاء السيارة امام عدد من العمال مرتبين بحسب تدرج مراتب العمل في ذلك الجزء ، فيعمل كلٌّ منهم عملاً خاصًّا فيه ولا ينتهي الجزء الى امام آخر عامل واقف امام السيْر حتى يكون صنعهُ قد تمّ . ومتى صنعت اجزاء السيارة على هذا النمط وغيره في دور مختلفة من المعامل تركّب معاً على سير كبير متحرّكٍ بالطريقة نفسها . ثم وقف الكاتب امام نهاية هذا السير الكبير فاذا السيارات ، وقد استوت كاملة الصنع ، تخرج واحدة أثر واحدة بمعدَّل واحدة كلّ دقيقة

ولكن صنع الطائرات لم يبلغ هذه المرتبة من الارتقاء الصناعي. ففي صنع « اجسامها » قد يستغرق دق المسامير وتثبيتها في ما مساحتهُ قدم مربعة من « الجسم المعدني » اربع ساعات ويقتضي عمل عاملين . وهذا في عصر الارتقاء الصناعي مفارقة تستوقف النظر ، من شأنها تأخير صنع الطائرات في إبان السلم تأخيراً قد يتحوَّل الى كارثة في حالة نشوب الحرب

ولذلك قضى الضباط والمهندسون ومصمّمو الطائرات سنوات وهم يبحثون عن وسيلة لحلّ هذه العقدة في صناعة الطائرات بحيث تستطيع المصانع ان تختصر الوقت الذي يستغرقهُ صنعها فتخرجها كما تخرج السيارات . وقد اطلعنا في مجلة السينتفك اميركان (يوليو ١٩٣٩) على ان المنافسة بين الامم الصناعية والحربية الكبرى على تحقيق هذا الغرض قد اوشكت ان تسفر عن نجاح طريقة ابتدعها المهندس الاميركي الكولونيل كلارك — وقد كان رئيساً لمهندسي الطيران في الجيش الاميركي في اثناء الحرب العالمية — بالاشتراك مع الدكتور باكلند Baekeland

المستنبط المشهور في حلبة المواد المرنة او العجائن الصناعية Plastics وهو الذي تنسب اليهِ مادة الباكليت Baekelite المشهورة

والباكليت مادة جديدة اي انها لا توجد في الطبيعة ، بل مردُّها الى التركيب الكيميائي، ذلك بأن الكيميائي الألماني باير شرع في سنة ١٨٧٢ يعالج المواد التي تتولَّد من تكثيف الحامض الكربوليك والفورمالدهيد . فاذا سخنت هاتان المادتان احداهما مع الأخرى تكونت مادة عجينية راتنجية يتسنَّى صوغها أو افراغها في قوالب . ثم اذا عرضت للحرارة والضغط تصلبت فتصبح كتلة براقة

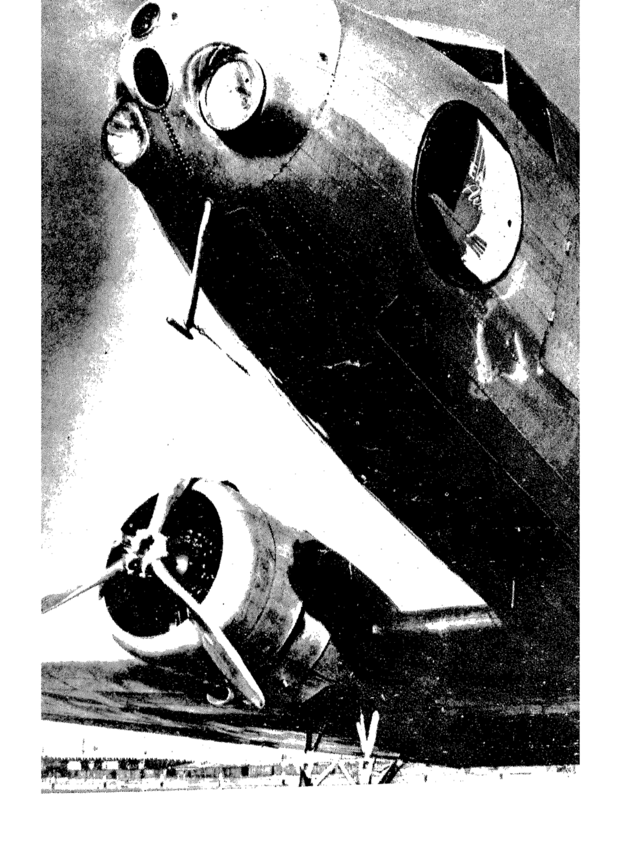
وظلَّ هذا النوع الجديد من المواد مطويَّ الذكر — من الناحية الصناعية والتجارية — الى ان نبغ كيميائي آخر في اميركا هو الدكتور باكلند فأتقن طريقة صنع هذه المادة العجينية العجيبة وأطلق عليها اسم باكليت ، فاشتهرت شهرة واسعة لأن العالم الحديث في حاجة ماسة الى مادة عجينية يتسنى افراغها في القالب المطلوب بحرارة غير مرتفعة ثم تتجمد بسرعة فتصبح صلبة متماسكة وتحتفظ بعد ذلك بشكلها ورونقها ، بغير ان تؤثر فيها عوامل الصدإ أو الاحتكاك أو الذوبان أو الحرارة . ولذلك تصنع من مادة الباكليت الآن الصواني والالواح واقلام الحبر والواح المنضدات ومقابض المظلات وعلب الجواهر وعشرات غيرها من الأدوات ، وما زال البحث فيها لأتقان صنعها مستمراً (١)

هذه المادة العجيبة هي أساس الاتجاه الجديد في صنع « اجسام » الطائرات على انواعها ومن هنا قرن اسم الكولونيل كلارك باسم الدكتور باكلند

***

وقد انقضى الآن سنة ونصف سنة ورجال مطارات اميركا الشمالية من غرب الولايات المتحدة الى شرقها ومن جنوبها الى كندا ، يشاهدون طائرة قرمزية اللون لا يعلمون من امرها الا انها تنطوي على سرٍّ . والواقع ان صانعيها قضوا سنة ونصف سنة حتى الآن وهم يجربونها في جميع الأحوال التي قد تتعرض لها الطائرات من عوامل الجو الكثيرة المتقلبة . وكان مجلس الشيوخ الاميركي يجري تحقيقاً في يناير الماضي في موضوع الاحتكار فدعي للشهادة امامهُ ابن الدكتور باكلند — وهو من طياري الحرب الماضية — فلمَّح في شهادته الى وجود

(١) راجع مقتطف يونيو ١٩٣٧ ص ١٠٧ هذا وقد بلغ انتاج العجائن الصناعية في الولايات المتحدة الاميركية ما وزنه ١٠ ملايين رطل سنة ١٩٢٦ و ٣٠ مليوناً سنة ١٩٣٢ و ١٦٢ مليوناً سنة ١٩٣٧



مقدم جسم طائرة معدنية وقد ظهرت فيه مئات المسامير
التي تربط ألواحه بعضها ببعض

طائرة جديدة ، جسمها مصنوع من مادة عجينية Plastic ذات صفائح . وكان اهم ما استوقف النظر في كلامه زعمهُ ان في الوسع صنع «جسم» الطائرة من هذه المادة وتركيبهُ على هيكلها في خلال ساعتين ! وهو نصف الوقت الذي يستغرقهُ دق المسامير في ما مساحته قدم مربعة من «اجسام» الطائرات المعدنية الآن

وما سمع مكاتبو الصحف هذا القول حتى بادروا الى صحفهم ينبئونها بالخبر العجيب واذا القول منشور في صباح اليوم التالي على صفحاتها الاولى بحروف ضخام . وكان كلارك عائداً من اوربا ، فأخمد الصيحة التي ثارت حول هذه الطائرة العجيبة، لانهُ شعر ان النشر لا يسوّغه مسوّغ حتى يتم تجاربهُ

ومقال السينتفك اميركان — الذي نلخص عنهُ — هو اول بيان علميٍّ دقيق عن هذا الاتجاه الجديد

***

شغل كلارك بموضوع صنع الطائرات صنعاً واسع النطاق على اساس افراغ اجسام «الطائرات» في قوالب بدلاً من وصل الواح المعدن بعضها ببعض بدق مساميرفيها ، منذ وضعت الحرب الكبرى اوزارها . ولكنهُ اضطر ان ينصرف عنهُ زمناً لأنهُ عجز عن ابتكار طريقة لصنع جسم الطائرة من نوع مرن من الخشب يلصق رقائقه بصمغ خاص ولأن صون الخشب من النخر كان متعذراً . ولكنهُ أعاد الكرة في سنة ١٩٣٤ بتأييد بعض رجال المال والاعمال لشعورهم ان الوقت قد أزف لا نقاذ صناعة الطائرات من الورطة التي وقعت فيها ولاعتقادهم انهُ اذا لم يفعل كلارك ذلك فلا بد ان يسبقهُ اليه آخر . وكانت مصانع العجائن Plastics قد اتاحت للمستنبطين والصناع مواد جديدة ربما تكون السبيل الى الهدف

ومن ينظر الى صور الطائرات القديمة ويطالع أوصافها يعلم ان قوام أجسامها وأجنحتها كان قضباناً من خيزران وحريراً مغموساً في مادة واقية وألواحاً من خشب شجر التنوب Spruce وهو صنوبر صغير وأسلاكاً تربط هذه الاجزاء بعضها ببعض . ثم جاءت الحرب فاستعمل نوع مصطنع من الخشب يدعى Plywood (1) . ولكن الخشب على كلّ حال لا يصلح لهذا الغرض إذ من المتعذر وقايتهُ من النخر والفطائر والرطوبة والتقوُّس والاعوجاج . وفي سنة ١٩٢٩ صنع جسم الطائرات وأجنحتها من خليط معدني ، ومعظم الطائرات الحربية والتجارية على هذا الاساس الآن . الاَّ أنك اذا فحصت طائرة من هذه الطائرات المعدنية وجدت هيكلاً من الدعائم لتقويتها علاوة على أنها مصنوعة من ألواح مربوطة بعضها ببعض بألوف من المسامير . ودق

(1) وهو رقائق من الخشب تلصق بعضها ببعض بصمغ خاص أو بمادة راتنجية أو بالكهرباء

هذه المسامير وتثبيتها وانجاز صنع الجسم والاجنحة على هذا المنوال يستغرق أسابيع وأحياناً بضعة أشهر . فمصنع دوغلس المشهور باميركا ، لا يستطيع ان يصنع الخمسمائة طائرة التي أوصت بها بريطانيا في أقل من سنة ونصف سنة مع استفاد رجاله جميع وسائل الاسراع في الانجاز

***

ولكن أنظر الى طائرة كلارك . اذا صحَّ عنها كلّ ما يقال فيها فانها لا تلبث ان تجعل الطائرات المعدنية من بقايا تاريخ قديم مهما يكن قريباً منا . ان جسمها مشيقٌ مالس كأنهُ من الزجاج لا مسمار فيهِ . دقق النظر في أسفل جسمها ترى خدشاً هنا وبقعة تغير لونها هناك. وسبب ذلك اصطدام الجسم ببعض الاحجار التي تقفز من تحت العجلات عندما تدرج الطائرات على أرض المطار قبل الطيران او بعده . مع ان هذه الاحجار تحدث نقراً في أجسام الطائرات المعدنية

لقد قضت هذه الطائرة ١٦٠٠ ساعة في الهواء في شتى أحوال الجوّ معرَّضة للبرد والحرّ والضغط والرطوبة والمطر والبرد والثلج . دق عليها بقبضة يدك تسمع رنـة قدح من البلور سليم من أي شعب فيهِ . أدخل اليها ودقق النظر في « جسمها » من الداخل فلا تجد دعامة او سلكاً واحداً وكلّ ما تراهُ خطًّا خفيفاً يدلك على المكان الذي وصل فيهِ نصف الجسم بالنصف الآخر

***

وقد أُطلق كلارك على هذه المادة التي صنع منها جسم طائرتهِ « دورامولد » وهو لفظ اذا ترجم بمعناهُ كان « القالب المتين » . ولكنهُ اسم مادة جديدة فلنحتفظ بهِ علماً عليها . وهو يصنع بأسلوب سرّي ، من العجائن التي اكتشفها باير وأتقن صنعها باكلند

ولكن « الدورامولد » ليس من العجائن بحصر المعنى . لأنهُ عجينة مصفحة .والفرق بين العجينة الصميمة والعجينة المصفحة ان المصفحة يتخذ لها أساس من ليف عضوي كالخشب أو القطن ثم تستعمل مادة راتنجية Resin للصق الألياف بعضها ببعض وتغطيتها بطبقة خاصة . أما العجينة الصميمة فاساسها مادة راتنجية وقد يستعمل فيها الليف العضوي أو لا يستعمل لمنحها قواماً . ثم أن العجينة الصميمة تحتاج الى حرارة عالية وضغط شديد لصوغها في الشكل المرغوب فيهِ . اما « الدورامولد » فيفرغ في قالب بغير مشقة تذكر . ومن الطبيعي أن يحتفظ مبتكرو أسلوب صنعهِ بسرّهِ

ومن خواص « الدورامولد » انهُ لا يتشظى ولا يصدأ وهو مقاوم لفعل الماء والزيت والاحماض . وعلاوة على هذا كلهُ انهُ امتن من المعدن . فهو على قول كلارك اذا كان مفرغاً في شكل اسطوانة رقيقة الجدار امتن من الحديد ٤ ر ١٠ الضعف ،ومن الصلب الذي لا يصدأ ٤ر٣

الضعف ، ومن خليط الالومنيوم ١ ر ١٢ الضعف . ثم انهُ مركَّب من مواد رخيصة شائعة،وفي الوسع افراغهُ في أي قالب تريد وصوغهُ في أي شكل تحتاج اليهِ

***

وطائرة كلارك هذه لم يصنع إلاَّ جسمها من « الدورامولد » . أما أجنحتها فمن الخشب واما دفتها وجنيحاتها فمن خليط معدني ، وسبب ذلك رغبتهُ في أن يقابل بين « الدورامولد » والخشب والخليط المعدني بعد اجراءِ تجاربهِ عليها ، وقد اثبت الخبراء الذين يشتغلون معهُ أنهُ بعد امتحان الطائرة مدى عشرين شهراً ثبت أن المادة الجديدة غاية في المتانة . وينتظر ان يصنع قريباً طائرة كل جسمها واجنحتها ودفتها من « الدوراموله »

ولما كانت الطائرة التي جسمها من « الدوراموله » ملساء ، فان مقدار الفرك بين خارجها وبين الهواءِ في اثناءِ طيرانها اقل من مقدار الفرك بين خارج طائرة معدنية وبين الهواء. ويبلغ مقدار الفرق ٧ في المائة . وهذا الفرق يزيد سرعة الطائرة ٧ في المائة بغير زيادة القوة المحركة. فالطائرة التي تسير بسرعة ٣٠٠ ميل في الساعة تستطيع ان تسير بسرعة ٣٢١ ميلاً اذا كان جسمها من « الدوراموله »

ولكن اهمَّ اثر لهذا الاتجاه الجديد في صنع اجسام الطائرات هو الانقلاب الذي يحدثهُ في صناعتها . ففي احد المصانع المعدَّة لهذه التجارب — من الناحية الصناعية — استطاع تسعة رجال ان يفرغوا نصف جسم طائرة كلارك في ساعة واحدة والجسم كله في ساعتين ! ثم أرسل الجسم الى مصنع آخر حيث ركِّب تامًّا فاستغرق تركيبه خمس ساعات وثلث ساعة ، لا بَردٌ ولا نقر ولا دقٌّ . وقدتم هذا العمل،والبحث ما يزال في طور التجربة . ولا ريب في ان اتقان العمل يفضي الى نقص الوقت الذي يستغرقهُ

***

وغنيٌّ عن البيان ان تأثير هذا الاتجاه من الناحية الحربية عظيم ومن المتعذر المبالغة فيهِ . فمصانع الطيران في المانيا تضمُّ ١٦٠ الفاً من العمال يضاف اليهم ٢٤٠ الفاً آخرين في مصانع اجزاء الطائرات والالواح المعدنية . ولكن استعمال « الدوراموله » يغني متى اتقن ، عن معظم هؤلاء . فاذا كان احد المصانع يحتوي على عشر مجموعات من القوالب لجسم الطائرة واجنحتها ودفتها استطاع مائتا عامل في مصنع لا يزيد على بناية كبيرة ان يخرجوا ٣٠٠ جسم طائرة في الشهر . واذا كان في المصنع مائة مجموعة من القوالب استطاع الفا عامل ان يصنعوا ويجمعوا أجسام ٣٦ الف طائرة في السنة

محمد شاكر

شوال سنة ١٢٨٢ — ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨
مارس سنة ١٨٦٦ — ٢٩ يونيه ١٩٣٩

لاحمد محمد شاكر

فقدت مصرُ وفقد العالم الاسلامي كله عالماً من كبار العلماء ، ومجاهداً من أعلام المجاهدين وقف حياته على خدمة الوطن ، وخدمة الاسلام ، وخدمة الشرق — : في سبيل الله

وقد رغب اليَّ صديقي الأستاذ فؤاد صرُّوف — محرر المقتطف — أن أترجم له ترجمة موجزة فأجبتُ ، ثقةً مني أن سيغلبُ الجانبُ العلميُّ فيَّ عاطفةَ البنوة ، وقد مرنتْ نفسي على فنون الحديث والتاريخ ونقدِ الرجال ، وزعمتُ أني مستطيعٌ أن اكتب عنهُ تاريخاً صحيحاً ، لا غلوٌّ فيهِ ولا إسرافَ ، وأني إن كتبت مدحاً او ثناءً فانما هو حقٌّ التاريخ عليَّ

السيد محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر ، من آل أبي علياء ، وهم أسرة معروفة من أشراف الصعيد ، بمدينة جرجا

ولد بها في منتصف شوَّال سنة ١٢٨٢ (مارس سنة ١٨٦٦) وحفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادىء التعليم ، ثم رحل الى القاهرة ، الى الازهر الشريف ، فتلقى العلم فيهِ عن كبار الشيوخ في ذلك العهد . وفي ١٥ رجب سنة ١٣٠٧ (٤ مارس سنة ١٨٩٠) عين أميناً للفتوى ، مع أستاذه العظيم ، الشيخ العباسيّ المهديّ ، مفتي الديار المصرية إذ ذاك . ثم أصهر الى جدّي لأمي ، العلامة الكبير ، إمام العربية غير مدافع ، الشيخ هرون بن عبد الرازق (المولود بقرية بنجا من قرى مركز طهطا في يوم الخميس ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٩ والمتوفى بالقاهرة في يوم السبت ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٦ رضي الله عنهُ)

ثم ولي منصب « نائب محكمة مديرية القليوبية » وصدر الأمر العالي بذلك في ٧ شعبان سنة ١٣١١ (١٣ فبراير سنة ١٨٩٤) ومكث فيهِ اكثر من ست سنين

وكان في عمله القضائي يفكر في إصلاح المحاكم الشرعية ، بل لعله — فيما نعلم — أول من فكر في ذلك ، فقد أخبرني رضي الله عنهُ أنهُ حين كان أميناً للفتوى جاءت امرأة شابة حكم على زوجها بالسجن مدة طويلة ، وهي تخشى الفتنة ، وتريد عرض امرها على المفتي ليرى لها رأياً في الطلاق من زوجها ، حتى تتزوج رجلاً آخر ، تعصم بهِ نفسها ، فصرفها الوالد رحمهُ الله معتذراً آسفاً

متألماً ، اذ كانت الأحكام مقيدة بمذهب أبي حنيفة ، والعلماء المقلدون يأبون التفكير في مخالفة مذهبه ، بل يكادون يرون في الخروج عن المذهب أكبر المنكرات . وليس في مذهب أبي حنيفة ما يجيز للقاضي أن يطلق على الزوج المعسر أو المحبوس أو نحو ذلك . ثم عرض الوالد أمرها على شيخه المفتي ، واقترح عليه اقتباس بعض الأحكام من مذهب الامام مالك في مثل هذه المشاكل المعضلة ، فأبى الشيخ كل الإباء ، واستنكر هذا الرأي أشد استنكار ،وكان بين الأستاذ وتلميذه جدال حادٌّ في هذا الشأن ، ولكنهُ لم يؤثر في ما كان بينهما من مودة وعطف . وما زال مقتنعاً برأيهِ ، واثقاً بصحتهِ وفائدتهِ للناس

حتى كانت سنة ١٨٩٩ وقد مكث في المحاكم الشرعية نحو خمس سنوات، وظهر على كثير من عيوبها ، وما يرهق الناس من أحكامها ، سواء أكان ذلك في التشريع المعمول به ، وهو التقيد بمذهب أبي حنيفة ، أستغفر الله ، بل التقيد بما قال علماء من متأخري اتباعه ، والتمسك بألفاظهم الحرفية ، أم كان في سوء اختيار عمالها ، من قضاة وغيرهم ، أم كان في إجراءاتها المعقدة المطولة ، أم كان في نظمها وحقارة أمكنتها ، أم كان في إعراض الحكومات المصرية عن العمل على إصلاحها ، اتباعاً لسياسة مرسومة في القضاء عليها ،تقليداً للإفرنج ولمن أشربوا آراءهم وعقائدهم، رأى الوالد كل هذا وأكثر منهُ ، فوضع تقريراً نفيساً قدمهُ لأستاذه الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ،رحمة الله عليه ،نقد فيه هذه المحاكم وقضاتها وعمالها وكل حالاتها، وأبان عن أوجه النقص والخطأ في اللائحة التي كان معمولاً بها في ذلك الوقت ، واقترح طرق الاصلاح تفصيلا ، ومنها اقتباس بعض الاحكام من مذهب مالك ، في التطليق للاعسار ، وللضرر ، وللغيبة الطويلة ، وغير ذلك ، وكان ذلك التقرير فاتحة العمل الصحيح في سبيل اصلاح المحاكم الشرعية ، والرقي بها الى مقامها السامي في الاسلام . وهذا التقرير لا تزال صورته الأصلية عندنا بخط الوالد ، وقد قدمته الى دار الكتب المصرية فصورتهُ بالتصوير الشمسي ، ليكون بها أثراً علميًّا تاريخيًّا ، لمن شاء ان يرجع اليه

قدَّم الوالد هذا التقرير في اوائل سنة ١٨٩٩ وفي صيف تلك السنة طاف الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده على كثير من محاكم الوجه البحري ، واطلع على سير الاعمال فيها ، ليصف لها الدواء والعلاج بحكمته ، ثم وضع هو ايضاً تقريره المشهور في اصلاح المحاكم في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وهو التقرير الذي طبع بمطبعة المنار في شوال سنة ١٣١٧ (سنة ١٩٠٠) ، فاتفق رأي الأستاذ الامام ورأي تلميذه ، في كثير من أنواع النقد وطرق الاصلاح

ولكن يظهر أن الأستاذ الامام لم يجد الفرصة مواتية لاقتراح احكام تخالف مذهب الامام أبي حنيفة ، وخاصة في التطليق من القاضي ، فترك الكلام في ذلك ، وأشار في الكلام

في المرافعات إشارة عامة ، ودعا الى الأخذ بشيء من أحكام المذاهب الثلاثة الأخرى(ص ٣٨)

وأظن أن الاستاذ الإمام رأى أن يمكّن للوالد في بعض البلدان حتى ينفذ آراءه في الاصلاح ولذلك زكّاه لمنصب قاضي قضاة السودان ، وأخذ وليّ الأمر بتزكية الإمام ، فصدر الأمر العالي باسناد هذا المنصب اليه في يوم ١٠ ذي القعدة سنة ١٣١٧ (١١ مارس سنة ١٩٠٠)وكان ذلك بعقب انتهاء الثورة المهدية ، وعودة السودان الى حظيرة مصر مُلكاً واحداً ، ودولةً واحدةً ،وإن فرقت بينهما في المظاهر مقتضيات السياسة

وكانت بلاد السودان حينئذ كما تكون البلاد بعد الثورات الماحقة ، هدمت النظم والقوانين والحكومة ، فكأنها كانت بلاداً بكراً ، ينشأ فيها كل شيء من ذلك انشاءً جديداً ، وكان ذلك أيسر له في وضع النظم للمحاكم هناك على النحو الذي يريد ، وتنفيذ آرائه كلها او أكثرها في الاصلاح والتجديد ، على مثال لم يسبق اليه ، واقتبس في التشريع من المذاهب الاسلامية ما كانت الحاجة اليه ماسة ، مما تنصره أدلة الشريعة وفقهها الصحيح . وأشد ذلك ظهوراً للمتصلين بالقضاء الشرعي الحكم بالتطليق للغيبة والاعسار والحبس والضرار ونحوها ، مما اقتبس في مصر بالقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ووضع كثيراً من القواعد الدقيقة الاجراءات مما اقتبس بعضه في مصر في اللائحة التي صدرت سنة ١٩١٠ فسبق السودان مصر في بعض نواحي الاصلاح بعشر سنين ، وفي بعضها بعشرين سنة

ولولا أن السياسة العامة للدولة المصرية في التشريع والقضاء وضعها ناس لا يعرفون الشريعة الاسلامية ودقائقها ، وغرَّهم ما رأوا من ضعف القضاء الشرعي بضعف رجاله في ذلك العهد ، واحتكر تنفيذها ناس جهلوا دينهم فأعرض عنهُ بعضهم وعاداه بعضهم ، لولا هذا لسار في القضاء الشرعي سيرة تمكّن لهُ في البلاد أن يكون القضاء العامَّ في الشؤون كلها ، من مدنية وجنائية وشخصية ، ليكون الحكم في بلاد الاسلام بشريعة الاسلام ، كما هو الواجب على كل مسلم أن يعمل لهُ ، طاعةً لله ورسوله . ولا تزال آثاره في السودان قائمة ، يسترشد بها العلماء والقضاة والحكام ، ولا يزال أهل السودان — وهم أهلنا وإخواننا — يحفظون لهُ أجمل الذكرى ، ويعرفون لهُ مواقفه الحازمة في خدمة البلاد ونصر الإسلام ويحفظون لهُ أنهُ لم يشغلهُ القضاء ، ولم يلهه المنصب السامي عن تعليم الناس شؤون دينهم ، بالدروس العلمية والخطب والمواعظ ، وقرأ لهم صحيح البخاري كله ، وهو أصح مصدر للسنّة النبوية

***

ثم في ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ صدر الأمر العالي بتعيينه شيخاً لعلماء اسكندرية فبعث فيها نهضة علمية كانت فاتحة خير ، بزغ نورها في أرجاء المملكة المصرية ، وقصدها الطلاب من أطراف

البلاد ، وبث فيهم من روحه الوثابة ، فأحياهم حياة اخرى غير ما كانوا يعرفون في المعاهد الدينية

وضع أسس النظام في التعليم ، وأحسن اختيار الكتب والمقررات في الدراسة ، من العلوم الدينية والعربية وما اليها ، ومن العلوم الاخرى التي يحتاج اليها طالب العلم في ثقافته العامة ، مما يسميه الناس « العلوم الحديثة » واكثرها كان معروفاً في الأزهر يتدارسه أهله ، إنما كانت اختيارية لا اختبار فيها ، فجعلها إجبارية ، واختار لعونه في عمله نوابغ العلماء من الازهر ، والرعيل الاول منهم اربعة : الشيخ عبدالله دراز والشيخ عبد المجيد الشاذلي والشيخ عبد الهادي مخلوف رحمهم الله ، والشيخ ابرهيم الجبالي شيخ معهد طنطا الآن متعنا الله بحياته . وكانت هذه « العلوم الحديثة » يعلمها للطلاب علماء الازهر أنفسهم

وسنّ حينذاك سنة حسنة ، أن يحتفل في آخر كل عام دراسي احتفالاً رسميًّا بالناجحين من الطلاب ، تعطى لهم المكافآت من الكتب العلمية النفيسة ، ويحضره سموّ الخديوي أو نائب عنهُ ويحضره الوزراء والكبراء والعلماء والطلاب ، في مسجد ابي العباس ، ويخطب فيه شيخ العلماء خطبة تناسب المقام ، وهي خطب مشهورة معروفة ، ومن أشهرها الخطبة التي ألقاها في الاحتفال يوم السبت ٢٢ رجب سنة ١٣٢٥ (٣١ اغسطس سنة ١٩٠٧) والتي ردَّ فيها على اللورد كرومر بكلمات تعرض فيها للاسلام ، وكان من شهود هذا الحفل (اصحاب العطوفة حسين فخري باشا القائم برآسة مجلس النظار ، وناظر الاشغال العمومية ، وأحمد مظلوم باشا ناظر المالية ، وأصحاب السعادة والعزة محافظ الاسكندرية ، ورئيس الديوان العربي الخديوي ، ووكيل ديوان عموم الاوقاف) الى آخر من ذكروا في وصف الاحتفال في . (التقرير الرابع عن أعمال مشيخة علماء اسكندرية سنة ١٣٢٤ دراسية المرفوع للحضرة الفخيمة الخديوية) فقام بالواجب عليه من الذبّ عن الاسلام ، في هذا المقام الخطير ، خير قيام

وكان مما قال في هذه الخطبة كلمته المحفوظة السائرة : (ويقولون : «إن هذا الدين يجيز الرق ، ويتضمن سنناً وشرائع في علاقات النساء بالرجال تناقض آراء اهل هذا العصر » . نعم ان الدين الاسلامي أباح الاسترقاق كما اباحته كل الشرائع السماوية من قبل ، ولكنهُ سوّى بين الأرقاء وبين الآباء والأمهات في الوصية بالاحسان ، والرفق والحنان . أليس يقول الله تعالى في كتابه العزيز : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنْبِ وابن السبيل وما ملكت ايمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً . اباح الدين الاسلامي استرقاق الافراد ، ولكنه بحمد الله لم يبح استرقاق الشعوب ، ولا مصادرة الامم في مقومات حياتها القومية والاجتماعية . اما علاقات النساء بالرجال فليس وراء الشريعة الاسلامية غاية في عدل ولا في مرحمة ، ولا في

محافظة على الأعراض المصونة ، يتطلع اليها اصحاب النفوس الابية) . والمناهج التي رسمها للمعاهد الدينية هي الأسس الثابتة للتعليم الصحيح ، الذي يؤتي الثمرة المرجوة منهُ ، ولا يزال اكثرها قائماً الى الآن ، وهي مفصلة في التقارير التي كان يرفعها لولي الامر في آخر كل عام

وكانت غايته من التعليم الديني ان يخرج رجالاً كاملين ، يعرفون دينهم ويخشون ربهم ، يقولون قولة الحق ، لا يخافون في الله لومة لائم . يتصلون بأمتهم اوثق الصلات ، فيشعرون بما تشعر ، ويحسون ما تحس ، في شؤونها الدينية والدنيوية ، يهيؤهم علمهم وتربيتهم وثقافتهم لقيادة الأمة الى طرق المجد ، والى سبل الاصلاح في الاحوال كلها ، اجتماعية كانت أو سياسية . وقد اشار الى هذا المعنى في مقدمة التقرير الذي رفعه عن اعمال المشيخة سنة ١٣٢٢ قال : —

« ومما يجب أن يتنبه له عقلاء الاسلام وعظماء الامة ، أن التعليم الديني قد كاد يكون منحصراً في طبقات الفقراء ، وبعض الطبقات الوسطى من الامة الاسلامية ، دون الطبقات العليا منها ، وذلك خطر غير قليل على الجامعة الاسلامية ، بمرور الدهور والاعوام ، اذا قدر أن ينتهي الامر بانحصار التعليم الديني في تلك الطبقات ، فتكون الرئاسة الدينية منحصرة فيهم لا يتولاها سواهم من الطبقات الاخرى ، وبالتالي تكون كل الوظائف الدينية في أيدي أولئك الاقوام ومن خصائصهم ، وبعبارة أصرح : تكون الفضائل والمزايا الدينية مجردة عن القوة المالية ، والقوة المالية بعيدة عن المزايا الدينية . وبين أيدينا من نتائج هذا التفريق في القوى الفعالة وهذا التدلي في التربية الدينية ما يصلح عبرة لكرام القوم ، وخاصة المسلمين وعقلاء الامة . فلينظر العقلاء وسادات الاسلام الى موقفهم هذا ، فلعلهم اذا فكروا فيه كثيراً يترجح عندهم أن يتربى أبناؤهم تربية دينية اسلامية محضة ، تحت كفالة خيرة العلماء العاملين المرشدين ، حتى اذا تخرجوا على هذا المبدأ القويم كانوا أقدر على خدمة دينهم وأمتهم ، الخدمة التي ترجى من أمثالهم ، مع الترفع عن الدناءة وعن السقوط في مهاوي الحرمان . واذا شاء عظماء الامة أن يتربى أبناؤهم هذه التربية فانهم يساعدون على ترقية التعليم الديني ، ويجعلون له المكانة العليا في أفئدة الناس أجمع ، وما ذلك على الله بعزيز . نسأله الهداية والتوفيق لاقوم طريق »

وقد بدأ بنفسه في تنفيذ ما دعا الناس اليه ، ليكون مثالاً يقتدى به ، فأخرجنا — أنا وأخي السيد علي — من المدارس المدنية الى المعاهد الدينية ، وكنت في السنة الرابعة بكلية غردون بالخرطوم ، فاستأنفت الدراسة في السنة الأولى بالقسم الأولي من معهد الاسكندرية

وكان اكثر ما يحرص عليهِ في طالب العلم ان يكون قويّ الخُلق عزيز النفس مستقلّ الرأي ، تمهيداً لما كان يرجو ، من إخراج رجال يزجّ بهم في معترك الحياة ، ويبث منهم في أعمال الدولة من إدارة وغيرها ، وقد كان متفاهماً على هذا مع ولاة الامور ، كما سمعت منهُ مراراً ، في سبيل الاصلاح العامّ ، حتى تُبَثّ الروح الاسلامية في نظم الدولة ، وتقاوم تغلغل النفوذ الأجنبي ، الذي كاد يخرج بالدولة وبالأمة عن دينها وعن مقومات حياتها . كان يرجو أن يعيد للاسلام مجده لو تحقق ما كان يرجو

وفي اواخر سنة ١٣٢٤ ندب للقيام بأعباء منصب مشيخة الجامع الازهر نيابةً عن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الشربيني بالاضافة الى عمله في مشيخة الاسكندرية ، أربعة أشهر ، من رمضان إلى ذي الحجة

وفي ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ (٢٩ ابريل سنة ١٩٠٩)صدرت الارادة السنية بتعيينه وكيلاً لمشيخة الجامع الازهر ، فسار فيه سيرتهُ في الإصلاح ، ومهّد لذلك برحلةٍ واسعة الى الصعيد ، صدر بها اليه أمرٌ عالٍ ، زار فيها مدن الصعيد وكثيراً من قراه ، يستطلع أحوال الدراسات الدينية في مساجده ، تمهيداً لانشاء معاهد علمية فيه ، تكون فروعاً من الازهر ، كما تحقق اخيراً بانشاء معهد اسيوط وقنا . ثم صدر قانون النظام في الازهر سنة ١٩١١ وانشئت فيه (هيئة كبار العلماء) فكان في الفوج الاول منها الى أن مات . وعهد اليه بتطبيق هذا القانون ، فأنشيء القسم الاولي ، وعين شيخاً له مع عمله في وكالة الازهر ، وكانت في القانون بعض نظم لا يرضاها ، وضعت على الرغم من معارضته ، فكان يبذل جهده في التخفيف من اخطاء القانون . وله في ذلك مواقف معروفة مشهورة ، لا يسع المقام تفصيلها

وفي سنة ١٩١٣ انشئت الجمعية التشريعية ، وكان في السابعة والاربعين من عمره ، وليس يستطيع ان يطلب الاحالة الى المعاش قانوناً وهو في تلك السن ، وكان من قانون الجمعية ان الموظف اذا انتخب او عين عضواً فيها خُيّر بينها وبين عمله الحكومي ، فان اختارها احيل الى المعاش ، وكان له الحق في العودة الى منصبه ، فرأى الفرصة سانحة لطرح أغلال المناصب الحكومية ، والتفلت من إسارها ، وما يحاك حوله فيها ، في الازهر وخارج الازهر ، فرغب الى اخيه وصديقه وصفيّه ، المغفور له (محمد سعيد باشا) ، وكان ناظر النظار إذ ذاك ، أن يكون عضواً معيناً في الجمعية ، فأجاب طلبه . وبذلك ترك المناصب الرسمية ، وأبى ان يعود الى شيء منها ، ولم يخضع بعد ذلك لشيء من مغرياتها ، بل فضّل أن يعيش حرّ الرأي والعمل والقلب والقلم

وعاش في حريته كما عاش في مناصبه ، للناس لا لنفسه ، ما قصده طالب حاجة إلاّ بذل له من نفسه وماله وجاهه ، يعمل الخير للخير ، ولوجه الله

وكانت له في كبريات الصحف ، وفي المقطم خاصةً ، اثناء الحرب العظمى ، جولات صادقة ومقالات نيرة ، لا يزال صداها يدوي في آذان كثير ممن عُنُوا بالشؤون السياسية في ذلك الوقت . اذ كان مرمى كتاباتهِ كلها الى الدفاع عن بيضة الاسلام ، وردّ كيد المهاجمين ، من المعتدين والخائنين ، خشية أن يكون ما كان ، من تقطع أوصال الأمة الاسلامية ، وتفرقها أمماً متباينة ، ببدعة القوميات التي اخترعتها أوربة ، لتفرّق بها كلمة المسلمين ، وتضربَ بعضُهم ببعضٍ ، ولتفتنهم عن المبدأ السياسيّ والاجتماعيّ السليم الذي شرعهُ الله لهم ، وأمرهم باتباعهِ والعضّ عليهِ بالنواجذ: (إنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً) (سورة الأنبياء آية ٩٢ وسورة المؤمنون آية ٥٢)

ثم قامت الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ، فضرب فيها بسهمٍ وافرٍ ، وتبعهُ أهل الأزهر قاطبة ، فكان هو الروحَ الوثابةَ فيهم ، وكان هو القائدَ ، وكان هو الزعيمَ

وكتب في الشؤون السياسية المصرية عشرات من المقالات في الصحف ، أبانت عن بعد نظره ، وصدق فراسته ، حتى لقد توقع فيها كثيراً مما كان بعد سنين ، إذ درس مرامي السياسة الانكليزية ، في شؤون الأمة المصرية والأمة الاسلامية ، وعرف كيف يسعون الى نيل مقاصدهم حتى لقد كنا في العهد القريب ، اذا ادلهمَّ الخطبُ ، واضطربت الأمور ، رجعنا الى مقالاته في الظروف المشابهة لها ، فوجدنا أنهُ يكاد يصف ما نحن فيه ، وكأنهُ يكتبهُ حين قرأناه وكأنهُ ينظر اليهِ بنور الله

ولم يفكر يوماً واحداً في خوض معترك الأحزاب المصرية بل كان يترفَّع عن أن يُسلم مقادَه الى أحدٍ من الناس ، كائناً من كان ، كما أبى من قبلُ أن يعودَ الى إسار المناصب الحكومية ، وكان يقول للزعماء والقادة قولة الحقّ ، فينقد خطأ المخطىء ويمدح صواب المصيب ، وعن ذلك كان يظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ لهُ هوًى أو ضلعاً مع بعض الاحزاب أو الزعماء ، إذ كان يَكثرُ خطأ المخطىء ، فيُكثرُ من نقده والنصيحة لهُ ، فيظنُّ المنتقَدُ أو انصارُه وأتباعُه أن الناقد من خصومه ، او من انصار خصومه

وبجانب هذا لم يَدَعْ مسئلة شرعية او اجتماعية ، أثيرت في الصحف ، مما يتعلق بشؤون الاسلام والمسلمين — : إلاَّ قال فيها ما يراهُ حقًّا وصواباً . وصَدَعَ بما أمر الله بهِ الدعاة والهداة ، وأعرَضَ عن المنكرين ، ثقةً بربّهِ ، وتوكلاً عليهِ . اذ كان أبرزُ سجاياه ، أنهُ صُلبٌ في دينه ، صلبٌ في عقيدته ، صلبٌ في رأيه ، شجاعٌ غير جبانٍ ، لا يرهب أحداً من الناس ، ولا يخشى الاَّ الله

***

أما الناحية العلمية منهُ فانهُ كان عالماً بكتاب الله ، يفقههُ ويعرفهُ ، ويداوم مدارسته والغوص على اسراره ، وكانت له في التفسير نظرات دقيقة ، وقد قرأ لنا التفسير مرتين ، مرة في تفسير البغوي وأخرى في تفسير النسفي . وله في السنَّة اطلاعٌ جيدٌ وفقه سليم ، وقرأ لنا صحيح مسلم وسنن الترمذي والشمائل وسنن النسائي وبعض صحيح البخاري . وقرأ لنا فقه الحنفية في كتاب الهداية ، على طريقة السلف ، في استقلال الرأي وحرية الفكر ، ونبذ العصبية لمذهب معين ، وكثيراً ما خالف مذهب الحنفية عند استعراض الآراء وتحكيم الحجة والبرهان ، ورجح ما نصره الدليل الصحيح . وقرأ لنا في الاصول جمع الجوامع وشرح الأسنوي على المنهاج . وفي المنطق شرح الخبيصي وشرح القطب على الشمسية وغيرها . وفي البيان الرسالة البيانية . الى غير ذلك من الرسائل الصغيرة في علوم مختلفة

وكان في العلوم العقلية آيةً من الآيات ، بل هو اقوى رجل ظهر في الأزهر فيها . ولذلك

لم يكن يَصمُد لهُ أحد في مناظرة أو جدال ، لا بداعيه في إقامة الحجة وإفحام المناظر ، لخصب ذهنه وتسلسل أفكاره ، وانتظامها على قواعد المنطق الصحيح السليم . ولست أقول هذا فخراً أو غلوًّا ، بل أشهد بهِ عن يقينٍ وخبرةٍ ، وقد تلقيتُ عنهُ أكثر العلوم العالية ، ولازمت دروسه أكثر من ثمان سنين ، في الصباح والمساء ، كما يعرف ذلك ويشهد بهِ إخواني في الدرس والطلب ، وكما يقر بهِ المنصفون من أقرانه من أهل العلم

وأخلاقهُ كانت أخلاق العلماءِ الأولين ، كان رجلاً مسلماً ، يخاف الله ويرجو رحمته ، ولا يخاف غيره ولا يرجوه ، يعمل ما يعمل ، أو يقول ما يقول ، خالصاً لله . أذكر انهُ في أوائل الثورة المصرية ، كتب نداءً شديد اللهجة ، يزيد في وقود الثورة ، ثم دعاني أنا وأخي السيد علي ، وقرأه علينا ، يطلب رأينا ، فأعجبنا به ، وقلت له : ولكن بعده الاعتقال ، فما عبأ بذلك ، وأذاعهُ على الناس في الصحف

ولم تكن الدنيا من همه في شيء ، وقد كانت تجري على يديه ، وكان له من النفوذ في الدولة ما يمكن له من الغنى لو أراد ، وكان دائماً مقرباً الى العرش ، بل أتى عليهِ حين من الدهر كان أقرب الناس اليهِ زلفى ، فعصمه زهده وعفته وإباؤه . ولقد حدثني واحد من شيوخي حفظهُ الله ، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، أنهُ حاوره مرة ليحمله على شراء دار لأولاده ، فأبى رحمهُ الله ، وقال له : انما أحسن تربيتهم وتعليمهم ، ولهم رزقهم عند الله . وكان يضع الميزانية سنويًّا لمعهد اسكندرية ثم في الازهر ، وكان يقرر فيها ما يستحقه العلماء والموظفون من علاوات ونحوها ، فكان يكتب لنفسه أمام اسمه ما لا يخطر على بال اي رئيس او عامل ان يصنعه ، كان يكتب بخطه لنفسه (لا يستحق شيئاً) . ولو أراد لنفسه عرض المال لاستحق شيئاً كثيراً

***

ومنذ سنة ١٩٣١ اعتزل الدنيا ، ثم أقعده المرض في المنزل ، وألزمهُ الفراشَ ، إذ أصابهُ الفالج ، فاحتمله صابراً محتسباً ، راضياً عن ربه وعن نفسه ، موقناً أنهُ قضى دينه ، فقام بما وجب عليهِ خيرَ قيامٍ ، نحو دينهِ ونحو أمتهِ ، منتظراً دعوة ربه لعباده الصالحين : (يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّةُ . ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً . فادخُلي في عبادِي.وادخُلي جنَّتي)

الى ان جاءتهُ الدعوةُ فأجاب ، هادئاً راضياً مطمئنـاً ، فقبضهُ الله اليهِ في منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨ (٢٩ يونيه سنة ١٩٣٩)

ونسأل الله ان يلحقهُ بآبائه الطيبين الطاهرين ، وإخوانه الصالحين السابقين . (والسابقون السابقونَ .أولئك المقرَّبونَ . في جناتِ النعيمِ . ثُلَّةٌ من الأوَّلينَ . وقليلٌ من الآخرينَ)

وآخرُ دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين



البن والقهوة

بين التاريخ والعلم



شجرة البن من أصل افريقي ولكنها ظهرت أول ما ظهرت شجرة تزرع وتجنى ثمارها ، في شبهِ الجزيرة العربية على ما يعلم . واول وصف ٍ لها مرتدٌ الى مخطوطة عربية من القرن الخامس عشر . ففي ذلك العهد كانت تزرع على السواحل الشرقية للبحر الاحمر ، ولعلها حملت الى البلاد العربية مع الغزاة الاحباش قبل قرن او قرنين من الزمان

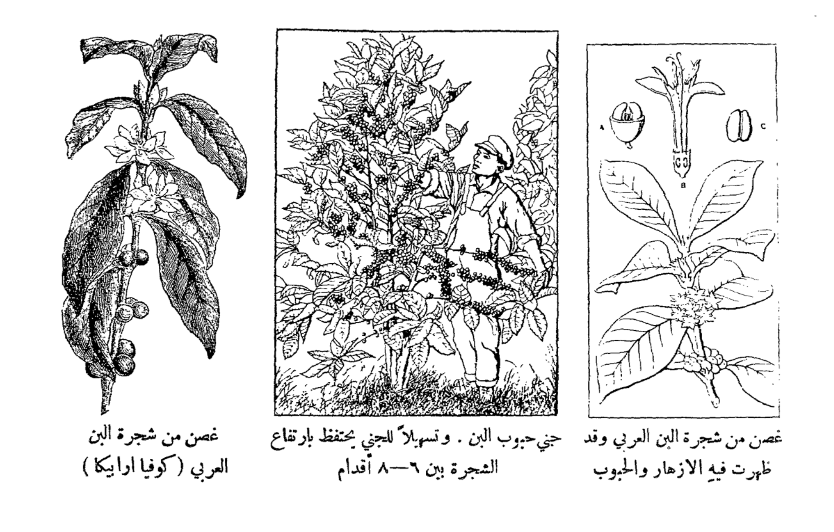
وجاء في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة مادة Coffee ما ملخصهُ: ان اللفظة الفرنجية Coffee ترتدُّ على الغالب الى اللفظ العربي « قهوة » وقد ذهب بعضهم الى أنها ترتدُّ الى « كفًا » وهو اسم مقاطعة في الحبشة حيث تنمو شجرة البن برية

والجنس كوفيا Coffea وهو من الفصيلة الفويّة Rubiacae يشتمل على ٢٥ نوعاً منتشرة في المناطق الحارة في العالم القديم وفي افريقية على الغالب . فعلاوة على وجودها في الحبشة توجد كذلك في منطقة موزمبيق وعلى سواحل بحيرة فكتوريا نيانزا وفي انجولا على الساحل الغربي . وفي ليبريا بنٌّ يعرف باسم « كوفيا ليبريكا » وقد انتشرت زراعتهُ في بلدان مختلفة . ومنها بنُّ سيراليون ويعرف باسم « كوفيا ستيوفيلا» وبن الكنغو ويعرف باسم « كوفيا روبستا» وهناك نوع آخر يعرف باسم « كوفيا اكسلسا » وينتظر لهُ مستقبل باهر

ولكن أشهر أنواع البن هو المعروف باسم « كوفيا أرابيكا » وشجرتهُ دائمة الاخضرار تنمو حتى يبلغ ارتفاعها من١٨ الى٢٠ قدماً ولها أوراق بيضية مستطيلة ملساء لامعة يبلغ طولها ست بوصات وعرضها بوصتين ونصف بوصة . والزهر أبيض يفق لهُ عَرْفٌ عطري . والثمر كالكرز الصغير تحتوي كل ثمرة على حبتين مدفونتين في لبّ ٍ طري

أما البن الليبيري فيختلف عن العربيّ في ان أوراقهُ وازهارهُ وحبوبهُ اكبر ، وشجرتهُ اخصب انتاجاً ، ولكن نكهتهُ دون نكهة العربي . ثم انهُ ينمو على مرتفعات واطئة لا تصلح لشجر البن العربي

والبنُّ في اللغة حبٌّ شجر ٍ يعرف بهِ على هيئة نواة الثمر الصغيرة يحمَّص ويعمل من دقيقهِ



غصن من شجرة البن العربي وقد ظهرت فيه الازهار والحبوب

جني حبوب البن . وتسهيلاً للجني يحتفظ بارتفاع الشجرة بين ٦—٨ أقدام

غصن من شجرة البن العربي (كوفيا ارابيكا)

مطبوخ يقال لهُ القهوة ....والقهوة الخمر قيل سمّيت بذلك لانها تقهي أي تذهب بشهوة الطعام. والمولدون يسمّون شراب البن بالقهوة وربما سموا البن نفسهُ قهوة . وتشبيه القهوة بالخمر حمل بعض المشايخ القدماء على تحريمها وعلى ذلك قول الشاعر

قهوة البن حرّمت فاشربوا قهوة الضب

وقد جاء في رسالة عنوانها البن أو القهوة Coffee وضعها الباحث دالغرن Dahlgren الأمين الاول لقسم النبات في متحف فيلد بشيكاغو ما يلي :

ان استعمال شراب البن نشأ اولاً في بلاد العرب وغدت المقاهي مجتمعاً يتبادل فيه الناس النوادر واحاديث التجارة والسياسة ولكن المقاهي اقفلت في مكة المكرمة سنة ١٥١١ بعد تحريم القهوة وكسّرت في القاهرة سنة ١٥٣٤ ومنعت رخصها في الاستانة غير مرّة

وكانت بلدة مخا[1] ببلاد العرب اهم مركز من مراكز تجارة البن واحتفظت بلاد العرب مدى قرنين من الزمان بما يكاد يكون احتكاراً لهذه التجارة . وفي مستهلّ القرن السابع عشر انتشر استعمال القهوة من الاستانة الى ايطاليا ويقال ان ظهورها الاول في ايطاليا كان في البندقية سنة ١٦٢٤ ثم في رومانسنة ١٦٢٥ ومن ثم اخذت المقاهي تكثر في شتى المدن حتى قيل ان باريس غدت بمقاهيها الالف والثلثمائة مقهًى كبيراً ، وروي ان عددها في لندن بلغ في سنة ١٦٧٥ ثلاث آلاف مقهى

ولم ينتشر شرب القهوة في المانيا بالسرعة التي انتشر في غيرها من البلدان ولكن لم تنقض مائة سنة على ادخالها الى المانيا على يدي فردريك الكبير حتى قال احد الكتاب « ان زيادة المستهلك من البن في المانيا يؤسف لهُ . فكل عامّي وفلاّح تقريباً تعوّد شرب القهوة »

ووصلت القهوة الى روسيا عن طريق النمسا والاستانة ولكن غلاء ثمنها حال دون انتشارها في روسيا . وفي القرن الثامن عشر وصلت الى البلدان السكندناوية حيث يفوق المستهلك منها في البيوت معدل المستهلك في هولندة

***

تبدأ شجرة البن العربي في الازهار في السنة الثالثة من حياتها وتغل غلّتها الاولى في السنة

(١) ومنها الاسم الفرنجي Moka جاء في مقالات وصفي زكريا عن اليمن مقتطف مارس ١٩٣٧ صفحة ٣٢١ ما نصه :— وفي أقصى الجنوب فرضة « مخا » التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد أكبر مواني اليمن بل كل جزيرة العرب ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها فتتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧—٨ آلاف دار وعشرات من الخانات والمستودعات لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني الناتج في لواء تعز وأقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka)

الرابعة وتكون صغيرة وتبلغ اقصى غلتها في السنة السابعة أو الثامنة وتبقى تغلُّ غلة متناقصة من عشر سنوات الى عشرين أو ثلاثين سنة وأحياناً الى خمسين سنة . والشائع في بلاد العرب أن اشجار البن في بلاد العرب تبلغ مرتبة النضج في السنة الخامسة ويجب تبديلها بغيرها بعد انقضاء عشرين سنة على زرعها . وفي بعض المزارع الاميركية يبلغ الشجر الذي يقلع ويبدل بغيره كل سنة ١٠ في المائة

وشجرات البن الصغيرة في حاجة الى شيء من الظلّ ولذلك يزرع عادة في الثلوم نبات سريع النمو كالذرة يظلّلها وفي بلدان أخرى يستعمل الموز لهذا الغرض

في الحبشة ، حيث موطن البن الأصلي ، يزرع نباتهُ في النجود ، وخير ارتفاع للارض التي تزرع فيها أشجار البن في بلاد العرب يتفاوت من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

صنف البن الذي يستغلُّ من منطقة ما يتوقف في المقام الاول على طبيعة الضرب المغروس، ولكن طبيعة التربة والاقليم ووسائل العناية بالشجر ، عوامل ذات شأن في تحديد مقدار الغلة وجودتها . ففي بلاد المكسيك يقلُّ ثمن البن المزروع على ارتفاع ٥٠٠ متر ، ثلاثة ريالات في المائة رطل عن البن المزروع على ارتفاع ١٨٠٠ متر ، ثم ان جودة الغلة تتوقف على طريقة جني المحصول واعداده للسوق . فالجني باليد حيث تتخير الحبّات الناضجة وتعرف بلونها القاتم يضمن الفوز بمحصول متناسق جيد . أما حيث يكون الجني غير دقيق فيختلط الحبُّ الناضج بغير الناضج وهذا يكفي لافساد نكهة الدقيق بعد التحميص والسحن . ولما كانت الحبّات على الشجرة الواحدة لا تنضج جميعها في وقت واحد فالجني باليد يجب ان يكرَّر . واذا خلط الحبُّ الناضج بغير الناضج في اثناء الجني ، تعذر فصل بعضهُ عن بعض بعد الجني ، فصلاً دقيقاً يعتمد عليهِ

وبعد الجني يُعدُّ الحب للسوق . وباختلاف اساليب اعداده تختلف جودة مقدارين من البن من صنف واحد . ومن المسلَّم بهِ ان تجفيف الحبّ في الفضاءِ افضل من تجفيفهِ بالاساليب الصناعية . ولكن هناك اماكن لا يتاح فيها تجفيف الحبّ التجفيف اللازم في الهواء الطلق فيجفف بالطريقتين الطبيعية والصناعية

***

بلغ مقدار محصول البن سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين كيس والمستهلك كذلك . وقد زاد المستهلك بعد ذلك زيادة مطردة حتى بلغ ٢٣٫٩٠٠٠٠٠ كيس سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ ولكن المحصول زاد زيادة اكبر من زيادة المستهلك اذ بلغ في السنة نفسها ٣٧ مليون كيس ونصف مليون ثم زاد الى نحو اربعين مليون كيس في سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ وهذا التوسع المطرد في زراعة البن أفضى الى تجمع مقدار كبير فائض لا سوق لهُ

والبن المزروع في العالم الجديد هو البن العربي على الاكثر (٩٠ في المائة) . ولكن منذ اصبحت زراعة البن وتجارته عملاً كبيراً أخذ الباحثون يبحثون عن اصناف جديدة من نبات البن في افريقية فعثروا باصناف كثيرة

فوجدوا مثلاً ضرباً من البن العربي Coffea Arabica في جزيرة « غراند كومورو » لا كافيين فيها . ووجد نوع آخر في جزيرة ماسكارين ومدغشقر فيه أثارة من الكافيين ولكنهُ متصف بخواص سامّة

والعنصر المنبه في البن هو مادة الكافيين وأول من كشفها باحث يدعى رنج Runge واستخرجها من حبوب البن سنة ١٨٢٠ . وقد ثبت بعد ذلك ان مادة الكافيين توجد في جميع أجزاء النبات ولا سيما في الاوراق . ولا يزال سبب وجود مادة كالكافيين في النبات ، وما يفيده النبات منها ، غامضاً . واذا استفردت مادة الكافيين نقية وبلورت كانت بلورات بيضاً دقاقاً كالابر . وتأثيرها الفسيولوجي ، في مقادير صغيرة كالمقدار الذي يوجد منها عادة في فنجان قهوة ، هو التنبيه الفسيولوجي والذهني بتنشيط الجهاز العصبي المركزي والنشاط العضلي ، وهي تفرز عن طريق الكليتين بعد انقضاء بضع ساعات على تناولها

وأهم ما تتصف به كمنبّه أن تنبيهها لا يعقبهُ هبوط او ضعف ، وهو ما يحدث عادة بعد تناول معظم المنبهات الأخرى . هذه الصفة من اهم البواعث على انتشار عادة شرب القهوة ، علاوة على نكهتها الطيبة

ومادة الكافيين توجد في نباتات اخرى غير نبات البن . « فالتايين » الذي كشف في ورق نبات الشاي هو والكافيين واحد . والواقع ان معظم الكافيين المجهز للبيع في الصيدليات يستخرج مما يعرف « بغبار الشاي » لان استخراجهُ منهُ افضل من الناحية الاقتصادية من استخراجهِ من البن

***

ويختلف مقدار الكافيين في البن باختلاف الصنف . فمن ضروب البن ما لا كافيين فيهِ ومنها ما يحتوي على مقدار من الكافيين يبلغ ٣ في المائة وزناً . وهو يختلف في اصناف البن العربي من نصف واحد في المائة الى ٢ ½ في المائة . وأكبر مقدار من الكافيين يوجد في بن كولومبيا وأقله في بن المكسيك . أما بن البرازيل وغواتيمالا فمتوسط بين الاثنين ومقدار الكافيين فيهِ يتفاوت من ¾ الى ½ واحد في المائة . ويبلغ مقدار الكافيين في فنجان عادي من الشاي أو فنجان عادي من القهوة نحو قمحة ونصف قمحة

المبحث الثامن

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الرومي للدراسات الاسلامية

الطور الثالث من حياة مطران

﴿ توطئة ﴾ كان الطور الثاني من حياة مطران — كما سبقت الاشارة — طور النضوج ، ففيهِ تفتحت شخصيتهُ ووضحت مناحيهِ على أساس من الأصل الثابت من طبيعتهِ، تلك الطبيعة التي تقومت بالعوامل التي تداخلت معها في الطور الأول من حياتهِ فجعلتهُ يخلص بشخصيتهِ واضحة السمات في تلك الفترة من الزمن التي امتدت من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩١٤ . فمن هنا نرى أن هذا الطور يشغل القسط الأوسط من حياة الخليل . وقد أظهر مطران في هذه الفترة من الزمن نشاطاً أدبيًّا يذكر في ميدان النظم وفي ميدان النثر . فكان من مظاهر نشاطهِ في الميدان الأول « ديوان الخليل » ، وهو مجموعة ما قالهُ نظماً حتى عام ١٩٠٨ ، وكان من مظاهر نشاطه في في الميدان الثاني كتابهُ « مرآة الأيام » الذي أصدر جزءه الثاني عام ١٩٠٦ وهو سفر جليل في التاريخ العام جاء في جزئين . على أن جهود مطران لم تقف عند هذا الحدّ فقد تعدّتها إلى دائرة المسرح ، غير أننا لم نشأ ونحن نعرض للطور الثاني من حياة الرجل في المبحث السابع أن نتناول مايدخل في هذا الطور من جهوده المسرحيّة ، ذلك أن هذه الجهود بدت واضحة آثارها في أواخر الطور الثاني من حياتهِ،وظلت متصلة في حلقاتها ممتدة على صفحة الطور الثالث، حتى تهيأ لمطران من جهوده المتواصلة وخبرتهِ التي خلص بها من اتصاله هذه السنين الطوال بالمسرح العربي أن يكون المهيمن على حركتها بتوليه عام ١٩٣٤ رآسة الفرقة القومية المصرية لرفع مستوى فنّ التمثيل [1] ولهذا ابقينا الكلام فيها لهذا المبحث حيث نعرض لمطران وجهوده المسرحية متماسكة في الجملة غير متقطعة في الأجزاء.

---

(١) « لرفعة مستوى صناعة التمثيل » هكذا عند بركلمان في — تكملة تاريخ الآداب العربية — الملحق الثاني ، فقرة ١٥ ص ٩٠

والواقع ان اشتراك مطران في العمل على انهاض مستوى المسرح المصري ، يعود الى عام ١٩١١ ، تلك السنة التي عاد فيها « جورج أبيض » من فرنسا بعد أن درس في « كونسر فتوار باريس » فن التمثيل المسرحي ، وعمل على تأسيس فرقة قوية جمعت نخبة من أعلام الممثلين في مصر في ذلك الحين نزل بهم ميدان العمل على خشبة المسرح المصري . وكان أن طلب « جورج أبيض » إلى صديقه مطران أن يترجم لهُ شيئاً عن المسرح الإنكليزي وخاصة عن شيخ أعلامه « وليم شيكسبير » يقوم بتمثيله هو وأفراد فرقته ، فترجم لهُ الخليل مسرحية «عطيل» Othello التي مثلت في الأوبرا الملكيَّة (الأوبرا الخديوية في ذلك الحين) مساء ٣٠ مارس ١٩١٢ وقام بتمثيل الدور الرئيسي فيها جورج أبيض نفسه . وكان أن قدَّم مطران في نفس الزمن لفرقة جورج أبيض ترجمتهُ لمسرحية «تاجر البندقية».ومما لا شك فيه أن المسرح المصري وجد في ذلك الحين في هاتين الرائعتين (١) اللتين ترجمهما مطران مادة طيبة تستند اليها . غير أن الروح التمثيلية التي أخذ بها « جورج أبيض » هو وأركان فرقته كانت تدور حول الطرائق التمثيلية التي وضعها الممثل الفرنسي الكبير«سيلڤيان » فلم تقدر بجوّها الصناعي أن تهضم القوة «الدراماتيكية » التي في مسرحيتي شيكسبير ، هضماً يساعد على جلوها بمشهد من « النظارة » على المسرح في جو طبيعي . ومن هنا كان سقوط هاتين المسرحيتين ،وكان لسقوطهما أثر في نفس الخليل جعلهُ يميل عن فكرة تقديم شيء من « المسرحيات الشيكسبيرية » الى المسرح المصري ولو الى حين

غير أن شيئاً من طبيعة المعاودة في نفس مطران من جهة وروابط الزمالة من جهة أخرى مع أركان المسرح المصري ، جعلتهُ يعود عقب الحرب العظمى فيشترك في نهضة المسرح المصري فيقدّم ترجمة المسرحية « ماكبث » الى « جورج أبيض» وفرقته التي التأمت من جديد ودخلتها عناصر جديدة . غير أن حظ مسرحية « ماكبث » على المسرح لم يكن خيراً من حظ أختيها السالفتين . فقد سقط دور « ماكدَف » الذي قام بتمثيله عبد الرحمن رشدي ، وذلك نتيجة كونه صاحب طبيعة تخالف طبيعة الدور الذي أسند اليه (٢) . الاَّ أن شيئاً من الصداقة بين مطران وجورج أبيض جعلهُ يقف من هذا السقوط موقف الآمل خيراً في المستقبل ، فتقدم الى المسرح بترجمته لمسرحية « هاملت » . ولم يكن حظ هذه المسرحية خيراً من حظ أخواتها، لهذا لحقتها في مصيرها . ومن هنا أحس مطران إحساساً قويًّا أن حالة المسرح المصري — في صورته في ذلك الحين — لا تقوى على هضم الروح «الدراماتيكية » التي في مسرحيات « وليم شيكسبير » ، لأن ذلك يستلزم أن يدور التمثيل في جو طبيعي . ولم يكن الممثلون الذين عرفتهم خشبة المسرح

(١) ينظر المفرد وهو رائعة الى التعبير الافرنسي — Chef-d'œuvre — والترجمة لمطران (٢) محمود تيمور في حياتنا التمثيلية ، ص ١٠٨ — ١٠٩

المصري الى ذلك الحين يقدرون على جعل التمثيل يدور في أجواء طبيعية . ومن هنا كان قنوع الخليل بما كان ، واكتفاؤه بطبع بعض الروائع التي ترجمها عن شيكسبير ، فكان أن قدم منها الى الطبع ثلاث مسرحيات: « عطيل» و« تاجر البندقية» و« هملت» . على أن مطران بعد ذلك يحتفظ بين مجموعة أوراقه بترجماته لبقية مسرحيات شيكسبير [١] . هذا فضلاً عمّا روى من أن لهُ مسرحية « القضاء والقدر » وهي معرَّبة . ولكننا لم نقف لها على أثر (صديق شيبوب — البصير ٥ يونيه ١٩٢٥)

على أنهُ مما لا يمكن انكاره ماكان لهذه المسرحيات من أثر في رفع مستوى الجو الذي يدور فيه التمثيل العربي في مصر . كما لايمكن انكار ما كان لاشتراك مطران من أثر في رفع مستوى المسرح المصري ، فالواقع انهُ في هذه الفترة اتصلت بين مطران وبين حركة المسرح في مصر الأسباب فكان ان اشترك مطران اشتراكاً فعليًّا في حركة تقدّم المسرح . ومن آثار هذا الاشتراك مساهمته في تأسيس « شركة ترقية التمثيل العربي » وتأسيس مسرح لها بحديقة الأزبكية ، تلك المساهمة التي تكللت بالنجاح ، إذ افتتح المسرح ابوابهُ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢٠ والقى فيه مطران كلمة الافتتاح متضمنة تاريخ الحركة المسرحية في مصر الى ذلك الحين [٢] . وهذه الجهود آتت أكلها مع الزمن إذ انتبهت حكومة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٤ الى وجوب الإهتمام بحركة المسرح ، فعملت على تأسيس الفرقة القومية لرفع مستوى فن التمثيل وعينت أغراضها في العمل على رفع مستوى التأليف والتعريب المسرحي وترقية الاخراج وترقية الموسيقى المسرحية والغناء المسرحي الحديث حتى تكون صالحة للتمثيل العربي والأجنبي واعداد الممثلين والمخرجين اعداداً فنيًّا ، وأسندت رآسة الفرقة الى خليل مطران [٣]

ولاشك أن وجود مطران على رأس الفرقة القومية كان مغنماً عظيماً لنهضة المسرح المصري، لأن وجود هذا الرجل — كما يقول محمود كامل المحامي — « الذي قرأ شيكسبير وفهمهُ وهضمهُ وترجمهُ وقدّم الى الناطقين بالعربية آثاره خير تقديم ، والذي قرأ هيجو وراسين وموليير وفهمهم وحفظ أشعارهم عن ظهر قلب ودرس روح فرنسا من كتبهم وهضم الأدب المسرحي هضماً كاملاً ، وعاش حياة أدبية مسرحية حافلة جديرة بأن تجعل جهود المسرح المصري وثيقة الصلة بالجهود الخالدة التي خلقت الأدب المسرحي» [٤]

(١) توفيق حبيب في «شيكسبير في العربية» ـ مقال بالهلال م ٣٦ ج ٢ ص ٢٠ — ٢٠٤
(٢) الهلال م ٢٩ ج : ص ٤٦٥ وتجد نص كلمة مطران من العدد ص ٤٦٥ — ٢ : ٤ (٣) الاهرام ١٤ـ١٢ـ١٩٣٧ ص ١٤ نقلا عن اشارة لبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية، الملحق الثاني فقرة ١٥
(٤) محمود كامل في مجلة الجامعة ـ ٣ نوفمبر ١٩٣٨ ـ م ٩ ع ٣٠٣ ص ٢٣

وفي الفرقة القومية يبدأ جهود مطران العظيم في رفع مستوى المسرح المصري ، فقد بدأ العمل والفرقة لا تملك شيئاً من المعدات اللازمة فلا مكان للفرقة ولا روايات مختارة ولا اي استعداد – اللهمّ الاّ ثقة الرجل بقدرته على القيام بالعمل الملقى على عاتقه [1]— وسار العمل في أوله يكتنفه بعض الاضطراب . وسرت الاشاعات هنا وهناك ، وتنبأ من يحلو لهم التنبؤ بفشل الفكرة قبل ان تولد ، ولـكن بشيء من الصبر والمثابرة اللذين عرف بهما الخليل أمكن للفرقة أن تجتاز الصعوبات التي لاقتها فمضت في سبيلها يحدوها الأمل في المستقبل . وبواسطة تشجيع الفرقة للأدباء خصوصاً الناشئين منهم أمكن لها أن تجمع لديها اكثر من ستين مسرحية قدّمت منها في ثلاثة مواسم اثنتين وثلاثين رواية جديدة ، وهو رقم قياسي —كما يرى مطران — لم يقدّمه مسرح من قبل[2]

على أن الاقوال تختلف بخصوص ما أدته الفرقة وحققته من الاغراض والغايات التي قامت من أجلها [3] . على أنهُ مما لا ينكر حقيقته بعد ذلك أن جهود مطران في الفرقة أخذت تؤتي اليوم أكلها ، والحق — كما يقول راشد رستم – انهُ لولا مطران على رأس الفرقة بسعة صدره وتحمله وصبره وجلده في هذه السن ، ولولا مكانته الشخصية لضاعت الفرقة القومية[4] . على انهُ بعد ذلك يمكن ان يقال إن ما عرف بهِ مطران من عدم التقيد بنظام وما اشتهر بهِ من «البوهيمية» التي عرف بها رجال الفن إلى جانب ما عرف عنهُ من حب الاريحية التي تجعله لا يدفع قاصداً لهُ في حاجة هو قادر عليها ، كل ذلك كان سبباً للثورة على رآسته للفرقة القومية وتوجيهه لسياستها العامة . وذلك يتجلى في الحملات الصحفية التي شنت عليهِ[5] . على أنك بالرغم من كل ذلك تجد هؤلاءِ الذين يحملون عليهِ لا يقدرون على جحد الرجل ومزاياه وطيب سريرته ، ويحملون ما في ادارته للفرقة القومية من ضعف على عدم تقيده بنظام في العمل ، الأمر الذي يجعل شؤون الفرقة تضطرب بعض الشيء ، وهو بعد ذلك يغطي على هذا الاضطراب أمام الرأي العام وأمام الحكومة بما فيهِ من قوة الشخصية

---

(١) حديث لمطران عن رسالة الفرقة القومية في مجلة ـ الامام—٣ يوليو ١٩٣٩ م ٣٩ ع ٦ ص ٦

(٢) المرجع ذاته (٣) مجلة الرسالة ، السنة السابعة عدد ٢٩٢ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ والعدد ٢٩٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ والعدد ٢٩٤ ص ٣٨١ـ ٣٨٢ والعدد ٢٩٥ ص ٤٢٩ـ ٤٣٠ والعدد ٢٩٦ ص ٤٧٦ـ ٤٧٨ والعدد ٣٠١ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠ ، آراء زكي طليمات وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وابراهيم رمزي وابراهيم ناجي وراشد رستم في رسالة الفرقة القومية وما قامت به من تحقيق للاغراض التي قامت من أجلها

(٤) راشد رستم في مجلة ـ الرسالة ـ السنة السابعة عدد ٣٠١ ص ٧٥٠ ع ٢ س ٣ ـ ٦ (٥) دكتاتورية المدير في الفرقة القومية بمجلة الرسالة ، السنة السابعة ، العدد ٢٨٨ ص ٩٣ـ ٩٤

— ١ —

من الاهمية بمكان ان نعود ونحن بمعرض استجلاء ترجمة حياة مطران في الطور الثالث من اواخر الطور الثاني ، تلك الاواخر التي مررنا عليها سريعاً في ختام المبحث السابق ، فنستجلي حياة مطران في الفترة التي جاءت عقب اخراجه للناس مجموعة شعره في ديوان عام ١٩٠٨ .

وأول شيء يستوقف النظر من شؤون هذه الفترة هو تحول الخليل عن عالم الصحافة الى عالم الاقتصاد والمال ، فقد كان مطران يحيا في الدورين الاول والثاني من الطور الثاني من حياته ومعيشته تدور في عالم الصحافة ، الا أنَّ انصرافه عنها الى الاشتغال بشؤون الاقتصاد كان نقطة تحول خطير في حياته . وهو في هذا يقول :

[مارست الصحافة اثنتي عشرة سنة . ثم انتقلت منها الى العمل في الاقتصاديات . فهل نعتقد ان هذا الحادث الذي أثر في مجرى حياتي فحوَّلها من حال الى حال ، عظيم الشأن ؟ كلا ، فانه حادث بسيط جداً ، ولكنه هو الذي غير حياتي هذا التغيير الكبير ، فصرفها عن الصحافة الى الاشتغال بالمسائل الاقتصادية

ذلك أنني اشتغلت بالتحرير في جريدتي « الاهرام » و « المؤيد » وغيرهما ثماني سنوات ، ثم عنَّ لي ان اشتغل لحساب نفسي ، فأنشأت « المجلة المصرية » نصف شهرية ، وعلى أثرها أصدرت « الجوائب المصرية » فوجدت من الناس اقبالا ومؤازرة عظيمة ، ولكن نوع المؤازرة الذي كان في هذا الوقت لا يلائم طبعي ، فان رواج الصحف لم يكن وقتئذ بالاعلان او بواسطة المتعهدين كما هو اليوم بل كان بالاشتراك وكثرة عدد الاصدقاء والمحبين

ومما يمض النفس ان دافع الاشتراك في ذاك الحين كان يعد نفسه صاحب فضل في حياة الجريدة وفي كل ما يبلغه صاحبها من جاه او مال او كرامة . وكنا نسمع من هذا القبيل منَّا بلا حد فيما يتعلق بالجرائد المعروفة في ذلك الوقت . وأنا بخلقي نفور من سماع امتنان على هذه الصورة خصوصاً أنني كنت على علم بما يعانيه صاحب الجريدة ومحررها من مشقة واعنات

وقد كنت امتعض وأحس ان بي ميلا للعمل لرزقي في غير الصحافة حينما يعود « الجابي » فيقول ان فلاناً المشترك قال كذا وفلاناً قال كذا من الاقوال التي وان امتزج المدح بها غالباً فهي تسيء الى النفس لانها تأتي أشبه بذكر الجميل او التذكير به

وذات مساء رجع الي الجابي من جولة ، وأبلغني ان صديقاً لي ممن كنت أعاشرهم معاشرة متصلة استمهله في أداء ما عليه ، ولم يكن ذلك المرة الاولى . ويظهر ان — الجابي — ألح عليه باعتبار ما يعرفه من الصلة المحكمة بيننا ، فالتفت اليه هذا الصديق وجابهه بقوله « هو ثمن عيش » . فلما سمعت هذه العبارة ، خيل الي أن كل من أرسل اليه جريدتي ، وان تلطف في الظاهر ، يحسبني متطفلا عليه فيما أتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقاء ذلك ما يبذل من جهد في التحرير وفي نفقات الطبع والبريد وما الى ذلك من أعمال تستنفد مجهوداً ووقتاً ومالا

وكان ان صممت على اعتزال الصحافة ، وصرت أتربص للفرصة الاولى حتى سنحت بخروجي من الميدان موفور العرض سليم الشرف والكرامة ، فوهبت جريدتي وبعت مطبعتي وانصرفت الى ممارسة الاعمال الاقتصادية وما زلت عليها الى الآن .] (١)

وكان انصراف مطران عن الاشتغال بالصحافة الى الاشتغال بالشؤون المالية عام ١٩٠٤.

وقد دارت حياة الخليل منذ ذلك اليوم متصلة بممارسة الشؤون المالية ، حتى اكتسب الخليل

---

(١) الهلال : م ٣٨ ج ٣ — أول يناير ١٩٣٠ — ص ٢٦٩—٢٧٠ . رد مطران على استفتاء الهلال عن أهم حادث أثر في حياته

بحكم الممارسة مهارة في الاعمال المالية والاقتصادية أهلته للاشتراك في المشروعات الاقتصادية الكبرى التي عرفتها مصر في تاريخها الحاضر ، وعلى وجه خاص في وضع المذكرة التأسيسية لبنك مصر (١) التي كتبها عام ١٩٢٠

وقد كان من اشتغال مطران بالشؤون الاقتصادية واعتماده عليها في المعيشة أن اخذته حمى المضاربة ، فكانت من ذلك مضارباته التي كسب فيها الخليل كثيراً وخسر كثيراً ، وهو بعد ذلك جلد على المضاربة ، لا يخسر حتى يعاود الكرة من جديد وكله امل في الربح، والمال يجيء ليذهب ، حتى كان ان فوجيء في احدى مضارباته عام ١٩١٢ بخسارة كل ما يملكه، وأصبح الخليل وإذا به صفر اليدين ، والرجل بعد ذلك بصلاته ومكانته من الهيئة الاجتماعية محتاج الى المادة . لهذا كانت صدمته كبيرة في خسارته التي ذهبت بكل جنى جهوده في حياته الى ذلك الحين . ومن هنا جرفت الخليل موجة يأس برزت معها في ذهنه فكرة « الانتحار » . ولكن طبيعة المداودة في نفسه ، جعلته يعيد الكرة على هذه الفكرة وينزل بها الى مقوماتها من نفسه ، ومن هنا انتهى الى ان الانتحار هروب من الحياة، ولهذا اعتقد الخليل ان الانتحار جبن . فرجع في حالة يأس الى - مدينة عين شمس — (مصر الجديدة — Heliopolis —). وهنالك قضى اياماً في غمرة من اليأس نظم فيها قصيدتهُ الوجدانية «الاسد الباكي» — « الشعراء الثلاثة » ص ٣١٥ — ٣١٦ — وفي مستهل هذه القصيدة يقول مطران :

دعوتك استشفى اليك فوافني ... على غير علم منك انك لي آسي
فإن ترني والحزن ملء جوانحي ... أداريه فليغررك بشري وايناسي (٢)
وكم في فؤادي من جراح تخينة ... يحجبها بردائي عن أعين الناس
تخذت لهمي « عين شمس » مباءة ... فتمت إضحائي فريداً واغلاسي
يخالون أني في متاع حيالها ... وبئس متاع الحي جيرة دماس
ارى روضة لكنها روضة الذوى ... وأصغي وما في مسمعي غير وسواس
وأنظر من حولي مشاةً وركّباً ... على مزجيات من دخان وأفراس
كأني في رؤيا يزف الاسى بها ... طوائف جنّ في مواكب أعراس

وأنت تلمس في هذه الابيات ما كان يجتاح قلب الخليل من الالم والحزن وما كان يسود عينيه من النظر القاتم الى الحياة ، وما كان يوسوس في صدره بالانتحار . ولا ادل على تلك الحالة الشعورية عنده من رؤيته رياض « عين شمس » روضة موت . وما في نفسه من الاسى

(١) توفيق حبيب : المبحث الخامس ، فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) البيت أثبت عجزه في « الشعراء الثلاثة » هكذا : « أداريه فليغررك بشراي وايناسي » ص ٣١٥ س ٢ وهذا لا يتفق مع الوزن

كان يستولي على بصيرته فيجعل الاشياء تبدو له في صور يشوبها شيء من الابهام ومن خلال هذه الصور تجلت له مرائي « عين شمس »والا ناسيالذين يمضون فيها ما بين ركب في القطر وعلى الافراس وما بين مشاة كطوائف جن في مواكب اعراس . وذلك من حيث جرفت وجدانه ،شاعر الاسى فجعلته يأخذ الاشياء من عالم الواقع لينزل بها من عالم الاحلام تخيالات وأوهام

هذه الابيات — كما سبقت الاشارة — تصور أسى مطران وشجوه وألمه . فلما انتهت القصيدة التي تضمنتها الى اصدقائه قلقوا عليه وكانوا قد قلقوا عليه من قبل لغيابه ، فتضافر هذا القلق وذاك وكان ان اخذوا يفتشون عنه في الاماكن التي كان معتاداً ان يرتادها ، ولكن تفتيشهم هذا لم يجد شيئاً . ثم كان ان سعى بعض العارفين بمكان اقامته اليه ليواسوه في نكبتهِ التي كانت قد ألمَّت بهِ وكانت قد أبعدتهُ عن الحياة الصاخبة التي كان يحياها ، فكان ان عاد الخليل ثانية الى تلك الحياة ، وكان في عودته هذه جلداً . ثم لم تلبث ان بسمت له الحياة التي كانت قد عبست له من قبل فذهب يغامر من جديد ......

***

عين الخليل في ذلك الوقت سكرتيراً مساعداً بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن)[1]. وقد كان تعيين مطران في هذا المنصب عن رغبة من الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان يريد ان يجعل للشاعر مركزاً ثابتاً وايراداً غير متقلّب. وقد اختار الخديوي لمطران ذلك المنصب خاصة نظراً لما يعرفهُ عن الرجل من الاشتغال الطويل بالشؤون الاقتصادية ، ذلك الاشتغال الذي أعطاه دربة فيها ، ومن ادراكه الجيد الذي أظهره فيما يتصل بالمسائل الزراعية ، تلك المسائل التي أظهر فيها الخليل معرفة مستفيضة ايام كان يصدر « المجلة المصرية » ويوقف باباً من أبوابها على الشؤون الزراعية . وبعد أن تقلّد مطران ذلك المنصب انتظمت شؤونه المادية واستقامت . وأصبح الرجل لا يخشى تقلّب الزمن وما يمكن أن يحمله فى طيات هذا التقلّب من كوارث

وظل مطران منذ ذلك الحين حتى الآن يشغل هذا المنصب بجانب المناصب الاخرى التي اتفق له أن يشغلها

وكان عمل مطران في « الجمعية الزراعية » من حيث يتصل بشؤون سكرتاريتها يدور حول الحسابات ، ومن هنا اكتسب مطران بجانب دربته الاولى في الشؤون الاقتصادية والمالية خبرة واسعة بالشؤون الحسابية ظهرت آثارها فيما عهد اليهِ من القيام بوضع بعض المذكرات الاقتصادية التي تمتُّ الى شؤون الحساب بسبب . وقد كان من تلك المذكرات التي راجع جانبها

(١) تأسست في ٢٠ ديسمبر ١٨٩٨ بسراي الجزيرة تحت رعاية سمو الخديوي عباس حلمي الثاني

الحسابي وضبطها تلك المذكرة التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي ضد السر وليم برونيت [١]

وكان أن كلف حشمت باشا وزير المعارف اذ ذاك مطران وصاحبه حافظ بك ابرهيم أن يترجما الى العربية كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» وهو سفر ضخم للبروفسور بول لروا پوليو مدير جامعة بواتييه بفرنسا ، فجاءت الترجمة في خمسة اجزاء كبار في نحو ٩٣٠ صفحة [٢]. والكتاب، وما فيه من دقة الترجمة واستيعاب المعاني التي دارت بذهن مؤلفها ، يعود الى مطران لا الى حافظ [٣]. هذا فضلاً عن ان بعض الريب يحف بما لحافظ ابراهيم من جهد في الترجمة . ومن ذلك الحين عرف مطران بأنهُ من رجال الاقتصاد والحساب [٤]. غير ان ذلك لم يطغ على الاصل الشاعري من نفس الرجل كما ستجيء الإشارة الى هذا

وما كان لمطران من حظ الاشتراك في تقدم مصر الاقتصادي والعمل في ميدان استقلالها الاقتصادي ، جعل محرر الهلال يتوجه اليهِ بالسؤال عن مصر كما يريدها من الوجهة الاقتصادية، وذلك عام ١٩٣١، وكان ذلك ضمن سلسلة الاسئلة التي وجهتها دار الهلال الى اعلام رجالات مصر في النواحي التي برزوا فيها . وقد اجاب مطران وقال :

[أريد مصر عزيزة بكل المعاني . على أن في مقدمة العناصر التي تكوّن عزة الامة :العنصر الاقتصادي . ولما كانت مصر تعاني الآن أزمة اقتصادية لا يذكر التاريخ الحديث أنها عانت مثلها كان الافضل ان اجعل مدار أمنيتي ما اعتقده وسيلة أولية لإبلاغ مصر العزة التي أرجوها لها

مصر غنية — على القول المشهور — ولكن بمعنى ان نيلها يدرّ الخير وأرضها خصبة تجود بأربعة محاصيل . ولها عدا ذلك موارد اخرى من طبيعتها وسجايا أهلها التي فيها قابلية عجيبة للصناعات والتنوّر وينبغي ألاّ تقل ثروتها منها عن ثروتها من ارضها

ولكن تصرف السواد الاعظم من الامة في شؤونهم الكسبية والمعيشية قد أفقدهم تلك المزايا فليس نصيبهم منها بأوفر نصيب وعلى هذا لا بد من عكوف كل كاسب في مصر زارعاً كان او صانعاً او تاجراً او ذا منصب على نفسه يحاسبها ويطالبها بما هو واجب عليهِ لنجاته من هذه الضائقة وبالتالي نجاة قومه وهل الأمة الاّ مجموع أفرادها

يجب ان يعرف كل منا في مصر ان الحياة أداء واجب وان المتاع نتيجة من أداء ذلك الواجب فالصدق في المعاملة وان ابعد صاحبه ، والقصد في النفقة بحيث تستقضي بها الحاجة وان ظن الانسان ترك اللهو واجتناب معاهده حرماناً — واقبال الفلاح على غيطه يحرثه حق

(١) توفيق حبيب ـ المبحث الخامس فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) صديق شيبوب في البصير — ٥ يونيه ١٩٢٥ ص ١ من مقال له عن مطران (٣) أحمد محمد عيش في مجلة أبولو م ١ ج ١١ — يوليه ١٩٣٣ — ص ١٣٩٣ س ٨ـ٩ مقال عن « سيرة حافظ » (٤) الشفق الباكي ـ ديوان شعر لابو شادي ـ ص ٧ مقدمة الناشر حسن صالح الجداوي ـ الهامش س ٥

جرثه ، والعامل على عمله يوفيه ويجيده ، والموظف على وظيفته يؤديها اداء الذمة ، والعريف على ادارته يحكمها بصبر وبصيرة الخ الخ . . . كل اولئك مما يكوّن أمة رضية البال قوية العزيمة راضية مرضيًّا عنها

فأنا اريد مصر عاملة مجدة صابرة على ما تقتضيه الحياة الكبرى ، اريدها حاسبة متعففة خبيرة في الموازنة بين دخلها وخرجها ، اريدها ان تعدل عن السرف حكومة وشعباً وان ترث الرأي التي صدرت عنه قبلها الامم السائدة الآن في العالم ، وهو ان القوة والمنفعة فيما ندخر ، وان الضعف والذلة وراء السرف والتبذير] [1]

هذه وصايا حكيمة ألقاها مطران على شعب مصر وحكومتها عام ١٩٣١ اثناء اشتداد الازمة المالية في العالم ، وهي تدل على شعور مطران نحو مصر من جهة ، كما تدل على خبرته بمواطن الداء في الوضع الاقتصادي في مصر من جهة اخرى

— ٢ —

كان الخديوي عباس حلمي الثاني في اواخر عهد خديويته على مصر ملتقى آمال شباب العرب ومعقد رجاء أحرارهم خصوصاً بعد أن ظهر الاتحاديون بنياتهم العدائية نحو العرب [2] وقد أراد الخديوي ان يجمع من حوله قلوب العرب ويبادلهم آمالهم فيه بتشجيعهم ، فشمل برعايته رجالاتهم، وكان من ذلك عنايته الشديدة بخليل مطران الذي كان يعتبر لظهور شخصيته في المجتمع المصري سفير سوريا في مصر . ومن مظاهر عناية الخديوي بمطران توجيهه منصب السكرتير المساعد بالجمعية الزراعية الى مطران، وانعامه عليه في اواسط شهر اغسطس سنة ١٩١٢ بالوسام المجيدي الثالث [3] وايعازه بواسطة اسماعيل باشا اباظة المشهور بأدبه واتصالاته بالادباء المصريين والسوريين الى «سليم سركيس» ـ صاحب مجلة «سركيس» ـ باقامة حفل لتكريم الخليل . وقد لاقت الفكرة تحبيذاً عند جمهور الادباء وأولاها سليم سركيس اهتمامه وجرت في شأنها مكاتبات انتهت بفكرة اقامة الحفل [4] . وفي ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣ اقيمت الحفلة في دار «الجامعة المصرية الاهلية» [5] تحت رعاية سمو الخديوي ونيابة الامير محمد علي عنه . وقد افتتح الحفل الامير محمد علي بكلمة رقيقة اثنى فيها على الشاعر المحتفل به قال فيها :

[لقد سمعت منذ زمان طويل بشهرة ذلك الشاعر الطائر الصيت وهو حضرة خليل مطران فابتهجت بما وصل اليَّ من أفكاره السديدة التي تنبي ، عما هو من علو في الهمة وثبات في الرأي ووفور في العلم . ولم

(١) مصر كما أريدها من الوجهة الاقتصادية لمطران — الهلال . ٣٩ ج ١ ص ١٩ (٢) المقتطف م ٩٣ ج ٤ الحركات العربية لانيس المقدسي (٣) مجلة سركيس — سنة ١٩١٣ ص ٢١١ س ١ — ٣ (٤) مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٢١١ — ٢١٥ (٥) مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٣٤٤ س ١ — ٢

يكن اعجابي به لما أوتيه من المواهب الجليلة في دولة العلم فقط بل لما تحلى به أيضاً من الاخلاق الكريمة التي تحمله دائماً على سلوك طريق الاستقامة وتباعد بينه وبين التحقير للغير حتى صار بذلك محبوباً مرموقاً بعين الاجلال والاعتبار متأهباً لنيل المجد والفخار

ومن البديهي ان اتصافه بهذه الصفات الممدوحة لم يكن الا نتيجة تربية عالية . . . . وقد وهب الله صديقنا مطران ذكاء فطرياً فجادت قريحته الوقادة بالاشعار الرقيقة والحكم البليغة الدقيقة فارتقى بذلك الى الدرجة التي نال بها الحظوة عند خديوينا المعظم .] (١)

ثم القى احمد شوقي بك رئيس الادباء في الحفل قصيدة حيّا فيها مطران . وتوافد بعده الأدباء فألقى جورجي زيدان كلة عن شعر مطران والتاريخ (مجلة سركيس ، سنة ١٩١٣ ص ٢١٩ — ٢٢٤) . وكتب أمين الريحاني كلة (المرجع ذاته ص ٢٣٠—٢٣٣) ، والقى حليم دموس شاعر زحلة قصيدة عصماء (المرجع ذاتهُ ص ٢٣٤ — ٢٣٧)

وأرسل جبران خليل جبران من نيويورك أقصوصة عن الشاعر البعلبكي مدارها خليل مطران وعبقريته (مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٢٣٨ — ٢٤٤). والقى شبلي بك الملاط مطوقة من الشعر (المرجع ذاته ص ٢٥٠ — ٢٥٦)

والقى انطون الجميل كلة عن شاعرية الخليل [المرجع السابق ذكره — ص ٣١٨ — ٣٢٩ وهو في الأصل مقال بالهلال م ١٦ ج ٩ — (١ يونية ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٩] . وفي الختام القى الخليل قصيدة عصماء حيّا فيها الذين احتفلوا بهِ وشكر سمو الخديوي والأمير محمد علي (مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٣٤٥ وما بعدها)

لقد كان الاحتفال بمطران مهرجاناً كبيراً للأدب ، ومظهراً للروابط التي كانت تربط سوريا بمصر . وقد ظهر ذلك في اكثر ماقيل في هذا الحفل ممّا قالهُ الشعراء وما قالهُ الكتاب ، وفيما علقت بهِ الصحف على الحفل (٢) بكل وضوح

كان لهذه الحفلة أثرها الكبير في جو مصر الأدبي ، إذ أظهرت من ثنايا المهرجان وما تلي فيهِ شخص الخليل كألمع شخصية أدبية في العالم العربي . فقد اشترك في هذا المهرجان جميع أدباء العربية وكتابها وشعرائها وأعلامها والنابهين من حملة القلم فيها ، فقد جمعت شوقي بك وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري باشا ونقولا رزق الله وبشارة الخوري وحليم دموس وشبلي الملاط ومسعود سماحه ويوسف بك حيدر وأسعد داغر وأحمد نسيم وشكيب أرسلان ومحمد حمدي النشار الذين اشتركوا بمقطوعات وقصائد من الشعر، كما جمعت جورجي زيدان وأمين الريحاني وجبران خليل جبران وماري زيادة وانطون الجميل ومحمد لطفي جمعة وعباس محمود العقاد ومحمد كرد علي الذين اشتركوا بنفثات أقلامهم ، والدكتور ابراهيم شدودي الذي اشترك

(١) مجلة سركيس ١٩١٣ ــ عدد خاص عن مطران . ص ٣٤٠—٣٤٢
(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ . ص ٢١ س ١٦ ــ ١٧ و ص ٢٢٦ بالمقطع الثاني من القصيدة وص ٢٤٢ — ٢٤٤ وص ٢٥٤ ــــ ٢٥٥ مثلاً ...

في المهرجان الكبير بقطعة زجلية رائعة . وقد نشر معظم هذه القصائد والنفثات القلمية في مجلة سركيس في عدد خاص [١]، كما نشر في الأعداد التالية ما لم يتسع لهُ العدد الخاص .
ولا شك أن هذا الحفل كان أعظم مهرجان أدبي شهدتهُ البلاد العربية ومصر الى ذلك الحين ، ولم يجيء بعده ما يضارعهُ غير يوبيل المقتطف عام ١٩٢٦ وحفل مبايعة شوقي بك بأمارة الشعر في دار الاوبرا الملكيَّة عام ١٩٢٧ . ومما لاريبة فيهِ أن هذه الحفلة حققت أغراضها من حيث القضاء على الدعاية التي كان يروّج لها البعض للتفرقة بين المصريين والسوريين . كما أنها كانت خير مكافأة لمطران على جهوده الأدبية وخدماتهِ للخديوي وبيته وإخلاصهِ لمصر ، تلك الاشياء التي شهد له الأمير محمد علي بها فقال في حديث لهُ عام ١٩١٣ :

« قد عرفت مطران من عهد والدي حتى الآن فرأيته قد امتاز بانصرافه الى هذا الزمان الى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر وهذا الثبات على المبادىء والاخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها واكرام المتحلي بها (٢)

***

يظهر مطران في الفترة التي جاءت قبل الحرب العظمى متشبعاً بفكرة الجامعة العثمانية ، وذلك بحكم عواطفه التي كانت تجري مع عواطف معظم المصريين في ذلك الحين مما سبق الإشارة اليهِ . أما بعد الحرب فترى عواطفه مصرية وإن خالطها بعض العطف على بلاده الأولى سوريا . وهذا التطور نتيجة لأحداث الحرب والآثار التي خلفتها في المجتمع المصري ، كالثورة المصرية التي أظهرت الشعور المصري ميالاً الى الاستقلال متقبضاً على نفسهِ عند حدود قوميته . وقد جارى مطران هذا الشعور الجديد فمال مع الفكرة القومية المصرية وأيَّد سعد زغلول في حركتهِ الوطنية ولف ملفَّ الوطنيين المصريين في حملتهم على السياسة الانجليزية . على أننا يجب ألاَّ ننسى ان هذا الشعور طبيعي عند مطران لو نظرنا الى ان الأحوال التي كانت مصر تجتازها كانت سوريا بلاده تجتازها ايضاً . ومن هنا كان صدق الشعور عند الرجل وخلوص العاطفة في ميله مع الفكرة القومية المصرية

ويظهر ميل مطران مع الفكرة القومية المصرية في قصائده التي تتصل بذكريات جهاد مصر في سبيل استقلالها وتأمين دستورها وفي مرثاته لسعد باشا زغلول عام ١٩٢٧ التي ضمنها الكثير من التصاوير والتهاويل الشعرية التي تحمل خلجات نفسه وميول عاطفته نحو مصر [٣] . وكذلك في مرثاته لصديقهِ محمد بك أبو شادي تظهر ميوله واضحة . يقول مطران :

زمان قضينا المجد فيه حقوقه ولم نله عن لهو ورشف رضاب

---

(١) عام ١٩١٣ ص ١٩٠ — ٢٦٠ (٢) مجلة سركيس — عام ١٩١٣ — ص ٢٠٧
(٣) مرثية مطران لابي شادي ص ٧١ — ٧٣ من كتاب محمد أبو شادي ـ دراسة أدبية تاريخية للسيد عبد الحميد الكيلاني وعبد الحفيظ الروبي

محضنا به مصر الهوى لا يشوبه حذار قصاص او رجاء ثواب
وما مصر الاّ جنة الارض سيجت بكل كبير الهم غض اهاب
فداها ولم يكترث ان جار حكمها فذل محاميها وعز محابي
فكم وقفة اذ ذاك والموت دونها وقفنا وما نلوي اتقاء عقاب
وكم كرة في الصحف والسوط مرهق كررنا وما نرتاض غير صعاب(١)

وأنت تلمس في وضوح في هذه الابيات شعور الخليل نحو مصر، وما كان يخالجهُ من احساس الميل لها والذود عن حياضها ، وهذا الشعور يتسق مع ما قلناه بخصوص عواطف الرجل نحو مصر

— ٣ —

اتصلت في الفترة التي بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٢٤ الصلة بين نفس مطران وآثار الشاعر العالمي «وليم شكسبير». فقد كان مطران في ذلك الحين يترجم بعض الروائع من مسرحيات شيكسبير الشعرية الى العربية نقلاً عن ترجماتها الفرنسية . وما كان له ان يشتغل بالترجمة ويدير معاني شكسبير في ذهنه حتى يستنزل لها قالبها الشكلي في العربية ، الاّ ويعلق بذهنه بعض معاني «شيكسبير» وأخيلته وتصاويره وتشابيهه وتهاويله الشعرية . ونظراً لان هذه الاشياء كانت تصطخب في ذهن الخليل، فقد كانت تحضر عنده حين يعرض لنظم الشعر، وتتسرب الى قصائده، ومن هنا جاء ما في شعره لتلك الفترة من التأثر بالاغراض والمعاني الشيكسبيرية . ومطران لم يخرج في ذلك عن كونه انساناً يتأثر بمطالعاته خصوصاً اذا كانت من الطراز العالي . فضلاً عن ان هذه الآثار التي يطالعها كان يعيد الكرة عليها حتى تلين لهُ معانيها فيقدر على صبها في القالب العربي ، ومن هنا كان تذوقه للمعاني الشيكسبيرية والاخيلة الخاصة بوليم شيكسبير ماثلة الرواء Fresh دائماً . ولهذا يجب ألاّ نتحدث عن الاقتباس والنظر حين نرى مطران يسوق في قصائده الشعرية التي نظمها لتلك الفترة من الزمن بعض المعاني والاغراض والاخيلة الخاصة بشيكسبير . لأن السبب في ذلك واضح ثم عندك لكل من الشاعرين — وليم شيكسبير وخليل مطران — منحاه الخاص في شعره الذي يتسق بطبيعته الخاصة

وشعر مطران لتلك الفترة من الزمن متفرق في بطون مجلات وصحف ذلك العهد وبعضه روي في بعض الكتب الادبية . وهي بعد ذلك لم تجمع في مجموعة شعرية ، وأولى القصائد التي تصادفنا من آثار تلك الفترة وتلك القصائد التي تتعلق بالحرب الطرابلسية ، تجد نماذج منها في كتاب الشعراء الثلاثة (في سبيل الهلال الاحمر ٣٠٨ — ٣١١ ووداع لبعثات الهلال الاحمر ص ٣١٤) كما تجد مقطوعة في المقتطف (عتاب واستصراخ — م ٨٤ ج ٦ ص ٦٦٣) . ثم يجيء بعد ذلك قصائد ومقطوعات في الرثاء وفي بعض حفلات التكريم التي أقيمت لذلك العهد ، من ذلك قصيدته التي القاها عن تحية الشام لمصر في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ ابريل ١٩١٥ ومستهلها :

الى مصر أزف عن الشآم تحيات الكرام الى الكرام

وتجدها في الشعراء الثلاثة ص ٣٣٢—٣٣٤ ورثاؤه للشيخ علي يوسف (ص ٢٧٤—٢٧٧ الشعراء الثلاثة وقد تليت في حفل الاربعين بدار السادات مساء ٥ ديسمبر ١٩١٣) ومرثاته لجورجي زيدان

(١) مجموعة المراثي التي قيلت في سعد زغلول

(ص ٣٠٢ — ٣٠٣ الشعراء الثلاثة) ورثاؤه لنقولا رزق الله (ص ١٩٥ من الهلال م ٢٣ ج ٨ يولية ١٩١٥) وقصيدته عن ميشيل لطف الله وما ترد (ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من الهلال م ٢٤ ج ٣ ديسمبر ١٩١٥ والقصيدة منشورة بخط مطران)وقصيدته لاعانة الطلبة الشوام بالازهر (الهلال م ٢٤ ج ٦ ص ٥٠٤ والشعراء الثلاثة ص ٣٤٥-٣٤٦) وفي مستهلها يقول :

يا مصر أنت الاهل والسكن وحمىً على الارواح مؤتمن

ومن قصائده الغر لذلك الحين قصيدته عن « وفاة وردة » (الهلال م ٢٥ ج ١ ص ٢٣-٢٤) ومرثاة للدكتور شبلي شميل (١) (الهلال م ٢٥ ج ٥ ص ٤٢٤-٤٢٦ وبين الرياض وصاحبته (٢) (الهلال م ٢٥ ج ٨ ص ٦٢٤- ٦٢٦) و« الالم أخاء والوسيلة السخاء» (الهلال م ٢٦ ج ١ ص ٣٤٥-٤٣٥) ومستهلها:

عفوكم ما تقدمه أقـدام حتى مثلما عن مثله الاحجام

وتحية مطران لشوقي عقب عودته من المنفى (الشعراء الثلاثة ص ٢٥٩ - ٢٦٣) وقصيدة الآخاء والوئام بين أبناء مصر وابناء الشام (الهلال م ٢٧ ج ٨ ص ٧٤١ — ٧٤٣ وقد القيت في حفل في دار البطريركية المارونية بالقاهرة) و « حكاية وردة » (الهلال م ٢٧ ج ١٠ ص ٨٩٧ — ٩٠٠) وفيها التأثر واضح بسونتات شيكسبير وقصيدة « يوم البرميل او مرقص البر والبحر » (م ٢٩ ج ١ ص ٧٠ - ٧٢) و « الحياة والفن في تكريم محمود مختار المثال بمناسبة نحته تمثال نهضة مصر (الهلال م ٢٩ ج ١ ص ١٧ - ١٨)ومرثاته لولي الدين يكن(الهلال م ٢٩ ج ٨ ص ٧٤٣- ٧٤٤ وقد ألقيت في حفلة التأبين) وقصيدة « الحديقة المرشوشة » (الهلال م ٣٠ ج ١ ص ١٦) و « الى ميّ» شكراً لها على اهدائها له « ابتسامات ودموع » (الهلال م ٣٠ ج ٢ ص ١٢٥-١٢٧) و « رثاء مريانا مراش » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٢١ ٣٢٢ ومقدمة بكلمة من مجلة الهلال فيها ان هذه القصيدة بوصفها لم يسبق مطران اليها سابق في العربية) و « النوارة او زهرة المرغريت » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٣٠) و « نشيد الكشافات » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٨٧) و « رثاء نعوم شقير » (الهلال م ٣٠ ج ٨ ص ٧٤٤ - ٧٤٥) ومرثاة اسماعيل صبري باشا (الشعراء الثلاثة ص ٢٧٧ - ٢٨٣) و « الشعر الذهبي » (الهلال م ٣٢ ج ١ - ٢ ص ٢٩) و « صيحة ألم » (الهلال م ٣٢ ج ٣ ص ٢٤١) و « يوم الخميس » (الهلال م ٣٢ ج ٥ ص ٤٧٦-٤٧٧) وفي ظل تمثال رعمسيس (المقتطف م ٦٤ ج ٢ ص ١٢٩-١٣٤) و « الحسن الجديد » (الهلال م ٣٢ ج ٧ ص ٦٨٩) و « نشيد توت عنخ أمون » (الهلال م ٣٢ ج ٩ ص ٩١٣ وقد لحنتها فيكتوريا ملحمة وأنشدتها في حفل)]

وفي هذا الوقت في صيف عام ١٩٢٤ سافر مطران الى سوريا وطاف في ربوعها وانتهى الى حلب وعملت لهُ حفل تكريم في نادي الشبيبة الكاثوليكية تحت رعاية الحاكم العام لحلب وذلك في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ وألقى فيها مطران قصيدة عصماء عن حلب (تجدها ص ٤٨٩ — ٤٩٢ من مجلة الكلمة السنة ١٣ عدد تشرين ثاني وكانون أول ١٩٣٨)

ورجع مطران من القطر السوري وعكف على ترجمة كتاب عن البروفسور بايون مدير جامعة اكس موضوعهُ الارادة ، لشر منهُ فصولاً في مجلة الهلال ، تجدها منثرة على صفحاتها لذلك الحين (٣)

---

(١) الهلال م ٣٦ ج ١٠ ص ١٢٠٤ يقول مطران : انه يتعرض لقرض الشعر بالحاح قاهر مثال ذلك مرثاته لشبلي شميل. فقد جعله الحزن يجيد بدلاً من ان يستسلم للدموع ويبكي، فهو يفرج عن ضيق نفسه وعاطفة الحزن التي عنده بتأليف القصيدة ويخرج منها كالرجل المحزون يبكي حتى يكاد يقتل نفسه من البكاء

(٢) نظمت عام ١٩١٤ وأهديت الى مدام تقلا باشا شكراً لها على اهدائها هدية ثمينة اليه وهي من النوع الرمزي - ص ٢٦٤ س ٢ م ٢٥ ج ٨ من الهلال (٣) الهلال م ٣٣ ج ١ ص ٥٧ — ٦٢ و ج ٢ ص ١٢٥-١٢٧ و ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ و ج ٤ ص ٣٥٧-٣٦٠ و ج ٥ ص ٤٧٢ - ٤٧٥ و ج ٦ ص ٦٣٤ — ٦٣٦

وقد أظهر مطران لهذه الفترة من الزمن بجانب نشاطه في عالم الشعر ، نشاطاً يذكر في عالم النثر . فقد نشر ثلاثاً من ترجماته لروائع مسرحيات وليم شيكسبير وقد سبقت الاشارة الى ذلك ، كما كتب مطران فصولاً أدبية تمتاز بمطالعاتها العميقة في الاهرام والهلال والمقتطف ، من تلك الكتابات ما كتبهُ عن دائرة المعارف لفريد وجدي (الأهرام — ١٩ سبتمبر ١٩٢٢) ، وما كتبهُ عن الجزء الثاني من البؤساء ترجمة صديقه حافظ ابراهيم (الأهرام ١٠ اكتوبر ١٩٢٢) ، وما نشرهُ عن كتاب « كلمات وإشارات » للآنسة مي (الهلال م ٣٠ ج ٥ ص ٤٩٩ ـ ٤٥٠) ، وما كتبهُ من دراسة نقدية لديوان ولي الدين يكن (المقتطف م ٦٦ ج ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٩)

***

تعتبر الفترة التي بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣٨ ، الفترة التي بلغ فيها الخليل ذروته من الشعر وقد استهل هذه الفترة بملحمته العظمية « نيرون » التي تعتبر اول ملحمة من الشعر في الادب العربي ، وهي خير ما نظمهُ الخليل ، ويظهر فيها مطران وقد ملك أعنة خياله الوثاب وهضم شيكسبير هضماً قويًّا فلم تتسرب معانيه وأغراضه الى ملحمته الا بعد ان مثلها وأدارها في ذهنه فجاءت من نفسه . وهذه الفترة من حياة مطران يمكن ان نقول عنها ، انها فترة ظهوره بالاغراض الشيكسبيرية في الشعر ، ولكن على اساس من الرجوع الى نفسه

والاشعار التي قالها مطران لهذه الفترة من الزمن غير مجموعة في ديوان ، فهي متفرقة في بطون صحف ومجلات ذلك العهد ، ونحن نذكر منها ونسجل أهم ما استوقفنا منها على ان نعود في المبحث العاشر وتثبتها كلها . وأول ما يصادفنا من شعره لتلك الفترة الزمنية قصيدته « بائعات الازهار » (الهلال م ٣٥ ج ١ ص ٢٤ قيلت في وصف فتيات يبعن الازهار في حفلة لاعانة منكوبي الشام) و« وصف مغنية » (الهلال م ٣٥ ج ١ ص ١٧٧ وهي في وصف مغنية شاهدها في حفلة وئام وائتلاف) و « ايزيس او الحب الخالد » (الهلال م ٣٦ ج ٦ ص ٦٥١ ـ ٦٥٢) و « موليير » (م ٣٧ ج ١ ص ١٨ ـ ١٩ من الهلال) و « في سبيل الصناعة الوطنية » (الهلال م ٣٨ ج ١ ص ٤٤ ـ ٤٥) و« ماصير القوم» (المقتطف م ٧٧ ج ٣ ص ٢٥٦) و « هند » (الهلال م ٣٩ ج ٢ ص ١٨٩) و « بنت شيخ القبيلة » (المقتطف م ٨٠ ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤) و « مفاخر الهدايا للعروس المحسنة » (ابولو . م ١ ج ٣ ص ٧٢٤ ـ ٧٢٧ وهي في ٩ مقاطع) و « النرجسة » (الهلال م ٤١ ج ٩ ص ١٢٥٩) و« مرثاته لحافظ » (ابولو م ١ ج ١١ ص ١٢٩٨ـ١٣٠٦ وتعليق عليها للاستاذ احمد الشايب في نفس المرجع ص ١٣٠٦ـ١٣١٠) و « بنفسجة في عروة » (ابولو م ١ ج ١ ص ٦ ـ ٨) و « النيل الخالد » (أبولو م ١ ج ٤ ـ ص ٤٨٧ ـ ٤٩١) و « تكريم زكي مبارك » (أبولو م ٢ ج ٩ ص ٨٠٧ ـ ٨٠٨) و « رثاء شيخ العروبة » أبولو م ٣ ج ٤ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٨) و « بين عروسين » (مجلتي م ١ ج ٥ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥) و « شبل الأسد » (الاهرام ٢٩ ـ ٧ ـ ١٩٣٧ ص ٩)

وقد تضافرت الروايات عام ١٩٣٣ عن عزم مطران ان يخرج مجموع شعره كاملاً في ديوان مشفوعاً بدراسة نقدية وافية من قلم الدكتور طه حسين[1] غير انهُ على الرغم من مضي

(١) ابولو : م ١ ج ٢ ص ٧٠٢ وبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية . الملحق الثاني فقرة ١٥ ص ٨٩ ـ ٩٦)

خمس سنوات على ذلك التاريخ ، لم يخرج مطران شيئاً . وان كان يروي من جديد انهُ شارع في جمع شعره وتنقيحه مقدمة لإخراجه في ديوان على ابناء العربية . ولا شك ان صدور مثل هذا الديوان سيكون غنماً عظيماً للادب العربي المعاصر ، لانهُ سيجمع شعر ثلاثين سنة من نظم الخليل مما لم يثبت في ديوانه الاول ومما هو متفرق في بطون الصحف والمجلات العربية في مصر وسوريا ولبنان . على اننا من باب التسجيل التاريخي قد اثبتنا هنا ما قدرنا على اثباته من المواضع التي عثرنا فيها على شعره ، وسنثبت في المبحث العاشر ، كل ما عثرنا عليهِ من كلام منظوم أو منثور في ثبت يساعد من جهة على حصر آثاره ، ومن جهة أخرى على دراسة شعره

***

لقد ساعد ما كان للخليل من حظ في الحياة الأدبية العربيَّة أن يجعل لهُ مكاناً بين أدباء العربية المعاصرين ، فذاع وانتشر اسمهُ وأصبح الرجل ملء اسماع الناس في الشرق العربي ، وانتبه لهُ المستشرقون في أوربا ، فكتبوا عنهُ وجعلوهُ رأس مدرسة جديدة في الأدب العربي [١] وذهب البعض يقارن بينهُ وبين شوقي بك ، ومنهم من قدَّمَهُ على شوقي واتخذهُ اماماً وزعيماً للشعر المعاصر [٢] — ذلك أنهم أخذوا بروعة الجديد الذي حمله شعر الخليل ومنحاهُ الشخصي في شعره الذي يطبعهُ بطابع خاص [٣] ـ وليس هنا مجال الكلام على شاعرية الخليل وأغراض شعره وما يلبسهُ هذا الشعر من الصور التي يرتديها من عالمي الوجدان والطبيعة ، فلذلك مكانه الخاص من دراستنا . اما الذي نريد تقريره هنا ، أن هذه الحياة الحافلة التي عاشها الخليل نظراً لانها كانت حياة ضخمة ، فقد ملأت أسماع الناس ، وكانت قدوة للكثيرين ، وأحدثت أثراً لم يحدثهُ غير القليل من الأدباء الاعلام الذين عاصروه

والواقع ان مطران عاش عيشتين : عيشة مادية في عالم الواقع ، تتوضح صورتها في جهاده في الاعمال المالية والاقتصادية والزراعية . وعيشة ذهنية تتظاهر في الحياة الشعرية التي عاشها . غير ان الحياة الذهنية كانت غالبة عليه ، ولهذا لم ينجح مطران في حياته في عالم الاعمال ، وهو نفسه يعترف بأنهُ لم يخلق للجهد العملي وان مملكته الحقيقية لاتخرج عن عالم الذهن [٤]

وحياة مطران التي دارت في معظمها في عالم الذهن ، كانت حياة شعورية يتعارض في

---

(١) بروكلمان تكملة تاريخ الآداب العربية . اللحق الثاني فقرة ١٥

(٢) صديق شيبوب ـ البصير ـ العدد ٨٤١٨ ـ ٥ يونية ١٩٢٥ ص ١

(٣) صديق شيبوب في البصير — ٥ يونيـة ١٩٢٥ ص ١ والشايب في أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ — ١٣٠٨ (٤) مطران في حديث له مع سلامه موسى بالهلال م ٣٦ ج ٩ ص١٠٣٤–١٠٣٨

شبكة اقفالاتها الفكر والعقل . ومن هنا كان مطران شاعر الفكرة في الأدب العربي الحديث (١) ، وقد عرف ذلك معاصروه منهُ فاعترفوا له بهِ وفي ذلك يقول حافظ ابرهيم :

« هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد ، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي . وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث وطوفوا بسرد وقائع التاريخ ففتح بذلك فتحاً جديداً » (٢)

كما وان الاستاذ الشايب يعترف له بذلك فيقول :

[ان مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق ، وخيال عام ، وأفكار سديدة] (٢) ـــ

هذا والشيخ ابراهيم اليازجي يشهد له بتمكنه في الأدب الى حدّ أنْ ليس بين المعاصرين من يقدر أن يمشي معهُ فيقول عن قصيدتهِ في رثاء نجيب الحداد

« هذا هو شعر خليل مطران الحقيقي ولو كان شعره على هذه الصور والمعاني وهذا الحسن في الصنعة في اظهار العواطف لما مشى معه أحد من المعاصرين (٤)

وليس المجال استقصاء كل ما قيل في الخليل فهو لو جمع لكان كتاباً ضخماً (٥)

خاتمة

يبلغ الخليل الآن من سني حياته العامرة بحافل الاعمال والآثار الثامنة والستين من عمره . وقد عرضنا لهذه الحياة في خطوطها العامة ونزلنا بها الى الأصل الثابت من نفسهِ مستعينين على ذلك بكلام الخليل حيناً وبما كتب عنهُ حيناً آخر ، مالئين الفراغ الذي في هيكل حياتهِ بما يمكن أن يُستخلص من شعره . وهكذا انتظمت معنا حياته في سلسلة تتدرج جميعها في صورة مطردة ترتكز على الواقع . اما امتداد هذه السلسلة في المستقبل فتروك الى الزمن بحيث لا يخرج ما يجد لمطران من وقائع وآثار عن نطاق الخطوط التي رسمناها لشخصيته في دراستنا

على أنهُ مما يحسن التنبيه اليهِ هنا اننا في اثناء استعراض سيرة الرجل لم نتوسع في سرد الشواهد التي اعتمدناها لتفصيل حياته والاستدلال منها على الاصل الثابت من شخصيته لان الكثير من هذه الشواهد مبثوث في المراجع التي اثبتناها في الحواشي وقد تركناها لمراجعة القارىء وفطنته .

---

(١) أحمد الشايب في مجلة أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ ـــ ١٣٠٨

(٢) الشعراء الثلاثة ص ٢٥٣ ـــ ٢٥٤ (٣) الشايب في ابولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ (٤) أنيس الجليس ، السنة ٩ ج ٩ ص ٣٧١ (٥) أنظر العدد الخاص بمطران من مجلة سركيس ـ عام ١٩٠٣ ـ والشعراء الثلاثة ص ٣٥٢ ـ ٢٥٥ ومن المهم أن تقول أن في المصدر الاخير يوجد كلام عن مطران ص ٥٣ منسوب للمنفلوطي وهو في الاصل منشور بمجلة سركيس م ٢ ج ١٩ سبتمبر ١٩٠٦) ص ٢٧٦ جاء ضمن مقال بعنوان طبقات الشعراء بدون توقيع ويظن أنه للرافعي

ان تؤمني ...

للدكتور ابراهيم ناجي

أنتِ ان تؤمني بحبي كفاني   لا غرامي ولا جمالك فاني

أجْدَبَ الهجر خاطري وجناني   وأجَفَّ النوى دمي ولساني

فتعالي روّي الظّما في عيوني   واجنوني لقطرةٍ من حنَان

طال والله في بعادك ذُلّي   ووقوفي على ديار الهوان

أي سحر أُحِسُّهُ أي روحٍ   سكبتْ فيَّ هاته العينان

لكأنَّ الرميم ما تبعثان   وكأنَّ النشور ما تسكبان

وكأنّي محلّقٌ في سماء   ومُطلٌّ منها على الأكوان

مستعزٌّ بما مَنَحْتِ قويٌّ   أجمع الكون كلّه في عناني

الاثمار

وقيمتها الغذائية

للدكتور عبده رزوق

تُعدُّ الاثمار بلا مراء في مقدمة الاطعمة المفيدة بل الضرورية لصحة الانسان. وميل الاولاد بدافع الفطرة الى محبة الاثمار من أفضل الأدلة التي تدعو الانسان الى تناولها حسبما يلائم صحته وسنه. فهي تنقل الى الانسان محضَّرات «المطبخ الشمسي والجوي» العجيبة التي لا يمكن الشك في منافعها لحظة واحدة. زد على ذلك فالأثمار ليست بالاطعمة التي تجهد الجهاز الهضمي أو تسبب ارتباكاً فيهِ متى أُخذت باعتدال، ولا هي فقيرة من ناحية قيمتها الغذائية، بل على الضدّ من ذلك يجب اعتبارها أطعمة تدَّخر فيها قوى حيوية عظيمة

ولذلك فالمداواة بالاثمار أو عصاراتها من الامور المعروفة اليوم كوسيلة لتنقية الجسم من الأدران والفضلات السامة في كثير من الامراض الحادة والمزمنة بفضل فعلها المقوي والمنقي معاً، وهذه المداواة لا تختلف في تأثيرها في المريض عن الاقتصار على اللبن الحليب في الامراض نفسها

وعدا ذلك فقد ثبت بالاختبار أن الانسان الذي يقتصر على تناول الاثمار يسهل عليهِ أن يعيش بغير انزعاج خلافاً لما يعتقدهُ بعضهم من انها خالية من المواد المغذية، ولستُ اقصد بذلك الرجوع الى ما كان عليهِ اجدادنا الاولون الذين كانوا يقتصرون على تناول الاثمار دون سواها، انما يجب علينا تعاطيها اكثر مما نتعاطاها عادةً في هذه الايام، أولاً لانها تعتبر دواءً مفيداً جداً ضد الامساك، وثانياً لكونها مغذية ورخيصة معاً. ثم ان عصيرها يثير الشهية للطعام كما أن رائحتها وطعمها يفعلان فعل التوابل والمقبلات. ولنأخذ مثلاً على قيمة الاثمار الغذائية الموز، الذي يحتوي في الكيلوغرام الواحد على: ٦ الى ١٢ غراماً من المادة الزلالية و ٣ الى ١٢ غراماً من المواد الدهنية و١٣١ الى ٢١٨ غراماً من هيدرات الكربون. ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الانسان يستطيع أن يعيش اذا اكتفى بأكل الاثمار. والذين يدعون الى مذهب الاقتصار على الفواكه يفضّل رأيهم على رأي الذين يدعون الى الاقتصار على تناول الخضروات. لأن الاثمار غنية خاصة بالاملاح العضوية: كالطرطيرات والمالات والسيترات التي تسبب افرازاً وافراً من عصير البنكرياس، كما انها تحتوي ايضاً على الغليكوز واللفلوز وغيرها من المواد التي تحترق وتمد الجسم بالقوة والحرارة. وعلاوة على هذا كله فالاثمار تحتوي على الفيتامين — هذه الاجسام الغريبة التي لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة على كثرة المكشوفات الحديثة في ميدانها ولكن لا يختلف باحثان مختصان في أنها ضرورية للحياة

انما هناك شيء واحد يؤسف لهُ وهو ان تعاطي الفواكه الغضة او النيئة يتطلب أولاً النظر في حالة الاسنان والمعدة ، فبعض الناس مثلاً لا تستطيع معدهم ان تتحمل سوى أصناف معينة من تلك الفواكه لان هذه تسبب غالباً عند المصابين بعسر الهضم عجزاً وارتباكاً في الجهاز الهضمي، فيشعر المريض إذ ذاك بثقل في المعدة في اثناء النهار ، وباضطراب وأحلام مزعجة ليلاً في أثناء النوم

واليك الآن اصناف الأثمار المسموح بتناولها لذوي المعد الضعيفة :—١—الأثمار الغضة الناضجة: العنب . الخوخ . الموز. الدراقن . يوسف افندي ٢ —الأثمار المطبوخة : التفاح. الخوخ . الموز. البرتقال . المشمش . الاناناس . الدراقن . الكرز . التوت الافرنجي (Fraises)

اما الأثمار الممنوعة عنهم سواء أفجة كانت أم ناضجة فهي: الاجاص. الريباس(Groseilles) كذلك الأثمار الجافة الشديدة الحلاوة كالتين والتمور . والدسمة : كالجوز واللوز والبندق

ومن الأثمار ما يسبب اضطراباً في الهضم بالنظر لتركيب انساجها الخارجية : كالاجاص (الكمثرى) والتفاح فهي على الرغم من نضوجها التام لا تلائم الذين يشكون ارتباكاً في وظائف الهضم وخاصة عند الذين يمضغون مضغاً ناقصاً او الذي تلفت اسنانهم اي أصيبت بالنخر . فوالحالة هذه تؤثر الاثمار المذكورة تأثيراً سيئاً وتسبب نفس الاضطرابات التي تحصل أحياناً من تناول بياض البيض الجامد او الفطر (Champignons) وبذلك تكون عائقاً للعصارات الهضمية وتفعل فعل الاجسام الغريبة في الجسم . كذلك تفعل التمور والتين وقشور بعض الأثمار (كالدراقن والخوخ والاجاص الخ) — عندما يعتري اعضاء الهضم او وظائفه ضعف ما

وبوجه عام يجب الامتناع عن تناول الأثمار الاَّ بعد نضوجها التام اي بعد ان تكون قد طرأت عليها الدورة الطبيعية تحت تأثير الشمس ، وبعبارة أخرى التغييرات التي تميزها عن الأثمار الفجة

والثمرة الناضجة تحتوي على : ١ — الماء : وذلك بنسبة ٧٨ الى ٩٠ ٪ اما الموز فماؤه أقل (٧٤ ٪) وأما البطيخ الاصفر فماؤه اكثر (٩٥ ٪) ٢ — السكر وهو ما تتميز بهِ الثمرة الناضجة فيعطيها قسماً وافراً من حلاوتهِ ٣ — الحوامض : ان حموضة الأثمار تختلف باختلاف نوعها ونسبتها تكون ٢ الى ٣ ٪ ٤ — الروائح العطرة : وهذه تعطي مختلف الأثمار الناضجة طعماً ورائحة خاصين بها ٥ — سليلوس : قسم من هذا على الأقل يغدو من نفايات الجسم . لكنهُ يساعد ميكانيكيًّا حركات الامعاء الدورية التي تحصل بتأثير تقلص أليافها العضلية ، وبذلك يتساعد على تفريغ الامعاء بانتظام . فضلاً عن هذا فبعض الأثمار يحتوي على مواد دهنية (كالجوز واللوز والبندق) وأخرى تحتوي على مواد نشوية كالموز مثلاً

اما نسبة السكر في ثمرة ما فتختلف دائماً بحسب حالة نضوجها وبحسب السنين أيضاً . ففي فصول الصيف الجافة والمشمسة مثلاً تكون نسبة سكر الأثمار فيها وافرة . اما في فصول الصيف الرطبة والقليلة شمسها فالأمر يكون على عكس ذلك اي ان نسبة السكر في الاثمار تكون فيها

قليلة وحموضتها شديدة . ومن ذلك نستخلص النتيجة التالية: في بعض السنين الجافة والحارة جداً يكون السكر متجمعاً — الى حدٍّ ما — في لب الاثمار حتى ان عصيرها يلوّث اصابع الذي يتناولها . بينما في السنين الرطبة والقليلة شمسها لا تلاحظ تلك الخاصية على الاطلاق . ولهذا يخشى في فصول الصيف الحارة والجافة من اعطاء الاثمار الى المصابين بضعف ما في الجهاز الهضمي ، واذا اردنا ان نسمح لهم بتناولها فليكن ذلك بالاحتراس التام ، ولا سيما الذين يشكون مرضاً ما في الكبد . أما الذين يهضمون الاثمار ، على انواعها جيداً ففائدتهم الصحية تقضي بأن يتناولوا منها ما يشاءون بدون وجل او تردد . وأما ذوو المعد الضعيفة فينبغي ان يقتصروا على تناول الاثمار المطبوخة وذلك بشكل (خبيصة) Marmelades بعد اضافة السكر اليها او عدم اضافته مع العلم ان الاكثار من السكر يسبب حموضة المعدة . وخبيصة الفواكه المطبوخة تفضل بوجه عام على المربى لكونها تحتوي على قليل من السكر وكثير من الماء

ويجب ألاَّ يغرب عن ذهننا ان هضم الاثمار منوط على الخصوص بفعل المضغ. فبقدر ما تكون الثمرة ممضوغة بالاسنان وممزوجة باللعاب يكون هضمها ، كما هو معلوم ، سهلاً وأدنى الى التمام اما اصناف الاثمار المطبوخة الصعب هضمها والتي ينبغي على كل شخص ضعيف المعدة أن يتجنبها فهي:

(١) عصير الاثمار المجمد (Gelée) ومربيات الفواكه لاحتوائها على قدر وافر من السكر (٢) الاثمار المطبوخة عند ما تكون كاملة او مقطعة قطعاً (Compotes) (٣) الاثمار المجمدة والمشربة السكر ، والاثمار المطبوخة المضاف عرق اليها (٤) اقراص المعجنات واقراص الحلوى المحشوة بالاثمار لان عجين هذه الاقراص يكون غير مختمر اختماراً كافياً

ومن فوائد تناول مقادير وافرة من الاثمار في حالة الصحة ، مكافحتها وطأة الامساك لأنها تطرد السموم من الجسم كما ذكرنا اعلاه وتلين الامعاء وتسهل تفريغها بما تحتوي عليه من مقادير وافرة من القلويات والماء . وهذا المفعول الحسن له تأثيره بنوع خاص في الكبد والكلى والدورة الدموية التي يخف التعب عنها كثيراً ولاسيما الكلى التي تستريح لأن الاثمار لا تسبب لها اي تعب او اجهاد . وللحصول على أفضل نتيجة يحسن بنا تناول الاثمار قبل طعام الفطور صباحاً ، وفي الساعة ١٠ صباحاً ، كذلك في الساعة ٤ بعد الظهر . ومما يجدر ذكره ايضاً ان بعض الاطباء كانوا الى عهد قريب يمنعون الاثمار عن المصابين بداء الرثية والنقرس خوفاً من تأثير الاملاح العضوية التي تحتويها هذه الاثمار . لكن اطباء اليوم قد خالفوا هذه الفكرة الخاطئة واوصوا بتناول مقادير وافرة من الاثمار منذ ان تأكدوا ان تلك الاملاح تتحول في الجسم الى كربونات قلوية تزيل حموضة الدم . ولهذا نعرف أن نقدّر اليوم ما للاثمار من المفعول الحسن في داء النقرس والرثية فيوصى يومياً بتناولها وخاصة العنب والكرز والتوت الافرنجي والليمون الحامض الخ . انما يجب الاحتراس كي لا يحصل اضطراب في الجهاز الهضمي اي ان لا يتجاوز ما يتناوله

الانسان منها الحدّ اللازم . والى القارىء نبذتين خاصتين بالكرز والتوت الافرنجي :

(١) الكرز : يحتوي الكرز الغضّ في حالة نضوجه التام على ٨٠ ٪ من الماء و ١٠ من السكر و٢ هيدرات الكربون و١ حوامض و ٠،٧ مواد زلالية و٦ سليلوس . ومن الضروري التمييز بين الكرز الحلو والكرز الحامض. فالأول منهما يوصى استعماله بنوع خاص في حالة المصابين بعسر الهضم ، بينما الثاني لا يمكن السماح بهِ لجميع المصابين على السواء . وعلى كل ينبغي ان يكون الكرز ناضجاً نضوجاً تامًّا ، وكأغلب الأثمار يجب منعه عن المصابين بالالتهاب المعوي

والكرز يُعتبر صحيًّا من المبردات اللطيفة ولاسيما اذا مزجنا عصيره بالماء وأعطيناه كشراب للمحمومين . كذلك يكون مفيداً جدًّا كمدرّ للبول وملين خفيف للامعاء . ومن الكرز الجاف يمكن تهيئة منقوع مغلي كمدرّ للبول ايضاً وذلك باضافة ٥٠ غراماً من الكرز الجاف الى ليتر واحد من الماء . فهذا المنقوع يفيد جدًّا الاشخاص الذين ادرارهم كثيف ونادر ، كذا ينفع المصابين بداء النقرس والرثية .وسواء كان الكرز طازجاً او مطبوخاً فهضمه سهل جدًّا . اما المربيات المستحضرة منهُ فتتطلب معدة سليمة لهضمها دفعاً لحصول ثقل في المعدة والامعاء

اما الكرز الجاف فيحتوي في كل ١٠٠ غرام على : ماء ٥٠ و سكر ٣١ وهيدرات الكربون ١٤ ومواد زلالية ٢ وبقايا ١،٥ . واذا اردنا الآن ان نأخذ مقداراً معيناً من الكرز الجاف والكرز الطازج فالأول منهما يكون اكثر غذاء من الثاني

(٢) التوت الافرنجي : يختلف مفعول هذا الثمر باختلاف الاشخاص. وبوجهٍ عام يُعدّ من الأثمار الملطفة للجسم . اما لذوي المعَد الضعيفة ولذوي الاستعداد لبعض الامراض الجلدية كالشري والاكزيما فيعتبر مضرًّا . وعلى نقيض ذلك يكون مفيداً جدًّا في حالات الرثية وداء النقرس والحرَض Arthritisme وعند ذوي الامزجة الصفراوية والامتلاء الدموي وخاصة في حصى المجاري البولية . والاقتصار على تناول التوت الافرنكي يعادل تماماً بمنافعه الاقتصار على تناول العنب ، كحمية للمريض ، عند المصابين بداء الرثية وامراض الكبد والحرض .فيؤخذ منهُ قدر ٢٠٠ الى ٤٠٠ غرام يوميًّا مع الاحتراس في مراقبة حالة الجلد والامعاء لأن هذا الثمر يسبب عند بعضهم الحكة او الشري، ويحدث القبض من ناحية الامعاء. ويحسن باصحاب المعَد الضعيفة تجنب مربيات هذا الثمر لأنها تسبب غالباً ثقلاً وارتباكاً في المعدة . أما شراب التوت الافرنجي فنسبة تركيبه كما يلي : سكر ٦ اقسام وماء قسمان وتوت افرنجي ٣ أقسام . وبعد أن يذاب السكر في الماء يضاف اليهما التوت الافرنجي ثم يغلى الخليط بضع دقائق وبعدها يُعصَر ويُصفّى . ولا حاجة الى التذكير هنا أخيراً بضرورة غسل هذه الفواكه قبل تناولها لأن الارض التي تُزرع فيها غالباً ما تسقى بمياه أو سوائل أُخرى مشكوك في نظافتها

بحث اقتصادي

صناعي مقابل في موقف

ايطاليا وألمانيا منها

— ١ —

القوة الحربية في العصر الحديث تقوم على أساس صناعي، وما الجيوش والاساطيل وأسلحة الطيران الا الحد القاطع من السيف، واما النصل كله فهوما يعرف باسم «الامة في حالة حرب» ولاسيما صناعاتها وزراعتها ومواصلاتها، والصناعات الحربية على وجه الخصوص. لان ماتتطلبهُ القوات الحربية من الاسلحة والذخائر لاحد له، والصناعات تقوم بعملها على الوجه المطلوب، اذا هي غذيت بتيار لا ينقطع من الخامات، وأهم الخامات التي تحتاج اليها الصناعة في حالة جرب، هي خمسة عشر خاماً — الفحم والحديد والبترول والنحاس والرصاص والنترات والكبريت والقطن والالومنيوم والزنك والمطاط والمنغنيس والنيكل والكروم والتنغستن

فما هو موقف ايطاليا من هذه الخامات؟ أيها يستخرج في أرضها وأيها تحتاج الى استيراده؟ ليس في ارضها فحم ولا بترول ولا نحاس ولا قطن ولا مطاط ولا نيكل ولا كروم ولا تنغستن، ويستخرج من أرضها ١٥ في المائة مما تحتاج اليهِ من المنغنيس. أما الكبريت والزنك فيستخرج منهما في أرضها مقدار كبير يفيض على ما تحتاج اليهِ منهما، وأما الحديد فنطاق استخراجه فيها آخذ في الاتساع ولكن المقدار المستخرج لا يكفي تماماً لما تحتاج اليه صناعتها في أبان السلم وقلما يكفي نصف ما تحتاج اليهِ في ابان الحرب، وأما الرصاص والنترات والالومنيوم فتستطيع أرضها ان تجهزها بنحو ثلثي الى خمسة اسداس ما تحتاج اليهِ منها في أبان السلام

وهذا يعني ان إيطاليا لا بدَّ ان تعتمد — وهي في حالة حرب — على استيراد كثير من المواد التي تحتاج اليها لمواصلة تلك الحرب. واحتياجها الى الاستيراد متفاوت اذا استثنينا الكبريت والزنك. ولبيان مدى هذه الحاجة نرجع الى ما استوردتهُ سنة ١٩٣٤ وهي آخر سنة يتاح فيها للباحث احصاء يصح الاعتماد عليهِ فيما يخص وارداتها

ففي تلك السنة استوردت إيطاليا من الحديد والصلب ما قيمته ٣٦٢ مليون ليرا ومن

الزيوت المعدنية ما قيمته ٣٧٧ مليون ليرا . والدولة المستوردة التي في حالة حرب ، تستطيع ان تفوز بما يعوزها من خامات الصناعة والحرب ، بأحد طرق ثلاثة

١ — فاما ان تصنع بديلاً منها بأساليب صناعية اقتصادية

٢ — وإما ان تعتمد على ما تخزنه منها في إبان السلام

٣ — وإما ان تستوردها في خلال الحرب من الخارج

أما الطريق الاول فلا يعلم أن هناك عوضاً أو بديلاً صالحاً يحل محل الحديد والصلب في صنع الاسلحة ولا هناك عوض آخر يحل محل الفحم في صناعة الحديد والصلب ، ولا عوض للبترول في تسيير السفن الحربية المسيرة بهِ ، والطائرات أو السيارات والدبابات التي اصبحت جزءا اساسيًّا في كل جيش حديث . وهذا على سبيل التمثيل دون الحصر

وأما الطريق الثاني، فقد دل تاريخ الحروب على أن ما يستهلك من مواد الحرب في اثناء الحرب يفوق كل ما يقدر لهُ في اثناء السلام . ويضاف الى هذا أن حالة ايطاليا المالية لا تسمح لها بأن تنفق مبالغ طائلة على شراء مواد وخزنها اليوم العصيب لأنها بذلك « تجمد » القليل الذي تملكه من الكمبيو الأجنبي . وما تستطيع أن تخزنه قد لا يكفي لحرب قصيرة علاوة على ارهاقها من الناحية المالية. وخزن المواد للحرب جزء اساسي من كل خطة حربية . ولكن هذا المخزون لا يقصد منهُ الاَّ سد الثغرة بين استهلاك السلام واستهلاك الحرب في بدئها . ومهما يعظم المخزون فلا بد من الاستيراد في حرب كبيرة بين دول متكافئة فلا يبقى امامها الاَّ طريق الاستيراد

والاستيراد من الخارج يقتضي في المقام الأول اعتمادات مالية اجنبية . والاعتمادات المالية الاجنبية تجيء إما من زيادة الصادر على الوارد . وإما من ثروة ابناء الدولة المثمرة في البلدان الاجنبية فتصفى عند الحاجة اليها وتنفق لشراء المواد اللازمة . وإما بتصدير الذهب

وحالة إيطاليا التجارية في العهد الاخير لا تتيح لها الاعتمادات الاجنبية من طريق زيادة صادرها على واردها . ولا من طريق ثروة الايطاليين المثمرة في الخارج لان معظم هذه صفيت في الحرب الحبشية وما تلاها . ففي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ كان ما لحساب ايطاليا في البلدان الاجنبية ٦٣ مليون ليرا وهو خمس ثمن وارداتها العادية السنوية في إبان السلام . وقد كان هذا الحساب سنة ١٩٢٨ يزيد على ست آلاف مليون ليرا فأخذ ينقص تدريجاً حتى بلغ ما بلغهُ في آخر سنة ١٩٣٦ ويضاف الى هذا ان نفقات الحملتين الحبشية والاسبانية قضت على الحكومة بفرض ضريبة على رأس المال قدرها ١٠ في المائة

أما الذهب فالاحتياطي الايطالي منهُ كان يقدر في سنة ١٩٣٣ بنحو ٧٥ مليون جنيه فنقص الى نحو ٦١ مليون جنيه سنة ١٩٣٤ فالى نحو ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٣٥ فالى نحو ٢٥ مليون

جنيه سنة ١٩٣٦ وهذا المبلغ كان ٧ في المائة من احتياطي ذهب فرنسا و ٨ في المائة من احتياطي ذهب انكلترا في الوقت نفسه . واذا قيل : ألا تعقد لها قروض ؟ كان الجواب أين ؟

فاذا كانت في حرب مع فرنسا وانكلترا فمن المؤكد انهما لن تعقدا لها قروضاً . والمانيا لا تستطيع . واميركا بحسب قانون جنصن حظرت عقد القروض لدولة لم توف ديون الحرب التي عليها لاميركا . هذا من ناحية ثمن ما تحتاج اليه

ولكن المسألة لها ناحية أخرى هي ناحية المواصلات البحرية . فاذا كانت ايطاليا في حرب مع انكلترا وفرنسا فمنفذا البحر المتوسط من الغرب والشرق سيوصدان في وجهها . نعم لهذا الايصاد ناحية استراتيجية من حيث امكانه وقانونيته في ما يتعلّق بترعة السويس . ولكن اذا كان التفوق للقوات البحرية البريطانية والفرنسية ، فالايصاد يمكن أن يتم في المحيط الاطلنطي من الغرب امام مدخل مضيق جبل طارق ، وامام مدخل ترعة السويس في شرق البحر المتوسط . ثم أن القوات البحرية البريطانية المستندة الى قبرص والاسكندرية وحيفا تستطيع أن تعرقل مواصلات ايطاليا في شرق البحر المتوسط وتخفض مقدار ما تستطيع استيراده من بلدان سواحله الشرقية . ووقوف تركيا في جانب فرنسا وبريطانيا يفضي الى قطع مواصلات ايطاليا بتاتاً مع روسيا ورومانيا ومنهما معظم البترول الذي تستورده ايطاليا

وعلى ذلك تبقى مواصلاتها البحرية حرة تماماً في البحر الادرياتيكي فقط مع يوجوسلافيا والبانيا ومن المحتمل مع اليونان ايضاً . ويوجوسلافيا تنتج بعض الفحم والحديد ، ولكنها على العموم تستورد مقادير منهما . وفي اليونان بعض موارد معدنية ولكنها قلما تصدر . وأما البانيا ففيها ينابيع بترول والمعروف عنها أن ما يمكن استخراجهُ منها يكفي ثلث ما تحتاج اليه إيطاليا من البترول في إبان السلام فقط

ولكن . . . اذا كانت هذه حالتها من ناحية المواصلات البحرية ، فما حالتها من ناحية مواصلاتها البرية من الدول التي تجاورها في الشمال .

اذا استثنينا فرنسا لان سككها الحديدية لا يحتمل ان تعمل على تموين ايطاليا في حالة نشوب حرب بين ايطاليا من ناحية وانكلترا وفرنسا من ناحية اخرى — فلايطاليا تسع سكك حديدية تصلها بسويسرا والنمسا « المانيا » ويوجوسلافيا ، ثلاث سكك بين كل من هذه البلدان وبين ايطاليا . من هذه السكك سكتان مزدوجتا الخط والباقية مفردة الخط ، وهي جميعاً تسير في جبال فيل الخط الحديدي صعوداً كبير

وفي اثناء الحرب العالمية اهتم قسم الهندسة بالجيش الاميركي بوضع دليل دقيق للعمل الذي تستطيع ان تقوم بهِ سكك الحديد في حالة حرب ، واذا اخذنا اقصى رقم في هذا الدليل وطبقناه

على السكك الحديدية التسع التي تصل ايطاليا بجاراتها الثلاث—سويسرا والمانيا ويوجوسلافيا— وجدنا ان اقصى ما تستطيع هذه السكك نقله في السنة يبلغ ٢٠ مليون طن او اقل قليلاً، وهذا الرقم يشمل عمل هذه السكك اذا قصر على نقل المواد دون الركاب او الجيوش، ويفرض ان حركة السكك والقطارات لا يعرقلها عمل الاعداء وان محطات الشحن ومحطات الاستقبال تقوم بعملها كالساعة فلا تأخير ولا ازدحام، ثم يفرض ان جميع الجارات الثلاث مستعدة لتزويد ما تستطيعه الى ايطاليا مع ان احداها سويسرا والغالب انها ستلزم الحياد الدقيق: والاخرى يوجوسلافيا وهي تتأرجح في الميزان بين المعسكرين. ثم انهُ يهمل من الحساب ان الخطوط الحديدية من يوجوسلافيا وخطين من الخطوط الثلاثة الممتدة من النمسا تجتمع عند مستر قرب البندقية حيث لا بد ان يقع ازدحام مبلبل. ثم ان الخط الممتد من مستر الى المنطقة الصناعية وهي منطقة توران ميلانو، يجتمع بالخط الثالث من المانيا المخترق لمضيق برنر عند فيرونا والازدحام فيها لا بد ان يكون مبلبلاً ايضاً

فاذا اقيم وزن لجميع هذه العوامل فالغالب في رأي الخبراء المهندسين ان قدرة السكك الحديدية الايطالية على نقل المواد من يوجوسلافيا والمانيا وسويسرا، لا تزيد على ١٥ مليون طن في السنة والغالب انها لا تبلغهُ. ولكن مقدار الواردات الايطالية في سنة ١٩٣٤ عن طريق البحر بلغت ٣٤ مليون طن. فاذا فرضنا ان السكك الحديدية نقلت اليها ١٥ مليوناً مما تحتاج الى استيراده بقي عليها عجز قدره نحو ١٩ مليون طن

وطبيعة ايطاليا الطوبوغرافية في الشمال لا تشير الى احتمال مد سكك حديدية اخرى بسهولة او زيادة قدرة السكك الحديدية المدودة على النقل بجعلها خطوطاً مزدوجة الاَّ بنفقة فادحة فجعل نفق سمبلون مزدوجاً — وهو احد الخطوط الرئيسية التي توصل الى ميلان — بدىء سنة ١٩١٨ واستغرق اربع سنوات

— ٢ —

تقول المجلة العسكرية الاسبوعية (مليتار دشنبلات)، ان المانيا تسيطر الآن في ميدان المستخرج من ركاز الحديد على خمس ما كانت هي وامبراطورية هبسبرج تسيطران عليه سنة ١٩١٤: ومعظم هذا النقص راجع الى خسارة لورين وضمها الى فرنسا. والمانيا تستخرج الآن ستة ملايين طن من ركاز حديد غير جيد (٢٠ — ٣٠ في المائة من الركاز حديد) ثم اضافت الى ذلك مليونين ونصف مليون طن في النمسا على وجه التقدير. فاذا اضيف الى المستخرج، الحديد المهمل الذي يعاد استعماله كان لالمانيا خمسة ملايين طن من الصلب حالة ان حاجتها السنوية— على ما تقوله المجلة الالمانية «جورنال التعدين الالماني»— الى ٢٦ مليوناً ونصف مليون

الا ان معظم الاسلحة الالمانية لا تصنع من ركاز الحديد الالماني غير الجيد ، بل من ركاز الحديد السويدي الممتاز (٦٠ — ٧٠ في المائة من الركاز حديد) المستخرج من مناجم جبال لبلندة . والمانيا الآن تستورد كل سنة تسعة ملايين طن من هذا الركاز . ولكن ثلاثة ملايين طن فقط تنقل في خليج بوثنيا فبحر بلطيق . والثلثان الباقيان ينقلان من شمال النرويج الى مصب نهر الرين ومنهُ رأساً الى المناطق الصناعية في الرور بسفن نهرية . ثم تبتاع المانيا سبعة ملايين طن من ركاز الحديد من اللورين وهو معتدل الجودة ونحو مليوني طن من طبقة اجود من بلباو بشمال اسبانيا والريف في المغرب الاسباني . ومقادير يسيرة جداً من يوجوسلافيا والبرازيل .وبعد ان تستعمل كل الحديد القديم في المانيا تحتاج الى ان تستورد من الخارج جانباً كبيراً من ٥ ملايين الى ٦ ملايين طن من الحديد المستعمل التي تحتاج اليها كل سنة

وقد صرح المارشال جورنج غير مرة منذ تولى الاشراف على تنفيذ مشروع السنوات الاربع لجعل المانيا مكتفية ان مناجم الحديد التي نسبة الحديد في ركازها واطىء ستفتح على نطاق واسع وان المناجم الجديدة ستخرج عشرين مليون طن في السنة وان مصانع ضخمة ستحول ذلك الركاز الى صلب ، وان المصنع الواحد منها قادر على اخراج مليون طن من الصلب في السنة الواحدة.وعند ما انشئت المصانع المعروفة باسم مصانع هرمان جورنج للحديد صحبها تهليل وتكبير وارسال العمال الى المواقع المختلفة لاعداد مساكن العمال . ودعي اصحاب شركات الصلب الخاصة الى الاكتتاب في رأسمالها ، ولكن سراة صناعة الحديد في المانيا لم يشتركوا وذلك لسبب يسير بسيط جداً ، وهو ان مصانع من هذا القبيل لا تسفر الا عن خسارة . ففي مناطق الرين والرور مناجم قريبة من الامكنة التي يكثر فيها الكوك اللازم لاستخراج الحديد من الركاز . ونسبة الحديد في ركاز هذه المناجم من ٢٥ — ٣٠ في المائة ومع ذلك لولا معونة الحكومة المالية لوقف تشغيلها ، فكيف يمكن تشغيل مناجم بعيدة عن ميدان الصناعة وعن موارد فحم الكوك ونسبة الحديد في ركازها لا تزيد على ١٢ الى ١٧ في المائة

ولما ضمت النمسا الى المانيا كسبت المانيا موارد للحديد لا بأس بها كما تقدم وقال يومها المارشال جورنج ان هناك « موارد من الركاز الغني لا حد لها » فصححت له مجلة « الفرنكفورتر تسيتونغ » هذا القول بنشرها الارقام الصحيحة وهي : ٢٤٢ مليون طن من ركاز الحديد «النسبة ٢٧ في المائة» وهذا المقدار يكفي المانيا خمس سنوات ونصف سنة على معدل استهلاكها السنوي من الحديد الآن . اما مناجم النمسا فكان معظم ما يستخرج منها يصدر الى ايطاليا . وفي الوسع توسيع نطاق الاستخراج باستعمال وسائل جديدة فيزيد المستخرج من نحو مليون طن في السنة — وهو اقصى ما كان — الى خمسة او ستة ملايين طن على الاكثر وما زالت ايطاليا صديقة المانيا

فيجب ان تمنح حصة وافرة من هذا المقدار. وثمّ نقل هذا المقدار من شمال النمسا الى الرور مشكلة قائمة بنفسها . المسافة ٧٠٠ ميل والنقل يقتضي كل يوم قيام عشرة قطارات كل قطارمنها مؤلف من ٤٥ مركبة من المناجم ومعظمها يجب ان يعود فارغاً . فالى أن تتم ترعة « الرين — الدانوب » تظل مشكلة نقل حديد النمسا الى الرور مشكلة غير يسيرة

ولنحول النظر الآن الى مادة اخرى من المواد الاساسية في الصناعه والحرب ونعني مادة « البترول » وهي فيما يتعلق بالحرب لا غنى عنها للطائرات والدبابات والسيارات على اختلافها والسفن الحربية. فقد نشرت مجلة « الدويتش فهر » وهي لسان الجناح النازي في الجيش الالماني مقالاً في عدد يناير سنة ١٩٣٦ قدرت فيه حاجة المانيا الى البترول في الحرب فاعتبرت تقديره على اساس جيش قوامه ٣٠٠ فرقة منها ٣٠ فرقة ميكانيكية عدتها ١٠٥٠٠ دبابة و١٤٠ الف سيارة نقل و٤٠ الف سيارة ركاب و٦٠ الف موتوسيكل فاذا حاجتها الى البنزين والزيت والشحم خمسة ملايين ونصف مليون طن بالسنة. ثم هناك سلاح الطيران وقوامه ٩ آلاف طائرة منها ٦٥٠٠ ذات محرك واحد و ٥٠٠ ذات محركين و ٥٠٠ ذات ثلاثة محركات و ٢٥٠ ذات اربعة محركات و ١٢٠٠ أخرى من طراز « السبور » فاذا حاجتها الى مليون وثلاثة أرباع مليون طن في السنة. يضاف الى ذلك اسطول بحري تبلغ حاجتهُ مليوني طن ثم يضاف الى ذلك ثلاثة ملايين ونصف مليون للصناعة والنقل وراء خطوط القتال

والمجموع الذي قدرته مجلة الدويتش فهر ١٢ مليوناً وثلاثة أرباع المليون من أطنان البترول

وفي ١٦ ابريل سنة ١٩٣٩ أخرجت مجلة «الاقتصادي الالماني» تقديراً آخر فاذا المقدار في حسابها يتفاوت من ١٥ مليوناً الى عشرين مليوناً . ومتوسطه ١٧ مليوناً ونصف مليون من الاطنان . وهذا التقدير قريب من تقدير خبير فرنسي إذ روعيت النسبة بين حجم الجيشين ففرنسا في عرفه تحتاج الى مقدار يتفاوت من ١٢ الى ١٥ مليوناً من الاطنان

فماذا تنتج المانيا من هذا المقدار ؟ . ينابيع البترول فيها تخرج نصف مليون طن في السنة ومجلة (الاقتصادي الالماني) تقول (مارس ١٩٣٨) ان نصف مليون طن من البنزول تستخرج كنفاية في مصانع فحم الكوك يستخرج منها ٢٠٠ الف طن من الوقود

ويستخرج من الفحم بالطريق الصناعي ٧٨٠ الف طن من البنزين الصناعي فمجموع ما يستخرج داخل البلاد مليونا طن وهو ثلث ما تستهلكه المانيا الآن وتسع ماينتظر استهلاكه في أثناء الحرب على التقدير المتوسط لمجلة الاقتصادي الالماني

أتستطيع أن تسد الفرق بتوسيع نطاق البنزين الصناعي المستخرج من الفحم ؟ هذا يعني توسيع نطاق هذه الصناعة عشرين مرة . ولكن أتعلم ما يقتضيه هذا التوسع من مقادير الفحم

وعدد العمال والنفقة ؟ فقد أُلفت في انكلترا لجنة لدراسة موضوع جعل بريطانيا مكتفية من ناحية البترول باستخراج البنزين من الفحم . فقررت اللجنة في تقريرها أن صنع ١٥٠ الف طن من البنزين الصناعي في السنة يقتضي معالجة ٦٠٠ الف طن من الفحم وعمل ستة آلاف عامل في المناجم والنقل والمصانع ورأسمال قدره اربعون مليوناً من الجنيهات . وهذه المنشآت تخرج مقداراً من الزيت يكلفها مليوني جنيه حالة أن ثمنهُ في السوق العالمية ثلث ذلك المبلغ . وأرقام هذه الصناعة في المانيا تؤيد هذه الارقام . ومع ذلك فلم يفت مجلة « الاقتصادي الالماني » نقل خلاصة هذا التقرير الى قرائها

وعلى هذا الاساس لا تستطيع المانيا أن تجعل نفسها قادرة الآن على الاكتفاء الذاتي في مادة البترول وما يشتق منها عن طريق الصناعة الا برأسمال قدره ستة عشر الف مليون مارك وتحويل نحو ٦٥ مليوناً من اطنان فحم الانتراسيت — وهو تقريباً نصف انتاجها — ونصف مليون من العمال الى هذه الصناعة . ونصف مليون عامل يعني ١٥ فيلقاً في الجيش وكذلك يمكن القول ان الفوز بما تحتاج اليه من البترول ومشتقاته لن يجيء الآن من هذا الطريق

والمطاط — لقد صنع المطاط الصناعي في المانيا وهو يعرف باسم « بونا ». وهو مطاط يتصف بأهم صفات المطاط الطبيعي ويفوقهُ . وقد روى — زيشكا في كتابهِ « العلم يحطم الاحتكار » أن الجيش الألماني امتحن مطاط البونا امتحاناً دقيقاً في سنة ١٩٢٥ فجهزت أربعون سيارة بعجلات من مطاط البونا وسيقت ليل نهار سوقاً متواصلاً بواسطة فريقين من السواقين وفي النهاية وجد أن مدى حياة العجلة المصنوعة من مطاط البونا ٣٠ الف ميل

ولكن موطن الضعف في هذا المطاط العجيب أن نفقات صنعهِ تجعلهُ أغلى كثيراً من المطاط الطبيعي . فالمطاط الطبيعي يباع الرطل منهُ بمبلغ يتفاوت من ٢٤ مليماً الى ٣٠ مليماً . حالة أن رطل البونا في سنة ١٩٣٦ كان يكلف عشرين قرشاً . وفي مجلة لبنك الريخ صادرة في يناير ١٩٣٨ أن الرطل منها لا يزال يكلف من ١٣ الى ١٤ قرشاً

وليس هناك معلومات يوثق بها عن مقدار ما يصنع من هذا المطاط . ولكن كاتباً المانيًا خبيراً على ما يلوح يقول في كتاب لهُ أن المانيا استهلكت من المطاط في سنة ١٩٣٥ مقدار ٧٢ الف طن وأن جزءاً من اربعة عشر جزءاً (اي أكثر قليلاً من ٥ آلاف طن) من ذلك صنع في المانيا بالتركيب الكيمياني . وفي ٨ فبراير من سنة ١٩٣٨ كتب مكاتب جريدة التيمس اللندنية في فرانكفورت أن مقدار ما يصنع من مطاط البونا ينتظر أن يبلغ قريباً ٢٤ الف طن في السنة وهذه زيادة عظيمة ولكنها قلما تلحق بزيادة المطلوب من المطاط

ثم هناك مواد صناعية أخرى تجمل في قولنا خيوط النسيج من صوف وقطن وكتان .

والحالة في المانيا في ما يتعلق بهذه المواد هي عكس الحالة الخاصة بالمطاط . فصنع الخيوط الصناعية المختلفة سهل ورخيص ولكن خواصها لا تزال دون خواص الخيوط الطبيعية التي تقابلها . فمقطوعية المانيا من هذه الخيوط — وهي مقطوعية مقيدة أشد التقييد — يؤخذ خمسها مما تخرجه المصانع الالمانية من الاعواض الصناعية كالرايون والفيسترا . يضاف الى هذا ان المانيا زادت محصولها من الكتان منذ سنة ١٩٣٢ سبع مرات ، وانتاجها من الصوف ٣٠ في المائة وجمعت كل ما يمكن جمعه من الخرق القطنية البالية القديمة في طول البلاد وعرضها لاعادة استعمال خيطها

ومجموع ما تستهلكه من هذه الخيوط يبلغ في السنة ٨٥٠ الف طن منها ١٠٠ الف طن من الفيسترا و٦٥ الفاً من الرايون و٦٠ الفاً من الخرق القديمة المستردة و٢٥ الفاً من الكتان و١٥ الفاً من الصوف والمجموع ٢٧٥ الف طن أي ثلث ما تحتاج اليه

أتستطيع ان تسد النقص بخيط الفيسترا ؟ هناك مصانع جديدة لصنعه تقام ، وكان في الجو أحاديث عن مضاعفة ما يصنع منهُ سنة ١٩٣٨ كما ضوعف في سنة ١٩٣٧ ولكن المصاعب التي تحول دون توسع عظيم فيه كانت ان صناعته مبنية على الخشب المستورد . ومعظم الاستيراد كان من تشيكوسلوفاكيا وروسيا ، والى حدّ ما من فنلندة . وقد جاء دخول النمسا — وفيها حراج غنية — وتشيكوسلوفاكيا في نطاق الريخ مما سهل على المانيا مسألة الاستيراد وتوفية الثمن . وهناك الآن تجارب تجرب لصنع الفيسترا من خشب اشجار الزان والشربين وهي كثيرة في حراج المانيا . ولكن قطع اشجار الحراج في المانيا ماضٍ على وجه يثير مخاوف الخبراء

ثم ان الفيسترا ليس عوضاً صناعيًّا بالمعنى التام . بل يجب ان يخلط بنحو ٧٥ في المائة من القطن الطبيعي ، او الصوف الطبيعي لينتج خيطاً تُنسج منه منسوجات قطنية او صوفية تصلح للملبس. وقد شكا احد تجار برلين لمنشىء هذا المقال ان نسيج الفيسترا الذي لا تزيد نسبة القطن الطبيعي او الصوف الطبيعي فيها على ٢٥ في المائة لا يثبت على غسلة واحدة بالماء الساخن ثم هو قصير العمر . والملابس المصنوعة من مزيج كهذا لا تدفىء وشؤبوب واحد من المطر الشديد يقضي عليها . ثم ان الملابس التحتانية التي تصنع منها لا تلبث حتى يشعر لابسها كأن طبقة من المطاط الرقيق تلامس بشرته علاوة على انها تولد عند التفاعل بعرق الجسم رائحة كريهة

وأهم من هذا وذاك انها لا تفي بحاجة ملابس الجنود . وعلاوة على ما تقدم تحتاج المانيا الى استيراد معظم ما تحتاج اليهِ من الالومنيوم والنيكل والنحاس وتسعة اعشار ما تحتاج اليهِ من النحاس وثلاثة ارباع ما تحتاج اليهِ من الرصاص وثلث ما تحتاج اليهِ من الزنك

---

(١) نقلاً بتصرف يسير من عدد الاهرام الخاص (بين السلم والحرب) يوليو ١٩٣٩

غنى الجار

لعبد الحميد الرئيب

أهلٌ بها لله راضيةً نفسي ... وأشربها في الصبر مترعةً كأسي
على موهباتي الف دَيْن لأمتي ... على انني فيها لدى محني مَنسي
وأحتمل الدنيا كأني خلقتها ... وان جميع الخلق عُلّق في رأسي
رفعتُ حجاب الشمس فيها فأطلعت ... عليَّ النهار الصفو خُلواً من الشمس
على القرب مني كنز قارون ماثلاً ... ولما أنلْ منهُ سوى حُرقة اليأسِ
ففي بيت جاري آثر المالُ وكرهُ ... فيصبح في لمع الثراء كما يُمسي
وجاري جماع الباخلين وظلمهم ... فلم يَدعْ محروماً بعيدٍ ولا عُرس
تكبّـر فالألفاظ منهُ إشارة ... كأن عباد الله طراً من الخرس
وان نطق الفصحى فمن طرف أنفهِ ... كنفخة ذي مال وجاه من الفرس
له أسرة كالروض زهراً وصادحاً ... فمن شامها ألفى ملائك فردوْس
بنون بنات كالورود ملابساً ... يمرون كالاصباح معتدل الطقس
يمرُّ على سكناي في ذيل بيته ... مرور عيون الموسرين على الفلس
صحوتُ على قصف الرياح وصوته ... وما أحدث الطرق الخليع من الجرس
يطالبني بالأجر في غيظ بائعٍ ... تصيّده المحتال بالثمن البخس
وقال يواري ظلمهُ أي ضامنٍ ... لسكنى تعرت عن سرير وعن كرسي
اراك هنا كلّ الاثاث ولا أرى ... سوى قلم ثاوٍ على الارض او طرس
فقلت معاذ الدّين ما كنت مرة ... غريماً وما أذللت يومي ولا أمسي
إذا كانت السكنى بأجرٍ مذلةً ... فما ارحب المجان في غرف الحبس
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى ... يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقري كبره وثراءهُ ... وأيُّ غنى للحرّ غير غنى النفس

فليكس فارس

لصديق شيبوب

في أواخر الشهر الماضي فجعت العربية بأديب من خيرة أدبائها ، وخطيب من أبلغ خطبائها. ورزئت العروبة بداعية من أخلص الدعاة لها ، ومجاهد من ابر المجاهدين في سبيلها . وفقدت الانسانية فرداً كان من أنبل أفرادها قلباً، وأقومهم خلقاً، وأصدقهم عاطفة، وأخلصهم أمانة ووفاء

انتقل الى رحمات ربه المغفور له فليكس فارس وقد كان كل هذا . فلا غرو اذا عظم خطبه على اللغة والعروبة ، وبكاه أصدقاؤه وعارفو فضله العديدون المنبثون في الاقطار العربية كلها وبلاد المهجر وشاطرهم حزنهم عليه وشعورهم بالفجيعة فيه جميع الناطقين بالضاد

وإذ نحاول اليوم ترجمة حياته والالمام بمواهبه وصفاته نريد ان يعرف هذا العالم العربي أي رجل فقد بفقده . كان يمثل جيلاً من أبناء العربية يكاد يزول أفراده ، ولوناً من الأدباء يعزّ ان نلقى اليوم نظيره

ولد المرحوم فليكس فارس في ٢٧ دسمبر سنة ١٨٨٢ بقرية «صليما» التابعة لقضاء المتن الاعلى «المحاطة بغابات الصنوبر القاتمة» من اسرة لبنانية قديمة انبتت اكثر من واحد خدم لبنان وحكوماته المتعددة

كان والده المرحوم «حبيب فارس» كاتباً وشاعراً تلقى علومه بمدرسة عينطوره وعين في الثانية والعشرين من عمره رئيساً للدائرة الاجنبية وسكرتيراً خاصًّا لمتصرف الجبل رستم باشا وما لبث ان اعتزل الخدمة وأخذ يعارض في اساليب حكم جبل لبنان ، وكان قد تولى متصرفيته واصا باشا . فاضطر اخيراً الى النزوح الى مصر حيث اصدر صحيفة «صدى الشرق» ليحارب على صفحاتها المظالم التي كانت تقع على لبنان واهله في ذلك العهد . وقد حاول واصا باشا الانتقام من أسرته التي ظلت مقيمة في «صليما» فأنزل بها شتى الوان الاضطهاد . وقد شهد فليكس فارس الصغير هذا الاضطهاد فانطبعت نفسهُ منذ صغرها على حب الحرية والثورة بالظالمين

وكان المرحوم حبيب فارس قد تزوج بالسيدة «لويز شفاليه» وهي سويسرية بامها وهولندية بأبيها . وقد حنت هذه السيدة الفاضلة على سرير طفلها الصغير فليكس تنشده الموسيقى الغربية

التي تعلمتها من وطن « جان جاك روسو » فاستعد عقله لفهمها ، وصارت فيا بعد « تصل الى شعوره الباطن الخفي اهتزازات هذه الموسيقى كأنها صدى خافت لصوت بعيد . . . » على انهُ كان اذا رجع « الى كوامن الغريزة يشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورث من نزعات أوربية »

وما خصهُ فليكس فارس بالموسيقى عند ما تحدث عن نفسهِ نستطيع ان نعممهُ بحيث يشمل الثقافة والادب ، فقد نشأ متغلبة عليهِ نوازع الادب الفرنسي ثم لم يلبث ان تخلص من أثرها فصار اديباً عربيًّا صميماً

تلقى فليكس فارس علومهُ الاولية بمدرسة « بعبدات » ثم اخذ العربية عن والده والفرنسية عن أمهِ . ولم يلبث ان برع باللغة الفرنسية وشغف بها وصار يستلهمها فنّهُ العربي

في اثناء هذا كانت أسرتهُ قد انتقلت من «صليما» الى «المريجات» ، وهي البلدة القائمة عند منحدر « ضهر البيدر » في اتجاه دمشق . ومنزل أسرته فيها عند منحدر الوادي تحوطهُ الاشجار والكروم ويطل على منبسط سهل البقاع ذي الألوان المختلفة والمناظر البهجة

هذه هي العناصر التي كوّنت فليكس فارس عند ما استقبل الحياة بعد اتمام دروسهِ في سنة ١٨٩٨ وأخذ يحترف التعليم في بعض مدارس لبنان ويعالج الأدب في صحفهِ وفي بعض المجلات المصرية كانيس الجليس ومجلة سركيس

فكانت النزعة الفرنسية تتغلب وتستبد على أدبه العربي . وقد وصفهُ في ذلك العهد الاديب خير الله خير الله في كتابهِ الفرنسي « سوريا » فقال انهُ « حاول أن يقتبس ما في الأدب الفرنسي من جمال ليدخلهُ على الأدب العربي . وكان النقد الذي وجه اليه أن الهامهُ غريب عن العربية » ثم قال : « حقًّا أن اسلوبه كان في بدايته معقداً ، وفكرته مبهمة غير مستقرة تماماً تنم على أن هناك اشياء لم تهضم . وزاد اللغويون على هذا فقالوا انهُ كان يسيء الى قواعد اللغة ولـكنهُ عوض عن هذا جميعه بمميزات طيبة كالاحساس والخيال والانسجام واختلاف الافكار والصور وخصبها ، لذلك عند ما ظهر خطيباً للمرة الاولى أثار حماسة فياضة »

وقد كان ظهوره خطيباً عند صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، اذ قام المصلحون ينادون بالحرية والاخاء والمساواة ، فائتلف المتنابذون وتقارب المتباعدون وغمرت البلاد موجة الانسانية الشاملة التي تجمع بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم فاذا الهلال والصليب يمشيان جنباً الى جنب في ظل الوطن ، واذا الشيخ والقس يتعانقان تحت راية الامة والدولة

قام فليكس فارس وقتئذٍ خطيباً يستمد من روح ابناء وطنه هذا الوئام الشائع على الوجوه ويغذيه بما في نفسه من حب الحرية وكراهية الظلم والاستبداد فرحب بهِ مواطنوه وانزلوه المنزلة التي هو خليق بها ولقبوه بخطيب الحرية

ولم يكتف فليكس فارس بنضاله على المنابر بل اجرى قلمه للدفاع عن مبادئه ونزعات نفسه فأصدر في ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ صحيفة اسماها « لسان الاتحاد » التي ظلت حية الى ٤ أغسطس سنة ١٩١١

في ذلك الطور من حياة فليكس فارس طبعت نفسه بطابعها الخاص واتخذ تفكيره شكلهُ الكامل ونحا النحو الذي ظل يسير عليهِ طيلة حياته

وكان قد عين استاذاً للغة الفرنسية في المكتب السلطاني بحلب سنة ١٩١٠ فأقام فليكس فارس في هذه المدينة الى اواخر الحرب الكبرى . وحين دخلت الجيوش العربية سوريا التحق بها وعين سكرتيراً لجعفر باشا العسكري ثم جاء بيروت واتصل بحكومة الانتداب فارسله الجنرال « غورو » الى الولايات المتحدة مع الفنان المعروف المرحوم « جان دبس » ليتصلا باللبنانيين والسوريين في مهجرهم ويدعوهم لمساعدة وطنهم ويبينا لهم مهمة فرنسا في الشرق فقاما بالمهمة التي عهد اليهما بها على أوفى وجه

اتصل فليكس فارس في اثناء اقامته باميركا بالاوساط العربية وادبائها وتوثقت اواصر الصداقة بينهُ وبين نفر عديد منهم وفي طليعتهم جبران خليل جبران كما اتصل بالاوساط الفرنسية وممثلي الدولة الفرنسية الرسميين. ثم عاد الى لبنان وفي نفسه مشروعات سياسية لم يستطع تحقيقها على الرغم من اقتناع الجنرال « غورو » بصحتها . وقد هنأه « غورو » بنجاحه في مهمتهِ وعرض عليهِ منصباً أباهُ وفضل الاشتغال بالمحاماة وقيد اسمه امام محكمة التمييز (النقض والابرام) واشتهر بتفوقه في المرافعة امام محكمة الجنايات

عند ما خلا منصب رئيس قلم الترجمة ببلدية الاسكندرية رشح فليكس فارس نفسه لهُ وفاز بهِ فانتقل الى هذه المدينة سنة ١٩٣١ ولم يلبث ان اتصل بالاوساط الادبية المصرية فذاع صيته ونبه ذكره واخذ يؤلف الكتب ويصنف الابحاث ويلقي المحاضرات والخطب بهمة ونشاط عظيمين حتى وافته منيته في صباح يوم الثلاثاء ٢٧ يونيه الماضي فذهب مبكية اخلاقه محمودة آثاره

***

هذا هو الرجل ، اما الاديب فقد ذكرنا فيما تقدم كيف استهل فليكس فارس حياته الادبية قلق العبارة والاسلوب بارز الالهام الغربي . على انهُ لم يلبث ان تخلص من هذا وذاك واصبح كاتباً عربيًّا قوي العبارة صحيح الاسلوب ، دقيقاً في تخير الفاظه تجري على قلمه سهلة سلسة في قوة ورصانة . وقد ظهرت هذه المزايا في نثره وشعره

وقد تطور الهامه وتفكيره كما تطور اسلوبه . وهو اذا ظل يدين للثورة الفرنسية بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة التي جاهد في سبيلها طول حياته ، واذا ظل ينادي بنبذ التعصب

ووجوب تآلف الاديان وعدم التفرقة بينها وبين أبنائها ، فانهُ عكف على تقاليد الشرق فاخذ يقول بوجوب احترامها ، وهي التقاليد التي ارادها مستمدة من الديانات الثلاث القائمة فيه ومن مجموع العادات التي درج الشرق عليها سواء في الاجتماع أو الفن أو الادب

ويطول بنا الحديث اذا شئنا أن نعرض لتفصيل هذه الآراء التي كان يعتبرها جماع رسالتهِ الادبية والاجتماعية فقد فصلها رحمهُ الله في المحاضرات التي القاها في سنواته الاخيرة وجمعها في كتابه « رسالة المنبر الى الشرق العربي » وفيها يجد المطالع كيف كان فليكس فارس يمزج بين فكره وعاطفتهِ ، ولعله كان يستوحي تفكيره من قرارة صدره الفياض بالشعور اكثر مما كان يستنزله من معين عقله الصائب . وقد كان ذا شعور متسع الافق ، وخيال رحب الجوانب

وقد كتب فليكس فارس كثيراً ، وعالج فنوناً شتى من فنون الادب كالشعر والقصة والاقصوصة . ومن تآليفه المطبوعة قصتا « الحب الصادق » و « شرف وهيام » وكتابا «النجوى الى نساء سوريا » و « رسالة المنبر الى الشرق العربي » . وكان قد أعد غيرها للطبع بما فيها ديوان شعر بعنوان « القيثارة » ولكن الاجل لم يفسح له لاتمام مشروعاته الادبية

وقد عكف في سنيه الاخيرة على ترجمة روائع الادب الاوربي فنقل قصيدة « رولا » التي نشرتها « المقتطف » وكتاب «اعترافات فتى العصر» وهما للشاعر الفرنسي« الفريد دي موسه» وكتاب « هكذا تكلم زرادشت» للمفكر الالماني « فريدريك نيتشه»

اما الخطابة فقد بلغ فيها فليكس فارس حداً من التفوق كبيراً . ولعلها كانت مصدر شهرته وذيوع صيته اكثر مما كان ادبه

وكانت له قدرة عجيبة على المواقف الخطابية لايعرف الكلل ولا التعب حتى قيل انه كان يعلو المنابر اكثر من عشر مرات في اليوم الواحد

وكان لا يعتمد على مواهبه الطبيعية في الخطابة بل يعالجها بأسلوب فني بارع . كان انيقاً في موقفه ، فنياً في اشارته ، بليغاً في عبارته . وقد فطر خطيباً أبلغ منهُ كاتباً ، فقد كان حين يرتجل تواتيه الالفاظ مطواعة تتمثل في بريق عينيه وتجري سحراً حلالاً على لسانه

***

واليوم وقد أسكت الموت ذلك الصوت الجهير وأخمد تلك الجذوة المتقدة وعاد فليكس فارس الى لبنان حيث نقلوا جثمانه كما عاد من قبله جبران خليل جبران فهو يرقد الآن في قرية المريجات الى جوار آبائه واجداده حيث يحنو عليه الجبل الاشم بأرزه وصنوبره وشمسه وارضه ومائهِ وهوائهِ ويحتفظ العالم العربي بذكراه ما بقيت في الصدور العربية نزعات الشمم والفخار والاشادة بالرجال العاملين

كيف أفهم

النقد الادبي

لجبرائيل جبور
استاذ بدائرة الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مؤهلات الناقد

ينقلون عن جويته انهُ قال: هناك ثلاث طبقات من القراء فبعضهم يلتذ بما يقرأ دون ان يفقه سبباً لذاك، وبعضهم يحكم على ما يقرأ دون ان يلتذ بهِ، وبعضهم يحكم وهو يشعر بلذة ما يقرأ، ويلتذ وهو يحكم، وهو خيرهم. والواقع ان الناقد الحقيقي يستطيع ان يرتفع فوق هؤلاء جميعهم بحيث يدرك ان باستطاعته ان يعجب بأثر دون ان يلتذ بهِ شخصياً او ان يلتذ بأثر لا يستثير اعجابه

ولعل اول ما يحتاج اليهِ الناقد ادراك غرض صاحب الاثر الفني وفهم المغزى الذي يرمي اليهِ، هذا سر النقد في نظري، ولست اذكر اين قرأت عن فيدياس وتلميذه الكيمنس، وقد سبق بينهما جائزة في النحت، قالوا، فاخذ كل منهما في عمله حتى اذا تم صنع التمثالين كاد المحكمون وهم ينظرون اليهما بين ايدي صاحبيهما أن يحكموا لالكيمنس لدقة التفاصيل وبهاء الصقل وجمال المسحة الاخيرة، وهنا وقف فيدياس يسأل المحكمين ان لا يبدوا آراءهم قبل ان يوضع التمثالان على قاعدتيهما في الموضع الذي عُيِّن لها، وما ان وضعا حتى انقلبت آراء المحكمين، ذلك ان التقاسيم البارزة والخطوط الخشنة في الظاهر قد نحتت لينظر اليها من بعد، فبرزت روعة جمالها حين ارتفع التمثال على قاعدته. اما حسن الصقل ودقة التفاصيل في تمثال تلميذه الكيمنس فقد زالت معالمها حين ارتفع التمثال، وأضحى التمثال كثوب نصلت عنهُ الصبغة التي نفضها عليهِ صانع غير ماهر

فالفنان، او رجل الفن اذا شئتم، يحاسب على الغاية اكثر مما يحاسب على الطريق الذي يسلكه في سبيل تلك الغاية. والناقد الذي يخطىء غرض الأديب قد ضل سبيله، ولأضرب لكم مثلاً بنقد بعضهم لقصيدة بشارة الخوري الشاعر التي قيلت في مهرجان الزهاوي، واسمحوا لي قبل كل شيء ان اقرأ لكم الابيات التي دار عليها نقده

بغداد ما حمل السُّرى مني سوى شبحٍ مريبِ
جفلت لهُ الصحراء والتفت الكثيب الى الكثيب

وتصّتت زمر الجنادب من فوهات الثقوب
يتساءلون : وقد رأوا قيس الملوّح في شحوبي
واليتيمات على الشفاه مضرّجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون : من الفتى العربي في الزي الغريب
صحراء يا بنت السماء البكر والوحي الخصيب .
انا لو ذكرت ، ذكرت احلامي والغامي وكوبي
احدى الشموع الذائبات امام هيكلك الرهيب
انا دمعة الأدب الحزين رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب لقلب بغداد الكئيب

قال الاديب الناقد في جريدة المكشوف عدد ٣١ اذار (مارس ١٩٣٨) ما يلي: «وبشارة الخوري لو كان من الصحراء ولو كان ابنها وحبيبها لعرف انها لم تعرف في حياتها الجنادب ، فالجنادب لم تطل من ثقب فيها ولا سمعت في رحابها صوتاً على الاطلاق » اه . وانا ارى قبل كل شيء ان اتهم معرفة الناقد بالصحراء فان لم تكن الصحراء ام الجنادب فأين موطنها بل اريد ان اذهب الى ابعد من هذا فازعم ان بشارة الخوري ليس مرغماً على ان يعلم ان الصحراء تعرف او لا تعرف الجنادب، ولا يهمهُ ان يعرف، فهو امام الفكرة التي تجلت لهُ قد يستطيع ان يضحي بعلم الحيوان باسره، وقد يستطيع الروائي مثلاً وهو يقص رواية حربية ان يهمل التفاصيل في واقعة يريد ان ينتصر بطله فيها، فيخطىء في وصف فنون الحرب وهو ليس قائداً حربيًّا، بل ربما يخطىء في وصف موضع المعركة ذلك لأنهُ لا ينظر الاّ الى الغرض الاكبر وقد ملك عليهِ كل حواسهِ ، ألا وهو انتصار بطله، فليس غرضه ان يعلّم الفن الحربي ولا ان يرسم خارطة لميدان المعركة . ولم يكن بشارة الخوري في قصيدتهِ هذه مدرّساً في علم الحيوان ولا شارحاً يصف مواطن الجنادب والجراد

وفي الالياذة سور قد يغيظ كل النقاد ، بُني في السنة العاشرة من تلك الحرب لا لسبب فيها يظهر الاّ لأن اكلس قد ترك الميدان ، وقد خيل لهؤلاء النقاد ان السور كان يظهر ويختفي في الالياذة بشكل غريب . واذن فقد زعموا ان هوميروس لم يضعهُ ، بل بناه شعراء متأخّرون ودسوه في الياذته ، وقد انبرى لهؤلاء من زعم لهم ان السور لم يتغير ولم يتبدّل ،ولو فعل فذلك لا يضير الشاعر ، لأن غايته الكبرى هي ان يبرز اكلس في اي شكل كان ، ويستطيع في سبيل غايتهِ ان ينقل سور الصين الاكبر الى ميدان القتال في اليونان أو يذريه هباء منثوراً في الفضاء

ولقد قرأت لصديقي الاستاذ المازني وهو احد كبار النقدة في مصر في هذا العصر فصلاً في كتاب « صندوق الدنيا » عن تمثال النهضة الذي نحتهُ محمود مختار ، أخذ فيهِ على

صانعه أشياء أصاب في أكثرها غير أنهُ حين عرض الى أمر نهوض ابي الهول الجديد على يديهِ عمد الى علم الحيوان فزعم انَّ الحيوان — من البعير الى الهرة — حين يريد ان ينهض يقوم على قائمتيهِ الخلفيتين اولاً ثم على الاماميتين وقال : « وأحسب ان مختاراً انما آثر هذا الوضع لأن منظر ابي الهول يكون غريباً ثقيلاً اذا أنهضهُ على رجليه الخلفيتين كما ينبغي ان يفعل اذا كان يقصد الى النهوض » ولا أظن صديقي الاستاذ المازني يسوؤه ان المجترات من الحيوان من ثور وجمل وغيرها تنهض على أرجلها الامامية أولاً

ولو سلمنا جدلاً انها لا تفعل فذلك لا يضير مختاراً لانهُ يجب ان تنظر قبل كل شيء الى الغاية التي رمى اليها مختار ، فابو الهول القديم يمثل الصبر والانتظار ، اما أبو الهول الجديد فيمثل نهوض مصر ولنذكر كما ذكر الاستاذ أن ابا الهول هذا خليط من الآدمي والحيوان فلهُ ان ينهض كيف يشاء ولكن ليس على رأسه كما يريد الاستاذ المازني متهكماً

ومتى أخذ الناقد يستفهم عن غرض الاديب بدأ النقد عمله . فما هو المعنى الذي رمى الشاعر ؟ وما الذي يقصده بهذا القول ؟ وما الذي نفعله حين نحاول فهم المعنى ؟ وهل بلغ الشاعر غرضه ؟ وكيف عرض غرضه ؟ وبعبارة اوجز نكشف الغرض اولاً ، ثم نحكم على قيمته ، ثم ننقد صنعة الاخراج. تلك هي بكلمة مفاتيح النقد فاذا أحسنا استعمالها تفتحت الابواب المغلقة واخذت الامور المغمضة تظهر شيئاً فشيئاً

وبعد ان يدرك الناقد غرض القطعة الادبية ومعناها ومغزاها وأثرها في النفس ينتقل الى التفاصيل وسيرى ان المعنى العام الشامل مركب من معانٍ فرعية مترابطة واضحة في بعض الاحيان ومغمضة في بعض الاحيان الاخرى . ويرى أيضاً ان للعبارة الواحدة في كثير من المناسبات معاني كثيرة اذ ان لغة الادب ، شاء الناقد او لم يشاء تحتمل في كثير من الاحيان غير معنى واحد . وابواب المجاز والكنايات واسعة وقد تنقل العبارة من موضع الى موضع فيتغير معناها وقد يستعار لفظها الى معنى آخر: خذوا مثلاً هذه العبارة « وكانوا في النزهة ثلاثة رابعهم فلان » فدلولها اللفظي عددي لا أكثر بحيث يصبح المجموع أربعة ، اما مدلولها للناقد الادبي فيجب ان يكون اعمق من هذا وستستعرض ذاكرته ما جاء في سورة الكهف من القرآن الكريم : سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون... الخ وسيجد ان هذا الكاتب اراد ان يشير من طرف خفي ظاهر الى ان هذا الرابع كان منهم كما كان كلب اهل الكهف من اصحابهِ

وهناك استعارات من عالم الفنون التي تدرك بالنظر مثال ذلك قولك : وبدا لونها كلون حاشية الافق عند الغروب فالسامع يسمع اللفظ ولا يرى فيهِ لوناً والقارىء يراه بحروف سود وكلاهما يعمد الى خياله او حافظته وهذه تستعرض الالوان فتشرح للذهن هذا اللون وتصوره له على صفحات الدماغ وقد تخطيء متى كان اللون غير مألوف لها ، فالصورة اللفظيـة تختلف عن

اللوحة المدهونة فتلك هي نفسها انتاج الرسام وهي تبرز امامك لتفصح عما فيها بينما هذه حروف مصفوفة في كلمات أو اصوات متقطعة تدوي في الآذان وما هي الا رموز يستعين بها الادباء لنقل ما في نفوسهم ومع ان الادب كسائر الفنون قد هيئت له واسطة لايصاله ونقل ما يحويه الى الغير فانه لايزال أوعر الفنون مسلكاً لان هذه الواسطة كثيرة الصور والمعاني ومن هنا كان الاشكال في النقد

وهناك امور أخرى يجب ان يلتفت اليها في النقد العملي ، منها مسألة ايقاع الالفاظ وحسن جرسها والصفات الصوتية لمقاطعها ولا سيما في الشعر . وعلى الناقد بعد ان يكون قد أدرك المعنى الذي يستخلص من العبارة الواحدة ان ينتقل الى الموسيقى التي يبعثها حسن انتظام الالفاظ ثم ينظر الى الكلمات المفردة ويتفهم معانيها الاولية وما تنتجهُ من خيال . ثم ينتقل الى المزية الصوتية في مقاطعها . وهنا قد يعترضنا ثانية اختلاف الاذواق واسمحوا لي ان اضرب لكم مثلاً على بعض هذه الظواهر واختلاف أذواق الشعراء فيها : نشر منذ زمن قصير الدكتور طه حسين بحثاً نفيساً في المتنبي ونقد فيه اشعاراً وردت للشاعر وأورد هذين البيتين :

بأبي من وددتهُ فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولاً فلما التقينا كان تسليمه عليَّ وداعا

ثم قال : أعجب الفتى بهذا المعنى فاراد ان ينظمهُ وان يصل اليه فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت وانت ترى مظهر التكلف في قوله :

بأبي من وددتهُ فافترقنا ،فكلمة وددتهُ هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار في مكانها الذي هي فيه . أراد الصبي (وقد كان المتنبي وقتئذٍ في صباه) ان يقول أحببتهُ فلم يستقم له الوزن فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الذوق فلم يجد الا وددتهُ هذه ! وقرأ الاستاذ العقاد كتاب الدكتور طه فانبرى يرد على هذا النقد ويقول : « والخلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جد بعيد فنحن نرى من جهة ان أبا الطيب لو أراد ان يقول أحببتهُ بدلاً من وددتهُ لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير في الشعر المقبول في العروض وأرى من جهة ثانية ان أبا الطيب كان مستطيعاً اذن يستخدم هنا حببته الثلاثية بدلاً من احببتهُ الرباعية كما استخدمها في قوله وهو شاعر كبير :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن أنت وافيا

فلا ضرورة في الوزن ولا استكراه وفضلاً عن هذا لا نظن كثيرين يحسبون مع الدكتور ان وددتهُ في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح . فالمودَّة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة Tendresse في الفرنسية وتطابق معناها تمام المطابقة وهو ذلك الحب الرفيق الذي فيه حنو وشوق وليس فيه عنف ولا اعتلاج . ثم استشهد الاستاذ العقاد بطائفة من الابيات الشعرية التي ذكر فيها الشاعر المتنبي في كبره كلمة وددتهُ او مشتقاتها . وأظن ان باستطاعة الدكتور طه بدوره ان يرد على هذا النقد ويحيل الأمر الى اختلاف الذوق والحكم في مثل هذا الامر هم عامَّة المتخصصين

ثم هناك تعابير او الفاظ شعرية ليس من الضرورة ان تكون الاساس في الاسلوب الشعري وليس الجمال في ايرادها فحسب بل ان الامر يتوقف على الطريق الذي يسلكه الشاعر في استعمالها . ويذهب بعض النقاد في هذا العصر الى ان كل تعبير يناسب المقام يجوز استخدامه في الادب والعيب في نظرهم هو ان يكون الاسلوب عاجزاً عن التعبير غير اني ارى ان هناك الفاظاً اقوى من غيرها لا على نقل المعاني فحسب بل على نقل الجو او الحالة التي يريد الشاعر نقلها الينا ولعلي في غنىً الآن عن ان اذكركم انه لا بد للناقد في كثير من الاحيان ان يستسلم الى تأثير الشاعر فيهِ ولو الى حين ليرتفع معه في هذا الجو العلوي او ينتقل الى الحالة التي اسماها بعضهم حالة « اللاوعي » وأسميها الوعي الاكبر او الروع الاكبر الذي يستتبع حتماً غموضاً في الفكرة واضطراباً في التعبير ولنذكر ان الشاعر يستمد حياته وفنهُ من العالم الباطني كما يستمدهما من العالم الظاهري ، والعالم الباطني لا تحد آفاقه وفي عمقهِ وبعده وعدم وضوحه يستطيع الخيال ان يكسب مناظر فتنةً وسحراً

ويجب على الناقد عند يقظتهِ من هذه الغفوة السحرية ان يحلل ولو الى حد محدود اسباب نشوتهِ ولذتهِ والاَّ فقد ضلَّ السبيل . ويحكى عن مصور كان يعرض صورة ان أحد الاغنياء قال له انهُ لا يعرف شيئاً من أصول التصوير . ولكنهُ يعلم اي شيء يحب ، فاستشاط الرسام غيظاً وقال هكذا تفعل الحيوانات أيضاً . ومهما يكن من امر الوقاحة في جوابهِ اليه فانه — اي الرسام — قد لمس ناحية مهمة من نواحي النقد في جوابه له . فان علمنا بما نحب لا يكفي بل يجب ان نقرن اليه الاسباب التي من اجلها تعلقنا بهذا الحب

ونستطيع ان نتتبع صفات الناقد الحقيقي بشيء من التفصيل ، غير ان الوقت لا يسمح ولا اظن ان محاضرة واحدة تكفي للبحث في صفة واحدة من صفات الناقد بل أني ارى ان الغرض من المحاضرات ليس حشد المعلومات وقتل الموضوع درساً وانما هي تنبيه للخواطر وفتح لابواب الوحي للملهمين . وعليه فاسمحوا لي ان اجمل فأقول ان على الناقد في نظري ان يكون قبل كل شيء واسع الثقافة عميقها ، يحسن العلم والفلسفة ويتذوق الادب ، واسع الافق ، رحب الصدر بعيد النظر ، فلا يتعصب لجنس على جنس ولا لوطن على وطن ، متجرداً من الغرض ، فلا يجعل للهوى الشخصي سلطة عليهِ في احكامه على الآثار الفنية ، ولا يكيل الكلام جزافاً في تقريظ او انتقاد ، ذا قدرة على التعبير عما يحسُّ بهِ اذا سئل عن ذاك ، وعليهِ بعد ان لا يتقيد بقيود الزمن ولا باقوال الناس ، فلا يبني نقده لشاعر ما على ما قيل عنهُ في عصره او على اثره فيهِ ، بل ينظر اليهِ نظراً حرًّا ، مالكاً لعقله اذا اعترضته حالات منهُ قد تؤثر بسيطرتها على أحكامه الفنية ، حسن الاستعداد والتخيل والسليقة ، غير جاهل لنظم النقد التي عرفت من قبل ولا متقيد بها ، وعليهِ بعد ان تكون المقاييس التي يحاول هو وضعها مرنة بحيث تستطيع

ان تصمد امام المفاجئات الادبية التي قد تعصف بكثرة من نظم النقد فتدك معالمها

عند ما تتحقق هذه الامور في الناقد يجيء دور الذوق، وهو أبرز مؤهلات الناقد فيتلمّس الجمال ويتذوقه ويدركه ويعيه ، ويكون النقد الادبي عندئذٍ تطبيق شروط علم الجمال على الادب

اما ميدان الجمال فهو لحسن حظنا واسع تكثر فيه المتناقضات حتى زعم اناتول فرانس ان باستطاعة المرء ان يناقش في المواضيع المتعلقة بتقدير الجمال اكثر مما يستطيع في اي موضوع آخر ، ومن يزعم ان المقاييس لتقدير الجمال وتذوقه قد وضحت وضبطت واستقامت وعينت حدودها فهو خادع او مخدوع ، بل لا اظن ان علماء الجمال يستطيعون ان يخضعوه لهذه النظم التي تخضع لها سائر العلوم ، ولا اظن ان الجمال ينتفع بشيء اذا نظم على قواعد وأرقام وقياسات خاصة ليحشر بين العلوم . انهُ عندئذٍ ليجد ان خياله قد دخل بينها ومدلولاته الرقمية قد تسربت بين المعادلات العلمية ولكن الجمال والمغزى الذي يحمله الجمال — سحر الجمال يبقى خارج الابواب — ولست اذكر من قال — وأرجو ان لا تحاسبوني على ارقام السنين — اذا استطاع علم الحياة ان يصبح علماً ثابتاً بعد الف سنة فسيقتضي علم الآداب والسلوك مثلها ثم لا بد ان تمر الف سنة أخرى قبل ان يصبح علم الجمال مثلها وسيظل الناس في حيرتهم طيلة الثلاثة الآلاف سنة يتساءلون عن مقاييس الجمال ونظمه . غير ان علماء الجمال قد اصطلحوا على وضع بعض النظم لهُ ولكن الخطر كل الخطر أن يوضع هذا السلاح في ايدي الاطفال من الادباء والنقاد فانهم ينتحرون بهِ ولقد يضطرنا درسها — لو شئنا التوسع — الى درس فنون اخرى كالتصوير والموسيقى والرقص والنحت وغيرها وبكلمة ان هذه النظم لا يمكن ان ينظر اليها كما ينظر الى المقاييس المادية ، وان تقدير الجمال وتذوقه يختلفان عن اللذة المادية التي تكتسبها منهُ. واذا سال لعاب احدكم حين ينظر الى رسم تفاحة مثلاً فهذا لا يعني ان الجمال فيها هو هذه اللذة التي اكتسبها — هذه تزول ولكن الجمال يبقى فيها فيؤثر فيك وفي غيرك في اوقات اخرى. فتذوق الجمال اذن هو هذا الرضا الذي تحس بهِ دون ان يكون لك مصلحة مادية : هذه هي في نظري فلسفة علم الجمال بكلمة ، وذلك هو سحر الفنّ الذي لا يدرك بالحواس الظاهرة بل بالحسّ الباطن . هكذا أفهم النقد الآن ، قد تفهمونهُ على غير هذا الشكل ، ولعلي واياكم نفهمهُ غداً على غير ما نفهمهُ الآن ، ولحسن حظي وحظكم وحظ النقد نفسهُ ان الناس تختلف فيهِ اختلافها في أمر الجمال ، ولولا هذا الاختلاف في الاذواق لما وجدت كل هذه الكثرة من الرجال نعمة في عيون النساء ، ولا ألفت كل هذه الكثرة من النساء سبيلاً الى قلوب الرجال . ولا اظن احداً في هذا البهو يوافق صاحب ليلى في ليلاه حين قال

لقد فضلت ليلى على الناس مثلما على الف شهر فضلت ليلة القدر

الانزيمات

النظريات الحديثة في طبيعة عمل الانزيم

لرضوان محمد رضوان

طبيعة عمل الانزيم

اتسعت الدراسات لمعرفة طبيعة عمل الانزيم وتأثيره كعامل مساعد، وساعد على تقدم هذه الأبحاث اكتشاف Büchuer طريقة عزل الانزيمات بعيداً عن خلاياها الحية

ولقد ظهرت نظريات عديدة في تفسير عمل الانزيم، أبسطها النظرية القائلة بأن الانزيم يهيء بيئة مناسبة للتفاعل الكيميائي الحادث، ذلك لأن محلول الانزيم غروي، فتتسع بذلك الأسطح المعرضة للتفاعل المطلوب. الا أن هذه النظرية قد سقطت أخيراً لأن الابحاث الحديثة تثبت أن هناك اتحاداً فعليًا بين المادة المؤثر فيها وبين الانزيم، ثم يتحلل هذا المزيج الى المادة المطلوبة، ويبقى الانزيم ثابتاً دون أن يتغير، فيتحد بمقدار آخر من المادة وهكذا. وقد امكن اثبات هذا الاتحاد بالتجربة العلمية، فأخذ محلولان من مادة التفاعل ومن الانزيم ثم رشحا خلال مرشح خزفي وخلط المترشحان، فوجد أنهما لا ينفذان من خلال مسام الترشيح دلالة على امتزاجهما.

وهناك رأيان في طبيعة هذا الاتحاد، رأي يقول أنهُ مركب كيميائي أي انهُ قائم على اتحاد الجزيئات، والثاني يقول انهُ مركب طبيعي أو غروي، والرأي السائد الآن في الدوائر العلمية هو انهُ نظام غروي يؤيد ذلك جميع البراهين العملية، والاثباتات النظرية، ورؤية المواد المتفاعلة بالالترامكرسكوب Ultramicroscope، وتأثير الحرارة في الخاليط المتفاعلة

ويؤيد هذا الرأي أيضاً كون التفاعلات التي تقع تحت تأثير الانزيمات هي تفاعلات عكسية، فالانزيم الواحد يستطيع ان يزيد في سرعة التفاعل في اي جهة، وكل اتجاه له شروط تفاعل خاصة، والامثلة على ذلك عديدة مثل تكوين «الاستر» الصناعي للدهون بواسطة «الليباز» الذي في البنكرياس، وكذا تكوين البروتين من الحوامض الأمينية المتحللة، الى غير ذلك

وقد خُصصت الانزيمات المؤكسدة بقسط كبير من ابحاث العلماء ووضعت نظريات كثيرة لشرح عملها، أشهرها النظريتان التاليتان :

١ — نظرية Bach : وتتلخص في ان عملية انتقال الأكسجين ، لا تحدث الا في حالة وجود مادتين ، الأولى صالحة للتأكسد السريع تعرف علميًّا باسم Auto-oxidiser والأخرى أقل قابلية للتأكسد السريع، وتعرف علميًّا باسم Accebtor، فتتفاعل المادة الأولى مع الاكسجين الجوي فيتكوّن بيروأكسيد ، وهو مركب يحتوي على الاكسجين في حالة فعالة جدًّا . في حالة انحلال هذا المركب ، تتأكسد المادة الثانية بسهولة تامة مكوّنة للأكسيد فاذا رمزنا للمادة الأولى بحرف س والثانية بحرف ص أمكن شرح التفاعل كما يلي :

س + ا ٢ ← س (ا ا)

س ا ا + ٢ ص ← ٢ ص ا + س

٢— نظرية ويلاند Wieland : وتعتمد هذه النظرية على الاكسدة أيضاً، ولكن في صورة اخرى وهي تنشيط أيونات الايدروجين لكي تتحد بالاكسجين . ولقد تمكن العالم ويلاند من استخدام هذه النظرية في شرح العملية الحيوية التي تحدث في الخلايا تبعاً للمعادلة الآتية :

كحول + اكسجين ← اسيتلدهيد + ماء

ك ٢ يد ٥ ايد + أ ← ك يد ٣ ك يد ا + يد ٢ ا

وتبعاً لهذه النظرية تتكوّن الاحماض من الالدهيد بواسطة انفصال ذرتين من ايدروجين الاسيتلدهيد كما في المعادلة :

ك يد ٣ ك يد ا يد ٢ ا + ا ← ك يد ٣ ك ا ا يد + يد ٢ ا

* * *

قد وجد ان حيوية الانزيمات تتأثر تأثراً كبيراً بوجود اجسام أخرى في محاليلها ، وتختلف درجة تأثير اي انزيم عن غيره ، فلقد تزداد سرعة انزيم لوجود مقدار من حامض ما، وفي نفس الوقت قد يحد هذا المقدار من نشاط انزيم آخر ، مثال ذلك محلول $\frac{\text{س}}{١٠٠}$ من الحامض الكبريتيك يوقف عمل انزيم الاميلاز الذي في اندوسبرم البذور ، وفي الوقت نفسه يزيد في نشاط انزيم البروتياز ، وهناك من المحاليل ما يوقف حيوية الخلايا ، وبالتالي عمل الانزيمات ، مثل محلول الفورمالدهيد ، والحامض السيانيك ، والفلوريدات المذابة . بينما توجد محاليل أخرى توقف نمو الخلايا ولكنها لا تؤثر في حيوية الانزيمات مثل التولوين والزيلين ، وتعرف المواد التي تنشط الانزيمات باسم Activators والمواد التي تحد من هذا النشاط Inhibitors

وقد لوحظ اخيراً ان انزيمات الانساج الحيوانية لا تؤدي عملها الاَّ اذا وجد معها مواد خاصة توجد في الغدد او البروتوبلازم الذي يفرزها، مثال ذلك انزيم التربسين يشترط لنشاطه وجود املاح الصفراء وهذه الاملاح ــ وما يشبهها ــ تسمى مساعدة الانزيم Co-enzymes ويمكن فصلها عن الانزيم بواسطة عملية الفصل الغشائي Dialysis خلال ورق الرق (البارشمنت) ، ومن أحسن الامثلة لمساعد الانزيم في انساج النباتات ، هو مساعد انزيم الزيماز في خلايا الخميرة ، فاذا رشحت عصارة الخميرة خلال المرشح الهلامي (الجيلاتيني)، رأيت ان الانزيمات الغروية التي تبقى لا يمكنها القيام بعملية التخمير ، وبتحليل هذا المترشح الذي يحتوي على مساعد الانزيم، وجد انهُ يحتوي على فوسفات ذائبة ومادة اخرى لم تعرف ماهيتها للآن

من جهة ثانية وجدت ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة تضاد الانزيم Anti-enzyme وتوجد في الديدان المعوية التي تعيش في قنوات الحيوان الهضمية لتمنع تأثير انزيمات المعدة والامعاء في تلك الديدان . وهي توجد ايضاً في الغشاء المخاطي المبطن لجدران الامعاء نفسها لتمنع الهضم الذاتي للامعاء بواسطة الانزيمات الدائمة الاحتكاك بها

ونختم هذا البحث بذكر أهم الفوائد الفسيولوجية للأنزيمات ، فللانزيمات تأثير هام في جميع الظواهر الحيوية ، ونحن قد علمنا ان الانزيمات لا توجد تفاعلاً جديداً لم يكن موجوداً من قبل ، اذ انها تساعد على التفاعلات العكسية في اي اتجاه ، فهي ولا شك تحدد سرعة التفاعل بعد أن يحدد البروتوبلازم اتجاهه . ومن المستحيل أن يتم التفاعل بين المركبات العضوية غير المتأينة في محتويات الخلية بغير هذه الأنزيمات وبمثل هذه السرعة الهائلة التي تتم بها التغييرات ، حتى يتمكن الكائن الحي من أن ينمو ويقوم بواجباته الحيوية الضرورية

***

ومعلوم أن التفاعلات المختلفة التي تحدث داخل الخلايا كثيرة جدًّا وأغلبها يختلف عن الآخر، لهذا كان من الطبيعي أن يكون عدد الانزيمات الذي ننتظر وجوده في النبات أو الحيوان ، كبيراً جدًّا ، وفعلاً أثبتت التجارب ذلك ، فوجد أن هناك ١٤ انزيماً مختلفاً في القناة الهضمية وحدها و١٦ أنزيماً على الأقل في الكبد ، أي انها توجد في جميع اشكال البروتوبلازم الحي ولا يختلف هذا في أي كائن حي سواء كان ميكرسكوبيًّا مثل البكتيريا ، أو ضخماً جدًّا كشجرة البلوط في المملكة النباتية ، ومن الاميبا الى الحوت في المملكة الحيوانية . ولتعدد الأنزيمات وكثرتها ، نشاهد في غالب الأحيان أنزيماً معيناً شائعاً في أنواع مختلفة من الاحياء ، مثال ذلك أنزيم التربسين ، فقد عثر عليهِ في أنواع من الكائنات الدنيئة وفي النباتات آكلة الحشرات وفي بنكرياس الانسان وفي حيوانات أخرى عديدة

جدول

الانزيمات الهامة

القسم والنوع	اسم الانزيم	بيئة الانزيم	المواد الناتجة	مكان وجود الانزيم
اولا انزيمات هيدروليتية				
ا ـ محللة الكربوايدرات	الانفرتاز	سكر القصب	سكر جلوكوز وفراكتوز	الخمائر
	مالتاز	سكر المالتوز	سكر جلوكوز	شعير المولت
	انيولاز	الأنيولين	سكر فراكتوز	الخرشوف
	پكتيناز	بكتوز	سكر اراپنوز	الثمار
	دياستاز ـ أميلاز	النشا	سكر مالتوز	شعير المولت
	سليولاز	السليولوز	سكر مالتوز	البكتيريا والفطر
ب ـ محللة البروتينات	پپسين	البروتين	پبتون + البيوموزس	شجرة البابائظ
	ترپسين	»	» »	نباتات كثيرة
	رنين	اللبن	باراكازينات	معدة الحيوانات الرضيعة
جـ ـ محللة الاسترات	ليپاز	الدهون	جليسرين + احماض دهنية	الحبوب الزيتية
ثانياً انزيمات مؤكسدة	كتالاز	فوق أكسيد الايدروجين	ماء + اكسجين	كل النباتات
	پروكسيداز	»	اكسچين نشوء	»
	يورياز	يوريا	ثاني اكسيد كربون + نوشادر	»
ثالثاً انزيمات مجزئة	زيماز	سكر عنب	كحول + اول اكسيد كربون	خمائر
	لاكتاسيداز	حوامض دهنية	حامض لاكتيك	بكتريا

ملحق

بالاسماء العلمية التي وردت في هذا المقال ولم نعثر لها على مرادفات عربية
حتى تسهل مراجعتها على القارىء

اللفظ العربي	الاصطلاح العلمي	اللفظ العربي	الاصطلاح العلمي
الانزيم	Enzyme	انزيم الاميلاز	Amylase
عامل مساعد	Catalyst	« اليورياز	Urease
سكروز	Sucrose	« الكتالاز	Catalase
جلوكوز	Glucose	« الزيماز	Zymase
مالتوز	Maltose	« بروكسيداز	Peroxidase
انزيمات هيدروليتية	Hydrolases	« لاكتاسيداز	Lactacidase
انزيمات تحل الكربوايدات	Carbohydrases	« اوكسيداز	Oxidase
« « البروتين	Proteases	« الاميولوزين	Emulsin
« « الدهون	Lipases	« الدكستريناز	Dextrinase
انزيم الانفرتاز	Invertase	« الجلكتاز	Galactase
« مالتاز	Maltase	البيتون	Peptone
« انيولاز	Inulase	البيتيد	Peptides
« دياستاز	Diastase	دهن الاستيارين	Stearin
« سليولاز	Cellulase	الحمض الاستياريك	Stearic acid
« سيتاز	Cytase	جليسريد	Glycerides
« بكتاز	Pectinase	جليسرول	Glycerol
« پبسين	Pepsin	استرات	Esters
« اربسين	Erypsin	انزيمات مختزلة	Aeductases
« تربسين	Trypsin	استيالدهيد	Acetaldehyde
« رنين	Rennin	سكر الليفيولوز	Levulose
« الزيماز	Zymase	سكر الفراكتوز	Fructose

باب المراسلة والمناظرة

حول «مباحث عربية»

النظر في آراء النقاد

بقلم الدكتور بشر فارس

لا يسعني — و «المقتطف» خارج في أغسطس — الا ان أشكر لطائفة من النقاد عنايتهم بكتاب «مباحث عربية». وهؤلاء النقاد هم (على ترتيب الهجاء) : الأب انستاس ماري الكرملي «المقتطف» يوليه ١٩٣٩ — ابراهيم عبد القادر المازني «البلاغ» ٢٧/٥/٣٩ و «المقتطف» يونيه ٣٩ — ادجار جلاد Le Journal d'Egypte ٢٣/٦/٣٩ — اسماعيل أحمد أدهم «الرسالة» العدد ٣١١ و٣١٢ — بروكلمن «تكلة تاريخ الآداب العربية» ج ٣ ص ١٦٩ ليدن ١٩٣٩ — زكي محمد حسن «الاهرام» ٢٩/٥/٣٩ — سلامة موسى «البلاغ» ٢٣/٦/٣٩ — صديق شيبوب «البصير» ١٩/٥/٣٩ — كامل محمود حبيب «المقطم» ٩/٦/٩٣ — محرر الدستور الأدبي ، «الدستور» ١٠/٥/٣٩ — محرر «الهلال» يونيه ٣٩ — م . ح . ع . «الدستور» ١٨/٦/٣٩ — مراد كامل «الرسالة» العدد ٣٠٨ — وشكري للصديقين: القصصي محمود تيمور («الرسالة» العدد ٣٠٩) والفنان زكي طليمات («الرسالة» العدد ٣١١) . وشكري أيضاً لمن بعث اليَّ برسائل رقيقة، وأخص بالذكر الاستاذ ميخائيل نعيمة من لبنان، والدكتور فيليب حتي من أميركة الشمالية ، والمستشرق ماسينيون من فرنسة والمستشرق تيشنر من المانية

وقد ورد فيما كتب النقاد كلام لطف أيَّ لطفٍ حتى إنك تراني أنسبهُ الى سماحة الطبع تارةً ، وأعده من باب حسن الظن بالمؤلف أخرى . واهتمام النقاد — على اختلاف مشاربهم، إذ فيهم العالم والأديب والمنشىء — بكتاب كنت أظنه يدفن يوم يخرج ، لعبوس صفحته وثقل مادته ، لأقطع دليل على ان في مصرٍ من ينشط لكتاب مجرى على «أسلوب يُضجر مَن همهم من القراءة أن يتسلوا ويتلهوا ساعةً لانهُ يحوجهم بشدة إحكامه الى كد الذهن» على قول الصديق الأديب المترسل ابراهيم عبد القادر المازني

وتتمةً لما يجنيه القارىء — على سبيل الفرض — من هذا الكتاب ، لَيحسن بي أن أعرض معهُ جُلَّ ما أخذ عليه . وإن أنا نظرت في المآخذ ، على اختلاف ألوانها ، فانما يكون هذا طلباً للدنوّ من الحقيقة ورغبةً الى القارىء المهذَّب في أن يرى رأيه فيها

***

أخذ عليّ العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي استعمالي لفظة « المنضدة » بدلاً من « النضد » لأن المنضدة « لفظة لم ترد في كلام فصيح » ، والنضد « من باب تسمية الشيء بالمصدر »

والوجه ان المنضدة لا تصيبها في « لسان العرب » (ج ٤ ص ٤٣٣ وما يليها) ولا في « القاموس » مثلاً ، ففيهما : « النضد : السرير ينضد عليهِ المتاع » . فالأب العلامة على صواب . إلا أن المعجمات لا تحصر متن اللغة ، فضلاً عن أن باب الاشتقاق ميسور لطالبه . والمنضدة على وزن مِفعلة (بكسر الميم) تجري مجرى اسم الآلة . ثم اني يلوح لي ان استعمال لفظة النضد يورث بعض الاشتباه لأن النضد يدل على الشيء ومصدر الفعل في آنٍ ، وفي استعمال لفظة المنضدة تقييد للمعنى ونجاة من الاشتراك

***

يسألني الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية في كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — أن «أدوّن الرموز (التي استعملها) في الطبعة الثانية على ترتيب ما ، نحو الترتيب الابجدي»

وبهذا الأسلوب الرقيق ينبهني الزميل الفاضل أنه كان ينبغي لي ان ارتب الرموز ، مع قلتها . وعليّ عهد أني متدارك هذا في الطبعة الثانية ان شاء ربك

***

في رأي الأستاذ صديق شيبوب ان استعمالي «النقد الباطني مقابلةً للنقد الخارجي لا يتمشى وتقاليد اللغة . فقد قالوا : خارجي وداخلي ، أو ظاهري وباطني»

والحق بين يدي الأستاذ الناقد صديق شيبوب من جهة التقليد اللغوي . الاَّ أن للاصطلاح الفلسفي ان ينحو نحوه ابتغاء الدقة والفرار من اللبس . وبيان هذا اني لو استعملت «الظاهري» لانصرف الذهن الى الأخذ بالـ «ظاهر» ، و «الظاهر هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص » (أطلب « التعريفات » للجرجاني ، مصر ١٢٨٣ ، كلمة «الظاهر» الأولى) . هذا على حين أني أريد «القضية التي يكون الحكم فيها على الأفراد الخارجية فقط» (اطلب « كشاف اصطلاحات الفنون» كلمة «الخارجي») . ومن هنا قولي عند الفحص عن حديث نبوي : « واذا بدا لك أن تعدل عن النقد الخارجي critique externe

وهو النظر في الأسانيد ، الى النقد الباطني critique interne وهو النظر في الأسلوب ، فاعلم أن أسلوب هذا الحديث محض اسلامي » (مباحث عربية ص٤٢) . هذا ما يعلل إعراضي عن لفظة الظاهري . وأما انصرافي عن لفظة الداخلي ، وهي المقابلة للفظة الخارجي من باب التقليد اللغوي الى لفظة الباطني ، فسببه مخافة اللبس . وذلك لأن للفظة «الداخل» مُفادات شتى في الكلام والفلسفة (وهي : الركن والأسطقس والهيولى والاصل ، والموضوع — راجع « التعريفات » كلمة الداخل») . هذا فضلاً عن أن « الباطن » أدل على المعنى المقصود من « الداخل » في هذا التعبير : « النقد الباطني » . لأن الباطن يوجه الذهن الى ما هو داخل والى ما في الداخل من خفي ، على حين ان النقد الداخلي لا يقتضي النفاذ الى كنه الاشياء بل يقف عند ما وراء المنظور . وعلى ذلك ترى الباطني أشد إيغالاً وأعم

واذا قلتَ : لمَ لا تستعمل كلمة « خفي » — وهي ضد كلمة « ظاهر» أيضاً على ما جاء في « التعريفات » (كلمة « الظاهر» الثانية)—قلتُ : ان كلمة « الخفي » مَساقة الى اللبس ،لأن الخفاء « في اصطلاح اهل الله هو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة ... » (« التعريفات » كلمة « الخفي »). واذا اعترضت بعد هذا بقولك : ان كلمة « الباطني » مجلبة للبس أيضاً من حيث ان « الباطنية »فرقة من فرق المسلمين (أطلب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازي مصر ١٩٣٨ ص ٧٦ وما يليها ، ثم أطلب « كشاف اصطلاحات الفنون » كلمة « الباطنية ») ، جعلت ردي أنك إن اردت النسبة الى « الباطنية » قلت : نقد الباطنية ، اي فرقة الباطنية ، لا النقد الباطني أي : طلاب الباطن (وعلى هذا « الظاهرية »)

***

عدّ الاستاذ م . ح . ع . (١) المبحث الأول من الكتاب ، وعنوانه : مسلمون في فلندة « مقالاً لا يتناسب مع موضوعات الكتاب »

وهذا حق من جهة أن ذلك المبحث لا ينهض ، نحو مبحث«مكارم الاخلاق »أو «المروءة» أو « تاريخ لفظة الشرف » ،على استقراء الواقعات واستقصاء المصادر . فليس هو مبحثاً بالمعنى المتواضع عليه،ولذلك سميتهُ «استطلاعاً» inquiry, enquête وهو بهذا يدخل في باب« المشاهدة مباشرة وملاقاة » (كما يقول ابن سينا) من علم الاجتماع . ولعلي جعلته رأس المباحث ، لجدّته وخلابة موضوعه مع سهولته ، مدخلاً الى فصولٍ كالحة تأكل حواشيها متنها

(١) — محمود حسني العرابي

ثم ان الكاتب المستعرب الأستاذ اسماعيل احمد ادهم ، خريج جامعة موسكو [1] ، نشر في « الرسالة » ، بعد الدكتور مراد كامل ، نقداً مسهباً أحب أن أتمهل عنده :

ألا اني يسوءني ان اقول اني لمست فيما كتبهُ الأستاذ ادهم انحرافاً عن وجه النقد الصحيح واضطراباً في تناول المسائل العلمية، واجتلاباً للنقد نفسه ، واستسلاماً الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات ذاتها ، ثم تحدياً في القول . واليك تفصيل ذلك :

***

أما انحراف الناقد عن وجه النقد الصحيح ففي مثل قوله في مبحثي « مكارم الاخلاق » — وهو المنشور من قبل باللغة الفرنسية في « مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في رومة ١٩٣٧ بعد القائي لهُ في مؤتمر المستشرقين (سبتمبر ١٩٣٥) — : « وكان بودنا ان نناقش الباحث آراءه التي اتى بها في الموضوع ولكن المصادر اعوزتنا . لهذا صرفنا النظر عن مناقشتها . على انهُ يظهر ان الباحث وفّى حقهُ من التحقيق والفحص العلمي »

هذا أسلوب من النقد لم أَلفه قبل اليوم . فاما ان يناقش الناقدُ الباحثَ في مسائل واضحة معينة ، ولا يكون ذلك إلاَّ بعد مراجعة المصادر بنظر نافذ . وإما ان يتجنب الكلام او يعرض للبحث من الناحية الموضوعية فيبين مطالبه ويجملها للقارىء دون ان يلقي في وهمه انهُ يستطيع مناقشة الباحث ولكنهُ « صرف النظر عن المناقشة » لان المصادر تعوزه . ذلك أسلوب فيه تهويل ، مما يدعو القارىء الى الارتياب في قدر البحث نفسه . افلم يكتب الناقد : « على انهُ يظهر (كذا) ان الباحث وفى حقهُ (اي الموضوع) . . . » ؟

أنما وظيفة النقد تحقيق الموضوع ولا سيما اذا كان مما يتصل بالعلم الاستقرائي . وعلى هذا الوجه يستعين الباحث بالناقد على خدمة العلم الصرف

***

وأما اضطراب الناقد في تناول المسائل العلمية ففي استشهاده بفصل من كتاب « ملتقى اللغتين » للأستاذ مراد فرج (القاهرة ١٩٣٠ ج ١ ص ٩٠) . قال الناقد : « كلمة المروءة وردت في اللغة العبرية نازعة فيها لمعنى السيادة » ثم رجع القارىء الى : سفر دانيال، الإصحاح ١٤ ، الآية ١٩

والواقع ان في كتاب مراد فرج ما حرفه : « مرا : فتح فكسر ممال ممدود بمعنى السيد

---

(١) أورد الاستاذ سامي الكيالي في مجلته بحلب « الحديث » في التصدير الذي عمله لبحث الاستاذ ادهم في « طه حسين » ١٩٣٨ ، ان الاستاذ ادهم أخذ في العلوم والفلسفة اجازتي .Sc D., Ph. D بدرجة شرف من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣ وانه غنم من الجامعة نفسها اجازة .Ph. D بصفة فخرية سنة ١٩٣٨ . هذا وان الاستاذ أدهم ، كما يعلم قراء المقتطف ، يجعل تحت توقيع اسمه : « عضو أكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية »

وولي الأمر» . وعليه فمن اين جاءت لفظة «المروءة» ؟ ثم ان الأستاذ مراد فرج استشهد في هذا الموطن بسفر دانيال (من «العهد القديم») ، فكتب : « دانيال ١٤ — ١٩ ، والأصل العبري ١٦... (يريد الإصحاح ١٤ والآية ١٩ في الأصل العربي والآية ١٦ في الأصل العبري)

ومن المستحيل ان يكتب الأستاذ فرج : الاصحاح ١٤ (الرابع عشر) ، لأن سفر دانيال اثنا عشر إصحاحاً فقط . ومن هنا اتضح لي ان الاصحاح ١٤ من غلطات الطبع . فسألت زميلي الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — في ذلك ، فأخبرني بعد المراجعة ان الصواب هنا : الاصحاح ٤ (الرابع) والآية ١٦ و٢١

وهكذا ترى كيف جاء الاستاذ أدهم ونقل ما في كتاب فرج من غير تحقيق ولا مراجعة . والظريف انهُ استشهد بسفر دانيال أولاً ، اذقال :« دانيال ١٤ — ١٩ ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج ١ ص ٨٩ — ٩١ » ، كأنهُ اطلع على سفر دانيال قبل « ملتقى اللغتين » لمراد فرج

— ومما يتصل بما تقدم أن الناقد كتب عند الكلام على انساب العرب : « ولكننا على الرغم من ذلك نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون واتخاذ من قبائل مختلفة : (ابن حزم نقلاً عن الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ . والمراجع العربية تروي ان قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التي تناثرت في الصحراء من القبائل العربية التي تفرقت بعد تركها مواطنها في الجنوب : الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ وكذلك لنا (يعني كتاباً لهُ) علم الأنساب العربية ص١٣ — ١٤ »

على هذا النحو ترى الجزء الثالث (؟) من « الفهرست » لابن النديم يُثبَت مرتين على سبيل المرجع . وليس للأستاذ أدهم أن يستنجد بغلط الطبع ، إذ في كتابه المستشهد بهِ ايضاً « علم الأنساب العربية » (طبعة مجلة الحديث، حلب ١٩٣٨ ص ١٤) ما جاء في نقده حرفاً بحرف

هذا والمعلوم ان « الفهرست » لابن النديم طبع مرتين : مرة في ليبتسج Leipzig سنة ١٨٧٢ ومرَّة في مصر سنة ١٣٤٨ هـ . وفي كلتا المرتين خرج « الفهرست » في جزء واحد . والذي حدث في هذا الموطن أن الاستاذ ادهم اقتبس المرجع الى « الفهرست » من كتاب من الكتب الحديثة من غير ان يراجع المظِنَّة (شأنهُ مع «سفر دانيال»)،ولو راجعها لعلم أن الكلام على الأنساب يقع في « المقالة الثالثة » (« الفن الأول : في اخبار الاخباريين والنسابين ... ») من كتاب الفهرست لا في « الجزء الثالث » منهُ . ومن هنا يتبيّن انهُ ظن المقالة جزءاً لحظة اقتبس المرجع ، وأما الصفحة التي يعينها (ص ١٨٧) فلا أثر فيها لما يذكره . بل اني قرأت « الفن الأول » من « الجزء الثالث » كله (طبعة مصر) ولم أعثر على حديث الناقد

وأما قوله في مرجعه : « ابن حزم نقلاً عن الفهرست ... » فغاية الاشتباه . لأنهُ اذا

قال ابن حزم من غير تعيين اراد صاحب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » المولود سنة ٣٨٣ (والفهرست صنف سنة ٣٧٧) . ولابن حزم ستة وثلاثون مؤلَّفاً (راجع : بروكلن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٦٩٤ — ٦٩٧) . وعليهِ فلنا ان نسأل الناقد اي كتاب لابن حزم يعني . ثم اني اعلم أن لابن حزم كتاباً لا يزال مخطوطاً عنوانه : « جمهرة النسب » وقد نَشَر جانباً منهُ Khuda Bukhsh في كتابهِ Contributions to the Hist. of Isl. Civiliz. كلكته ١٩٠٥ ص I الى XXXV . فهل يعني الأستاذ ادهم ذلك المخطوط ؟ واذن فاين اسم الكتاب واين الصفحة كما يصنع الناقد الثبت والباحث الثقة ؟ (١)

وخاتمة القول : أين الجزء الثالث في الفهرست ، وأين النصُّ المستشهد بهِ في ص١٨٧ ، بل في الفن الاول من المقالة الثالثة من الفهرست ؟ ثم من ابن حزمٍ هذا وما كتابه ؟

— ومن الاضطراب أيضاً أن يقول الناقد : « ويرى (يعنيني) للعربي صلات اجتماعية في حدود الحي والقبيلة . وفكرة البحث وجيهة ، ولكن ما رأيه في كون التحاق العربي بقبيلته اوحيه مظهر (كذا) من الاصل الطوتمي totemism عند العرب القدماء ، والطوتمية مصدرها فردية صرفة »

والرد ان الطوتمية جماعية صرفة ، كما قرر ذلك علماء الاجتماع . واليك دليلاً ما كتبهُ (دوركايم) Durkheim صاحب مدرسة علم الاجتماع في فرنسة لهذا الزمان : « ان نوع الاشياء الذي يعين الحي من طريق جماعي collectivement يسمى : طوتم . وطوتم الحي هو طوتم كل فرد من افراده » (اطلب Les Formes élémentaires de la Vie Religieuse باريس ١٩٢٥ ص ١٤٣) . وعلى هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٤ ، كلمة Totemism) : « للطوتمية خاصة اصلية هي ارتباط جماعات من الناس بجماعات من الحيوانات او الاشياء ، لا ارتباط افراد من الناس بحيوانات مفردة . وهذا الارتباط الاخير ظاهرة شائعة لا يستحسن ان تنطوي تحت الطوتمية » .

***

واما اجتلاب الاستاذ ادهم للنقد فبيّن عند كلامه على طائفة المسلمين الذين اهتديت اليهم في فنلندة سنة ١٩٣٤ ، وهم من الترك — التتر الضاربين أصلاً فيما وراء جبال اورال . وقد دوّنتُ أنهم هجروا الى الشمال وحلوا بفنلندة عقب الثورة البلشفية في روسية

(١) وهذا يذكرني ان بالاستاذ أدهم ميلا الى ارتجال المراجع . من ذلك ما جرى على قلمه في مجلة الرسالة (العدد ٣١٣ ص ١٣٣١) : « قد تكررت جملة كذا في كتابات العالم الاجتماعي دوركايم Durkheim وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون (ص ١١ و١٣ و٢٤ و٢٦ مثلا) » فما هذه « المجموعة » ؟ راجع ما كتبته في الرسالة العدد ٣١٤ « باب رسالة النقد » ص. ١٣٧٩

على ان الناقد يقول : «ونحن نعرف ان المصادر التركية تتحدث عن رحلة جموع من الاتراك المسلمين الى الشمال في القرن السادس عشر للميلاد وانهم نزلوا بلاد (الفنوا) . فهل تحقق الباحث من ان مسلمي فنلندة الذين شاهدهم عن كثب ليسوا من نسل هؤلاء؟ وان قولهم بأنهم اتوا فنلندة عقب الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا حقيقة تخلو من الريب ؟ »

والرد ان هؤلاء المسلمين الذين اهتديت اليهم في فنلندة خبروني بما دونته ، وقد أيد موظفو الحكومة الفنلندية ما خبرني به القوم ، وصاحب الدار أدرى بالذي فيها . وليس لي ان اشك فيما قاله هؤلاء الموظفون واولئك المسلمون ، اذ لا داعي الى الكذب ، واذ الهجرة قريبة العهد (خمس عشرة سنة) فكيف تُلفّق ؟ والذي يُخيّل اليّ ان الاستاذ أدهم — خريج جامعة موسكو — يريد ان يجعلنا نرتاب في ان نقرأ من الناس بل من المسلمين يخطر لهم ان يفروا من الثورة البلشفية (او الثورة الاشتراكية الكبرى ، كما يسميها)

— ومن اجتلاب النقد ايضاً قول الأستاذ ادهم اني كتبت أن هؤلاء المسلمين يقيمون في مدن ، منها مدينة« توركو » ولم اذكر ماصلة هذه المدينة بلفظة « ترك » . وفي رأيه انهولاء المسلمين لم يستطيعوا ان يخلعوا اسماً مشتقاً من جماعتهم (يعني لفظة ترك) على تلك المدينة لأنهم لم يقيموا بها سوى خمس عشرة سنة ولأنهم أقلية ، وعليه « فللموضوع شأن اعمق من القول بأن هؤلاء من الذين نزلوا فنلندة بعد الثورة البلشفية في روسية » . وبهذه الجملة يعود الناقد الى حمل القارىء على الارتياب في تاريخ هجرة اولئك المسلمين ، فيصرف ذهنه الى جماعة الترك الذين رحلوا الى فنلندة في « القرن السادس عشر »

والرد ان مدينة « توركو » عيّدت ، سنة ١٩٢٩ ، انقضاء سبعمائة سنة على انشائها (راجع « دائرة المعارف البريطانية » الطبعة ١٤ كلمة Turku) ثم ان « توركو » هوالاسم الفنلندي الصميم للمدينة (واسمها الأسوجي : آبو Abo ، وقد أهمله الفنلنديون الآن تعصباً لقوميتهم) . وكانت «توركو » عاصمة فنلندة في المائة الرابعة عشرة للمسيح ، وفيها كان مقر الاسقف وقيام الحكم (اطلب La Finlande بقلم J.—L Perret باريس ١٩٣١ ص ١٥ ثم Hist. des Pays Baltiques بقلم Meuvret باريس ١٩٣٤ ص ٧٢). والمائة الرابعة عشرة للميلاد قبل « القرن السادس عشر له » . فلا تأثير اذن لجماعة الترك الذين ذكرهم الناقد في اسم مدينة « توركو »

— ومن اجتلاب النقد ايضاً ان الناقد يقول في بحثي عن اولئك المسلمين « اني لم اتعمق في البحث » وحجته اني كتبت ان حروف هجائهم هي الحروف اللاتينية — التركية التي وُضعت وشاعت بأمر اتاتورك ، فلم اتبت من ان هذه الحروف هي التي « تَـوافق عليها اتراك آسيا الوسطى والقوقاز والاورال في مؤتمر تفليس عام ١٩٢٥ »

وهنا اقول دفعة اخرى : ان هؤلاءِ المسلمين خبروني بما دونته ، فضلاً عن انهم صرفوا هواهم عن روسية الى انقره ، كما جاء في مبحثي (ص ٢٣) ، وذلك بغضاً للبلشفية وأصحابها. والعهدة في ذلك عليّ

[هذا وإن منطق الاستاذ ادهم في هذا الاعتراض والذي سبقهُ يذكرني بمنطقهِ في اثبات تاريخ ميلاد صديقي الاستاذ توفيق الحكيم . فقد عين الاستاذ الحكيم لأدهم مولده ولكن الأستاذ ادهم أبى الاَّ ان يسلب صديقي خمس سنوات من عمره ، وذلك على طريقته الخاصة في الاستدلال . اسمعهُ يقول : «هنالك خلاف جوهري بيني وبين الاستاذ توفيق الحكيم بخصوص تاريخ ميلاده ، فهو يقول انهُ ولد عام ١٨٩٨ في خطاب بعثه الينا ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع هيكل التحقيقات (كذا) التي قمنا بها . . . . وعلى هذا يكون ميلاد الاستاذ الحكيم اواخر سنة ١٩٠٣ (صيف عام ١٩٠٣) ، اما انهُ مولود في الصيف فهذا محض استنتاج من مجرى تاريخ حياته حيث افترض ان والديه ذهبا للاسكندرية لقضاء اشهر الصيف ، فوضعته والدته بالاسكندرية» راجع هذه القصة الفريدة في مجلة الحديث ، حلب ١٩٣٩ ص ٣٣٢ المتن والحاشية رقم ٨٦٧.]

— ومن اجتلاب النقد ايضاً ان الناقد يقول اني « اعتبر كلمة البصيرة مقابلاً لكلمة (يريد ناظرة اليها) في ص ٥٧ (من كتابي) » على حين ان «المرجح عنده لفظة intuition الحدس لأنها فلسفيًّا كما جرت على اقلام فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي تفيد معنى الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج ، وهذا ما يفيده معنى لفظة intuition اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية»

والرد اني لم اثبت كلمة intuition ازاء كلمة « البصيرة » في ص ٥٧ من كتابي ولا في صفحة غيرها ، فمن اين جاء بها الناقد وكيف يجعلني « اعتبر» ما يجهل هل انا « اعتبره» ؟ انه يحملني هذا لينساق الى الكلام على «البصيرة» و«الحدس» فيذيع علمه الغزير ، دون ان يخرج نصًّا لأحد من فلاسفة العرب . واليه نصًّا صريحاً للغزالي : «الحدس وهو سرعة الانتقال من معلوم الى معلوم...» («تهافت الفلاسفة» بيروت ١٩٢٧ طبعة Bouyges ص ٢٧٣ . ثم ليراجع لفظة الحدس في « كتاب الاشارات» و « النجاة» لابن سينا : Goichon, Introduction à Avicenne باريس ١٩٣٣ ص ٣٦ التعليقات) . ومهما يفد «الحدس» فان الناقد يرى ان كلمة intuition تفيد أيضاً الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج (ولعله يريد «الى المطالب»: كما جاء في « التعريفات» و « كشاف اصطلاحات الفنون») ، وذلك «اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية »

وهنا أحب ان أدعو الناقد الى مراجعة معجمات الفلسفة ، نحو « المعجم الاصطلاحي والنقدي للفلسفة (ج ١ ص ٣٩٦ — ٤٠٢) وصاحبه الاستاذ لالند Lalande وعليهِ أخذت فن المنطق في

السربون . فلعل الناقد يرى ان مدلول كلمة intuition يذهب الى أبعد مما يظن . وذلك لان المصطلحات الفلسفية لا تصاب على وجوهها التامة في « معاجم اللغة » كما يقول الناقد . أضف الى هذا ان لفظة « البصيرة » ولفظة intuition متماثلتان من حيث الاشتقاق اللغوي (راجع «البصيرة» في« كشاف اصطلاحات الفنون» ووازن بينها وبين مدلول intuition عند Bergson خاصة) . ولا أريد ان أعرض لهذا المطلب ، فانهُ يخرجنا عما نحن فيه

***

واما استسلام الناقد الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات نفسها ، فأقطع دليل على هذا ما كتبهُ : « على هذا التفسير يسير اعلام الاستشراق في أوربا » يريد تفسير لفظة المروءة . ذلك التفسير الذي اظنني دفعتهُ دفعاً في مبحث لي نشرتهُ من سنتين دائرة المعارف الاسلامية التي يخرجها « أعلام الاستشراق » في اوربة

وعلى هذا النحو من التثبت يردد الناقد أقوال المستشرق جولدتسيهر ، وهي أقوال تصعد الى سنة ١٨٨٩ ، في نقده لمبحثي في المروءة . والغريب انهُ يعتمد على ما ذهب اليه جولدتسيهر في هذا الباب ، على حين اني عقدت فصلاً كاملاً في المبحث لأدفع مذهب جولدتسيهر وبين يدي الحجج المستخرجة من النصوص الصريحة لا المنتزعة من الذهن تخيلاً وارتجالاً او المنقولة من كتب الفرنجة . وكل ما صنعهُ الناقد انهُ قال : « ان تساؤل معاوية عن معنى المروءة لا يدل على التباس معنى اللفظة لأن مثل هذه الاسئلة التي ترد في كتب الادب واللغة منحولة لاغراض واضحة ظاهرة »

فان صح قول الناقد فما رأيه في النصوص الأخرى التي اثبتها أو رجعت القارىء الى مظانها وهي كثيرة ، بدليل ان الناقد نفسه يقول : « في هذا المبحث (اي مبحث المروءة) يبرز الباحث رجلاً مدققاً عرض للموضوع في احاطة عجيبة » . ما رأي الناقد مثلاً في كلمة ابي حاتم البستي : « اختلف الناس في كيفية المروءة » والبستي ، بهذه الكلمة ، يصرح بتضارب التعريفات للفظة المروءة وتباين الأقوال فيها (راجع «مباحث عربية» ص ٦٠) . والبستي هذا اقرب الى العصور الاسلامية من المستشرقين ومنا ، فقد توفي سنة ٣٥٤ هـ . ثم ان اختلاف الناس في كيفية المروءة دليل على التباس هذه اللفظة

واما قول الناقد بأن المروءة تنزع في اللغة العبرية الى معنى السيادة ، مستخرجاً ذلك من كتاب مراد فرج ، على ما تقدم ، فمدفوع أساساً . ذلك ان مراد فرج نفسه يقول : ان اصل « مرا » العبرية (ولم يذكر المروءة البتة) آرامي . وفي مبحثي في المروءة فصل أردُّ فيه

الاستناد الى مادة « م ر ا » الآرامية في سبيل الذهاب — من طريق ذلك الاستناد — الى ان لفظة «مرء» العربية تفيد السيادة . وقد أهمل الناقد ما قاله الأستاذ فرج، في كتابه «ملتقى اللغتين»، في اصل كلمة «مرا» ، مغالطة

— ومن استسلام الناقد الى آراء المستشرقين انه يعول على كتاب Robertson Smith وعنوانه Kinship and Marriage in Early Arabia في «كون التحاق العربي بقبيلته او حيه مظهر (كذا) من الأصل الطوتمي»

على ان كتاب Smith في هذا الباب لا يحتج به اليوم (راجع مثلاً ما دونته في رسالتي «العرض عند عرب الجاهلية» باريس ١٩٣٢ ص ١٩ من «ثبت المصادر»)

— وهنا اذكر اننا اصبحنا ندير النظر في كل ما يذهب اليه المستشرقون ، سواء بالرجوع الى الاصول والفحص عن المصادر الاولى أو بتعقب التبيين والاستدلال . اذ قد مضى الزمن الذي فيه كنا نأخذ العلم عنهم اخذاً فنؤمن بكل ما يقولون به . والرأي ان نقتبس من مناهجهم ونعتد بما يؤلفون مع استقلالنا بأقلامنا وبصائرنا : العلم لا يستأثر به ، والعربية وفنونها من تراثنا

***

وأما تحدي الناقد في القول فيدخل تحته كل ما اخذ عليَّ في باب اللغة . من ذلك انه يرى — بعد الاستاذ صديق شيبوب، دون ان يذكره — ان تعبيري: النقد الخارجي والنقد الباطني «ضعيف من جهة السياقة العربية اللغوية الخالصة ». وقد مرَّ ردي على هذا الاعتراض

ومن ذلك أيضاً انه يرى ان استعمالي لفظ «السلوك» لأحد مشتقات المصدر الفرنسي (وهو moralité) تارةً ، ولفظ (الاخلاقيات) لمشتق آخر لنفس المصدر (وهو morale بمعنى éthique) تارة اخرى «يوقع في اللبس والاختلاط »

والرد ان الناقد لم يدرك الفرق الذي بين اللفظين الفرنسيين : moralité و morale (راجع مباحث عربية ص٣٦ و٥٦) ، فالأول يدل على اعمال المرء من الناحية الاخلاقية ، والثاني يفيد علم الاخلاق . وحسب الناقد ان يستفسر معجماً فرنسيًّا للمدارس ذينك اللفظين

— ومن ذلك أيضاً انهُ يرى ان قولي : « ان للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة ، متباينة اخرى » مما « فيهِ قصور واضح في التعبير العربي فضلاً عن ان التعبير غير مستقيم من جهة ابناء اللغوي العربي » (ابن البناء غير المستقيم؟) وحجته في هذا ان « في هذا التعبير لفظة التجاور تفيد الفرنجيًّا معنى synonyme ، ولكي تتسق مفادات العبارة لا بد من ابدال لفظة المتجاورة من الجملة بالمتشابهة لأنها ادل على المعنى واكثر اتساقاً في الجملة »

وهنا لا اريد ان اطيل الرد ، لاطمئناني الى ان القارىء العربي يفطن بسليقته الى وجه الصواب (وكلمة synonyme في الافرنجية هي الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد اومتقارب) وليأذن لي الدكتور أدهم في ان ارشده الى كتب اللغة العربية ليتبين ان معنى synonyme تؤديه في العربية الفصحى لفظة « المترادف » . واليه مثلا فصلا قريب المنال في « المزهر » للسيوطي (النوع السابع والعشرون) . وأما « المفادات المتجاورة » فهي المتجاورة voisines في الفرنسية ، وأما المتشابهة فغير المترادفة . وبين هذه الألفاظ من الدقائق ما يشق على غير العربي أن يحس به

—ويدخل فيما تقدم ما يراه الناقد في كلمة « الاسلوب » وما كتبهُ في شأن «المشاهدة والتخيل» . والله لا ادري ما الذي استدرج الناقد الى باب النقد في اللغة ، وهو الذي لا يزال يأخذ لغتنا عنا . ألا تسمعهُ يقول (مجلة الرسالة العدد ٣١٣ ص ١٣٣١ ، وهو يريد الاعتذار من اقتباس تعبيرات لي[١]) : « انني حين اكتب بالعربيــة فانا اكتب بلغة غير لغتي الاصلية ، ومن هنا بعض ما يجيء على قلمي من التعابير الخاصة لكتَّاب اليوم استدراكاً للمعنى الذي في ذهني من تعابيرهم »

***

تلك هي مآخذ الاستاذ أدهم على « مباحث عربية » . وما تمهلت عندها الاَّ ارادة ان تستقيم موازين النقد في بلدنا ، ورجاء ان يفطن من يفد علينا من المنصرفين الى النقد انا ندري ما أساليب العلم الحق ، وانا لا يأخذنا القول بالظن ولا الكلام المتحدّي ولا الجدال المتحكم ولا التظاهر بالدراية والتثبت ، وان قال الناقد ، غير متهيب ولا متردد ، انهُ « أكثر الكاتبين في العربية استقصاء للمصادر » . (مجلة الرسالة العدد ٣١١ ص ١٢٢٥)

ألا انا نطلب في مصر النقد الذي تمده الرغبة الصحيحة في خدمة العلم ، والعلم عندنا أسمى شيئاً مقدساً له سَدَنتهُ وله حرَّاسه . والنقد للعلم مصباح على ان يكون الزيت لا دخل فيه

بشر فارس

دكتور في الآداب من السربون

(١) اقتبس الاستاذ ادهم جملا تارة برمتها واخرى محرفة من توطئة مسرحيتي « مفرق الطريق » المنشورة في مقتطف مارس ١٩٣٨ ثم من بحث لي في مذهبي الرمزي منشور في مجلة الرسالة العدد ٢٥١ والظريف أنه استعمل هذه الجمل المقتبسة مني لدرس مذهب توفيق الحكيم في الرمزية . وهذه طريقة في التطبيق في النقد الادبي جديدة (راجع كل هذا في مجلة «الرسالة» العدد ٣١٢ البريد الادبي « في اقتباس الكتاب » والعدد ٣١٤)

حول مقال التعقيم

كتب الدكتور شريف عسيران في عدد المقتطف لشهر يوليو عن التعقيم بين انصاره ومعارضيه افتتحهُ بتعريفهِ لغويًّا ثم قال (وكان الملوك والخلفاء يعقمون الرجال الذين يستخدمونهم بسل خصاهم فيزول عنهم الميل الجنسي) ثم أشار في الهامش إلى حكاية تؤيد هذا فقال (يقال هو أعقل من خاصي المخنثين وهو مثل أصله أن جماعة من المخنثين كانوا في المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك الأموي فأراد أن ينفيهم منها فكتب إلى عامله فيها أبي بكر عمر بن حزم احص من عندك من المخنثين فاتفق أن نقطة من السطر الأعلى وقعت فوق الحاء فخصاهم)

وليست صحة الرواية كما روى الكاتب الفاضل فهو قد أوفى بحثهُ من الناحية الطبية لذا لزم أن نصحح ما ليس من اختصاص الطبيب بل من أبحاث الأديب

فقد حكى الجاحظ في باب (مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها) من كتابهِ (المحاسن والاضداد) ما نصَّهُ :

(حكي عن سليمان بن عبدالملك أنهُ كان في بعض اسفاره فسمر معهُ قوم فلما تفرقوا عنهُ دعا بوضوء فجاءت بهِ جارية فبينما هي تصب الماء على يده اذ استمدها وأشار اليها مرتين أو ثلاثاً فلم تصب عليهِ فأنكر ذلك ورفع رأسهُ فإذا هي مصغية بسمعها مائلة بجسدها الى صوت غناء من ناحية العسكر فأمرها فتنحت فسمع الصوت فإذا رجل يغني فأنصت لهُ حتى فهم ما غنى فدعا بجارية غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيهِ حتى ظن القوم أنهُ يشتهيهِ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعهُ وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال هل بقي أحد يسمع منهُ فقال رجل من القوم عندي رجلان من أهل الأبلة محكمان قال فأين منزلك من العسكر فأومأ إلى ناحية الغناء فقال سليمان ابعث اليهما ففعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمهُ سمير فسأله عن الغناء وكيف هو فيهِ قال محكم قال متى عهدك بهِ قال البارحة قال وفي أي النواحي كنت ؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال وما اسم صاحبك قال سنان قال : فأقبل سليمان على القوم فقال هدر الفحل فضبعت الناقة ونبّ التيس فشكرت الشاة وهدل الحمام فزافت الحمامة وغنّى الرجل فطربت المرأة — . ثم أمر بهِ فخصي وسأل عن الغناء أين اصله قالوا بالمدينة وهم المخنثون فكتب الى عامله أن أخص من قبلك من المخنثين) وتلك هي الرواية المعقولة لا ما نقله الدكتور عن البستاني

وحدث الاصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى بهِ هو :

محجوبةٌ سمعتْ صَوتي فأرَّقَهَا ... من آخرِ الليل لما بلَّها السحَرُ
تُدنّي على الخدّ منها من مُعصفرةٍ ... والحَلْيُ بادٍ على لبَّاتِها خَصِرُ

في ليلة البدر ما يدري مُضاجعُها أوجهُها عندهُ أبهى أم القمر
لم يمنع الصوت ابوابٌ ولا حرسٌ فدمعها لطروق اللحن ينحدر
لو تستطيعُ مشتْ نحوي على قدمٍ تكادُ من رقةٍ في المشي تنفطرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي فوجه إلى سنان فأحضره ووجهت الجارية رسولاً إلى سِنَان يحذّره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم إن سبق رسول سليمان فلما حضر انشأ يقول :

استبقني الى الصباح أعتذرْ إنَّ لساني بالشراب منكسرْ
فأرسل المعروف في قوم نُكُرْ

فأمر بهِ فَخُصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي — ولعلنا نكون بذلك قد أوفينا الغاية تفصيلاً من هذه القصة كما أوفيناها تحقيقاً في الرواية وقد أثبتت ان صحة امر الخليفة الى عامله بالمدينة كان بخصيهم لا باحصائهم وأما المثل (هو أعقل من خاص المخنثين) فليس مراداً بهِ الوالي بل الخليفة نفسه فانَّ النقطة لم تقع اتفاقاً كما يقول الباحث الفاضل ، بل الرواية رويت خطأً كما نقلها البستاني بدون تحقيق . ونقلها عنهُ الدكتور بدون مراجعة

دمنهور عبد الحفيظ نصار

ذيل

لمقال الدكتور بشر

جمع مقال الدكتور بشر فارس (حول مباحث عربية) ومثل الجانب الاول منهُ للطبع في الثلث الاول من الشهر (يوليو ١٩٣٩) لاعتزام الدكتور السفر الى اوربا . ثم صدرت مجلة الرسالة الغراء بتاريخ ١٠ يوليو — وهي ميدان المناقشة الاصيل — وفيها مقالٌ بقلم الدكتور بشر فارس انطوى على أهمّ ما جاء في فصلهِ المنشور في هذا الجزء من المقتطف خاصًّا بالردّ على الدكتور اسماعيل احمد أدهم . فاقتضى التنويه

***

ثم جاءنا من الدكتور بشر من الاسكندرية ليلة سفرهِ ان ما اشار اليهِ في مقالهِ من ان الدكتور أدهم أخذ عن الاستاذ صديق شيبوب فكرة النقد الخاص بلفظي الباطني والخارجي (راجع ص٣٦٦ سطر ١٤ من هذا الجزء من المقتطف) ليس قرين الصواب لأن الدكتور أدهم كان أسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق . ولما كان المقال قد طبع عند ورود هذه الكلمة في ١٣ يوليو رأينا إنصافاً للدكتور أدهم وللدكتور بشر أن نوردها هنا

باب الصناعة

استطلاعات المقتطف في مصر الصناعية

جولة في مصنع مصر للازرار

خامات السودان تصنع في مصر

فتش ملابسك واحص عدد الازرار التي تحتاج اليها في حياتك فسواء أغنيًّا كنت ام فقيراً، وسواء أمن انصار الحديث كنت أم من أنصار القديم، وسواء أرجلاً كنت أم امرأة فستجد ازرار الصدف او الدوم تحتل من ملابسك مكانها الممتاز فهي جزء من مظهرك وهي لازمة لوقاية صحتك

وبعض هذه الازرار ظاهر للعيان وبعضها مختفٍ في الملابس الداخلية فهي شيء ضروري كالملح والكبريت وهي تجارة رابحة تنفق فيها مصر كثيراً من مالها وقد كانت الى عهد قريب تجارة خارجية نستورد بضاعتها من الاقطار الاجنبية ومازلنا حتى الآن نستورد بعضها الى ان كفانا مصنع الازرار التابع لشركة مصر لمصايد الاسماك بالسويس عبء الاعتماد الكلي على البلاد الاجنبية. فهو ينتج في اليوم الواحد ١٢٠٠ قاروصة (١٢ دستة) من الازرار الصدف ومثلها من ازرار الدوم (١) . اما بقايا ازرار الصدف فيبلغ وزنها نصف طن تكسر بطريقة خاصة ويصنع من كسرها « بلاط الفسيفساء » ذو الالوان البراقة . ولا يتولى المصنع هذه العملية لبعده عن الاسواق التي تستعمل هذا الضرب من العروض فيبيعها خاماً الى هذه المصانع . أما بقايا ازرار الدوم فانها مادة جيدة للوقود والصبغ. وبعد فمصنع الازرار بالسويس احد فروع شركة مصر لمصايد الاسماك التي صدر المرسوم الملكي بتأسيسها في ٢٦ اغسطس ١٩٢٧. بدأ المصنع اعماله بصنع ازرار الصدف وحدها ثم اتسع نطاق العمل فأدخلت عليه صناعة ازرار الدوم ويختلف النوعان مظهراً ومتانة فالاول يستعمل في الجلاليب والقمصان والملابس الداخلية . والثاني في البدل وملابس السيدات

وخامات هذه الازرار لم تظهر بعد في مصر الا ان اكثرها يرد من السودان ولذلك فهي تعتبر تجارة محلية . وأنواع الصدف كثيرة بعضها يرد من السودان كالنهيد وبعضها من استراليا وجزائر تاهيتي وغيرها وله بورصة كبورصة القطن . ولم يجرب الصيادون المصريون

(١) الدوم من الفصيلة النخلية Palmae واسمه الشائع Doum-Palm واسمه العلمي Hyphaene Thebaica ثمره في حجم التفاحة المتوسطة له حبة خشبية قاسية ولها قشرة طرية حلوة تؤكل

استخراجهُ من البحر لما يقتضيهِ استخراجهُ من جهد واحتياطات شديدة فالاصداف البحرية تسكنها الاحياء المائية . فاذا خرجت الى الارض ماتت هذه الاحياء وتعفنت بقاياها فهي تحتاج الى بقعة منعزلة عن الناس حتى لا يضرهم تعفنها ورائحتها . أما الدوم فبضاعة سودانية وهو يرد من الدويم والعطبرة وكسلا . ويشتغل في هذا المصنع ١٥٠ عاملاً وعاملة يكسب الواحد منهم اجراً يتفاوت بين ١٠ قروش و ١٥ قرشاً . أما العاملات فتتفاوت أجورهنَّ بين ٨ قروش و ١٠ قروش في اليوم الواحد . وتدور آلات هذا المصنع بالكهربائية فتحتاج الآلاتهُ الى قوة ١٨٠ حصاناً . ومع ذلك فقد اعدت مولدات كهربائية قوتها ٤٧٣ حصاناً حتى اذا تعطل أحدها اشتغل الآخر . وحتى اذا مست الحاجة الى زيادة الانتاج توافرت القوة الكهربائية المطلوبة

وصناعة الأزرار الصدف من الصناعات المعقدة كثيرة العمليات فالخام الاصلي يجتاز عشر مراحل صناعية قبل ان يصبح أزراراً تباع . ان خاماتهِ ترد الى المصنع اصدافاً مختلفة الاشكال والحجوم فمنها المنبسط ومنها الهرمي، ومنها الخشن ومنها الناعم ورائحتها كريهة ومنظرها لا يسر. يتسلمها العامل فيضعها بين اسنان آلتهِ فتقطعها قطعاً مستديرة بعضها كبير وبعضها صغير تبعاً لمتانة الصدفة ومساحتها. وينتج العامل الواحد في عملية التقطيع ما لا يقل عن ٧٢٠ دستة في اليوم ثم تمر القطع في مرحلة المسح فتنزع عنها القشرة الخارجية القذرة وتخرج من هذه المرحلة وهي بسمك واحد فتعمل لها الحلية وهي تختلف باختلاف الصدفة والطلب . ولكل حلية جهاز خاص يمكن تركيبهُ على الآلة ويبلغ عددها عشر حليات . ثم تفرز الازرار بآلات خاصة يسهل بها نزع الازرار التالفة ثم تمر في ادوار الثقب والتبييض والتلميع ويتم العمل فيها جميعاً بطريقة آلية تسهل على العامل كثرة الانتاج وجودة الصناعة . وتنتقل الازرار الصدف الى مرحلة التجهيز النهائي . هنا العاملات تفرز الازرار الى ثلاث مراتب الاولى وهي التي لا عيب فيها مطلقاً والثانية قليلة العيوب والثالثة كثيرتهُ وتباع الازرار مختلفة المراتب بأثمان مختلفة فازرار المرتبة الثانية يبلغ ثمنها ثلثي ثمن ازرار المرتبة الاولى تقريباً. وتثبت هذه الازرار على ورق ثم توضع في العلب وأحياناً تطلب المصانع ازراراً في أكياس من القماش فتتوفر بذلك نفقات تثبيتها على الورق أو وضعها في العلب . ولكل مرتبة علامتها الخاصة ولكل حجم رقم يوضع على العلبة من الخارج ثم تلف وتصدر الى التجار

أزرار الدوم

وتختلف صناعة الازرار من الدوم عن صناعتها من الصدف لاختلاف شكل الدوم عن شكل الصدف ولأن ازراره اكثر متانة وقابلية للتلوين والنقش وصناعتها أدقّ من صناعة أزرار الصدف . وعنبرها أحدث عنبر بني في المصنع ولهذا كانت جميع آلاتهِ من آخر طراز

يرد الدوم الى المصنع من السودان فيفرز وفقاً لحجمهِ : كبير ومتوسط وصغير. ثم ينتقل الى

المرحلة الثانية حيث ينزع غلافه فيوضع في برميل بهِ سكاكين مدة ٢٤ ساعة يدور فيها البرميل دوراناً يحدث صوتاً مزعجاً ولهذا جهزت الغرفة بابين عازلين للصوت حتى لا يصل الدوي الى الخارج فيقلق العمال . وتختلف عملية تقطيع الدوم عن عملية تقطيع الصدف. ففي حالة الصدف، للآلة سكين مستدير تضغط على الصدفة فتنفصل منها قطع كالقروش، اما في حالة الدوم فانهُ يقطع بمنشار مستدير يدور ٢٨٠٠ دورة في الدقيقة ويقطع الدوم قطعاً عادياً . ولما كان الدوم صغير الحجم فانهُ يعرض اصابع العمال للاصابة في أثناء قطعه فيلبسون اصابع من الصلب تمنع ٨٠ ٪ من خطر الاصابات

ويستخرج من كل دومة اربع قطع اذا كانت الدومة سليمة فاذا كانت بها بعض العيوب التجارية اوالصناعية فانها تضاف الى الفضلات لاستعمالها وقوداً او في تلوين الازرار . وقد كانت اصابات هذه المناشير كثيرة في بدء العمل فلما تمرن العمال على استعمالها قلت الاصابات

ويجتاز الدوم بعد عملية التقطيع عمليات متعددة فيفرز بواسطة غربال ذي سبع عيون الى سبعة مقاييس مختلفة ثم يخرط وتعمل له الحلية المطلوبة ثم يثقب ويلون ويفرز وفقاً لتأثره باللون. ويحتم المصنع على العمال ان يكونوا مدققين في فصل الازرار الملونة بعضها عن بعض ليكوّنوا منها مجموعات متسقة اللون تقدم الى السوق . وتجتاز ازرار الدوم بعد ذلك مراحل اخرى كتلميعها وزخرفتها وتنشيفها بالطرق الفنية والكيميائية . وكل مرحلة من هذه المراحل تحتاج الى وقت يطول او يقصر تبعاً للحاجة . واكثر اصباغ الدوم نباتية وهو سريع التأثر بها لانهُ نبات ولذلك تكون ثابتة لا يتغير لونها رغم المقادير القليلة التي يحتاج اليها الزر للتلوين او الزخرفة

وتتبع العاملات في عد الازرار طريقة بسيطة سريعة فهن يستعملن لوحات مثقوبة بطريقة خاصة كل لوحة فيها مائة ثقب فتأخذ العاملة كمية من الازرار على اللوحة وتهزها فيأخذ كل زر مكانه ويسقط الباقي ومعنى امتلاء ثقوب اللوحة ان عددها مائة زر تحزمها العاملة بطريقة خاصة

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فشاهد معروضات الشركة وأُعجب بها فقدمت الى جلالته مجموعة كاملة من أزرار المصنع . وتهتم الشركة بأن تقدم لعملائها نماذج من جميع أصناف الأزرار وألوانها وحجومها لكي ينتقوا منها ما يوافق حاجة السوق

ويقصر المصنع عمله الآن على ساعات النهار ومع أنهُ مستعد للعمل ليلاً ومضاعفة انتاجه ، فيشتغل عماله وعاملاته من الساعة السابعة صباحاً الى الظهر ومن الساعة الواحدة بعد الظهر الى الساعة الرابعة ويشتغل فيه الآن ٤٠ بنتاً و١١٠ عمال اي نصف عدد عماله اللازم ليكون كامل الانتاج

ويحرص المصنع على راحة عماله وعاملاته ولهذا خصص سيارة لنقل الفتيات من المدينة الى المصنع فينتظرهنَّ امام فندق مصر او ينقلهنَّ اليه صباح كل يوم ومساءه

وخصص احدى غرفه لتكون عيادة خارجية يشرف عليها طبيب وممرض فاذا احتاج احد



تجتاز الخامات مراحل صناعية متعددة وهنا بعضها . ففي الرسم الاعلى الى اليمين جانب من عنابر الدوم وفي الثاني جانب من عنابر الصدف وفي الثالث والرابع العاملات والعمال يفرزون الازرار بالطريقة اليدوية والميكانيكية

العمال او العاملات الى علاج او اصيب بحادث تولى الطبيب فحصهُ وصرف العلاج اللازم ويتولى الطبيب فحص العمال مرة كل اسبوع حتى لا تنتشر بينهم الامراض فيحتفظوا بصحتهم و نشاطهم

والمصنع وعماله مؤمن عليهم ضد الاصابات والحوادث فاذا اصيب احد العمال بعاهة في اثناء العمل صرف له التأمين تبعاً لشدة الاصابة وتأثيرها في عمله وتقدر اصابة جزء من اصبع العامل بمبلغ ١٢ جنيهاً يحصل عليها العامل خلاف العلاج

تنشيط الانتاج في مصر

هو العلاج الوحيد لصون الثروة الأهلية

نشر المقطم من أيام بياناً وافياً من الاسكندرية عن صنع الجبن والزبدة وسائر منتجات اللبن وما يعانيه العاملون في هذه الناحية وما يلقون من صعاب تكاد تقضي عليهم بالكف عن العمل

وهذه حالة جديرة بأن تكون موضوع عناية المسؤولين والذين يهمهم مصير الحالة الاقتصادية في مصر ولا سيما بعد ما هبط سعر القطن هبوطاً يضعف قوة مصر الشرائية ويقضي علينا بالتزام سياسة التوفير والاعتماد على النفس. لقد جاء الانتاج الأهلي ولاسيما الانتاج الصناعي في هذا العصر علاجاً لما اصابهُ من انحطاط في قيمة الانتاج الزراعي. وقد صار من المحقق أن القطن لا يمكن أن تقوم له قائمة فان انتاجه آخذ في الانتشار في بلدان لم يكن تعرفهُ من قبل وقد نافسهُ الحرير الصناعي والالياف التي استخرجوها في المانيا وسواها وقل استعماله بسبب الأزمة العامة وحرب الصين واليابان الى آخر هذه الأسباب المعروفة ومع أن القطن المصري لا يزال يجد أسواقاً في بلدان العالم فالعبرة ليس بهذا وحده بل بسعر ما يباع منهُ كذلك ليكون منهُ ربح لمنتجه بعد تسديد نفقات الانتاج وفائدة ثمن الارض ومال الضرائب. وإن في اضطرار مصر الى شراء مقادير من الزبدة والجبن وسائر منتجات اللبن بما يبلغ ربع مليون جنيه في السنة وشراء لحوم ومواش وغنم من الخارج بمبالغ طائلة ـ ان دوام هذا الامر مما يدهش ويستغرب في الحين الذي تسعى فيه للاقتصاد ومواجهة الحالة الدقيقة التي نشأت عندنا بهبوط سعر القطن. فالمسألة التي يجب الفصل فيها هي هل تستطيع مصر ان تنتج من اللحم واللبن ما يكفي لسد حاجتها أو لا. فاذا كان الجواب بالايجاب تعين على الحكومة ان تسعى لتحقيق المستطاع فان لم يكن في الحال فبالتدريج فاذا كانت الدنمرك وهولندا وهما في أقصى الشمال وليس لارضهما من الخصب ما لارض مصر ولا لشمسهما من الفعل ما لشمس مصر استطاعتا أن تمونا شعبيهما وتصدرا ما قيمته ملايين من الجنيهات من الزبدة واللبن والجبن والبيض واللحم الى انكلترا وسواها فلماذا تعجز مصر عن بلوغ أقل من هذه المنزلة فتطعم شعبها ولا سيما بعد ما صارت حاجتها الشديدة تقضي بهِ

باب الاخبار العلمية

اقتراب المريخ والمشتري وزحل

يشاهد قراء المقتطف في هذه الايام كوكبين متألقين، احدهما احمر والآخر ازرق. فالاول هو المريخ وقد اقترب من الارض حتى صار على اكثر قليلاً من ٣٣ مليون ميل منها. والثاني هو المشتري وقد أخذ في الاقتراب من الارض وسيغدو على اقرب قربه منها في ٢٧ سبتمبر القادم

والصورة التي صدّرنا بها هذا الجزء من المقتطف رسمها الفلكي موريل G. F. Morrell ونشرت في مجلة «اخبار لندن المصوَّرة»، وهي تبين اقتراب المريخ والمشتري وزحل من الارض. ففي اسفل الصورة جانبٌ من سطح الارض، ثم على مقربة منهُ السيارات الثلاثة (وهي من اليمين صعوداً الى الزاوية اليسرى، المريخ فالمشتري فزحل المعروف بحلقاته). وهي مرسومة هنا كما تبدو لعين الراصد من خلال عدسات المرقب

والغريب في هذه السيارات الثلاثة انها لم تقترب من الارض هذا الاقتراب وفي مواعيد قريبة بعضها من بعض (يوليو للمريخ، وسبتمبر للمشتري، واكتوبر لزحل) وفي رقعة واحدة من الفضاء حتى لتكاد تقترن منذ مئات السنين على حساب موريل. واقترابها من الارض على هذا النحو لا بدَّ ان يؤثر في مقدار جذبها للارض وهذا كافٍ لاحداث اضطرابات في قشرة الارض وجوّها كنشاط البراكين وحدوث الزلازل واضطراب احوال الجوّ. فالمشتري يفوق الارض وزناً ٣١٨ ضعفاً وزحل يفوقها وزناً ٩٥ ضعفاً. فاشتراك تأثير السيارات الثلاثة لا بدَّ ان يحدث حالة غير عادية في قشرة الارض وجوّها. والى القارىء بياناً موجزاً عن هذه السيارات الثلاثة من حيث بعدها وقربها من الارض

زحل: — يقترب السيار زحل الى الارض في ٢٢ اكتوبر اقتراباً لم يقاربه من عشرين سنة. فيكون بعدهُ عنها ٧٧١ر٢٣٦ر٠٠٠ ميل مع ان متوسط بعدهِ عنها ٨٨٥ر٩٠٠ر٠٠٠ ميل. وقد اقترب منها في سنة ١٩٢٩ ولكنهُ كان أبعد ٦٦و٨٨٠ر٠٠٠ ميل مما سيكون في ٢٢ اكتوبر القادم

المشتري: — ويقترب السيار المشتري الى الارض في ٢٧ سبتمبر اقتراباً لم يقاربه من ٢٤ سنة. فيكون بعدهُ عنها ٣٦٧ر١١٠ر٠٠٠ ميل، مع ان متوسط بعدهِ عنها ٤٨٣ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل. وقد اقترب الى الارض سنة ١٩٣٤ ولكنهُ كان أبعد ٦٦ر٦٩٠ر٠٠٠ ميل مما سيكون في ٢٧ سبتمبر القادم

المريخ: — اقترب السيار المريخ الى الارض في ٢٣ يوليو اقتراباً لم يقاربه من سنة ١٩٣٣. فكان بعدهُ عنها في ٢٣ يوليو ٣٦ر٠٣٤ر٠٠٠ مع أن متوسط بعدهِ عنها ١٤٢ مليون ميل. وكان بعدهُ عنها عند اقترابهِ في سنة ١٩٣٣ — ٦٢ر٣٧٨ر٠٠٠ ميل

كيميائي مصري وزوجته

يكشفان عقاقير فعالة ورخيصة لشفاء لدغ العقرب

من بواعث اغتباطنا ان نزف الى القراء نبأ كشف علمي مصري تمّ على يدي صديقنا الدكتور علي حسن استاذ الكيمياء الحيوية بكلية الطب في جامعة فؤاد الاول وقرينته السيدة زينب كامل حسن اذ وفّقا الى تحضير المادة الفعالة في سم العقرب ومهّدا السبيل الى الشفاء من لدغ العقرب بعقاقير فعّالة ورخيصة. والى القرّاء نص التقرير الرسمي الذي بعث به الدكتور علي حسن الى الدكتور علي توفيق شوشه بك المدير العام للمعامل في وزارة الصحة:—

«حضرة صاحب العزة الدكتور شوشه بك

بعد التحية يسرني أن اخبر عزتكم بأن البحوث الخاصة « بسم العقرب » التي اشتغل بها القسم عندي خلال الثماني السنين الماضية والتي لقيت من عزتكم شخصيًّا ومن بحوثكم القيمة في ذات الموضوع مساعدات طيبة قد وصلت الى نتيجة سارة تبشر بفائدة عملية هامة توفر على الوزارة مبلغاً لا يستهان بهِ سنويًّا

دلتنا البحوث المشار اليها الى جواز علاج لدغة العقرب بواسطة عقاقير لها مفعول مضاد لمفعول السم ذاته واني قبل الكلام في التطبيق العملي لهذه الملاحظة أرى من الفائدة الاشارة الى الخطوات التي سار فيها العمل من أوله الى أن وصل الى هذه النتيجة

١ — في سنة ١٩٣٢ وفقت أنا وزوجتي السيدة زينب كامل حسن الى تحضير المادة الفعالة في سم العقرب في حالة نقاوة وبكميات وفيرة

٢ — رأيت وجوب درس خواص هذا المركب من جديد ولقد قام بدرس هذه الخواص احمد حسن محمد أفندي المعيد بكلية الزراعة وقد أهدى عزتكم نسخة من رسالة لهُ في هذا الباب ولقد وصلنا في هذا البحث الى نتيجتين جليلتين

الاولى — أظهرت أن السم يقتل عن طريق تهيج الجهازين السيمبتاوي والباراسيمبتاوي

والثانية — اظهرت ان العقاقير التي تخدر هذين الجهازين مثل الارجوتوكسين ومشتقاته والاتروبين تفيد في وقاية حيوانات التجارب ضد السم حتى ولو اعطيت منهُ مقادير قاتلة

٣ — أمكننا انقاذ كلاب حقنت بكمية من السم وزنها ٠٫٥٤ ملليجرام وذلك بعلاجها بالعقاقير التي اشرنا اليها سابقاً (هذا المقدار من السم يكفي لقتل ستة كلاب وزن كل منها ثلاثة كيلو جرامات)

٤ — ثبت لنا ان العقرب البالغة الصائمة من نوع البوذص كوينكويسترايااتس وهي اكثر الانواع شيوعاً بالقطر المصري تفرز اذا هيجت للدغ حوالي ٠٫٢٥ ملليجرام من السم في

ثلاث لدغات متوالية وانها اذا لدغت سبع مرات متتالية يصل مجموع ما تفرزه الى حوالي ٥٦ر٠ مليجرام من السم واننا اذا ارغمنا عقرباً بالغاً من النوع ذاته على افراز كل ما في غدتيه وذلك بتهييج الغدد كهربائيًّا حصلنا على حوالي ٦٠ر٠ مليجرام من السم

ولقد استنتجنا من هذا اقصى ما يستطيع عقرب من هذا النوع حقنه

نوع العلاج	عدد الحالات جميعاً	عدد الحالات التي يقل سنها عن ١٢ سنة
المصل المضاد	٢٧	١٢
بالطريقة الجديدة	٣٦	١٦
بالطريقتين معاً	١	١
المجموع	٦٤ حالة شفيت كلها	

ولقد شجعتني هذه النتيجة الطيبة على ان اتقدم الى عزتكم راجياً منكم عرض الامر على من بيديهم الامر بوزارة الصحة بقصد تجربة الطريقة في المناطق التي تكثر فيها العقارب وأنتم بالطبع خير من يقوم بهذه الوساطة لتتبعكم المستمر لهذه البحوث ومعرفتكم للجهود التي بذلت في سبيلها اما الطريقة ذاتها فسهلة للغاية ويمكن تتبعها من اوراق المشاهدات المرفقة طيه وهي تنحصر في الآتي :

اولاً — يعطى المريض ساعة وصوله حقنة تحت الجلد من نصف الى واحد سنتمتر مكعب من الجينارجين او طرطيرات الارجوتامين ويمكن اعادة الحقن اذا عادت الاعراض ولكن هذا نادر الحدوث

ثانياً — يجوز اعطاء الملدوغ حقنة اتروبين تحت الجلد اذا كانت الاعراض مصحوبة بسيلان لعابي شديد وبقيء او اسهال

ثالثاً — تعالج الحالة العمومية بالطرق العادية اذا لزم الامر وفي قصر العيني يعطون الملدوغ لهذه الغاية حقن كافور او كورامين ويضعون المريض في حمام كهربائي

وتمتاز هذه الطريقة على طريقة المصل بانها اسرع في مفعولها وربما كان هذا ناشئاً من ان الجينارجين اسرع في الامتصاص وتمتاز ايضاً بان هذه العقاقير لا تتلف على مر الزمن كالمصل

اما الجينارجين هذا فهو من مركبات الارجوت وقد اتفقت مع مدير قسم الطفيليات بوزارة الزراعة على انتاجه محليًّا وسنبدأ التجربة في الموسم المقبل

ولا يصح ان ننسى هنا ذكر الفرق الكبير بين سعر المصل وسعر هذه العقاقير لان علبة الجينارجين تساوي حوالي ستة عشر قرشاً وتكفي ستة اشخاص او اكثر وسيكون ثمنها بحساب الجملة اقل بالطبع

بما ان نتيجة التجربة تهمني كثيراً اقترح في حالة الموافقة على اجرائها ان تستعمل المستشفيات مشاهدات مماثلة لما هو مرفق طيه واني مستعد لتقديم عدد كاف منها توفيراً للوقت اي الى ان تطبع الوزارة منها ما يلزمها

وتفضلوا عزتكم بقبول شكري واحترامي

دكتور علي حسن
استاذ الكيمياء الحيوية

ملاحظة — عند ما لا حظنا المفعول

المعاكس الذي يحدثهُ الجينارجين ضد سم العقرب خطر لنا جواز استعماله في علاج اللدغة وجواز الاستعانة بهِ في تحضير المصل المضاد للسم والاستغناء بهِ عن السم الملطف والاناتوكسين الذي يستعمل عادة في بداية عملية تحضير المصل المضاد وقد عرضنا على عزتكم النتائج التي حصل عليها احمد افندي حسن محمد أولاً بأول

ولقد كانت النتيجة الختامية مشجعة للغاية اذ حصلنا على مصل مضاد من الماعز قدرت قوته في معامل الصحة بواسطة الدكتور حسين ابراهيم فوجدت تزيد تسع مرات على مصل ليستر مع العلم بان معملنا هنا طبيعي لم يركز — على أنني اعتقد ان اكتشاف مفعول هذه العقاقير سيوقف في النهاية استعمال المصل المضاد في علاج لدغة العقرب» آه بنصهِ

هافلوك إلس

HAVELOCK ELLIS

إن وفاة هافلوك إلس تزيل من ميدان الثقافة الانكليزية العالمية رجلاً يندر ندهُ في هذا العصر المكب على التخصص. ذلك بانهُ كان يجمع في شخصه كثيراً من مناقب العلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء. ولعلهُ لا ينقضي ربع قرنٍ عليهِ حتى يطوف طائف النسيان بمعظم ما كتب. ولكن ذكره يبقى خالداً لأنهُ اقترن بحقيقتين اولاها انهُ في مقدمة بحاث العصر الحديث الذين حاولوا ان يرفعوا النقاب عن حقيقة «الحياة الجنسية» ويزيلوا ما علق بها في أذهان الناس من تحريم بحثها وحظر التحدث فيها. وثانيتهما انهُ اضطهد في سبيل ذلك، فقدم الى المحاكمة في إحدى محاكم انكلترا متهماً «بالقذف القذر» وامتنع الناشرون الانكليز عن نشر مجلداته في «سيكولوجية الشق» Studies in the Psychology of Sex بعد ما نشر احدها وحوكم بسببهِ. فنشرت دراساتهُ هذه اولاً في اميركا. ولذلك يبقى ذكرهُ مقروناً بالحركة الفكرية والاجتماعية الحديثة المتجهة الى تعزيز الصحة الجسدية والعقلية باخراج المسائل الجنسية من دياميس الجهل والتحريم. ويقال إنهُ كان يرغب في أن تكون قبريتهُ كما يلي: «لقد اضاف شيئاً الى حلاوة الحياة ونورها»

اما أنهُ اضاف شيئاً الى «نورها» أي الى فهم خفاياها فهذا مما لا ينكر، ولكن هل زادت «حلاوتها» في افواه الأجيال التي اتسع نطاق فهمها لاسرار الحياة الجنسية? هذه مسألة تحتمل النقاش

ولد في سنة ١٨٥٩ في كرويدن على مقربة من لندن، وكان والداهُ من اسرتين لهما صلة وثيقة بالملاحة فقضى معظم طفولتهُ على سفينة في المحيط الهادي وتلقى أصول التعليم على غير نظام. ولما كان في السادسة عشرة من عمرهِ عين مدرّساً في مدرسة بولاية نيوسوث ويلس باستراليا فقضى فيها اربع سنوات وكان في معظم هذه المدة يقطن الحراج ويطبخ

ما يحتاج اليهِ من الطعام ويدير شؤون كوخهِ بنفسهِ . ولكنهُ قرأ في خلالها طائفة من آيات الادب الانكليزي ونظم اشعاراً على مثال سونيتات شكسبير ، ودبَّ في نفسه ديبب الرغبة الشديدة في الإصلاح الخلقي . وعاد الى انكلترا في سنة ١٨٧٩ وانتظم طالباً للطب في مستشفى سانت برثولوميو وأتمَّ دراستهُ وتخرَّج طبيباً ولكنهُ لم يمارس الطب الاَّ فترة قصيرة إلاَّ أن دراسة الطب وجهتهُ توجيهاً جديداً. في مجاهل استراليا نظم الشعر ، فانقلب بعد دراسة الطب الى حياة علمية . غير أن هذا لم يتمَّ الاَّ بعد نضال نفسي . وفي الفترة المتوسطة بين الشعر والعلم شرع في نشر المسرحيات الانكليزية القديمة . وله عدا ذلك مؤلفات اشتهرت في وقتها بالنحو الفلسفي والنقد الأدبي منها « الروح الجديدة » (١٨٩٠) والرجل والمرأة (١٨٩٤) وعالم الاحلام (١٩١١) و «مهمة علم الصحة الاجتماعية» (١٩١٢) «ورقصة الحياة» (١٩٢٣) ومجموعة قصائده الطفولة والمراهقة وترجمات من الشعر الاسباني (١٩٢٥) وغيرها

ولكن مؤلفهُ الكبير الذي قضى نحو خمس عشرة سنة في وضعهِ ونشرهِ كان ذلك البحث الضافي الذي عنوانهُ « دراسات في سيكولوجية الشق» وهو ستة مجلدات نشر اولها سنة ١٨٩٧ وآخرها ١٩١٠ وموضوعاتها بحسب ارقام المجلدات (نقول ارقام المجلدات لان المجلد الثاني نشر قبل المجلد الاول) كما يلي : — نشوء الحياة الجنسي — الشذوذ الجنسي — تحليل الحافز الجنسي — الانتخاب الجنسي في الانسان — الرمزية الجنسية — الجنس وصلتهُ بالاجتماع

واذا كان البحث الحديث في ظل المدارس السيكولوجية المختلفة ولا سيما مدرسة التحليل النفسي قد بدل بعض الآراء والنتائج التي وصل اليها هافلوك إليس بالاستقراء والنظر البيولوجي ، فان هذه المجلدات الستة تحتوي على طائفة كبيرة من الحوادث التي تمت الى موضوعات الجنس بصلة ، مستخرجة من حياة الامم والشعوب المختلفة على اختلاف مراتبها في الحضارة فهي من هذا القبيل كنز من المعارف الجنسية لا ينفد

التسمم بالكدميوم

يؤخذ من انباءِ مجمع تقدم العلوم الاميركي ان اطباء معهد الكيمياء والتربة بكلية الطب في جامعة ستانفورد اثبتوا ان الادوات والاواني المطلية بالكدميوم — كأواني اللبن وصنارات الجزارين التي يعلق بها اللحم — خطرٌ على الصحة لأن مواد الطعام التي تحفظ فيها أو تلامسها تسبب تسمماً بطيئاً متجمع الاثر

وقد اجريت تجارب على جرذان اضيف الى طعامها مقادير يسيرة من كلوريد الكدميوم (١٢٥ جزءا من الكلوريد في عشرة آلاف جزء من الطعام) فاصيبت بفقر الدم ثم لما شرحت ثبت انها مصابة بتضخُّم القلب . والرأي اي ان سبب تضخُّم القلب جهده المبذول في تجهيز الجسم بعددٍ كافٍ من كريات الدم الحمر

السلفانيلاميد والتيفود

عرف قراء المقتطف مما كتبناه عن عقاري السلفانيلاميد والسلفابيريدين ان لهما تأثيراً عجيباً في شفاء طائفة من الامراض (راجع مقتطف يوليو ١٩٣٩ ص ١٩٥ ومايو ١٩٣٤ ص٥١٧—٥٢٥) وقد اطلعنا الآن في رسالة العلم الاسبوعية على نبإٍ خاص باحتمال فائدتهما في علاج التيفود. وقد قام بهذه التجارب ثلاثة اطباء (هريز Harries وسور Swyer وطمسن Thompson) من اطباء مستشفى نورث ايسترن بلندن ومن غريب الحوادث التي وقعت لهما ان احد المصابين بالتيفود كان مصاباً بضرب خاص منها من اوصافه طول زمنهِ وخطرهُ. دخل المستشفى فعولج بالسلفابيريدين ومصل التيفود فما انقضت عليهِ عشرة ايام حتى كان ناقهاً والرأي ان الجمع بين السلفابيريدين والمصل كان العامل الفعال في شفائه

سر الشباب الدائم؟

في انباءِ جامعة كاليفورنيا ان الباحثتين أجنس فاي مورغان وهلن دافيسون تمكنتا استخرجتا مقادير مركزة من فيتامين مجهول تابع لفيتامينات B التي تكثر في الخميرة والرز والردَّة (النخالة) والكبد، واثبتتا بتجارب اجرياها على الجرذان والخنازير الهندية وجراءِ الكلاب انها تؤثر في احوال الجسم التي تقترن عادة بالشيخوخة المبكرة فتردها الى ما تكون عليهِ في عهد الشباب. ولما سئلتا عن علاقة ذلك بالشباب والشيخوخة في الانسان قالت الدكتورة مورغان إن تجاربها اجريت على الحيوانات وانها لم تحاول بعد تطبيق هذه التجارب على الإِنسان. ولكنها ترى ان الشيخوخة المبكرة في حيوانات التجارب قد يكون سببها نقص هذا الفيتامين في افراز الكظرين فقد اثبت تشريح الجرذان التي يعوزها هذا الفيتامين في طعامها ان قشرة هذه الغدد تتقلص وتحول قبل الوفاة

حكمة المناظرة

قيل انَّ السيِّد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس خاصّ. وكان السيد شابًّا حديث العهد. وكان السعد شيخ العلماء في وقتهِ، فانتهى المجلس بأن السعدَ اقرَّ للسيِّد وان السيد فلج على السعد امام ذلك الجمهور. فساء ذلك تلاميذ السعد. ولما انصرف الناس قالوا لاستاذهم: ما كان ينبغي لك ان تسلم لرجل هو في سن احد تلاميذك فأجابهم. وماذا اصنع اذا كان الحق معهُ. فقالوا له: قد كان يمكنك ان تقول له كيت وكيت في الجواب. فقال لهم ولكنهُ يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء فقالوا له: لكن الناس قد علموا الآن ان السيد أعلم منك. فقال لهم: أحبُّ اليَّ ان يعلمني الناس جاهلاً وان يعلمني السيد وجده عالماً

عجائب معرض نيويورك العالمي

الجان الكهربائية في المعارض العالمية الحالية

قلت في صفحة ١٠٨ من مقتطف يونيو الماضي في وصف عجائب معرض نيويورك العالمي الحالي ما يأتي : — ويسمعون صوتاً صناعيًّا يشرح خطورة تلك الحركة حركة البواخر والقطرات وعربات نقل البضائع قادمة الحواضر والمصانع ، من الضياع والحقول مقلة المواد الاولية ، وعائدة الى الريف مشحونة « بشتى المصنوعات » من جميع نواحيها مؤكداً الحقيقة الثابتة ، وهي ان كل امرىء في هذا العصر ، يتوقف بقاؤه على مجهودات أفراد كثيرين ، مبيناً وسائل تسهيل معضلات الحياة بالتعاون بين افراد المجتمع البشري». وهأنذا أصف للقراء الجهاز الكهربائي القائم بذلك العمل وصنوه المساعد له في مهمته : —

نقصد بالجان الكهربائية الاجهزة المعدنية الشبيهة بالانسان التي يطلق عليها الانكليز والاميركان لفظ robots وقد نصب أحدها في معرض نيويورك الحالي وهو الجهاز المسمى اليكترو Elektro وطوله سبع أقدام وثقله ٢٦٠ رطلاً وهو مؤلف من ٤٨ جهازاً لتقوية التيارات الكهربائية ويشتمل على ٩٠٠ عضو تساعده على المشي والعدّ والتدخين والكلام وله ذراعان مغطاتان بصفائح الالومينيوم المزخرفة بستة وعشرين من اشكال الزخارف

واسمه ويلي ڤوكاليت Willie Vocalite

ولذلك الجهاز صنو ضخم المعروض في معرض سان فرنسيسكو العالمي

وفي معرض نيويورك جنيّ آخر عملاق اسمهُ پوليرهيتور Polyrhetor يلقي على سامعيه كل ربع ساعة ، خطاباً يترجم حالاً الى ١٥٠ لغة مختلفة . وفيه جهاز كهربائي لترديد الكلام الذي يصدر منهُ ، وذلك بدوامات مغنطيسية ، توصل الصوت الى مضخمات صغيرة موضوعة في عربات معزولة ، تطوف بأرجاء المعرض بحيث يستطيع الركاب الاربعة الراكبين في كل عربة من العربات الجائلة فيه ، سماع خطاب على كل مشهد من المشاهد المفيدة التي تصادفهم في اثناء تجوالهم

الاشعة الكونية

مفتاح الاضواء الكهربائية في معرض نيويورك العالمي

حينما اريد افتتاح معرض شيكاغو سنة ١٩٣٣ ، وهو الذي أطلق عليه اسم معرض «قرن التقدم» توخى مديروه ان يفتحوا ابوابه للجمهور بطريقة عجيبة في ذاتها . وهي انهم رقبوا ظهور النجم المسمى السماك الرامح وهو نجم اصفر نير في النصف الشمالي للكرة الفلكية ويقع في ذنب الدب في المرتبة الرابعة ، وهو النير الرابع في السماء بأجمعها . ويبعد عنا مسافة

يقطعها الضوء في احدى وأربعين سنة ضوئية فسلطوا ضياءه على بصاصة كهربائية متصلة بأبواب المعرض ، فما انعكس على عدسة البصاصة ، ذلك الضوء حتى دار مفتاحها الكهربائي ففك عقال بوابات المعرض ، فانفتحت على مصاريعها ، كأنها ادبرت بقوة الجان ،لا بمخترعات الانسان ودخل الزائرون المعرض أفواجاً وهم لا يدرون من طريقة فتحه شيئاً وقد وصفتُ ذلك في مقتطفي مارس سنة ١٩٣٢ وديسمبر سنة ١٩٣٣ حيث قلت ما يأتي : —

فتح معرض شيكاغو في أواخر شهر يونيه سنة ١٩٣٣ وكانت طريقة افتتاحه معجزة لم يسبق ان شاهد الناس مثلها اذ اخترقت شعاعة ضاربة للاحمرار ، من كوكب السماك الرامح ، احدى البصاصات الكهربائية ففتح باب المعرض ، بأن مرّ طيف الكوكب ، أمام عدسة مرقب مرصد يركز الكاسر للأشعة ، ويبلغ قطر تلك العدسة ٤٠ عقدة (بوصة) وهو أكبر مرقب كاسر في العالم ، مركب في جامعة شيكاغو ومثبتة في قاعدته ، بصاصة كهربائية أي بطارية كهربائية حساسة بالضوء ، فالتقطت نوره حالاً ، فولّد فيها ، تياراً كهربائيًّا ، قوي بالاجهزة المضاعفة للتيارات ، ثم نقل بالاسلاك الارضية الى معرض شيكاغو ، حيث استخدم في فتح بابه الضخم ذي العجلات ، وفي إنارة مصابيحه ، فكانت طريقة الافتتاح اول أعجوبة شاهدها زواره .

وقد رأى مديرو معرض نيويورك العالمي الحالي ، عند فتحه اختصاص الأشعة الكونية بذلك الشرف وذلك بأن سخروها إذ جمعوها في آلة من آلات جيجر Geiger العدادة ، التي تسجل مرورها فتحرك الجزيئات في الأنابيب المملوءة بالغاز الجوي فتسلط الجزيئات قوة على الكهربات فتؤلف طاقة كافية لتنشيط أنبوب مفرغ من الهواء ، فيدير الآلات الكهربائية التي تضيء أراضي المعرض

البصاصة الكهربائية في مصر

وما دمنا نتحدث في منافع البصاصة الكهربائية فجدير بنا ان نورد الخبر الآتي نقلاً عن جريدة الاهرام الصادرة في ١٨ / ٦ / ١٩٣٩ . وهو : طلبت ادارة السرايات الملكية ، الى مصلحة المباني بوزارة الاشغال ، تركيب أجهزة كهربائية لتسهيل فتح واغلاق الابواب الرئيسية الثلاثة بسراي عابدين العامرة نظراً لضخامة هذه الابواب وتعذر فتحها وإغلاقها ، في المناسبات الكبرى والمفهوم بناء على حديث دار بيني وبين رئيس تحرير المقتطف ومهندس خبير من الانكليز أن الاجهزة الكهربائية التي من المحتمل التعويل عليها هي البصاصة الكهربائية قياساً على ما هو حاصل الآن في كثير من الاماكن العظيمة عوض جندي

مكتبة المقتطف

نخب الذخائر في احوال الجواهر

نشر الاب انستاس ماري الكرملي

هذا كتاب نفيس النفاسة كلها. بل هو في الواقع ثلاثة كتب نفيسة مجتمعة بين دفتيه. اما الاصل فمن تأليف محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري السنجاري المعروف بابن الاكفاني واما الثاني فتحقيقات الناشر العلامة ، من لغوية وجغرافية وادبية . واما الثالث فمعارضة بعض ما جاء به ابن الاكفاني بما اورده التيفاشي وهو صاحب كتاب نفيس في الجواهر

وقد اخذ الأب العلامة متن « النخب » عن نسخة قديمة كانت برسم احدى خزائن ملوك مصر وهي اليوم في خزانة كتب الآباء الكرمليين في بغداد ثم حرَّرها وعلَّق حواشيها اللغوية والادبية وطبعها بالمطبعة العصرية ، فجاءت سفراً نفيساً متناً وحاشية وفهارس في ١٨٨ صفحة من حجم المقتطف لا يستغني عنهُ الباحث العربيّ المحقق لما فيهِ من فوائد

جاء في الصفحة ٤٨ القول في الزُمُرُّذ (وفي الحاشية: الزمرذ بذال معجمة وضمّ الاحرف الثلاثة الاولى وتشديد الراء وجاءت بدال مهملة ايضاً مع الضبط المذكور) وقد راجعنا نسخة خطية للتيفاشي في خزانة المقتطف فاذا اللفظ وارد احياناً بالذال المعجمة واخرى بالدال المهملة. اما كلام المؤلف في الزمرذ فاليك بعضهُ « الخضرة تعمُّ اصنافهُ كلها ، وافضلهُ ما كان (مشبع الخضرة) ذا رونق وشعاع لا يشوبهُ سواد ولا صفرة ولا غش ولا حرمليات ولا عروق بيض ولا تفوت وليس يكاد يخلص عنها ودونهُ الريحاني الشبيه بورق السلق الطري واهل الهند والصين تفضل الريحاني منهُ وترغب فيهِ واهل المغرب يرغبون لما كان مشبع الخضرة وان كان قليل الماء ويزداد رونقاً اذا دهن بزيت بزر الكتان واذا تُرك بدون دهن يذهب ماؤه الخ

وقد لاحظنا عند المقابلة بين ما كتبهُ التيفاشي عن الزمرذ اوغيرهِ من الجواهر وبين ما جاء في النخب لابن الاكفاني ان التيفاشي يعنى بوصف « علة تكونهِ » علاوة على اوصافهِ وخواصهِ حالة ان ابن الاكفاني يكتفي باوصافهِ

وقد جاء في ملحق النخب كلام على الجزع نقل فيهِ الاب العلامة كلاماً للتيفاشي قابلناهُ بما في مخطوطتنا فرأينا خلافاً يسيراً اردنا اثباتهُ . فقد جاء في الملحق نقلاً عن التيفاشي « واجوده ما استوت عروقه في الثخن والرقة سليماً من الخشونة ووجود الآثار فيهِ » وفي مخطوطتنا التيفاشية « ... وأجودهُ ما استوت عروقهُ في الحسن والرقة وكان سليماً من الخشونة وقبيح التعرض ووجود الانافي » ولعلَّ رواية الاب اصح

ومما يزيد قيمة الكتاب الذي اخرجهُ الأب الكرملي الفهرست الاخير بوجهٍ خاص وهو الحادي عشر ويحوي الكلم المكتوبة بالحرف الروماني وفي هذا الفهرست يجد المترجمون اسماء الجواهر باللغة العربية وما يقابلها بالفرنسية ، وحبذا الحال لو عني الأب الكريم باضافة الاسماء الانكليزية مع انها لا تختلف كثيراً عن الاسماء الفرنسية

كتاب نقد الشعر

للاستاذ نسيب عازار

هذا الكتاب يدل على ان مؤلفه الاستاذ عازار واسع الاطلاع ملمٌّ بما جاء في كتب الادب العربية والاوربية خاصًّا بالنقد ويدل على ان المؤلف حصيف الرأي متزنه . وكثير ممن يكتبون في النقد يكتبون كتباً انشائية مطولة للدفاع عن رأي واحد ولا ينظرون الى تعدد المذاهب والآراء ولا الى جانب الصواب في كل منها فيمل القارىء المثقف قراءة كتبهم . اما الاستاذ عازار فانهُ لم يكتب في النقد الاَّ بعد ان درس الموضوع دراسة المؤرخ المحقق. وان القارىء ليتعجب كيف استطاع المؤلف ان يهيء لنفسه هذا الاطلاع الغزير النادر مع الأخذ بأحسن ما قيل في النقد في الكتب العربية والاوربية . وخليق بكل متأدب وقارىء للادب ان يدرس هذا الكتاب وان يتأمل ما جاء فيه من اقوال المتقدمين والمتأخرين . وهذا الكتاب خليق بأن يوسع ثقافة القارىء وان يجعله يشعر كما يشعر الملاح اذا عبر المحيط بعد ان كان لا يتعدى الخلجان والسواحل . وتوطئة الكتاب مكتوبة بلغة المصطلحات العصرية ولولا ذلك لحسبناه من تأليف كبار نقاد العرب الملمين بأقوال المتقدمين وهو قلما يذكر شاهداً او قولاً او قصة الاَّ ويذكر المرجع الذي يستطيع القارىء ان يرجع اليه للتثبت . والمؤلف مثال للناقد المبدع الذي يصفه والذي يلم بمحاسن ما ينتقد ويعرضها على القارىء كي يستطيع ان ينتفع بابداع الشعراء والكتاب وان يعرض اوجه النقد في المحل الثاني وان لا يُغلِّبَ نظرية يريد تطبيقها قسراً. وهذا الكتاب يعلّم الناقد ايضاً ان لا يطيل من غير جدوى اطالة مملولة فقد كان يستطيع المؤلف ان يجعل حجم كتابه اضعاف ما اكتفى به من الحجم لغزارة مادته وتعدد نظراته وآرائه ولكنه آثر الايجاز على الاطالة المملة . ولا يجد القارىء نقصاً في الشرح مع ذلك الايجاز الاَّ في التوطئة اذا كان القارىء غير مطلع على مذاهب الادب الاوربي ولكن هذا ليس بنقص لان عنوان الكتاب النقد في الادب العربي وما هذه التوطئة الاَّ مقدمة وهي على ايجازها لم تترك رأياً لكاتبٍ الاَّ وعتهُ . فاذا احسَّ قارىء بحاجة الى الاستزادة والافاضة في شرح المذاهب العديدة والآراء المختلفة التي استعرضها في التوطئة كان احساسه

بسبب حاجته الى الاستزادة من الادب الاوروبي نفسه وهذا لا يستطيع المؤلف ان يمده به .
وعلى ان هذه الرغبة في الاستزادة دليل على ان الكتاب نفيس مشوق ممتع

وقد يشعر القارىء في اثناء القراءة انهُ لا يوافق رأياً من آراء النقاد القدماء التي يستعرضها المؤلف ولكن هذا لا يطعن في ضرورة استعراضها لان الكتاب في تاريخ النقد في الأدب العربي والمؤلف يقابل بين الآراء المختلفة . ومن الواجب ان لا يهمل رأياً وان لا يغفل مذهباً لناقد مشهور. وقد أدى المؤلف الامانة من هذه الناحية وهو في هذا الاستعراض مؤرخ اكثر مما هو ناقد لما يستعرضهُ وان كان يلخص نقده احياناً لما يستعرض عند ذكره خلاصة حقائق تاريخ النقد بعد كل قول . وأرى الاستاذ قد كسر وزن بيت قيس بن الخطيم : —

قضى الله حين صورها الـخالق ألا تكنها السدف

فالشطر الاول مكسور . فاما ان يزيد كلة (لها) بعد قضى واما ان يورده كما جاء في بعض الكتب (أوصى بها) وسقوط لها من الأغلاط المطبعية التي لم يستطع حصرها كلها عند تصحيح الخطأ . وكلة (الى) في بيت بشار صفحة ١٥١ ينبغي أن تكون أبَى (أبَى طَلَلٌ بالجزع أن يتكلما) وكلة (لاقت) في البيت السادس من قصيدة مطيع بن إياس صفحة ١٧١ ينبغي ان تكون (لاقَيْتُ) وسقطت كلة (مِنيّ) في البيت التاسع من هذه القصيدة فانكسر الوزن وصحته

ورغمي أن اصبحت لا تراها الـعين (مِنيّ) واصبحت لا تراني

وهذه اخطاء مطبعية هينة قليلة تقع في كل ما يطبع ويستطيع القارىء ان يفطن لها . ونعود فنقول ان هذا كتاب نفيس جامع لمقاييس النقد عند الاوربيين في التوطئة ولمقاييسه عند العرب في باقي الكتاب وقد تتشابه الموضوعات في القسمين في بعض الفصول وإن اختلفت اساليب التعبير والاغراض . وقد أحسن المؤلف اختيار كلة خلف الاحمر التي قدمها في أول الكتاب فهو كالصيرف في تلك الكلمة يدل على الصحيح والمزيف من الشعر ***

ملخص الكيمياء

يعرف قراء المقتطف الاستاذ حسن السلمان مدير ثانوية البصرة بما نشر لهُ في المقتطف من مقالات علمية نفيسة منها خدمات العرب للكيمياء وسيرة العلاَّمة فون لابيج وكذلك مقالهُ الطويل في الغدد الصم وتأثيرها في الجسم والخلق

وقد اتحفنا بكتاب صغير الحجم كبير القيمة من ناحية طالب الكيمياء لأنهُ حوى في صفحات لا تزيد على ١١٥ من القطع الصغير التعريفات الكيميائية واوصاف العناصر وخواصها وأهم القواعد المعتمدة في الكيمياء الطبيعية . فهذه الخلاصة في حدود غرضها خير معوان للطلاب « على استذكار الكيمياء النظرية والمعدنية »

الطبع والصنعة في الشعر

تأليف محمد الهياوي — الناشر مكتبة النهضة بمصر — الصفحات ٢٠٨ قطع وسط

الاستاذ محمد الهياوي مؤلف هذا الكتاب، كاتب بليغ وراوية لا ينضب لروايتهِ معين، أنعم النظر في أدب العرب بحسٍّ صادق وفكر ثاقب فاستقامت لهُ آراء ونظرات يجب أن تفوز من ادباء العصر بما هي جديرة بهِ من العناية

ولعلَّ أجلَّ خدمةٍ اسداها المؤلف الى ادب هذا العصر، هي التنبيه الى وجوب الرجوع الى الاصول في فهم الادب وخاصة الشعر. ففي عصر كالعصر الذي نعيش فيهِ تكثر محسنات الحضارة وتتعارض تيارات الاجتماع وتتبارى اساليب الفكر والفن، فنؤخذ بما يبدو منها خاطفاً للبصر مستوقفاً للعناية ببهرجهِ، فينصرف النظر عن الاصول الى الفروع. وما عنايتنا بما يطلق عليهِ اسم «مدارس الشعر» في العصر الحديث من «رمزية» و«تأثرية» وقديم وجديد وغيرها إلاَّ من هذا القبيل فكتاب الاستاذ الهياوي يعود بنا الى القواعد الاصيلة في طبيعة الشعر واساليبهِ. فهو بذلك يقيم ميزاناً صحيحاً في عهد اضطربت فيهِ الموازين

والاساس في رأيهِ مفرغ في ثلاث قواعد أوردها في الصفحة السابعة. ١ — كلما كان الشعر صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع او شعر الفطرة. ٢ — وكلما كان صادراً عن غير ذات نفسهِ فذلك هو شعر الصنعة او شعر الانفعال. ٣ — والشاعر المطبوع هو الذي يفيض احساساً فيفيض احساسهُ شعراً. فاذا كان شعره فيض المصانعة على لسانه فهو الشاعر الصانع

أي ان الشاعر المطبوع في الغزل «هو حامل الصبابة والهوى وصاحب القلب الذائب والكبد المحترقة.... فاذا هو نظم من أنفاسهِ شعراً رأيت على كل شطر جمرة من ناره، ووجدت في كل بيت مزقة من كبده...» وبهذا الحساب مجنون ليلى شاعر مطبوع، والشعر المرويُّ عنهُ أصيل لا منحول ولا مفتعل. أما في ما عدا ذلك فليبق الخلاف في هل مجنون ليلى هو قيس بن الملوح او غيره وليستمر النزاع في ان قومه بنو عامر او هم قوم آخرون فليس في ذلك ما يبطل الحقيقة وهي ان لهذا المجنون وجوداً ملأ رحاب العشاق

وعلى هذا الاساس كذلك يعتبر الاستاذ الهياوي عمر بن أبي ربيعة المشهور انهُ شاعر غزل، شاعرَ صنعة لا شاعر طبع. «فهواه مباغتة واقتحام، وتشبيبهُ مخادعة واستهواء، وحبهُ ظلٌّ منسوخ وعرضٌ زائل، وقلبهُ عصفور مستطار لا يقع على فنن حتى يبرحهُ الى آخر... والحب في هذه الصورة ... ليس هو الحب الذي تأنس اليهِ الفطرة فيصدقها الحديث وتصدقهُ، والتعبير عن مثل هذا الحب يحسنهُ لسان الصنعة حيث لا يحسنهُ لسان الطبع...»

وعلى ذلك يمضي الاستاذ الهياوي في تطبيق رأيهِ على ابواب الشعر وألوانهِ وقصائد الشعراء فيحكم في هل هي الى شعر الطبع أقرب او الى شعر الصنعة

وفي هذا التطبيق يستمد من معين معرفتهِ بأدب العرب ونوادره فيأتيك بالمثل بعد المثل ويسوق الرواية في اثر الرواية، فكأنك واقف ومواكب الشعر العربي تمرُّ امامك وأنت تنظر اليها، بعيني المؤلف معتمداً على حكمهِ

وليس ثمة ريب في ان هناك مراتب متفاوتة بين شعر الطبع الصافي وشعر الصنعة الخالص، وفي الحكم على قصائد الشعراء ومكانها من هذه المنازل المتفاوتة بين الطرفين يختلف حكم النقاد وهذا الاختلاف لا بدَّ منهُ، لأن النقد ليس الاَّ نظراً الى قطعة فنية من خلال المزاج الخاص. فالاستاذ الهياوي يرى قول امرىء القيس « ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي » من شعر الصنعة وانا أراه يعبر عما في ذات نفسي احياناً أبلغ تعبير، فهو بهذا الحكم — وهو من اوصاف الطبع عند الاستاذ الهياوي — بيت من شعر الطبع الخالص

والخلاصة أن الأستاذ الهياوي أخرج كتاباً جديراً بأعظم العناية سواءٌ من ناحية الآراء المبثوثة فيهِ أو من ناحية اسلوبهِ العالي

الطب النفسي : علميًّا ودينيًّا(١)

تأليف الدكتور مرقس غريغوري — طبع ملكمن بلندن — صفحاته ٤٩٥ — ثمنه ٢١ شلناً

جاءنا هذا السفر النفيس ومقتطف اغسطس ماثل للطبع فكان لا بدَّ — ونحن مقبلون على عطلة الصيف — من الاشارة اليهِ إشارة موجزة على ان نوفيهُ حقهُ بعد انعام النظر فيه. وهو كما يؤخذ من عنوانه بحث موضوع العلاقة بين العقل والجسد في حالي الصحة والمرض من الناحيتين العلمية والدينية

فدراسة العقل البشري دراسة علمية تطوُّر حديث العهد، وعلم النفس هو آخر علم انفصل من الفلسفة واستقلَّ بذاته. ولا نزال نذكر يوماً في صيف سنة ١٩٢٤ وقف فيهِ الاستاذ وليم مكدوغل في قسم علم النفس بمجمع تقدم العلوم البريطاني. وكان ملتئماً بجامعة تورنتو بكندا — ليلقي محاضرة الرآسة فاستهلها باعلان استقلال علم النفس عن سائر العلوم. ومع ذلك فقد تقدمت الدراسات النفسية تقدماً يسوغ للباحثين استخراج النتائج والاحكام العامة. ومن هذه الاحكام ما يتصل بفعل العقل او النفس في الشفاء

(١) Psychotherapy, Scientific & Religious. Marcus Gregory D. Phil. Macmillan's, London 21/—

وليس ثمة ريب في ان للعقل تأثيراً في الجسم في حالي الصحة والمرض . وقد تبيَّن ذلك زعماء الشعوب القديمة ، فاجتمع الطبيب والكاهن في رجل واحد . ولكن تقدم علم النفس في العصر الحديث ، يقتضي ان يكون الطبُّ النفسيُّ او العقليُّ مستنداً من ناحية الى اساس الارتقاء الحديث في علوم الطب وعلم النفس ، مع انهُ بطبيعته لا بد ان يتعدَّى — من الناحية الاخرى — حدود هذه العلوم ، مستضيئاً بما في الفلسفة والدين من انوار

هذا هو الاساس الذي بنى عليهِ الدكتور غريغوري كتابهُ ، موفياً البحث حقهُ من النواحي التاريخية والنظرية والتطبيقية . وأنت اذ تطالع موضوعات فصوله الاثني عشر — الصحة والمرض ، الشفاء السحري قبل العصر المسيحي ، العلاج المسيحي ، الكنيسة والعلاج الروحي ، تطور الطب النفسي ، تشريح الشخصية البشرية ، نطاق الطب النفسي ، قواعد التحليل والاعتراف ، التنويم المغنطيسي العلمي والوهمي ، الايحاء وعامل الايمان ، فلسفة مركبة للحياة ، من هو الكفؤ للنهوض بهذه المهمة — تعلم ان الدكتور غريغوري حقق قول استاذه العلامة الدكتور وليم براون مدير معهد السيكولوجيا التجريبية بجامعة اكسفرد حيث قال في المقدمة « والدكتور غريغوري كتب كتابه من هذه الناحية الواسعة فوفى كل وجهٍ من وجوه الموضوع حقهُ »

وحسبنا هذه الاشارة الوجيزة الآن على ان نعود الى تلخيص فكرة الكتاب تلخيصاً اوفى في عدد تالٍ

النواسي

تاليف زكي المحاسني — استاذ العربية في تجهيز دمشق ١٧٨ صفحة — منشورات المكتبة العمومية بدمشق

لم يفز «ابو نواس» قبل الآن بما هو جدير بهِ من عناية اساتذة الأدب وطلاَّبهِ . ولعلَّ ذلك مردُّهُ الى ما اشتهر بهِ من المجون والخلاعة . وليس هذا بالغريب . فقد كان كاتب هذه السطور يجد امتعاضاً من مدرّسيهِ — وهو طالب — عند ما يشاهدونهُ متأبطاً كتاباً من مؤلفات اسكار وايلد ، وهو كاتب وشاعر بينهُ وبين النواسي وجوهُ شبهٍ على ما بيَّن الاستاذ المحاسني . ولكن اذا كان ادباؤنا ومتأدبونا يقرأون الآن بغير حرج لرامبو وبودلير ووايلد ومن كان على شاكلتهم ويكتبون عنهم وينقلون بعض شعرهم فالناحية الخلقية في حياة «ابي نواس» يجب ألاَّ تقوم حائلاً دون دراستهِ من ناحية عبقريتهِ الشعرية ووضعهِ في المنزلة التي تليق بهِ بين كبار شعراء العربية ، ثم بين كبار شعراء العالم في الخمريات . فهذا شاعرٌ بذَّ شعراء العالم في ناحية هي ألصق ما تكون بقول الشعر ، تتقدم بهِ في من تتقدَّم بهم من فحول الشعر العربي ، الى ساحة الشعر العالمي

والسرُّ في إبداع ابي نواس ، تركيبهُ الحسّي ونشأتهُ في طفولتهِ وحداثتهِ ، ثم صدقهُ في

التعبير عن ذات نفسهِ كما انعكست على صفحتها الصافية احوال العصر الذي عاش فيهِ . وفي الكلام على أجود شعرهِ من حيث هو تجديد في شعر العرب ، متكأ لفهم التجديد في عصرنا على وجههِ الصحيح . (فقد وجد ابو نواس في فاتحة عصر جديد من عهد بني العباس وكانت اسباب الحياة تختلف عن مثلها في عصر بني أمية وفي الجاهلية . انهُ عصر فتح العين على كل جديد في الفكر والحس .... النهضة العلمية .. وتمازج الثقافة الفارسية بالثقافة العربية الاموية ... الترف والبسطة في اللذاذات وامتلاك الجواري ...... فانا اذ اقرأ خمريات النواسي اتمثل ترف بغداد ومجونها ولذاذاتها في لياليها فآسف لهذا الانحطاط الخلقي. ومن يدري فربما كانت الليالي في بغداد أيام ابي نواس بمنزلة ليالي مونبارناس ومونمارتر في باريس في هذا العصر الذي نعيش فيهِ) من الصفحات ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ من كتاب النواسي

فسر التجديد في شعر ابي نواس انهُ لبى داعي النفس وداعي العصر ، فتنكب جادة التقليد لفحول الشعراء السابقين ، وحين أهمل هذين الداعيين كقوله في الرثاء والمدح سقط شعرهُ . فلا تعدُّ أقوالهُ في هذا الباب في جيد شعره ، . بل في الوسع اهمالها بغير ان يضير ذلك مكانتهُ بين كبار شعراء العربية. وهذا يبين لنا ان التفريق بين القديم والجديد تفريق مصطنع، وليس هناك الاَّ مقياس أساسي واحدٌ وهو مقياس « الصدق » و « الاجادة » في التعبير سواء أفي عصور الاسلام الاولى قيل الشعر أم في القرن العشرين

استهلَّ الاستاذ المحاسني كتابهُ استهلالاً قصصيًّا على نحو ما فعل موروى مثلاً في ترجمتهِ القصصية لحياة شلي في كتابهِ آرييل ، ولـكنهُ عدل عن ذلك النحو في الفصل الرابع ، إذ أخذ نواحي حياة أبي نواس وشعره ناحية ناحيةً فقال في كل منها ما بدا لهُ مستخرجاً الرأيَ من حياة الرجل وحياة عصره ومنطوق شعره ، آناً يستشهد بالشعر النواسي وآناً بأقوال كبار النقدة من أدباء العرب وآناً يقيم الموازنة بين حوادث ذلك العصر وما يقابلها في أوربا في العصور المتأخرة

من آرائهِ التي وقف عليها فصول « الايمان » و « الزهد » و « التوبة » ان النواسي كان مؤمناً بالله، على الرغم مما يبدو مناقضاً ذلك في أبيات لهُ، وزاهداً في أخريات أيامهِ مع ما اشتهر بهِ من المجون والفسق. وتفسيره لذلك « وحين امتلأ من صبابات الوجود انقلب الى الضدّ ففكر بالمعبود . فان لم يكن ذلك للتقوى فهو رجوع الى النقيض بعد الفراغ من المزيد . وقد يتفق مثل هذا لـكثير من الخلق فاذا انتهوا من الفسوق انقلبوا الى ضدها فصاروا نساكاً مصلين لأنهم ملوا حياة الجسد فمالوا الى حياة الروح . . . . واذا كان (أبو نواس) إمام الخلعاء ففيم تنكر عليهِ هذا الانقلاب النفسي الذي بدا لهُ في أعقاب عمره فأحب ان يدخل في دور التقوى والنسك من باب التوبة والعفو

« يا كبيرَ الذنب عفو الله من ذنبك أكبر »
« أكبر الاشياء عن أصغر عفو الله أصغر »

ولهُ عدا هذا في شعره شعر كثير جيد في الوعظ . ولكنهُ على كل حال ليس أجود شعره ولعلَّ خيرهُ قولهُ وهو محتضر « دبَّ فيَّ الفناء سفلاً وعلواً » الخ . وليس يتسع المقام للتبسط في نواحٍ مختلفة من حياة ابي نواس وشعره كما جلاها الاستاذ المحاسني ولكن يكفي ان نقول انهُ رسم صورة لابي نواس الرجل والشاعر في اطار من حياة عصرهِ ، وعلى الرغم مما في حياة الرجل وعصرهِ من الفحش والخلاعة لا تجد كلمة نابية واحدة في هذا الكتاب

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟

تأليف الامير شكيب ارسلان — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه — ١٦٨ ص قطع المقتطف — الطبعة الثالثة — القاهرة ١٩٣٩

اشتهر عطوفه الأمير شكيب ارسلان بعلومه ومعارفه الواسعة ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ الاسلام والمسلمين وسر تقدمهم القديم وتأخرهم الحديث . ولقد بعثت شهرته هذه حضرة الاستاذ الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوى) على أن يكتب الى المرحوم السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار يقترح على عطوفة المجاهد الكبير امير البيان المشهور أن يكتب للمنار مقالاً بقلمهِ السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر واسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة فسرعان ما لبى هذا الطلب بمقالات نفيسة كان لها اعظم دوي في العالم مما جعل الجمهور يطلب نشرها في كتاب على حدة لسهولة الاستفادة منها فلبى الامير الطلب وطبع الكتاب مرتين فنفدت نسخه بسرعة . وها هوذا عطوفته يعيد نشره للمرة الثالثة في حلة قشيبة وبزيادات مستحدثة . ولقد سرد حفظهُ الله ما كان عليهِ المسلمون الأولون من عزة وسلطان وعلل ذلك وما صاروا اليهِ من تفكك وتخاذل وضعف وعلل ذلك ايضاً . ومن أظهر ما علل بهِ الامير أن الأولين استرخصوا انفسهم في سبيل نصرة الدين وأنفقوا اموالهم فدانت لهم الدنيا . وأما اليوم فقد قبضوا ايديهم وضنوا بأرواحهم فخسروا كلَّ شيء

وكتب الامير كتابهُ هذا بعد رحلة رحلها في اسبانيا وقف فيها على مشاهد آثار حضارة العرب في الاندلس والمغرب الاقصى وما انقلبت اليهِ حالة العرب والبربر اليوم . ثم كتب كتابه منفعلاً بهذه المؤثرات فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكمته لعلها انفع ما تفجر من ينبوع غيرته وانبجس من معين خبرته فسال من انبوب يراعته — كما قال فقيد الاسلام والعرب السيد محمد رشيد رضا

وختم الكتاب بخلاصة وافية لابحاثه كلها منادياً المسلمين بان ينهضوا بمثل ما نهض بهِ غيرهم . وثمن النسخة خمسة قروش وهو يباع في مكتبة عيسى البابي الحلبي بجوار سيدنا الحسين بمصر

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

تأليف الاستاذ سامي الكيالي — ٢٣٦ صفحة من قطع المقتطف
المطبعة الحديثة في حلب

لا يذكر اسم سيف الدولة إلاَّ ويذكر معهُ أزهى عصور الأدب العربي ، ولا يذكر أبطال العروبة الذين جاهدوا في بعث القومية العربية الاَّ ويبرز اسم سيف الدولة مشرقاً زاهياً ، ولا تذكر مدينة حلب الشهباء الاَّ وتندفع الذكريات عن عهد الحمدانيين الزاهر فيها ، فلقد كانت مدينة حلب على عهد عاهلها العظيم خليَّة عامرة تفيض على العالم العربي الادب المصفى الذي خلد على مرّ الزمان . وكانت مجالس سيف الدولة تجمع فطاحل الادب وأساطينه ، ومن المخجل ان يخدم هذا الرجل العظيم العروبة وأدبها وتمر الف سنة ولا يتقدم أديب من أدباء العربية فيضع لهذا الرجل دراسة شاملة بينما يحظى رجال عصره من الادباء بالدراسات الطويلة والبحوث المستوعبة ويكون سيف الدولة هامشاً على حياتهم

وكأنما الرسالة التي يحملها الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الغراء الى موطنه حلب مقرّ ملك سيف الدولة لم تزل بهِ تتقاضاه حق الوفاء لهذا العاهل حتى استجاب اليها ، وهو الاديب المثقف صاحب الحركة الادبية المزدهرة في الشهباء وباعثها والثابت في جهادها فأخرج دراسته الممتعة وقد رسمها صورة صادقة لشخصية الرجل وعصره تناول فيها أصل الحمدانيين ونشأتهم والاحداث التي مرَّت بهم الى ظهور سيف الدولة الذي كان مثاليَّ النظرة في خدمة الخلفاء حتى استطاع بفكره الثاقب اقامة دولتهِ. وهنا أفرد المؤلف بحثاً خرج منهُ الى مطابقة دولة الحمدانيين لقانونية الاصطلاح الدولي المعروف . ثم وضع بحثاً تاريخيًّا للمدينة التي جعلها سيف الدولة مقر حكمه انتقل منهُ الى دخول سيف الدولة هذه المدينة

وعقد بعد ذلك فصلاً تناول فيهِ حروب هذا الرجل وغزواته، واقتضى السياق التاريخي منهُ ان يرسم صوراً متتابعة للابطال البزنطيين الذي ظل يصارعهم سيف الدولة ويصارعونهُ والذي انشأ دولته على تخوم امبراطوريتهم ليحافظ على الكيان العربي ضد مطامع هذه الامبراطورية القوية وانتهى منهُ الى فصل في آخر ايام سيف الدولة ففصل عن الحمدانيين وبني بويه

ولما كان عصر هذا الرجل من ازخر العصور بالشخصيات الادبية البارزة فقد رأى المؤلف نفسه مضطرًّا الى ان يتناول بعض هذه الشخصيات بشيء من التفصيل فعقد فصلين عن ابرز شخصيتين لازمتا عاهل حلب وهما الشاعران المتنبي وابو فراس الحمداني

وإننا اذ نختم كلمتنا السريعة عن كتابه بالاعجاب نرجو ان يتاح له من الوقت متسع لان يتناول في القريب بقية الشخصيات من مفكري ذلك العصر وأدبائهِ بالدراسة الشاملة على نحو ما قام بهِ

حسن كامل الصيرفي

الخلافة في مذهب رشيد رضا

٢٨٦ ص . القطع الكبير — بيروت ١٩٣٨

Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida, par Henri Laoust
Mémoires de l'Institut Français de Damas. Beyrouth 1938

هذا الكتاب الفرنسي ترجمة « الخلافة او الامامة العظمى » للسيد رشيد رضا ، ترجمهُ المستشرق هنري لاوست وعلق عليهِ وأضاف اليهِ بعض الفوائد . والغرض من نقل كتاب صاحب المنار ان يطلع الجمهور الفرنسي المهتم بالتحول الفكري في الشرق الاسلامي على آراء رشيد رضا البعيدة المرمى في الاسلام والجدال عنهُ

ومزية الترجمة ان صاحبها أثبت المصادر التي نقل عنها رشيد رضا او عول عليها ، ثم أشار الى وجوه التقويم الذي كان يقصد صاحب المنار اليها والتي استتبت الآن في العرف

وفي رأي المترجم ان رشيد رضا، وإن أقام مذهبه على المأثور عن السلف لا يقف عند النقل بل هو متكلم وأصولي وفقيه ولا سيما محدث . وأهم ما كتب في فن الحديث مقدمته لكتاب جمال الدين القاسمي ، وعنوانه : قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث . واعتماد رشيد رضا في تخريج الأحاديث على صحيح البخارى خاصة ، وهو لذلك كثيراً ما يرجع الى شرحه المتأخر لابن حجر العسقلاني : « فتح الباري في شرح البخاري » . ويعتمد ايضاً على صحيح مسلم وشرحه للنووى ومما ذكره المترجم في تعليقاته ان صاحب المنار صرف الى اتحاد الامة الاسلامية اكبر همه، وهي لا تكون الا من طريق التماسك الاجتماعى والثقافي والروحاني على أساس المساواة المطلقة . وعلى ذلك ان الجامعة الاسلامية انْ هي الا مودة وصداقة معنوية وأخوة دينية تجري بين الامم والجماعات المسلمة في مختلف البلدان ب . ف

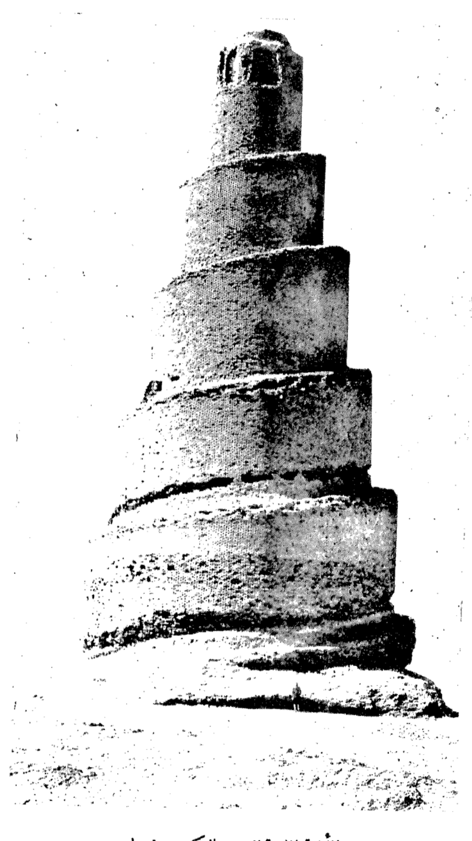
عاصفة فوق مصر

قصة اجتماعية بقلم عصام الدين حفني ناصف — ١٢٩ صفحة — مطبعة فتى النيل مصر

هي قصة مصرية في جوها وأشخاصها — كما يقول مؤلفها الاستاذ عصام الدين — عالمية في مشاكلها وفلسفتها ، وقعت حوادثها أبان الازمة الاقتصادية التي خيمت على مصر والعالم في الاشهر الاخيرة من سنة ١٩٢٩ ولم تخف وطأتها قليلاً في سنة ١٩٣٧ الا ريثما اتصلت بها أزمة جديدة ما تزال جاثمة فوق العالم في انتظار الحرب . وقد دفعهُ الى وضعهِ دراسته في اثناء اقامتهِ في الريف للدوافع الحقيقية لحوادث قتل نظار الزراعات تلك الحوادث التي هي وليدة فوضى اجتماعية لا سبيل الى انهائها بغير انهاء أسبابها

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الخامس والتسعين



المأذنة الملوية بالمسجد الكبير بسامرا

[راجع مقال تأسيس سامرا صفحة ٤٥٤]

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ — ١٩ رمضان سنة ١٣٥٨

الحرب والحضارة

« ان حيوية الحضارة لا تكبت »

عند ما شبت نيران الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ وانطلقت مدافعها كتب الكاتب الفرنسي المشهور رومان رولان يقول «ان هذه الحرب نزاع دنس تبدو فيه اوربا المجنونة وهي تسير الى حتفها كهرقل الذي قضى على نفسه بيديه» . ونحن اذا تأملنا هذه الحرب المشبوبة الضرام الآن وجدنا أنهُ لا مفرَّ لنا من تذكر كلمة رومان رولان . فكل دولة من الدول المشتركة فيها تنادي بأنها تحارب في سبيل المحافظة على كيانها ولكن يبدو ان العاقبة العامة قد تكون تدميراً عامًّا للمدنية الاوربية مهما تكن الأغراض التي تتجه اليها كل دولة على حدة . وليس من المنتظر ان تنجو الدول المحايدة من نوائبها . ففي يوم ٣ اغسطس سنة ١٩١٤ قال السر ادورد جراي وزير خارجية بريطانيا حينئذٍ : «ونحن اذا خضنا غمار الحرب لم نزد نوائبنا الاَّ قليلاً عنها اذا التزمنا الحياد» . والغالب ان السر ادورد غالى في القول ولكن من يستطيع ان يزعم ان هناك دولة نجت من عواقب الحرب الماضية وما جوته في اثرها من القلق والاضطراب ؟

واذا اتسع نطاق هذه الحرب ، ودامت سنوات فالغالب — في رأي كثيرين — ان يكون الخراب الناجم عنها عظيماً . فالعالم يرقب نفسه وكأنَّ الألغام قد بثت تحت قدميه ، منتظراً الكارثة التي تفجر هذه الالغام فتدمر أنفس مقتنياته المادية والروحية . ولا يقتصر تأثير خرابها على هذا الجيل بل يمتد الى الأجيال القادمة مدىً طويلاً ، فيكون في ذلك دمار

الحضارة وانهيار الثقافة البشرية . ويجد قراء المقتطف في باب سير الزمان فصولاً منوعة تتناول وجوهاً شتى من هذه الحرب . ولكن يهمنا في هذا الفصل ان نقف قليلاً عند هذا السؤال الذي يثيره قول رومان رولان — هل تقضي الحرب على الحضارة ؟

ولا بدَّ من التسليم بادىء بدء بأن ذلك الجانب من حضارتنا الممثل في الآثار الفنية التي لا تقوَّم بمال من مبانٍ وتماثيل وصور وغيرها معرَّض للدمار . وأوربا حافلة بهذه البدائع . ولكن جيوشها تملك كذلك الوفاً من الطائرات . ومهما تكن وسائل الدفاع ضد الطائرات قد بلغت من الاتقان فلا ريب في ان قائد السرب المهاجم المستعد للتضحية ببعض طائراته ورجالها يستطيع ان يبلغ هدفهُ . وفي وسع حملة من هذا القبيل ان تدمّر جامعة اكسفورد أو جامعة هيدلبرج فتمحو من سطح الارض بقعة ما اروع جمالها ، ومستودعاً من انفس مستودعات العلم والفلسفة والادب في تاريخ البشر . وقنبلة واحدة تصيب هدفها تستطيع ان تدمر كنيسة من تلك الكنائس التي تتجلّى فيها روائع فن البناء والنقش فيمضي الناس جيلاً بعد جيلاً وهم يتحسرون على ضياعها . وليس في النصف الغربي من اوربا منطقة لا تجد فيها مقرًّا لآيات العبقرية الفنية — في ايطاليا والمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها . وقد كنا من ايام نشاهد الصور المتحركة في احدى دور القاهرة فرأينا الرجال يصففون اكياس الرمل خارج المتاحف والكنائس وداخلها بغية صونها من الانهيار ، فانطلقت من صدرنا زفرة حسرة وألم وقلنا لجارنا و« ماذا تغني هذه الاكياس في منع هذه القباب الفخمة والمسلاَّت اللدنة والتماثيل والنقوش التي لا تزال غضَّة على الزمن من الانهيار ، اذا اصابتها قنبلة واحدة من القنابل المتفجرة الضخمة

واذا كان القصد من عبارة « تدمير الحضارة » انتهاء دور من ادوار الحضارة فالتدمير مستطاع بل محتمل . بل يصحُّ ان تقول انهُ لا مفرَّ منهُ . لاننا بلا ريب نواجه عهداً جديداً في الثقافة الانسانية . فالحرب العالمية الاولى جاءت حدًّا لقرنٍ استتبَّ فيهِ السلام بوجهٍ عام بعد النزاع الطويل الذي منيت به اوربا في عهد نبوليون ، ونهايةً للتقدم المطرد نحو انتشار الحكم الذاتي الدمقراطي في انحاء الارض ، وكانت مستهلَّ عهدٍ سمته التراخي الادبي والفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادي والاضطهاد الديني والعنصري . ولو قال احدٌ لسكان اوربا في سنة ١٩٠٠ ان هذا هو مصيرهم في سنة ١٩٢٠ لأَبوا تصديقه ولوصموهُ بالجهل والتهويل وبأنهُ بوم ينعق . فالثورة الفرنسية تلاها عصر « الرُّشد » reason والحرب العالمية الاولى تلاها عهد الطيش والتهور umreason ولا مفرَّ من ان تضيف الحرب العالمية الناشبة الآن — اذا طالت — أتاويه ومفازات مظلمة اخرى الى هيكل الفوضى

هذان النضالان العظيمان ، الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، قد يصفهما

مؤرخو المستقبل بقولهم أنهما بداءة حرب الثلاثين السنة في القرن العشرين وختامها — لان القتال لم يقف يوماً واحداً منذ نشبت الحرب الاولى سنة ١٩١٤ — ولابدَّ ان يفرضا على البشر قلب صفحة جديدة بل فتح فصل جديد في كتاب تاريخهم وحضارتهم . انهما يعنيان نهاية حضارة وانبثاق اخرى . ويلوح ان هذه الحضارة الثانية التي نشهد انبثاقها أشدُّ قتاماً واذل اصولاً من الحضارة التي بدأت تخلفها

ولكن لا يتعين علينا ان نسلّم بأن القول « بتدمير الحضارة » يجب ان يؤخذ على علاَّته. فالحضارة نباتٌ قويٌّ متعدّد الجذور متشعب الفروع ، لا يحتمل اقتلاع جميع جذوره وسقوط كل ورقة وغصن مرَّة واحدة مهما تكن الكارثة التي يصاب بها . واذا كانت الحضارة قد عاشت بعد تدمير أثينا واجتياح البرابرة لروما وقتام القرون المتوسطة والنزاعات الدينية والملكية في العصور التي تلتها ، فانها ولا ريب تستطيع ان تعيش بعد ان تمنى بحربين عالميتين

الانسان وريث جميع العصور السابقة . ومن المتعذر ان تدمر هذا الارث ، لأنهُ منتشر في كل مكان . فالافكار قد أزهرت على كل ساحل . والمكتبات والمتحفات والمجموعات العلمية والفنية قد أنشئت في كل أرض . والذكاء الانساني ينتشر بالمطبعة وأسباب المخاطبات على اختلافها حتى ليستحيل على أحدٍ ان يمنع انتقالهُ من أرض وانغراسهُ في أخرى . ولو حرقت طائفة من المكتبات التي من قبيل مكتبة لوڤان لما خسر العالم الا قطرة من بحر الكتب والمؤلفات المخزونة في جميع معاهد الارض . ولو وقف أميركي امام كنيسة مدمَّرة من كنائس فرنسا لما شغل نفسهُ برسم انقاضها بل لقد تتملكه النزعة الى ترميمها او لتشييد صرح جديد فخم مكانها ولاستطاع ان يأتي من وراء المحيطات بالمواد والمبادىء اللازمة لإنارة ذلك المصباح العظيم الخافت الضوء او المنطفىء بفعل الحرب — مصباح الحضارة الفرنسية المجيدة

فالخطر الذي تتعرَّض لهُ الحضارة ليس خطر تدميرها الكلي وانهيارها ولكنهُ خطر اصابتها بالكساح أجيالاً متعددة من جرَّاء الحرب . لانهُ اذا طالت هذه الحرب ، فالغالب ان تكون نهايتها باعثاً على استهلال عصر حديديٍّ ماديٍّ في حياتنا . لان الحرب بتدميرها أسباب الثقافة — والعبقرية الانسانية في طليعتها — لا بدَّ ان تقسر الانسان على الارتداد الى نمط مادي من الحياة . فيعيش وهو أقرب الى الجذور منهُ الى الفروع والافنان . فالحرب لا تزال في مستهلها ولكن الدول الكبرى المشتركة فيها أخضعت كل شيء في حياتها لضرورة الحرب والدفاع عن الكيان . فمصانع السلاح تزهر ومصانع الافكار تذوي . وما قيمة الادب في نظر هذه الأمم ، وهو الذي كان الصلة الاولى بين الأمم ومبدّد التعصب ، وما قيمة الفلسفة وهي التي كانت الى عهد قريب المأوى الاعلى لتأسية النفس ورفعها ، وما قيمة العلم المحض وهو الذي كان

خادم التقدم — انها غدت جميعاً والأمم تناضل في سبيل الكيان ، ترفاً يمكن اغفالهُ

وستبقى هذه الاشياء من قبيل الترف عندما تنتهي الحرب . لان المشكلات التي ينتظر ان تواجهها الامم حينئذ لن تكون إتاحة آيات الموسيقى والفن والفكر للجماهير بل تعمير ما دمر وتوفير اسباب الفوز بالمأكل والملبس والمأوى . لان البشر سيجدون انهم مضطرون بحكم ما تدمّرهُ الحرب الى العناية باصول المعاش لا بفروعهِ

ومن غير المحتمل ان تنجو امة ما من هذا الاضطراب . حتى الولايات المتحدة نفسها لن تنجو في اعتقاد آلن نفنز — استاذ التاريخ في جامعة كولومبيا واليهِ نستند في هذا المقال — منها . فقد كان من اثر الحرب العالمية الاولى في الولايات المتحدة الاميركية تعطيل مايزيد على عشرة ملايين عامل عن العمل . واعتماد خمسة وعشرين مليوناً على العون الحكومي في الفوز بابسط اسباب العيش . وزيادة الدين الاهلي الى اربعين مليوناً من الدولارات . ونقص موارد كل معهد من معاهد البحث العلمي والتعليم . فنشاط الاجيال القادمة سيرهن في الولايات المتحدة وغيرها للعمل في سبيل التعمير وحده

وليس الانسان في حاجة الى الخيال الوثاب لكي يتصور ما ينتظر ان تحدثهُ الحرب في نسيج المدنية من التمزيق وفي صرحها من الشروخ . فقد قدَّر اقتصاديو معهد كارنيجي ان الحرب العالمية الماضية اقتضت خسارة ألوف الملايين من الدولارات . ها هي ذي المدن التي دمرت ومناطق الريف التي اجتيحت والسفن التي غرقت ، يمكن احصاؤها ومعرفة قيمتها المالية . اما عدد الذين قتلوا ودفنوا والذين شوّهوا وعجزوا عن العمل فيعدُّ بالملايين

حتى الخسارة التي منيت بها الشعوب في عقول الذين فقدتهم وتدريبهم الفني يمكن تقديرها . فنحن نعلم ان انكلترا خسرت في الشهور الاولى من الحرب الماضية روبرت بروك الشاعر واميركا الآن سيغر وفرنسا شارل بيجو . ونحن نعلم ان الكاتب هربرت هوريل استطاع ان يملأ اعمدة على اعمدة من مجلة «الاتلنتك منثلي» باسماء العلماء والمفكرين من بريطانيا وفرنسا والمانيا الذين فقدوا في الحرب . وما زلنا نذكر كيف تخاصم رجلان في الطبقة الاولى بين رجال الموسيقى وأعني كريسلر وشليابين بانضمام أحدهما الى هذا الفريق والآخر الى الفريق الآخر . ونحن ندرك ان هذا التبذير في المواهب استمرَّ اربع سنوات وان زهرة رجولة اوربا وذكائها ذهبت طعمة النيران ، وفي الوسع ان تكتب الكشوف الطويلة تضم جميع هذه الأسماء

ولكننا نحتاج أشدَّ الحاجة الى الخيال الوثاب لكي تتصور حضارة المستقبل لولا هذه الخسارة وهذا التبذير . وعلينا ان نقتحم بعين الخيال مستقبلاً مضيَّعاً — بما سببتهُ الحرب الماضية من التبذير في مواهب العباقرة وما ينتظر ان تسببهُ هذه الحرب — لكي نستطيع أن نتصور

الانتصارات العظيمة في خلبة الاجتماع البشري من جميع نواحيها ، لو اطرد التقدم . ونستطيع ان نمدّ الخيال بعون يسير اذا رجعنا الى التاريخ وتصورنا العواقب التي تبعث على الحزن والهلع التي كانت الانسانية منيت بها لو شبت حرب كبيرة من قبيل حروب اليوم في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٤٠ و١٨٤٥ . اذن لكان من المحتمل ان تفقد انكلترا في تلك الحرب دكنز وثاكري وبروننغ وغلادستن وسبنسر وهكسلي وبسمر . ولا يستبعد ان مصير دارون فيها كان من المحتمل ان يشبه مصير موزلي ، ومصرع تنيسون مصرع روبرت بروك . وان تفقد فرنسا هوجو ودە موسيه وسانت بوف ورينان وفلوبير وباستور . والمانيا وروسيا فاجنر وجوجول . وغيرهم كثير

أنستطيع ان نتصور حالة العصر الفكتوري من ناحيتي الأدب والعلم لو ذهب ربع شبابه طعماً لنيران الحرب ، وما تي فرنسا والمانيا في القرن التاسع عشر لو سيق احداثهما الى المجزرة ؟

اننا نستطيع ان نتصور فقط ما يحتمل ان تكون خسارة الحضارة بتكرار هذا التدمير ، ولكننا لا نستطيع ان نعلم ولا ان نتكهن. فنحن نعلم ان السر فيليب سدني مات في الثانية والثلاثين وهو يحارب في سنة ١٥٨٦ في البلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا الآن) ليمدّ الهولنديين بالعون لطرد الاسبان من بلادهم . ومن يدرينا ان بين الانكليز الذين حاربوا في بلجيكا سنة ١٩١٤ ليمدوها بالعون لطرد الالمانيين لم يكن هناك شاب كان كتب له — لو عاش — ان يغدو شكسبيراً آخر ؟ ولا تقتصر الخسارة على الذين يموتون في الميدان، بل تشمل اولادهم وحفدتهم، وانت تعلم ما قيمة الوراثة العقلية في تاريخ الحضارة . ولا تقف المصيبة عند حدّ الحقائق التي كان من المحتمل ان يكشفوها فظلت مطوية بفقدهم ، بل تتعداه الى الحقائق التي كانت تولدت من حقائقهم ، والمؤلفات التي كانت تلهم بطالعة مؤلفاتهم

ان حيوية الحضارة لا تكبت ، وستبقى ابداً مولدة سائرة الى الأمام، ولا بدّ لها في حينها الموقوت ، من ان تستأنف السير في طريق العلم والفن والأدب نحو آفاقٍ جديدة . ولكن اذا طالت هذه الحرب ، فاستئناف السير قد يتمّ بمواكب من الأمم غير مواكب الماضي . ولا ريب في وقوع كثير من وجوه التغيير والتبديل . وقد يكون بعضها باعثاً على الأسى والفجيعة . ومن المحتمل المرجح ان الأمم التي تقذف بنفسها في وطيس النضال، او تضطر الى ذلك، ستجد نفسها عندما تضع الحرب اوزارها مضطرة الى التخلف عن السير في طليعة موكب الحضارة

وقد تجد اوربا نفسها وهي عاجزة عن البقاء في الطليعة وقد تتقدمها أمم العالم الجديد . ثم هناك خطر عظيم وهو ان يفضي التبذير المسرف في شباب أوربا الى اضعاف السلالة القوقاسية فتعجز في ميدان المنافسة والنضال مع السود والصفر . فالقوة الأوربية قلما تستطيع ان تتحمل النزف العظيم في دمائها الذي تقتضيه المجزرة تلو المجزرة ، بغير ان تصاب بالاعياء . وقد تكون

العواقب التي تسفر عنها هذه المجزرة أخطر شأناً وأبعد أثراً مما يحلو للذهن الأوربي ان يتصور

ونحن إذ نقول ما قلناهُ عن الحرب لا نعني ان الحرب أعظم كارثة تواجهها الحضارة. بل هناك — في رأي الاستاذ نفنز — كارثة أعظم وهي ان يسود أوربا طراز من الحكم والاجتماع والثقافة كالطراز الذي أقامهُ جماعة النازي في قلبها. فتوسع المانيا النازية يبسط سيطرتها على أوربا الوسطى وأوربا الشرقية ثم يبسطها على غرب أوربا، أشأم أثراً من نضال طويل. فالحرية تموت حينئذٍ في قلب الغرب موتها الآن في برلين وفينا وبراج. وتفرغ الصناعة والتجارة والسياسة والحكم والادب والفن والعلم في قالب واحد. فيفر الكتّاب والعلماء من اوربا حينئذ كما فرَّ توماس مان من «ارض الظلام». وعندئذٍ يجلس التجسس والقدع والتعذيب في مجالس الحكم، ومن يدري فقد يطول جلوسها

واذن كان لا بد من وضع حدٍّ لهذه المصيبة حتى ولو كان الثمن حرباً بنوائبها. ان منابع الفكر والشعور قد تسممت، وقام في المانيا جيل يحتقر كزعيمهِ، الحق والامانة ويعتقد ان كل كذبة وكل حيلة وكل جناية تحقق غرضاً معيناً، لها ما يسوّغها. فثقافة دولة من هذا القبيل، مهما تبالغ في طلائها، سمٌّ زعاف. ولو انتشرت عقيدتها في القوة واستعمالها لقضى انتشارها على الحضارة. فاذا قيل ان ذلك يفضي الى النظام قلنا انهُ نظام الاستبداد وهو أبعد عن الحضارة من نظام التتار والمغول. فكل سعي لوضع حدٍّ لهذا النظام وينطوي على الامل في تدمير نوائبه، رخيص مهما يكن غالياً

لأن الحرية ركن الحضارة وروحها، حرية النشاط الفردي وحرية الروح. فالدفاع عنها هو دفاع عن الحضارة، وصونها بما يكفل حمايتها في المستقبل ركن لازم لانشاء ثقافة عالمية سليمة

في وسع الحضارة أن تزهر بعض الزهر وتثمر بعض الثمر حتى في احضان الفاقة والخطر والخراب اذا كانت حرة. ولكنها تذوي وتموت اذا كانت روح الانسان مكبلة بالاصفاد. ولذلك نقول أن حرب الامم الدمقراطية — على ما في الحرب من خسائر ونوائب — هي حرب في سبيل الحضارة ويجب أن تفوز بعطف وتأييد كل رجل وامرأة يقيمان وزناً للنور والحق. الحضارة تؤثر السلام. ولكنها قد تقتضي من ذويها القتال في سبيلها احياناً. وأشد احبابها ليسوا الذين يترفعون عن النضال بل الذي يكشفون صدورهم للسيوف

ستكتب السطور التالية في كتاب الحضارة بالدم ومتى انكشفت المعركة عن ظفر الحضارة وابنائها فعندئذٍ يجب التفكير في وضع نظام عالمي جديد لتعزيز الحضارة وصونها. والامل معقود على ان تنهض الولايات المتحدة بنصيبها في وضع هذا النظام، على وجه اتم وابسل مما فعلت في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها وان يكون أثرها متكافئاً مع قوتها وثقافتها واهتمامها بمصير البشر

سيجموند فرويد

Sigmund Freud

(١٨٥٦ — ١٩٣٩)

للدكتور أمير بقطر
استاذ التربية بالجامعة الاميركية
ورئيس تحرير مجلة التربية الحديثة

ذهبت في عطلة عيد القيامة الماضي (مارس سنة ١٩٣٩) الى « همستد هيث » في انكلترا لزيارة الشيخ العالم للمرة الثانية ، وكنت قد زرته في عيادته الشهيرة في ڤينا منذ ثلاثة أعوام . « وهمستدهيث » هذه ضاحية من أجمل ضواحي لندن يقصد اليها أصحاب المزاج والذوق . وبيوتها الصغيرة و«ڤلاتها» البديعة القائمة على ربوة عالية ،وتكتنفها حدائق وجنات تجري من تحتها الأنهار، يقطنها عدد كبير من الكتاب والادباء والشعراء ورجال الفن ، وقد شاهدنا هناك من علماء النفس غير فرويد « سيرل برت » الاستاذ « بكلية الجامعة »من كليات جامعة لندن، وقد لخصنا كتابه الشهير « الطفل المتأخر » في المقتطف، ولخصت كتابه « الطفل الجامح » في مجلة التربية الآنسة فكرية زكي . ذهبنا لزيارة فرويد في مغتربه هناك فوجدناه عليلاً لا يرجى شفاؤه وقد أشرف على منتصف العقد التاسع من عمره . وبينما كان يناضل النضال الاخير في سبيل البقاء ، كانت المطابع تشتغل بإخراج مؤلفه الاخير « موسى» . وقبل ان نغادر انكلترا كان كتابه معروضاً في واجهات المكاتب في جميع انحاء انكلترا وسكوتلندا . وقد برهن فيه بوثائق تاريخية وحجج علمية ، أن ذلك النبي العظيم لم يكن اسرائيليًّا وانما كان مصريًّا صميماً .

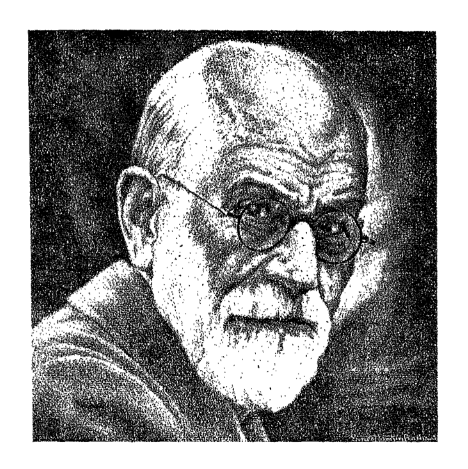
واذ ما تحدثنا عن فرويد ، فانما نتحدث عن نظرية اهتزت لها الاوساط العلمية فسمع لهزتها دويّ لايدانيه في عالم الانسانية دويّ آخر سوى نظرية كارل ماركس في الاشتراكية . والحقيقة أن فرويد وماركس يمثلان غريزتين هما بلا منازع أقوى الغرائز البشرية ، بل هما أساس جميع هذه الغرائز او الدوافع الانسانية . فكارل ماركس يمثل غريزة المحافظة على النفس التي هي في الحقيقة أساس عدة غرائز هامة ، كالجوع والخوف والغضب والحسد والقتال. وفرويد يمثل غريزة المحافظة على النسل او الغريزة الجنسية ، التي هي في الواقع أساس عدة غرائز

هامة ، كالحب ، والغيرة ، والميل للجنس الآخر . وجميع المشكلات الاجتماعية وآلام الانسانية أفراداً وجماعات ، تعود في نظر كارل ماركس ، الى غريزة المحافظة على النفس وتتركز في المسائل الاقتصادية — المال . وجميع آلام الافراد واتجاهاتهم العامة ، تعود في نظر فرويد ، الى الغريزة الجنسية — المرأة ، وتتركز فيها . ومهما اختلف العلماء في مناهضة كل من هذين العبقريين او تأييدهما ، فانهم يتفقون على ان مشكلات الافراد والجماعات ، مهما تكن أوصافها وأشكالها ، تدور غالباً على محوري هاتين الغريزتين — المحافظة على النفس والمحافظة على النسل — او المسائل الاقتصادية والمسائل الجنسية — او كما سميناها في مقال نشرناه في « الهلال » «المال والمرأة »

وقد كان « الفرد ادلر » الطبيب السيكولوجي النمساوي ، وقد توفي في فينا منذ سنوات ثلاث ، زميلاً لفرويد وشريكاً لهُ ، الى ان اختلف معهُ في الذهاب الى هذا الحدّ فيما يتعلق بالدوافع الجنسية (وكان فرويد يسميها libido للتفريق بينها وبين sex) وذهب في طريق آخر نشر فيه مؤلفات متعددة تدور حول رأي آخر ملخصه أن اتجاهات المرء تتأثر بحب السيطرة أكثر من تأثرها بأي شيء آخر . وما يقال عن « الفرد أدلر » يقال عن « يونج » الطبيب السيكولوجي السويسري ، وهو حيٌّ يرزق ، ويخالف كلاً من أدلر وفرويد في أنهُ يعزو هذه الاتجاهات الى قوة أخرى غير « حب السيطرة » وغير « الدافع الجنسي » وهذه القوة مزيج من عدة عناصر حيوية لامحل لذكرها الآن . وسأحاول في هذه العجالة أن أضع أمام القارىء فذلكة عن حياة « فرويد » وشيئاً من أهم آرائه

وُلد سيجموند فرويد من أبوين اسرائيليين في ٦ مايو سنة ١٨٥٦ ونشأ في بيئة اسرائيلية في مدينة فريبرج من أعمال مورافيا Friberg Moravia وانتقل مع افراد أسرته الى فينا عاصمة النمسا وهو في الرابعة من عمره وظلّ هناك الى أن طرده النازي مع من طرد من اليهود في العام الفائت على أثر دخول هتلر النمسا وابتلاعها لقمة سائغة . وكان فرويد في صغره لايميل للطب ، ولكنهُ كان يهوى المباحث العلمية ويؤثرها على ما عداها ، الى أن وقع نظره على رسالة لغوته عنوانها Die Natur ، فتأثر بها تأثراً شديداً حتى اختار الطب دراسة له ومهنة ، وولع في سنواته الأولى بدراسة علم النبات على الأخصّ . واشتغل من سنة ١٨٧٦ - ١٨٨٢ في معمل الفسيولوجيا على يدي الدكتور بروك Brucke ، ومن ثمَّ في معهد التشريح المخي على يدي الدكتور Meynert وتخرَّج في الطب سنة ١٨٨١ . ولكنهُ ارتطم بصخرة الأزمة المالية ، كأكثر الأطباء في بدء عهدهم ، فأوقف مباحثه العلمية ، والتحق بعيادة خاصة بالأمراض العصبية

وفي سنة ١٨٨٤ التقى بالطبيب النفساني الشهير يوسف برور (Breuer) في فينا ، فقصَّ عليه



سيجموند فرويد
Sigmund Freud
(١٩٣٩ — ١٨٥٦)

هذا الاخير قصة عجيبة استهوتهُ حتى استولت على مشاعره ، وحوّلت اتجاهه العلمي الى ناحية قصية من نواحي الأسرار البشرية . وتتلخص هذه القصة في أن « برور » جاءت اليهِ شابة مصابة بالهستيريا (وهو مرض يصاب بهِ النساء عادة دون الرجال ، وكلمة هستيريا ذاتها مأخوذة من الكلمة الاغريقية hysteron ومعناها « رحم المرأة » لاعتقادهم ان هناك صلة بين الرحم وهذا المرض) ، فلما نوّمها تنويماً مغناطيسيًّا أخذ يستدرجها في غيوبتها hypnoses الى الظروف والملابسات التي كانت أصل هذا المرض ، فعلم منها انهُ يرجع الى ذكريات قديمة تتصل بفترة كانت تمرّض فيها والدها ، فأمرها ان تستعيد تلك الذكريات و « تعيش » في جوها ، وتستعرض عواطفها ، ففعلت ، وما لبثت أن شفيت . وقد أصبحت فيما بعد هذه الطريقة الغريبة cathartic أساس التحليل النفساني ، الذي اشتهر بها بعد « يوسف برور » والطبيب الشهير الفرنسي شاركو Charcot وزميله بيير جانيه Pierre Janet

وفي سنة ١٨٥٥ رحل فرويد الى باريس حيث قضى أكثر من عام يدرس الأمراض العصبية على يدي « شاركو » ، وقد كان للتشجيع الأدبي الذي لاقاه هناك أثره في تلك الخطوة الجريئة التي قام بها فرويد بعدئذٍ ، وذلك انهُ نسب الهستريا إلى اسباب سيكولوجية ، وبحثها على ضوء تلك الأسباب . بيد أن دراساتهِ ثارت عجاجاً من الاستياء بين رجال الطب ، ومنهم زملاؤه وأقرب المقربين اليهِ . وكان اكثر هذا الاستياء مصدره الحسد ، بيد أن بعضه كان يعزى الى ان مبادىء « فرويد » ثورة على الطب والعلم الذي لم يكن ليقر غير المسائل الجثمانية ، ولم يكن ليعترف بتلك الغوامض والأسرار اللاجثمانية التي تحدّث عنها فرويد . وظلّ فرويد الى حين وفاتهِ يعدّ في بعض الدوائر العلمية والطبية من الهراطقة ، رغم ان جماعات « فرويد » وجماعات التحليل النفساني ومجلاته تملأ الآفاق

ونشر فرويد بعد ذلك مؤلفات متعددة خصوصاً في العجز عن النطق السليم aphasia والشلل المخي عند الاطفال . وفي سنة ١٨٩٣ حمل زميله «برور» على نشر رسالة فصل فيها حكاية الفتاة المريضة بالهستريا السالفة الذكر ، وعاونه في كتابة مؤلف سنة ١٨٩٥ عن الهستريا ، وهو من اهم ما كتب في الموضوع وعنوانه بالالمانية Studien uber Hysterie

واختلف بعد ذلك مع «برور» وفضّ شركته معهُ ، وأهمل طريقة التنويم المغنطيسي كوسيلة لاخراج الذكريات الدفينة من العقل الباطن ، واستبدلها بطريقة « تداعي المعاني الحر » free association . وهذه العبارة ومثلها كلمة complex التي تحدّث عنها فرويد كثيراً ، من العبارات التي صاغها الدكتور يونغ Jung . وهذه الطريقة هي حقيقة نواة التحليل النفساني وقد أدى بهِ البحث الى اكتشاف مسائل كثيرة خاصة بالامراض العصبية النفسية psychoneurosis

وطبق هذه فيما بعد على الاحوال العادية التي يكون فيها العقل سليماً من الامراض
وتتلخص مبادىء فرويد ونظرياته من هذه الناحية في أمور ثلاثة : —

اولها — ان بجانب العقل الواعي الذي نعرفه عقلاً سماه بالعقل الباطن ، وما هذا الاً مخزن تتجمع فيه الرغائب والميول التي لا تسمح لنا العادات والتقاليد والقوانين والأديان والآداب العامة بالجهر بها وقد ننساها حقيقة او نتناساها ظاهراً ، ولكنها على كل حال تنفجر كالبارود اذا لم تجد لها منفذاً . وليس الحدّ الفاصل بين العقلين من الضبط بحيث يمكن تعيينهُ ، وانما العكس صحيح ، فهما متدخلان إلى حد محدود . وقد شبّه أحد علماء النفس هذا التدخل بثلاث طبقات من الماء والهواء ، إذا تصورنا « عوامة من الخشب » ثابتة في نقطة معينة من البحر . فجزء من هذه العوّامة يكون دوماً في الهواء أي خارج الماء، هذا الجزء يقابل « العقل الواعي » conscious وجزء يكون طوراً في الماء وطوراً في الهواء تبعاً للأمواج والرياح، وهذا الجزء يقابل العقل الباطن subconcious ، وجزء يكون دوماً تحت الماء وهو يقابل العقل غير الواعي unconscious

ثانيها — ان تقسيم العقل إلى هذه الطبقات الواعية والباطنة واللاواعية يدعو إلى الكبت repression or inhibition ، وإن هذا الكبت كما قلنا يؤدي إلى الانفجار، واختبال الحياة العقلية والامراض العصبية على اختلاف انواعها ودرجاتها . على ان فرويد لم يدعُ بذلك إلى الاباحية أو إطلاق العنان للميول والشهوات والرغبات، ولكنهُ حدثنا عن نظرية « الاعلاء » او « التسامي » sublimation التي معناها أن الميول التي لا تتفق والآداب العامة والخلق الكريم والصحة وغيرها، يمكن « تعليتها » والسموّ بها ، أي تحويل تيارها إلى ناحية اخرى من النواحي التي يستطيع صاحبها أن يظهر مواهبهُ الدفينة فيها، سواء أكانت هذه المواهب فنية ،رياضية، دينية ،أم أدبية. ويقول العلماء تطبيقاً لهذه النظرية ان الساعة التي تشتد فيها رغبة الفرد في إشباع دافع جنسي مثلاً ، هي عين الساعة التي يستطيع فيها تحويل تلك الرغبة الى نظم قصيدة اذا كان صاحبها شاعراً او ميالاً للشعر ، او رسم صورة اذا كان صاحبها رساماً ، او اعداد تمثال اذا كان صاحبها مثالاً ، أو حلّ لغز علميّ أو اتيان عمل رياضي عظيم الخ الخ

ثالثها — وجود دافع جنسي عند الطفل بعد ولادته بقليل infantile sexuality فمصّ الاصابع، وفرك الفخذين احدهما بالآخر (ضرب من جلد عميره Masturbation)، والرغبة في القبض على الثدي بين شفتيه حتى في غير اوقات الرضاع، جميعها دلائل على هذا الدافع الجنسي ، وكلما كبر الطفل وجد ذاته مكبلاً بالحديد ،فيعمد الى كبت ميوله وينشأ عن ذلك النزاع الدائم بين العقل الباطن والعقل الواعي ، ويؤول الصراع في معظم الاحايين الى ارتباكات عصبية تبدو في

السنين المقبلة في الشباب والكهولة ، وليس ذلك وحسب ، بل يكون هذا الصراع عنصراً فعالاً في تكوين خلق الطفل

ولم يلق فرويد مقاومة في آرائه أكثر مما لاقى في الكلام عن الدوافع الجنسية عند الاطفال . ولا يختلف العلماء في ان الطفل يحس باللذة الجنسية قبل بلوغه سنّ الحلم ، فهو بلا شك يحس بها وهو في السنة الثانية من عمره فما فوق على الأقل . ولكنهم لا يوافقون فرويد في ما ذهب اليه من الاسترسال في الكلام عن تعلق الابن بأمه (Oedipus) او البنت بأبيها (Electra) تعلقاً جنسيًّا . فقد يكون هذا من قبيل الشواذ والشاذ لا يعوّل عليه . بيد أننا نقول انصافاً لفرويد ان معظم اللوم في هذا الاسترسال عائد على تابعيه او بعضهم ، لا على فرويد ذاته ، فالكثير من هؤلاء يبالغون في هذه المسألة مبالغة لا يسوغها العقل او الواقع . وقد سمعنا سيدة من أصل ألماني ، شديدة الغيرة على مذاهب فرويد ولها فيها مؤلفات هامة — سمعناها تخطب في جامعة من أشهر جامعات انكلترا في فبراير من هذا العام ، على جمهرة من الاساتذة ، ومما جاء في محاضرة من محاضراتها الثلاث ، أنها في تجاربها شاهدت غلاماً تبدو على وجهه علائم الغيرة والامتعاض كلما رأى مسماراً مدقوقاً في حائط ، ولما ان حللته تحليلاً نفسانيًّا وجدت ان هذا الذي يرى يذكره بالعلاقة الجنسية بين أبيه وأمه . ولست أدري الى أي حدّ تبلغ سخافة السخفاء في هذا الموضوع ، وإن كانوا من علماء النفس

كل ما أراد ان يقوله فرويد هو ان الطفل الوليد (يوزع) عطفه وحبه على كل من يتصل بهم من والدين واخوة ومربيات وخدم ، ويندفق هذا الحب مضاعفاً أضعافاً على أمه لشدة اتصاله بها ، فاذا ما اشتغلت بالاعمال المنزلية ، أو ألهاها الزوج عنه ، أخذ عداء الطفل نحوها يجد الى قلبه الرخص سبيلاً ، ودبت في نفسه الغيرة نحو الأب ، ومتى تكررت هذه الوقائع اشتد غيرة وكراهية ، ووجد نفسه بين عاملين ، عامل الحب نحو أحد والديه ، وعامل الكراهية او الغيرة . وسمى فرويد هذا التناقض الشاذ في حياة الطفل بالعاطفة المزدوجة ambivalent ولكن سرعان ما يبلغ الطفل سن الحلم حتى يوجه هذا الحب الذي يشمل عنصراً كبيراً من العاطفة الجنسية نحو فتاة إذا كان ذكراً ، او فتىً إذا كان أنثى . أما اذا لم يوجه التوجيه الصحيح لجهل الأبوين او لشذوذ خاص فيه فتبقى هذه العاطفة فيه كما هي أي ان الابن قد يستمرّ (وهذا في حكم النادر) مولعاً بأمه ، أو لا يهوى فتاة إلاَّ اذا كانت شبيهة بها ، وكذلك البنت تستمر مولعة بأبيها أو لا تهوى شابًّا إلاَّ اذا كان شبيهاً بأبيها ويصبح هذا « عقدة » Complex أو مرضاً يدعى كما سبق القول Oedipus في الحالة الأولى و Electra في الثانية . وكل من العبارتين مستعار من الاغريقية ، فقد كان لقدماء اليونان معرفة بهما ، وما على القارىء

إلاَّ ان يرجع الى مآسي صوفوكليس « التراجيدي » لاستيضاح ذلك . ولا بد ان يذكر القراء رواية «أوديب الملك» التي كانت تمثل على المسرح المصري الى عهد قريب. ويوجد في دار الآثار المصرية لوحات برمتها اكتشفت على جدران قديمة في مصر العليا منذ سنوات تمثل وقائع هذه الرواية، رواية أوديب Oedipus التي تزوجت فيها امرأة من ابنها... وفي اميركا رواية تمثيلية مشهورة، لمؤلفها «أونيل» أشهر كتاب اميركا المسرحيين واسمها Mourning Becomes Electa وهي مأساة حديثة نسج مؤلفها على منوال صوفوكليس ، وتدل الكلمة الاخيرة على مغزاها

وما تحدث عنهُ فرويد من العقل الباطن أمر قد عرفه القدماء كما أسلفنا ، ومن أقوال ماركوس أوريليوس الروماني التي عثرنا عليها في مطالعاتنا قوله « أنظر الى الباطن تجد من الطيبات نبعاً لا ينضب معينه ، فكلما عملت فيهِ يد الحفر والتنقيب تدفق منهُ الماء وفار « كما تفور القدور » . ومما جاء في الانجيل (متى ١٥ : ١٩) قوله . . . « لان من القلب تخرج أفكار شريرة ، قتل ، زنى ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، تجديف . . . »

وقد أدت نظرية العقل الباطن بفرويد الى الكلام عن الاحلام طويلاً ، وكتابه في الاحلام من أضخم مؤلفاته . فالعقل الباطن في نظره مصدر الاحلام والرؤى والخيالات الغريبة والمخاوف غير المعقولة ، وميول الهواة ورغباتهم ، ومنبع السلوك الشاذ ، وأحلام اليقظة ، والنسيان ، والتمسك بالآراء والمعتقدات تمسكاً أعمى . والفرق عنده بين عالم اليقظة وعالم الاحلام ان الاول متاع مشاع يشترك فيهِ الجميع ، أما الثاني فيحال فيهِ الفرد على الاستيداع فيصبح ذلك العالم له وحده

***

لنعد الآن بالقارىء الى الحلقات الباقية من حياة فرويد : اشتغل فرويد بعد ذلك وحده في عيادة سيكولوجية مدة عشر سنوات ، وفي سنة ١٩٠٦ اشترك معه عدد من الزملاء امثال ادلر ، وبرل ، وفرنزي ، وارنست ، وجونز ، ويونج — ويذكر القراء على الاقل الاول والاخير منهم - وانضم اليهم سدجر ، وشيتكل وغيرهم من علماء التحليل النفساني الذين التقى بهم سنة ١٩٠٨ عند التئام اول مؤتمر للتحليل النفساني ، ذلك المؤتمر الذي اصبح منذ ذلك الحين دورياً ينعقد مرة كل سنتين . وفي سنة ١٩١٠ تكونت جماعة دولية انتشرت فروعها في جميع انحاء اوربا واميركا ، ويرجع عهد الجماعة البريطانية الى سنة ١٩١٣ ولهذه الجماعة ثلاث مجلات رسمية . وقد بلغ عدد الاخصائيين المعروفين في التحليل النفساني منذ سنوات مائتي عالم ، ولا بد ان هذا العدد قد تضاعف اليوم . ولم ينحصر أثر فرويد في علماء التحليل النفساني ، ولكنه تعداهم الى جميع علماء النفس ، ورغم ما لقيه من

المقاومة الشديدة — وما تلقاه آراؤهُ الى يومنا هذا — خصوصاً في موضوع العقل الباطن والشأن الكبير الذي يعلقهُ بالعاطفة الجنسية ، قد دفع بلا شك علم النفس الى الامام ، ووضعهُ في مصاف العلوم الطبيعية

ومما يدل على منزلة فرويد انهُ عند ما بلغ السبعين من عمره انهالت عليه التهاني من الأفراد والهيئات العلمية من كل صوب

وفي الالمانية مؤلف ضخم بهِ تاريخ حياته ، وأهم رسائله العلمية ، ويغلب على الظن ان الالمان قد أحرقوها عند طرده من فينا مع سائر العلماء اليهود . ولكن معهد الدراسات التحليلية في لندن نشر أهم كتبه ورسائله بالانكليزية ، علاوة على انهُ يصدر مجلة « التحليل النفساني الدولية »

***

وبين العلماء من يأسف لتحول فرويد من شفاء الامراض بالتنويم المغناطيسي الى شفائها بالتحليل النفساني . فقد ظل التنويم — وكانوا يسمونهُ « المسمرة » Mesmerism نسبةً الى العالم « مسمر » Franz Anton Mesmer ويقول هؤلاء ان التنويم كوسيلة لشفاء الامراض معروف منذ القدم ، ويذهب «كلفورد الن »مؤلف ذلك الكتاب العظيم «الاكتشافات الحديثة في السيكولوجيا الطبية» — يذهب الى مدى بعيد بقوله ان الانبياء كانوا منوّمين.وقد استعمل طبيب بريطاني اسمه « ازدايل » James Esdaille التنويم في ٣٠٠ عملية جراحية في الهند ونجحت جميعها . ويندبون سوء الحظ لاكتشاف الكلوروفورم الذي قضى على تجارب ذلك الطبيب وغيره قضاء مبرماً ، اذ لو تأخر هذا الاكتشاف عشرين سنة ، لكان للتنويم شأن كبير في الجراحة اليوم . ولكن ... بالرغم من هذا كله فان جمهرة العلماء اليوم يؤثرون التحليل النفساني على التنويم المغنطيسي في شفاء الامراض النفسية Psychotherapy

ولا يسع المطلع الاَّ ان يدهش لما طرأ على آراء كبار الأطباء من التغير في نظرتهم الى علم النفس والتحليل النفساني . فبعد ان كانوا جميعهم (رغم ان اعظم علماء النفس اطباء) تقريباً ينظرون الى العلوم النفسية نظرة الازدراء والاحتقار ، أصبح عدد يذكر من فطاحلهم يطبق مبادىء تلك العلوم على الحالات التي تعرض عليهم . وقد شاهدنا هذه الظاهرة في هذا العام بكثرة غريبة في انكلترا ، وقد كانت الى عهد قريب شديدة العداء من هذه الناحية ، وكانت تتهم اميركا بتطرفها . ونظرة واحدة الى مكتبات الجامعات وواجهات المكاتب ومعاهد العلوم النفسية الطبية في بريطانيا ، ولندن على الاخص ، يؤيد ما نقول . وقد نشط الأطباء في

الأعوام الأخيرة، منذ ان كتب دكتوراً كسيل مُنتي كتابهُ «سان ميشيل» والدكتور كرونن[1] كتابه الشهير The Citade (وقد وضع في شريط سينمائي ناطق)، فأغرقوا السوق الادبي بطوفان من الكتب التي يحاول فيها مؤلفوها تأليه العلوم النفسية وبيان ضرورتها في معالجة المريض في جميع الاحوال

واني أنصح القارىء الذي يهمه هذا الموضوع ان يقرأ الكتاب الاخير الذي وضعهُ سر لنجدن برون الطبيب الشهير والاستاذ بجامعة كمبردج سابقاً[2] وقد ظهر في ربيع هذا العام، وأن يطلع على المؤلف الطبي الذي وضعهُ Loumis[3] في موضوع «غرفة الاستشارة» والمؤلف طبيب لأمراض النساء، وقد ضمّن كتابه زبدة اختباراتهِ ورسم للقارىء صورة بديعة لأنهيار الدموع التي سكبها النساء فوق مكتبه في «غرفة الاستشارة». وأهيب بالقارىء ان يقرأ أيضاً المقالات العظيمة التي ما برح «كرونن» و «الكس كارل» ينشرانها في المجلات الاميركية الشهرية، اما كتب فرويد ففي متناول الذين يهتمون بالتوسع في هذا البحث

الا ان المبادىء التي أوردها فرويد في مؤلفه الجامع «الأحلام» لا يقره عليها العلماء الا من ناحية واحدة وهي أن الأحلام منفذ تقذف منهُ ما تكدّس في العقل الباطن من الرغبات المكبوتة. ويكاد «يونج» يتفق معهُ في نظرية الأحلام من حيث علاقتها بالماضي والحاضر، على أن «يونج» يزيد على ذلك أن الأحلام أيضاً تدل على المستقبل بمعنى أنها تبين اتجاه الهدف الذي يرمي اليهِ صاحب الحلم في المستقبل

ولعل علماء النفس يجمعون اليوم على ان كلاً من المذاهب السيكولوجية لها مكانها في النهضة العلمية. «فالفرد ادلر» قد أظهر لنا بصورة لاتقبل الشك ان «حب السيطرة والظهور» لهُ أكبر أثر في تكوين الشخصية، كما ان «كارل ماركس» في عالم الاقتصاد قد برهن لنا ما للشعور بالطمأنينة الاقتصادية من الاثر في شخصية الافراد والجماعات، وكما جاهد فرويد في الدفاع عن العاطفة الجنسية كأكبر عامل يؤثر في جميع الافراد. ولعل «لنجدن برون» في كتابهِ السالف الذكر قد أبدع في تعليقهِ على هؤلاء في قوله «ان الفرد في سن الحُلُم (او من يعيش في ذلك الطور وان كبر) يؤثر «فرويد» وفي سن الرجولة يؤثر «أدلر» وفي سن الشيخوخة يؤثر «يونج» وهو الذي يتكلم عن مجموعة عناصر كما أسلفنا

---

(١) Dr. J. A. Cronin

(٢) Sir W. Langdon-Brown, "Thus We Are Men„

(٣) Frederic Loumis, "Consulting Room»

بقي علينا ان نقول كلمة عن فضل فرويد على علماء التربية وأثره في مبادىء التربية ذاتها. واول ما يبدو واضحاً في جهاد « فرويد » أنه أخرج الكلام عن الموضوعات الجنسية من سحب الحياء وغيوم الغموض والارتباك ، إلى سماء الصراحة ، وعلّم المهيمنين على شؤون الطفل من والدين ومعلمين ومربين ومربيات ، أن يواجهوا الحقيقة كما هي ، ويحدثوا النشء في مشكلاتهم الجنسية ، كما يحدثهم في كل ما يطالبون بالاجابة عنه ، مما تدفعهم اليه طبيعة حب الاستطلاع وإن إخفاء المعلومات الجوهرية عن النشء في بدء عهده بالاصطدام بها وبال عليه

***

وثانياً بيّن « فرويد » بطريقة لا تقبل الجدل أنّ الشذوذ الجنسي « مرض » أو « عقدة » Complex كما يسميه ، ينبغي علاجها ، وان كثيراً من الانحراف الجنسي perversion يكون نتيجة خطأ في تربية الطفل . فاللواط مثلاً لا يعالج بإنزال العقوبة الصارمة ، او بالنظر إلى الطفل او الشاب كمجرم يستحق القصاص ، ولكنهُ يعالج بما تعالج بهِ الامراض العقلية ، إذ انهُ قد يكون نتيجة لطبيعة كامنة فيهِ ، وهذا نادر ، ولكنهُ يكون في الغالب فريسة البيئة وإهمال الوالدين . كذلك الحال فيما يتعلق « بعقدة اوديب » التي سبقت الاشارة اليها

***

وثالثاً انهُ مهما يكن « فرويد » مسرفاً في الشأن الكبير الذي يعلقهُ بالعاطفة الجنسية ، فان من واجب المربين مراعاتها في حلّ مشكلات النشء إذ انها في كثير من الأحوال تكون اساساً لارتباكات في حياة الطالب المدرسية منها والمنزلية . ومعالجة هذه الارتباكات بالتأنيب او العقوبة البدنية ، كضرب المريض او المجنون حتى يشفى . ولا يخفى ان الناس كانوا الى عهد قريب ينزلون بالمجنون أشد العقوبات ، ظنّاً منهم ان مثله مثل المجرم . ومما يدل على أن « فرويد » واثق العقيدة في هذه النقطة انهُ أشار الى « السادزم » و « المسوشزم » (١) كعقدٍ ينبغي علاجها ، وان صاحبها في معظم الاحايين لا ذنب له فيها ، لانها نتيجة « تهيج استي anal eroticism » ولا يخفى ان في كلٍّ من هذين المرضين لا يستطيع المجتمع إلى يومنا هذا العطف على صاحبه او النظر اليهِ كمريض جدير بالعلاج « عن مجلة التربية الحديثة بتصرف يسير »

(١) « السادزم » شذوذ جنسي يدفع صاحبه الى ضرب آخر او ايلامه اشباعاً لعاطفة جنسية شاذة فيه . وينسب هذا المرض الى المركيز دي ساد (Marquise de Sad) (١٧٤٠ — ١٨١٤) وقد كتب وهو سجين في سجن الباستيل روايات مخلة بالآداب ووضع في مستشفى المجاذيب مرتين

أما المسوشزم او المسوكزم فهو شذوذ جنسي يتلذذ صاحبه بأن يضربه او يؤلمه آخر . أي انه عكس سابقه وينسب الى الكاتب النمساوي « مسوك Sacher Masoch » (١٨٣٥—١٨٩٥)

العلم والحرب

الطائرات الحربية

ومنزلتها في اساليب الحروب الحديثة

أصنافها وأوصافها في الدولة المتحاربة

من الاقوال المأثورة ان الحرب في نظر القائد فنٌّ وفي نظر الضابط علمٌ وفي نظر الجندي صناعة . ولما كان القائد هو الذي يدير رحى الحرب ، معتمداً على الضابط والجندي ، فالحرب في ناحيتها التنفيذية يجب ان تعتبر فنًّا اذا اخذنا بالقول المتقدم . وفن الحرب ، كغيره من الفنون لا يمكن ضبطهُ بقواعد محدودة . وليس امام القائد الاَّ بضعة مبادىء عامة ، تظهر عبقريةُ القائد في اجادتهِ تطبيقها على حالات شتى تعرض له

والتقدم الصناعي في ادوات الحرب لا يغيّر من قواعدها الاساسية ، ولكنهُ يبدّل من مداها وسرعة الاعمال الحربية وشدتها . ولكن اذا افضى هذا التقدم الى تبديل اساسي في في مبادىء الحرب وسير التاريخ عدَّ ذلك التقدم انقلاباً في فن الحرب خطير الشأن

والبحث في تاريخ البشر من هذه الناحية يسفر عن ثلاثة مخترعات عسكرية يصح ان يعتبر كلٌّ منها انقلاباً خطير الشأن في قواعد الحرب ، وتبديلاً أساسيًّا في سير التاريخ ، وهي : ١ — النظام العسكري . ٢ — البارود . ٣ — الطائرة الحربية

فتطبيق النظام العسكري على الجيوش أخضع قدرة الجندي لقدرة الجماعة المنسَّقة من الجنود الخاضعة لقيادة واحدة . ولولاه لما تمكن اليونان من صون حضارتهم ولا الرومان من وضع الحجر الاساسي في امبراطوريتهم . ثم جاء البارود فجعل الجنديَّ الفلاح السائر على قدميهِ أفعل في الحرب من الفارس لابس الدرع والخوذة ومتقلد السيف والرمح . فسقطت امامهُ سلطة امراء الاقطاع ونشأت الجيوش النظامية التي قوامها ابناء الطبقة المتوسطة وطبقة الفلاحين فكان ذلك مستهلَّ العهد الذي قامت فيه الدول القومية في اوربا . ثم ان البارود وضع في أيدي البحَّارة سلاحاً ضُمَّ الى ارتقاء السفن الشراعية واتقان اساليب الملاحة في العصور المتوسطة فحررت الحرب البحرية من ضرورة اطباق السفن بعضها على بعض ليتمكن رجالها من الالتحام كما تلتحم جنود البرّ . فأفضى هذا الى التوسع الاستعماري ولا سيما لان جنود المستعمرين استطاعوا ان

يستعملوا أسلحة نارية تفوق أسلحة الاهالي في اميركا وآسيا وأفريقية

ولكن تطبيق النظام العسكري واستعمال البارود لم يبدّلا قاعدة واحدة من قواعد الحرب الاساسية ، وهي ضرورة التغلب على الجيش المدافع قبل تحقيق الأهداف السياسية التي نشبت الحرب لتحقيقها

إلاَّ أن الطائرة مكنت قيادات الجيوش ، لأول مرة في تاريخ النضال البشري ، من توجيه الضربة الشديدة الى المراكز الصناعية والتجارية والسياسية في بلاد العدو — علاوة على توجيهها الى جيوشه وأساطيله — من دون ان يقتضي ذلك اخضاع الجيش وتحطيم الأسطول اولاً

الطائرات والخطط الحربية

وهذه القدرة هي عنصر الانقلاب في الحرب الحديثة الناشيء عن استعمال الطائرات . ان نصيب القوة البحرية في حسم النزاع بين دولتين او فريقين من الدول يزيد او ينقص وفقاً لقدرتها على التأثير في حالة الجيوش المتقابلة على البرّ . ذلك ان السفينة الحربية مهما تكن متقنة البناء قوية الدروع بعيدة مرمى المدافع لا بد لها في آخر الأمر من ان تؤوب الى مرفإٍ . فأعظم الأساطيل لا بد لهُ من الاعتماد على قواعده الساحلية

وما يصدق على الأساطيل البحرية يصدق بوجه خاص على أسلحة الطيران . واذا كانت قدرة السفينة الحربية على البقاء في البحر بغير ان تؤوب الى مرفإٍ ما تعدُّ بالايام أو بالأسابيع فقدرة الطائرة على البقاء في الجو بغير ان تعود الى المطار تعدُّ بالساعات . فالأساطيل البحرية تستطيع ان تؤثر تأثيرها في نقطة معينة مدة غير يسيرة . ولكن سرباً من الطائرات الحربية لا يستطيع ذلك الاَّ دقائق معدودات . فالسفينة تستطيع ان ترسو حيث تشاء او حيث يطيب لربانها . اما الطائرات فيجب ان تبقى ماضية في سبيلها لا تستقرُّ

ولكن السفينة الحربية والطائرة الحربية تملكان قوة لا تملكها الجيوش . فهما غير مقيدتين بوجه عام بالحوائل الطبيعية كالجبال والانهار والبطائح والصحارى ولا بخطوط ومناطق محصنة كخط ماجينو والحائط الغربي اي خط زيجفريد

والفائدة الحربية المقدمة التي تعزى الى الطائرات الحربية ناشئة عن قدرة القيادة الجوية على حشدها وتوجيهها الى الهدف الذي يبدو أهم من غيره ساعة حشدها وتوجيهها . ففي وسع سرب من الطائرات الألمانية مثلاً ان يتجه في احد الأيام الى مرسى السفن في احد المرافىء حيث يظن ان اسطولاً بحريًّا بريطانيًّا يستعد لمهاجمة نقطة معينة على الساحل الألماني . ولكنهُ

قد يوجه في اليوم التالي الى المطارات الحربية البريطانية في اواسط انكلترا

ثم ان « المدى » او « المسافة » ، عنصر من اهم عناصر الخطط الحربية الجوية .فلو نشبت حرب بين روسيا واليابان لاستطاعت الطائرات الروسية ان تصل الى كثير من مناطق اليابان ومراكزها الحيوية ولعجزت الطائرات اليابانية عن مقابلة هذا العمل بمثله، لبعد المراكز الحيوية الروسية في اوربا عن اليابان

وسرعة الطائرات كسرعة البوارج لها نواحٍ حربية عظيمة الشأن . فاذا تقابل سربان من الطائرات المطاردات كان الامتياز للطائرات التي تفوق غيرها في السرعة وسهولة المناورة .وقد جاء في الانباء البرقية من الميدان الغربي ان المطاردات الاميركية التي ابتاعتها فرنسا — وهي من صنع كرتس — أسرع وأسهل مناورة من المطاردات الالمانية . وهناك ناحية اخرى وهي المنافسة في السرعة بين المطاردات والقاذفات . ففي الحرب العالمية الماضية كان تفوُّق المطاردات على القاذفات عظيماً اما الآن فالفرق بين سرعة الطرازين اقل ومع ذلك لا تزال المطاردة متفوقة تفوقاً عظيماً على القاذفة من ناحية المناورة لما بينهما من فرق في الحجم والدرع وحمولة القنابل

لكن القيد الرئيسي للسلاح الجوّي هو قيد «زمن الطيران » . فاذا اضيف الى ذلك قيد « مدى الطيران » وقيد « حمولة الطائرة » فهمنا عجز الطائرة عن الاحتلال وكذلك عن استمرار سيطرتها على منطقة ما في البرّ او البحر بعيدة عن قواعدها أي مطاراتها

وقد ارتقت وسائل مقاومة الطائرات بعد الحرب العالمية الماضية ارتقاء كبيراً ولا سيما في وسائل تبيُّن الطائرات قبل وصولها وضبط اطلاق القنابل عليها . نعم ان زيادة سرعة الطائرة قد زادت المشقة التي يعانيها المدفعيُّ في تسديد مدفعه اليها ولكن تأثر الطائرة الواحدة بقنبلة المدفع لم يقلّ . فمهندسو الطيران لم يكشفوا حتى الآن وسيلة عملية تمكنهم من تعزيز دروع الطائرة مع الاحتفاظ بميزاتها الاخرى. لأن كلّ تعزيز للدرع يعني زيادة وزن الطائرة وهذه الزيادة يجب أن تستخرج من مقدار ما تحملهُ من القذائف والبنزين. ولذلك تستطيع قنبلة واحدة من قنابل المدافع المقاومة للطائرات ، حتى ولو كانت قنبلة صغيرة ، ان تعطل الطائرة الآن كما كانت تعطلها سنة ١٩١٨

إلاَّ ان فعل المدافع المقاومة للطائرات يتوقف على عمق خطوط الدفاع . فاذا كان بين خطوط الدفاع والحدود التي يستطاع عندها معرفة انباء القاذفات المهاجمة مسافة طويلة — نسبيًّا — زاد فعل المدافع ضد الطائرات لأن الفترة بين الانباء بوصول القاذفات واطلاق القنابل عليها تمكن المدفعيين من التأهب لها ؛ اما اذا كانت المدافع منصوبة حيث تضطرُّ ان تسدَّد فجأة او على غرَّة الى الطائرات المهاجمة فان فعلها ضد الطائرات يضعف

وما يصدق على فعل المدافع ضد القاذفات المهاجمة يصدق كذلك على الطائرات المطاردة وهي

عماد الدفاع ضد القاذفات، فاذا كانت فترة الانذار بين اقتراب القاذفات وتحليق المطاردات لمقابلتها كافية لعدو الطيارين الى طائراتهم والارتفاع بها في الجو وتعيين مواقع العدو ومهاجمته كان فعلها أعظم جداً منها لو كانت فترة الانذار قصيرة

فتعيين القوة الجوية في كل دولة ومقابلتها بالقوة الجوية التي تملكها دولة أخرى يحتمل ان تكون خصماً لها في الحرب، لا يتم بجمع عدد الطائرات والطيارين في الاولى ومقارنة ذلك بما يقابله في الثانية. فالاعتبارات التي لا بدَّ من اقامة الوزن لها في حساب القوة الجوية كثيرة ومعقدة وفي مقدمتها عوامل الوضع الجغرافي والوصف الطبوغرافي

ومع ذلك يجوز لنا ان نعنى بموضوع « التفوق الجوي » ولكن على أساس آخر غير عدد الطائرات والطيارين فحسب. وهذا التفوق قد يكون محليًّا ووقتيًّا، وقد يتم لدولة تملك عند بدء الحرب عدداً من الطائرات يفوق عدد طائرات خصمها، ولكن قد ينقضهُ ويضعف من تأثير قدرة الدولة المقابلة على الانتاج

وتفوُّق دولة في القوة الجوية قد ينقلب ضعفاً بظهور طراز جديد من الطائرات كما حدث غير مرة في الحرب العالمية الماضية، او بابتكار خطط جديدة لاستعمال الطائرات كما حدث عندما ابتكر طيران الطائرات اسراباً في وضع معين. وقد تتمتع دولة ما بتفوق جوي في ميدان حربي ما ولا تتمتع بهِ في ميدان آخر. كتفوق المانيا الجوي على بولونيا وعدم تفوقها على فرنسا وبريطانيا في الميدان الغربي

اصناف الطائرات وأوصافها

تقسم الطائرات الحربية بوجه عام أربعة أصناف وفقاً للغرض الذي تستعمل لهُ. وهذه الاغراض هي قذف القنابل والمطاردة والمهاجمة والاستكشاف

فقاذفات القنابل هي مشاة الجوّ والعمل الذي يسند اليها يعين عمل الطائرات الأخرى. فهي ذراع القوة الجوية التي تنزل الضربات بالعدو البعيد. وهي طبعاً السلاح الجوي الوحيد الذي في وسعهِ ان يوقع الأذى بسكان المدن وغيرها من المراكز الشعبية

والمطاردات هي عدوُّ القاذفات. ولا عمل لهـا الاَّ القتال في الفضاء. وهي لا تحسب عند بعضهم سلاحاً هجوميًّا لأنها لا توجَّه الى اهداف ثابتة على الأرض الاَّ في احوال استثنائية

وأما المهاجمات فتستعمل خاصة لمهاجمة الجيوش والأهداف المادية الخفيفة المتحركة كصفوف السيارات على انواعها وسيارات النقل والسيارات المصفحة وغيرها. وقد استعملت في الحرب الاسبانية الاهلية لمهاجمة المشاة، عندما يبدأون الهجوم بعد ان تكون المدافع قد مهدت لهم الطريق.

وفي وسعها ان تعرقل عمل رجال المدافع الرشاشة عند ما يخرجون من مكامنهم بعد وقوف المدافع الثقيلة عن اطلاق قنابلها . ومن اخص اهدافها صفوف الوحدات الميكانيكية المتحركة والمعتقلات وراء صفوف القتال

أما المستكشفات فعملها استكشاف مواقع العدو وهي لا تطلق قنابل ولا رشاشات . فالنسبة بين هذه الأصناف الأربعة في أي سلاح جوي من العوامل التي تحدد منزلته الحربية . فبريطانيا مثلاً تعنى عناية خاصة بالدفاع عن لندن ولذلك يجب ان يكون عدد المطاردات في سلاحها الجوي اكبر من عدد المطاردات في سلاح المانيا الجوي لأن اهتمام المانيا بالدفاع عن نقطة معينة ليس في منزلة اهتمام بريطانيا بالدفاع عن لندن . فاذا شاءت بريطانيا ان يكون لها عدد من القاذفات تستطيع القيام بحملات جوية على المانيا في عدد الحملات الجوية التي تقوم بها القاذفات الالمانية على بريطانيا، وجب ان يكون مجمل عدد الطائرات في سلاحها الجوي اكبر من مجمل عددها في السلاح الجوي الألماني، لكي يتساوى السلاحان في القاذفات ويتفوق السلاح البريطاني في المطاردات

عوامل أخرى

وليس ثمة ريب في ان القدرة الصناعية على صنع الطائرات من اصناف مختلفة عامل اساسي في معرفة القوة الجوية في بلد ما . فهيئات القيادة الجوية في الدول الاوربية كانت تحسب خسارة الطائرات في الشهر الأول من الحرب تتفاوت من ٦٠ الى ٩٠ في المائة من الطائرات المستعملة في شتى الاغراض . فاذا كان للدولة عند دخولها الحرب احتياطيٌّ بقدر طائرات الخطوط الامامية ، واستعملت طائرات الخطوط الامامية في الشهر الاول ، استنفدت طائرات الخطوط الامامية وطائرات الاحتياطي في ٦٠ يوماً الى ١٠٠ يوم. ولذلك يتعيَّن على مصانع الطائرات أن تشرع قبل ذلك في سد الثغرة بصنع طائرات جديدة . ومن المستحسن ان يكون ما تخرجهُ المصانع من الطائرات اكثر مما تخسره الامة في المعارك الجوية

فاذا كانت الحرب قصيرة ، فالطائرات المعدَّة للقتال عند بدئها تكون عاملاً حربيًّا اهم منها لو كانت الحرب طويلة ، لأن طول الحرب يقتضي ان يكون الشأن الاكبر للطائرات التي تخرجها المصانع لا للطائرات المعدة للقتال عند بدئها ، وهذا طبعاً على اعتبار ان التفوق الاول لا يفضي الى تدمير المصانع ذاتها

ومما يعلَّق بهِ شأن كبير وجود هيئات علمية منظمة للبحث العلمي الصناعي . وليس في وسع كاتب أن يغالي في قيمة هذه الهيئات . فعلوم هندسة الطيران تتقدم تقدماً حثيثاً . والتخلُّف في مضمار الاتقان الصناعي قد يكون الباعث على الهزيمة . والحاجة ليست الى اتقان الاطرزة

المستعملة من الطائرات فحسبُ ، بل الى النفوذ الى المستقبل لتبين الاتجاهات الجديدة وتحقيقها ذلك بأن الباحثين يقدرون ان المدة التي تقضي بين اختراع طراز جديد من الطائرات وبين شيوع استعماله بخمس سنوات . فكل جنيه ينفق في البحث الصحيح قد يوفر على الحكومة الوفاً من الجنيهات تضيّعها في صنع طائرات لا تلبث ان تحسب قديمة متخلفة من حيث الشكل والسرعة والكفاءة الحربية عن طائرات جديدة اخرجتها مصانع خصمها . ان البحث العلمي الصناعي ذو شأن عظيم في الجيوش والاساطيل الحربية . ولكن لاغنى لاسلحة الجوّعنهُ

ومن عناصر القوة الجوية، القدرة على توفيرما تحتاج اليه الطائرات من وقود وزيوت للتشحيم واجزاء تبدل بها الاجزاء المعطوبة وغير ذلك . ثم ان السلاح الجويُّ الحديث يحتاج الى قواعد متعددة استوفيت فيها جميع ما تحتاج اليه الطائرات من ترميم وتجهيز بالوقود والذخيرة وغيرها. والقاذفات تحتاج بوجهٍ خاص الى مطارات متسعة الجوانب لتعذر نزولها الى الارض في مطار ضيّق ، ولتعذر ارتفاعها منهُ ، مما يعرضها للخطر عندالنزول والجمود عندالهجوم عليها من الجو

فاذا ارسلت كتيبة من الجنود لتعزيز حامية بلد ما فان هذه الكتيبة تكون مستعدة للعمل عند وصولها تقريباً . واذا تعذر وجود ثكنات لها نصبت الخيام واقامت فيها بغير ان تصاب كفاءتها الحربية بضعف اساسي. ولكن تعزيز الحامية الجوية في البلد نفسه بارسال خمسين قاذفة اليه يقتضي ارسال قدر كبير من الآلات الصناعية الحديثة والاجهزة اللازمة وانشاء المطارات التي تصلح لنزول الطائرات وقيامها والحظائر لايوائها وغير ذلك لأن هذه الطائرات لا تكاد تصلح لحرب بغير ان تتوافر لها جميع هذه الاسباب

ثم ان مسألة الطيارين والمهندسين وعمال المطارات المتقنين في المقام الاول من عظم الشأن عند ما يحسب حساب للقوة الجوية في دولة ما . فالطيارون يجب ان يدرَّبوا تدريباً دقيقاً على سوق طائراتٍ على ألواحها مائة جهاز وجهاز . ويجب ان يكون عددهم وافراً ، لكل صنف من الاصناف . فالطيّار الذي يتدرب على سوق طائرة مطاردة من صنع كرتس لا يسهل نقله بسرعة الى طائرة قاذفة من صنع بوينج . ورجال الطائرات لايقتصرون على الطيارين الذي يسوقونها بل يشملون الملاّحين الذين يضعون لها خطط الطيران والمراقبين العسكريين ورجال اللاسلكي وقاذفي القنابل ومطلقي المدافع الرشاشة

ثم ان تنظيم العمل على سطح الارض في المطار يقتضي ميكانيكيين مدرَّبين وكهربائيين وعمالاً واطباء وضباطاً يفهمون مسائل السلاح والذخيرة وآخرين من هيئة اركان الحرب يتولون الادارة العامة وتوجيه الاسراب . وعدد هؤلاء جميعاً يجب ان يكون وافراً في كل مطار والاّ ضيّعت الطائرات الحربية مزيتها لان الطائرة الحربية بغير قاعدة تؤوب اليها للترميم والتموين لافائدة منها

ان مدى القاذفات الاوربية عند ما تسير اسراباً لا يزيد على الغالب على ٥٠٠ — ٧٥٠ ميلاً اذا كانت تحمل حملاً كبيراً من القنابل . والاتجاه الى زيادة مداها يقتضي زيادة حجمها ونفقة صنعها وصيانتها ويزيد تعريضها لقنابل المطاردات والمدافع المقاومة للطائرات

والمرجح ان تدمير مدينة كبيرة من مدن اوربا بحملة جوية امر متعذر ، لاتقان وسائل الدفاع من ناحية ، ولأن «زمن طيران» القاذفات محدود . وعامل «الزمن» هذا من اهم القيود التي تكبّل الطيران الحربي . وفي ذلك يقول الجنرال فولر انهُ من المعقول ان تسير قوة مسلحة حديثة من لياج الى باريس في ثماني ساعات اذا كانت الأحوال مؤاتية . والطائرة تستطيع طبعاً ان تجتاز المسافة في ساعة وان تحدث تدميراً غير يسير عند وصولها . ولكن الطائرة لا تستطيع ان تبقى هناك بعد القاء قنابلها وهذه الحقيقة تحد من فعل القاذفات كعامل حربي

مقابلة فنية

الاطرزة الغالبة في الاسلحة الجوية التابعة لحكومات المانيا وبريطانيا وفرنسا ثلاثة وهي المطاردات ومهمتها دفاعية على الاكثر تتربص للقاذفات المهاجمة فترتفع في الجو وتلتحم مع المطاردات في القتال . لذلك يجب ان تكون سرعتها أعظم من سرعة القاذفات . وحجمها أصغر ويجب ان تكون مجهزة بمدافع رشاشة او غير رشاشة وخالية من القنابل . وبذلك تتمكن من ان ترتفع وتنخفض وتحوم حول القاذفات وتطلق عليها رشاش مدافعها ، حتى تصيبها في مقتل في المحرك او في خزان البنزين او في مقتل من جسم قائدها

وقد ارتقى صنع المطاردات في العهد الاخير ارتقاء عظيماً من حيث سرعتها والاسلحة — أي المدافع — التي تجهز بها . والراجح عند خبراء الطيران العسكري ان خير المطاردات في أسلحة الجو هي المطاردات البريطانية المعروفة باسم سبتفاير (قاذفة اللهب) وما كان من طرازها

سرعة هذه المطاردات على ما كانت معروفة في شهر مايو الماضي — ٣٦٢ ميلاً في الساعة اي نحو ستة أميال في الدقيقة. ثم انها تستطيع ان ترتفع من ارض المطار الى علو ١١ الف قدم في أقل من خمس دقائق ومداها ٦٠٠ ميل — المدى الطويل ليس لازماً للمطاردات لانهُ لا ينتظر ان تبعد كثيراً عن قواعدها بحكم أنها من وسائل الدفاع — وهي مجهزة بثمانية مدافع رشاشة تستطيع ان تطلق ٩٦٠٠ طلقة في الدقيقة في جميع الجهات. يقابل هذا ان سرعة المطاردات الالمانية ٣٥٠ ميلاً في الساعة ومداها ٦٠٠ ميل وهي مجهزة بمدفعين رشاشين ومدفعين آخرين قطر كل منهما ٢٠ مليمتراً . أما المطاردات الفرنسية فسرعتها ٣٠٥ اميال في الساعة — ومن المعروف ان صناعة الطائرات الحربية في فرنسا نشطت نشاطاً عظيماً من شهر مايو الى الآن. ومن المتوقع ان يكون مستنبطوها ومهندسو الطيران فيها قد صنعوا أطرزة جديدة من المطاردات لم تتصل بنا حقائق

وافية عنها حتى الآن — ومداها ٦٠٠ ميل وهي مجهزة بمدفعين رشاشين ومدفعين آخرين قطر كل منهما ١٢٠ ملليمتراً

أما طائرات الهجوم فهي المعروفة بقاذفات القنابل وهي طرازان المتوسطة والضخمة ولكنها تختلف عن المطاردات بوجه عام في أنها أضخم منها حجماً وأبطأ طيراناً وأطول مدى وتتسع لحمل كبير من القنابل التي ينتظر ان تلقيها من عل

اما القاذفات المتوسطة البريطانية فأقصى سرعتها ٣١٥ ميلاً في الساعة ومداها ١٩٠٠ ميل وحملها من القنابل زنته ٢٠٠٠ رطل يقابلها في السلاح الجوي الالماني ٢٨٠ ميلاً للسرعة و ١٤٠٠ ميل للمدى و ١٩٠٠ رطل للحمل . وفي الفرنسي ٣٠٠ ميل للسرعة و ١٢٩٠ ميلاً للمدى و ٣٣٠٠ رطل للحمل

وأما القاذفات الضخمة البريطانية فأقصى سرعتها ٢٢٠ ميلاً في الساعة ومداها ١٣١٥ميلاً وحملها ٤٠٠٠ رطل يقابله في الالمانية ٢٠٥ أميال للساعة و ٩٩٥ ميلاً للمدى و ٨١٠٠ رطل للحمل وفي الفرنسية ٢٠٠ ميل للسرعة و ٧٥٠ ميلاً للمدى و ٩٣٠٠ رطل للحمل

ومن الواضح لمتتبع هذه الارقام ان القاذفة الواحدة لا تستطيع أن تكون متفوقة في السرعة والمدى وزنة الحمل من القنابل في آن واحد . فاذا زدت حمل الطائرة اقتضى ذلك منك ان تنقص ما تضعهُ في خزاناتها من البنزين فيقصر مدى طيرانها او تقل سرعتها . واذا أردتها بعيدة المدى وجب ان تخفف من سرعتها او من حملها . ولذلك نرى القاذفات الضخمة البريطانية أطول مدى من الالمانية وأقل حملاً بل ان حمل الالمانية ضعفا حمل البريطانية. أما الالمانية فأطول مدى من الفرنسية (٩٩٠ ميلاً للالمانية و٧٥٠ للفرنسية) ولكنها اقل حملاً كذلك (٨١٠٠ رطل للالمانية و٩٣٠٠ رطل للفرنسوية)

وعلى ذكر القاذفات الضخمة نقول ان القاذفة الاميركية المعروفة بوصف «القلعة الطائرة» تفوق في المعدل مثيلاتها الاوربية فسرعتها ٢٦٠ ميلاً (مقابل ٢٢٠ في البريطانية و٢٠٥ في الالمانية و٢٠٠ في الفرنسوية) ومداها ٢٠٠٠ ميل وهو ضعفا مدى الألمانية (٩٩٥) وأقل قليلاً من ضعفي البريطانية (١٣١٥)

ولكن حملها ٢٠٠٠ رطل وهو ربع حمل الألمانية وأكثر قليلاً من خمس حمل الفرنسية

وأحدث من «المعقل الطائر» قاذفة بريطانية ضخمة يبلغ اقصى سرعتها ٢٦٧ ميلاً في الساعة وحملها من القنابل ٤٦٠٠ رطل ومداها — وهذه الناحية تبعث على الدهشة والاعجاب — يبلغ ٣٦٠٠ ميل.وفي مجلات الطيران الفنية ان الانكليز يملكون عدداً وافراً من طرازها وان انتاج المصانع لاخواتها سابق للمواعيد المضروبة

من الشعر الانجليزي الحديث

أغنية القطيع

من رمزيات سيتويل

من خلال حظائرنا التي شيدها الجبروت ، رحنا نرقب أحزان هذا العالم في صمت ورباطة جأش

لقد عرفنا الدم المهراق،ورأينا شؤبوبه وكيف ينبثق في غيرما تهدة أوحشرجة

ورأينا ذرارينا وكيف تعلف ويرجى سمنها للخنجر المصلت في يد الناحر

في عيوننا الصافية ترقد كل خفايا الابدية وتتوارى أسرار الفراغ او العدم

واذ يترقرق في اسماعنا ثغاء الزعيم نخطر في مرح ورشاقة بجاوبين ثغاءه . فان أجفل رأيتنا في أثره كموجة متدافعة من الجنون حتى يقعد به العثار واذ ذاك نتطلع الى زعيم جديد نسير تحت امرته .

صاح خروف متلكىء في آخر القطيع « ولماذا تروعنا هذه الجزرة المجدة فننكص على أعقابنا ! ؟ »

ولكن اسراب القطيع راحت تثغو في غضب وكأنها تقول « ألا تذكر كيف ذهبنا بأقدام خالية من القذر ورجعنا بأدمغة فارغة؟ ! » إن نبل الصنيع يقتضينا الفرار ما استطعنا اليه سبيلاً »

« انا نحمي بذلك خرافاً لن تجود بمثلها البطون»

فاذاما أباح قطيع دمه فان المعز ستذكر لنا هذا القول المأثور ؟ »

. . . . . لحظة ثم هوى الراعي علينا بعصاه صارخاً مؤنباً « الى الوراء ! الى حظائركم ايها الحمقى »

[نقلها علي محمود طه]

حقيقة الفيتامين

النظريات الحديثة في طبيعة الفيتامينات وكيميائها وأهم مواردها الطبيعية

لرضوان محمد رضوان

اكتشاف الفيتامين

لاحظ كثير من المشتغلين بالاعمال البحرية ان البحارة والمسافرين في الرحلات الطويلة يتعرضون للاصابة بمرض الاسقربوط ، فيشعر الواحد منهم بالتعب الشديد ، وبآلام في الرأس والمفاصل والأطراف ، وتلتهب اللثة وتظهر بها قروح كثيرة وتتفكك الاسنان وتسقط ، ويحس المصاب بكراهية شديدة للقيام بأي مجهود . فلقد ذكر العالم الدكتور بض في محاضرة القاها سنة ١٨٤٢ أنهُ حدث أن أقلعت من انكلترا أربع سفن شراعية سنة ١٦٠٠ لغرض انشاء شركة الهند الشرقية ، فلم تمض مدة طويلة حتى أصيب بحارة ثلاث سفن منها بمرض الاسقربوط اصابة شديدة ، نجم عنها وفاة عدد كبير منهم لا يقل عن الربع قبل أن يصلوا الى رأس الرجاء الصالح، أما حالة الباقين فكانت سيئة جداً حتى أن المسافرين التجار وجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بأعمال البحارة . ومما يبعث على الدهشة هنا هوأن بحارة السفينة الرابعة التي كانت تقلُّ قائد البعثة ظلوا أصحاء ! وقد تبين ان السبب في ذلك يرجع الى أن القائد أمر لكل بحار منهم بثلاث ملاعق من عصير الليمون صباح كل يوم . ولقد سبق للكابتن لند سنة ١٧٥١ أن وجد أن هذا المرض يختفي اذا ما احتوى غذاء البحارة على الخضروات والفواكه الطازجة

ولقدكانت الحكومة اليابانية تقاسي الأمرين من جراء انتشار مرض البري بري Beri Beri بين بحارة أسطولها ، حيث يسبب هذا المرض هزال الجسم وفقدان قوة تعاون الأعضاء، فيصيبهُ الشلل وتختل وظائف أعضاء الهضم ، الى أن توصلت عام ١٨٨٢ الى علاجهِ باضافة السمك واللحم والشعير الى طعام البحارة

وحدث أن قبطاناً سافر في احدى رحلاته البحرية ومعهُ زوج من الطيور المغرّدة أهدتهُ اليهِ خطيبته ، فأخذ يعتني بها ويقدم لها أجود أنواع الحبوب المقشورة ، ولكن راعهُ ما لاحظهُ

من اعتلال صحتها يوماً بعد يوم ، الى أن انتابها الشلل فلم تعد قادرة على الحركة . فما أن رسا القبطان في أول ثغر صادفهُ حتى سارع بعرض طيوره على الاطباء ، فحار هؤلاء في كنه مرضها ولم يستطيعوا له تعليلاً . ولشد ما كانت دهشتهم حين استردت الطيور كامل صحتها حالما تناولت حبوباً غير مقشورة . ولقد حقق هذه النتيجة العالم الالماني الكبير ايكمان سنة ١٩٠٦ حين وجد أن الطيور تصاب بمرض البري بري اذا ما اقتصر غذاؤها على الأرز المقشور، ولكنها تشفى منهُ عقب تناولها لأرز غير مقشور

عزي سبب تلك الأمراض بادىء الأمر الى نقص في البروتين او النشاء ، فلقد كانت الفكرة السائدة حتى منتصف القرن الماضي أنهُ اذا احتوى الغذاء على بروتين ودهن وكربوايدرات وأملاح معدنية فهو غذاء كامل يكفل للجسم الصحة الجيدة . ولكن في سنة ١٨٨٨ وجد لينين ان الحيوانات لا يمكنها ان تعيش على مواد غذائية نقية من الناحية الكيميائية ، وانهُ عند اضافة اللبن الى غذاء البعض منها تمتع بصحة كاملة

تقدمت تلك التجارب تقدماً واسعاً عام ١٩١٢ على يد البحاثة هوبكنز Hopkins الذي كان يجري تجاربه في التغذية على الفأر ، فوجد انهُ حين يتناول هذا الحيوان مقادير كافية من البروتين والكربوايدرات والدهون والأملاح وهي نقية نقاوة كيميائية يصاب بالأمراض ويموت ولم يتمكن من حفظه على قيد الحياة الا باضافة قليل من اللبن الى تلك المركبات فلم يبق اذاً مجال للشك في ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير معروفة ضرورية لحفظ الحياة وتمام الصحة، وقد سميت تلك المواد باسم «عامل النمو» او العوامل الخارجية او الاضافية Accessory factors

ولقد حاول كثير من العلماء فصل هذه المواد نقية على اعتبار أنها مجموعة امينات Amines (ر ـــ ز يد ٢) (١) ، ولضرورتها للحياة سميت بالفيتامينات أي الامينات الحيوية . وهنا حدث التساؤل ، هل تلك العوامل هي الفيتامينات ؟ ظل الجدال قائماً حتى سنة ١٩١٤ حين تمكن باحثان اميركيان من اثبات وجود عاملين على الأقل ضروريين للنمو : الأول ذائب في المواد الدهنية والزبدة . والثاني ذائب في الماء ويوجد في القمح واللبن والجبن

ثم تبين بعد ذلك ان هذين العاملين ليسا ضروريين للنمو فحسب ، بل وجد ان العامل الأول يشفي مرض الكساح والثاني يشفي امراض البري بري والاسقربوط والبلاجرا ، وبذا قسم كل منهما الى عدة فيتامينات :

الأول	فيتامين ا	ضد امراض العيون
	فيتامين د	ضد مرض الكساح

(١) رمز ر يعبر عن مجموعة الالكيل alkyle مثل ك يد ٣ و ك يد ٣ ك يد ٢ .... الخ

الثاني	فيتامين ب	ب١	ضد مرض البري بري
		ب٢	ضد مرض البلاجرا
	فيتامين ج		ضد مرض الاسقربوط
	فيتامين د		ضد مرض العقم

وتعرف الآن خمسة انواع من الفيتامينات معرفة جيدة ويرمز لها بالحروف الافرنكية A, B C, D, E، وفيما يلي كلمة موجزة عن كل منها :

فيتامين A

اكتشفهُ ماكولم McCollum سنة ١٩١٣ وهو يعرف باسم الفيتامين ضد التهاب العين Anti-ophthalmic او الفيتامين ضد عدوى الأمراض Anti-infective وهو يكثر في الطبيعة وعلى الاخص في زيت كبد الحوت ، وذلك لأن الحيتان تتغذى بالاسماك التي تتغذى بدورها بالطحالب البحرية وهذه تحتوي على مقادير وافرة من الفيتامينات وتوجد منهُ مقادير غير قليلة في الخس والجزر والسبانخ والطماطم والبرسيم الحجازي وكذا في الزبت والجبن والقشدة. وموضعه من النبات في اوراقه الخضراء ، اما الجذور والدرنات فهي فقيرة فيه والدهون النباتية تحتوي على مقادير قليلة جداً من هذا الفيتامين وبعضها لايحتويه مطلقاً مثل زيت الزيتون ، ووجوده قليل في الفواكه والحبوب النجيلية . وهو يوجد أيضاً في اللبن وعلى الاخص لبن الام الجيدة الصحة ، ذلك ان الطفل منذ ولادته حتى الشهر الثامن يقتصر في غذائه على اللبن فقط ، فطبيعي ان يحتوي اللبن على معظم الفيتامينات والا وقف نمو الطفل وانتابتهُ شتى الامراض

ولقد ثبت اخيراً ان مايقرب من تسعة أعشار هذا الفيتامين موجود في الكبد، فاذا حرم منهُ شخص ما خرج الجزء المخزون في الكبد تدريجيًّا لمعادلة الجزء المفقود من الانسجة ، فاذا استمرَّ هذا الحرمان هلك الشخص وقضى اذ تتسلط على جسمه جراثيم الامراض الفتاكة نتيجة لفقدانه المناعة التي تكتسب بوجود هذا الفيتامين . ولقد ذكر الاستاذ ميلاني في احدى تجاربه انهُ كان يعطي ٢٧٥ سيدة حاملاً محلولاً يحتوي على خلاصة الفيتامين وذلك في الاسابيع الاخيرة من الحمل . فكانت النتيجة ان السيدات اكتسبنَ مناعة ضد الامراض المعدية فلم تحدث بينهنَّ أية وفاة وتبين ان جسم الحيوان قادر على ان يخزن هذا الفيتامين في اعضائه التي يخزن فيها الدهن حين تزيد مقادير الفيتامين عن حاجته ، ولقد تمكن احد العلماء سنة ١٩٢٧ من استخلاص محلول مركز من كبد الحيوانات الثديية وانتشر استعمال هذه الخلاصة في الدوائر الطبية تحت اسم Avoleum .

فقد فيتامين A من الطعام يسبب أعراضاً مختلفة لأمراض كثيرة ، فتلتهب العين وتفقد قوة الابصار اثناء الليل ، وتتلف الغدد المفرزة للدموع ، ويتصلب الغشاء المخاطي في القصبة الهوائية والقناة الهضمية والمسالك البولية والتناسلية ، ويتعرَّض الجسم للانفلونزا والزكام فضلاً عن هجمات الميكروبات والجراثيم المعدية وبذا يضعف الجسم فتقل مقاومته ويقف نموه . كما وجد ان مرض البيوريا الذي يتلف اللثة ويؤثر في سلامة الاسنان سببه في كثير من الحالات نقص هذا الفيتامين

يذوب فيتامين A في الكحول وهو قابل للذوبان في الدهون fat soluble ، ويتأثر بالحرارة الاَّ ان درجة تأثره تتوقف على ظروف البيئة التي قد يوجد بها . فهو يتحمل التسخين في درجة الحرارة العادية ولكن يتحلل اذا عرّض لحرارة فوق ١٠٠° سنتجراد . وهو سريع التأكسد في الجو العادي ، فاذا سخن حتى تبلغ حرارتهُ درجة عالية في مجال مفرغ من الهواء امكن ان يحافظ عليه وخصوصاً اذا ما استبدل الاكسجين بغاز الازوت

ويظن ان مادة الكاروتين (ك ٤٠ يد ٥٨) الموجودة في الجزر لها نفس تأثير الفيتامين في شفاء بعض امراض معينة ، وقد يرجع السبب في هذا الى ان الكاروتين يتحول في الكبد الى فيتامين A.

فيتامين B_1

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض البري بري Anti Beri Beri أو الفيتامين ضد مرض الأعصاب Anti neuritic ويكثر وجوده في الخميرة Yeast وكذا في الحبوب الكاملة والبسلة والقمح والذرة والأرز والشوفان وصفار البيض ، وتوجد منهُ مقادير مناسبة في الهليون والفول والجزر والقرنبيط والخس والبطاطس والسبانخ والطماطم الطازج واللفت وايضاً في التفاح والموز والبلح والعنب والليمون الهندي والبرتقال والأراسيا والأناناس ، ولا يخلو المخ والكبد واللبن من بعض مقادير منهُ . وهناك مستحضر طبي من الخميرة يعرف باسم Marmite يحتوي على مستخلص مركز منهُ

يسبب نقص هذا الفيتامين في الطعام أو عدم وجوده أمراضاً جلدية وعصبية، وكانت أولى المشاهدات في هذا الصدد في بعض جهات آسيا حيث كان السكان يقتصرون في غذائهم على الأرز المقشور فقط ، فأصيبوا بمرض البري بري ، فلما أن درس ستانتون وفريزر Stanton & Fraser هذا المرض وجدا أن سببه يرجع الى عدم احتواء الطعام على مقادير كافية من فيتامين B 1. وهذا المرض معروف في الهند واليابان وسيلان

والطيور تتأثر جدًّا بفقدان هذا الفيتامين اذ يتأثر جهازها العصبي فتفقد الشهية ويضطرب الهضم ويقف النمو ثم يحل بها الشلل فتموت . واذا أعطيت الطيور المصابة قليلاً من الفيتامين بأن

يجعل طعامها أرزاً غير مقشور أو نخالة ، فانها تسترد صحتها بعد مدة وجيزة من الزمن . ولما كانت الحيوانات لا تستطيع اختزان هذا الفيتامين في جسمها ، لهذا كان من الضروري موالاتها دائماً به

هذا الفيتامين يذوب في الماء ، وهو يتأثر بالحرارة تبعاً لظروف البيئة التي يوجد بها إن كانت حمضية أو قلوية أو متعادلة ، فمثلاً نجد ان المواد الغذائية الطبيعية كالحبوب تفقد هذا الفيتامين عند تسخينها الى درجة حرارة ١٢٠° سنتجراد لمدة نصف ساعة او اكثر في وسط حمضي ، بينما يفقد الفيتامين عند ١٠٠° سنتجراد اذا كان الوسط متعادلاً أو قلويًّا نوعاً ما ، وفي الجدول الآتي توضيح هذا

قيمة رقم PH (درجة القلوية او الحموضة)	النسبة المئوية للفقد
٢٨ر٤ — ٢٠ر٥	١٠
٩ر٧	٣٠
٣ر٩	٦٠—٧٠

فيتامين B 2

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض البلاجرا anti-pellagric ، ويكثر وجوده في الخميرة واللحوم والكبد وكذلك في البنجر الاخضر والبطاطس والسبانخ واللفت الاخضر والجزر والكرنب والطماطم ، ومن المواد الحيوية يوجد في البيض واللبن والسمك

ويسبب نقص هذا الفيتامين او عدم وجوده ظهور أعراض مرض البلاجرا ، فتحدث الاضطرابات الداخلية ، ويتبقع الجلد ، ويلتهب الفم واللسان ، هذا ويختل المجموع العصبي وتضطرب الاعصاب العقلية

ولا تؤثر الحرارة مطلقاً على هذا الفيتامين ، لذلك لا تفقده المواد الغذائية حين تسخينها ما عدا جزء ضئيل يفقد في الماء اثناء عملية السلق Scalding ، وهو لا يتأثر بقلوية المحاليل او المواد التي يوجد او يعامل بها

فيتامين C

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض الاسقربوط Anti Scorbutic ، ويوجد بغزارة في الخضراوات وعصير الطماطم وعصير الليمون الأضاليا والبرتقال ويوجد منهُ مقادير لا بأس بها في الكرفس واللفت والخوخ والأناناس والشليك واليوسفي ، ويوجد أيضاً في الفول المطبوخ والتفاح والبنجر والموز والعنب والخيار والبسلة المطبوخة والفلفل الأخضر والليمون الهندي والبطاطس والقرع العسلي والكمثرى والذرة السكرية واللفت الأخضر والبطيخ والبصل واللبن

نقص هذا الفيتامين في الطعام يسبب مرض الاسقربوط ، فيتحلل كلسيوم العظام وتدمى

المفاصل والاطراف والعضلات ، وتفقد الشهية ، وينقص الجسم في الوزن مع ظهور علامات التعب المستمر عليهِ

يذوب فيتامين C في الماء ويتلف اذا سخن لدرجة قريبة من درجة الغليان اذ يفقد منهُ نحو ٩٠٪ وهو يحتفظ بطبيعتهِ في المحاليل الحمضية اكثر من القلوية او المتعادلة ولا يتأثر بالاشعة فوق البنفسجية اذا روعي حفظه من التأكسد في اثناء تعريضه للاشعة ، كذلك لا يتلف اثناء التخمر الكحولي بواسطة الخميرة او بواسطة الاحياء الدقيقة الاخرى مثل بكتيريا الحمض الخليك واللاكتيك

ومن المشاهد ان عمليات الطبخ المنزلي تسبب قتل هذا الفيتامين ، ويرجع السبب في ذلك الى ارتفاع درجة الحرارة عند التسخين والاكسدة . ويمكن الاحتفاظ بهذا الفيتامين في بعض انواع المواد الغذائية المجففة اذا ما أجريت عملية التجفيف في وعاء مفرغ من الهواء ، وحبذا الحال لو عرضت المواد الغذائية المراد تجفيفها لأبخرة ثاني أكسيد الكبريت فان هذا يساعد على الاحتفاظ بمقادير أوفر من الفيتامين خصوصاً اذا عوملت تلك المواد بمحلول قلوي درجة تركيزه ٣٪ اذ ان هذا يساعد على اكتساب الفاكهة مقادير اكثر من غاز ثاني اكسيد الكبريت وبالتالي لا يتعرض الفيتامين للفقد

فيتامين D

يعرف باسم الفيتامين ضد الكساح او ضد نحافة العظام anti racbitier ويوجد بغزارة في زيت كبد الحوت وكذا في صفار البيض وفي بعض انواع السمك وتوجد مقادير مناسبة منهُ في الزبدة واللبن الكامل وبعض الخضراوات . ولقد كان يظن اولاً ان هذا الفيتامين هو فيتامين A ، حين شاهد فونك Funk ان امراض الكساح وضعف العظام سببها مادة تشبه فيتامين A ، ثم تمكن ميلانبي Mellanby من ان يفرق بين هذين الفيتامينين وأيده في ذلك كثير من الباحثين

يؤدي نقص هذا الفيتامين من الطعام الى لين العظام والكساح فيتضخم الكوعان والعقبان وتبرز الجبهة ويتغير شكل الصدر ويعوج الساقان وتنحل الاسنان ويقل مقدار عنصري الكلسيوم والفوصفور في الدم والعظام عن المقادير الضرورية وينتاب الاعصاب ضعف عمومي

يذوب فيتامين D في الدهون ويقاوم فعل الحرارة والاكسدة مقاومة كبيرة ولهذا فان وجوده في بعض انواع المواد الغذائية الطازجة يبقى كما هو عند حفظها في العلب الصفيح

فيتامين E

يعرف باسم الفيتامين ضد العقم anti sterility ويعتبر الخس أغنى مورد طبيعي لهذا الفيتامين كما يوجد في البرسيم الحجازي والشعير والفول والعسل الاسود والقمح الكامل والشوفان والارز الكامل وكذلك في اللحوم

عدم وجود هذا الفيتامين يقلل من درجة الاخصاب وقد لا يتمكن الذكر او الانثى من تأدية عملية التناسل . وهو لا يتأثر بالحرارة او الهواء

طبيعة الفيتامينات

طبيعة الفيتامينات لا تزال مجهولة الى الآن ، ولكن يستدل على وجودها بامكان فصلها من المواد الغذائية الطبيعية باستخدام طرق كيميائية وتركيزها بالامتصاص او التقطير او التجفيف البسيط ، وتدرس الفيتامينات من جهة وجودها وعدمه بطرق حيوية خاصة وذلك باجراء التجارب على الفيران او الارانب الرومية المسماة Guinea pigs فتعطى مادة غذائية تحتوي على جميع الفيتامينات ما عدا الفيتامين المطلوب معرفة تأثيره

وان أحدث ابحاث العلماء تشير الى ان الفيتامينات تشبه في طبيعتها الهرمونات أي العصارات التي في داخل الجسم مثل عصارة البنكرياس — فهي صغيرة في الوزن الجزيئي مثلها . وقد وجد اخيراً ان فيتامين D مركب مماثل لمادة الارجسترول Ergosterol[1] اذ ثبت انهُ بتأثير الاشعة فوق البنفسجية في هذه المادة يمكن الحصول على فيتامين D ولقد ادعت بعض المعامل في السنين الاخيرة انها تمكنت من استخلاصه بحالة نقية وتبيعهُ تحت اسم Vigntol . وهناك رأي يعتبر الفيتامينات مواداً نباتية الاّ انه يعترض على هذا الرأي بأن الارجسترول — او اي سترول مماثل له — يصلح لان يتحول الى فيتامين C صناعيًّا بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، سواء وجد في انسجة نباتية او حيوانية

كيمياء الفيتامينات

لاشك انه يوم سعيد في تاريخ العلم ذلك اليوم الذي يتمكن فيه العلماء من كشف وتحضير الفيتامينات ، وكل ما امكن معرفته الآن هو كيمياء فيتامين A و C

﴿ كيمياء ڤيتامين A ﴾ : قام « ستينبوك » بتحضير مستخلصات كثير من المواد الغذائية وبعض النباتات ابتغاء تقدير مقادير فيتامين A فيها ، فوجد أن هذا الڤيتامين لا يوجد الاّ في النباتات التي تحتوي على مادة الكاروتين ، فكان من الطبيعي أن يفهم أن هناك علاقة بينهما ، لهذا قام ببحث مادة الكاروتين على حدة ومعرفة تأثيرها الطبي فوجد ان لها نفس تأثير ڤيتامين A وقام بعد ذلك « دراموند » وأعاد تجربة ستينبوك ولكنهُ تحصل على عكس النتائج السالفة ، فعلل هذا الأمر بأن الكاروتين الذي استعمله ستينبوك لا بد وان يكون مشوباً بمواد غريبة . قبلت الدوائر العلمية هذا الرأي وسارت عليه حتى سنة ١٩٢٧ حيث قام العالم الكبير « فون يولر »

(١) مركب عضوي يحتوي على ٢٧ — ٣٠ ذرة كربون مع مركب من كحول وجزيء ايدروكسيد واحد ورمزه ك ٢٨ يد ٤٤ ا

ووفق بين هذين الرأيين ، فابتدأ بتحليل الكاروتين الخالي من فيتامين A — وهو الذي استعمله دراموند في ابحاثه — فوجد انها لا تعطي التأثيرات الطبية التي يعطيها فيتامين A ، ثم عرف ان السبب في ذلك يرجع الى ان ذلك الكاروتين لا يحتوي على فيتامين D الذي يجب ان يكون مختلطاً مع فيتامين A حتى تتحصل على النتائج الطبية المطلوبة . ازاء هذا جرب اضافة فيتامين D الى نفس الكاروتين فسرعان ما حصل على نتائج مرضية

لم يقبل العلماء هذا الرأي وكانت حجتهم في ذلك أن زيت كبد الحوت — وهو مصدر غني بفيتامين A — لا يحتوي على شيء من الكاروتين ، وكانت هذه الحجة قوية لولا ان «مور» أثبت أن الكبد يفقد الفيتامين المخزون فيه اذا حرم الحوت من غذاء يحتوي على الكاروتين ، فاذا ما اضيف اليه ثانية زادت نسبة الفيتامين زيادة محسوسة . لهذا أعلن مور « ان الكاروتين هو المادة الأساسية المكونة لفيتامين A وهي التي يقوم الحيوان بتحويلها في جسمه الى الفيتامين »

تطور الأمر اذاً الى البحث عن تركيب الكاروتين ، فوجد ان هذه المادة عبارة عن مخلوط لبضع مركبات متشابهة اعطيت اسماء كاروتين A, B, C ... على التوالي ولقد أمكن للمعهد العلمي بزيوريخ ان يثبت ان كاروتين B عبارة عن ايدروكاربون Hydrocarbon غير مشبع ، ووجد ايضاً أن مركبات الكاروتين مثل الاكسيد oxide والايدروكسيد Hydroxide يمكنها ان تقوم بنفس العملية

اتبعت طريقة التصبن saponification في فصل وتحضير فيتامين A ، وكيفية ذلك ان تصبن زيوت كبد الحوت ثم تفصل المادة غير المتصبنة وتنظف من الشوائب بالتبريد . فالمادة المتبقية تحمل لوناً أصفر وهي مادة لزجة يمكن تقطيرها دون تحليل اذا جعلت تحت ضغط منخفض في درجة ١٣٧ — ١٣٨° سنتجراد ، وتبين أن هذه المادة تشبه كاروتين B . وقد نشر العالمان كار وبريس سنة ١٩٢٦ طريقة خاصة لكشف فيتامين A بواسطة ثالث كلورور الانتيمون ، ولقد اتبعت هذه الطريقة مدة ثم ظهرت لها عيوب عديدة اوقفت استعمالها اذ شوهد أن اللون الناتج من الفيتامين غير ثابت ، كذلك وجد أن هناك بعض المواد يمكنها اعطاء نفس اللون مع ثالث كلورور الانتيمون ، ثم أمكن للاستاذ روزنتال ان يحسّن في هذه الطريقة بحيث جعلها ملائمة لكشف الفيتامين فاقترح ان يسخن محلول الفيتامين مع محلول كاتيكول Catechol وثالث كلورور الانتيمون في كلوروفورم نقي جاف فانه يتكوّن لون أزرق يتغير بسرعة الى لون احمر بنفسجي ثابت

وتتلخص الطريقة العملية في اخذ نموذج الزيت المراد معرفة احتوائه للفيتامين ، ثم يذاب في مقدار من الكلوروفورم النقي ثم يؤخذ مقدار ١ — ٢ سم من هذا المحلول في انبوبة اختبار ويضاف اليه ١ سم من الكاتيكول و ٢ — ٣ سم من محلول كلورور الانتيمون ثم يسخن المزيج في حمام مائي على درجة ٦٠° سنتجراد لمدة دقيقتين فيظهر اللون الأزرق ثم يتحول بالتسخين

الى لون احمر بنفسجي داكن . واللون الناتج بهذه الطريقة يتناسب تناسباً طردياً مع حجمه ولذا استخدمت في تقديره كميا . وهذه التفاعلات لا تحدث اذا عرض محلول الفيتامين للاشعة فوق البنفسجية وكذا اشعة X ، ولكن ظهر ان الارجسترول يعطي هذا التفاعل انما ينعكس ظهور الألوان ، بمعنى ان يظهر اللون الاحمر اولاً ثم يتحول الى اللون الأزرق ، أما اذا عرّض الارجسترول لفعل الأشعة فانهُ يتحول الى فيتامين D وبذا لا يعطي التفاعل

﴿ كيمياء فيتامين C ﴾ وجد العالم زلفا ان فيتامين C ذو وزن جزيئي يشبه الوزن الجزيئي للسكر السداسي (الهكسوزس) وفي الوقت نفسه تمكن العلامة كنج من تحضير محلول مركز من الفيتامين من عصير الليمون بطرق بسيطة وأثبت انها عامل مختزل قوي وفي سنة ١٩٣٢ امكن فصل الفيتامين على صورة متبلورة ووجد ان تركيبه الكيميائي ك٦ يد٨ ا٦ ويرجع الفضل في هذا الى العلامة Szent Gyorgiy ولقد سمي المستخلص في بادىء الامر Hexuronic acid ولكن عاد ثانية فسماه ascorbic acid لأن الاول يزيد جزيئاً من الماء عن الثاني

واما فيتامين D فقد استخلص على هيئة بلورية نقية سنة ١٩٣١ وقد ثبت ان جراماً واحداً من هذا المستحضر يوازي عشرين طناً من الزبدة في تأثيره . ومن التجارب العديدة على الفأر وجد ان المقادير الضرورية من الفيتامين اللازمة لافراز كالسيوم العظام هي ٢٥ × ١٠ ـ٦ جراماً في اليوم الواحد

ويحضر فيتامين D بتأثير الاشعة فوق البنفسجية على مادة الارجسترول — وهي مادة بلورية — فتفقد تبلورها ثم تتكون مادة صفراء تحتوي على الفيتامين ، ولقد تمكن رمزنهين ان يحضر بهذه الطريقة مادة فعالة جداً في شفاء الكساح اذا أعطيت للمرضى بمعدل ١ : ١٠٠٠٠ من المليجرام

ما لاكتشاف الفيتامينات من شأن علمي

رأينا ما لوجود الفيتامين في الطعام من شأن خطير ، وعلمنا كيف ان فقدها يسبب امراضاً خطرة ولهذا اتفق العلماء والاطباء على انهُ لا يكفي للحكم على قيمة غذاء ما بما يحتويه من مجهود او عناصر البناء ، بل لا بدّ من ادخال الفيتامينات في التقدير

ولقد بدأت الامم تعنى باختيار الغذاء الكامل عناية قصوى ، ذلك ان العامل في مصنعه والجندي في معترك القتال لن يستطيع ان يؤدي واجبه على وجه الأتم الا اذا كان صحيحاً خالياً من الأمراض ، وجسم الانسان ما هو الا آلة لتوليد الحرارة والحركة ولا بدّ له من وقود ليسير بانتظام ، وما وقوده الا الغذاء الصحي اللازم لبناء الجسم ، ويستطيع كل فرد منا ان يحصل على كفايته من الفيتامينات بسهولة بأن يستمد غذاءه من مواد متعددة ، ولقد ذكرنا في صلب المقال الموارد الطبيعية — الكثيرة الوجود — لكل فيتامين . فعسى ان نكون قد ادينا بهذا خدمة لبني وطننا العزيز

بين المد والجزر

لايليا ابو ماضي

سيّرت في فجر الحياة سفينتي   واخترت قلبي ان يكون امامي
فجرَت على الامواج قصراً من رؤى   ملء الفضا ملء المدى المترامي
وأقلّ منها البحر حين اقلّها   دنيا من الاضواء والانغام
ومشى الخيال على الحياة بسحرهِ   فاذا الهوى في الماء والانسام
واذا الرمال ازاهرٌ فواحةٌ   والشط هيكل شاعرٍ رسام
واذا العباب ملاعب ومراقصٌ   واذا انا من صبوة لغرام
أتلقف اللذات غير محاذرٍ   وأعبّ في الزلات والآثام
لا اكتفي واخاف اني اكتفي   فكأنما في الاكتفاء حمامي
وكأن هديي ان تطول ضلالتي   وكأن ريّي ان يدوم اوامي
مرّت بي الاعوام تتلو بعضها   وانا كأني لست في الاعوام
كالموج ضحكي كالضياء ترنحي   كالفجر زهوي كالخضم عرامي
حتى اذا هتف المشيب بلمّتي   ودنت يد الماحي الى أحلامي
صرخ «الحجى» بي ساخطاً متهكماً   « هذا الغنى شرٌّ من الاعدام»
« حتى متى تمشي بغير نظام ؟   حتى متى تمشي لغير مرام ؟»
« اسلمتني « للقلب» وهو مضللٌ   فاضرّني واضرك استسلامي»
« يا صاحبي أطلقني من سجن الرؤى
أنا تائه !
... أنا جائع !
... ... أنا ظام

***

واراد عقلي ان يقود سفينتي   للشط في بحر الحياة الطامي

فطويتُ أعلام الهوى وهجرتها ... ونسيت حتى انها أعلامي
وحسبت آلامي انتهت لما انتهى ... فاذا النهاية أعظم الآلام
واذا الطريق وساوس ومخاوف ... واذا أنا من هبوةٍ لقتام
أبغي الثراء ولم يكن من مطلبي ... وأرى الجمال بناظرٍ متعام
وأشيد مثل الناس مجداً زائفاً ... واشد حول الروح ثوب رغام
فاذا انا ــ والارض ملكي والسما ــ ... قدصرت عبدالناس،عبدحطامي
فتضايق القلب السجين وقال لي ... « يا أيها الجاني قتلت هيامي !
« القفر بالاحلام روضٌ ضاحكٌ ... فاذا تلاشت فالرياض موامي»
« اين العيون تذيبني حركاتها ... وتموت في سكناتها آلامي »
« وأطل من أهدابها السكرى على ... ظلٍّ وانداء وزهرٍ نام »
« لما عصاني ان اشب ضرامها ... اعيا عليها ان تشب ضرامي»
« الخمر ملء الجام لكن قد مضى ... شوقي الى الخمر التي في الجام »
« أسلمتني للعقل فهو مضللٌ ... فأضرني وأضرَّك استسلامي»
« انظر ألست تراك في اوهامه ... أشقى وأتعس منك في أوهامي»
« المال ؟ من ذا يشتريه كله ... مني ببليل صبابة وغرام »

« يا صاحبي اطلقني من سجن النهى

أنا تائهٌ !

انا جائعٌ !

انا ظامي ؟

***

لا تسألوني اليوم عن قيثارتي ... قيثارتي خشبٌ بلا انغام !

دراسة علمية

اللجلجة في الكلام

أسبابها وعلاجها

للآنسة زينب الحكيم

إن لكل قاعدة شواذ ، فاذا كان قد ثبت ان الناس يستخدمون أيديهم اليمنى من قبل التاريخ بشكل جلي مؤثرينها على اليد اليسرى ، فليس معنى هذا انك لا تجد من الناس من يستخدم يسراه شذوذاً على هذه القاعدة . ومن حسن التوفيق ان هذا الشذوذ لا يؤثر في أصحابه في شيء ما خصوصاً اذا تركوا لسجيتهم ، أما اذا صادفهم ملاحظات على شذوذهم من أصحابهم فان ذلك يخجلهم وينشأ لهم بسببه مصاعب في نموهم الطبيعي

والآن وقد تغيرت وجهة البحث العلمي ، في السنوات الماضية تغيراً جوهرياً في فهم أسباب اللجلجة في الكلام وطبيعتها وعلاجها ، فنعلم اذن ان اللجلجة ليست عادة نشأت في المتلجلج ، ولا مجرد حالة عصبية ، وليست علامة لاضطراب او تهيج عقلي او عاطفي نشأ عن خوف أو حياء ، ولا هي مسببة عن سوء تكوين عضلات النطق

ونشك في ان التقليد وحده ينتج لجلجة حقيقية (ولكنه قد ينتج التلعثم واللثغة وغيرذلك)

وانما نفهم الآن ان اللجلجة نفسها لا تورث ولكن الذي يحتمل وراثته هو ميل عضوي سابق معرض لعدم النظام . والمرانة الصحيحة وفق طبيعة الطفل ، هي التي تمنع هذا الميل السابق من التحول الى اللجلجة

والتمرين الخاطيء المضاد لفطرة الطفل مع عوامل اخرى هو الذي يمكن ان ينتج اللجلجة في طفل ليس لهُ استعداد لأي وراثة مهمة او ميل سابق لها ، فضلاً عن طفل قابل للتأثر

على الرغم من عدم انتظام كلام المتلجلجين ، نقدّر أنهم خلقوا عاديين كباقي الافراد ، ونستنتج ان هذا النقص فيهم له اسبابه — فاذا كشفوا لنا عن نقائص اخرى فيهم الى جانب اللجلجة ، ومن المحتمل كثيراً ان يفعلوا ، فان ذلك يكون من قبيل الاشياء التالية : —

١ — ضعف في قدرتهم على القراءة الصامتة ، وربما كان ذلك في الهجاء ايضاً
٢ — يتملكهم حياء شديد يفوق درجة الحياء في الافراد العاديين
٣ — يكونون قلقين على الدوام ، ويبدو عليهم شعور قوي بخور في العزيمة
٤ — يلاحظ عليهم انقباض نفس في معظم اوقاتهم

قد يظن ان هذه الاشياء هي اسباب اللجلجة ، ولكن الواقع انها نتيجة اللجلجة ، التي تسبب قصور المتلجلج وتوقعهُ تحت ذل التلجلج ، فتبدو عليه كما لحظنا في حالة الطفل (محمد) — الذي تكلمنا عنه في المقال السابق — .فقد كان خلواً من كل ما اصابه قبل ان يظهر التلجلج عليه

ومن الثابت أن متوسط ذكاء المتلجلجين ، مساوٍ لنسبة ذكاء المتكلمين العاديين ، وقد لوحظ على طلبة الجامعات المتلجلجين ، أنهم أظهروا ذكاء عالياً علوًّا محسًّا

واذكر هنا بعض أمثلة ممن ارتج عليهم عندما ارتقوا منابر الخطابة ، لأني اعتقد ان أشباه هؤلاء من النوع الذي يدل استخدام احدى يديه بالاخرى ، وتغلب على اللجلجة فصار خطيباً مفوّهاً وفق استعداده الاصلي ، على الرغم من صعوبة التغيير التي لا بدّ قد صادفتهُ ، وتغلب عليها بقوة إرادته . أرتج مرة على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال « انكم الى أمير فعّال أحوج منكم الى أمير قوّال » . وارتج مرة على يزيد بن المهلب ، فلما نزل قال : —

فان لم أكن فيكم خطيباً فأنني بسيفي وان جدّ الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلت هذا على المنبر لكنت أخطب العرب

على أني لا أظن ان يزيداً هذا كان يستطيع استخدام سيفه بنجاح كما توهم اذ أعلم ان أحد مشاهير الجراحين بأوربا ، يستطيع استخدام كلتا يديه ، ولكن هذه الميزة كثيراً ما أربكته وهو يقوم بعمل عملية خطيرة ، إذ يحار بأية اليدين يعمل . (ولعله لا يغيب عن فطنة القارىء ان هذا الجراح مهما ينجح في استخدام كلتا يديهِ استخداماً متساوياً ، فان ارتباكه في تقديم إحدى اليدين حين ينشغل الانتباه بالعناية بالعملية مؤكد ، لان الطبيعة الأصلية تبدو آثارها في غفلة الوعي بالنسبة لليدين وتسبب التردد بينهما) . ومن المهم جدًّا ان أذكر في هذا الصدد ان بعض العلماء المهتمين بدراسة هذه المسائل فحصوا كثيرين من المسجونين في جهات مختلفة ، فلم يجدوا بينهم من يستخدم كلتا يديه حتى صدور أحدث التقارير التي اطلعت عليها

أظن ان السبب في ذلك لا يحتاج الى شرح كثير ، فان المجرم المصر على ارتكاب جريمته ، انما يعتمد على تنفيذ عمله في غير تردد ، فهو لذلك يعتمد على استخدام أعضائه ولا سيما يده وفق استعداده الفطري ، وهذه حال لا تسمح لاحدى اليدين بالاعتداء على الاخرى في استعدادها الطبيعي ، لضرورة انفاذ العمل بغير تردد

من الغريب ان نرى ، ان نسبة المتلجلجين الذين في سن طلبة المدارس العالية ومدارس المعلمين تساوي نسبتهم في تلاميذ المدارس الاولية ، وهنا نؤكد ان اللجلجة انما تمو في اكبر عدد من التلاميذ قبل التحاقهم بأول فرقة بالمدرسة .

لقد كان يظن ان المتلجلجين أقلية نادرة ، ولا يزال هذا الزعم سائداً ، ولكننا تثبت هنا ان المتلجلجين يبلغون واحداً في المائة على الاقل من سكان كل قرية ، وفق ما اثبتتهُ لنا أحدث التقارير في هذا الباب . والرأي السائد ، هو ان اللجلجة ليست عيباً خطراً ، ولكننا نعلم ان اكثر من واحد في كل أربعة متلجلجين يتعرض للتجربة الخطرة وهي تجربة الانتحار . في حين أن نسبة من يتعرض للتجربة نفسها من المتكلمين العاديين ، تبلغ واحداً لكل سبعة . كما ان اللجلجة تعوق تقدم الاولاد الذين في سن الحادية عشرة نحو سنة مدرسية عن أقرانهم غير المصابين بها . ونلاحظ أن المتلجلجين يميلون ميلاً شديداً الى الاعمال التي تستدعي كلاماً كثيراً ، ولا يخفى ما ينتج عن هذا من ضياع فوائد كثيرة عليهم وعلى المجموع ، فان كثيراً منهم لا يعملون العمل الذي يوافق فطرتهم بسبب هذا النقص

ومما يروى عن « ديموستينس » اليوناني ، انهُ أصيب بأحد عيوب الكلام ، ولكنهُ كان خطيباً بالفطرة ، فضاق صدره ولم ينطلق لسانه ، فجاهد جهاد المستميت حتى تغلب على هذا العيب بعد قضاء الوقت الطويل في وضع الحصوة تحت لسانه تارةً ، وأخرى بالذهاب الى شاطىء البحر وتمرين صوته وفق علو صوت الامواج وانخفاضها ، وهو وان كان قد انزوى عن العالم طويلاً ، الاّ انهُ صار خطيب اليونان المفوَّه . وكذلك كان الحال مع « تالمج » الاميركي

ومما يروى عن واصل بن عطاء ، انهُ كان أقبح الناس لثغةً بالراء . حدثنا عنه « المبرد » في كتابه الكامل فقال : « كان واصل أحد الاعاجيب ، وذلك انهُ كان قبيح اللثغة في الراء ، ولا يفطن لذلك . . . لاقتداره على الكلام . وقال أبو الطروق الضبي الشاعر المعتزلي يمدحهُ باطالة الخطب واجتناب الراء على كثرة ترددها في الكلام حتى كأنها ليست فيهِ فقال : —

عليم بابدال الحروف وقامع لكل خطيب ، يغلب الحق باطله

وقال آخر : ويجعل البرَّ قمحاً في تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق ، والقول يعجله فعاد بالغيث اشفاقاً من المطر

كل هذا ، وكثير من اشباهه ، أدى الى استنباط طرق لمعالجة النقائص الكلامية كما يأتي : —

(١) التمرن على نطق الكلمات ، وبسط الذراعين وتردادهما حين التكلم (٢) التكلم بغير تكلف ، والتكلم بسرعة او ببطء (٣) الاستخفاف بالحروف المتحركة ، وتشديد الصوت على الساكن (٤) التكلم مع انطباق الاسنان العليا على السفلى (٥) التكلم مع وضع حصوة صغيرة تحت اللسان

(٦) استعمال تمارين التنفس، وملاحظة الهدوء والتؤدة في أثناء الكلام مع ملاحظة تشطيب الجمل
(٧) استعمال قوة الارادة الى أقصى حد ممكن لاخراج الكلمات دون لجلجة متناسين هذه اللجلجة

ظلت هذه الطرق تستعمل أعواماً عديدة ، ولكنها لم تؤد الى نتائج مرضية الا في حالات نادرة ، مما دعا بعض العلماء الى البحث والتنقيب ، وبعد عشر سنوات انقضت في الفحص العلمي الدقيق والدراسة الفنية المتقنة لهذه الطرق العلاجية السالفة الذكر ، وصلنا الى عدم صلاحيتها اذ ثبت أنها استعملت عند ظهور علامات اللجلجة ، فأخفت الكثير منها ، مما سبب التواء المشكلة ، وصار علاجها ملتوياً أيضاً ، ولو انها تركت على طبيعتها ، لظهرت جميع علاماتها التي قد تساعد كثيراً على اختيار أمثل الطرق للعلاج . وليكن في علمنا ، أن الطرق التي لا ترمي الى استئصال جذور المرض ، وتنقية أدران المشكلة ، وترد الحالات الكامنة الى سيرها الطبيعي وحالتها الخلقية ، لا يمكن أن تؤدي الى علاج تام دائم مأمون العواقب . اذاً ماذا اكتشفهُ العلم من اسباب اللجلجة وعلاجها عن طريق الدراسة المتقنة ، والطرق العلمية الجازمة ؟!

لكي نفهم هذا ، لامناص لنا من القاء نظرة عاجلة عامة على الآلية الكامنة للكلام الطبيعي الصحيح في الانسان . والنقاش الآتي مؤسس على ما نعلمهُ الآن من علم دراسة الاعصاب ، الذي هدانا كثيراً الى فهم هذه النظريات وأشباهها . كما استوثقنا من صحة ماذهبنا اليهِ من مذهب ، وبالاطلاع على الدراسات العلمية العملية ، التي قام بها الدكتور «لي ادوارد» في احدى جامعات اميركا ، وغيره كثيرون ممن أجروا التجارب في اوربا في الموضوع ذاته

قدمنا أن علم دراسة الاعصاب ساعدنا كثيراً على فهم هذه النظريات ، ولما كانت مسألة التكلم او مشكلة المتكلم تتوقف اكثر ما تتوقف على الجهاز العصبي ، فلننظر الى بعض الخلايا العصبية في الشكل رقم ١ . فنرى أن أغلبها وان اختلف بعض الاختلاف في الشكل ، يتحد في التركيب ، اذ كل خلية تتركب من جسم الخلية المحتوي على النواة ، ومن المحور الممتد منها ، ومن الاعصاب الدقيقة التي من الوصلة او العصب الذي يوصل التيار العصبي المنبعث من جسم الخلية الى وصلة خلية أخرى . وهذه الخلايا هي التي تتكوَّن منها مراكز الجهاز العصبي (هو المخ والحبل الشوكي) وهي التي تنقل آثار الانفعال من المراكز العصبية الى سائر أعضاء الجسم . وهذه هي الاعصاب او الجهاز المحيطي لمراكز الجهاز العصبي

كل تيار عصبي تحمله هذه الخلايا مستعد لان يسير في العضل الذي يناسبهُ . ولما كانت اعضاء التكلم العاملة ، هي العضلات ، فاعلم ان هناك مئات من هذه العضلات متباعدة بعضها عن بعض ، ومع ذلك يجب ان تتحرك جميعها بعضها مع بعض بضبط دقيق جداً حالما يتكلم نحو مائتي كلمة في الدقيقة . خذ اللسان مثلاً ، واشطره نصفين من طرف الى طرف طولاً ، تر ان

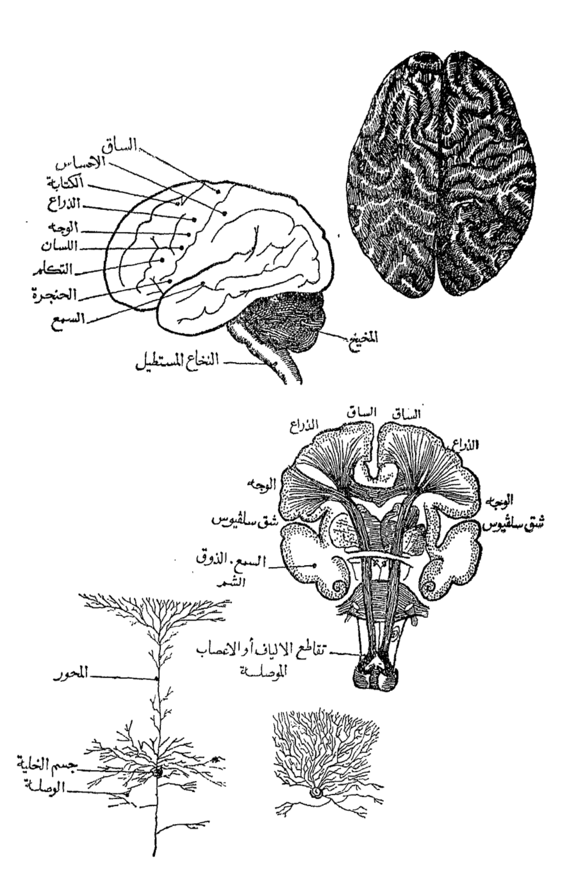
كل نصف عضل قائم بذاته ، اي أن اللسان عضو فردي مكون من عضلين منفصلين ، يعملان معاً كعضل واحد ، والجانب الاكبر آلة التكلم مكون على هذا النمط أي من أزواج ، يجب ان تتحرك بعضها مع بعض بفضل ما يصل إليها من تيارات عصبية بتلك الخيوط الدقيقة المتفرعة من جسم الخلية العصبية المكونة للشبكة العصبية

فإذا تتبعنا سير خيط واحد من هذه الخيوط ، رأينا انهُ يتحد مع خيوط اخري عصبية ليكوّن مراكز عصبية كبيرة. ويمكنك إرجاع هذه الشبكة او ردّها إلى أصولها في نخاع العمود الفقري والمخ . أي ان بعضها يتخلل إلى النخاع ويمتد فيه واصلاً الى المخ، والبعض الآخر يتصل بالمخ مباشرةً دون الاتصال بنخاع العمود الفقري . فاذا دققنا في ملاحظاتنا ، عرفنا أن نصف هذه المراكز العصبية ينتهي الى الجانب الايمن من المخ ، فاذا وضعنا اصبعنا على اقليم عصبي من الناحية الشمالية للمخ ، استطعنا إمرار الاصبع على هذا الأقليم ، وعند ما يصل الى المكان الذي يتصل فيه النخاع الشوكي بالمخ ، سيتبع أصبعنا سير العصب او امتداده عابراً الى الناحية اليمنى ونازلاً من النخاع الشوكي ، الى ان يصل الى عضل من الناحية اليمنى للاعصاب التي على جهة الجسم اليمنى

فاذا واصلنا دراستنا بعد هذه الرحلة وجدنا العضلات التابعة للجهة اليمنى من الجسم تتلقى مددها العصبي من النصف الايسر للمخ . والعضلات التابعة للجهة اليسرى من الجسم تتلقى مددها العصبي من النصف الايسر للمخ. والعضلات التابعة للجهة اليسرى من الجسم تتلقى مددها العصبي من الناحية اليمنى للمخ . لهذا تتحقق أو تقوى البقعة المرسلة للمدد العصبي . (ولهذا يكون من العسير التغير اوالانتقال من جهة الى اخرى)

والآن اذا عاودنا النظر الى اللسان ذلك العضو البسيط المظهر وجدناه يتكون من عضلين ويتلقى مدداً عصبيًّا منفرداً من اجزاء منفردة من المخ ، وليس ذلك مقتصراً على اللسان فحسب ، بل يشمل كل عضل للكلام مركب من عضلتين ، وله الاستعداد ذاته والقابلية التي للسان. فالكلام اذن عبارة عن عمل عضلي — اي انهُ يحدث عند ما يستعمل اللسان قدرته في تنظيم التيارات الصوتية المحمولة اليه ، وعند ما تؤدي العضلات التي تنظم حجم الفم والحلق وشكلهما عملها، بحيث يستعمل الهواء الذي يخرج من الرئتين لكثير من انواع النغم والاصوات اللازمة وهذا هو الكلام . وعمل العضلات ، لا يمكن أن يحدث دون تيارات عصبية تتخلل العضلات نفسها ، وتجعلها تتحرك بطرق خاصة ، وهذه التيارات العصبية تأتي من المخ وعن طريق المراكز العصبية

إذن لكي يحدث الكلام بحالة طبيعية ، يجب أن تسير قوتان دافعتان عصبيتان منفصلتان من نصفي المخ المنفصلين ، بحيث تصلان الى العضلين المنفصلين المكون منهما اللسان بعد مرورهما في مركزين عصبيين منفصلين في الوقت نفسه ، ويلزم ان تكون هناك سلاسل متصلة من



الساق
الاحساس
الكتابة
الذراع
الوجه
اللسان
التكلم
الحنجرة
السمع
المخيخ
النخاع المستطيل
الساق
الساق
الذراع
الذراع
الوجه
الوجه
شق سلفيوس
شق سلفيوس
السمع. الذوق
الشم
تقاطع الالياف أو الاعصاب
الموصلة
المحور
جسم الخلية
الوصلة

هذه التيارات العصبية بنسبة عدة مئات في الثانية ،وان تكون التيارات السارية في العضلين متساوية في القيمة والتناسب ، مع مبلغ القوة ذاتها ،بحيث يتمكن العضلان المكون منهما اللسان من التحرك معاً بتناسب وانسجام في غاية الدقة والضبط

﴿ كيف يحدث ذلك؟ ﴾ قد ينصرف ذهنك اول ما تفكر الى ان ذلك يرجع الى ان جزئي المخ متشابهان تمام المشابهة ، والمخ يشبه نصف البيضة المنقسم الى قسمين يواجه كل منهما الآخر ولكن الفحص الدقيق اثبت لنا ان الجهاز العصبي مركب جد التركيب ، ولهذا نجد هناك ما يسوغ تخطئة هذا التقدير . فان التناسق الدقيق الذي اوضحناه ، انما يحدث لأن نصفي المخ غير متساويين ، فواحد منهما أقوى من الآخر وأنشط . والنصف الانشط والاقوى يرسل قوى دافعة عصبية بنسبة خاصة ، وبتناسب خاص ولذلك يفرض شكله من النشاط على النصف الأضعف بحيث يجعله يرسل قوة دافعة عصبية بنفس النسبة والتناسب

نتيجة هذا كله ، هي ان العضلات من الناحية اليمنى للجسم تتحرك بنفس النسبة والتناسق كما تفعل العضلات على الناحية اليسرى ، وعلى ذلك يحدث الكلام الطبيعي الصحيح

وفي الوسع ان نزيد ذلك ايضاحاً اذا شبهنا جزئي المخ بفرقتي موسيقى او غناء في حجرتين متصلتين احداهما بالاخرى ، فاذا كانت احدى الفرقتين صغيرة والاخرى كبيرة فانهُ يكون من الصعب جداً على الفرقة الصغيرة ان توقع الحاناً مستقلة ، وسترى نفسها مضطرة لأن توقع نفس الالحان او النغمات التي توقعها الفرقة الكبيرة . وسيكون من السهل عليها ذلك . كذلك كان الحال مع نصف المخ لأن احدهما اقوى وأنشط من الآخر

ولكن لنفرض ان فرقتي الموسيقى او الغناء متساويتان في القوى ، فهنا يمكن ان توقع كل فرقة أنغامها بسهولة ، وهذا ما يحدث تماماً حالما يكون نصفا المخ متساويين من حيث النشاط والقوة — فكل نصف يرسل تيارات عصبية وفق قدرته وتناسقه ، والعضلات من الناحية اليمنى للجسم تنشط بتباين عن العضلات من الناحية اليسرى . (لانهما إن اتحدا في القوى ، فمن يضمن بدءهما في ارسال المدد العصبي في وقت واحد ؟) . فاللسان اذن يتلقى قوتين دافعتين مختلفتين متناقضتين ، والنتيجة تكون حدوث تشنج عضلي . وهذا هو التلجلج

ولعله يلاحظ هنا فقد قانون التعويض ، وهذا مما يخالف ناموس الطبيعة انتهينا بهذا الشرح المفصَّل الى ماهية التلجلج ، ونريد ان نلخص الآن أسبابه :—

﴿ مسببات الجلجة ﴾ (١) كلُّ شيء يعمل على مساواة نصفي المخ ،او مساواتهما على وجه التقريب في القوة والنمو يعمل على تسبيب الجلجة

(٢) للوراثة شأنٌ كبيرٌ ، فبعض الاطفال لهم تكوين خلقي واستعداد فطري مقتضاها

أنهم كلما نموا وكبروا ، لا يتقوى أحد جزءي المخ عن الآخر بنسبة كافية ، ونتيجة ذلك تكون اللجلجة الخلقية ونمو الكلام يبطء . ولعل أحسن وأنجع علاج لذلك ، هو ما نفرضه بالعادة والتقليد والافضلية على أنفسنا ونسلنا من استعمال اليد اليمنى ، وبهذا نعمل ولو قليلاً على تقوية وتنشيط نصف المخ الأيسر الذي يمد اليد اليمنى بالقوى الدافعة العصبية ، والا لكانت نسبة اللجلجة الطبيعية مرتفعة اذا لم يهدنا العقل الى هذا ولو لم ندرك السبب . ومما يحسن بنا ذكره هنا ان الانسان استعمل اليد اليمنى من قبل التاريخ ، ولهذا يمكن ان نقول ان عادة استخدامها تركزت من زمن بعيد ليس بالتقليد فقط وانما بالاستعداد الوراثي . وبالضرورة لكل قاعدة شواذ

(٣) الأضرار التي تحدث وقت الميلاد ، وامراض الجهاز العصبي ، والحميات المرتفعة الحرارة ، ومرض الصحة الطويل الأمد . والانفعال النفسي المتوالي ، او الاهتزازات العصبية العنيفة : كالفرح او الحزن المفاجىء، الذي يسبب تغيراً مفاجئاً في حالة المخ ، فتحدث اللجلجة او الخرس او الشلل ، كما يصاب الانسان بمرض السكر او الزلال او الجنون في حالات متشابهة وكلنا شاهد او سمع بحالات كثيرة من هذه

ومما لا ريب فيه ، ان نصف المخ الاقوى والأنشط اكثر حساسية في كل الحالات سواء أكانت طيبة أم رديئة ، وبذلك يكون أسرع الى التأثر الذي يقعده عن فرض نشاطه وقدرته على النصف الأضعف ، ولهذا يفقد التناسب في العمل ، ومن ثمّ تحدث اللجلجة . ويحسن بنا ان نشير في إيجاز تام الى كيف تؤثر الانفعالات النفسية ، والاهتزازات العصبية العنيفة في جهة المخ الاكبر حساسية لما لهذه النقطة من شأن . سبق ان رأينا أنواعاً من الخلايا العصبية، وهذه وان اختلفت في بعض الأعمال التي تقوم بها كل منها ، فانها تتفق في أنها تحس او تنفعل او تثور بما يقع عليها من المؤثرات والمنبهات ، وطبيعيًّا توصل هذا الأثر من الانفعال الى الاعصاب المتفرعة من خلايا أخرى فيقاوم توصيل التيارات العصبية المرسلة عن طريقها ، و تكون لذلك أبطأ ، وتستغرق وقتاً أطول، ولذلك فالتعب ، والمشروبات الكحولية، والكوكايين يزيد من مقاومتها للتيار العصبي ، ولهذا نرى الثمل لا يستطيع القيام بأي عمل صحيح لأن التيار العصبي لا يصل من المركز الى باقي الاجزاء ، فلا تستطيع ان تعمل عملها

اما الشاي ومثله القهوة ، فيضعف مقاومة الوصلة أو العصب الموصل ، ولهذا اذا اردنا مواصلة العمل الكتابي مثلاً فاننا نشرب كثيراً من الشاي لكي نتنبه ونصحو ، والحقيقة اننا نجهد المراكز العصبية، ونضعف من قوة الاعصاب الفرعية.... لأننا نحملها من العمل فوق طاقتها

٤ — ومن اهم ما وجدناه في الكثرة الغالبة من الحالات ، عاملاً قويًّا في اللجلجة، محاولة تغيير الأطفال من استخدام ايديهم اليسرى الى اليمنى — ولا نقصد ان نقول ان استعمال اليسرى

في الكتابة أو العمل بها يسبب التلجلج — وانما هو التغير من هذه لتلك — وهذه هي النقطة المهمة

ولقد وجدنا في حالات قليلة جداً ، ان التغير من اليمين الى الشمال كان لهُ نفس التأثير الضار الذي يحدثه التغير من الشمال الى اليمين ، وسبب ذلك سبق شرحه في الحالة العكسية . ومما علمته وهو غريب في بابه من احد اصدقائي الاطباء وأنا اتباحث معهُ في الناحية الطبية في استخدام اليد اليسرى انهُ قال : يوجد نوع من المرض اسمه (التفاف روكا) اذا اصاب نصف الدماغ الأيسر وكان صاحبه يستخدم اليد اليمنى حرمهُ من النطق . اما اذا كان يستخدم اليسرى فيستمر على النطق . ولكن اذا اصاب هذا المرض النصف الايمن من الدماغ وكان صاحبه يستخدم اليسرى فيخرسه ، ويبقى مستخدم اليمنى متكلماً

تتبدد غرابة هذا التقرير الطبي عند ما نذكر ان علم التشريح اثبت ، ان المركز الاصلي لأعصاب اليدين في الدماغ انما يكون في الناحية العكسية لكليهما ، وانهُ متصل ومشتبك بمركز أعصاب اللسان والشفتين كما سبق أن وضحنا . وقد يكون من المسلي للقارىء أن اوجّه نظره لا سيما اذا ما كان ممن يهتمون بعلم الكف ، انهُ من أهم المسائل التي يعتمد عليها المختصون في هذا العلم والتأليف فيهِ ، ان يثبتوا علاقة اليدين بالدماغ ، ليقنعوا القارىء أو من تقرأ يده ، ان ما يفسر من خطوط على يديهِ صحيح لأنها الآثار التي تركتها رسالات المخ الى اليدين . ويفسرون خطوط اليمنى بغير ما يفسرون بهِ خطوط اليسرى

هـذا ولعلّ كثيراً من الأطفال الذين علموا استعمال أيديهم اليمنى قبل أن تتاح لهم فرصة اظهار الطبيعة التي خلقوا عليها من استخدام اليد اليسرى يتلجلجون عند ما يقدرون على التكلم الذي قد يتأخر شهوراً او سنين قلائل بهذا السبب ايضاً . وقد لا يظهر التلجلج في حالة التغيير الاّ بعد عدة سنين من بدأ التغيير أي في الوقت الذي يصير فيهِ نصفا المخ متساويين تماماً

﴿ علاج التلجلج ﴾ نستطيع الآن ، ان نقول في ايجاز ، أن علاج التلجلج يستلزم قبل كل شيء إنماء استعمال يد خاصة . وأن يمنح المتلجلج كل مزايا قانون الصحة النافع لكل فرد ، سواء أكان متلجلجاً أم طبيعي الكلام . وأن يتمتع بصحة العقل الضرورية لكل فرد أيضاً

ويجب بذل مجهود صادق لمساعدة المتلجلج ، فتعالج صعوبته مباشرة ومن كل الجهات ، وأن تختار أنسب العلاجات لحالتهِ . ولما كان النصف الأقوى والأنشط من المخ هو اشدّهما احساساً بكل الحالات كما قدمنا ، وكل ما يؤثر فيهِ يؤثر في الكلام ، كان من الضروري الاقدام على محاولة صادقة تؤثر في مخ المتلجلج ليؤثر هو أيضاً في الكلام على شرط أن يكون المعالج في حالة صحية حسنة . كما يجب اعطاء ما لقيصر لقيصر ، فهذه قاعدة مأمونة العواقب ، فرجوع كلي لاستعمال احدى اليدين وفق طبيعتها الاولى ، يؤدي عادةً الى سيطرة طبيعية في الجهه المضادة من المخ ،

وهي التي خلقت بفطرتها ممتازة، وان هذه الطريقة تلائم حال المتلجلجين الكبار في السن ، الذين كانوا شماليين وعلموا استخدام أيديهم اليمين قسراً . وفي كثير من الحالات ولاسيما بين الاطفال الصغار، نعالج المتلجلج بمنحه فرصة أوسع لاستعمال يده اليمنى التي مرن على استخدامها كما فعلنا مع الطفل (محمد) متغاضين عما يصيبهُ من تأخر عن اخوانه، ومشقة يجتازها. وقد لا يفيده ذلك شيئاً ، لانا نسيره ضد طبيعته. وأنا شخصيًّا لا أوافق على التغيير من المبدأ. واذا لم يتخلص المتلجلج من اللجلجة وهو في السادسة او السابعة عشرة من عمره، فان نصيبه يكون عدم التخلص منها ، لانها نمت عنوة من زمن بعيد ، أي وهو في نحو الخامسة من العمر والشيء الذي نما بتدرج يجب أن يعالج بتدرج وأناة أيضاً

ورجاؤنا أخيراً ، أن يستطيع الآباء والمربون ، أن يصلوا الى علاج لأولادهم وتلاميذهم الذين من هذا النوع ، بفضل ما عرف الآن عن حقيقة التلجلج وأسبابه وطرق علاجه ، وأن يكون نصب أعينهم استشارة الاخصائيين ، اذا لم تقنعهم ملاحظاتهم الخاصة

وليروّضوا انفسهم على قبول استعمال اليد اليسرى اذا ما كان استعداد اولادهم الفطري كذلك ، متأكدين ان ليس في ذلك سبة أو انحطاط ، فكم عرفنا من عظماء الرجال وكانوا يستخدمون يسراهم أشباه ليوناردو ده فنشي وهو مصور (لاجوكوندا) كما كان من أقدر المهندسين وأعلمهم في عصره ، وكان بارعاً في التأليف والموسيقى والعلوم

وحذار من العبث بأمراض الأطفال النفسية ، فرب استشارة أو علاج خاطىء أضر ما كان صالحاً . او اتلف ما كان يمكن اصلاحه . ولا يفوتنا أن نقول ، ان اللجلجة مرض أسبابه طبيعية كسبية يمكن علاجها وليس ذلك عسيراً كما كان يعتقد من قبل . اما اللثغة والتمتمة واللكنة الاعجمية . فأمراض كسبية بالتقليد وتغيير البيئة ، وهذه علاجها أيسر . أما ما يكون مسبباً منها بمؤثرات خارجية كالحروق (كمن أخذ الجمرة بدل التمرة فصار ألثغ أو جرح لسانه او أصيب برقعة قاسية فقطعت اسنانه لسانه ، فهذه أشياء قد تعالج او لا تعالج وفق تقدم الطب والمخترعات ، وليس ذلك في نظرنا مستحيلاً وانما كل شيء يأتي في حينه . هذا وقد قيل

كل امرىء راجع يوماً لشيمته وان تخلق اخلاقاً الى حين

ولعلَّ في ذلك تصديقاً لقولنا أن الانسان مهما مرَّن اليد التي لم تعد للكتابة خلقيًّا تنتابه الحيرة ويصيبهُ التردد في الكلام في المواقف الدقيقة ، كمواقف الخطابة ، او الارتباك في تقديم أي اليدين أو تأخيرها اذا اعترضه حيوان مفترس أو لص وأراد الدفاع عن نفسه مثلاً . كل هذا متوقع الحدوث عوداً إلى الحالة الطبيعية الكامنة مهما تنوسيت وأهملت وقد قالت العرب قديماً «ليس التفقه بالتفقه ، ولا الفصاحة بالتفصح ، لأنهُ لا يزيد متزيد في كلامهِ الا لنقص يجده في نفسه

ومما اتفق عليهِ العرب والعجم قديماً ، وقالت بهِ الفرنجة أخيراً « الطبع أملك »

توليد الطاقة

من المادة

بحث العلماء في الاشهر الأخيرة

فتن الباحثون باحتمال كشف طريقة تمكنهم من اطلاق الطاقة المدخرة في ذرات المادة منذ ما ادركوا ان موارد القوة في الطبيعة لا تُحَدُّ. ومع انهُ من المتعذّر ان نقول الآن ان اطلاق طاقة الذرات واستعمالها امر قريب التحقيق غداً ، فهناك دلائل تدلُّ على ان العلماء قد خطوا الخطوة الاولى في الاشهر الاخيرة نحو هذا الهدف. ففي نيويورك جماعة من العلماء تمكنوا من أن يستعملوا الطاقة الذرية في إحداث التفاعلات الكيميائية. وفي فرنسا جماعة اخرى من العلماء معنية بهذا البحث ولكنها قد أخذت تقلق لاحتمال انطلاق الطاقة الكامنة في الذرّات انطلاقاً ينسفهم وينسف مختبراتهم كذلك

وقد سبق كل هذا سلسلة من المكتشفات العلمية يرتدُّ أولها الى شهر مارس من سنة ١٩٣٤ عندما أثبت العالم الايطالي الشاب فرمي Fermi — وهو أحد أساتذة جامعة روما الملكية — ان اطلاق النوترونات على عنصر الأورانيوم يفضي الى نشوء عناصر مشعة جديدة. والنوترونات على ما تعلم دقائق ذرية صغيرة تستطيع اختراق النطاق الكهربائي الذي يحيط بنواة الذرّة لانها متعادلة الكهربائية فلا تجذب ولا تدفع

وكان الظن قبل ذلك ان عنصر الاورانيوم هو أثقل العناصر وزناً وان عدده الذري هو اكبر الأعداد الذرية المعروفة ولكن الكواشف الكيميائية اثبتت ان العناصر المشعة المتولدة منهُ — وهي عناصر قصيرة الحياة لأنها غير مستقرة — اثقل وزناً ذريًّا وأكبر عدداً ذريًّا من الاورانيوم ولذلك وصفت بقولهم «العناصر التي وراء الاورانيوم»

ولا يخفى ان عدد الاورانيوم الذري هو ٩٢ وهو يدل على ان عدد الكهيربات التي حول نواة ذرته اثنان وتسعون كهيرباً. ولكن ظهر ان الاعداد الذرية للعناصر المشعة الجديدة المتولدة منهُ هي ٩٣و٩٤و٩٥و٩٦ اي ان عدد الكهيربات التي حول نواة كل منها ٩٣ كهيرباً

و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ كهربا وقد وسمت بالاسماء العلمية التالية على الترتيب التالي — ايكا رينيوم — ايكا اوسميوم — ايكا اريديوم — ايكا پلاتينوم

وقد أكبَّ علماء الطبيعة في خلال السنوات الاربع الماضية على دراسة خواص هذه العناصر وطبائعها . ولم يكتفوا بما ظهر منها اولاً بل والوا التجريب والتنقيب فعثروا بعشرة منها احدثها وهو العاشر كشف في اثناء الصيف الماضي (١٩٣٨) على يدي مدام كوري — جوليو كريمة مكتشفة الراديوم المشهورة وزوجة الاستاذ جوليو أحد علماء الطبيعة المحدثين في فرنسا

وقد عنيت مدام كوري — جوليو بالاشتراك مع الباحث ساڤتش بدراسة هذا العنصر الجديد — او ما ظنَّ انهُ عنصر جديد — فخلصا الى النتيجة بأن مادتهُ ليست في الواقع الاَّ عنصر اللنثانوم المعروف وهو من طائفة الاتربة النادرة (rare earths)

فلما علم الباحثان الالمانيان هان Hahn وشتراسمان Strassman بنتيجة بحث كوري — جوليو وساڤتش أقبلا على فحص جميع المواد الناشئة من اطلاق النوترونات على الأورانيوم وهل هي عناصر مألوفة أوزانها الذرية أقل من وزن الاورانيوم الذري ، او هي عناصر جديدة مشعة أوزانها الذرية اكبر من وزن الاورانيوم الذري . فوجدا في مستهلّ هذه السنة ان اطلاق النوترونات على الاورانيوم يسفر عن ظهور نظائر قصيرة العمر لعنصري الباريوم واللنثانوم . ولا يخفى ان نظير عنصرٍ ما يشابه العنصر في خواصهِ ويختلف عنهُ قليلاً في وزنهِ الذري

واذن فنحن امام ظاهرة جديدة في علم طبيعة الذرة . ففي العهد السابق كان اطلاق القذائف على الذرَّات يفضي الى فصل جزء صغير من الذرة . اما الآن فان اطلاق النوترونات على ذرَّة الاورانيوم يفضي الى شطر الذرة شطرين يكادان يكونان متساويين وان كل قسم منهما ذرة عنصر او ذرَّة نظيرٍ متوسط الوزن الذري

***

ثم أثبت بحث علماء آخرين ان المواد الناشئة او المتولدة من اطلاق النوترونات على الاورانيوم وهي المواد التي ظل الباحثون اربع سنوات يحسبونها «عناصر وراء الاورانيوم» ، ليست في الواقع الاَّ عناصر مألوفة او نظائرها . فالمادتان اللتان اطلق عليهما اسم «ايكا اريديوم» و «ايكا بلاتينوم» ليسا الاَّ التلوريوم واليود على الترتيب

وانصافاً للباحثين المتقدمين الذين ظنوا هذه المواد عناصر جديدة لها اوزان ذرية اكبر من وزن الاورانيوم الذرّي ، يجب ان نقول ان ما كان يتولد من هذه المواد كان يسيراً جدًّا وسريع التحول والانحلال فتمييزهُ ومعرفة خواصه كان عملاً شاقًّا جدًّا فأخطأوا معرفتهُ

واذ كان العلماء مهتمين بفهم هذه الحقائق الجديدة قام باحثان يدعيان مَيْتنر Meitner وفرسش Frisch ببحث طبيعة انشطار ذرة الاورانيوم . فدلَّ بحثهما على ان جانباً يسيراً من كتلة نواة الاورانيوم يضمحل في اثناء الانشطار متحولاً الى طاقة وأثبت فرسش بعد ذلك ان الانشطار يتم فعلاً وان مقدار الطاقة الذي يتولد مطابق لما توقعه بالحساب الرياضي الطبيعي

وكان الاستاذ فردريك جوليو—زوج كريمة مدام كوري وقسيمها في جائزة نوبل الطبيعية— يعنى بدراسة نواح اخرى من هذا الموضوع فتوصل هو ومعاونوه الى نتائج تبعث على الدهشة والاستغراب . فالنوترونات التي اطلقت على الاورانيوم كانت ذات طاقة ضعيفة . ولكنهُ وجد انهُ عند ما يحصل الانشطار في ذرة الاورانيوم تشاهد نوترونات منطلقة من الذرة بسرعة عظيمة وقيست طاقة انطلاقها فاذا هي من رتبة ١١ مليون الكترون فولط . ومغزى هذا ان نوترونات بطيئة جداً — نسبيّاً — اطلقت على الاورانيوم فانقذفت من الاورانيوم نوترونات سريعة

استعمل الاستاذ جوليو في مباحثهِ الأولى قطعاً صغيرة من الأورانيوم فكانت النوترونات السريعة المنطلقة منها غير كثيرة فضيّع معظمها لتشتتها ولكنه سأل نفسهُ ماذا يقع اذا تولدت هذه النوترونات في قلب قطعة كبيرة من الاورانيوم . أيتولد في قلب قطعة الاورانيوم الكبيرة عدد من النوترونات السريعة يكفي للتأثير في نوى ذرات اورانيوم اخرى في القطعة نفسها فيزداد انطلاق النوترونات السريعة ؟ وبذلك تبدأ سلسلة من التحولات تفضي الى انطلاق قدر عظيم جداً من النوترونات السريعة . والواقع أنهُ ليس هناك مأخذ من الناحية النظرية على هذا المنطق وهذا هو ما يقلق بال العلماء الفرنسيين لأنهم يخشون اذا بدأوا التجربة ان تتعذَّر عليهم السيطرة عليها متى بلغت حدّاً معيناً

ولذلك عني بعضهم بالبحث عن اساليب تمكنهم من السيطرة على سلسلة التحولات المتوقعة وذلك بتخفيف الاورانيوم بخلطهِ بالكدميوم والبحث ماضٍ في هذا السبيل

اما علماء نيويورك فقد اقاموا الدليل العملي على ان انشطار نوى ذرات الاورانيوم يولد قدراً من الطاقة يكفي لاحداث تفاعل كيميائي على مسافة . ومن التفاعلات الكيميائية التي أحدثها انحلال يودور النتروجين nitrogen iodide وهو مركب كيميائي غير مستقر

***

واخيراً كلمة تحذير للذين يعمدون الى الخيال بعد قراءة هذه السطور فيتصورون عالماً تسيّره طاقة مستخرجة من قدر صغير من ذرّات المادة — ان ذلك لا يزال بعيداً عنا بُعد الحلم ولكن يجوز لنا ان نقول اننا خطونا الخطوة الاولى نحو تحقيق ذلك الحلم

لفخري أبو السعود

شعاع الغروب على المسجد

شجاني في جانب الفدفد شعاع الغروب على المسجد
كساه على روعة روعة وجلاه في بارق العسجد
تألق اقواسه والخطوط على صفحة الأفق السرمد
وتسمو منارته في الفضاء تروق بقد لها أغيد
دقيق الصناعة مهما تكر عليه عوادي البلى يصمد
وتحسبه إذ أطال الصمات مقيماً هناك الى الموعد
أقام مناراً لمن مسه لغوب الى فيئه يهتدي
لمن تاه في غاشيات الحياة ومن ضل في ليلها الأسود
يحن على النازلين اليه ويحنو على المتعب المجهد
يقولون شيده حاكم عظيم المفاخر والسؤدد
بجانب قصر له شاده رفيع الذرى شاهق الأعمد
تحوف الكروم بأبهائه ويونع زهر نضير ندي
محا الدهر ما كان من قصره وما كان من ملكه الأيد
وشيدت بأحجار أبياته بيوت أعاديه والحسد
ولم يبق مما حوى وابتنى سوى ذلك المسجد المبعد
تسامى بجانبه نخلات تطل على ذلك المشهد
ولم ار فيه لدن جئته سوى عابد أشمط أدرد
مديم التلاوة والصلوات إن يبغ سعياً وان يجهد
يطيب له أن يكون الامام ويغرب في صوته المنشد
اذا الجد ألقى الى ظله بفوج من النزع القصد
تجنب من عيشه مفرداً بذيالك المسجد المفرد
وتعجب كيف يقضي الزمان قليل الحطام خلي اليد
ترثي لعيشته وهو راض وتزهد فيها ولم يزهد
وتحسبه أوحش الناس سرباً لدى ذلك المهمه الاجرد
ويحسبه آنس العالمين وأربحهم صفقة في غد



أسطورة زيت القطران

أصباغ زاهية ، وروائح عطرية ، وعقاقير ناجعة ، ومتفجرات فتاكة

بقلم حسن السلمان
مدير ثانوية البصرة

توطئة

.... وكأنني أسمع القارىء يقول « وهل لذلك الزيت المدني ذي اللون الاسود والرائحة الكريهة أسطورة تستحق الذكر؟ » إلا أنني واثق مطمئن الى انه ما ان يطلع القارىء على أسرار كيمياء هذه المادة وعلى عظم أهميتها للمدنية الا ويتملكه العجب فيؤمن معي بأن لزيت القطران أسطورة لا تقل روعة ولا تنقص غرابة عن أية أسطورة من أساطير التاريخ القديم . أفليس بعجيب ان من هذه المادة السوداء ذات الرائحة الكريهة والاثر السام نستخرج الزاهي من اصباغ منسوجاتنا ، والزكي من روائحنا العطرية ، والنافع من عقاقير أمراضنا ، والشديد من متفجراتنا ؟ ان لزيت القطران على قبح لونه ، وفظاعة رائحته الكلمة العليا في صناعتنا وفي تجارتنا وفي حروبنا وفي المحافظة على صحتنا . فهو يدمي ويفتك ، ويشفي ويجمل، وهو مادة سحرية ما ان يضع الكيميائي أصابعه عليها حتى تخرج منها أصباغ ذات ألوان تفوق ألوان الطيف الشمسي عدداً وزهاء ، ومواد تضارع الورد والريحان في زكاء رائحتها ، وتفوق العسل والسكر في حلاوة طعمها

وزيت القطران هذا سائل زيتي القوام ، اسود اللون فاحمه ، يستخرج مادة كمادة ثانوية من تقطير الفحم الحجري . لقد كانت الغاية الاولى من تقطير الفحم الحجري تحضير غاز الاستصباح فقط . وكان أصحاب هذه المعامل في ارتباك من أمرهم لا يعرفون كيفية التخلص من تلك المادة القذرة التي يكثر وجودها ويقل نفعها ، فهم ان طرحوها أرضاً تراكمت وأتلفت الزرع وضايقت الاهلين برائحتها الكريهة ، وان رموها نهراً لوثت مياه الشرب وأبادت الاسماك

فكانوا لا يجدون بدًّا من دفع مبالغ باهظة لمن يحملها الى مواضع نائية عن المدن بعيدة عن عن الاراضي الآهلة بالسكان

عرف الكيمائيون قبل القرن الماضي ان زيتاً قابلاً للاشتعال يتقطر من زيت القطران عندما يعرض هـذا لنار خفيفة . واستطاع فاراداي تحضير البنزين Benzene بتقطيره زيت القطران . إلاَّ ان معلومات الكيميائيين بقيت قاصرة عند هذا الحد حتى أواسط القرن التاسع عشر عند ما أسست أولى كليات الكيمياء في بريطانيا بمدينة لندن واستقدم اليها الكيميائي الالماني المشهور الاستاذ هوفمن Hoffman . ومن غرائب الصدف ان كلف هذا الكيميائي أحد تلامذته ومساعديه البحث عن كنه زيت القطران عساه أن يتوصل الى أصلح الطرق لتقطيره تقطيراً كاملاً .فانصرف مانسفيلد Mansfield هذا لتحقيق ما كلفهُ اياه استاذه وكله آمال بالفوز باكتشاف طريقة صناعية للاستفادة من تلك المادة التي اثقلت كاهل أصحاب المعامل وأزعجت الناس . وكان مانسفيلد ذكيًّا ماهراً في التحليل الكيميائي فما ان توغل في بحثه وتجاربه حتى أدرك ان زيت القطران مزيج من مواد متعددة يمكن فصلها بالتقطير الجزئي . ولقد فاز بفصل بعض تلك المواد فكان لديه البنزين والطولوين Toluene والكزيلين Xylene

وأدرك هذا الكيميائي بثاقب فكره ان سيكون للمواد المستخرجة من القطران شأن عظيم في الصناعة الكيميائية ، ولهذا اعتزم ان يحضر مقادير كبيرة منها بتقطيره مقادير مناسبة من القطران . ولكن مما يؤسف له ان هذا الكيميائي لم يعش طويلاً ليرى نتيجة اتعابه وجهوده فقد داهمهُ الاجل بينما كان يجري اولى تجاربه الكبرى . فلسبب مجهول انفجر انبيق التقطير ففاض السائل الساخن على ارض الغرفة فالتهب من ساعته واتى على كل شيء حتى على الكيميائي المنكود الحظ ، وهكذا طويت آخر صفحة لاول من سعى لتأسيس صناعة زيت القطران . ومانسفيلد وان فارق هذه الدنيا وهو في ريعان شبابه الاَّ ان فكرته بقيت تنمو وتترعرع حتى انشأت للبشرية مصدراً مهمًّا من مصادر الثروة واخذت بيد الصناعة الكيميائية فأوصلتها الى غاية ما كان اهل العلم يحلمون بها من قبل

صورة جزيء البنزين

ومن قصص الكيمياء الشائقة التي ترسم للقارىء صورة جلية للجهود الفكرية التي يبذلها العلماء لتوضيح حقيقة من الحقائق او نظرية من النظريات قصة البحث عن بناء جزيء البنزين . يتكوَّن جزيء البنزين من ست ذرات من الكربون وست ذرات من الهيدروجين C_6H_6 وتبدو هذه الحقيقة لاول وهلة مخالفة لنظرية قابلية اتحاد العناصر او ما ندعوها اليوم

بنظرية التكافؤ . فالكربون في اكثر مركباته رباعي التكافؤ ، اي ان ذرته تتحد بأربع ذرات من الهيدروجين كما في المركب CH4 او بذرتين من الاكسجين كما في ثاني اكسيد الكربون ويكون ثنائي التكافؤ في النادر من المركبات كما في CO . اما في جزيء البنزين فتبدو ذرة الكربون احادية التكافؤ ، ولو صحَّ هذا لكان البنزين شديد الفعالية اي لكان سريع الاتحاد بغيره من المركبات ، وهذا مخالف لما نجده عليهِ فهو لا يتفاعل مع المواد مباشرة ولا تؤثر فيهِ الاَّ الحوامض المؤكسدة القوية

جابهت هذه الحقائق الكيميائي كيكولي Kekulé فتعذر عليهِ بادىء بدء تفسيرها ، وفي إحدى ليالي الشتاء القارصة جلس الى مدفئتهِ يصطلي بنارها وهو منصرف الى التفكير في حل معميات تلك المشكلة ، ويكثر من رمي الاخشاب الى النار بحالة تكاد تكون عصبية حتى اشتد اللهيب وارتفع عالياً والكيميائي في شغل شاغل عنهُ . وبينما هو غارق في لجة من الافكار لاحظ فجأة ان ذؤابة اللهب ارتفعت كثيراً ثم التوت على نفسها حتى اتصلت بمؤخرتها ، وكانت تلك الصورة كالبرق الخاطف انارت له بصيرتهُ ومهدت له السبيل لوضع صورة واضحة لجزيء البنزين وفي تلك اللحظة اخذ الكيميائي يسأل نفسه الاسئلة التالية : لماذا لا تكون ذرات الكربون متصلة بعضها ببعض على هيئة سلسلة كما اتصلت ذؤابة اللهب بنفسها ؟ ولماذا لا يكون طرفا هذه السلسلة متماسكين احدهما مع الآخر ؟ ولماذا لا تكون ذرات الهيدروجين متفرعة من ذرات الكربون؟ ذلك ما دار في خلد كيكولي وعيناه شاخصتان الى اللهب المتصاعد كانهُ يرى صورة جزيء البنزين من بين اطرافه . فهرول من ساعته الى قلمه وورقه ورسم الصورة النهائية لجزيء البنزين مراعياً بها تكافؤ الكربون الرباعي

يعد هذا الاكتشاف ، بلا ريب ، من اهم اكتشافات الكيمياء العضوية ان لم يكن اهمها ، لانهُ يمكن الكيميائي من وضع صورة لجزيئات المواد قبل تحضيرها . فالكيميائي الحديث ليس بمكتشف كما يظن البعض وانما هو مخترع . فان شاء تحضير مركب من المركبات العضوية عمد الى قلمه وورقه بادئاً برسم جزيء البنزين ، ثم يمحو احدى ذرات الهيدروجين معوضاً عنها بجذر مركب آخر كجذر النترو NO2 — مثلاً ، ويمضي يغير ويبدل في رسم تصميم المركب حتى ينتهي الى الصورة التي وضعها له بمخيلته . وبعد ذلك يسارع الى مختبره ليطبق ما رسمهُ على الورق . فمثل الكيميائي الحديث كمثل مهندس العمارات لا يشرع بالبناء الاَّ بعد ان يصنع التصميمات اللازمة له. ولم يبق اثر لذلك الكيميائي الذي ينزوي في مختبره يضيف المادة الواحدة الى الاخرى مؤملاً ان تتولد بين يديهِ مادة جديدة تكسبهُ الثروة والجاه

الاصباغ الكيميائية

لتقطير زيت القطران تستعمل انابيق تتسع لثلاثين او اربعين طنًّا من الزيت الخام، وترتفع الى عشرات الامتار وتتفرَّع منها شعب متفاوتة الارتفاع تنتهي كل شعبة بمكثف. فاذا ما ارتفعت درجة الحرارة في الانبيق تقطرت المواد المطلوبة في زيت القطران كل واحدة منها بحسب درجة غليانها. فيتقطر البنزين اولاً ثم الطولوين فالفينول Phenol فالانتراسين Anthracene، وبعد ذلك زيوت التزييت Lubricating Oils. وتبقى في اسفل الانبيق مادة قارية تعرَف بالزفت Pitch. وهذه المادة كثيراً ما تستعمل في تحضير الدهان الاسود وكوقود ولحفظ الاخشاب ولرصف الطرق

والبنزين والطولوين لايمكن الاستفادة منهما مباشرة في تحضير الاصباغ او الروائح العطرية الاَّ بعد ان تجري عليهما تبدلات متعددة وتفاعلات كيميائية مختلفة. يعالج البنزين والطولوين بمزيج من الحامضين الكبريتيك والنتريك المركزين ويترك المزيج مدة لا تقل عن عشر ساعات ليتم التفاعل وليتكوَّن النتروبنزين والنتروطولوين. وتفاعل كهذا كثيراً ما يكون محفوفاً بالمخاطر لانه مصحوب بانبعاث حرارة داخلية ولأن النتروطولوين سريع التحلل سريع التفجر. ومما حدث عام ١٩١٤ ان انفجر مرجل يحتوي على هاتين المادتين في معمل قرب برلين فأتى على المعمل برمتهِ وعلى جميع من كان فيه. وقد عزا الخبراء يوم ذاك هذا الانفجار الى اهمال العامل المسؤول واغفاله تبريد المزيج مما ادى الى ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً عالياً سبب الانفجار وأحدث الكارثة

والنتروبنزين مادة ذات رائحة كثيرة الشبه برائحة اللوز المر تستعملها بعض معامل الصابون لتعطير الانواع الرخيصة من صابونها، وتستعمل بكثرة لتحضير مادة الانيلين Aniline. والطريقة المثلى لذلك هي ان يضاف الى النتروبنزين قطع حديدية ثم يعامل بالحامض الكلوريدريك وبالبخار الساخن فينبعث من تفاعل الحديد مع الحامض هيدروجين ذري يختزل النتروبنزين ويحوّله الى انيلين. ويقدر ما يصنع من الانيلين في المانيا وحدها بما يزيد على عشرين الف طن في العام الواحد

وفي احد ايام عيد الفصح عام ١٨٥٦ كان وليم بركن Perkin منهمكاً في اجراء بعض التجارب بمختبره الصغير لتحضير الكينين من احماتهِ الاليل طولوئدين Allyl Toluidine مع مادة مؤكسدة قوية، ولكن عوضاً عن الحصول على الكينين كما كان يتوقع حصل على مسحوق احمر اللون فأعاد التجربة ثانية مستعملاً في هذه المرة الانيلين غير النقي ولما وجد ان حظهُ في هذه التجربة

تخطئه في الاولى غضب لسوء طالعه لاخفاقه في تجاربه فاعتزم ترك المختبر وهجر التجارب غير المجدية . فهمّ بغسل الاجهزة وإعادتها لمواضعها ، ولكن دهشته كانت عظيمة عند ما وجد ان المسحوق الناتج من تجاربه ينحل في الماء فيكون محلولاً بنفسجيّاً زاهي اللون تصطبغ الاشياء به . لقد اكتشف پركن طريقة لتحضير الصبغ الكيميائي وهو لا يقصد ذلك . ولقد فاز لاول مرة كيميائي بتقليد الاصباغ النباتية والحيوانية من دون ان يسعى الى ذلك

كان پركن يوم ذاك في الثامنة عشرة من عمره ومع ذلك استطاع اقناع والده واخيه الاكبر بتأسيس معمل خاص بهم لصناعة الانيلين البنفسجي Mauve كما دعاه فأسس المعمل على جهد أسرار الهندسة الكيميائية وعرض في الاسواق مقادير كبيرة من ذلك الصباغ .

ما ذاع خبر اكتشاف پركن في أنحاء اوروبا حتى تهافت الكيميائيون على دراسة خواص المواد المستخرجة من زيت القطران لعلهم يفوزون باكتشاف اصباغ كيميائية اخرى. وبعد وقت ليس بالطويل اكتشف رينارد وزميله فرانك طريقة تحضير الصبغ القرمزي ، ومن ثمَّ توالت اكتشافات المواد الصابغة بمختلف الوانها في كل من بريطانيا والمانيا . وكان من جراء ذلك ان أنشأت معامل كبيرة لصناعة الاصباغ أفضت الى قيام صناعات اخرى ما كان الناس يهتمون بها من قبل . ويقدَّر ثمن ما تصدره المانيا اليوم الى مختلف اسواق العالم من الاصباغ الكيميائية بثمانية عشر مليوناً من الجنيهات في العام ومجموع ما يستهلكه العالم منها يزيد على ٣٠٠ الف طن في السنة

وفي عام ١٨١٩ استطاع جاردن فصل النفتالين عن زيت القطران . وفي عام ١٨٣٢ فاز الكيميائيان الفرنسيان دوماس ولورانت في اكتشاف الانتراسين في زيت القطران ايضاً وبعدذلك بأعوام قلائل تمكن روبيكين وكولان من الحصول على مادة الاليزارين Alizarine من جذور نبات الفوّة Madder لقد كانت زراعة الفوّة مصدراً مهمّاً من مصادر الثروة في فرنسا وايطاليا وتركيا ، لان جذور هذا النبات كانت تستعمل كمادة خام لصناعة الصبغ الاحمر القاني او ما يسمى «بالحمرة التركية» . ولكن ما ان حلل هذا الصبغ النباتي وعرف انهُ يحتوي مادة الاليزارين حتى اتجه الكيميائيون الى زيت القطران لتحضيرها منهُ ومما سهل البحث ان الكيميائيين الالمانيين جريب Graebe ورفيقه لايبرمان Liebermann عرفا تركيب الانتراسين فاكتشفا عام ١٨٦٩ طريقة لتحضير الاليزارين من الانتراسين

ومن أشهر الاصباغ القديمة وأغلاها ثمناً الصبغة الارجوانية . كان الاقدمون يستخرجون هذا الصبغ من حيوان صدفي رخو يكثر وجوده في البحر الابيض المتوسط ، ولغلاء ثمن هذه الصبغة اقتصر استعمالها على صبغ ملابس الملوك والإمراء والاشراف من الناس الذين يتمكنون

من إنفاق مائة جنيه ثمناً للرطل الواحد منه . اما العامة من الناس والطبقة الوسطى منهم فكانت ملابسهم تصبغ بالنيلة او بالحمرة التركية . وفي اوائل هذا القرن فاز فرايدلندر بتحليل الصبغة وعرف انها مركبة من ثاني بروميد النيلة ، اي انها تنتج عند ما تتحد ذرات من البرومين مع جزيء واحد من النيلة . فلم يبق للكيميائي بعد هذا الاَّ ان يجمع بين البرومين والنيلة فينال صبغة الملوك والامراء . وبهذه الطريقة توفق الكيميائي الى سلب طبقة الاشراف اللون الخاص بهم وبسر استعماله لجميع طبقات الشعب

والنيلة من اقدم الاصباغ ان لم تكن اقدمها جميعاً ، ومن أثبتها اثراً وأكثرها استعمالاً . فقد استعملها المصريون والهنود وحتى سكان الجزر البريطانية القدماء . وكانت هذه الصبغة تستخرج من نبات تكثر زراعته في الهند . ففي عام ١٨٩٧ كان يقدر مجموع ما زرع من الارض بنبات النيلة بما يزيد على مليون فدان، وبلغت أثمان حاصلاتها أربعة ملايين من الجنيهات، ثم اخذت زراعة هذا النبات تتردى الى ان بلغت أثمان ما زرع منها عام ١٩١٤ ستين الفاً من الجنيهات . اما زراعتها اليوم فقد قلت كثيراً جداً ، وليس اليوم الذي ستبطل فيه ببعيد عنا . وسبب ذلك ان الكيمياء التحليلية عرفت سر تركيب النيلة فصار في مقدور الكيميائي ان يخرج للاسواق مقادير عظيمة منها بنفقة لا تدانيها نفقة استخراج النيلة من النبات

اكتشف فرتش Fritzsche عام ١٨٤٠ ان النيلة عندما تحمى مع هيدروكسيد الصوديوم تتقطر منها مادة الانيلين ، الاَّ ان ما حير هذا الكيميائي هو كيفية تحضير النيلة من الانيلين . وبقي ذلك سراً من الاسرار حتى اكتشفهُ الكيميائي العظيم فون باير Baeyer بعد نيف وأربعين عاماً . لقد قضى هذا العالم الكبير خمسة عشر حولاً وهو يكافح في سبيل حل ذلك السر . وبعد جهود منقطعة النظير استطاع اكتشاف طرق مختلفة لتحضيرها . ويقال ان شركة Badisch Anline und-Soda Fabrik انفقت مبالغ طائلة لا تقل عن مليون جنيه طيلة سبعة اعوام للبحث عن اسهل الطرق الصناعية لتحضير النيلة . فكان لهم بعد ذلك ان يحتكروا صناعة النيلة في العالم فيربحوا اضعافاً مضاعفة لما انفقوه . ففي اوائل هذا القرن كانت تصرف المانيا ستمائة الف جنيه في العام لشراء النيلة من بلاد الهند ولكنها في عام ١٩١٤ صدرت الى أسواق العالم من النيلة الصناعية ما تزيد قيمته على ثلاثة ملايين جنيه

***

لقد اتسعت صناعة الاصباغ الكيميائية في المانيا اتساعاً جعلها تزاحم بريطانيا والولايات المتحدة فتصدر الى الاسواق العالمية ثلاثة ارباع ما كانت تنتجهُ معامل الاصباغ الكيميائية . حتى اضطرت بريطانيا ان تصرف المبالغ الطائلة في سبيل البحث عن الاصباغ الكيميائية وعن أسهل

الطرق لتحضيرها واضطرّت الولايات المتحدة ان تصرف خلال سني الحرب الماضية اربعين مليوناً من الجنيهات لتأسيس المعامل الخاصة بالاصباغ

العلاج الكيميائي

وليست الاصباغ وحدها مما يحضر من المركبات المستخرجة من زيت القطران فهناك انواع مختلفة من العقاقير والعلاجات الكيميائية تحضر من تلك المركبات ايضاً

كان الكيميائيون يبحثون عن امكان تحضير مادة الكينين بطرق صناعية عندما اكتشفوا انها تحتوي مادة الكوينولين Quinoline ، ولما كانت هذه من مستخرجات مركبات زيت القطران فانهم اقتنعوا بامكان تحضير الكينين من تلك المركبات . ومع انهم لم يكتشفوا تلك الطريقة حتى الآن الاَّ ان بحثهم اوصلهم الى اكتشاف انواع مختلفة من العقاقير. فقد اكتشفوا التالين Thallin والكيرين Kairin ، واستعمل هذا العلاجان مدة من الزمن ضد الحمى الصفراء الاَّ ان الاثر السيء الذي يتركانه في الجسم أبطل استعمالها

وفي عام ١٨٨٣ اكتشف الدكتور نور Knore الانيرين الذي يفوق الكينين بمفعوله وأكثر من استعماله كعلاج للصداع والحمى قبل ان يكتشف الاسيتانيليد Acetanilide المعروف في عالم الطب بالانتيفبرين . وقصة اكتشاف هذا العلاج على غاية من الغرابة والطرافة

يقال ان مريضاً مصاباً بمرض جلدي استشار طبيبين من جامعة ستراسبورغ فقررا اعطاءه قدراً من محلول النافتالين جرعاً داخلية . ولما كانا لا يملكان هذا المحلول طلباه من صديق لهما يشتغل كيميائيًّا في معمل لصنع الانتيرين بتلك المدينة . فما كان من هذا الصديق الاَّ ان امر خادماً له بملأ قنينة من محلول النافتالين وإرسالها الى الطبيبين . ومن غرائب الصدف ان الخادم عوضاً عن ان يملأ القنينة بما امره به سيده ملأها من محلول الاسيتانيليد وهو لا يدرك مايفعل فما ان استعمل المريض العلاج حتى لاحظ الطبيبان عليه هبوطاً كبيراً في درجة حرارته ما كانا يتوقعانهُ . وبعد ان استعمل المريض الدواء برمته طلب الطبيبان مرة ثانية من صديقهما مقداراً آخر من النافتالين . وفي هذه المرة زوّد الكيميائي صديقه بما طلب بنفسه . فلما استعمله المريض لاحظا ان العلاج لم يؤثر في الحمى ولم يخفض من درجة الحرارة . وبعد البحث والتحقيق عن العلاج الاول اتضح انه لم يكن نافتالينا وانما هو اسيتانيليد ، وان هذا يؤثر في الحمى فيخفض من درجة حرارتها . وهكذا خدمت الصدف البحث العلمي لاكتشاف علاج عظيم التأثير ضد الحمى والصداع

وهناك انواع مختلفة اخرى من العقاقير التي مصدرها مركبات زيت القطران ، نكتفي منها

بذكر الفيناستين واللاكتوفينون والفينوكول والفينورال والسلفونال . ويحضر ايضاً بعض المواد المخدرة المستعملة بكثرة في العمليات الجراحية كالكوكاين والنوفوكاين والستوفاين . فالكوكاين والنوفوكاين يستعملان في جراحة الاسنان . اما الستوفاين فيستعمل في العمليات الجراحية الكبرى كعملية استئصال الزائدة الدودية او عمليات ازالة الحصى من الكلية او المرارة . فاذا ماحقنت بضع قطرات منهُ في السائل المحيط بالنخاع الشوكي فقد المريض الحس في جزئه الاسفل ويتسنى للطبيب عندئذٍ اجراء عمليته في جوفه الباطني او في اطرافه السفلى والمريض مالك لقواه العقلية لا يتأثر قلبه بالعملية مهما تطل

وان ننس فلا ننسى الادرينالين العلاج الذي يؤثر في الاوعية الدموية فيقلصها، ويمنع بذلك النزف . ففي بعض العمليات الجراحية عند ما لا يراد التفريط بدم المريض يحقن بمقدار من هذا العلاج فيندفع الدم الى الانساج الداخلية ويتسنى للطبيب بذلك اجراء العملية الجراحية دون اهراق قطرة واحدة من دم المريض

وقبل ان ننتقل بالقارىء من البحث في العلاج الكيميائي لا بد لنا ان نروي له القصة التالية التي ان دلت على شيء فانما تدل على ان البحث العلمي هو اساس لجميع الصناعات ، وان الامم لا يمكن ان تتقدم فتعتلي المقام اللائق بها ما لم تبذل قصارى جهدها في سبيل البحث العلمي الذي سيؤدي بها حتماً الى التقدم الصناعي والى الثروة والعظمة

كان فالبرغ Falberg يشتغل مساعداً لاستاذ الكيمياء بجامعة جون هوبكنز ، وكان هذا الكيميائي الفتى يوالي بحثه العلمي عن مركبات زيت القطران وقصده تعيين اكبر عدد ممكن منها. وفي احد الايام اضطرَّ ان يبرح المختبر بعد نهار مضنٍ لكي يتناول شيئاً من الشاي وقسطاً من الراحة في داره . وكان من عادته ان يشرب الشاي مرًّا . فكم كان حنقه شديداً عند ما وجد الشاي والفطير شديدي الحلاوة . ولقد حسب لاول وهلة ان الخادمة أهملت واجبها فوضعت السكر في طعامه وشرابه. ولكن بعد ان استوثق من براءتها تحيَّر في امره . وصدفة لعق اصابعه فكانت حلاوتها لا تطاق . عندئذٍ اتضح له ان لا بد أن تكون مادة شديدة الحلاوة علقت باصابعه ، ولا بد ان تكون حلاوة تلك المادة فوق الحلاوة الطبيعية بكثير والاَّ لما بقي أثرها حتى بعد ان غسل كفيه مراراً . فهرول من ساعته الى مختبره وانكبَّ على تجاربه يفحصها بامعان ودقة وعثر اخيراً على المادة الشديدة الحلاوة فاكتشف الساكرين Saccharine وهو المادة التي تفوق حلاوتها خمسمائة مرة حلاوة السكر المتبلور

لقد واتى الحظ فالبرج بعد ان أسس معملاً كبيراً لصنع الساكرين فأقبلت على استعماله مصانع المربيات ومعامل حفظ الاطعمة اقبالاً منقطع النظير . ولكن بعد ان اتضح لأهل العلم

ان هذه المادة لا تفيد الجسم بشيء وانها تخرج منهُ كما دخلت اليهِ ، وان استعمالها الكثير يؤدي الى تناقص مقدار السكر في الدم وفي ذلك ضرر بليغ على الجسم ، قامت الحكومات بوجه صناعة «الساكرين» وزيدت التعريفة الجمركية عليهِ وحرّم استعماله في الاطعمة والمشروبات فكان من نتيجة هذه التدابير ان قلَّ شأنهُ واقتصر استعماله على المصابين بالبول السكري الذين يمتنعون عن استعمال اي طعام يحتوي سكراً وأية مادة تتبدل الى السكر في داخل الجسم

الروائح والعطور الصناعية

ويرجع تاريخ الروائح والعطور الى القدماء من ساكني ضفاف السند ودجلة والنيل . وكان استعمالها ظاهرة دينية مقتصرة على الكهان وعلى الجالسين على العروش . وكانت تحضر من نباتات او اعشاب يكثر وجودها في بلاد الهند والصين . وطريقتهم في ذلك ان ينقعوا الازهار والاعشاب في زيت من الزيوت التي لا رائحة لها فتتعطر هذه الزيوت بعطر الزهر او العشب المنقوع فيهِ . واول من فكر في التقطير كواسطة لتحضير عطر الورد وماء الزهر هو ابن سيناء الملك ولقد بقيت طريقته مستعملة حتى اكتشفت الطرق الصناعية الحديثة

ظلت العطور لغزاً من الالغاز حتى اواخر القرن الماضي اذ التفت الكيميائيون الى دراستها وتحليل موادها ، وقد وجدوا ان جميع العطور والروائح زيوت طيارة ممتزجة قِوامها مركبات كيميائية مختلفة وعذوبة العطور وذكاء رائحتها ناجم عن مزج هذه المركبات بنسب معينة ثابتة . فالعطور هي استرات حوامض شحمية او مركبات كحولية او بنزينية فرائحة الاجاص مثلاً ناجمة عن وجود خلات الاميل Amyl Acetate في الاجاص وطعم الاناناس يعزى الى وجود بوتيرات الايثل في الفاكهة . والجيرانيول واللينامول ينفحان الورد برائحته الزكية ويعزو الكيميائيون قوة رائحة بعض العطور الى وجود جزيء البنزين في جزيئات هذه العطور

وتحضر الروائح العطرية الصناعية بذات الطرق التي تحضر بها الاصباغ الكيميائية ، فيبدأ الكيميائي بجزيء البنزين ضامًّا اليهِ جزيئات مواد اخرى حتى يكتمل بناء جزيء العطر المطلوب فاذا اراد تحضير عطر الياسمين مثلاً يمرس الطولوين بغاز الكلورين فيتكون لديه كلوريد البنزين ثم تفاعل هذه المادة بخلات الصوديوم لتحضير خلات البنزين وهي المعطر ذاته . اما اذا بدأ بالفينول او ما يسمى بالحامض الفينيك وفاعله بالحامض الكاربونيك ثم فاعل الحامض الساليسيليك الناتج بالكحول الميثيلي تكوَّن لديه ساليسيلات الميثيل وهي المادة الموجودة في كثير من العطور وبصورة خاصة في عطر حشيشة البقول

وقد يظن البعض ان هذه المركبات ليست العطور والروائح النباتية ذاتها وانما هي صور ممسوخة

لها . والحقيقة ان ما يحضره الكيميائي في مختبره هو العطر نفسه بصورة نقية غير ممزوج بعطر آخر وباضافة مركبات العطر الطبيعي بنسبه المعينة بعضها الى بعض يحصل الكيميائي على عطر مماثل للعطر النباتي

وهكذا تقدمت صناعة الروائح والعطور تقدماً كبيراً فلم تبق زهرة او فاكهة الاّ وحضر الكيميائي رائحتها او عطرها . فقد حضر المسك من الكزايلين والزباد من الاندول والعنبر من بنزوات البنزيل ورائحة اللوز الحلو من البنزالدهايد وعطر الزنبق من انترانيلات الميثيل والفانيليا من الفانيلين وعطر البنفسج من الآيونون وغيرها مما لا مجال لذكرها ها هنا

لقد بدأت صناعة العطور الكيميائية في بريطانيا عند ما اكتشف السير وليم بركن الملقب بأبي الكيمياء الصناعية ، عام ١٨٦٨ طريقة تحضير عطر الكيومارين ولكنها سرعان ما انتقلت الى بلاد الالمان حيث وجدت عقولاً تستفيد منها وتستغلها كل الاستغلال . ولم تمض سنوات على ذلك الاكتشاف حتى اكتشف تايمن Tiemann طريقة تحضير عطر الفانيليا ثم توالت المكتشفات والمبتكرات في هذا السبيل حتى بلغت صادرات المانيا من هذه الصناعة وحدها ما يزيد على مليوني جنيه

المتفجرات

وللمتفجرات حديث يلذ للقارىء الاطلاع عليه خاصة ونحن في عام توترت فيه الاعصاب وحمل كلٌّ سلاحه للقضاء على أخيه الانسان ، وانصرفت المصانع لصناعة الكوردايت والليدايت وغيرهما مما يستعمل لتحطيم اركان المدنية ولدك أسسها . ولسنا نستطيع ان نأتي على جميع أنواع المتفجرات في هذه الدراسة ، فالبحث حريٌّ بالتوسّع والتبسط ولهذا سنفرد له بحثاً خاصًّا يتناول جميع نواحيه

ويقصد بالمتفجرات المواد التي تحمل بين ذراتها مقادير كبيرة من الطاقة الكامنة ، التي سرعان ما تتحلل الى مواد غازية تتمدد تمدداً عظيماً عند تأثرها بأول مؤثر . فالماء وهو أسلم جميع المواد في الطبيعة وأبعدها عن الخطر قد ينفجر عند ما يعرض لجسم معدني متقد او تقرب درجته من درجة الاتقاد . والمتفجرات اما ان تكون مركبات هيدروكربونية او مركبات بنزينية ، والذي يهمنا التطرق اليه هنا هو المركبات الاخيرة وأهمها الحامض البكريك Picric Acid والنتروطولوين الثالث Trinitrotoluene

عند ما يعالج الفينول بمزيج من الحامضين النتريك والكبريتيك المركزين يتكوّن الحامض البكريك او ما يدعى بالنتروفينول الثالث ، وهذا حامض صلب متبلور اصفر اللون يستعمل في كثير من الاحيان كصباغ أصفر اللون للمنسوجات الحريرية . وهو مادة لا خطر منها حتى وان أدنيت من النار ولكنها

شديدة التفجر عظيمة الخطر عند ما تقرب من فلمنات الزئبق . وللحامض البكريك صفة التفاعل مع الفلزات ببطء مكوناً بكرات معدنية سريعة التفجر والتحلل ذاتيًّا . وهذا ما حمل المختصين بالفنون الحربية وبصناعة العتاد على الاستعاضة عنهُ بالنتروطولوين الثالث T. N. T. . وهذه المادة وان كانت عظيمة الاثر ، غاية في شدة التفجر الاّ انها لا تتفاعل مع اغلبية القنابل ، ولا تتفجر بغير فلمنات الزئبق

ولا ريب ان القارىء يظن بعد هذا ان الهدف في اكتشاف المتفجرات القضاء على الاعداء في حالات الحروب فقط ، والحقيقة ان اثر المتفجرات في المدنية كبير جدًّا ، فلو لم تكن لدى الانسان مواد متفجرة لتعذر عليه فتح قناتي السويس وبناما ، ولما تسنى له شق طرق المواصلات بين الجبال ومدّ السكك الحديدية في الانفاق

ودراسة المتفجرات ما زالت في اول عهدها ، فالبعض من الكيميائيين الذين يسخرهم الساسة لاغراضهم وتظلل على عقولهم دعايات من لا رحمة في قلبه ، دائبون اليوم على البحث في سبيل اكتشاف انواع جديدة من المتفجرات الشديدة الفتك ، لخير المدنية — او للقضاء عليها

مكتشفات اخرى

ومن الصناعات الحديثة التي تعتمد كل الاعتماد على مركبات زيت القطران ومشتقات البنزين هي صناعة تظهير الرقوق الفوتوغرافية وتحميض الاشرطة السينمائية . فالرقوق والاشرطة بعد ان تعرض للاشعة المنعكسة من الاشياء المراد تصويرها ، تغمر في مادة مختزلة ليكمل اختزال مادة بروميد الفضة التي تأثرت بالاشعة الضوئية وتحللت تحليلاً جزئيًّا . وأكثر هذه المواد المختزلة ذيوعاً هي الحامض البيروجاليك والهيدروكوانيون والميثول ، وهذه المركبات جميعاً تحضر من البنزين او مشتقاته

ومن أحدث الصناعات عهداً وأكثرها نفعاً لرجل الطريق هي صناعة المواد المكيّفة او العجائن الصناعية Plastics . اكتشف الكيميائي العظيم فون باير عام ١٨٧٢ ان الفورمالدهايد او ما يدعى بالفورمالين عند ما يضاف الى الفينول يتحدان ويكونان مادة صمغية . ولقد اهتم عدد من الكيميائيين باستعمال هذه المادة الصمغية في بعض الصناعات ، ولكن تعذّر استعمالها للزوجتها الزائدة ولعدم محافظتها على الشكل الذي تفرغ فيه . وفي عام ١٩٠٩ اجرى الكيميائي الاميركي بيكلند Baekeland تجارب مختلفة لتكثيف الفينول فاكتشف انهُ عندما يمزج وزنين متعادلين من الفينول والفورمالدهايد مع عامل مساعد قاعدي ويحمى المزيج تترسب مادة صمغية كثيرة الذوبان في الكحول والاسيتون ، وعند احماء هذا الراسب تحت ضغط شديد تقسو وتتصلب وتفقد

لزوجتها وتحافظ على الشكل الذي كيفت به بحسبه . وقد دعيت هذه المادة الجديدة بالباكليت نسبة الى اسم مكتشفها

ومزايا الباكليت ان الخشب عند ما يغمر به ويحمى ويضغط يكتسي طبقةً رقيقة منهُ تكسبهُ لماناً دونه لمان انفس انواع الدهان . وان الورق العادي او الورق المقوّى عند ما يشبعان به ويحميان تحت الضغط يستعملان كمواد عازلة للتيار الكهربائي . وتصنع من الباكليت اشياء كثيرة عظيمة الشأن في حياتنا اليومية فمنهُ تعمل اوانٍ للطعام ، وحلي للسيدات ومقابض للعصيّ وللمظلات وكرات للبليارد ، واقلام الحبر وغيرها مما لا نستطيع الاستغناء عنهُ في حياتنا العامة

هذا ولا نجد ما نختتم به حديثنا هذا أبلغ مما قاله الاستاذ دويزبرغ Duisberg في خطاب له بالمؤسسة الملكية البريطانية عام ١٩٠٦ « عندما وقفت قبال القنينة الصغيرة المحتوية على البنزين اول المركبات الهيدروكربونية التي فاز بتحضيرها وعزلها فارادي ، مرت أمام عيني صورة هي أشبه بالحلم . لقد شاهدت هذه القنينة الصغيرة تتضخم وتتسع اتساعاً كبيراً وهي مملوءة بالملايين من الجالونات من تلك المادة وكأنني شاهدت بوسطها المعامل الجبارة وهي تنتج الآلاف من المركبات والمواد ذات الشأن الكبير . ثم تصورت ان صوراً لا عدَّ لها ولا حصر مرت امامي وهي تمثل صناعة الاصباغ الكيميائية بالوانها الزاهية . وصناعة المواد الاقراباذينية وما انتجتهُ من مختلف الادوية والعقاقير . . . . وكأن انفاسي امتلأت بعبير العطور الصناعية وطرفت نفسي من جمال الصور الفوتوغرافية . . . . . هذه الصناعات بأجمعها هي ركن قويم من اركان التقدم الصناعي وأس ثابت من أسس المدنية الحديثة »

مراجع البحث :

1. Introduction to Industrial Chemistry. By L. J. Levy
2. Modern Chemistry & Its Wonders. By Dr. Geoffrey Martin
3. Creative Chemistry. By E. E. Slosson.
4. Chemistry in Service of Man. By A. Finlay
5. The Progress of the Scientific Chemistry. By Sir W. A. Tilden
6 Chemistry in Commerce Vol. I. Edited by Molloy
7. Encyclopedia of Modern Knowledge Vol. I. Edited by Hammerton.

بين الوطنية والفاقة

لعبد الحميد الديب

رضيت ومن يمرن على حزنه يرضى   فيا ظل احلام تقلص وانفضا
ويا سامر الدنيا وموكب يسرها   تجافيت بي نفلاً وانكرتني فرضا
كأني بين الناس لعنة جيلهم   فمن شمت منهُ العيش أوسعني رفضا
ويحتال حتى لا يفرّج كربتي   اذا عيَّ بي كُلاًّ يجرّحني بعضا
وقدمت نفسي للبلاد بخطبها   فداءً فسامتني نواظرها غضا
أحتى اذا قدمت مستكرماً دمي   لشعبي اسام البغض منهُ فلا يرضى
يعدونهُ مني انتحاراً لفاقتي   ولسنا ضحايا البؤس مثلهم مرضى
أيعلاً هذا الشعب حبي ورحمتي   ويفجعني في كل مضطرب بغضا
أريد سماءً بالجهاد تعزني   وشعبي يأبى أن يسوئني أرضا
أحولي هذا الرعد والبرق وامضاً   وتخبو حياتي لا أشيم بها ومضا
لقد جندتني الحادثات لحربها   فأي حقوق للبلاد بها تقضى
قضاءً باعدامي غداة شبيبتي   عجزت فلم أملك لضربته نقضا
أريد انتظامي بين أجناد أمتي   أقدم قرباناً شبابي لها غضا
ولكن عجزي عن كفافي يؤودني   فلم ادر طولاً للجهاد ولا عرضا
لئن كان عزمي ماضياً فنوائبي   اذا عصفت بالعزم ظافرة أمضى

تأسيس سامرا

— ٣ —

بقلم الكبتن كرزول
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية

المسجد الكبير بسامرا

يكون مسجد سامرا مستطيلاً طوله ٢٤٠ متراً وعرضه ١٥٨ متراً (اي بنسبة ٣ : ٢) تطيف بهِ جدران ذات ابراج مبنية جميعها بالآجرّ . فمساحتهُ على التقريب ٣٨ الف متر مربع. ومحرابه ليس على سمت القبلة فهو منحرف عنها بمقدار ١٫٣٠ درجة وذلك لانهُ يقع على درجة ١٢ جنوباً بغرب بينما القبلة الحقيقية للمكان تقع على درجة ١٣٫٣٠

ولم يبق من هذا المسجد غير جدرانهِ الخارجية أما الدعائم والاعمدة والسقف فلا وجود لها . وتبلغ ثخانة هذه الجدران مترين وهى مبنية بالآجرّ الاحمر الغامق الضارب للسواد الذي تبلغ الواجدة منهُ ٢٤ سنتمتراً مربعاً . وقد تآكل وجه البناء الى ما فوق قامة الرجل بفعل الرطوبة والاملاح وما تنتجه من التأثير الكيمياني في مواد البناء لا بسبب تعرضه لرمال الصحراء وهبوب الرياح كما كانت تعتقد العالمة الاثرية جرترود بل Gertrude Bell وهو يشبه من هذه الوجهة قصر الحير

والابراج نصف دائرية تقريباً وقطرها في المتوسط ٤٫٥٠ المتر وهي تبرز عن الحائط بمقدار مترين . وبين كل برج والذي يليه ١٥ متراً تقريباً . وهناك من هذه الابراج أربعة في الاركان وعشرة في كل من الجدارين الشرقي والغربي وثمانية في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي . فهي جميعاً أربعون برجاً . وتبرز الابراج الواقعة في الاركان الجانبية مترين الى الخارج ومترين في الداخل ولذلك فأقطارها أعظم من أقطار الابراج الأخرى التي لا تبرز سوى مترين الى الخارج فقط

﴿ الابواب ﴾ لهذا المسجد واحد وعشرون باباً كبيراً وبابان صغيران سعة كل منهما ١٫٢٥ المتر ومن هذه الابواب خمسة من الجانب الشمالي للمسجد بين كل منها والذي يليه برجان يحصران بينهما جزءاً من الحائط لا باب فيه . على الترتيب الآتي :

برج الركن الشمالي الشرقي يتلوه الباب الأول
وبرجان يحصران بينهما جزءاً من الحائط لا باب فيه
ثم الباب الثاني ويتلوه برجان بينهما جزء من الحائط مسدود
ثم الباب الثالث » » » » »
ثم الباب الرابع » » » » »
ثم الباب الخامس ويتلوه برج الركن الشمالي الغربي

اي أن البرجين الجانبيين الركنيين الشماليين والابراج الثمانية الشمالية الاخرى تحصر بينها خمسة ابواب مفتوحة في الجدار الشمالي . والرسم الآتي يوضح ذلك :

برج الركن الشمالي الشرقي برج ٢ برج ٣ برج ٤ برج ٥ برج ٦ برج ٧ برج ٨ برج ٩ ١٠ برج الركن الشمالي الشرقي

—::——*—::—*—*—::—*—*—::—*—*—::—*

باب ١ باب ٢ باب ٣ باب ٤ باب ٥

ويبلغ متوسط سعة البابين القريبين من الركنين ١٫٥٠ المتر ومتوسط سعة الابواب الثلاثة الاخرى ٤ أمتار . وبالحائط الغربي ثمانية ابواب تقع من الشمال الى الجنوب على النظام الآتي :
١ — باب سعته ٤٫٥٥ المتر وحائط . ٢ — باب سعته ٤٫٧٥ المتر وحائط . ٣ — باب سعته ٣٫٨٥ المتر وحائط . ٤ — باب سعته ٢٫٦٢ المتر . ٥ — باب سعته ٤٫٠٠ أمتار . ٦ — باب سعتهُ ٢٫٦٢ المتر وحائط . ٧ — باب سعته ٤٫٠٥ المتر وحائط . ٨ — باب سعته ١٫٥٠ المتر يضاف اليها باب صغير سعته ١٫٢٥ المتر مما يلي البرج الركني الجنوبي . وتتفق مواقع الابواب في الحائط الشرقي المقابل مع مواقع ابواب الجانب الغربي بحسب النظام السابق عدا البابين الرابع والسادس فلا وجود لهما ولذلك نجد مواقع الابواب في هذا الجدار كما يلي

١		٢		٣		
باب	حائط	باب	حائط	باب	حائط	حائط
٤			٥		٦	
باب	حائط	حائط	باب	حائط	باب	

فهناك ستة أبواب فقط يضاف اليها الباب الصغير الخلفي في الطرف الجنوبي ومن ذلك يتضح خطأ التخطيط الذي وضعهُ دي بيلييه De Beylié في ثلاثة جوانب من المسجد والذي رسمهُ ڤيوليه Viollet في الجانب الشمالي ، وخطأ التخطيطين اللذين نشرهما هرتسفلد Herzfeld أيضاً عن هذا المسجد . والرسم الوحيد الصحيح الذي نشر هو الذي عملتهُ جرترود بل Gertrude Bell

وقلما نجد مواقع الابواب في منتصف الحائط المفتوحة فيه تماماً . واذا فحصنا نظام أروقة

المسجد فاننا نجد ان هذه الابواب قد اختيرت مواقعها بحيث تتفق ونظام الاروقة في حرم المسجد ورواقيهِ الجانبيين وتقع على محاورها

أما في الجانب الجنوبي للمسجد فلا يوجد سوى ثلاث فتحات في الجزء الاوسط من الجدار وقد اثبتت استكشافات هرتسفلد وحفائرهُ ان الفتحة الوسطى لم تكن باباً بل محراباً . ويمتاز البرجان الجانبيان النصف الدائريين اللذان يحفان بهِ عن غيرها بأنهما مستطيلان من وجهها الداخلي حتى مستوى قمة الابواب وبذلك تكون جملة الابواب واحداً وعشرين باباً يضاف اليها بابان صغيران سعة كل منها ١ر٢٥ المتر كما قدمنا . وقد سقطت جميع أجزاء البناء التي كانت تعلو الابواب الكبيرة . ولكننا اذا فحصنا الاكتاف الجانبية للابواب الباقية في حالة جيدة اتضح لنا انهُ كانت هناك عقود عاتقة واطئة تقويها كتل خشبية

ففي الباب الجنوبي الكبير في الجانب الغربي مثلاً نجد الى اليمين ان البناء (من الطوب) يميل بانحناء الى الخلف ويستنتج من ذلك ان عقداً واطئاً كان يبدأ من هذا المكان كما ترى في الحائط مواضع الاعتاب او الكتل الخشبية في نفس المستوى وأعلى منهُ قليلاً

أما جزء الحائط الذي يعلو هذه الآثار فهو مبني بالطوب وليس فيهِ ما يستحق الملاحظة سوى أنهُ يبرز قليلاً عن جانب الباب الذي يقع أسفله . فماذا يعني ذلك ؟

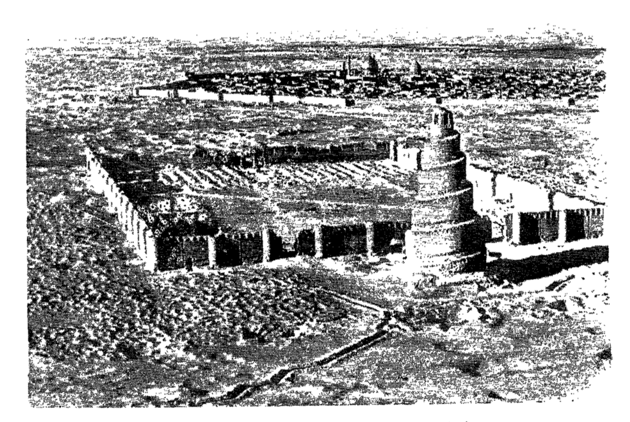
إن الجواب عن ذلك يمكن معرفته اذا فحصنا الابواب فحصاً مدققاً . ففي أحد الابواب نرى بدء عقد صغير جدًّا ممتدًّا الى الخلف على هيئة قبو متجه الى داخل الحائط مما يدل على أنهُ كانت هناك عدة نوافذ صغيرة معقودة تعلو قمة كل باب من الابواب الكبيرة أسفل الافريز ذي الحشوات الغاطسة مباشرة . وهذا يفسر السبب في عدم وجود نوافذ في الجزء الجنوبي النهائي في كل جانب . اذ لم تكن هناك حاجة اليها لوجود الفتحات التي تعلو هذه الابواب ولكنها كانت ضرورية في اجزاء الحائط التي تليها حيث لا توجد ابواب بها

﴿ الافريز ﴾ والابراج خالية تماماً من الزخرفة ولكن الحائط محلًّى بطراز من الزخارف قِوامُهُ ست دخلات مربعة في كل منها زخرفة على هيئة صحن الفنجان وهي غير عميقة اذ يبلغ قطرها متراً وعمقها ٢٥ سنتمتراً ولا يزال بعضها تغطيهِ كسوة من الزخارف الجصية وجزؤها العلوي على شكل عقد نصف دائري لا على هيئة دائرة كاملة كما كان ينتظر في مثل هذه الحالة

وفي كل جزء من الحائط شق رأسي عمودي (وفي واحد منها شقان) ، ولا شك ان هذه الشقوق كانت بها انابيب (او مواسير) لتصريف مياه المطر من سطح المسجد المستوي وجملة ارتفاع الحائط في الوقت الحاضر حوالي ١٠ر٥٠ المتر ويظهر ان ارتفاعهُ الاصلي لم يكن يربي على ذلك كثيراً

﴿ الشبابيك ﴾ وبالجزء العلوي من الحائط الجنوبي اسفل مستوى الافريز ٢٤ نافذة اثنتان

١ — صورة صورها من الجو سلاح الطيران البريطاني تبين المسجد الكبير بسامرا
والزيادات التي تحيط به ومدينة سامرا الجديدة وقد ظهر بالصورة السور الذي يطيف بها



٢ — صورة صورت من الجو لمسجد سامرا الكبير (٢٣٤ ـ ٢٣٧هـ : ٨٤٨ ـ ٨٤٩ — ٨٥١ ـ ٨٥٢م)

منها فوق البابين اللذين يحفان بالمحراب . وتقع هذه النوافذ على ابعاد متساوية الا في منتصف الحائط فان ارتفاع الاطار المستطيل الذي يحيط بالمحراب جعل من المتعذر فتح نافذة في هذا الموضع . وسنرى ان مواقع هذه النوافذ تتفق تماماً مع نظام اروقة حرم المسجد الخمسة والعشرين وانها تقع على محاورها . وقد كانت هناك ايضاً نافذتان اخريان في كل جانب من جوانب الجزء الثاني من الحائط من الجنوب وبذلك يصبح جملة عدد النوافذ ٢٨ نافذة .. على انهُ لم تكن هناك نوافذ اخرى لعدم الحاجة اليها لان الاروقة الجانبية كانت اقل عمقاً من اروقة حرم المسجد

وهذه النوافذ من الخارج عبارة عن فتحات ضيقة مستطيلة . أما من الداخل فتعلوها عقود ذات خمس حنيات تحملها اعمدة جانبية متصلة بالحائط . ويحيط بذلك جميعه اطار مستطيل غاطس

وقد سبق ان اوضحنا ان هذه النوافذ تقع بالضبط على محاور الاروقة ولكنها ليست على نسق واحد في اجزاء الحائط التسع فتارة تكون مفتوحة في الحائط واخرى في جوانب الابراج. وهناك نافذة مفتوحة في وسط احد الابراج تماماً . وقد عثر هرتسفلد في حفائر سنة ١٩١١ على قطع من الزجاج ثخانتها ٢٫٥ السنتمتر هي بلا شك من النوع الذي كانت تملأ وتحلى به هذه النوافذ

المسجد من الداخل

نظراً لعدم وجود الدعائم التي كان يقوم عليها سقف المسجد ، لأخذها من مواضعها بغية الاستفادة من مادتها واستخدامها في أغراض أخرى ، لم يكن من المستطاع معرفة تخطيط المسجد بالضبط حتى قام هرتسفلد باستكشافاته سنة ١٩١٠ اللهمَّ الاَّ فيما يتعلق بعدد اروقة حرم المسجد فإن الاعمدة حين نزعت حتى أسسها تخلفت عن ذلك حفر يستدل بها الآن على انهُ كان يوجد اربعة وعشرون صفًّا من الاعمده تكوّن خمسة وعشرين رواقاً تتفق محاورها مع مواقع النوافذ والرواق الاوسط منها أكثر اتساعاً من بقيتها . وقد كان السقف يرتكز على هذه العمد مباشرة فلم تكن هناك حاجة الى القناطر ولو كانت هناك قناطر لشاهدنا آثار اتصالها بالحائط . ولكن هذه الآثار لا وجود لها مطلقاً في جميع الجدران

وقد أثبتت استكشافات هرتسفلد وأعمال الحفر التي قام بها انهُ كان يوجد حقيقة بحرم هذا المسجد ٢٥ رواقاً الاوسط منها اكثر اتساعاً من البقية و ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل منها عشرة عمد ، وبالرواق الشمالي (ويمكن تسميته بالبلاط او الايوان او الليوان الشمالي) ٢٥ رواقاً الاوسط منها اكثر اتساعاً من البقية و ٢٤ صفاً من الاعمدة في كل صف منها ثلاثة عمد تسير عمودية على الحائط الشمالي

أما الرواقان الجانبيان فكان بكل منهما ٢٢ صفًّا من الاعمدة مكوّنة ٢٣ رواقاً وفي كل صف منها أربعة عمد تسير موازية لحائط القبلة وبذلك تكون جملة عدد الاعمدة ٤٨٨ عموداً

﴿ الاسس ﴾ كانت أسس الجدران مرتكزة على الصخر وكذلك كانت صفوف الاعمدة تقوم على أسس مستمرة قليلة الارتفاع مبنية على الصخر. وقد ملئت المساحات الواقعة بين جدران هذه الاسس الواطئة بالدقشوم والحصى وسُوّيَ سطحها ثم غطي بطبقة من الطوب كانت بمنزلة قاعدة لارضية القاعات الرخامية ، وهذا يؤيد ما رواه المقدسي من ان ارض هذا المسجد كانت مفروشة بالرخام . ويظهر ان صحن المسجد كان مبلطاً بالطوب فقط. وقد وجد هرتسفلد ان الجزء الاكبر من طوب أرضية الصحن لا يزال بحالته الاصلية لم تمتد اليه يد بينما طوب جدران الاسس قد اخذ جميعه ونقل من موضعه ولم يبق منه شيء اصلاً

﴿ الدعائم ﴾ يمكن معرفة شكل الدعائم اذا درسنا بعناية آثار مواضعها الباقية في الردم حيث لا تزال بقية باقية من الجص الذي كان يكسو قواعدها . وقد كانت هذه القواعد مربعة وطول كل ضلع منها ٢٫٠٧ المتر وترتكز عليها ارجل مثمنة مبنية بالطوب في كل ركن من اركانها الاربعة عمود من الرخام ذو تاج مركب . وقد امكن قياس اوجه الارجل الثماني حيث لا تزال بقاياها في الردم . وقد كانت بعض الاعمدة الرخامية مستديراً وبعضها مثمناً قطرها حوالي ٣٠ سنتمتراً . أما بدن العمود فكان يربي على المترين . وترتكز هذه الاعمدة على صفائح من الرصاص وتدور حولها اطواق من المعدن في مواضع هذا الاتصال . وقد لحظ على احدى الارجل (او الاساطين) بعض الرموز اليونانية التي كان يتركها البناءون اليونانيون مما يدل على صدق الرواية القائلة بجلب البنائين والاعمدة من اللاذقية وانطاكية (تراجع رواية اليعقوبي عن ذلك في المقال الاول)

وهذه الاعمدة الجانبية ذات تيجان وقواعد على شكل الساعة . وارتفاع داخل المسجد من البلاط حتى مواضع كتل السقف ٩٫٣٥ المتر وهذا يسمح بوجود تاج وقاعدة ارتفاع كل منهما ذراعان وعمود ركني بدنه مكوّن من ثلاث قطع يضاف اليها تاج وقاعدة ارتفاعها ٥٠ سنتمتراً وكانت الاعمدة مختلفة الالوان والمواد وقد وجد منها تسعة الوان . أما من حيث المواد فكان اكثرها من الرخام وقليل جداً منها من الجرانيت وكانت الارجل مبنية بالآجر ومطلية بالجص بلون يتفق مع لون بدن العمود المتصل بها

ونحن لا نعلم على وجه الدقة كيف عولجت واجهة الصحن ولا الحالة التي كانت عليها الاَّ ان هرتسفلد عثر على اربعة عمد من اعمدة احدى الارجل في موضع اساس الركن الجنوبي الشرقي للصحن بالضبط واستنتج منها أن واجهة الصحن لم تكن تختلف مطلقاً عن صفوف الاعمدة التي خلفها . الاَّ انهُ لحظ ان اسس واجهة الصحن اعرض من اسس بقية صفوف الاعمدة

﴿ المحراب ﴾ وقد اثبتت حفائر هرتسفلد ان ما كان يظن من قبل انه باب في منتصف الحائط القبلي لم يكن في الحقيقة سوى محراب المسجد ولم يكن تجويف هذا المحراب مستديراً بل مستطيلاً

عرضه ٢٫٥٩ المتر وعمقه ١٫٧٥ المتر. وكان يحف به من الجانبين زوجان من اعمدة الرخام وردية اللون ذات قواعد وتيجان على شكل الساعة جلبت من عينتاب. وكان يرتكز على هذه الاعمدة عقدان مدببان متحدا المركز يضمهما اطار مستطيل يرتفع بارتفاع المسجد ويتكون من حز وخوصة منشورية وحز عريض وقطاعها جميعاً على شكل ثلاثة ارباع دائرة ولا يبرز هذا الاطار عن وجه الحائط. وقد كان خصرا هذين العقدين محلّيين بفسيفساء مذهبة. وقد عثر على عدة قطع من الزخارف الجصية ولكن لم يكن من المستطاع معرفة مواضعها بالضبط

ووجد هرتسفلد ايضاً ان البابين الواسعين اللذين يحفان بالمحراب ويعلوهما عتبان أفقيان لم يكونا مدخلين رئيسيين مفتوحين من الخارج بل كانا يوصلان الى غرف متصلة بالمسجد

وبوجه الحائط حول المحراب والبابين الجانبيين كثير من الحزوز الأفقية يعتقد هرتسفلد أنها آثار مواضع تركيب بعض الحشوات الخشبية

﴿ الزخارف ﴾ يقول المقدسي ان هذا المسجد كان يضارع مسجد دمشق في رونقه وبهائه وان جدرانه كانت مكسوة بالميناء. وقد اختلف رانكنج Ranking ولسترينج Le Strange في ترجمة هذه العبارة فترجمها الاول على انها كانت مطلية بالميناء « Enamel » وترجمها الثاني على انها تعني الواح الخزف او مربعات القاشاني المموهة بالميناء اما هرتسفلد فشك في صحة استنتاج هذين العالمين وذكر ان كلمة الميناء الواردة بهذه العبارة تعني الفسيفساء الزجاجية. وعزز رأيه هذا بالاشارة الى ما رواه اليعقوبي من ان المعتصم « حمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف ». ولكنهُ عاد فيما بعد وغير رأيه هذا وأبدى انها تعني الخزف ذا البريق المعدني لانهُ كان بلا شك شائعاً ومعروفاً في ذلك الوقت. ودليل ذلك اطباق القاشاني التي ارسلت من بغداد الى مسجد القيروان الكبير سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ — ٨٦٣ م) وما زالت تحلي محراب هذا المسجد الى الآن

الاّ ان الاستكشافات التي قام بها في هذا الموضع في سنة ١٩١٠ على رأس البعثة الالمانية اثبتت صدق رأيه حيث عثر على كثير من بقايا الفسيفساء الزجاجية التي يمكن الآن معرفة الطريقة الفنية في صناعتها وان كان من المستحيل معرفة أشكال الموضوعات الزخرفية والرسوم التي كانت تتكوّن منها

﴿ الفوّارة ﴾ ولا تزال في وسط الصحن بقايا الفوارة العظيمة التي كانت بهذا المسجد وذكرها اليعقوبي بقوله « وجعل فيهِ فوّارة ماء لا ينقطع ماؤها »

ووصفها المستوفي بانها كانت من قطعة واحدة من الحجر. دورها ٢٣ ذراعاً وارتفاعها سبعة اذرع وثخانتها نصف ذراع وكانت تعرف بكأس فرعون. ولم تكن توجد قطعة واحدة من الحجر بهذه الضخامة في جوار سامرا ولا في المناطق المحيطة بها الى اكثر من ثلاثين فرسخاً

ويروي المستوفي ايضاً انهُ (اي المعتصم) بنى مئذنة للمسجد ارتفاعها ١٧٠ ذراعاً يرقى اليها

من الخارج وهي متفردة في طرازها ولم يبنَ نظيرها من قبل . ولا شك انهُ بقوله هذا يشير الى فوَّارة ومأذنة مسجد سامرا . وان كان قد عزا بناءه خطأً الى المعتصم . وقد أثبتت حفائر هرتسفلد ان الاساس الاسطواني للقاعدة كان مبنيًّا بالطوب ومونة الجير والرماد . وهو الجزء الباقي من هذه الفوارة . اما كأسها فكانت مرتكزة على قاعدة مكسوَّة بالرخام لا تزال بقايا جزء منها موجودة الى الآن . وعثر بجوار الفوارة خارج الاساس الاسطواني على قطع من أعمدة الرخام والتيجان وعلى زخارف جصية منقوشة ومذهبة ومحلاة بفسيفساء زجاجية . ولذلك يظن انهُ كانت هناك سقيفة من الخشب محمولة على دائرة من الاعمدة مرفوعة فوق هذه النافورة المسماة « كأس فرعون »

﴿ الزيادات ﴾ يتضح من دراسة الطرف الجنوبي للجزء الجنوبي من حائطي السورين الشرقي والغربي انهُ كان هناك حائط يتصل بهذين الطرفين . ودليل ذلك انهُ لا يزال يوجد بقايا بدء عقد منخفض بالحائط الغربي . مما يدل على ان هذا الحائط كان محلًّى ببوائك معقودة صماء مماثلة للبوائك المسدودة « برحبة الشرف » بقصر الاخيضر

وتدل الصورة الجوية التي صوّرت لهذا المسجد على ان هذه الحيطان التي لا يكاد يرى السائر آثارها الاَّ بصعوبة كانت جزءًا من سور عظيم كان يطيف بالمسجد من جوانبه الشرقية والغربية والجنوبية وكان يحيط بهذا المستطيل العظيم من جوانبه الاربعة سور آخر يفصله عن السور الاول فضاء مكشوف عظيم الاتساع في الشرق والجنوب والغرب واكثر ضيقاً في الشمال . ويعرف هذا الفضاء المتروك بين السورين بالزيادة . وكانت جدران الزيادات جميعاً مبنية بالطوب ولكنهُ — مع الاسف الشديد — حمل أكثره الى جهات أخرى

ويتضح من حفائر هرتسفلد سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ ان أضلاع السور الخارجي كانت تبلغ ٣٧٦×٤٤٤ متراً أي ان مساحة المسجد والزيادات كانت تربي على ١٧ هكتاراً او أكثر من ٤١ فداناً . ولا شك ان الابنية التي كانت بها المراحيض وأماكن الوضوء او المطهرة كانت جميعاً بهذه الزيادات كما يشاهد ذلك في مسجد ابن طولون الذي بني على مثال هذا المسجد . وإن كان هرتسفلد — لسوء الحظ — لم ينشر للآن نتائج كشفه لهذه المواضع

وقد ذكر اليعقوبي ان المتوكل « جعل الطرق المؤدية الى المسجد من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رياح في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلاَّ يضيق عليه الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله . ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب وسلك فيها قطائع جماعة من عامة الناس . فاتسعت على الناس المنازل والدور واتسع اهل الاسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والاسواق في صفوف المسجد الجامع . . . . الخ »

وقد عالج شفارتش Schwarz موضوع هذه الصفوف وعارض في ان وجودها بهذه العظمة والاتساع يستلزم ان تكون للمسجد واجهة تساوي تقريباً طول احد جوانبه تؤدي اليها هذه الصفوف . ولاجل ان يتغلب على هذه الصعوبة ظن ان هذه الصفوف لم تكن سوى الزيادات او الفضاء المتروك بين جدران المسجد والسور الخارجي . الآن هذه الصعوبة التي تخيلها هي في الحقيقة وهمية لانهُ لم يتنبه الى ان هذا السور الخارجي كانت اطوال اضلاعه ٣٧٦ × ٤٤٤ متراً وهي كافية تماماً لان تنتهي اليها هذه الشوارع او الصفوف الثلاثة

﴿ المئذنة ﴾ وتعرف بالملوية وتقع بالزيادة على بعد ٢٥ متراً من حائط المسجد وعلى محوره الاوسط تماماً وطول ضلع قاعدتها المربعة ٣٢ متراً وهي تتصل بالمسجد باساس طوله ٢٥ متراً وعرضه ١٣ متراً وفي وسطهِ جسر صغير يوصل الى القاعدة حيث يبدأ المرقى بطريقة تشبه تماماً زيجورات بابل . والقاعدة محلاة الى جانبي الجسر ، بصفة (محراب صغير) مستطيلة قليلة الغور . وتعلو هذه القاعدة مئذنة حلزونية ذات مرقى سعتهُ ٢٫٥٠ المتر يبدأ من مركز او وسط الجانب الجنوبي ويدور في اتجاه عكس عقارب الساعة حتى تتم دورات خمس وكلما صعد الانسان الى اعلى زاد انحدار المرقى شدة . ويعتقد هرتسفلد ان هذا المرقى كان به قديماً درابزين من الخشب لان بالدرجات ثقوباً يظن انها عملت لتثبيت قوائم هذا الدرابزين الخشبي . وفي قمة هذا الجزء الحلزوني طابق آخر اسطواني قطره ستة أمتار وارتفاعه ستة أمتار كذلك محلى بثمانية صفف عقودها مدببة كل منها في اطار قليل الغور مدبب العقد يحمله عمودان صغيران من الطوب . وينتهي المرقى عند الصفة الجنوبية وهي مفتوحة وبها باب يوصل الى سلم شديد الانحدار يبدأ مستقيماً ثم يصير حلزونيًّا بعد ذلك . وفي نهايته تجد قمة المئذنة . وهي ترتفع عن القاعدة بمقدار ٥٠ متراً تماماً . وفي هذه القمة ثمانية ثقوب استنتج هرتسفلد من وجودها انهُ ربما كانت تغطي هذا الموضع سقيفة مرفوعة على ثمانية اعمدة خشبية مثبتة في هذه الثقوب . هذه هي صفة المئذنة الملوية الآن ان ريفويرا Rivoira العالم الأثري الايطالي يشير اليها بقوله « ان المئذنة المربعة التي يتوجها في أكثر الاحيان طابق اسطواني علوي كانت الطراز السائد في عصور الاسلام الاولى كمئذنة مسجد الخليفة المتوكل بسامرا ومئذنتي مسجد ابن طولون والحاكم بالقاهرة ! »

﴿ نفقة المسجد ﴾ وقد بلغت النفقة على المسجد خمسة عشر الف الف درهم كما روى ياقوت الحموي أو ما يساوي اربعمائة الف جنيه استرليني بالعملة الانكليزية

﴿ التاريخ ﴾ والمؤرخ الوحيد الذي ذكر التاريخ الحقيقي لبناء هذا المسجد هو — على ما وصل اليهِ علمنا — سبط بن الجوزي وهو يقول انهُ بدىء في بنائهِ في سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٩ م) وانتهى العمل فيهِ في سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م)

مباراة الطبيعة

في خلق مواد جديدة للصناعة
والزراعة والزينة والصحة

كان الانسان في فجر التاريخ يعتمد على ما تمده به الطبيعة ليسد حاجات معاشه. أخذ الطعام من النبات والحيوان وكذلك اللباس . وكان يعتمد في السكن على كهف او غار . وقد ظلت الطبيعة ألوف السنين المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه الانسان في اكتفاء حاجاته الاولية

ثم تعلّم رويداً رويداً ان يدخل بعض التبديل على ما تمده به الطبيعة . فصنع من الظرّان ادوات للبيت وللقتال . ومن المعادن التي كشفها في الطبيعة كالنحاس خناجر وسكاكين . ومن ألياف الاشجار نسج ملابسهُ . ولعله توصّل اتفاقاً الى الزجاج والحديد ، فكان كشفهما بدء عهد جديد في حياته . ولكن تقدمه كان بطيئاً . فالطبيعة كانت تضن عليه احياناً بالمواد التي لا يستغني عنها للمعيشة والسلامة . فكان الجوع غير نادر والأوبئة كثيراً ما حصدته بالألوف. فلما ارتقى نظامهُ الاجتماعي والسياسي واشتدَّت حاجته الى مغالبة آلام الفاقة والجوع وضرورة توفير الاشياء التي تزيد من رفاهيته اندفع الى أخذها بالقوة من غيره اذا تلمسها فلم يجدها فيما يملك

والاستيلاء على الارض بالقوة او بالتهديد بها ليس عملاً شاذًا في التاريخ . والواقع ان الملوك والاباطرة منذ عهد الاسكندر الكبير جروا على توسيع نطاق ممالكهم بالفتح الحربي . وكان الهدف الأول الذي يتجه اليه هذا الفتح الفوز بموارد ومواد تحتاج اليها الدولة الفاتحة كالذهب والمواشي والحبوب . والفتح الحربي في هذا العصر لا يختلف كثيراً عن الفتح الحربي في العصور الماضية . لأن من الأهداف الأولى التي تتجهُ اليها الدول الفاتحة الاستيلاء على موارد المواد الخام اللازمة للصناعة والغذاء . ولكن العلم الحديث في نواحيه التطبيقية المختلفة مهد للامم طرقاً الى موارد جديدة لا تجدها في الطبيعة فكانت فتوحاته خالية من العنف . وبانشاء الصناعات الجديدة فتح باب عملٍ جديد لعشرات الالوف من العمال .

تعلمنا في كتب مبادىء العلوم ان في الطبيعة ثلاث ممالك — مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجماد . وقد دلتنا المباحث الصناعية الجديدة على أن المواد التي تمدُّنا بها الطبيعة يجب ان تعتبر على الغالب خامات تصنع منها مواد أخرى صالحة للاستعمال . ومع ذلك ما زلنا نتناول من الطبيعة مواد للغذاء والصناعة نستعملها كما هي وقلّما نحدث فيها تبديلاً . منها موادالغذاء النباتية والحيوانية والفحم

وغيرها . وذلك لأن الفنون الصناعية الحديثة ما زالت عاجزة عن صنع ما يحلُّ محلَّها او تحسينها فالانسان لا يزال عاجزاً عن صنع قطعة من الشواء تفوق شواء العجل او وردة تجاري الوردة الطبيعية في لونها وشذاها

ولكن هناك طائفة كبيرة من المواد الطبيعية تناولها الانسان من الطبيعة وعالجها بفنهِ وعلمهِ فغير فيها وبدَّل فغدت وهي أصلح للاستعمال مما كانت ، او انهُ صنع ما يحلُّ محلَّها بالتركيب الكيميائي الصناعي . وهذه المواد هي ما أطلق عليهِ الدكتور بنجر Benger مساعد المدير العام لقسم البحث الكيميائي في شركة دوبونت ده نمور الاميركية وصف « المملكة الرابعة »

كان غزو هذه المملكة الرابعة غزواً بطيئاً في بدئهِ . ولكنهُ بلغ الآن مرتبة عالية من الارتقاءِ والاتقان بعد قرن من البحث والتنقيب وتمهيد السبيل الوعر . ولعلهُ يصحُّ لنا ان نقول ان تمهيد الطريق الاول ، أو أحد الطرق الاولى ، الى هذه المملكة تمَّ في سنة ١٨٢٨ عند ما ركَّب الكيميائي الالماني وهلر Wöhler مادة عضوية — هي اليوريا — بالتأليف الكيميائي . فقد كان الرأي حتى ذلك العهد انهُ من المتعذر على الانسان ان يصنع بالتأليف الكيميائي مركباً من المركبات التي تنتجها المادة الحية . فاقامة وهلر الدليل على فساد هذا القول يصحُّ ان يعتبر الضربة الاولى في غزوة المملكة الرابعة

وبعد انقضاءِ ثلاثين سنة على عمل وهلر هذا حاول الكيميائي الانكليزي پركن ان يصنع الكينين بالتأليف الكيميائي . فأخفق في ما سعى اليهِ ولكنهُ توصل الى معرفة حقيقة اعظم شأناً من مجرَّد صنع الكينين كما أراد . ذلك انهُ فاز باستخراج الصبغ الاول من قطران الفحم الحجري (١) . واذا كنا لا نزال قادرين على استخراج ما نحتاج اليهِ من الكينين من مورده النباتي الطبيعي فليس هناك أحدٌ يودُّ ان يستغني عن عشرات الاصباغ الزاهية التي تستخرج من قطران الفحم الحجري

هذه البداية البسيطة اقنعت الباحثين بأن في وسعهم ان يأخذوا المواد الطبيعية ويصنعوا منها او يستخرجوا منها مواد اخرى لها الف استعمال واستعمال فاقبلوا بهمم مشحوذة وعقول يقظة على غزو المملكة الرابعة . وهذا الغزو تدور رحاهُ الآن في ١٧٠٠ معهدٍ من معاهد البحث في الولايات المتحدة الاميركية وحدها ويشترك فيهِ جيش من الباحثين عددهُ اثنان وثلاثون الف باحث وتنفق اميركا فيها ٥٠ مليون جنيه في السنة وهي نفقات يسيرة بالقياس الى ثمارها . ومن سخرية الاقدار ان نفقة البحث العلمي الصناعي في اميركا تساوي ما ينفقهُ الشعب الاميركي على مطريات الجمال فقط ! فلنلتفت الآن الى بعض المواد التي اسفرت عنها هذه الغزوة العلمية الصناعية

(١) راجع تفصيل ذلك في مقال « اسطورة زيت القطران » في هذا الجزء وعلى اثر تلاوته وتصحيح تجاربه كتبنا مقالنا هذا معتمدين على المجلة الشهرية العلمية

صناعة النسج صناعة قديمة . ولكن الباحثين في العصور الحديثة لم يكشفوا ليفاً جديداً يصلح للنسج يضاف الى الياف الكتان والقطن والحرير مثلاً الاّ في العهد الاخير . وقرّاء المقتطف يعلمون الشيء الكثير عن خيط النسج الجديد الذي يعرف عادة باسم « الحرير الصناعي » او « الريون » واتساع نطاق استعماله في خلال العشرين الى الثلاثين السنة الاخيرة. فالولايات المتحدة وجدها تستهلك من الريون Rayon سبعة اضعاف ما تستهلكه من الحرير الطبيعي . والريون يصنع من سلولوس القطن والخشب فصناعتهُ تعتمد على الطبيعة في الفوز بمادتها الاساسية

ولكن البحث الصناعي الحديث افضى الى خيط نسج جديد يدعى النيلون (Nylon) وهو اسم عام لطائفة جديدة من خيوط النسج تشبه « البروتين » في تركيبها الكيميائي فهم يصنعون من « البروتين » الآن خيوطاً ادق قواماً واقبل للمطّ من الخيوط الطبيعية وهي اصلح ما يكون لصنع جوارب السيدات . ومن المتوقع ان يتقن صنع النيلون وينوّع بحيث يصلح لبعض منسوجات اللبس وغيرها

ومن النيلون استخرجت مادة تدعى اكستن Exton تستعمل في صنع فرش الاسنان . وهذا الشعر امتن من الشعر الطبيعي ولا يلين مثلهُ عند بلله في الماء ومنه تصنع ادوات كثيرة يستعملها الصيادون

تقدمت الاشارة الى اكتشاف بركن الصبغ الصناعي الاول وهو الصبغ المعروف باسم الصبغ البنفسجي Mauve . وقد كانت صناعة النسج تعتمد قبل بركن على الاصباغ النباتية والحيوانية في صبغ الاقمشة بشتى الالوان . وكانت الاصباغ الطبيعية قليلة والمنسوجات التي تصبغ بها غير زاهية اللون ثم ينصل لونها اذا غسلت وجففت او اذا تعرضت للضوء وبعضها كان غالي الثمن . فالصبغ الارجواني المنسوب الى صور كان يستخرج من صدف بحري في البحر المتوسط وكان ثمنهُ غالياً فيعجز عن شرائهِ عامة الناس ولا يستطيعهُ الاّ الملوك والاشراف فلذلك اصبح لبس المنسوجات الارجوانية اللون من خصائص الملوك . ولكن الكيميائيين المحدثين يستطيعون ان يستخرجوا من قطران الفحم الحجري عشرات الاصباغ متباينة الالوان وهي ثابتة لا تنصل ورخيصة لا تعجز

ولولا اصباغ المملكة الرابعة وأليافها الكيميائية لما كان لصناعة النسج الحديثة قوام او كيان .

ومن العجب ما صنع في ميدان الالياف الكيميائية الياف تصنع منها أقمشة لا تنثني ولا تنكمش ومانعة لاختراق الماء لها وتسهل ازالة البقع الناشئة عن سقوط المطر عليها بمواد كيميائية معينة . ومنها عشرات من المواد منها ما يصلح لتنظيف المنسوجات في المياه القاسية واللينة على السواء ولكنها ليست صابوناً وأخرى للقصر والصبغ وأخرى لتنفير العث ومنع العفن وطلي المنسوجات فلا يخترقها الماء

ونحن نتناول من المملكة المعدنية الفحم والجير والملح فنصنع منها مادة مركبة جديدة تشبه في كثير من اوصافها مادة طبيعية تعرف بالمطاط . وهذه المادة المركبة تدعى « نيوبرين » فهي مطاطة كالمطاط الطبيعي قوية مثله ولكنها تخالفه في مقاومتها للفواعل الكيميائية . فالمطاط

الطبيعي اذا عولج بالدهون او الشحوم تأكّـل ولكن النيوپرين لا يتأثر بها . والنيوپرين أغلى من المطاط الطبيعي اربعة اضعاف ولكن اتصافه بالمقاومة للدهون والشحوم على خلاف المطاط الطبيعي يفتح امامهُ اسواقاً كان لا بد من بقائها مغلقة لو كان هو والمطاط الطبيعي شيئاً واحداً . ومدى حياة النيوپرين في كثير من هذه الاغراض يفوق مدى حياة المطاط الطبيعي من عشر اضعاف الى اثني عشر ضعفاً او اكثر

وقد استعمل النيوپرين في خمسين غرضاً مختلفاً في صناعة السيارات وحدها . ولعلَّ العجائن المصنوعة بالكيمياء والصناعة هي اوسع مواد المملكة الرابعة استعمالاً . فهي تستعمل مع الخشب والمعدن والمطاط والعاج والعنبر وغيرها او تحل محلها تماماً في افلام الصور المتحركة وأجزاء السيارات وصناديق الاجهزة اللاسلكية والالواح الشفافة في مقدمة الطائرات والاجهزة الكهربائية والاسنان الصناعية ومنافض السجائر والازرار والجواهر الصناعية والعصي ومقابضها وغيرها . وعلى ذكر العجائن نحيل قرّاء هذا المقال على مقتطف أغسطس ففيهِ طرف من تاريخ العجائن الصناعية واستعمالها ولا سيما في صناعة الطائرات

ومن احدث هذه العجائن مادة تدعى « لوسيت » Lucite واسمها العلمي « ميثل ميثا كرايلايت » وهي تصنع من الفحم والهواء والماء ومن صفاتها أنها قاسية شفافة فتصلح لصنع أدوات الزينة في البيوت وفي أغراض صناعية اخرى

خذ مثلاً على ذلك الاعمدة التي تقام عند منحنيات الطرق وتثبت فيها أزرارٌ تتوهج كالمصابيح اذا وقع عليها ضوء فتحذر السائق المسرع وتنذرهُ بما امامهُ . وقد صنعت الازرار التي في ألواح شارع معين بدترويت من مادة اللوسيت فقلَّت حوادث الاصطدام والسقوط الليلية ٧٩ في المائة في فترة لم تقل فيها حوادث النهار الاَّ ٣٧٫٥ في المائة . وقد أُضيف من عهد قريب مادة جديدة الى هذه الطائفة من المواد الصناعية وهي المعروفة باسم « بوناسيت » واسمها العلمي « پوليڤينيل اسيتال » واصلح ما تصلح لهُ صنع الزجاج الذي لا ينشظى . وقد صنعت ألواح من هذه الزجاج وامتحنت في معهد فرانكلن بفيلادلفيا باسقاط كرة من الصلب وزنها ٩ أوقيات من ارتفاع ٨٥ قدماً عليهِ فتشقق الزجاج ولكن المشاهدين لم يصابوا بشظية ما منه مع انهم كانوا على اربع اقدام من اللوح

أما الكافور فمن المواد التي لا غنى عنها في صنع عجائن النتروسلولوس المستعملة في صناعة أفلام الصور المتحركة وعشرات غيرها من الاغراض الصناعية. وقد كان مورد الكافور الطبيعي اشجار الكافور التي كادت تكون محصورة في جزيرة فورموسا اليابانية الواقعة أمام سواحل الصين في المحيط الهادىء . وكانت السيطرة على سوق الكافور لليابانيين يتحكمون باسعاره كما يشاؤون . ولكن الكيميائيين تمكنوا من استنباط طريقة يعالجون بها التربنتينا المستخرجة من

شجر الصنوبر فيتحول كافوراً كالكافور المستخرج من اشجاره في فورموسا . وقد كان سعر الرطل من الكافور الطبيعي في سنة ١٩١٨ خمسة وسبعين قرشاً ولكنهُ لا يزيد الآن عن سبعة قروش!

اما حديث الاسمدة الكيميائية فليس فيهِ جديد على قرّاء المقتطف فحسبنا الاشارة اليهِ

ولكن حديث اليوريا حديث متكرّر وهو الذي مهّد السبيل الى غزو المملكة الرابعة . واليوريا على ما تعلم مادة تستخرج من مفرزات الحيوان وكان الظن قبل وهلر أن الفوز بها من غير الحيوان متعذر ولكن شركة دوبونت الاميركية تصنع الآن مقادير كبيرة منها من الفحم والهواء والماء . ومما تستعمل فيهِ اليوريا صنع عجائن قاسية تصنع منها ادوات منزلية كثيرة لا تتكسر كالصحون والاكواب والموازين البيتية ثم انها تستعمل كذلك في شفاء الجراح المستعصية فتندمل

ومن المواد المستعملة في صناعة العجائن مادة الفورمالدهيد — بل هي في الواقع اساس هذه الصناعة . والفورمالدهيد مادة تصنع من كحول الخشب Methyl ولكنها قد تتحد باليوريا او بكاسين اللبن او الفينول المستخرج من قطران الفحم فتتولد عجائن متنوعة الاوصاف

وقد كان الخشب مصدر كحول الخشب يستخرج منهُ بالتقطير ولكنهُ يصنع اليوم بالتركيب الكيميائي من الفحم والماء والهواء

ولا تقتصر فائدة المواد التي تشملها المملكة الرابعة على رجال الصناعة بل تتعداهم — الى رجال الزراعة فيفوزون فيها بمبيدات للحشرات تفوق في فعلها وقلة ضررها ما كانوا يستعملونهُ حتى الآن ، والى السيدات والغواني فتفزن بكثير من العطور الزكية التي يتعطرن بها ، والى رجال الطب فيحصلون منها على الفيتامينات المركبة بالتأليف الكيميائي والعقاقير والاتوار

خذ مثلاً على ذلك مادة « لورو » وهي من افعل مبيدات الحشرات واقلها خطراً . والمادة الاساسية في عطر المسك المستخرجة من غزال المسك وكان ثمن الرطل ٨ آلاف جنيه فصنعت بالتأليف الكيميائي فلا يبلغ ثمن الرطل منها الاّ جزءاً يسيراً من ثمنها الاول . وفيتامين C المصنوع بالتركيب الكيميائي اذ قد ثبت ان حامضاً يدعى الحامض الاسوربيك Ascorbic هو وفيتامين C سواء . والعقّار العجيب المعروف باسم سلفانيلاميد وصنوه السلفابيريدين كلاهما مستخرج من صبغ مستخرج من قطران الفحم الحجري

ولا غنى لنا عن ذكر الاخلاط المعدنية الجديدة قبل ختام هذا المقال . فهناك أصناف متعددة من الصلب فقط تختلف خواصها باختلاف المعادن التي يخلط بها الحديد فمنها صلب للمدافع وآخر للسكاكين والشوك التي لا تصدأ وثالث لكرات عجلات السيارات والقطارات . وهناك الادهان (الورنيش) التي تجف جفافاً سريعاً ولكنها تخلّف طبقة جامدة لامعة . وغيرها عشرات بل مئات من المواد التي تجد متسعاً لها في شتى الصناعات الحديثة وما تقدم ليس الاّ على سبيل التمثيل

****

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية -

****

البحث التاسع

شخصية مطران

﴿ توطئة ﴾ في الانسان وراء المظاهر التي تلابسه اصل ثابت هو الشخصية البشرية . وقد تتغير المظاهر التي تلابس الانسان في الحياة . ولكن الشخصية رغم ذلك ثابتة لا تتغير مثلها في ذلك مثل مثلث مختلف الاضلاع،اذا نظرت اليه في مختلف اوضاعه ، فانك تراه يتغير معك في الشكل ، وهو بعد ذلك مع النظر الدقيق لم تتغيّر عناصره في شيء

والشخصية البشرية مجموعة من الصفات الخَلقية Ethnic (التشريحية والجسدية) والخُلقية Ethic (النفسية والعقلية) تداخلت،فكان منها ذلك الاصل الثابت في طبيعة الانسان الذي يتظاهر من وراء مجموع سلوكه في كلتا حياته : الفردية والاجتماعية . والنزول الى الاصل الثابت من سلوك الانسان في الواقع كشف عن الخطوط الاساسية التي تتداخل في بناء نسيج الشخصية

وشخصية خليل مطران في الواقع لا تخرج دراستها عن هذه القاعدة ولا تشذ عنها . فحركاته وسلوكه في حياته التي انعكست على مدى ثلاثة اجيال من الزمان ، تفصح عن الاصل الثابت من ذاتيته ، ذلك الاصل الذي تقوّم به في سلوكه في حياته، والذي اتخذ امتداداً منتظماً في الزمان

ولفهم شخصية الخليل على حقيقتها من كلتا الناحيتين : الخَلقية والخُلقية يجدر بنا ان ننظر في نشأة الرجل.ومعرفة هذا امرٌ تكتنفهُ المشاق لتغلغل اصول شخصيته في دور الطفولة حيث لم يكن الوعي قد تيقظ . ومع ذلك في وسعنا ان نضع موضع النظر هذه الحقيقة: وهي ان الخليل أفصح في طفولته عن مزاج عصبي اصيل وطبيعة ذات حيوية مستفيضة . ولا شك ان هذا المزاج وتلك الطبيعة ألجمها في نشاطهما ، نشاط الغدة النخامية ، التي كانت سبباً في ان راجع الخليل اعماله بنفسه self-control . ولا شك ايضاً ان ظاهرة المراجعة لم تبد واضحة الا في سن متأخرة من سني الشباب . آية ذلك ما كانت تنساق اليه شخصية الخليل الأولى من مغامرات ، الاصل

فيها شدة الحيوية وزخور المشاعر واتقادها . من ذلك ما كان من شأنه حين حاول مجاراة كبار أفراد أسرته في السباق على متن الجياد فكان ان فلت الزمام من يده وتردى من متن جواده على الارض ، فتكسرت نتيجة لسقوطه بعض ضلوعه وعظمة أرنبة أنفه . وهو لا يزال يحمل آثار هذه السقطة في أنفه الى اليوم

والواقع ان هذه الحيوية الفائضة ، لانها لم تكن خاضعة لأية مراجعة من النفس ، كانت تنقلب الى بعض الطيش . وكان يساعد الخليل على ذلك ما كان يلقاه في جو الاسرة من الحرية وعدم المراجعة — فلما شبَّ الخليل وكثرت عثراته أخذ يخلص مع الزمن والتكرار من عثراته بفكرة مراجعة ذاته — ولا شك انهُ عاود نفسه وراجعها كثيراً فيما كان يعزم عليه خصوصاً بعد ان تشبعت عقليتهُ اللاواعية بهذه الفكرة التي أوحتها اليه عثراته — ولا شك في ان نقطة التحول في سلوكه كانت سقوطه من متن جواده وانكسار عظمة أرنبة أنفه . فما كان يحمله من التشويه في أنفه المستوقف للنظر كان اكبر موحٍ له على الحذر . ولا شك ايضاً في أن هذا الحذر لم يكن ليتحقق معهُ ، الاَّ بأن يسندهُ عامل داخلي . ويظهر ان الخليل وجد في ذلك الحين في نشاط غدته النخامية ما يسند محاولتهُ هذه ، فكان من ذلك ان نشأت فيه مع الزمن قوة على ضبط النفس ومراجعتها . وهذا التحول وان كان طبيعيًّا فانهُ لم يكن وليد يوم وليلة . وانما كان نتيجة محاولات من الخليل لضبط نفسه يسندها نشاط العضو الضابط للشخصية . فكان من ذلك مع الزمن تلك القوة على ضبط النفس ومراجعتها

فنحن نرى أول ما نرى في شخصية الخليل قوة العقل وضبط النفس . ولهذا تجد عقل الخليل نما فأصبح أقوى من قلبه . ومن هنا ايضاً كان تفكيره أزخر من عاطفته . ولا شك ان هذا هو الاصل فيما يلاحظ على شعره من تداخل العقل في شبكة الانفعالات والعمل على خلخلتها وضبطها في نسب موزونة تنزل عند حكم الفكر . فأنت ترى قصة غرام مطران كما سجلها في حكاية عاشقين من الديوان رغم ما تتطلب مواقفها من ارسال المشاعر حادة مترعة بالوجدان فائضة وعلى وجه خاص في المواقف التي أملت عليه قصائد « تذكار » و « مثال في مرآة » و « الى حبيب ميت » ، عناية بالتصوير[1] وهذه العناية بالتصوير تبين ان نفسه لم تكن ممتلئة بالموقف ، والاَّ لنسي في غمرة المشاعر ريشة المصور ، وأطلق أحاسيسه نبضات حارة من القلب

كذلك نرى هذه الصفة في اعتكاف الخليل بضاحية «عين شمس» بعد ان فقد ثروته في المضاربات المالية

(١) التصوير عناية بالنسب والالوان والظلال والانوار وجعلها متسقة ، وهي تحتاج الى عنصر الفكر الذي يضبطها . ولا شك ان الاستغراق أساس في فن التصوير ، وهو لا يترك المجال لاي شعور آخر . ومن هنا تؤخذ عناية الخليل بالتصوير في الحالات النفسية الثائرة دليلا على تداخل عنصر الفكر من جهة وضبطه المشاعر من جهة أخرى حتى لا تطغى وتفسد على الريشة عملها التصويري

التي كان كلفاً بها ، وتفكيره في الانتحار بفقد الروابط التي تربطهُ بالحياة الاجتماعية في هذا العصر المالي، ثم في تناوله فكرة الانتحار بالنظر،وخلوصهِ من ذلك بأنها نداء لايحقق غرضاً الا الهروب من مواجهة الحياة،ثم بعد ذلك نجد في عملية التعويض التي قام بها مفرجاً عن نفسه، ونظمه قصيدة « الاسد الباكي » ، بعض ما يبين هذه الطبيعة الغالبة على شخصيته

على ان الخليل وان خلص بحكم المراجعة الذاتية بقدرة على ضبط النفس ، فان طبيعته الاصلية كرجل عصبي المزاج مرهف الاحساس سريع الانفعال ، كانت تهيء اعصابه للتأثر بالانفعالات الدقيقة للوهلة الأولى . وهو بعد ذلك يضبطها ويحللها ويصفيها في نسب دقيقة وينزلها عند حكم العقل بادخال عنصر الفكر فيها

— ١ —

كل منا يخرج الى الحياة بمجموعة من الميول الفطرية والغرائز التي تنشط من عقالها وتطلق شحناتها الكامنة تحت تأثير البواعث stimuli المختلفة . وتجاربنا الاولى وأعمالنا في الواقع تلوّن ميولنا وغرائزنا الطبيعية بلون خاص،تدخل في نسيج شخصيتنا الذي يتكوّن مع الزمن. ولما كانت الميول والغرائز التي نخرج بها الى الحياة تقريباً واحدة جميعاً في تأثيرها في دور الطفولة الأول ولا تصل الى دائرة الوعي ، فان تجاربنا وأعمالنا في تلوينها لها تعمل على نشأة الواعية من أعماق اللاواعية ، كجزائر منفصلة تتحد تدريجيًا وتكوّن وحدة من الوعي المستمر . ونشأة الوعي المستمر برجوعها الى تجاربنا التي نخلص بها من معاملتنا الخارجية مع الحياة ، تتقوّم بالمؤثرات التي تكتنفنا ، ومن هنا كان ما للبيئة من شأن وتأثير في انشاء الواعية وبناء الشخصية

ومما هو جدير بالنظر ملاحظة المؤثرات الخارجية التي تعمل كعوامل مساعدة لاطلاق الشحنات الكامنة في غرائزنا ، والموازنة التي خلص بها الخليل في حياته ، تثبت ان المؤثرات الخارجية في تأثيرها في غرائزه كانت متوازنة ، عملت على خلق خلة المراجعة والمعاودة في طبيعته . ولا شك ايضاً ان الخليل نشأ خلواً من التعقيدات complexes النفسية ، لان اطلاق الحرية لميولهِ الفطرية وغرائزه وعدم الضغط عليها ، اتاح لها ان تنمو نموًّا متوازناً طبيعيًّا.ومن هنا لا نحس في شخصية الخليل بالتقبض على الذات والتفرد، الشيء الذي يثبت انهُ لم يعان أزمات نفسية في طفولته . وسلوك الخليل يثبت ان انطلاق الطاقة المخزونة في أعصابه ، لا يسيل في مجرى ضيق يُحشَدُ فيها . ومن هنا يمكن القول بان انطلاق طاقة الرجل تأخذ صورة فيض وسيل في مجرى متسع في غير جلبة او ضجيج ، مثله في ذلك مثل انطلاق السيل في مجرى نهر متسع ، يجري فيهِ بهدوء حتى يصب في النهر . وهذا ما يبدو في صب انفعالاتهِ الشعرية في تفاعيل رحيبة متسعة . ومن هنا لا تبدو الذبذبات السريعة والحركات المتلاحقة والاصوات المتعالية الرنين

في توقيع شعره على اوتار نفسه ، لان هذه الاوتار غير مشدودة كل الشد ، وانما هي مربوطة عند الحد الذي يرسل الذبذبات هادئة طويلة النغم خافتة النبرات

والواقع انهُ اذا كان الشعر وما يلبسه من الصور مظهراً لشخصية الشاعر ، فان الايقاع الذي في شعر الخليل مظهر للايقاع الذي تستتيم (تستهوي) لهُ اعصابه من الايقاع الذي في الطبيعة. آية ذلك ان الخليل شاعر تظهر في شعره قوة التوقيع . غير ان اتساع افق النفس ورحابة مدى الانفعالات ، يجعلان هذا التوقيع يظهر في صور خاصة وضروب من التفاعيل يختص بها في شعره. ودراسة تفاعيل شعر الخليل تبين ان جلها يجيء من ابحر محدودة وتفاعيل خاصة . المطرد منها في شعره ، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها ، كالمديد والطويل والوافر والكامل فهي اكثر اتساعاً للفكرة . وعنصر الفكرة غالبٌ على شعر الخليل . هذا من جهة ومن جهة اخرى لان نفسية الخليل اكثر استنامة واستهواء لهذه الابحر الرحيبة الواسعة . والواقع ان لهذه الاستنامة دلالتها على روح الرجل ، فان في تلك الابحر من المدات الطويلة التي تلج النفس وتبرز منها ، ولوج الامواج المديدة للشاطىء وبروزها من البحر ، بعض ما في شخصية الخليل

فنحن نعرف ان جميع آثار الشاعر تستمد عادة من سوائق vehicle وخصائص . هذه السوائق في الشاعر غيرها في الناثر وهذه حقيقة تبدو واضحة للنظر من مراجعة آثار شخص مثل الخليل له آثار في كل من بابي النظم والنثر من الكلام. والواقع ان كل انسان منا له مدى ضيق يدور فيهِ بطاقتهِ للوصول الى غرضهِ ، والترابط بين طاقة الشاعر والتفاعيل التي يصب فيها مشاعره واحساسهُ وأفكاره ، تبين نوع استهوائهِ ، الشيء الذي يشير الى طبيعتهِ. هذا ويجب ألاَّ ننسى ما للغرض (او الموضوع) من الاثر في تلون المدى والطاقة بلون خاص ، فشعر الرثاء يستوجب من أبحر الشعر الوافر او البسيط وما يقاربهما ، وان كان بعد ذلك تقطيع البحر الذي ينظم فيهِ الشاعر هو الذي يدل على طبيعته . ثمَّ يجب ألاَّ ننسى ان للغة اثراً في تكييف آثار الشاعر ، كذلك لضروب التفاعيل المستخدمة في شعر تلك اللغة نفس ذلك الاثر ، وهذا ما فطن اليهِ المتقدمون من نقاد الافرنج [1] فلاحظوه في دراستهم النقدية . هذا ونحن نعرف من دراسة بحور الشعر العربي دراسة يراعى فيها مقتضى الحال من النفسية — ان بحر الرجز لا يصلح للرثاء ، لأن ما فيهِ من الامتدادات السريعة لا يستقيم مع ما في فكرة الرثاء ومقامه من التوجع والتريث ومن هنا نتبين ان الموضوعات والاغراض التي يقال فيها الشعر ان كانت تملي الى حد كبير التفعلة التي يقال فيها الشعر ، ولكن التقطيع الخاص لضرب البحر يدل بعد ذلك على ذاتية خاصة للشاعر

(١) Mathew Arnold, Maurice de Geurin, in Frexiser's Magazine, Jannuary 1863

والواقع اننا لمسنا في نظم مطران غلبة البحر المديد وما يتفرع عنهُ من الأعاريض والأضرب ، وميلاً للتخميس يظهر في اكثر من قصيدة طويلة من منظومات الديوان. فان الاصل في ذلك ليس محاولة افراغ الفكرة المتصلة المتسلسلة في الخاطر فيما يتسع لها من الأبحر فحسب ، وانما الاصل فيه طاقة الشاعر التي تنساب في الأبحر الطويلة المتسعة ، مما يبين ان اعصابهُ ترسل انفعالاتها (التوقيعية) طويلة الذبذبة مديدة الحركة

وهذه الحقيقة ان خلصت بها من دراسة ابحر شعر الخليل ، فانك يمكنك ان تصل الى نفس النتيجة من دراسة موسيقية شعره . فلشعر مطران موسيقى هادئة خافتة النبرات ، ولعلّ هذا الهدوء وخفوت النبرة ، هو السبب في انكار الذوق المصري العام لموسيقية الرجل في شعره . فقد حدّثنا الاديب الشاعر عبد اللطيف النشار ان الذوق المصري لا يؤخذ بموسيقية شعر الخليل ، لأن الذوق المصري لا يستهويه (او يستنيمه) غير النبرات الظاهرة والموسيقى الصاخبة والحركة والجلجلة في التوقيع . وهذا صحيح ، وأظهر ما تكون الروح المصرية في الشعر في موسيقية شعر البها زهير ، ثم موسيقية شاعر كعثمان حلمي او صالح جودت من المعاصرين

على انهُ بعد ذلك لنا عودة الى الموضوع في شيء من الاستفاضة المدعمة بالشواهد والاستقراءات حين نعمد الى الكلام عن فن مطران وصناعته الشعرية

***

مثل هذه الطبيعة الرحبية الجنبات بعيدة عن التعصب ، لأن الأصل في التعصب ، انطلاق الشحنات المفرغة من الاعصاب في مجرى ضيق. ومن هنا يمكننا ان نعرف الاصل في سماحة نفس الخليل واتساع افق شعوره ورحابة مدى ذهنهِ . فالرجل حرُّ الفكر ، الى اقصى ما تعرفهُ حرية الفكر من حدود . وذاتيته لا تعرف معنى التعصب لمذهبية دينية كانت ام جنسية ، فكرية كانت ام ادبية . فأنت ترى ان الرجل وان كان من المجددين ولف لفهم ، فان الجديد لم يملك على نفسهِ المسالك . ومن هنا تجده في تجديده ، يعمل للجديد بلا ثورة . يلتزم القديم حين يجد في هذا الالتزام تحقيقاً لغرض فني ، ويتخلص من القديم حين يرى القديم لا يتفق والغرض الفني الذي يرجوه . وهذا يفسر لنا قوله :

[عدت الى الشعر وقد نضج الفكر ، واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر . فشرعت أنظمه لترضية نفسي حيث أتخلى . او لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلى . متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير هواه ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمني فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها .] (١)

كذلك تجد ان الرجل وان كان من الروم الكاثوليك، وصاحب عقيدة خالصة في الدين،

---

(١) ديوان الخليل — بيان موجز في تقدمة الديوان

فان الدين لم يملك عليه شغاف قلبه ، ومن هنا تجده صاحب مرونة في عقيدته الدينية ، وصاحب فكرة في الاصلاح الديني بلا ثورة . ويمكن استقراء فكرات مطران في الدين من قصيدته « الطفل الطاهر » من الديوان . وهذه المرونة وهذه الرغبة في الاصلاح تبرز قوية في في انتصاره للحرية الفردية عند تسلط رجال الكهنوت

والقصيدة كلها انتصار لحرية الشخص في الحياة: في العمل وفي الاعتقاد ، وهو يرى عكس ما يراه رجال الكهنوت من الهوّة السحيقة بين مذاهب ديانة سمحاء مثل المسيحية،فجميع المذاهب عنده تلتقي عند اصل واحد ، ثم تتفرق لصالح الناس لا لضرّهم

— ٢ —

الناس أحد اثنين،رجل ذي طبيعة فعالة (مؤثرة) active او رجل ذي طبيعة منفعلة (متأثرة) passive،والطراز الاول من الناس يحملون في نفوسهم صورة الذكر animus بعكس الطراز الآخر فانهم يحملون صورة الانثى anima في روحهم . والطراز (او الطابع) المذكر masculine type يتميز عادة بالقدرة على مراجعة النفس وحب التسلط والقوة ، وطلب الجاه والمقام . ومعظم القائمين بالأعمال من هذا الطراز . اما الطابع المؤنث feminine type من الرجال فيتميزون بقوة الاحساس وزخور المشاعر والجري وراء المثاليات والخياليات.ولاشك ان مطران مزيج من هذين الطابعين ، فله من الطابع الاول القدرة على مراجعة النفس ، وطلب الجاه ، وحب المغامرة . وهذا ما يظهر في الجانب العملي من حياته . كما ان له من الطابع المؤنث الاحساس الدقيق وزخور الشعور والتعلق بالمثل العليا والجري في عوالم الخيال والتحليق في سماوات عوالم الابهام Fantasies على ان خروج الخليل بهذا المزيج في شخصيته ، جعله يلف مشاعره وأحاسيسه في صور. ومن هنا جاء الاصل التصوري في طبيعة الرجل(١)

ولفّ الخليل مشاعره وأحاسيسهُ في صور يبدو من استقراء دقيق لشعره ، فحكاية عاشقين، وهي تسجل قصة حب الشاعر، طغى على مواقفها الشعرية التصوير والوصف ، والواقع ان مطران وصّاف مصوّر من الطبقة الاولى بين شعراء العربية لا ينافسهُ في هذا غير ابن الرومي.وبراعة الخليل في الوصف والتصوير مشهود لهُ بها . والاصل فيها طبيعة المراجعة التي تأصلت في نفسه . والتي تدفعه الى العناية بتفاصيل الامور وجزئياتها ، ومن هنا اعادة الكرة تلو الكرة على الشيء الواحد حتى ينتزع منهُ مجموع اشكاله وينزل بها الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ولعلّ هذه الناحية التصويرية والوصفية هي التي اعانت الخليل على ان يكون شاعراً قصاصًا ، لان القصص يتطلب

(١) B. Hollander في Mechanism of Thought,.. and Conduit ج ٢

الوصف والتصوير ، وهما صفتان غالبتان على شخصية الخليل الفنية

والخليل بعد ذلك كله صاحب شخصية تغلبها صفة التشاؤم . فهو لا يرى من العالم غير جانبه المظلم ، المظلل بالقتام ، والشقاء عندهُ أغلب على الحياة من السعادة . ولكن هذا اللون التشاؤمي عند الخليل يخفف من قتامه عنده ، غلبة العقل ، الذي يدخل عنصر الفكرة ، فيتحول تشاؤمه الى رجاء في المستقبل . وهذا اللون من التشاؤم ، هو أخف الالوان في الواقع ، ويغلب على ظن الكثيرين انهُ من باب النزعة التفاؤلية من حيث تنعكس منها فكرة الرجاء في المستقبل . ولكن هذا الظن خاطيء . لان الحكم على نزعة انسان بأنها ذات لون تشاؤمي او تفاؤلي هو نتيجة في الواقع لملاحظة غلبة الاضواء المشرقة على آثاره او الظلال القاتمة عليها ، لان الطبيعة الداخلية تتظاهر لنا من آثار الرجل ، في اللون الذي تعكسه عليها . فالطبيعة المتفائلة تأخذ بناحية الالوان المشرقة من الاشياء والطبيعة المتشائمة على الضد تستهويها الظلال القاتمة . ويبدو من استقراء شعر مطران . ان الرجل تستهويه الظلال القاتمة من الاشياء فليست قصة « الجنين الشهيد » وقصيدة « فاجعة في هزل » وقصتا « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » و « وفاء » وقصتا « العقاب » و « فنجان قهوة » ثم قصة « فتاة الجبل الاسود » سوى آثار يغلب عليها جانب الفاجعة (المأساة) — tragedy — ثم عندك بروز الخليل في الشعر القصصي الذي يغلب عليه عنصر المأساة ، وفي شعر الرثاء ، دليل على ان الرجل ينفعل بعناصر الفواجع في الاشياء اكثر من انفعاله بعناصر الفكاهة او الملهاة منها ، حتى ان عنصر الهزل استحال بين يديه في قصيدة « فاجعة في هزل » الى مأساة فاجعة

***

ان صحّ ان الخليل يغلب على شخصيته اللون التشاؤمي فالاكتئاب قرين هذا اللون . والواقع ان مطران من الطراز المكتئب من الناس . ولكن اكتئابه بلا انقباض وتفرّد . ومردّ هذا ان الرجل يحاول ان ينسى كآبته في الناس . ومن هنا جاء تعلقه الشديد بالعالم الخارجي . وقد لاحظ احد النقاد : « ان مطران لم يصور نفسه في شعره بل صوّر الناس الذين يحيطون به »(١) . وهذا صحيح وخطأ . فحقًّا ان مطران لم يصور نفسه قدر ما عني بتصوير الناس . ولكنهُ في الآن نفسه كان يصور نفسه في الناس . لان حياته لم تكن لتستقيم الا في خروجه الى العالم الخارجي من ذاته ، ونسيان نفسه في رحاب العالم الخارجي . وتلك خلة لاصحاب الطبائع التي تلونها الكآبة بلون ، والتعلق بالحياة بلون . لان المكتئبين عادة من الناس الذين ينعزلون ويغرقون في طيات أنفسهم . ولكن اذا كان أحدهم من الطراز « الفعال المنفعل » فان هذا الاكتئاب يقترن

(١) روكس زايد العزيزي — خليل مطران وشعره — المجلة الجديدة ، م ٦ ج ٥ (مايو ١٩٣٧) ص ٥٢

بالتعلق بالحياة ،ومن هنا الهرب من النفس الى الخارج . وعادة هذا الطراز ان ينجح في التصوير والتحليل ، فالطراز المكتئب المنعزل ينجح في تصوير خلجات النفس وتحليلها الى ابعد الحدود كما هو الحال في شاعر عبقري كعبد الرحمن شكري . والطراز المكتئب المنسحب على العالم ينجح في تصوير الحياة الخارجية وتصوير الناس كما هو الحال مع شخصية مطران

وهرب مطران من نفسه الى الناس ومحاولته ان ينسى نفسه بينهم ، هو الاصل فيما يبدو فيه من أنس المعشر ، وحب الاجتماع . والحق ان الرجل مشهود له بأنهُ من خير الرجال الذين عرفتهم مجالس مصر . فرحابة صدر الرجل تجعله من كل مجلس ومن جميع الناس في موضع القبول والترحيب . فضلاً عن ان اتساع افق شعوره يجعله يتغاضى عن اخطاء اصحابه ومعارفه ، ويحاول ان يجد لهم العذر في سلوكهم المخطىء. وعلى ذلك كان الخليل صديق الجميع ، حتى ان مجلة سركيس كتبت عنهُ تقول : (ومما انفرد بهِ أن كل انسان في مصر يعرفه من سمو الخديوي فنازلاً) ولا شك أيضاً ان لثقافة مطران المتعددة النواحي ، وحديثه المتنوع الزاخر ، ولباقته في الكلام اثراً كبيراً في نجاحه كرجل من رجال المجالس . وانا وان كنت لاقيت الخليل مراراً معدودة خلال النصف الثاني من عام ١٩٣٩ ، فان اول ما استرعى نظري منهُ امران : الاول أنهُ يملك على الجالسين شغاف قلوبهم بحديثهِ . وثانياً ان حديثه ليس من مبتذل القول ، وانما تتمشى في تضاعيفهِ حكمة ونظرة صائبة وتعمق في تناول الموضوع وتناوله من مختلف مناحيه واجزائه . وأذكر اننا تقابلنا يوماً صيف عام ١٩٣٩ في الاسكندرية وكان الوقت مساء وجاء الدكتور بشر فارس، وتجاذبنا اطراف الحديث وانتهى بنا المطاف عند بحث المروءة « من كتاب جديد للدكتور بشر » فكان الخليل يعرض الموضوع عرضاً شاملاً حتى انني تعجبت من معرفته لدقائق من الموضوع تغيب عن غير الاخصائيين في شؤون اللغة ، وقمت وفي نفسي فكرة عن الخليل ، لا أظن انَّ أديباً من ادباء العربية المعاصرين من الذين عرفتهم شخصيًّا تركها في نفسي . والواقع ان الخليل نسيج وحده بين أدباء العربية المعاصرين

***

قلنا انَّ مطران من الطراز الاجتماعي — sociable — ، وهذا الطراز من الناس عادة يكون محوطاً، في سلوكه رقة ، وفي حديثهِ لباقة سريع الخاطر ، قوي الحافظة (اوالذاكرة). لهُ مقدرة في التنقل من حديث الى آخر بلباقة ، يتولى ادارة المجالس وتحريك الكلام فيها من موضوع لآخر ، ويحوّل الحديث ويخرجهُ عن دائرته اذا ما لمس انهُ يمسُّ أحد الحاضرين في المجلس . وهذا الطراز من الناس يعرف « برجال الصالونات » في اوربا، غير ان مطران وان كان منهم فهو في الواقع اكثر من « رجل صالون » بمواهبه . غير ان حياة المجالس

والروح «الصالونية» جعلت لطفه ينقلب في الكثير من الاحوال الى صورة من الزلفى . ولعل هذا هو نقطة الضعف في شخصية مطران . على اننا يمكننا ان نجد في كون مطران غريباً على المجتمع المصري من جهة ، ثم اضطراره ان يحصل معاشه في بلد قام على الزلفى من جهة اخرى، أصل هذا الضعف في شخصيته . على ان مطران بعد ذلك يدلُّ شعره الذي قيل في المديح والمراثي على شعور صادق ،تلونهُ صلات الرجل بالناس . وما يظهر من التكلف على بعض المواضع من شعره هو بعض جناية المجتمع المصري عليه من جهة واسترساله مع لطفه وطبيعته الاجتماعية من جهة اخرى . على ان هذا قليل في ديوان مطران وهو أقل في القصائد التي نظمها بعد ان اخرج ديوانه ، وهذه القلة تعود الى مقدرة مطران على التخلص من المواقف المتكلفة موضوعاً الى العنصر الشعري الذي ينفعل بهِ ، وهذا يثبت انهُ من الطراز الباطني النظر introverts

آية ذلك انفعاله بالعناصر الباطنية من الاشياء ،كنفوذه الى العناصر الشعرية من الموضوعات التي تبدو متكلفة من حيث تمليها الملابسات . دلالة ذلك انهُ طلب الى مطران ان ينظم قصيدة في حفلة زفاف دعي اليها، فكان ان نفذ من هذه المناسبة الى العنصر الشعري المرتبط بفكرة الاقتران ، فكان من ذاك قصيدة من عيون شعره ، تلك هي قصيدة « الاقتران » وهي من منظومات الديوان

— ٣ —

هنالك من الناس من تعرفهم فتشعر وكأن لك بهم معرفة من قبل . ذلك انهم لا يعرفون عن طريق الحوادث التي يخلقونها ، انما هم يعرفون عن طريق الجو الذي ينشرونهُ حولهم ، وهذا الجو يفعل فعله في النفوس فعل مجال مغناطيسي في برادة الحديد . ولا شك ان خليل مطران واحد من هؤلاء . اول ما تطالعك منهُ مهابة تملأ ما حوله من الأجواء . ويكون في المجلس ، فلا تحس بوجود غيره ، يملأ على النفس شغافها وعلى الانسان مشاعره

تراه فترى من النظرة الاولى امامك صاحب « جسم ضامر نحيل،ووجه واضح القسمات،وجبهة عريضة وحاجبان منفرجان وعينان فيهما هدوء وثورة ، وأنف طويل ضخم لو كان قطعة من المرمر لسهل جعله تمثالاً ، ولو كان قطعة من الماس لثارت من أجل الحصول عليها حرب كونية، وذقن مغموز ، يدل على الطموح وشفتان تنطبقان وتتهدل سفلاها لتدل على ميل صاحبها للصرامة من جهة وعدم الاكتراث من جهة اخرى . وصدغان صقيلان يدلان على افراط في تقدير الحب . وصمت غامض يشير الى ان صاحبه خلق للسياسة وغموضها »

هذا هو هيكل الخليل كما خرج من ريشة ناقد فنان(١) من أبناء هذا الزمان

(١) روكس زائد العزيزي — المجلة الجديدة — مايو ١٩٣٧ ص ٣٥

ومطران يتمتع — على حد قول هذا الناقد — بشهرة تكاد تكون عالمية . يعرفهُ أدباء العرب ، ويذكره المستشرقون وهم يذكرون ألمع شعراء العربية وأدبائها . وخليل مطران بعد ذلك اسم من ألمع الاسماء في الشرق العربي . هذا الاسم هو : شاعر القطرين (سوريا ومصر) والواقع ان مطران لم يصل الى هذه الشهرة وذاك المقام الاَّ عن جدارة ، فله من مواهبه ، ثم من ثقافته ما يؤهله عن حق لهذه الشهرة وذاك المقام

اما مواهب خليل مطران فقد مرت اليها الاشارة متفرقة اثناء تحليل الناحيتين الخَلقية والخُلقية من شخصيته . وأما ثقافته فهنا نقصر الكلام عليها مع عرض لعقليته ومناحيها المباينة

كان مطران في ثقافته الاولى مثاليًّا خياليًّا . غير ان هذه المثالية والخيالية في ثقافته طرأ عليهما بعد عنصر الواقعية والتحليل، فكان ان تطورت لذلك ثقافة مطران . والعنصر الاول من ثقافته يظهر في تأثره بالفرد دي موسيه الشاعر الفرنسي . ويظهر ان مطران شغف في شبابه بشاعر الفرنسية وما في شعره من زخور الاحساسات والمشاعر، ثم كان بعد ان نضجت شخصيته وتغلب عنصر الفكرة على عنصر العاطفة فيه ، أن تلفَّت الى الآثار الأدبية التي تتميز بعنصر الفكرة ، ومن هنا كان شغفه بشكسبير وراسين وكورنيل من اعلام الادب الغربي . غير ان الناحية الواقعية والتحليلية التي اخذ بها مطران في الطور الاخير من حياته لم تكن الاَّ نتيجة لنضوجه من جهة ولازدياد خبرته من جهة اخرى . من هنا من الخطأ ان نرى تحليل مطران يعود لفكرة سيكولوجية ، والاصح انهُ يعود الى المدرسة الادبية التحليلية الفرنسية التي تأثر مطران بآياتها

على انهُ بعد ذلك يجب ألاَّ ننسى ان مطران وهو من الطراز الباطنيّ النظر ، يغلب على ثقافته عنصر التأمل والتفكير والنظر. وهذا العنصر يجعل مطران يهضم ويمثل مايخلص بهِ من مطالعته عن طريق ادارتها في ذهنهِ والتفكير فيها والتأمل في مقوّماتها . ولاشك ان الخليل خلص بالكثير من النتائج من المطالعات التي ساعده الحظ عليها. ولاشك انهذه النتائج اكثر مما يمكن ان يحصل عليها آخرون من المطالعات نفسها. لأن قيمة المطالعة لما كانت ليست وفقاً على عدد الصفحات التي تشملها وانما على نوع المطالعة ، أدكر لنا معرفة الذهنية التي كانت تتعامل مع الكتب التي يتاح له قراءتها . ولاشك ان مطران وقد تفرغ للادب والشعر على وجه خاص حتى حفظ ديوان اعلام الادب من الفرنسيين، ثم طالع في العلوم وفلسفتها كثيراً ، خلص بذهنية قياسية سليمة تخضع لمقتضيات التحليل العلمي الذي تسندهُ روح فنية قوية. وآثار هذه الذهنية واضحة في ما كتب الخليل من بحوث في الادب واللغة

على انا بعد ذلك يجب ان نعترف ان لمطران اطلاعاً كبيراً على التاريخ العام في عمومياته ومما لاريبة فيه ان الخليل وقف في اطلاعه التاريخي عند المجمل فلم ينزل الى التفاصيل والدقائق

وهذا يتضح من دراسة كتابه « مرآة الايام في التاريخ العام » . وثم يجب ألاّ ننسى ما لهُ من الاطلاع والمعرفة بشؤون الاقتصاد والمال وقد ساعده على التفقه فيها اشغاله بالشؤون التجارية ردحاً طويلاً من الزمان

واللغات التي يعرفها هي العربية فالفرنسية فالانكليزية فالتركية فالاسبانية. وقد تعلم الفرنسية والتركية في وطنه الاول : التركية في الدار والفرنسية في الكلية . اما الانكليزية فدعاه اليها حب الدراسة بعكس الاسبانية التي دفعهُ لها داعي العمل ، حين فكر في الارتحال الى شيلي والاستقرار فيها ايام كان بباريس

واقوى قراءات مطران في الفرنسية والعربية . قرأ في الاولى آثار كورنيل وراسين وموليير وفولتير وفكتور هوغو ولامارتين كما قرأ فيها آثار شيكسبير وميلتون وبيرون وشيللي وسوينبورن ووردسورث وكيتس من أعلام الادب الانكليزي . وعن الفرنسية ترجم الى العربية ماترجم من شكسبير مما سبقت اليه الاشارة. وعنها كذلك ترجم ماترجم عن كورنيل وراسين مما سيجيء بيانه في البحث

أما قراءاته العربية فكثيرة . غير ان أقوى قراءاته العربية لابن الرومي . وهو يرى على ما حدثنا به ، ان ابن الرومي لم يعجب الذوق العربي لانهُ أخذ من أصوله الاعجمية الوصف والسياقة الدقيقة . والطبيعة العربية لا تتذوق ذلك ، وانما تتذوق الاشياء قدداً ، كل قدة منفصلة عما قبلها وعما بعدها ، ولها وحدتها في ذاتها . ومن قراءاته الادبية كذلك مطالعته لشعر البحتري ، وهو عنده — على ما حدثنا — في الطبقة الاولى من شعراء العربية بنسجه الشعري وصناعته . أما المتنبي فيفضل عندهُ جميع شعراء العرب لا بكل شعره ولكن ببعضه الذي بلغ به الذروة. وهو معجب من الادب العربي برثاء صاحب لامية العرب لزوجته ، وهو يرى ان مرثاته لم تكن مفهومة كل الفهم للعرب ، وان الجيل الحديث يجب ان يدرسها ويتفهمها من جديد ليكتشف عما فيها من العناصر الفنية الرائعة . كذلك يروي الخليل انفعاله برثية التهامي لولده وبحكم المعري والمتنبي ، ويذكر انهُ كثير الاستشهاد بحكم المتنبي في كلامه. والواقع ان لمطران ذاكرة يقظة ، لاتخطىء الرواية والنقل . وهو في هذا من القلائل الذين عرفوا في هذا الجيل بقوة الحافظة

ويروي الاستاذ محمود كامل المحامي: ان مطران قرأ هوغو وراسين وكورنيل وموليير وفهمهم وحفظ اشعارهم عن ظهر قلب (١) ولا شك ان هذا ان صح ، فان مطران يكون معجزة زمانه في قوة الحافظة

(١) الجامعة — السنة التاسعة العدد ٣٠٣ ص ٢٣ (٣ نوفبر ١٩٣٨) مقال للاستاذ محمود كامل المحامي

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب ثقافة مطران الرحيبة ان نقرنها بالخصائص الذهنية التي كانت ظاهرة عليهِ وهذه الخصائص تجري مجرى الاتساق مع شخصيتهِ : نفوذ نظر الى بواطن الاشياء ، وقدرة على التحليل، وقياس سليم ، ونظر صادق واحساس دقيق بالاشياء وفهم صائب لها . ثم ذاكرة تعي ولا تتعب ، تتذكر ولا تنسى . ولا شك ان لنفس مطالعة مطران أثراً في ذلك — فهو كما حدثنا — حين يعمد للمطالعة . يعالج الموضوع الذي يتناوله في القراءة بصبر وجلد ، يتبين مواضع الجمال في تؤدة فيما يقرأ ، ويترك نفسهُ للكاتب يرتفع بهِ في اجوائهِ حتى يخلص من الكتاب بروحه التي تتمشى بين سطوره . وبعد ذلك يعود معيداً الكرة على الكتاب بنظر الناقد الفاحص في غير ميل او تحامل حتى يخلص من الكتاب بفكرة ثابتة عنهُ . ومثل هذه المطالعة تثبت في الذهن موضوع القراءة ولا تذهبها ، وتعين على الفهم الصائب ، وتمكن على التحليل والنظر الصادق

خاتمة

عاش الخليل أعزب بلا زواج ومن غير نسل . ولم يكن ينتظر من شخص في مكانهِ غير هذا وله مزاج يلمح الكون في ظلال قاتمة ، وطبيعة لا تحب القيود وان لابستها وبدت عليها أنها رضيت بها . ولا ريبة انهُ وقد صدم في آماله وحبه بوفاة قرينة روحه وهو في أوائل العقد الرابع من عمره ان امسك عن الزواج ، مخلصاً لذكرى تلك التي أحبها وماتت عذراء لم يعرف قلبها حب انسان غيره، ولم يعكر فؤادها رياء المجتمع ونفاقهُ. وعزم مطران على ان يبقى مخلصاً لذكرى حبيبته مثل من أمثلة الوفاء العجيب ، وهو بعد غير مستغرب عليه ، فهو بعد ان اجتاز دوراً خضع فيهِ لنزوات الشباب عاد وقد اجتاز العقبات وأصبح صخرة من الاخلاق الثابتة قال:

ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتاً   نبت عنه آفات البلى والمعاطب

لا يعرف قلبه الانعطاف لحب او هيام ، ولا تعرف أخلاقه اللف والمصانعة اللذين يعرفهما من عاشوا عزاباً بلا زواج

وخلاصة القول ان الخليل شخصية ، فيها لطف وتسامح وكرم اخلاق ، وعفة لسان ، وسمو نفس يمثل فيهِ نموذج الاخلاق اللبناني الاشم من سكان السهول شرق الجبل . والواقع ان مطران نموذج كبير لهؤلاء تتمثل في صورة قوية من شخصيته خلال القوم وأخلاقهم



العصر الفائر

تأثير الثورة الصناعية والنزعة الاستعمارية في مشكلات العصر
التفسير النفسي للدكتاتوريات الحديثة

روسيا والمانيا

علاقاتهما في ربع القرن الماضي
موارد الاولى وحاجات الثانيـة

السيادة التامة

كشعب عالمي
تحليل اقتصادي اجتماعي لاهداف
الحركة الوطنية الاشتراكية وأساليبها

العصر الفائر

تأثير الثورة الصناعية والنزعة الاستعمارية في مشكلات العصر
التفسير النفسي للدكتاتوريات الحديثة

من المحن التي لا قبل لنا إلاَّ بمواجهتها ان تتعرَّض الحضارة لنوائب حربين كبيرتين في جيل واحد . ولكن الحرب الناشبة الآن كانت لا مفرَّ من نشوبها لصدّ تيار من التحكم والعدوان والاستهتار كان لا بدَّ لهُ لو طغى واستفحل طغيانهُ من ان يقضي على مثل الحضارة الانسانية كما أخذها البشر عن الانبياء والفلاسفة والشعراء والمصلحين . وشهوة السلطان — على ما قال شيلي الشاعر الانكليزي — تلوّثُ كالوباءِ الجارف كل من تمسُّ . والخضوع آفة كل عبقرية وفضيلة وحرية وحقٍّ ، يستعبد الناس ويحول هذا الهيكل البشري الى آلة عمياء

في هذه الحرب ، يلتحم تياران متعارضان من تيارات الاجتماع البشري . أحدهما هو التيار النابع من القول بان للانسان قيمة في ذاتهِ ، وان الاجتماع البشري لم يبلغ ما بلغهُ من مراتب الارتقاء إلاَّ باطلاق الحرية للفرد يفكر ويستنبط ويستكشف ويعثر ثم ينهض من عثرتهِ . كذلك نشأ كبار الفلاسفة والشعراء والعلماء والروَّاد . وكذلك ردُّوا آفاق الجهل وهاجموا معاقل أسرار الطبيعة وفتحوا بعضها فحلقّوا بالانسانية رويداً رويداً فوق المستوى الحيواني الوضيع كما تحلّق الطائرة فوق اطباق الغمام القاتمة . هذا التيار العظيم السائر بالانسان من الاستعباد للطبيعة ثم للكهان والطغاة نحو الحرية والكرامة هو خلاصة تراث الانسانية من خمسة آلاف سنة من التاريخ المدون الى يومنا هذا

وأما التيار الآخر فهو النابع من القول بان هذا الهيكل البشري آلة عمياء . ويا ليتهُ آلة تامة . فانهُ في عرف أصحاب هذه الفلسفة الاجتماعية ليس الاَّ سناً في ترس في آلة عمياء يديرها طاغية متحكم لا حدَّ لشهوتهِ وتحكمه . وفي هذا المعنى قال الملك جورج السادس عندما وجّه الكلام الى الشعوب البريطانية يوم ٣ سبتمبر الماضي : لقد حملنا على خوض النضال لا تنا دعينا نحن وحلفاؤنا لمواجهة تحدٍّ من مبدإ لو عمَّ لكان هادماً للنظام المتمدن في العالم ، انهُ المبدأ الذي يسمح لدولة بان تهمل معاهداتها وعهودها تحقيقاً لاغراضها الذاتية ، مبدأ استعمال القوة او التهديد بها ضد سيادة الدول الاخرى واستقلالها . واذا جرد هذا المبدأ من كل تنكر واستخفاء كان تلك النظرية الهمجية بان القوة هي الحق . . . وأدهى من ذلك ان سيادة هذا المبدإ تبقي الناس يرسفون في قيود الخوف فيزول كل أمل ورجاء في السلم والسلامة والعدل والحرية . وقال الرئيس روزفلت : —

عندما تنكر كرامة الروح الانسانية في بلدان كثيرة وعند ما يجعل ذلك الانكار شعاراً لدعاية تتحرك بمقتضاها الجيوش لا يسع أحداً الاطمئنان الى ان سلامة بلاده او سلامة داره مضمونة . وقال لورد ديلاوار : ان التحدّي أبعد غوراً من مسائل سياسة القوة . انهُ يردّ جميع الافكار والمذاهب التي قامت عليها الحضارة الى الوقوف موقف الدفاع

ولكن اعلان الحرب ، لم يكن الاّ اعترافاً رسميًّا بقيام حالة حرب في اوربا سواء اشتبكت الجيوش في الميادين أم لم تشتبك . فقد انقضى على اوربا خاصة ، والعالم بوجهٍ عام ، سنوات لم تذق الشعوب فيها طعم الطأنينة . فكأنها كانت مقيمة على جوانب بركان متحفز للفوران حتى ليصح ان نصف عصرنا بأنهُ العصر الفائر ، لما يغلي في صدور الناس من معاني القلق ويضطرب من وراء مظاهر الاجماع من حوافز الانقلاب. وهذا الوصف لا ينطبق على السنوات الاخيرة فحسب ، بل هو ينطبق على ما تقدم من سني هذا القرن . وليس علينا الاّ ان تتذكر الحرب الكبرى الماضية وما أعقبتهُ من الثورة الشيوعية في روسيا ، ثم ما أفضت اليهِ من قيام النظامين الفاشستي والوطني الاشتراكي في ايطاليا والمانيا ، وكيف انهارت المعاهدات ، وسلبت الحقوق ، وانقلبت الاوضاع الأدبية ، لندرك ان الاستقرار ليس سمة العصر الذي نعيش فيهِ ، وأنَّ في ثنايا الحضارة ما يشبه الديناميت يهدّد بالانفجار

***

تتصف حضارتنا في هذا العصر من بين ما تتصف بهِ بروح المنافسة الشديدة والخصومة العنيفة بين دول كبيرة تملك في ايديها طاقة لم يتح للانسان ما يقارب جزءا منها في عصر سابق. وهذه الطاقة ترتدُّ الى الثورة الصناعية التي اضفت في نشأتها وتحوّطها وارتقائها مستندة الى فنون العلم النظري والتطبيقي ، سمتها وصفتها على عصرنا وحضارتنا

فالآلات التي تحركها الطاقة ، واستعمالها في الانتاج ، كانت ظاهرة ثورية في حقيقتها لأنها زادت قدرة الانسان على الانتاج مئات الاضعاف وألوفها . وافرغت الحياة في الحانوت والمعمل في قالب جديد . وجذبت الى المراكز الصناعية والمدن عدداً متزايداً من الناس . وفي الوقت نفسه زاد عدد سكان اوربا زيادة كبيرة

وكانت النتيجة التي لا مفرَّ منها ، لهذا التقدم في الانتاج والاحتشاد في المراكز الصناعية والمدن ان اشتدت الحاجة الملحة الى فتح اسواق لبيع المصنوعات واستثمار موارد للخامات الصناعية يعتمد عليها . وكذلك اخذت الدول والشعوب تتنافس في استكشاف مجاهل الارض والاستيلاء على المناطق الغنية بمواردها الطبيعية فبنيت الاساطيل وجيشت الجيوش الكبيرة . ولكن المانيا وايطاليا واليابان دخلت حلبة المنافسة متأخرة عن غيرها

كان «التوسع الامبراطوري» الاسم الذي اطلق على هذا النوع من التنافس في مستهل القرن التاسع عشر . ومراجعة تاريخ ذلك القرن الحافل يقنعنا بان هذه النزعة كانت القوة الاجتماعية الاقتصادية المسيطرة على العالم حينئذٍ ولم تنج أمة من أثرها . ففيها اجتمع حبُّ السلطان لاجل السلطان ومجد الامبراطوريات القديمة ، ولكن من وراء هذا وذاك قام شبح ضغط السكان على موارد الرزق

في هذا النضال بين الامم ، الناشيء عن نزعة « التوسع الامبراطوري » اشتدَّ الجفاء احياناً بينها وتلبد الافق بغيوم الحرب . خذ مثلاً على ذلك سنة ١٩٠٨ عندقامت سربيا الصقلبية مدفوعة بعاطفتها القومية بعد تحرُّر شعوب اوربا الجنوبية من نير الاتراك ، تعارض معارضة شديدة ضم ولاية البوسنة الى امبراطورية النمسا والمجر . ولكن توازن القوى الاوربية حينئذٍ كان كافياً لاجتناب الحرب فلما وقع الانفجار في سنة ١٩١٤ استطاع المؤرخون ان يرتدوا بهِ الى نزعة التوسع الامبرطوري التي كانت سمة غالبة على سياسة امبراطورية النمسا والمجر . فالتوتر الدولي المتكرر في مستهلّ هذا العصر ، وهو التوتر الناشيء عن الثورة الصناعية والنزعة الامبراطورية ، كان بين البواعث الرئيسية على نشوب الحرب العالمية في سنة ١٩١٤

***

وقد انقضى الآن عقدان من السنين على انتهاء الحرب العالمية ، كانت سمتها الغالبة قيام حالة « حرب في ابان السلام » اي جفاء مشتد مستمر بين الدول جعل الحالة القائمة حالةً لا هي حرب ولا هي سلام . ومن عوامل هذا الجفاء المشتد النازية والفاشستية وهما في صميمهما احتجاج على تسوية الحرب الماضية . وما الازمة العالمية التي اصابت العالم في سنة ١٩٢٩ الا عاقبة من عواقب التبديد والتبذير اللذين اقتضتهما مواصلة الحرب العظمى الى نهايتها . وانقضت سنوات على الازمة الاقتصادية قبلما زالت عواقبها أو بدا انها زالت ، ولكنها تركت في كل بلد أثراً عميقاً وطائفة من المشكلات في مقدمتها جميعاً المشكلة الاجتماعية

فاتساع نطاق التعطل عن العمل الذي نجم عن الأزمة الاقتصادية لم يفض بجماهير العمال الى القنوط بل أرهف حسَّهم فاتسع نطاق ما يطلبون . ان ضغط السكان في أيام « النزعة الامبراطورية » كان ضغطاً غير واعٍ لان العوامل التي افضت اليهِ كانت على الغالب غير واضحة فلم تفهم على صحتها حينئذ ومن الثابت ان الجماهير لم تدركها . ولكن الشعور بهذا الضغط الآن غير خافٍ لا على الزعماء ولا على الجماهير . والهدف الذي تتجهُ اليهِ الجماهير انما هو هدف السلامة الاجتماعية . فالعامل يطلب عملاً يتقاضى عليهِ أجراً معقولاً يمكنه من العيش ويضمن لهُ

العلاج في اثناء المرض ، والسلامة في ابان الشيخوخة ، والغالب أن حركة الجماهير هذه ترتد الى اعتقادها ان الآلات العجيبة التي ما فتئت مطردة الارتقاء منذ ذرَّ قرن الثورة الصناعية تستطيع أن تغدق على الناس نعمة وراحة اذا أحسنت تدبيرها وتنظيمها حكومات متصفة بالحكمة

ومما لا ريب فيه ان حكومة كل بلد من البلدان الصناعية قد اعترفت بما عليها من تبعة في رعاية حال الأمة واصلاح امرها . ولكن ما تطلبهُ الجماهير من الحكومات ، وما اعترفت به الحكومات من نصيبها في تحمل تبعته ، يقتضي بحثاً في أصول التنظيم السياسي والاجتماعي . فأي نظام حكومي أصلح من غيره لحل هذه العقدة ؟ وفي الرد على هذا السؤال نجد الباعث الأول من بواعث الفوران الاجتماعي والسياسي الذي أعقب الحرب العالمية . وبين الشدّ والارخاء في هذه الفترة نشأت ثلاث فلسفات اجتماعية سياسية منها اثنتان الفاشيستية والنازية ولدتا في احضان النزعة القومية المتطرفة وأخذتا بمبدإ الزعامة . حالة ان الشيوعية تذهب الى ان امتلاك الدولة لموارد الثروة والمرافق وحده يمكنها من تمهيد سبيل العمل لكل فردٍ . أما النازية والفاشستية فتذهبان الى ان اخضاع الفرد للدولة تحت اشراف حاكم بأمره هو السبيل الوحيد الى حل مشكلة التعطل عن العمل وضمان سلامة الفرد . ويقابل هذا الدمقراطية ، ورأي اصحابها أن حرية الفرد في الاعتماد على قوة ابتداعهِ وابتكاره وظهور قوتهِ ومواهبهِ الكامنة هي العامل الذي يوسع مجال العمل ويفضي الى الرخاء

فالفرق واضح بين طريقة الدولة الدمقراطية والدولة المندمجة في معالجة المشكلة . ان الطريقة الدمقراطية هي طريقة السلام . ولكن الدولة المندمجة ترى استعمال القوة لزفع مستوى المعيشة اذا انكر عليها التوسع الذي تريد . وقد افرغ جوبلز هذا المعنى في خطبة القاها على عمال كروب من عهد قريب عند ما ناشدهم اتباع الهر هتلر اتباعاً اعمى في المعركة التي يشنُّها لضمان المدى الحيوي اللازم لألمانيا . وعنده ان كل دولة — ككل فرد — عليها ان تكافح في سبيل المكانة الجديرة بها بين الامم . قال جوبلز « ان كل عامل الماني يعلم مدار هذه المعركة .... ونحن لا نريد الا حقوقنا . فاذا انكرت علينا فان امة تعد ثمانين مليوناً تعرف كيف تقاتل قتال المتعصب »

***

ولكن التفسير الاقتصادي للمشكلة الاجتماعية واتجاه الامم الى الاخذ بالحكم الدكتاتوري لا يكفي وحدهُ . بل هناك التفسير النفسي كذلك

والواقع انهُ مما يحير الباحث في شؤون أوربا تسليم شعوب عريقة في الحضارة وامجادها العقلية والفنية كالشعبين الألماني والايطالي بالحكم الدكتاتوري على الرغم مما يجره هذا الحكم في أثره من

قيود تثقل على طبع الانسان المثقف. ولا سبيل الى انكار ان الحكم الدكتاتوري أسفر في المانيا وايطاليا بوجه خاص عن انتصارات باهرة في حلبة السياسة الداخلية والخارجية كنجاح موسوليني في تنظيم شؤون بلاده وزيادة أسباب الخير الادبي والمادي فيها وفوزهُ في حملتهِ الحبشية . ونجاح هتلر في تسليح المانيا والغاء معاهدة فرساي واحتلال منطقة الرين وضم النمسا والاغارة على تشيكوسلوفاكيا بغير مقاومة. ونجاح أتاتورك العظيم في تركيا . ولكن هذا النجاح ينطوي على بذور الخطر لانهُ يقتضي من الحاكمين بأمرهم انتصاراً تلو انتصار لكي تبقى أذهان الناس منصرفة عن خواص الحكم الدكتاتوري التي تنفر منها النفس. فهي اذاً لا تكفي لتعليل ما نراه في جماهير هذه الشعوب من تأييد الحاكمين بأمرهم والخضوع لهم . فما هو التعليل ؟ للعالم النفسي النمسوي الدكتور فلهلم شتيكل رأي في تعليل هذه الحالة لا يخلو من الطرافة وهو قائم على ما يعرف في علم النفس « بمركب السلطان » او « عقدة السلطان »

يرى الدكتور شتيكل ان في نفس الطفل نزاعاً بين غرائزهِ والدروس التي يمليها عليهِ اتصاله بالعالم الخارجي . فالاطفال يميلون الى ان يكونوا قذرين ولكن والديهم ومعلماتهم يعلمونهم انهُ يجب عليهم ان يعنوا أشد العناية بالنظافة. والتربية في رأيهِ سعي الى افراغ الطفل في قالب يخالف اتجاه غرائزه . والتربية أساسها السلطان — سلطان الوالد والوالدة والمعلم والمعلمة — « فالسلطان » خصم الطفل وعدوه لانهُ يعني التخلي عن نزعاته الفطرية

والسلطان الاول الذي يبدو أثره في حياة الطفل هو سلطان الوالدين فاذا كان الوالدان ضعيفين تحداها الطفل. ولكنهُ لا يكاد يخرج من نطاق سلطانهما حتى يصطدم بسلطان الاطفال الذين يفوقونهُ سنّاً وخبرة، وبسلطان المعلم ثم بسلطان القانون وبسلطان الكنيسة إذ لا يخفى ان السلاح الاخير في أيدي مربي الاطفال قولهم للطفل العاصي « إن الله قد يعاقبك على ما تفعل أو على ما فعلت ». هذا المركب « مركب السلطان » الذي كان له اكبر الأثر في تربية الصغار أخذ يضعف بعد نشوب الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ . فالأسرة أضحت غير ما كانت عليهِ لان الوالدين — بحسب رأي شتيكل — لم يحافظوا على القواعد الادبية التي لقنوها لاولادهم فهاج الاولاد على هذا التمييز وطرحوا جانباً سلطان الوالدين وعفروا بالتراب أوامرهم ونواهيهم

وما حدث للاسرة حدث للمدرسة والجامعة وما وقع للوالدين وقع للمعلمين والاساتذة . بل ان أخطر النتائج التي أسفرت عنها الحرب الكبرى كانت اضعاف الشعور بوجوب احترام السلطان واصحاب السلطان في الأسر وبين الأمم . وهذا هو تعليل موجة الاجرام التي طغت على العالم وبلغت ذروتها في الولايات المتحدة الاميركية. واقترن بذلك ان العلم أخذ يضعف من مقام الدين التقليدي في نفوس الناس لان العلم لم يفهم على وجهه الصحيح ولان طائفة كبيرة

من رجال الدين تمسكت بأعراض الدين دون جوهره . فلما اخذ الشبان والشابات يتساءلون كيف يسعهم الايمان برب يأذن في نشوب حرب تزهق في مجزرتها أرواح عشرة ملايين من الناس أنهار مبدأ « السلطان » في حياة الافراد وكانت النتيجة موجة الحاكين بأمرهم

فهتلر وموسوليني وأشباههما ليسوا في رأي الدكتور شتيكل الاّ رجالاً يحاولون في حياة كل فرد محل الوالد والمعلم . وقد يتنكر الناس لصاحب السلطان يفرض سلطانه عليهم ولكنهم لايستطيعون ان يعيشوا من دونه مفرغاً في شكل من الاشكال . لقد ثار الاولاد على آبائهم فجاء هتلر وموسوليني ودلفوس وبلسودسكي وكمال أتاتورك وستالين فحلوا محلهم . ودخل في روع الطفل الحديث ان والده غير جدير باحترامه واجلاله وطاعته فبحث عن زعيم خارج عن نطاق الاسرة يوليه هذا الاحترام وتلك الطاعة . فمركز السلطان خرج من دار الأسرة واستقرّ في دار الحكومة . والواقع ان الحكومة مزيج من قوتي الخوف والحب . والحاكمون بأمرهم أبلغ مظهر لهذا المزيج .فدلفوس قتل اشتراكي فينا بالمدفع والبندقية ثم طلب منهم الغفران والتعاون . واسكندر اليوغوسلافي سعى جهده لاستمالة الكرواتيين اليه بالحسنى وفي الوقت نفسه كان يحاول ان يحملهم على الخضوع بالقوة . وهتلر على الرغم من حب الشعب له اضطرّ ان يطهر الحزب بالدم يوم ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ . فلماذا لا ينفر الانسان من الخضوع لسلطان الدكتاتور او الزعيم كما نفر من الخضوع لسلطان الوالد والمعلم ؟ هذا سؤال طبيعي . والدكتور شتيكل يرد عليه بقوله ان عصمة الدكتاتور عن الخطإ تزداد رويداً رويداً في رأي الفرد كلما زاد عدد اتباعه وكذلك يفشو في الامة مرض نفسي دعاه شتيكل « وباء التمجيد » فتغدو الامة وكأنها جاثية عند اقدام الدكتاتور

يضاف الى هذا انهُ كلما زاد الاتباع الذين يؤيدون الزعيم او الدكتاتور تندمج نقائصهم وتتحول الى مزايا لانهم يحسون انهم والزعيم وحدة لا تنفصم فيشاطرونهُ في نفوسهم صولجان السلطان الذي يحكمهم بهِ . أي أنهم يصبحون حاكمين لا محكومين . ولذلك ترى الالمان يقولون انهم لا يحاربون في سبيل هتلر بل هتلر يحارب في سبيلهم . عند هذا الحد من التحول النفسي يندمج الخضوع بالتحدي والبغض بالحب ويتحول الدكتاتور الى منقذ . كان الزعماء في العهد القديم ينشئون ديانات جديدة . ولكن الزعماء في هذا العصر رجال سياسة بل ان طائفة من زعماء العصر الحاضر يخشون الدين لانهم يرون ان زعماء الدين ينازعونهم « السلطان » على نفوس اتباعهم . لذلك تراهم يحاولون اسقاط الدين من مكانتهِ العالية في نفس الامة على نحو ما وقع في روسيا والمانيا وغيرها

روسيا والمانيا

علاقاتهما في ربع القرن الماضي
موارد الاولى وحاجات الثانية

— ١ —

إن الصلة بين روسيا والمانيا سابقة لعهد ستالين في الاولى ولعهد هتلر في الثانية بل مما يستوقف النظر ان ترى في المانيا المغلوبة على أمرها بعد انتهاء الحرب الماضية ووضع معاهدة فرساي نزعتين: احداهما الى التعاون مع الدول الاوربية الغربية وزعماؤها الاشتراكيون الالمان وهؤلاء لم يلتفتوا الى التعاون مع روسيا حينئذٍ على قرب ما بينهم وبينها من اواصر القربى الفكرية وهو من بواعث الاستغراب . والثانية الى التعاون مع روسيا السوفيتية وكان زعماؤها اقطاب الجيش الالماني (الريخسفهر)

فأقطاب الجيش حينئذ كانوا يرون — كما أدرك بسمارك من قبل — روسيا مكملة لالمانيا من الناحية الاقتصادية . ففيها سوق لمصنوعات المانيا . ومورد للخامات الصناعية والحربية . وفيها كذلك مجال لقدرة الالمانيين الفنية على تثمير مواردها الزراعية والصناعية . ثم أنهم رأوا في صداقتها اولاً وسيلة للتخلص من بعض قيود فرساي ثم في محالفتها طريقاً الى هدم تلك المعاهدة وانقاذ المانيا منها وتمكينها من السيطرة على اوربا

فلما اجتمع ممثلو الحلفاء في جنوى سنة ١٩٢٢ للبحث في شؤون اوربا الاقتصادية، دعي ممثلو روسيا والمانيا الى هذا المؤتمر . ولكنهم لم يعاملوا فيه معاملة الند للند وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية قد ادرك الفائدة المرجوة من التعاون الاقتصادي مع هاتين الدولتين الكبيرتين ولكن تصلب بعض الدول الممثلة في المؤتمر حيال مسائل مالية معينة أسفر عن قنبلة سياسية فوجىء بها المؤتمر والعالم . ذلك ان ممثلي روسيا والمانيا ذهبوا الى بلدة رابالو Rapallo على بضعة أميال من جنوى وعقدوا فيها معاهدة بين البلدين اعترفت بها المانيا اعترافاً شرعياً بحكومة السوفييت ونزلت الحكومتان عن ديون احداهما للاخرى وهي الديون المعقودة قبل الحرب . فكانت تلك المعاهدة الاشارة الاولى من المانيا الى محاولتها التفلت من قيود فرساي والاشعار الاول من روسيا بأنها لا ترضى ان تبقى في عزلة عن تصريف شؤون اوربا

ولم يلق اقطاب (الريخسفهر) مشقة ما في التعاون مع الجيش الاحمر فأخذ ضباط (الريخسفهر) في تدريب الجنود الحمر وفاز فريق من ضباط اركان الحرب الالمانيين بمناصب عالية للتعليم والتدريب في الجيش الروسي بل فاز الريخسفهر علاوة على ذلك بانشاء مدارس حربية لتدريب

الالمانيين في روسيا ومصانع لصنع الطائرات لان مثل هذه المدارس والمصانع كانت محظورة في المانيا بحسب النصوص العسكرية في معاهدة فرساي

وفي سنة ١٩٢٦ عند ما كانت المفاوضات دائرة لانضام المانيا الى جامعة الامم عقدت المانيا وروسيا معاهدة جددتا بها الولاء لمعاهدة رابالو وتعهدتا بالتزام الحياد اذا هوجمت احداهما من دولة اخرى او كتلة من الدول . وكانت روسيا في ذلك الحين تخشى تدخل الدول الرأسمالية في شؤونها فرأت حكومتها في هذا الاتفاق مع المانيا ما يعزز من مكانتها كما رأت فيه المانيا سبيلاً الى التملص من قيود فرساي.ولو ان الامر ترك لضباط الجيشين لمضى البلدان في هذا التعاون الى نهايته المنطقية

— ٢ —

ولكن الهر هتلر تقلد منصب المستشار في حكومة المانيا في يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ فكان في مقدمة اعماله فض الحزب الشيوعي في المانيا والغاؤه وتصوير الاتحاد السوفيتي عدواً لدوداً لا بد لالمانيا الهتلرية من قهره ووصف الفورر بأنهُ منقذ اوربا من التيار الشيوعي المجتاح وبراثن الضارى البولشفيكي فصاح جوبلز في احدى خطبه «ان اوربا تقوم او تسقط مع ادولف هتلر»

وبدا لسامعي هذه الاقوال ان فيها رنة الصدق . فوقعت وقعاً عظيماً في عواصم البلدان المجاورة لروسيا والمانيا واخذ ساسة البلدان الواقعة بينهما يخشون ان تكون بلدانهم موطئاً لسنابك الخيل — او الدبابات — الهتلرية في غزوتها لروسيا الحمراء بغية انقاذ العالم من شرورها . فكان لذلك تأثير في توجيه الخطط السياسية . ولذلك سارعت بولونيا وهي الميدان الطبيعي لمثل هذا النضال الى اعلان موقفها وقاعدته انها تحارب الدولة الاولى التي تستبيح حدودها . فاذا حاول الالمانيون أو الروسيون ذلك حاربت السابق منهم الى انتهاك حرمتها وانضمت الى الفريق الآخر

وبينما كانت دول شرق اوربا ترهف الحس لتتبين المصير اذا اصطدم الجباران ، كانت دول اوربا الغربية تنظر الى احتمال الاصطدام بشيء من الاطمئنان

فالنظام السوفيتي كان لايزال في نظر معظم أقطابها مصدر الخطر الكبير على المجتمع الاوربي من نواحيه الاجتماعية والاقتصادية.فاذا اصطدم الشيوعيون بالنازي أضعف الاصطدام الفريقين وأتاح لاوربا فترة من الطمأنينة . لذلك قوبلت تصريحات هتلر العنيفة ضد الشيوعية بشيء غير يسير من الارتياح في بعض دوائر اوربا الغربية واتقى منها بعض الانتفاء شبح «رابالو» اخرى. اي ان هذه الدوائر كانت تعتقد انهُ على قدر ما تسوء العلاقات الروسية الالمانية يبعد كابوس التحالف بينهما

ولكن الدوائر السياسية في البلدان الواقعة بين ماردي الشيوعية والنازية كانت أرهف حساً

وأصدق حدساً من دوائر اوربا الغربية . فلاحظت هذه الدوائر انهُ على الرغم من اللهجة العنيفة في خطب أقطاب النازي وصحفهم ضد الاتحاد السوفيتي لم يقطع الهرهتلر العلاقات التجارية التي تربط برلين بموسكو . وجاءتها العيون والارصاد (أي دوائر المخابرات) بان الصلة بين الريخسفهر والجيش الاحمر لم تتبدل كثيراً . بل ان أقطاب « الريخسفهر » ترفعوا عن الاشتراك في حملة الدعاية العنيفة ضد السوفيت . وهذه الحقائق حملت هذه الدول — اذا استثنينا تشيكوسلوفاكيا — على الوقوف موقف الحذر الدقيق حيال الاشتباك في عهود واتفاقات مع الدول الغربية لانها كانت تخشى أن تفضي هذه السياسة الى تحقيق ما يبغيه قواد الجيش الالماني من اتجاه الى روسيا . لذلك امتنعت بولونيا في سنة ١٩٣٤ عن الاشتراك في ما وصف حينئذٍ باسم « لوكارنو الشرقية » وأبت الانضمام الى أية كتلة موجهة الى احدى جارتيها الكبيرتين

والغالب على رأي فريق من متتبعي شؤون اوربا الشرقية ان في مقدمة البواعث التي حملت بولونيا على الوقوف هذا الموقف كان خوفها من حمل المانيا على الارتماء في أحضان روسيا الحمراء

ثم كانت ازمة السوديت في سبتمبر ١٩٣٨ وكانت روسيا مرتبطة بتشكوسلوفاكيا من ناحية وبفرنسا من ناحية أخرى بمعاهدة مساعدة متبادلة . ومع ذلك كان السؤال المرتسم في أذهان رجال السياسة حينئذٍ — ماذا تفعل روسيا اذا هاجمت المانيا تشيكوسلوفاكيا ؟ وهل في وسع الجيش الاحمر ان يسدي عوناً فعالاً الى جمهورية ماساريك وبنيش ؟ وكان الرأي في بعض دوائر بخارست وفرسوفيا ان بين برلين وموسكو تفاهماً على ان تنال المانيا ما تبغي في بوهيميا وكان الخوف في لندن وباريس ان يكون هدفُ موسكو زجٍّ دول أوربا في حرب كبيرة بسبب تشيكوسلوفاكيا لتجني من الفوضى الناشئة عنها فرصةً لبذر بذور الشيوعية في كل مكان . والغالب ان هذا الريب في نية موسكو الحقيقية كان من أهم البواعث على الاذعان لما طلبه هتلر في ميونخ

في ميونخ اجتمع تشمبرلين وهتلر وموسوليني ودلاديه وقضوا فى مصير بلاد السوديت . وأما روسيا المرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا بميثاق تعاون متبادل ومع فرنسا بمثله ، روسيا العضو فى جامعة الأمم وصاحبة القول بأن « السلام لا يتجزأ » ، فلم تدع الى الاجتماع ، ومن الغرائب أنها لم تدع اذعاناً لامتناع هتلر عن الجلوس مع ممثلها حول مائدة واحدة . فما كان موقف الكرملين من ميونخ ؟ تقريع بريطانيا وفرنسا اعتقاداً من رجاله بان هاتين الدولتين انما مهدتا لالمانيا سبيل التوسع في شرق أوربا لتصطدم بروسيا السوفيتية وقد أعرب الاقطاب الروس عن هذا الرأي فى غير خطبة رسمية واحدة

وما سكنت الضجة التي ثارت حول اتفاق ميونخ حتى ثارت ضجة أخرى حول ما تنويه

المانيا في اوقرانيا استناداً الى قول هتلر في مؤتمر نورمبرج سنة ١٩٣٦ عندما قال : — حبذا لو كانت لي جبال الاورال وما فيها من موارد المواد الخام وسيبيريا وما فيها من حراج واوقرانيا وما فيها من سهول القمح . . . ثم صاح « وسنغلب تحت راية الصليب المعقوف »

وفسرت الدول الغربية هذه الاقوال بانها اعراب عن نية المانيا النازية على غزو أوقرانيا وتفتيت روسيا . ولكن دول أوربا الشرقية خشيت ان يكون معناها مجرد الاتفاق بين المانيا وروسيا على تبادل اقتصادي واسع النطاق يمكن المانيا من استيراد ما تحتاج اليهِ من خيرات روسيا الطبيعية ولذلك ظل كابوس الاتفاق النازي السوفيتي جاثماً على النفوس

أما ما تمَّ بعد ذلك فقريب العهد بنا وحسبنا الاشارة اليه : استباحة تشيكوسلوفاكيا في مارس ثم السعي لانشاء ما دعي « كتلة السلام » مما اقتضى مفاوضات في موسكو بين ممثلي بريطانيا وفرنسا وأقطاب الكرملين دامت بضعة أشهر وعندما ظنَّ الناس أنها أوفت على التمام فوجئوا في أغسطس الماضي بعقد اتفاق عدم الاعتداء بين روسيا والمانيا فهز العالم ولا يزال العالم في حيرة من حقيقته وحقيقة ما تلاهُ . فقضى عقده على الوهم بان هتلر سدٌّ دون طغيان الشيوعية وان ستالين حائل دون الاعتداء النازي . ثم وردت الانباء بان الاثنين طعنا بولونيا من الامام ومن الخلف واقتسماها وشرعت روسيا السوفيتية تبسط نفوذها على دول بحر بلطيق وقبلت المانيا ان تجلي الألمانيين الذين توطنوا تلك البلدان من مئات السنين

— ٣ —

من الاوليات التي لا ينازع فيها الآن ان الحروب الحديثة لا تحسم في ميدان القتال فقط. وان تفوُّق الحلفاء في الحرب العالمية الماضية في مواد الصناعة والطعام كان له التأثير الفاصل في مصيرها . واذا صحَّ ذلك في الحرب الماضية فأحرى بهِ ان يكون أشد انطباقاً على هذه الحرب . لأن الاعتماد على الاجهزة الميكانيكية فيها وما تحتاج اليهِ من الوقود اعظم مما كان في سابقتها . والمقابلة بين الحليفتين الغربيتين والمانيا من هذه الناحية ترجح كفة الحليفتين اكثر مما كانت كفتهم راجحة من ربع قرن

والغالب عند اهل الرأي — على ما جاء في مقال لمكاتب خاص في التيمس — ان الحكومة النازية خزنت تخزيناً منظماً مقادير كبيرة من المواد التي تحتاج اليها في حالة نشوب حرب كبيرة . والمرجح ان النقص في هذه المواد واشتداد الحاجة اليها لا يظهران الاَّ بعد انقضاء سنة من الزمان اونحوها.وعلى الرغم من مشروع السنوات الاربع لاتزال مصادر المواد الصناعية والغذائية التي تستخرج اوتصنع في المانيا نفسها ضعيفة.وهي لا تعادل المواد المستوردة من الخارج جودةً . ومما لا ريب فيهِ ان المانيا النازية ستمضي في اتجارها مع الدول المحايدة .

ولكن هذه الدول لا تستطيع ان تصدر اليها الاّ ما كان من نتاج أرضها وهذا لا يعوّض إلاّ قليلاً مما تحتاج اليهِ لأن ما تستوردهُ الدول المحايدة من ممنوعات الحرب سيكون خاضعاً للحرب الاقتصادية التي بدأت بريطانيا في تنفيذها منذ نشوب الحرب. ولذلك تتجه آمال الحكومة النازية الى روسيا لاستيراد كثير مما تحتاج اليهِ منها

ومما لاريب فيهِ ان روسيا والمانيا تؤلفان وحدة اقتصادية في الاحوال السوية . فألمانيا قليلة الموارد الطبيعية ضيقة التربة ولكن صناعتها متقنة وطبقة العمال الصناعيين فيها متصفة بالاجتهاد وحسن التدريب . حالة ان روسيا تملك مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية الخصبة وموارد معدنية لا تكاد تحد . نخطة الاولى الطبيعية استيراد المواد الخام وتصدير المصنوعات. والثانية تصدير المواد الخام واستيراد المصنوعات ومن هنا تكمل احداها الاخرى

ولكن هذا يصدق عليهما في الاحوال الطبيعية السوية فقط. الاّ ان تاريخ السنوات الاخيرة يدل على ان كلاً منهما قد حادت عن طريقها الطبيعي فروسيا السوفيتية وضعت برامج واسعة النطاق لتعزيز الصناعة فيها. والمانيا النازية وضعت برنامج السنوات الاربع وغرضها منهُ الاستغناء عن الاستيراد جهد المستطاع. فكيف يؤثر هذان الاتجاهان في ما تنتظره المانيا من روسيا من معونة ؟

بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٣ مضت روسيا السوفيتية في تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول فاشتدت حاجتها الى الآلات والاجهزة الميكانيكية اللازمة ؛ فاضطرت ان تصدر كل ما تستطيع تصديره من محصولاتها الزراعية حتى ولو كان ذلك على حساب غذاء الشعب الروسي الذي عانى من الفاقة الامرّين . ومع ذلك لم تكف جميع صادراتها لتوفية ثمن ما اشترته في الخارج لكي تستورده. وقد كانت المانيا حينئذٍ اكبر عملاء روسيا فبلغ ثمن ما صدرته الى روسيا سنة ١٩٣١ اكثر من ٧٦٢ مليون مارك وثمن ما استوردته منها ٣٠٣ ملايين مارك اي ان ميزان التبادل التجاري بينهما كان منحرفاً في ناحية المانيا بمقدار ٥٤٩ مليون مارك. وبلغ صادر المانيا الى روسيا سنة ١٩٣٢ اكثر قليلاً من ٦٢٥ مليون مارك ووارد المانيا من روسيا ٢٧٠ مليون مارك والفرق ٣٥٥ مليون مارك

الاّ ان هذه الحالة تغيرت تغيراً كبيراً في سنة ١٩٣٣ عند ما تقلد النازي ازمة الحكم في المانيا. ذلك ان اتجاههم الى اعادة تسليح المانيا والى الاكتفاء الذاتي انقص من مقدرة المصانع الالمانية على التصدير الى الخارج وفي الوقت نفسه بدأت روسيا في تنفيذ مشروع السنوات الخمس الثاني فاستغنت جهدها عن استيراد الآلات من الخارج وعنيت بتنظيم ما تمّ حتى ذلك الوقت من انشاء صناعي في شتى انحاء البلاد . وكان استخراج الذهب من مناجم روسيا قد زاد زيادة تذكر فمكن روسيا من الفوز باعتمادات مالية في بلدان شتى ومنها بريطانيا . فبدأت تجارتها مع

المانيا تنقص فما أقبلت سنة ١٩٣٨ حتى كانت صادرات المانيا الى روسيا لا تزيد على ٣٢ مليون مارك (كان المبلغ ٧٦٢ مليوناً في سنة ١٩٣١) وصادرات روسيا الى المانيا على ٤٧ مليون مارك

ولا بدَّ لهذا التحول الصناعي والاقتصادي في البلدين من ان يؤثر في علاقاتهما التجارية. فروسيا تصنع الآن كثيراً مما كانت تستورده من المانيا . ولا تحتاج الاَّ الى صنف خاص من الآلات والاجهزة الدقيقة التي قلما تعنى بها الصناعة الالمانية الآن وقلما تجيدها لهبوط مستوى المواد الخام التي تعتمد عليها في صنعها ولاشتغال العمال المتقنين بالصناعة الحربية . يقابل هذا ان روسيا قد تجد صعوبة — اذا سارت حالتها الاقتصادية والصناعية سيراً طبيعيًّا — في تلبية حاجة المانيا الى المواد الخام لانها — أي روسيا — تحتاج الى معظم ما يستخرج منها في أرضها وتضطر الى سدّ النقص بالاستيراد . فمنتجات المناجم الروسية تكفي الاستهلاك الروسي الداخلي وقلما يفيض منها شيء للتصدير

خذ مثلاً على ذلك — ونحن ننقل عن مقالة لمكاتب خاص للتيمس — مادة البترول . فقد زاد انتاجه في روسيا من ٢١ مليون طن متري في ١٩٣٢ الى ٣٠ مليون طن متري في ١٩٣٨ . ولكن ازدياد الحاجة اليه في روسيا نفسها كان باعثاً على نقص المصدر من ٦ ملايين طن متري في سنة ١٩٣٢ الى مليون في سنة ١٩٣٨ الى لا شيء تقريباً في هذه السنة (١٩٣٩)

والحديد الخام زاد انتاجه من ٧ ملايين طن في سنة ١٩٣٣ الى ١٤ مليون ونصف مليون في سنة ١٩٣٦ ولم يزد بعد ذلك لعجز المناجم عن زيادته . وهذا المقدار لا يكاد يكفي ما تحتاج اليه الصناعة الروسية سنويًّا فالتصدير متعذر حتماً . والنحاس المنقى زاد انتاجه من ٤٥ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ١١٦ الف طن في سنة ١٩٣٨ ولكن الاستهلاك الداخلي في روسيا زاد في الفترة نفسها من ٥٣ الف طن الى ١٨٥ الف طن

وبلغ المستخرج من الرصاص في السنة الماضية ٦٩ الف طن متري والمستهلك ٩٠ الفاً

وبلغ المستخرج من الالومينوم في السنة الماضية ٤٨ الف طن والمستهلك ٥٥ الفاً ، وبلغ المستخرج من الزنك ٧٠ الف طن والمستهلك ٧١ الف طن . اما النيكل فروسيا تعتمد فيه على الاستيراد من الامبراطورية البريطانية . ولعل الركاز المعدني الوحيد الذي تستطيع روسيا ان تصدره هو ركاز المنغنيس . اما المحصولات النباتية والغذائية الروسية فتكاد على المعدل تكفي زيادة المستهلك منها في روسيا نفسها ويستثنى من ذلك الخشب

فروسيا قلما تنتج من مواد الطعام ما يكفي شعبها ولا يزال مستوى تغذية الشعب الروسي دون ما تبغيه حكومته وتتطلع اليه . ولذلك كانت خطة موسكو في السنوات الاخيرة متجهة الى رفع مستوى تغذية الشعب اكثر من اتجاهها الى زيادة ما تصدره من مواد الطعام . فلم تصدر

من حبوبها الا ٩٢٠ الف طن متري في سنة ١٩٣٣ و ٢٣٦ الف طن متري في سنة ١٩٣٧. وهذا التفاوت يرتد الى مقدار الغلة والى ما تحتاج اليه الحكومة الروسية من نقد اجنبي لتوفي به التزاماتها المالية الخارجية . يقابل هذا ان حاجة المانيا الى الحبوب متفاوتة كذلك بتفاوت مقدار المحصول. في سنة ١٩٣٦ صدرت ١٢ الف طن متري وفي سنة ١٩٣٧ استوردت اكثر من مليون طن وربع مليون طن متري. وما يصدق على الحبوب يصدق كذلك على الشعير . ومما يستوقف النظر في هذه الناحية ان حقول روسيا الشاسعة التي تزرع حبوباً على اختلافها واقعة في الجنوب ومرفأ تصديرها الطبيعي هو مرفأ أودسا على البحر الاسود فتحويل التصدير الى مرافىء بحر البلطيق يرهق السكك الحديدية الروسية

وتصدر روسيا كذلك الزبدة ولكن ما تصدره منها الى جميع البلدان لم يزد في سنة ١٩٣٧ على ١٥ الف طن متري حالة ان ما استوردتهُ المانيا منها في تلك السنة بلغ ٨٧ الف طن متري

— ٤ —

واذا صرفنا النظر عن مسألة المقادير التي تستطيع روسيا السوفيتية ان تصدرها الى المانيا لتعوّض به ما كانت تستوردهُ قبل الحرب — وهو يبلغ ٧٥ في المائة من حاجتها الى ركاز الحديد و ٩٠ في المائة من البترول و ٣٠ في المائة من القمح و ٩٥ في المائة من النحاس و ٩٠ في المائة من الرصاص و ١٠٠ في المائة من ركاز الكروم وغيرها — وجدنا الموضوع يتناول ثلاثة اعتبارات اساسية هي:

اولاً — الاعتبار السياسي . ان روسيا سواء أكانت سوفيتية ام لم تكن لا بد ان تتردد كثيراً قبل اقدامها على بذل العون كاملاً لالمانيا النازية المشبعة بالروح العسكرية لما يعرف عن رغبة المانيا في السيطرة على معظم القارة الاوربية حتى تغدو — على قول روزنبرج رئيس القسم الخارجي في الحزب النازي — ولا قبل لدولة اخرى او كتلة من الدول بمقاومتها . وهذا المبدأ يمكن ان يحسب مبدأ اساسياً دائماً في سياسة روسيا الخارجية . الاّ ان المبادىء السياسية عرضة للتقلب وفقاً لأهواء القائمين بالامر وأغراضهم الخاصة . وقد يكون من مصلحة روسيا ان تمد المانيا بقدر محدود من الخامات الصناعية والحربية يمكنها من مواصلة الحرب مدة طويلة ولكنه لا يمكنها من الانتصار فتكون النتيجة اضعاف المانيا وخصومها في آن واحد

واذن فقد لا يقوم الاعتبار السياسي حائلاً حاسماً دون توريد روسيا الخامات اللازمة الى المانيا بقدر محدود

ثانياً — الاعتبار المالي . انهُ لغني عن البيان ان ما تنوي روسيا ان تصدره الى المانيا لن يكون هدية بلا مقابل . وقد يتم الاتفاق على ان تعقد روسيا قرضاً لالمانيا ولكن الاتفاق التجاري الذي عقد بين الدولتين قبيل عقد ميثاق عدم الاعتداء نص على ان تعقد المانيا قرضاً

لروسيا ولذلك فالمرجح ان تكون مقادير المواد التي تبتاعها المانيا من روسيا محدودة بقدرتها على توفية ما تشتري . وحيث ان المانيا لا تملك مبلغاً يذكر من الذهب او من النقد الاجنبي تستطيع ان توفي بهِ ثمن ما تشتري فالغالب ان يكون التبادل بين برلين وموسكو على أساس المقايضة . وأكثر ما تحتاج اليه روسيا من مصنوعات المانيا الآلات الحديثة المتقنة . ومن المعلوم ان استئثار الصناعة الحربية بمعظم المصانع الالمانية حال دون قيام المصدرين الالمان — قبل نشوب هذه الحرب — بتنفيذ العقود التي عقدوها لاصدار الآلات الى الخارج . واذا كان هذا صحيحاً قبل نشوب الحرب فأحرى بهِ ان يكون صحيحاً بعد نشوبها . ولذلك يغلب على الظن ان التبادل التجاري بين روسيا والمانيا على هذا الاساس لا ينتظر ان يكون كبيراً .

ثالثاً — اعتبار المواصلات : ان طرق المواصلات الرئيسية بين روسيا والمانيا ثلاثة : —

بحراً عن طريق بحر البلطيق ولكن هذا البحر يتجمد معظم السنة في طرفه الروسي وعلاوة على ذلك ان مدينة لننغراد بعيدة عن اكثر موارد الخامات الروسية والنقل اليها من مناطق هذه المصادر شاق وقد يكون متعذراً لأسباب شتى . ثم هناك طريق البحر الاسود فالدانوب وهذا الطريق خاضع لموقف رومانيا ويوغوسلافيا وهنغاريا او لأية دولة تملك قوة بحرية كبيرة وتستطيع ان ترسل الى البحر الاسود عمارة تعرقل هذه المواصلات — بعد سماح تركيا طبعاً . وعلاوة على هذه وتلك هناك سكك الحديد الروسية . ودرس شبكة السكك الحديدية الروسية يسفر عن حقيقة واضحة وهي ان هذه الشبكة انشئت بقصد تسهيل التجارة الداخلية لا لتسهيل الاصدار . والمسافات بين مصادر الخامات الروسية والمانيا شاسعة وقدرة مركبات السكك الروسية على النقل تبلغ الآن ١٦ مليون طن في السنة فاذا خصص عشر ذلك للنقل الى المانيا لم تتمكن سكك الحديد الروسية من ان تنقل الى المانيا الاّ مقدار ما تحتاج اليهِ من ركاز الحديد وحده في أثناء السلم ! ثم هناك عقبات فنية اخرى تتعلق بسكك الحديد تجعل حل عقدة المواصلات الحديدية أمراً متعذراً قبل انقضاء بضع سنوات وانفاق نفقات كبيرة على انشاء خطوط جديدة في روسيا وزيادة عدد مركبات الشحن زيادة عظيمة

والخلاصة انهُ اذا نظرنا نظرة اقتصادية مجردة في مبلغ ما تستطيعه روسيا من إمداد المانيا بمواد الغذاء والصناعة وجدناهُ يسيراً . ولكن اذا شاءت روسيا ان تبذل لالمانيا معاونة فعالة ففي وسعها ان تقتر على شعبها وتحد من حاجاتها الداخلية وتقيّد اقتصادها الاهلي وترهق سككها الحديدية لتحقيق ذلك . وهو ثمن باهظ لا يلوح ان ضم الاراضي يوازيه لان من شأنه ان يزعزع تقدم روسيا الاقتصادي الصناعي ومن المحتمل ان لا يقدم عليهِ زعيم روسي ولذلك يغلب على الظن ان مساعدة روسيا لالمانيا في هذه الناحية ستكون يسيرة محدودة النطاق

« السيادة التامة

كشعب عالمي »

تحليل اقتصادى اجتماعى لخطة

الوطنيين الاشتراكيين وأهدافهم البعيدة

من المسائل التي تشغل أذهان المفكرين في هذه الحرب وعواقبها مسألة في المقام الاول من خطر الشأن ، وهي : هل كان في الوسع الاتفاق مع الهر هتلر اتفاقاً يجنّب العالم هذه النوائب التي يعانيها ؟ والى القرّاء ردّ رجلٍ ثقةٍ هو الدكتور هرمن روشنتج Rouschning رئيس مجلس شيوخ دانتزج سابقاً وهو ملخص بحث مسهب لهُ صدّر بهِ الجزء الاخير من مجلة الشؤون الخارجية الاميركية (اكتوبر ١٩٣٩)

قال روشنتج : — ذهب ظن بعض الناس الى انهُ من المستطاع اقناع الهر هتلر بتبديل أساليبهِ وتقييد الاهداف التي يتجه اليها بالاذعان لهُ في مسائل محدودة وتحقيق مطالبهِ الخاصة بها على ان يكون هذا الاذعان مقيداً بشروط معينة يقبلها ، وعند ذلك تغدو المانيا عاملاً من عوامل الاستقرار الدولي . وقد كان هذا الرأي قائماً على قواعد سليمة مستمدة من حركة توحيد المانيا في ما بين سنتي ١٨٦٤و١٨٧٠ على عهد بسمارك . فبسمارك قال غير مرة انهُ متى تمّ توحيد الريخ غدا همّـهُ الاول ان يفوز بثقة العالم بنزعتهِ السلمية . اي ان بسمارك كان يرى ان المانيا ستصبح عاملاً قويًّا من عواملِ السلام في أوربا متى زالت بواعث برمها عن طريق توحيدها . نعم ان سياسة بسمارك كانت قائمة على استعمال القوة . ولكن اهدافه كانت محدودة لأنهُ كان يدرك الحدود العملية لما يستطاع ولما لا يستطاع

يقابل هذا ان سياسة غليوم الثاني كانت غامضة من حيث الاهداف التي تتجه اليها . وفي قول مأثورٍ للسر ارثر نيكلسون عند ما استحكمت ازمة المغرب الأقصى سنة ١٩٠٥ ان وزارة الخارجية الألمانية لا تعلم ما تريد . ثم قال ان خطر السياسة الالمانية ليس ناشئاً عن اتجاهها الى التوسع بل عن غموضها . فغليوم الثاني بنى سياستهُ على المفاجئات الناشئة عن انفعال طارىء وهذه الحقيقة كانت أبعث على نشوب الحرب الماضية من سعي المانيا الى السيطرة العالمية

أما سياسة الهر هتلر فاختلفت في البدء اختلافاً بيناً عن سياسة غليوم الثاني وعن سياسة جمهورية ڤيمار . فسياسة غليوم كانت غامضة وسياسة جمهورية ڤيمار كانت متسمة بالتردُّد . واما سياسة الهر هتلر فكانت صريحة ودلّت في صراحتها على انهُ يعرف تماماً الاهداف التي تتجه اليها . فولادتها في احضان النزعة القومية الالمانية حمل اقطابها على السعي الى تنقيح معاهدة ڤرساي وازالة

اسباب البرَم الالماني فشابهت في ذلك الى حدٍّ مامنهج بسمارك .فكأنها بدأت حيث انتهى بسمارك فوصلت ما انقطع من حبل سياسته

وكانت سياسة هتلر في بادىء الأمر سياسة قومية بحصرالمعنى . وكان هدفها تحويل « المانيا الصغيرة» التي وضع بسمارك قواعدها الى « المانيا الكبرى » التي ما فتئت حية في اذهان الوطنيين الالمانيين . وكان الطريق الى تحقيق هذا الغرض تنقيح النصوص الجغرافية في معاهدة الصلح وهو تنقيح كان لا بدَّ من ان يتمَّ يوماً ما . وكان لالمانيا في بلدان خصومها في الحرب الماضية، مؤيدون في طلبها هذا . والغالب ان هؤلاء كانوا يوافقون على التعديل المطلوب لو لم يلازم ذلك التعديل بعض الاساليب التي تستند الى القوة والارهاب ، مما أضعف ثقة الدول الاجنبية وحسن نيتها وعزَّز ترددها في قبول ما تطلبهُ المانيا . ومع ذلك ظل فريق منهم يذهب الى ان هذه الناحية من السياسة الالمانية غير اصيلة فيها وانهُ متى تمَّ تنقيح المعاهدة تتحول اساليب السياسة الالمانية الى الاستقرار والأخذ بالقواعد المرعية المحترمة الجانب في العلاقات الدولية

والواقع انهُ لو كانت اهداف السياسة الالمانية في عهد النظام الوطني الاشتراكي اهدافاً محدودة ، أي لو اتجهت هذه السياسة خاصة الى ضمّ المناطق الالمانية وجمعها في نطاق الريخ الثالث فحسب ، لكان من المرجح تسليم الدول الاخرى بذلك

ولذلك كان النقد الموجه الى النظام الوطني الاشتراكي في عهده الاول ، نقداً متسماً بسمة الاعتبارات الادبية وكان على الاكثر موجهاً الى اساليب النازي في داخل البلاد . وقلما سمع نقد لاهدافهم الخارجية . بل ذهب بعضهم الى حد تصوير الانقلاب الداخلي تصويراً مقبولاً ولاسيما بعد ما نجح رجالهُ نجاحاً باهراً — في الظاهر — في التغلب على مظاهر الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي في البلاد — او اخفائها !

وكان للنظام الجديد معارضون في داخل البلاد فما لبثوا حتى وصلوا الى النتيجة نفسها . ففي المرحلة الاولى استضعفوا النظام الجديد ثم برموا بأساليبه ثم اقتنعوا بأن ما يبدو فيه مما تعافهُ النفس لا بدَّ ان يزول عندما تستقرُّ الحالة على اساسها الطبيعي. وكان الرأي في الدوائر غير النازية من رجال الجيش وكبار الموظفين وأقطاب الصناعة والتجارة ان هذه الحال لا تدوم وان الحكمة تقضي بالانتظام في الحزب الوطني الاشتراكي واصلاحه من الداخل وبدا لفريق من كبار الموظفين انهُ يتعذّر عليهم التوفيق بين اساليب الحزب والواجب عليهم كما يفهمونهُ فيتعين عليهم ان يستقيلوا فقيل لهم إنهم إنْ فعلوا جاءت استقالتهم معززة للجناح المتطرف في الحزب وبهذا وما كان من قبيله يفسَّر بقاء رجال من امثال فون نويرات في وزارة الخارجية والكونت شفرين — كروزيك في المالية وغيرها

ولكن الاساس الذي قام عليه هذا التفكير كان ضعيفاً ، ذلك ان اصلاح الحركة الوطنية الاشتراكية على النحو الذي اراده هؤلاء كان متعذراً ، لانها كانت متجهة قسراً وبدافع من طبيعتها الداخلية الى التطرف شأنها في ذلك شأن كل حركة ثورية. فجاءت معاونة العناصر المحافظة لها معززةً لمنزلتها فاجتنبت المانيا بذلك حرباً اهلية ، ولكن الاتجاه المرجو نحو الاعتدال والاستقرار لم يحقق

ويلوح للهر روشننج ان موقف الدول الدمقراطية الغربية في الحركة الوطنية الاشتراكية كان شبيهاً بموقف العناصر المحافظة الالمانية منها . فمعاونة هذه العناصر في الداخل أفضى الى اجتناب حرب اهلية في المانيا ، ومسلك الدول الدمقراطية في الخارج افضى الى اجتناب حرب أوربية . وقد يتعذّر على الباحث ان يفهم كيف ظلّت حقيقة الحركة الوطنية الاشتراكية خافية على اقطاب الدول الغربية بضع سنوات. ولكن العناية بالمسائل الاقتصادية في مستهلّ العهد النازي كانت غالبة على الاذهان . فنظر هؤلاء الاقطاب الى الوسائل الفعّالة التي عالجت بها الحكومة النازية مشكلة التعطل عن العمل فبهرت بنشاطها ونتائجها ورأت فيها وسيلة من الوسائل الفعّالة للخروج بالعالم من قتام الازمة الاقتصادية وضيقها

ثم ان النظر الاقتصادي في الموضوع يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع موارد الخامات الصناعية وحاجة المانيا اليها كبيرة . ولو كان العصر عصر سلام سياسي واقبال تجاري لما تعذّر على المانيا ان تفوز بما تحتاج اليه من هذه الخامات . ولكن الازمة العالمية ضيّقت الخناق على التجارة الدولية ، فكان من الطبيعي ان يتجه الرأي الى العلاج الاقتصادي لحالةٍ تكره المانيا على التوسع السياسي . فقيل انهُ اذا ابيحت بعض البلدان لاستغلال المانيا الاقتصادي ، واذا كفيت حاجتها الى الخامات الصناعية فلا يبعد ان تعمد المانيا الى السلام والاستقرار ، لأنها اذا كانت مكتفية من الناحية الاقتصادية فانها تنفق نشاطها حينئذٍ في الانتاج بدلاً من الحرب

وهذا تفكير يلوح انهُ سليم ولكنهُ لا يفسّر بوجه من الوجوه ، كيف مضت المانيا تغالي في الطلب كلما سلمت لها الدول الدمقراطية سنة بعد سنة بما تريد . والواقع انهُ قام على مبادىء خاطئة من حيث انهُ قدّم الاعتبار الاقتصادي في المانيا على الاعتبارات الاخرى ، مع ان الاعتبارات الاخرى النابعة من النفس لا من الحالة الاقتصادية كانت المحرك الرئيسي للحركة الوطنية الاشتراكية

فألمانيا الوطنية الاشتراكية لم تعمد الى طريقة الاكتفاء الذاتي لغرض اقتصادي او اجتماعي وانما عمدت اليها لأغراض تتعلق بقوة الدولة وسطوتها — اي بالدفاع الوطني والقدرة على الحرب . وجرثومة هذه السياسة ترتد الى عهد بسمارك وكان الوزير الحديديُّ يرى صلة وثيقة بين الحماية التجارية

والسلطان الحربي . ثم خاضت المانيا الحرب العالمية الأولى فرأت كيف قطعت صلاتها بالعالم الخارجي ومنعت عنها موارد الخامات التي تحتاج اليها وما اكثرها ، فحملها كل ذلك على السعي الى توسيع مواردها إما بالاتقان العلمي والصناعي ، واما بالتوسع الجغرافي .

حدث جماعة من مفكري الوطنيين الاشتراكيين في هذا الموضوع ترَهم يفكرون على النمط التالي : —

ان المانيا تلي روسيا في عدد السكان بين دول اوربا . وضيق ارضها يحول دون «سيادتها التامة » «كشعب عالمي» . ليس ثمة ريب في انها تستطيع في ابان السلام ان تفوز بكل ما تحتاج اليه من مواد الصناعة . ولكن اعتمادها على الاسواق العالمية يجعلها في ابان الحرب دولة ضعيفة كلّ الضعف . وما تم من وجوه التقدم والارتقاء في اساليب الحرب وأجهزتها جعل المانيا عاجزة عن القيام بحرب في ميدانين قياماً عليه سمة امل بالنجاح . وقدرتها على استعمال مواهب ابنائها الفنية والصناعية يعرقلها ويضعفها اعتمادُها الاقتصادي على الدول الاجنبية . واذن فمن المستحيل على المانيا الى ابد الدهر ان تبلغ المرتبة التي تريدها ، وهي مرتبة « شعب عالمي» وستبقى مضطرة ان ترضى بمقام ثانوي تتقدم عليها امة صغيرة كالامة الانكليزية اوحتى كالأمة الفرنسية

والصفة التي يتميز بها الشعب العالمي — يقول اقطاب النازي — هي حرية العمل السياسي . فللولايات المتحدة الاميركية حريتها ، وكذلك الامبراطورية البريطانية وروسيا . وفرنسا الى حدٍّ محدود . واذا شاءت المانيا ان تجاري هذه الدول وألاّ ترضى بمقام ثانوي بينها فعليها ان توفق بين منزلتها المرموقة و « المدى الاقتصادي » economic space المتاح لها ، ومن الخطإ ان توصف بأنها دولة محرومة have not تنافس الدول المكتفية haves ووصفها بهذا الوصف ليس الاّ سلاحاً يستعملهُ أعداؤها ضدّها في حرب الآراء . والحقيقة ان المانيا وهي في مقدمة دول أوربا تقدماً واتقاناً صناعيًّا منعت الاّ من إحراز مقام ثانوي بين الشعوب العالمية . فألمانيا بين الاستسلام لهذه الحقيقة والسعي الى حلها بحدّ السيف . أما الاستسلام وهي دولة فتية تتمشى في عروقها حرارة الحياة فتتعذر عليها . فلم يبق أمامها الاّ الطريق الآخر لان العالم تركها في جوٍّ لا يغري بالتعاون

والاكتفاء الذاتي ليس الاّ سلاحاً مصطنعاً يستعمل الى حين في ميادين الاقتصاد والسياسة بغية تحقيق « الاستقلال الطبيعي» الذي تنشدهُ . فهو حلٌّ غير دائم ، لانهُ غير طبيعي والاعتماد الدائم عليه مقضيٌّ عليه بالخيبة . ولكنهُ أتاح لالمانيا فترة قصيرة من الاستقلال الذي لا بدَّ منهُ للفوز بالاساليب السياسية والعسكرية لتحقيق هدفها البعيد وهو « سيادتها الكاملة » « كشعب عالمي »

و «المدى الحيوي» Lebensraum, Living space لا يعني في نظر النازي منطقة واسعة يتاح لألمانيا في نطاقها تبادل البضائع تبادلاً حرًّا . بل يعني منطقة على جانب كافٍ من السعة يتاح لألمانيا فيها حرية « مطلقة » للعمل السياسي . وحدود هذه المنطقة تتسع وفقاً لاتساع مقتضيات الحرب الحديثة . فما كان يكفي المانيا سنة ١٨٨٠ لتغدو دولةً مكتفية وذات سيادة مطلقة غدا لا يكفيها بعد انتهاء الحرب العالمية الماضية . ولا بدَّ لألمانيا في نظر النازي من بسط سيطرتها شرقاً الى القوقاس بما فيه أوقرانيا وغرباً الى البحر لكي تحقق السيادة المنشودة في الاحوال التي نشأت بعد الحرب العالمية الماضية . وذلك يقتضي ان يكون لها زيت القوقاس ومعادن أوقرانيا وحبوب رومانيا وهنغاريا وسواحل بلجيكا وهولندة وشمال فرنسا ومستعمرات تابعة الآن لدول اخرى

هذه هي النظرة الاساسية التي تنطوي عليها خطة الحركة الوطنية الاشتراكية . والحقيقة البارزة التي تخرج بها من هذا القول هي ان تقديم اغصان الزيتون لا يكفي ، لان المانيا بزعامة الوطنيين الاشتراكيين تطلب « السيادة التامة كشعب عالمي » ولا ترضى بأقل من ذلك

فالسياسة الخارجية التي جرى عليها هتلر لم تترك له مجالاً واسعاً للاختيار . ان الاهداف المحدودة التي اتجه اليها ليست الا اجزاء من الهدف البعيد وهو « السيادة التامة » لالمانيا « كشعب عالمي » . وألمانيا بزعامته لن تكتفي الا بعد ما تبسط سيطرتها على متسع من الأرض تعتقد انهُ كافٍ ليحررها من الاعتماد على الدول الأخرى . فاذا ادركنا هذه الحقيقة فهمنا لماذا لا يرى الوطنيون الاشتراكيون خيراً ما في تنظيم اقتصادي عالمي على اساسٍ من التبادل بين الدول آيتهُ اعتماد الاجزاء على الكل واعتماد الاجزاء بعضها على بعض . ولذلك وقفت اوربا — والعالم في الواقع — بين امرين : فإما أن تتخلى المانيا عن هذا الهدف البعيد واما الحرب ، لأن تحقيقهُ يعني في الحقيقة بسط السيطرة الألمانية على اوربا . وعند ذلك فقط تميل المانيا الى النظر في تنظيم العالم تنظيماً أساسهُ التبادل لانهُ اذا اصيب هذا النظام باضطراب ما ، فانهُ لا يؤثر في السيادة الالمانية ولا في قدرة الدولة الالمانية على خوض غمار الحرب وهي معتمدة على ما تستورده من دول اخرى

وعزَّز من هذه النظرة في اذهان اقطاب الريخ الثالث اعتقادهم ان « الدول العالمية » آخذة في الانحدار . فانكلترا في رأيهم « دولة على ورق » وموقفها الحربي ضعيف وآخذ في الانهيار . وفرنسا امة ماضية في طريق الموت موتاً بيولوجيًّا لانها تريد ان تجمع بين القوة الحربية وضبط النسل فاعتمدت على الزنوج من مستعمراتها فهي لذلك عاجزة عن ان يكون لها شأن كشعب عالمي . والولايات المتحدة الاميركية تخطت دور شبابها علاوة على كونها خليطاً من الامم والعناصر فاذا تعرضت لضغط خارجيّ من نوع معيَّن كان ذلك كافياً لقيام الثورة فيها .

وهذا الاعتقاد لم يبدّل منهُ ما بدا في بريطانيا وفرنسا في خلال السنة الماضية من دلائل العزم والحزم . ذلك ان الدول الدمقراطية في نظر الوطنيين الاشتراكيين يعوزها عنصر اساسي وهو الرغبة الشديدة الحازمة في اثبات نفسها بالقوة . بل ان هتلر ذهب الى أبعد من ذلك . فقد دلّه ما أحرزهُ من نصر سياسي تلو آخر على ان مكانتهُ في التاريخ ستقوم على انهُ عجّل انهيار هذه الدول الهرمة فمهّد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي تحمل فيه المانيا لواء الزعامة والسيطرة . وطريقة الوطنيين الاشتراكيين في تعجيل هذا الانحلال هي هي طريقة الاحزاب الثورية في كل بلدٍ ، اي دسّ الدسائس ونشر الدعاية الهدّامة وتشجيع الانحلال الداخلي لاضعاف المشيئة القومية ثم تقسيم المطالب والاتجاه الى تحقيقها مطلباً مطلباً حتى لا يبدو احدها كبيراً يحرّك النفوس لحمل السلاح

هذه النظرة الوطنية الاشتراكية الى الاهداف والاساليب حملت الهر هتلر على الاعتقاد بأنّ مقترحات السلام من كل خصمٍ له ليست الاّ دليلاً على استعداد ذلك الخصم للاذعان ، فأرهفت شوقهُ الى الهجوم . وكذلك نشبت الحرب التي ارادت الدول الدمقراطية تجنبها بمجرد رغبتها في معالجة المشكلات بالرشد والمسالمة . ثم ان أحوال المانيا الداخلية أكرهت الوطنيين الاشتراكيين على المضي في خطتهم لان أملهم الوحيد في الاحتفاظ بمنزلتهم في المانيا كان معلقاً بالمضي في حركتهم الثورية والمغالاة فيها، لذلك كان من المستحيل عليهم ان يتخلوا عن أسباب السيطرة وإحداث تبديل أساسي في النظام الاقتصادي الذي كان أحد مصادر سلطانهم ولا العودة بالمجتمع الالماني الى نظام قائم على الحرية والقانون . كان من المحتمل ان يسلموا بتحديد السلاح بعض الشيء لأنهم قرّروا ان التفوق النفسي لازم لهم كالتفوق الحربي. ولما كانوا قد فازوا بتحقيق الشطر الاول فقد كان في وسعهم ان يتراخوا قليلاً في الثاني اذا لزم الأمر . ولكن من الثابت أنهم كانوا لا يستطيعون ان يقيموا نظاماً أساسهُ القانون ولا ان ينشئوا دستوراً يشمل جميع الطبقات أي انهُ كان يستحيل عليهم ان يتخلوا عن أسلوب البطش والتحكم والارهاب . وفي هذه الحالة كان التعاون السياسي والاقتصادي الصادق مع سائر البلدان متعذراً . لان العلاقات السياسية بين الدول لا يمكن ان تقوم إلاّ على الأخذ والعطاء والاتفاق الوسط . والوطنية الاشتراكية في طبيعتها الثورية والنظام الذي أنشأتهُ داخل البلاد كانت عاجزة عن الاتفاق الوسط . فاما النجاح الكامل وإما الأذعان الكامل . لأن كل تراجع في الخارج كان لا بدَّ ان يفضي الى متاعب في داخل البلاد قد تفضي بدورها الى انهيار النظام النازي . ولذلك لم يكن في مستطاع أحد تعمَّق في درس الحركة الوطنية الاشتراكية واهدافها وأساليبها إلاّ الاقتناع بأنها لا ترضى بالتسليم لها في نطاق محدود ، بديلاً عن طريقها الى السيطرة على أوربا والثورة العالمية

باب الأخبار العلمية

عجائب الجراحة العصرية او المبضع الكهربائي

ما من شك ان الخوف عدو أزرق للجرّاح . وقد غير العلم الحديث العمليات الجراحية القديمة ، بقدر ما غيّرها سمبسون بالكلوروفورم ، إذ حوّلها من جزارة بشرية الى عمليات هينة وذلك بفضل المرقدات المخدّرات

وأعظم الاصلاحات التي أدخلت على الجراحة ، سرعة الاستغناء عن مبضع الجراح ذلك الذي طالما كان رمزاً للفرَق ، بل كثيراً ما كان يقضي على المريض، عوضاً عن ان يكون سبباً لاطالة حياته

أما الآن ، وقد زال مبضع الجرّاح وحلّ محله المشرط الدياثرمي Diathermic knife وهو معجزة الجراحة العصرية ، فقد غدا الجرّاحون يبضعون أعضاء الجسم المختلفة بالتيار الكهربائي وصارت العمليات الجراحية المستعصية التي كانت مستحيلة عليهم منذ عشر سنين ، من الهينات وتيسر لهم سبر الجسم البشري ، والتوغل في زواياه الخفية ، التي لم يكن المشرط المألوف ليبلغها، فيقوم الجرّاح ببضع ما شاء بلا وجلٍ من نزف الدم من طوائف العروق ، فيتاح له ان ينجز في بضع دقائق ، دون استعجال ، ما كان يستغرق عمله ساعاتٍ مع ما كان يعقبه من ضرر محقق. ومن العجب ان الجراح يأتي ذلك العمل بأجمعه دون اراقة قطرة دم واحدة من مريضهِ

والمشرط الدياثرمي ، ثمرة يانعة مباشرة من ثمار الكهربائية العلاجية التي تولد الحرارة المشعة المتادة . وهي التي تتولد من مرور التيارات الكهربائية السريعة التذبذب في الجسم البشري ، فكأنها وسيلة صناعية لرفع حرارتهِ الاصلية بضع درجات

ولذلك يوضع قطبان كهربائيان كبيران على جانبي العضو المزمع علاجهُ ، ابتغاء جعل تأثير التيار الكهربائي يشمل أكبر مساحة ممكنة

وتستعمل الآن النتائج الاولى لذلك الاختراع في جميع انحاء العالم لغرضين : اولهما البضع ، وثانيهما تجميد الدم . وما زال السلك الرفيع مستعملا كالمبضع وذلك لتوليد هذه الحرارة الموضعية الشديدة التي تذيب حالا اللحم البشري من تحتها دون حاجة الى الضغط فيستطيع الجراح القيام بالبضع بكل دقة واتقان ، ولا يصعب عليهِ الوصول بسلكه الباضع الى اية نقطة في الجسم ، اذ هو يتمكن من ثني ذلك السلك لكي يلتف حول الزوايا. وفي وسعه ايضاً ان يجعله على شكل عروة تُلَف حول قاعدة زائدة بدنية او نامية سرطانية فيستأصلها من موضعها في دقائق معدودات. حالة ان المبضع المألوف يستغرق ساعات في اعمال طفيفة ربما يعقبها الخطر . وأفضل من كل ذلك ان الجراح يبضع العضو دون احداث نزف في دمائه على الاطلاق ، اذ حرارة المبضع الكهربائي تغلق اطراف كل عرق تمر بهِ اغلاقاً محكماً . والمعروف ان خطر نزف الدم كثيراً ما كان عقبة كأداء تحول دون

اجراء العمليات الجراحية الضرورية للحياة في كثير من اعضاء الجسد التي تحدق بها طوائف من العروق . فأضحى ذلك الخطر في خبر كان . اذ تتم العمليات الآن بلا خطر ، وذلك في الكبد والمخ وغيرها. والميزة الاخرى العظمى للمشرط الكهربائي ، تسهيله معضلة كبرى من معضلات الجراحة وهي استئصال التوامي السرطانية والاورام المتأصلة في الجسم البشري وانهُ قد انشأ وسيلة اصطلاحية للعلاج فالجراح بضبطه التيار السريع التذبذب ، واستخدامه المشرط المنتهي بالزر ، يستطيع توليد حرارة في عضو الانسان تكفي لاحراق أية نامية وذلك بالملامسة دون غيرها . وتسمى تلك العملية عملية تجميد الدم

ومن سبق الحوادث التنبؤ الآن بمصير ذلك المخترَع (بفتح الراء) العظيم في جراحة السرطان ولكن المعروف انهُ سيقلبها رأساً على عقب ويسهلها ويجعلها خالية من الخطر

المسك الطبيعي ومنافعه — والمسك الصناعي وتركيبه

قالت دائرة المعارف الانكليزية الحديثة للطلبة

الطيوب نوعان اصليان ، وهما الحيواني والنباتي . وأعظم الطيوب الحيوانية المسك . وهو مادة سمراء ضاربة الى الحمرة ، قوامها كقوام عسل النحل ، وتستخرج من ظبي المسك ، الذي يقطن بهضاب آسيا الوسطى . والمسك عطر قوي يدوم زمناً طويلاً ويكسب شذاه لكل ما يلامسه او يجاوره حتى الفولاذ الصقيل اذا ادخلته في علبة مع المسك، واغلقتها عليه ، اكتسب الفولاذ رائحة المسك الذكية

وتمزج العطور المختلفة بمقادير طفيفة من المسك ، لكي يكسبها خاصية دوام الشذا الذي تفقده اذا بقيت محضاً . واسعاره باهظة جدًّا ، وذلك لندرة وجود الحيوانات التي تنتجه

ويدلنا التاريخ على كون ظبي المسك يصاد من اقدم الدهور ابتغاء الحصول على مادة المسك الذكية الرائحة جدًّا . ويختلف ظبي المسك عن غيره من فصائل الظباء ، بكون ذكوره وأناثه جماء (أي لا قرون لها) الا ان لذكوره أنيابا حادة بارزة نحو الاسفل ، من الفك الأعلى وبذينك النابين يدافع الذكر عن نفسه اذا هاجمهُ حيوان آخر

ويسكن ظبي المسك السهول المرتفعة في آسيا الوسطى (كما تقدم القول) .ومن طبيعة ظباء المسك انها تعيش فرادى ، وقلما ترى أزواجاً . ولا تسرح قطعاناً لانها شديدة الوجل، ولذلك تعلف ليلاً في الغالب. ولصعوبة الدنو منها تصاد بالفخاخ. ويبلغ طول الظبي الكامل النمو ثلاث اقدام وارتفاعه عند كتفيه ٢٠ عقدة وألوان ظباء المسك مختلفة ولكن اكثرها اسمر ضارب الى الشهبة أو الصفرة ونصفها السفلي ضارب الى البياض

ولا يوجد المسك الاَّ في جسم ذكر الظباء ، وذلك في كيس يعادل حجم البرتقالة الصغيرة جدًّا تحت السطح السفلي لبطنه . ويحتوي كل كيس على أوقية واحدة او اكثر من المسك الخام ويكون لونه وقوامه حينئذٍ

شبيهين بهما في «البسكوت» اللين المتبل بمسحوق الزنجبيل . ولما كان شذا المسك قوياً جداً وثابتاً أصبح مزج العطور الاخرى به ضرورياً احتفاظاً بذكاء روائحها . والمسك من أعظم اصناف التجارة في قارة اسيا بأجمعها

وقال العلامة القزويني في مؤلفه القديم المشهور : — أما ظباء المسك فانها كظباء بلادنا الاّ ان لها نابين ، خارجين من الفم كما للفيل . وربما صيدت والمسك في سرتها غير ناضج وتكون فيه زهومة . ومثله مثل الثمار ، اذا قطعت قبل الادراك فانها تكون ناقصة الطعم والرائحة . وأجود المسك ما ألقاه الغزال وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم الى سرته فاذا استحكم الدم فيها ، ونضج ، يجمع من ذلك اربة (عقدة) وحكة في سرته ، فيفزع حينئذٍ الى صخرة حادة فيحتك بها ملتذاً بذلك ، فتنفجر المادة حينئذٍ وتسيل على ذلك الحجر كانفجار الخراج والدماميل اذا نضجت، فيجد الغزال بخروجها لذة . والناس يتبعون مراعيها في الجبال ، فيجدون ذلك الدم ، قد جفّ على الصخور ، فيحملونهُ ويدعونهُ في نوافج (اوعية المسك) معهم معدة لذلك . فهذا هو اصل المسك الذي يستعمله ملوكهم ويتهادونه فيما بينهم

وجاء في الكتاب المسمى تذكرة ابن ارمانيوس (وهو عازر ارمانيوس افندي الصيدلي المصري الشيخ المشهور) المطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٢٢ على المسك ومنافعه ما يأتي : — المسك مادة حيوانية يحصل عليها من غزال المسك تفرز داخل كيس خاص موضوع بين السرة ، وأعضاء تناسل الحيوان . وهي صلبة حبيبية ، دسمة الملمس ولونها أسمر مائل للسواد . وتأتي المتجر داخل اكياس مختلفة الطول وأجوده مسك التونكين ويليه مسك سيبريا . والاول يأتي من الصين والثاني من البنجال . وهو منبه عام ومنظم للدورة والوظائف العصبية ، ومضاد للتشنج في الهيستريا ، والصرع والربو التشنجي وقد أصبح استعماله مقصوراً على دخوله في الاطياب والروائح والتعطير

وقال الفيروز ابادي في قاموسه المشهور : — المسك مقوٍّ للقلب ، مشجع للسوداويين نافع للخفقان والرياح الغليظة في الامعاء والسموم

وجاء في معجمي المصباح المنير ومختار الصحاح : — المسك طيب معروف وهو فارسي معرب . وكانت العرب تسميه المشموم وهو عندهم افضل الطيب ولهذا ورد لخلوف[1] فم الصائم عند الله ، اطيب من ريح المسك — ترغيباً في ابقاء اثر الصوم

وورد في احدث المجلات العلمية الانكليزية ما يأتي : — المسك أعظم أنواع الطيوب الطبيعية وأنفسها ويبلغ ثمن الرطل من المسك التقي ٨٠٠٠ جنيه انكليزي . ولشدة غلائه وندرة وجوده شرع العلماء في تركيبه تركيباً كيميائياً من زيت الخروع

(١) الخلوف الاسم من خلف فم الصائم ، تغيرت رائحته وكذا اللبن والطعام اذا تغير طعمه او ريحه

أدوات للطبخ من الصلب العديم الصدأ

Stainless Steel

أدخل الصلب الذي لا يصدأ (منذ فصل الربيع لهذه السنة ١٩٣٩) في صنع طائفة من ادوات الطبخ في اميركا ويصنع جسم الاناء من ذلك الفولاذ العديم الصدإ، لانهُ نظيف جدًّا كالزجاج، ومتين، جميل المنظر، يقاوم حوامض الاغذية وقلوياتها. وتلبس قاعدته بالنحاس الاحمر بأن تجعل ثخانتها كثخانة الفولاذ العديم الصدأ مرة ونصف مرة، وذلك لان النحاس الاحمر يجعل الحرارة توزع بالتساوي على الاناء عند الطبخ ويستعمل الفولاذ العديم الصدإ في صنع الآلات القاطعة كالسكاكين ونحوها ولغيرها من الأدوات التي تحتاج الى دوام النظافة. وهو يؤلف من ١٢٪ من معدن الكروم والباقي من الفولاذ وهو من المنتجات الانكليزية الاصل اخترعهُ المستر هـ. بريرلي H. Brearley وقد وفق لاختراعه عرضاً. وذلك أنهُ كان يجرب ذات مرة انتاج فولاذ من نوع جديد إذ أضاف الى إحدى طبخات الفولاذ ١٤٪ من الكروم، فكانت تلك النسبة تزيد على المعتاد مزجها بالفولاذ، من قبل، فاسفرت نتيجة العملية عن عكس ما كان يتوقعه، ولذلك ألقى الفولاذ الناتج منها قصيًّا، في إحدى زوايا معمله الكيميائي

واتفق بعد اسبوعين ان مرَّ احد أعوان بريرلي بذلك الفولاذ المنبوذ فرآه ما زال محتفظاً بلمعانه مع انقضاء تلك المدة عليه معرضاً للتقلبات الجوية فلم يسعه الا توجيه نظر رئيسه الى تلك الحقيقة المدهشة. فواصل المخترع تجاربه في الفولاذ حتى ايقن انهُ لا يستهدف للصدأ ولا تؤثر فيه الحوامض. ومن ثمة اعترف العلماء بذلك النوع الحديث من الفولاذ وأدركوا منافعه الجليلة

بطيخ بلا بزر

أعلنت كلية الزراعة في ولاية ميتشيغان بأميركا، أنها قد توصلت بالتجارب الزراعية العلمية في الاستنبات، الى انتاج بطيخ بلا بزر ويعزى ذلك الاكتشاف الى طالب صيني نابغة من خريجيها، وهو تشيونغ - ين - ونج Cheong-Yin Wong. وهذه بغية، طالما طمح اليها علماء الزراعة. وذلك عقب نجاحهم في انتاج الطماطم والفلفل الاخضر والاحمر والباذنجان والقرع (ضراف) خالية من البزر. فلم يبق إلاَّ البطيخ واليقطين، يحويان البزر.

وطعم البطيخ الجديد مثل طعم البطيخ ذي البزر، وشكله الخارجي يختلف عن البطيخ المألوف إذ هو غالباً كمثري الشكل لا بيضيهُ. والتجارب التي جربت في بطيخ ميتشيغان، تمت في النوع الذي لا يزيد متوسط ثقله على ثمانية أرطال وهو أصغر من بطيخ البلدان الجنوبية في تلك الولاية. وقال المستر ونج إن انتاج البطيخ العديم البزر، من الحقول، قد يكون صعباً ولكنهُ ميسور في الأكنة الزجاجية التي تخصص في البساتين لزراعة النباتات الغضة وتربيتها

الآلات ذات الثغور اللاقطة الاثمان والاجور

تقوم الآلات ذات الثغور اللاقطة دراهم الاثمان والأجور ، وهي التي يسميها الانكليز penny in-the slot-machines بأعمال شتى في البلاد الأوربية والاميركية وفي عواصمنا المصرية أيضاً وأحدث ما استخدمت فيه من الاعمال ، هنالك موافاة عملائها في أميركا ، بأحدث الانباء العالمية والمحلية الخطيرة ، وذلك على مثال الحوادث التي تعرض بالشرط السينمائية في معارض الصور المتحركة . إذ يلقى درهم في ثغر الجهاز فتتحرك آلات عرض الصور المتحركة المركبة في قاعدة خزانته الكبيرة فيظهر تواً الشريط المحتوي على الاخبار ، معروضاً أمام نافذة زجاجية . وتركب هذه الآلة العارضة للاخبار والحوادث في محطات سكك الحديد وأبهاء الفنادق وغيرها من المحال العامة . وقد عرضت حديثاً في معرض شيكاغو للآلات البياعة ذات الثغور . وطريقة عملها تفصيلاً ان تُلقى الصور المرسومة على الشريط ، على مرآة صغيرة فتنعكس عنها ، وذلك على ستار من الزجاج المسنفر ، قريب من رأس الخزانة حيث يشاهدها الناظر من فتحة زجاجية صغيرة للعيون . وتؤلف مشاهدها من أربعة فصول ، منفصلة بعضها عن بعض . ومتى تمَّ عرض تلك الفصول ، انتهى الشريط واستؤنف ملء الجهاز استعداداً لعرض الاخبار على مشاهد آخر

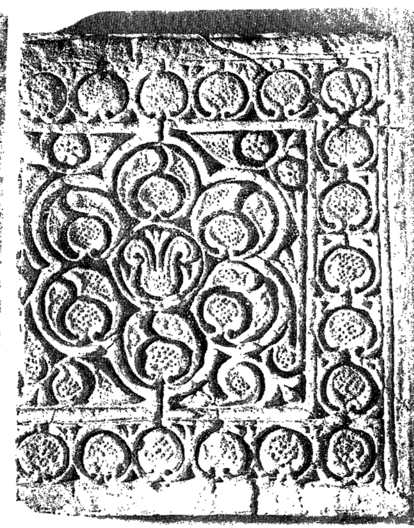
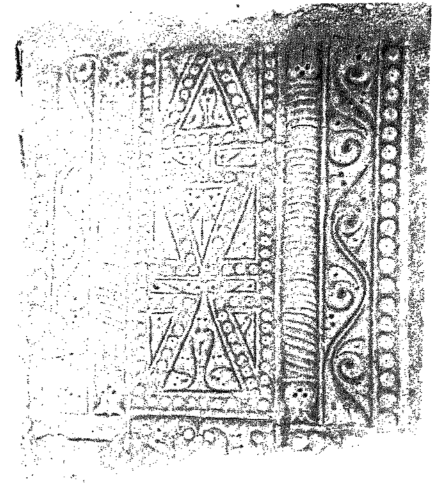
عوض جندي

وفاة المستشرق فنسنك

توفي من شهر المستشرق الهولندي الكبير ا. ي. فنسنك ، وكان من اعلام الاستشراق في اوربا لهذا العهد ، وزع نشاطه بين التدريس والتأليف والتصنيف . اما التدريس فقد كان استاذ اللغات السامية في جامعة ليدن . وأما التأليف فحسبه كتابه النفيس في « العقيدة الاسلامية » The Muslim Creed على ان شهرته تقوم بما صنفه في الحديث . فله كتاب «مفتاح كنوز السنة» الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (مصر ١٩٣٣) وهو كتاب يستعان به على اصابة الاحاديث النبوية في موضوعاتها . ثم ان فنسنك اخذ يخرج « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي » منذ سنة ١٩٣٤ ، وهو معجم تفصيلي لمفردات الاحاديث المدونة في الكتب السنية ومسند الدارمي وموطإ مالك ومسند احمد بن حنبل . وقد خرج من هذا المعجم احد عشر جزءاً حتى اليوم . وهو جليل ذو فائدة لا يقدر قدرها من حيث انهُ يبذل للباحث مظان الأحاديث المختلفة بالتفتيش عن كلمة واحدة من الحديث المنشود وكان فنسنك فوق هذا رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية التي تصدر في ليدن . وكان قد عيّن سنة ١٩٣٣ عضواً في مجمع فؤاد للغة العربية ، ثم عدلت الحكومة المصرية عن تعيينه لان بعضهم رأوا ان في مقال له منشور في دائرة المعارف المذكورة ما يجرح شعور المسلمين وان كان مكتوباً بروح علمي

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الخامس والتسعين

زخارف جصية من الجوسق الخاقاني بسامرّا
(راجع مقال الكبتن كرزويل صفحة ٥٦٧)

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — ٢٠ شوال سنة ١٣٥٨

اكتشاف السنة

في تركيب الذرة وحلها

هل الانشطار الذرّي اهمّ من الحرب ؟

روى الدكتور كارل كمطن مدير معهد ماسَشوستس التكنولوجي انهُ عُهِد اليهِ في خلال الحرب العالمية الماضية بأن يعرض على خبراء الانكليز والاميركيين جهازاً كان الفرنسيون قد اخترعوهُ لتبين مواقع الغواصات . وكان ارنست رذرفورد — اكبر علماء الذرة في هذا العصر وقد توفي في ١٩٣٧ — احد خبراء الانكليز . فعند ما حان ميعاد الاجتماع تلقى الخبير الانكليزي الآخر — الاستاذ بمستد — بطاقة من رذرفورد يعتذر فيها عن تأخرهِ بوجوب بقائه في معملهِ قليلاً لانجاز تجارب كان قد بدأها وان هناك ما يحملهُ على الظن انهُ تمكن من شطر نواة الايدروجين بها . قال : واذا صحَّ ذلك فهذا اهمُّ من الحرب . ولكنهُ وهو العالم الحذر طلب ألاّ يذاع نبأ هذه التجارب حتى تتأيد نتائجها . وقد كان حذرهُ في محلّهِ لان ما ادركهُ رذرفورد في تلك التجارب لم يكن شطر نواة الايدروجين بل قذف البروتونات من ذرات النتروجين والالومنيوم وغيرها من العناصر الخفيفة فكان بذلك اول من ادرك الطريقة لتحويل العناصر بعضها الى بعض

وقد ذهب رذرفورد الى لقاءِ ربهِ سنة ١٩٣٧ وشطر نواة ذرَّة من الذرَّات لم يتم . ونحن اولاء نعاني اهوال حرب عالمية اخرى ، ولكن انباء مباحث العلماء لا ينقطع سيلها ، وبينها نبأ

شطر ذرَّةٍ، ليست ذرة الايدروجين اخف العناصر ولكنها ذرَّة الاورانيوم اثقلها . فاذا صحّ ما يُبنى على هذا الانشطار من الآراء، فهذا النبأ على قول رذرفورد نفسهِ « اهم من الحرب »

— ١ —

في اواخر يناير الماضي (٢٦ يناير ١٩٣٩) عقد في مدينة وشنطن عاصمة الولايات المتحدة الاميركية مؤتمر وشنطن الخامس للطبيعة النظرية . وفي جلسة الافتتاح اعلن العلاَّمتان نيلز بور الدنماركي، وانريكو فرمي الايطالي، أنباء تجارب استوقفت الانظار واسترعت اهتمام العلماء المؤتمرين. وملخص هذه الانباء ان عالماً المانيًّا يدعى اوتو هان Hahn كان قد فاز قبل بضعة اسابيع بنتائج غريبة في خلال قيامهِ بتجارب طبيعية عادية . ذلك بأنهُ اشترك مع زميله شتراسمان Strassmann في اطلاق النوترونات على ذرات عنصر الاورانيوم جرياً على طريقة انريكو فرمي Fermi الايطالي ثم فحصا المخلَّفات الناشئة عن اصطدام النوترونات بالذرات

ولو انهما وجدا راديوماً في هذه المخلفات لما دهشا لأن الراديوم قريب الصلة بالاورانيوم من حيث الوزن والشحنة الكهربائية وهو احد جيرانهِ في الجدول الكيميائي الدوري، فتحويل الاورانيوم الى عنصر آخر باطلاق القذائف عليهِ ليس مستغرباً وتحوُّل بعض ذرات الاورانيوم الى ذرات راديوم ليس مما يبعث على الدهش

ولكن الشيء المستغرب بل العجيب في نتائج هذه التجارب ان هان وشتراسمان وجدا في مخلفات الاصطدام آثار عنصر الباريوم، وهو بعيد عن الاورانيوم في الجدول الدوري ووزنه الذري نصف وزن الاورانيوم الذري تقريباً، فاذا صح هذا — والكواشف الكيميائية والطيفية أثبتت ان الباريوم موجود في المخلفات — فمعناه ان قذائف النوترونات لم تفصل في انطلاقها شظايا صغيرة من نواة الاورانيوم بل معناه انها تمكنت من فلق الذرة فلقتين في صدمة عنيفة

فكان وقع هذا النبإ في اذهان العلماء المؤتمرين، كوقع صيحة «الذهب» في اسماع الباحثين عنهُ. وما اقبل المؤتمر على الانفضاض حتى جاءت انباء المختبرات تترى مؤيدة للنتائج التي وصل اليها هان وشتراسمان . ذلك ان الدكتور فرش Frisch والباحثة لِز ميتنر Lise Meitner أثبتا في بحث اجرياه في مختبرها بكوبنهاغن عاصمة الدنمارك قبل عشرة ايام صحة ما قاله هان وشتراسمان. وكان انريكو فرمي قد اجرى تجربة من هذا القبيل في جامعة كولومبيا قبل التئام المؤتمر بيوم واحد. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير — اي يوم انفضاض المؤتمر — جاءت الانباء من معهد كرنيجي بوشنطن وجامعة جونز هبكنز وجامعة كاليفورنيا وكانت جميعها مؤيدة لانباء برلين

فأطلق في الحال وصف «الانشطار الذري» على هذه الظاهرة الجديدة في علم الطبيعة الذرية، وفازت دراستها بعناية فريق كبير من كبار علماء الطبيعة كانوا قبل ذلك معنيين بدراسة

الميزوترون او الكهرب الثقيل وهو من مكتشفات سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨

كانت المشكلة الاولى التي واجهها هؤلاء العلماء في بحثهم الجديد سعيهم الى تبين الطريقة التي يحدث بها هذا الانشطار. وكان الدكتور فرش وزميلته ليز ميتنر أسبق الباحثين الى وضع صورة واضحة لهذه الطريقة. قالا: ان نواة الذرة في عرف الطبيعة الحديثة مجموعة من البروتونات والنوترونات محشوكة معاً في حيز ضيق. وعدد البروتونات الحرة في النواة يعين قدر الشحنة الموجبة عليها والخواص الكيميائية للذرة. ولكن النوترونات وحدات وزن ولا تحمل شحنة كهربائية لانها متعادلة الكهربائية. اما نواة ذرة الايدروجين فأبسط نوى الذرات تركيباً وقوامها بروتون واحد. فاذا ارتقيت سلم النوى الذرية وجدت في نواة كل عنصر عدداً متفاوتاً من البروتونات والنوترونات. فاذا بلغت الاورانيوم وهو في رأس السلم وجدت قوام ذرته اثنين وتسعين بروتوناً ومائة وستة واربعين نوتروناً ومجموعها ٢٣٨ وهو وزن الاورانيوم الذري. ولكن الاورانيوم له نظائر isotopes ومن نظائره نظيران وزن احدها الذري ٢٣٤ ووزن الآخر ٢٣٥ ورغبة في الاختصار عند الكلام على الاورانيوم ونظائره يكتب الاورانيوم في الرسائل العلمية كما يلي: — فالرقم الأعلى يدل على الوزن الذري والرقم الاسفل على عدد البروتونات — اورانيوم $\frac{٢٣٨}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٥}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٤}{٩٢}$

ومن الحقائق المعروفة في علم الطبيعة الحديثة ان جميع العناصر التي تفوق الزئبق وزناً — وهي التاليوم والرصاص والبزموت والبولونيوم والرادون والراديوم والاكتينيوم والثوريوم والبروتاكتينيوم والاورانيوم — لها نظائر مشعة. ونوى هذه النظائر معقدة التركيب غير مستقرته. فتطلق النواة مادة دقيقة من دقائقها بغية الاستقرار فيكون ذلك اشعاعاً

ولعل خير مثل يضرب لتوضيح هذه الحالة هو تشبيه النواة بقطرة من الماء قوامها جزيئات كثيرة من الماء، فاذا حدث لاحد هذه الجزيئات التي على سطح القطرة ما جعل طاقته اعظم من طاقة الجزيئات الأخرى فانه ينفصل عن القطرة متبخراً. ولكن اذا حدث للقطرة حادث على جانب من العنف فان القطرة نفسها تنشطر قطرتين

وهذا في رأي فرش وميتنر عين ما يحدث لنواة ذرة الاورانيوم، عندما يحدث له حادث عنيف كاصطدامه بنوترون مقذوف عليه، اي ان النواة تنشطر شطرين يكادان يكونان متساويين

ولكن الشطرين غير مستقري التركيب، ولا يلبثان حتى ينحلا فتتولد نوى ذرات اخرى. والواقع ان انشطار الاورانيوم على الطريقة المتقدمة يعقبه سلسلة من التحولات، وهذا يقتضي ان تظهر في مخلفات قذف النوترونات على ذرات الاورانيوم عناصر شتى. وفعلاً تمكن الباحثون من وجود الباريوم والانتيمون والتلوريوم واليود والزينون والسيزيوم واللنثانوم في طائفة منها والبرومين

والكربتون والروبيديوم والسترنتيوم والاتريوم في طائفة اخرى ومن المحتمل ان تكون هناك نوى عناصر اخرى لم تحقق بعدُ

وتفسير هذا التحوّل سهل لا يعنت مطلعاً على حقائق الطبيعة الحديثة . فعدد النوترونات في كل من الشطرين الاولين كبير بالقياس الى عدد البروتونات فيه . ولذلك لا بدَّ لكل منهما ان يتخلص من احد نوتروناته لكي يستقرَّ تركيبهُ . فيحدث احد امرين اما ان يقذف نوتروناً الى الخارج فينقص وزنهُ وحدة كاملة ولكن لا تتغير خواصه. واما ان تتحلّ وحدة النترون فيتحول في داخله الى بروتون حرٍّ ويقذف كهربه الى الخارج . وفي الحالة الثانية لا يتغير وزن النواة (لأن وزنها في عدد ما فيها من البروتونات) ولكن تزيد شحنتها الموجبة وحدة كاملة باطلاق الكهرب (وهو وحدة الشحنة السالبة) فتتغير بذلك طبيعة النواة الكيميائية اي تصبح نواة عنصر آخر . وقد دلت التجارب ، على ان هذين الفعلين يقعان في خلال التحول

ولا يعلم حتى الآن ما هما المادتان الاصليتان الناجمتان عن الانشطار . فاذا كان عنصر الباريوم احدها — ونواتهُ فيها ٥٦ بروتوناً — فالعنصر الآخر يجب ان يكون عنصراً في نواتهِ ٣٦ بروتوناً (لأن مجموع بروتونات نواة الاورانيوم ٩٢ بروتوناً) وهذا العنصر هو احد نظائر عنصر الكربتون

واذا اتجه الباريوم الى الاستقرار باطلاق كهرب (راجع الطريقة الثانية من طرائق التحول) فانهُ يتحول نظيراً من نظائر اللنثانوم ، وهذا قد يتحول بدوره الى عنصر السيريوم باطلاق كهرب . والكربتون (او نظيره) ينحل كذلك بالطريقة نفسها الى روبيديوم فسترنتيوم ومن المحتمل ان يتحول الى اتريوم فزركونيوم

واذا كانت نتيجة الانشطار الاول عنصري السترونتيوم والزينوم بدلاً من الباريوم والكربتون حدثت كذلك سلسلة من التحولات من سترنتيوم الى اتريوم الى زركونيوم ومن زينون الى سيزيوم الى باريوم الى لنتانوم الى سيريوم

***

انهُ لأسهل على العلماء في كشفٍ في العلم النظري من قبيل هذا الكشف ، ان يتبينوا ما لهُ من الشأن النظري قبل ان يتبينوا وجوه النفع العملي . وكشف « الانشطار الذري » أتاح لعلماء الطبيعة الحديثة فرصة نادرة للبحث في طبيعة قوام الذرة وقلب صفحة جديدة في دراسة القوة التي تربط اجزاء النواة بعضها ببعض.

ثم انهُ فسر تفسيراً معقولاً ظاهرة غريبة ما فتيء العلماء محيرين في امرها منذ كشفت في سنة ١٩٣٤ . ذلك ان فرمي الايطالي تبين في تلك السنة عند ما اطلق النوترونات على الاورانيوم ، ان الكهيربات تنطلق من الاورانيوم نتيجة لهذا . فذهب ظنهُ حينئذٍ الى

ان نواة الاورانيوم تلتقط النوترون فتستبقي بروتونه وتطلق كهيربه ، وبذلك يزداد وزن ذرة الاورانيوم وحدة كاملة ، فظن انهُ تمكن بذلك من توليد عنصر جديد ، وزنه الذري ٩٣ مع ان الاورانيوم — ووزنهُ الذري ٩٢ — كان بحسب جدول منديليف الدولي وجدول موزلي للاعداد الذرية، آخر العناصر وأثقلها . ثم لاحظ فرمي ان نواة هذا العنصر الجديد تطلق كهيرباً آخر فذهب ظنه كذلك الى ان ذلك يولّد عنصراً جديداً آخر وزنهُ الذري ٩٤ فأطلق على هذه العناصر التي تفوق الاورانيوم وزناً ذريًّا وصف «العناصر التي وراء الاورانيوم Transuranic» وتبعهُ آخرون في هذا الطريق ، فوجدوا عناصر أخرى وزنها الذري ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ الخ

وقد ظلت هذه الظاهرة سرًّا مغلقاً محيّراً لالباب العلماء الى ان تمّ الكشف العظيم الخاص بانشطار الاورانيوم على يدي هان . والواقع ان هان نفسه صرّح قبل كشفه انهُ وجد في الخلفات الناتجة من اطلاق النوترونات على الاورانيوم عناصر « ترانس اورانية » لها خواص الباريوم واللنثانوم وغيرها . فزاد ذلك التصريح الحالة غموضاً والعلماء حيرة

فلما اذيع نبأ كشف « الانشطار الذرّي» وثبت ان الشطرين اللذين ينشآن عنهُ يتحوّلان أدرك العلماء حالاً ان هذه الكهيربات التي شاهد فرمي انطلاقها من الاورانيوم لاتنطلق منهُ فعلاً ولكن من مخلّفات انشطاره فحلّ بذلك لغز العناصر التي وراء الاورانيوم (الترانس اورانية)

— ٢ —

هذا يسير من ناحية ما لهذا الكشف من قيمة نظرية . وقد يكون من المتعذر الآن وزن ما له من قيمة عملية. ولكننا نستطيع ان نتصوَّر القدر العظيم من الطاقة التي تنطلق عندما تنشطر ذراة الاورانيوم. وقد قيست طاقة انطلاق الشطرين فثبت انهما متحركان كأن قوة قدرها ٢٠٠ مليون كهيرب ڤولط تدفعهما . وهذه قوة اعظم من كل قوة مماثلة في ظاهرات عالم الذرّات اذا استثنينا الاشعة الكونية

ولا يخفى ان وزن نواة الذرّة — مهما تكن الذرّة ما خلا ذرّة الايدروجين — لا يعدل تماماً مجموع اوزان الجسيمات التي تدخل في تركيبها . والرأي ان جانباً يسيراً جدًّا من مجموع اوزانها يتحول طاقة تربط هذه الجسيمات بعضها ببعض في نطاق النواة ولولاه لتنافرت وتباعدت

وهذا الفرق بين وزن النواة ومجموع اوزان الجسيمات يوصف بعبارة « نقص الكتلة » mass defect ولما كانت نواة ذرّة الاورانيوم أعقد تركيباً من نوى سائر الذرّات ، فالطاقة التي تحتاج اليها لتربط بين بروتوناتها (٩٢) ونوتروناتها (١٤٦) يجب ان تكون كبيرة بالقياس الى الطاقة التي تحتاج اليها نواة الهليوم او الليثيوم مثلاً . واذن فنقص الكتلة الذي ولّد هذه الطاقة يجب ان يكون كبيراً كذلك

وقد دلَّ البحث الذي قام بهِ الاستاذ فردريك جوليو الفرنسي ومعاونوه ان النوترونات التي اطلقت على الاورانيوم كانت ذات طاقة ضعيفة ولكنهُ وجد انهُ عند ما يقع الانشطار في ذرَّة الاورانيوم تُشاهد نوترونات منطلقة من الذرَّة بسرعة وطاقة عظيمتين ومغزى هذا القول ان العلماء توصلوا الى طريقة يستطيعون ان يطلقوا بها الطاقة المعتقلة في نواة الذرة

ذلك ان مدام كوري جوليو — كريمة بيير وماري كوري — كانت قد مهدت السبيل بمباحثها لاكتشاف هان. ثم اقبلت هي وزوجها وزميلها الاستاذ سافتش على بحث هذه النوترونات الثانوية التي تنطلق من العناصر المتولدة من انشطار الاورانيوم الاول ، وجاراهم فريق من العلماء في جامعة كولومبيا ومعهد كارنيجي وجامعة كمبردج ، فوجدوا ان هذه النوترونات المنطلقة من هذه العناصر قوية الزخم فتحدث انشطاراً في ما تصيبه من نوى ذرات الاورانيوم ومن مخلفات الانشطار الثاني تتولد نوترونات اخرى اقوى زخماً من الاولى والثانية ، وهذا فعل لانهاية له ولا يحدُّ منهُ الاَّ مقدار كتلة الاورانيوم المعرضة لفعل النوترونات الاولى المقذوفة من سيكلوترون لورنس (١) . فاذا اتيح للعلماء كتلة كبيرة من الاورانيوم فمن المحتمل ان يسفر هذا الفعل عن تولد طاقة عظيمة متى كثر عدد الذرات المنشطرة في تلك الكتلة . وقد اجمعت الصحف العلمية التي اطلعنا عليها على ان العلماء القائمين بهذه المباحث يتوجسون خيفة من انطلاق طاقة عظيمة بين ايديهم وهم لا يدرون كيف السيطرة عليها

ولكن يجب ألاَّ يذهب بنا الظن الى الاعتقاد ان استعمال الطاقة الذرية غدا وشيكاً . ذلك ان الطاقة المتولدة من انشطار نواة الاورانيوم يسيرة جدًّا بالقياس الى ما نحتاج اليه لأغراض الحياة اليومية وان كان عظيماً جدًّا بالقياس الى كتلة النواة نفسها . والباحث يحتاج الى احداث ٢٥ الف بليون انشطار في الثانية لكي يولد قوة حصان واحد . وجل ما تستطيعه معامل البحث الطبيعي إحداث بضع مئات من حوادث الانشطار في نوى الاورانيوم في الثانية . فاذا اتقنت اساليب شطر نوى الاورانيوم وما كان من قبيله من العناصر ، فاستعمال الطاقة الذرية يغدو في نطاق المستطاع . وإنما يجب ان نذكر ان هذا الاتقان ليس بالامر السهل . فشطر نوى الاورانيوم باطلاق النوترونات عليها اشبه ما يكون الآن بمن يحاول ان ينقل رمال البحار من مكانها بنقلها حبةً حبةً ، او كمن يطلق رشاشاً على مئات من الخرز مثبتة في لوحة كبيرة والمسافة بين كل خرزة وأُخرى عشرات الامتار (٢)

(١) حائز جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٩

(٢) يرجو محرر المقتطف قراءه أن يطالعوا هذا المقال مقروناً بمقال « الطاقة من المادة » مقتطف نوفمبر ١٩٣٩ صفحة ٤٢٧ — ٤٣٩ وما نشرناه في مقتطف ابريل ومايو ١٩٣٩ عن هذا الموضوع وكان في مستهله.

اصلاح حالة الفلاح اساس الاصلاح الاجتماعي

صلة الري بالصحة

في المملكة المصرية (١)

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بمدرسة الطب

﴿ ١ — تمهيد ﴾ كان نظام الري في القطر المصري من عهد مينا الى اواخر القرن الماضي هو المعروف بري الحياض اي أن النيل عند ما يعلو في إبان الفيضان يطلق في الاراضي الزراعية فيغمرها ويستمر كذلك الى ان ينخفض الماء في مجرى النهر فتنحسر المياه عن الغيطان وتعود الى النهر ثم تزرع الارض محصولاً واحداً وتترك بعده حتى تجف جفافاً تاماً مدة ٧ شهور في السنة ثم تغمرها مياه الفيضان مرة اخرى

وقد كان من أثر هذا من الوجهة الصحية ان جميع الطفيليات التي تصيب الانسان وتقضي جزءاً من حياتها في الارض او في جداول المياه تهلك عن آخرها في فصل الجفاف كل عام ولذلك أصابت هذه الامراض عدداً قليلاً من السكان . وهذا ما نجده الآن في المناطق التي لا تزال تروى بطريقة ري الحياض في مديريات جرجا وقنا واسوان

وفي اواخر القرن الماضي بدىء باستعمال القناطر الخيرية في حجز المياه بمجرى النهر لتغذية الترع الرئيسية التي تروي الدلتا وبذلك أمكن توفير المياه للاراضي الزراعية طوال أيام السنة . فغدا في الوسع زراعة محصولين او ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة

ثم انشىء خزان اسوان والقناطر الاخرى في مجرى النهر ، وكان الغرض من هذه الاعمال الهندسية تحويل اكبر مساحة ممكنة من الاراضي الزراعية من ري الحياض الى ري مستديم . ومنذ الحرب العالمية الماضية اتجهت الاعمال الهندسية الى ايصال مياه الري الى الاراضي الزراعية بدون حاجة الى آلات رافعة سواء ما أدير منها بالقوى العضلية كالشادوف والطنبور او بالسواقي والآلات البخارية وآلات الاحتراق الداخلي . وقد تم ذلك في جميع انحاء الدلتا بوجه عام وفي أغلب مناطق الوجه القبلي شمال اسيوط والعمل جار الآن في تحويل المنطقة التي تقع شمال نجع حمادي الى اسيوط من ري حياض الى ري مستديم

---

(١) ملخص واف لتقرير قدمه الدكتور عبد الخالق بك الى المجلس الاستشاري للزراعة

وكان من أثر ذلك ان ارتفعت المياه الجوفية في باطن الارض حتى اقتربت من سطحها وهذا عامل لهُ دخل كبير في انتشار الامراض وخصوصاً الحشرات التي تصيب الانسان والحيوان والنبات وزيادة على ذلك فانه يؤثر بطريق مباشر تأثيراً سيئاً في نمو النباتات ومقدار محصولها اذ تحول هذه المياه الجوفية دون امتداد جذور النبات في التربة

الري الدائم وأضراره الصحية

﴿ ٢ — الماء الجوفي في الارض الزراعية ﴾ ولادراك ذلك يجب أن نعلم ان التربة المصرية المزروعة مكونة من مواد تنفذ منها المياه بسهولة وعلى ذلك فنهر النيل لا تجري مياهه بين شاطئيه المعروفين فحسب، بل انها تجري في باطن الارض الى مسافات طويلة على الجانبين لا يصدها عن الجريان الا سلاسل الجبال الصخرية على جانبي الوادي، وفي وسعنا ان نسمي هذا الماء المتسرب «النيل الخفي» تمييزاً لهُ عن «النيل الظاهر» المعروف لنا ويمكن التحقق من ذلك بسهولة اذا حفرنا الارض على جانبي النهر فنجد المياه على ابعاد مختلفة تبعاً (١) لبعد المسافة من النهر، (٢) لمنسوب الماء في مجرى النهر. وهذه العملية تشاهد في القاهرة عند حفر اسس المنازل في إبان الفيضان، حيث الماء قريب من سطح الارض فاذا غاض النهر بعد الفيضان اختفت هذه المياه ولكنها توجد على عمق اكبر وهذا هو السبب الرئيسي في ظهور كثير من البرك في اماكن بعيدة عن مجرى النهر في زمن الفيضان وجفافها في باقي فصول السنة

وتأثير ترع الري المليئة بالماء من هذه الناحية مماثل تماماً لتأثير النيل وشرح ذلك أن ماء الترع يتدفق وينساب في باطن الارض ويبلغ أعلى درجاته بالقرب من مجرى الترعة وينخفض مستواه كلما ابتعدنا عنها. وكلما زاد ارتفاع مستوى الماء في ترع الري بالنسبة للاراضي الزراعية المجاورة ارتفع الماء الجوفي في الارض بل قد يظهر على سطح الارض فيحدث البرك والمستنقعات

﴿ ٣ — علاقة الماء بانتشار الطفيليات ﴾ والماء الدائم عنصر هام من عناصر الحياة التي لا يتهيأ بدونها للحيوانات الدنيئة والتي منها الطفيليات ان تعيش. فعدوى الانكلستوما تتوطن في كثير من الاقاليم التي يكثر فيها المطر وتبدأ العدوى بعد فصل الامطار. ولكن هذا المرض ذاته لا علاقة له بالامطار في مصر لأنها معدومة تماماً في الوجه القبلي وهي قليلة جدًّا في بقية جهات القطر. لكن الاثر الذي تحدثهُ الامطار في البلاد الاخرى من جراء تشبع التربة بالرطوبة يقوم مكانه في مصر ارتفاع الماء الجوفي في باطن الارض تبعاً لارتفاع المياه في الترع المجاورة. وكلا العاملين (الامطار والمياه الجوفية) يؤدي الى نتيجة واحدة. فعدوى الانكلستوما قليلة جدًّا في قرى مديرية اسوان التي لا امطار فيها ولا ترع ذات منسوب عالٍ على مدار السنة. ولكنها في منطقة كوم امبو الواقعة في نفس تلك المديرية تبلغ ٢٤ ٪ من مجموع

السكان هناك لان هذه المنطقة بالذات تروى ريًّا صيفيًّا بواسطة طلمبات وترتفع المياه الجوفية في ارضها حتى تقترب من سطح الارض ، مما ادى الى تلف اراضي قرية «دراو» المجاورة من تأثير النشع حتى قامت بين اهلها وبين شركة كوم امبو قضايا

ومثل هذا ينطبق تماماً على البلهارسيا التي تعيش القواقع الناقلة لها في مجاري المياه البطيئة الجريان الدائمة الماء والتي بها اعشاب . وهذا لا يتحقق الا في مناطق الري المستديم فبينما تكاد مديرية اسوان تكون خالية من عدوى البلهارسيا نجد ان ٨٢٪ من سكان كوم امبو مصابون بها

ومما تقدم يتبين بجلاء علاقة الري الصيفي بانتشار الامراض المتوطنة على وجه العموم . ولا سيما الانكلستوما والبلهارسيا والملاريا . ولكنه قد لا يوضح تماماً مقدار هذا الأثر ، لذلك اختلفت الآراء في تقدير اثر الري الصيفي في انتشار الامراض المتوطنة وهل هو من الاهمية بحيث يقف حجر عثرة في سبيل هذه المشروعات او هو تافه بالقياس الى مزاياه الاقتصادية

❀ ٤ — عدوى الطفيليات قبل ادخال الري المستديم وبعده ❀ وقد سنحت فرصة حسمت هذا الخلاف حينما اعتزمت وزارة الاشغال تحويل الحياض المعزولة في اسوان وقنا من ري حوضي الى ري صيفي ، فقد انتهزت هذه الفرصة لفحص سكان مناطق السباعية والكلح وبنبان والمنصورية قبل ادخال الري الصيفي اليها ، فكانت النتيجة ان نسبة البلهارسيا بلغت في هذه المناطق على التوالي : صفر ٪ — ٧ ٪ — ٢ ٪ — ١٠ ٪ والسبب في ان المنطقة الاخيرة (المنصورية) تزيد فيها نسبة البلهارسيا عن المناطق الاخرى ، يرجع الى انها قريبة من كوم امبو التي تبلغ اصابة البلهارسيا فيها ٨٢ ٪ وأكثر سكانها يذهبون الى كوم امبو للاشتغال بها بعض الوقت

وبعد ادخال الري الصيفي الى هذه المناطق واستمراره بها ثلاث سنوات صارت النسبة لعدوى البلهارسيا كما يأتي على التوالي — ٤٤ ٪ — ٥٠ ٪ — ٧٥ ٪ — ٦٥ ٪ مما يثبت بكل جلاء وعلى وجه لا يقبل الشك اثر الري الصيفي بحسب النظام المعمول به الآن في انتشار عدوى البلهارسيا . على انه يتبين من هذه الارقام ان الزيادة ليست متجانسة في هذه المناطق وذلك راجع الى أسباب أهمها قرب مجاري المياه أو بعدها من هذه القرى ، وبالتالي الى سهولة أو صعوبة وصول الأهالي اليها والاغتسال فيها

وقس على ذلك ، مرضي الانكلستوما والملاريا ، فانهما أيضاً يخضعان لعاملي تشبع تربة الارض بالماء ودوام جريان الماء في الترع والمصارف

❀ ٥ — الخسارة الاقتصادية نتيجة الاصابة بالامراض الطفيلية ❀ ان رجال الزراعة لم يدخلوا في حسابهم عند المقابلة بين غلة ري الحياض والري الصيفي ، أثر الري الصيفي في انتشار

الامراض وقلة الانتاج من العمل اليدوي وكثرة الوفيات

ومما لا شك فيه أنهُ اذا قدرت هذه العوامل من الناحية الاقتصادية — بغض النظر عن العامل الانساني — رجحت كفة ري الحياض على الري الصيفي . كما يتبين مما يلي : —

(١) فالامراض الطفيلية تصيب ٧٥ — ٩٥ ٪ من سكان مناطق الري الصيفي ، بينما لا تصيب سوى ٥ — ١٠ ٪ من سكان مناطق الحياض . ولو قدرنا ما يجب أن تنفقهُ الدولة كل عام لعلاج المصابين بالبلهارسيا (الذين يبلغون عشرة ملايين) لاقتضى ذلك مليوناً من الجنيهات سنويًّا . وستتكرر العدوى ما دام هذا النوع من الري قائماً . وتقدر نفقات علاج الانكلستوما في العام الواحد للثمانية ملايين مصاب بما يقرب من ٣٠٠٫٠٠٠ الف جنيه

٢ — نظراً الى اصابة السكان في سن مبكرة بالبلهارسيا والانكلستوما في منـاطق الري الصيفي فان نمو اجسامهم يبطؤ . وقد أثبت فحص الطول في أنحـاء القطر في سنة ١٩٣٥ ان للامراض الطفيلية أثراً في نسبة قصر القامة بين المقترعين فهي اكثر انتشـاراً في الدلتا حيث الري الصيفي عام والصرف سيء ، ويقل عن ذلك نوعاً ما في مصر الوسطى حيث الري الصيفي يكاد يكون عامًّا بينما الصرف أحسن منهُ في الدلتا لأن النيل بجريانهِ وسط الوادي الضيق يؤدي عمل مصرف طبيعي الى حدٍّ كبير . وتقل نسبة قصر القامة جدًّا في مناطق ري الحياض . بينما تكاد تنعدم بين سكان القاهرة والاسكندرية حيث لا سبيل الى العدوى بالطفيليات

٣ — الزيادة في الوفيات خصوصاً وفيات الذكور لانهم اكثر تعرضاً للبلهارسيا لاشتغالهم بالاعمال الزراعية خصوصاً تلك التي تستدعي الخوض في الماء

فقد نشر كوفان الالماني وكان أستاذاً لعلم الامراض في مدرسة الطب بالقاهرة في أواخر القرن الماضي — عند ما كانت البلهارسيا مرضاً غير معروف له علاج — أن البلهارسيا هي السبب المباشر او السبب غير المباشر في ٢٥ ٪ من الوفيات نتيجة لفحص عدد كبير من الاموات في مستشفى قصر العيني بالتشريح وطبعاً قلت هذه النسبة الآن بعد اكتشاف العلاج الشافي

الا أنه من الثابت ان نسبة عدد الذكور الى الاناث قد تغيرت على وجه العموم في مصر منذ ادخال نظام الري المستديم بها خصوصاً في المديريات التي حولت كلها الى ري مستديم وقلَّ او انعدم الصرف بها استناداً الى الاحصائيات المأخوذة من كتب التعداد الرسمي الذي تصدره مصلحة الاحصاء التابعة لوزارة المالية مع العلم بأن الري المستديم أُدخل الى الوجه البحري سنة ١٨٩١ والى مديرية المنيا سنة ١٩٠٥ وبني سويف سنة ١٩٠٧ والجيزة ١٩٠٩

وعلى ذلك فقد نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث ٤ ٪ في مدة ٣٠ سنة تبعاً لانتشار الري الصيفي وليس هناك أي عامل آخر يفسر هذا التغير . ومما يثبت ذلك السبب ما ذكره الدكتور

كليلاند في حالة بعض المديريات قبل ادخال الري الصيفي اليها وبعده فقدكان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية المنيا في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٣ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ١٠٠٢ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٥

وكان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية بني سويف في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٦ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ٩٩٥ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٧

ولو قابلنا الحالة في مديرية من مديريات الوجه البحري حيث الري المستديم عام مع عدم توفر الصرف تماماً في سنة ١٩٢٧ بما يقابلها في مديرية من مديريات ري الحياض لتبين ما يأتي :

مديرية الغربية تبين ان بها ٩٣٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى بينما مديرية جرجا بها في نفس السنة ١٠٢٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى وهذا على الرغم من ان مديرية جرجا تمتاز بكثرة عدد المهاجرين من رجالها للعمل في جهات اخرى . فلو قدرنا أثر الري المستديم في نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث على أساس تعداد الغربية وجرجا لبلغ النقص في مناطق الري المستديم ٩ ٪ وهو رقم مخيف حتماً يمثل ضحايا الري المستديم من مجموع عدد الذكور

٤ — قلة الانتاج في الاعمال اليدوية ، فقد تبين بعد التجربة أن انتاج المصابين بالانكلستوما يقل ٣٣ ٪ في مثل أعمارهم عن الاشخاص الخالين منها . وقد ثبت بالمقابلة أن نسبة عدد الفلاحين الى الارض المزروعة في مصر، اكبر منها في أي قطر زراعي آخر، ذلك ان الفلاحين يستعيضون دون ان يفكروا ، عن قلة انتاج الفرد بالاكثار من الايدي العاملة

وقد وجد المستر براون مدير قسم البساتين أن نفقة حفر قناة تزيد في مصر عنها في انكلترا على الرغم من بخس أجرة العامل المصري . وتكاد تكون قوة العامل الصعيدي من اهالي مناطق الحياض ، مضرب الامثال بالقياس الى ضعف فلاح الوجه البحري. ويكاد هؤلاء الصعايدة أن يحتكروا الاعمال اليدوية الشاقة كبناء الموانىء وشق الترع ومد السكك الحديدية . . الخ .

٥ — تؤثر هذه الطفيليات تأثيراً ملحوظاً في بطء نمو القوى العقلية ، وقد قدرت في المصابين بالانكلستوما بسنتين ونصف سنة في سن الحادية عشرة . أي أن الطفل المصاب وهو في الحادية عشرة من عمره يماثل من ناحية القوى العقلية طفلاً سليماً في الثامنة من عمره

ومن أثر هذا الضعف العقلي عدم الاقدام على طلب الرزق والاحتماء بالأهل والأقارب من غائلة الدهر ، وانحطاط مستوى الخلق بالالتجاء الى الكذب والمداورة في المعاملات

٦ — ضياع مقدار كبير من الاغذية التي يتناولها سكان مناطق الري المستديم تأكلها الطفيليات التي تعيش داخل أجسامهم كما هو المشاهد في نهم المصابين بالديدان المعوية بينما لا يظهر تأثير هذا النهم في ابدانهم

وعلى ذلك فسكان أقاليم الري المستديم هم المصابون بأمراض سوء التغذية على الرغم من أنهم يأكلون أضعاف ما يأكلهُ اهالي ري الحياض وزيادة على ذلك فأهل الحياض أقوى بنية وأطول عمراً وأطول قامة

***

العوامل واحدة لتحسين الصحة والزراعة

٧ — عوامل تحسين الصحة هي نفس العوامل التي تحسن الزراعة : ان الاثر السيء الناتج عن الري الصيفي في تدهور التربة ونقص غلة المحاصيل يرجع الى ارتفاع منسوب المياه الجوفية وأثر ذلك في اعاقة النباتات عن النمو وحصر جذورها في طبقة من الارض كما يرجع الى أن المياه الجوفية عند ما تقترب من سطح الأرض السوداء الثقيلة او المتوسطة تصعد بواسطة الخاصة الشعرية الى سطح الارض وتتبخر في الجو فيرسب ما بها من الأملاح على سطح الارض فتتكون طبقة بيضاء اللون تغطيها وهذا عامل هام في اتلاف التربة

ويزيد هذا الضرر كلما زاد منسوب الماء في الترع وازداد تبعاً لذلك ارتفاع المياه الجوفية والعوامل التي تؤثر في نشر الطفيليات بمناطق الري الصيفي هي :

ا — استمرار المياه في الترع والمصارف على مدار السنة فتعيش القواقع الناقلة للبلهارسيا وتتناسل

ب — استمرار المياه يساعد على نمو الكثير من النباتات المائية التي تأوي اليها القواقع ويرقات البعوض الناقل للأمراض . وهذه الحشائش عائق هام في سريان الماء في الترع حتى ان وزارة الأشغال تنفق كل عام حوالي ١٠٠ الف جنيه للتخلص منها

ج — ارتفاع المنسوب في الترع يرفع منسوب الماء الجوفي ويجعل تربة الارض رطبة صالحة لنمو يرقات الانكلستوما التي تموت تماماً اذا جفت تربة الارض

د — ارتفاع منسوب الماء الجوفي هو العامل الهام في ظهور البرك ولو انخفض هذا المنسوب لجفت اكثر البرك وليس لكلها أثر ضار من ناحية انتشار الطفيليات

٨ — أثر المصارف في خفض منسوب المياه الجوفية

تبين مما تقدم ان علو منسوب المياه الجوفية هو العامل الضار الاصلي للصحة والزراعة ويمكن خفض هذا المستوى باحدى الطريقتين الآتيتين او بكلتيهما

ا — انشاء مصارف عميقة يكون من أثرها جمع المياه الجوفية وحملها الى البحر المتوسط بحيث لا يزيد مستوى الماء الجوفي عن مستوى الماء في المصرف الا قليلاً . وعلى ذلك فعمق هذه المصارف عامل أساسي في خفض مستوى الماء الجوفي . ومن الغريب انه لم يستقر رأي

الاخصائيين في مصر للآن على (بعد مستوى الماء الجوفي عن سطح الارض بحيث لا يضر بالمحصولات الزراعية مطلقاً) فبعض الزراعيين ورجال الري يكتفي بأن يكون الماء الجوفي في الارض الزراعية على عمق ٧٥ سنتمتراً وبعضهم يطلب متراً وبعضهم يصر على ٢٫٥ المترخصوصاً في الارض المزروعة بحدائق الفاكهة ومما لا شك فيه ان هذا التفاوت العظيم يقابله تفاوت كبير في النفقات اللازمة لحفر المصارف الى الاعماق المطلوبة وتفاوت كبير في مقدار الاراضي الزراعية التي ستشغلها هذه المصارف لان مقدار الارض المشغولة بالمصرف تزيد زيادة كبيرة كلما زاد عمقها

والمطلوب معرفته هو اقل عمق المصارف الحقلية الذي تجود معهُ الزراعة جودة تامة . ولا يمكن ان نأبه لقول بعض الاخصائيين أنه لا ضرر من زيادة عمق المصارف ، وهو صحيح ولـكنهُ يتطلب نفقات كثيرة ويشغل ارضاً كثيرة يمكن الاستفادة منها بزرعها

ب — يمكن خفض مستوى الماء الجوفي بخفض مستوى الماء في ترع الري فلو جرى الماء في هذه الترع على بعد متر او مترين من السطح لما صعد مستوى الماء الجوفي عن ذلك المستوى وفي هذه الحالة تكون فائدة المصارف ثانوية ، ولـكن في نفس الوقت يتطلب ذلك ان يستعين الفلاح بآلات رافعة لري أرضه

والمسألة الآن هي تقدير النفقات والاضرار في كلتا الطريقتين . فهل تكون نفقة رفع الماء للري اقل او اكثر من خسائر تدهور التربة ونقص المحصول . وما قيمة النفقات اللازمة لانشاء مصارف وافية مع العلم بأن المصارف لا يمكنها ان تتلافى تماماً ما ينتج من الرشح من الترع ذات المنسوب العالي لان خط المياه الجوفية يبدأ من أعلى منسوب للمياه في المنطقة ويصل الى اوطإ منسوب للمياه فيها والترع تشق في أعلى مكان بالمنطقة ليسهل الري منها ، وتشق المصارف في المنخفضات ليسهل انسياب المياه اليها

اما الاحتياطات التي تجب مراعاتها في مشروعات الري الصيفي لتخفيف عدوى البلهارسيا فأهمها : —

١ — ان تكون مجاري المياه على بعد من القرية لا يقل عن ٥٠٠ متر الى الف متر لأن البحث أثبت ان الاصابة تزداد بالقياس الى قرب المجاري الى القرى والعزب فتكثر زيارة السكان لها ولا سيما الاطفال بقصد اللعب او الاستحمام او الصيد ٢ — العناية باقلال النهايات الصم للترع حتى لا يركد الماء فيكثر نمو الاعشاب والقواقع فيه ٣ — منع ايصال خزانات المواد البرازية في المنازل والمساجد الى الترع والمصارف وهذه كثيرة الحدوث حتى في ضواحي القاهرة . فقد أثبت البحث الاحصائي ان القواقع ولا سيما البلانوربي الناقلة لعدوى البلهارسيا بالامعاء تكثر مكان اختلاط مجرى المواد البرازية بماء الترعة او المصرف وتكون الاصابة شديدة . وقد

شوهدت هذه الحالة في قرية طنان القريبة من قليوب مما حمل سكانها على الاعتقاد بأن بالترعة شيطاناً ينزل الموت بمن يخوض ماءها

وقد وضع ابراهيم بك رزق مشروعاً بهِ كثير من المزايا الصحية والزراعية علاوة على انهُ يوفر على خزانة الدولة كثيراً من النفقات وأساسهُ انشاء طلمبات للري في اراضي الحياض الباقية تدار بالكهربائية من خزان اسوان (طلمبة لكل ٥٠٠ فدان على المعدل) وتستمد هذه الطلمبات ماءها من المياه الجوفية . فاذا نجح هذا المشروع من الناحية العملية ادى الى انخفاض المياه الجوفية ، الاحتفاظ بالري الحوضي والمحافظة على خصب التربة وسرعة جفاف الترع بعد الري وهذا يساعد على التخلص من قواقع البلهارسيا ويرقات البعوض . وجفاف تربة الارض يجعلها بوجهٍ عام غير ملائمة لنمو يرقات الانكلستوما ثم يفضي الى الاستغناء عن مشروعات الري في اعالي النيل وبحيرة البرت وهي المشروعات اللازمة لتحويل الحياض الباقية الى الري المستديم

***

سياسة الري ومشكلتنا الاجتماعية

﴿١١ — تقرير سياسة الري في المستقبل هو مشكلة المشاكل﴾ رأينا مما تقدم ان مسائل الري والزراعة والصحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً حتى ليكاد اي تغير في احداها يؤثر في الاخرى وللاسف ان النظام الاداري في مصر يجعل من كل من هذه الاعمال الثلاثة وزارة مستقلة عن الاخرى تعمل كل منها في وادٍ مستقل. وقد تبين الآن انهُ من الضروري ان يكون هناك تعاون وثيق بين العاملين في هذه الدوائر الثلاث فان الفلاح متأثر في محيطه بالري والزراعة والصحة بحيث ان حياته وترقيته متوقفة عليها جميعاً وأي ناحية منها تؤثر في الاخرى

وقد سار رجال الري في العهد الاخير على سياسة اعطاء مياه الري بالراحة برفع منسوب الماء في الترع عن الارض المجاورة بقصد تقليل نفقات الزراعة بعدم الالتجاء الى الآلات الرافعة ولكن هذا العمل نفسه قد اضر بالتربة برفع الماء الجوفي فيها وأضر بصحة الانسان لزيادة الرطوبة في سطح الارض ودوام الماء في مجاريه فهل زادت قيمة هذه الاضرار عن مقدار ما اقتصده في الاستغناء عن الآلات الرافعة او لا ؟! . . .

فهناك المنوفية مثلاً وهي تكاد تكون حديث جميع الزراع من ناحية خصبها وكثرة انتاجها وزيادة محصولاتها في العهد السابق ايام اعتمادهم على الآلات حتى ليقولون لك ان الفدان (بقيراط) اي ان كل قيراط يأتي بأردب ذرة . . . اي ان محصول الفدان ٢٤ اردباً فانحط بعد ادخال الري بالراحة الى ٤ او ٥ ارادب في اكثر المناطق

وقد حاولت وزارة الاشغال تحسين هذه الحال بخفض منسوب الماء الجوفي بشق المصارف وقد امكنها فعلاً عمل المصارف الرئيسية في المنوفية ولكنها عجزت عن شق المصارف الفرعية والحقلية نظراً للصعوبات القائمة في لائحة الترع والجسور التي تجبر اي مالك على السماح لجاره بمرور ماء الصرف في ارضه وهي مشكلة جد معقدة اذ ان المالك الصغير يكاد يضحي بجميع ما يمتلكه اذا اراد جار له ان يشق طريقاً للصرف في ارضه

وعلى ذلك لم تأت المصارف الرئيسية في القطر كله بأثرها المطلوب فهل آن الأوان لاعادة درس الموضوع من جديد والمقارنة من الوجهة العملية البحتة بين نظام الري بترعة ذات منسوب واطيء وترعة ذات منسوب عالٍ وتقليل مستوى الماء الجوفي الموافق للزراعات المصرية ؟

ان مستقبل مصر يكاد يتوقف على حل هذه المشكلة فهي تؤثر في القطر كله من الوجهتين الاقتصادية والصحية وهما أثمن ما يحرص عليه الفرد وتحرص عليه الأمم

وقد كان رجال الري في ابتداء القرن الحالي أشد حرصاً وأكثر حذراً في تقدير أثر هذه المشروعات في الصحة العامة فعلق مشروع خزان اسوان على موافقة الهيئة الصحية في مصر وكذلك اتخذوا مبدأ ينص على ان لا تنفذ مشروعات ري شاملة لاكثر من مديرية واحدة ما لم يؤخذ رأي مصلحة الصحة

وللأسف لم تكن المعلومات في ذلك العهد كافية يمكن معها التنبؤ بما سيحدثه الري الصيفي من الاضرار الصحية ولكنها صارت الآن جلية جداً لا تحتمل المناقشة والواجب ان يتعاون رجال الري مع رجال الصحة ورجال الزراعة لايجاد حل لهذه المشكلة التي ربما كانت أبعد المشاكل أثراً في مستقبل مصر

ليست أعمال الري الهندسية غرضاً مقصوداً بذاته في مصر بل هي اعمال الغرض منها تحسين الحالة الزراعية لتعود بأكبر نفع اقتصادي على سكان هذا القطر وأغلبهم من المزارعين ولكن يجب أن لا نضحي بصحة وحياة هؤلاء المزارعين في سبيل زيادة الانتاج الزراعي ولم يقف العلم مكتوف الايدي امام ايجاد حل يوفق بين هذه الاغراض مع المحافظة على صحة السكان . وعلى ذلك يجب ان لا يعمل رجال الري على انفراد في تقرير هذه المشروعات بل يجب أن يتعاون معهم رجال الزراعة ورجال الصحة وربما يكون من الخير ان يؤلف مجلس اعلى لمشروعات الري يكون تابعاً لمجلس الوزراء وتعرض عليه جميع المشروعات الجديدة ، ويكون اعضاؤه مهندس ري واخصائياً زراعياً وطبيباً ، ولكل منهم ان يستعين بالهيئة التابع لها في دراسة ما يعرض من الموضوعات

قلبي...

لحسن كامل الصيرفي

أَقضي عنهُ نَداهُ وانشقيهِ فهو زهرهْ
غسلتها في سكونِ السَّحرِ المفتونِ قطرهْ
نفضَ الفجرُ عليها سحرهُ والصبحُ بِشرهْ
وعلاها في الضحى النو رُ فنالتْ منهُ سِرَّهْ
وبدتْ عند الاصيل الأرجوانيّ بحمرهْ
عطف الليلُ إليها فمضى يفتحُ صدرهْ
ورأى الشاعرُ فيها مصدراً يلهمُ شعرهْ
فاقطفيها ! إنها قلبي.. فما أَرْوَحَ عِطرهْ !

❁

أرهفي السمعَ اليهِ إنهُ البلبلُ يشدو
ساهرَ الليلِ ، ولكنْ هو لا يضنيهِ سهدُ
أوَتدرينَ الذي ينشدُ ؟ لا تدرينَ بعدُ !
ملأَ الجوَّ اغاريدَ فهذا الجوُّ عبدُ
ينقلُ الانغامَ كالوَحي أميناً فهي عهدُ
لم يضيّعْهُ ، ولكنْ سامعُ الانغامِ صلدُ
كلُّهم للنومِ عِبدانٌ ، وللأوهام جندُ
فاسمعيهِ أنتِ فالبلبلُ قلبي باتَ يشدو !

❁

إملئيهِ فهو كأسٌ لمستها يدُ ربي
جمّعت فيهِ الأماني خُضَراً من كلِّ صوبِ
وهو من صنعِ يدِ الأحلامِ في ليلةِ حب

وهو أتى من رؤى الشا عرِ في ساعةِ قربِ
انتشتْ منهُ العذارى وهو أسطورة غيبِ
كان مملوءاً ، ولكنْ جفَّ من إدمانِ شربي
فاملئيه خمرةً معصو رةً من كرمِ حبي
واشربيها فهي روحي واحفظيه فهو قلبي !

❂

أترينَ الجدولَ الجا ريَ في عطفِ الحليمِ
سكبتْ فيهِ الليالي من أشعَّاتِ النجومِ
أدمعاً مازَجْنَ انـ ـداءً من الفجرِ الوسيمِ
كوثرُ الفردوسِ أوحا هُ الى دنيا الهمومِ
فجرى يبعثُ فيها من تهاويل النعيمِ
راحةَ الله التي حطَّـ ـتْ على الكونِ الاليمِ
إنهلي منهُ فما تعـ ـدِلهُ خمرُ الكرومِ
انهُ قلبي على شطَّـ ـيهِ اطيافُ رسومي... !

❂

واذا مرَّتْ بكِ الايّـ ـامُ تطوي الصفحاتِ
وتلاشتْ من فمِ الـ ـدنيا معاني البسماتِ
وتلاشتْ إثرها عنـ ـدكِ أحلى الذكرياتِ
بقيَ العطرُ الذي اسـ ـتروحتْهِ من زهراتي
والصدى العذبُ الذي اسـ ـتطربْتهِ من أغنياتي
وجلالُ النشوةِ الحلـ ـوةِ من كأسِ حياتي
وخريرُ الجدولِ الحـ ـالمِ في هذا السباتِ
فأعادتْ لك أجـ ـلامَ الليالي الخالداتِ

عاطفة الحب

وكيف نشأت

لأديب عباسي

مما أثر عن ارسطوفانيس ، شاعر الكوميديا اليونانية قوله هازلاً متظرفاً : « كان زمان وكان فيه الجنسان ، شيئاً واحداً . ولكن الله رأى ، جزاء وفاقاً للانسان على شروره العديدة ان يشطره الى شطرين كما تشطر البيضة بشعرة ، وعليه فكلٌ منا ليس الاّ جزءاً من انسان ، ومن هنا نرانا لا تنفك قط عن طلاب جزئنا الآخر المكمّل لنا وهذه الرغبة وذياك السعي في سبيل ما يكمّلنا هما ما أسماها الناس بالحب »

هذا التعريف ، كما جاء على لسان الشاعر الهازل الظريف هو خير تعريف لهذه العاطفة . واذا نحن رجعنا الى علم النشوء نستنطقه ونستوحيه ، وجدناهُ يكاد يساير هذا التعريف الشعري القديم مسايرة تدعو الى اشد الدهشة والاعجاب

وهذا ايجاز شديد لما يقوله علم النشوء في هذا الشأن : يقول علم النشوء : كانت الارض ، ومرّت عليها الحقب الطوال دون ان يكون فيها ذو نسمة من نبات او حيوان ثم أمر الله ان يكون اوّل الاحياء ، فكان . وهذا الحيُّ الاول لم يكن يعدو الخلية الواحدة البسيطة غاية البساطة ، الصغيرة غاية الصغر ، وتكاثرت هذه الخلية البسيطة الصغيرة ما شاء الله لها ان تكاثر. الاّ انها تكاثرت لا بطريق العشق والهيام ، انما تكاثرت بطريق النموّ والانقسام : تكاثرت وتعدّدت بالانقسام من خلية واحدة نمت بالغذاء وكبرت الى حد لم تستطع عنده تماسكاً ، فانقسمت الى خليتين ، في كل منهما خصائص الخلية الاولى وصفاتها . ومضت الحياة تخلق خلقها وتنتج نتاجها على هذا النحو المتشابه المتماثل احقاباً طوالاً لا يعلمها الاّ الله ، الى ان ملّت الانسجام في التوليد وبرمت بالمتشابه من الخلق . والحياة ، كما نعلم ذلك جيداً ، فانها بطبعها ترى التنويع وخروج الفرع على الاصل ، شهي أمانيها وأبعد مراميها . ومن هنا هذا الذي نراهُ من استحالة التشابه التام في الحياة استحالة مطلقة

وجاء طورٌ ثانٍ . وخطت الحياة خطوة اخرى جريئة لا ريب تعدُّ فتحاً في عالم الخلق والتكوين ، ولا سيا في ذيالك الوقت الذي كانت تدبُّ فيهِ الحياة كمن أسدل على عينيهِ ستار وقامت في وجههِ غشاوة . رأت الحياة ان تضمَّ بين عددٍ من هذه الخلايا الأحادية ، في غلاف هلامي فتتعاون على الحياة والنماء والخلق في اسلوب غير الاسلوب الذي اعتادتهُ وحذقتهُ . وسجل هذا الاكتشاف او الفتح ، او ما شئت فسمهِ ، في سجل الحياة ومضت الاحياء تحيا هذه الحياة امداً رأت في خلاله ان من الخير لها ان تجري على شيء من التخصص ، فشرعت الخلايا الخارجية في هذه المجموعة تتخصص في استجلاب القوت والغذاء للمجموعة كلها . اما الخلايا الداخلية فقد مضت على سننها في الخلق والتوليد بطريق الانقسام المعهود

***

والنجاح كما نعلم ذلك جميعاً ، يولد النجاح . ومن هنا لم تكتف الحياة بما احرزت من نصر ونالت من فوز في مجال النشوء . فقامت تجرب ان تخطو خطوة اخرى ، لا سيا وقد لاحظت ان اسلوب الانقسام الذي ما زالت تجري عليه اسفر ، بعد الحقب الطوال ، عن ضعف اكيد في الانتاج وخمود في الذرية حتى خشيت معهما ان يفنى النسل ويزول الى غير رجعة . وتشاء القدرة الملهمة ان توجه الحياة عند هذا الطور الخطر من النشوء توجيهاً يعد حقًّا من لحظات الدهر الخالدة . وذلك انه بدل ان تمضي هذه الخلايا تنمو وتتكاثر على اسلوب الانقسام الذي وصفنا احدثت بينها حركة عكسية — اي بدل المضي في التوليد على اسلوب الانقسام وزيادة الضعف ضعفاً أوحت بالوحدة والتضام بين هذه الخلايا المنهوكة . وتقدمت اولى خليتين في تاريخ النشوء ونفثت كل واحدة من ذاتها في اخرى ثم انفصلتا وكم كانت دهشة الحياة بالغة لما رأت هذه الخلايا الضعيفة الخائرة تزخر من جديد بالنشاط والحركة وفيض القوة

وكأن الحياة اكتفت بهذا القدر من النجاح نصيبه في هذا النشاط يعود الى هذه الخلايا بعد ان استولى عليها الاعياء ودبَّ فيها الكلال . فمضت حقبة طويلة لا تبدي رغبة ولا تكشف عن عزم في التغيير والتبديل . ولكن الحياة ليس من طبعها الوقوف . فاما سير الى الامام ونماء واما تلكؤ ورجوع ثم فناء ، وكأنها — الحياة — شعرت بأن ما نالتهُ من تقدم يكاد يأتي عليهِ هذا الخمول والرغبة عن الخلق والابداع فجمعت قواها وحشدت جميع وسائلها ولم يمضِ حتى اسفر هذا الحشد والجمع عن خلق جديد له سمات راسخة من التخصص والتمايز الجنسي

وقد حقَّقت الحياة هذه الخطوة ، اوَّل ما حققتها ، في الحيوان البروتوزووي المسمَّى « Eudarina » . فقد اخذت خلايا هذا الحيوان تقسم كل واحدة منها اقساماً صغيرة مختلفة بعضها كبير هادىء وبعضها الآخر صغير ولكنهُ جمُّ النشاط والحركة . وأبى هذا الحيوان ان يتوالد

الاّ اذا اتّحد واحدٌ من هذه الاقسام الصغيرة النشيطة بواحدٍ من الاقسام الاخرى الكبيرة الهادئة . وهنا اكتشفت الحياة الجنس ، وهنا فقط كانت بداءة الحب ونواته التي نمت وأفرخت وأخرجت أعجب الأزهار والأثمار . وهنا اصبح مجال الاختبار واسعاً ومدى السعي كبيراً . وذلك ان هذه الحيوانات قامت تتغالب على فرصة الحياة والتناسل . فالضعيف منها فشل ومات وانقرض جنسه . والنشيط نجح وعاش وتكاثر ، وتعدّدت وسائل النضال على فرصة الحياة وتخليد الجنس ، فكانت حيناً قوة العضل وشدّة الأسر وحيناً رخامة الصوت ورقة النغم وحيناً جمال الريش وبهجة الألوان ، وآناً لطف الحيلة وحسن التدبير وآونة شيئاً من هذا وذاك وأخرى منهُ جميعاً

وجاء الانسان في آخر الأزمان وجاءت معهُ غرائزه الأولى وعلى رأسها غريزة الجنس التي ما فتئت تدفعهُ الى طلب البقاء والخلود عن طريق اخلاف البنين والبنات . وكان الانسان في اول امره لا يختلف في هذا الدافع عن بقية الحيوان ، فكان اندفاع الجنسين بعضهما الى بعض لا يعدو هذه الحاجة الحسية التي تفضي في نهاية امرها الى ايجادها الذرية الجديدة ، وهذه الذرية الجديدة ، تعيد تمثيل الدور الذي مثله آباؤها وتذهب في سبيل الذاهبين الأولين . واذاً لا ريب ان وراء هذا التجاذب بين الجنسين في الانسان والحيوان شهوة اخلاف النسل وتخليد النوع

ولكن لسائل ان يسأل هنا : وماذا كانت فائدة هذا الاختصاص والتمايز اللذين افضى اليهما التطوّر وانفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث اذ كان غرض الحياة ، وهو بقاء النوع وتخليد الجنس محقّقاً بالانقسام الذاتي الموصوف ؟ والجواب هو ما رأينا من ان الانقسام الذاتي أسفر عن فشل في عملية التطوّر والنشوء حتى كاد ينقرض النوع ويبيد وان انفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث ثم اتصالها بعدئذٍ أفضى الى إعادة النشاط والقوة الى جميع الاحياء. وهذا لا ريب ، يفسر لنا ما يفضي اليهِ الزواج بين الأقارب من ضعف ينتهي مع الزمن الى انقراض الجنس كله ، ويفسر لنا أيضاً زيادة النشاط والحيوية بين الاجناس المختلفة إذ يمتزج بعضها ببعض عن طريق التزاوج ، وهو يفسر لنا أيضاً معنى هذه المحرمات الجنسية التي فرضها الدين حيناً وفرضتها الشعوب على أنفسها أحياناً أخرى ، من تحريم التزاوج بين الأقارب او تقييدهُ بقيودٍ تقلل من أذاه وتلطف من شره . ولعلَّ هذه الشعوب الباسيفكية في بعض جزر المحيط التي رضيت ان تتحلل من جميع القيود بشأن الزواج وغدت من جراء ذلك بسبيل الزوال هي خير دعاية لهذه القيود الجنسية واكبر برهان على فضلها وصلاحها في معركة النزاع على البقاء

ونعود الى سلسلة النشوء ، فنرى ، ولكن بعد الألوف المؤلفة من الأجيال ، إن الغريزة وما يصحبها من انجذاب الجنسين بعضهما الى بعض ، أصبحا حبًّا رفيعاً يملأ القلوب وينبل الشهوة ، فأضحت الشهوة عاطفة والميل حبًّا والمادة شعراً والنزوة الطارئة هوىً خالداً . ولكن كيف حدث هذا وماذا ساعد عليه ؟ الجواب عن هذا يطول ، وانما يكفي ان نقول ان الانسان لما بدأ يتحضَّر ويتمدَّن رقَّ طبعه وتدمثت أخلاقه وانتظمت غرائزه ، فصار يعمد الى التعبير عن شهوته الجنسية بطريق مداور غير مباشر : فحل الرمز عنده محل التصريح والايماء محلَّ الفضوح والروية محل الجموح ، وأدركت المرأة أنها كلما تمنعت وتعززت كانت أقرب الى القلوب وأحفز للنفوس على الهيام والتقديس، وكانت أخيراً أنجح في الاختيار الذي يرفع مستوى الجنس بدل ان يوطئه ويغنيه بدل ان يفنيه. أدركت المرأة هذا بفطرتها وأدركه الرجل كذلك فراحت هي تحيط نفسها بهالة من الامتناع والطهر والعفاف . ولكن في الوقت نفسه لم تشأ ان توقف الرجل منها موقف اليأس، فلوَّحت له بالنظرة الهائمة والشفة الباسمة واللون الزاهي والعطر الذكي واللفتة الحالمة، ان هناك مجالاً للمطاردة وميداناً للاقتناص ولسان حالها يقول : هيا ارني ايها الرجل ماذا تستطيع وتتقن وماذا تظهر وتبطن من الخلال والصفات التي تساعد على بقاء الجنس وتجميل الحياة . وما يلبث الرجل ان يستجيب ويقدم بين يدي المرأة احسن ما يملك ويستطيع . فهو حيناً يعرض عليها فراهة الشباب وقوة الرجولة وفيض القوة في ميادين اللعب وحلقات الصراع والملاكمة او في ميادين النضال والقتال ، وحيناً يعرض عليها المال وما وراء المال من قوة ومتاع للنفس والحس ، وآناً يقول الشعر وآونة ينحت الصخر واذا اعياه هذا او بعض هذا عمد الى الاغواء والسحر باللفظ المعسول والنظر المطال والآهة المقطوعة وخلاف هذه مما يصطنع البارعون في هذا الفن

وإذاً فأنت ترى لهذه العاطفة غير فضل تخليد الجنس ، فهي ترقق الشعور وترفع النفوس وتسمو بالفكر وتغري الناس بجلائل الاعمال ، وفي ظلها يزكو الشعر ويسمو الفن ويخلد الجمال في قصيدة او صورة او تمثال . ومن هنا ما نرى ونشهد من ان أعظم الأمم ما أتى جليلة في فنٍّ او علم او حضارة هي هذه الأمم التي ارتفعت بغريزة الجنس عن مستوى المادة والحسّ الى مستوى الروح والنفس . ومن هنا ما نرى أيضاً من ان دور الانحطاط في كل أمة وشعب يبدأ حيث يبتذل الحب وتعمُّ الأباحية ويصل الناس الى درجة الشيوع الحيوانية : لقد أفل نجم الاغريق وغاب سعد الرومان وخيم ليل العرب حينما أخذ الحب (ان جاز ان ندعوه حبًّا) يعرض في الأسواق ويباع ويشترى كما تباع جميع السلع ، بدل ان يحفظ ويصان في القلوب وراء الصدور

فكتور هوجو

قصة حبه الاول

ورسائل غرامه

كتب فكتور هوجو في ديوانه اوراق الخريف مخاطباً « رسائل غرامه » فقال :

يا رسائل الشباب والفضيلة والحبّ
هوذا انت. فليخفق فؤادي ثانية
مستجيباً ، اذ اجثو لاقرأكِ .
ولأستعدْ عمرك ثانية ، فأعود
صالحاً وراغداً ، كما كنت مرةً . ثم دعيني
أذرف الدمع لانني انقلبت غير ما كنت

كنت في الثامنة عشرة . ما أبهج أحلامي حينئذٍ !
كان الامل يغشّيني فيهز سريري كذباً وختلاً
وكان يتلألأ فوقي نجم لامع .
اما الآن فقلبي فقط يتنفس بذكرك
مع اني كنت حينئذٍ في منزلة ربٍّ لها. ولكن
الرجل الآن يذكر الطفل الذي كان .

يا زمان التأمل والقوة والرشاقة
كنت انتظر كل مساء حتى تمرّ بي ،
وأقبّل قفازها الواقع على الارض
كنت حينئذٍ آمل كلّ شيء من الحياة — الحب والشهرة والقوة
آه — ما السبيل لأعود نقيًّا فخوراً متسامياً
مؤمناً بكل ما هو تقيٌّ !

هذه الرسائل — رسائل الشباب والفضيلة والحب — مجموعة في كتاب يربي على مائتي صفحة. وكانت عروسة احلامه قد دمرت رسائلها اليه وانما احتفظت برسائله. تطالعها الآن فتطالع فيها عفة في عنف. وليونة في رزانة، إنها حافلة بآماله ومخاوفه، بافراحه المنطلقة عفواً كأفراح الطفل وبانباء الخصام واساليبه يتلوها العفو والغفران!

يبدو لك وانت تقرؤها انها لم تكتب ليقرأها احد الا مليكة قلبه. فهو في غير رسالة منها يتوسل اليها ان تحرقها فقيمتها الادبية في الكشف عن نفس هوجو، اعظم من رسائل تكتب والغرض منها النشر، لان نفس هوجو في رسائله هذه مطلقة على سجيتها. وقلما يتاح ان يُرى غراماً كهذا الغرام. يتفتح كالزهرة الطاهرة وينبجس كالنبع الصافي فتراه وهو يتفتح وترافقهُ وهو ينبجس مكشوفاً للعين في كل فور وفي كل غور

***

عرف ڤكتور اديل من ايام الطفولة لان صلة الجوار والصداقة كانت تربط اسرتي هوجو وفوشه، قبل ولادتهما. فنشأ اولاد الاسرتين وترعرعا معاً. وكانوا ينادون بعضهم بعضاً بضمير المفرد المخاطب. وهو بالفرنسية دليل على توثق الصلة ورفع الكلفة

وقد اشار ڤكتور هوجو الى انبثاق حبه الاول بالكلمات الآتية: ارى نفسي ثانية، فتىً تلميذ مدرسة، مرحاً لعوباً عادياً صارخاً مع اخوتي، في الممرّ المخضرّ في حديقة البيت الذي قضيت فيه ايام الحداثة. ثم يقول: «كنت لا ازال صبيًّا، ولكن الاحلام كانت تراودني، والشهوة تملأ أعطافي». والى جانبه كانت فتاة «نجلاء العينين، كثة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين. متوردة الخدين ...»

«وكانت امّانا تقولان لنا انطلقا والعبا معاً. فكنا نتنزهُ قبل ان نلعب فكنا نفضل ان نتحدث. وكنا من عمر واحد ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك ظللنا مدى سنة اخرى، ونحن رفيقان، بل لقد جرّبنا غير مرة «ان نتبيّن من منا اقوى من الآخر وأصلب عوداً. خطفت منها مرة اكبر تفاحة في البستان. وصفعتها اخرى لما رفضت ان تعطيني عشّ عصفور. فأخذت تبكي فقلت: لا بأس لنذهب ونخبر والدتينا فتقولان ان كلينا اخطأ وكلتاهما تعتقد في قلبها ان ولدها كان على صواب»

«ولم يمض زمن طويل حتى صارت، اذا سرنا، تتكيء على ذراعي، فكنت احسّ بفخر عظيم. وبيننا بني شعور غريب. فكنا نتمشى في رفق. ونتحدث في لطف. أسقطت منديلها مرة فالتمسته فمست يدي يدها وشعرنا كلانا بهزّة. فجعلت تتكلم عن العصافير، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق وراء الاشجار، ورفيقاتها في المدرسة، وملابسها. تحدثنا حديثاً بريئاً عن امور عادية

ولكن خدود كلينا توردت لان الفتاة اصبحت صبية». واديل تؤيد في ما كتبته رواية ڤكتور.

في اغسطس سنة ١٨١٨ اضطرت اسرة هوجو ان تنتقل من دارها، لان معاش الوالد الجنرال، كان لا يكفي، لكي يحتفظ لزوجه وأولاده، بدار لها حديقة. فانتقلت الاسرة الى شقة في الدور الثالث من شارع بيتي اوغسطان رقم ١٨

وكانت مدام هوجو، تذهب بعد العشاء، تزور صديقتها مدام فوشه. وكان ابناها يرافقانها في بعض هذه الزيارات. ويقول بواب «اوتل ده تولوز» — حيث كان يقطن المسيو فوشه — انه كان يرى اوجين وڤكتور هوجو مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشه. وكادت هذه الزيارة تكون رتيبة كل ليلة من ليالي الشتاء في سنتي ١٨١٨—١٨١٩

كان الضجر يخيّم على هذه السهرات في الغالب. فقد كان المسيو فوشه ضعيفاً عليلاً، فكان يأخذ كتبه وينتحي زاوية خاصة، ويفضل ان لا تقلقهُ ثرثرة الحديث. وكانت مدام فوشه هادئة الطبع، لا تميل الى الاستفاضة في الكلام فجعلت الصمت ديدنها رفقاً بزوجها. وكانت مدام هوجو نفسها تقطع عملها — الخياطة — فتأخذ قليلاً من النشوق وهو عمل كان المسيو فوشه نفسه لا يعفُّ عنه. وكانت قد نبهت على ولديها اوجين وڤكتور ان لا يتكلما الاَّ اذا خوطبا

إلاَّ أن هذه السهرات كان لها اثر خاص في نفس الفتى ڤكتور. كان اثراً مبهماً يتعذر حتى على من كان مثله بارعاً في استعادة الذكريات وتحليلها، ان يحدده ويصفه. فكان اذا انتهى العشاء في داره، كلفا بالاسراع الى منزل مدام فوشه. فاذا كان شقيقه اوجين متأخراً استعجله. وكان في الشارع لا يعجبه البطء في السير، فاذا حال دون الذهاب الى «اوتل ده تولوز» حائل ما، كانت الدنيا تسودُّ في عينيه وتستولي الكآبة على نفسه

وهذه الرغبة في زيارة آل فوشه، لم تكن كلفاً منهُ بمراقبة نار الموقد، او البقاء جالساً على كرسي ساعتين متواليتين في غرفة يسودها الصمت، ولا يقطع صمتها في الغالب الاَّ عطاس امهِ والمسيو فوشه بعد تناول النشوق، بل كان يكفيه ان يبقى المسيو فوشه مكبًّا على كتبه، والسيدتان على عملهما، لانه كان يستطيع حينئذ، ان يحدق، ويطيل التحديق، في اديل.

والراجح انهُ كان لا يدري، ما هذا الشعور الذي كان يضطرب بهِ صدرهُ، ولكن احدى رسائله المكتوبة سنة ١٨٢١ تعيّن لنا بالضبط اليوم الذي ازيح فيهِ الحائل الفاصل بين القلبين. كان ذلك يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨١٩ وكان ڤكتور يومها في السابعة عشرة من عمره واديل في السادسة عشرة

كانت اديل أجرأ من ڤكتور، وأشد رغبة في الاستطلاع، فرغبت وهي فتاة، ان تتبيَّن معنى هذا الترام الصامت فقالت: «لاريب عندي في انك تخفي أسراراً. أليس بينها سرٌّ يفوقها

جميعاً ؟ »فاعترف ڤكتور بأن عنده أسراراً وان احدها يفوقها جميعاً . فصاحت أديل : وهذا هو حالي : تعال . تعال الآن اطلعني على أهم أسرارك وأنا أطلعك على أهم أسراري . فقال ڤكتور: أهم أسراري انني أحبك . فرددت اديل وسرّي العظيم هو انني أحبك ، وكأن كلامها كان صدىً لكلامه

وكذلك تحطم الجليد بينهما — على ما يقول الفرنجة — ولكن حبهما كان معتدلاً ، فكأنهما وقد باح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، وقفا امام هول الحب وعظمته وقفة المتعبد في هيكل فخم

وقد قال ڤكتور في قصيدة يصف ذلك اليوم ، ان شفاههما الطاهرة لم تتلفظ بعبارات الغرام وانهما ما كانا يملكان الا التفوه بكلمة واحدة

***

تبادلا بعد ذلك بعض الرسائل أحياناً إلاَّ أنها كانت في الغالب « قصيرة فاترة » ولكنَّ هذه الرسائل لم تحفظ . ثم جاء الصيف ، وذهبت أسرة فوشه لتصطاف في إسي في ضواحي باريس . فكان ذلك باعثاً على الكآبة تستولي على نفس ڤكتور . وقد حاول عبثاً ان يقنع نفسهُ بأن المرحلة الى إسي كالمرحلة الى « أوتل ده تولوز » . ولكن الزيارات اليومية كانت متعذرة

فلما عاد الخريف عادت أسرة فوشه الى باريس ، وكان الميل اللطيف قد تحول في صدر ڤكتور الى شعلة لا تنطفىء على ما قال في قصيدة له في أحد دواوينه(1) . بل ان الحبَّ كان قد أخذ يملك على ڤكتور كل ناحية من نواحي شعوره ، وتغلغل في كل جانب من جوانب حياته

وبعيد عودة آل فوشه من إسّي في خريف سنة ۱۸۱۹ انتظم تبادل الرسائل بين ڤكتور واديل . وكان ڤكتور قد طرح التردد والجبن ، وأصبح عاشقاً جريئاً ، فصار يطلب الى اديل ان توافيهُ في مواعيد معينة واماكن معينة ، فكانت تلبي طلبهُ . وكانت حديقة « الاوتل ده تولوز » احد اماكن الاجتماع ، فكانت اديل اذا غابت والدتها ، تنسلُّ الى الحديقة لمقابلة ڤكتور المنتظر في « ظلال اشجار الكستناء » . او كانت اديل تذهب احياناً الى السوق بدلاً من والدتها وبعد ان تبتاع ماذهبت له ، تسرع الى مقابلة حبيبها في احد الشوارع الهادئة. ولما تحسَّنت صحة المسيو فوشه صار يسرُّهُ استقبال اصحابه في المساء ، وكثيراً ما كان بين الزوّار صويحبات اديل واصحابها . فكان ڤكتور يجتمع باديل ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بحكم الطبع قصيراً ، والحديث مقتضباً فكان لا بدَّ من اتمام ذلك التبادل كتابة

***

لم تحفظ رسائل ڤكتور الاولى ولكنها في الراجح لاتختلف عن معظم الرسائل التي حفظت.

(1) Odes et Ballades

اتنا تتبين في رسائله ، ان فكتور كان وهو في السابعة عشرة من العمر يفكر تفكير الرجال . فهو واثق بنفسهِ ، واثق باخلاصه ، واثق بحبهِ وشرف اغراضهِ . ثم انهُ لا يرتاب اقل ارتياب، في شجاعتهِ وقيامهِ على عهد الوفاء . فاذا كان لا مفرَّ من الانتظار فانهُ ينتظر . واذا قامت في سبيلها العقبات ، فانهُ يتخطَّاها . انهُ لا يسلّم بان هنالك شيئاً مستحيلاً . وهو يحسب اديل زوجتهُ ، لذلك تراهُ يجرؤ على توقيع معظم رسائله اليها بكلمة « زوجك » . ولكن اديل لا تزال طفلة . هي ذكية الفؤاد ، نبيلة الشعور ، ولكن قلبها قلب طفل . انها بريئة، حنونة، فتردُّ على حبهِ الناضج حبًّا طفلا

ولكن الى اين يفضي حب صغيرين كفكتور واديل في سنهما وأحوالهما ؟ لا ريب في ان الوالدين يفصلون بينهما عندما يطوف الريب باذهانهم . لذلك اتفق الحبيبان ان يمتنعا عن تبادل الحديث الاَّ اذا كانا منفردين . وان يتظاهرا في حضور الناس ، بان احدهما لا يهمُّ الآخر ولا يعنى بهِ

ولكن هذا التظاهر كان يؤلم اديل . كان فكتور لا يزال يطيع امه كأنهُ لا يزال في العاشرة من عمره ، وكانت هي تحسبهُ طفلاً فلم تتصوَّر انهُ في هذه السن يمكن ان يقع في شرك الغرام . الاَّ ان أم اديل كانت أقوى ملاحظة وأنفذ بصيرة من صاحبتها ، فظنت انها رأت غير مرة ، ما ينمُّ على تحابّ اديل وفكتور ، ولكنها حسبت ذلك من نوازع الحداثة البريئة ومع ذلك لم تلن في مراقبة بنتها ، وفي توجيه الاسئلة اليها ، وتوبيخها احياناً ، وكان كل هذا يغم اديل ، فتبوح بغمها الى فكتور ، وأحياناً تلومه عليهِ او ينفجر طبعها النسائي بالتأنيب احياناً اخرى . ولكنها كانت ، اذا رأتهُ كئيباً كاسف البال وبدا عليهِ انهُ يظنُّ انها لا تحبه، تسرع الى طلب العفو والغفران ، لانهُ كان كما قال في شعره في منزلة ربّ لها

ثم اخذت شهرته الشعرية تذيع ، وبدأ اسمه يلمع في سماء الادب فدعاه شاتو بريان « الطفل العلوي » ، وجعلت الصالونات الادبية تتحدث ببعض قصائده ، ومنحتهُ اكاديمية الالعاب الزهرية في تولوز جائزتين من جوائزها الاولى على قصيدتين قدمهما اليها

ولما كانت رسائل فكتور التي كتبت سنة ١٨١٩ لم تحفظ ، فأول شاهد على حبه ، منطو في قصيدة له عنوانها « الزفرة الاولى » نظمت في شهر دسمبر من تلك السنة . فلما قدم هذه القصيدة الى اديل ، طالباً اليها ان تقرأها على حدة ، لأنها نظمت لها خاصة ، طفح كأس صباها بالغبطة . وكان في القصيدة كثير من انغام الحزن والقنوط . ولكنها قصيدة ما أجملها ، في نظر الفتاة . واذ تحدث الشاعر في قصيدته ، عن يوم مماته ، سأل اديل بما تجيز حبه ، ووفاءه فوعدته باثنتي عشرة قبلة !

ولكن هذه القصائد وهذه القبلات، لم تلبث حتى اصبحت باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج

قلنا انهُ كان لاديل صويحبات ، وليس من الطبيعي ان تتلقى فتاة قصيدة بارعة كتبت لها خاصة ، من دون ان تريها لاحدى صويحباتها على الاقل، فاذا ارتها اياها ، فكيف يسعها ان لا تقول ان فتاة القصيدة انما هي نفسها — اديل فوشيه ، حبيبة الشاعر ؟! ولا ريب في ان احدى صويحباتها سألتها : ولكن هل تحبينهُ : فتجيب — أيسعني إلاَّ أحبه — وهل يحبك لهُ بحبك — كيف أستطيع أن أخفيه . وعندها يرجح أنها باحت لتلك الصويحبة بالقبلات التي دفعتها ثمناً لتلك القصيدة وجزاء لذلك الوفاء ! فتصيح صاحبتها في شيء من الذعر

— ولكنه لا يسعهُ ان يحترمك ما زلت لا تحترمين نفسك

كانت أمها قد حذَّرتها من كل هذا فقالت لها : احذري يا بنيتي ، اذا قال لك رجل انهُ يحبك ، وكنتِ على جانب من الضعف، فلا يمضي وقت طويل حتى يزول ما يكنهُ لكِ من الاحترام

أمضَّها الشك . هل التسليم بالحبّ يفضي الى فقدان احترام الحبيب ؟ اذن حبيبها يحتقرها ! وكيف تستطيع ان تصبر على احتقاره اياها ؟ سألتهُ في ذلك ، والألم يفطر قلبها « أصحيح انك تحتقرني ؟ هل يمكن ان تحتقرني ؟ » فأنكر ذلك ، واعترض عليهِ ، وغضب في انكاره واحتجاجهِ ، وجدَّد عهود الحب والوفاء ، وأتى ببراهين حبهِ واخلاصه . ولكن الريب في ذهنها اصبح فكرة سائدة . وكثيراً ما تعود الى هذا الموضوع في رسائلها . نعم اننا لا نملك رسائلها ، ولكننا نملك جوابات فكتور. كيف يستطيع ان يقنعها ؟ فليس الاحترام والاجلال كل ما في نفسه ، بل هي العبادة ! انهُ يحبها جاثياً . ومجرد تطويقها بذراعيها ، والفوز منها بوعد بقبلة ، هو كل ما يطلبه منها وهو كل سعادتهِ . وقد كانت اديل جديرة بهذا . فقد كانت وهي في السادسة عشرة صبية بارعة الجمال ، سمراء اللون ، سوداء الشعر ، مقنطرة الحواجب، دقيقة الانف فأقامها فكتور في هيكل افكاره على مذبح وجثا امامه عابداً متخشعاً . بل ان عبقريته الشعرية انحنت اجلالاً امام عبقري جمالها ، بدعةٍ وخشوع . قد تكون زوجه في المستقبل مع انهُ لايجرؤ على تصور هذا . ولكن اذا اصبحت زوج آخر ، فانهُ يموت ، لانه لا يتحمَّل ذلك . وفكرة الموت هذه ، كانت برهاناً لهُ على حبه لها ، فرسخت في ذهنهِ ، وكثيراً ما رددها ، في اشكال مختلفة في رسائل غرامه ، وكان لها وقع عظيم في نفس حبيبتهِ

وضع فكتور كلَّ شيء عند اقدام اديل او تحت اقدامها . فلست تجده يذكر في رسائله ، شيئاً من كتاباتهِ ، او ما اصابهُ من النجاح الادبي او شهرتهُ الآخذة في الذيوع ، واذا اشار الى ذلك فانما يذكره لكي يؤكد لها ، ان كل ذلك انما هو لاجلها ، ولها ، وانما هي صاحبة الوحي وينبوع الالهام . فالموضوع الوحيد الذي تدور عليهِ الرسائل هو هذا الحب — الحب دون غيره من الموضوعات ، ولذلك سوف تبقى رسائل غرام هوجو مثالاً فذًّا نقيًّا للحب السامي

اسرار اللون

في حياة النبات والحيوان



المادتان الخضراء والصفراء في النبات والحمراء في الدم

تسبغ الطبيعة على الكائنات من نبات وحيوان الواناً تفتن الالباب بجمالها وتحير العقول بأسرارها . ففي حدائق الازهار تجد الاديم مكسوًّا ببساط سندسي يرتاح اليهِ البصر وتقوم في جنباتها شجيرات متفتحة النوَّار سحرية الالوان فواحة العبير . وفي حديقة الحيوانات بالجيزة طيور تستوقف النظر والذهن بألوان ريشها بين أخضر وأحمر وأصفر . فما سر هذه الالوان وهل في دراستها سبيل الى فهم ناحية من لغز الحياة ؟

إن مباحث علماء الكيمياء الحيوية الحديثة في هذا الموضوع تشير الى اننا على عتبة انقلاب خطير الشأن في فهم بعض اسرار الحياة عن طريق فهم سر التلوين في الطبيعة . ولا يستبعد ان يفضي هذا الفهم الى فوائد عملية جليلة الشأن في توفير اسباب الصحة ومواد الغذاء والوقود

فالمادة الخضراء في النبات،وهي المعروفة باسم الكلوروفيل في اللغات الاجنبية (وقد اقترح لها مجمع فؤاد الاول للغة العربية لفظ اليخضور) تحتوي في تركيبها الكيميائي وطريقة تركيبها للنشاء والسكر على اسرار اذا استطاع العلماء أن ينفذوا اليها ، مكنتهم من مجاراة الطبيعة في صنع مواد الغذاء والوقود على أهون سبيل وبأيسر نفقة

ثم ان اليخضور يهم الاطباء وعلماء الكيمياء الحيويةلأن تركيب جزيئهِ قريب الشبه بتركيب جزيء مادة أخرى،لاغنى عنها للحياة وأعني الهيماتين وهو المادة الحمراء التي تجري في الدم فلندعهُ اليحمور ومن معانيهِ في اللغة الاحمر . فكل كشف جديد في معرفة سرٍّ من اسرار المادة الحمراء يسدي خدمة جليلة الى الباحثين في اسرار الاخرى

وقراء المقتطف يذكرون ان العالم الالماني هانس فيشر Fischer منح جائزة نوبل الكيميائية سنة ١٩٣٠ لنجاحه في تركيب مادة الهيماتين — وهي المادة الحمراء التي في كريات الدم الحمر في الحيوان — بالتركيب الصناعي . ولكنهم قد لا يعلمون ان فيشر نفسه من أدق الباحثين وأرسخهم قدماً في دراسة اليخضور كذلك

ومما لا ريب فيه ان كثيراً من الحقائق التي توصل العلماء الى معرفتها عن طبائع الهياتين انما أُتيح لهم لان الباحثين في طبائع اليخضور مهدوا لهم السبيل . وليست الشقة بين الوقوف على اسرار اليحمور وطبائعهِ وفهم الامراض الناشئة عنه بالشقة البعيدة . ثم هناك اللون الاصفر ، وهو مادة من الالوان التي لا يقام لها وزن كبير في خصائص الاجسام الحية واسرار حياتها ، وذلك لان لون اليخضور الاخضر في النبات يغلب عليهِ ويحجبهُ عن الانظار . ولكن شركة كوداك تمكنت من صنع مصفاة لونية ، تستطيع ان تحجب الاشعة الخضر في ضوء ما ، وتأذن لسائر الاشعة في ذلك الضوءِ في المرور من خلالها . فاذا نظرت الى غابة خضراء ، او الى حقل سندسي البساط من خلال هذه المصفاة ، رأيتهُ أصفر فاقعاً يخالط صفرتهُ قليل من اللون البرتقالي والاحمر . والواقع ان البحث أثبت وجود اللون الاصفر والاصفر المحمارّ في كل خلية نباتية . والدليل الحاسم على ذلك ان الطيارين الحربيين يميزون بين الاخضر السندسي في الحقل والاشياء المدهونة باللون الاخضر باستعمال المصفاة اللونية فيرون الحقل أصفر والاجسام المدهونة باللون الاخضر خضراء قاتمة . وفائدة هذا التمييز في الاعمال الحربية لا تخفى

ليس ثمة ريب في ان دراسة اللون الاصفر في الخلايا النباتية قد افضى الى فوائد عملية جليلة القدر . وذلك لأن بين الاجسام الصفر في خلايا النبات مواد تعرف باسم « الكاروتينويد » Cartenoids وهي مصدر غنيٌّ بفيتامين A واذا شئنا ان نقيس بالمال قيمة الصحة التي يجنيها الناس من استعمال هذا الفيتامين تعذر ذلك علينا . بل يضاف الى ذلك ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى ان هذا الفيتامين عامل ذو شأن في إطالة مدى الحياة الانسانية

***

اللون الاخضر واسع الانتشار في الطبيعة . وفي سعة انتشاره دليل على ان « اليخضور » عامل اساسيٌّ من عوامل الحياة على سطح الكرة الارضية مهما يكن القالب الذي تفرغ فيهِ الحياة . وسبب ذلك ان اليخضور هو المادة التي تعتمد عليها الطبيعة في تحويل طاقة الشمس الى طاقة الحياة . ولولاه لما كان لنا غذاء ولا فحم ولا نفط ولا ناس

***

يعرف فعل تركيب النشا والسكر في اجسام النبات بوساطة اليخضور بفعل التركيب الضوئي Photosynthesis وطريقتهُ ان يمتصَّ النبات الماء من التربة ثم يقتنص الطاقة من اشعة الشمس ، فيحدث التفاعل بين جزيء الماء وجزيء ثاني اكسيد الكربون فيتولد النشاء والسكر وجزيئاتهما غنية بطاقة الحرارة ، ويطلق الاكسجين نتيجة لهذا التفاعل حرًّا يستنشقهُ الأحياء . ولولا

فعل التركيب الضوئي . لقلَّ مقدار الاكسجين في الهواءِ بثبيتهِ في المركبات التي يدخل في تركيبها ولجاء زمن تزول فيهِ الحياة ، كما نعرفها ، من سطح الارض

***

بعد ذلك يتحوَّل السكر رويداً رويداً الى موادَّ اخرى . فهو يتحوَّل بالتخمير تحولاً ومنهُ تتولَّد المواد التي يصنع منها الجليسرين والزيوت والشحوم والبروتينات والفيتامينات والادهان الخضر والحمر والصفر . جميع هذه المواد ترتدُّ الى السكر المصنوع بطريقة التركيب الضوئي من الماءِ وثاني اكسيد الكربون وطاقة الشمس بوساطة اليخضور . وليس في أرقى مصانع العالم الآن ما يجاري فعل التركيب الضوئي ، في توليد هذه المواد

وقد دلَّ البحث على ان اليخضور يخضوران في الحقيقة، يتشابه جزيئاهما في تركيبهما. وقد وسم أحدهما بحرف الألف فيعرفا باسم يخضور (ا) والثاني بحرف الباء بيخضور (ب) . فاذا استخلص الاول وبلور كان أزرق مسوادًّا . واذا حلَّ في الكحول كان أزرق مخضارًّا . أما الثاني فلون بلوراتهِ أخضر مسوادٌّ ومحلولهُ الكحولي أخضر صافٍ . والاول يتحول الى الثاني بازالة ذرتين من ذرّات الايدروجين من جزيئهِ واحلال ذرة أكسجين محلهما . وقد تبين علماء الكيمياء الحيوية ان اليخضورين متلازمان في خلية النبات ، فكلٌّ منهما عامل لا يستغنى عنهُ في فعل التركيب الضوئي

وجزيء اليخضور نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدروجين والاكسجين والنتروجين . فاذا كان هذا الجزيء مشتركاً في فعل التركيب الضوئي ، شوهدت في وسطهِ ذرَّة مغنيسيوم . وجزيء الهياتين (اليحمور) كذلك نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدرجين والاكسجين . ولكنهُ يختلف عن صنوه جزيء اليخضور في انهُ اذا كان جزيء الهياتين مشتركاً في فعل نقل الاكسجين ، وجدت في مركز الجزيء ذرة حديد ، يقابلها في جزيء اليخضور ذرة مغنيسيوم

ولا يخفى ان الغرض الاول من الهياتين هو نقل الاكسجين في أجسام الاحياء . ولذلك يصاب المصابون بفقر الدم (ومن أعراضهِ نقص الكريات الحمر المحتوية على الهياتين في الدم) بضيق التنفس لان قلة الكريات الحمر تحول دون حصول انساج الجسم على كفايتها من الاكسجين . والشحوب الذي يعلو وجه المصاب بالانيميا دليل على ان الجسم في حاجة الى الحديد مفرغاً في قالب الهياتين

أما الهيموغلوبين فهو مادة بروتينية يعلق بكل جزيء من جزيئاتها أربعة جزيئات من

الهيماتين وهذه المادة هي قوام الكريات الحمر في الدم . وهذه الكريات تمتصّ الاكسجين من الهواء من خلال انساج الرئتين الرقيقة وتنقلهُ في مجرى الدم الى خلايا الانساج فتأخذهُ منها وتستعملهُ لتوليد الحرارة اللازمة لافعال الجسم الحي . وترتدّ الكريات الحمر مثقلة بنتيجة الاحتراق — وهي ثاني اكسيد الكربون — فتطلقهامن خلال نسيج الرئتين وتمتص الاكسجين بدلاً منها . ولذلك يحتاج الجسم الى تنفس الهواء الطلق التي لكي يأخذ منهُ اكبر قدر من الاكسجين يحتاج اليهِ ، والى عدد معين من الكريات الحمر في كل سنتمتر مكعب من الدم حتى يستطيع ان يوصل الى خلايا انساجهِ المختلفة القدر اللازم لها من الاكسجين

***

والاسلوب الكيميائي الذي يتمّ بهِ فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانساج ، قوامهُ ان ذرّة الحديد في مركز جزيء الهيماتين متصفة بالقدرة على اجتذاب ذرة اكسجين اليها والاحتفاظ بها الى ان يحين موعد اطلاقها

ولما كان جزيء الهيموغلوبين مرتبطاً باربعة جزيئات من الهيماتين ، ففي قدرة جزيء الهيموغلوبين ان يجتذب اربعة جزيئات من الاكسجين . وكل كرية من كريات الدم الحمر تحتوي على عدد كبير من جزيئات الهيموغلوبين ففي وسعها ان تحمل من الرئتين الى خلايا الانساج عدداً كبيراً من ذرّات الاكسجين. وعلى ذلك يكون فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانساج فعلاً دقيقاً

وليس ثمة عالم يظن ان الشبه بين اليخضور واليحمور جاء اتفاقاً . والرأي الغالب ان الطبيعة ادركت في عصر ماضٍ بعيد ، عند ما كانت الحياة لا تزال في الدرجات الاولى من سلم ارتقائها ، فائدة ابدال ذرة المنغنيسيوم بذرة الحديد في جزيء الكلوروفيل فصار في وسع ذلك الجزيء — وقد صار مركزه ذرة حديد — ان ينقل الاكسجين ، وكذلك مهّدت الطريق لظهور الحيوان الاحمر الدم ، الذي نشأت منهُ الحيوانات العليا

وهذا الرأي ليس تصوُّراً مجرداً بل ان نتائج المباحث الحديثة تؤيده . فالانسان في أشدّ الحاجة الى مقادير يسيرة جدًّا من النحاس والمنغنيس في جسمهِ

وقد ثبت ان من شأن هذين العنصرين ان يؤثرا في تركيب الهيموغلوبين في مراكز معينة في العظام . ثم ظهر ان تركيب الكلوروفيل لا يتمّ في خلايا ورق النبات اذا خلا الورق من مقادير يسيرة جدًّا من النحاس والمنغنيس

والبحث في سرّ الالوان في الطبيعة أفضى الى كشف من أخطر الكشوف شأناً في علوم

الاحياء . وملخص هذا الكشف ان مادة الهياتين موجودة في كل جسم حيّ في البكتريا والشجرة المارِدة والموّارة (الاميا) والانسان . ومن الطبيعي ان يسأل القارىء لماذا لا يغلب اللون الاحمر على جميع الاحياء . والردّ على ذلك ان مقادير هذه المادة في معظم الاحياء يسيرة جدًّا لا تتبين العين لونها ، ولكن المطياف جهاز دقيق الاحساس وبهِ استدل العلماء على وجود الهياتين في جميع الاحياء

ومن الغريب ما كشفهُ البحث من ان الهياتين في الاحياء الدنية يفعل فيها فعلهُ في دم الانسان اي ينقل الاكسجين . ولكن الاسلوب يختلف قليلاً في الحالين . فجزيئات الهياتين تتناول الاكسجين من جزيئات أخرى وتنقلها الى جزيئات في حاجة اليهِ فيحدث تفاعل الاحتراق (الأكسدة) فينطلق قدر من الطاقة يمكن الجسم الحي من القيام ببعض أفعالهِ

وبذلك يصحُّ القول ان مادة اللون الاحمر في الدم كانت سبيلاً الى فهم سرٍّ من أسرار الحياة العويصة . واذا سار العلماء على الطريق السويّ في استيضاح هذا السر لم يقتصر فهمهم على فهم النشاط الحيوي في الكائنات بل تعداه الى فهم الاساليب التي يولد بها النور البارد مثلاً الذي يشبه نور الحباحب والاحياء المائية المضيئة ، فيوفر بذلك نحو ٩٠ في المائة من الطاقة التي ينفقها لتوليد الضوء الكهربائي

***

قلنا ان للون الاصفر شأناً عظيماً في فهم ناحية من أسرار الحياة . وقد تجلَّت منزلتهُ هذه في دراسة الجَزَر . فالمادة الملوَّنة المستخرجة من الجزر تعرف باسم كاروتينويد Carotenoid وقد ظلَّت هذه المادة المصدر الرئيسي لفيتامين A حتى تمكن الكيميائي الحيوي Kuhn من تركيبه بالتأليف الكيميائي

استخرجت مادة الجزر الملونة من جذور الجَزَر سنة ١٩٣١ ودعيت كاروتين ومن المسلَّم بهِ الآن انها خليط من ثلاث مواد اسماؤها كاروتين الفا وبيتا وجمَّا فاذا حلَّت تحوَّل اللون الاحمر الى اصفر كصفار الازهار الصفر ومُح البيض ولكن هذا لا يعني ان كلَّ مادة صفراء في النبات كاروتينويد ولا ان جميع المواد المعروفة باسم كارتينويد صفراء

غير ان اسرار هذه المواد لم تفهم إلاَّ بعد ان كشف ترتيب الذرات في جزيئاتها وبعد بحث دقيق في هذه الناحية ظهر ان جزيئها قوامهُ حلقة من ذرات الكربون والايدروجين تتدلى منها سلسلة من ذرات الكربون والايدروجين واحياناً من ذرات الاكسجين . ويلوح ان لطول السلسلة وكيفية ارتباط الذرَّات بعضها ببعض صلة باللون . واللون الاصفر هو الغالب فاذا حدث تغير يسير في مواقع الذرَّات وفي طول السلسلة تحول لون الجزيء الى برتقالي او

أحمر او الى أحمر بنفسجي او الى أزرق قاتم وهو نادر . فالمادة الحمراء في البطيخ والطماطم كاروتينويد قريبة الصلة بالمادة الصفراء الكاروتينويدية التي في الازهار الصفر . وفيتامين A كاروتينويد ايضاً ولكن لا لون له ولا نعلم سبب ذلك

***

في الحيوانات الفقارية تتحول احدى الكاروتينات الثلاث الى فيتامين A — ويلوح ان الكبد هي مقر هذا التحول — من جزيء اصفر الى جزيء لا لون له . وهذه الحيوانات لا تستطيع ان تحصل على المادة التي تحولها الى فيتامين إلاَّ من نبات يصنع هذه المادة الصفراء

ولا يخفى ان نقص فيتامين A في جسم حيوان ما يفضي الى ضعف مقاومة المرض وتكس البشرة والاغشية المخاطية ، وضعف البصر في الضوء الخافت ، وجفاف العينين وضعفهما واخيراً فقد البصر

والاتصال بين الحيوان والنبات لا يجب ان يكون مباشراً . فقد يأكل الحيوان مادة حيوان آخر تغذَّى بمادة نباتية فيها الكاروتينويد . و « زيت السمك » من هذا القبيل

ولا يخفى ان المادة الصفراء في الفواكه والخضر والازهار الصفر هي كاروتينويدات ولكن هناك مادة صفراء اخرى مثل فيتامين G تدعى (ريبوفلافين) وهي تستخرج من اللبن . والرأي ان هذه المادة الصفراء او هذا الفيتامين يطيل مدى الحياة اذ ثبت ان حياة الفأر والجرذ تطول متى كثرت هذه المادة في غذائهما

واللون الاصفر يعود بنا الى اللون الاحمر . فقد ظهر ان الريبوفلافين — الاصفر — صلة بين الفيتامينات والانزيمات . والانزيمات كما لا يخفى من العوامل الفعالة في زيادة النشاط الحيوي . فاذا ارتبط الريبوفلافين بجزيئات البروتينات الكبيرة مكنها من ان تزيد نشاط التفاعل الحيوي . واذن فالريبوفلافين الاصفر هو زميل الهياتين الأحمر في السيطرة على النشاط الحيوي

***

ما أحكم الحلقة التي صنعتها الطبيعة ! هوذا فيتامين A المتولد من المادة الصفراء لا غنى عنه للبصر السليم ، لأنهُ مادة اساسية في شبكية العين — لوحتها الحساسة . وهذا الأحمر الذي لا يستغني عنهُ الجسم متولد من يخضور الورقة الخضراء . ثم هوذا الهياتين والريبوفلافين يجهزان الجسم الحي بما يمكنهُ من تحطيم المواد التي يبنيها اليخضور فيولد من تحطيمها طاقة لا يستغني عنها الجسم الحي في افعاله الحيوية !

****

خليل مطران

شاعر العربية الابداعي

المبحث العاشر

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

****

آثار مطران

﴿ توطئة ﴾ : لم تخرج بعد مجموعة كاملة لآثار الخليل رغم شهرته العريضة في العالم العربي ، ورغم كونه في الكهولة من حياته لجهاده الأدبي طيلة نصف قرن تقريباً ، واشتراكه الفعال في نهضة الأدب العربي الحديث ، لم تنشر صحائفها جميعاً بعد . والقليل الذي نشر منها وطبع ، نفدت نسخه في حينه ، وأصبح اليوم جلّ آثاره نادر الوجود ، حتى ان بعضها لا تصيبهُ في دور الكتب العامة كدار كتب « بلدية الاسكندرية » فانها لا تحتوي على نسخة من ترجمة الخليل لمسرحية « عطيل » او « السيد » . كذلك لا تحتوي على نسخة من قصة « القضاء والقدر » التي نقلها الخليل عن قصة افرنجية ، ولا كتاب « الموجز في علم الاقتصاد » الذي ترجمه عن الفرنسية بالاشتراك مع المرحوم حافظ بك ابراهيم . على ان هذه الكتب بعد ذلك لو أصبتها محفوظة في خزائن « دار الكتب المصرية » وفي بعض الخزائن الخاصة ، فهي في حالة لا تسمح لها بالتداول وبالتالي بالذيوع والانتشار . وهذا ما يمكن قوله بخصوص الجزء الأول من « ديوان الخليل » النادر الوجود الآن ، وبخصوص بعض آثاره الأخرى ، نخص منها بالذكر ترجمته لمسرحية « تاجر البندقية » وكتابه « مرآة الأيام في التاريخ العام »،والمجموعة التي جمعها من مراثي الشعراء لمحمود سامي البارودي وبشارة تقلا باشا وترجمته لقصة « السيد » احدى روائع كورنيل العظيم . والاخيرة وان كانت محفوظة في خزائن وزارة المعارف المصرية — بعد ان طبعتها الوزارة لحسابها الخاص — الاّ انهُ لا سبيل الى الحصول عليها ، ولو ببذل الجهد الشديد (١)

---

(١) هامش الصحافي العجوز بالاهرام — عدد ١٩٨١١

ومن شأن هذه الندرة ان تبعد بين ابناء الجيل الذي نشأ بعد الحرب العالمية وبين هذه الآثار ، كما كانت بدورها سبباً من الأسباب التي وقفت بعد الحرب في وجه الاعتراف بما للخليل من الفضل على حركة التجديد في الأدب العربي[١] . ولم يكن ما نشر له في الصحف والمجلات في الحين بعد الحين كافياً لانشاء فكرة واضحة بينة المعالم والخطوط عنهُ

فاذا اخذنا موضع النظر آثار الخليل ، وجدنا ان جلها لم ينشر ، فمن ثماني مسرحيات او عشر ترجمها عن « وليم شكسبير » لم يقدم للطبع غير ثلاث : « عطيل » و « تاجر البندقية » و« هاملت» ولم يقدر للاخيرة الظهور ، كذلك من بين ترجماته لآثار « كورنيل» و« راسين» لم يطبع لهُ غير رواية « السيد » أخرجتها له وزارة المعارف المصرية . ومن منظوماته لم ينشر له مجموعاً في ديوان غير الشعر الذي نظمهُ في الفترة التي جاءت بين مستهل (يناير) سنة ١٨٩٤ وربيع (مارس) سنة ١٩٠٨ . وما جاء بعد ذلك التاريخ الى اليوم ، مما يشكل ديوان شعر في ثلاثة أضعاف حجم المجموعة الشعرية التي خرجت له ، لم ينشر على الناس مجموعاً في ديوان . هذا فضلاً عن أن هنالك قصة او قصتين ، ومسرحية مؤلفة — على ما يروى — لم تقدم للطبع . وان كانت قد صبت كلها في قالبها ، ورزوجعت المراجعة التي تؤهل تقديمها للطباعة . والى جانب جميع هذه الآثار ، هناك طائفة غير يسيرة من آثار الرجل النثرية وكتاباته الأدبية منشورة في صفحات المجلات والصحف ، ولا شك ان جميع هذه المواد لو جمعت ونظمت وروجعت ثم أخرجت للناس ، لكان من ذلك ثروة كبيرة للادب العربي الحديث ومغنم للفن الرفيع . وأظن ان هذا سيكون محل نظر محبي أدب الخليل — وهم كثر — من بين أبناء هذا الجيل

— ١ —

كان كتاب « مرآة الايام في التاريخ العام » أول أثر من آثار خليل مطران أُخرج للناس وقد جاء في جزءين كبيرين ، انتهى فيهما المؤلف الى أخبار أسوج (السويد) ونروج (النرويج) حتى سنة ١٨٩٦ . وخرج الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٨٩٧ عن مطبعة البيان في القاهرة في ٤٠٣ صفحات منها ٣٨٢ متناً والباقي فهارس (مسارد : عن بشر فارس) لمادة الكتاب. اما الجزء الثاني فقد خرج سنة ١٩٠٥ عن مطبعة الجوائب المصرية في ٤٢١ صفحة منها ٤١٢ متناً والباقي مسارد لمادة المتن . وخرج مع الجزء الثاني ، الأول في نفس التاريخ في طبعة ثانية. ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، أن الطبعة الثانية للجزء الأول خرجت صورة طبق الطبعة الأولى في صفحاتها وموضوعها وتوزيع الموضوع على الصفحات

والكتاب مصدر بقصيدة توجه فيها المؤلف (الناظم) الى خديو مصر عباس الثاني ،

(٢) انظر التوطئة من — المبحث الخامس — من هذه الدراسة

مقدماً الكتاب الى سموه. وهذه القصيدة تجدها ايضاً في الديوان(ديوان الخليل ١٢٦٦/٢٦٧)، وهي من بحر الطويل . ولكنها في الديوان تحمل تاريخاً يجعلها من آثار شهر يونيو سنة ١٩٠٦ (الديوان ٢٦٧ س ٢٠) . على اننا بعد ذلك نجد ان كتاب « مرآة الأيام » صدر عام ١٩٠٥ ، والقصيدة منشورة في صدره ، وهذا يرجع بتاريخ نظم القصيدة الى سنة ١٩٠٥، أعني الى قبل التاريخ الذي وضعهُ لها الناظم . وعلى هذا فيكون الوضع الطبيعي لهذه القصيدة بين قصائد الديوان ومنظوماته فيما بين قصيدتي « الطفل الطاهر » (الديوان٢٤٢/ ٢٥٠) و « نفحة زهر » (الديوان ٢٥١/٢٥٤) . والقصيدة في ثلاثين بيتاً منها أبيات يمكن ان تجري مجرى الأمثال السائرة لما فيها من عمق الفكرة وسداد النظرة والحكمة البعيدة (الديوان٢٦٧ : ١١) . وطريقة الناظم في هذه القصيدة ،ظاهرة بوضوح في مخاطبة خديو مصر بلا تحفظ ، وان كان في أدب يليق بمقام امير البلاد

اما الكتاب فمن فن التاريخ...، وموضوعه التاريخ العام. وفي صفحات جزءيه نرى الخليل يلخص في شيء من الاقتضاب الظاهر الآراء الذائعة (المشهورة) في تواريخ الأمم، بدون اتخاذه قاعدة يفحص على أساسها واستناداً اليها الحوادث والواقعات حتى يتميز الجانب الاسطوري من التاريخ عن الجانب الحقيقي

مثال ذلك كلام المؤلف عن العرب الجاهليين، فهو في العموم تلخيص لما هو شائع عن تاريخ الجاهلية عند كتّاب العرب الاخباريين، الذين وصلتنا آثارهم المدوّنة في القرن الثالث والرابع لتاريخ الهجرة . فما قيل عن العرب البائدة ثم العاربة والمستعربة ، تجد الخليل يردده، معتمداً على ما جاء في تاريخ أبي الفداء (مرآة الايام ، ج ١ ص ٧٢/ ٨٠) ، وهو كله من باب القصص التي حيكت من حول وقائع الجاهلية مع مرّ الزمان ، والتي كشف عن أوجه حوكها الباحثون في تاريخ الجاهلية العربية من المستشرقين . ولا أحب ان أتوسع في الدلالة على صحة هذا الكلام ، فهو معروف لابناء هذا العصر ولاسيما المتصلين منهم بمد الحركة التاريخية في العالم. غير أنهُ قد يقال في معرض الدفاع عن مطران ، أنهُ ألف هذا الكتاب ، في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وهو شاب يافع ، ولم تكن تحقيقات الباحثين من الافرنج في تاريخ العرب قد ذاعت في الاوساط الشرقية ، حتى يطالب الخليل بالاطلاع عليها ، فضلاً عن ان الرجل لم يكن مؤرخاً ، وما كان التاريخ بمادته . وهذا الكلام وإن بدا صحيحاً لدى النظرة الأولى ، الا انهُ لدى الحقيقة تبرير للنقص الملحوظ على كتاب الخليل . ثم إن العالم العربي شهد في نفس ذلك التاريخ جورجي زيدان صاحب الهلال ، يظهر تحوطاً في تقبل مزاعم مؤرخي العرب عن الجاهلية لانهُ كان صاحب عقلية تاريخية فاحصة ناقدة استكملت أسبابها من الارتياض

والاطلاع في كتب البحاث الغربيين . وذهن الخليل في هذا الكتاب ذهن آخذ بطريقة السرد والتقرير في فهم التاريخ ، يستند الى المراجع ، دون ان يمحص ويفحص ، ولا يحاول ان يستخلص العبرة التاريخية من وراء واقعات التاريخ . ولا يعرض للتيارات التي تفعل في كيان المجتمع وتدفعه ليلبس مختلف المظاهر التي يتكون التاريخ من مجموعها . فالكتاب من الآثار التدوينية في التاريخ . ومما يظهر منطق التدوين في تأليفه ان المؤلف اتخذ في تقسيم الكتاب الى فصول : الزمان ثم الممالك والاقطار في عهود حكامها او ولاتها الذين توالوا عليها أساساً . فالكتاب بعيد عن كونه كتاباً تاريخيًّا في الروح ، وان كان له بعد ذلك من التاريخ الاسم!

فالكتاب من الحوليات —Annales— واما ميزته ، فميزة الأسلوب الذي هو نموذج للاسلوب التاريخي في العصر الذي كتب فيه . فهو يمتاز بالدقة والتحديد والوضوح في التعبير ، الى جانب بعض الخصائص الأدبية التي يمتاز بها أسلوب مطران عادة في النثر ، وأظهر ما يكون منها في أسلوب هذا الكتاب الجزالة والقوة ولا عجب فالخليل تلميذ الشيخ اليازجي امام اللغة العربية في عصره وعلى طريقة اليازجي في اللغة نشأ وتقوم أسلوبه على أساس من العربية الفصيحة الجزلة

***

جمع مطران مراثي زملائه الشعراء للمرحوم محمود سامي باشا البارودي في كتاب أخرجه للناس سنة ١٩٠٦ . ولا يهمنا من هذه المجموعة الشعرية الرثائية غير شيئين : الاول مرثاة الخليل لسامي البارودي . والآخر الدلالة النفسية لعمل الخليل . أما عن الامر الاول ، فالمرثاة — كما يرى الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — خير مرثاة نظمت في وفاة سامي البارودي وقد جاءت في ديوان الخليل (الديوان ٢٣٨ / ٢٤١) وهي من بحر المتقارب وفي القصيدة يظهر مطران ممتلكاً فن الرثاء فيمكنك ان تخلص من قصيدته بصورة صادقة الدلالة على نفسية سامي البارودي وشخصيته ثم حياة الرجل وجهاده . والاساس في هذا ما بثهُ الشاعر في المرثاة عن طريق الوصف من حياة الفقيد . والقصيدة في (٦٤) بيتاً فيها اوصاف وتصاوير فنية وتهاويل شعرية تتمشى مع فكرة الرثاء لانسان جمع بين الوزارة والفروسية والشاعرية . ولقد استوقفت هذه القصيدة بأوصافها نظر المستشرق العلامة الدكتور كارل بروكلمان في الفصل الذي عقده عن مطران في الجزء الثالث من « تكملة تاريخ الآداب العربية » وهي الى جانب ما فيها من قوة الوصف القائمة على اتساع الخيال ، قوية في بنائها وفي اسلوبها جزالة وتفخيم وقوة ، تكرّ الابيات بسهولة تحمل في اعطافها ، عاطفة خالصة تجيء من شعور الانفعال بالحزن . ولكن واضح أن العقل ضبط من تأجج هذه العاطفة فخلخلها . ففقدت بذلك تأججها ، وهكذا لم تأتِ نيراناً

مندلعة من القلب ، وانما جاءت نوراً انعكس على حياة الفقيد فأبرزها . واما الامر الثاني فيقع على ما يحمل هذا العمل من شعور وفاء الخليل نحو علم من اعلام الادب الحديث ، خدم الشعر العربي الاتباعي وقدَّم اليهِ اعظم ما يقدر ان يؤديها انسان نحو أدب قومهِ فلقد نقل الشعر العربي دفعة واحدة من ضعف عصور الانحطاط الى جزالة وفخامة الشعر العربي القديم

والكلام عن المجموعة التي اخرجها الخليل من مراثي الشعراء لسامي البارودي ، يحملنا على الرجوع الى مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا فقد حدثنا الاستاذ النقادة صديق شيبوب فقال : انه وقف في خلال أيام الحرب العالمية على مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا . وهو يذكر ان الخليل هو الذي أصدرها . على ان هذا ان صحَّ فلاشك ان قصيدة مطران في رثائه خرجت ضمن المجموعة . والواقع انهُ لايهمنا من شأن هذه المجموعة غير قصيدة مطران . وهي منشورة في المجلة المصرية (م ٢ ج ٣ ص ١٠١ /١٠٣) وقد نقحت وشذبت ونشرت بعد ذلك في الديوان (١١٧/١١٩) والتشذيب يتناول على وجه خاص ختام القصيدة . فقد حذف الخليل ، خمسة أبيات جاءت في الاصل المنشور بالمجلة المصرية وأثبت مكانها البيت الذي يختم بهِ قصيدته في الديوان . والمرثاة من بحر الطويل ، وفي ٣٣ بيتاً في الديوان و ٣٧ بيتاً في المجلة المصرية . ولا تتميز باكثر من عاطفة الوفاء نحو الفقيد (المجلة المصرية . ص ١٠١ / ٣٢:١٠٣—٣٤) ومما يحسن الاشارة اليهِ هنا ، ان الابيات التي تدل دلالة صريحة على هذه العاطفة ، حذفت من النص المثبت في الديوان . ولا شك ان محبتها شخصية هي التي أملت على الخليل فكرة الحذف

— ٢ —

في سنة ١٩٠٨ أخرج خليل مطران الجزء الأول من ديوانهِ « ديوان الخليل » عن مطبعة المعارف بالقاهرة ، فجاءت في ٣٠٢ صفحة من قطع الثمن . والديوان يحتوي على ١٦٤ منظومة متفاوتة المقدار (الطول) ، فضلاً عن بيان موجز من قلم الناظم استغرق صفحتين وبعض صفحة في اول الديوان ، فيها اشار الى طريقته في النظم والاسباب التي دعته الى قرض الشعر . ويمكن ان يُضَمَّ الى هذا البيان قصيدة «حكاية نشر هذا الديوان» (ديوان الخليل ٢٩٠ /٢٩٤) ففيها توضيح وتأكيد لأغراض الشاعر من النظم والأسباب الدافعة له للقريض . والديوان مصدر بكلمات ثلاث يتوجه بها الناظم في كل واحدة الى بعض خلانه من الأكابر يقدم اليهم الديوان . وفي الكلمة الثانية والثالثة يعبر الناظم عن فكرة اهداء الديوان وتقدمه في بيتين من الشعر . وبعد ذلك تجيء مقدمة الديوان وهي ثلاثة اسطر وجيزة ، فيها براعة التقديم للقراء . والديوان اول ما يطالعك من منظوماته قصيدة «١٨٠٦—١٨٧٠» اشارة الى معركة (يانا Jena) ودخول نابليون برلين في الشق الاول ، والحرب السبعينية ودخول الالمان باريس في الشق الآخر

وقد نظمها الشاعر — على حد قولهِ — سنة ١٨٨٨ ، وهو في السادسة عشرة من سني حياته . فهي من آثار الصبا . والناظم في هذا يقول : « ولقد نشرتُها على علاتها اتنسم نسمات صباي من خلال سطورها » (الديوان ص٩ سطر٥—٦) . وان كانت طبيعة القصيدة الشعرية تدل على حالة الناظم العقلية والنفسية ، فان دراسة هذه القصيدة في اجزائها المنفصلة تبين ان خيال الشاعر مربوط بصور الاشياء وأوصافها . ينتزعها قطعة قطعة ، ويصبها في البيت ، مستكملاً الصورة في البيت مستقلة عما بعدها وقبلها ، متأثراً بالقوالب العربية التقليدية ، فهي من هنا تبين ان الناظم كان في سن التقليد والمحاكاة ، لم تستقم لهُ بعد طريقة في النظم تقوم على اساس تكوّن شخصيته المستقلة . على انهُ بالرغم من كونه لم يخلص بشخصية مستقلة في ذلك الحين ، فأغراض القصيدة ومعانيها تبين انه كان في حالة نضوج مبكر

ويجيء بعد ذلك قصيدة قوامها اثنا عشر بيتاً من البحر الخفيف عنوانها «في تشييع جنازة » (الديوان ١٢) نظمها الشاعر في مستهل (يناير) سنة ١٨٩٤ من الطريقة التي خلص بها في النظم نتيجة نضوج فكره . وهي ان كانت فيها بدايات فن الخليل الذي عرف به ، لكنها في صورة بدائية ، لا تثبت للخليل مقدرة ممتازة في عالم القريض . على ان هذا الضعف قد يكون مبعثهُ ان القصيدة كانت اول ما نظمهُ بعد الترك الطويل كما اشار الى ذلك في تقدمة القصيدة (الديوان ص١٢ س٣—٤) . وتتوالى المقطوعات والقصائد بعدها في الديوان ، وكلما تقدم الباحث في صفحات الديوان ، وقف على آثار التقدم والنضوج في شعر الخليل ، وأول هذا النضوج قصيدته الوصفية الرائعة «المرآة الناظرة او عين الأم» (الديوان ١٣/١٤) ، ففيها براعة الوصف والاقتدار على التصوير

والديوان يحتوي على ٣٥٧٥ بيتاً مفرداً كاملاً من الشعر و ٣٧ سطراً من الشعر المنثور (النثر التوقيعي) Prose rythmée و ٢٦١ قدة خماسية و ٨٣ قدة ثلاثية وبالجملة ٤٤٦٤ بيتاً من الشعر

وبمراجعة القصائد يتبين ان المتوسط للقصيدة في الديوان ٢٧ بيتاً . أما اذا استثنينا ما جاء في « المزدوجات » ، فاننا نجد المتوسط يرتفع الى ٣٢ بيتاً . وهذا يثبت ان الصفة الغالبة على شعر الخليل القدر المتوسط وما يميل منها الى الطول . ومما يثبت صحة هذا الكلام ان جزءين من خمسة أجزاء من شعر الديوان تقريباً يجيء في القصائد المتوسطة الطول . ويليها في المقدار القصائد الطويلة فهي تجيء جزءين من تسعة أجزاء مما يثبت ان الصفة الغالبة على قصائد الديوان القدر المتوسط وما مال منها الى الطول

هذا الاستقراء يثبت ان نفس الخليل في الشعر طويل ، ولا يجب ان ندخل في حسابنا الشعر الافرنجي ومقدار طوله ، فان خلوص الشعر الاوربي من التزام القافية الواحدة في القصيدة أفسح للشاعر الاوربي مدى لا يمكن ان يفسحهُ للشاعر العربي الشعر العربي الذي يلتزم قافية واحدة في

القصيدة. واذن يكون مرد هذا الحكم ملاحظة اعتبارات الشعر العربي، واستقراء مقدار (طول) القصائد العربية . وهذا وحده هو الذي يملي علينا الرأي في طول النفس الشعري عند الخليل

واستقراء الابحر التي جاء فيها شعر الخليل ، تثبت ان أكثر الابحر شيوعاً في شعره ، الكامل فالطويل فالخفيف فالمتقارب فالمجتث . وهذا الاستقراء مبني على تقطيع أوزان قصائد ثلثي الديوان الاول تقريباً ، اعاننا في اجرائه أخي الشيخ ابراهيم بمعهد الاسكندرية الديني (القسم الثانوي) ثم اثبت الاستقراء الكامل لشعر الديوان — وقد اعاننا عليه الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — أن شعر الديوان يجيء في العموم من أبحر محدودة المطرد منها في شعره ، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها (المبحث التاسع — الفقرة الاولى) . فاذا نظرنا الى اغراض (موضوعات) شعر الديوان ، وجدنا الصفة الغالبة عليه الوصف، والواقع ان الخليل شاعر وصاف من الطبقة الأولى ، ومن فنّ الوصف عنهُ يتفرع شعر القصص والرثاء والوجدان ، ويجيء ما يجيء من شعر المناسبات . فمن بين ١٣٠ منظومة تقريباً من منظومات الديوان جاءت نحو ٦٠ منظومة من الوصف ، وتبلغ مجموع أبياتها ١٣٧٤ بيتاً و١١ منظومة من باب القصص تبلغ مجموع أبياتها ١٢٥٢ بيتاً و ٢٥ منظومة من باب الرثاء تبلغ مجموع أبياتها ٧٢٦ بيتاً و٢٣ منظومة من الاغراض الوجدانية ، تبلغ مجموع أبياتها ٤٥٧ بيتاً . اما شعر المناسبات ، فهو يجيء من باب الوصف. وعدد منظوماتها في الديوان ١١ منظومة تبلغ عدداً بياتها ٢٤١ بيتاً . وهذا الاستقراء يبين ان الغرض الوصفي والقصصي غلابة على قصائد الديوان(١)

— ٣ —

من الأهمية في مكان وقد تكلمنا في الفقرة الثانية عن بحور شعر الخليل في الديوان وأغراضهِ ، ان نستعرض هنا في صورة مجملة شعر الديوان ، وقد سبقت الاشارة الى قصيدتي مطران في رثاء بشارة تقلا باشا وسامي باشا البارودي ، وقصيدتيه اللتين يستهل بهما الديوان من الاغراض الجديدة التي نظم منها الشعر بعد عودته اليها بعد الترك الطويل . وهكذا نجد ان القصيدة « بدري وبدر السماء » (الديوان ١٤/١٥) أولى القصائد التي تصادفنا في استعراضنا لشعر الديوان . وهي في ٢٨ بيتاً جاءت من بحر « المجتث » ، وليس فيها ما يستوقف النظر من براعة النظم او القدرة على الوصف ، وان كان فيها عاطفة ظاهرة تترقرق مع كرّ أبيات القصيدة. ويجيء بعدها حسب الترتيب الموضعي والزمني في الديوان قصيدة « فاجعة في هزل » (الديوان ١٦/١٧) . وموضوع القصيدة ان شباباً في قرية من قرى لبنان ، اجتمعوا للمنادمة في دار أحدهم ، فسمعوا بجوارهم حفلة نسوة وغناء ، فأرادوا ان يتحايلوا عليهنَّ ويفوزوا بالاجتماع

(١) المقتطف: وضع الدكتور ادهم جدولين نفيسين استقرائيين سياعقال بهذه المجموعة متى ظهرت في كتاب على حدة

بهن . فيموت أحدهم ، وانسحب الباقون ، وهرعت النسوة وقد راعهن المصاب النازل ، وطفقن يبكين الحي الميت . فما كان من صحب الراقد الا ان أسروا اليهن بحيلتهم في دعوتهن اليهم ، فخفلن حول سرير الراقد يعاتبنهُ ويهزنهُ ، ولـكن بلا جدوى ، فقد ذهب الراقد ينام النومة الأبدية . وهكذا تحول فرحهن الى مناحة وسرورهم الى بكاء . والقصيدة أتت في ٢١ بيتاً من الشعر من بحر الـكامل ، ومعانيها تجري في اكسيتها اللفظية بجلال ، وتكر بسهولة كالنهر الواسع العميق . وقد ساعد على ذلك اتساع البحر ورحابته . وهذه القصيدة نشرت في مجلة أنيس الجليس (م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧/٣٢٨) في صيغة تختلف بعض الاختلاف عن الصيغة التي جاءت في الديوان . وأبرز ما يكون الاختلاف بين الصيغتين في مختم القصيدة . فالابيات الخمسة التي في الختام بالديوان ، ليست موجودة في الاصل المنشور بمجلة أنيس الجليس ، ويجيء بدلاً عنها ، ثلاثة أبيات أخرى لم يثبتها الناظم في الديوان . كذلك البيت الحادي عشر في قصيدة الديوان لا وجود له في الاصل المنشور بأنيس الجليس ، فضلاً عما هنالك من الاختلاف في التعبير والصيغ لبعض أبيات القصيدة . ويستوقف النظر بعد ذلك من منظومات الديوان قصيدة « نابليون وجندي يموت » (الديوان ٢٢/٢٤) وهي في ٤٠ بيتاً من بحر الوافر . ويغلب عليها جانب الوصف . ويجيء بعدها بيتان من الشعر من بحر الـكامل عن « نابليون وهو يرقب السماء في أخريات أيامه » وهي على الارجح مترجمة عن فيكتور هوغو

ولمطران في الديوان تهنئة لخديوي مصر على أثر فتح السودان (الديوان ٣٥/٣٦) جاءت من بحر الـكامل . والجانب الوصفي غالب على بقية الجوانب فيها . وله بعد ذلك بعض مقطوعات وقصائد لا يستوقف النظر منها غير قصيدته « النجمتان » (الديوان ٣٣/٣٤) و« الوردتان » (الديوان ٣٥/٣٧) وقد جاءتا من بحر المجتث ، والصفة الغالبة عليها ، الوصف اما الثانية ففيها سوانح فلسفية من المذهب الفلسفي المعروف باسم الاسمية Nominalism (القصيدة ٣٥/٢:٧) وفيها أثر التوفيق والجمع بين الاضداد ، واعتبار الخليقة جمعاً لها وعملاً على موازنتها

ويستوقف النظر بعد ذلك قصيدة مطران في «وداع مصر» (الديوان ٧٤/٧٥) وقصيدته في « لقاء الشام» (الديوان ٧٥/٧٦) و« تذكار صبي » (الديوان ٧٦/٧٩) والاولى والثانية من بحر الرجز ، بينما الاخيرة من بحر الخفيف . وقد سبقت الإشارة الى هذه القصائد في غير هذا المـكان عند الـكلام على قصة حبه . ويجيء بعد ذلك قصيدته عن « الأهرام »(الديوان ٨٣) وقد نظمها الشاعر في ربيع عام ١٩٠٠ على أثر زيارة له لاهرام سقارة ، والقصيدة من بحر الرجز ، فيها قوة الوصف والتصور وسعة اللوحة وبروز الألوان . وتأتي بعدها قصة « وفاء» (الديوان ٨٤/٨٨) جاءت من بحر الطويل وبلغت اياتها ٨٧ بيتاً . وقد نشرت في الأصل

في المجلة المصرية (م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩/٥٠٣) وهنالك بعض الاختلاف بين ما جاء في الديوان، وما جاء في المجلة المصرية وأبرز هذه الاختلافات قول الشاعر (ص ٨٤ س ٥ — ٧) :

ولو شئت قال الحب امرة قادر لجدب هذا العيش أزهر وأمرع
وللقفر كن صرحاً مشيداً لأنسها وللصخر كن روضاً وأورق وأفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي لها أنجماً إن تقرب الزهر تسطع

فهي في الاصل المنشور بالمجلة المصرية جاءت هكذا :

ولو شئت قال الحب امرة قادر لجدب هذا العيش يزهر ويمرع
وللقفر كن نساً لها فهو كائن وللصخر كن روضاً فيورق ويفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي شموساً واقماراً عليها فتطلع

والقصيدة — كما يقول مطران — أخذ طريقتها من الغربيين (المجلة المصرية م١ ج١٥ ص٦١٦) ولم يتقدم قبل الخليل شاعر عربي في كتابه القصة الشعرية على هذا النمط (المرجع ذاته ص٦١٥). وموضوع القصة ليس من وضعه ولكن سمعها الناظم من احد اصدقائه، فأدار فكرتها في ذهنه حتى اخرجها في الكساء الذي ترفل فيه. ومما يمكن ان يؤخذ على هذه القصة ان الناظم نسي الإشارة متعمداً الي كون قرين الفتاة العوادة التي تحكي القصة حكاية حالها، بادناً دموي المزاج مع قلق في العاطفة وتقسم في القلب. وقد كانت هذه الاشارة لازمة لاعداد الاذهان لتصديق ما حل به على اثر وفاة قرينته. على ان مطران يدفع هذا المأخذ، بأنهُ اضرب عن ذكر ذلك متعمداً، لأن موقع الالفاظ الدالة على هذه المعاني تقع موقعاً سيئاً من الشعر (نقد القصيدة في المرجع السابق ذكره) . ويظهر ان مطران قد شجعهُ نجاحه في نظم الشعر في الغرض القصصي، فنظم بعد قصيدة «وفاء» قصيدتين قصصيتين، الاولى « العقاب » (الديوان ٩٢/٩٧) وهي في الاصل منشورة بمجلة سركيس (م١ج ١٦ ص ٤٨٩/٤٩٣) وقد جاءت من بحر الطويل في ٩٥ بيتاً، والاخرى « فنجان قهوة » (الديوان ١٢٣/١٢٨) وهي في الاصل منشورة بالمجلة المصرية (م٢ج ٢٠ ص ٨٤١/٨٤٦) وقد جاءت من بحر الكامل في ١٠٤ ابيات. وفي هاتين القصيدتين تظهر قوة الخيال الشعري وامتلاك الخليل لفن القصص الشعري

وفي النطاق الذي بين القصيدتين، قصيدة « المساء » (الديوان ١١٩/١٢١) وهي من أروع القصائد الوجدانية التي في الديوان. جاءت من بحر الكامل، في ٤٠ بيتاً نظمها الشاعر وهو عليل في مكس الاسكندرية، وهو يظن نفسه مريضاً بنفس الداء الذي ماتت بهِ مشوقته (الديوان ١٨٦) ومن هنا نجد ارتباطاً بين هذه القصيدة وبين قصيدة « من ماتت بدائه » (الديوان ١٨٦) . وهذا الارتباط يوحي بأن نعتبر هذه القصيدة من منظومات قسم « حكاية

عاشقين» (الديوان ١٥٦/١٩٥) التي سجل فيها مطران قصة حبه ، لأنها تصور حالته الشعورية في حالة الحب مع الحبيبة وبعد فقده لها

ولمطران قصيدة عن حرب البور عنوانها «حرب غير عادلة وغير متعادلة » (الديوان ١٤٧/ ١٥٣) وقد جاءت من بحر الكامل وهي تصور في دقة وقوة وقائع هذه الحرب وله كذلك في اول نشوب حرب البوير قصيدة «الطفلة البورية» (الديوان ١٣٧/١٣٩) . وفي استئنافها قصيدة اخرى عنوانها « في استئناف حرب جائرة » (الديوان ٢٢٢/٢٢٣) . والاولى من بحر المجتث والاخيرة من الرمل . وهذه القصائد الثلاث تنطوي على شعور الشرق العربي ومصر ازاء هذه الحرب والعطف الشعري أساسه الاشتراك في النقمة من العدوان الواقع على جنوب افريقية والشرق العربي وفي هذا يقول (الديوان ١٤٧ س ٥—٦) :

بين الذين يقاتلون وبيننا قربى النقم
من يستبحهُ عدوُّنا فله بنا صلة الرحم

ويستوقف النظر من منظومات الديوان في القسم الذي يجيء قبل « حكاية عاشقين » التي تشغل حيزاً مستقلاً في قلب الديوان . وبعد قصيدة مطران عن حرب البور، قصيدته القصصية «فتاة الجبل الاسود» (الديوان ١٥٤/١٥٨) وهي من بحر المتقارب بلغت جملة ابياتها ٧٣ بيتاً وفيها وصف دقيق لمعارك الترك مع اهل الجبل الاسود وبسالة هؤلاء في الدفاع واقدام الآخرين على الهجوم. ومن بين المعارك يبرز فتى مشرق الجبين ويكر على جموع الترك ويعمل فيهم السيف طعناً ، حتى يحيط بهِ جموع الترك ويأخذونه أسيراً الى حيث امير الجيش التركي الذي يصدر الامر باعدامهِ ، فيشق الفتى عنهُ ثيابه بعد ان يقصي عنهُ حراسه ويظهر للجمع أنهُ فتاة كعاب ، وتصرخ في وجه جحافل الترك مندده بعدوانهم على قومها ، وان شعور نصرة ابناء جلدتها ، هو الذي دفعها الى هذا المسلك الخشن. فيأخذ العجب بالامير ويأمر ان تنقل الى مضرب وتكرَّم ويقول لمن حوله : ان بلداً تفتديه النساء كهذا الفداء لن يستعبد. وفي القصيدة وصف رائع لموقف الفتى حين أتوا بهِ الى محضر الامير ، وكيف كشف عن نفسهِ الغطاء فاذا بهِ فتاة حسناء وفي وصف حسنها يبلغ الناظم الأوج. والابيات التي تصف حسنها اجرت مجرى الشعر الذائع فتناقلتها المجلات والصحف (الزهور م ٢ ج ٦ ص ٣١٥ مثلاً) . وأبرز ما في هذا الوصف ، وصف الشاعر لنهدي الفتاة

ومن القصائد الوصفية التي في القسم الاول من الديوان ، وهي تدل على مقدرة الخليل على الوصف، قصيدة في « فنجان قهوة » (الديوان ١٢٩/١٣٠) وهي في ١٩ بيتاً من بحر الكامل تدل على قوة في الخيال وسعة في ملكة التصور، يكاد لا يقف فيهما بجانب الناظم أحد من الشعراء المعاصرين . والقصيدة منشورة في الاصل بالمجلة المصرية (م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨/٩٩٩)،

ويظهر أن بيتاً سقط من النص المنشور بالديوان وهو :

أفما ترين عوالم الفنجان في أطوارها كعوالم الوجدان

وموضعهُ من القصيدة بعد البيت الرابع فيها

تشغل «حكاية عاشقين» القسم الثاني من الديوان (الديوان ١٥٦ / ١٩٥) ، فتفصل الديوان الى شطرين. ومعظم شعر هذا القسم تغلبهُ الناحية الوجدانية، وان لم يخلُ هذا الشعر الوجداني من أبيات او مقطوعات وصفية. وقد سبقت الاشارة الى شعر هذا القسم حين الكلام في قصة حب مطران

اما القسم الثالث والاخير وهو الذي يجيء بعد حكاية عاشقين، فأول ما يستوقف النظر منهُ قصيدة « الجنين الشهيد » (الديوان ١٩٩/٢١٨) وهي قصيدة قصصية جاءت من بحر الكامل وعدد أبياتها ١١٦ مخمساً . وتعتبر هذه القصيدة أروع ما في الديوان، بما فيها من التصاوير الشعرية والاوصاف الفنية والأخيلة المجنحة والاحساسات الجياشة . على انهُ يلاحظ على هذه القصيدة ان الناظم استقصى المعاني والمشاعر والاحاسيس وسبرها الى غورها، ومن هنا جاء ما في الوصف من الدقة التحليلية والمبنى القوي ، والابيات تكر بسهولة، رغم طول القصيدة ، تجمعها وحدة الموضوع والفكرة المتمشية في أبيات المنظومة . على انهُ يلاحظ بعض العيوب العروضية في المنظومة ، اضطرَّ اليها الخليل لاطراد الفكرة معهُ وتسلسلها ، وأظهر هذه العيوب التضمين في تعليق بعض الابيات بما بعدها (القصيدة ٣٣ و ٦٩ و ٨٩)

وتجيء بعد هذه القصة قصيدة « الاقتران » (الديوان ٢١٩/٢٢٣) وهي من بحر الخفيف مخمسة ، وفيها وصف رائع لخلق حوَّاء من ضلع آدم . فالقصيدة القصصية « غرام طفلين » ، (الديوان ٢٢٣—٢٢٦) وهي في ٣٤ بيتاً من بحر الكامل ، وفي هذه القصة براعة الوصف والتعمق فيه الى أقصاه ، وهذا ما يظهر في المقطوعة الثانية من القصيدة، التي تريك المظهر الاول لحب الطفلين. وقصيدة « حلوى العيد» (الديوان ٢٢٧ / ٢٢٨)، هي ٢٢ بيتاً من بحر الكامل وفيها يظهر عنصر الدعابة البريئة والملاطفة ، ثم يبدو من خلال ابياتها عنصر الرقة . وفيها وصف شائق لسرب غيد اجتمعنَ لصنع حلوى العيد . ثم تجيء بعدها قصيدة «الطفل الطاهر والحق الظاهر» (الديوان ٢٤٢ / ٢٥٠) وهي مخمسة من بحر الكامل ، وفي هذه القصيدة انتصار لحقيقة روح الدين التي تغيب عادة عن رجاله ، وحملة على الجامدين من رجال الدين ، وقد سبقت الاشارة الى هذه القصيدة . أما قصائد مطران عن « عنترة » و (الديوان ٢٦٢ / ٢٦٤) و « شيخ أثينة » (٢٦٤ / ٢٦٦) و «عرس قانا» (الديوان ٢٦٩ / ٢٧٠) و «رثاء الشيخ ابراهيم اليازجي» (الديوان ٢٧٤ / ٢٧٦) فتستوقف النظر من بين قصائد القسم الاخير من الديوان بأخيلتها وصورها . ويجيء في هذا القسم من الديوان سطور من الشعر المنثور (الديوان ٢٧٦ / ٢٧٨)

في الرثاء، وقد توقف عندها البروفسور بروكلمان (تكملة تاريخ الآداب العربية، ج٣ ص٩١) وقرر ان الناحية الغالبة عليها، الناحية التأثرية، وان التأثر واضح فيها بوالت ويتمان Walt Whitman الشاعر الاميركي، الذي كان عظيم التأثير في شعراء المهجر في أميركا

ويختتم الديوان بقصيدة « حق الوطن وحق الآخاء » (الديوان ٢٩٨/٣٠٢) وهي في ٩٥ بيتاً من بحر الكامل، وتعتبر آية في الاعجاز، وهي في رثاء مصطفى باشا كامل رجل الشرق المفرد وبطله الاوحد، كما يقول الناظم (الديوان ٢٩٧) . وفي القصيدة بيتان من الشعر يعتبران مثالاً للوضوح الشعري والبلاغة السافرة . وهما قوله : —

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنني بالقبر أصبح منبراً وكأنني بك موشك ان تهتفا

فهنا صورة كاملة تلهمك إياها بخفة السحر هذين البيتان رغم ما فيهما من السهولة في التعبير التي تكاد بوضوحها تشف عن معانيها . وقد توقف عندها معجباً المستشرق الروسي كزميرسكي في كتابه (« منتخبات من الادب الحديث » ج ١ : ص ١٦ الهامش — موسكو ١٩٣٧)

خاتمة

ولما كان الشعر الذي نظمه الخليل بعد خروج ديوانه، متفرقاً بين صفحات الصحف والمجلات، وسبق ان أثبتنا في المبحث الثامن ما أمكن لنا العثور عليه أثناء تنقيبنا في صحف الجيل الماضي وهذا الجيل، فنكتفي هنا باثبات ما لم يتسنَّ لنا اثباته هنالك من باب التسجيل التاريخي[1]. ١ — « تحية الطيارين العثمانيين » (المقطم — الاسبوع الثاني من مايو ١٩١٤) ٢ — « عظة العيد » (الروايات الجديدة م ٢ ج ٣٤ ص ٤١٣ — ٤١٦ ، القيت في فندق شبرد بمناسبة عيد الدستور العثماني) ٣ — « غضبة التمثال » (المصور ، العدد ٧ ص ٢ — ٥ ديسمبر ١٩٢٤) ٤ — « أناشيد وطنية » (الهلال نوفمبر ١٩٣٩) ٥ — « الشباب المنقضي والصداقة الباقية » (الروايات الجديدة ، السنة الثانية ، العدد ٣٢ ص ٣٥٢/ ٣٥٥) ٦ — « الحياة الحب » (السياسة الاسبوعية) « السنة السادسة » عدد ٧٤١ ص ١٨

وهذه القصائد بالاضافة الى ما سبق اثباته وما سيجيء في لحق المبحث، تحصر ما تفرق من شعر الخليل على صفحات المجلات والصحف، ودراسة هذا الشعر واستقراء أغراضه وأنواعه وأبحره من الصعوبة في مكان، لانهُ غير مجموع في ديوان، ولهذا صرفنا النظر عنهُ مكتفين باستقراء شعر الديوان واستعراض منظوماته

* * *

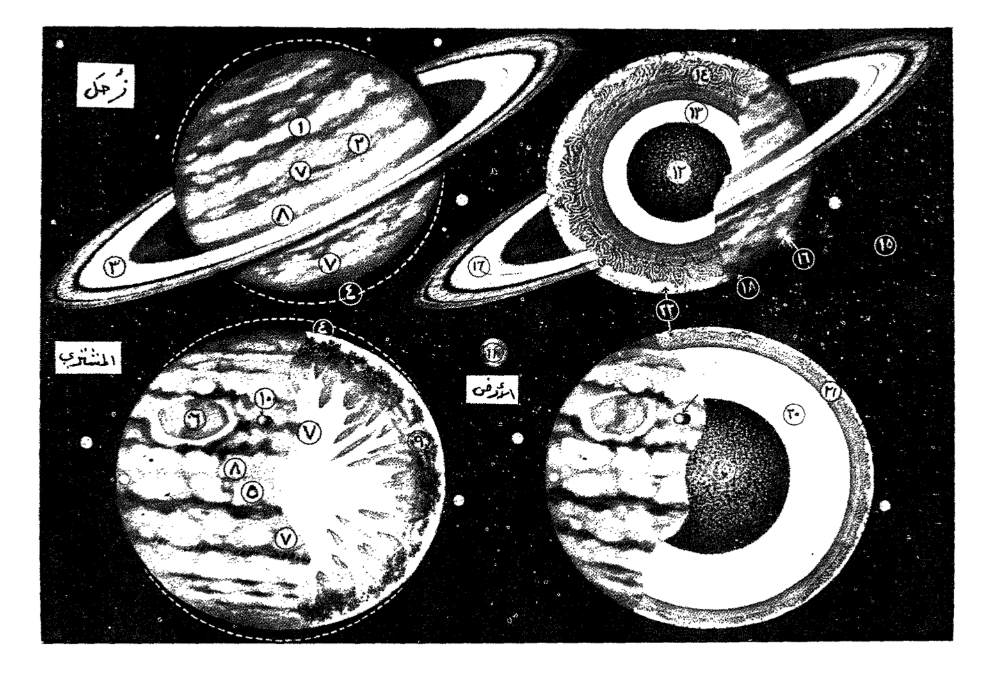
في سنة ١٩٢٢ أخرج الخليل عن دار الهلال بالقاهرة ترجمةً لمسرحية « تاجر البندقية »

(١) أنظر الملحق (سيجيء بعد في ختام الدراسة)

وقد قدم للترجمة بمقدمة (٣ / ٨) تكلم فيها عن أصل القصة ، وبين أنها أحدوثة جرت على الألسن بايطاليا ، ثم تداولتها نقلاً عنها سائر الأمم . وعرض لقصة كتابة شيكسبير لها فقال : « طالعها شيكسبير ، فما أجالها في ذهنه حتى طفق يهيء أجزاءها ويرتب مشوقاتها ويصل بين أوائلها وأواخرها . وصور حادثة انسانية شعرية معطياً إياها من الجدة والندرة ما رفعها الى أروع ما أبدعتهُ القرائح » (المقدمة ٣) . والمسرحية على الغالب مترجمة عن الفرنسية ، وفي هذا يقول ميخائيل نعيمه في الغربال : « لقد لاح لنا من غضون بعض سطور (ترجمة الرواية) ان (مطران) نقلها عن ترجمة افرنسية لا عن أصلها الانكليزي. » (الغربال ١٩٦ ص ١٧ — ١٨) وقد أكد هذا توفيق حبيب في الفصل الذي عقده عن تراجم شيكسبير في العربية بمجلة الهلال (م ٣٦ ج ٢ ص ٣٠٣ / ٣٠٤) . ويظهر ان نتيجة هذا ، كان تسرُّب بعض التعابير والالفاظ الفرنسية الخاصة بالترجمة الفرنسية الى الترجمة العربية . من ذلك — كما يقول نعيمة — استعمال كلمة « موسيو » في الترجمة العربية ، واعتبار لفظ « لطيفة » عربيًا وكأنها ناظرة الى Gentile في الانكليزية . (الغربال ١٩٦ / ١٩٧) . على ان مطران بعد ذلك تمكن من استيعاب اغراض وليم شيكسبير في مسرحيته فنجح في نقلها الى العربية وأداها بأمانة تكاد تبلغ حدّ الكمال . والواقع انهُ على الرغم من جميع ما أخذ صاحب الغربال على ترجمة الخليل فانهُ لم يكتم نفسه عن الاعتراف بأن الخليل « أوفر كتاب العربية مادة وأتمهم عدّة لتعريب شكسبير »

وقد جاءت الترجمة العربية في اسلوب فخم جزل قوي ، ويظهر ان المترجم وضع نصب عينيه « الكساء اللفظي الخليق بأن تكتسي بها ارواح المعاني الشيكسبيرية » ومن هنا جاءما في الترجمة من شوارد الالفاظ وأوابدها ، التي جعلت البعض يأخذ عليه تعقد الترجمة (الغربال ٢٠١ / ٢١٢) أما ترجمة الخليل لمسرحية « عطيل » فقد خرجت عن مطبعة المعارف خلال الحرب [؟] . وبروكلمان لا يشير في « تكملة تاريخ الآداب العربية » في الفصل الذي عقده عن مطران ، الى تاريخ صدور المسرحية (٣٣ص٩٥) . ولكن بعض القرائن تحملنا على ان نقول بأنها صدرت قبل تاجر البندقية ، في فترة الحرب ، او في سنة الحرب نفسها وما يقال عن ترجمة الخليل لعطيل ، هو صورة مما قيل عن ترجمته لتاجر البندقية . أما ترجمة الخليل لرواية « السيد » عن كورنيل وقصة « القضاء والقدر » فلم نظفر بالاطلاع عليهما ، كذلك كتابه « الموجز في عالم الاقتصاد » ؛

والواقع انه لا يهمنا في دراستنا هذه ، من آثار خليل مطران الا الجانب الشعري منها وما استطراد نا الكلام عن آثاره ، الا من باب استكمال الحديث عنهُ . اما آثاره المخطوطة واوراقه الخاصة المكتوبة ، فالحديث عنها ملك الاجيال القادمة ، وما على الخليل ومحبيه وابناء هذا الجيل ، الا ان يعملوا على حفظ هذه الآثار وتسليمها الى الاجيال المقبلة .


زُحَل
المشتري
الأرض
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
٢٠
٢١
٢٢

قوام المشتري وزحل

رأي جديد

أمام هذه الصفحة صورة منقولة عن مجلة «السفير» The Sphere الانكليزية وهي تمثل السيارين المشتري وزحل بحسب الرأي القديم في قوامها وبحسب الرأي الجديد الذي أسفرت عنهُ مباحث علماء الفلك والطبيعة الفلكية في العهد الاخير. فأصحاب الرأي القديم كانوا يذهبون الى ان هذين السيارين غازيان مضيئان لشدة حرارتهما. وكانت تنتاب سطح كل منهما أعاصير قيل ان سرعتها ٩٠٠ ميل في الساعة (رقم ٢) ولذلك ظن ان حرارة الشمس الواقعة عليهما غير كافية لاحداث هذه الاعاصير فارتدَّ العلماء في تفسيرها الى شدة حرارة باطنها. وكان الظن ان كثافة مادتهما مثل كثافة الشمس تقريباً او ١٫٤ كثافة الماء (رقم ٥) وقيل ان حلقات زحل أصلها من النيازك او من تيارات من الدقائق المكهربة «المؤينة» كالكهيربات التي تطلقها الشمس في الفضاء (رقم ٣) وان لكل منهما قطبين مسطحين (يظهر التسطيح في كل منها بالقياس الى الخط المقطع وهو يمثل دائرة تامة (رقم ٤) وهذا يتفق مع قوامهما الغازي وسرعة دورانهما (فدوران المشتري تبلغ سرعتهُ عن خطهِ الاستوائي ٢٢٠٠٠ ميل في الساعة وسرعة دوران زحل عند خطهِ الاستوائي تبلغ ٢٨٧٠٠ ميل في الساعة)

هذه الحقائق المتقدمة هي ملخص الرأي القديم في قوام هذين السيارين والارقام المثبتة في هذه الصورة أنما وضعت للاشارة الى هذه الحقائق المختلفة

أما الرأي الجديد فأساسه ان باطن زحل كرة صخرية قطرها ٢٨ الف ميل (رقم ١٢). وباطن المشتري كرة صخرية كذلك قطرها ٤٤ الف ميل رقم (١٩) ويحيط بهذه الكرة طبقة كثيفة من الجمد كثافتها ٦ آلاف ميل في زحل (رقم ١٣) و١٦ الف ميل في المشتري (رقم ٢٠) ويليها طبقة الجو وكثافتها ١٦ الف ميل في زحل (رقم ١٤) و٦ آلاف ميل في المشتري (رقم ٢١). ويبلغ معدل كثافة زحل ٠٫٧ الماء ومعدل كثافة المشتري ٠٫٧٨ الماء والجو في الحالين مثقل الغيوم ومن الطبيعي ان تكون الطبقات السفلى في جوّ هذه ثخانته شديدة الكثافة لشدة الضغط الواقع عليها. فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالايدروجين ويبقى بعضها غازيًّا فينجم عن ذلك ان تجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية وهذا يفسر الاضطراب الدائم

وقد اشرنا في مقتطف فبراير ١٩٣٩ (صفحة ٢١٢—٢١٤) الى هذا الرأي الجديد في قوام المشتري ولكن الكاتب العلمي في مجلة السفير يذهب الى ان ما يقال في قوام المشتري يقال في قوام زحل كذلك وفي قوام أورانوس ونبتون مع ان رصدها الدقيق متعذر لبعدها

من وحي انكلترا

لمحمد عبد الغني حسن

قرية نائمة...

هنا يصف الشاعر قرية « ريدنج » الانكليزية
وقد زارها واستقبل فيها لمحات الفجر وهو يضوى
على شاطئ « التايمز » فيبعث الحياة فيها :—

مال السكونُ على البطاح وهيمنا والكونُ في أحلامه... إلاَّ أنا
إني على الفجر المضوى قائم استقبلُ الإصباح لماحَ السنا
والنهرُ وسنانُ الخرير كأنهُ غرقانُ في الأحلام ، غاف في المنى
وكأن تمتمة النسيم بشطه سورٌ يرتلها المسبّح مُوهِنا....

* * *

الصبح في الوادي يرفُّ سكونُه فكأنه اتخذ الخمائلَ مسكنا
نعسانُ ما بين الهضاب كأنهُ يَلْقَى بها مهداً طريًّا لينا
لا توقظوا تلك الطبيعة حلوة لا تُزعجوها بالضجيج مطنطِنا
لا تُقلقوا باسم الصباح هدوءها لا تجعلوها للتصايح موطنا . ! !

* * *

يا لوحةً سحرية أبصرتُها فرأيت فيها الصانع المتفننا
الله جلاَّها وأبدع وشيها وافتنَّ فيها راسماً وملوِّنا
أجدُ الهدوء على تسلسل مائها وأرى الصفاء على رُباها بيّنا
حتى اذا الشمس المضيئة أشرقت ومشى الشعاعُ على الربى وتلوَّنا
وصحت من النوم الحياةُ وهيأتْ لكفاحها اليومي أجنادَ الدنى
القيتَ في الوادي الضجيجَ مدوياً وسمعتَ بالصبح البشيرَ مؤذّنا

* * *

النهر عاد الى الحياة وجرجرت فيهِ السفائنُ من هناك ومن هنا
ومشت بشطيه الجموع سريعةً من بعد ما مالت مساء للونى
وسمعتُ ثرثرة الحياة بمائه . . ! ورأيتُ فيهِ العالم المتمدينا
ومشى بأذنَيَّ الضجيجُ كأنهُ صوتُ النذير على هدوئي أعلنا..
وأفاق من رؤياه كلُّ مهوِّم وصحا على احلامه ... إلاَّ أنا



الكيميائية الحديثة
في اقراص وحبوب صغيرة
تشفي الامراض وتغذي الابدان

لعوض جندي

« ومن الممكن ، وبعض علمائنا يرى ذلك محتملاً ، حيال تضاؤل غلاَّت العالم وعجزها عن سدّ عوز الناس من القوت، أن يوفَّى هذا النقص من الاطعمة الصناعية التي تركب في المصانع الكيميائية ، وهي ثمرة من ثمار علومنا العصرية . ومعلوم ان الاطعمة الكيميائية تحتوي على الوقود الحيوي الذي تفتقر اليه الآلة البشرية ، أي بنيـة الانسان ، وتأتي بنتائج تماثل من كل الوجوه ، نتائج العناصر الكيميائية التي تدخل الجسم، بما نتناوله الآن من ألوان الغذاء الطبيعي.

وفي زمننا هذا يدرس كثيرون من العلماء هذا العلم الجديد، ونعني به الكيمياء الحديثة الخاصة بالغذاء

« بيد أن بعض علماء الفسيولوجيا والكيمياء قد أقدم على التنبؤ بحلول اليوم الذي فيه ، يأتي الغذاء الى الانسان عفواً صفواً ، لم يخلق له وجهاً ولم يمدد اليه يداً . وذلك بأن يقصد المرء من فوره ، الى القوة الحيوية ، التي هي مصدر الحياة ، التي تستمدّ من الشمس ، فتكمن في الذرات ومتى وصَّل الانسان بدنه بآلة كهربائية معينة انقاد له من مراكزها ، وقودٌ حيوي كافٍ لاضطلاعه بعبء عمله اليومي . غير أن رأياً كهذا لم يجل بخاطري وانما هو من بنات افكار المستر ولز ، فلنضرب عن تفصيله صفحاً ، في هذا الكتاب الذي أطلقت عليه اسم (ما بعد غد) لانهُ الآن أقرب الى خيـال الشعراء ، منهُ الى حقائق العلماء (١)

وقد قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية الصادرة في يونيو ١٩٣٦ ما يأتي في الموضوع نفسه :

أصبح في وسع الكيميائيين، تركيب الاغذية البشرية، في مختبراتهم ، حيث أتيح لهم استخراج حوامض غريبة، تتغلب على الامراض، ثم تحضير المواد الكيميائية المركبة التي تتألف منها المواد الحيوية التي في اللحم والدم البشريين، وهي أحدث مخترعات أقطاب الكيمياء في معاملهم المدهشة

(١) صفحة ٤٢ بمقتطف يوليو ١٩٢٨ في مقال العلم والعمران وهو فصل من الفصول التي عهد الي حينئذ رئيس تحرير المقتطف في ترجمتها من كتاب (ما بعد غد) لمؤلفه السر فيليب جبس

(ومثلهم في ذلك مثل الباحثين في العصور القديمة ، الذين كانوا ينشدون « اكسير الحياة ») اذ يقوم علماؤنا العصريون بتخمير أنواع من المرق الذكي الرائحة ، من أطنان السمك ، وحزَم الخضراوات ، ليستخرجوا منها المواد الاولية في الاحياء ويدرسوها ، فتمكنوا بما كشفوه من الحقائق من مزج بعض المواد الغريبة ، بعضها ببعض ، مزجاً لم تستطعهُ من قبل الاَّ الطبيعة وحدها ، فأصبحوا على وشك الوقوف على سر الحياة او لغزها العويص الذي ما زال العلماء يطمحون الى حله من أقدم العصور. ونعني بهِ ، المادة المؤلفة للجسم البشري ، وقد أدرك كنهها الكيميائيون من عهدٍ قريب

ولعلك تعلم المحاولات،التي يقصدبها الدعابة والتحقير،في تقدير الجسم البشري،بحسب عناصره الكيميائية طبقاً لسعر السوق . ومنها ان في جسم الانسان من الحديد ، ما يكفي لصنع مسمار متوسط الحجم . وفيهِ من الجير ، ما يكفي لتبييض كن دجاج . ومن الكبريت ما يعادل القدر الذي يستعمل لابادة البراغيث من جسم كلب واحد ! ! ومن قبيل ذلك التقدير ما هو أدعى الى الدهش ، وهو الثمن الذي تساويه محتويات الجسم البشري من الكربون والايدروجين والاوكسجين والنيتروجين . والرد السديد على اولئك الماجنين، انك اذا اعطيت ذلك الرجل الذي يبغي ان يحط من سمو الجبلة البشرية ، المواد الكيميائية الاربع الاخيرة ، وطلبت اليهِ ان يصوغها على غرار المواد المركبة التي يتألف منها النسيج البشري ، عجز كل العجز لأن اقرب ما استطاعت المعامل الكيميائية انتاجه من المواد المقلدة لتلك العناصر الغريبة الداخلة في تركيب الجسم البشري يبلغ ثمن الرطل الواحد منها الف ريال !! وهذا عين ما ذكرناه في مقال نشره المقتطف في نوفمبر سنة ١٩٣٨

وأكبر مراكز صناعة تلك المادة النفيسة ،طائفة من المعامل الكيميائية ، مقامة تحت الارض كالصوامع،وذلك في مدينة لوس انجليس في ولاية كليفورنيا من اعمال اميركا حيث يشاهد الزائر جمعاً من صفوة الباحثين ، برآسة الدكتور، ماكس ضن Max Dunn الاستاذ في جامعة كليفورنيا يعالجون بلورات نادرة كأنها الدرر النوالي.وهناك الجهاز المنظم للحرارة يطنُّ من حين الى آخر، وذلك متى برد وعاء من الاوعية الملأى بالسوائل ، برودة بطيئة غير محدودة الزمن ، تقل عن $\frac{1}{10}$ درجة كل ٢٤ ساعة . وترى الاشكال البلورية التي تتولد في ذلك السائل ، تتشكل تدريجاً بحيث يستطاع تمحيصها جيداً في حالة نقاوتها . وتشاهد اولئك العلماء القائمين بالتجارب مرتدين ميدعاتهم البيض في احدى الحجر الخفية الداخلية الخاصة بالسحر الكيميائي ، محاولين وضع تلك البلورة في آلة غريبة من النحاس الاصفر تسمى المقياس الضوئي للزوايا optical goniometer ليستطيع احدهم التطلع اليها من عين المرقب لقياس زوايا واجهات تلك البلورة الشبيهة بالجوهرة

ثم ترى عاملاً آخر في حجيرة مصفحة بالرصاص واضعاً انبوباً زجاجيًّا مملوءاً بالبلورات المسحوقة ، وذلك في انبوب قوي من انابيب اشعة رنتجن حيث ينطلق فيه تيار كهربائي شديد الضغط يفوق ١٠٠٠ ڤولط،ومن ذلك الانبوب المفرغ من الهواء ، تتولد صورة ظلية تدل على التكوين الداخلي لتلك المادة الكيميائية الخفية ترسم على شريط فوتوغرافي

ويقوم العلماء أيضاً في مدينة لوس انجليس بتجارب يتوخون بها ، انتاج مواد ثمينة تكاد تصل بهم الى كشف سرّ الحياة . وعلاقة تلك المواد النفيسة بالبروتينات البشرية ، مثلها في الدقيق والخبز ونعني بها حوامض الأمينو (١) وهي اللبنات التي تبنى بها البروتينات . وقصارى القول ان البروتينات نفسها هي المكونة للمادة الاساسية للجلد والشعر والدم والعضلات أي أنها المادة المصنوعة منها الكائنات البشرية

والخلايا المكون منها الجسم البشري ، وهي تعدُّ بالبلايين ، تؤلف من كريات من مادة البروتوبلاسمة (الجبلة) ، الشبيهة بالهلام ، وهذه أغلبها من البروتين

إذن تركيب البروتين من أعوص وأروع الاعمال الكيميائية التي لما يظفر بها امرؤٌ . بيد ان العلماء المتقدمين قد جزأوا البروتين ابتغاء الوقوف على كنهه ، فعبَّدوا الطريق لكل مقدام يستطيع غداً جمع البروتين في أنابيب الاختبار

وقد توسل أولئك العلماء الى مباحثهم الكيميائية بمواد غريبة أشبه بما يستعمله السحرة في مغاراتهم ، منها بما تطبخه المعامل الكيميائية العصرية في أنابيبها وهي بزر قرع الكوسى وامعاء السمك،وبيض الدجاج،والحنطة ، وشعر الخيل ، وريش الوز وغيرها . فتمكنوا باغلاء تلك المواد ، ممزوجة بالاحماض الكيميائية،من تجزئتها أجزاء دقيقة واستخرجوا منها مادة أشبه بالبروتينات فسموها حوامض الأمينو . وهذا الاسم الغريب يدل الكيميائي على الصفة المميزة للمركبات النيتروجينية التي تحويها تلك الحوامض

وغدا اكثر العلماء يتساءلون :— أهذه المواد الحديثة الاكتشاف ، هي الحلقة المفقودة بين مملكتي المواد الحية والمواد غير الحية ، التي هي ضالة الباحثين منذ زمن طويل ؟ فلم يسعهم إلاَّ ان يواصلوا اختباراتهم حتى ثبت لهم ذلك يقيناً،ودلهم التحليل الذي عمل بأشعة رنتجن على كون الجزيئات البروتينية التي توجد في المواد الحية ، هي في منزلة شبكة معقدة او سلسلة من تلك الجزيئات مؤلفة من حوامض الأمينو . وبمزج تلك الحوامض المختلفة بعضها مع بعض يتألف منها ملايين من البروتينات ، تربي كثيراً على ما تنتجه النباتات والحيوانات في الكرة الأرضية

وبلغ من ضرورة هذه الحلقة الكيميائية المفقودة للحياة ، المسماة بحوامض الأمينو ، ان

(١) راجع ما نشرناه في هذا الصدد في مقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٨

جميع الحيوانات بما فيها الانسان ، تهلك سريعاً متى حرمت من التموّن الدائم بها . ومع ذلك لا يستطيع انتاجها انتاجاً طبيعيًّا غير النباتات ، وذلك من المواد المجردة، إذ هي تجذب النيترات من التربة ثم تستخلص النيتروجين من تلك المركبات وتمزجهُ بالحامض الكربونيك والماء ، فتتألف منها حوامض الأمينو . ومن تلك الحوامض تتكوَّن شتى البروتينات النباتية . اما الحيوانات فعاجزة عن القيام بمثل ذلك العمل العجيب . ولا بدَّ لها من التغذي إما بالنباتات واما بحيوانات اخرى نباتية الغذاء ، وذلك ليتسنى لها احراز حوامض الأمينو الضرورية لحياتها . ومتى تغذَّى المرء بالبروتينات النباتية او الحيوانية الأصل ، قامت حالاً السوائل الهاضمة في جسمهِ بتجزئة تلك البروتينات الى عناصرها الاصلية وهي حوامض الأمينو ، وتولَّت مجاري الدم توزيعها على نسج الجسم حيث تؤلف ثانياً البروتينات الحيوانية الخاصة في النسج المختلفة ، فتساعد على تكوين خلايا جديدة لتحل محل الخلايا التي تندثر دائماً من الاستهلاك الناشيء عن الوظائف الحيوية

ولتلك الحوامض العجيبة وظيفة اخرى حيوية وهي توليد الانوار (الهرمونات أي الرسل الكيميائية) التي تجول في الجسم مسرعة لتنظم نموَّهُ وتكوّن فيه الشحم وغير ذلك . ثم ان $\frac{١}{١٠٠٠}$ من الأوقية من احد حوامض الأمينو الذي يسمى ثيروكسين thyrexin وهو مركز في الغدة الدرقية تميز الانسان السويّ من البليد أو الميت فلا غرو اذا طمح الكيميائيون الى اكتشاف كنه تلك المواد الكيميائية الجليلة الشأن وقد اكتشفوا منها ، وسمَّوا ، حتى تحرير هذه السطور نحو ٢٢ نوعاً مختلفاً . ومنها كثير يحتوي على الثيروكسين المركب تركيباً كيميائيًّا

وتستخرج أنواع اخرى وتنقى، وذلك من البروتينات الطبيعية مثل زلال البيض (آحهُ او بياضه) والهلام والجبنين . ويعدُّ مختبر الدكتور ضن Dr. Dunn مصنعاً مصغراً ينتج منهُ كل ما تحتاج اليهِ سائر المختبرات العلمية حيث تتجلّى خواصها المدهشة

ومن العناصر الكيميائية لتلك الحلقة المفقودة ، مادة السيستين cystine التي ثبت تأثيرها العجيب في إنماء الشعر، بحيث ان الغنم التي تعلف بها ، تنتج صوفاً اجزل وأجود مما ينمو عادة على فرائها . ثم المادة المركبة المسماة الحامض الجلوماتيك المرموز لهُ بحرف د d-glumatic acid وهذه اذا مزجت بالاطعمة اكسبتها طعم اللحم . ويباع منها كل سنة ما يساوي ملايين من الريالات وذلك للشعوب الشرقية التي تشتهي اكل اللحوم ، فتحول دونهُ عقائدها الدينية التي تحظره عليها . ومادة الجليسين glycine التي ثبت أن تناول بضعة غرامات منها يوميًّا ، تعاون على شفاء داء الضعف العضلي myasthenia gravis

واعظم مما تقدم ارادهُ خاصًّا بالبحث في سر تركيب الاطعمة بالوسائل الكيميائية

ان العلماء طالما حلموا بانتاج أغذية صناعية في شكل حبوب او اقراص صغيرة غذائية تستوعب كل ضروريات الحياة . وهي المأثرة التي تجعل الانسان دائماً في غنى عن المصادر الطبيعية التي اعتاد التغذي بها ، وتقيه غوائل الجدب والمجاعات. وكل منا يعلم ان غذاء الانسان ، مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية وهي الشحم والكربوهيدرات والبروتينات

فالشحوم الصناعية تستخرج من زيت النفط وهي من الحقائق الراهنة . ومنها المادة المسماة انترفين intarvin وقد استعملت كجزء من غذاء المصابين بالبول السكري

اما المواد الكربوهيدرات مثل النشا والسكر فصنعها من الشحم من اصعب الامور . ومع ذلك فقد اعلن باحث بريطاني منذ بضع سنوات وهو المستر بايلي Professor E.C.C. Baly الاستاذ في جامعة ليفربول ، شيئاً ادهش الدوائر العلمية وهو استطاعته تركيب الكربوهيدرات من الحامض الكربونيك (وهو الغاز الذي يتولد من احتراق الكربون) والملح المعدني المعروف باسم نيترات البوتاسيوم والماء . وذلك انهُ عالج تلك المواد المجردة بالاشعة التي فوق البنفسجية ، فأتيح له اولاً انتاج مادة سكرية اشبه بالجلوكوز (سكر العنب الطبيعي) ثم اردفها بغيرها من المواد السكرية والنشوية . فأضحى صنع المواد الكربوهيدراتية ، بالوسائل الكيميائية ، من الاعمال الميسورة ، ولم تبق بعد ذلك الا عقبة واحدة كأداء وهي البروتينات

وقد جرب الباحثون الى الآن الاغذية الصناعية في تغذية الحيوانات التي يستخدمونها في مختبراتهم العلمية فتبينوا وجوب اضافة قليل من اللحم الطبيعي ، او عصارته الى تلك الاغذية الصناعية والا استهدفت الحيوانات التي تحت مراقبتهم ، تدريجاً للموت جوعاً

فتساءل العلماء قائلين ، (هل حوامض الأمينو الصناعية ، التي تحولها الحيوانات نفسها الى البروتينات التي تلزمها ، تسدُّ ذلك النقص ؟)

فجرب الباحثون في جامعة ايلينوي ، تغذية الجرذان البيض عدة أشهر ، بتلك المواد الكيميائية المكونة للبروتينات الصناعية ، فكانوا يغذونها بكل مادة منها على حدتها مدة معينة ثم يسجلون عجزها ، الواحدة بعد الاخرى . فاضطروا حينئذٍ ازاء تلك النتائج المثبطة ، عقب تركيب سبعة عشر حامضاً صناعيًّا واضافتها الى غذاء تلك الجرذان ، الى مزج الغذاء اخيراً بالبروتين الطبيعي ، بعد أن حرمت منهُ الجرذان اذ تبينوا ضرورة اضافة بعض عناصر حيوية اخرى الى ذلك الغذاء ليفي بالغرض المقصود ، فزاد الباحثون حامضاً ثامناً عشر وهو حامض أمينو من فصيلة الحوامض التي تتولد في الزبد حينما يزنخ butyric acid (والحامض البوتيريك هذا يعمل من الزبدة بالغلي مع البوتاسا الكاوية) فكان هو العنصر المفقود ! اذ نمت الجرذان من بعد التغذي بذلك الغذاء الجديد . فكان اول حادث في التاريخ نجح فيه الكيميائيون في تركيب

طعام من النوع المكوّن للبروتين، مع خلوه من العناصر الطبيعية أيًّا كانت .

اذن من الميسور الآن للكيميائيين صنع جميع المواد الثلاث التي في الأغذية الطبيعية . فاذا استطاع الكيميائي ان يصنع الفيتامينات ، ولدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد ان صنعها ليس متعذراً ، بات في وسعهِ ان يركب في معمله طعاماً صناعيًّا كاملاً . فلا يبقى امام الكيميائيين الذين يبغون تقليد اعمال الطبيعة العجيبة ، الاَّ تحويل حوامض الامينو المكونة للبروتينات حتى تصل الى درجة اتقان البروتينات الناضجة التي في نسج الحيوان والانسان . ومثلهم في ذلك مثل الميكانيكي الذي يروم تركيب آلة بخارية ، فلا بد لهُ من دراسة المراجل والاسطوانات والمكابس . فيجب على الكيميائي ايضاً الذي يبغي تركيب البروتين ان يضع الاساس اولاً وذلك باكتشاف كل ما يتيسر لهُ من متعلقات حوامض الأمينو المؤلفة لهُ . وهذا هو السبب الذي من اجله يقوم علماء لوس انجليس باذابتها في سوائل شتى ثم دراسة طرق سلوكها في الاحماض والقلويات — واطلاق الحرارة والضوء وأشعة رنتجن وغيرها من ضروب الاشعة عليها ، وكذلك دراسة ألوانها وخواصها الكهربائية ، بالمقاييس الحساسة ثم فحص اشكالها المتبلورة بالميكروسكوب . ومتى أيقنوا من خواص كل منها وسهل عليهم الحصول عليها ، سارعوا الى ضم بعضها الى بعض وجعلها منتجات مشابهة للمنتجات الطبيعية

ولو نجح أحدهم في ذلك القصد ، لبلغ اعظم شهرة في تاريخ العلوم . ولسنا نستطيع الآن التكهن بما سوف تنتجه مختبرات الكيميائيين من تلك الأغذية . انتهى ما قالته مجلة العلم العام الاميركية

واليك ما قالته حديثاً في هذا الموضوع مجلة انكليزية علمية أخرى صدرت في اغسطس ١٩٣٩ :—

يبذل علماء العالم في هذه الآونة قصارى جهودهم في أشق مهمة عرضت لهم من قدم ، ونقصد بها ، تحضير غذاء بشري مستوفى الشروط ، وذلك من المواد الكيميائية المألوفة . ومما يجدر ذكره في هذا المقام انهم قد ظفروا من قبل، بتغذية الحيوان ردحاً من الدهر بالمحلولات الكيميائية ، ولذلك غدوا يتوقعون بلوغهم تلك الامنية القديمة ، في السنة القادمة وهم يحسبونها آخر حلقة في سلسلة تجاربهم العلمية

فاذا تحققت مقاصدهم ، كانت مثاراً للاعجاب ، اذ تفضي الى اتقاء غوائل الجدب والموت جوعاً في ارجاء العالم . حينئذ يختفي شبح سوء التغذية فتعزز المصادر الحالية التي تمون منها ، دون غيرها مصانع ضخمة لصنع الأغذية الكيميائية تنتج صنوفاً شتى من المأكولات الصناعية تعد بالالوف ، لذيذة الطعم ، مستوفاة الشروط الغذائية اكثر مما ألفناه في الاطعمة حتى اليوم

وان كنت ممن يخالجهم الشك في ذلك ، فينبغي أن تصغي الى ما سنقصه عليك فيما يلي، فتدرك الشأو الذي بلغهُ اولئك العلماء في تحقيق أمانيهم

فطن العلماء من زمن بعيد الى كون الغذاء البشري ، يجب ان يؤلف من ثلاثة عناصر أولية وهي الشحوم والكربوهيدرات والبروتينات . ورأوا ان الصنفين الاول والثاني ، قد تيسر من قبل انتاجهما بالصناعة . إذ أمكن استخراج أولهما من النفط ، وثانيهما من مصادر متعددة ، تشمل مزيجاً بسيطاً من الهواء المعتاد،ومواد كيميائية تعالج بالأشعة التيفوق البنفسجية فلم يبق لهم مندوحة عن تركيب الصنف الثالث من تلك العناصر الغذائية ، اي البروتينات ، ونعني بها الاجزاء الشبيهة باللحمية في الأغذية . وهذه توجد في اللحوم والبيض والسمك والحنطة ، ومنها تتكوّن خلايا الجسم البشري التي تبلغ الملايين ، كما تتولد الجلود والدماء والعضلات، ومن دونها تغدو الحياة مستحيلة

ولكن من سوء الحظ ، ان صنع البروتينات من أصعب الامور . ومع ذلك شرع العلماء في تركيبها . فجربوا تجارب تفوق الحصر بأصناف من المرقات المستخرجة من اللحوم والسمك والبيض والحنطة والشعر والريش،وجميعها مواد بروتينية.فاغلوها في بوتقات ورسبوها بالحوامض فنتجت منها مقادير تذكر من البروتينات وعند ذلك استقرّ رأيهم على كون البروتينات مؤلفة من جسيمات سموها حوامض الأمينو . وقالوا إن الجزيء الضخم من البروتينات مؤلف من عشرات من جزيئات الأمينو ، فتحروا اكتشاف حوامض الأمينو المختلفة الانواع ومزجها بعضها ببعض بنسب مختلفة

ورأوا ان النتيجة التي تنتج من تلك العملية ، تكون بروتينات جامدة صالحة للغذاء ، ذات أنواع شتى . أي ان المعامل الكيميائية ستتمكن من انتاج أغذية كثيرة مختلفة الطعوم والنسج . وبذلك يفوق العلماء الطبيعة في أخص مبتدعاتها . وهذه هي الخطوة الاخيرة التي خطاها العلماء في سبيل تركيب الغذاء . أما البحث المدهش بأجمعه ، فقد حدث من وقت قريب وذلك في جامعة ايلينوي وهي من أهم المراكز التي تبحث في الطعام الصناعي،حيث قام الباحثون بتغذية الجرذان عدة اشهر بحوامض الأمينو المختلفة المزيج ، إذ استعملوا منها في وقت واحد سبعة عشر حمضاً وكان ينقصها في كل مرة شيء حيوي

فكانت الجرذان تنفق ، ما لم يضف الى غذائها طعام عيني . وفي ذات يوم يئس شاب من الباحثين فأضاف الى غذاء الجرذان حامضاً مجهولاً حديث الاكتشاف،فنمت واستمرت على تلك الحال عدة اشهر مقتصرة على ذلك الغذاء دون غيره.ومن ثمة تمّ اكتشاف الطعام الصناعي

***

أجل إن هاتيك العناصر لما تركب على شكل بروتينات جامدة لذيذة الطعم بحيث أستطيع أنا وأنت تناولها على مائدة الفطور اليومي . بيد ان الكيميائيين اقتنعوا حق الاقتناع انهم قد

اكتشفوا أخيراً العناصر المنشودة لأنها أتمّ لحوم الحيوانات اي بروتيناتها

وسيخطو العلماء الخطوة الثانية عاجلاً متوسلين اليها بالمواد الكيميائية المألوفة فقط . وحينئذٍ يوجد حقيقة الطعام الصناعي المستوفى الشروط كما أتيح من قبل صنع الشحوم والكربوهيدرات والفيتامينات فتصبح المجاعة في خبر كان ، وبتعبير آخر غير فني نقول ان الخبراء الآخرين يتوسلون بوسائل شتى لانقاذنا من عجز الغذاء في إبان الحرب اذ عجز الطعام من الامور الخطيرة جداً ، والاغذية قابلة للتلف ، ثم انها تستغرق فراغاً عظيماً ولذلك بحثوا عن طريقة دائمة تقلل الفراغ اللازم لخزن الاطعمة حتى اهتدوا اليها

قال الكاتب الانكليزي الذي نقلنا عنهُ هذا المقال : وقد عرض عليَّ أحد الخبراء حديثاً ثلاث قوارير صغيرة تحتوي كل منها على أوقيتين من المسحوق قائلاً أترى فيها شيئاً لذيذاً ؟ فقلت كلاً ، فابتسم الخبير قائلاً : « ان ذلك المسحوق الاسمر يحتوي على رطل من شرائح لحوم البقر وغيره ، والثانية تحتوي على ٤٠ خسة . والثالثة على ٤٠ رأس من الاسبانخ ! اذ نحن نستخرج من الاغذية جميع عناصرها غير الضرورية ، ونحتفظ بالعناصر المغذية فقط حتى لا يضيع منها شيء ذو منفعة ». وسر هذه العملية المدهشة التي ستحدث انقلاباً عظيماً في طريقة خزن الاطعمة ونقلها من مكان الى آخر ، قد اكتشفهُ احد الربابنة ، وذلك انهُ فطن الى حقيقة كون أغلب الأحمال التي تنقلها باخرته يؤلف من مياه لا نفع فيها ، وتشغل في المركب فراغاً نفيساً وتبهظهُ وتكلف صاحبها نفقات فادحة لاجل نقلها . فعقد ذلك الربان نيته على اختراع وسيلة لاستخراج المياه من تلك الأغذية الغضة فنجح . وبذلك نقص حجم وسق مركبه نقصاً كبيراً ولم تفقد الأغذية طعومها

والطعام المجفف ينبغي ألاَّ يكون مسحوقاً في جميع الاحوال اذ تبقى شرائح اللحوم والخس بعد تجفيفها محافظةً على شكلها الطبيعي ، ولكن المسحوق يقلل الفراغ اللازم للخزن بلا شك . ومتى وضعت الفاكهة المجففة في الماء استعادت شكلها وطعمها الطبيعيين . فالشليك مثلاً اذا جفف انكمش وقلَّ ثقله فاذا ما اضفت اليه الماء ثانياً عند الحاجة ، تعذر عليك ، التفريق بينهُ وبين الشليك الحديث القطف من شجرته . وستسفر هذه العملية عن جعل مخازنتا وبواخرنا المعدة لنقل البضائع تسع عشرة امثال ما تنقله الآن . وهذا ما يكفل ايضاً منع اكتظاظ الاسواق بالفواكه والخضراوات فوق حاجتها ، ويسهل وقايتها وخزنها حتى تمس حاجة الأسواق اليها . وستتجلى في زمن الحرب المنافع العظيمة للاطعمة المجففة للقوات المحاربة اذ يتسنى نقل المؤن بكل راحة من جهة الى اخرى دون ان تنص بها الطرق الحديدية . وحينئذٍ يمكن تموين كل جندي بغذاء مكثف قد يكفيه أسابيع اذا اقتضت الحال . اذن في وسعنا ان نسمي بحق الطعام المجفف اختراعاً من المخترعات التي نشأت عن الضرورة (والحاجة ام الاختراع او الحاجة تفتق الحيلة على قول العرب) وهو احد اركان الرفاهية

ثم استطرد الكاتب الانكليزي حديثه فقال « وقد أكلت في السنة الماضية ، حينما كنت في نيويورك ، هليوناً وشليكاً في غير موسمها ، فألفيت طعمهما لذيذاً كأنهما غضّان فلم يسعني الا ان عاتبت مضيفي على تبذيره ، ظناً مني انهُ احضر لي بالطائرة ، تلك الاشياء اللذيذة الدالة على الترف ، في غير أوانها » فقال « حاشاي ان أطلبها بالطائرة ، بل هي من موسم الصيف الماضي ثم خزنت في مخزن التبريد الى اليوم » فكدت لا أصدق قوله مع كونه حقاً

واخترعت طريقة جديدة تسمى «التبريد السريع» وبها تبرد عاجلاً الخضراوات والفواكه والدجاج وغيرها من عشرات الاغذية ، الى درجة منخفضة ، دون ان تخترق نسجها الدقيقة ، بلورات الجمد الذي يتكون فيها . وذلك بعكس الطريقة الحالية للتبريد . فيتسنى ابقاء مواد الغذاء الى اجل غير مسمى في مخازن التبريد المعتادة في المتاجر والحوانيت ثم يذاب عنها الثلج عند الحاجة . وذقت كثيراً من الاطعمة المثلجة بالطريقة السريعة فلم استطع قط تمييزها من الاطعمة الجديدة وكذلك اكلت طيوراً ولحوماً مثلجة فظننتها حديثة الذبح

وشرع علماء الزراعة والكيمياء حديثاً في بريطانيا وأميركا وغيرهما ، في القيام بتجارب من أغرب ما جرى في هذا القرن وهي زرع الغلال بلا استعمال التربة لا بأنها (وقد وصفها صديقنا رئيس تحرير المقتطف في غير جزء من أجزائه)[1]

وفي المعامل الكيميائية والمصانع ينتجون محصولات عجيبة من المواد الكيميائية ، وذلك في صوانٍ معدنية ملأى بالمواد الكيميائية بل هم يدرؤون الامراض وأوبئة الحشرات والآفات بالمواد التي يصنعونها في معاملهم . وقد ذكرت لفظ (التجارب) تجوزاً ، ولكنها في الحقيقة أعمال جاوزت حدود التجارب بمراحل إذ تمكنوا في اميركا وانكلترا ، حيث تكون الطماطم والشليك والخس وزهر نبات السحلب وغيرها من الازهار نادرة الوجود ، من زرعها زرعاً تجارياً بلا تربة . والحقول الصناعية المستعملة لتلك الغاية هي أحواض من الخرسانة قليلة الغور ، ويملأ نصفها بمحلول كيميائي من الأملاح الضرورية التي توجد في الأرض الحقيقية ويبسط فوق المحلول الكيميائي حاجز من السلك ، يحمل طبقة من التبن الرطب ، وفي تلك الطبقة تغرس البذور ، فاذا ما انقضت بضعة ايام ، بلغت جذورها الصغيرة المحلول الكيميائي في اسفلها حيث تلقى غذاءها . ومتى أتيح اعداد التربة الصالحة المستوفاة الشروط أمكن انتاج الغلات الجزيلة المقدار وذلك بتغيير المواد الكيميائية . وقد تسنى للباحثين انتاج ٤٥٠ رطلاً من الطماطم من حوض نموذجي مسطحه ٢٥ قدماً اي بمتوسط ٢٠ رطلاً من كل غرس

(١) راجع مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٣٠١ (نبات بلا تراب) وابريل ١٩٣٩ صفحة ٤٠١ (الاساليب العملية في زراعة النبات بلا تراب)

ناحية المجون

في الادب العربي

لسليم خياطه

لكل أمة عظيمة ناحية ماجنة حتى الخلاعة في أدبها . لكن ربما لم تكن هناك أمة بلغت لغتها في أدبها المجوني ما بلغتهُ لغتنا في آدابنا العربية والاسلامية . ويبدو ان شدَّة طابع هذه الناحية في هذه الآداب تأثرت بعاملين ، الاول : إساءةُ الاستعمالِ الطارئة في الحياة الاجتماعية للفكرة الواقعية البديعة : « لا عيب في الدين » . والثاني : ما في اوصاف الملذات المحلَّلة للصالح في الجنة من إغراءِ غير الصالح بتحليلها ، وبالمُبالغة فيها بحسب طبعهِ علاوة على ذلك ، ثم بعدم الشعور ، وفقاً لميله بإدٍّ ياتيهِ من تحقيقها على الارض . فاذا كانت جائزة المؤمن لذَّات ناعمة في آخرته ، فلماذا لا تكون له ، وهو دائماً مؤمن — ومن غير زِنديق لا يعتبر نفسه مؤمناً — هذه الجائزة في الحاضرة والأمر أضمن ، كما فيهِ كسبُ الجنَّتين ، وإحداها نقد على منطق الخيامي الضحوك ؟ ....

ثم كانت هناك امور كثيرة ننظر إليها اليوم كأشياء أصبحت ، على العموم ، غريبةً وبعيدةً عن حياتنا الاجتماعية ، ولكنها كانت يومذاك طبيعية مقبولة ومرتبة في النظر والتعقيل وقواعد الحياة المدنية ومسهلاتها: من تعدُّد زوجات، ورق عائلي رفيق بالقياس الى الرق الروماني، وانعدام الحالة والفكرة (1) الاجتماعية الحديثة وهذه امور كانت تربة مؤآتية نوعاً ما لافراط النمو في هذه الناحية من آدابنا العربية. واما المدنية الفارسية والرومية (البيزنطية) فليست هي العامل العقلي او الاجتماعي او الحقوقي فيما ظهر من هذا في الحياة العربية وآدابها . بل أنها قدمت المادة اللازمة من مالٍ وسبي ومعرفة احتكاكٍ واختلاطٍ وتشبهٍ بالحضارة السابقة النامية ، فالاستعانة بالتفنن في الترفه والتلذُّذ ، حياة وادباً ، اكتسابٌ منها

---

(١) بخصوص الفكرة تجد بذوراً كثيرة منها بل وأزهاراً نامية نمواً يستوقف النظر في المدرسة العقلية الاعتزالية ، المبنية على اعتبار المسئولية الفردية استناداً الى النظر القدري في الوجود وهو عكس روح الجبرية الدينية في الاسلام . وتجدها كذلك على الخصوص ، في خصم المعتزلة أيضاً ابن حزم ، اكبر نظريي الاسلام بعقلية عملية كما يبدو ، ومن ثم في مفكرين وأدباء وفلاسفة كثيرين غير هؤلاء

خرج الاسلام من بداوة الجاهلية . ولنا في الجاهلية أدلّة مثالية على بذور هذا الميل الى التماجن المتطرّف . ففي امرىء القيس وحده مثلٌ جدٌّ موفق . وفي كثير من حياة الجاهلية وعاداتها وتسير أنهـا ما يشير الى وجود لنظر عاديٍّ عندهم إلى ما قد نعتبر بعضهُ اليوم تماجناً خليعاً واموراً لا تخرج عن حدود شهوانية غير خفيفة. وهذا نظر: إما هو عاديٌّ منهم ، وإما هو، على الاكثر مصطبغ بشعور الفكاهة —فكاهة « رابليه »—او بعاطفة شعر تتراوح ما بين حامية وبين إغريقية الروعة فيما تجلبب بهِ اكثر الملهيات الشعرية من جمالٍ رخاميٍّ ، مرمريٍّ ، مبتردٍ ، بليل . بل كما أننا كثيراً ما ننظر اليوم الى شبانٍ خفافٍ مستهترين كأفذاذٍ وأبطالٍ « دون جوانيين » يحسدون على حظوظهم الطيبة ومواهبهم المجونية ، كذلك كانت الجاهلية تنظر الى مشهوري سكّيريها وتبّاع ملذاتها . ففي أخبار ملوكها في الحيرة واليمن وبصرى ما يشبه ، مع حفظ النسبة ، ولكن بدون نظر استكبار لسلوكهم يومذاك ، طرفاً من أخبار يزيد والوليد وسواهما من خلفاء بني أمية وبني العباس وكبار الاشراف والولاة وملوك الطوائف وفي قبائلها أمثال المهلهل والأعشى كوالبة في الاسلام والأخطل ومطيع وأكثر من قال شعراً من بعد في غير الحكمة والمواعظ والمراثي والمدائح والوصف. فتى الجاهلية، طرفة، أليس هو القائل:

إذا القوم قالوا : « من فتى؟ » خلت أنني عُنيتُ ، فلم أكسَلْ ولم أتبلَّدِ
ولستُ بحلاّلِ التـلاعِ مخافةً ، ولكن متى يسترفِد القومُ أرفِدِ
وإن تبغني في حلقةِ القوم تلقني وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ !
متى تأتني أُصبحك كأساً رويّةً وإن كنت عنها ذا غنىً، فاغنَ وازددِ !
نداماي بيضٌ كالنجوم ! وقينةٌ تروحُ علينا بين بُردٍ ومجسدِ
إذا نحنُ قلنا : « اسمعينا ! » انبرت لنا على رسلها ، مطروفةً ، لم تُشدَّدِ
رحيبٌ قِطابُ الجيبِ منها ، رفيقةٌ بجسّ الندامى ، بَضَّةُ المُتجرَّدِ
وما زال تشرابي الخمورَ ، ولذّتي ، وبيعي وإنفاقي ، طريفي ومُتلدي !
الى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها وأُفردت إفرادَ البعير المعبَّدِ ! . . .
ورأيتُ بني غبراء (١) لا ينكرونني ! ولا أهل هذاك الطراف الممدد !...(٢)
ألا أيهذا اللائمي احضرَ الوغى ، وأن أشهدَ اللذات ، هل أنت مخلدي ؟!
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيّتي فدعني أُبادرها بما ملكت يدي !

(١) اللصوص (٢) الاغنياء أصحاب خيام الجلد لا الشعر

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى — وجدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدي !
فمنهنَّ سبقي العاذلات بشربةٍ : — كُمَيتٍ ، متى ما تُعلَ بالماء تُزبِدِ
وتقصير يوم الدجن [1] والدجن معجب — ببهكنةٍ تحت الخباء المُعَمَّدِ !
وكرِّي إذا نادى المضاف ، محنَّباً ، — كسيد الغضى ذي السَورة المتورِّد :
كريمٌ [2] يُرَوِّي نفسه في حياته ! — ستعلم إن متنا غداً ، أيُّنا الصدي ؟ !
أرى الموت اعداد النفوس ، ولا أرى — بعيداً غداً ما أقربَ اليوم من غدِ !
أرى العُمرَ كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ [3] — وما تنقص الايام والدهر ينفد !

ولعلَّ هذا المتجه القوي في الأدب العربي منذ الجاهلية راجعٌ ،منذ ذلك الوقت ايضاً إلى ما قد يوافق تسميته بـ « مثالية العكس » . فكما وجد أهل الشمال من السكنديناويين ، وهم في منازلصقيعهم ، صورة جنتهم ومرتع آلهتهم وخالدي ابطالهمفيربوع دافئة ، جنوبية النسيم،لا تغيب عنها الشمس ، وكما تبلورت عند عرب الجزيرة الملتهبة في جنان ذات قرٍّ وأنهار ، ثم عبَّرت عنها اللغة العربية والعقلية ، منذ الجاهلية ، في رسم السعادة والراحة غالباً بألفاظ واستعارات وتشابيه وكنايات البرود والرطوبة ، كذلك رأى هؤلاء ايضاً،وهم فيشظفعيش أرض جافة فقيرة ، وبقدر قوة الدافع العكسيّ في ذلك [4]، سعادة عكس الحال ، في صور مرفَّهة ترفيه انحلال جسمانيٍّ للعيش ، على ما كانوا يلتذون مناظرها المثلة واخبارها ومتخيلاتها فيما أحاط بها من مدنية فارسية — بيزنطية ، انحلالية ، كانت صاحبة الصولة ومثالاً أعلى لحياة المدنية والقوة الارضية للانسان في زمنهم ومدار اقليمهم

(١) الغيم ، والمعنى كثيب رائم السذاجة (٢) يقصد نفسه بالتمات بديع (٣) اخترت جميع هذه الابيات لطرفة لانها تمثل حالة عقلية تامة تنقص صورتها بانقاص شيء منها ، ولانها تبين بكل وضوح وروعة ممكنة نظرة متناسقة مكتملة بمعانيها جميعاً على ان الجمال الشعري في جوه الاعلى مهما أكثر منه معاداً ومكرراً لا يكثر مع ذلك ، ولا يزيد الا تفتحاً وتجدداً وجمالاً ينبع من جمال

(٤) يلاحظ نفس الامر في « الف ليلة وليلة » بل وفي الاقاصيص الشعبية عند مختلف الامم عموماً وانما هو في « الف ليلة وليلة » أبرز وأقرب الى موضوعنا . فالسعادة المصورة دائماً بحالة هائلة من الترفه والتنعم ، الذي تكاد الرسوم الباقية عن بلاطات الخلافة لا تحوي مثل اوصافه حتى لدور التجار فيها ، نابعة مثل هذه القصص نفسها من افقر الاوساط الشعبية ، من « بافوز » (Bas Fonds) القرون الوسطى العربية ، وفي أصولها السابقة من ارساط هندية او فارسية سابقة شبيهة المرتبة ولا شك . وعلماً مني بمثل هذه الحالة النفسية العامة قلت في تعليق في قصتي « الازليان » على عبارة « خرقة المتصوف » انها الخرقة للمتصوف الغني ، وهي ، يقال لها ، السجادة عند « الدرويش » وذلك من قبيل التمثيل فقط لانه لا يصح هذا الاطلاق دوماً في الواقع اذ كثيراً ما لا ينكر الدرويش خرقته ولا ينكر الصوفي الثري سجادته

على انهُ لا مجال قط لإنكار أن مجونَ الآداب العربية في الجاهلية وصدر الاسلام أصح طبيعةً ومظهراً جدًّا منه فيما بعد. فالشهوانية المرَضية السماء، هي شهوانيــة الترف المدني المفرط، والاسراف الأبــهي القديم، لم تكن قد لقحت آدابنـا بعد بمصلها الانحلالي الشديد. بل على أقصى خلاعة الجاهلية طابعٌ أصيلٌ من حلو السذاجة الفطرية هي دائماً عذبة، فكهة، لطيفة الخشونة البدوية، وجميلة في غاية الجمال، في أروع مرتبة كلاسيكية خالدة منهُ، في قرابةٍ من الجمال الخالد لامةٍ بدوية أخرى كانت تهيأ لوثبتها: جمال الأوذيسة والالياذة. بل في بعض الشعر الجاهلي، في امرىءِ القيس مثلاً ملمسٌ من «فينيس ميلو». عريٌ كمال، وغلمةٌ متكبرة. جمالٌ قويٌّ، صلبٌ، جزلٌ. جمالٌ ليس المجون فيه تهتكاً متدنياً. ليس مبتذلاً. ليس مقلداً ولا يقلَّد

***

آدابنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا تقابل من أي وجهٍ مجوني بمنازع الشهوات اللاحقة فيما بعد. المجون وما يلحقــهُ عند العربي الأول نظيف العقلية والشكل معاً، رُجوليٌّ، شعبيٌّ، بدويٌّ، طلقُ المحيَّـا، ساذج وفلسفي الطبع مع ذلك، عليهِ علامة حرية البادية، نورٌ ذهبيٌّ من شمسها، طراوةٌ عميقة الغور من ليلها، ودُعابةٌ لا مباليةٌ لعوبٌ من هواءِ نجدها، ومن نسيم الأمسية في قراها ومنازل واحاتها الصغيرة تأخذ بترصيعها أضواءِ القرى، ولا يشبَّهُ مجون هذه الآداب وحياتها من وجهٍ بمجون آداب الخلاعة الرومانية او الفرنسية وحياتهما كذلك. بل يشبَّـهُ المجونُ اللاحقُ منذ زمن العباسيين بهـا وتشبَّهُ به — خصوصاً الرومانية. ثم انهُ أعلى وأجزل فنًّا في تعبيره الشعري عن تعبير جميع هذه الآداب الشعري او النثري. وهذه أبيات طرفة التي قدمتها مثلٌ، لا يعوزها لترى ذلك بكل وضوح وإضاءتها الا قليل من الشرح وبعض المقابلات

انما لا يغيب عن بالنا انَّا مع ذلك أصحاب السبق في أخام المَاجن الأدبي. وفي مَاجن الحياة كذلك أيضاً، والأدب كما أُعيد وكُرِّر مرآتهـا، حتى أنهُ ربما حوت المدنية العربية الاسلاميــة في الفعل بعض ما لم تحوهِ أبلغ مقترفات خلاعة انكليزية أو شيكاغوية او راسبوتينية الشكل، بأقوى حالات هذه في شذوذها وتهتكها او في أصفق منافقات تسترها. أما في الأدب، فلم تبلغ آداب روما القياصرة، ولا آداب الاستهتار الفرنسي، ولا أظن غيرها إيضاً، حدًّا من حدود أبي نواس او ابن الحجاج، ولا بعضاً من الدسامة الثقيلة في الأغاني وألف ليلة وليلة. كما وأن آداب تلك المجونية كانت محصورة في ناحيةٍ وكتاباتٍ معينة كاد كثيرٌ منها أن يكون

كمواضيع خاصة لاعامة لقلة انتشار معرفة القراءة والكتابة وانحصار الأدب في طبقة محدودة من الناس . أما سمة الشهوة التي تتسم بها العقلية والتصورات ، فتجدها متفشية ، مستمرة عادية الأمر والوقع ، في مجرى عام من مظاهر الحياة والآثار الكتابية العربية . واذا أنت فتحت قاموساً عربيًّا من هذه القواميس الرائعة ، الفيروزآباذي مثلاً ، وأخذت تقرأ فيه من أي صفحة ، لم يطل بك الأمر ، على ما أظن ، حتى ترى في اللغة ، كما صارت على أيامه وكما عبرت عن عقلية وحياة بأصولها ومستحدثاتها ، مصداقاً لما أزعم

***

ويحلو لي ان أمثّل على شيء من هذا القبيل بمخطوط طريف رأيته مرة عند كتبي دمشقي قرب الجامع الأموي،وكان اسمهُ،على ما أذكر،«تحفة العروس».قال لي الكتبي أن مؤلفهُ واحد إما يُعرف « بالتجاني » ، وهو دمشقي ، او «البجّائي» ، وقد يكون مغربيًّا ، وأن السبب في هذه الحيرة كون الاسم في مفتتحهِ على ما يبدو الساعة لذاكرتي ، لم يكن منقطاً . غير أنهُ يخطر في بالي الآن تحقيقٌ للويس شيخو اليسوعي ، في حواشٍ له على كتاب « طبقات الامم » للقاضي أبي القاسم صاعد الأندلسي ، حول اسم مؤلف عربي اختلف فيهِ أيضاً بين « تجاني » و « بجّائي » . فلعلهُ كيفما صحت هويتهُ ، يكون الذي قصده وذكر كتبهُ أبو القاسم هو نفس صاحبنا مصنّف « تحفة العروس »

لم أستطع يومئذٍ اقتناء هذا المخطوط ، فاكتفيت بأن قرأت الكثير منهُ عند الكتبي . رأيتهُ على نسق « رجوع الشيخ الى صباه » ولكنهُ أرقى كثيراً . إذ هو كتاب أدبٍ وأخبارٍ على الطراز الجاحظي أو الجوزي . ومواضيعه ، وان كانت كثرتها في تجهيز لذات الجسد ، الا انها سبكت على أسلوب الفن الكتابي العربي ، فهو إذن، كتاب جهرة ومباسطة من النثر والشعر الأدبي المعروف المثال ، وسمتهُ الخاصة أن أشدّ عنايتهِ باللذات . قد لا يقصد إثارة الشهوة بالذات عمداً ومباشرة، ولا هو يسرد ضروب فنون الاستمتاع الجنوني وغرائبه فحسب . بل عند مؤلفه هذه النعرة الفنية الحسناء في انهُ يستهدف دقة الوصف وحسن الحديث ، مع ثرثرة الاخبار والروايات الغريبة والنكات الطريفة ومع ذلك ، فمادة ثرثرته شديدة الوطء من وجهة الاخلاق الجنسية ، كما قد تصحّ مثلاً ممتازاً على باب المجون في سفر الادب العربي

إنهُ لمخطوطٌ قروسطيٌّ غريب . وهو من احسن الامثلة التي وقعت عليها وأرى تقدمها على صفة المجون في الأدب العربي اللاحق . وليتني حزته يومذاك حتى كنت أضبط الكلام عنهُ اكثر اليوم.

تاسيس سامرا

— ٤ —

بقلم الكبتن كرزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية

الاصول المعمارية

﴿ المئذنة ﴾ من الآراء المسلَّم بها الشائعة ان فكرة بناء مئذنة ذات مرقى حلزوني كمئذنة مسجد سامرا وابي دلف مشتقة من الزيجورات البابلية القديمة ، ولكن هاتان المئذنتان ليستا صورة صادقة للزيجورات اذ أن الاخيرة كانت كلها او جُلُّها رباعية التخطيط بمعنى انها كانت مربعة او مستطيلة بنسبة ٣ : ٢ أضف الى ذلك ان الزيجورات لم تكن جميعها من طراز واحد

وقد أثبتت الدراسات الحديثة لهذا الموضوع ان الطراز الذي كان اكثر شيوعاً من غيره في بناء هذه الزيجورات كان شكل برج مدرج ذي طبقات تتناقص سعتها كلما ارتفع البناء وواجهتها عمودية . ويرقى الى قمة الطابق الاسفل منها بسلم خارجي شديد الانحدار . ويمكن الوصول الى الطبقات العليا باجزاء تعتبر امتداداً لهذا السلم

فاذا فرضنا ان هذا السلم كان يرتفع على ٤٥° فمن البديهي ان يرتدَّ كل طابق من البناء الى الداخل مسافة تساوي مقدار ارتفاعه . وليس هذا الطراز هو الاصل الذي بنيت على مثاله المأذنة الملوية ولكنها مشتقة من طراز آخر مسقطه الأفقي مربع ذو سلَّم او مطلع قليل الانحدار يدور حول البناء في دورات كاملة حتى القمة

ومن الغريب انهُ لم يبق من هذا الطراز الاَّ مثال واحد هو زيجورات خرساباد الذي استكشفهُ پليس Place منذ سبعين عاماً وهو مكوَّن من ثلاث طباق سليمة وبقايا طابق رابع

وقد انتقد بعضهم ملاحظات پليس في هذا الصدد وعارضوا في دقتها وصحتها ، ورفضها كولديوي Koldewey كلية ولكن من الصعب ان نعتقد أن هذه الملاحظات لم تكن في جوهرها صحيحة وهو يقول انهُ بدلاً من ان يجد البناء مستديراً كما كان ينتظر وجده مربعاً تام التربيع

طول ضلعه ١٠ر٤٣ المتر وركنه الجنوبي مبدأ سلم قليل الانحدار سعة درجه متران وعرضها ٨٠ سنتمتراً وارتفاعها ٥ سنتمترات ويمتد هذا السلم على طول الضلع ويدور عند الأركان ثم يستمر صاعداً ماراً بجميع اركان البرج على التعاقب حتى وجد المستكشفون أقسهم ثانية عند نقطة لا يزيد ارتفاعها عن النقطة التي بدءوا منها سوى ١٠ر٦ من المتر

***

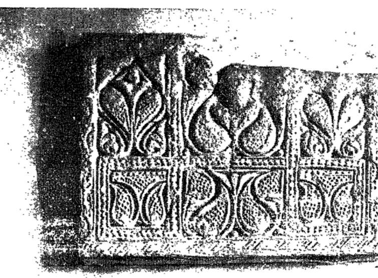
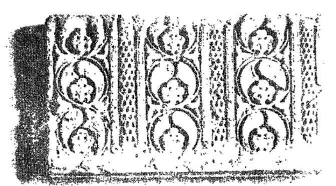
كانت واجهات البرج محلاة بمجموعة من البدنات والدخلات وبالحافة الخارجية للسلم آثار درزوة وجد بعض اجزائها في نقطتين في حالة سليمة تمكننا من معرفة شكل الشرافات التي كانت تحليها . وكان السلم يدور حول البرج على طراز سلم سامرا اي عكس عقارب الساعة كما وجدت ثلاثة ادوار او طباق قائمة ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر وبقايا طابق رابع. وينقص طول ضلع كل طابق عن الذي في اسفله بمقدار اربعة امتار لارتداد كل طابق الى الداخل مترين بسبب السلم وقد وجد پليس Place ان الطابق الاسفل كان محلى بزخارف جصية بيض والثاني ملطخ بالسواد والثالث مائل الى الحمرة والرابع مائل الى الزرقة

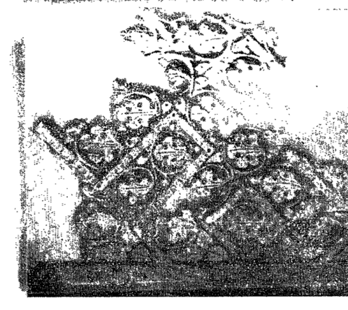
واستناداً الى الوصف الذي ذكره هيردوتس Herodotus عن الزيجورات التي بمعبد بعل ببابل اعتقد پليس إن هذا البرج كان مكوناً من سبع طبقات ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر اي ان الارتفاع الكلي للبرج كان يبلغ ٤٢٫٧٠ المتر وهو يساوي بالضبط طول ضلع القاعدة

ومع انهُ لم تستكشف امثلة اخرى من طراز هذه الزيجورات فليس من المعقول ان نعتقد كما فعل كولديوي Koldewey أن پليس Place قد انساق وراء خياله بعيداً ولاسيما انهُ لم يعثر من قبل على بناء مماثل مما يمكن أن يوحى اليه بهذا الرأي اذ ان پليس نفسه يقول بصريح العبارة انهُ اما كان ينتظر أن يجد بناء مستديراً لا مربعاً

ومهما يكن من شيء فأن الوصف الذي تركه هيرودوتس Herodotus عن زيجورات معبد بعل ببابل يعتبر القول الفصل في موضوع وجود ابراج ذات سلم حلزوني وفيما يلي ترجمة ما رواهُ هيرودوتس Herodotus منقولاً عن ترجمة رولنصن Rawlinson الانكليزية

قال هيرودوتس:— . . . وفي وسط هذه المنطقة برج من البناء المصمت طوله $\frac{1}{8}$ الميل (اي $\frac{١٧٦٠}{٨}$ = ٢٢٠ ياردة) وعرضه كذلك يعلوه برج آخر . وفوق هذا ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ عدد الابراج ثمانية . ويرقى الى القمة من خارج البرج في ممشى يدور حول جميع الابراج وعند ما يصل الصاعد الى منتصف المسافة يجد مجلساً ومقاعد يستريح عليها الصاعدون الى القمة وفي البرج العلوي معبد فسيح بداخله مقعد كبير الحجم محلى بكثير من الزخارف والى جانبه خوان من الذهب» . اهـ



زخارف جصية من الجوسق الخاقاني بسامراء

ويلاحظ هنا ان هيرودوتس يقول ان الطباق كانت ثمانية بينما پليس Place في اعادة انشائه لزيجورات خرساباد جعلها سبعة فقط .

ولحسن الحظ عثر ج. سميث G. Smith في رحلته الاخيرة على لوحة تعرف بلوحة ابزاجيلا Esagila وقد نقل نصها على عجل قبيل وفاته . وبهذه اللوحة كتابة ترجع الى ٢٢٩ ق. م. وهي وصف حرم معبد وزيجورات بعل ببابل وأبعاد طبقاته . وقد عاد كولديوي Koldewey هنا وأبدى كثيراً من الشك قائلاً انهُ ليس هناك اي دليل او اساس يمكن الاستناد اليه في اثبات وجود الابراج المدرجة . وان هيرودوتس نفسهُ لم يقل ان كل طبقة كانت اقل حجماً من التي اسفلها (— يراجع ما رواهُ هيرودوتس ونقلناه فيما سبق وهو القول الفصل في هذه النقطة) وان كان هذا هو المعقول بل الحتم الذي دعت اليهِ ضرورة مادة البناء نفسه وهي اللبن ، لأن استخدام هذه المادة أقتضى ان ترتد كل طبقة الى الداخل اكثر من التي اسفلها لمنع تداعي الطبقات السفلى وانبعاجها ولهذا السبب نفسه كان من المستحيل من الناحية العملية وجود سلم في جوف البناء ولذلك كان السلم حلزونيًّا خارجيًّا»

ولم يكن احد قد اطلع على لوحة المستر سميث Smith او يعرف اين هي حتى استكشف شايل Scheil مقرها عند احد الافراد ونشرها بنصها الكامل . ومن هذا النص يتضح ان طبقات البناء كانت سبعاً تتناقص تدريجيًّا كلما زاد الارتفاع وبالاخيرة منها حرم او مزار الاله

ومع ان هرتسفلد يسلم بأن المأذنة الملوية بسامرا مشتقة من الزيجورات فانه ينكر او كان ينكر اشتقاقها منها مباشرةً معتقداً أنهُ لم تكن هناك زيجورات مطلقاً بالقرن التاسع معروفة معرفة تامة او قائمة في حالة جيدة من الحفظ بحيث يصح ان تتخذ نموذجاً تبنى على مثاله مأذنة سامرا ولذلك اعتقد ان هذه المأذنة مشتقة مباشرة من برج جور (فيروزاباد) الذي وصفهُ فلاندن Flandin وكوست Cost وديولافوى Dieulafoy . وهذا البرج عبارة عن كومة مستطيلة الشكل مبنية بالحجارة غير المنحوتة ارتفاعها ٢٨ متراً بها آثار سلم يدور حول جوانبها الأربعة . وقد أخبرني الدكتور هرتسفلد بعد زيارتهِ لها سنة ١٩٢٤ بزمن وجيز انهُ مقتنع بأن سلم هذا البرج كان يغطيه قبو اسطواني صاعد لوجود آثار عقد هذا القبو ظاهرة في كثير من المواضع . وبناء على ذلك يكون سلم هذا البرج مغطى كنظائره في الابراج الأخرى . ولا يمكن مقابلتهُ بالزيجورات . فاذا كانت ملاحظات ومشاهدات هرتسفلد صحيحة — وأنا أسلمّ بصحتها — فلا تكون هناك أية صلة قطعاً بين برج جور والمأذنة الملوية بسامرا

على انهُ لايمكن القول إنهُ لم يكن في العراق بالقرن التاسع الميلادي اي مثال او نموذج تبنى على مثاله المئذنة الملوية لان زيجورات بابل المذكورة آنفاً كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة في

سنة ٣٥٥ ب. م وقد وصفها هاربوكراتيون Harpocration الاسكندري في كتابهِ Cyranides بل انها كانت لاتزال قائمة في حالة جيدة ايضاً في النصف الثاني من القرن الثانيعشر الميلادي وقد رآها بنيامين التوديلي Benyamin of Tudela ووصف سلمها الذي كان يدور صاعداً حولها

***

اذا ما تقرر ذلك كان من الواضح ان الابتكار الوحيد الذي استحدثهُ المعار في مئذنة سامرا في عهد الخليفة المتوكل هو انهُ نقل فكرة بناء الزيجورات وطبقها بنظام جديد فجعل المئذنة مستديرة بعد ان كانت الزيجورات مربعة

على انهُ ليس من المؤكد ايضاً ان هذا كان ابتكاراً لانهُ من الممكن الاعتقاد الآن بانهُ كانت هناك زيجورات مستديرة ايضاً. وقد تكون بقايا احدها قائمة في البناء «اللبني» الكبير المصمت الذي كشف في Al Hibba . والذي عارض هلبرشت Helprecht من أجله نظرية Koldewey « الذي يميل الى اعتبار هذا البناء المرتفع اساساً لقبر هام. وهذا البناء عبارة عن برج مدرج ذي طابقين يرتكز على الارض مباشرة وهو بحالتهِ المهدمة التيهو عليها الآنلا يزال يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدماً وقطر الطابق الاسفل — الذي يرتفع ١٢ قدماً عن السهل— يبلغ ٤١٠ اقدام بينما قطر الطابق الثاني ٣١٥ قدماً فقط. والبناء مبني كلهُ من اللبن. والطابق الثاني مكسو علاوة على ذلك بطبقة من الآجر والقار والسطح العلوي للطابقين مبلط بهذه المادة نفسها منعاً لتسرب ماء المطر الى البناء

واذا ما استثنينا الشكل الدائري الذي لايمكن مع ذلك ان يعد اعتراضاً جديًّا على نظريتي فان بناء ال Al Hibba بهِ جميع خصائص الزيجورات المميزة لها. وهو في الحقيقة واحد منها»

ومنذ كتب هلبرشت Helprecht ذلك كشفت بقايا مطلع طوله عشرة امتار في الجانب الجنوبي يرتفع بمقدار متر في كل ١٠٠ متر

ويجب ان نذكر في هذا الصدد ايضاً معبد Paneion بالاسكندرية الذي نبه تيرش Thiersch الى ماله من شأن وقد وصفه سترابون Strabo بقولهِ « وهنا ايضاً معبد البانيون Paneion وهو اكمة صناعية على شكل كوز الشربين شبيهة بكومة من الصخر يصعد الى قمتها بمرقى حلزوني»

ويظهر ان طراز المئذنة الملوية كان شائعاً في العصر العباسي الاول ، لأنهُ علاوة علىوجود بقايا مئذنة مشابهة لمئذنة سامرا بجوارمسجد ابي دلف فاننا نسمععن برج مشابه لهُ بناه الخليفة المكتفي ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢/٩٠٨م لاغراض دنيوية. وتقول الرواية انهذا البرجكان يرقى اليه بسلم حلزوني قليل الانحدار حتى كان الخليفة يصعد الى قمة البرج راكباً حماره. وبذلك كان يستطيع دون اي عناء ان يشاهد الارباض والقرى المحيطة ببغداد. ويقال ان هذه القبة

كانت عظيمة الارتفاع مستديرة الشكل وتعرف بقبة الحمار مما يدل على انها كانت تعلوها في قمتها سقيفة مقبية

ويظهر ان هذا الطراز انتشر حتى وصل الى الصين حيث كانت تعرف امثال هذه الابراج بالتاي Tai او الهو Hu وقد ذكر باليولوتسوي Paléolezue ان هذه الابراج كانت من خصائص ومميزات المساكن الملكية بالصين من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر

وفي باريس مجموعة من الصور الصينيـة ترجع احداها الى القرن الثـامن عشر وبها صورة بنـاء شبيه بهذه الابراج . على اننا نعتقد انها لا يمكن ان تمثل بناء كان موجوداً فعلاً او انها نقلت عن نموذج حقيقي لأن دورات السلم في الجانب الايسر من البرج تقع في نفس مستوى دورات الجانب الآخر من البرج بعد نصف دورة وفي ذلك مغالطة ظاهرة

وبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على هذا الرسم لانهُ كما قلنا لا يمكن ان يمثل اي بناء كان قائماً فعلاً

﴿ بلكوار ﴾ يعرف هذا الموضع اليوم باسم المنقور ويبعد ستة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة سامرا الحديثة عند الطرف الجنوبي بمنطقة الاطلال القديمة وقد وجد هرتسفلد في هذا المكان عقداً قائماً من البناء في وسط مساحة كبيرة من الأطلال واضحة المعالم منتظمة التخطيط مما حدا بهِ الى كشف هذه المنطقة من ١٢ يوليه الى ٩ اكتوبر سنة ١٩١١ وسرعان ما وجد امامه قصراً هائلاً عظيم المساحة يطيف بهِ سور ذو أبراج مستطيل التخطيط طول ضلعه ١٢٥٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على شاطىء دجلة الذي يرتفع هنا بمقدار خمسة عشر متراً

وفيما يلي ترجمة ما كتبهُ هرتسفلد عن نتيجة اعمالهِ واستكشافاته في هذا القصر وهو على ما نعلم التقرير الوحيد الذي نشر عن ذلك الى الآن : —

« ليس لهذا المربع سوى ثلاثة ابواب تقع في منتصف الحوائط الثلاثة غير المطلة على النهر اي الشمالية والشرقية والغربية (الحائط الجنوبي مطل على النهر) ويخترقه شارعان رئيسيان متقاطعان على طريقة المعسكرات أو الثكنات الرومانية والمساحات التي بين الشارعين في النصف الشمالي مزدحمة بالبناء . وقد لوحظ في تخطيط الابنية وقوعها داخل المربع مع مراعاة مجرى الماء القديم

والقسم الجنوبي الغربي من الشارع الاعظم الى جانب النهر يشغله مستطيل ثان مساحته ٤٦٠ × ٥٧٥ متراً بهِ حصن يطيف بهِ سور ذو ابراج وهو يمتد من شاطىء النهر الى نقطة تقاطع الشارعين

اما القصر فله مدخل واحد في وسط جانبه الشمالي الشرقي وهو يقع في منتصف المساحة

بالضبط عند تقاطع الشارعين. وينقسم القصر ثلاثة اقسام متوازية كما في قصر العاشق بسامرا ايضاً وبالقسم الاوسط منهُ نجد على الترتيب : - المدخل ورحبة الشرف وقاعات العرش. والرحبات في بلكوار ثلاث. اما القاعات وعددها تسع فهي مرتبة على شكل صليب. وقد روعي التناسق والتشابه التام على جانبي محور القصر. وغرف العرش مفتوحة على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة كما أنها مفتوحة ايضاً على النهر

وهناك حديقة خارج خط حائط الحصن يحيط بها سور ذو دعامات أو فصوص وينتهي عند الشاطىء نفسه بسقيفات غنية بالزخارف. والى جانب الحديقة مرفأ للسفن وفي وسطها حوض للماء

***

والواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود كما في بيت الخليفة وقصر المشتى وقد اشتقت هذه الواجهات ذات الثلاثة العقود والتي عقدها الاوسط يزيد في اتساعه وارتفاعه عن العقدين الجانبيين من ابواب الشوارع الهللينية (الاغريقية) القديمة وأقواس النصر الرومانية. ويظهر ان القاعات ذات المداخل والواجهات المماثلة كانت معدة للاستقبالات العامة كما يتضح ذلك من دراسة نظائرها في القصور الشرقية القديمة والحديثة. ومن امثلة ذلك قاعة قصر طاق او ايوان (كسرى) بمدينة طيشفون

وقد كانت هذه القاعات معدة لهذا الغرض في قصور الامراء أيضاً ودليل ذلك ماورد بكتاب الاغاني الذي هو من ذخائر الادب العربي ومن اغنى المراجع في تاريخ الثقافة العربية على لسان اعرابي يصف قصر احد امراء سامرا وهو يقول ان هذا الامير اذن له بدخول غرفته فوجدها شبيهة بقاعة كسرى

والقاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيسي للقصر على شكل حرف T الذي اعتدنا رؤيته في سامرا. اما القاعات الخمس المرتبة على شكل صليب فان الوسطى منها مربعة وكانت لاجتماعات الخليفة الخاصة وهناك اربع مجموعات متشابهة من الغرف بين أذرع الصليب تتكون كل منها من ثمانية غرف تدور حول رحبة صغيرة مربعة. وبينما نجد القاعات الكبرى مسقوفة بالخشب على شكل قبو على الارجح، نجد الغرف الصغرى مسقوفة بقبوات معقودة من اللبن ذات حشوات غاطسة قريبة الشبه بالسقوف الهللينية (الاغريقية القديمة) ذات الحشوات الغاطسة

وامام القاعات ذات الشكل حرف T الواقعة على المحور الرئيسي، رحبات وغرف كثيرة أخرى لضرورات المعيشة المنزلية بينها حمام فاخر كان مكسوًّا بالرخام

اما الزخارف فهي على نسق واحد متكرر ويظهر جمالها في اتساقها وتكررها وكبر المساحة

التي تغطيها لا في دقة صناعتها . بينما نجد في البيوت الخاصة التي استكشفت بسامرا على كل حائط منها زخارف كثيرة منوعة دقيقة وغنية . والطراز السائد هنا هو طراز سامرا الاول (١) ويعلو وزرات القاعات الرئيسية صفف حائطية منتظمة في ثلاثة صفوف : اسفلها مربع وتعلوه صفة مدببة العقد فوقها دائرة . اما الغرف الصغرى فنجد بها الصفف المربعة في الاسفل تعلوها أخرى بيضية او أهليلجية مدببة او ذات اربع حنايا . على ان الصفوف الثلاثة لا توجد كاملة في أية حجرة من الحجرات

وعلاوة على زخارف الجص نجد في بعض الحجرات زخارف مصورة منقوشة ومذهبة كما يشاهد ذلك في السقيفات المطلة على النهر . اما الواجهة ذات الثلاثة العقود فكانت محلاة بالفسيفساء الزجاجية على أرضية مذهبة في اشكال زخرفية تغلب فيها الفروع النباتية . اما الالوان فتنحصر في اللون الاخضر الذي يتدرج من الاخضر الذهبي الى الاخضر الغامق وبراعم الازهار والفاكهة من اللؤلؤ والارضية من الذهب . وكانت هذه الالوان موزعة جميعاً بنسب متساوية تقريباً . وكانت ابواب الغرف مصنوعة من الاخشاب الفاخرة وكانت غنية بالزخارف المنقوشة والمذهبة ومحلاة بمسامير النحاس المذهبة أيضاً . وكانت النوافذ تملأ بقطع زجاجية مختلفة الالوان منها الازرق اللازوردي والاصفر الباهت والبني والاخضر الغامق والاحمر البنفسجي . على ان هذه البقايا جميعها لا تكفي لتكوين فكرة واضحة تماماً عن زخرفة الحجرات

ويتكوّن القسمان الآخران من المستطيل العظيم من مجموعة من المنازل المفردة . ونظراً الى كبر مساحة القصر كانت المسافة الواقعة بين حائط النهر وخط الجانب الداخلي من رحبة الشرف الثالثة كافية لتشييد المنازل بها . اما الفضاء المجاور للرحبتين الاولين فبقي خالياً من البناء تقريباً . وبهذه الطريقة نجد المحور الرئيسي يقسم القصر الى قسمين كما في قصر العاشق . وهذه المنازل المفردة تعد نماذج وأمثلة حقيقية لطراز المنازل الخاصة بسامرا . فهي تتكوّن من ست عشرة غرفة مجتمعة حول رحبة . وهذه الرحبات مستطيلة الشكل نسبة اضلاعها ٢ : ٣ وفي احد أطرافها قاعة على شكل حرف "T" . وكان يقطن هذه المنازل خدم وحشم الامير او زوجاته وحريمه

اما في القسم الشمالي فيختلف التخطيط قليلاً اذ نجد شارع السوق ورحبات كبرى يظن أنها كانت ثكنات للمشاة والحرس . وقد لخصنا من قبل في تأسيس سامرا أن المعتصم خط القطائع للقواد وللكتاب وللناس . وانه أفرد قطائع الاتراك والعجم وغيرهم عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم . ومنعهم من الاختلاط بهم . ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من

(١) هذا الطراز يسمى الآن الطراز الثالث ويرمز اليه بالحرف C

الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره . ولا يطلق لغريب بمجاورتهم. ولا يطلق معاشرة المولدين . الخ . وانهُ أمر قواده وأصحابه ورؤساء جنده ان يبنوا لهم في خلال قطائعهم المساجد والاسواق والحمامات. ولاشك انهذا كان الحال ايضاً في بلكوار

وقد روى المقريزي في وصف قطائع ابن طولون انهُ كان له القصر والميدان للعب الصوالجة ولا بد ان قصر بلكوار كان فيه كل ذلك أيضاً

ولاحظنا في دراستنا لقصري المشتى والأخيضر ان المسجد كان يقع الى اليمين في القسم الاول من رحبة الشرف . ولذلك كنا نعتقد ان هذا هو الحال ايضاً في بلكوار . فمسجد قصر المشتى يقع الى يمين المدخل الكائن بالحائط الجنوبي وهذا الحائط في سمت القبلة . وفي وسطه (اي المسجد) المحراب الذي يدل دلالة واضحة على انهُ مسجد القصر

اما في قصر الاخيضر ، فأن مدخله من الشمال. ومسجده في مثل هذا الموضع أيضاً الى يمين الداخل وهو ذو بوائك واروقة منتظمة وله محراب في رواقه الجنوبي

فالقصران الاولان في سمت القبلة . اما بلكوار فتنحرف عنها بمقدار ٤٥° درجة

ولذلك فاذا أنشيء بهِ مسجد فلايحتاج الى كبير عناء لمعرفة موقعه لان حائط القبلة به لا بد ان يكون منحرفاً عن بقية الجدران بمقدار ٤٥° درجة

***

وقد ساعدنا هذا الاستنتاج على العثور على موضع المسجد في الرحبة الثانية حيث وجدنا في حائط هذه الرحبة باباً ذا ثلاث فتحات والى يمينه مسجد مساحته ١٥ × ٣٥ متراً به صفان من الاعمدة في كل منها ثمانية عمد . وقد كانت هذه الاعمدة من خشب الساج أو الرخام ولم يبقَ الاَّ آثار مواضعها وأسسها وقواعدها التي كانت تبلغ ٥٠ سنتمتراً (أو ذراعاً واحداً)

ولم يبقَ شيء كذلك من أسوار هذا المسجد أو أسسها لانها كانت من الآجر وقد أُخذت جميعها وحملت لبناتها الى اماكن اخرى ولذلك لم يمكن معرفة موضع المحراب بهذا المسجد . الاَّ انني وجدت بالقسم الجنوبي المقابل مسجداً صغيراً آخر تبلغ ابعاد قاعدته ٧٦ر٧ × ٣٥ر١٠ المتر (اي ١٥ × ٢٠ ذراعاً) وهو مبني باللبن ولذلك لم تمتد اليه يد بالعبث أو الهدم

ولهذا المسجد ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ويتكون محرابه من صفة عميقة مستديرة يحف بها انصاف اعمدة (اعمدة حائطية) يحيط بها رفرف بارز ذو تقوير محدب مكوناً أطاراً مستطيلاً ولذلك يمكن اعادة انشاء المسجد الكبير على هذه الصفة ايضاً

ويعد قصر بلكوار من أعظم المنشآت المعمارية لكبر مساحته وحجمه ووفرة الظواهر الفنية المعمارية فيه

ومما يزيد في روعته رحبانه الواسعة بنسبها وتخطيطها وعظمتها . وابوابه بتنوع اطرزتها واشكالها . وواجهاته بعقودها ورفوفها وفسيفسائها وهي جميعاً أدلة ناطقة على منزلة هذا البناء في تاريخ العمارة الاسلامية . كما ان المادة المبني منها افضل بكثير من المواد المستعملة في بناء الابنية الاخرى فان الاسوار المحيطة بالحصن مبنية من الطين ذي اللون الاسود والرحبة الاولى والاقسام الجانبية مبنية من اللبن بينما الرحبة الثالثة مبنية من الآجر وكذلك قاعات العرش هذا الى حسن اختيار موقعه ودقة تخطيطه . فان الواقف في الحجرة الوسطى (المركزية) مثلاً يرى الى الشمال الغربي صفاً هائلاً من القاعات ورحبات الشرف الثلاث بأبوابها العظيمة وشوارع المربع الخارجي والى الجنوب الغربي القاعات والحديقة والنهر وسهل الجزيرة الذي لا يصل الى مداه الطرف

وفي المحور الرئيسي يرى الانسان في الشمال الغربي القاعات والمنازل والاقسام الجانبية ووادي النهر يشرف عليها جميعاً على بعد فرسخين ونصف الفرسخ قصر العاشق وقبة الصليبية

والى الجنوب الشرقي رأس قناة القاطول وقبة القائم . ولا شك ان تخطيط القصر على هذه الطريقة مع ما فيه من التناسق وحسن التقسيم على النظام المحوري قد أكسبهُ كثيراً من العظمة والجلال والروعة والبهاء

كما ان المعمار قد استفاد كثيراً من طبيعة الأرض وأحسن استغلالها من حيث ارتفاعها وانخفاضها . فالقسم الأوسط مثلاً أكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين كما ان الرحبات تختلف من حيث ارتفاع ارضها وانخفاضها . وترتفع قاعات العرش التي يجلس فيها الخليفة عن جميع أجزاء القصر الأخرى وتكاد تكون أرضها في مستوى السطوح المنبسطة بالاقسام الجانبية

***

تحقيق موقع القصر وتاريخه

يقول اليعقوبي : «توفي الواثق في ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) وولي جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم. وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوار (فاتصل) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ »

ويقول في موضع آخر : « ان المتوكل بنى مدينة جديدة سماها الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسر من رأى ماداً الى الموضع الذي كان ينزله ابنه ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ... ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ »

وقد استنتج هرتسفلد من هاتين العبارتين ان هذه الاطلال التي وصفنا تخطيطها وبناءها هي اطلال بلكوار لان هذه المسافات التي ذكرها اليعقوبي وهي الأربعة والسبعة الفراسخ توافق موقعه موافقة تامة وهي تكوّن الطرف الجنوبي لمنطقة الأطلال العظيمة الاَّ بعض الحارات الطويلة والمنازل الممتدة على شاطىء دجلة مسافة خمس دقائق مشياً على الاقدام ويكون سورها الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي حدود ضواحي سامرا

ولذلك فلا بد ان يكون بلكوار قد بني في عهد الخليفة المتوكل على الله بين سنتي ٢٣٢ و٢٤٧ هـ (٨٤٧ — ٨٦١ م) . على اننا يمكننا ان نحصر التاريخ في عدد اقل من السنين فقد عثر هرتسفلد على كتابة أثرية بالخط الكوفي البسيط على كتلة من الخشب في احدى القاعات نصها « الامير المعتز بالله بن أمير المؤمنين » وهذا هو لقب ابي عبد الله طلحة ابن الخليفة المتوكل

وقد روى ابن خلدون وابن الاثير ان الخليفة المتوكل أعلن ولاية العهد لأبنائه الثلاثة من بعده وهم : محمد المنتصر وابرهيم المؤيد وابي عبد الله طلحة وذلك في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) . وان الاخير منهم لقب بالمعتز بالله وأعطى ولايات خراسان وطبرستان والري وارمينيا وفارس وآذربيجان

وفي رواية هذين المؤرخين خطأ لحظهُ هرتسفلد فيما يتعلق بلقب المعتز بالله لان المعتز كان يتولى الاشراف على دار سك النقود للامبراطورية الاسلامية كلها وظهر اسمهُ على النقود المسكوكة في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩م) ابو عبد الله . اما لقبه المعتز بالله فلم يظهر على نقود الاَّ منذ سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م) مما يدل على انهُ لم يلقب بذلك الاَّ منذ سنة ٢٤٠ هـ

وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابة التاريخية الكوفية على كتلة الخشب التي أشرنا اليها آنفاً وفيها اسم المعتز بالله اقدم من سنة ٢٤٠ هـ . وبعبارة اخرى إن قصر بلكوار لا يمكن ان يكون انشىء قبل هذا التاريخ

كما انهُ لم ينشأ بعد ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) لان المتوكل كان معنيًّا في ذلك الوقت بانشاء مدينتهُ الجديدة « الجعفرية » التي كان قد عزم على ان يبتنيها وينتقل اليها وتنسب اليهِ ويكون له بها الذكر وقد ابتدأ النظر في ذلك في سنة خمس واربعين ومائتين وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة اول يوم من محرم سنة سبع واربعين ومائتين

***

وبناء على ذلك يكون قصر بلكوار قد بني بين سنتي ٢٤٠ — ٢٤٥هـ = (٨٥٤—٨٥٩م)

سير الزمان

بريطانيا وفرنسا

وحدة لا تنفصم عراها

روسيا والبلطيق

من ايفان الرهيب الى ستالين

يوميات دولية

١ — بولندة تموت لتحيا

٢ — الحرب لا تتجزأ

٣ — قانون تعديل الحياد الاميركي

بريطانيا وفرنسا

وعروة لا انفصام عراها

لاتحاد الاوضاع الجغرافية والمبادىء السياسية والاجتماعية

تتجه السياسة الالمانية في غير اسلوب من اساليبها الى التفريق بين بريطانيا وفرنسا. فأبواق الدعاية في الميدان الغربي تنادي الجنود الفرنسيين بأن الجيش الالماني لا يبغي محاربتهم، وانهُ يريد ان يأخذ بتلابيب القوّات البريطانية ليريها كيف تكون الحرب. ومكتب وزارة الدعاية في برلين يذيع ان فرنسا رضيت باقتراح الصلح الذي عرضهُ موسوليني قبيل نشوب الحرب ولكن بريطانيا أبت وقسرت فرنسا على مماشاتها. ومن هذا القبيل شيء كثير. ولو ان الحكومة الالمانية ادركت توثق ما بين بريطانيا وفرنسا من صلةٍ لاستغنت عن بذل الجهد في ناحية لا تجديها نفعاً. فقد طاشت حتى الآن سهام الدعاية الالمانية الموجَّهة الى هذا الهدف ولا ينتظر ان تصيب.

ونحن نقول هذا عالمين ان السياسة البريطانية لم تكن على وفاقٍ دائماً مع السياسة الفرنسية بعد الحرب الماضية، وان الدولتين كانتا خصمين لدودين في الماضي قبل مستهلّ هذا القرن، ولكن انعام النظر في العوامل الاصيلة في سياستهما الخارجية وهي عوامل الجغرافية من ناحية وعوامل نفسية الشعبين واصول نظمهما الاجتماعية والسياسية من ناحية اخرى، يسفر عن ان الصلة بينهما محكمة العرى، وان الاعتقاد يسود دوائرها بان لا قيام للواحدة دون الاخرى

— ١ —

والباعث الاول على هذا الاعتقاد اننا لا نجد سبباً واحداً يبعث على تخاصم بريطانيا وفرنسا الآن. وهذه حالة جديدة في علاقاتهما. ففي العصور الماضية كثيراً ما وقفت بريطانيا وفرنسا في صفين متقابلين. ففي العهد الواقع بين الفتح النورماندي و « حرب المائة السنة » كان ملوك الانكليز قد أحرزوا عن طريق الزواج ملك بعض الولايات في فرنسا وطمحوا من طريقها الى الفوز بالتاج الفرنسي. فأفضى ذلك الى شقاق وحرب بينهما استفحلا بما دخل النزاع من البواعث الدينية كدفاع ملوك فرنسا عن الكاثوليك الانكليز ضدّ « الانجليكان » و « البيورتان » ثم تفاقم الخلاف بين الدولتين حول المطامح الاستعمارية في الهند وكندا

وفي عهد نبوليون نهجت بريطانيا النهج الذي خطهُ لها الكردينال ولسي في عهد هنري الثامن وقاعدته توازن القوى الاوربية والحيلولة دون سيطرة دولة واحدة على اوربا فحاربت نبوليون وفازت مع حلفائها بخذله وظلت هي مالكة سيادة البحار. وكان الظن بعد ذلك ان بريطانيا تتقرب من فرنسا ولكنها لم تفعل فظلت علاقاتهما في خلال القرن التاسع عشر مشوبة، بالريبة

المتبادلة. وكانت اسباب هذه الريبة ذكرى فرنسا الظافرة في عهدي لويس الرابع عشر ونبوليون وامتناع التعاطف بين الامتين لبعد ما بين آدابهما وكون الملكة فكتوريا تزوجت اميراً المانيًّا ثم نشبت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ فمنيت بها فرنسا بالخذلان ، وكانت خطة توازن القوى تقتضي من بريطانيا حينئذٍ ان تنضم الى فرنسا المغلوبة ، ولكن بسمارك تمكن بدهائه من اثارة الخلافات البريطانية الفرنسية على شؤون المستعمرات ولا سيما ما كان خاصًّا بشمال القارة الافريقية وماتزال حادثة فاشودة في سنة ١٨٩٨ مثلاً بليغاً على ذلك

ولكن حكمة الملك ادورد السابع والوزيرالفرنسي دلكاسيه ولورد لانزدون استطاعت ان تستخرج من جيفة النزاع الاستعماري عسل الاتفاق الودي فعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ بينهما فكان ذلك حدًّا فاصلاً في موقف احداهما من الاخرى حيال المسائل الاستعمارية في مصر ومراكش ونيوفندلند وعندما اقتسمتا الاشراف على معظم البلدان المشمولة بالانتداب في سنة ١٩١٩ فعلتا ذلك على الغالب على اساس من التفاهم والود

وعلى الرغم من تسوية المسائل الاستعمارية بينهما ، واشتراكهما في الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) قامت بينهما بواعث تنافس في قارة اوربا بعد الشروع في تنفيذ معاهدة فرساي . فخشيت بريطانيا ان تكون فرنسا قد ملكت من اسباب القوة ما يمكنها — وقد أنقذت من الخطر الالماني — من بسط سيطرتها على اوربا واقلاق التوازن الدولي فيها

وكانت لا ترى من المصلحة ان يكون لفرنسا طائفة من الاتباع تدور حولها كالتوابع حول الشمس فعارضت في احتلال الرور سنة ١٩٢٣ وذهبت الى ان معاهدة فرساي كانت شديدة الوطأة على المانيا وانهُ يجب بذل السعي لمساعدتها على النهوض . ورغبةً منها في اعادة التوازن الأوربي ألقت بنفوذها في كفة المانيا . فلما استأثر الحزب النازي بمقاليد الحكم في المانيا ظلَّ هذا الرأي غالباً على فريق كبير من أصحاب النفوذ والمقام في بريطانيا . ولمَّا احتلت المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح ، ناقضة معاهدة لوكارنو، ثنت بريطانيا فرنسا عن القيام بعمل حربي حاسم لدفع هذا النقض . ولم يتغير هذا الرأي إلاَّ قليلاً عندما ضمت النمسا الى المانيا قوة واقتداراً ثمَّ في أثناء أزمة بلاد السوديت . وقد كان العنصر الغالب في هذا الرأي ان المانيا انما استردَّت سيادتها على أرض المانية (منطقة الرين) وضمت بضعة ملايين من الجرمان . فلم يرَ الانكليز في ذلك شيئاً إدًّا او مما يجوز التعرُّض له بالقوة

ولكن بعد اتفاق مونيخ وطرح مسألة مطالبة المانيا بالمستعمرات على بساط البحث ومضي المانيا في تعزيز أسطولها البحري واستباحة تشيكوسلوفاكيا وتهديد بولندة ، ثبت لبريطانيا ان توازن القوى الأوربية مهدد من قبل المانيا لا من قبل فرنسا . وليس ثمة ريب في ان بريطانيا

كانت — حتى قبل نشوب الحرب — ترغب في ان تكون فرنسا دولة قوية عزيزة الجانب وقد صرّح أقطابها جميعاً — بلدوين وتشمبرلين وإيدن وهاليفاكس — ان حدود فرنسا هي حدود بريطانيا كذلك . فانتفت بذلك كل ريبة لاحداهما في الاخرى . فالتنافس على برّ أوربا بينهما قد زال زوالَ التنافس على المسائل الاستعمارية . فمصلحتهما مهما تعدّد وجوهها واحدة لا ريب في ذلك

— ٢ —

وثمة باعث آخر على ثقة إحداهما بالأخرى. فالدولتان لا ترغبان في فرض أساليبهما ونظمها السياسية على أحد ولكنهما ترغبان أشد الرغبة في صون المبادىء والقواعد التي قامت عليها نظمها السياسية والاجتماعية

وهذه حالة جديدة كذلك . ففي الفترة التي انقضت على انتهاء الحرب العالمية الماضية ، ذهب ظنُّ بعض المفكرين والكتّاب الى ان الفلسفة السياسية التي أخذت بها فرنسا تختلف عما يقابلها في بريطانيا وتعارضها . وقد كان اصحاب هذا الرأي ممن يكتفي بالظواهر دون الأصول ، فقالوا ان فرنسا أميل الى «اليسار» في الآراء السياسية من بريطانيا . ففي فرنسا حزب شيوعي يؤبهُ لهُ وليس له ما يقابله في بريطانيا . وفرنسا عقدت ميثاقاً مع الاتحاد السوفيتي، أما بريطانيا فتعامل السوفييت ولكنها لا توثق الصلة بهم. وفي فرنسا يشترك الراديكاليون مع الاشتراكيين في انشاء جبهة شعبية ولكن شيئاً من هذا لا يقع في بريطانيا . بريطانيا متدينة ، وفرنسا معارضة للاكليروس

ولكن الذين نفذوا من الظواهر الى ما وراءها ، علموا ان الشعب الفرنسي لا يزال شعباً متديناً وان السنوات الاخيرة شهدت بين شبابه نهضة مسيحية قوية وان البابا بيوس الثاني عشر ذهب الى فرنسا عند ما كان كردينالاً — الكردينال باتشلي — فلقي فيها كل اجلال واحترام. وعلموا ان الميثاق مع الاتحاد السوفيتي لم توقعهُ حكومة شيوعية فرنسية بل حكومة محافظة تميل الى اليمين وتخشى الشيوعية . وعلموا ان « كتل اليسار » و « الجبهات الشعبية » في فرنسا ظاهرات دائمة في الانتخابات الفرنسية وان الراديكاليين وهم العنصر المعتدل فيها يميلون دائماً الى الوسط بعيد انشاء هذه الكتل او الجبهات وتحقيق غرضها الانتخابي ، وعليهم المعول في استمرار السياسة الفرنسية المعتدلة الرصينة . وعلموا كذلك ان جمهور الناخبين في فرنسا على الرغم من اقتراعهم في جانب الشيوعيين او الاشتراكيين ، ليسوا في صميم نفوسهم الاَّ طبقة متوسطة معتدلة، لا تطيق ان تشهد قيام النظام الشيوعي في فرنسا او حتى نظام الدولة الاشتراكية الذي تسلم بهِ شعوب الدول الدكتاتورية . يقابل هذا انه كان من رأي الكتاب الذين يكتفون بالظواهر ان بريطانيا ليست دولة دمقراطية لان معظم مقاليدها في أيدي جماعة منحدرة من

الارستقراطية العريقة ولان بعض وزرائها الحاليين من سلالة وزراء القرون الماضية . ولكن الذين تغلغلوا في تفهّم الحياة البريطانية يعلمون ان هذه الارستقراطية الانكليزية ركن من ارسخ اركان الحكومة الدمقراطية في بريطانيا . فهي جماعة لها من الخبرة والحكمة في تدبير الامور، ومن اللين والخضوع للمشيئة العامة ومسايرتها، ما مكّنها من جعل الدمقراطية السياسية في بريطانيا حقيقة واقعة ومن السير سيراً حثيثاً نحو تحقيق الدمقراطية الاقتصادية

وان الباحث ليضحك عندما يسمع نقداً لخطة تشمبرلين فتوصف بأنها خطة اقلية ارستقراطية متحكمة ، كأن أصحاب هذا القول نسوا او تناسوا ان اقطاب الخطة التي تفوز باعجابهم — وهي خطة تشرتشل وإيدن ودف كوبر وغيرهم — اوثق صلة بالارستقراطية البريطانية من تشمبرلين وجون سيمون !

ومهما يقل على ألسنة فريق من الكتّاب غير الانكليز عن نزعة الانكليز الى التحكم الفاشستي في بلادهم فليس ثمة دليل على ان هذا الرأي يتعدّى « دوائر ضيقة » من رجال الحياة الاجتماعية وسيداتها . ان الانكليز لا يرضون بديلاً عن الحقوق والضمانات التي أتاحت لهم من المجد والسعادة والثروة والثقافة العالية ما أتاحت . وما هي هذه الضمانات ؟

أولاً ان لا تمنعَ القوانين التي يقرُّها ممثلو الشعب إلاَّ الأعمالَ التي يُنصُّ على عقوباتها. ثانياً — ان يتساوى جميع الناس أمام هذه القوانين وان يكون القضاة مستقلين عن التأثير السياسي . ثالثاً — ان يكون للحكومة سلطة عظيمة وهي متقلدة أزمة الحكم وان يملك ممثلو الشعب تغييرها اذا انقلبت أكثريتهم ضدَّها . رابعاً — ان لا تخضع حرية الضمير والرأي والقول لقيودٍ ما ، إلاَّ القيود التي يقتضيها احترام حريات جميع الناس

هذه هي الضمانات للحريات العامة في بريطانيا وهي لا تختلف عما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا . وقد أثبت اختبار البشر الطويل قيمتها العظيمة . قد لا تكون وافية، وقد تكون هذه الأمم مقبلة على تعديل في بيان حقوق الانسان . ومن المحتمل ان لا تقبل هذه الشعوب التي خبرت قيمة هذه الضمانات، جمع السلطة الاقتصادية والسياسية في أيدي جماعة واحدة فيزيل هذا الجمع القدرة على إقامة الميزان بين القوتين في تسيير دفة الدولة . ولذلك يلوح ان الاشتراكية والفاشستية والشيوعية مناقضة في أساسها لهذه الحريات . وقد تظهر هذه الحرب أن اتقان أساليب الدعاية يقتضي وضع قيود لحماية الرأي العام من الانباء المختلقة والحضّ على العنف، وفي هذا طبعاً حدٌّ من حقّ حرية القول . ولكن خلاصة الحريات المدنية مطوية في المبادىء والقواعد التي عددناها

هذه المبادىء والقواعد هي اليوم وستبقى غداً أساس الكيان السياسي في فرنسا وبريطانيا

والولايات المتحدة الاميركية وطائفة غير يسيرة من الأمم الأوربية كهولندة وبلجيكا وسويسرا والسويد والنرويج والدنمارك وفنلندة وغيرها . من حق كل انسان ان يعتبر هذه المبادىء خاطئة او ضارَّة او لا تتفق مع الارتقاء الاجتماعي الاقتصادي السياسي في هذا العصر وهذا على ما يلوح هو رأي أقطاب الدول الدكتاتورية سواء أفاشستية نازية كانت أم شيوعية . ولكن لا ريب في ان كثرة الأمتين البريطانية والفرنسية حكومة وشعباً تعتقد أنها مبادىء سليمة صالحة ، وهي مستعدَّة للدفاع عنها ، فالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على هذا الأساس متين لا تفصم عراهُ

— ٣ —

إن الشعبين البريطاني والفرنسي مقتنعان الآن بأن لا قيام لإحداهما دون الاخرى. وهذه حالة جديدة او تكاد تكون كذلك . فقد جاء زمن ظن فيهِ بعضهم في هذه الأمة وتلك ، انهُ من المستطاع ان تصاب إحدى الدولتين بضربة قاضية من دون ان تتأثر الاخرى . وقد تقدَّم معنا كيف وقفت بريطانيا الى جانب المانيا في أغلب وجوه النزاع التي نشأت بين المانيا وفرنسا بين سنتي ١٩٢٠ و١٩٣٦ . وفي سنة ١٩٣٥ عندما استفحلت الأزمة الحبشية الايطالية قال فريق من الفرنسيين « ليس هذا النزاع من شأننا ونحن لا نريد ان نشنَّ حرباً على ايطاليا لحماية منابع النيل لاجل بريطانيا » وفي سنة ١٩٣٨ نظرت بريطانيا الى التزامات فرنسا في شرق أوربا فهالتها فقالت « ليس هذه الالتزامات من شأننا ولن نشنَّ حرباً على المانيا للنهوض بالالتزامات الفرنسية »

ففي هذه الحالات كان من السهل دفع الاسفين بين بريطانيا وفرنسا فكان ما كان من خذلان فرض العقوبات ، واحتلال منطقة الرين ونقض معاهدة لوكارنو وفوز المانيا بما فازت بهِ من الطغيان على النمسا وبلاد السوديت

وليس ثمة ريب في ان هذا الخلاف بين الدولتين كان باعثاً من بواعث ضعفهما في حلبة النضال السياسي . ولكن فترة الخلاف على هذه المسائل الاساسية قد انقضت ، والاتفاق بين الدولتين على ما يهمهما من شؤون اتفاقٌ تام . ذلك ان التهديد الموجَّه الى كيانهما واحدٌ لا ريب فيه . والمسألة الكبرى المرتسمة في افق السياستين البريطانية والفرنسية هي هذه : — أتبقى اوربا مجموعة من الدول الحرَّة ام تطغى عليها دولة واحدة تأخذ بأسلوب القوة والعنف في تحقيق أهدافها ؟ أيستطيع الشعبان البريطاني والفرنسي الاحتفاظ بالحريات التي يقدسانها ، وهل في وسعهما المحافظة على مستعمراتهما ؟ وهذه مسائل لا تعقيد فيها ولا غموض . وجمهرة الشعبين تفهمها مدركة انها انما تحارب للدفاع عن الكيان كما تريد ذلك الكيان ان يكون . وقد كانت جمهرة الشعبين راضية بالمسالمة في سبيل اجتناب الحرب ولكنها أبت أن ترضى بالتخلّي والتسليم المطلقين في سبيل في اجتنابها

ويلوح الآن انهُ من العبث ان يسعى خصوم بريطانيا وفرنسا الى التفريق بينهما في سبيل خذل كلٍّ منهما على حدة ، فاذا تعرضت الامبراطورية الفرنسية في افريقية لخطرما فالانكليز يعلمون ان هذا الخطر غير مقتصر على فرنسا وانها اذا خذلت فدورهم آتٍ لاريب فيهِ . ولقد فاه أقطاب ساستهم في غير موقف رسمي واحد بأنهم يعتبرون كل تهديد موجه الى سلامة الأراضي الفرنسية (في أوربا وخارجها) اعتداء يضطرهم الى الوقوف صفًّا واحداً مع فرنسا . قالها إيدن عندما كان وزيراً للخارجية ولورد هاليفاكس خلفهُ فيها والمستر تشمبرلين . أما وقد انتهت المسألة الاسبانية ، فليس ثمة سبب يحمل أحداً على الاعتقاد بأن هناك مسألة في الوسع أن تبث بواعث الخلاف والشقاق بين دولتي المانش

— ٤ —

ويضاف إلى كل هذا ان الوضع الجغرافي وتغيُّر أساليب الحروب الحديثة يجعلان التعاون العسكري بين الدولتين ضرورة محتومة ، يدل على ذلك وثيقة سرية أعدتها وزارة الخارجية البريطانية ولم تنشر الا سنة ١٩٢٤ نشرها صحافي اميركي فاز بها اتفاقاً . وقد جاء فيها : —

ما هي اذن العناصر الاساسية في ضمان سلامة الامبراطورية البريطانية ؟

ليست السياسة الموصوفة بالعزلة سياسة عملية الآن . قد تكون خطة من هذا القبيل متاحة الآن لاميركا القوية البعيدة . ولكن الامبراطورية البريطانية لا يسعها ان تجعل العزلة ديدنها . فالتاريخ والاقتصاد يثبتان ان العزلة في الأحوال الحاضرة تعني الخطر والضعف والتعرض للهزيمة . ثم ان الجغرافية والطيران يثبتان انها (اي العزلة) في حالتنا ليست حقيقة علمية

والدفاع عن بريطانيا العظمى يقتضي ما يلي : —

١ — ان لا يسمح لدولةٍ واحدة بان تبلغ من القوة مرتبة تمكنها من السيطرة على مرافىء المانش والبحر الشمالي

٢ — ان تجتنب بريطانيا عداء فرنسا وبلجيكا ثم من بعدهما عداء هولندة والمانيا والدنمارك او اية مجموعة منها وهي جميعاً الدول التي تملك المرافىء المذكورة

٣ — ان لا يسمح لأية دولة ثالثة تحارب فرنسا وبلجيكا بأن تغزو هذين البلدين وتهدد الحالة الراهنة لمرافىء المانش او منطقة من أراضي فرنسا وبلجيكا تعرّض بريطانيا منها للغزو الجوّي

٤ — من المصالح البريطانية الثابتة ومن مبادىء دفاعها الأصيلة الاتفاق مع فرنسا وبلجيكا اتفاقاً من شأنهِ صون هذه الاراضي من الوقوع في أيدٍ أخرى

روسيا والبلطيق

من ايفان الرهيب الى ستالين

ليست سياسة الاتحاد الروسي السوفيتي في البلدان الواقعة على سواحل بحر بلطيق في الشهرين الأخيرين بالسياسة الجديدة في تاريخ روسيا . ولكنها تدل على ان روسيا عادت الى حلبة سياسة القوة عازمة على تحقيق هدفٍ قديم وضعتهُ نصب عيونها منذ تسعة قرون وهو الاتجاه الى البحر . ففي سنة ١٠٣٠ في عهد القيصر ياروسلاف وفي سنة ١١٠٦ في عهد القيصر فيسيسلاف بذلت روسيا مساعيها الاولى للوصول الى بحر بلطيق عن طريق المنطقة التي تقطنها القبائل اللتفية Latvian . وتمكنت في اواخر العصور المتوسطة من تحقيق وحدتها الجغرافية وانشاء حكومة قوية ، وذلك بعد ان ردّت جحافل المغول الغازية وفازت بأراض واسعة غنية بالموارد الطبيعية . ولكن صلتها بالبحر حينئذ كانت ضعيفة او مفقودة . فالبحر الاسود كان في قبضة الترك . والبحر الابيض في الشمال كان لا يزال مجهولاً . فلم ترَ منفذاً لها الى البحر الاَّ في بحر بلطيق . ولكن عصبة المدن الالمانية المنسوبة الى هانسا Hanseatic League كانت سيدة امواجه حينئذٍ ، مستأثرة بمسالك التجارة فيه وأسبابها . اما استونيا ولتفيا فكانتا خاضعتين للفرسان التوتونيين Teutonic Order فوقفتا حائلاً دون توسع روسيا نحو سواحل ذلك البحر

وفي سنة ١٤٩٢ — سنة اكتشاف كولومبوس للقارة الاميركية — انشأ الروس قلعة ايفانجورود التي ما فتئت تسيطر على خليج نارفا . (وهو خليج واقع في اقصى الشرق من ساحل استونيا ولا يبعد عن لننغراد الاَّ نحو ١٥٠ كيلو متراً كما يسير الطير) وقد كان انشاء هذه القلعة الخطوة الاولى نحو البحر وهي خطوة حسبها القيصر ايفان الرهيب وسيلة يدخل بها الى روسيا عناصرَ الحضارة التي عززت جانب الدول الاوربية . وقد كان ايفان الرهيب طاغية مستبدًّا ولكنهُ كان سياسيًّا ألمعيًّا . وكان يعلم ان دول اوربا الغربية يهمها ان تبقى روسيا معزولة عن سائر اوربا بسياج من الفطرة . ولذلك رسخ في ذهنهِ ان الحاجة في روسيا انما هي الى رجال الصناعة والفن والتعليم ولا سيما الى البارود الذي لا غنى عنهُ في كسب الحروب

فاغتنم ايفان الفرصة السانحة لهُ — كما اغتنمها ستالين في الشهرين الاخيرين — بضعف المانيا وانصرافها الى شؤون اخرى تهمها ، فطلب ان تباح الحرية لرعاياهُ على صفحة بحر بلطيق والغاء المعاهدة الدفاعية بين الفرسان التوتونيين وبولندة وحل « اللاندسنخت » الذي يحمي لتفيا واستونيا . وذهب وفد الماني الى موسكو للمساومة وبعد جدال سلَّم بطلبات الروس . فأرهف هذا النصر قابلية ايفان فرنا الى سرفا على ساحل البحر يكون خاصًّا بهِ

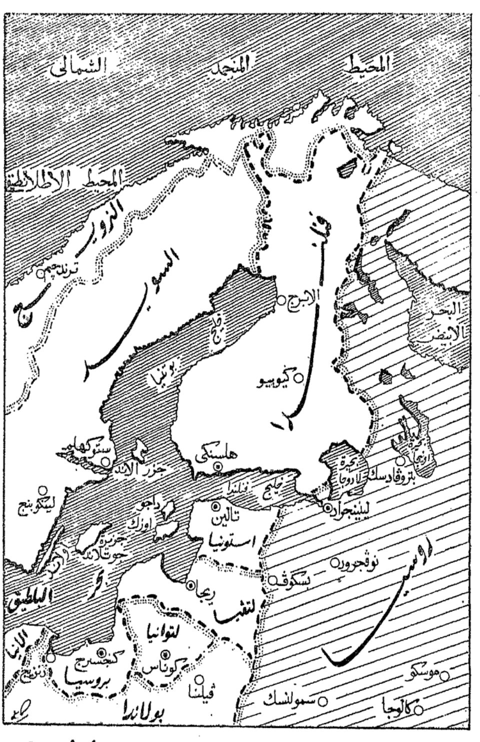
ويلوح ان ذلك لم يكن اندفاعاً وراء شهوة التوسع ،لان شهوة التوسع كانت قد اشبعت في الشرق ، ولكنهُ كان استجابة الى حاجة روسيا الملحة الى الاتصال بالغرب.فاجتاح ايڤان البلدان البلطيقية اجتياحاً خرج منهُ بلفظ الرهيب Terrible مضافاً الى اسمهِ . وبسط سلطانهُ على مرفإ نارفا وسيادتهُ على استونيا ولتفيا . ولاح لهُ ان طريقهُ الى الغرب قد مهِّد امامهُ

ولكن السويديين حصروا مرفأ نارفا واشتركوا مع البولنديين في طرد الروس من المناطق الساحلية . وكذلك اضطر المارد الروسي ان يرتدَّ ثانية عن البحر بعدان ضيّع خمسين سنة من السعي السياسي والقتال في سبيل ذلك . هوذا البحر ولكن الحائل قائمٌ دونهُ !

وتلا ذلك قرن من الضعف والاضطراب في روسيا فلم تعاود الكرَّة على تحقيق ما حاوله إيڤان الرهيب الاَّ في عهد بطرس الكبير . وقد كان الوصول الى البحر في منزلة وسواسٍ يدفعهُ الى العمل ، ففكر أولاً في كاريليا (على البحر الابيض في الشمال) وانشاء مرفإٍ فيها على ساحلهِ . وفي سنة ١٧٠٠ زحف على نارفا ولكن السويديين بقيادة كارلوس الثاني عشر ردوه مهزوماً . فتربص الفرصة السانحة سنتين وهو يتأهب ثم بدأ زحفه فسقطت المدائن في يديهِ وبلغ نارفا فاحتلها ثم زحف الى مصبّ نهر النيفا فأنشأ عليهِ مدينة بطرسبرج (لننغراد الآن) فكانت اول مرفإٍ روسي . ولكنهُ لم يكن واثقاً بنفسهِ وشعبهِ فتوقف عن الفتح وبذل ما في وسعهِ ليرسخ قدمهُ في بعض المناطق التي احتلها.فعرض على السويديين ان يعيد اليهم الأراضي الواقعة على ساحل البلطيق الجنوبي مكتفياً بمصب نهرالنيڤا حيث أنشأ مدينة بطرسبرج وبجزءٍ من كاريليا بل وعرض ان يدفع تعويضاً لقاء استبقائهِ.ولكن الملك كارلوس الثاني عشرملك السويد أبى فمضت الحرب الى نهايتها واحتل الروس سائردول البلطيق في سنة ١٧١٠ وكذلك غدت روسيا التي لم تكن تملك ، بحسب قول فولتير،زورقاً واحداً قبل ذلك بعشرين سنة وهي سيدة ذلك البحر

بعد ذلك لم تقف روسيا عند حدٍّ من الفتح ، وجاءت كاترين العظيمة بعد بطرس الكبير فاتفقت مع الالمانيين على اقتسام بولندة وفازت علاوة على ذلك بلتوانيا ودوقية كورلند وهي شبه جزيرة الى الغرب من خليج ريغا . وكذلك امتدت حدود مملكتها الى حدود بروسيا ، وغدت روسيا دولة في الطبقة الاولى بين دول أوربا ، ونصبت مدافعها في جميع المرافىء اللتفية واللتوانية التي غنمتها . وفي سنة ١٧٨٠ اقنعت السويد والدنمارك وبروسيا بعقد اتفاق من شأنهِ ان يمنع دخول السفن الحربية الاجنبية الى بحر بلطيق ، ولكن هذا الاتفاق ألغي سنة ١٨٥٧ وما فتئت روسيا منذ ذلك التاريخ تسعى الى فرض سيطرتها على ذلك البحر وفي سبيل ذلك حاول القيصر نقولا الثاني سنة١٩٠٧ان يقنع القيصر الالماني بالاتفاق على إيصاد منافذهِ في وجه جميع السفن الحربية التي ليس لها قواعد فيهِ

ولكن هذا الاتفاق لم يجدِ . لأن خصم روسيا في البحر البلطيق لم يكن دولة أجنبية عنهُ وانما كان دولة من دولهِ ونعني المانيا . فالريخ الالماني متجه الى التوسع في الشرق . وكانت



المرحلة الاولى في ذلك التوسع تحويل بحر البلطيق الى بحيرة المانية . فأنشأت الحكومة الالمانية أسطولاً عزيز الجانب وشقت ترعة كيال . ووضعت الخطط لغزوة ولايات روسيا البلطيقية ،

على ان يكون الهدف من غزوها السيطرة على منافذ روسيا الى البحر ثم تحويل مرافئها الى قواعد تستند اليها القوات الالمانية في توسيع آفاق فتوحاتها الشرقية . وقد كانت هذه الخطة من اخطر ما هدَّد بهِ الكيان الروسي ومن أفعل البواعث التي حملت روسيا على خوض غمار الحرب العالمية الماضية . فلما نشبت الثورة الروسية الاولى في مارس سنة ١٩١٧ ادركت الحكومة الروسية الجديدة الموقتة ما للولايات البلطيقية من مكانة حربية فوافقت على استقلالها الذاتي ولكنها لم توافق على انفصالها عن الامبراطورية الروسية. ولما استوثق الالمان من عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الولايات ، اذنوا للرفيقين لنين وتروتسكي في اجتياز المانيا الى روسيا ظنًّا منهم بأن نشوب ثورة شيوعية في روسيا يحدث فيها من الاضطراب والاختلال ما يحملها على مؤآتيهم . فصدق ظنهم . لأن روسيا بعد الثورة الشيوعية قلبت سياستها الخارجية رأساً على عقب

كان الهدف الذي تطلع اليهِ الشيوعيون الروس في بدءِ عهدهم احداث الثورة العالمية ولذلك لم يكن للمصالح الروسية القومية منزلة في نظرهم كمنزلتها في نظر الحكومات السابقة ، فاذاعوا بياناً يستنكرون فيهِ التوسع الامبراطوري وسياسة القوة واعلنوا تطبيق مبدإ تقرير المصير على جميع الشعوب التي كانت خاضعة للقياصرة من قبلهم . فاستقلت دول البلطيق عندما اضطرت المانيا الى التخلي عنها بعيد عقد الهدنة في شهر نوفمبر من سنة ١٩١٨. وكذلك عادت روسيا في القرن العشرين الى ما كانت عليها في مستهل القرن الثامن عشر وليس لها على بحر بلطيق الاَّ منفذ ضيّق عند مدينة لننغراد ، وهو منفذ من أسهل السهل على دول البلطيق سدهُ

هل كانت روسيا السوفيتية صادقة النية في مافعلت وهل كان في وسعها ان تكتفي بما تمَّ وتقف عنده اذا كان في نيَّتها ان تكون في الطبقة الاولى بين دول اوربا ؟

ليس ثمة ريب في ان الانقلاب الذي احدثهُ الشيوعيون في سياستهم الخارجية كان وفقاً لتعاليمهم . وما زال هناك امل في احداث الثورة العالمية فالقواعد والمبادىء القديمة التي اتجه اليها ايفان الرهيب وبطرس الاكبر ليس لها شأن كبير عندهم . ولكننا عندما نتأمل في أحوال روسيا في تلك الفترة التي تلت الانقلاب الشيوعي لا يسعنا الاَّ الظن ان الضرورة قضت على اقطاب الشيوعيين بالنهج الذي نهجوهُ فحولوا «الضرورة الى فضيلة» وطنطنوا بها . فالجيش الروسي في سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ كان ضعيفاً ، والحرب العالمية التي كانت قد دامت اربع سنوات كانت قد انهكت البلاد ونزفت دماءها . وكان في روسيا حينئذٍ قوات معادية للثورة الشيوعية تتحفز للوثوب عندما تسنح الفرصة . فالحكمة كانت في ازالة احد اسباب الضعف بالتخلي عن ولايات البلطيق لخصمهم الكبير — المانيا — في صلح برست ليتوفسك . ومع ذلك تدل الكتابات السياسية الروسية ان لنين نفسه كان متلكئاً في التخلي عن ولايات البلطيق مع ادراكه لضرورة ذلك . وما كادت تعقد الهدنة وترتفع

يد المانيا عن هذه الولايات حتى حاولت القوات الروسية الاستيلاء عليها واعادتها الى الحظيرة الروسية

ولكن هذه الدول الصغيرة دافعت واستقلت وفازت بتأييد الحلفاء في استقلالها هذا فسلمت روسيا بذلك في سنة ١٩٢٠ . ومما لا ريب فيه ان اقطاب الاتحاد السوفيتي كانوا يواجهون في بدء عهدهم بالحكم مشكلات اجتماعية وسياسية وحربية كبيرة فأقنع تروتسكي زعيمهُ لنين بوجوب تأمين حدودهم الغربية للتفرغ للمشكلات المتعددة فعقدت روسيا مع دول البلطيق معاهدات سلام اعترفت فيها باستقلال هذه الدول وبتخليها عن كل حق من حقوق السيادة عليها . وأيد ذلك الاتفاق مع الدول الغربية . وكذلك ما كادت سنة ١٩٢٠ تشرف على ختامها حتى ظن متتبعو احوال البلطيق ان روسيا تخلت عن امانيها فيه

ولكن هذا الظن كان خاطئاً . لأن الروسيين اخذوا يبثون الدعاية الشيوعية في هذه البلدان رغبة في تشجيع احزاب شيوعية صغيرة فيها على النشاط السياسي فتسقط الحكومات القائمة وتتولى هي الامر فيها . فكأن روسيا حاولت ان تسترد بأساليب الثورة ما عجزت عنهُ بالحرب والسياسة . نعم ان الحكومة الروسية انكرت تبعتها في هذا العمل . ولكن الكومنترن او الحزب الشيوعي الروسي مضى في عمله هذا بدافع من الرغبة في نشر الثورة الشيوعية ولعله بأنهُ اذا قامت حكومات شيوعية في هذه البلدان مهد الطريق لانضوائها في نطاق الاتحاد السوفيتي فتعود روسيا السوفيتية كما كانت روسيا القيصرية تطل على مياه بحر البلطيق من سواحل بلدان تابعة لها او في حكم التابعة لها

ولكن الكومنترن أخفق في ما سعى اليهِ عند ما قمت محاولة شيوعية في استونيا لقلب حكومتها وجارتها البلدان الاخرى مما اثبت ان ارض البلطيق ليست بالتربة الصالحة لنمو البذور الشيوعية

فامتنعت الحكومة الروسية عن الثأر لقمع الحركة الشيوعية في هذه البلدان . بل ان تحسن العلاقات الروسية بدول البلطيق جارى تحسن الحالة الاوربية واستقرارها في الفترة السابقة لقيام النازي في المانيا . وأحست دول البلطيق بابتعاد شبح الخطر عنها فتنفست الصعداء، وعادت الثقة فاستحكمت أواصرها بعقد معاهدات تجارية واسعة النطاق ثم تلتها اتفاقات سياسية غرضها جميعاً المحافظة على الحالة الراهنة في شرق أوربا . وكان آخرها مواثيق عدم الاعتداء التي عقدت سنة ١٩٣٢

ولكن الاساس الذي قام عليهِ هذا التعاون الودي بين روسيا وجاراتها البلطيقيات كان امتناع هذه الجارات عن الحيلولة دون وصول روسيا الى البحر . ان الف سنة من التاريخ أثبتت لروسيا ان مصلحتها تقتضي الوصول اليهِ . وهي في حالتها الجديدة أشد ما تكون حاجة الى مرافىء لتفيا وأستونيا ، ولا سيما لان هذه المرافىء كانت متصلة قبل الحرب الماضية بمراكز الانتاج الروسي بسكك الحديد والترع والانهار، وإذن فاستقلال هاتين الدولتين (لتفيا واستونيا) رهن بجاراتهما لروسيا في تحقيق هذه الرغبة . وأدركت هاتان الدولتان حقيقة موقف

روسيا فأتاحتا لها كل تسهيل مستطاع على سكك الحديد وفي المرافىء وخصتها بتفضيل جمركي .
وقد كان هذا الاتفاق في مصلحة الفريقين

فلما قامت دولة النازي في المانيا ووضحت أغراضها البعيدة وأساليبها ، غيرت روسيا سياستها. فعندما كان لعصبة الامم ومبدإ السلامة الاجماعية المنزلة التي كانت لهما من سنوات اعتقدت روسيا ان العصبة والسلامة الاجماعية تضمنان مصالحها كما تضمن مصالح الدول الاخرى . وكانت روسيا حينئذ قد انصرفت — ولو الى حين — عن فكرة الثورة العالمية وعمدت الى الاصلاح الداخلي، فكانت مصلحتها في استتباب السلام والاستقرار الدولي . فاذا استتبا نخير ضامن لمصالحها في الغرب الاحتفاظ بدول مستقلة تبيح لها الوصول الى البحر بالاتفاق المتبادل. ولكن ماحدث في العصور المتوسطة وفي سنة ١٩١٤ حدث في سنة ١٩٣٨ و١٩٣٩ ذلك أن المانيا هدَّدت مسالك هذا البحر الذي لا تستغني عنهُ روسيا، يبسط نفوذها على مياهه وسواحله . ورسخ في أذهان أقطاب الكرملين ان أحد أهداف السياسة النازية الى التوسع في الشرق ، فخشيت روسيا ان يعمد أقطاب النازية الى الاقليات الالمانية الكبيرة في لتوانيا ولتفيا واستونيا فيستعملوها للضغط على حكومات تلك الدول ، ومما لا ريب فيهِ أن روسيا كانت تعتبر خضوع تلك الدول للنفوذ الالماني في منزلة الانتحار لها

كانت روسيا أضعف من المانيا حتماً في بحر بلطيق . ليس لها مرفأ روسي عليهِ الاَّ مرفأ لننغراد . وهو بعيد عن مسالك البحار الحرَّة ، تتجمد مياههُ في الشتاء ، ومعرَّض للحصر من قبل الدولة التي تسيطر على خليج فنلندة. يقابل هذا ان المانيا كانت سيدة البحر. لها فيهِ اسطول قوي ولحكومتها في عواصم بلدانهِ منزلة عالية ونفوذ عظيم

وبدا لروسيا السوفيتية انهُ ما زالت المانيا قاصرة جهدها على اوربا الوسطى فلروسيا ان تطمئن ولكنها عند ما تبينت في خططها نية لا ريب فيها على اجتياح بولندة — على ان يكون هذا الاجتياح مرحلتها الاولى في الاندفاع الى الشرق — قررت روسيا ان تعمل . وسواء اكان هناك اتفاق سابق بين مولوتوف وربنتروب ،على اقتسام بولندة ام لم يكن ، فالامر الذي لا ريب فيهِ أن روسيا غزت شرق بولندة لصدّ الالمانيين . ثم عمد ستالين الى ما عمد اليهِ إيفان الرهيب ، اذ اغتنم فرصة انشغال المانيا بالحرب في غرب أوربا ، فكسب مزايا جديدة لدولتهِ في دول البلطيق الثلاث — وما زال الاتفاق مع فنلندة موقوفاً — وأملى على المانيا ترحيل أقلياتها الالمانية من بلدان البلطيق حتى يستريح منهم أبد الدهر، من ناحية استعمالها أداة للضغط على حكومات تلك الدول واخضاعهم لنفوذ برلين . ولو ان ستالين أراد فون ربنتروب وزيراً لهُ يحقق لهُ كل هذا لما استطاع على ان يحققهُ على وجهٍ أتمّ

يوميات دولية

١ — تموت لتحيا[1]

بولندا بين طي التاريخ ونشره

«تموت لتحيا» ! بهاتين الكلمتين البليغتين وصف غاندي الموقف الباسل الذي وقفته بولندا في الدفاع عن كيانها القومي واستقلالها . وانباء الشركات البرقية ومحطات الاذاعة العالمية مجمعة على ان البولنديين لا يزالون يقاومون ويستبسلون في المقاومة على الرغم من توغل جحافل الحمر والسمر في بلادهم من الشرق ومن الغرب . ومقاومتهم هذه حركت اعجاب العالم بهم حتى اعجاب اعدائهم . واذا كان مصير هذه المقاومة الى الانهيار الآن لتألب ماردين من مردة الجيوش الحديثة عليهم، فليست هذه بالمرة الاولى التي نكبت بها الامة البولندية في تاريخها العريق المرتد الى الف سنة من يومنا هذا . فقد اجتاحتها في فترات شتى من تاريخها جيوش القواد والملوك وداستها سنابك الخيل وهدم استقلالها ومزقت وحدتها ولكنها كانت دائماً تتغلب على المحن ، محتفظة بروحها القومية حية على الزمن ، فتنهض من الانقاض المنهارة أمامها ووراءها وبين يديها نهوض «الفينكس» طائر الاساطير من رماده

وسبب هذه المحن المتوالية على الامة البولندية انها تقطن في منطقة من اوربا اكثرها سهول لا حدود طبيعية لها تسهّل الدفاع عنها، وهي واقعة بين عنصرين من اكبر العناصر الاوربية العنصر الصقلبي في الشرق والعنصر التوتوني في الغرب فكانت ارضها دائماً ميداناً للنضال بينهما. فالامة البولونية ضحية موقعها الجغرافي

***

اجتمعت عليها روسيا وبروسيا والنمسا في سنة ١٧٧٢ فاتفقت على ان تقتطع كل منها منطقة تضمها اليها وقد أفرغ هذا التقسيم في معاهدتين وقعتا في مايو وأغسطس من تلك السنة . وسمح للبقية الباقية من بولندة بعد هذا التقسيم — وهي المنطقة المتوسطة — ان تحتفظ باستقلال خاضع لآراء الدول الثلاث . وهذا شبيه بما روته الانباء البرقية عن مقترحات تعد الآن للفصل في حالة بولندا . فقد روي ان المانيا ستحتفظ بدانتزج والمجاز البولندي وسيليزيا العليا وتضم روسيا المناطق التي يقطن فيها اكرانيون وروسيون يعرفون بالروسيين البيض . وينشأ من المنطقة

---

(١) يومية كتبت يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩

المتوسطة دولة صغيرة خاضعة لبرلين — على نمط بوهيميا ومورافيا — تكون كالمجن بين روسيا والمانيا ومن المحتم ان مصير هذا الاقتراح معلق بمصير الحرب نفسها

***

ثم اقتسمت بولندة مرتين بين الدول الثلاث التي تقدم ذكرها في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٢ و ١٧٩٥) وعندما نشبت الثورة الفرنسية —وكان من مبادئها مبدأ القومية— سارت الجيوش الفرنسية مظفرة مرفوعة الاعلام الى النمسا وبروسيا فتطلع البولنديون الى استرداد استقلالهم بأمل ورجاء وجاءهم نبوليون فأنشأ غراندوقية بولندة بعد صلح تيلسيت سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تضم جميع المناطق التي يقطنها بولنديون فلما زحف نبوليون الى غزو روسيا عقد البولنديون آمالهم على فوزه لكي يضموا المناطق البولندية التابعة لروسيا ولكن نبوليون أخفق في كسر روسيا وبعد انقضاء سنوات سقط وعقد مؤتمر فينا للحكم في مقدرات الامم الاوربية فأيد هذا المؤتمر قسمة بولندة التي تمت سنة ١٧٩٥ بين روسيا وألمانيا والنمسا وظلت الحال كذلك الى مستهل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤

عندما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ وجد البولنديون أرضهم ساحة قتال عنيف وأبناءهم يحاربون بعضهم بعضاً في الميدان الشرقي لان منهم من كان مجنداً في الجيش الروسي ومنهم من كان مجنداً في الجيش الالماني أو النمسوي وكانت روسيا في صف والمانيا والنمسا في صف مقابل. وكان رأي الزعماء البولنديين مختلفاً حيال الوسيلة التي تمكنهم من تحقيق أمانيهم القومية فبادروفسكي الموسيقي المشهور كان يرى ان تؤيد الامة البولندية قضية الحلفاء وبلسودسكي القائد المشهور كان يرى ان الخطوة الاولى لتحقيق الأماني القومية هي القضاء على روسيا فساعد المانيا بجيش صغير وعندما غلبت روسيا على أمرها في بولندة وخرجت منها ، أنشأت المانيا حكومة بولندية شبه مستقلة. الا ان بلسودسكي أدرك في ربيع سنة ١٩١٨ ان المانيا ليست خالصة النية من حيث انشاء بولندة مستقلة فانقلب عليها وانحاز الى رأي بادروفسكي فاعتقل وسجن واتهم بأنهُ معتوه ولكنهُ فرَّ من السجن بحيلة بارعة وظل يحارب حتى انهارت امبراطورية النمسا والمجر وخارت قوى المانيا فعقد الصلح وقامت بولندة الجديدة على انقاض تاريخها بعد ان جعل الرئيس ولسن وحدتها واستقلالها من شروطه الاربعة عشرة المشهورة

وكذلك نهض طائر الأساطير من رماده مرة أخرى . وغدت بولندة الجديدة في المرتبة الاولى بعد الدول الكبرى في أوربا

وها هي ذي الآن تعاني محنة أخرى من المحن الكثيرة التي عرفها تاريخها العريق ولكن الصفات التي مكنتها وهي تحت نير الضغط والاستبداد من الاحتفاظ بحيوية الشعب والاتصال

بتقاليده وآدابه المجيدة ودرس لغته في حين كان هذا كلهُ محظوراً عليها لا بد ان تمكنها من ان تنهض نهضة أخرى . ان أمة تنجب أمثال كوبرنيكوس واضع علم الفلك الحديث وشوبان ملحن شجون القلب الانساني ومدام كوري مكتشفة الراديوم وغيرهم لا يمكن ان تبقى ذليلة . فقد ضمت هذه الاسماء الى كوكبة العبقريين الذين رفعوا الانسانية قليلاً فوق مستوى المعنى الترابي نحو العرش الاعلى . وأما جالبو هذه المحنة عليها — ولا نقول الشعوب — فستنضم أسماؤهم الى كشف كبار المدمرين في التاريخ المحتوي على آتيلا وهولاكو وجنكيزخان

٢ — الحرب لا تتجزأُ (١)

والسلام الذي يطلبهُ هتلر هو هدنة بين حربين

كان الشعار السياسي الذي ساد دوائر الدول الاوربية في السنوات التي سبقت الحرب الحبشية وتلتها « ان السلام لا يتجزأ » وهو قول وضعهُ سياسي سوفيتي والغالب انهُ الرفيق مايسكي سفير الاتحاد السوفيتي في لندن ،وذلك عندما كان الاتحاد السوفيتي يخشى المانيا واليابان في وقت واحد

ومعنى هذا القول أن سلامة كل أمة هو جزء من سلامة الدول جميعاً . وان كل تهديد يوجه الى سلامة أمة انما هو تهديد موجه الى سلامة الجميع . وليس في هذا القول جديد الاَّ افراغه في هذا القالب الموجز الذي يستوقف النظر . فارتقاء الحضارة الحديثة افضى الى ترابط الامم واشتباك مصالحها . فأصبحت العزلة التامة في هذا العصر متعذرة . وقد اعترف واضعو ميثاق جامعة الامم بهذا المبدإ عندما قالوا في المادة العاشرة من الميثاق ان أعضاء الجامعة يتعاونون في رد كل اعتداء موجه الى أحدهم.ثم في المادة السادسة عشرة حيث أقروا الاساليب العملية الفعالة لهذا التعاون . واذا كانت الجامعة قد اخفقت في تطبيق هذه الاساليب تطبيقاً فعالاً فتاريخ السنوات العشر الماضية بينة ناهضة على صدق القول بأن « السلام لا يتجزأ »فالاعتداء على منشوريا في ١٩٣١ وامتناع الجامعة عن التصدي لوقفه أضعف من هيبتها فمهد السبيل لحوادث الحبشة فلانتهاك معاهدة لوكارنو فضم النمسا فاتفاق ميونخ فاستباحة بوهيميا ومورافيا فاكتساح بولونيا واخضاع دول البلطيق

***

ويقابل هذا أن « الحرب لا تتجزأ » . فالباعث المباشر على هذه الحرب القائمة الآن هو اعتداء المانيا على بولندا بغير أن تستفز الثانية الاولى مهما يدعِ دعاة المانيا ويعيدوا في أن

(١) يومية كتبت في ٧ أكتوبر ١٩٣٩ على أثر خطبة الهر هتلر

استفزاز بولندا لالمانيا كان لا يطاق . وقد اعتدت عليها كذلك بدون أن تعرض عليها شروط التسوية التي زعم فون ربنتروب أن بولندا رفضتها . ومن هنا عزمت بريطانيا وفرنسا على النهوض بالعهود التي قطعتاها لها

ولكن الباعث الاصيل على هذه الحرب هو في قول المستر تشمبرلن « انقاذ اوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان » . وقول المسيو دلادييه «انقاذ اوربا من ضرورة التعبئة كل ستة أشهر »

واذا كانت الاعمال الحربية التي تمت حتى الآن قد مسحت بولندا المستقلة من خارطة اوربا فهذا المسح لا يعني ان النظام قد استقر في شرق أوربا استقراراً يجعل المضي في الحرب امراً لا مسوغ له . اذ كيف يعقل ان يكون هناك استقرار في البلاد الممتدة من جبال السوديت الى ما وراء نهر الفستولا حيث يقطن ثلاثون مليوناً على الاقل من التشك والسلوفاك والبولنديين يسامون أشد ألوان الخسف والظلم وهم يتحفزون كل يوم للانتقاض في سبيل استرداد ما سلبوه من حياة قومية مستقلة حرة لها من تاريخهم وثقافتهم وادبهم أقوى سند ؟

واذا كان الهر هتلر لا يفتأ يذكر معاهدة فرساي وما فيها من مظالم كلما وقف يخطب فلماذا لا يذكر ان اخضاع هؤلاء الملايين والاستبداد بهم شر من جميع مساوىء فرساي مجتمعة . واذا جاز لنا ان نأخذ الالمان بما يفرضونه على الشعوب التي يغلبونها في الميدان مقياساً، فلنرجع الى معاهدتي بخارست وبرست ليتوفسك وهما المعاهدتان اللتان فرضتهما المانيا القيصرية على رومانيا وروسيا في سنتي ١٩١٦ و١٩١٨ فان فيهما من ضروب الجور والعسف ما يفوق المآخذ التي أخذت على فرساي أضعافاً مضاعفة

واذن فتغلب المانيا وروسيا على بولندا وتقطيع أشلائها الدامية ومحوها من صفحة الخارطة الاوربية الآن لا يمكن ان يقوم دليلاً على ان النظام قد استتب هناك وان العدل قد وضع في نصابه الحقيقي وان سياسة العدوان قد انتهت الى حد تقف عنده

والواقع ان جماعة النازي ما كانوا يرضون بمبدإ « ان السلام لا يتجزء » لانهم وجدوا ان أخذ كل دولة بمفردها كان أسهل عليهم فأبوا أن يدخلوا الا في مفاوضات ثنائية . وكما فعلوا في السلم يحاولون ان يفعلوا في الحرب اي انهم يريدون ان يجزئوا الحرب . فهم يقولون ان بولندا غلبت وانتهينا منها فلنتفاهم على الباقي الآن لعلهم يشغلون الناس بحديث السلام عما اقترفوه قوة وبطشاً

وهذه خطة وضع الهر هتلر لها القاعدة في كتابه كفاحي عندما قال ان الظافر اللبيب يمضي في فرض الطلبات على خصمه طلباً طلباً فتضعف مقاومة خصمه ويصبح وهو لا يرى في اي مطلب جديد مهما يكن مرهقاً سبباً لحمل السلاح

وقد طبق هذه القاعدة مرة بعد مرة . خرج من مؤتمر نزع السلاح وجامعة الامم وصرح انهُ بعد تسوية السار يحترم معاهدة لوكارنو حرفاً وروحاً وعقد اتفاقاً مع النمسا على احترام استقلالها السياسي لـكي يعزلها ثم طالب بالسوديت على اعتبار أنها آخر مطالب جغرافي له في أوربا . ولـكن ذلك كله لم يمنعهُ من نقض لوكارنو في مارس١٩٣٦ وضم النمسا في مارس ١٩٣٨ واستباحة مورافيا و بوهيميا في مارس ١٩٣٩

وكان فوزه في جميع هذه الاعمال بغير مقاومة تذكر فعزز من هيبته ومكن لرجاله من استعمال سلاحهم الفعال وهو « سلاح الهدم الداخلي » بالدعاية الهدامة على اختلاف أساليبها وما قوله الآن انهُ انتهى او أوشك وان أمامه في شرق أوربا وشرقها الجنوبي عملاً يستغرق خمسين سنة الى مائة سنة وانهُ يبغي السلام لانهُ يعرف ويلات الحرب ويمد بنقص السلاح واحترام حدود هذه الدولة وتلك الا من قبيل ما قاله عشرات المرات قبلاً ولـكنهُ ما أعلن مرة احترامهُ لمعاهدة ما او حدود دولة ما الاَّ وهو عاقد النية على ان هذا الاحترام لا يدوم الاَّ مدى ما تقضي بهِ مصلحته كما يراها

فالسلام الذي يطلبه على هذا الاساس « لا ينقذ أوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان» على ما قال المستر تشمبرلين ولا يكون الاَّ «هدنة بين حربين» على ما قال المستر دلاديه

٣ — تعديل قانون الحياد الاميركي (١)

لم تكد تنقضي عشرة أيام على توقيع ميثاق انقره حتى تلقت الدوائر الصحافية في القاهرة أنباء من الولايات المتحدة الاميركية بأن مجلس الشيوخ الاميركي أقر في الساعة التاسعة من مساء أمس (الجمعة ٢٧ اكتوبر) التعديل الخاص بمادة رفع الحظر عن شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة ثم أقرَّ مشروع قانون الحياد في جملته باتفاق ٦٣ صوتاً على ٣٠ صوتاً فكان ذلك فوزاً كبيراً للرئيس روزفلت ومؤيديهِ و نصراً ثانياً للدولتين الدمقراطيتين بريطانيا وفرنسا كان ميثاق انقره اولها

تضى مجلس الشيوخ خمسة أسابيع في مناقشة التعديلات المقترحة على قانون الحياد ارتفع فيها غير صوت واحد بالمعارضة من اقطاب عرفوا بمكانتهم السياسية والاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية كالسناتور بوراه والمستر هوفر والمستر فورد والـكولونيل لندبرج. ولـكن ذلك لم يحل دون انتهاء المناقشة الى نتيجتها المنطقية لان قانون الحياد المعدَّل اعراب يكاد يكون دقيقاً عن شعور الرأي العام الاميركي بوجوب بذل العون للدول الدمقراطية بكل وسيلة مستطاعة الا خوض الحرب. ولم يبق امام المشروع الاَّ مرحلة رسمية فقط ينتظر ان يجتازها في ايام (٢)

يرتد أصل قانون الحياد الاميركي الى رغبة الشعب الاميركي في الاحتياط دون الانسياق

(١) يومية كتبت يوم ٢٨ اكتوبر ١٩٣٩ (٢) وقد اجتازها فعلا ووقعه الرئيس في ٥ نوفمبر

الى خوض حرب لا يريدها . نعم ان حكومة الولايات المتحدة الاميركية تؤثر على الغالب خطة الحياد الدولي . وفعلاً ما كاد ينقضي يومان على نشوب الحرب الناشبة الآن حتى أعلن الرئيس روزفلت حياد دولة الولايات المتحدة . ولكن البلاد الاميركية بلاد صناعية كبيرة ويحق لها بحكم كونها دولة محايدة ان تصنع ما تشاء وتبيعه لمن يرغب فيه من الدول المتحاربة . الاَّ ان هذا الحق خاضع لما يتفرع على حق الحصر البحري من زيارة وتفتيش ومصادرة . وهذا بطبعه يعرض السفن التجارية الاميركية للاصطدام بالسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة وربما نشأت عنهُ حوادث دبلوماسية قد تكره الحكومة الاميركية على خوض الحرب بسببها دفاعاً عن الرعايا الاميركيين والعلم الاميركي الخافق على سفنها

ولذلك كان الرأي ان الامتناع بتاتاً عن تصدير الاسلحة قد يكون خير وسيلة لضمان الحياد الاميركي . وكان الأفق الدولي ملبداً في أثناء الازمة الحبشية (١٩٣٥) فوضع قانون الحياد على جناح السرعة وأقر ثم عدل تعديلاً يسيراً بعيد نشوب الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦) لانهُ ثبت ان نصوصه لا تشمل حرباً أهلية

هذا القانون يقوم بوجه عام على قاعدتين أولاهما — إباحة تصدير المواد التي لا تعتبر مواد حربية على ان يوفَّى ثمنها قبل تسلمها . ثم يجب ان تنقل على سفن غير أميركية . والحكمة في توفية الثمن مقدماً الحيلولة دون تراكم ديون للدول المتحاربة في أميركا قد تعجز بعد الحرب او تمتنع عن إيفائها . ثم قد يكون من شأنها ان تحرك الدائنين الاميركيين على الدعوة الى الحرب لمساعدة الدول المدينة لهم لكي يضمنوا بفوزها إيفاء ديونهم

والقاعدة الثانية تفادي تعرض السفن الاميركية لسفن الاعداء وما قد ينشأ عن ذلك من حوادث تسبب جفاء وقد تكره اميركا على خوض الحرب

هذا هو القانون في مجمله قبل تعديله . ولكن فريقاً كبيراً من المشتغلين بالسياسة في أميركا ومن حملة الاقلام ودعاة تأييد الدمقراطية وكبح جماح الدول المعتدية ذهبوا الى ان الاحتفاظ بهذا القانون مشجع على الاعتداء قبل نشوب الحرب . ومضعف للدول التي ينتظر ان يعتدى عليها بعد نشوبها . وكان رأيهم ان المانيا مسوقة حتماً الى الاعتداء بسبب خططها السياسية فيجب ان لا ترى في الاحتفاظ بهذا القانون سبباً يسوغ لها الاعتقاد بأن الولايات المتحدة نفضت يدها من كل عون يبذل للدول الدمقراطية. ولذلك كتبوا كثيراً وخطبوا مطالبين بتعديل القانون تعديلاً يكفل عون الدول الدمقراطية ويقي الولايات المتحدة في الوقت نفسه من خطر الانسياق الى الحرب . وجميع الاستفتاءات الشعبية التي قام بها معهد كمعهد « جالوب » ومجلة كمجلة « فورتشون » أيدت هذا الرأي تأييداً لاريب فيه . ولذلك اقترح رسميًّا تعديل القانون وكان

الظن ان التعديل يقر قبل انفضاض «الكنغرس» الاميركي في الصيف ولكن مجلس الشيوخ امتنع حينئذٍ عن بحث الموضوع فحذره الرئيس روزفلت من عاقبة امتناعه وصرح انهُ اذا سارت الحوادث السير الذي يتوقعهُ فسيدعو الكنغرس الى اجتماع استثنائي للنظر في قانون الحياد وفعلاً دعاه في منتصف سبتمبر وبدأ الاجتماع الاستثنائي يوم ٢١ سبتمبر الماضي . فما مغزى هذا التعديل ؟

اولاً — الغي الحظر على شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة . فيحق للفريقين ان يبتاعا في اميركا ما يحتاجان اليهِ بلا تمييز بينهما . ولكن الغاء الحظر مقيد بقاعدة « ادفع وانقل » او «ادفع وشيل» ومعنى هذا ان الدولة التي تريد ان تبتاع طائرات اميركية عليها ان توفي الثمن فوراً قبل ان تنتقل ملكية الطائرات اليها . وثانياً عليها ان تنقل هذه الطائرات بسفن غير اميركية والحكمة في هذا التقييد ظاهرة وقد اشرنا اليها في ما تقدم

ومغزى هذا ان بريطانيا وفرنسا تستطيعان دون المانيا ان تبتاعا ما تحتاجان اليهِ في اميركا وذلك لان المانيا لا تملك من النقد الاجنبي ما يمكنها من توفية الثمن فوراً . وأما بريطانيا وفرنسا فلهما في أميركا ١٧٥٠ مليون دولار سبائك ذهبية وودائع مالية مختلفة . ثم ان السفن الالمانية التجارية اختفت من مسالك البحار منذ نشبت الحرب . وأما السفن البريطانية والفرنسية فكثيرة تمخر البحار السبعة وتحميها سفن الاسطولين . ولا يخفى أن المصانع الاميركية كانت متوقعة ما حدث ولذلك لم تنِ يوماً عن صنع الطائرات الحربية وغيرها من الاسلحة التي ينتظر ان يكثر الطلب عليها وجميعها معدة للسفر عند ما يوضع قانون الحياد المعدل موضع التنفيذ

ثانياً — الغيت مهلة التسعين يوماً بين تسلم البضاعة وتوفية ثمنها وجعل الدفع فوراً (كانت هذه المهلة مقترحة في مشروع التعديل) والغالب ان الاتفاق على الغاء هذه المهلة كان ترضية لجماعة المعارضين في تعديل القانون ومفاداة لمد أجل المناقشة قبل القرار الاخير

ثالثاً — حظر السفر على الاميركيين بسفن تابعة للدول المتحاربة وحظر دخول السفن الاميركية التجارية مناطق معينة يحددها الرئيس وتعرف « بمناطق الحرب » . وذلك لكي لا تتعرض الارواح الاميركية والسفن الاميركية لحوادث قد يكون من تأثيرها الخروج بالحكومة الاميركية عن نطاق الحياد الدولي الذي التزمته

إن ما نقلتهُ الينا أنباء القتال في الميدان الغربي عن تفوق المطاردات الاميركية التي من طراز « كرتس » ينطوي على اشارة يسيرة الى ما يجوز لنا ان نتوقعه من تعزيز لقوات بريطانيا وفرنسا الحربية باستيراد ما تحتاجان اليهِ من أميركا علاوة على التأييد الأدبي . فالقرار الذي اتخذه مجلس الشيوخ الاميركي فوز عظيم الشأن للدولتين الدمقراطيتين يعزز من شأنه وتأثيره انهُ تم بعد انقضاء تسعة أيام فقط على عقد ميثاق أنقرة

باب المراسلة والمناظرة

مفردات النبات

حضرة رئيس تحرير المقتطف الاغر

استميحكم عفواً في تأخر ردّي على ما نشرتموه للأمير مصطفى الشهابي في مقتطف يوليو من ملاحظات على مقالاتي في « مفردات النبات بين اللغة والاستعمال » التي كنت انشرها تباعاً في مقتطفكم. ولقدسرّني اهتمام الأمير وتتبعهُ لها بالنقد والكتابة فان الحقيقة بنت البحث. فجزاه الله احسن الجزاء. وها كم ردّي مرتباً على تلك الملاحظات واحدة فواحدة

(١) ذكرت في جزء اكتوبر سنة ١٩٣٦ انهُ « يقال للكزبرة التقدة بالكسر والفتح مع كسر القاف والجلجلان » فقال الأمير ان « قاف التقدة ساكنة . اما الجلجلان فهو ثمر الكزبرة » ولا جدال في ان بزر الكزبرة يُعرف بالجلجلان كما جاء في المعجمات العربية ولكن ألا تجوز هذه التسمية كما يطلق (القَرَض او القَرَظ) وهو ثمر السنط على شجر السنط نفسه من قبيل تسمية الشيء ببعضه في اصطلاح النباتيين

فقد جاء في مؤلف المستشرق الهولندي دوزي — تكملة المعجمات العربية — المطبوع بليدن سنة ١٩٢٧ جزء ثان ص ٣٢٩ ما ملخصه : —

« ان القرض او القرظ = acacia » وهو السنط

أما كسر قاف (تقدة) التي قال الامير أنها ساكنة ، فقد جاء في الجزء الثاني من تاج العروس ص ٣٠٨ ما يأتي : « التقدة بالكسر وتفتح مع كسر القاف الاخيرة — عن الهروي — الكزبرة الخ »

(٢) وذكرت في جزء يونيو سنة ١٩٣٦ ان « الأرز واحدته أرزة شجر معروف من الصنوبر يقال له (الشربين) أيضاً » . فقال الامير « لا لزوم لفتح راء الأرزة . والأرْز من الفصيلة الصنوبرية وليس من الصنوبر . وهو غير الشربين . ويخلط بعض أصحاب المعجمات القديمة بين الارز والصنوبر او يعرفون هذا بذاك فيجب على علماء اليوم ان يبتعدوا عن مثل ذلك » الى آخر ما أورده الأمير خاصًّا بأهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام

وأود أولاً توجيه النظر الى أني لم اتعمد فتح راء الأرزة التي وردت مفتوحة خطأً مطبعيًّا ودليلي على ذلك ان عنوان هذا المفرد النباتي « الارز » بتسكين الراء فيجب ان تكون واحدته أرْزة ساكنة الراء كذلك كما لا يخفى .

اما كون الأرز ليس من الصنوبر وهو غير الشربين فحسبي ان اورد اولاً ما جاء في المعجمات العربية مما يثبت ان الأرز من الصنوبر كما ذكرت . فقد جاء في معجم البستان المطبوع سنة ١٩٢٧ ص ٢٦ ما نصه :

«الارْز بسكون الراء ذكر الصنوبر الخ » وجاء في تاج العروس الجزء الرابع ص ٣ ما نصه «الأرز بالفتح ويضم شجر الصنوبر»

اما كونه غير الشربين فحسبي ان أورد هنا ما جاء في مؤلف دوزي الآنف الذكر جزء اول ص ٧٤٢ تحت مادة شربين : «انهُ معرب عن اللغة الارامية يقابلها في اللغة الفرنسية (le cèdre “ordinaire„) وهو الأرْز وجاء في ص ٩٥ من معجم المصطلحات الفنية للعلوم والآداب والفنون باللغتين الفرنسية والتركية لمؤلفيه : تغير وسناپيان المطبوع بالقسطنطينية سنة ١٨٩١ تحت مادة (سدر ، شربين ، ارزة cèdre, sm. “Bot.„ — سدر لبنان ، شجر سليمان Cèdre du Liban » فهل لنا بعد ذلك ان نقول ان الأرز هو الشربين او انهُ يغايره وهل لنا أيضاً ان نقول باتفاق المعجمات العربية — التي وصفت في قول الامير بأنها قديمة — مع المعجمين المذكورين فيما سلف أوليس لنا ان نقول ذلك ؟ وليسمح لي الأمير ان ألفت النظر الى ان ما أورده من اسماء أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام انما هو صحيح في ذاته من حيث بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفه جورج پوست الذي نقل الأمير تلك الاسماء عنهُ . ولا يعزب عن فكره انها تختلف باختلاف البلدان العربية . فمثلاً الشربين أو السرو في الشام هو السرو في مصر و بلاد الجزائر . والعرْعَر في الشام هو الشربين في بلاد الجزائر . اما العرعار في بلاد الجزائر فهو من جنس Thuya الى غير ذلك

(٣) اورد الأمير اني قلت في جزء اكتوبر ١٩٣٥ أن الخروب بضم الخاء وأن الصحيح عنده أنها بخاء مفتوحة . وهذا صواب أما ضبطها بالضمة فوقع خطأً مطبعيًّا بدليل اني لم أشر الى الضم بالكتابة لا بالشكل كما أفعل دائماً في الكلمات التي يلتبس الأمر في ضبطها

(٤) لم اذكر في جزء يوليو ١٩٣٥ ان الكباد (ككتان وهي لفظة وردت في التاج) تطلق في الشام على شجرة الأترج الى آخر ما ذكره الأمير . وليسمح لي مرة اخرى ان الفت النظر الى ان كلمة كباد التي يطلقونها هناك على شجرة الأترج انما هي صحيحة من حيث استعمالها في بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفه پوست . ويؤيد ذلك ما جاء في مؤلف المستشرق دوزي الذي سبقت الأشارة اليه . ففيه : كبّادة = cédrat بالفرنسية ولكن قد يطلق كبّاد ايضاً على bigarad بالفرنسية وهو النارنج المعروف عندنا كما يطلق على poncire وهو نوع من الليمون كما جاء في مؤلف دوزي . وفي بلاد الجزائر يطلقون الأترج على citron

بالفرنسية الذي هو نوع من الليمون كما جاء في تاج العروس جزء ٢ ص٤٨٢ وعبارته « الكباد كَكَتّان نوع من الليمون » وعلى ذلك فالتسمية قد تختلف باختلاف البلدان

(٥) وصحيح انني أوردت في جزء يوليو سنة ١٩٣٥ تسعة انواع من الكمء دون أن أسميها بأسماء عربية الى آخر ما ذكره الأمير

ولكن ليسمح لي في هذا الصدد ان أقرر ان مقالي عن الكمء كان في البداية ولم يكن من غرضي حينئذٍ وضع اسماء عربية لجميع النباتات التي أكتب عنها مع علمي بامكان ترجمتها بعد الالمام الى حدّ ما باللغتين اللاتينية واليونانية . فقد كان غرضي إيراد ما جاء في المراجع المعول عليها من أسماء على قدر ما يسعه الجهد . والذي يؤيدني في ذلك ان الامير حينما أراد ان يذكر أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية في جبال الشام اقتصر على ما جاء في كتاب بوست فقط ولم يذكر ما جاء عن هذه النباتات في المراجع العلمية الاخرى من أسماء عربية

(٦) ويقول « اني اتبعت القاعدة المارة الذكر في بحثي عن شجر القيقب (الاسفندان) في جزء يونيو سنة ١٩٣٧ فقلت الاسفندان الابيض والاسفندان الجبلي والاسفندان الجنزي والاسفندان العادي . ولكن هذه الالفاظ هي ترجمة ما يقابلها بالفرنسية او الانكليزية لا ترجمة أسمائها العلمية . ومن الاصلح كما هو معروف ترجمة الحروف العلمية الدالة على الانواع النباتية لانها مشتركة بين الامم » الى آخر ما ذكره . وأقول إن هذا الرأي حصيف ويا حبذا لو أمكن اتباعه . ولكن هذا لا يتحقق الاَّ اذا تضلَّع الباحث من اللغتين اللاتينية واليونانية مما لم يتوفر لي الى الآن . ولا يفوتني أن أذكر هنا اني عند ما كتبت هذا البحث اعتمدت على معجم المصطلحات الفنية الآنف الذكر وهو لا يذكر غير الكلمة الفرنسية ومقابلها من التركية والعربية احياناً

(٧) ويقول اني جعلت لفظة المنجو العامية (جزء ابريل سنة ١٩٣٦) اسماً اصليًّا لشجرة الأنبج وأن المعروف أن النبات أنما يسمى باللفظ العربيّ او المعرب قديماً ثم تذكر اللفظة العامية ويشار الى كونها عامية . وقد كنت احب أن لا يفوت الأمير أن هذا الاسم العاميّ هو المتداول في مصر واني أردت تقريب الفائدة الى أقرب المطلعين ممن حولنا

(٨) ويؤاخذني الأمير بعدم استعمال الالفاظ التي أقرها العلامة الدكتور امين باشا المعلوف في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العربي بدمشق ، وأنا مع احترامي الصادق للدكتور المعلوف باشا لا أرى من الانصاف أن أتقيد أنا أو غيري بهذه الألفاظ ما دامت هناك الفاظ تساويها في القيام بالغرض ، على اني مع ذلك لم تتح لي فرصة الاطلاع على هذين المجلدين من المجلة المذكورة

وهناك ملاحظات اخرى لا اراني في حاجة الى الرد عليها لأنها من قبيل هذه الملاحظة الاخيرة . وقبل ان اختم هذه الكلمة اشكر لحضرة الأمير مصطفى الشهابي حسن عنايته بتتبع مقالاتي في هذا الموضوع ١٠ اغسطس ١٩٣٩ محمود مصطفى الدمياطي

حول رسائل الدكتور اسماعيل أدهم

حضرة رئيس تحرير المقتطف

بعد تقديم واجب التحية : قرأت في العدد الاخير من المقتطف بحثاً للدكتور اسماعيل احمد أدهم عن اتجاهات الشعر المصري . وقد نسب اليَّ الدكتور أدهم رأياً قال أني حدثته به . وهذا الرأي يتناول الادب المصري عامة وشعر مطران خاصة

ولقد أفهم ان يروي عني خبراً ولكن نقل الآراء في هذا المعرض من الامور غير المألوفة الاَّ ان يكون الرأي مدوناً في كتاب او مقتبساً من محاضرة او غير ذلك مما يكون صاحبهُ قد هيأه للنشر

وانهُ لمن المتعين عند رواية الاخبار في كل حديث ان تكون مطابقة للواقع ولذلك يجوز نقلها في كل حال . أما أحاديث السمر التي لا يعرف المتحدثون فيها ان كلامهم سينشر فهي من أسرار المجالس ان كانت . على أني انما انلطف بهذه المقدمة تحاشياً من صريح التكذيب ومنعاً للاحراج وأعلن أني لا أرى الرأي الذي نسبهُ اليَّ الدكتور وليس من حقه ان ينشره ان كنت حدثتهُ بهِ لاني لا أعلمهُ يزورني ليشرفني بعقد حديث صحفي معي

على أني بعد ذلك لم أحدثهُ بهذا الرأي وعليهِ مني أزكى التحيات وأطيب السلام

عبد اللطيف النشار

حول مناظرة « مباحث عربية »

روى الدكتور بشر فارس في مقالهِ «حول مباحث عربية» المنشور في مقتطف اغسطس ١٩٣٩ (صفحة ٣٥٦) ان الدكتور اسماعيل احمد ادهم اخذ فكرة النقد الباطني والخارجي عن الاستاذ صديق شيبوب. ثم تلقينا منهُ كتاباً من الاسكندرية لحصناهُ في قولنا ان ما اشار اليهِ ليس قرين الصواب لان الدكتور ادهم كان اسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق. وبعد ظهور مقتطف اغسطس كتب الاستاذ صديق في «البصير» مصححاً الرواية قال « حقيقة ما جرى ان لا الدكتور ادهم اخذ عني ولا أنا أخذت عنه . ومثل هذا النقد سهل يدور في ذهن كل اديب مارس قليلاً الكتابة باللغة العربية . وقد جرى اني بينما كنت اطالع «مباحث عربية » تنبهت الى هذا المأخذ ثم جاءني الدكتور ادهم زائراً وتحدثنا عنهُ فأشار في معرض حديثهِ الى هذا النقد فأجبته انهُ جال في خاطري» . فوجبت علينا الاشارة الى ذلك وضعاً للحق في نصابه



أنواع القنابل

التي يستهدف الناس لخطرها من الجو

لا يخفى ان عواصم الدول الاوربية ، والعاصمة المصرية وكذلك الاسكندرية ، وغيرها من مدن البلاد المختلفة قد اعدت المعدات لوقاية الشعب من اضرار الحملات الجوية . ففي الحرب الحديثة تختلط الاهداف العسكرية البحتة بالمدن الآهلة بالسكان والعامرة بالصناعة مع احتمال خلوها من المعاقل والحصون وحشد الجيوش وبعدها عن خطوط القتال

والخطر المرتقب من الجو ، هو خطر القنابل المختلفة التي ينتظر ان تمطرها الطائرات المهاجمة وهي ثلاثة اصناف بوجه عام

اولاً — القنابل المتفجرة وهي احجام متفاوتة وقد تبلغ من الضخامة بحيث تحتوى القنبلة منها على طن من المادة المتفجرة . فتدمر كل ما تصيبهُ من هدف . وقد اثبتت التجارب ان الوقاية من هذه القنابل تقتضي طبقة عمقها ٨٠ قدماً من التراب او ١٢ قدماً من الاسمنت المسلح . وبفضلون في انكلترا طبقتين سميكتين من الاسمنت المسلح بينهما طبقة سميكة من التراب . وفي وسع قنبلة من هذا الصنف ان تدمر بناية ضخمة وتصدع المباني التي حوالها

اما الاهلون فمن المتعذر عليهم ان يصنعوا شيئاً للوقاية من هذه القنابل ، الاَّ اللجوء الى المخابىء العميقة التي تنشئها الحكومات ، او إلى الانفاق ، او الادوار الارضية من بعض المباني الضخمة العالية المبنية بالاسمنت المسلح

ومن حسن الحظ ان هذه القنابل الضخمة لا تحمل الاَّ في قاذفات القنابل الكبيرة . وهي على الغالب بطيئة الحركة بالقياس الى سرعة المطاردات علاوة على أنها أهداف سهلة لقنابل المدافع المضادة للطائرات لكبرها . وعلى ذلك فهناك فريق من الخبراء مثل كومودور الجو الانكليزي تشارلتن يذهب الى ان الحماية ضد قاذفات القنابل حماية تامة متعذرة ولو اجتمع ضدها المطاردات والمدافع المقاومة للطائرات والانوار الكشافة وسدُّ البلونات وذلك لانها تصبح خطراً من ساعة قيامها من مطارها لان ما فيها من المتفجرات خطر عظيم سواء أقذف منها قصداً أم أُصيبت وهوت محطمة الى الارض

ثانياً — قنابل الغازات — والدليل على ما ينطوي في هذا النوع من القنابل من خطر الاستعدادات الواسعة النطاق لتجهيز الشعب كباراً وصغاراً بالاقنعة الواقية من الغازات

والتعليمات التي تصدرها مصالح الوقاية ، الخاصة بانشاء حجرة خاصة في كل بيت يستطيع اهله ان يلجأوا اليها الى أن تعلن الصفارة أن خطر الغارة قد انتهى ، وتمرين الشعب ورجال البوليس على مقتضيات حفظ الأمن في اثناء هذه الغارات ومنع الذعر وهو اعدى اعداء الشعب في مثل هذه الغارات

***

وكثيراً ما يتناقش الناس في احتمال وجود غاز جديد سري كشفته احدى الدول وأخفته الى اليوم المطير ، وليس هناك ما يمنع ان يكون ذلك كذلك ولكن ما عرف من دراسة الغازات التي تصلح للاستعمال في الحرب ، اقنع الباحثين ، بأن احتمال ذلك ضعيف جداً . ففي الحرب الكبرى درست ٣٠٠٠ مادة كيميائية تصلح من حيث خواصها الكيميائية للاستعمال في الحرب ، ولكن اكثرها لم يجتمع له الخواص والصفات العامة الاخرى (وقد اوجزناها في النبذة التالية) فلم يصطفوا من الـ ٣٠٠٠ مادة بعد التجربة والامتحان الا ست مواد

ثالثاً — قنابل الاحتراق ، وخطرها على الحياة قليل بالقياس الى خطرها على الاملاك فالقنابل المتفجرة الضخمة تدمر ما تصيب ولكنها غالية الثمن ثقيلة الوزن وقد لا تستعمل الا ضد الاهداف العسكرية الرئيسية . ولكن قنابل الاحتراق خفيفة الوزن صغيرة الحجم اشبه ما تكون بقنابل اليد ، وهي اذا مست جسماً صلباً ولدت حرارة تتفاوت بين ٢٣٠٠ درجة و ٢٧٠٠ درجة سنتغراد والمادة التي تولد هذه الحرارة العالية فيها هي مادة الترميت فاذا لم تعد المعدات الواقية لمقاومتها وحصر تأثيرها حيث تقع ففي وسع الطائرة المغيرة ان تلقي مئات منها أو ألوفاً فتحدث حرائق صغيرة حيث تقع ولا تلبث حتى تتحول الى نار كبيرة مشبوبة يعجز رجال المطافىء عن السيطرة عليها فتشل الإدارة من ناحية وتحدث خسائر كبيرة مادية وفي الارواح من ناحية اخرى ، وخصوصاً اذا كانت الريح مساعدة على نشر النار بعد شبوبها

والقاعدة في الوقاية منها حصر تأثيرها وذلك بفرش السطوح بالرمل ، لانهُ اذا وقعت القنبلة وولدت الحرارة التي تقدم ذكرها ، واحيطت بالرمل منعت من ان تصيب اشياء قابلة للاحتراق فلا تلبث حتى تنطفىء وينقضي شرها وخطرها

أهم الخواص

التي يجب ان تتصف بها المادة الكيميائية الحربية

١ — يجب ان تكون فعالة اذا وجدت مقادير يسيرة منها منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء . والمقصود أجزاء صغيرة من المادة الكيميائية في ملايين الاجزاء من الهواء . فاذا كانت المادة غير فعالة في هذه الحالة فهي لا تصلح للاستعمال في الحرب ، ويقول أحد

الثقات الكيميائيين ان غاز الفوسجين يكون فعالاً اذا وجد منهُ ٤ / ١٠٠ من الأوقية في ألف قدم مكعبة من الهواء . أي ان تكون نسبة الغاز الى الهواء كنسبة واحد الى ١٠٠ الف واذا كانت أقل من ذلك واستمرَّ المرء يستنشق ذلك الهواء بضع دقائق متوالية فقد يستنشق منهُ ما يكفيهِ للاصابة بتسمم مميت . وغاز الخردل فتاك في مقادير صغيرة كذلك ، ويكفي ان يكون منهُ ٦ / ١٠٠ الى ٢ / ١٠ من الأوقية في الف قدم مكعبة من الهواء ليفعل فعله القاتل . والتفاوت سببهُ طول مدة التعرض المستمر لاستنشاقه او قصرها

٢ — يجب ان تكون المادة الكيميائية الحربية مما تصعب الوقاية منها . اي يجب ان تخترق الأجهزة التي يستعملها العدو للوقاية منها . او اضعاف عملها على الأقل . اي انهُ لا يكفي ان تحمل هذه المادة الجنود على لبس الاقنعة ، مهما يكن في لبسها من عرقلة لعمل الجندي بل يجب ان تؤثر في اجزاء الجسم المختلفة ، في اغشية الرئتين والعينين والانف والجلد ، لأن تغطية الجسم كله من الرأس الى اخمص القدم والاطراف ليس بالامر السهل . وغاز الخردل يتصف بهذه الخاصة ، والوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجندي رداءً مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامة أرهق الجندي وعرقل عمله وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً عليهِ اكثر من بضع دقائق

واذا كان لا يؤثر في اعضاء كثيرة في الجسم فيجب ان يكون في وسعهِ اختراق الاقنعة ، اي يجب ان لا تمنعهُ المواد التي توضع في الاقنعة للتصفية . والكلور وهو اشد الغازات فتكاً لا يصلح من هذا القبيل لانهُ سهل الامتصاص . وقطعة من القماش المغموس في الصودا تكفي اذا وضعت على الانف لمنع وصوله الى الرئتين . ولكن هناك مركب منهُ يدعى «كلور بكرين» الوقاية منهُ صعبة جداً

٣ — يجب ان يكون صنعه سهلاً ، ونفقته غير مرهقة . وهذا لاسباب اقتصادية ولاسيما اذا عرفنا ان مقادير كبيرة من الغاز تبذل في الجو ، في هذا المحيط الهوائي المتسع ، حتى يتاح لقليل منها ان يفعل فعله . ومما يتصل بهذه الناحية منهُ ان صنعهُ يجب ان يكون متاحاً من مواد متوافرة في البلاد نفسها فلا ترهق باستيراد مواد اجنبية علاوة على ما تحتاج الى استيراده من المواد الاخرى اللازمة للصناعات الحربية والغذاء

ثم ان نقله يجب ان يكون سهلاً وغير محفوف بالخطر . وكل مادة يصعب حصرها في انابيب او اسطوانات ، او تأكل الاسطوانات بتفاعلها الكيميائي معها ، او قابلة للتفجر ينقص صلاحها للاستعمال الحربي . ثم يجب ان يكون مستقرَّ التركيب اذ ما الفائدة من غاز تصنعهُ وتخزنهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ أيام او اسابيع تحلل الى مواد لا تضر ولا تؤذي

وأخيراً يجب ان يكون لا لون لهُ ولا رائحة ولا طعم . وليس هناك غاز يجمع هذه الخواص الثلاث ويفتك بالانسان الاَّ غاز واحد

وهوأول اكسيد الكربون. ولكنهُ لا يتصف بالخواص الاخرى . وغاز الخردل يفوقهُ بوجه عام كما يفوق جميع المواد الكيميائية الحربية بوجه عام

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية (سنة ١٩٣٩) للدكتور جيرارد دوماك Domagk الالماني الذي أنقذ ألوفاً من براثن الموت باكتشافه مادة البرنتوزيل وهي صبغ أحمر غير سام عرف دوماك انهُ يقي الفيران من فعل الجراثيم الستربتوكوكية اذا تناولتهُ عن طريق الفم

صنع هذا الصبغ أولاً على يدي الباحثين الدكتور فرتز ميتش Mietsch والدكتور جوزيف كلارر Klarer ومن المرجح ان عشرات من الكيميائيين والاطباء في شتى أنحاء العالم جربوا التجارب بمركبات كيميائية من قبيل البروتنوزيل سعياً وراء مادة كيميائية تقتل الجراثيم وتقي الناس شرورها

ولكن بحث الدكتور دوماك في الفيران ورسالتهُ التي ضمنها نتائج بحوثهِ كانت الحافز الذي حفز علماء أميركا والمانيا وبريطانيا وفرنسا الى موالاة البحث والتجريب، فأحلوا السلفانيلاميد والسلفاپيريدين محلّ البروتنوزيل فأحدثوا انقلاباً خطير الشأن في علاج الامراض بالمواد الكيميائية . وقدعرضنا لهذا الموضوع في المقتطف وكتابنا الجديد « آفاق العلم الحديث » (راجع صفحة ١٩٧ — ٢٠٥)

***

وقد منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٨ (وقد تأخر منحها) للاستاذ هيمانس Heymans أحد أساتذة جامعة جنت Ghent البلجيكية لكشفه أحد الاساليب التي تضبط التنفس وهو بحث فسيولوجي دقيق لا يتسع المجال هنا للتبسط في نواحيهِ الفنية

***

ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٩ للاستاذ لورنس أحد علماء معهد كاليفورنيا التكنولوجي جزاء لهُ على استنباط السيكلوترون (الجهاز الرحوي) فاستطاع ان يقذف بهِ دقائق ذرية وذريرية على نوى الذرات بطاقة عظيمة فتتحول العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة . (راجع آفاق العلم الحديث صفحة ٨٩ — ٩٩)

اغلاق الجامعات الالمانية

تلقت مجلة « العلم » الاميركية من مكاتبيها في اوربا ان الحكومة الالمانية قررت اغلاق جميع جامعاتها ماعدا جامعات برلين وميونخ وفيينا . واذا اخذنا بعدد الطلاب الذين كانوا يتلقون العلوم العالية في جامعات المانيا في خلال سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ علمنا أن ايصاد

ابواب الجامعات عدا الجامعات الاربع التي تقدم ذكرها سيوصد أبواب العلم العالي في وجوه ثلاثين الى خمسة وثلاثين الف طالب الماني غدوا مكرهين على الانصراف عن الطلب الجامعي . ففي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ بلغ عدد الطلاب في جامعات المانيا ٤٧٤٧٠ طالباً منهم ٧٤٦٣ طالباً في جامعة برلين و ٤٩٣١ طالباً في جامعة ميونخ و ١٠٣٣ طالباً في جامعة يانا ومجموعهم ١٣٤٢٧ فاذا لم تتسع هذه الجامعات الثلاث لعدد من الطلاب اكبر من العدد الذي كان منتظماً فيها في السنة الماضية (١٩٣٧ — ١٩٣٨) فسيضطر الباقون الى التخلي عن طلب العلم الجامعي

وليس ثمة ريب في ان هذا سيحط من مستوى العلم والبحث العالي في المانيا في الجيل المقبل اذا لم يتدارك هذا النقص

خط الدفاع الاول ضد الزكام

يرى الطبيب الاميركي الدكتور كنت ليجر Leisure ان الغشاء المخاطي الرطب في داخل الانف هو خط دفاعنا الاول ضد الزكام . فاذا اصيبت الغدد التي تفرز هذا المخاط بما يعجزها عن الافراز مدى نصف ساعة تمكن فيروس الزكام من اختراق هذا الخط من خطوط الدفاع الى انساج الجسم . فاذا احسست بجفاف في الغشاء المخاطي الذي يغطي باطن الانف والحلق فاعلم ان حصونك الاولى ضد مسببات الزكام قد استسلمت او بدأت تستسلم للعدو

لو كان لينين حياً . . . !

قيل ان تروتسكي الزعيم الشيوعي المبعد — المقيم الآن بدار في مدينة المكسيك ببلاد المكسيك — غافل حراسه في احد الايام وقصد الى جدول ليصطاد السمك رغبةً في الرياضة . واذ كانت صنارته في الماء وهو على الضفة يعالجها طلع عليه فلاح صياد كذلك فتبادلا التحية واشتركا في حديث الصيد . ثم انتقل موضوع الحديث فالتفت الفلاح الى تروتسكي — وهو لا يعرف من هو — وقال أصحيح ان تروتسكي مات ؟ فقال تروتسكي لا إن تروتسكي لم يمت لانهُ لو مات لما كنت اصطاد هنا . فلم يلمح الفلاح النكتة في العبارة فقال لعلني اخطأت القراءة او اخطأت التذكر ولعله ستالين هو الذي مات . فقال تروتسكي لا لا . ستالين لم يمت لانهُ لو مات ستالين لما كنت هنا اصطاد . فكانت هذه العبارة اشد غموضاً على صاحبنا الفلاح وكأنهُ ظن الرجل الذي امامه يواجههُ بالالغاز فقال له : طيب لنين حي . كيف تفسر ذلك ؟ فقال تروتسكي لا . لا . لنين مات لانهُ لو كان لنين حيًّا لكان حتماً يصطاد هنا .. !

جزائر آلند

جزائر آلند أرخيبل واقعة في خليج بوثنيا الممتد شمالاً من بحر بلطيق بين ساحلي فنلندة الى الشرق والسويد الى الغرب. والجزائر تبعد ٢٥ ميلاً عن ساحل السويد و١٥ ميلاً عن ساحل فنلندة. ومجموع مساحتها ٥٥١ ميلاً مربعاً وسكانها نحو ثلاثين ألفاً معظمهم من أصل سويدي

الجزائر تابعة لفنلندة ولكن لها نظام اداري خاص بها قاعدته الاستقلال الذاتي وهناك اتفاق على الامتناع عن تحصينها قضت به عصبة الامم وذلك عوداً الى تنفيذ اتفاق دولي سابق من هذا القبيل عقد سنة ١٨٥٦

وليس للجزائر قيمة اقتصادية . وانما قيمتها الاستراتيجية عظيمة . فخلجانها الصخرية تتحكم بالمواصلات البحرية من الشمال الى الجنوب — وعن هذا الطريق تستورد المانيا جانباً كبيراً من ركاز الحديد السويدي الممتاز — ثم أنها واقعة أمام مدخل خليج فنلندة

وفي نهاية هذا الخليج مدينة لننغراد الروسية وعلى ضفته الجنوبية قاعدة كرونستاد البحرية ويضاف الى كل هذا ان استعمالها قاعدة جوية يهدد كثيراً من مناطق فنلندة والسويد الصناعية ولاسيما السويد ومن هنا حكم عصبة الأمم بعدم تحصينها ولا يعلم مايكون مصيرها الآن والحالة هي ما هي بين روسيا وفنلندة

ذكاء القردة : قرد يتصرف كانسان مهذب

جرَّب حديثاً الدكتور مينيرا Monnerat الجرَّاح البيطري الذائع الصيت في مدينة باريس تجربة مفيدة جدًّا في علم النفس الحيواني ، وهي انهُ احضر معهُ منذ عشر سنوات ، عند أوبتهِ الى وطنهِ من سياحة علمية قام بها في مجاهل أفريقية ، قرداً من نوع الشمبنزي ، عمره سنتان ، كان قد صاده في احد الادغال

وما استقرَّ بهِ المقام في داره ، حتى بذل هو وزوجته وولداهما أقصى جهودهم في حسن معاملة ذلك القرد الصغير وتهذيبه ، حتى جعلوه ينسى وحشيته ثم أطلقوا عليهِ اسم فاطو Fatou

فكانوا يعاملونهُ كأنهُ بشر، مجتنبين تدريبه تدريباً خارقاً للعادة أيًّا كان نوعه ، ولم يكتفوا بجعلهِ يسلك سلوك انسان ، بل حملوهُ على تكييف نفسه رويداً رويداً ، تكيفاً يتفق والاوساط الراقية . وقد أدب حديثاً الدكتور مينيرا مأدبة في داره ، دعا اليها نخبة من العلماء ومندوبي الصحف ، حيث عرض عليهم « فاطو » عرضاً عامًّا اول مرة . فدخل ذلك القرد المهذَّب حجرة المائدة ماشياً على قدميه الخلفيتين ، منتصب القامة ، فأغلق بابها خلفه ، ثم دنا من ضيوف سيده وصافحهم واحداً فواحداً غير وجل ولا مضطرب . ثم جلس في مؤخرة المائدة وشرع في تناول الطعام أسوة بالمدعوين جميعاً ، بكل اعتدال دون ادنى زلل

وكان الغذاء حساء وسمكاً ولحماً وبطاطس وحلوى وفواكه ، فسلك القرد سلوكاً ينمُّ على كبح النفس الى أقصى حدّ ، فكان يتناول

في دوره الصحون من جاره ، ويغرف منها قسطهُ من الطعام ، ثم يناولها لمن يليهِ من الجلوس مباشرةً ولم يؤخذ عليهِ من سلوكه في الاكل، إلاَّ تناولهُ من الفواكه والخضراوات اكثر مما ناله كل ضيف

وأمسك فاطو كأس الخمر بيده بكل اناقة ورشف ما فيها رشفاً وئيداً . وما أخذ نصيبه من الحلوى والفواكه ، حتى انتصب واقفاً على غرة من الحضور ، وقصد الى سيدته ، مدام مينيرا ، فربت على كتفها . وفاه بكلمة « ماما » يا ماه ، بصوت واضح . ثم قصد الى قارورة خمر أبيض من منتجات بردو ، وهو مشروبه المحبوب فشربها

وعندما قدمت القهوة الى الضيوف ، طلب الدكتور مينيرا السجائر ، فأسرع فاطو الى خزانتهِ فأخرج منها علبة من السيجار ورزمة من السيجارات ، وقدمها الى ضيوف سيده ، واحداً فواحداً ولم ينسَ ان يقدم الى كل منهم أيضاً القداحة ، ليشعل بها سيجاره او سيجارته. ثم تناول هو كذلك سيجارة وجلس على أريكة وبجانبهِ منفضة السجائر حيث جعل يدخن السيجارة ، متلذذاً بالتدخين . وما فرغ منها حتى اطفأ عقبها في المنفضة بكل حذر

وكان فاطو وقتئذٍ مرتدياً قميصاً فضفاضاً وبنطلوناً خفيفاً وحذاء من الخيش . ولفاطو حجرة خاصة محتوية على مائدة وكرسي هزاز وسرير ومشجب وحوض للاستحام . ويفتح فاطو الحنفية لتصب له الماء الذي يحتاج اليهِ ويقيس درجة حرارة الماء . ثم يستحمُّ ويجفف جسمه ويرتدي ثيابه كأنهُ انسان . وقد ابيح له ان يطوف بأرجاء دار سيده كيف شاء . وهو يفعل ذلك دون احداث اي تلف في اثاثها . ولكنه لا يدخل مخزن المؤونة بغير استئذان . ولا يعتقل في حجرته الاَّ في ساعات اشتغال سيده الطبيب بعلاج الحيوانات ، وذلك خشية خوفها منه

وعند انتهاء المأدبة ، بسط الدكتور مينيرا تجربته فقال ، ان تدريب فاطو ليس على غرار تدريب القرود التي تعرض في ملاعب الحيوانات (السرك) بل ان كل ما يستطيع الشيمبنزي فعله قد تعلمه فاطو ، من تلقاء نفسه . وان عائلة الطبيب مينيرا لم تتعب قط في تعليم ذلك القرد اذ هو يسلك ذلك السلوك كشيء معتاد لا على سبيل التمثيل . وان الطريقة التي اتبعت في تهذيبهِ ، لم تختلف عنها في تهذيب الطفل البشري

وقد تعلمَ كيفية فتح الابواب والادراج ، وفتح مفاتيح المصابيح الكهربائية وأسلوب استعمال الشوك والسكاكين ، بذكائهِ الفطري. وأما كلامه فلا يزيد على لفظ واحد وهو « ماما » الذي اقتبسهُ من ولدي سيده عن طريق التقليد . ويرى الدكتور مينيرا ان تلك الكلمة الفريدة ، أساس اللغات البشرية جميعها وانها تكاد توجد في لغات العالم أجمع . وهي أسهل لفظ يتاح للقرد التلفظ بهِ إذ هو يتولد بذاتهِ عند فتح الشفتين فتحاً مقروناً بالصوت مرتين متعاقبتين

عوض جندي

مكتبة المقتطف

مع ابي العلاء في سجنه

تأليف الدكتور طه حسين بك — صفحاته ٢٤٥ — طبع بمطبعة المعارف بمصر

أتاحت لي مطالعة هذا الكتاب النفيس لمؤلفهِ الاديب العظيم الدكتور طه حسين ، نهزة من نهزات الفن الرفيع والأدب العالي ، قلما تسنح للنفس في وسط ما يحيط بها اليوم من شواغل الحياة واحداث العالم المضطرب ، واني لأجد علاقة وثيقة بين هذه الشواغل والاحداث ، وبين موضوع الكتاب نفسه ، بل بينها وبين الفلسفة العلائية إطلاقاً ونفاذ نظرتها في السياسة والاجتماع ، فلا يذهب بنا الفكر قريباً او بعيداً في مشكلات أنفسنا وفيما يصطرع حولنا في العالم الذي نعيش فيهِ من مذاهب الاجتماع او السياسة ، حتى نذكر أبا العلاء ونذكر قوله :—

كلابٌ تغاوت اوتعاوت لجيفةٍ وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

فهذا الشاعر الضرير ، الذي فرضت القدرة على بصره سجن الظلام وفرضت روحانيته على نفسهِ سجن الدار ، وفرضت الحياة على روحه سجن الجسم ، هذا الشاعر المسكين ، المتفرد بأشد ألوان الألم ، وأقسى ضروب الحرمان ، لم تستطع سجونه الثلاثة هذه ان تفصله عن الحياة ، ولا ان تلقي حجاباً بينه وبين حقائقها ولا ان تعطل تفكيره بالعالم الذي يحيط به ، ولا ان تسلم احساسه بحركات الزمن ، الى النفوة والاضطراب

فلو انهُ كان المبصر المؤانس ، المندمج في الحياة أشد الاندماج ، المختلط بالناس اكثر الاختلاط ، المستغرق في دنياه بكل جوارحه ، لو انهُ كان هذا الرجل حقاً ، لما كان غير أبي العلاء نفسه الذي نقف منهُ اليوم ونعرفهُ باستقامة تفكيره وسلامة منطقه ونفاذ النظرة وصواب الحسية ، ولما غير هذا الافتراض من آرائه حكماً ولا زاد عليها رأياً ولما ظفرنا بأوضح من هذه الصور الرائعة التي رسمها عقله ، فأطلعنا بها على طبائع الناس وغرائزهم ، وأظهرنا بها على أخفى سرائرهم ، وأدق ميولهم ، وسيتجدد الليل والنهار دائماً دون ان نجد في يوم خلاف ما خاطب به هذا القطيع الخالد من البشر بقوله :—

يرتجي الناسُ ان يقوم امامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ
كذب الظن لا امام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساءِ
فاذا ما أطعتهُ جلب الرحمـــة عند المسير والارساءِ
انما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساءِ

تكلم الدكتور طه حسين في كتابه هذا عن هذه السجون الثلاثة التي لزمها شاعرنا الفيلسوف ، فأربى على الابداع ، وصورها اجمل تصوير وعلل فلسفة الزهد والتسامي التي آثرها أبو العلاء تعليلاً صادقاً، يرجع الى أصول من المنطق ، وأسباب من النفس ، وظروف كانت تلابس حياة الشاعر وقومه في ذلك العهد ، وتكلم الدكتور طه عن الايمان في نفس الشاعر ، وعن الشك الذي اضطربت به نفسه احياناً ذلك الشك الذي تلقي بعض اشعاره ظلالاً عليه ، فيمعن في الغموض والابهام وهو القائل : —

دنياكَ لو حاورتك ناطقةً خاطبتَ منها بليغةً لسنه
ليفعل الدهر ما يهم به إن ظنوني بخالقي حسنهْ
لا تيأس النفس من تفضله ولو أقامت في النار الف سنه

وهو القائل معترفاً متعبداً : —

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجدُّ كما جدوا وألهو كما لهوا
وأشهد اني بالقضاء حللتها وأرحل عنها خائفاً اتأله

فهذه الآراء وما يناقضها في مثل قوله : —

أفيقوا ، افيقوا ، يا غواة فانما دياناتكم مكر من الزعماء

قد افرد المؤلف لها حديثاً جامعاً احاط بقضيتها إحاطة دقيقة شاملة فقال(في نفس ابي العلاء اذن اسرار مكتومة قد طال ضنه بها ، وكتمانه لها ، فما عسى ان تكون هذه الاسرار ، أظن انها هذه المذاهب التي ينقدها أبو العلاء في اللزوميات مصرحاً مرة ، وملمحاً مرة ، ومحتاطاً دائماً ، وهو على كل حال يصطنع فيها التقية ، فقل انهُ يذهب في هذا مذاهب الشيعة ، أو قل انهُ يذهب في ذلك مذاهب كثير من الفلاسفة القدماء الذين كانوا يرون من العلم ما يباح للناس جميعاً ، ويرون منهُ ما لا يجوز الافضاء بهِ الا للاكفاء القادرين جميعاً على تلقيه وتحمله)

أما اللزوميات ، وما اصطنعهُ فيها ابو العلاء من التزام الجناس في الالفاظ وتشابه الحروف في الكلمات ، فقد كشف لنا المؤلف عن حقيقته ، وأبان لنا عن دوافعه وبواعثه ، فيما مهد بهِ لحياة الشاعر في اكثر فصول الكتاب وما كان يضيق بهِ من الفراغ والسأم والوحشة، فيفزع الى هذا الضرب من النظم تسلية ولهواً ، يصفهما المؤلف بأنهما لون من الوان العبث البريء فيقول « وربما اكتفى ابو العلاء أحياناً بالجناس المقارب الذي لا تشابه فيهِ الحروف كلها في الكلمتين وأنما يتشابه اكثرها ،ولو ان أبا العلاء عمد الى هذا الجناس في البيت بين حين وحين لكان هذا منهُ مستطرفاً مستحبًّا كشأنه في هذا العبث اللغوي او في ذلك العبث النحوي ولكنهُ يلتزمهُ في القصيدة كلها او في اكثرها والغريب انهُ اذا عمد الى هذا النوع من الجناس في

قصيدة ، طوّلها وتجاوز بها قدر المألوف في القصائد والمقطوعات في اللزوميات مبالغة في اظهار براعته وتفوقه وسيطرته على اللغة ، افتظنه لم يفعل هذا الاّ لانهُ أراد ان يروّض نفسه على الجهد في الانشاء ؟ كلاّ . بل هو قد فعل ذلك ليسلي نفسهُ ألم الوحدة وليهوّن عليها احتمال الفراغ ويشعرها ويشعر الناس بأنهُ قد ملك اللغة وسيطر عليها فهو قادر أن يسخّرها لما يشاء ويصرفها كما يريد ، ويعبث بها ان اراد العبث »

وأشهد ان هذا التعليل البديع الذي ساقه المؤلف في امتع سياق ، قد حبب اليَّ مراجعة اللزوميات وصرف عني الضيق بها والتمرد عليها ، وأشهد ان هذا التعليل قد عطف سمعي على رنين هذه الكلمات المصطنعة ، وأقنعني باستقراء هذا العبث المفيد الذي اكسب اللغة لوناً فريداً لم يكن لها حظ فيه لو ان الشاعر وجد تسليته في متع الحياة ولذاتها ، كما فعل بشار ، وفيما صنعهُ الخيام شاعر الفرس العظيم ، فأبو العلاء والخيَّام شاعران كانت لكل منهما فلسفة متقاربة المرامي غايتها استكناه أسرار الكون ، واستشراف المجهول من الحياة ، واستطلاع حقائقها ، ولكن القصور الانسانيّ ردّهما عن غايتهما ، وأشعرهما بالعجز وأورث كبرياء عقلهما حسرة وندامة ، فأما الخيَّام فقد انصرف الى متعة الحس انتقاماً من هذا الضعف والعجز ، فأقبل على الشراب واستمرأ لذة الجسد ، مع أنهُ المبصر المؤانس ،المشغوف بعجائب السماء ، وأما أبو العلاء ،وقد كان أحق منهُ بهذا الاتجاه، وحسب هذا الظلام الخالد الذي ضرب على حياته نطاقاً ان يثير فضوله لتذوق هذه المتع ويقوي فيه شهوة الانتقام ويدفعهُ الى جانب لين من الحياة ينسيه هذا الجفاء وهذا التيه المقفر الذي يضرب فيه ، فقد كان غير ذلك لأن روحه طغت على آدميته وكان غير ذلك أيضاً لأنهُ كان رجلاً خيراً بكل مافي هذه الكلمة من المعاني ، ولأنه كان يؤمن بفلسفته، ويؤثر الناس بحبها ، ويدعوهم ملوكاً وسوقة الى التفلسف في الحياة كما تخيَّل أفلاطون في جمهوريته ، ومع أن أبا العلاء قد أخذ على الناس خضوعهم لأحقادهم وشهواتهم الاّ أنهُ لم يأخذهم بالوعيد الكاذب كما قال المتنبي : —

ومن عرفَ الايامَ معرفتي بها وبالناسِ روّى رمحَهُ غير راحم

ولكنهُ التزم في دعوته طريق الفلاسفة وهدوء منطقهم واتزانه فقال : —

وأيُّ بني الأيام يحمد قائلٌ ومن جرَّب الأقوام اوسعهم ثلبا

ولو نظر الناس الى الحياة نظرة ابي العلاء في قوله : —

ولو اني حبيتُ الخلد فرداً لما احببتُ بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

لما كان هناك شاعر يقول كعروة الصعاليك : —

وإني لاستحي إلهيَ ان أرى اسيرُ وحبلي ليس فيه بعير
وان اسأل الخيس اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير

ولما ارتفعت منهُ هذه الصيحة النكراء : —

ذريني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرهمُ الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسبٌ وخيرُ
ويُقصيهِ النديُّ وتزدريه حليلتُه وينهره الصغيرُ
وتلقى ذا الغنى وله جلالٌ يكاد فؤادُ صاحبهِ يطيرُ
قليل ذنبه والذنب جمٌّ ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

وبعد ، فأني لأدعو مخلصاً الى الاحتفال بهذا الكتاب الثمين ، الذي أشعر ان نفس المؤلف تتكلم في كل حرف منهُ وأن روحه القوية المشرقة تندفع في كل عباراته ، ذلك أنها منبثقة من ينابيع عميقة ثرة ، مطلة من آفاق سحيقة رحبة ، هذه الينابيع العميقة والآفاق السحيقة ، لم تكن إلاَّ لأديب فذٍّ مطلع محب لأبي العلاء متجاوب معهُ انفرد دون أدباء جيله بالاحتفال بهذا الشاعر منذ سنوات بعيدة.

ولقد يبدو الدكتور طه حسين متطرفاً في بعض آرائه وأحكامه ذلك أنه رجل ثورة ، ورائد من روّاد الحركات الفكرية التي يدعو اليها تطور الحياة في الامم،ولكنهُ لا يبدو في هذا الكتاب إلاَّ منصفاً شديد الانصاف،قرأ أبا العلاء لأنهُ أحبَّه وقدَّره وكتب عنه لأنه أعجب به وآثره ، أحبه لأن الأدب العربي لم يجد مثال الصدق إلاَّ في أدبهِ،ولم يرفع منار الاستقلال في الرأي إلاَّ به ، وآثره لأن عظمة هذا الشاعر لم تكن إلاَّ دعة وتواضعاً ولم تكن فلسفتهُ سبيلاً الى نيل الشهرة ، وإصابة المنفعة ، ولكنها كانت حقائق مستمدة من الحياة التي زاولها وزهد فيها ، ومستمدة أيضاً من نفس الشاعر وذات تجاربه ولأنها مبنية على أصول من المنطق والمعرفة ، ولأن الشاعر قد جعل حياتهُ مثلاً على سمو هذه الفلسفة ودليلاً على إصالتها ، وبرهاناً على صدقها

ولو أني قلت ان هذا الكتاب من أعظم ماظهر في انتاجنا الادبي هذا العام ، لما تعديت القول انهُ من أعظم المؤلفات الحديثة ، ان لم يكن أرفعها مثالاً وأنبلها غاية ، وأوسعها تحليلاً واستقراء لشخصية شاعر من أعظم شعراء العربية وأكبر فلاسفتها ، ولم يكن لها غير الدكتور طه حسين ليقدم ويسبب ويستخرج هذه النتائج منها

علي محمود طه

قواعد العربية الفصحى

٥١٤ من القطع الكبير — باريس ١٩٣٧ (ظهر في ١٩٣٩)

Grammaire de l'Arabe classique, par Gaudefroy Demombynes et R. Blachère
Librairie Orientale et Américaine, G. P. Maisonneuve, Paris.

صاحبا هذا الكتاب من اساتذة المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس : احدهما اسمه جودفروا دوماميين وعليه كان بعض تأدبي في السربون — حفظه الله، والآخر اسمه بلاشير وهو مؤلف كتاب نفيس في ابي الطيب المتنبي قد سبق لي ان عرضته على قراء هذا الباب من المقتطف

ان للفرنجة طائفة من المصنفات في قواعد العربية . ورأس هذه المصنفات كتاب دي ساسي De Sacy ، واليه رجع من عرض لذلك الفن وكتب فيه . ولكن علم اللغة خرج من حال الى حال في مختتم المائة التاسعة عشرة بفضل اجتهاد اهل اللسان بعد أن نشروا اطراف البحث على فصائل اللغات المختلفة من هندية — اوربية وسامية . فألف العالم الالماني سوسين Socin كتاباً في القواعد العربية اجراه على منهج علم اللغة الحديث ، وأعاد بروكلمن طبع الكتاب . وهذان مستشرقان من مستشرقي فرنسة يخرجان القواعد العربية بلغتهما مستظهرين بأصول علم اللسان ، مع زيادة في شرح المسائل وعناية بالترتيب والتفصيل مما يقرب منال احكام العربية لطلابها . والقواعد على قسميها المشهورين : الصرف والنحو . ففي الصرف قدم المستشرقان النطق بالحرف على رسمه ، وفي النحو وقفا عند عرض المسائل من طريق الاستشهاد بالفصيح وعدًّا الفصيح من المائة الاولى للهجرة حتى آخر المائة الرابعة . فاستشهدا فيما استشهدا به بالقرآن والحديث الصحيح وكتب الجاحظ وابن قتيبة والأمالي للقالي ، ثم انهُ بدا لهما ان يستشهدا بعد ذلك بمقدمة ابن خلدون على سبيل الاستثناء . هذا وانهما استعانا بما الفه المستشرقون من قبل في ذلك الفن ، فأثبتا ذلك في درج المصادر

وهذا الكتاب جليل الفائدة حسن الترتيب واضح المسلك طويل النفَس . على اني اصبت فيه ما لا بدَّ من الاشارة اليه ، وان كان ما اصبته حقير الشأن . واليك بعضه :

١ — في رسم الشواهد — في صفحة ٥٨ : شكي ، والوجه : شكا — بِنت حسنة . . . ، والوجه : بِنت — هذا وهل لي ان أسأل المؤلفين لم لا يستعملان علامة الاستفهام في العربية اذا ما استعملاها في الفرنسية للنص المترجم ؟ (ص ٣١٢ — ٣١٣). ان علامات الترقيم للميسرة

٢ — في ترجمة الشواهد — ص ٢٤٨ : النص العربي : « قد خلقنا فوقكم سَبْعَ طرائق » (القرآن س ٢٣ آ ١٧) فجاء في النص الفرنسي : « عليكم » بدلاً من فوقكم sur vous ولعل الوجه au-dessus de vous — ص ٢٧٤ : النص العربي : « أراني أعصر خمراً »

(القرآن س١٢ آ ٣٦). فجاء في النص الفرنسي: «أراني أدوس خمراً (أي عنباً لا صنع منه خمراً)»
je me vois (en songe) en train de fouler (du raisin pour faire) du vin.
والوجه : en train de presser du vin (du raisin).. والخمر هنا العنب وسمي العنب خمراً باعتبار مايؤول اليه، على ماهو مشهور

— ص ٣٣٠ : النص العربي : بالامس — وجاءت الترجمة : «أمس» hier. ولعل الوجه naguère (ou jadis) أي فيما مضى

— ص ٣٦٤ النص العربي : «هو كبير جداً» — fort gros. ولعل الوجه fort grand او نحو ذلك

٣ — في احكام القواعد — ص ٢٧٣ : لم يفرق المؤلفان بين «ودّ أن» و «ودّ لو» فان التعبير الاول يفيد : أحب أنّ، على حين أن في التعبير الثاني معنى التمني (راجع لسان العرب ج ٤ ص ٤٦٨ س ٤ و ١٢ و ١٤).

— ص ٢٧٣ أيضاً : أهمل المؤلفان ورود «قال» بالباء

— ص ٢٧٣ أيضاً : قال المؤلفان إنّ كاد إذا سبقها نفي فهي انما تدل على المقدرة والقوة. والصواب أن كاد اذا سبقها نفي دلت على نفي مقاربة (كما في المفصّل للزمخشري مصر ١٣٢٣ ص ٢٧١) أو على الفعل بعد إبطاء (كما في رواية صاحب المصباح المنير) مادة ك ا د عن الازهري)

وبعدُ فالكتاب فوق أن يبيّنه مثل هذه المآخذ وهو حقيق بأن يستضيء به الطالب ويستأنس العالم

بشر فارس

الشعراء اليهود العرب

٢٣٧ صفحة من القطع الكبير : مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

للاستاذ مراد فرج شاعر الاسرائيلية العربي في العصر الحديث ولعٌ باللغة وبحوثها والتعمق في فقهها، ولهذا الولع اثر بارز في شعره الرصين، وهذا نتيجة اشتغاله بمعجمه الكبير «ملتقى اللغتين . العربية والعبرية» الذي اصدر منهُ ثلاثة مجلدات ضخمة آخرها في العام الماضي وهو قائم الآن بطبع المجلد الرابع منهُ علاوة على مؤلفاته العديدة التي تبلغ ثلاثة وعشرين مؤلفاً في اللغة والادب والقانون والدين . كما اصدر من شعره اربع مجموعات

وقد أخرج في العام الماضي امثال سليمان منظومة شعراً ومشروحة ومفسرة وقد قصد في ذلك التوفيق بين النص العبريّ للامثال وما يقابله في اللغة العربية فاجتهد ان تكون الكلمة هي هي في اللغتين او من عين المادة بقدر المستطاع وبقدر ما سمح بهِ النظم

ثم قام في هذا العام باخراج الطبعة الثانية من كتابهِ «شعراء اليهود العرب» بعد أن أضاف

اليها ديوان ابن سهل الاندلسي وتولى شرح كل لفظة شرحاً وافياً ، وقد ناقش في اثناء الكلام عن السموأل القصيدة التي سبق ان نشرت في مجلة المشرق وقيل أنها لهذا الشاعر والتي شكّ المقتطف (١٩٠٦ ص٤٠٤) ومرجليوث في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية(١٩٠٦ ص ٣٦٣) في نسبتها الى السموأل فجارى هذا الرأي مؤيداً ذلك بكثيرمن البراهين

والكتاب مصدر بمقدمة للدكتور اسماعيل احمد ادهم عرض فيها للصلات التي قامت بين العرب واليهود وهجرتهم الى الحجاز وتكاثرهم فيهِ على اثرقيام الثورة الكبرى ضد طبقة الحكام من الرومان وقيام هؤلاء بقمع تلك الثورة ، وانتهى منهُ الى الكلام عن شرح المؤلف لشعر السموأل فقال انهُ « شرح شعر الرجل شرحاً لغويًّا دقيقاً يتضافر فيهِ العلم الواسع بمفردات اللغة والذوق الشعري والادراك لأسرار النظم العربي مما لا يترك مجالاً لباحث آخر في هذا الباب على ان شعر السموأل غير مطروق في هذا الكتاب من الناحية الفنية من حيث يدل هذا الشعر على اصل ثابت في نفس الرجل وقريحة ذات نمط خاص ، ووجدان يفيض بصور الشعر وذلك لان مؤلفه عالم لغوي يغلبهُ روح التحليل اللفظي والتدقيق في شكل القصيدة مما يجعله يصرف النظر عن استقراء الروح الشعرية القائمة وراء الجسم المادي للقصيدة . واذا كانت كل قصيدة شعر تخفي وراء جسمها المنظور حالة نفسية غير منظورة فوظيفة النقد العليا هي الكشف عن هذه الحالة النفسية والنزول بها الى الاصل الثابت من نفسية الشاعر »

وهذا الكتاب ولو انهُ اقتصر على الشرح اللغوي فهو مجهود مشكور على الوحدة الظاهرة فيهِ وهو أساس بعد ذلك للدارسين والباحثين

الصيرفي

نداء المجهول — لمحمود تيمور

منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٣٩

هي قصة جديدة للاستاذ محمود بك تيمور نشرتها له دار مجلة المكشوف في بيروت رغبةً في تمكين الصلة الادبية التي بين القطرين الشقيقين . والقصة مما لم يسبق للاستاذ تيمور ان ينسج على منوالها نسجاً متواصلاً في كتاب تام قائم برأسه . وبيان ذلك ان الاستاذ تيمور عدل في هذه القصة عن الطريقة الواقعية التي اشتهر بها عدولاً وراح تستهويه الطريقة التخيلية Romanesque على حدّ ترجمة صديقنا الدكتور بشر فارس . فقد كتب صديقنا في مقتطف يوليو الماضي كلمة في قصة تيمور السابقة وهي « فرعون الصغير » فدلّ على نهضة هذه الطريقة الاخيرة عند تيمور . ثم كتب في مجلة « الرسالة » (٦ / ١١ / ١٩٣٩ رقم ٣٣١) بحثاً طريفاً في « نداء المجهول » فصل فيه اللون التخيلي وميزه من اللون الرمزي :

قال : « واللون التخيُّلي يجري الى سرد الحوادث النوادر و «المغامرات» (كما نقول اليوم في مصر adventures) والى وصف العوالم التي تبهت العقل والى الكشف عن آفاق تضطرب فيها الأسرار والألغاز ، كل ذلك رغبة في الفرار مما نعرفه ونلمسه ونؤمن به ، كل ذلك إرادةَ أن تلبّي النفس نداءً يأتيها من وراء حجب. هذا وبين التخيليَّة والرمزية المستحدثة وشائج من جهة ذلك الفرار من العالم المبذول لنا . غير أن هذه تتشبث بما يجول في النفس خفية فتبرزه عزمات وتصوّرات وانفعالات ، ثم تستخرج ما وراء الحس وتدون ما يهجم على القلب ويرد على الوهم وذلك من طريق التمثيل ، وانتزاع الصور من الأشكال والهيئات، واستنباط المطابقات والمقابلات والاضافات مما يجري مجرى الموازنة البعيدة أو القريبة بين الحيّ والجامد . وجملة القول أن التخيليّة تتناول الخارجيات من بلدان نائية وغرائب مستملحة وحوادث اخّاذة ، على حين ان الرمزية المستحدثة تركز اوتادها في وادي المضمرات والسوانح وما يلي المادة المباشرة»

والقصة تجري حوادثها في لبنان ، في قرية من قراها المطمئنة ، وأبطالها مصري (وهو المؤلف) وانجليزية ونفر من اللبنانيين . وهي قائمة على فكرة تلحق بعلم النفس مجملها ان النفس الرقيقة لا بدّ لها ان تضحي وان تلبي دعوة بعيدة خفية . وحوادث القصة من محض الخيال ولكن من غير إسراف ولا إغراب ، ولغتها سليمة بسيطة لا تكلف فيها ولا توثب .

وبالجملة ان قصة الاستاذ تيمور حقيقة بأن يطالعها من يرتاح الى دقائق الفن ويود ان يفر لحظة من هذا العالم ليطير في آفاق البطالة والغرابة

مصر الغد

تاليف محمود كامل المحامي — صاحب مجلة الجامعة — صفحاته ١٣٠ قطع صغير

هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القدر يحتوي على نواة برنامج للاصلاح الاجتماعي والسياسي في مصر المستقلة . وضعه مؤلفهُ على لسان الشباب المصري المثقف . فهو دراسات اجتماعية سياسية في قواعد برنامج للاصلاح العام في عهد مصر الجديد الذي بدأ منذ توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا

في الكتاب نقد شديد لشتى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر . والنقد قائم على تحقيق دقيق للاحصاءات الرسمية. واتصال وثيق بأعمال الحكومة . ولكنه لا يقف عند حدّ النقد بل يتعداهُ الى اقتراح طرق عملية للاصلاح قد لا يوافقهُ عليها كلُّ قارىء ولكن لها ميزة الوضوح والحسم على الاقل وهي في رأيه محور وسائل الاصلاح التي تدور في ذهن الشباب المصري

هنا بحث في حالة الفاقة في مصر وأسبابها ، وصلتها بالاجرام . فانتشار الفاقة في مصر شيء يهول كل باحث لهُ متسع من الوقت للتنقيب كما نقّب الاستاذ محمود في جداول الاحصاء

وعنده ان هذه الحالة المزرية تجعل ملايين من المصريين « عبيد القرن العشرين » على حدّ قوله في احدى فقراته. وهنا بحث ايضاً في شركات الاحتكار وتحكمها وما يجب على الحكومة حيالها. والتعليم العالي في الجامعة يفوز بقدر غير يسير من عنايته ومن مسائله انتخاب العمداء وما يحيط بها من نواح تجعل العميد مقيّداً في القيام باعباءِ منصبهِ على الوجهِ الذي يرتضيهِ ضميره العلمي. ومنها عيادات الاطباء الاساتذة في كلية الطب ووجوب اقفالها

ومما يقترحهُ تعديل الدستور المصري وقانون الانتخاب تعديلات من شأنها ان تفسح المجال في الشركات الكبرى للشباب المصري وذلك بتحتيم جعل مكاتباتها التجارية باللغة العربية. وتطعيم النظام النيابي بدم جديد وذلك باعفاء المرشحين حاملي الشهادات العليا من شرط التأمين المالي وأن يضاف الى عدد الاصوات التي ينالها هؤلاء المرشحون ربع الاصوات الصحيحة

ومن الطبيعي ان لا يلقي المؤلف مقترحاتهِ جزافاً بل هو يؤيدها بالحجة

والمهم في نظرنا الاهتمام بكل ما يكتب في موضوع الاصلاح الاجتماعي والسياسي، لأنَّ الكتّاب هم الروّاد الذين يهيئون الرأي العام ويرشدونهُ فاذا تكوَّن هذا الرأي العام ونضج فالاصلاح لا يتأخر بعد ذلك كثيراً

من أدب الفراعنة

بقلم محمد صابر — صفحاته ٣٢٦ من القطع المتوسط — طبع بمطبعة حليم بمصر

يسعى الاستاذ محمد صابر في جميع مؤلفاته لنشر المعارف والثقافة المصرية القديمة بين ابناء العربية فقد سبق له ان أخرج «صفحات من حياة الفراعنة ومصر تحت ظلال الفراعنة» واليوم يتحف العالم العربي والقصة المصرية بكتابه الجديد « من أدب الفراعنة » وهو يعد الاول من نوعه في اللغة العربية أوضح فيهِ مؤلفه الأديب منزلة الفراعنة في الادب وأدبهم النظيم وفضلهم على القصة والشعر والنثر

وفي هذا المؤلف عشر قصص مأخوذة من أوراق البردي وهي قصص مصرية بحتة مشوقة السياق تظهر لك عادات الفراعنة وأخلاقهم والاحتفالات في عهدهم وقد اعجبنا بقصة الامير الهالك وبأسلوبها ونأمل ان يوفق المؤلف في البحث عن بقية هذه القصة الممتعة مكتوبة في مدرج بردي آخر او منقوشة في احدى المقابر لنعرف الى اي حد وصل خيال المصري في نسج القصة وتصوير وقائعها. وفيهِ بعض الأغاني التي تعبر عن مشاعر الشباب والاغاني الشعبية التي تلقى في الحفلات مع عزف الموسيقى وتسمى « نشيد العازف » وبعض نماذج من الرسائل المتداولة في ذلك العهد والحكم والنصائح.. والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد ومزين بصور كثيرة وهو تحفة ادبية مختارة تشهد للمؤلف ببراعته ودقة بحثهِ وحسن اختياره

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس والتسعين

